

المهذب

في عوامل النصر والهزيمة

جمع وإعداد
الباحث في القرآن والسنة
علي بن نايف الشحود

الطبعة الأولى

١٤٣٣ هـ ٢٠١٢ م

حقوق الطبع لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام وعلى سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد:

فإنَّ للنصر عوامله وأسبابه، وكذلك فإنَّ للهزيمة عواملها وأسبابها، وهذا الكون قد أقامه الله تعالى على الأسباب المسببات ..

وقد وردت تفاصيل في القرآن والسنة عن هذا وذاك

والأمة المسلمة بحاجة لمعرفة أسباب النصر لكي تأخذ بها في مواجهة أعدائها الذين يتربصون بها الدوائر، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢] وكذلك معرفة أسباب الهزيمة لكي تتباعد عنها ...

قال تعالى عن الأولى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إن تنصروا دين الله بالجهاد في سبيله، والحكم بكتابه، وامتنال أوامره، واجتنب نواهيه، ينصركم الله على أعدائكم، ويثبت أقدامكم عند القتال.^١ وقال عن الثانية: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]

والتزموا طاعة الله وطاعة رسوله في كل أحوالكم، ولا تختلفوا فتتفرق كلمتكم وتختلف قلوبكم، فتضعفوا وتذهب قوتكم ونصركم، واصبروا عند لقاء العدو. إن الله مع الصابرين بالعون والنصر والتأييد، ولن يخذلهم.^٢

وقد سبق لي أن كتبت كتاباً في هذا الموضوع بعنوان "المفصل في عوامل النصر والهزيمة"^٣

وفي هذا الكتاب قمت بمراجعة الكتاب وتوثيق النصوص وإضافة نصوص جديدة أخرى

وقد قسمته لثلاثة أبواب وهي:

الباب الأول = شروط الاستخلاف والتمكين في هذه الأرض

الباب الثاني = عوامل النصر الخاصة في القرآن والسنة، وقد وصلت إلى تسعين عاملاً

الباب الثالث = عوامل الهزيمة الخاصة في القرآن والسنة، وقد وصلت إلى نيف وأربعين عاملاً

^١ - التفسير الميسر (١/ ٥٠٧)

^٢ - التفسير الميسر (١/ ١٨٣)

^٣ - انظره في مكتبة صيد الفوائد وغيرها

هذا وقد قمت بتفسير الآيات القرآنية من أمهات كتب التفسير، كالطبري والقرطبي وابن كثير والرازي وأضواء البيان والظلال، والتفسير القرآني بالقرآن وتفسير السعدي والشعراني وغيرهم.. وقمت بتخرج الأحاديث من مصادرها الرئيسة والحكم عليها جرحاً وتعديلاً بما يناسبها، مع شرح الغريب....

أسأل الله تعالى أن يجعله عاملاً من عوامل النصر، وأن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره والذال عليه في الدارين.

قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) } [الصفات]

كتبه وأعدده

الباحث في القرآن والسنة

وعضو الهيئة العامة لعلماء المسلمين في سورية

علي بن نايف الشجود

في ١٧ ربيع الثاني ١٤٣٣ هـ الموافق ل ١٠/٣/٢٠١٢ م



الباب الأول

شروط الاستغلاف والتمكين في هذه الأرض

١ - الدلالة اللغوية لكلمة "التمكين":

"التمكين" مصدر للفعل مَكَّنَ وهو من مزيد الثلاثي والأصل "مكن" وقد وردت مادة "مكن" في كتب اللغة ولم تخرج عن أصل وضعها، قال الجوهري: ("مكن" مكنه الله من الشيء وأمكنه منه بمعنى، واستمكن الرجل من الشيء وتمكن منه بمعنى، وفلان لا يمكنه النهوض: أي لا يقدر عليه.

والمَكْنُ: بيض الضب.. قال الكسائي: أمكنت الضبة جمعت بيضها في بطنها) ^٤

وقال صاحب اللسان: ((مكن) المَكْنُ والمَكْنُ بيضُ الضَّبَّةِ والجرادة ونحوهما قال أبو الهندي واسمه عبد المؤمن بن عبد القدوس ومَكْنُ الضَّبَابِ طعامُ العُربِ ولا تشتهيه نفوسُ العجمِ واحدته مَكْنَةٌ ومَكْنَةٌ بكسر الكاف وقد مَكِنَتِ الضَّبَّةُ وهي مَكُونٌ وأمكنت وهي مُمَكِّنٌ إذا جمعت البيض في جوفها والجرادة مثلها الكسائي أمكنت الضبّة جمعت بيضها في بطنها فهي مَكُونٌ وأنشد ابن بري لرجل من بني عُقيل أراد رفيقي أن أصيدهُ ضِبَّةً مَكُونًا ومن خير الضَّبَابِ مَكُونُها وفي حديث أبي سعيد لقد كنا على عهد رسول الله ﷺ يُهْدَى لأحدنا الضبّة المَكُونُ أحبُّ إليه من أن يُهْدَى إليه دجاجةٌ سمينة المَكُونُ التي جمعت المَكْنُ وهو بيضها يقال ضبة مَكُونُوضبٌ مَكُونٌ ومنه حديث أبي رجاء أيما أحبُّ إليك ضِبْمَكُونٌ أو كذا وكذا؟ وقيل الضبّة المَكُونُ التي على بيضها ويقال ضِبَابٌ مَكَانٌ قال الشاعر وقال تعلّم أنها صَفْرِيَّةٌ مَكَانٌ بما فيها الدُّبِّي وجنادبُه الجوهري المَكْنَةُ بكسر الكاف واحدة المَكِنِ والمَكِنَاتِ وقوله ﷺ أَقْرُوا الطير على مَكِنَاتِها ومَكِنَاتِها بالضم قيل يعني بيضها على أنه مستعار لها من الضبة لأن المَكِنَ ليس للطير وقيل عنى مواضع الطير والمَكِنَاتِ في الأصل بيض الضَّبَابِ قال أبو عبيد سألت عدّة من الأعراب عن مَكِنَاتِها فقالوا لا نعرف للطير مَكِنَاتٍ وإنما هي وَكِنَاتٍ إنما المَكِنَاتُ بيض الضَّبَابِ قال أبو عبيد وجائز في كلام العرب أن يستعار مَكْنُ الضَّبَابِ فيجعل للطير تشبيهاً بذلك كما قالوا مشافر الحبش وإنما المشافر للإبل وكقول زهير يصف الأسد لدى أسدٍ شاكِي السِّلَاحِ مُقَدِّفٍ له لِبْدٌ أظفاره لم تُقَلِّمْ وإنما له المخالبُ قال وقيل في تفسير قوله أَقْرُوا الطير على مَكِنَاتِها يريد على أمكنتها ومعناه الطير التي يزرع بها يقول لا تَزْجُرُوا الطير ولا تلتفتوا إليها أَقْرُواها على مواضعها التي جعلها الله لها أي لا تضر ولا تنفع ولا تَعْدُوا ذلك إلى غيره وقال شمر الصحيح في قوله على مَكِنَاتِها إنما جمع المَكْنَةُ والمَكْنَةُ التمكن تقول العرب إن بني فلان لذوو مَكْنَةٍ من السلطان أي تمكن فيقول أَقْرُوا الطير على كل مَكْنَةٍ ترونها عليها ودعوا التطير منها وهي مثل التَّبْعَةِ مِنَ التَّبَعِ

^٤ - الصحاح (٢٢٠٥/٦).

والطَّلْبَةُ من التَّطَلُّبِ قال الجوهري ويقال الناس على مَكَائِهِمْ أي على استقامتهم قال ابن بري عند قول الجوهري في شرح هذا الحديث ويجوز أن يراد به على أُمُكِنَتِهَا أي على مواضعها التي جعلها الله تعالى لها^٥

وقال صاحب المفردات عند مادة "مكن": (المكان عند أهل اللغة: الموضع الحاوي للشيء، وعند بعض المتكلمين أنه عرض، وهو اجتماع جسمين حاوٍ ومحوي، وذلك أن يكون سطح الجسم الحاوي محيطاً بالحوي، فالمكان عندهم هو المناسبة بين هذين الجسمين. قال: {مكاننا سوى} [طه/٥٨]، {وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا} [الفرقان/١٣] ويقال: مكنته ومكنت له فتمكن، قال: {ولقد مكناكم في الأرض} [الأعراف/١٠]، {ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه} [الأحقاف/٢٦]، {أو لم نمكن لهم} [القصص/٥٧]، {ونمكن لهم في الأرض} [القصص/٦]، {وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم} [النور/٥٥]، وقال: {في قرار مكين} [المؤمنون/١٣]. وأمكنت فلانا من فلان، ويقال: مكان ومكانة. قال تعالى: {اعملوا على مكانتكم} [هود/٩٣] وقرئ: {على مكاناتكم} (وبها قرأ شعبة عن عاصم. انظر: الإتحاف ص ٢٦٠)، وقوله: {ذي قوة عند ذي العرش مكين} [التكوير/٢٠] أي: متمكن ذي قدر وميزة. ومكنات الطير ومكناتها: مقارها، والمكن: بيض الضب، و {بيض مكنون} [الصافات/٤٩]. قال الخليل (العين ٣٨٧/٥): المكان مفعول من الكون، ولكثرته في الكلام أجري مجرى فعال (وهذا النقل عن التهذيب ٢٩٤/١٠).

وقال ثعلب: يبطل أن يكون مكان فعلا؛ لأن العرب تقول: كن مكانك، وقم مكانك، واقعد مقعدك. فقد دل هذا على أنه مصدر من (كان) أو موضع منه. انظر: اللسان (مكن)، فقيـل: تمكن وتمسكن، نحو: تمزّل^٦.

ومما سبق نخلص إلى أن مادة الكلمة قد استعملت بمعانٍ عديدة متقاربة لا تخرج عن أصل الاستعمال فقد استعملت بمعنى القدرة على الشيء والظفر به، وكذلك بمعنى السلطان والقدر والميزة.

٢ - التمكين في اصطلاح القرآن الكريم:

وردت كلمة "التمكين" في القرآن الكريم باشتقاقها ثماني عشرة مرة، ولم يحدد لها القرآن اصطلاحاً خاصاً بل استعملها في المعاني التي ذكرت معاجم اللغة، وباستقراء الآيات التي وردت فيها اشتقاقات الكلمة يتبين لنا أن القرآن استعمل الكلمة على سبعة معانٍ هي الآتي:-

أولاً: التمكين بمعنى الملك والسلطان:

^٥ - لسان العرب - (ج ١٣ / ص ٤١٢)

^٦ - مفردات ألفاظ القرآن - نسخة محققة - (ج ٢ / ص ٣٨٢)

قال - جل ذكره - في شأن ذي القرنين: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا} (٨٤) سورة الكهف، قال ابن كثير رحمه الله: أَيُّ أَعْظَمَ مُلْكًا عَظِيمًا مُمَكَّنًا فِيهِ مِنْ جَمِيعِ مَا يُؤْتَى الْمُلُوكِ مِنَ التَّمَكِينِ وَالْجُنُودِ وَآلَاتِ الْحَرْبِ وَالْحِصَارَاتِ وَلِهَذَا مَلَكَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ مِنَ الْأَرْضِ وَدَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ وَخَضَعَتْ لَهُ مُلُوكُ الْعِبَادِ وَخَدَمَتْهُ الْأُمَمُ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ^٧.
ومن هذا القبيل قوله - تعالى -: {الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} (٤١) سورة الحج، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره: (أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينافيهم، ولا معارض)^٨.

ثانياً: التمكين بمعنى المتزلة عند الملك:

قال تعالى في شأن يوسف - على نبينا وعليه الصلاة والسلام -: {وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ اِسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} (٥٤) سورة يوسف، وقال تعالى في جبريل عليه السلام: {ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} (٢٠) سورة التكوين، وكذلك قال تعالى في شأن يوسف - على نبينا وعليه الصلاة والسلام -: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} (٥٦) سورة يوسف، ويفسر هذا التمكين أنه نصيب من الملك ومترلة ذات قدر عند الملك قوله تعالى في آخر السورة على لسان يوسف - على نبينا وعليه الصلاة والسلام -: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} (١٠١) سورة يوسف.

ثالثاً: التمكين بمعنى التهيئة:

قال تعالى: {وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (٥٧) سورة القصص أي ألم نجعل حرمًا ذا أمن^٩.

وقال تعالى في شأن يوسف - على نبينا وعليه الصلاة والسلام -: {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (٢١) سورة يوسف، أي جعلنا هذا مقدمة وتهيئة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق^{١٠}.

رابعاً: التمكين في نعم الدنيا ومعاشها:

^٧ - تفسير ابن كثير - (ج ٩ / ص ٢٢٥)

^٨ - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٥٣٩)

^٩ - انظر فتح القدير (٤/١٧٩).

^{١٠} - انظر تفسير الكريم الرحمن (٤/١٥).

قال تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّانَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} (٦) سورة الأنعام. وقال تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} (٢٦) سورة الأحقاف، قال ابن كثير: رحمه الله: يقول تعالى ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد وأعطيناهم منها ما لم نُعطِكم مثله ولا قريباً منه "١١".

خامساً: التمكين للدين:

وهو يعني القدرة على مزاولة شعائره في أمن وإظهارها دون منازع أو مشوش، قال _تعالى_ في سورة النور: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (٥٥) سورة النور.

سادساً: التمكين بمعنى الظفر:

قال تعالى: {وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (٧١) سورة الأنفال، فأمكن بمعنى أظفر وأقدر ١٢.

سابعاً: التمكين بمعنى الثبوت والاستقرار:

قال تعالى: {أَلَمْ نُخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١)} [المرسلات/٢٠، ٢١]. أي ثابت مستقر.

٣ - وعد القرآن بالتمكين لدعوة الحق:

الوعد بالتمكين لدعوات المرسلين وأتباعهم من المؤمنين استفاضت به آيات التنزيل وكادت لا تذكر تحدياً بين الحق والباطل أو صراعاً أو دولة دالت بأتباع الحق إلا وتعقبت ذلك الحال بالطمأنينة بأن العاقبة للمتقين والنصر للمرسلين والغلبة للمؤمنين، قال سبحانه وتعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦)} سورة الأنبياء.

١١ - تفسير ابن كثير - (ج ١٥ / ص ٢٦٢)

١٢ - راجع لسان العرب (٤١٥/١٣).

قال أكثر أهل التفسير: أي كتب الله ذلك عنده في اللوح المحفوظ وهو الذكر وجزم به _ سبحانه _ بعد ذلك في "الزبور" وهو اسم جنس للكتاب المنزل على الأنبياء من التوراة والإنجيل والقرآن وما هو من جنسها.^{١٣}

فالوعد إذن بالتمكين مؤكد غاية التوكيد مجزوم به من الله _ سبحانه وتعالى _ في أم الكتاب عنده وفي سائر كتبه المنزل، ولقد تكاثرت الآيات وتظاهرت على توكيده كذلك في القرآن الكريم، قال تعالى: { ولقد سبقتْ كلمتنا لعبادنا المرسلين (١٧١) إنهم لهم المنصورون (١٧٢) وإن جندنا لهم الغالبون (١٧٣) } [الصفات/١٧١-١٧٤]، وقال سبحانه وتعالى: { إنا لننصرُ رُسُلنا والَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } (٥١) سورة غافر، وقال سبحانه: { إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلَى (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) } [المجادلة/٢٠، ٢١]، وقال سبحانه: { وقال الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) } [إبراهيم/١٣، ١٤].

والوعد بالتمكين يأتي أحياناً في الذكر الحكيم مجزوماً به ولكن يذكر فيه الرسل فقط، وأحياناً يُذكر الرسل والمؤمنون في سياق بعض آيات الوعد بالتمكين أو النصر، وتارة ثالثة يفرد ذكر المؤمنين فقط في سياق الآيات، ولا إشكال في ذلك أو عظيم تباین فالوعد للرسل ينسحب كذلك على المؤمنين باعتبار أن الرسل لا يمكن أن يجاهدوا أو يمكنوا إلا في اتباع من المؤمنين وكذلك الوعد للمؤمنين ينسحب على الرسل باعتبارهم من أهل الإيمان.

٤ - وعد الرسل بالتمكين ومزاياه:

إننا نلاحظ في القرآن مجيء الوعد بالنصر والغلبة والعاقبة والتمكين المذكور فيه الرسل أكثر وأكثر — بمؤكدات لفظية ظاهرة ومعنوية — من الوعد بالتمكين والنصر المذكور فيه المؤمنون فقط، وما ذاك إلا أن دعوات الرسل خصوصاً من أمر منهم بقتال فلا يمكن أن يغلبه أعداؤه أبداً ألبتة بل النصر مجزوم به له ولأتباعه وهم الغالبون القاهرون، قال تعالى: { كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } (٢١) سورة المجادلة . وهنا أكد الله سبحانه وتعالى غلبة الرسل بمؤكد ما بعده مؤكداً فقد عطف الرسل على ذاته العلية ((أنا)) فتأكدت الغلبة كل تأكيد فالله معهم وهو غالب لا يغلب سبحانه، والتحقيق أن الأنبياء الذين ذكر القرآن أن أقوامهم قتلوهم أنهم لم يكونوا في قتال.^{١٤}

^{١٣} - راجع تفسير ابن كثير (٢١٠/٣).

^{١٤} - راجع بيان ذلك والاستدلال عليه في تفسير أضواء البيان (٨٢٤/٧).

أما من قاتل منهم فإنه لا يتصور بحال ولا يليق بحال العزيز القهار ذي الانتقام أن يكلف ويرسل رسولاً ويأمره بقتال ثم يقتل وهو لم ير ما وعد من نصر والآية المذكورة شاهدة في هذا المعنى بذلك. ومما يلحظ كذلك أن الآيات التي جاء فيها الوعد بالتمكين ونحوه وذكر لفظ الرسل فيها فهي في الغالب تجزم بالوعد دون تعليقه على أي عمل أو شرط أو تقديم يتقدم به الرسل لينالوا الوعد ويتحقق لهم؛ بينما الآيات التي يذكر فيها الوعد بالتمكين ونحوه للمؤمنين يعلق الوعد بالتمكين أو النصر أو نحوهما بأعمال وأحوال إذا هي تحققت تحقق لهم متعلقها من الموعود به من النصر والتمكين، وذلك أن الرسل على صلة مباشرة بالوحي فلا حاجة لتنبيههم لحالة أو صفة ليتحلوا بها وهم قد تحلوا بالصفات المؤهلة لنيلهم النصر منذ تأهلوا واستحقوا أن يكونوا موضع رسالات الله سبحانه وتعالى، وكذلك فهم لصلتهم المباشرة بالوحي وعناية الإله ورعايته لدعوتهم، لا يمكن أن يخطئوا الطريق أو يعيشوا عن عوامل النصر وأسباب تحقق الوعد بالتمكين.

٥ - وعد المؤمنين بالتمكين ومزاياه:

إنَّ أهل الإيمان من بعد الرسل فإنهم لا يلبثون بين فينة وأخرى حتى يقصروا عن أسباب النصر، وعوامل التمكين، أو يبحثون عنها أحياناً، ويخطئون الطريق إليها أحياناً، أو تفقد منهم صفات وأحوال هي حتمية لنيل النصر وإحقيق وعد الله لهم بالعاقبة، ولذلك جاء الوعد بالتمكين لهم معلقاً بصفات وأعمال وتقدمات يجب أن يحققها أهل الإيمان ليتحقق لهم وعد النصر والتمكين.

وإليك الآيات في ذلك فهي ظاهرة الدلالة واضحة في ترتيب الوعد لهم وتعلقه بأمور عدة بخلاف ما سبق سرده من آيات ذكر فيها الرسل، وذكر فيها الوعد لهم بالنصر والتمكين دون تعليق إلا نادراً:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٥٥) سورة النور.

فعلق الوعد بالتمكين هنا بأربعة أمور:

(أ) وجود الجماعة المؤمنة وتحقيق الإيمان فيها.

(ب) عمل الصالحات: من القيام بشرائع الدين وتنفيذ أوامر الله عملاً وليس ادعاءً فقط.

(ج) التزام نهج الصحابة، لقوله: ((منكم)) فالخطاب لهم وينسحب على من نهج نهجهم.

(د) انتفاء الشرك في العبادة: ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (٥٥) سورة النور

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٧) سورة

محمد.

وهنا علق الله سبحانه وتعالى نصره للمؤمنين بقيامهم بنصرة دينه سبحانه.

وقال سبحانه وتعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) } [الصف/١٠-١٤] .

فرتب النصر والفتح هنا على الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله بالمال والنفس.

نتيجة تمايز الوعدين:

ومن خلال امتياز وعد الرسل بالتمكين عن وعد المؤمنين في القرآن بالميزتين السابقتين وهما:

١. كثرة المؤكدات اللفظية والمعنوية.

٢. عدم تعليق الوعد بتمكينهم بشرط أو عمل كما في وعد المؤمنين.

من خلال ذلك نخرج بنتيجة هامة جداً وهي أن التزام منهج الرسل في نصرة الدين هو أعظم عوامل تمكين الجماعة المؤمنة من بعدهم، وذلك أن هذا الالتزام التزام لمنهج قد ضمن الله - سبحانه - له التمكين وكتبه على نفسه وأكدته أعظم تأكيد، ولم يعلقه بشرط أو أمر، مما يدل أنه منهج شامل متكامل يضم كل عوامل النصر والتمكين ويضمنها، فالثبات عليه هو جماع الأمر في تمكين المؤمنين ودعوتهم والسبب الأول والأخير في سعادتهم في الدنيا والآخرة.

ولقد بين الله حل وعلا هذا أتم البيان وجعل ذلك سنة لا تتخلف في نصر المؤمنين إذا ثبتوا على مناهج المرسلين وسماهم بذلك "المحسنين" قال تعالى عن الجموع الغفيرة من المؤمنين الذين ثبتوا بعد قتل النبي: { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) } [آل عمران/١٤٦-١٤٨] .

فتأمل قوله تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ) أي كم من نبي قتل، فهذا ليس بحال نبي واحد ولا مجموعة بل كثرة، وهذا حال المؤمنين بعدهم وهذا حال نصر الله لهم فآتاهم الله ((ثواب الدنيا)) أي "النصر والظفر والعاقبة" مع حسن ثواب الآخرة كذلك.

وجعل هذا سبحانه سنة ثابتة في سورة الصفات للمؤمنين إذا ترسموا مناهج النبيين، فعقب على نصر نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس عليهم صلوات الله وسلامه — كل على حدة — بقوله: { إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) } [الصف/٨٠-٨٢] أي نصر الله هذا لهم ليس خاصاً بهم فقط، وإنما لكل جماعة مؤمنة أحسنت على نهج إحسانهم وعبدت الله على حقيقة إيمانهم.

ومن هنا نعلم مدى الحكمة عند الصحابة وعظيم الحرص على الثبات على الحال التي فارقتهم عليها رسول الله ﷺ حتى في بنائهم ومقتنياتهم وحالتهم المادية — عند كثير منهم — فكيف بحرصهم على البقاء على الدين والمعتقد والإيمان والمنهج وهو سبيل النصر العظيم في الدنيا، وسبيل النجاة في الآخرة. ولقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله تعالى — في هذا المعنى كلاماً لا أظن أن كلاماً — بعد كلام الله ورسوله — أنفس منه ولا أجمل إذ قال: (ولهذا كُلُّ مَنْ كَانَ مُتَّبِعاً لِلرَّسُولِ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ بِحَسَبِ هَذَا التَّابَعِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: ٦٤] أَي: حَسْبُكَ وَحَسْبُ مَنْ اتَّبَعَكَ، فَكُلُّ مَنْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ مِنْ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ حَسْبُهُ، وَهَذَا مَعْنَى كَوْنِ اللَّهِ مَعَهُ.

وَالْكَفَايَةُ الْمُطْلَقَةُ مَعَ التَّابَعِ الْمُطْلَقِ، وَالتَّاقِصَةُ مَعَ التَّاقِصِ، وَإِذَا كَانَ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ الْمُتَّبِعِينَ لَهُ قَدْ حَصَلَ لَهُ مِنْ يُعَادِيهِ عَلَى ذَلِكَ فَاللَّهُ حَسْبُهُ، وَهُوَ مَعَهُ وَلَهُ نَصِيبٌ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}، فَإِنَّ هَذَا قَلْبُهُ مُوَافِقٌ لِلرَّسُولِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ بِيَدِهِ، وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْقَلْبُ. كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سَرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حِسْبُهُمُ الْعُدْرُ»^{١٥}.

فَهُؤُلَاءِ يَقْلُوبُهُمْ كَانُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ الْغَزَاةَ، فَلَهُمْ مَعْنَى صُحْبَتِهِ فِي الْغَزَاةِ، فَاللَّهُ مَعَهُمْ بِحَسَبِ تِلْكَ الصُّحْبَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ.

وَلَوْ انْفَرَدَ الرَّجُلُ [فِي] بَعْضِ الْأَمْصَارِ وَالْأَعْصَارِ بِحَقِّ جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَلَمْ تَنْصُرْهُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَهُ، وَلَهُ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٤٠]، فَإِنَّ نَصَرَ الرَّسُولِ هُوَ نَصْرُ دِينِهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ حَيْثُ كَانَ، وَمَتَى كَانَ، وَمَنْ وَافَقَهُ فَهُوَ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ فِي الْمَعْنَى، فَإِذَا قَامَ بِهِ ذَلِكَ الصَّاحِبُ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَمَعَ ذَلِكَ الْقَائِمِ بِهِ.

وَهَذَا الْمُتَّبِعُ لَهُ حَسْبُهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَسْبُ الرَّسُولِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: ٦٤] ..^{١٦}

٦ - قَتْلُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْوَعْدُ بِالْتَّمَكِينِ لَهُمْ:

^{١٥} - صحيح البخاري (٦/ ٨) (٤٤٢٣)

^{١٦} - منهاج السنة النبوية (٨/ ٤٨٧)

قد سبق في مبحث "الوعد بالتمكين" ذكر وعد الله سبحانه في أم الكتاب عنده وفي الكتب المترلة على الرسل بأن التمكين لهم والغلبة حظهم، وأنه سبحانه أكد ذلك الوعد بتوكيدات هي الغاية في التأكيد حقاً، ولكن تتفاجأ بديهة القارئ لكتاب الله — بعد أن يستشعر صدق الوعد ومثوله متحققاً — بقتل ذلك الموعود وعلى يدي أراذل الخلق ومجرمي الوقت، ومن المقتول ؟ النبي المرسل الداعي الموعود بالنصر والغلبة والحق الذي لا غبار عليه أن الوعد لم يتخلف فإن الله لا يخلف الميعاد، ومن أصدق من الله قليلاً، ومن أصدق من الله حديثاً، وأما النبي فقد قتل فعلاً، فقد قال سبحانه وتعالى عن أنبياء بني إسرائيل: { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ } (٨٧) سورة البقرة. وقال عنهم سبحانه وتعالى: { وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } (٦١) سورة البقرة. وقال سبحانه وتعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } (٢١) سورة آل عمران.

ولإزالة الغموض وبيان الحق في هذه المسألة، وبيان أن وعد الله على تمامه سبحانه وتعالى رغم قتل النبي الموعود بالتمكين فلا بد من بيان ثلاث نقاط، وهي:

الأولى: أنه لم يقتل نبي من الأنبياء الذين أمروا بالقتال أبداً:

فلم يقتل نبي في قتال، وإنما قتل الأنبياء الذين ذكر الله أنهم قتلوا في غير جهاد ولا قتال، قال صاحب أضواء البيان رحمه الله تعالى :

" وقد دلت هذه الآية الكريمة، وأمثالها من الآية كقوله تعالى: { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ } [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] أنه لن يقتل نبي في جهاد قط، لأن المقتول ليس بغالب، لأن القتل قسم مقابل للغلبة، كما بينه تعالى في قوله: { ومن يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ } [النساء: ٧٤] الآية. وقال تعالى: { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا } [غافر: ٥١] الآية. وقد نفى عن المنصور كونه مغلوباً نفيّاً باتاً في قوله تعالى: { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ } [آل عمران: ١٦٠] .

وبهذا تعلم أن الرسل الذين جاء في القرآن أنهم قتلوا كقوله تعالى: { أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ } [البقرة: ٨٧] وقوله تعالى: { قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قُتِلْتُمْ فَلَمَ قُتِلْتُمْ هُمْ } [آل عمران: ١٨٣] ليسوا مقتولين في

جهاد، وأن نائب الفاعل في قوله تعالى: { وَكَأَيِّنْ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ } [آل عمران: ١٤٦]، على قراءة قتل بالبناء للمفعول، هو ربيون لا ضمير النبي .

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح بالآيات القرآنية في سورة آل عمران في الكلام على قوله: { وَكَأَيِّنْ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ } [آل عمران: ١٤٦] وذكرنا بعضه في الصفات في الكلام على قوله تعالى: { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ } [الصفات: ١٧١] " ١٧ .

والحقيقة أن هذا الاستنباط الذي استنبطه العلامة الشنقيطي من دلالات الآيات والتوفيق بينها للخروج بهذه القطعية لينبئ عن براعة الرجل في تفسير القرآن بالقرآن، وكذلك يخرج برهان واضح في هذه المسألة، ويوافق ما قاله الحسن وسعيد بن جبير من أنه "ما قتل نبي في حرب قط" .

أما القراءة التي في قوله تعالى: { وَكَأَيِّنْ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ } فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين } (١٤٦) سورة آل عمران بدلاً من قراءة ((قاتل)) فهي قراءة سبعية، قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو، ومن العشرة يعقوب وهي قراءة ابن عباس، واختارها أبو حاتم، إلا أن الآية لا تنص على أن النبي المقتول كان في قتال أو أمر به، وعليه فلا تخالف ما سبق تقريره في ذلك.

الثانية: الانتصار من قتلة الأنبياء:

إن دماء الأنبياء الذين يقتلون لا تذهب هدراً فوليتها بالتأثر هو الله سبحانه وتعالى، هم ومن كان قائماً في الناس يأمرهم بالقسط من المؤمنين، قال سبحانه وتعالى: { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } (٥١) سورة غافر.

والرسل الذين قتلوا يكون نصرهم في الدنيا بالانتصار من قتلهم والانتقام منه، وقال السدي: " لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا قال فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصرون فيها وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناواه وكذبه وعاداه فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان " ١٨

ولقد ذكر الإمام ابن جرير في تفسيره عند هذه الآية قتل الأنبياء ونصرهم المذكور في الآية وأجاب عليه بجوابين، أحدهما: قول السدي هذا، وقول السدي هذا من الانتصار لهم في الدنيا هو الجواب الأول الذي عليه شواهد من القرآن والسنة، فقد قرن الله سبحانه وتعالى في موضعين من كتابه بين ضرب الذلة والمسكنة وبين قتل الأنبياء، وجعل ضرب الذلة والمسكنة عقاباً لقتل الأنبياء. قال تعالى: { وَإِذْ

١٧ - أضواء البيان - (ج ٨ / ص ١٦٥)

١٨ - تفسير ابن كثير - (ج ١٤ / ص ٣٥٧)

قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ تَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ { (٦١) سورة البقرة، وكذلك فقد بين الله سبحانه وتعالى أن الذين يخرجون رسله من قراهم لا يلبثون إلا قليلاً حتى يحل بهم العذاب، فقال سبحانه وتعالى: { وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) } سورة الإسراء.

فإذا كانت هذه سنته سبحانه فيمن أخرج رسله من إحلال العذاب بهم بعد مدة يسيرة من إخراج الرسول، فما الحال إذن فيمن قتلوا رسولهم إلا أشد وأنكى والله عزيز ذو انتقام.

الثالثة: قتل النبي ليس قتلاً لدعوته وإنما لشخصه فقط:

وأحياناً بل غالباً ما يكون قتل الداعي إلى أمر ما عاملاً في إلهاب الحماس في نفوس أنصاره والشيئات على نهجه وسبباً في انتشار دعوته. وإليك الآيات وهي تبين ذلك، ونحن نوردتها على قراءة البناء للمفعول في (قتل).

قال تعالى: { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) } [آل عمران ١٤٦-١٤٨].

والله سبحانه وتعالى إنما بعث الرسل للدعوة إلى عبادته وإعلاء كلمته وإظهار دينه، لا للدعوة إلى أنفسهم وإبراز شخصياتهم وإظهارها، وهو سبحانه وتعالى حين وعدهم النصر والغلبة، لم يعدهم كذلك لأجل أشخاصهم، وإنما وعدهم لأجل ما يحملونه من دعوة حق، ومنهاج شريعة من عنده، فبقاء دعوة الحق وانتشارها، ووجود من يحملها نصر لها وللداعي إليها، وإن كان قد مات أو قتل ذلك الداعي. وهذا نبي الله عيسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام -، قد أزمع اليهود قتله وبأؤوا بإثم قتله وإن كانوا لم يقتلوه - وذلك لتمام تصميمهم على هذا الإثم - رفعه الله إليه وتوفاه وجعل الذين اتبعوه فوق من كفر بدعوته وتربص به ظاهرين عليهم إلى يوم القيامة، فلم يتخلف شيء مما وعد الله به الرسل من ظهور الدين وتمام النصر والانتصار لهم، لم يتخلف شيء من ذلك في دعوة عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام. قال تعالى: { إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْهَبْ إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَاجْعَلْ أَعْيُنَهُمْ تَوَّابَةً لِّمَا كَانُوا فِي الْيَتِيمِ إِذْ يَمُوتُ فَاذْكُرُونَهُمْ أَنَّهُ لَبَّيْكُمْ فَاجْعَلْ أَعْيُنَهُمْ تَوَّابَةً لِّمَا كَانُوا فِي الْيَتِيمِ } [آل عمران ٥٥] سورة آل عمران.

٧ - أن تحمله جماعة من البشر وتضحي من أجله بالغالي والنفيس:

هناك حقيقة أولية عن طبيعة هذا الدين، وطريقة عمله في حياة البشر... حقيقة أولية بسيطة... ولكنها مع بساطتها، كثيراً ما تنسى، أو لا تدرك ابتداءً. فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين: حقيقته الذاتية وواقعه التاريخي. حاضرة ومستقبله كذلك!.

إن البعض ينتظر من هذا الدين - ما دام متزلاً من عند الله - أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب! ودون أي اعتبار لطبيعة البشر، ولطاقاتهم الفطرية، ولواقعهم المادي، في أي مرحلة من مراحل نموهم، وفي أية بيئة من بيئاتهم.

وحين لا يرون أنه يعمل بهذه الطريقة، وحين يرون أن الطاقة البشرية المحدودة، والواقع المادي للحياة الإنسانية، يتفاعلان معه، فيتأثران به - في فترات - تأثراً واضحاً، على حين أنهما في فترات أخرى يؤثران تأثيراً مضاداً لاتجاهه، فتتعد بالناس شهواتهم وأطماعهم، وضعفهم ونقصهم، دون تلبية هتاف هذا الدين، أو الاتجاه معه في طريقه..

حين يرون هذا فإنهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها - ما دام هذا الدين متزلاً من عند الله - أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني للحياة وواقعيته. أو يصابون بالشك في الدين إطلاقاً!.

وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد أساسي: هو عدم إدراك هذا الدين وطريقته، أو نسيان هذه الحقيقة الأولية البسيطة.

إن هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية. يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم في حدود طاقتهم البشرية؛ وفي حدود الواقع المادي حينما يتسلم مقاليدهم. ويسير بهم إلى نهاية الطريق في حدود طاقتهم البشرية، وبقدر ما يبذلونه من هذه الطاقة.

وميزته الأساسية: أنه لا يغفل لحظة، في أية خطوة وفي أية خطوة عن فطرة الإنسان وحدود طاقته، وواقع حياته المادي أيضاً. وأنه - في الوقت ذاته - يبلغ به - كما تحقق ذلك فعلاً في بعض الفترات، وكما يمكن أن يتحقق دائماً كلما بذلت محاولة جادة - إلى ما لم يبلغه أي منهج آخر من صنع البشر على الإطلاق. وفي يسر وراحة وطمأنينة واعتدال.

ولكن الخطأ كله - كما تقدم - ينشأ من عدم إدراك طبيعة هذا الدين أو من نسيانها. ومن انتظار الخوارق المجهولة الأسباب على يديه... تلك الخوارق التي تبدل فطرة الإنسان، ولا تبالي طاقاته المحدودة، ولا تحفل واقعه المادي البيئي!

أليس هو من عند الله؟ أليس الله قادراً على كل شيء؟ فلماذا إذن يعمل هذا الدين - فقط - في حدود الطاقة البشرية المحدودة؟ وتتأثر نتائج عمله بالضعف البشري؟ بل لماذا يحتاج أصلاً إلى الجهد البشري؟ ثم... لماذا لا ينتصر دائماً، ولا ينتصر أصحابه دائماً؟ لماذا تغلب ثقله الضعف والشهوات

والواقع المادي على رفرفته وشفافيته وانطلاقة أحياناً؟ ولماذا يغلب أهل الباطل على أصحابه - وهم أهل الحق - أحياناً!!

وكلها - كما ترى - أسئلة وشبهات، تنبع ابتداء من عدم إدراك الحقيقة الأولية لطبيعة هذا الدين وطريقته... أو من نسيانها!.

إن الله قادر - طبعاً - على تبديل فطرة الإنسان، عن طريق هذا الدين أو عن غير طريقه. ولكنه - سبحانه - شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة لحكمة يعلمها. وشاء أن يجعل الهدى ثمرة للجهد والرغبة في الهدى: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا" ... وشاء أن تعمل فطرة الإنسان دائماً، ولا تمحى ولا تعطل: "و نفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها" .. وشاء أن يتم تحقيق منهجه الإلهي للحياة البشرية عن طريق الجهد البشري، وفي حدود الطاقة البشرية: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" ... "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض" وشاء أن يبلغ الإنسان من هذا كله بقدر ما يبذل من الجهد، وما يُنفق من الطاقة، وما يصبر على الابتلاء في تحقيق هذا المنهج الإلهي القويم، وفي دفع الفساد عن نفسه وعن الحياة من حوله: "احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين".

وليس لأحد من خلق الله أن يسأله - سبحانه - لماذا شاء هذا كله على هذا النحو الذي أراده فكان. ليس لأحد من خلقه أن يسأله - سبحانه - ما دام أن أحداً من خلقه ليس إلهاً، وليس لديه العلم، ولا إمكان العلم - بالنظام الكلي لهذا الكون؛ ومقتضيات هذا النظام في طبيعة كل كائن في هذا الوجود.

ولماذا ؟ - في هذا المقام - سؤال لا يسأله مؤمن جاد، ولا يسأله ملحد جاد... المؤمن لا يسأله، لأنه أكثر أدباً مع الله - الذي يعرفه بذاته وصفاته وخصائصه - وأكثر معرفة بطبيعة إدراكه البشري وحدوده، وأنه لم يهيئ للعمل في هذا المجال... والملحد الجاد لا يسأله، لأنه لا يعترف بالله ابتداءً، فإن هو اعترف بألوهيته عرف معها أن هذا شأنه - سبحانه - ومقتضى ألوهيته، وأنه: "لا يسأل عما يفعل وهم يسألون". لأنه وحده المهيمن العليم بما يفعل.

ولكنه سؤال قد يسأله هازل مائع. لا هو مؤمن جاد، ولا هو ملحد جاد. ومن ثم لا يجوز الاحتفال به، ولا أخذه مأخذ الجد... وقد يسأله جاهل بحقيقة الألوهية وخصائصها. فالسبيل لتعليم هذا الجاهل ليس هو الإجابة المباشرة. إنما هو تعريفه بحقيقة الألوهية وخصائصها... حتى يعرفها ويسلم بها فهو مؤمن. أو يجحدها وينكرها فهو ملحد... وبهذا ينتهي الجدل... إلا أن يكون مرء! والمسلم منهى عن المضي في الجدل حتى يكون مرء!.

والخلاصة التي تنتهي إليها من هذا الاستطراد في هذه الفقرة: هي أنه ليس لأحد من خلق الله أن يسأله - سبحانه - لماذا شاء أن يخلق " الإنسان " بهذه الفطرة ؟ ولماذا شاء أن يقي فطرته هذه عاملة لا تمحى ولا تعطل ؟ لماذا شاء أن يجعل المنهج الإلهي لحياته البشرية يتحقق عن طريق الجهد البشري، وفي حدود الطاقة البشرية، والواقع المادي لحياته ؟ ولم يشأ أن يجعله يتم بوسيلة خارقة، وبأسباب مبهمه غامضة !.

ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقائق ويعرفها؛ ويراهما وهي تعمل في واقع الحياة البشرية. ويفسر أحداث التاريخ البشري على ضوءها. فيفقه خط سيرها التاريخي من ناحية؛ ويعرف كيف يواجه هذا الخط ويوجهه من ناحية أخرى. ويعيش مع حكمة الله وقدره، فينطبع بهما الانطباع الصحيح من ناحية ثالثة.

هذا المنهج الإلهي، الذي يمثل " الإسلام " في صورته النهائية، كما جاء بهما محمد ﷺ، لا يتحقق في الأرض، وفي دنيا الناس، بمجرد تنزله من عند الله. لا يتحقق بكلمة: "كن" الإلهية، مباشرة لحظة تنزله. ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه. ولا يتحقق بالقهر الإلهي على نحو ما يمضي ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب.

إنما يتحقق بان تحمله جماعة من البشر. تؤمن به إيماناً كاملاً، وتستقيم عليه - بقدر طاقتها- وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم كذلك، وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك...تجاهد الضعف البشري والهوى البشري في داخل النفوس. وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى للوقوف في وجه الهدى...وتبلغ - بعد ذلك كله - من تحقيق هذا المنهج، إلى الحد الذي تطيقه فطرة البشر، والذي يهيئه لهم واقعهم المادي. على أن تبدأ بالبشر من النقطة التي هم فيها فعلاً، ولا تغفل واقعهم، ومقتضياته في سير وتتابع مراحل هذا المنهج الإلهي...ثم تنتصر هذه الجماعة على نفسها وعلى نفوس الناس معها تارة. وتنهزم في المعركة مع نفسها أو مع نفوس الناس تارة..بقدر ما تبذل من الجهد. وبقدر ما تتخذ من الوسائل المناسبة للزمان وللمقتضيات الأحوال. وقبل كل شيء...بمقدار ما تمثل هي ذاتها من حقيقة هذا المنهج، ومن ترجمته ترجمة عملية في واقعها وسلوكها الذاتي.

هذه هي طبيعة هذا الدين وطريقته...وهذه هي خطته الحركية ووسيلته..وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة وهو يقول لها: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم". ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض". والذين جاهدوا فينا يهدينهم سبلنا".

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة في غزوة أحد حينما قصرت في تمثيل حقيقة هذا الدين في ذوات أنفسها في بعض مواقف الغزوة. وحينما قصرت في اتخاذ الوسائل المناسبة في بعض مواقفها. وحينما غفلت عن هذه الحقيقة الأولية أو نسيتها. وفهمت أن من مقتضى كونها مسلمة أن تنتصر حتماً! فقال لها الله سبحانه: "أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم: أنى هذا؟

قل: هو من عند أنفسكم". وقال لها. "ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر، وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون: منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة... ثم صرفكم عنهم ليبتليكم".

ولقد تعلمت الجماعة المسلمة هذه الحقيقة في هذه الغزوة، لا بالكلام ولا بالعتاب، ولكن تعلمتها مع هذا بالدماء وبالآلام. ودفعت ثمنها غالياً: هزيمة بعد نصر. وخسارة بعد غنم. وجراحاً لم تكد تدع أحداً معافى. وشهداء كراماً فيهم سيد الشهداء حمزة - رضى الله عنه - وأعلى من ذلك كله وأشد وقعاً على الجماعة المسلمة كلها جرح رسول الله ﷺ، وشج وجهه الكريم، وكسر رباعيته في فمه، ووقعه لجنبه في الحفر التي حفرها أبو عمرو الفاسق حليف قريش مكيدة للمسلمين، وجهد المشركين له - ﷺ - وهم يطاردونه، وهو مفرد في نفر من أصحابه استشهدوا واحداً بعد واحد وهم يذودون عنه، ويترس أحدهم - أبو دجانة - بظهره عليه يقيه نبل المشركين، والنبل يقع في ظهره فلا يتحرك... حتى تاب إليه المؤمنون من هزيمتهم وحيرتهم، وهم يتلقون هذا الدرس الشاق المرير!.

على أنه من الملاحظ الواضح أن ترك المنهج الإلهي للجهد البشري، يتولى تحقيقه في حدود الطاقة البشرية، يصلح النفوس البشرية، ويصلح الحياة البشرية.. نقول هذا لا لنعلل به مشيئة الله - سبحانه - في جعل الأمر على ما جعله. ولكن لنسجل - فقط - ملاحظة واقعية لآثار هذه المشيئة في حياة العباد. ذلك أن حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان. مجاهدتهم بالقلب بكراهة باطلهم وجاهليتهم والعزم على نقلهم منها إلى الحق والإسلام. ومجاهدتهم باللسان بالتبليغ والبيان. ورفض باطلهم الزائف، وتقرير الحق الذي جاء به الإسلام. ومجاهدتهم باليد بالدفع والإزالة من طريق الهدى حين يعترضونه بالقوة الباغية والبطش الغشوم!..

وحتى يتعرض في تلك المجاهدة للابتلاء والأذى، والصبر على الابتلاء والأذى، والصبر على الهزيمة والصبر على النصر أيضاً - فالصبر على النصر أشق من الصبر على الهزيمة. ثم يثبت ولا يرتاب، ويستقيم ولا يتلفت، ويمضي في طريق الإيمان راشداً صاعداً.

حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان لأنه يجاهد نفسه كذلك في أثناء مجاهدته للناس؛ وتتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبداً وهو قاعد آمن ساكن، وتتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتتبين له أبداً بغير هذه الوسيلة. ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصورات، وبعاداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته، ما لم يكن ليبلغه أبداً بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة.

وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى: "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض". وأول ما تفسد: فساد النفوس بالركود الذي تأسن معه الروح، وتسترخي معه الهمة، ويتلفها الرخاء والطراوة، ثم تأسن الحياة كلها بالركود. أو بالحركة في مجال الشهوات وحدها. كما يقع للأمم حين تبتلى بالرخاء!

فهذه كذلك من الفطرة التي فطر الله الناس عليها. لقد جعل صلاح هذه الفطرة في المجاهدة لإقرار منهج الله للحياة البشرية، عن طريق الجهد البشري، وفي حدود الطاقة البشرية كذلك. ثم إن هذه المجاهدة ومن يصاحبها من الابتلاء، هي الوسيلة العملية لتمحيص الصفوف - بعد تمحيص النفوس - ولتنقية الجماعة من المعطلين والمعوقين والمرجفين، ومن ضعاف النفوس والقلوب، ومن المخادعين والمنافقين والمرائين.

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة وهي تتعرض للامتحان، وتعرض للابتلاء، وتكشف فيها خفايا النفوس، كما تتميز فيها الصفوف، تحت مطارق الابتلاء ومشقة التجربة، ومرارة الآلام.

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة، وهو يعقب على أحداث الغزوة. فيقول لها، رداً على سؤال المسلمين: "أني هذا؟" "قل: هو من عند أنفسكم" .. ثم يعقب على هذا بقوله: "وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله. وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا" .. "وما كان الله ليزر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب" .. "وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين، ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين" ... كل ذلك ليستقر في حسهم أنه مع أن ما أصابهم كان بسبب تقصيرهم في تمثيل حقيقة الإيمان كاملة في مشاعرهم وتصرفاتهم في الغزوة.. فإنه كذلك كان لخيرهم في النهاية بفضل الله عليهم، وتجاوزهم عن تقصيرهم، واتخاذ نتائج مادة لتعليمهم وتمحيصهم وتطهيرهم، وتمييز صفوفهم... وكله خير لأنفسهم ولحياتهم في نهاية المطاف... ولا يتم تمام القول في طبيعة هذا الدين وطريقته، حتى نضيف إلى تلك الحقيقة التي نرجو أن نكون قد كشفنا عنها في هذا البيان... تكملة ضرورية لها لا بد من بيانها كذلك:

إن كون هذا المنهج الإلهي متروك لتحقيقه للجهد البشري، في حدود الطاقة البشرية، وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في شتى المداخل، وشتى البيئات.. لا يعني استقلال الإنسان نهائياً بهذا الأمر، وانقطاعه عن قدرة الله وتديره، ومدده وعونه وتوفيقه وتيسيره.. فتصور الأمر على هذا النحو مخالف في أصوله لطبيعة التصور الإسلام ي.

ولقد بينا فيما سلف أن الله - سبحانه - يساعد من يجاهد للهدى: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا" ... وأنه يغير حال الناس حين يغيرون ما بأنفسهم، وأنه لا يغير ما بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

وهذان النصان يوضحان لنا العلاقة بين الجهد البشري الذي يبذله الناس، وعون الله ومدده الذي يسعفهم به، فيبلغون به ما يجاهدون فيه من الخير والهدى والصلاح والفلاح.

فإرادة الله هي الفاعلة في النهاية، وبدونها لا يبلغ "الإنسان" بذاته شيئاً، ولكن هذه الإرادة تعين من يعرف طريقها، ويستمد عونها ويجاهد في الله ليلبغ رضاه.

وقدر الله - مع ذلك كله - هو الذي يحيط بالناس والأحداث، وهو الذي يتم وفقه ما يتم من ابتلاء، ومن خير يصيبه الناجحون في هذا الابتلاء.

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله - سبحانه - أن يعلمها للجماعة المسلمة. وهو يبين لها في التعقيب على غزوة أحد أسباب النصر وأسباب الهزيمة - من عملها - ثم يكشف لها عن حكمة الله من وراء الابتلاء كله، ومن وراء النصر والهزيمة: وعن تدبيره كذلك " ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه. حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر، وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون: منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ". وليعرفهم سنته الشاملة. ومردّها في النهاية إلى مشيئته الطليقة وقدره النافذ من وراء الأسباب والوقائع: " إن يمسخكم قرح فقد مس القوم قرح مثله. وتلك الأيام نداؤها بين الناس. وليعلم الله الذين آمنوا، ويتخذ منكم شهداء. والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ".

وإذن فهو - في النهاية - تدبير الله ومشيئته وقدره، ليتيم ما يريده من وراء الأسباب والأحداث. وهو الأمر الذي لا يسأل عنه سبحانه: لأنه شأنه الإلهي، الذي لا يسأل عنه... وهذه هي حقيقة الإيمان الكبرى التي لا يتم في النفس إلا باستقرارها فيها، واطمئنانها إليها... وهي التكملة التي لا بد منها لما قررناه في هذا الفصل عن طبيعة هذا الدين وطريقته... بلا تعارض بين طريقي هذه الحقيقة في حسن المسلم، الذي يتذوق قلبه حقيقة هذا الدين، كما أنزلها الله. ولا يعارضها بتصورات ومقررات ليست مستقاة من كتاب الله.^{١٩}

٨ - أن يعي المسلمون معنى لا إله إلا الله :

العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة: أن لا إله إلا الله. والتلقي عن رسول الله - ﷺ - في كيفية هذه العبودية - هو شطرها الثاني، المتمثل في شهادة أن محمداً رسول الله .

والقلب المؤمن المسلم هو الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها، لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان، وأركان الإسلام، إنما هو مقتضى لها. فالإيمان بملائكة الله وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج، ثم الحدود والتعازير والحل والحرمة والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الإسلامية... إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده، كما أن المرجع فيها كلها هو ما بلغه لنا رسول الله - ﷺ - عن ربه .

^{١٩} - هذا الدين س (ص: ٢)

والمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضايتها جميعاً لأنه بغير تمثل تلك القاعدة ومقتضايتها فيه لا يكون مسلماً .

ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بخلافها، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة، كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة، أو قامت على قاعدة أخرى معها، أو عدة قواعد أجنبية عنها: { إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } ... [يوسف: ٤٠] { مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } .. [النساء: ٨٠]

هذا التقرير الموجز المطلق الحاسم يفيدنا في تحديد كلمة الفصل في قضايا أساسية في حقيقة هذا الدين، وفي حركته الواقعية كذلك:

إنه يفيدنا أولاً في تحديد " طبيعة المجتمع المسلم " .
وفيدنا ثانياً في تحديد " منهج نشأة المجتمع المسلم " .
وفيدنا ثالثاً في تحديد " منهج الإسلام في مواجهة المجتمعات الجاهلية .
وفيدنا رابعاً في تحديد " منهج الإسلام في مواجهة واقع الحياة البشرية " .
وهي قضايا أساسية بالغة الخطورة في منهج الحركة الإسلامية قديماً وحديثاً .
إن السمة الأولى المميزة لطبيعة (المجتمع المسلم) هي أن هذا المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في أمره كله ..

هذه العبودية التي تمثلها وتكيفها شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله .
وتتمثل هذه العبودية في التصور الاعتقادي، كما تتمثل في الشعائر التعبدية، كما تتمثل في الشرائع القانونية سواء .

فليس عبداً لله وحده من لا يعتقد بوحدانية الله سبحانه: { وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِتِمَّا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِذَا يَفِيَّاهُ فَارْهُبُونِ، وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ } ... [النحل: ٥١ - ٥٢]

ليس عبداً لله وحده من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله - معه أو من دونه: { قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]

وليس عبداً لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من أحد سوى الله، عن الطريق الذي بلغنا الله به، وهو رسول الله - ﷺ - : { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ } [الشورى: ٢١]
{ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } [الحشر: ٧]

هذا هو المجتمع المسلم . المجتمع الذي تتمثل العبودية لله وحده في معتقدات أفرادهِ وتصوراتهم، كما تتمثل في شعائرهم وعبادتهم، كما تتمثل في نظامهم الجماعي وتشريعاتهم .. وأبما جانب من هذه الجوانب تخلف عن الوجود فقد تخلف الإسلام نفسه عن الوجود . لتخلف ركنه الأول، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ولقد قلنا: إن العبودية لله تتمثل في " التصور الاعتقادي " .. فيحسن أن نقول ما هو التصور الاعتقادي الإسلامي .. إنه التصور الذي ينشأ في الإدراك البشري من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الرباني، والذي يتكيف به الإنسان في إدراكه لحقيقة ربه، ولحقيقة الكون الذي يعيش فيه - غيبه وشهوده - ولحقيقة الحياة التي ينتسب إليها - غيبها وشهودها - ولحقيقة نفسه .. أي لحقيقة الإنسان ذاته .. ثم يكيف على أساسه تعامله مع هذه الحقائق جميعاً، تعامله مع ربه تعاملاً تتمثل فيه عبوديته لله وحده، وتعامله مع الكون ونواميسه ومع الأحياء وعوالمها، ومع أفراد النوع البشري وتشكيلاته تعاملاً يستمد أصوله من دين الله - كما بلغها رسول الله - ﷺ - تحقيقاً لعبوديته لله وحده في هذا التعامل .. وهو بهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كله .

فإذا تقرر أن هذا هو " المجتمع المسلم "، فكيف ينشأ هذا المجتمع ؟ ما منهج هذه النشأة ؟ إن هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده، وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله .. لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور، ولا تدين لغير الله في العبادات والشعائر .. ولا تدين بالعبودية لغير الله في النظام والشرائع .. ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها على أساس هذه العبودية الخالصة .. تنقي ضمائرهما من الاعتقاد في ألوهية أحد غير الله - معه أو من دونه - وتنقي شعائرها من التوجه بها لأحد غير الله - معه أو دونه - وتنقي شرائعها من التلقي عن أحد غير الله - معه أو من دونه .

عندئذ - وعندئذ فقط - تكون هذه الجماعة مسلمة، ويكون هذا المجتمع الذي أقامته مسلماً كذلك .. فأما قبل أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله - على النحو الذي تقدم - فإنهم لا يكونون مسلمين .. وأما قبل أن ينظموا حياتهم على هذا الأساس فلا يكون مجتمعهم مسلماً .. ذلك أن القاعدة الأولى التي يقوم عليها الإسلام، والتي يقوم عليها المجتمع المسلم - هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - لم تقم بشطريها ..

وإذن فإنه قبل التفكير في إقامة نظام مجتمع إسلامي، وإقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام .. ينبغي أن يتجه الاهتمام أولاً إلى تخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله - في أي صورة من صورها التي أسلفنا - وأن يتجمع الأفراد الذين تخلص ضمائرهم من العبودية لغير الله في جماعة مسلمة .. وهذه الجماعة التي خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله، اعتقاداً وعبادة وشريعة، هي التي ينشأ منها المجتمع المسلم، وينظم إليها من يريد أن يعيش في هذا المجتمع بعقيدته وعبادته وشريعته

التي تتمثل فيها العبودية لله وحده .. أو بتعبير آخر تتمثل فيها شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله .

هكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الأولى التي أقامت المجتمع المسلم الأول .. وهكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة، وهكذا يقوم كل مجتمع مسلم .

إن المجتمع المسلم إنما ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله - معه أو من دونه - إلى العبودية لله وحده بلا شريك، ثم من تقرير هذه المجموعات أن تقيم نظام حياتها على أساس هذه العبودية .. وعندئذ يتم ميلاد جديد لمجتمع جديد، مشتق من المجتمع الجاهلي القديم، ومواجه له بعقيدة جديدة، ونظام للحياة جديد، يقوم على أساس هذه العقيدة، وتتمثل فيه قاعدة الإسلام الأولى بشطريه .. شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ..

وقد ينضم المجتمع الجاهلي القديم بكامله إلى المجتمع الإسلامي الجديد وقد لا ينضم، كما أنه قد يهادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربه، وإن كانت السنة قد جرت بأن يشن المجتمع الجاهلي حرباً لا هوادة فيها، سواء على طلائع هذا المجتمع في مرحلة نشوئه - وهو أفراد أو مجموعات - أو على هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلاً - وهو ما حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية منذ نوح عليه السلام، إلى محمد عليه الصلاة والسلام، بغير استثناء .

وطبيعي أن المجتمع المسلم الجديد لا ينشأ، ولا يتقرر وجوده إلا إذا بلغ درجة من القوة يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي القديم، قوة الاعتقاد والتصور، وقوة الخلق والبناء النفسي، وقوة التنظيم والبناء الجماعي، وسائر أنواع القوة التي يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي ويتغلب عليه، أو على الأقل يصمد له !

ولكن ما هو " المجتمع الجاهلي " ؟ وما هو منهج الإسلام في مواجهته ؟

إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم ! وإذا أردنا التحديد الموضوعي قلنا: إنه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده .. متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي، وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية ..

وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطار " المجتمع الجاهلي " جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلاً !!

تدخل فيه المجتمعات الشيوعية .. أولاً: بإلحادها في الله - سبحانه - وبنكار وجوده أصلاً، ورجع الفاعلية في هذا الوجود إلى " المادة " أو " الطبيعة "، ورجع الفاعلية في حياة الإنسان وتاريخه إلى " الاقتصاد " أو " أدوات الإنتاج "، ثانياً: بإقامة نظام العبودية فيه للحزب - على فرض أن القيادة الجماعية في هذا النظام حقيقة واقعة ! - لا لله سبحانه ! ثم ما يترتب على ذلك التصور وهذا النظام من إهدار لخصائص " الإنسان " وذلك باعتبار أن " المطالب الأساسية " له هي فقط مطالب

الحيوان، وهي: الطعام والشراب والملبس والسكن والجنس ! وحرمانه من حاجات روحه " الإنساني " المتميز عن الحيوان، وفي أولها: العقيدة في الله، وحرية اختيارها، وحرية التعبير عنها، وكذلك حرية التعبير عن " فرديته " وهي من أخص خصائص " إنسانيته " . هذه الفردية التي تتجلى في الملكية الفردية، وفي اختيار نوع العمل والتخصص، وفي التعبير الفني عن " الذات " إلى آخر ما يميز " الإنسان " عن " الحيوان " أو عن " الآلة " إذ أن التصور الشيوعي والنظام الشيوعي سواء، كثيراً ما يهبط بالإنسان عن مرتبة الحيوان إلى مرتبة الآلة !

وتدخل فيه المجتمعات الوثنية - وهي ما تزال قائمة في الهند واليابان والفلبين وأفريقية - تدخل فيه - أولاً: بتصورها الاعتقادي القائم على تأليه غير الله - معه أو من دونه - وتدخل فيه ثانياً: بتقديم الشعائر التعبدية لشتى الآلهة والمعبودات التي تعتقد بألوهيتها .. كذلك تدخل فيه بإقامة أنظمة وشرائع، المرجع فيها لغير الله وشريعته . سواء استمدت هذه الأنظمة والشرائع من المعابد والكهنة والسدنة والسحرة والشيوخ، أو استمدتها من هيئات مدنية " علمانية " تملك سلطة التشريع دون الرجوع إلى شريعة الله .. أي أن لها الحاكمة العليا باسم (الشعب) أو باسم (الحزب) أو باسم كائن من كان .. ذلك أن الحاكمة العليا لا تكون إلا لله سبحانه، ولا تزاوُل إلا بالطريقة التي بلغها عنه رسله .

وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية في أرجاء الأرض جميعاً .. تدخل فيه هذه المجتمعات أولاً: بتصورها الاعتقادي المحرّف، الذي لا يفرد الله - سبحانه - بالألوهية بل يجعل له شركاء في صورة من صور الشرك، سواء بالبنوة أو بالتثليث، أو بتصور الله سبحانه على غير حقيقته، وتصور علاقة خلقه به على غير حقيقتها: { وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } .. [التوبة: ٣٠] { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ... [المائدة: ٦٣]

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ } ... [المائدة: ٦٤]

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ } ... [المائدة: ١٨]

وتدخل فيه كذلك بشعائرها التعبدية ومراسمها وطقوسها المنبثقة من التصورات الاعتقادية المنحرفة الضالة .. ثم تدخل فيه بأنظمتها وشرائعها، وهي كلها لا تقوم على العبودية لله وحده، بالإقرار له وحده بحق الحاكمة، واستمداد السلطان من شرعه، بل تقيم هيئات من البشر، لها حق الحاكمة العليا التي لا تكون إلا لله سبحانه .. وقديماً وصمهم الله بالشرك لأنهم جعلوا هذا الحق للأحبار

والرهبان، يشرعون لهم من عند أنفسهم فيقبلون منهم ما يشرعونه: { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } .. [التوبة: ٣١]

وهم لم يكونوا يعتقدون في ألوهية الأحرار والرهبان . ولم يكونوا يتقدمون لهم بالشعائر التعبدية، إنما كانوا فقط يعترفون لهم بحق الحاكمية، فيقبلون منهم ما يشرعونه لهم، بما لم يأذن به الله، فأولى أن يوصموا اليوم بالشرك والكفر، وقد جعلوا ذلك لناس منهم ليسوا أحراراً ولا رهباناً .. وكلهم سواء .. وأخيراً يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها " مسلمة " ! .

وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنها تعتقد بالوهمية أحد غير الله، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضاً، ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها . فهي - وإن لم تعتقد بالوهمية أحد إلا الله - تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله، فتدين بحاكمية غير الله، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها، وشرائعها وقيمها، وموازينها، وعاداتها وتقاليدها .. وكل مقومات حياتها تقريباً ! .

والله سبحانه يقول عن الحاكمين: { وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } .. [المائدة: ٤٤]

ويقول عن الحكوميين: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ... } إلى أن يقول { ... فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكِّموكَ فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً } .. [النساء: ٦٠ - ٦٥]

كما إنه - سبحانه - قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله وحده، واتخاذ الأحرار والرهبان أرباباً من دونه، لجرد أن جعلوا للأحرار والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن أنفسهم أنهم " مسلمون " لناس منهم ! واعتبر الله سبحانه ذلك من اليهود والنصارى شركاً كاتخاذهم عيسى ابن مريم رباً يؤلهونه ويعبدونه سواء . فهذه كتلك خروج من العبودية لله وحده، فهي خروج من دين الله، ومن شهادة أن لا إله إلا الله .

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة " علمانيته " وعدم علاقته بالدين أصلاً، وبعضها يعلن أنه " يحترم الدين " ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلاً، ويقول: إنه ينكر " الغيبية " وقيم نظامه على " العلمية " باعتبار أن العلمية تناقض الغيبية ! وهو زعم جاهل لا يقول به إلا الجهال وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله ويشرع ما يشاء ثم يقول عما يشرعه من عند نفسه: هذه شريعة الله ! .. وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده ..

وإذا تعين هذا، فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة:

إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره .
 إن الإسلام لا ينظر إلى العنوانات واللافتات والشارات التي تحملها هذه المجتمعات على اختلافها .. إنها كلها تلتقي في حقيقة واحدة .. وهي أن الحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده . وهي من ثم تلتقي - مع سائر المجتمعات الأخرى - في صفة واحدة .. صفة " الجاهلية " ..
 وهذا يقودنا إلى القضية الخطيرة وهي منهج الإسلام في مواجهة الواقع البشري كله .. اليوم وغداً وإلى آخر الزمان .. وهنا ينفعنا ما قررناه في الفقرة الأولى عن " طبيعة المجتمع المسلم " ، وقيامه على العبودية لله وحده في أمره كله .

إن تحديد هذه الطبيعة يجيب إجابة حاسمة عن هذا السؤال :

- ما الأصل الذي ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه ؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة ؟ أم هو الواقع البشري أيّاً كان ؟

إن الإسلام يجيب على هذا السؤال إجابة حاسمة لا يتلعم فيها ولا يتردد لحظة .. إن الأصل الذي يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية بمحملتها هو دين الله ومنهجه للحياة .. إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله التي هي ركن الإسلام الأول ، لا تقوم ولا تؤدي إلا أن يكون هذا هو الأصل .. وأن العبودية لله وحده مع التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله - ﷺ - لا تتحقق إلا أن يعترف بهذا الأصل ، ثم يتبع اتباعاً كاملاً بلا تلعم ولا تردد : { وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا } [الحشر : ٧]

ثم إن الإسلام يسأل : { أأنتم أعلم أم الله } ويجيب : { والله أعلم وأنتم لا تعلمون } .. { وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً } .. والذي يعلم - والذي يخلق ويرزق كذلك - هو الذي يحكم .. ودينه الذي هو منهجه للحياة ، هو الأصل الذي ترجع إليه الحياة .. أما واقع البشر ونظرياتهم ومذاهبهم فهي تفسد وتتحرف ، وتقوم على علم البشر الذين لا يعلمون ، والذين لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً !

ودين الله ليس غامضاً ، ومنهجه للحياة ليس مائعاً .. فهو محدد بشطر الشهادة الثاني : محمد رسول الله ، فهو محصور فيما بلغه رسول الله - ﷺ - ، من النصوص في الأصول .. فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم ، ولا اجتهد مع النص .. وإن لم يكن هناك نص فهنا يجيء دور الاجتهاد - وفق أصوله المقررة في منهج الله ذاته . لا وفق الأهواء والرغبات - : { فإن تنازعتم في شئٍ فردوه إلى الله والرسول } .. [النساء : ٥٩]

والأصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة .. فليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه : هذا شرع الله ، إلا أن تكون الحاكمية العليا لله معلنة ، وأن يكون مصدر السلطات هو الله سبحانه لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أي من البشر ، وأن يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله لمعرفة ما يريد الله ولا يكون هذا لكل من يريد أن يدعي سلطاناً باسم الله . كالذي

عرفته أوروبا ذات يوم باسم " الشيوعية " أو " الحكم المقدس " فليس شيء من هذا في الإسلام . وما يملك أحد أن ينطق باسم الله إلا رسوله - ﷺ - وإنما هنالك نصوص معينة هي التي تحدد ما شرع الله

إن كلمة " الدين للواقع " يساء فهمها، ويساء استخدامها كذلك . نعم إن هذا الدين للواقع . ولكن أي واقع ! .. إنه الواقع الذي ينشئه هذا الدين نفسه، وفق منهجه، منطبقاً على الفطرة البشرية في سوائها، ومحققاً للحاجات الإنسانية الحقيقية في شمولها . هذه الحاجات التي يقررها الذي خلق، والذي يعلم من خلق: { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الملك: ١٤] والدين لا يواجه الواقع أياً كان ليقرّه ويبحث له عن سند منه، وعن حكم شرعي يعلقه عليه كاللافتة المستعارة ! إنما يواجه الواقع ليزنه بميزانه، فيقر منه ما يقر، ويلغي منه ما يلغي، وينشئ واقعاً غيره إن كان لا يرتضيه، وواقع الذي ينشئه هو الواقع . وهذا هو المعنى بأن الإسلام: " دين للواقع " .. أو ما يجب أن تعنيه في مفهومها الصحيح ! ولعله يثار هنا سؤال: " أليست مصلحة البشر هي التي يجب أن تصوغ واقعهم ؟ " ! . ومرة أخرى نرجع إلى السؤال الذي يطرحه الإسلام ويوجب عليه: { أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ } ؟ { وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } ! إن مصلحة البشر متضمنة في شرع الله، كما أنزله الله، وكما بلغه عنه رسول الله .. فإذا بدا للبشر ذات يوم أن مصلحتهم في مخالفة ما شرع الله لهم، فهم .. أولاً: " واهمون " فيما بدا لهم . { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى، أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمْتَلَى، فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى } ... [النجم: ٢٣-٢٥] وهم .. ثانياً: " كافرون " .. فما يدعي أحد أن المصلحة فيما يراه هو مخالفاً لما شرع الله، ثم يبقى لحظة واحدة على هذا الدين . ومن أهل هذا الدين ! ٢٠

٩ - الجماعة المناصرة:

مما لا شك فيه أن كل دعوة من الدعوات أياً كانت لا بد لها من جماعة تنهض بها وتنصرها، وأن وجود الجماعة هو العامل الأساس في قيام الدعوة ورسوخها وبقائها، ووجود الجماعة المناصرة لدعوة الحق هو أول عامل في تمكينها وتحقيق العاقبة لها . ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذا في كتابه وبين أن وجود الجماعة المؤمنة المناصرة هو التأييد منه سبحانه لدعوة الحق، والسبب الظاهر في تحقق النصر، قال سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ: { وَإِنْ يُرِيدُوا

٢٠ - معالم في الطريق بتحقيقي (ص: ٨٨)

أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ { (٦٢) سورة الأنفال، قال ابن كثير: "أي جمعها على الإيمان بك وعلى طاعتك ومناصرتك ومؤازرتك".^{٢١}

فالجماعة التي تكون عاملاً أساسياً في ظهور دعوة الحق وتمكينها، لا بد لها من أمرين:

١- أن تكون مؤمنة.

٢- أن تكون مناصرة لدين الله حق المناصرة.

ومتى فقدت الجماعة هذين الأمرين أو أحدهما، أو نقصت في أحدهما، تخلف النصر والظهور، ولو كان ولاؤها لدين الله، ولا أدل على ذلك مما حدث مع نبي الله موسى وأخيه هارون - على نبينا وعليهم الصلاة والسلام - وهما يستحثان قومهما للدخول في الأرض التي كتبها الله لهم.

قال سبحانه وتعالى على لسان موسى: { يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ } (٢١) سورة المائدة، فعند التأمل في قوله " كتب الله لكم " نجد التعبير بكلمة (كتب) له غاية من التأكيد تفيد أن الأرض لهم قد كتبها الله في علم الأزل لهم وقدر أنها ستكون تحت تصرفهم - وبالفعل كانت لهم فيما بعد ودخلوها - ولكن نرى هنا كيف نكلت الجماعة المؤمنة عن نصره أمر الله، وتحقيق ما كتب الله لهم، فامتنعت عن القتال، وتلكأت عن تنفيذ الأمر بمعاذير هي غاية في الجبن والهلع وعدم الثقة بوعده الله ورسوله، وسوء الأدب مع الله وأنبيائه: { قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } (٢٤) سورة المائدة.

وعند فقدان المناصرة من الجماعة المؤمنة تأخر ذلك الوعد المكتوب بدخول بني إسرائيل ولم يتخلف في ذاته، وإنما تخلف أولئك الناكلون فلم يستحقوا أن ينالوا ما كُتب لهم، وهنا نرى في وضوح كوضوح النهار كيف تنحط الدعوة من مراتب عظيمة من التمكين، حين ينكل وينخذل أبناؤها من الجماعة المؤمنة، عن النصر والتنفيذ لأوامر الله وما رضي الله لهم، عند ذلك قال نبي الله موسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام -: { قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } (٢٥) قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين (٢٦) { [المائدة/٢٥، ٢٦].

وهنا نلمس عبرة للمعتبرين ونراها. لقد أصبحت الأرض المكتوبة لهم محرمة عليهم جزاء إنخذالهم ونكولهم عن نصره أمر الله ونبيه. وفي الجانب المشرق نرى كيف يكتب الله سبحانه وتعالى التمكين والرفعة للجماعة المؤمنة، حين تتبنى نصره دين الله، ولو في ساعة العسرة، وكثرة المخالفين، وقلة

^{٢١} - تفسير ابن كثير - (ج ٦ / ص ٢٦٥)

المؤمنين، كيف يكتبه الله سبحانه وتعالى لهم ويجوهم ويجعل الرفعة لهم، أبد الآبدين إلى يوم الدين، وهذا جلي واضح ناصح في دعوة نبي الله عيسى -على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام-.

قال تعالى: { فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون (٥٢) ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكثبنا مع الشاهدين (٥٣) ومكرؤا ومكر الله والله خير الماكرين (٥٤) إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون (٥٥) فأما الذين كفروا فأعدبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين (٥٦) وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين (٥٧) ذلك نثوه عليكم من الآيات والذكر الحكيم (٥٨) } [آل عمران].

إن تبني نصره دعوة الحق في ظروف صعبة كهذه محاطة بالعداء لمن انتمى إليها؛ العداء الظاهر والمكر الغادر من جانب آخر، عداء حتى لنبي يروونه أمام أعينهم يحمي الموتى بإذن الله، ويرى الأكمه والأبرص بإذن الله، ويبلغ العداء بهم لدعوته رغم ما يروونه من آيات بيده لا يمكن أن تأتي إلا من عند الله أن يسعوا لقتله وصلبه، هذا كله منصب على الداعي رغم ما معه من الآيات، فما بالك بما سيناله من انتمى إلى دعوته أو انحاز إليها من العداء والنكال، إن مثل هذا الحال ليحتمل من المستحيل أو العسير حتى التفكير في الانضمام للدعوة والإيمان بها. وهنا يأتي موقف النصره ظاهراً رغم كل هذه الأحوال؛ يأتي قويا مدويا { نحن أنصار الله } على مسامع الملأ ورغم كيدهم وعدائهم ومكرهم، وهنا عبرة كذلك يجب ألا تنسى وأن تكون موضع الاهتمام، وهي أن تبني نصره الدين في ظروف تشير إلى أن الهلاك محقق لمن انضم إليه - فضلاً عما ناصره - سبب مباشر في حصول أسباب غيبية من الله وظاهرة تجعل أولئك المناصرين للدعوة - يوم لا ناصر لها من قبل الناس وكل لها عدو - في أعلى مراتب الظهور والغلبة والنصر.

قال تعالى: { واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون } (٢٦) سورة الأنفال، اذكروا هذا لتستيقنوا أن الرسول يدعوكم لما يحبيكم؛ واذكروه كي لا تقعدوا عن مكافحة الظلم في كل صوره وأشكاله.. اذكروا أيام الضعف والخوف، قبل أن يوجهكم الله إلى قتال المشركين، وقبل أن يدعوكم الرسول إلى الطائفة ذات الشوكة وأنتم كارهون.. ثم انظروا كيف صرتم بعد الدعوة المحيية التي انقلبتم بها أعزاء منصورين مأجورين مرزوقين. يرزقكم الله من الطيبات ليؤهلكم لشكره فتؤجروا على شكركم لفضله!

وحض سبحانه وتعالى المؤمنين على نصره دينه، ووعدهم عليها بالنصر والتمكين، قال سبحانه وتعالى: { يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم } (٧) سورة محمد.

وقال سبحانه وتعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ } (١٤) سورة الصف

١٠ - اتباع الطريق الصحيح لإقامة الدولة الإسلامية

إن الجهاد والعزة قرينان، كما أن ترك الجهاد وذل الأمة بتكالب الأعداء عليها ونهبهم لخيراتهما قرينان، وإنما سُلطَ الذل على الأمة عقوبة من الله تعالى، لا لأن الكفار أقوى من المسلمين في العدد والعدة ولكن لركون المسلمين إلى الدنيا وانغماسهم في الحرامات كربا العينة وتركهم للواجبات كالجهاد في سبيل الله.

فتأمل قول الرسول ﷺ: فعن ابن عمر، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»^{٢٢}

تجد أن هذا الحديث يصور واقع الأمة المير، لتركها لرسالتها وانشغالها بالدنيا وارتكابها للمحرمات، فكانت النتيجة العقوبة من الله تعالى بتسليط الذل عليها الذي لا يترعه الله تعالى ويرفعه إلا بعودة الأمة إلى دينها وشرعية ربها التي لا صلاح لها ولا فلاح في الدنيا والآخرة إلا بهذا الدين العظيم الذي من عظمته وكمال أحكامه أن شرع الله فيه الجهاد لمنع الفساد في الأرض.

ولهذا نبه الله تعالى إلى هذا الفضل بقوله تعالى: (وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصُلُواتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا). وقال تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).

إن الضعف وترك الجهاد مطمعة للأعداء في خيرات الأمة وأراضيها، فعندما سرى الوهن في قلوب كثير من المسلمين فأحبوا الدنيا وكرهوا القتال تكالب عليهم الأعداء من كل صوب يأخذون خيراتهم وديارهم ويسومونهم سوء العذاب.

^{٢٢} - سنن أبي داود (٣/ ٢٧٤) (٣٤٦٢) صحيح

قَوْلُهُ: (بِالْعِينَةِ) بِكَسْرِ الْعَيْنِ الْمُهِمْلَةِ ثُمَّ يَاءٍ تَحْتِيَّةٍ سَاكِنَةٍ ثُمَّ نُونٍ. قَالَ الْحَوْهَرِيُّ: الْعِينَةُ بِالْكَسْرِ السَّلْفُ وَقَالَ فِي الْقَامُوسِ: وَعَيْنٌ أَخَذَ بِالْعِينَةِ بِالْكَسْرِ أَيُّ: السَّلْفِ، أَوْ أُعْطِيَ بِهَا قَالَ: وَالتَّاجِرُ بَاعَ سِلْعَتَهُ بِثَمَنِ إِلَى أَجَلٍ ثُمَّ اشْتَرَاهَا مِنْهُ بِأَقْلٍ مِنْ ذَلِكَ الثَّمَنِ اهـ قَالَ الرَّافِعِيُّ: وَبِيعَ الْعِينَةُ هُوَ أَنْ يَبِيعَ شَيْئًا مِنْ غَيْرِهِ بِثَمَنِ مُؤَجَّلٍ وَيُسَلَّمَهُ إِلَى الْمُشْتَرِي ثُمَّ يَشْتَرِيهِ قَبْلَ قَبْضِ الثَّمَنِ بِثَمَنِ نَقْدٍ أَقْلٍ مِنْ ذَلِكَ الْقَدْرِ انْتَهَى. نيل الأوطار (٥/ ٢٤٥)

عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»، فقال قائلٌ: وَمِنْ قَلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قال: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»، فقال قائلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وما الوهن؟ قال: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»^{٢٣}

وعن أبي هريرة، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لثُوبَانَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا ثُوبَانُ، إِذْ تَدَاعَتْ عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ كَتْدَاعِيكُمْ عَلَى قِصْعَةِ الطَّعَامِ تُصَيَّبُونَ مِنْهُ؟ قال ثوبان: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ قَلَّةٍ بِنَا؟ قال: لا، بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ يُلْقَى فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنُ قَالُوا: وما الوهن؟ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: حُبُّكُمْ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَتُكُمْ الْقِتَالَ.^{٢٤}

وفي هذا الحديث وسابقه أن الوهن الذي ألقى في القلوب هو عقوبة من الله تعالى لميل الأمة إلى الدنيا وتخليها عن حمل الرسالة والجهاد في سبيل الله لا لأن الكفار سبقوها بالعدة والعدد.

إن الأمة الإسلامية تملك مقومات النصر، وعندها أسبابها ولكنها لم تعمل بها ولم تقم بها حق القيام، فالنصر لا يُنال إلا من عند الله فقد قال تعالى: (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ)، وقال تعالى: (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ).

والله تعالى وعدنا بالنصر إذا قمنا بأسباب النصر حق القيام؛ فنصرنا دين الله تعالى وحكمنا شرعه في أنفسنا وأهلينا وفي جميع شؤون حياتنا قال تعالى: (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)، وقال تعالى: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ). فإذا أقمنا شرع الله فينا كما أمر الله تعالى حينئذ يتحقق لنا ما وعدنا ربنا تبارك وتعالى من النصر والتمكين. قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور: ٥٥]^{٢٥}



^{٢٣} - سنن أبي داود (٤/ ١١١) (٤٢٩٧) صحيح

^{٢٤} - مسند أحمد (عالم الكتب) (٣/ ٣٤٥) (٨٧١٣) ٨٦٩٨ - صحيح لغيره

^{٢٥} - انظر كتاب عوامل النصر والتمكين

الباب الثاني

عوامل النصر الخاصة في القرآن والسنة

١ - الإيمان المطلق :

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿الم {١} ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ {٢} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ {٣} وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ {٤} أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {٥}﴾ لا شك في أن هذا القرآن (الكتاب) منزل من عند الله، وهو هدى ونور يهتدي به المتقون، الذين يجتهدون في العمل بطاعة الله، ويتقون الشر وأَسباب العقاب .

وهؤلاء المتقون هم الذين يُصدِّقون بحزم وإيمان وإذعان بما لا يقع تحت حواسِّهم (الغيب) فيؤمنون بالله، وبملائكته وكتبه ورسله وحيثه ولقائه، وبالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ . وهم يُقيمون الصَّلَاةَ، ويؤدُّونها حقَّ أدائها ويَتِمُّون - بِخُشُوعٍ تامٍّ، وحُضُورٍ قَلْبٍ - رُكُوعَهَا وسُجُودَهَا وتِلَاوَتَهَا، وَيُنْفِقُونَ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فِي وُجُوهٍ الْخَيْرِ، وَيُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ .

وهؤلاء المتقون هم الذين يُصدِّقون بما جئت به يا مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وبما أُنزِلَ عَلَى مَنْ قَبْلِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ، وَلَا يَجْحَدُونَ بِمَا جَاءُوا بِهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ بِصِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ النَّبِيُّاتُ مِنَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ فِي الْآخِرَةِ .

فهؤلاء الْمُتَصِفُونَ بِالصِّفَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ: مِنْ إِيْمَانٍ بِاللَّهِ، وَإِيْمَانٍ بِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَتَادِيَةِ الزَّكَاةِ... هُمْ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَنُورٍ وَبَصِيرَةٍ، وَهُمْ الْمُفْلِحُونَ الْفَائِزُونَ الَّذِينَ أَدْرَكُوا مَا طَلَبُوهُ بَعْدَ السَّعْيِ الْحَثِيثِ فِي الْحُصُولِ عَلَيْهِ، وَنَجَوْا مِنْ شَرِّ مَا اجْتَنَبُوهُ ..^{٢٦}

لا بد لمن يريد أن يجد الهدى في القرآن أن يجيء إليه بقلب سليم. بقلب خالص. ثم أن يجيء إليه بقلب يخشى ويتوقى، ويحذر أن يكون على ضلالة، أو أن تستهويه ضلالة .. وعندئذ يفتح القرآن عن أسرارهِ وأنوارهِ، ويسكبها في هذا القلب الذي جاء إليه متقياً، خائفاً، حساساً، مهياً للتلقي .. ورد أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال بلى! قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت. قال: فذلك التقوى ..

فذلك التقوى .. حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتوق لأشواق الطريق .. طريق الحياة .. الذي تتجاذبه أشواق الرغائب والشهوات، وأشواق المطامع والمطامح، وأشواق

^{٢٦} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٠)، بترقيم الشاملة (آليا)

المخاوف والهواجس، وأشواق الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة رجاء، والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعا ولا ضرا. وعشرات غيرها من الأشواق!

ثم يأخذ السياق في بيان صفة المتقين وهي صفة السابقين من المؤمنين في المدينة، كما أنها صفة الخالص من مؤمني هذه الأمة في كل حين: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» ..

ان السمة الأولى للمتقين هي الشعورية الإيجابية الفعالة. الوحدة التي تجمع في نفوسهم بين الإيمان بالغيب، والقيام بالفرائض، والإيمان بالرسول كافة، واليقين بعد ذلك بالآخرة .. هذا التكامل الذي تمتاز به العقيدة الإسلامية، وتتماز به النفس المؤمنة بهذه العقيدة، والجدير بأن تكون عليه العقيدة الأخيرة التي جاءت ليلتقي عليها الناس جميعا، ولتهيمن على البشرية جميعا، وليعيش الناس في ظلها بمشاعرهم ومنهج حياتهم حياة متكاملة، وشاملة للشعور والعمل، والإيمان والنظام.

فإذا نحن أخذنا في تفصيل هذه السمة الأولى للمتقين إلى مفرداتها التي تتألف منها، انكشفت لنا هذه المفردات عن قيم أساسية في حياة البشرية جميعا ..

«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» .. فلا تقوم حواجز الحس دون الاتصال بين أرواحهم والقوة الكبرى التي صدرت عنها، وصدر عنها هذا الوجود ولا تقوم حواجز الحس بين أرواحهم وسائر ما وراء الحس من حقائق وقوى وطاقات وخلائق وموجودات.

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس - أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس - وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير. كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ويتلقى أصداءه وإجاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود. وأن وراء الكون ظاهره وخافيه، حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده .. حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول.

وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له، وما لم توهب القدرة للإحاطة به، وما لا يجدي شيئا أن تنفق فيه. إن الطاقة الفكرية التي وهبها الإنسان، وهبها ليقوم بالخلافة في هذه الأرض، فهي موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة، تنظر فيها، وتعمقها وتتقصاها، وتعمل وتنتج، وتنمي هذه الحياة وتحملها، على أن يكون لها سند من تلك الطاقة الروحية

التي تتصل مباشرة بالوجود كله وخالق الوجود، وعلى أن تدع للمجهول حصته في الغيب الذي لا تحيط به العقول. فأما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة بحدود هذه الأرض والحياة عليها، دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة، وترك حصة للغيب لا ترتادها العقول.. فأما هذه المحاولة فهي محاولة فاشلة أولاً، ومحاولة عابثة أخيراً. فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال. وعابثة لأنها تبذل طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال.. ومتى سلم العقل البشري بالبيهيمة العقلية الأولى، وهي أن الحدود لا يدرك المطلق، لزمه - احتراماً لمنطقه ذاته - أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل وإنّ عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن، والغيب والشهادة.. وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين.

لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة. ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان، كجماعة الماديين في كل زمان، يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقري.. إلى عالم البهيمة الذي لا وجود فيه لغير المحسوس! ويسمون هذا «تقدمية» وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها، فجعل صفتهم المميزة، صفة: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» والحمد لله على نعمائه، والنكسة للمنتكسين والمرتكسين! «وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ».. فيتجهون بالعبادة لله وحده، ويرتفعون بهذا عن عبادة العباد، وعبادة الأشياء.

يتجهون إلى القوة المطلقة بغير حدود، ويحنون جباههم لله لا للعبيد والقلب الذي يسجد لله حقاً، ويتصل به على مدار الليل والنهار، يستشعر أنه موصول السبب بواجب الوجود، ويجد لحياته غاية أعلى من أن تستغرق في الأرض وحاجات الأرض، ويحس أنه أقوى من المخاليق لأنه موصول بخالق المخاليق.. وهذا كله مصدر قوة للضمير، كما أنه مصدر تخرج وتقوى، وعامل هام من عوامل تربية الشخصية، وجعلها ربانية التصور، ربانية الشعور، ربانية السلوك.

« وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ».. فهم يعترفون ابتداءً بأن المال الذي في أيديهم هو من رزق الله لهم، لا من خلق أنفسهم ومن هذا الاعتراف بنعمة الرزق ينبثق البر بضعاف الخلق، والتضامن بين عيال الخالق، والشعور بالآصرة الإنسانية، وبالأخوة البشرية.. وقيمة هذا كله تتجلى في تطهير النفس من الشح، وتزكيتها بالبر. وقيمتها أنها ترد الحياة مجال تعاون لا معترك تطاحن، وأنها تؤمن العاجز والضعيف والقاصر، وتشعرهم أنهم يعيشون بين قلوب ووجوه ونفوس، لا بين أظفار ومخالب ونيوب! والإنفاق يشمل الزكاة والصدقة، وسائر ما ينفق في وجوه البر. وقد شرع الإنفاق قبل أن تشرع الزكاة، لأنه الأصل الشامل الذي تخصصه نصوص الزكاة ولا تستوعبه. وقد ورد عن فاطمة بنت قيس

عن النَّبِيِّ ﷺ - قال « إِنَّ فِي الْمَالِ حَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ »^{٢٧}... وتقرير المبدأ على شموله هو المقصود في هذا النص السابق على فريضة الزكاة.

«وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ».. وهي الصفة اللائقة بالأمة المسلمة، واثرة العقائد السماوية، ووراثة النبوات منذ فجر البشرية، والحفيظة على تراث العقيدة وتراث النبوة، وحادية موكب الإيمان في الأرض إلى آخر الزمان. وقيمة هذه الصفة هي الشعور بوحدة البشرية، ووحدة دينها، ووحدة رسلها، ووحدة معبودها.. قيمتها هي تنقية الروح من التعصب الذميم ضد الديانات والمؤمنين بالديانات ما داموا على الطريق الصحيح.. قيمتها هي الاطمئنان إلى رعاية الله للبشرية على تطاول أجيالها وأحقاقها.

هذه الرعاية البادية في توالي الرسل والرسالات بدين واحد وهدى واحد. قيمتها هي الاعتزاز بالهدى الذي تتقلب الأيام والأزمان، وهو ثابت مطرد، كالنجم الهادي في دياجير الظلام.

«وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ».. وهذه خاتمة السمات. الخاتمة التي تربط الدنيا بالآخرة، والمبدأ بالمصير، والعمل بالجزاء والتي تشعر الإنسان أنه ليس لقي مهما، وأنه لم يخلق عبثا، ولن يترك سدى وأن العدالة المطلقة في انتظاره، ليطمئن قلبه، وتستقر بلبله، وفيء إلى العمل الصالح، وإلى عدل الله ورحمته في نهاية المطاف.

واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب. بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ما له في هذا الوجود، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء، وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك، وراء هذا الحيز الصغير المحدود.

وكل صفة من هذه الصفات - كما رأينا - ذات قيمة في الحياة الإنسانية، ومن ثم كانت هي صفات المتقين. وهناك تساوق وتناسق بين هذه الصفات جميعا، هو الذي يؤلف منها وحدة متناسقة متكاملة. فالتقوى شعور في الضمير، وحالة في الوجدان، تنبثق منها اتجاهات وأعمال وتتوحد بها المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة وتصل الإنسان بالله في سره وجهره. وتشف معها الروح فتقل الحجب بينها وبين الكلّي يشمل عالمي الغيب الشهادة، ويلتقي فيه المعلوم والمجهول. ومتى شفت الروح وانزاحت الحجب بين الظاهر والباطن، فإن الإيمان بالغيب عندئذ يكون هو الثمرة الطبيعية لإزالة الحجب الساترة، واتصال الروح بالغيب والاطمئنان إليه. ومع التقوى والإيمان بالغيب عبادة الله في الصورة التي اختارها، وجعلها صلة بين العبد والرب. ثم السخاء بجزء من الرزق اعترافا بجميل العطاء، وشعورا بالإحياء. ثم سعة الضمير لموكب الإيمان العريق، والشعور بأصرة القربى لكل مؤمن

^{٢٧} - سنن الترمذي - المكثر [٣ / ١٢٦] (٦٦٢) ضعيف

ولكل نبي ولكل رسالة. ثم اليقين بالآخرة بلا تردد ولا تأرجح في هذا اليقين .. وهذه كانت صورة الجماعة المسلمة التي قامت في المدينة يوم ذاك، مؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار. وكانت هذه الجماعة بهذه الصفات شيئا عظيما. شيئا عظيما حقا بتمثل هذه الحقيقة الإيمانية فيها. ومن ثم صنع الله بهذه الجماعة أشياء عظيمة في الأرض، وفي حياة البشر جميعا .. ومن ثم كان هذا التقرير: «أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» .. وكذلك اهتدوا وكذلك أفلحوا. والطريق للهدى والفلاح هو هذا الطريق المرسوم.^{٢٨}

وقال تعالى: { الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) } [لقمان/١-٦]

هذه هي آيات القرآن الحكيم بيانا وتفصيلا. وهي تهدي من الزَّيْغ الذين أَحَسَّنُوا العمل واتبَعُوا الشَّرِيعَةَ، وتشْفِيهِمْ من الشَّكِّ والضَّلَالَةِ. ثُمَّ يَعْرِفُ اللَّهُ تعالى هؤلاء الذين يُحَسِّنُونَ العمل، ويَهْتَدُونَ بالقرآن، فيَقُولُ: إِنَّهُمْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ عَلَى وَجْهِهَا الْأَكْمَلِ، وَيُتِمُّونَهَا بِخُشُوعِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا، وَيُؤَدُّونَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، وَيُؤْمِنُونَ إِيْمَانًا ثَابِتًا رَاسِخًا بِأَنَّ اللَّهَ سَمِيعُ الْخَلَائِقِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّهُ سَيَحْسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَأَنَّهُ سَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ. وهؤلاء الذين اتَّصَفُوا بِالصِّفَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ، هُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ وَنُورٍ مِنْ رَبِّهِمْ، وهؤلاء هُمُ الْفَائِزُونَ بِمَا أَمَّلُوا مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَرِحَتْ صَفَقَتُهُمْ.^{٢٩}

هذا الكتاب الحكيم. أو آياته. «هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ» فهذه حاله الأصلية الدائمة .. أن يكون هدى ورحمة للمحسنين. هدى يهديهم إلى الطريق الواصل الذي لا يضل سالكوه. ورحمة بما يسكبه الهدى في القلب من راحة وطمأنينة وقرار وما يقود إليه من كسب وخير وفلاح. وبما يعقده من الصلات والروابط بين قلوب المهتدين به ثم بين هذه القلوب ونواميس الكون الذي تعيش فيه، والقيم والأحوال والأحداث التي تتعارف عليها القلوب المهتدية، وتتعارف الفطر التي لا تزيغ ..

والمحسنون هم: «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» .. وإقامة الصلاة وأداؤها على وجهها وفي وقتها أداء كاملا تتحقق به حكمتها وأثرها في الشعور والسلوك، وتنعقد به تلك الصلة الوثيقة بين القلب والرب، ويتم به هذا الأُنس بالله وتذوق حلاوته التي تعلق القلوب بالصلاة .. وإيتاء الزكاة يحقق استعلاء النفس على شحها الفطري، وإقامة نظام حياة الجماعة يرتكن إلى التكافل والتعاون. ويجد الواجدون فيه والمحرومون الثقة والطمأنينة ومودات القلوب التي لم يفسدها

^{٢٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٣٣)

^{٢٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٣٥٢، بترقيم الشاملة آليا)

الترف ولا الحرمان .. واليقين بالآخرة هو الضمان ليقظة القلب البشري، وتطلعه إلى ما عند الله، واستعلائه على أوهاق الأرض، وترفعه على متاع الحياة الدنيا ومراقبة الله في السر والعلن وفي الدقيق والخليل والوصول إلى درجة الإحسان التي سئل عنها رسول الله - ﷺ - فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ٣٠ ..

وهؤلاء المحسنون هم الذين يكون الكتاب لهم هدى ورحمة لأنهم بما في قلوبهم من تفتح وشفافية يجدون في صحبة هذا الكتاب راحة وطمأنينة ويتصلون بما في طبيعته من هدى ونور، ويدركون مراميهِ وأهدافه الحكيمة، وتصطحف نفوسهم عليه، وتحس بالتوافق والتناسق ووحدة الاتجاه، ووضوح الطريق. وإن هذا القرآن ليعطي كل قلب بمقدار ما في هذا القلب من حساسية وتفتح وإشراق ويقدر ما يقبل عليه في حب وتطلع وإعزاز. إنه كائن حي يعاطف القلوب الصديقة، ويجاوب المشاعر المتوجهة إليه بالرفقة والحنين! وأولئك الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم يوقنون بالآخرة .. «أولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون». ومن هدي فقد أفلح، فهو سائر على النور، واصل إلى الغاية، ناج من الضلال في الدنيا، ومن عواقب الضلال في الآخرة وهو مطمئن في رحلته على هذا الكوكب تتناسق خطاه مع دورة الأفلاك ونواميس الوجود فيحس بالأنس والراحة والتجاوب مع كل كائن في الوجود. ٣١

٢ - الإيمان العميق بالله تعالى:

قال تعالى: {واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير} [الأنفال: ٤١]

يُبينُ الله تعالى في هذه الآية طريقة قسمة الغنائم التي يَغنمها المسلمون في الحرب. والغنيمة هي المَالُ المأخوذ من الكفار بإيجاف خيل وركاب. أما الفِيءُ فهو ما أخذ منهم بغير ذلك (أي بدون حرب أو بدون خروج جيوش المسلمين إلى الأعداء: كالأموال التي يُصالحون عليها، أو يموتون عنها دون وارث لهم، والخراج ونحو ذلك).

يقولُ تعالى: اعلموا يا أيها المؤمنون أن كل ما غنمتموه من الكفار المحاربين فاجعلوا أولاً خمسه لله تعالى لينفق فيما يرضيه من مصالح الدين العامة: كالدعوة للإسلام وإقامة شعائره، وعمارة الكعبة

٣٠- صحيح البخارى - المكثر [١٦/ ١٢] (٤٧٧٧)

٣١ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٥٣٨)

وَكِسْوَتِهَا، ثُمَّ أَعْطُوا مِنْهُ لِلرَّسُولِ كِفَايَتَهُ لِنَفْسِهِ وَنِسَائِهِ مُدَّةَ سَنَةٍ، ثُمَّ أَعْطُوا مِنْهُ ذَوِي الْقُرْبَى مِنْ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ نَسَبًا وَوَلَاءً (وَقَدْ خَصَّ الرَّسُولُ ﷺ ذَلِكَ بِنَبِيِّ هَاشِمٍ وَبَنِي أَخِيهِ الْمُطَّلِبِ الْمُسْلِمِينَ)، ثُمَّ الْمُحْتَاجِينَ مِنْ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ، وَابْنُ السَّبِيلِ (وَهُوَ الْمُجْتَازُ الَّذِي نَفِدَتْ نَفَقَتُهُ) . وَهَذَا الْخُمْسُ يُدْفَعُ لِلْإِمَامِ (بَعْدَ الرَّسُولِ) لِيَصْرِفَهُ فِي الْوُجُوهِ الْمُبِينَةِ فِي الْآيَةِ .

وَالْيَتَامَى - هُمْ أَيْتَامُ الْمُسْلِمِينَ - وَقِيلَ: إِنَّ النَّصَّ عَامٌّ يَعْمُ الْأَغْنِيَاءَ مِنَ الْإِيْتَامِ وَالْفُقَرَاءَ .
الْمَسَاكِينِ - هُمْ الْمُحْتَاجُونَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَسُدُّونَ بِهِ حَلَّتَهُمْ .

وَابْنُ السَّبِيلِ - هُوَ الْمُسَافِرُ أَوْ الْمُرِيدُ السَّفَرِ مَسَافَةَ الْقَصْرِ (أَيْ الْمَسَافَةِ الَّتِي يُبَاحُ فِيهَا قَصْرُ الصَّلَاةِ) وَلَيْسَ لَهُ مَا يُنْفِقُهُ فِي سَفَرِهِ .

أَمَّا الْأَخْمَاسُ الْأَرْبَعَةُ الْبَاقِيَةُ فَهِيَ لِلْمُقَاتِلِينَ فَاعْلَمُوا ذَلِكَ، وَاعْمَلُوا بِهِ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ حَقًّا، وَآمَنْتُمْ بِمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ آيَاتِ التَّشْبِيتِ وَالْمَدَدِ يَوْمَ الْفُرْقَانِ الَّذِي فَرَقْنَا فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي التَقَى فِيهِ جَمْعُكُمْ مَعَ جَمْعِ الْمُشْرِكِينَ بِبَدْرٍ، وَاللَّهُ عَظِيمُ الْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ٣٢ .

إِنَّ لِلْإِيمَانِ أُمَارَاتٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ وَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ - يَعْلُقُ الْاعْتِرَافَ لِأَهْلِ بَدْرٍ - وَهُمْ أَهْلُ بَدْرٍ - بِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَبِمَا أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ .. يَعْلُقُ الْاعْتِرَافَ لِأَهْلِ بَدْرٍ هَؤُلَاءِ بِالْإِيمَانِ، عَلَى قَبُولِهِمْ لِمَا شَرَعَ اللَّهُ لَهُمْ فِي أَمْرِ الْعَنَائِمِ فِي صَدْرِ الْآيَةِ فَيَجْعَلُ هَذَا شَرْطًا لاعتبارهم عنده قَدْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِمَا أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ مِنَ الْقُرْآنِ كَمَا يَجْعَلُهُ مَقْتَضَى لِإِعْلَانِهِمُ الْإِيمَانَ لَا بَدَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ لِيَتَحَقَّقَ مَدْلُولُ هَذَا الْإِعْلَانِ.

وهكذا نجد مدلول الإيمان - في القرآن - واضحًا جازمًا لا تَمِيع فيه، ولا تفصيل ولا تأويل مما استحدثته التطويلات الفقهية فيما بعد، عندما وجدت الفرق والمذاهب والتأويلات، ودخل الناس في الجدل والفروض المنطقية الذهنية، كما دخل الناس - بسبب الفرق المذهبية والسياسية - في الاتهامات ودفع الاتهامات وصار النبز بالكفر، ودفع هذا النبز، لا يقومون على الأصول الواضحة البسيطة لهذا الدين إنما يقومون على الغرض والهوى ومكايدة المنافسين والمخالفين! عندئذ وجد من ينبز مخالفه بالكفر لأمر فرعية ووجد من يدفع هذا الاتهام بالتشدد في التحرج والتغليظ على من ينبز غيره بهذه التهمة .. وهذا وذلك غلو سببه تلك الملابس التاريخية .. أما دين الله فواضح جازم لا تَمِيع فيه ولا تفصيل ولا غلو .. « إِنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحْلِي، وَلَا بِالتَّمْنِي، إِنَّمَا الْإِيمَانُ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ » ٣٣ .. ولا بد لقيامه من قبول ما شرع الله وتحقيقه في واقع الحياة .. والكفر: رفض ما شرع

٣٢ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٠٢، بترقيم الشاملة آليا)

٣٣ - مصنف ابن أبي شيبة [٢٢/ ١١] (٣٠٩٨٨) صحيح من قول الحسن البصري

الله، والحكم بغير ما أنزل الله، والتحاكم إلى غير شرع الله .. في الصغير وفي الكبير سواء .. أحكام صريحة جازمة بسيطة واضحة .. وكل ما وراءها فهو من صنع تلك الخلافات والتأويلات .. وهذا نموذج من التقريرات الصريحة الواضحة الجازمة من قول الله سبحانه: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ .. إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ» ..

ومثله سائر التقريرات الواضحة الجازمة الصريحة التي ترسم حقيقة الإيمان وحدوده في كتاب الله. لقد نزع الله ملكية الغنيمة ممن يجمعونها في المعركة وردها إلى الله والرسول - في أول السورة - ليخلص الأمر كله لله والرسول وليتجرد المجاهدون من كل ملابسة من ملابسات الأرض وليسلموا أمرهم كله - أوله وآخره - لله ربهم وللرسول قائدهم وليخوضوا المعركة لله وفي سبيل الله، وتحت راية الله، طاعة لله يحكمونه في أرواحهم، ويحكمونه في أموالهم ويحكمونه في أمرهم كله بلا تعقيب ولا اعتراض ..

فهذا هو الإيمان .. كما قال لهم في مطلع السورة وهو ينتزع منهم ملكية الغنيمة ويردها إلى الله ورسوله: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ..».

حتى إذا استسلموا لأمر الله، وارتضوا حكمه ذاك، فاستقر فيهم مدلول الإيمان .. عاد ليرد عليهم أربعة أخماس الغنيمة، ويستبقي الخمس على الأصل - لله والرسول - يتصرف فيه رسول الله ﷺ، وينفق منه على من يعولهم في الجماعة المسلمة من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .. عاد ليرد عليهم الأخماس الأربعة، وقد استقر في نفوسهم أنهم لا يملكونها ابتداء بحق الغزو والفتح، فهم إنما يغزون لله ويفتحون لدين الله إنما هم يستحقونها بمنح الله لهم إياها كما أنه هو الذي يمنحهم النصر من عنده ويدبر أمر المعركة وأمرهم كله .. وعاد كذلك ليدكرهم بأن الاستسلام لهذا الأمر الجديد هو الإيمان .. هو شرط الإيمان، وهو مقتضى الإيمان ..

«وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ .. إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ» .. وهكذا تتواتر النصوص، لتقرر أصلا واضحا جازما من أصول هذا الدين في اعتبار مدلول الإيمان وحقيقته وشرطه ومقتضاه.

ثم نقف أمام وصف الله - سبحانه - لرسوله ﷺ - بقوله: «عبدنا» في هذا الموضع الذي يرد إليه فيه أمر الغنائم كلها ابتداء، وأمر الخمس المتبقي أخيرا: «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ» ..

إنه وصف موح .. إن العبودية لله هي حقيقة الإيمان وهي في الوقت ذاته أعلى مقام للإنسان يبلغ إليه بتكريم الله له فهي تجلى وتذكر في المقام الذي يوكل فيه إلى رسول الله - ﷺ - التبليغ عن الله، كما يوكل إليه فيه التصرف فيما حوله الله.

وإنه كذلك في واقع الحياة! إنه كذلك مقام كريم .. أكرم مقام يرتفع إليه الإنسان .. إن العبودية لله وحده هي العاصم من العبودية للهوى، والعاصم من العبودية للعباد .. وما يرتفع الإنسان إلى أعلى مقام مقدر له، إلا حين يعتصم من العبودية لهواه كما يعتصم من العبودية لسواه. إن الذين يستنكفون أن يكونوا عبيدا لله وحده، يقعون من فورهم ضحايا لأحط العبوديات الأخرى. يقعون من فورهم عبيدا لهوهم وشهواتهم ونزواتهم ودفعاتهم فيفقدون من فورهم إرادتهم الضابطة التي خص الله بها نوع «الإنسان» من بين سائر الأنواع وينحدرون في سلم الدواب فإذا هم شر الدواب، وإذا هم كالأنعام بل هم أضل، وإذا هم أسفل سافلين بعد أن كانوا - كما خلقهم الله - في أحسن تقويم.

كذلك يقع الذين يستنكفون أن يكونوا عبيدا لله في شر العبوديات الأخرى وأحطها .. يقعون في عبودية العبيد من أمثالهم، يصرفون حياتهم وفق هواهم، ووفق ما يبدو لهم من نظريات واتجاهات قصيرة النظر، مشوبة بحب الاستعلاء، كما هي مشوبة بالجهل والنقص والهوى! ويقعون في عبودية «الاحتميات» التي يقال لهم: إنه لا قبل لهم بها، وإنه لا بد من أن يخضعوا لها ولا يناقشوها .. «احتمية التاريخ» .. و«احتمية الاقتصاد» .. و«احتمية التطور» وسائر الاحتميات المادية التي تمرغ جبين «الإنسان» في الرغام وهو لا يملك أن يرفعه، ولا أن يناقش - في عبوديته البائسة الذليلة - هذه الاحتميات الجبارة المذلة المخيفة! ^{٣٤}

ثم نقف كذلك أمام وصف الله - سبحانه - ليوم بدر بأنه يوم الفرقان: «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ» ..

لقد كانت غزوة بدر - التي بدأت وانتهت بتدبير الله وتوجيهه وقيادته ومدده - فرقانا .. فرقانا بين الحق والباطل - كما يقول المفسرون إجمالا - وفرقانا بمعنى أشمل وأوسع وأدق وأعمق كثيرا ..

كانت فرقانا بين الحق والباطل فعلا .. ولكنه الحق الأصل الذي قامت عليه السماوات والأرض، وقامت عليه فطرة الأشياء والأحياء .. الحق الذي يتمثل في تفرد الله - سبحانه - بالألوهية والسلطان والتدبير والتقدير وفي عبودية الكون كله: سمائه وأرضه، أشيائه وأحيائه، لهذه الألوهية المتفردة ولهذا السلطان المتوحد، ولهذا التدبير وهذا التقدير بلا معقب ولا شريك .. والباطل الزائف الطارئ الذي كان يعم وجه الأرض إذ ذاك ويغشي على ذلك الحق الأصل ويقسيم في الأرض طواغيت

^{٣٤} - يراجع بتوسع كتاب: «التطور والنبات في حياة البشرية» وكتاب: «جاهلية القرن العشرين» لمحمد قطب. «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

تتصرف في حياة عباد الله بما تشاء، وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء!.. فهذا هو الفرقان الكبير الذي تم يوم بدر حيث فرق بين ذلك الحق الكبير وهذا الباطل الطاغى وزيل بينهما فلم يعودا يلتبسان! لقد كانت فرقانا بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل الواسع الدقيق العميق، على أبعاد وآماد: كانت فرقانا بين هذا الحق وهذا الباطل في أعماق الضمير.. فرقانا بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها في الضمير والشعور، وفي الخلق والسلوك، وفي العبادة والعبودية وبين الشرك في كل صوره التي تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات... وكانت فرقانا بين هذا الحق وهذا الباطل في الواقع الظاهر كذلك.. فرقانا بين العبودية الواقعية للأشخاص والأهواء، وللقيم والأوضاع، وللشرائع والقوانين، وللتقاليد والعادات... وبين الرجوع في هذا كله لله الواحد الذي لا إله غيره، ولا متسلط سواه، ولا حاكم من دونه، ولا مشرع إلا إياه.. فارتفعت الهامات لا تنحني لغير الله وتساوت الرؤوس لا تخضع إلا لحاكميته وشرعه وتحررت القطعان البشرية التي كانت مستعبدة للطغاة..

وكانت فرقانا بين عهدين في تاريخ الحركة الإسلامية: عهد الصبر والمصابرة والتجمع والانتظار. وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع.. والإسلام بوصفه تصورا جديدا للحياة، ومنهجاً جديداً للوجود الإنساني، ونظاماً جديداً للمجتمع، وشكلاً جديداً للدولة.. بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير «الإنسان» في «الأرض» بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته، ومطاردة الطواغيت التي تغتصب ألوهيته وحاكميته.. الإسلام بوصفه هذا لم يكن له بد من القوة والحركة والمبادأة والاندفاع، لأنه لم يكن يملك أن يقف كامناً منتظراً على طول الأمد. لم يكن يستطيع أن يظل عقيدة مجردة في نفوس أصحابه، تتمثل في شعائر تعبدية لله، وفي أخلاق سلوكية فيما بينهم. ولم يكن له بد أن يندفع إلى تحقيق التصور الجديد، والمنهج الجديد، والدولة الجديدة، والمجتمع الجديد، في واقع الحياة وأن يزِيل من طريقها العوائق المادية التي تكبتها وتحول بينها وبين التطبيق الواقعي في حياة المسلمين أولاً ثم في حياة البشرية كلها أخيراً.. وهي لهذا التطبيق الواقعي جاءت من عند الله..^{٣٥}

وكانت فرقانا بين عهدين في تاريخ البشرية.. فالبشرية بمجموعها قبل قيام النظام الإسلامي هي غير البشرية بمجموعها بعد قيام هذا النظام.. هذا التصور الجديد الذي انبثق منه هذا النظام. وهذا النظام الجديد الذي انبثق من هذا التصور. وهذا المجتمع الوليد الذي يمثل ميلاداً جديداً للإنسان. وهذه القيم التي تقوم عليها الحياة كلها ويقوم عليها النظام الاجتماعي والتشريع القانوني سواء.. هذا كله لم يعد ملكاً للمسلمين وحدهم منذ غزوة بدر وتوكيد وجود المجتمع الجديد. إنما صار - شيئاً فشيئاً - ملكاً للبشرية كلها تأثرت به سواء في دار الإسلام أم في خارجها، سواء بصداقة الإسلام أم بعداوتة!

^{٣٥} - يراجع ما جاء في الجزء التاسع عن أهداف الجهاد الإسلامي في تقديم سورة الأنفال: ص ١٤٣١ - ١٤٥٢. - دار الشروق (السيد رحمه الله)

..والصليبيون الذين زحفوا من الغرب، ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه في ربوعه، قد تأثروا بتقاليد هذا المجتمع الإسلامي الذي جاءوا ليحطموه وعادوا إلى بلادهم ليحطمو النظام الإقطاعي الذي كان سائدا عندهم، بعد ما شاهدوا بقايا النظام الاجتماعي الإسلامي! والتتار الذين زحفوا من الشرق ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه - بإجاء من اليهود والصليبيين من أهل دار الإسلام! - قد تأثروا بالعقيدة الإسلامية في النهاية وحملوها لينشروها في رقعة من الأرض جديدة وليقيموا عليها خلافة ظلت من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين في قلب أوربا! ..

وعلى أية حال فالتاريخ البشري كله - منذ وقعة بدر - متأثر بهذا الفرقان في أرض الإسلام، أو في الأرض التي تناهض الإسلام على السواء» .

وكانت فرقانا بين تصورين لعوامل النصر وعوامل الهزيمة. فجرت وكل عوامل النصر الظاهرية في صف المشركين وكل عوامل الهزيمة الظاهرية في صف العصبة المؤمنة، حتى لقال المنافقون والذين في قلوبهم مرض: «غر هؤلاء دينهم» .. وقد أراد الله أن تجري المعركة على هذا النحو - وهي المعركة الأولى بين الكثرة المشتركة والقلة المؤمنة - لتكون فرقانا بين تصورين وتقديرين لأسباب النصر وأسباب الهزيمة ولتنتصر العقيدة القوية على الكثرة العددية وعلى الزاد والعتاد فيتبين للناس أن النصر للعقيدة الصالحة القوية، لا لمجرد السلاح والعتاد وأن أصحاب العقيدة الحقّة عليهم أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة مع الباطل غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية الظاهرية، لأنهم يملكون قوة أخرى ترجح الكفة وأن هذا ليس كلاما يقال، إنما هو واقع متحقق للعيان.

وأخيرا فلقد كانت بدر فرقانا بين الحق والباطل بمدلول آخر. ذلك المدلول الذي يوحى به قول الله تعالى في أوائل هذه السورة: «وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَه تَكُونُ لَكُمْ، وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ، لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».

لقد كان الذين خرجوا للمعركة من المسلمين، إنما خرجوا يريدون غير أبي سفيان واغتنام القافلة. فأراد الله لهم غير ما أرادوا. أراد لهم أن تفلت منهم قافلة أبي سفيان (غير ذات الشوكة) وأن يلاقوا نفيير أبي جهل (ذات الشوكة) وأن تكون معركة وقتال وقتل وأسر ولا تكون قافلة وغنيمة ورحلة مريحة! وقال لهم الله - سبحانه - إنه صنع هذا: «لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ» ..

وكانت هذه إشارة لتقرير حقيقة كبيرة .. إن الحق لا يحق، وإن الباطل لا يبطل - في المجتمع الإنساني - بمجرد البيان «النظري» للحق والباطل. ولا بمجرد الاعتقاد «النظري» بأن هذا حق وهذا باطل .. إن الحق لا يحق ولا يوجد في واقع الناس وإن الباطل لا يبطل ولا يذهب من دنيا الناس. إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق، وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحق ويظهروا، ويهزم جند الباطل ويندحروا ..

فهذا الدين منهج حركي واقعي، لا مجرد «نظرية» للمعرفة والجدل! أو مجرد الاعتقاد السلبي! ولقد حق الحق وبطل الباطل بالموقعة وكان هذا النصر العملي فرقانا واقعيا بين الحق والباطل بهذا الاعتبار الذي أشار إليه قول الله تعالى في معرض بيان إرادته - سبحانه - من وراء المعركة، ومن وراء إخراج الرسول - ﷺ - من بيته بالحق ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشوكة) ولقاء الفئة ذات الشوكة ..

ولقد كان هذا كله فرقانا في منهج هذا الدين ذاته، تتضح به طبيعة هذا المنهج وحقيقته في حس المسلمين أنفسهم.. وإنه لفرقان ندرك اليوم ضرورته حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع في نفوس من يسمون أنفسهم مسلمين! حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين!

وهكذا كان يوم بدر «يوم الفرقان يوم التقى الجمعان» بهذه المدلولات المنوعة الشاملة العميقة ..
«والله على كل شيء قدير» ..

وفي هذا اليوم مثل من قدرته على كل شيء .. مثل لا يجادل فيه مجادل، ولا يماري فيه ممار .. مثل من الواقع المشهود، الذي لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرته الله. وأن الله على كل شيء قدير^{٣٦}

٣ - العمل الصالح :

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {٥٥} النور﴾
هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيجعل من أمته خلفاء في الأرض، وأئمة للناس، وأنه سيبدلهم بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم. وقد أمضى المسلمون عشر سنين في مكة يدعون الناس إلى الإسلام سرّاً، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة، وأمروا بالقتال، فكاثروا خائفين يمسون بالسلاح، ويصيحون بالسلاح، فصبروا على ذلك ما شاء الله. ثم إن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ ما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع السلاح؟ فقال الرسول ﷺ: لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الماء العظيم محتبياً ليست فيه حديدة). وأنزل الله تعالى هذه الآية .

^{٣٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٥٧)

وفي هذه الآية يقول تعالى إِنَّهُ سَيَسْتَخْلِفُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَرْضِ، كما استخلف المؤمنين من قبلهم، وسيكون لهم الأمر. وحق الله على العباد أن يعبدوه وحده لا شريك له، ومن خرج بعد ذلك عن طاعة ربه، ووجد نعمة عليه، فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً^{٣٧}..

عن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: "لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوئهم الأنصار، رمثهم العرب عن قوس واحدة كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أننا نعيش حتى نبیت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله؟ فترلت: وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم إلى ومن كفر بعد ذلك المستدرك^{٣٨} .

ذلك وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد - ﷺ - أن يستخلفهم في الأرض. وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم. وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمناً.. ذلك وعد الله. ووعد الله حق. ووعد الله واقع. ولن يخلف الله وعده.. فما حقيقة ذلك الإيمان؟ وما حقيقة هذا الاستخلاف؟

إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله وتوجه النشاط الإنساني كله. فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله لا يبتغي به صاحبه إلا وجه الله وهي طاعة لله واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة، لا يبقى معها هوى في النفس، ولا شهوة في القلب، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله - ﷺ - من عند الله.

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه. وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفقات جوارحه، وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعاً. ويتوجه بهذا كله إلى الله.. يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن: «يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكْ بِي شَيْئاً» والشرك مداخل وألوان، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله. ذلك الإيمان منهج حياة كامل، يتضمن كل ما أمر الله به، ويدخل فيما أمر الله به توفير الأسباب، وإعداد العدة، والأخذ بالوسائل، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض.. أمانة الاستخلاف.. فما حقيقة الاستخلاف في الأرض؟

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم.. إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخلقها أكرمها الله.

^{٣٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٧٢٨، بترقيم الشاملة آليا)

^{٣٨} - (ج ٣ / ص ١٦٩) برقم (٣٥١٢) وهو حديث حسن

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد. وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر. وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان! وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض - كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم - ليحققوا النهج الذي أراده الله ويقرروا العدل الذي أراده الله ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله .. فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض، وينشرون فيها البغي والجور، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان .. فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض. إنما هم مبتلون بما هم فيه، أو مبتلى بهم غيرهم، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله آية هذا الفهم لحقيقة الاستخلاف قوله تعالى بعده: «وَلِيُمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ» .. وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتديرها. فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم في الأرض، وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض. ودينهم يأمر بالإصلاح، ويأمر بالعدل، ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض. ويأمر بعمارة هذه الأرض، والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة، ومن رصيد، ومن طاقة، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله.

« وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا » .. ولقد كانوا خائفين، لا يأمنون، ولا يضعون سلاحهم أبدا حتى بعد هجرة الرسول - ﷺ - إلى قاعدة الإسلام الأولى بالمدينة.

عن أبي العالِيَةِ، فِي قَوْلِهِ: " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا " إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِمَكَّةَ نَحْوًا مِنْ عَشْرِ سِنِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ سِرًّا وَهُمْ خَائِفُونَ لَا يُؤْمَرُونَ بِالْقِتَالِ، حَتَّى أُمِرُوا بَعْدَ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَدِمُوا الْمَدِينَةَ فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالْقِتَالِ وَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ يُمَسُّونَ فِي السَّلَاحِ، وَيُصْبِحُونَ فِي السَّلَاحِ، فغَبِرُوا بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَبَدَ الدَّهْرِ نَحْنُ خَائِفُونَ هَكَذَا، مَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمَنُ فِيهِ وَنَضَعُ فِيهِ السَّلَاحَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَنْ تَغْبِرُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلَأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْسَتْ فِيهِ حَدِيدَةٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا " إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ نَبِيَّهُ عَلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فَأَمِنُوا وَوَضَعُوا السَّلَاحَ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ نَبِيَّهُ ﷺ فَكَانُوا كَذَلِكَ آمِنِينَ فِي

إِمَارَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ حَتَّى وَقَعُوا فِيهَا وَقَعُوا وَكَفَرُوا بِالنَّعْمَةِ فَأَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْخَوْفَ الَّذِي كَانَ رُفِعَ عَنْهُمْ، وَاتَّخَذُوا الْحِجْرَةَ، وَالشَّرْطَ وَغَيَّرُوا غَيْرَ مَا بِهِمْ^{٣٩}.

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الْمَدِينَةَ وَأَوْتَهُمُ الْأَنْصَارُ، رَمَتْهُمْ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ كَانُوا لَا يَبْتَغُونَ إِلَّا بِالسَّلَاحِ وَلَا يُصْبِحُونَ إِلَّا فِيهِ، فَقَالُوا: تَرَوْنَ أَنَا نَعِيشُ حَتَّى نَبِيتَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ لَا نَخَافُ إِلَّا اللَّهَ؟ فَتَرَلْتُ: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور: ٥٥].^{٤٠}

«وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».. الخارجون على شرط الله.. ووعد الله.. وعهد الله.. لقد تحقق وعد الله مرة.. وظل متحققا وواقعا ما قام المسلمون على شرط الله: «يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا».. لا من الآلهة ولا من الشهوات.. ويؤمنون - من الإيمان - ويعملون صالحا.. ووعد الله مذكور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة.. إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين والأمن..

لتخلف شرط الله في جانب من جوانبه الفسيحة أو في تكليف من تكليفه الضخمة حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء، وجازت الابتلاء، وخافت فطلبت الأمن، وذلت فطلبت العزة، وتخلفت فطلبت الاستخلاف.. كل ذلك بوسائله التي أرادها الله، وبشروطه التي قررها الله.. تحقق وعد الله الذي لا يتخلف، ولا تقف في طريقة قوة من قوى الأرض جميعا.

لذلك يعقب على هذا الوعد بالأمر بالصلاة والزكاة والطاعة وبألا يحسب الرسول - ﷺ - وأمته حسابا لقوة الكافرين الذين يحاربونهم ويحاربون دينهم الذي ارتضى لهم: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».. لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض.. وماؤهم النار ولبيس المصير»..

فهذه هي العدة.. الاتصال بالله، وتقويم القلب بإقامة الصلاة.. والاستعلاء على الشح، وتطهير النفس والجماعة بإيتاء الزكاة.. وطاعة الرسول والرضى بحكمه، وتنفيذ شريعة الله في الصغيرة والكبيرة، وتحقيق النهج الذي أراده للحياة: «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» في الأرض من الفساد والانحدار والخوف والقلق والضلال، وفي الآخرة من الغضب والعذاب والنكال.

^{٣٩} - تفسير ابن أبي حاتم [١٠/ ١٩٣] (١٥٥٦٨) وتفسير ابن كثير - دار طيبة [٦/ ٧٩] والدر المنثور للسيوطي - موافق للمطبوع

[١١/ ٩٧] حسن

^{٤٠} - المستدرک للحاکم مشکلا [٣/ ١٦٩] (٣٥١٢) صحيح - زيادة مني

فإذا استقمتم على النهج، فلا عليكم من قوة الكافرين. فما هم بمعجزين في الأرض، وقوتهم الظاهرة لن تقف لكم في طريق. وأنتم أقوياء بإيمانكم، أقوياء بنظامكم، أقوياء بعدتكم التي تستطيعون. وقد لا تكونون في مثل عدتهم من الناحية المادية. ولكن القلوب المؤمنة التي تجاهد تصنع الخوارق والأعاجيب. إن الإسلام حقيقة ضخمة لا بد أن يتملاها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد الله في تلك الآيات. ولا بد أن يبحث عن مصداقها في تاريخ الحياة البشرية، وهو يدرك شروطها على حقيقتها، قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب، أو يستبطئ وقوعها في حالة من الحالات.

إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج الله، وحكمت هذا النهج في الحياة، وارترضته في كل أمورها.. إلا تحقق وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن. وما من مرة خالفت عن هذا النهج إلا تخلفت في ذيل القافلة، وذلت، وطرد دينها من الهيمنة على البشرية واستبد بها الخوف وتحطفتها الأعداء. ألا وإن وعد الله قائم. ألا وإن شرط الله معروف. فمن شاء الوعد فليقم بالشرط. ومن أوفى بعهده من الله؟^{٤١}

٤ - إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال تعالى في سورة الحج: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ {٤١}﴾^{٤١} وَيُتَابِعُ اللَّهُ تَعَالَى وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُظْلَمِينَ يَقُولُ: إِنَّهُمْ الَّذِينَ إِذَا مَكَنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَحَقَّقَ لَهُمُ النَّصْرَ وَالْغَلْبَةَ، وَجَعَلَ لَهُمُ الْعَاقِبَةَ، عَمِلُوا بِأَمْرِ اللَّهِ، وَاجْتَنَبُوا مَا نَهَاَهُمْ عَنْهُ، فَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَأَدَّوْهَا حَقَّ أَدَائِهَا، وَدَفَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَوْا النَّاسَ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ وَمَا يُرْضِي اللَّهَ، وَنَهَوْا الْمُتَجَاوِزِينَ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ عَنْ فِعْلِ الْمُنْكَرِ. وَعِنْدَ اللَّهِ حِسَابُ النَّاسِ جَمِيعاً فِي نِهَآيَةِ الْمَطَافِ، وَلَهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ، فَيَجْزِي كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى عَمَلِهِ..^{٤٢}

إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان. والشر جامع والباطل مسلح. وهو يبطش غير متحرج، ويضرب غير متورع ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتموا إليه، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له. فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش، وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسوموم.

^{٤١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٢٦٢)

^{٤٢} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٥١٩، بترقيم الشاملة آليا)

ولم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلاً تكافح قوى الطغيان والشر والباطل، اعتماداً على قوة الإيمان في النفوس وتغلغل الحق في الفطر، وعمق الخير في القلوب. فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر. وللصبر حد وللإحتمال أمد، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه.

والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم. ومن ثم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة، إلا ريثما يستعدون للمقاومة، ويتهيأون للدفاع، ويتمكنون من وسائل الجهاد.. وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان. وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنه أنه هو سيتولى الدفاع عنهم فهم في حمايته: «إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا»^{٤٣} ..

وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وحياتهم فهم مخذولون حتماً: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ» .. وأنه حكم لهم بأحقية دفاعهم وسلامة موقفهم من الناحية الأدبية فهم مظلومون غير معتدين ولا متبطين: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلُمُوا» .. وأن لهم أن يطمئنوا إلى حماية الله لهم ونصره إياهم: «وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ» ..

وأن لهم ما يبرر خوضهم للمعركة فهم منتدبون لمهمة إنسانية كبيرة، لا يعود خيرها عليهم وحدهم، إنما يعود على الجبهة المؤمنة كلها وفيها ضمان لحرية العقيدة وحرية العبادة وذلك فوق أنهم مظلومون أخرجوا من ديارهم بغير حق: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا: رَبُّنَا اللَّهُ» .. وهي أصدق كلمة أن تقال، وأحق كلمة بأن تقال. ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم. فهو البغي المطلق الذي لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين. وهو التجرد من كل هدف شخصي من ناحية المعتدى عليهم، إنما هي العقيدة وحدها من أجلها يخرجون، لا الصراع على عرض من أعراض هذه الأرض، التي تشتجر فيها الأطماع وتتعارض فيها المصالح وتختلف فيها الاتجاهات

^{٤٣} - لم يذكر المؤلف رحمه الله سبب نزول الآيات، فعن عروة بن الزبير "إن أول آية أنزلت في القتال حين ابتلى المسلمون بمكة وسطت بهم عشائهم ليفتنوهم عن الإسلام، وأخرجوهم من ديارهم وتظاهروا عليهم، فأنزل الله: "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلُمُوا" الآية وذلك حين أذن لرسوله بالخروج، أذن لهم بالقتال". تفسير ابن أبي حاتم [٣٨٤/٩] (١٤٧٩٥) ذكره بلا سند وعن سعيد بن جبيرة قال: "لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ رَجُلٌ: أَخْرَجُوا نَبِيَّهْمَ فَنَزَلَتْ: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلُمُوا الآية، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ "جامع البيان في تفسير القرآن للطبري" (٢٣٠٦٨) صحيح مرسل وعن ابن عباس قال: "لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجُوا نَبِيَّهْمَ، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، لِيَهْلِكُنَّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ. وَهِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ "جامع البيان في تفسير القرآن للطبري" (٢٣٠٦٩) صحيح وعن ابن عباس قال: "لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَاللَّهُ لَيَهْلِكُنَّ جَمِيعًا فَلَمَّا نَزَلَتْ: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلُمُوا. إِلَى قَوْلِهِ: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ عَرَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ "جامع البيان في تفسير القرآن للطبري" (٢٣٠٧١) صحيح

وتتضارب فيها المنافع! ووراء هذا كله تلك القاعدة العامة ..حاجة العقيدة إلى الدفع عنها:«ولو لا دفعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ هُدْمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ صَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا» .. والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان، والبيع للنصارى عامة وهي أوسع من الصوامع، والصلوات أماكن العبادة لليهود. والمساجد أماكن العبادة للمسلمين.

وهي كلها معرضة للهدم - على قداستها وتخصيصها لعبادة الله - لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض. أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها، ويعتدون على أهلها. فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول. ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه، بل لا بد من القوة تحميه وتدفع عنه. وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان ولا بد من وقفة أمام هذه النصوص القليلة الكلمات العميقة الدلالة، وما وراءها من أسرار في عالم النفس وعالم الحياة.

إن الله يبدأ الإذن بالقتال للذين قاتلهم المشركون، واعتدى عليهم المبطلون، بأن الله يدافع عن الذين آمنوا، وأنه يكره المعتدين عليهم من الكفار الخائنين:«إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ» .. فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم. ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتما من عدوه، ظاهر حتما على عدوه .. فقيم إذن يأذن لهم بالقتال؟ وقيم إذن يكتب عليهم الجهاد؟ وقيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح، والجهد والمشقة، والتضحية والآلام ... والعاقبة معروفة، والله قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد ولا مشقة، ولا تضحية ولا ألم، ولا قتل ولا قتال؟

والجواب أن حكمة الله في هذا هي العليا، وأن لله الحجة البالغة .. والذي ندركه نحن البشر من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماها من «التناقلة» الكسالى، الذين يجلسون في استرخاء، ثم يتزل عليهم نصره سهلا هينا بلا عناء، لجرد أنهم يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى الله بالدعاء، كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء ! نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة، وأن يرتلوا القرآن، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء.

ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها إنما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة. والذخيرة التي يدخرونها للموقعة، والسلاح الذي يطمنون إليه وهم يواجهون الباطل. بمثل سلاحه ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله.

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كي يتم نضجهم هم في أثناء المعركة. فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المدخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر وهي تدفع وتدافع، وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة .. عندئذ تتحفز كل خلية

بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدي دورها ولتتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة ولتؤتي أقصى ما تملكه، وتبذل آخر ما تنطوي عليه وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وما هي مهياة له من الكمال.

والأمة التي تقوم على دعوة الله في حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها، واحتشاد كل قواها، وتوفير كل استعدادها، وتجمع كل طاقاتها، كي يتم غوها، ويكمل نضجها، وتتهياً بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها.

والنصر السريع الذي لا يكلف عناء، والذي يتزل هينا لينا على القاعدين المستريحين، يعطل تلك الطاقات عن الظهور، لأنه لا يحفزها ولا يدعوها.

وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه. أولاً لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة. وثانياً لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه. فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه.

وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة، والكر والفر، والقوة والضعف والتقدم والتقهقر. ومن المشاعر المصاحبة لها.. من الأمل والألم. ومن الفرح والغم، ومن الاطمئنان والقلق.

ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة.. ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة وقبلها وبعدها وكشف نقاط الضعف ونقط القوة، وتدبير الأمور في جميع الحالات.. وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس.

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله.. جعل الله دفاعه عن الدين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم ولم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء

والنصر قد يبطل على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله. فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريد بها الله.

قد يبطل النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات. فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكا لعدم قدرتها على حمايته طويلاً!

وقد يبطل النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً، لا تبدله هينا رخيصاً في سبيل الله.

وقد يبطل النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر. إنما يتزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله.

وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل ولا تجد لها سندا إلا الله، ولا متوجها إلا إليه وحده في الضراء. وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله. فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله.

وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها. والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله، بريئا من المشاعر الأخرى التي تلايسه. عن أبي موسى قال جاء رجل إلى النبي - ﷺ - فقال يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله فإن أحدنا يُقاتل غضبا، ويُقاتل حمية. فرفع إليه رأسه - قال وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائما - فقال « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل »^{٤٤}.

كما قد يبطئ النصر لأن الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصا، ويذهب وحده هالكا، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار! وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماما. فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة. فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريا للناس، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!

وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة. فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار. فيظل الصراع قائما حتى تنتهي النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر، ولاستبقائه!

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله، قد يبطئ النصر، فتتضاعف التضحيات، وتتضاعف الآلام. مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية.

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه: « ولينصرنَّ الله من ينصره إنَّ الله لقويٌّ عزيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَآتَوْا الزَّكَاةَ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » ..

فوعد الله المؤكد الوثيق المتحقق الذي لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره .. فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله، فيستحقون نصر الله، القوي العزيز الذي لا يهزم من يتولاه؟ إنهم هؤلاء: « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ » .. فحققنا لهم النصر، وثبتنا لهم الأمر .. « أَقَامُوا الصَّلَاةَ » .. فعبدوا الله ووثقوا صلتهم به، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين .. « وَآتَوْا الزَّكَاةَ » .. فأدوا حق المال، وانتصروا على

^{٤٤} - صحيح البخارى - المكثر [١/ ٢٢١] (١٢٣)

شح النفس، وتطهروا من الحرص، وغلبوا وسوسة الشيطان، وسدوا خلة الجماعة، وكفلوا الضعاف فيها والمخاويج، وحققوا لها صفة الجسم الحي - عن الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى»^{٤٥}...

«وَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ».. فدعوا إلى الخير والصالح، ودفعوا إليه الناس.. «وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ».. فقاوموا الشر والفساد، وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التي لا تبقى على منكر وهي قادرة على تغييره، ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه..

هؤلاء هم الذين ينصرون الله، إذ ينصرون نهجه الذي أراده للناس في الحياة، معترزين بالله وحده دون سواه. وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين.

فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته. المشروط بتكاليفه وأعبائه.. والأمر بعد ذلك لله، يصرفه كيف يشاء، فيبدل الهزيمة نصراً، والنصر هزيمة، عندما تختل القوائم، أو تهمل التكاليف: «وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ»..

إنه النصر الذي يؤدي إلى تحقيق المنهج الإلهي في الحياة. من انتصار الحق والعدل والحرية المتجهة إلى الخير والصالح. المنظور فيه إلى هذه الغاية التي يتوارى في ظلها الأشخاص والذوات، والمطامع والشهوات.. وهو نصر له سببه. وله ثمنه. وله تكاليفه. وله شروطه. فلا يعطى لأحد جزافاً أو محاباة ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه..^{٤٦}

٥ - الاعتصامُ بجبل الله ووحدة الصف وعدم الفرقة:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ {١٠٢} واعتصموا بجبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ {١٠٣} ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون {١٠٤} ولا تكونوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٠٥} آل عمران

^{٤٥} - صحيح مسلم- المكثر [١٦/ ٤٧١] ٦٧٥١ وأخرجه الجماعة المسند الجامع [١٥/ ٨٠٢] (١١٨٨٨)

^{٤٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب- ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٣١٣٤)

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَتَّقُوهُ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ، وَأَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى، وَيَقُولُ لَهُمْ: حَافِظُوا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي حَيَاتِكُمْ لَتَمُوتُوا عَلَيْهِ، فَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ عَلَيْهِ .

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّمَسُّكِ بِحَبْلِ اللَّهِ، أَيْ بِعَهْدِهِ وَدِينِهِ وَذِمَّتِهِ وَقُرْآنِهِ، وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْإِلْفَةِ وَالْحَبَّةِ وَالْاجْتِمَاعِ، وَيُنْهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ، وَيَطْلُبُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ إِذْ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَآخَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ الْمُسْتَحْكِمَةِ، وَالْفُرْقَةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، فَقَدْ كَانُوا عَلَى مِثْلِ شَفِيرِ النَّارِ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ وَاقْتِتَالِهِمْ، فَهَدَاهُمُ اللَّهُ وَأَنْقَذَهُمْ .

وَكَمَا بَيَّنَّ لَهُمْ رَبُّهُمْ، فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، مَا يُضْمِرُهُ لَهُمُ الْيَهُودُ مِنْ شَرٍّ وَخِدَاعٍ وَغِشٍّ، وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي حَالِ جَاهِلِيَّتِهِمْ مِنْ كُفْرٍ وَفُرْقَةٍ وَاقْتِتَالٍ، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ بِفَضْلِ الْإِسْلَامِ مِنْ وَحْدَةٍ وَإِخَاءٍ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ سَائِرَ حُجَجِهِ فِي تَنْزِيلِهِ عَلَى رَسُولِهِ، لِيُعِدَّهُمْ لِلْاهْتِدَاءِ الدَّائِمِ، حَتَّى لَا يَعُودُوا إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْاقْتِتَالِ .

لِتَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ جَمَاعَةٌ مُتَخَصِّصَةٌ مُتَمَيِّزَةٌ تَعْرِفُ أَسْرَارَ الْأَحْكَامِ، وَحِكْمَةَ التَّشْرِيعِ وَفَقْهَهُ، تَتَوَلَّى الْقِيَامَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الدِّينِ، وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتُحَارِبُ الْمُنْكَرَ، وَتَنْهَى عَنْهُ، وَمِنْ وَاجِبِ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُحَارِبَ الْمُنْكَرَ مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْفَائِزُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

يُنْهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ عَنْ أَنْ يَكُونُوا كَأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا فِي الدِّينِ، وَكَانُوا شِيعًا تَذْهَبُ كُلُّ شِيعَةٍ مِنْهَا مَذْهَبًا تَدْعُو إِلَيْهِ، وَتُخَطِّئُ غَيْرَهَا، وَلِذَلِكَ تَعَادَوْا وَاقْتَتَلُوا .

وَلَوْ كَانَ فِيهِمْ جَمَاعَةٌ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَتَّجِهُ إِلَى غَايَةٍ وَاحِدَةٍ، لَمَا تَفَرَّقُوا، وَلَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ . وَهَؤُلَاءِ الْمُخْتَلِفُونَ الْمُتَفَرِّقُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَخُسْرَانٌ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فِي الْآخِرَةِ ٤٧ ..

إِنَّمَا رَكِيزَتَانِ تَقُومُ عَلَيْهِمَا الْجَمَاعَةُ الْمُسْلِمَةُ، وَتُؤَدِّي بِهَمَا دَوْرَهَا الشَّاقَّ الْعَظِيمَ. فَإِذَا انْهَارَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ جَمَاعَةٌ مُسْلِمَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَوْرٌ لَهَا تَوْدِيهِ: رَكِيزَةُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى أَوَّلًا .. التَّقْوَى الَّتِي تَبْلُغُ أَنْ تَوْفِيَ بِحَقِّ اللَّهِ الْجَلِيلِ .. التَّقْوَى الدَّائِمَةُ الْيَقِظَةُ الَّتِي لَا تَغْفُلُ وَلَا تَفْتَرُ لَحْظَةً مِنْ لَحْظَاتِ الْعَمْرِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ» ..

اتَّقُوا اللَّهَ - كَمَا يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَتَّقَى - وَهِيَ هَكَذَا بِدُونِ تَحْدِيدٍ تَدْعُ الْقَلْبَ بِمُجْتَهِدٍ فِي بَلُوغِهَا كَمَا يَتَصَوَّرُهَا وَكَمَا يَطْبِقُهَا. وَكَلِمَا أَوْ غَلَّ الْقَلْبُ فِي هَذَا الطَّرِيقِ تَكْشَفَتْ لَهُ آفَاقٌ، وَجَدَّتْ لَهُ أَشْوَاقٌ. وَكَلِمَا اقْتَرَبَ بِتَقْوَاهُ مِنَ اللَّهِ، تَيَقَّظَ شَوْقُهُ إِلَى مَقَامٍ أَرْفَعَ مِمَّا بَلَغَ، وَإِلَى مَرْتَبَةٍ وَرَاءَ مَا ارْتَقَى. وَتَطَّلَعَ إِلَى الْمَقَامِ الَّذِي يَسْتَيْقِظُ فِيهِ قَلْبُهُ فَلَا يَنَامُ! «وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» ..

٤٧ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٩٥، بترقيم الشاملة آليا)

والموت غيب لا يدري إنسان متى يدركه. فمن أراد ألا يموت إلا مسلماً فسيبيله أن يكون منذ اللحظة مسلماً، وأن يكون في كل لحظة مسلماً. وذكر الإسلام بعد التقوى يشي بمعناه الواسع: الاستسلام لله، طاعة له، واتباعاً لمنهجه، واحتكاماً إلى كتابه. وهو المعنى الذي تقرره السورة كلها في كل موضع منها، على نحو ما أسلفنا.

هذه الركيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقيق وجودها وتؤدي دورها. إذ أنه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجمعاً جاهلياً. ولا يكون هناك منهج لله تتجمع عليه أمة، إنما تكون هناك مناهج جاهلية. ولا تكون هناك قيادة راشدة في الأرض للبشرية، إنما تكون القيادة للجاهلية.

فأما الركيزة الثانية فهي ركيزة الأخوة.. الأخوة في الله، على منهج الله، لتحقيق منهج الله: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمت الله عليكم، إذ كنتم أعداء، فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً. وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها. كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون» ..

فهي أخوة إذن تنشق من التقوى والإسلام.. من الركيزة الأولى.. أساسها الاعتصام بحبل الله - أي عهده ومنهجه ودينه - وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر، ولا على أي هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة!

«واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» .. هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى. وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائماً. وهو هنا يذكرهم هذه النعمة. يذكرهم كيف كانوا في الجاهلية «أعداء».. وما كان أعدى من الأوس والخزرج في المدينة أحد. وهما الحيان العربيان في يثرب. يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة وينفخون في نارها حتى تأكل روابط الحيين جميعاً. ومن ثم تجد يهود مجالها الصالح الذي لا تعمل إلا فيه، ولا تعيش إلا معه. فألف الله بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام.. وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة. وما كان إلا حبل الله الذي يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمة الله إخواناً.

وما يمكن أن يجمع القلوب إلا أخوة في الله، تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية، والثرات القبلية، والأطماع الشخصية والرايات العنصرية، ويتجمع الصف تحت لواء الله الكبير المتعال .. «واذكروا نعمت الله عليكم، إذ كنتم أعداء، فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً» ..

وذكرهم كذلك نعمته عليهم في إنقاذهم من النار التي كانوا على وشك أن يقعوا فيها، إنقاذهم من النار بهدايتهم إلى الاعتصام بحبل الله - الركيزة الأولى - وبالتأليف بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً - الركيزة الثانية - : «وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها».

والنص القرآني يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط: «القلب».. فلا يقول: فألف بينكم. إنما ينفذ إلى المكمن العميق: «فألف بين قلوبكم» فيصور القلوب حزمة مؤلفة متألفة بيد الله وعلى عهده

وميثاقه. كذلك يرسم النص صورة لما كانوا فيه. بل مشهدا حيا متحركا تتحرك معه القلوب: «وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ».. وبينما حركة السقوط في حفرة النار متوقعة، إذا بالقلوب ترى يد الله، وهي تدرك وتنقذ! وحبل الله وهو يمتد ويعصم. وصورة النجاة والخلاص بعد الخطر والتركيب! وهو مشهد متحرك حي تتبعه القلوب واجفة خافقة، وتكاد العيون تتملأه من وراء الأجيال!

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيره: أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج، وذلك أن رجلا من اليهود مرَّ بمألاً من الأوس والخزرج، فسأه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلا معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بُعث وتلك الحروب، ففعل، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض، وتناوروا، ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا إلى الحرية، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاهم فجعل يُسكنهم ويقول: "أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟" وتلا عليهم هذه الآية، فندموا على ما كان منهم، واصططحوا وتعانقوا، وألقوا السلاح، رضي الله عنهم وذكر عكرمة أن ذلك نزل فيهم حين تناوروا في قضية الإفك. والله أعلم.^{٤٨}

وعن عاصم بن عمر بن قتادة المدني، عن أشياخ، من قومه، قالوا: "قدم سويد بن صامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجاً أو مُعتمراً. قال: وكان سويد إنما يُسميه قومه فيهم الكامل لجلده وشعره ونسبه وشرفه، قال: فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام، قال: فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي، قال: فقال له رسول الله ﷺ: "وما الذي معك؟" قال: "مجلّة لقمان يعني حكمة لقمان فقال له رسول الله ﷺ: "اعرضها عليّ" فعرضها عليه، فقال: "إن هذا الكلام حسن، معي أفضل من هذا قرآن أنزل الله عليّ هدى ونور"، قال: فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن ثم انصرف عنه، وقدم المدينة، فلم يلبث أن قتلتُه الخزرج، فإن كان قومه ليقولون: قد قتل وهو مسلم، وكان قتله قبل يوم بُعث" ^{٤٩}.

وعن محمد بن إسحاق، قال: ثني الحسين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ أحد بني عبد الأشهل أن محمود بن أسد أحد بني عبد الأشهل، قال: لما قدم أبو الجيش أنس بن رافع مكة، ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ، يلتبسون الحلف من قريش على قوم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم، فقال: "هل لكم إلى خير مما جئتم له؟" قالوا: وما ذاك؟ قال: "أنا رسول الله بعثني إلى العباد أذعوهم إلى الله أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليّ الكتاب"، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ، وكان غلاماً حدثاً: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له، قال: فأخذ أبو الجيش أنس بن رافع حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس بن

^{٤٨} - تفسير ابن كثير - دار طيبة [٢/ ٩٠]

^{٤٩} - جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (٦٩٠٦) صحيح مرسل

مُعَاذُ، وَقَالَ: دَعْنَا مِنْكَ، فَلَعِمَرِي لَقَدْ جِئْنَا لَغَيْرِ هَذَا، قَالَ: فَصَمْتُ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاذٍ، وَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْهُمْ، وَانْصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ وَقْعَةُ بُعَاثٍ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، قَالَ: ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاذٍ أَنْ هَلَكَ قَالَ: فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ إِظْهَارَ دِينِهِ، وَإِعْزَازَ نَبِيِّهِ ﷺ، وَانْجَازَ مَوْعِدِهِ لَهُ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَوْسِمَ الَّذِي لَقِيَ فِيهِ التَّنْفَرُ مِنَ الْأَنْصَارِ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى قِبَائِلِ الْعَرَبِ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ، فَبَيْنَا هُوَ عِنْدَ الْعُقْبَةِ، إِذْ لَقِيَ رَهْطًا مِنَ الْخَزْرَجِ أَرَادَ اللَّهُ لَهُمْ خَيْرًا، قَالَ ابْنُ حُمَيْدٍ: قَالَ سَلْمَةُ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ قَتَادَةَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ قَوْمِهِ، قَالُوا: لَمَّا لَقِيَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ: " مَنْ أَنْتُمْ ؟ " قَالُوا: نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، قَالَ: وَأَمِنْ مَوَالِي يَهُودٍ ؟ " قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: " أَفَلَا تَجْلِسُونَ حَتَّى أُكَلِّمَكُمْ ؟ " قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَجَلَسُوا مَعَهُ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، قَالَ: وَكَانَ مِمَّا صَنَعَ اللَّهُ لَهُمْ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ أَنْ يَهُودَ كَانُوا مَعَهُمْ بِيَلَادِهِمْ، وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَعِلْمٍ، وَكَانُوا أَهْلَ شَرِّكَ أَصْحَابِ أَوْثَانٍ، وَكَانُوا قَدْ غَزَوْهُمْ بِيَلَادِهِمْ، فَكَانُوا إِذَا كَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ، قَالُوا لَهُمْ: إِنَّ نَبِيًّا الْآنَ مَبْعُوثٌ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ تَتَّبِعُهُ وَنَقْتُلُكَمُ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمٍ، فَلَمَّا كَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُولَئِكَ التَّنْفَرُ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: يَا قَوْمُ تَعْلَمُونَ وَاللَّهِ إِنَّهُ لِلنَّبِيِّ الَّذِي تُوعِدُكُمْ بِهِ يَهُودٌ، وَلَا يَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ، فَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ بِأَنْ صَدَّقُوهُ، وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا، وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، وَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللَّهُ بَكٍ، وَسَنَقْدُمُ عَلَيْهِمْ، فَندَعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكِ، وَنَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَجْبَنَّاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فَإِنْ يَجْمَعُهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَلَا رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ، قَدْ آمَنُوا وَصَدَّقُوا، وَهُمْ فِيمَا ذَكَرَ لِي سِتَّةُ نَفَرٍ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ عَلَى قَوْمِهِمْ، ذَكَرُوا لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَدَعَوْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، حَتَّى فَشَا فِيهِمْ، فَلَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا ذِكْرٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ، وَافِيَ الْمَوْسِمَ مِنَ الْأَنْصَارِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فَلَقُوهُ بِالْعُقْبَةِ، وَهِيَ الْعُقْبَةُ الْأُولَى، فَبَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَيْعَةِ النَّسَاءِ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُفْتَرَضَ عَلَيْهِمُ الْحَرْبُ " .^{٥٠}

وكذلك بين الله لهم فاهتدوا، وحق فيهم قول الله سبحانه في التعقيب في الآية: «كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون».

فهذه صورة من جهد يهود لتقطيع حبل الله بين المتحايين فيه، القائمين على منهجه، لقيادة البشرية في طريقه.. هذه صورة من ذلك الكيد الذي تكيده يهود دائما للجماعة المسلمة، كلما تجمعت على منهج الله واعتصمت بحبله. وهذه ثمرة من ثمار طاعة أهل الكتاب. كادت ترد المسلمين الأولين كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض. وتقطع بينهم حبل الله المتين، الذي يتآخون فيه مجتمعين. وهذه صلة هذه الآية بالآيات قبلها في هذا السياق.

^{٥٠} - جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (٦٩٠٧) حسن مرسل

على أن مدلول الآية أوسع مدى من هذه الحادثة. فهي تشي - مع ما قبلها في السياق وما بعدها - بأنه كانت هناك حركة دائبة من اليهود لتمزيق شمل الصف المسلم في المدينة، وإثارة الفتنة والفرقة بكل الوسائل. والتحذيرات القرآنية المتوالية من إطاعة أهل الكتاب، ومن الاستماع إلى كيدهم ودسهم، ومن التفرق كما تفرقوا.. هذه التحذيرات تشي بشدة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من كيد اليهود في المدينة، ومن بذورهم لبذور الشقاق والشك والبلبله باستمرار.. وهو دأب يهود في كل زمان. وهو عملها اليوم وغدا في الصف المسلم، في كل مكان!

فأما وظيفة الجماعة المسلمة التي تقوم على هاتين الركيزتين لكي تنهض بها.. هذه الوظيفة الضرورية لإقامة منهج الله في الأرض، ولتغليب الحق على الباطل، والمعروف على المنكر، والخير على الشر.. هذه الوظيفة التي من أجلها أنشئت الجماعة المسلمة بيد الله وعلى عينه، ووفق منهجه.. فهي التي تقررها الآية التالية: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»..

فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير، وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر. لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر. والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته.

فهناك «دعوة» إلى الخير. ولكن هناك كذلك «أمر» بالمعروف. وهناك «نهي» عن المنكر. وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان، فإن «الأمر والنهي» لا يقوم بهما إلا ذو سلطان..

هذا هو تصور الإسلام للمسألة.. إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى.. سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر.. سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة في الله.. سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر.. وتحقيق هذا المنهج يقتضي «دعوة» إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج. ويقتضي سلطة «تأمر» بالمعروف «وتنهي» عن المنكر.. فتطاع.. والله يقول: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ».. فمنهج الله في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد وبيان. فهذا شطر. أما الشطر الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهي، على تحقيق المعروف ونفي المنكر من الحياة البشرية، وصيانة تقاليد الجماعة الخيرة من أن يعبث بها كل ذي هوى وكل ذي شهوة وكل ذي مصلحة، وضمانة هذه التقاليد الصالحة من أن يقول فيها كل امرئ برأيه وبتصوره، زاعما أن هذا هو الخير والمعروف والصواب! والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - من ثم - تكليف ليس بالهين ولا باليسير، إذا نظرنا إلى طبيعته، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم، ومصالح بعضهم ومنافعهم، وغرور بعضهم وكبريائهم.

وفيهـم الجبار الغاشم. وفيهـم الحاكم المتسلط. وفيهـم الهابط الذي يكره الصعود. وفيهـم المسترخي الذي يكره الاشتداد. وفيهـم المنحل الذي يكره الجد. وفيهـم الظالم الذي يكره العدل. وفيهـم المنحرف الذي يكره الاستقامة ..

وفيهـم وفيهـم ممن ينكرون المعروف، ويعرفون المنكر. ولا تفلح الأمة، ولا تفلح البشرية، إلا أن يسود الخير، وإلا أن يكون المعروف معروفاً، والمنكر منكراً .. وهذا ما يقتضي سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى ..

وتطاع ..

ومن ثم فلا بد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين: الإيمان بالله والأخوة في الله. لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى ثم بقوة الحب والألفة، وكتاهما ضرورة من ضرورات هذا الدور الذي ناطه الله بالجماعة المسلمة، وكلفها به هذا التكليف. وجعل القيام به شريطة الفلاح. فقال عن الذين ينهضون به: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» ..

إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته. فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية. هو الوسط الخير المتكافل المتعاون على دعوة الخير. المعروف فيه هو الخير والفضيلة والحق والعدل. والمنكر فيه هو الشر والرذيلة والباطل والظلم .. عمل الخير فيه أيسر من عمل الشر. والفضيلة فيه أقل تكاليف من الرذيلة. والحق فيه أقوى من الباطل. والعدل فيه أنفع من الظلم .. فاعل الخير فيه يجد على الخير أعواناً. وصانع الشر فيه يجد مقاومة وخذلاناً .. ومن هنا قيمة هذا التجمع ..

إنه البيئة التي ينمو فيها الخير والحق بلا كبير جهد، لأن كل ما حوله وكل من حوله يعاونه. والتي لا ينمو فيها الشر والباطل إلا بعسر ومشقة، لأن كل ما حوله يعارضه ويقاومه.

والتصور الإسلامي عن الوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص .. يختلف في هذا كله عن التصورات الجاهلية اختلافاً جوهرياً أصيلاً. فلا بد إذن من وسط خاص يعيش فيه هذا التصور بكل قيمه الخاصة. لا بد له من وسط غير الوسط الجاهلي، ومن بيئة غير البيئة الجاهلية.

هذا الوسط الخاص يعيش بالتصور الإسلامي ويعيش له فيحيا فيه هذا التصور، ويتنفس أنفاسه الطبيعية في طلاقة وحرية، وينمو نموه الذاتي بلا عوائق من داخله تؤخر هذا النمو أو تقاومه. وحين توجد هذه العوائق تقابلها الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وحين توجد القوة الغاشمة التي تصد عن سبيل الله تجدد من يدافعها دون منهج الله في الحياة.

هذا الوسط يتمثل في الجماعة المسلمة القائمة على ركيزتي الإيمان والأخوة. الإيمان بالله كي يتوحد تصورها للوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص، وترجع إلى ميزان واحد تقوم به كل ما يعرض لها في الحياة، وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله، وتتجه بولائها كله إلى

القيادة القائمة على تحقيق منهج الله في الأرض .. والأخوة في الله. كي يقوم كيانها على الحب والتكافل اللذين تحتفي في ظلالهما مشاعر الأثرة، وتتضاعف بهما مشاعر الإيثار. الإيثار المنطلق في يسر، المندفع في حرارة، المطمئن الواثق المرتاح.

وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى - في المدينة - على هاتين الركيزتين .. على الإيمان بالله: ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله - سبحانه - وتمثل صفاته في الضمائر وتقواه ومراقبته، واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال. وعلى الحب. الحب الفياض الرائق، والود. الود العذب الجميل، والتكافل. التكافل الجاد العميق .. وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغا، لولا أنه وقع، لعد من أحلام الحالمين! وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة، ولكنها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحاملة! وهي قصة وقعت في هذه الأرض. ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد والجنان! وعلى مثل ذلك الإيمان ومثل هذه الأخوة يقوم منهج الله في الأرض في كل زمان^{٥١} ..

٦ - يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين:

قال تعالى في سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {٥٤}﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ {٥٥} وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ {٥٦}﴾

يُخَبِّرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ وَيَقُولُ إِنَّ الَّذِينَ يَرْتَدُّونَ عَنْ دِينِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ، وَيَتَوَلَّوْنَ عَنْ نُصْرَةِ دِينِهِ، وَإِقَامَةِ شَرِيعَتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَسْتَبْدِلُ بِهِمْ مَنْ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَأَشَدُّ مَنَعَةً، وَأَقْوَمُ سَبِيلًا، يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، يَتَصَفُّونَ بِصِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَهِيَ: الْعِزَّةُ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَالرَّحْمَةُ وَالتَّوَّاضُعُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَرُدُّهُمْ رَاذٌ عَنْ إِذَاعَةِ أَمْرِ اللَّهِ، وَإِقَامَةِ حُدُودِهِ، وَقِتَالِ أَعْدَائِهِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَمَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَبِيرًا، وَاللَّهُ وَاسِعٌ الْفَضْلُ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ فَيُعْطِيهِ، مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ فَيَحْرِمُهُ إِيَّاهُ.

يُحَثُّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُوَالَاةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، وَيُسَاعِدُونَ الْمُحْتَاجِينَ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَهُمْ دَائِمُونَ الرُّكُوعِ لِلَّهِ. نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عِبَادَةِ بَنِي الصَّامِتِ حِينَ بَرِئَ مِنْ مُوَالَاةِ الْيَهُودِ، وَرَضِيَ بِمُوَالَاةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

^{٥١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٧١١)

وَكُلُّ مَنْ رَضِيَ بِمُؤَالَاةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ هُوَ مُفْلِحٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ مُنْصُورٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّهُ يَكُونُ فِي حِزْبِ اللَّهِ، وَحِزْبِ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ، وَلَا يُغْلَبُ مَنْ يَتَوَلَّاهُمْ اللَّهُ.^{٥٢}

إن تهديد من يرتد عن دينه من الذين آمنوا - على هذه الصورة. وفي هذا المقام - ينصرف - ابتداء - إلى الربط بين مؤالاة اليهود والنصارى وبين الارتداد عن الإسلام. وبخاصة بعد ما سبق من اعتبار من يتولاهم واحدا منهم، منسلخا من الجماعة المسلمة منضمًا إليهم: «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ».. وعلى هذا الاعتبار يكون هذا النداء الثاني في السياق تأكيدًا وتقريرًا للنداء الأول.. يدل على هذا كذلك النداء الثالث الذي يلي هذا النداء والسياق، وهو منصب على النهي عن مؤالاة أهل الكتاب والكفار، يجمع بينهم على هذا النحو، الذي يفيد أن مؤالاة الكفار سواء، وأن تفرقة الإسلام في المعاملة بين أهل الكتاب والكفار، لا تتعلق بقضية الولاء، إنما هي في شئون أخرى لا يدخل فيها الولاء..

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ، فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ. ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»..

إن اختيار الله للعصبة المؤمنة، لتكون أداة القدر الإلهي في إقرار دين الله في الأرض، وتمكين سلطانه في حياة البشر، وتحكيم منهجه في أوضاعهم وأنظمتهم، وتنفيذ شريعته في أفضيتهم وأحوالهم، وتحقيق الصلاح والخير والطهارة والنماء في الأرض بذلك المنهج وبهذه الشريعة.. إن هذا الاختيار للنهوض بهذا الأمر هو مجرد فضل الله ومنته. فمن شاء أن يرفض هذا الفضل وأن يحرم نفسه هذه المنة.. فهو وذاك. والله غني عنه - وعن العالمين. والله يختار من عباده من يعلم أنه أهل لذلك الفضل العظيم.

والصورة التي يرسمها للعصبة المختارة هنا، صورة واضحة السمات قوية الملامح، وضيئة جذابة حيوية للقلوب: «فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ»..

فالحب والرضى المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم.. الحب.. هذا الروح الساري اللطيف الرفاف المشرق لرائق البشوش.. هو الذي يربط القوم بربهم الودود.

وحب الله لعبده من عبده، أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله - سبحانه - بصفاته كما وصف نفسه، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكيونته كلها.. أجل لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي.. الذي يعرف من هو الله.. من هو صانع هذا الكون الهائل، وصانع الإنسان الذي يلخص الكون وهو جرم صغير! من هو في عظمته. ومن هو في قدرته. ومن هو في تفرده. ومن هو في ملكوته.. من هو ومن هذا العبد الذي يتفضل الله عليه منه

^{٥٢} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٢٤، بترقيم الشاملة آليا)

بالحب .. والعبد من صنع يديه - سبحانه - وهو الجليل العظيم، الحي الدائم، الأزلي الأبدي، الأول والآخر والظاهر والباطن. وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها .. وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرا هائلا عظيما، وفضلا غامرا جزيلا، فإن إنعام الله على العبد بمدايته لحبه وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد، الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيهه .. هو إنعام هائل عظيم .. وفضل غامر جزيل.

وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرا فوق التعبير أن يصفه، فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام المحبين .. وهذا هو الباب الذي تفوق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين - وهم قليل من بين ذلك الحشد الذي يلبس مسوح التصوف ويعرف في سجلهم الطويل - ولا زالت أبيات رابعة العدوية تنقل إلى حسي مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد، وهي تقول ^{٥٣}:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... و ليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر ... و بيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين ... و كل الذي فوق التراب تراب

وهذا الحب من الجليل للعبد من العبيد، والحب من العبد للمنعّم المتفضل، يشيع في هذا الوجود ويسري في هذا الكون العريض، وينطبع في كل حي وفي كل شيء، فإذا هو جو وظل يغمران هذا الوجود، ويغمران الوجود الإنساني كله ممثلا في ذلك العبد المحب المحبوب ..

والتصور الإسلامي يربط بين المؤمن وربه بهذا الرباط العجيب الحبيب .. وليست مرة واحدة ولا فلتة عابرة .. إنما هو أصل وحقيقة وعنصر في هذا التصور أصيل: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا» .. «إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» .. «وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ» .. «وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» .. «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» .. «قُلْ: إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» .. وغيرها كثير ...

وعجبا لقوم يعمرون على هذا كله، ليقولوا: إن التصور الإسلامي تصور جاف عنيف، يصور العلاقة بين الله والإنسان علاقة قهر وقسر، وعذاب وعقاب، وجفوة وانقطاع ... لا كالتصور الذي يجعل المسيح ابن الله وأقنوم الإله، فيربط بين الله والناس، في هذا الازدواج! إن نصاعة التصور الإسلامي في الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، لا تخفف ذلك الندى الحبيب، بين الله والعبيد، فهي علاقة الرحمة

^{٥٣} - الأبيات نسبت لشعراء عدة انظر: جميع دواوين الشعر العربي على مر العصور - محتويات موقع أدب - (٧٧ / ٢٤٦) وجميع دواوين الشعر العربي على مر العصور - محتويات موقع أدب - (٧٩ / ١٠٤) وزهر الأكم في الأمثال والحكم - (١ / ٩٨) ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - (٢ / ٦١١)

كما أنها علاقة العدل، وهي علاقة الود كما أنها علاقة التجريد، وهي علاقة الحب كما أنها علاقة التزهي.. إنه التصور الكامل الشامل لكل حاجات الكينونة البشرية في علاقتها برب العالمين.

وهنا - في صفة العصبية المؤمنة المختارة لهذا الدين - يرد ذلك النص العجيب: «يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ» ويطلق شحنته كلها في هذا الجو، الذي يحتاج إليه القلب المؤمن، وهو يضطلع بهذا العبء الشاق. شاعرا أنه الاختيار والتفضل والقربى من المنعم الجليل ..

ثم يمضي السياق يعرض بقية السمات: «أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» ..

وهي صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين .. فالؤمن ذلول للمؤمن .. غير عصي عليه ولا صعب. هين لين .. ميسر مستجيب .. سمح ودود .. وهذه هي الذلة للمؤمنين.

وما في الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة. إنما هي الأخوة، ترفع الحواجز، وتزيل التكلف وتخلط النفس بالنفس، فلا يبقى فيها ما يستعصي وما يحتجز دون الآخرين.

إن حساسية الفرد بذاته متحوصة متحيزة هي التي تجعله شموسا عصيا شحيحا على أخيه. فأما حين يخلط نفسه بنفوس العصبية المؤمنة معه، فلن يجد فيها ما يمنعه وما يستعصي به .. وماذا يبقى له في نفسه دونهم، وقد اجتمعوا في الله إخوانا يحبهم ويحبونه، ويشيع هذا الحب العلوي بينهم ويتقاسمون؟!

«أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ» .. فيهم على الكافرين شماس وإباء واستعلاء .. ولهذا الخصائص هنا موضع .. إنها ليست العزة للذات، ولا الاستعلاء للنفس. إنما هي العزة للعقيدة، والاستعلاء للرأية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين. إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذي معهم لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين! ثم هي الثقة بغلبة دين الله على دين الهوى وبغلبة قوة الله على تلك القوى وبغلبة حزب الله على أحزاب الجاهلية .. فهم الأعلون حتى وهم يهزمون في بعض المعارك، في أثناء الطريق الطويل ..

«يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ» .. فالجهاد في سبيل الله، لإقرار منهج الله في الأرض، وإعلان سلطانه على البشر، وتحكيم شريعته في الحياة، لتحقيق الخير والصالح والنماء للناس .. هي صفة العصبية المؤمنة التي يختارها الله ليصنع بها في الأرض ما يريد ..

وهم يجاهدون في سبيل الله لا في سبيل أنفسهم ولا في سبيل قومهم ولا في سبيل وطنهم ولا في سبيل جنسهم .. في سبيل الله. لتحقيق منهج الله، وتقرير سلطانه، وتنفيذ شريعته، وتحقيق الخير للبشر عامة عن هذا الطريق .. وليس لهم في هذا الأمر شيء، وليس لأنفسهم من هذا حظ، إنما هو لله وفي سبيل الله بلا شريك ..

وهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .. وفيهم الخوف من لوم الناس، وهم قد ضمنوا حب رب الناس؟ وفيهم الوقوف عند مألوف الناس، وعرف الجليل، ومتعارف الجاهلية، وهم يتبعون سنة الله، ويعرضون منهج الله للحياة؟ إنما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس

ومن يستمد عونهُ ومددُهُ من عند الناس أما من يرجع إلى موازين الله ومقاييسه وقيمه ليَجعلها تسيطر على أهواء الناس وشهواتهم وقيمهم وأما من يستمد قوته وعزته من قوة الله وعزته، فما يبالي ما يقول الناس وما يفعلون. كائنًا هؤلاء الناس ما كانوا وكائنًا واقع هؤلاء الناس ما كان، وكائنًا «حضارة» هؤلاء الناس وعلمهم وثقافتهم ما تكون!

إننا نحسب حسابًا لما يقول الناس ولما يفعل الناس ولما يملك الناس ولما يصطالح عليه الناس ولما يتخذه الناس في واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازن .. لأننا نغفل أو نسهو عن الأصل الذي يجب أن نرجع إليه في الوزن والقياس والتقويم .. إنه منهج الله وشريعته وحكمه .. فهو وحده الحق وكل ما خالفه فهو باطل ولو كان عرف ملايين الملايين، ولو أقرته الأجيال في عشرات القرون! إنه ليست قيمة أي وضع، أو أي عرف، أو أي تقليد، أو أية قيمة .. أنه موجود وأنه واقع وأن ملايين البشر يعتقونه، ويعيشون به، ويتخذونه قاعدة حياتهم .. فهذا ميزان لا يعترف به التصور الإسلامي .
إنما قيمة أي وضع، وأي عرف، وأي تقليد، وأية قيمة، أن يكون لها أصل في منهج الله، الذي منه - وحده - تستمد القيم والموازن ..

ومن هنا تجاهد العصبية المؤمنة في سبيل الله ولا تخاف لومة لائم .. فهذه سمة المؤمنين المختارين .. ثم إن ذلك الاختيار من الله، وذلك الحب المتبادل بينه وبين المختارين، وتلك السمات التي يجعلها طابعهم وعنوانهم، وهذا الاطمئنان إلى الله في نفوسهم، والسير على هداية في جهادهم .. ذلك كله من فضل الله: «ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ. وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». يعطي عن سعة، ويعطي عن علم .. وما أوسع هذا العطاء الذي يختار الله له من يشاء عن علم وعن تقدير.

ويحدد الله للذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة التي تتفق مع صفة الإيمان ويبين لهم من يتولون: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» .. هكذا على وجه القصر الذي لا يدع مجالاً للتمحل أو التأول ولا يترك فرصة لتمييع الحركة الإسلامية أو تمييع التصور ..

ولم يكن بد أن يكون الأمر كذلك! لأن المسألة في صميمها - كما قلنا - هي مسألة العقيدة. ومسألة الحركة بهذه العقيدة. وليكون الولاء لله خالصاً، والثقة به مطلقة، وليكون الإسلام هو «الدين». وليكون الأمر أمر مفاصلة بين الصف المسلم وسائر الصفوف التي لا تتخذ الإسلام ديناً، ولا تجعل الإسلام منهجاً للحياة.

ولتكون للحركة الإسلامية حديثها ونظامها فلا يكون الولاء فيها لغير قيادة واحدة وراية واحدة. ولا يكون التناصر إلا بين العصبية المؤمنة لأنه تناصر في المنهج المستمد من العقيدة ..

ولكن حتى لا يكون الإسلام مجرد عنوان، أو مجرد راية وشعار، أو مجرد كلمة تقال باللسان، أو مجرد نسب ينتقل بالوراثة، أو مجرد وصف يلحق القاطنين في مكان! فإن السياق يذكر بعض السمات الرئيسية للذين آمنوا: «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَهُمْ رَاكِعُونَ» ..

فمن صفتهم إقامة الصلاة - لا مجرد أداء الصلاة - وإقامة الصلاة تعني أدائها كاملاً، تنشأ عنه آثارها التي يقررها قوله تعالى: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» .. والذي لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يقم الصلاة فلو أقامها لنتهته كما يقول الله! ومن صفتهم إيتاء الزكاة .. أي أداء حق المال طاعة لله وقربى عن رضى نفس ورغبة، فليست الزكاة مجرد ضريبة مالية، إنما هي كذلك عبادة. أو هي عبادة مالية. وهذه هي ميزة المنهج الإسلامي. الذي يحقق أهدافاً شتى بالفريضة الواحدة. وليس كذلك الأنظمة الأرضية التي تحقق هدفاً وتفترط في أهداف ..

إنه لا يبغي في إصلاح حال المجتمع أن يأخذ المجتمع المال ضريبة (مدنية!) أو أن يأخذ المال من الأغنياء للفقراء باسم الدولة، أو باسم الشعب، أو باسم جهة أرضية ما .. فهي في صورتها هذه قد تحقق هدفاً واحداً وهو إيصال المال للمحتاجين ..

فأما الزكاة .. فتعني اسمها ومدلولها .. إنها قبل كل شيء طهارة ونماء .. إنها زكاة للضمير بكونها عبادة لله. وبالشعور الطيب المصاحب لها تجاه الإخوان الفقراء، بما أنها عبادة لله يرجو عليها فاعلها حسن الجزاء في الآخرة، كما يرجو منها نماء المال في الحياة الدنيا بالبركة وبالنظام الاقتصادي المبارك. ثم بالشعور الطيب في نفوس الفقراء الآخذين أنفسهم إذ يشعرون أنها فضل الله عليهم إذ قررها لهم في أموال الأغنياء ولا يشعرون معها بالحق والتشفي من إخوانهم الأغنياء (مع تذكر أن الأغنياء في النظام الإسلامي لا يكسبون إلا من حلال ولا يجورون على حق أحد وهم يجمعون نصيبهم من المال) .. وفي النهاية تحقق هدف الضريبة المالية في هذا الجو الراضى الخير الطيب .. جو الزكاة والطهارة والنماء .. وأداء الزكاة سمة من سمات الذين آمنوا تقرر أنهم يتبعون شريعة الله في شئون الحياة فهي إقرار منهم بسلطان الله في أمرهم كله .. وهذا هو الإسلام ..

«وَهُمْ رَاكِعُونَ» .. ذلك شأنهم، كأنه الحالة الأصلية لهم .. ومن ثم لم يقف عند قوله: «يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ» .. فهذه السمة الجديدة أعم وأشمل. إذ أنها ترسمهم للخاطر كأن هذا هو شأنهم الدائم. فأبرز سمة لهم هي هذه السمة، وبها يعرفون .. وما أعمق إيجاءات التعبيرات القرآنية في مثل هذه المناسبات! والله يعد الذين آمنوا - في مقابل الثقة به، والالتجاء إليه، والولاء له وحده - ولرسوله وللمؤمنين بالتبعية .. ومقابل المفاصلة الكاملة بينهم وبين جميع الصفوف إلا الصف الذي يتمحض لله .. يعدهم النصر والغلبة:

«ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإنّ حزب الله همّ الغالبون» .. وقد جاء هذا الوعد بالغلب بعد بيان قاعدة الإيمان في ذاتها .. وأنها هي الولاء لله ورسوله وللمؤمنين وبعد التحذير من الولاء لليهود والنصارى واعتباره خروجاً من الصف المسلم إلى صف اليهود والنصارى، وارتداداً عن الدين .. وهنا لفظة قرآنية مطردة .. فالله - سبحانه - يريد من المسلم أن يسلم لمجرد أن الإسلام خير! لا لأنه سيغلب، أو سيمكن له في الأرض فهذه ثمرات تأتي في حينها وتأتي لتحقيق قدر الله في التمكين لهذا الدين لا لتكون هي بذاتها الإغراء على الدخول في هذا الدين .. والغلب للمسلمين لا شيء منه لهم. لا شيء لذواتهم وأشخاصهم. وإنما هو قدر الله يجريه على أيديهم، ويرزقهم إياه لحساب عقيدتهم لا لحسابهم! فيكون لهم ثواب الجهد فيه وثواب النتائج التي تترتب عليه من التمكين لدين الله في الأرض، وصلاح الأرض بهذا التمكين ..

كذلك قد يعد الله المسلمين الغلب لتثبيت قلوبهم وإطلاقها من عوائق الواقع الحاضر أمامهم - وهي عوائق ساحقة في أحيان كثيرة - فإذا استيقنوا العاقبة قويت قلوبهم على اجتياز المحنة وتخطي العقبة، والطمع في أن يتحقق على أيديهم وعد الله للأمة المسلمة، فيكون لهم ثواب الجهاد، وثواب التمكين لدين الله، وثواب النتائج المترتبة على هذا التمكين.

كذلك يشي ورود هذا النص في هذا المجال، بحالة الجماعة المسلمة يومذاك، وحاجتها إلى هذه البشريات. بذكر هذه القاعدة من غلبة حزب الله .. مما يرجح ما ذهبنا إليه عن تاريخ نزول هذا القطاع من السورة.

ثم تلخص لنا هذه القاعدة التي لا تتعلق بزمان ولا مكان .. فنطمئن إليها بوصفها سنة من سنن الله التي لا تتخلف. وإن خسرت العصبة المؤمنة بعض المعارك والمواقف. فالسنة التي لا تنقض هي أن حزب الله هم الغالبون .. ووعد الله القاطع أصدق من ظواهر الأمور في بعض مراحل الطريق! وأن الولاء لله ورسوله والذين آمنوا هو الطريق المؤدي لتحقيق وعد الله في نهاية الطريق!

وبعد فلقد سلك المنهج القرآني في هذا السياق طرقاً متنوعة، لنهي الذين آمنوا عن تولي المخالفين لهم في عقيدتهم من أهل الكتاب والمشرّكين، ولتقرير هذه القاعدة الإيمانية في ضمائرهم وإحساسهم وعقولهم. مما يدل على أهمية هذه القاعدة في التصور الإسلامي وفي الحركة الإسلامية على السواء .. وقد رأينا من قبل أنه سلك في النداء الأول طريق النهي المباشر، وطريق التخويف من أن يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده، فينكشف ستر المنافقين .. وسلك في النداء الثاني طريق التحذير من الردة بموالات أعداء الله ورسوله والمؤمنين وطريق التحبيب في أن يكونوا من العصبة المختارة. ممن يحبهم الله ويجبونه وطريق الوعد بالنصر لحزب الله الغالب ..^{٥٤}

^{٥٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٣١٢)

٧ - بالجهاد في سبيل الله تلك الفريضة الشاقة

قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: ٢١٦]

كما أمر الله تعالى بالإِنْفَاقِ عَلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ لِحِمَايَةِ الْمُجْتَمَعِ مِنْ دَاخِلِهِ، كَذَلِكَ فَرَضَ اللَّهُ الْجِهَادَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَمُحَارَبَةَ أَعْدَاءِ الدِّينِ، لِيَكْفُوا عَنْ الْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ شَرَّ أَعْدَائِهَا. وَالْجِهَادُ فَرَضٌ كِفَايَةٌ إِذَا قَامَ بِهِ بَعْضُ الْأُمَّةِ سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ، وَالْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ غَزَا أَوْ قَعَدَ، فَالْقَاعِدُ عَلَيْهِ أَنْ يُعَيِّنَ إِذَا اسْتَعَانَ بِهِ النَّاسُ، وَأَنْ يُعَيِّثَ إِذَا اسْتَعَاثُوا بِهِ، وَأَنْ يَنْفِرَ إِذَا اسْتَنْفَرَ .

وَيَذْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّ الْجِهَادَ فِيهِ كُرْهُ وَمَشَقَّةٌ عَلَى الْأَنْفُسِ، مِنْ تَحْمُلِ مَشَقَّةِ السَّفَرِ، إِلَى مَخَاطِرِ الْحُرُوبِ وَمَا فِيهَا مِنْ جَرْحٍ وَقَتْلِ وَأَسْرِ، وَتَرْكِ لِلْعِيَالِ، وَتَرْكِ لِلتَّجَارَةِ وَالصَّنْعَةِ وَالْعَمَلِ .. إلخ، وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ فِيهِ الْخَيْرُ لِأَنَّهُ قَدْ يَعْقِبُهُ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ بِالْأَعْدَاءِ، وَالْاِسْتِيلَاءُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَبِلَادِهِمْ . وَقَدْ يُحِبُّ الْمَرْءُ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَهُ، وَمِنْهُ الْقُعُودُ عَنِ الْجِهَادِ، فَقَدْ يَعْقِبُهُ اسْتِيلَاءُ الْأَعْدَاءِ عَلَى الْبِلَادِ وَالْحُكْمِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُهَا الْعِبَادُ .^{٥٥}

إِنَّ الْقِتَالَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَرِيضَةٌ شَاقَّةٌ. وَلَكِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ الْأَدَاءِ. وَاجِبَةٌ الْأَدَاءِ لِأَن فِيهَا خَيْرًا كَثِيرًا لِلْفَرْدِ الْمُسْلِمِ، وَلِلْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَلِلْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا. وَلِلْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ.

وَالْإِسْلَامُ يَحْسِبُ حِسَابَ الْفَطْرَةِ فَلَا يَنْكَرُ مَشَقَّةَ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ، وَلَا يَهُونُ مِنْ أَمْرِهَا. وَلَا يَنْكَرُ عَلَى النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ إِحْسَاسَهَا الْفَطْرِي بِكَرَاهِيَّتِهَا وَثَقْلِهَا. فَالْإِسْلَامُ لَا يَمَارِي فِي الْفَطْرَةِ، وَلَا يَصَادِمُهَا، وَلَا يَحْرِمُ عَلَيْهَا الْمَشَاعِرَ الْفَطْرِيَّةَ الَّتِي لَيْسَ إِلَى إِنْكَارِهَا مِنْ سَبِيلٍ .. وَلَكِنَّهُ يَعَالِجُ الْأَمْرَ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، وَيَسْلُطُ عَلَيْهِ نُورًا جَدِيدًا إِنَّهُ يَقَرَّرُ أَنَّ مِنَ الْفَرَائِضِ مَا هُوَ شَاقٌّ مَرِيرٌ كَرِيهٌ الْمَذَاقُ وَلَكِنْ وَرَاءَهُ حِكْمَةٌ تَهْوَنُ مَشَقَّتَهُ، وَتَسِيغُ مَرَارَتَهُ، وَتَحَقِّقُ بِهِ خَيْرًا مُخْبِئًا قَدْ لَا يَرَاهُ النَّظَرُ الْإِنْسَانِي الْقَصِيرُ .. عِنْدئِذٍ يَفْتَحُ لِلنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ نَافِذَةً جَدِيدَةً تَطْلُ مِنْهَا عَلَى الْأَمْرِ وَيَكْشِفُ لَهَا عَنْ زَاوِيَةٍ أُخْرَى غَيْرِ الَّتِي تَرَاهُ مِنْهَا. نَافِذَةً تَهْبِ مِنْهَا رِيحٌ رَخِيَّةٌ عِنْدَ مَا تَحِيطُ الْكُرُوبُ بِالنَّفْسِ وَتَشَقُّ عَلَيْهَا الْأُمُورُ .. إِنَّهُ مِنْ يَدْرِي فَعَلَّ وَرَاءَ الْمَكْرُوهِ خَيْرًا. وَوَرَاءَ الْحُبُوبِ شَرًا. إِنَّ الْعَلِيمَ بِالْغَايَاتِ الْبَعِيدَةِ، الْمَطْلِعَ عَلَى الْعَوَاقِبِ الْمَسْتُورَةِ، هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ وَحْدَهُ. حَيْثُ لَا يَعْلَمُ النَّاسُ شَيْئًا مِنَ الْحَقِيقَةِ.

وَعِنْدَ مَا تَنْسَمُ تِلْكَ النَّسْمَةُ الرَّخِيَّةُ عَلَى النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ تَهْوَنُ الْمَشَقَّةُ، وَتَتَفَتَحُ مَنَافِذُ الرِّجَاءِ، وَيَسْتَرُوحُ الْقَلْبُ فِي الْهَاجِرَةِ، وَيَجْنَحُ إِلَى الطَّاعَةِ وَالْأَدَاءِ فِي يَقِينٍ وَفِي رِضَاءٍ.

^{٥٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٢٣، بترقيم الشاملة آليا)

هكذا يواجه الإسلام الفطرة، لا منكرها عليها ما يطوف من المشاعر الطبيعية، ولا مريدا لها على الأمر الصعب. بمجرد التكليف. ولكن مربيا لها على الطاعة، ومفسحا لها في الرجاء. لتبذل الذي هو أدنى في سبيل الذي هو خير ولترتفع على ذاتها متطوعة لا مجبرة، ولتحس بالعطف الإلهي الذي يعرف مواضع ضعفها، ويعترف بمشقة ما كتب عليها، ويعذرهما ويقدرهما ويحدو لها بالتسامي والتطلع والرجاء.

وهكذا يري الإسلام الفطرة، فلا تمل التكليف، ولا تجزع عند الصدمة الأولى، ولا تخور عند المشقة البادية، ولا تحجل وتهاوى عند انكشاف ضعفها أمام الشدة. ولكن تثبت وهي تعلم أن الله يعذرهما ويمددهما بعونه ويقويهما. وتصمم على المضي في وجه المحنة، فقد يكمن فيها الخير بعد الضرر، واليسر بعد العسر، والراحة الكبرى بعد الضنى والعناء. ولا تنهالك على ما تحب وتلتذ. فقد تكون الحسرة كامنة وراء المتعة! وقد يكون المكروه محتبئا خلف الحبوب. وقد يكون الهلاك متربصا وراء المطمع البراق.

إنه منهج في التربية عجيب. منهج عميق بسيط. منهج يعرف طريقه إلى مسارب النفس الإنسانية وحناياها ودروبها الكثيرة. بالحق وبالصدق. لا بالإيجاء الكاذب، والتمويه الخادع.. فهو حق أن تكره النفس الإنسانية القاصرة الضعيفة أمرا ويكون فيه الخير كل الخير. وهو حق كذلك أن تحب النفس أمرا وتنهالك عليه. وفيه الشر كل الشر. وهو الحق كل الحق أن الله يعلم والناس لا يعلمون! وماذا يعلم الناس من أمر العواقب؟ وماذا يعلم الناس مما وراء الستر المسدل؟ وماذا يعلم الناس من الحقائق التي لا تخضع للهوى والجهل والقصور؟! إن هذه اللمسة الربانية للقلب البشري لتفتح أمامه عالما آخر غير العالم المحدود الذي تبصره عيناه. وتبرز أمامه عوامل أخرى تعمل في صميم الكون، وتقلب الأمور، وترتب العواقب على غير ما كان يظنه ويتمناه.

وإنما لتتركه حين يستجيب لها طيعا في يد القدر، يعمل ويرجو ويطمع ويخاف، ولكن يرد الأمر كله ليد الحكيمة والعلم الشامل، وهو راض قرير.. إنه الدخول في السلم من بابه الواسع.. فما تستشعر النفس حقيقة السلام إلا حين تستيقن أن الخير فيما اختاره الله. وأن الخير في طاعة الله دون محاولة منها أن تجرب ربها وأن تطلب منه البرهان! إن الإذعان الواثق والرجاء الهادئ والسعي المطمئن.. هي أبواب السلم الذي يدعو الله عباده الذين آمنوا ليدخلوا فيه كافة.. وهو يقودهم إليه بهذا المنهج العجيب العميق البسيط. في يسر وفي هواة وفي رخاء. يقودهم بهذا المنهج إلى السلم حتى وهو يكلفهم فريضة القتال. فالسلم الحقيقي هو سلم الروح والضمير حتى في ساحة القتال.

وإن هذا الإيجاء الذي يحمله ذلك النص القرآني، لا يقف عند حد القتال، فالقتال ليس إلا مثالا لما تكرهه النفس، ويكون من ورائه الخير.. إن هذا الإيجاء ينطلق في حياة المؤمن كلها. ويلقي ظلالة على أحداث الحياة جميعها.. إن الإنسان لا يدري أين يكون الخير وأين يكون الشر.. لقد كان المؤمنون الذين خرجوا يوم بدر يطلبون غير قريش وتجارها، ويرجون أن تكون الفئة التي وعدهم الله إياها هي فئة العير والتجارة. لا فئة الحامية المقاتلة من قريش. ولكن الله جعل القافلة تفلت، ولقاهم المقاتلة من

قريش! وكان النصر الذي دوى في الجزيرة العربية ورفع راية الإسلام. فأين تكون القافلة من هذا الخير الضخم الذي أراده الله للمسلمين! وأين يكون اختيار المسلمين لأنفسهم من اختيار الله لهم؟ والله يعلم والناس لا يعلمون! ولقد نسي فتى موسى ما كانا قد أعداه لطعامهما - وهو الحوت - فتسرب في البحر عند الصخرة. «فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا». قال: «أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً». قال: «ذلك ما كنا نبغ فارتدنا على آثارهما قصصاً: فوجدا عبداً من عبادنا...». وكان هذا هو الذي خرج له موسى. ولو لم يقع حادث الحوت ما ارتدا. ولفاتهما ما خرجا لأجله في الرحلة كلها! وكل إنسان - في تجاربه الخاصة - يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم. ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم. وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذاً من الله أن فوت عليه هذا المطلوب في حينه. وكم من محنة تجرعه الإنسان لاهثاً يكاد يتقطع لفظاعتها. ثم ينظر بعد فترة فإذا هي تنشئ له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل.

إن الإنسان لا يعلم. والله وحده يعلم. فماذا على الإنسان لو يستسلم؟ إن هذا هو المنهج التربوي الذي يأخذ القرآن به النفس البشرية. لتؤمن وتسلم وتستسلم في أمر الغيب المخبوء، بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي المكشوف...^{٥٦}

٨ - لا يوادون من حاد الله ورسوله:

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) } [المجادلة]

إِنَّ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ أَمْرَ اللَّهِ وَيُعَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَنَعَّوْنَ عَنِ الْقِيَامِ بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، هُمْ فِي جُمْلَةِ أَهْلِ الذَّلَّةِ، لِأَنَّ الْغَلْبَةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَسَيَلْقَوْنَ الذَّلَّةَ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْإِخْرَاجِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْخِزْيِ وَالتَّكَالِ وَالْعَذَابِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

^{٥٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٦١)

وقد قضى الله تعالى، وحكم في أم الكتاب، بأن النصر والغلبة ستكون له تعالى، ولرسوله ولعبيده المؤمنين، في الدنيا والآخرة، وقضاء الله نافذ لا محالة، ولا راد له، والله قوي لا يقهر، عزيز لا يغالب .

لا تجد قوماً يجتمعون بين الإيمان بالله واليوم الآخر، وبين مودة أعداء الله وأعداء رسوله، لأن المؤمنين حقاً لا يؤالون الكافرين، ولو كان هؤلاء الكافرون هم أهلهم، وأقرباءهم أو أبناءهم الذين هم أقرب الناس إليهم، والمؤمنون الذين يمتنعون عن مودة الكافرين، ولو كانوا أقرباءهم وعشيرتهم، هم الذين ثبت الله الإيمان في قلوبهم، وزين لهم الهدى، وقواهم بطمأنينة القلب، والثبات على الحق { وأيدهم بروح منه }، وسيدخلهم الله يوم القيامة في جنات تجري من تحتها الأنهار، ويقيمون فيها خالدين أبداً، رضي الله عنهم، وأدخلهم في رحمته، فأدخلهم الجنات، ورضوا بما آتاهم الله عنهم، وأدخلهم في رحمته، فأدخلهم الجنات، ورضوا بما آتاهم الله من فضله، وبما عوضهم به لاسخاطهم الأقارب والأبناء . وهؤلاء هم أنصار الله، وجنوده، وحزبه، وأهل كرامته، وهم أهل الفلاح والسعادة والنصر في الدنيا والآخرة ..^{٥٧}

وهذا وعد الله الصادق الذي كان والذي لا بد أن يكون على الرغم مما قد يبدو أحياناً من الظاهر الذي يخالف هذا الوعد الصادق .

فالذي وقع بالفعل أن الإيمان والتوحيد قد غلبا على الكفر والشرك . واستقرت العقيدة في الله في هذه الأرض ودانت لها البشرية بعد كل ما وقف في طريقها من عقبات الشرك والوثنية، وبعد الصراع الطويل مع الكفر والشرك والإلحاد . وإذا كانت هناك فترات عاد فيها الإلحاد أو الشرك إلى الظهور في بعض بقاع الأرض - كما يقع الآن في الدول الملحدة والوثنية - فإن العقيدة في الله ظلت هي المسيطرة بصفة عامة . فضلاً على أن فترات الإلحاد والوثنية إلى زوال مؤكد، لأنها غير صالحة للبقاء . والبشرية تهتدي في كل يوم إلى أدلة جديدة تهدي إلى الاعتقاد في الله والتمكين لعقيدة الإيمان والتوحيد . والمؤمن يتعامل مع وعد الله على أنه الحقيقة الواقعة . فإذا كان الواقع الصغير في جيل محدود أو في رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة، فهذا الواقع هو الباطل الزائل . الذي يوجد فترة في الأرض لحكمة خاصة . لعلها استجاشة الإيمان وإهاجته لتحقيق وعد الله في وقته المرسوم .

وحين ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التي شنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان في صورها المتنوعة، من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد في عهود متطاولة، بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية . ثم بقي الإيمان في قلوب المؤمنين، يحميهم من الانهيار، ويحمي شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها في الأمم الهاجمة عليها، ومن خضوعها للطغيان الغاشم إلا ريثما تنقض عليه وتحطمه .. حين ينظر

^{٥٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٢، بترقيم الشاملة آليا)

الإنسان إلى هذا الواقع في المدى المتطاوّل يجد مصداق قول الله تعالى. يجده في هذا الواقع ذاته بدون حاجة إلى الانتظار الطويل!!

وعلى أية حال فلا يخالج المؤمن شك في أن وعد الله هو الحقيقة الكائنة التي لا بد أن تظهر في الوجود، وأن الذين يحادون الله ورسوله هم الأذليون، وأن الله ورسوله هم الغالبون. وأن هذا هو الكائن والذي لا بد أن يكون. ولتكن الظواهر غير هذا ما تكون!

وفي النهاية تحيى القاعدة الثابتة التي يقف عليها المؤمنون، أو الميزان الدقيق للإيمان في النفوس: «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم. أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروحٍ منه، ويدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. رضي الله عنهم ورضوا عنه. أولئك حزب الله. ألا إنّ حزب الله هم المفلحون» ..

إنها المفاضلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان، والانحياز النهائي للصف المتميز، والتجرد من كل عائق وكل جاذب، والارتباط في العروة الواحدة بالحبل الواحد. «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله» .. فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وما يجمع إنسان في قلب واحد ودين: ودّاً لله ورسوله وودّاً لأعداء الله ورسوله! فإما إيمان أو لا إيمان. أما هما معا فلا يجتمعان.

«ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم» .. فروابط الدم والقربة هذه تنقطع عند حد الإيمان. إنما يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين: لواء الله ولواء الشيطان. والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان. فأما إذا كانت المحادة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد. ولقد قتل أبو عبيدة أباه في يوم بدر. وهم الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن. وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير. وقتل عمر وحمة وعلي وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم. متجردين من علائق الدم والقربة إلى آصرة الدين والعقيدة. وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله.

«أولئك كتب في قلوبهم الإيمان» .. فهو مثبت في قلوبهم بيد الله مكتوب في صدورهم بيمين الرحمن. فلا زوال له ولا اندثار، ولا انطماس فيه ولا غموض! «وأيدهم بروحٍ منه» ..

وما يمكن أن يعزموا هذه العزمة إلا بروح من الله. وما يمكن أن تشرق قلوبهم بهذا النور إلا بهذا الروح الذي يمدّهم بالقوة والإشراق، ويصلهم بمصدر القوة والإشراق.

«ويدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها» .. جزاء ما تجردوا في الأرض من كل رابطة وآصرة ونفضوا عن قلوبهم كل عرض من أعراضها الفانية.

« رضي الله عنهم ورضوا عنه » .. وهذه صورة وضيئة راضية مطمئنة، ترسم حالة المؤمنين هؤلاء، في مقام عال رفيع. وفي جو راض وديع .. رهم راض عنهم وهم راضون عن رهم. انقطعوا عن كل شيء ووصلوا أنفسهم به فتقبلهم في كنفه، وأفسح لهم في جنبه، وأشعرهم برضاه. فرضوا. رضيت نفوسهم هذا القرب وأنست به واطمأنت إليه ..

« أولئك حزب الله » .. فهم جماعته. المتجمعة تحت لوائه. المتحركة بقيادته. المهتدية بهديه. المحققة لمنهجها. الفاعلة في الأرض ما قدره وقضاه. فهي قدر من قدر الله.

« ألا إن حزب الله هم المفلحون ». ومن يفلح إذن إذا لم يفلح أنصار الله المختارون؟

وهكذا تنقسم البشرية إلى حزبين اثنين: حزب الله وحزب الشيطان. وإلى رابيتين اثنتين: راية الحق وراية الباطل. فإما أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق، وإما أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل .. وهما صفان متميزان لا يختلطان ولا يتميعان!! لا نسب ولا صهر، ولا أهل ولا قرابة، ولا وطن ولا جنس، ولا عصبية ولا قومية .. إنما هي العقيدة، والعقيدة وحدها. فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة في الله. تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم، وتختلف عشائرتهم وتختلف أسرهم، ولكنهم يلتقون في الرابطة التي تؤلف حزب الله، فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة. ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل، فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة. لا من أرض، ولا من جنس، ولا من وطن ولا من لون، ولا من عشيرة ولا من نسب ولا من صهر .. لقد أنبتت الوشيجة الأولى التي تقوم عليها هذه الوشائج فانبتت هذه الوشائج جميعا ..

ومع إichاء هذه الآية بأنه كان هناك في الجماعة المسلمة من تشده أواصر الدم والقرابة وجواذب المصلحة والصدقة، مما تعالجه هذه الآية في النفوس، وهي تضع ميزان الإيمان بهذا الحسم الجازم، والمفاضلة القاطعة .. إلا أنها في الوقت ذاته ترسم صورة لطائفة كانت قائمة كذلك في الجماعة المسلمة، ممن تجردوا وخلصوا ووصلوا إلى ذلك المقام.

وهذه الصورة هي أنسب ختام للسورة التي بدأت بتصوير رعاية الله وعنايته بهذه الأمة في واقعة المرأة الفقيرة التي سمع الله لها وهي تجادل رسوله - ﷺ - في شأن زوجها! فلانقطاع لله الذي يرفع هذه الأمة مثل هذه الرعاية هو الاستجابة الطبيعية. والمفاضلة بين حزب الله وحزب الشيطان هي الأمر الذي لا ينبغي غيره للأمة التي اختارها الله للدور الكوني الذي كلفها إياه.^{٥٨}

٩ - الإِشَارُ

^{٥٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٣٩١)

قال تعالى: { وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الحشر: ٩]

أثنى الله تعالى على الأنصارِ مُبِينًا فضلَهُمْ وشرفَهُمْ وكرمَهُمْ، حين جعل الله الفياء لإخوانِهِم المهاجرين دُورَهُمْ، فقال تعالى: والذين سكنوا دار الهجرة قبل المهاجرين، وآمنوا قبل كثير من المهاجرين، يُحِبُّونَ المهاجرين، ويتمنون لهم الخير، كما يتمنون لأنفسِهِمْ، وقد أسكنوا المهاجرين في دُورِهِمْ، وأشركوهم في أموالِهِمْ حتى نزل بعضهم عن بعض نِسائِهِ للمهاجرين. وقد فعلوا ذلك ونفوسُهُم طيبة، وأعينُهُم قريرة بما يفعلون، لا يجدون في أنفسِهِمْ حسداً للمهاجرين. ولا ضيقاً بِهِمْ لما فضلَهُم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرثبة، ولما حصَّهُم به من معنم بني النضير دُورَهُمْ. وهم يقدمون أهل الحاجة من المهاجرين على أنفسِهِمْ، ويبدؤون بالناس قبل أنفسِهِمْ في حال احتياجِهِمْ إلى ذلك.^{٥٩}

لم يعرف تاريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين. بهذا الحب الكريم. وبهذا البذل السخي. وبهذه المشاركة الرضية. وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء. حتى ليروى أنه لم يتزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة. لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين! «ولا يجدون في صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا». مما يناله المهاجرون من مقام مفضل في بعض المواضع، ومن مال يختصون به كهذا الفياء، فلا يجدون في أنفسهم شيئاً من هذا. ولا يقول: حسداً ولا ضيقاً. إنما يقول: «شيئاً». مما يلقي ظلال النظافة الكاملة لصدورهم والبراءة المطلقة لقلوبهم، فلا تجد شيئاً أصلاً.

«ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بِهِمْ خَصَاصَةٌ».. والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا. وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيراً. وكانوا كذلك في كل مرة وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديماً وحديثاً.

«ومن يوق شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».. فهذا الشح. شح النفس. هو المعوق عن كل خير. لأن الخير بذل في صورة من الصور. بذل في المال. وبذل في العاطفة. وبذل في الجهد. وبذل في الحياة عند الاقتضاء. وما يمكن أن يصنع الخير شحيح يهيم دائماً أن يأخذ ولا يهيم مرة أن يعطي. ومن يوق شح نفسه، فقد وقى هذا المعوق عن الخير، فانطلق إليه معطياً باذلاً كريماً. وهذا هو الفلاح في حقيقة معناه.

^{٥٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠١٣، بترقيم الشاملة آليا)

«وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا. رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» ..

وهذه الصورة الثالثة النظيفة الرضية الواعية. وهي تبرز أهم ملامح التابعين. كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق في جميع الأوطان والأزمان. هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار - ولم يكونوا قد جاءوا بعد عند نزول الآية في المدينة، إنما كانوا قد جاءوا في علم الله وفي الحقيقة القائمة في هذا العلم المطلق من حدود الزمان والمكان - سمة نفوسهم أهما تتوجه إلى ربها في طلب المغفرة، لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان وفي طلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا على وجه الإطلاق، ممن يربطهم معهم رباط الإيمان. مع الشعور برأفة الله، ورحمته، ودعائه بهذه الرحمة، وتلك الرأفة: «رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» ..

وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة في هذا الوجود. تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها، وآخرها بأولها، في تضامن وتكافل وتواد وتعاطف. وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب وتتفرد وحدها في القلوب، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة، كما يذكر أخاه الحي، أو أشد، في إعزاز وكرامة وحب. ويحسب السلف حساب الخلف. ويمضي الخلف على آثار السلف. صفا واحدا وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان، تحت راية الله تغذ السير صعدا إلى الأفق الكريم، متطلعة إلى ربها الواحد الرؤوف الرحيم.

إنها صورة باهرة، تمثل حقيقة قائمة كما تمثل أرفع وأكرم مثال للبشرية يتصوره قلب كريم. صورة تبدو كرامتها ووضاءتها على أتمها حين تقرن مثالا إلى صورة الحقد الذميم والهدم التميم التي تمثلها وتبشر بها الشيوعية في إنجيل كارل ماركس. صورة الحقد الذي ينغل في الصدور، وينخر في الضمير، على الطبقات، وعلى أجيال البشرية السابقة، وعلى أممها الحاضرة التي لا تعتنق الحقد الطبقي الذميم. وعلى الإيمان والمؤمنين من كل أمة وكل دين!

صورتان لا التقاء بينهما في لحظة ولا سمة، ولا لمسة ولا ظل. صورة ترفع البشرية إلى أعلى مراقيها وصورة تهبط بها إلى أدنى دركاتهما. صورة تمثل الأجيال من وراء الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة والنسب متضامنة مترابطة متكافلة متوادة متعارفة صاعدة في طريقها إلى الله، بريئة الصدور من الغل، طاهرة القلوب من الحقد، وصورة تمثل البشرية أعداء متناحرين يلقي بعضهم بعضا بالحقد والدخل والدغل والغش والخداع والالتواء. حتى وهم في المعبد يقيمون الصلاة. فالصلاة ليست سوى أحبولة، والدين كله ليس إلا فخا ينصبه رأس المال للكادحين!

«رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا. رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ».. هذه هي قافلة الإيمان. وهذا هو دعاء الإيمان. وإلها لقافلة كريمة. وإنه لدعاء كريم^{٦٠}.

١٠ - الرحمة الشاملة :

قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } [الفتح: ٢٩]

إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا، بِلَا شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ، وَإِنَّ أَصْحَابَهُ يَتَصَفُّونَ بِالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ الْحَسَنَةِ، فَهُمْ أَشِدَّاءُ غِلَاطُ الْقُلُوبِ عَلَى الْكُفَّارِ، وَهُمْ رُحَمَاءُ مُتَوَادُّونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ يَرَاهُمُ النَّاطِرُ إِلَيْهِمْ دَائِبِينَ عَلَى أَدَاءِ الصَّلَاةِ، مُخْلِصِينَ فِيهَا لِلَّهِ، مُحْتَسِبِينَ أَجْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، يَبْتَغُونَ بِصَلَاتِهِمْ رِضَا اللَّهِ وَرِضْوَانَهُ، تَتَرَكُّ نُفُوسُهُمْ الْمُطْمَئِنَّةُ أَثَرًا عَلَى وُجُوهِهِمْ، فَهِيَ هَادِئَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ، وَهَذِهِ هِيَ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ فِي التَّوْرَةِ. وَجَاءَ وَصْفُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ أَنَّ أَتْبَاعَ مُحَمَّدٍ سَيَكُونُونَ قَلِيلِينَ ثُمَّ يَزْدَادُونَ وَيَكْثُرُونَ وَيَسْتَغْلِظُونَ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ (شَطْأُهُ) الَّتِي تَتَفَرَّغُ مِنْهُ عَلَى جَوَانِبِهِ، فَيَقْوَى وَيَتَحَوَّلُ مِنَ الدَّقَّةِ إِلَى الْغَلْظَةِ، وَيَسْتَقِيمُ عَلَى أَصُولِهِ فَيُعْجِبُ بِهِ الزُّرَّاعَ لِخَصْبِهِ، وَقُوَّتِهِ، وَحُسْنِ مَظْهَرِهِ، وَقَدْ نَمَّاهُمْ اللَّهُ وَأَكْثَرَ عِدَدَهُمْ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ، وَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، الْعَامِلِينَ لِلصَّالِحَاتِ، بِأَنْ يُغْفَرَ لَهُمْ ذُنُوبُهُمْ، وَأَنْ يُجْزَلَ لَهُمُ الْأَجْرُ وَالْعَطَاءُ، وَبِأَنْ يُدْخِلَهُمْ جَنَّاتِهِ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ أَبَدًا^{٦١} وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو يُبَلِّغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ» سنن أبي داود^{٦٢}.

وعن الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مِثْلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مِثْلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى"^{٦٣}

^{٦٠} - في ظلال القرآن للسيد قطب- ط ١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٠٤)

^{٦١} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٩١، بترقيم الشاملة آليا)

^{٦٢} - سنن أبي داود برقم (٤٩٤٣) وسنن الترمذى برقم (٢٠٤٩) صحيح

^{٦٣} - صحيح مسلم (١٩٩٩/٤) - ٦٦ - (٢٥٨٦)

[ش (تداعى له سائر الجسد) أي دعا بعضه بعضا إلى المشاركة في ذلك ومنه قوله تداعت الحيطان أي تساقطت أو قربت من التساقط]

وعن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ^{٦٤}

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع. صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظاهرة والمضمرة. فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم: «تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا».. ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويحيش بها: «يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا».. ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسحتهم وسماتهم: «سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ».. «ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ».. وهذه صفتهم فيها.. ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل.. «كَزَّرَعَ أَخْرَجَ شَطْأَهُ» «فَازَرَهُ».. «فَاسْتَعْلَظَ» «فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ».. «يُعْجِبُ الزَّرَّاعُ».. «لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ».. وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد - ﷺ - صفته التي أنكرها سهيل بن عمرو ومن وراءه من المشركين: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ».. ثم ترسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع. والمؤمنون لهم حالات شتى. ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياتهم، ونقط الارتكاز الأصلية في هذه الحياة. وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة في الصور الوضيئة.. وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها. التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة. إرادة التكريم واضحة، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ».. أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعا. رحماء بينهم وهم فقط إخوة دين. فهي الشدة لله والرحمة لله. وهي الحمية للعقيدة، والسماحة للعقيدة. فليس لهم في أنفسهم شيء، ولا لأنفسهم فيهم شيء. وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها. يشتدون على أعدائهم فيها، ويلينون لإخوتهم فيها. قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى، ومن الانفعال لغير الله، والوشيجة التي تربطهم بالله. وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة: «تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا».. والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم. ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي الحالة الأصلية لهم في حقيقة نفوسهم فعبّر عنها تعبيرا يثبتها كذلك في زمانهم، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعا سجدا.

واللقطة الثالثة مثلها. ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم: «يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا».. فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة. كل ما يشغل بالهم، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم، هو فضل الله ورضوانه. ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشغلون به.

^{٦٤} - صحيح البخاري (١/١٠٣) (٤٨١) [ش (المؤمن للمؤمن) أي حال المؤمن في تعاونه مع المؤمن]

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملاحظتهم، ونضحها على سماتهم: «سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ».. سيماهم في وجوههم من الوضاعة والإشراق والصفاء والشفافية، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف. وليست هذه السيمة هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله: «مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ».. فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة. واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها. فهو أثر هذا الخشوع. أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة. ويحل مكانها التواضع النبيل، والشفافية الصافية، والوضاعة الهادئة، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاعة وصباحة ونبلا.

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة. إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة: «ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ».. وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى، وبشر الأرض بما قبل أن يجيئوا إليها.

«وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ».. وصفتهم في بشارته بمحمد ومن معه، أهم: «كَزَّرَعَ أَخْرَجَ شَطْأَهُ».. فهو زرع نام قوي، يخرج فرخه من قوته وخصوبته. ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده. «فَازَرَهُ».. أو أن العود آزر فرخه فشده. «فَاسْتَعْلَظَ» الزرع وضخمت ساقه وامتألت. «فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ» لا معوجا ومحنيا. ولكن مستقيما قويا سويا..

هذه صورته في ذاته. فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع، العارفين بالنامي منه والذابل. المثمر منه والبائر. فهو وقع البهجة والإعجاب: «يُعْجِبُ الزُّرَّاعُ». وفي قراءة يعجب «الزارع».. وهو رسول الله - ﷺ - صاحب هذا الزرع النامي القوي المخصب البهيج.. وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس. فهو وقع الغيظ والكمد: «لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ».. وتعمد إغابة الكفار يوحى بأن هذه الزرعة هي زرعة الله. أو زرعة رسوله، وأنهم ستار للقدرة وأداة لإغابة أعداء الله! وهذا المثل كذلك ليس مستحدثا، فهو ثابت في صفحة القدر. ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ومن معه إلى هذه الأرض. ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه حين يجيئون.

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة.. صحابة رسول الله ﷺ.. فتثبت في صلب الوجود كله، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يتسمع إليها من بارئ الوجود. وتبقى نموذجاً للأجيال، تحاول أن تحققها، لتحقيق معنى الإيمان في أعلى الدرجات.

وفوق هذا التكريم كله، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا».. وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة بعد ما تقدم من صفاتهم، التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة. مغفرة وأجر عظيم.. وذلك التكريم وحده حسبهم. وذلك الرضى وحده أجر عظيم. ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولا قيود، والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ.

ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجوه هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم. وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكريم والوعد العظيم. وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله، وفي ميزان الله، وفي كتاب الله. وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية، وقد نزلت هذه السورة، وقد قرئت عليهم. وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم. وينظر بعضهم في وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي يحسها هو في كيانه.

وأحاول أن أعيش معهم لحظات في هذا المهرجان العلوي الذي عاشوا فيه.. ولكن أنى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه. إلا من بعيد؟! اللهم إلا من يكرمه الله إكرامهم: فيقرب له البعيد؟! فاللهم إنك تعلم أنني أتطلع لهذا الزاد الفريد!!^{٦٥}

وقال تعالى: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} (١٧) سورة البلد
لقد اشترط الله تعالى لإثابة الإنسان على اقتحام العقبة بفعل الخيرات، التي دل الله العباد عليها، أن يجمع الفاعل ثلاث صفات:

— أن يكون من الصابرين على الأذى والمكاره في سبيل الله.

— أن يكون ممن يرحمون عباد الله، ويواسونهم، ويساعدونهم عند الحاجة.^{٦٦}

والصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة، واقتحام العقبة بصفة خاصة. والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته. درجة تماسك الجماعة المؤمنة، وتواصيها على معنى الصبر، وتعاونها على تكاليف الإيمان. فهي أعضاء متجاوبة الحس. تشعر جميعاً شعوراً واحداً بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض وحمل تكاليفه، فيوصي بعضها بالصبر على العبء المشترك ويثبت بعضها بعضاً فلا تتخاذل ويقوي بعضها بعضاً فلا تنهزم. وهذا أمر غير الصبر الفردي. وإن يكن قائماً على الصبر الفردي. وهو إجماع بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة. وهو ألا يكون عنصر تخذيل بل عنصر تثبيت، ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام ولا يكون مثار جزع بل مهبط طمأنينة.

وكذلك التواصي بالمرحمة. فهو أمر زائد على الرحمة. إنه إشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به، والتحاض عليه، واتخاذها واجباً جماعياً فردياً في الوقت ذاته، يتعارف عليه الجميع، ويتعاون عليه الجميع.

فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه. وهو المعنى الذي يبرزه القرآن كما تبرزه أحاديث رسول الله - ﷺ - لأهميته في تحقيق حقيقة هذا الدين. فهو دين جماعة، ومنهج أمة، مع وضوح التبعية الفردية والحساب الفردي فيه وضوحاً كاملاً..

^{٦٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤١٦٦)

^{٦٦} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٩١٧، بترقيم الشاملة آليا)

وأولئك الذين يقتحمون العقبة - كما وصفها القرآن وحددها - «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» .. وهم أصحاب اليمين كما جاء في مواضع أخرى. أو أنهم أصحاب اليمين والحظ والسعادة .. وكلا المعنيين متصل في المفهوم الإيماني.^{٦٧}

هنالك ظاهرة تاريخية ينبغي أن يقف أمامها أصحاب الدعوة الإسلامية في كل أرض وفي كل زمان. وأن يقفوا أمامها طويلاً. ذلك أنها ذات أثر حاسم في منهج الدعوة واتجاهها. لقد خرّجت هذه الدعوة جيلاً من الناس - جيل الصحابة رضوان الله عليهم - جيلاً مميزاً في تاريخ الإسلام كله وفي تاريخ البشرية جميعه. ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة أخرى .. نعم وُجد أفراد من ذلك الطراز على مدار التاريخ. ولكن لم يحدث قط أن تجمّع مثل ذلك العدد الضخم، في مكان واحد، كما وقع في الفترة الأولى من حياة هذه الدعوة. هذه ظاهرة واضحة واقعة، ذات مدلول ينبغي الوقوف أمامه طويلاً، لعلنا نتهدي إلى سرّه .

إن قرآن هذه الدعوة بين أيدينا، وحديث رسول الله - ﷺ - وهديه العملي، وسيرته الكريمة، كلها بين أيدينا كذلك، كما كانت بين أيدي ذلك الجيل الأول، الذي لم يتكرر في التاريخ .. ولم يغب إلا شخص رسول الله - ﷺ - فهل هذا هو السر ؟

لو كان وجود شخص رسول الله - ﷺ - حتمياً لقيام هذه الدعوة، وإيتائها ثمراتها، ما جعلها الله دعوة للناس كافة، وما جعلها آخر رسالة، وما وكل إليها أمر الناس في هذه الأرض، إلى آخر الزمان .. ولكن الله - سبحانه - تكفل بحفظ الذكر، وعلم أن هذه الدعوة يمكن أن تقوم بعد رسول الله - ﷺ - ويمكن أن تؤتي ثمارها. فاختاره إلى جواره بعد ثلاثة وعشرين عاماً من الرسالة، وأبقى هذا الدّين من بعده إلى آخر الزمان .. وإذن فإن غيبة شخص رسول الله - ﷺ - لا تفسر تلك الظاهرة ولا تعللها .

فلنبحث إذن وراء سبب آخر. لننظر في النبع الذي كان يستقي منه هذا الجيل الأول، فلعل شيئاً قد تغير فيه. ولننظر في المنهج الذي تخرجوا عليه، فلعل شيئاً قد تغير فيه كذلك .

كان النبع الأول الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن. القرآن وحده. فما كان حديث رسول الله - ﷺ - وهديه إلا أثرًا من آثار ذلك النبع. فعَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - ؟ فَقَالَتْ: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ.^{٦٨}

كان القرآن وحده إذن هو النبع الذي يستقون منه، ويتكيفون به، ويتخرجون عليه، ولم يكن ذلك كذلك لأنه لم يكن للبشرية يومها حضارة، ولا ثقافة، ولا علم، ولا مؤلفات، ولا دراسات .. كلا !

^{٦٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٨٦٣)

^{٦٨} - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٨ / ٣٠٥) (٢٥٣٠٢) - ٢٥٨١٦ - صحيح

فقد كانت هناك حضارة الرومان وثقافتها وكتبها وقانونها الذي ما تزال أوروبا تعيش عليه، أو على امتداده. وكانت هناك مخلفات الحضارة الإغريقية ومنطقها وفلسفتها وفنها، وهو ما يزال ينبوع التفكير الغربي حتى اليوم. وكانت هناك حضارة الفرس وفنها وشعرها وأساطيرها وعقائدها ونظم حكمها كذلك. وحضارات أخرى قاصية ودانية: حضارة الهند وحضارة الصين إلخ. وكانت الحضارتان الرومانية والفارسية تحفان بالجزيرة العربية من شمالها ومن جنوبها، كما كانت اليهودية والنصرانية تعيشان في قلب الجزيرة.. فلم يكن إذن عن فقر في الحضارات العالمية والثقافات العالمية يقصر ذلك الجيل على كتاب الله وحده.. في فترة تكونه.. وإنما كان ذلك عن "تصميم" مرسوم، ونهج مقصود. يدل على هذا القصد غضب رسول الله - ﷺ - وقد رأى في يد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - صحيفة من التوراة. فعن جابر قال: قال رسول الله - ﷺ -: "لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيًّا مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي" ٦٩

وإذن فقد كان هناك قصد من رسول الله - ﷺ - أن يقصر النبع الذي يستقي منه ذلك الجيل.. في فترة التكوين الأولى.. على كتاب الله وحده، لتخلص نفوسهم له وحده. ويستقيم عودهم على منهجه وحده. ومن ثم غضب أن رأى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يستقي من نبع آخر. كان رسول الله - ﷺ - يريد صنع جيل خالص القلب. خالص العقل. خالص التصور. خالص الشعور. خالص التكوين من أي مؤثر آخر غير المنهج الإلهي، الذي يتضمنه القرآن الكريم. ذلك الجيل استقى إذن من ذلك النبع وحده. فكان له في التاريخ ذلك الشأن الفريد.. ثم ما الذي حدث، اختلطت الينابيع! صبت في النبع الذي استقت منه الأجيال التالية فلسفة الإغريق ومنطقهم، وأساطير الفرس وتصوراتهم، وإسرائيليات اليهود ولاهوت النصارى، وغير ذلك من رواشب الحضارات والثقافات. واختلط هذا كله بتفسير القرآن الكريم، وعلم الكلام، كما اختلط بالفقه والأصول أيضاً. وتخرج على ذلك النبع المشوب سائر الأجيال بعد ذلك الجيل، فلم يتكرر ذلك الجيل أبداً.

وما من شك أن اختلاط النبع الأول كان عاملاً أساسياً من عوامل ذلك الاختلاف البين بين الأجيال كلها وذلك الجيل المميز الفريد.

هناك عامل أساسي آخر غير اختلاف طبيعة النبع. ذلك هو اختلاف منهج تلقي عما كان عليه في ذلك الجيل الفريد..

٦٩ - شعب الإيمان - (١ / ٣٤٩) (١٧٦) صحيح لغيره

إنهم - في الجيل الأول - لم يكونوا يقرءون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع . لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته . إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه، كما يتلقى الجندي في الميدان " الأمر اليومي " ليعمل به فور تلقيه !

ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة، لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها فعن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن .

عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: «حَدَّثَنَا الَّذِينَ، كَانُوا يُقْرَأُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسْتَقْرَأُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يُخْلِفُوهَا حَتَّى يَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا مِنَ الْعَمَلِ، فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا»^{٧٠} . هذا الشعور .. شعور التلقي للتنفيذ .. كان يفتح لهم من القرآن آفاقاً من المتاع وآفاقاً من المعرفة، لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع، وكان ييسر لهم العمل، ويخفف عنهم ثقل التكليف، ويخلط القرآن بذواتهم، ويحوّله في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي، وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان ولا في بطون الصحف، إنما تتحول آثاراً وأحداثاً تحوّل خط سير الحياة .

إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح: روح المعرفة المنشئة للعمل . إنه لم يجيء ليكون كتاب متاع عقلي، ولا كتاب أدب وفن، ولا كتاب قصة وتاريخ - وإن كان هذا كله من محتوياته - إنما جاء ليكون منهج حياة . منهاجاً إلهياً خالصاً . وكان الله سبحانه يأخذهم بهذا المنهج مفرقاً، يتلو بعضه بعضاً: { وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا } [الإسراء: ١٠٦]

لم ينزل هذا القرآن جملة، إنما نزل وفق الحاجات المتجددة، ووفق النمو المطرد في الأفكار والتصورات، والنمو المطرد في المجتمع والحياة، ووفق المشكلات العملية التي تواجهها الجماعة المسلمة في حياتها الواقعية . وكانت الآية أو الآيات تنزل في الحالة الخاصة والحادثة المعينة تحدث الناس عما في نفوسهم، وتصوّر لهم ما هم فيه من الأمر، وترسم لهم منهج العمل في الموقف، وتصحح لهم أخطاء الشعور والسلوك، وتربطهم في هذا كله بالله ربهم، وتعرّفهم بصفاته المؤثرة في الكون، فيحسون حينئذ أنهم يعيشون مع الملائة الأعلى، تحت عين الله، في رحاب القدرة . ومن ثم يتكيفون في واقع حياتهم، وفق ذلك المنهج الإلهي القويم .

^{٧٠} - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١ / ٧٤) صحيح

إن منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول . ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرَّج الأجيال التي تليه . وما من شك أن هذا العامل الثاني كان عاملاً أساسياً كذلك في اختلاف الأجيال كلها عن ذلك الجيل المميز الفريد .

هناك عامل ثالث جدير بالانتباه والتسجيل .

لقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية . كان يشعر في اللحظة التي يحییء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديداً، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية . وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف، الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام ! وبهذا الإحساس كان يتلقى هدي الإسلام الجديد، فإذا غلبته نفسه مرة، وإذا اجتذبت عاداته مرة، وإذا ضعف عن تكاليف الإسلام مرة .. شعر في الحال بالإثم والخطيئة، وأدرك في قرارة نفسه أنه في حاجة إلى التطهر مما وقع فيه، وعاد يحاول من جديد أن يكون على وفق الهدى القرآني .

كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه، تنشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية، فهو قد انفصل نهائياً من بيئته الجاهلية واتصل نهائياً ببيئته الإسلامية . حتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي، فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر .

وكان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية، وعُرفُها وتصورها، وعاداتها وروابطها، ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود . وينشأ من الانضمام إلى التجمع الإسلامي الجديد، بقيادته الجديدة، ومنح هذا المجتمع وهذه القيادة كل ولائه وكل طاعته وكل تبعيته .

وكان هذا مفرق الطريق، وكان بدء السير في الطريق الجديد، السير الطليق مع التخفف من كل ضغط للتقاليد التي يتواضع عليها المجتمع الجاهلي، ومن كل التصورات والقيم السائدة فيه . ولم يكن هناك إلا ما يلقيه المسلم من أذى وفتنة، ولكنه هو في ذات نفسه قد عزم وانتهى، ولم يعد لضغط التصور الجاهلي، ولا لتقاليد المجتمع الجاهلي عليه من سبيل .

نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم . كل ما حولنا جاهلية .. تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم . حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكيراً إسلامياً .. هو كذلك من صنع هذه الجاهلية !!

لذلك لا تستقيم قيم الإسلام في نفوسنا، ولا يتضح تصور الإسلام في عقولنا، ولا ينشأ فينا جيل ضخم من الناس من ذلك الطراز الذي أنشأه الإسلام أول مرة .

فلا بد إذن - في منهج الحركة الإسلامية - أن نتجرد في فترة الحضانة والتكوين من كل مؤثرات الجاهلية التي نعيش فيها ونستمد منها. لا بد أن نرجع ابتداء إلى النبع الخالص الذي استمد منه أولئك الرجال، النبع المضمون أنه لم يختلط ولم تشبه شائبة. نرجع إليه نستمد منه تصورنا لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنساني ولكافة الارتباطات بين هذين الوجودين وبين الوجود الكامل الحق، وجود الله سبحانه.. ومن ثم نستمد تصوراتنا للحياة، وقيمنا وأخلاقنا، ومناهجنا للحكم والسياسة والاقتصاد وكل مقومات الحياة. ولا بد أن نرجع إليه - حين نرجع - بشعور التلقي للتنفيذ والعمل، لا بشعور الدراسة والمتاع. نرجع إليه لنعرف ماذا يطلب منا أن نكون، لنكون. وفي الطريق سنلتقي بالجمال الفني في القرآن وبالقصص الرائع في القرآن، وبمشاهد القيامة في القرآن.. وبالمنطق الوجداني في القرآن ..

وبسائر ما يطلبه أصحاب الدراسة والمتاع. ولكننا سنلتقي بهذا كله دون أن يكون هو هدفنا الأول. إن هدفنا الأول أن نعرف: ماذا يريد منا القرآن أن نعمل؟ ما هو التصور الكلي الذي يريد منا أن نتصور؟ كيف يريد القرآن أن يكون شعورنا بالله؟ كيف يريد أن تكون أخلاقنا وأوضاعنا ونظامنا الواقعي في الحياة؟

ثم لا بد لنا من التخلص من ضغط المجتمع الجاهلي والتصورات الجاهلية والتقاليد الجاهلية والقيادة الجاهلية.. في خاصة نفوسنا.. ليست مهمتنا أن نصطلح مع واقع هذا المجتمع الجاهلي ولا أن ندين بالولاء له، فهو بهذه الصفة.. صفة الجاهلية.. غير قابل لأن نصطلح معه. إن مهمتنا أن نغيّر من أنفسنا أولاً لنغير هذا المجتمع أخيراً.

إن مهمتنا الأولى هي تغيير واقع هذا المجتمع. مهمتنا هي تغيير هذا الواقع الجاهلي من أساسه. هذا الواقع الذي يصطدم اصطداماً أساسياً بالمنهج الإسلامي، وبالتصور الإسلامي، والذي يجرمنا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهي أن نعيش.

إن أولى الخطوات في طريقنا هي أن نستعلي على هذا المجتمع الجاهلي وقيمه وتصوراته، وألا نعدّل نحن في قيمنا وتصوراتنا قليلاً أو كثيراً لنتلقى معه في منتصف الطريق. كلا! إننا وإياه على مفرق الطريق، وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق! وسنلقى في هذا عنقاً ومشقة، وستفرض علينا توضحيات باهظة، ولكننا لسنا مخيرين إذا نحن شئنا أن نسلك طريق الجيل الأول الذي أقر الله به منهجه الإلهي، ونصره على منهج الجاهلية.

وإنه لمن الخير أن ندرك دائماً طبيعة منهجنا، وطبيعة موقفنا، وطبيعة الطريق الذي لا بد أن نسلكه للخروج من الجاهلية كما خرج ذلك الجيل المميز الفريد..^{٧١}

^{٧١} - معالم في الطريق بتحقيقي (ص: ١٦) جيل قرآني فريد

قال تعالى: { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) } [الحجرات]

وإذا اقْتَتَلَتْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَصْلَحُوا - يا أيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ، وَذَلِكَ بِالِدَّعْوَةِ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَالرِّضَا بِمَا فِيهِ، فَإِذَا أَبَتْ إِحْدَى هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ الْإِجَابَةَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَتَجَاوَزَتْ حُدُودَ الْعَدْلِ، وَأَجَابَتِ الْأُخْرَى، فَقَاتِلُوا الَّتِي تَعْتَدِي وَتَأْتِي الْإِجَابَةَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ، حَتَّى تَرْجِعَ إِلَيْهِ وَتَخْضَعَ لَهُ، فَإِنْ رَجَعَتِ الطَّائِفَةُ الْبَاغِيَةُ إِلَى الرِّضَا بِحُكْمِ اللَّهِ، فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ، وَأَعْدِلُوا فِي حُكْمِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَادِلِينَ، وَيَجْزِيهِمْ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ. الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فِي الدِّينِ.

فَأَصْلَحُوا بَيْنَ الْأَخَوَيْنِ الْمُتَقَاتِلِينَ، أَوِ الطَّائِفَتَيْنِ الْمُتَقَاتِلَتَيْنِ كَمَا تُصْلِحُونَ بَيْنَ الْأَخَوَيْنِ مِنَ النَّسَبِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمَكُمْ وَيَصْفَحَ عَمَّا سَلَفَ مِنْكُمْ مِنْ ذُنُوبٍ وَهَفَوَاتٍ ٧٢ .

وهذه قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك، تحت التزوات والاندفاعات. تأتي تعقيباً على تبين خبر الفاسق، وعدم العجلة والاندفاع وراء الحمية والحماسة، قبل التثبت والاستيقان.

وسواء كان نزول هذه الآية بسبب حادث معين كما ذكرت الروايات، أم كان تشريعاً لتلافي مثل هذه الحالة، فهو يمثل قاعدة عامة محكمة لصيانة الجماعة الإسلامية من التفكك والتفرق. ثم لإقرار الحق والعدل والصلاح. والارتكان في هذا كله إلى تقوى الله ورجاء رحمته بإقرار العدل والصلاح.

والقرآن قد واجه - أو هو يفترض - إمكان وقوع القتال بين طائفتين من المؤمنين. ويستتبعي لكتلتا الطائفتين وصف الإيمان مع اقتتالهما، ومع احتمال أن إحدهما قد تكون باغية على الأخرى، بل مع احتمال أن تكون كلتاهما باغية في جانب من الجوانب.

وهو يكلف الذين آمنوا - من غير الطائفتين المتقاتلتين طبعاً - أن يقوموا بالإصلاح بين المتقاتلتين. فإن بغت إحدهما فلم تقبل الرجوع إلى الحق - ومثله أن تبغيا معا برفض الصلح أو رفض قبول حكم الله في المسائل المتنازع عليها - فعلى المؤمنين أن يقاتلوا البغاة إذن، وأن يظلوا يقاتلونهم حتى يرجعوا إلى أمر الله. وأمر الله هو وضع الخصومة بين المؤمنين، وقبول حكم الله فيما اختلفوا فيه، وأدى إلى الخصام

٧٢ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٥٠٠، بترقيم الشاملة آليا)

والقتال. فإذا تم قبول البغاة لحكم الله، قام المؤمنون بالإصلاح القائم على العدل الدقيق طاعة لله وطلباً لرضاه.. «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»..

ويعقب على هذه الدعوة وهذا الحكم باستحاشة قلوب الذين آمنوا واستحياء الرابطة الوثيقة بينهم، والتي جمعتهم بعد تفرق، وألفت بينهم بعد خصام وتذكيرهم بتقوى الله، والتلويح لهم برحمته التي تنال بتقواه: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ، فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»..

ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة. وهو إجراء صارم وحازم كذلك.

ومن مقتضيات هذه القاعدة كذلك ألا يجهز على جريح في معارك التحكيم هذه، وألا يقتل أسير، وألا يتعقب مدبر ترك المعركة، وألقى السلاح، ولا تؤخذ أموال البغاة غنيمة. لأن الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم، وإنما هو ردهم إلى الصف، وضمهم إلى لواء الأخوة الإسلامية.

والأصل في نظام الأمة المسلمة أن يكون للمسلمين في أنحاء الأرض إمامة واحدة، وأنه إذا بويع لإمام، وجب قتل الثاني، واعتباره ومن معه فئة باغية يقاتلها المؤمنون مع الإمام. وعلى هذا الأصل قام الإمام علي - رضي الله عنه - بقتال البغاة في وقعة الجمل وفي وقعة صفين وقام معه بقتالهم أجراء الصحابة رضوان الله عليهم.

وقد تخلف بعضهم عن المعركة منهم سعد ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وابن عمر - رضي الله عنهم - إما لأنهم لم يتبينوا وجه الحق في الموقف في حينه فاعتبروها فتنة. وإما لأنهم كما يقول الإمام الجصاص: «ربما رأوا الإمام مكتفياً بمن معه مستغنيا عنهم بأصحابه فاستجازوا القعود عنه لذلك».. والاحتمال الأول أرجح، تدل عليه بعض أقوالهم المروية. كما يدل عليه ما روي عن ابن عمر - رضي الله عنه - في ندمه فيما بعد على أنه لم يقاتل مع الإمام^{٧٣}.

^{٧٣} - قلت: الصواب غير ذلك، بل أمرهم الرسول ﷺ باعتزال الفتنة وعدم القتال وفعلهم هو الصواب بيقين وليس القتال آنذاك صواباً، فعن حميد بن هلال، قال: لَمَّا هَاجَتِ الْفِتْنَةُ، قَالَ عُمَرَانُ بْنُ الْحَصِينِ لِحَجْرِ بْنِ الرَّبِيعِ الْعَدَوِيِّ: "اذْهَبْ إِلَى قَوْمِكَ فَأَنْهَهُمْ عَنِ الْفِتْنَةِ"، فَقَالَ: إِنِّي لَمَعْمُورٌ فِيهِمْ، وَمَا أَطَاعُ، قَالَ: "فَأَبْلِغْهُمْ عَنِّي وَانْهَهُمْ عَنْهَا"، قَالَ: وَسَمِعْتُ عُمَرَانَ يَقْسِمُ بِاللَّهِ: "لَأَنْ أَكُونَ عَبْدًا حَبَشِيًّا أَسُودَ فِي أَعْيُنِ حَضَبِيَّاتٍ فِي رَأْسِ جَبَلٍ أَرْعَاهُنَّ حَتَّى يَذَرَكْنِي أَجْلِي، أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَرْمِيَ فِي أَحَدِ الصَّفِّينِ بِسَهْمٍ أَخْطَأْتُ أَمْ أَصَبْتُ". المعجم الكبير للطبراني - (١٢ / ٤٨٦) (١٤٦١٨) (صحيح) وعن عبد الله، قال: "إِذَا وَقَعَ النَّاسُ فِي الشَّرِّ فَقُلْ لَا أُسُوهُ لِي بِالشَّرِّ".

وفي رواية عن ابن مسعود، قال: "إِذَا وَقَعَ النَّاسُ فِي الْفِتْنَةِ فَيَقُولُوا: اخْرُجْ لَكَ بِالنَّاسِ أُسُوهُ، فَقُلْ: لَا أُسُوهُ لِي بِالشَّرِّ". المعجم الكبير للطبراني - (٨ / ٣٤) (٨٥٦١ و ٨٥٦٢) حسن

وعن يحيى بن حبان، أنه كَانَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ قَالَ لَهُ فِي الْفِتْنَةِ لَا تَرَوْنَ الْقَتْلَ شَيْئًا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلثَّلَاثَةِ: لَا يَنْتَجِي اثْنَانِ دُونَ صَاحِبَيْهِمَا. "المسند الجامع - (١٠ / ١٠٨٢) (٨٠٠٤) ومسند أحمد (٤٩٨٠) صحيح لغيره

ومع قيام هذا الأصل فإن النص القرآني يمكن إعماله في جميع الحالات - بما في ذلك الحالات الاستثنائية التي يقوم فيها إمامان أو أكثر في أقطار متفرقة متباعدة من بلاد المسلمين، وهي حالة ضرورة واستثناء من القاعدة - فواجب المسلمين أن يحاربوا البغاة مع الإمام الواحد، إذا خرج هؤلاء البغاة عليه. أو إذا بغت طائفة على طائفة في إمامته دون خروج عليه. وواجب المسلمين كذلك أن يقاتلوا البغاة إذا تمثلوا في إحدى الإمامات المتعددة في حالات التعدد الاستثنائية، بتجمعهم ضد الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله. وهكذا يعمل النص القرآني في جميع الظروف والأحوال. وواضح أن هذا النظام، نظام التحكيم وقاتل الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله، نظام له السبق من حيث الزمن على كل محاولات البشرية في هذا الطريق. وله الكمال والبراءة من العيب والنقص الواضحين في كل محاولات البشرية البائسة القاصرة التي حاولتها في كل تجاربها الكسيحة!

ومراد ابن عمر رضي الله عنهما تعظيم القتال في الفتن، وأنه إذا كان رسول الله ﷺ هي أن يتناحى اثنان دون الثالث من أجل أن ذلك يؤذيه؛ فكيف بقتال المسلمين وإراقة دماهم؟!

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فَرَجَحْنَا أَنْ يُحَدِّثَنَا حَدِيثًا حَسَنًا - قَالَ - فَبَاذَرْنَا إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَدِّثْنَا عَنْ الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ وَاللَّهُ يَقُولُ (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ) فَقَالَ هَلْ تَذَرِي مَا الْفِتْنَةُ تُكَلِّثُكَ أَمْكَ، إِنَّمَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ - يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ الدُّخُولُ فِي دِينِهِمْ فِتْنَةً، وَلَيْسَ كَقِتَالِكُمْ عَلَى الْمُلْكِ . " صحيح البخارى (٧٠٩٥) وقوله هنا " وَلَيْسَ كَقِتَالِكُمْ عَلَى الْمُلْكِ " أي في طلب الملك، يشير إلى ما وقع بين مروان ثم عبد الملك ابنه وبين ابن الزبير وما أشبه ذلك، وكان رأي ابن عمر ترك القتال في الفتن ولو ظهر أن إحدى الطائفتين محقة والأخرى مبطلة، وقيل الفتن مختصة بما إذا وقع القتال بسبب التغالب في طلب الملك، وأما إذا علمت الباغية فلا تسمى فتنه وتجب مقاتلتها حتى ترجع إلى الطاعة ؛ وهذا قول الجمهور . فتح الباري لابن حجر - (٢٠ / ١٠٢)

وعَنْ الزُّهْرِيِّ أَخْبَرَنِي حَمْرَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: أَنَّهُ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ خَرَصْتُ أَنْ أَتَسَمَّتْ بِسَمْتِكَ وَأُقْتَدَى بِكَ فِي أَمْرِ فُرْقَةِ النَّاسِ وَأَعْتَرِلَ الشَّرَّ مَا اسْتَطَعْتُ وَإِنِّي أَقْرَأُ آيَةَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مُحْكَمَةً قَدْ أَخَذْتُ بِقَلْبِي فَأَخْبِرْنِي عَنْهَا أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (٩) سورة الحجرات ، أَخْبِرْنِي عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَمَا لَكَ وَلِذَاكَ؟ انصَرَفَ عَنِّي فَأَنْطَلَقَ حَتَّى تَوَارَى عَنَّا سَوَادُهُ أَقْبَلَ عَلَيْنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فَقَالَ: مَا وَحَدَّثَ فِي نَفْسِي مِنْ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَا وَحَدَّثَ فِي نَفْسِي أَنِّي لَمْ أَقَاتِلْ هَذِهِ الْفِتْنَةَ الْبَاغِيَةَ كَمَا أَمَرَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . زَادَ الْقَطَّانُ فِي رِوَايَتِهِ قَالَ حَمْرَةُ فَقُلْنَا لَهُ: وَمَنْ تَرَى الْفِتْنَةَ الْبَاغِيَةَ؟ قَالَ ابْنُ عُمَرَ: ابْنُ الزُّبَيْرِ بَغَى عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فَأَخْرَجَهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَكَثَرَ عَهْدُهُمْ. { ق } فِي قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى حَوَازِ اسْتِعْمَالِ الْآيَةِ فِي قِتَالِ الْفِتْنَةِ الْبَاغِيَةِ. " السنن الكبرى للبيهقي (٨ / ١٧٢) (١٧١٥١) وفتح الباري لابن حجر - (١٣ / ٧٢) وتاريخ الإسلام للإمام الذهبي - (٥ / ٤٦٥) صحيح

وأما ماورد عنه غير ذلك فغير صحيح، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: لَمَّا حَضَرَ ابْنُ عُمَرَ الْمَوْتَ قَالَ: " مَا أَسَى عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا عَلَى ثَلَاثٍ: ظَمَأُ الْهَوَاجِرِ ، وَمُكَابَدَةُ اللَّيْلِ ، وَأَنِّي لَمْ أَقَاتِلْ هَذِهِ الْفِتْنَةَ الْبَاغِيَةَ الَّتِي نَزَلَتْ بِنَا - يَعْنِي الْحَجَّاجَ - " وَصَايَا الْعُلَمَاءِ عِنْدَ حُضُورِ الْمَوْتِ لِابْنِ زُبَيْرٍ الرَّبْعِيُّ (٤٨) صحيح -الهواجر: مفردا المهاجرة وهي اشتداد الحر نصف النهار

قلت: هذا التأويل غير صحيح، وليس من كلام ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الذهبي عقبه: " قلت: هذا ظن من بعض الرواة، وإلا فهو قد قال الفتن الباغية ابن الزبير كما تقدم، والله أعلم " تاريخ الإسلام للإمام الذهبي - (٥ / ٤٦٥) - راجع كتابي المفصل في أحاديث الفتن .

وله بعد هذا وذاك صفة النظافة والأمانة والعدل المطلق، لأن الاحتكام فيه إلى أمر الله الذي لا يشوبه غرض ولا هوى، ولا يتعلق به نقص أو قصور.. ولكن البشرية البائسة تطلع وتخرج، وتكبو وتتعرش. وأمامها الطريق الواضح الممهّد المستقيم!^{٧٤}

١٢ - السمع والطاعة والإنفاق في سبيل الله:

قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [التغابن: ١٦]

فَابْذُلُوا فِي تَقْوَى اللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنَ الْجَهْدِ وَالطَّاقَةِ. وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَاعْمَلُوا بِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ عَلَى الْأَقَارِبِ وَالْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ، وَأَحْسِنُوا إِلَى عِبَادِ اللَّهِ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ يَكُنْ ذَلِكَ خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَمَنْ يَتَّعِدْ عَنِ الْبُخْلِ وَالْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ، يَكُنْ مِنَ الْفَائِزِينَ.^{٧٥}

وَاحْذَرُوا اللَّهَ أَثِيهَا الْمُؤْمِنُونَ وَخَافُوا عِقَابَهُ، وَتَجَنَّبُوا عَذَابَهُ بِإِدَاءِ فَرَائِضِهِ وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ، وَالْعَمَلِ بِمَا يُقَرِّبُ إِلَيْهِ مَا أَطَقْتُمْ وَبَلَّغَهُ وَسُعْيَكُمْ. وَذُكِرَ أَنَّ قَوْلَهُ: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦] نَزَلَ بَعْدَ قَوْلِهِ: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [آل عمران: ١٠٢] تَخْفِيفًا عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّ قَوْلَ {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦] نَاسِخٌ قَوْلُهُ: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [آل عمران: ١٠٢].

عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا} [التغابن: ١٦] هَذِهِ رُخْصَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ، وَكَانَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنْزَلَ قَبْلَ ذَلِكَ: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَحَقَّ تُقَاتِهِ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، ثُمَّ خَفَّفَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ عَنْ عِبَادِهِ، فَأَنْزَلَ الرُّخْصَةَ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا} [التغابن: ١٦] فِيمَا اسْتَطَعْتَ يَا ابْنَ آدَمَ، عَلَيْهَا بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ

عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [آل عمران: ١٠٢] قَالَ: نَسَخْتَهَا: {اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُنَا عَنْ مَعْنَى النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ وَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦] دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّهُ لِقَوْلِهِ: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [آل عمران: ١٠٢] نَاسِخٌ، إِذْ كَانَ مُحْتَمِلًا قَوْلَهُ: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [آل عمران: ١٠٢] فِيمَا

^{٧٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤١٨٣)

^{٧٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٩٣، بترقيم الشاملة آليا)

اسْتَطَعْتُمْ، وَلَمْ يَكُنْ بَأْتَهُ لَهُ نَاسِخٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَالْوَجِبُ اسْتِعْمَالُهُمَا جَمِيعًا عَلَى مَا يَحْتَمِلَانِ مِنْ وُجُوهِ الصَّحَّةِ
وَأَسْمَعُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَطِيعُوهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ {وَأَنْفَقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ} [التغابن: ١٦] يَقُولُ: وَأَنْفَقُوا مَالًا مِنْ أَمْوَالِكُمْ لَأَنْفُسِكُمْ تَسْتَنْقِذُوهَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَالْخَيْرُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْمَالُ. وَمَنْ يَقِهِ اللَّهُ شُحَّ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ اتِّبَاعُ هَوَاهَا فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ.
وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: {وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ} [الحشر: ٩] يَقُولُ: هَوَى نَفْسِهِ حَيْثُ يَتَّبِعُ هَوَاهُ وَلَمْ يَقْبَلِ الْإِيمَانَ

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، {وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ} [الحشر: ٩] قَالَ: أَنْ يَعْمِدَ إِلَى مَالٍ غَيْرِهِ فَيَأْكُلَهُ فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَفُّوا شُحَّ أَنْفُسِهِمْ، الْمُنْجَحُونَ الَّذِينَ أَدْرَكُوا طِلْبَاتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ.^{٧٦}

وفي هذا القيد: «مَا اسْتَطَعْتُمْ» يتجلى لطف الله بعباده، وعلمه بمدى طاقتهم في تقواه وطاعته. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ «دَعُونِي مَا تَرَكْتُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»^{٧٧}.
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا». فَقَالَ رَجُلٌ أَكُلُّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - «لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ وَلَكَمَا اسْتَطَعْتُمْ - ثُمَّ قَالَ - ذُرُونِي مَا تَرَكْتُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»^{٧٨}.
فالطاعة في الأمر ليس لها حدود، ومن ثم يقبل فيها ما يستطيع. أما النهي فلا تجرئة فيه فيطلب بكامله دون نقصان. ويهيب بهم إلى الإنفاق: «وَأَنْفَقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ»..

فهم ينفقون لأنفسهم. وهو يأمرهم أن ينفقوا الخير لأنفسهم. فيجعل ما ينفقونه كأنه نفقة مباشرة لذواتهم، ويعللها الخير لهم حين يفعلون.

ويريهم شح النفس بلاء ملازما. السعيد السعيد من يخلص منه ويوقاه والوقاية منه فضل من الله: «وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».. ثم يمضي في إغرائهم بالبذل وتحبيسهم في الإنفاق، فيسمي إنفاقهم قرضا لله. ومن ذا الذي لا يربح هذه الفرصة التي يقرض فيها مولاه؟ وهو يأخذ القرض فيضاعفه ويغفر به، ويشكر المقرض، ويحلم عليه حين يقصر في شكره. وهو الله! «إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفه لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ. وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ».. وتبارك الله. ما أكرمهم! وما أعظمه! وهو ينشئ

^{٧٦} - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٩ / ٢٣)

^{٧٧} - صحيح البخاري - المكثر [٢٤ / ٨٢] (٧٢٨٨)

^{٧٨} - صحيح مسلم - المكثر [٨ / ٤٢٠] (٣٣٢١)

العبد ثم يرزقه. ثم يسأله فضل ما أعطاه. قرضاً. يضاعفه .. ثم .. يشكر لعبده الذي أنشأه وأعطاه! ويعامله بالحلم في تقصيره هو عن شكر مولاه ..! يا لله!!!

إن الله يعلمنا - بصفاته - كيف نتسامى على نقصنا وضعفنا، ونتطلع إلى أعلى دائماً لنراه - سبحانه - ونحاول أن نقلده في حدود طاقتنا الصغيرة المحدودة. وقد نفخ الله في الإنسان من روحه. فجعله مشتاقاً أبداً إلى تحقيق المثل الأعلى في حدود طاقته وطبيعته، ومن ثم تبقى الآفاق العليا مفتوحة دائماً ليتطلع هذا المخلوق إلى الكمال المستطاع، ويحاول الارتفاع درجة بعد درجة، حتى يلقي الله بما يجبه له ويرضاه. ويختتم هذه الجولة بعد هذا الإيقاع العجيب، بصفة الله التي بها الإطلاع والرقابة على القلوب: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».. فكل شيء مكشوف لعلمه، خاضع لسلطانه، مدير بحكمته. كي يعيش الناس وهم يشعرون بأن عين الله تراهم، وسلطانه عليهم، وحكمته تدبر الأمر كله حاضره وغائبه. ويكفي أن يستقر هذا التصور في القلوب، لتتقي الله وتخلص له وتستجيب^{٧٩}.

١٣ - تغيير ما بالنفس من شر إلى خير:

قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } [الرعد: ١١]

إن الله لا يغير ما بقوم، من خير إلى سوء، إلا إذا غيروا ما هم عليه، ولا يغير الله ما بقوم من سوء إلى خير حتى يغيروا ما بأنفسهم. وإذا أراد الله تعالى أن يصيب قوماً بشر عقاباً لهم، فلا راد لإرادته وقضائه، وليس لهم ولي ينصرهم من دونه، أو يرد قضاء الله عنهم^{٨٠}.

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».. فهو يتعقبهم بالحفظة من أمره لمراقبة ما يحدثونه من تغيير بأنفسهم وأحوالهم فيرتب عليه الله تصرفه بهم. فإنه لا يغير نعمة أو بؤسى، ولا يغير عزا أو ذلة، ولا يغير مكانة أو مهانة... إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم. وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون. ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم، ويجيء لا حقاً له في الزمان بالقياس إليهم.

وبعد تقرير المبدأ يبرز السياق حالة تغيير الله ما بقوم إلى السوء لأنهم - حسب المفهوم من الآية - غيروا ما بأنفسهم إلى أسوأ فأراد لهم الله السوء: «وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من والٍ».. يبرز السياق هذا الجانب هنا دون الجانب الآخر لأنه في معرض الذين يستعجلون

^{٧٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٨٦)

^{٨٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٧١٩، بترقيم الشاملة آليا)

بالسيئة قبل الحسنة. وقد قدم لهم هناك المغفرة على العذاب ليعزز غفلتهم، وهو هنا يبرز العاقبة السوأى وحدها لإنذارهم حيث لا يرد عذاب الله عنهم - إذا استحقوه بما في أنفسهم - ولا يعصمهم منه وال يناصرهم^{٨١}.

بَيْنَ تَعَالَى فِي هَذِهِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْعَافِيَةِ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَسْلُبُ قَوْمًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَبَيَّنَ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ كَقَوْلِهِ: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ آيَةِ [٨ \ ٥٣]، وَقَوْلِهِ: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ [٤٢ \ ٣٠].

وَقَدْ بَيَّنَّ فِي هَذِهِ آيَةِ أَيْضًا: أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ قَوْمًا بِسُوءٍ فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَبَيَّنَّ ذَلِكَ أَيْضًا فِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ: وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ [٦ \ ١٤٧]، وَنَحْوَهَا مِنَ آيَاتٍ، وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ: حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، يَصَدِّقُ بِأَنَّ يَكُونَ التَّغْيِيرُ مِنْ بَعْضِهِمْ كَمَا وَقَعَ يَوْمَ أُحُدٍ بِتَغْيِيرِ الرُّمَةِ مَا بِأَنْفُسِهِمْ فَعَمَّتِ الْبَلِيَّةُ الْجَمِيعَ، عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، دَخَلَ عَلَيْهَا فَرَعًا يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَنِلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فَتَحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمٍ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجٍ مِثْلُ هَذِهِ» وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامَ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَنْهَلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»^{٨٢}. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.^{٨٣}

وفي قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» ما يدفع هذا الشعور، الذي يقع في نفس الإنسان، من تعقب هذه القوى الخفية له.. فالإنسان ذو إرادة عاملة، يجدها دائما معه، ولا يجد لهذه القوى الخفية أثرا ماديا يحول بينه وبين ما يريد.. فهذه القوى إنما هي أشبه بالآلات المصورة، أو المسجلة.. تصور ما يقع، وتسجل ما يحدث، دون أن تتدخل في مجريات الوقائع أو الأحداث.. فالإنسان هو الذي يجريها كما يشاء، ويحدثها كما يريد!.

ومعنى هذا، أن الناس عموما هم الذين يكتبون أقدارهم، ويشكلون وجودهم، ويختارون الطريق الذي يسرون فيه!.

^{٨١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٦٩٥)

^{٨٢} - صحيح البخاري (٤/ ١٣٨) (٣٣٤٦) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٠٧) ١ - (٢٨٨٠)

[ش (ويل) كلمة تستعمل للحزن والهلاك والمشقة. (ردم) سد. (حلقت بإصبعه الإبهام والتي تليها) يعني جعل الإصبع السبابة في أصل الإبهام وضمها حتى لم يبق بينهما إلا خلل يسير والمعنى أنه لم يبق لحيء الشر إلا اليسير من الزمن. (الخبث) الفسوق والفجور والمعاصي]

^{٨٣} - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/ ٢٣٦)

وعلى هذا، يكون معنى قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» هو إطلاق لإرادة الإنسان، وأن الله سبحانه وتعالى منح الإنسان حرية الحركة والعمل حيث يشاء، وكما يريد، حسب تفكيره وتقديره، وأن ما يفعله بمضيه الله سبحانه وتعالى له: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ».. فالناس يبدلون الحب.. والله سبحانه وتعالى يعطيهم ثمر ما بذروا.. إن حلوا، وإن مرّا..

وفي تعليق تغيير أحوال الناس بتغيير ما بأنفسهم، إشارة إلى أن النفس الإنسانية هي جهاز التفكير، والتقدير، ومركز الإرادة والتوجيه، وأنها هي السلطان الأمر للإنسان، والموجه لكل أعماله وأقواله، فإذا غيرت النفس اتجاه مسيرها، تغير تبعاً لذلك سير الإنسان في الحياة. وفي إضافة التغيير إلى الله سبحانه وتعالى، إشارة إلى أن إرادة الله سبحانه وتعالى هي التي أجرت هذا التغيير، الذي أحدثه الإنسان، كما أنها هي التي حركت إرادة الإنسان نحو هذا التغيير..

ومعنى هذا، أن إرادة الله سبحانه وتعالى، إرادة شاملة، تدخل في محيطها كل إرادة، فلا إرادة لمريد، إلا تبع لهذه الإرادة.. وأن إرادة الإنسان إرادة متحركة عاملة، في محيط إرادة الله العامة الشاملة.. ولكنها لا تخرج في تحركها وعملها عن إرادة الله..! وفي هذا يقول الله سبحانه: «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ» (٤: الروم) ويقول سبحانه: «وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» (٢٩: التكوين).

قوله تعالى: «وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ» - هو تقرير لشمول الإرادة الإلهية وعمومها، وأنها إرادة نافذة ماضية، وأن إرادة الناس لا تتحدى إرادة الله، ولا تحول بينها وبين أن تمضي ما قضت به، وليس للناس فيما يقضى به الله ويريده من ولى ينصرهم، ويدفع ما يريد الله بهم من سوء.

هذا، مع أن للإنسان إرادته، ومشيتته، التي يجدها، ويملك أموره بها، دون أن تعطل إرادة الله العامة الشاملة إرادته، أو تكرهه على أمر لا يريده، فإن تعطلت إرادته، أو وقعت تحت سلطان قاهر لها، رفع عنه التكليف.. أو بمعنى آخر زالت عنه في تلك الحال صفة الإنسان، المريد المختار..^{٨٤}

١٤ - التواصي بالحق والتواصي بالصبر :

قال تعالى: {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)} سورة العصر
يُقْسِمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالذَّهْرِ لِمَا فِيهِ مِنْ أَحْدَاثٍ وَعَبَّرَ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ .

^{٨٤} - التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٨١)

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَخَاسِرٌ فِي أَعْمَالِهِ . وَأَعْمَالُهُ مَصْدَرُ شَقَائِهِ، وَهِيَ الَّتِي تُوقِعُهُ فِي الْهَلَاكِ (وَهَذَا هُوَ جَوَابُ الْقَسَمِ)

قَالَ تَعَالَى: إِنَّ بَنِي الْإِنْسَانِ خَاسِرُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ إِلَّا الَّذِينَ اعْتَقَدُوا صَاحِبًا بِوُجُودِ اللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَبِمَا أُنْزِلَ مِنَ الْكِتَابِ عَلَى رُسُلِهِ الْكَرَامِ ثُمَّ عَمِلُوا صَالِحَةً تُرْضِي اللَّهَ، وَاجْتَنَبُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَأَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالصَّبْرِ عَنِ الْمَعَاصِي الَّتِي تَشْتَأِقُ إِلَيْهَا النُّفُوسُ الضَّعِيفَةُ، وَبِالصَّبْرِ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ الَّتِي يَشْتَقُّ عَلَى النُّفُوسِ الْقِيَامُ بِهَا .. فَهَؤُلَاءِ الْمُسْتَشْنُونَ هُمُ الرَّابِحُونَ الْفَائِزُونَ .^{٨٥}

إن مقومات الإيمان هي بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة ..

التعبد لإله واحد، يرفع الإنسان عن العبودية لسواه، ويقيم في نفسه المساواة مع جميع العباد، فلا يذل لأحد، ولا يحني رأسه لغير الواحد القهار .. ومن هنا الانطلاق التحرري الحقيقي للإنسان. الانطلاق الذي ينبثق من الضمير ومن تصور الحقيقة الواقعة في الوجود. إنه ليس هناك إلا قوة واحدة وإلا معبود واحد. فالانطلاق التحرري ينبثق من هذا التصور انبثاقاً ذاتياً، لأنه هو الأمر المنطقي الوحيد.

والربانية التي تحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان تصورات وقيمه وموازينه واعتباراته وشرائعه وقوانينه، وكل ما يربطه بالله، أو بالوجود، أو بالناس. فينتفي من الحياة الهوى والمصلحة، وتحل محلها الشريعة والعدالة.

وترفع من شعور المؤمن بقيمة منهجه، وتمده بالاستعلاء على تصورات الجاهلية وقيمتها واعتباراتها، وعلى القيم المستمدة من الارتباطات الأرضية الواقعة .. ولو كان فرداً واحداً، لأنه إنما يواجهها بتصورات وقيم واعتبارات مستمدة من الله مباشرة فهي الأعلى والأقوى والأولى بالاتباع والاحترام.^{٨٦}

ووضوح الصلة بين الخالق والمخلوق، وتبين مقام الألوهية ومقام العبودية على حقيقتيهما الناصعة، مما يصل هذه الخليفة الفانية بالحقيقة الباقية في غير تعقيد، وبلا وساطة في الطريق. ويودع القلب نوراً، والروح طمأنينة، والنفس أنساً وثقة. وينفي التردد والخوف والقلق والاضطراب كما ينفي الاستكبار في الأرض بغير الحق، والاستعلاء على العباد بالباطل والافتراء! والاستقامة على المنهج الذي يريده الله. فلا يكون الخير فلتة عارضة، ولا نزوة طارئة، ولا حادثة منقطعة.

إنما ينبعث عن دوافع، ويتجه إلى هدف، ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون في الله، فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد الواضح، والراية الواحدة المتميزة. كما تتضامن الأجيال المتعاقبة الموصولة بهذا الحبل المتين.

^{٨٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٠٥٤، بترقيم الشاملة آليا)

^{٨٦} - يراجع تفسير سورة «عَبَسَ وَتَوَلَّى» في هذا الجزء ص ٣٨٢١. (السيد رحمه الله)

والاعتقاد بكرامة الإنسان على الله، يرفع من اعتباره في نظر نفسه، ويثير في ضميره الحياء من التديني عن المرتبة التي رفعه الله إليها. وهذا أرفع تصور يتصوره الإنسان لنفسه.. أنه كريم عند الله.. وكل مذهب أو تصور يحط من قدر الإنسان في نظر نفسه، ويرده إلى منبت حقير، ويفصل بينه وبين الملائكة الأعلى.. هو تصور أو مذهب يدعو إلى التديني والتسفل ولو لم يقل له ذلك صراحة! ومن هنا كانت إحياءات الدارونية والفرويدية والماركسية هي أبشع ما تبتلى به الفطرة البشرية والتوجيه الإنساني، فتوحي إلى البشر بأن كل سفالة وكل قذارة وكل حقارة هي أمر طبيعي متوقع، ليس فيه ما يستغرب، ومن ثم ليس فيه ما يحجل.. وهي جنائية على البشرية تستحق الموت والازدراء!^{٨٧}

ونظافة المشاعر تجيء نتيجة مباشرة للشعور بكرامة الإنسان على الله. ثم برقابة الله على الضمائر وإطلاعه على السرائر. وإن الإنسان السوي الذي لم تمسحه إحياءات فرويد وكارل ماركس وأمثالهما، ليستحيي أن يطلع إنسان مثله على شوائب ضميره وخائنة شعوره. والمؤمن يحس وقع نظر الله - سبحانه - في أطواء حسه إحساسا يرتعش له ويهتز. فأولى أن يطهر حسه هذا وينظفه! والحاسة الأخلاقية ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عادل رحيم عفو كريم ودود حلیم، يكره الشر ويحب الخير. ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وهناك التبعية المترتبة على حرية الإرادة وشمول الرقابة، وما تثيره في حس المؤمن من يقظة وحساسية، ومن رزانة وتدبر. وهي ليست تبعة فردية فحسب، إنما هي كذلك تبعة جماعية، وتبعية تجاه الخير في ذاته، وإزاء البشرية جميعا.. أمام الله.. وحين يتحرك المؤمن حركة فهو يحس بهذا كله، فيكبر في عين نفسه، ويقدر نتيجة خطوه قبل أن يمد رجليه.. إنه كائن له قيمة في الوجود، وعليه تبعة في نظام هذا الوجود.. والارتفاع عن التكالب على أعراض الحياة الدنيا - وهو بعض إحياءات الإيمان - واختيار ما عند الله، وهو خير وأبقى. «وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ».. والتنافس على ما عند الله يرفع ويظهر وينظف.. يساعد على هذا سعة المجال الذي يتحرك فيه المؤمن.. بين الدنيا والآخرة، والأرض والملائكة الأعلى. مما يهدئ في نفسه القلق على النتيجة والعجلة على الثمرة. فهو يفعل الخير لأنه الخير، ولأن الله يريد، ولا عليه ألا يدرّ الخير خيرا على مشهد من عينيه في عمره الفردي المحدود. فالله الذي يفعل الخير ابتغاء وجهه لا يموت - سبحانه - ولا ينسى، ولا يغفل شيئا من عمله. والأرض ليست دار جزاء. والحياة الدنيا ليست نهاية المطاف. ومن ثم يستمد القدرة على مواصلة الخير من هذا الينبوع الذي لا ينضب. وهذا هو الذي يكفل أن يكون الخير منهجا موصولا، لا دفعة طارئة، ولا فلتة مقطوعة. وهذا هو الذي يمد المؤمن بهذه القوة الهائلة التي يقف بها في وجه الشر. سواء تمثل في طغيان طاغية، أو في ضغط الاعتبارات الجاهلية، أو في اندفاع نزواته هو وضغطها على

^{٨٧} - يراجع كتاب: الإنسان بين المادية والإسلام (محمد قطب) «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

إرادته. هذا الضغط الذي ينشأ أول ما ينشأ من شعور الفرد بقصر عمره عن استيعاب لذائذه وتحقيق أطماعه، وقصره كذلك عن رؤية النتائج البعيدة للخير، وشهود انتصار الحق على الباطل! والإيمان يعالج هذا الشعور علاجاً أساسياً كاملاً^{٨٨}.

إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير، الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته، صائر إلى ذبول وجفاف. وإلا فهي ثمرة شيطانية، وليس لها امتداد أو دوام! وهو المحور الذي تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة. وإلا فهي مفلسة لا تمسك بشيء، ذاهبة بددا مع الأهواء والتزوات ..

وهو المنهج الذي يضم شتات الأعمال، ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون، وتنسلك في طريق واحد، وفي حركة واحدة، لها دافع معلوم، ولها هدف مرسوم .. ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل، ولا يشد إلى هذا المحور، ولا ينبع من هذا المنهج. والنظرية الإسلامية صريحة في هذا كل الصراحة .. جاء في سورة إبراهيم: «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ. لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ» .. وجاء في سورة النور:

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا» .. وهي نصوص صريحة في إهدار قيمة العمل كله، ما لم يستند إلى الإيمان، الذي يجعل له دافعاً موصولاً بمصدر الوجود، وهدفاً متناسقاً مع غاية الوجود. وهذه هي النظرة المنطقية لعقيدة ترد الأمور كلها إلى الله. فمن انقطع عنه فقد انقطع وفقد حقيقة معناه^{٨٩}.

إن الإيمان دليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الإنساني، وتناسقه مع فطرة الكون كله، ودليل التجاوب بين الإنسان والكون من حوله. فهو يعيش في هذا الكون، وحين يصح كيانه لا بد أن يقع

^{٨٨} - يراجع تفسير سورة البروج في هذا الجزء ص ٣٨٧١. (السيد رحمه الله)

^{٨٩} - جاء في تفسير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لقوله تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» .. «وما نقله بعضهم من الإجماع على أن الكافر لا تنفعه في الآخرة حسنة، ولا يخفف عنه عذاب سيئة ما، لا أصل له» .. وها نحن أولاء نرى أن المسألة لم تحي من إجماع، ولكن من نصوص قرآنية صريحة هي أصل بذاتها. (السيد رحمه الله)

قلت: لم يرد استثناء بذلك إلا لأبي طالب عم النبي ﷺ، فعن الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - يَقُولُ « إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ عَلَى أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ حِمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ، كَمَا يَغْلِي الْمَرْجُلُ وَالْقَمَقْمُ » صحيح البخاري - المكثر [٢١/ ٤٦٦] (٦٥٦٢) .

الأحمص: باطن القدم الذي يتجافى عن الأرض عند الوطء = المرجل: القدر من النحاس أو الحجارة = القمقم: ما يسخن فيه من نحاس وغيره

وعن ابن عباسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ « أَهْلُ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ وَهُوَ مُتَّعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ ». صحيح مسلم - المكثر [٢/ ١٤١] (٥٣٧)

وعن أبي سعيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ « إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا يَنْتَعِلُ بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي دِمَاعُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ ». صحيح مسلم - المكثر [٢/ ١٤٠] (٥٣٦)

بينه وبين هذا الكون تجاوب. ولا بد أن ينتهي هذا التجاوب إلى الإيمان، بحكم ما في الكون ذاته من دلائل وإيجاءات عن القدرة المطلقة التي أبدعته على هذا النسق. فإذا فقد هذا التجاوب أو تعطل، كان هذا بذاته دليلاً على خلل ونقص في الجهاز الذي يتلقى، وهو هذا الكيان الإنساني. وكان هذا دليل فساد لا يكون معه إلا الخسران. ولا يصح معه عمل ولو كان في ظاهره مسحة من الصلاح. وإن عالم المؤمن من السعة والشمول والامتداد والارتفاع والجمال والسعادة بحيث تبدو إلى جانبه عوالم غير المؤمنين صغيرة ضئيلة هابطة هزيلة شائثة شقية.. خاسرة أي خسران! والعمل الصالح وهو الثمرة الطبيعية للإيمان، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب. فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة. ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح.. هذا هو الإيمان الإسلامي.. لا يمكن أن يظل خامداً لا يتحرك، كما لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن.. فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت. شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها. فهو ينبعث منها انبعاثاً طبيعياً. وإلا فهو غير موجود! ومن هنا قيمة الإيمان.. إنه حركة وعمل وبناء وتعمير.. يتجه إلى الله.. إنه ليس انكماشاً وسلبية وانزواء في مكونات الضمير. وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة بناء كبرى في صميم الحياة. وهذا مفهوم ما دام الإيمان هو الارتباط بالمنهج الرباني. وهذا المنهج حركة دائمة متصلة في صميم الوجود. صادرة عن تدبير، متجهة إلى غاية. وقيادة الإيمان للبشرية هي قيادة لتحقيق منهج الحركة التي هي طبيعة الوجود. الحركة الخيرة النظيفة البانية المعمرة اللائقة بمنهج يصدر عن الله.

أما التواصل بالحق والتواصي بالصبر فتبرز من خلالها صورة الأمة المسلمة - أو الجماعة المسلمة - ذات الكيان الخاص، والرابطة المميزة، والوجهة الموحدة. الجماعة التي تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها. والتي تعرف حقيقة ما هي مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح، الذي يشمل فيما يشمل قيادة البشرية في طريق الإيمان والعمل الصالح فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى. فمن خلال لفظ التواصل ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة - أو الجماعة - المتضامنة المتضامنة. الأمة الخيرة. الواعية. القيمة في الأرض على الحق والعدل والخير.. وهي أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة.. وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام.. هكذا يريد أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير، متواصية بالحق والصبر في مودة وتعاون وتأخ تنضح بها كلمة التواصل في القرآن. والتواصي بالحق ضرورة. فالنهوض بالحق عسير. والمعوقات عن الحق كثيرة: هوى النفس، ومنطق المصلحة، وتصورات البيئة. وطغيان الطغاة، وظلم الظلمة، وجور الجائرين.. والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقرب في الهدف والغاية، والأخوة في العبء والأمانة. فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية، إذ تتفاعل معا فتتضاعف. تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه

ويقف معه ويحبه ولا يخذله .. وهذا الدين - وهو الحق - لا يقوم إلا في حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال.

والتواصي بالصبر كذلك ضرورة. فالقيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل، من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة. ولا بد من الصبر. لا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير. والصبر على الأذى والمشقة. والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر. والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبعد النهاية! والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف، ووحدة المتجه، وتساند الجميع، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار .. إلى آخر ما يثيره من معاني الجماعة التي لا تعيش حقيقة الإسلام إلا في جوها، ولا تبرز إلا من خلالها .. وإلا فهو الخسران والضياع.

وننظر اليوم من خلال هذا الدستور الذي يرسمه القرآن لحياة الفئة الراجعة الناجية من الخسران، فيقولنا أن نرى الخسر يحيق بالبشرية في كل مكان على ظهر الأرض بلا استثناء. يهلونا هذا الضياع الذي تعانيه البشرية في الدنيا - قبل الآخرة - يهلونا أن نرى إعراض البشرية ذلك الإعراض البائس عن الخير الذي أفاضه الله عليها مع فقدان السلطة الخيرة المؤمنة القائمة على الحق في هذه الأرض .. هذا والمسلمون - أو أصحاب دعوى الإسلام بتعبير أدق - هم أبعد أهل الأرض عن هذا الخير، وأشدهم إعراضاً عن المنهج الإلهي الذي اختاره الله لهم، وعن الدستور الذي شرعه لأمتهم، وعن الطريق الوحيد الذي رسمه للنجاة من الخسران والضياع. والبقاع التي انبعث منها هذا الخير أول مرة تترك الراية التي رفعها لها الله، راية الإيمان، لتتعلق برايات عنصرية لم تنل تحتها خيراً قط في تاريخها كله. لم يكن لها تحتها ذكر في الأرض ولا في السماء. حتى جاء الإسلام فرفع لها هذه الراية المنتسبة لله، لا شريك له، المسماة باسم الله لا شريك له، الموسومة بميسم الله لا شريك له .. الراية التي انتصر العرب تحتها وسادوا وقادوا البشرية قيادة خيرة قوية واعية ناجية لأول مرة في تاريخهم وفي تاريخ البشرية الطويل.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم: «ما ذا خسر العالم باخطاط المسلمين؟» .. عن هذه القيادة الخيرة الفذة في التاريخ كله، وتحت عنوان «عهد القيادة الإسلامية»: «الأئمة المسلمون وخصائصهم»: «ظهر المسلمون، وتزعموا العالم، وعزلوا الأمم المزيفة من زعامة الإنسانية التي استغلتها وأساءت عملها، وساروا بالإنسانية سيرا حثيثاً متزناً عادلاً، وقد توفرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم، وتضمن سعادتها وفلاحها في ظلهم وتحت قيادتهم.

«أولاً: أنهم أصحاب كتاب منزل وشرعية إلهية، فلا يقننون ولا يشترعون من عند أنفسهم. لأن ذلك منبع الجهل والخطأ والظلم، ولا يخطون في سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء، وقد جعل الله لهم نورا يمشون به في الناس، وجعل لهم شريعة يحكمون بها الناس «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا؟» وقد قال الله

تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا. اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

ثانيا: - أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس، بخلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحكومة في الماضي والحاضر، بل مكثوا زمنا طويلا تحت تربية محمد - ﷺ - وإشرافه الدقيق، يزكيهم ويؤدبهم، يأخذهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة والإيثار وحشية الله، وعدم الاستشراف للإمارة والحرص عليها. عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّي فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلَّاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ فَقَالَ « إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُؤَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ ».^{٩٠}

ولا يزال يقرع سمعهم: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ».. فكانوا لا يتهافتون على الوظائف والمناصب، فضلا عن أن يرشحوا أنفسهم للإمارة، ويزكوا أنفسهم، وينشروا دعاية لها، وينفقوا الأموال سعيًا وراءها. فإذا تولوا شيئا من أمور الناس لم يعدوه مغنما أو طعمة أو ثمنا لما أنفقوا من مال أو جهد بل عدوه أمانة في عنقهم، وامتحانا من الله ويعلمون أنهم موقوفون عند ربهم، ومسؤولون عن الدقيق والجليل، وتذكروا دائما قول الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ».. وقوله: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ، وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ».

«ثالثا: أنهم لم يكونوا خدمة جنس، ورسل شعب أو وطن، يسعون لرفاهيته ومصالحته وحده ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان، لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاما، ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم. ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكم أنفسهم! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة الله وحده. كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزيد جرد: فقال: "اللَّهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمَنْ ضَيَّقَ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا، وَمَنْ حَوَّرَ الْأَدْيَانَ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ، فَأَرْسَلْنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَبْلَ ذَلِكَ قَبَلْنَا مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ، وَمَنْ أَبِي قَاتِلْنَاهُ أَبَدًا حَتَّى نَفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ. قَالُوا: وَمَا مَوْعُودُ اللَّهِ؟ قَالَ: الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالٍ مِنْ أَبِي، وَالظُّفْرُ لِمَنْ بَقِيَ. فَقَالَ رُسْتُمُ: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تُؤَخِّرُوا هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى نَنْظُرَ فِيهِ وَنَنْظُرُوا؟ قَالَ: نَعَمْ، كَمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ؟ أَيَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ؟

^{٩٠} - صحيح مسلم - المكثر [١٢ / ٢٠٠] (٤٨٢١)

قَالَ: لَآ، بَلْ حَتَّى تُكَاتِبَ أَهْلَ رَأْيِنَا وَرُؤَسَاءَ قَوْمِنَا. فَقَالَ: مَا سَنَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَنْ نُؤَخَّرَ الْأَعْدَاءَ عِنْدَ اللَّقَاءِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ، فَانْظُرْ فِي أَمْرِكَ وَأْمُرِهِمْ، وَاخْتَرْ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ بَعْدَ الْأَجَلِ ٩١».

فالأمر عندهم سواء، والناس عندهم سواء. الناس كلهم من آدم، وآدم من تراب. لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ».

وقد قال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص عامل مصر - وقد ضرب ابنه مصرياً وافتخر بأبائه قائلاً: خذها من ابن الأكرمين. فاقتص منه عمر - متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم ٩٢؟ فلم ييخل هؤلاء بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسبا ولونا ووطنا، بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد، وغواصي مزنة أثني عليها السهل والوعر، وانتفعت بها البلاد والعباد على قدر قبولها وصلاحتها. في ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب - حتى المضطهدة منها في القديم - أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة، وأن تساهم العرب في بناء العالم الجديد، بل إن كثيرا من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل، وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين ..

«رابعا: إن الإنسان جسم وروح، وهو ذو قلب وعقل وعواطف وجوارح، لا يسعد ولا يفلح ولا يرقى رقبيا مترنا عادلا حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نموا متناسبا لائقا بها، ويتغذى غذاء صالحا، ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط ديني خلقي عقلي جسدي يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنساني. وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا مكنت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بين الذين يؤمنون بالروح والمادة، ويكونون أمثلة كاملة في الحياة الدينية والخلقية، وأصحاب عقول سليمة راجحة، وعلوم صحيحة نافعة» .. إلى أن يقول تحت عنوان: «دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة»: «وكذلك كان، فلم نعرف دورا من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر في جميع هذه النواحي من هذا الدور - دور الخلافة الراشدة - فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية في تنشئة الإنسان الكامل. وفي ظهور المدنية الصالحة .. كانت حكومة من أكبر حكومات العالم، وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها، تسود فيها المثل الخلقية العليا، وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة، ويسير الرقي الخلقي والروحي اتساع الفتوح واحتفال الحضارة، فتقل الجنايات، وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها، وتحسن علاقت الفرد

٩١ - أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - (١ / ٣٧٣) والمنظم - (١ / ٤٧٥) والبداية والنهاية لابن كثير - موافقة للمطبوع - (٧ /

٤٦) وتاريخ الرسل والملوك - (ج ٢ / ص ٢٦٨)

٩٢ - القصة بتمامها في تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي. (السيد رحمه الله)

بالفرد، والفرد بالجماعة، وعلاقة الجماعة بالفرد. وهو دور كما لي لم يحلم الإنسان بأرقى منه، ولم يفترض المفترضون أزهى منه ..».

هذه بعض ملامح تلك الحقبة السعيدة التي عاشتها البشرية في ظل الدستور الإسلامي الذي تضع «سورة العصر» قواعده، وتحت تلك الراية الإيمانية التي تحملها جماعة الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. فأين منها هذا الضياع الذي تعانيه البشرية اليوم في كل مكان، والخسار الذي تبوء به في معركة الخير والشر، والعماء عن ذلك الخير الكبير الذي حملته الأمة العربية للبشر يوم حملت راية الإسلام فكانت لها القيادة. ثم وضعت هذه الراية فإذا هي في ذيل القافلة. وإذا القافلة كلها تعطو إلى الضياع والخسار. وإذا الرايات كلها بعد ذلك للشيطان ليس فيها راية واحدة لله. وإذا هي كلها للباطل ليس فيها راية واحدة للحق. وإذا هي كلها للعماء والضلال ليس فيها راية واحدة للهدى والنور، وإذا هي كلها للخسار ليس فيها راية واحدة للفلاح! وراية الله ما تزال. وإنما لترقب اليد التي ترفعها والأمة التي تسير تحتها إلى الخير والهدى والصالح والفلاح.

ذلك شأن الربح والخسر في هذه الأرض. وهو على عظمتها إذا قيس بشأن الآخرة صغير. وهناك. هناك الربح الحق والخسر الحق. هناك في الأمد الطويل، وفي الحياة الباقية، وفي عالم الحقيقة .. هناك الربح والخسر: ربح الجنة والرضوان، أو خسر الجنة والرضوان. هناك حيث يبلغ الإنسان أقصى الكمال المقدر له، أو يرتكس فتهدر آدميته، وينتهي إلى أن يكون حجرا في القيمة ودون الحجر في الراحة: يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ..

وهذه السورة حاسمة في تحديد الطريق .. إنه الخسر .. «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ» .. طريق واحد لا يتعدد. طريق الإيمان والعمل الصالح وقيام الجماعة المسلمة، التي تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر. وتقوم متضامنة على حراسة الحق مزودة بزاد الصبر.

إنه طريق واحد. عَنْ أَبِي مَدِينَةَ الدَّارِمِيِّ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا التَّقْيَا لَمْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَقْرَأَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ: وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، ثُمَّ يُسَلِّمُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ" ٩٣ ..

لقد كانا يتعاهدان على هذا الدستور الإلهي، يتعاهدان على الإيمان والصالح، ويتعاهدان على التواصي بالحق والتواصي بالصبر. ويتعاهدان على أنهما حارسان لهذا الدستور. ويتعاهدان على أنهما من هذه الأمة القائمة على هذا الدستور .. ٩٤

والإنسان في خسر، أي في ضلال، لأنه لم يعرف قدره، ولم يرتفع بإنسانيته إلى المقام الذي أهله الله سبحانه وتعالى له. فلقد خلق الله سبحانه الإنسان في أحسن تقويم، ولكن الإنسان لم يلتفت إلى هذا

٩٣ - المعجم الكبير للطبراني [٢٠ / ٧٠] (١٣٦٦) صحيح

٩٤ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٩٢٧)

الخلق، ولم يقدره قدره، ولم يأخذ الطريق الذي يدعو إليه العقل، بل انقاد لشهوته، واستخف بإنسانيته، وتحول إلى عالم البهيمة، يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام..

ذلك هو شأن الإنسان في معظم أفراد وأحواله.. وقليل هم أولئك الذين عرفوا قدر إنسانيتهم، وما أودع الله سبحانه وتعالى فيهم من قوى قادرة على أن ترتفع بهم إلى الملاء الأعلى، لو أنهم أحسنوا استعمالها، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه وتعالى بقوله: «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ» .

فهؤلاء هم الإنسان الكريم عند الله، الذي يلقاه ربه بالرضا والرضوان.. إنهم هم الذين آمنوا بالله، وعرفوا ما لله سبحانه وتعالى، من كمال وجلال.. فاستمسكوا بالحق، وهو الإيمان، وما يدعو إليه، وما ينهى عنه.. ثم تواصلوا به فيما بينهم، فنصح بعضهم لبعض بالاستقامة عليه، والتمسك به، وفي هذا ما يقوى من جبهة الحق، ويكثر من أتباعه.

وفي قوله تعالى: «وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ» - إشارة إلى أن طريق الإيمان، والاستقامة على شريعته ليس أمرا هينا، فإن ذلك إنما يحتاج إلى معاناة وصبر على مغالبة الشهوات، وقهر دواعي الأهواء، ووساوس الشيطان.. فطريق الحق طريق مخوف بالمكاره، والصبر هو زاد الذين يسلكون طريقه، ويبلغون به غايات الفوز والفلاح..^{٩٥}

١٥ - الخوف من الوعيد :

قال تعالى: { قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَثَرُوا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنَّ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) }

[إبراهيم/١٠-١٤]

قال الرسل لهؤلاء المكذبين، وهم ينكرون عليهم شكهم في وجود الله ووحْدانيته: أَفِي اللَّهِ شَكٌّ؟ فَإِنَّ الْفِطْرَةَ شَاهِدَةٌ بِوُجُودِهِ، وَمَجْبُودَةٌ عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ، لِذَلِكَ كَانَ الْاعْتِرَافُ بِهِ

^{٩٥} - التفسير القرآني للقرآن (١٦ / ١٦٦٩)

ضُرُورِيًّا فِي الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، وَلَكِنْ قَدْ يَعْزُزُ لِبَعْضِهَا شَكٌّ وَاضْطِرَابٌ فَتَحْتَاجُ إِلَى الدَّلِيلِ الْمُوَصِّلِ إِلَى
وُجُودِ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ لَفَتَ الرُّسُلُ نَظَرَهُمْ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ، فَقَالُوا لَهُمْ: إِنَّهُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمُبْدِعُهَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، وَهُوَ تَعَالَى يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنْ ذُنُوبِكُمْ، وَيُؤَخِّرَكُمْ
فِي الدُّنْيَا إِلَى أَجَلٍ مُعَيَّنٍ (مُسَمَّى) . فَقَالَتِ الْأُمَمُ لِلرُّسُلِ: كَيْفَ نَتَّبِعُكُمْ بِمُجَرَّدِ قَوْلِكُمْ أَنَّكُمْ رُسُلُ
اللَّهِ، فَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا، وَلَمْ نَرِ مِنْكَ مُعْجَزَةً تَدُلُّ عَلَى رِسَالَتِكُمْ، فَإِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ فَأَتُونَا بِبِرْهَانٍ
وَدَلِيلٍ وَاضِحٍ عَلَى صِدْقِ مَا تَقُولُونَ . فَقَالَتِ لَهُمُ الرُّسُلُ: صَحِيحٌ أَنَّنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ
بِفَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مِنْ عِبَادِهِ، فَيُؤْتِيهِ الرِّسَالََةَ وَالنُّبُوَّةَ، وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِمَا سَأَلْتُمُوهُ مِنَ
الْمُعْجَزَاتِ وَالْخَوَارِقِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ، فَهُوَ الَّذِي يَأْتِي بِالْمُعْجَزَاتِ، وَيَأْذَنُ بِهَا، وَالْمُؤْمِنُونَ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى
اللَّهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ، فَلَنَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ بِالصَّبْرِ عَلَى كُفْرِكُمْ، وَتَكْذِيبِكُمْ إِنَّا نَا .

وَبَعْدَ أَنْ أَجَابَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَى شُبُهَاتِهِمْ، أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ يُخَوِّفُونَهُمْ، وَيَتَوَعَّدُونَهُمْ بِالْإِنْتِقَامِ
وَالْإِيذَاءِ، فَقَالَ لَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ إِنَّا لَا نَخَافُ تَهْدِيدَكُمْ، بَلْ نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ، وَنَعْتَمِدُ عَلَيْهِ، وَكَيْفَ لَا نَتَوَكَّلُ
عَلَى اللَّهِ، وَقَدْ هَدَانَا لَأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَوْضَحَهَا وَأَبْيَنَهَا؟ وَسَنَصْبِرُ عَلَى مَا أَلْحَقْتُمُوهُ بِنَا مِنْ الْأَذَى
بِأَقْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ، وَمَنْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ مَا أَهَمُّهُ وَأَغَمَّهُ .

وَلَمَّا عَجَزَ رُؤُوسُ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ عَنْ مُفَارَعَةِ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ، عَمَدُوا إِلَى تَهْدِيدِ الرُّسُلِ بِالنَّفْيِ
وَالْإِخْرَاجِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، إِنْ لَمْ يَعُودُوا فِي مِلَّتِهِمْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى الرُّسُلِ: أَنَّهُ تَعَالَى سَيَهْلِكُ هَؤُلَاءِ
الْمُكَذِّبِينَ الظَّالِمِينَ . وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الرُّسُلِ: أَنَّهُ سَيُسْكِنُهُمْ أَرْضَ الْكَافِرِينَ وَدِيَارَهُمْ مِنْ
بَعْدِهِمْ، وَهَذَا جَزَاءُ عَادِلٍ لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَخَافَ مَا خَوْفُهُ بِهِ رَبُّهُ، وَمَا تَوَعَّدَهُ بِهِ مِنْ
الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ٩٦ .

هنا تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية .. إن الجاهلية لا ترضى من الإسلام أن
يكون له كيان مستقل عنها. ولا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها. وهي لا تسالم الإسلام
حتى لو سالمها. فالإسلام لا بد أن يبدو في صورة تجمع حركي مستقل بقيادة مستقلة وولاء
مستقل، وهذا ما لا تطيقه الجاهلية. لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسلهم مجرد أن يكفوا عن
دعوتهم ولكن يطلبون منهم أن يعودوا في ملتهم، وأن يندمجوا في تجمعهم الجاهلي، وأن يذوبوا في
مجتمعهم فلا يبقى لهم كيان مستقل. وهذا ما تأباه طبيعة هذا الدين لأهله، وما يرفضه الرسل من ثم
ويأبونه، فما ينبغي لمسلم أن يندمج في التجمع الجاهلي مرة أخرى .. وعند ما تسفر القوة الغاشمة عن
وجهها الصلد لا يبقى مجال لدعوة، ولا يبقى مجال لحجة ولا يسلم الله الرسل إلى الجاهلية ..

٩٦ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٧٦١، بترقيم الشاملة آليا)

إن التجمع الجاهلي - بطبيعة تركيبه العضوي - لا يسمح لعنصر مسلم أن يعمل من داخله، إلا أن يكون عمل المسلم وجهده وطاقته لحساب التجمع الجاهلي، ولتوطيد جاهليته! والذين يخيل إليهم أنهم قادرون على العمل لدينهم من خلال التسرب في المجتمع الجاهلي، والتميع في تشكيلاته وأجهزته هم ناس لا يدركون الطبيعة العضوية للمجتمع. هذه الطبيعة التي ترغب كل فرد داخل المجتمع أن يعمل لحساب هذا المجتمع ولحساب منهجه وتصوره.. لذلك يرفض الرسل الكرام أن يعودوا في ملة قومهم بعد إذ نجاهم الله منها ..

وهنا تتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها المدمرة القاضية التي لا تقف لها قوة البشر المهازيل، وإن كانوا طغاة متجبرين: «فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ. ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ».

ولا بد أن ندرك أن تدخل القوة الكبرى للفصل بين الرسل وقومهم إنما يكون دائما بعد مفصلة الرسل لقومهم.. بعد أن يرفض المسلمون أن يعودوا إلى ملة قومهم بعد إذ نجاهم الله منها .. وبعد أن يصبروا على تمييزهم بدينهم وبتجمعهم الإسلامي الخاص بقيادته الخاصة. وبعد أن يفاصلوا قومهم على أساس العقيدة فينقسم القوم الواحد إلى أمتين مختلفتين عقيدة ومنهجاً وقيادة وتجمعاً.. عندئذ تتدخل القوة الكبرى لتضرب ضربتها الفاصلة، ولتدمر على الطواغيت الذين يتهددون المؤمنين، ولتمكن للمؤمنين في الأرض، ولتحقق وعد الله لرسله بالنصر والتمكين... ولا يكون هذا التدخل أبداً والمسلمون متميعون في المجتمع الجاهلي، عاملون من خلال أوضاعه وتشكيلاته، غير منفصلين عنه ولا متميزين بتجمع حركي مستقل وقيادة إسلامية مستقلة ..

«فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ».. نون العظمة ونون التوكيد .. كلتاها ذات ظل وإيقاع في هذا الموقف الشديد. لنهلكن المتجبرين المهددين، المشركين الظالمين لأنفسهم وللحق وللرسل وللناس بهذا التهديد.. «وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ».. لا محابة ولا جزافاً، إنما هي السنة الجارية العادلة: «ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ».. ذلك الإسكان والاستخلاف لمن خاف مقامي، فلم يتناول ولم يتعال ولم يستكبر ولم يتجبر. وخاف وعيد، فحسب حسابه، واتقى أسبابه، فلم يفسد في الأرض، ولم يظلم في الناس. فهو من ثم يستحق الاستخلاف، ويناله باستحقاق.

وهكذا تلتقي القوة الصغيرة الهزيلة - قوة الطغاة الظالمين - بالقوة الجبارة الطامة - قوة الجبار المهيمن المتكبر - فقد انتهت مهمة الرسل عند البلاغ المبين والمفاصلة التي تميز المؤمنين من المكذبين.

ووقف الطغاة المتجبرون بقوتهم الهزيلة الضئيلة في صف، ووقف الرسل الداعون المتواضعون ومعهم قوة الله - سبحانه - في صف. ودعا كلاهما بالنصر والفتح.. وكانت العاقبة كما يجب أن تكون:

«وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ. يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ، وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ»..

والمشهد هنا عجيب. إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد. مشهد الخيبة في هذه الأرض. ولكنه يقف هذا الموقف، ومن ورائه تخايل جهنم وصورته فيها، وهو يستقى من الصديد السائل من الجسوم. يسقاه بعنف فيتجرعه غصبا وكرها، ولا يكاد يسيغه، لقدارته ومرارته، والتقرز والتكره باديان نكاد نلمحهما من خلال الكلمات! ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان، ولكنه لا يموت، ليستكمل عذابه. ومن ورائه عذاب غليظ.. إنه مشهد عجيب، يرسم الجبار الخائب المهزوم ووراءه مصيره يخايل له على هذا النحو المروّع الفظيع.

وتشارك كلمة «غليظ» في تفضيع المشهد، تنسيقا له مع القوة الغاشمة التي كانوا يهددون بها دعاة الحق والخير والصلاح واليقين..^{٩٧}

إننا نقف من هذه القصة على حقيقة أولية بارزة يقصها علينا الحكيم الخبير.. إن موكب الإيمان منذ فجر التاريخ الإنساني موكب واحد موصول، يقوده رسل الله الكرام، داعين بحقيقة واحدة، جاهرين بدعوة واحدة، سائرين على منهج واحد.. كلهم يدعو إلى ألوهية واحدة، وربوبية واحدة وكلهم لا يدعو مع الله أحدا، ولا يتوكل على أحد غيره، ولا يلجأ إلى ملجأ سواه، ولا يعرف له سنداً إلا إياه. وأمر الاعتقاد في الله الواحد - إذن - ليس كما يزعم «علماء الدين المقارن» أنه تطور وترقى من التعدد إلى التثنية إلى التوحيد ومن عبادة الطواطم والأرواح والنجوم والكواكب إلى عبادة الله الواحد وأنه تطور وترقى كذلك بتطور وترقى التجربة البشرية والعلم البشري، وتطور وترقى الأنظمة السياسية وانتهاؤها إلى الأوضاع الموحدة تحت سلطان واحد...

إن الاعتقاد في الله الواحد جاءت به الرسالات منذ فجر التاريخ ولم تتغير هذه الحقيقة ولم تبدل في رسالة واحدة من الرسالات ولا في دين واحد من الأديان السماوية. كما يقص علينا الحكيم الخبير. ولو قال أولئك «العلماء»: إن قابلية البشرية لعقيدة التوحيد التي جاء بها الرسل كانت تترقى من عهد رسول إلى عهد رسول وإن الوثنيات الجاهلية كانت تتأثر بعقائد التوحيد المتوالية التي كان موكب الرسل الكرام يواجه بها هذه الوثنيات حيناً بعد حين. حتى جاء زمان كانت عقيدة التوحيد أكثر قبولا لدى جماهير الناس مما كانت، بفعل توالي رسالات التوحيد وبفعل العوامل الأخرى التي يفردها بالتأثير... لو قال أولئك «العلماء» قولا كهذا لساغ.. ولكنهم إنما يتأثرون بمنهج في البحث يقوم ابتداء على قاعدة من العداء الدفين القديم للكنيسة في أوربا - حتى ولو لم يلحظه العلماء المعاصرون! - ومن الرغبة الخفية - الواعية أو غير الواعية - في تحطيم المنهج الديني في التفكير وإثبات أن الدين لم يكن قط وحياً من عند الله إنما كان اجتهاداً من البشر، ينطبق عليه ما ينطبق على تطورهم في التفكير والتجربة والمعرفة العلمية سواء بسواء.. ومن ذلك العداء القديم ومن هذه الرغبة الخفية ينبثق منهج

^{٩٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٧٤٦)

علم الأديان المقارن ويسمى مع ذلك «علما» ينخدع به الكثيرون! وإذا جاز أن يخدع أحد بمثل هذا «العلم» فإنه لا ينبغي لمسلم يؤمن بدينه، ويحترم منهج هذا الدين في تقرير مثل هذه الحقيقة أن يخدع لحظة واحدة وأن يدلي بقول يصطدم اصطداما مباشرا مع مقررات دينه، ومع منهجه الواضح في هذا الشأن الخطير^{٩٨} ..

هذا الموكب الكريم من الرسل واجه البشرية الضالة - إذن - بدعوة واحدة، وعقيدة واحدة، وكذلك واجهت الجاهلية ذلك الموكب الكريم، وهذه الدعوة الواحدة بالعقيدة الواحدة، مواجهة واحدة - كما يعرضها السياق القرآني مغضيا عن الزمان والمكان، مبرزاً للحقيقة الواحدة الموصولة من وراء الزمان والمكان - وكما أن دعوة الرسل لم تتبدل، فكذلك مواجهة الجاهلية لم تتبدل!

إنها حقيقة تستوقف النظر حقا! .. إن الجاهلية هي الجاهلية على مدار الزمان .. إن الجاهلية ليست فترة تاريخية ولكنها وضع واعتقاد وتصور وتجمع عضوي على أساس هذه المقومات ..

والجاهلية تقوم ابتداء على أساس من دينونة العباد للعباد ومن تأليه غير الله. أو من ربوبية غير الله - وكلاهما سواء في إنشاء الجاهلية - فسواء كان الاعتقاد قائما على تعدد الآلهة أو كان قائما على توحيد الإله مع تعدد الأرباب - أي المتسلطين - فهو ينشئ الجاهلية بكل خصائصها الثانوية الأخرى! ودعوة الرسل إنما تقوم على توحيد الله وتنحية الأرباب الرائفة، وإخلاص الدين لله - أي إخلاص الدينونة لله وإفراده سبحانه بالربوبية، أي الحاكمية والسلطان - ومن ثم تصطدم اصطداما مباشرا بالقاعدة التي تقوم عليها الجاهلية وتصبح بذاتها خطرا على وجود الجاهلية. وبخاصة حين تتمثل دعوة الإسلام في تجمع خاص، يأخذ أفراد من التجمع الجاهلي وينفصل بهم عن الجاهلية من ناحية الاعتقاد، ومن ناحية القيادة، ومن ناحية الولاء .. الأمر الذي لا بد منه للدعوة الإسلامية في كل مكان وفي كل زمان ..

وعند ما يشعر التجمع الجاهلي - بوصفه كيانا عضويا واحدا متساندا - بالخطر الذي يتهدد قاعدة وجوده من الناحية الاعتقادية - كما يتهدد وجوده ذاته بتمثل الاعتقاد الإسلامي في تجمع آخر منفصل عنه ومواجه له .. فعندئذ يسفر التجمع الجاهلي عن حقيقة موقفه تجاه دعوة الإسلام!

إنها المعركة بين وجودين لا يمكن أن يكون بينهما تعايش أو سلام! المعركة بين تجمعين عضويين كل منهما يقوم على قاعدة مناقضة تماما للقاعدة التي يقوم عليها التجمع الآخر. فالتجمع الجاهلي يقوم على قاعدة تعدد الآلهة، أو تعدد الأرباب، ومن ثم يدين فيه العباد للعباد. والتجمع الإسلامي يقوم على قاعدة وحدانية الألوهية ووحداية الربوبية ومن ثم لا يمكن فيه دينونة العباد للعباد ..

^{٩٨} - يراجع ما كتب عن هذه القضية في الجزء الثاني عشر ص ١٨٨٢ - ١٨٨٦ من هذه الطبعة المنقحة. (السيد رحمه الله)

ولما كان التجمع الإسلامي إنما يأكل في كل يوم من جسم التجمع الجاهلي، في أول الأمر وهو في دور التكوين، ثم بعد ذلك لا بد له من مواجهة التجمع الجاهلي لتسلم القيادة منه، وإخراج الناس كافة من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده.. لما كانت هذه كلها حتميات لا بد منها متى سارت الدعوة الإسلامية في طريقها الصحيح، فإن الجاهلية لا تطيق منذ البدء دعوة الإسلام.. ومن هنا ندرك لماذا كانت مواجهة الجاهلية واحدة لدعوة الرسل الكرام!.. إنها مواجهة الدفاع عن النفس في وجه الاحتياج ومواجهة الدفاع عن الحاكمية المغتصبة وهي من خصائص الألوهية التي يغتصبها في الجاهلية العباد! وإذ كان هذا هو شعور الجاهلية بخطر الدعوة الإسلامية عليها، فقد واجهت هذه الدعوة في معركة حياة أو موت، لا هوادة فيها ولا هدنة ولا تعايش ولا سلام!..

إن الجاهلية لم تخدع نفسها في حقيقة المعركة وكذلك لم يخدع الرسل الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم - أنفسهم ولا المؤمنين بهم في حقيقة المعركة.. «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ: لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا».. فهم لا يقبلون من الرسل والذين آمنوا معهم، أن يتميزوا وينفصلوا بعقيدتهم وبقيادتهم وتجمعهم الخاص. إنما يطلبون إليهم أن يعودوا في ملتهم، ويندمجوا في تجمعهم، ويذوبوا في هذا التجمع. أو أن يطردوهم بعيدا وينفوههم من أرضهم..

ولم يقبل الرسل الكرام أن يندمجوا في التجمع الجاهلي، ولا أن يذوبوا فيه، ولا أن يفقدوا شخصية تجمعهم الخاص.. هذا التجمع الذي يقوم على قاعدة أخرى غير القاعدة التي يقوم عليها التجمع الجاهلي.. ولم يقولوا - كما يقول ناس ممن لا يدركون حقيقة الإسلام.. ولا حقيقة التركيب العضوي للمجتمعات -: حسنا! فلندمج في ملتهم كي نزاوول دعوتنا ونخدم عقيدتنا من خلالهم!!! إن تميز المسلم بعقيدته في المجتمع الجاهلي، لا بد أن يتبعه حتما تميزه بتجمعه الإسلامي وقيادته وولائه. وليس في ذلك اختيار.. إنما هي حتمية من حتميات التركيب العضوي للمجتمعات.. هذا التركيب الذي يجعل التجمع الجاهلي حساسا بالنسبة لدعوة الإسلام القائمة على قاعدة عبودية الناس لله وحده وتنحية الأرباب الزائفة عن مراكز القيادة والسلطان. كما يجعل كل عضو مسلم يتميع في المجتمع الجاهلي خادما للتجمع الجاهلي لا خادما لإسلامه كما يظن بعض الأغرار!^{٩٩}

ثم تبقى الحقيقة القدرية التي ينبغي ألا يغفل عنها الدعاة إلى الله في جميع الأحوال. وهي أن تحقيق وعد الله لأوليائه بالنصر والتمكين والفصل بينهم وبين قومهم بالحق، لا يقع ولا يكون، إلا بعد تمييز أصحاب الدعوة وتحيزهم وإلا بعد مفاصلتهم لقومهم على الحق الذي معهم.. فذلك الفصل من الله لا يقع وأصحاب الدعوة متميعون في المجتمع الجاهلي، ذائبون في أوضاعه عاملون في تشكيلاته.. وكل

^{٩٩} - يراجع بتوسع فصل: «نشأة المجتمع المسلم وخصائصه» في كتاب «معالم في الطريق». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

فترة تميع على هذا النحو هي فترة تأخير وتأجيل لوعده الله بالنصر والتمكين.. وهي تبعة ضخمة هائلة يجب أن يتدبرها أصحاب الدعوة إلى الله، وهم واعون مقدرون^{١٠٠}

١٦ - التوكل على الله تعالى في شئون حياتهم

قال تعالى: { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) }
إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) } [آل عمران/١٥٩، ١٦٠]

وقال تعالى: { مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) } [النساء/٨٠، ٨١]

وقال تعالى: { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِيهَا فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِدْجَائِنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) } [الأعراف/٨٨، ٨٩]

وقال تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) } [الأنفال/٢-٥]

وقال تعالى: { إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَالَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) } [الأنفال/٤٩، ٥٠]

وقال تعالى: { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) } [التوبة/١٢٨، ١٢٩]

وقال تعالى: { وَاثْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَكَلَّا تُنْظَرُونَ (٧١) } [يونس/٧١]

^{١٠٠} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٧٥٤)

وقال تعالى: { وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) } [يونس/٨٤-٨٧]

وقال تعالى: { وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِن أنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مَن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) } [هود/٥٠-٥٦]

وقال تعالى: { قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَافُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَن أُخَالِفَكُم إِلَىٰ مَا أَنهَاكُم عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) } [هود/٨٧، ٨٨]

وقال تعالى: { وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِن الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) } [يوسف/٦٧]

وفي التوكل على الله، وإسلام النفس لقدره - على علم بمجرأه واتجاهه - فأمضى الأمر في الخروج، ودخل بيته فلبس درعه ولأتمته - وهو يعلم إلى أين هو ماض، وما الذي ينتظره وينتظر الصباحة معه من آلام وتضحيات .. وحتى حين أتحت فرصة أخرى بتردد المتحمسين، وخوفهم من أن يكونوا استكروهه - ﷺ - على ما لا يريد، وتركهم الأمر له ليخرج أو يبقى .. حتى حين أتحت هذه الفرصة لم ينتهزها ليرجع. لأنه أراد أن يعلمهم الدرس كله. درس الشورى. ثم العزم والمضي. مع التوكل على الله والاستسلام لقدره. وأن يعلمهم أن للشورى وقتها، ولا مجال بعدها للتردد والتأرجح ومعاودة تقلب الرأي من جديد.

فهذا مآلة الشلل والسلبية والتأرجح الذي لا ينتهي .. إنما هو رأي وشورى. وعزم ومضاء. وتوكل على الله، يحبه الله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» .. والخلة التي يحبها الله ويحب أهلها هي الخلة التي ينبغي أن يحرص عليها المؤمنون. بل هي التي تميز المؤمنين ..

والتوكل على الله، ورد الأمر إليه في النهاية، هو خط التوازن الأخير في التصور الإسلامي وفي الحياة الإسلامية.

وهو التعامل مع الحقيقة الكبيرة: حقيقة أن مرد الأمر كله لله، وأن الله فعال لما يريد ..

لقد كان هذا درسا من دروس «أحد» الكبار. هو رصيد الأمة المسلمة في أجيالها كلها، وليس رصيد جيل بعينه في زمن من الأزمان ..

ولتقرير حقيقة التوكل على الله، وإقامتها على أصولها الثابتة، يمضي السياق فيقرر أن القوة الفاعلة في النصر والخذلان هي قوة الله، فعندها يلتمس النصر، ومنها تتقوى الهزيمة، وإليها يكون التوجه، وعليها يكون التوكل، بعد اتخاذ العدة، ونفض الأيدي من العواقب، وتعليقها بقدر الله: «إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» ..

إن التصور الإسلامي يتسم بالتوازن المطلق بين تقرير الفاعلية المطلقة لقدر الله - سبحانه - وتحقيق هذا القدر في الحياة الإنسانية من خلال نشاط الإنسان وفاعليته وعمله .. إن سنة الله تجري بترتيب النتائج على الأسباب.

ولكن الأسباب ليست هي التي «تنشئ» النتائج. فالفاعل المؤثر هو الله. والله يرتب النتائج على الأسباب بقدره ومشيتته .. ومن ثم يطلب إلى الإنسان أن يؤدي واجبه، وأن يبذل جهده، وأن يفي بالتزاماته. وبقدر ما يوفي بذلك كله يرتب الله النتائج ويحققها .. وهكذا تظل النتائج والعواقب متعلقة بمشيئة الله وقدره. هو وحده الذي يأذن لها بالوجود حين يشاء، وكيفما يشاء .. وهكذا يتوازن تصور المسلم وعمله. فهو يعمل ويبذل ما في طوقه وهو يتعلق في نتيجة عمله وجهده بقدر الله ومشيتته. ولا حتمية في تصوره بين النتائج والأسباب. فهو لا يحتتم أمرا بعينه على الله! وهنا في قضية النصر والخذلان، بوصفهما نتيجتين للمعركة - أية معركة - يرد المسلمين إلى قدر الله ومشيتته ويعلقهم بإرادة الله وقدرته: إن ينصرهم الله فلا غالب لهم. وإن يخذلهم فلا ناصر لهم من بعده .. وهي الحقيقة الكلية المطلقة في هذا الوجود. حيث لا قوة إلا قوة الله، ولا قدرة إلا قدرته، ولا مشيئة إلا مشيئته.

وعنها تصدر الأشياء والأحداث .. ولكن هذه الحقيقة الكلية المطلقة لا تعفي المسلمين من اتباع المنهج، وطاعة التوجيه، والنهوض بالتكاليف، وبذل الجهد، والتوكل بعد هذا كله على الله: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» .. وبذلك يخلص تصور المسلم من التماس شيء من عند غير الله ويتصل قلبه مباشرة بالقوة الفاعلة في هذا الوجود فينفض يده من كل الأشباح الزائفة والأسباب الباطلة للنصرة والحماية والالتجاء ويتوكل على الله وحده في إحداث النتائج، وتحقيق المصاير، وتدبير الأمر بحكمته، وتقبل ما يجيء به قدر الله في اطمئنان أيا كان. إنه التوازن العجيب، الذي لا يعرفه القلب البشري إلا في الإسلام..^{١١}

«وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» ..

^{١١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٨٠٨)

عليه وحده .. كما يفيد بناء العبارة. لا يشركون معه أحدا يستعينون به ويتوكلون عليه .. أو كما عقب عليها الإمام ابن كثير في التفسير: «أي لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد ابن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان» ..

وهذا هو إخلاص الاعتقاد بوحداية الله وإخلاص العبادة له دون سواه فما يمكن أن يجتمع في قلب واحد، توحيد الله والتوكل على أحد معه سبحانه. والذين يجدون في قلوبهم الاتكال على أحد أو على سبب يجب أن يبحثوا ابتداء في قلوبهم عن الإيمان بالله! وليس الاتكال على الله وحده. يمنع من اتخاذ الأسباب. فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيتكلم عليها. إن الذي ينشئ النتائج - كما ينشئ الأسباب - هو قدر الله. ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن .. اتخاذ السبب عبادة بالطاعة.

وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه إلا الله .. وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التبعد للأسباب والتعلق بها وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله في استيفائها.

ولقد ظلت الجاهلية «العلمية!» الحديثة تلج فيما تسميه «حتمية القوانين الطبيعية». ذلك لتنفى «قدر الله» وتنفي «غيب الله». حتى وقفت في النهاية عن طريق وسائلها وتجاربها ذاتها، أمام غيب الله وقدر الله وقفة العاجز عن التنبؤ الحتمي! ولجأت إلى نظرية «الاحتمالات» في عالم المادة. فكل ما كان حتميا صار احتماليا. وبقي «الغيب» سرا محتوما. وبقي قدر الله هو الحقيقة الوحيدة المستيقنة وبقي قول الله - سبحانه - «لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا» هو القانون الحتمي الوحيد، الذي يتحدث بصدق عن طلاقة المشيئة الإلهية من وراء القوانين الكونية التي يدبر الله بها هذا الكون، بقدره النافذ الطليق! يقول سير جيمس جيتز الإنجليزي الأستاذ في الطبيعيات والرياضيات:

«لقد كان العلم القديم يقرر تقرير الواقع، أن الطبيعة لا تستطيع أن تسلك إلا طريقا واحدا، وهو الطريق الذي رسم من قبل لتسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته، وفي تسلسل مستمر بين علة ومعلول، وأن لا مناص من أن الحالة (أ) تتبعها الحالة (ب) .. أما العلم الحديث فكل ما يستطيع أن يقوله حتى الآن، هو أن الحالة (أ) يحتمل أن تتبعها الحالة (ب) أو (ج) أو (د) أو غيرها من الحالات الأخرى التي يخطئها الحصر. نعم إن في استطاعته أن يقول: إن حدوث الحالة (ب) أكثر احتمالا من حدوث الحالة (ج) وإن الحالة (ج) أكثر احتمالا من (د) .. وهكذا. بل إن في مقدوره أن يحدد درجة احتمال كل حالة من الحالات (ب) و(ج) و(د) بعضها بالنسبة إلى بعض. ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ

عن يقين: أي الحالات تتبع الأخرى. لأنه يتحدث دائما عما يحتمل. أما ما يجب أن يحدث، فأمره موكول إلى الأقدار. مهما تكن حقيقة هذه الأقدار»^{١٠٢}

ومتى تخلص القلب من ضغط الأسباب الظاهرة، لم يعد هناك محل فيه للتوكل على غير الله ابتداء. وقدر الله هو الذي يحدث كل ما يحدث. وهو وحده الحقيقة المستيقنة. والأسباب الظاهرة لا تنشئ إلا احتمالات ظنية!.. وهذه هي النقلة الضخمة التي ينقلها الاعتقاد الإسلامي للقلب البشري - وللعقل البشري أيضا - النقلة التي تخبطت الجاهلية الحديثة ثلاثة قرون لتصل إلى أولى مراحلها من الناحية العقلية ولم تصل إلى شيء منها في الناحية الشعورية، وما يترتب عليها من نتائج عملية خطيرة في التعامل مع قدر الله والتعامل مع الأسباب والقوى الظاهرية!.. إنها نقلة التحرر العقلي، والتحرر الشعوري، والتحرر السياسي، والتحرر الاجتماعي، والتحرر الأخلاقي... إلى آخر أشكال التحرر وأوضاعه... وما يمكن أن يتحرر «الإنسان» أصلا إذا بقي عبدا للأسباب «الحتمية» وما وراءها من عبوديته لإرادة الناس. أو عبوديته لإرادة (الطبيعة!) فكل «حتمية» غير إرادة الله وقدره، هي قاعدة لعبودية لغير الله وقدره.. ومن ثم هذا التوكيد على التوكل على الله وحده، واعتباره شرطا لوجود الإيمان أو عدمه.. والتصور الاعتقادي في الإسلام كل متكامل. ثم هو بدوره كل متكامل مع الصورة الواقعية التي يريد بها هذا الدين لحياة الناس^{١٠٣}.

«الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ».. وهنا نرى للإيمان صورة حركية ظاهرة - بعد ما رأيناه في الصفات السابقة مشاعر قلبية باطنة - ذلك أن الإيمان هو ما وقر في القلب وصدق العمل. فالعمل هو الدلالة الظاهرة للإيمان التي لا بد من ظهورها للعيان، لتشهد بالوجود الفعلي لهذا الإيمان. وإقامة الصلاة ليست هي مجرد أدائها. إنما هي الأداء الذي يحقق حقيقتها. الأداء الكامل اللائق بوقفه العابد في حضرة المعبود - سبحانه - لا مجرد القراءة والقيام والركوع والسجود والقلب غافل! وهي في صورتها الكاملة تلك تشهد للإيمان بالوجود فعلا.

«وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ».. في الزكاة وغير الزكاة.. وهم ينفقون «مما رزقناهم».. فهو بعض مما رزقهم الرزاق.. وللنص القرآني دائما ظلاله وإيجاءاته. فهم لم يخلقوا هذا المال خلقا. إنما هو مما رزقهم الله إياه - من بين ما رزقهم وهو كثير لا يحصى - فإذا أنفقوا فإنما ينفقون بعضه، ويحتفظون منه ببقية. والأصل هو رزق الله وحده! تلك هي الصفات التي حدد الله بها - في هذا المقام - الإيمان. وهي تشمل الاعتقاد في وحدانية الله والاستجابة الوجدانية لذكره والتأثر القلبي بآياته والتوكل عليه وحده وإقامة الصلاة له، والإنفاق من بعض رزقه..

^{١٠٢} - راجع بتوسع تفسير قوله تعالى: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ» في الجزء السابع من الظلال ص ١١١٣ - ١١٢١. (السيد رحمه الله)

^{١٠٣} - راجع بتوسع كتاب: «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».. دار الشروق». (السيد رحمه الله)

وهي لا تمثل تفصيلات الإيمان - كما وردت في النصوص الأخرى - إنما هي تواجه حالة واقعة .. حالة الخلاف على الأنفال وفساد ذات البين من جرائها .. فتذكر من صفات المؤمنين ما يواجه هذه الحالة. وهي في الوقت ذاته تعين صفات من فقدتها جملة لم يجد حقيقة الإيمان فعلا. بغض النظر عما إذا كانت تستقصي شروط الإيمان أولا تستقصيها. فمنهج التربية الرباني بالقرآن هو الذي يتحكم فيما يذكر من هذه الشروط والتوجيهات في مواجهة الحالات الواقعية المختلفة. ذلك أنه منهج واقعي عملي حركي، لا منهج نظري معرفي، مهمته بناء (نظرية) وعرضها لذاتها! وعلى نفس القاعدة يجيء التعقيب الأخير: «أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَمَغْفِرَةٌ، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ» ..

فهذه الصفات إنما يجدها في نفسه وفي عمله المؤمن الحق. فمن لم يجدها جملة لم يجد صفة الإيمان. وهي في الوقت ذاته تواجه الحالة التي تنزلت فيها الآيات .. ومن ثم تواجه الحرص على الشهادة بحسن البلاء، بأن هؤلاء الذين يجدون هذه الصفات «لهم درجات عند ربهم» .. وتواجه ما وقع في ذات البين من سوء أخلاق - كما قال عبادة بن الصامت - بأن الذين يجدون هذه الصفات لهم عند ربهم «مغفرة» .. وتواجه ما وقع من نزاع على الأنفال بأن الذين يجدون هذه الصفات لهم عند ربهم «رزق كريم» .. فتغطي الحالة كلها، كل ما لا يسها من مشاعر ومواقف. وتقرر في الوقت ذاته حقيقة موضوعية وهي أن هذه صفات المؤمنين، من فقدتها جملة لم يجد حقيقة الإيمان.

«أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا» .. وقد كانت العصبة المسلمة الأولى تعلم أن للإيمان حقيقة لا بد أن يجدها الإنسان في نفسه، وأنه ليس الإيمان دعوى، ولا كلمات لسان، ولا هو بالتمني .. روى الحافظ الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري، «أنه مرَّ برَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: " كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ ؟ " قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، فَقَالَ: " أَنْظِرْ مَا تَقُولُ ؟ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ ؟ " فَقَالَ: قَدْ عَزَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَأَسْهَرْتُ لِدَلِكِ لَيْلِي، وَأَطْمَأَنَّ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظِرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظِرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظِرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغُونَ فِيهَا، فَقَالَ: " يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالزَّمْ " ، ثَلَاثًا^{١٠٤} ..

ولقد ذكر هذا الصحابي الذي استحق شهادة رسول الله - ﷺ - له بالمعرفة من حال نفسه، ما يصور مشاعره ويشي بما وراء هذه المشاعر من عمل وحركة. فالذي كأنه ينظر إلى عرش ربه بارزا، وينظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يتضاغون فيها، لا ينتهي إلى مجرد النظر. إنما هو يعيش ويعمل ويتحرك في ظل هذه المشاعر القوية المسيطرة التي تصبغ كل حركة وتؤثر فيها. ذلك إلى جانب ما أسهر ليله وأظمأ نهاره، وكأنما هو ناظر إلى عرش ربه بارزا ...

^{١٠٤} - المعجم الكبير للطبراني [٣/ ٤٣٠] (٣٢٨٩) ومصنف ابن أبي شيبة - دار القبة [١٥/ ٦٢٢] (٣١٠٦٢) وشعب الإيمان [١٣/ ١٥٨] (١٠١٠٦ - ١٠١٠٨) حسن لغيره

إن حقيقة الإيمان يجب أن ينظر إليها بالجد الواجب فلا تتميع حتى تصبح كلمة يقولها لسان، ومن ورائها واقع يشهد شهادة ظاهرة بعكس ما يقوله اللسان! إن التخرج ليس معناه التميع! والشعور بجدية الحقيقة الإيمانية أوجب والتخرج في تصورهما ألزم. وبخاصة في قلوب العصابة المؤمنة التي تحاول إعادة إنشاء هذا الدين في دنيا الواقع، التي غلبت عليها الجاهلية، وصبغتها بصبغتها المنكرة القبيحة^{١٠٥}.

والمنافقون والذين في قلوبهم مرض قيل: إنهم مجموعة من الذين مالوا إلى الإسلام في مكة - ولكن لم تصح عقيدتهم ولم تطمئن قلوبهم - خرجوا مع النفير مزعزين، فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين قالوا هذه المقالة! والمنافقون والذين في قلوبهم مرض لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة فهم يرون ظواهر الأمور، دون أن تهديهم بصيرة إلى بواطنها ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة في العقيدة، والثقة في الله، والتوكل عليه، واستصغار شأن الجموع والقوى التي لا ترتكن إلى عقيدة في الله تمنحها القوة الحقيقية.. فلا جرم يظنون المسلمين يومئذ مخدوعين في موقفهم، مغرورين بدينهم، واردين موارد التهلكة بتعرضهم لجحافل المشركين التي يرونها! إن الواقع المادي الظاهر لا يختلف من ناحية مظهره عند القلوب المؤمنة وعند القلوب الخاوية من الإيمان.

ولكن الذي يختلف هو التقدير والتقويم لهذا الواقع المادي الظاهر.. فالقلوب الخاوية تراه ولا ترى شيئاً وراءه والقلوب المؤمنة ترى ما وراءه من «الواقع» الحقيقي! الواقع الذي يشمل جميع القوى، ويوازن بينها موازنة صحيحة: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»..

هذا ما تدركه القلوب المؤمنة وتطمئن إليه وما هو محجوب عن القلوب الخاوية فلا تحسب حسابه! وهذا ما يرحح الكفة، ويقرر النتيجة، ويفصل في القضية في نهاية المطاف في كل زمان وفي كل مكان. وقولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض، عن العصابة المسلمة يوم بدر: «غر هؤلاء دينهم».. هي قولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض كلما رأوا العصابة المسلمة تتعرض لجحافل الطاغوت في عنفوانه وعدتها الأساسية التي تملكها هي هذا الدين وهي هذه العقيدة الدافعة الدافقة وهي الغيرة على ألوهية الله وعلى حرمة الله وهي التوكل على الله والثقة بنصره لأوليائه.

إن المنافقين والذين في قلوبهم مرض يقفون ليتفرجوا والعصابة المسلمة تصارع جحافل الطاغوت، وفي نفوسهم سخرية من هذه العصابة التي تتصدى للخطر، وتستخف بالخطر! وفي نفوسهم عجب كذلك ودهشة في اقتحام العصابة المسلمة للمكارة الظاهرة، وللأخطار الواضحة.. إنهم هم لا يعرفون مبررا لهذا التهور - كما يسمونه - وللإلقاء بالنفس إلى التهلكة!.. إنهم يحسبون الحياة كلها - بما فيها الدين والعقيدة - صفقة في سوق التجارة. إن كانت ظاهرة الربح أقدموا عليها فأما إذا كان الخطر

^{١٠٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٠١).

فالسلامة أولى! ..إنهم لا يدركون الأمور ببصيرة المؤمن، ولا يزنون النتائج كذلك بميزان الإيمان.. إنها في حس المؤمن وميزانه صفقة رابحة دائما فهي مؤدية إلى إحدى الحسنيين: النصر والغلب، أو الشهادة والجنة.. ثم إن حساب القوى في نفسه يختلف فهناك الله.. وهذا ما لا يدخل في حساب المنافقين والذين في قلوبهم مرض! والعصبة المسلمة في كل مكان وفي كل زمان مدعوة إلى أن تزن بميزان الإيمان والعقيدة وأن تدرك ببصيرة المؤمن وقلبه، وأن ترى بنور الله وهداه، وألا تتعاضمها قوى الطاغوت الظاهرة، وألا تستهين بقوتها ووزنها فإن معها الله، وأن تلقي بالها دائما إلى تعليم الله سبحانه للمؤمنين: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».... وصدق الله العظيم..^{١٠٦}

١٧ - الهجرة في الله:

قال تعالى: { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوَّتُهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) } [النحل/٤١، ٤٢]

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْجَزَاءِ الَّذِي أَعَدَّهُ لِلْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِهِ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، وَهُمْ الَّذِينَ فَارَقُوا الدَّارَ وَالْإِخْوَانَ وَالْخِلَالَ، رَجَاءَ ثَوَابِ اللَّهِ وَحُسْنِ جَزَائِهِ: فَقَالَ إِنَّهُ وَعَدَهُمْ بِالْمُجَازَاةِ الْحَسَنَةِ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا وَفِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَكَرَّمَهُمُ اللَّهُ بِالسَّكَنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَآتَاهُمُ الرِّزْقَ وَالْحِلَالَ الطَّيِّبَ، وَجَعَلَهُمْ سَادَةً وَأُمَرَاءَ، وَسَيَكُونُ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ أَكْبَرَ وَأَعْظَمَ مِمَّا آتَاهُمْ فِي الدُّنْيَا. وَلَوْ كَانَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْهَجْرَةِ يَعْلَمُونَ مَا ادَّخَرَ اللَّهُ لِمَنْ أَطَاعَهُ، وَاتَّبَعَ رَسُولَهُ، مِنْ عَظِيمِ الثَّوَابِ، لَمَا تَأَخَّرُوا عَنِ اللَّحَاقِ بِهِمْ. وَهَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرُونَ هُمُ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى مَا نَالَهُمْ مِنْ أَذَى قَوْمِهِمْ، وَاحْتَمَلُوهُ مُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ، الَّذِي أَحْسَنَ لَهُمُ الْعَاقِبَةَ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.^{١٠٧}

وَالَّذِينَ فَارَقُوا قَوْمَهُمْ وَدُورَهُمْ وَأَوْطَانَهُمْ عِدَاوَةً لَهُمْ فِي اللَّهِ عَلَى كُفْرِهِمْ إِلَى آخِرِينَ غَيْرِهِمْ { مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا } [النحل: ٤١] يَقُولُ: مَنْ بَعْدَ مَا نِيلَ مِنْهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ بِالْمَكَارِهِ فِي ذَاتِ اللَّهِ { لَنبُوَّتُهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ } [النحل: ٤١] يَقُولُ: لَنَسَكَنَتْهُمْ فِي الدُّنْيَا مَسْكَنًا يَرْضَوْنَهُ صَالِحًا. وَبَنَحُوا الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ، فَعَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوَّتُهُمْ } [النحل: ٤١] قَالَ: «هُؤُلَاءِ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ، ظَلَمَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ، فَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ حَتَّى لَحِقَ طَوَائِفُ مِنْهُمْ بِالْحَبَشَةِ، ثُمَّ بَوَّأَهُمُ اللَّهُ الْمَدِينَةَ بَعْدَ ذَلِكَ فَجَعَلَهَا لَهُمْ دَارَ هَجْرَةٍ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَنْصَارًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»

^{١٠٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٧٤)

^{١٠٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٩٤٣، بترقيم الشاملة آليا)

وَقَالَ آخِرُونَ: عَنِ بَقَوْلِهِ: {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} [النحل: ٤١] لَنُرْزُقَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا رِزْقًا حَسَنًا، عَنْ مُجَاهِدٍ، {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ} [النحل: ٤١] لَنُرْزُقَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا رِزْقًا حَسَنًا " .

عَنِ الْعَوَامِ، عَمَّنْ حَدَّثَهُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ إِذَا أُعْطِيَ الرَّجُلَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ عَطَاءَهُ يَقُولُ: «خُذْ، بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهِ، هَذَا مَا وَعَدَكَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا، وَمَا ذَخَرَهُ لَكَ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلُ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَلَآ جَزَاءُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [النحل: ٤١] " . وَأَوَّلَى الْقَوْلَيْنِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ} [النحل: ٤١] لَنُحِلَّتْ لَهُمْ وَلَنُسَكِنَتْهُمْ، لِأَنَّ التَّبَوُّا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْحُلُولُ بِالْمَكَانِ وَالتَّنَزُّلُ بِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُورًا صِدْقٍ} [يونس: ٩٣] وَقِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَبِي جَنْدَلِ بْنِ سُهَيْلٍ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدٍ، قَالَ: " نَزَلَتْ {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا} [النحل: ٤١] إِلَى قَوْلِهِ: {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل: ٤٢] فِي أَبِي جَنْدَلِ بْنِ سُهَيْلٍ "

وَلَثَوَابُ اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَلَى هِجْرَتِهِمْ فِيهِ فِي الْآخِرَةِ أَكْبَرُ، لِأَنَّ ثَوَابَهُ إِيَّاهُمْ هُنَاكَ الْجَنَّةُ الَّتِي يَدُومُ نَعِيمُهَا وَلَا يَبِيدُ. فَعَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: قَالَ اللَّهُ: " {وَلَآ جَزَاءُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ} [النحل: ٤١] أَيْ وَاللَّهِ لَمَّا يُشِيبُهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ جَنَّتِهِ أَكْبَرُ {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [النحل: ٤١] "

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفْنَا صِفَتَهُمْ، وَآتَيْنَاهُمْ الثَّوَابَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، الَّذِينَ صَبَرُوا فِي اللَّهِ عَلَى مَا نَابَهُمْ فِي الدُّنْيَا {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: ٢] يَقُولُ: وَبِاللَّهِ يَتَّقُونَ فِي أُمُورِهِمْ، وَإِلَيْهِ يَسْتَنْدُونَ فِي نَوَائِبِ الْأُمُورِ الَّتِي تُتَوَبَّهَمُ^{١٠٨}

فهؤلاء الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم، وتعرّوا عما يملكون وعما يحبون، وضحوا بدارهم وقرب عشيرتهم والحبيب من ذكرياتهم . هؤلاء يرجون في الآخرة عوضا عن كل ما خلفوا وكل ما تركوا. وقد عانوا الظلم وفارقوه. فإذا كانوا قد خسروا الديار ف «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً» ولنسكنهم خيرا مما فقدوا «وَلَآ جَزَاءُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ» لو كان الناس يعلمون. هؤلاء «الَّذِينَ صَبَرُوا» واحتملوا ما احتملوا «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» لا يشركون به أحدا في الاعتماد والتوجه والتكلان^{١٠٩} . قوله تعالى: «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآ جَزَاءُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» . مناسبة هذه الآية لما قبلها، هي أن الآيات التي سبقتها ذكرت البعث وإمكانيته، وكشفت عن بعض الحكمة من وقوعه في قوله تعالى: «لَيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ..» وإذ كان هذا وجهها من وجوه الموقف يوم القيامة، ناسب أن يذكر الوجه الآخر، وهو وجه الذين آمنوا بالله، وصدّقوا بآياته.. وأكرم ما في هذا الوجه الكريم هم الذين هاجروا في الله من بعد ما مسّهم الضر، وضائق عليهم الأرض بما رحبت، وذلك بما ساق إليهم

^{١٠٨} - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢٣ / ١٤)

^{١٠٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٨٣٢)

المشركون من ألوان العسف والبلاء..فهؤلاء سيوفهم الله سبحانه أجرهم مرتين..في الدنيا..وفي الآخرة..

فهم في الدنيا سينصرون على عدوهم، وسوف تمتلئ أيديهم بالخير، بما يمكن الله لهم في الأرض..أما في الآخرة، فلهم جنات النعيم، ورضوان من الله أكبر..وذلك هو الفوز العظيم..
وفي قوله تعالى: «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ» إشارة إلى أن الهجرة جهاد في سبيل الله، ولهذا ضمن الفعل «هاجر» معنى الفعل «جاهد»، فعُدَى بحرف الجر «في»..ويجوز أن يكون حرف الجر «في» بمعنى الباء، التي تفيد السببية..ويكون المعنى: والذين هاجروا بسبب الله، أي بسبب الإيمان بالله..وفي الحديث: «عذبت امرأة في هرة» أي بسبب هرة..

وقوله تعالى: «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً» أي لننزلهم منزلة حسنة في الدنيا..يقال: بَاء ييؤء: أي رجع..وسمى المنزل مباءة، لأنه المرجع الذي يأوى إليه الإنسان بعد طوافه وسعيه في الحياة..
ولقد صدق الله وعده، فأيد المؤمنين بنصره، ومكّن لهم في الأرض، وأذلّ الكافرين والمشركين..والمنافيين، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجا..وهذا الوعد الذي وعده الله المؤمنين، وأنجزه لهم لم يكن لأشخاصهم فردا فردا، وإنما هو لهم كجسد واحد، ومجتمع واحد..هكذا المؤمنون، فيما أصابهم، من بلاء، أو عافية، فهم جميعا فيه شركاء، شأن الجسد حين تنزل به علة، أو تلبسه عافية..!

قوله تعالى: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» هو عطف بيان على قوله تعالى: «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ»..فهؤلاء هم الذين صبروا على أذى المشركين، واحتملوا في سبيل الله ما احتملوا من مفارقة الأهل والوطن..مخلفين كل شيء وراءهم، فما كان لهم في هجرتهم من مال ومتاع..بل هاجروا متوكلين على الله، معتمدين به، مستغنين بما عنده.^{١١٠}

وقال تعالى: { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) } [العنكبوت/٥٦-٥٩]

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْهَجْرَةِ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ لَا يَقْدِرُونَ فِيهِ عَلَىٰ إِقَامَةِ الشَّعَائِرِ الدِّيْنِيَّةِ إِلَىٰ مَكَانٍ آخَرَ مِنْ أَرْضِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ، يَسْتَطِيعُونَ فِيهِ إِقَامَةَ شُعَائِرِ دِينِهِمْ كَمَا أَمَرَهُمْ رَبُّهُمْ .

^{١١٠} - التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٢٩٨)

أَيَّمَا كُنْتُمْ يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ، فَكُونُوا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَحَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، فَالْمَوْتُ آتٍ لَا مَحَالَةَ، وَلَا مَفَرَّ مِنْهُ وَلَا مَهْرَبَ، ثُمَّ تُرْجَعُونَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعِنْدَهُ الْحِسَابُ وَالْجَزَاءُ .

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَصَدَّقُوا رَسُولَهُ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ، وَعَمِلُوا بِمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ فَأَطَاعُوهُ فِيهِ، وَانْتَهَوْا عَمَّا نَهَاَهُمْ عَنْهُ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَعِدُهُمْ وَعَدًا حَقًّا أَنَّهُ سَيُنْزِلُهُمْ فِي الْجَنَّةِ قُصُورًا، وَأَمَاكِنَ مُرْتَفَعَةً (غُرَفًا) تَجْرِي فِي أَرْضِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيَقُونَ فِيهَا خَالِدِينَ، أَبَدًا، جَزَاءَ لَهُمْ عَلَى مَا عَمِلُوا . وَمَا حَصَلُوا عَلَيْهِ مِنْ جَزَاءٍ كَرِيمٍ هُوَ نِعَمٌ الْأَجْرُ لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا . وَهَؤُلَاءِ الْعَامِلُونَ، الَّذِينَ فَازُوا بِغُرَفَاتِ الْجَنَّةِ، هُمُ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ، وَعَلَى شِدَائِدِ الْهَجْرَةِ، وَعَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى رَبِّهِمْ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ^{١١١} .

إن خالق هذه القلوب، الخبير بمداخلها، العليم بخفاياها، العارف بما يهيجس فيها، وما يستكن في حناياها .. إن خالق هذه القلوب ليناديها هذا النداء الحبيب: يا عبادي الذين آمنوا: يناديها هكذا وهو يدعوها إلى الهجرة بدینها، لتحس منذ اللحظة الأولى بحقيقتها. بنسبتها إلى ربها وإضافتها إلى مولاه: «يا عبادي».. هذه هي اللمسة الأولى. واللمسة الثانية: «إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ»..

أنتم عبادي. وهذه أرضي. وهي واسعة. فسيحة تسعكم. فما الذي يمسككم في مقامكم الضيق، الذي تفتنون فيه عن دينكم، ولا تملكون أن تعبدوا الله مولاكم؟ غادروا هذا الضيق يا عبادي إلى أرضي الواسعة، ناجين بدينكم، أحرارا في عبادتكم «فَيَأْتِي فَاَعْبُدُون».

إن هاجس الأسى لمفارقة الوطن هو الهاجس الأول الذي يتحرك في النفس التي تدعى للهجرة. ومن هنا يمس قلوبهم بهاتين اللمستين: بالنداء الحبيب القريب: «يا عبادي» وبالسعة في الأرض: «إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ» وما دامت كلها أرض الله، فأحب بقعة منها إذن هي التي يجدون فيها السعة لعبادة الله وحده دون سواه.

ثم يمضي يتتبع هواجس القلوب وخواطرها. فإذا الخاطر الثاني هو الخوف من خطر الهجرة. خطر الموت الكامن في محاولة الخروج - وقد كان المشركون يمسكون بالمؤمنين في مكة، ولا يسمحون لهم بالهجرة عند ما أحسوا بخطرهم بعد خروج المهاجرين الأولين - ثم خطر الطريق لو قدر لهم أن يخرجوا من مكة. ومن هنا تجيء اللمسة الثانية: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ. ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» ..

فالْمَوْتُ حتم في كل مكان، فلا داعي أن يحسبوا حسابه، وهم لا يعلمون أسبابه. وإلى الله المرجع والمآب. فهم مهاجرون إليه، في أرضه الواسعة، وهم عائدون إليه في نهاية المطاف. وهم عباده الذين يؤويهم إليه في الدنيا والآخرة. فمن ذا يساوره الخوف، أو يهيجس في ضميره القلق، بعد هذه اللمسات؟

^{١١١} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٢٧٨، بترقيم الشاملة آليا)

ومع هذا فإنه لا يدعهم إلى هذا الإيواء وحده بل يكشف عما أعده لهم هناك. وإنهم ليفارقون وطنهم في الأرض عنه سعة. ويفارقون بيوتهم في الجنة منها عوض. عوض من نوعها وأعظم منها: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا». وهنا يهتف لهم بالعمل والصبر والتوكل على الله: «نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».. وهي لمسة التثبيت والتشجيع لهذه القلوب، في موقف القلقلة والخوف والحاجة إلى التثبيت والتشجيع. ثم يهجس في النفس خاطر القلق على الرزق، بعد مغادرة الوطن والمال وبجال العمل والنشاط المألوف، وأسباب الرزق المألوفة. فلا يدع هذا الخاطر دون لمسة تقرر لها القلوب: «وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا، اللَّهُ يَرْزُقُهَا إِيَّاكُمْ».. لمسة توقظ قلوبهم إلى الواقع المشهود في حياتهم. فكهم من دابة لا تحصل رزقها ولا تجمعها ولا تحملها ولا تهتم به، ولا تعرف كيف توفره لنفسها، ولا كيف تحتفظ به معها. ومع هذا فإن الله يرزقها ولا يدعها تموت جوعاً. وكذلك يرزق الناس. ولو خيل إليهم أنهم يخلقون رزقهم وينشئونهم. إنما يهبهم الله وسيلة الرزق وأسبابه. وهذه الهبة في ذاتها رزق من الله، لا سبيل لهم إليه إلا بتوفيق الله. فلا مجال للقلق على الرزق عند الهجرة. فهم عباد الله يهاجرون إلى أرض الله يرزقهم الله حيث كانوا. كما يرزق الدابة لا تحمل رزقها، ولكن الله يرزقها ولا يدعها.

ويختتم هذه اللمسات الرفيعة العميقة بوصلهم بالله، وإشعارهم برعايته وعنايته، فهو يسمع لهم ويعلم حالهم، ولا يدعهم وحدهم: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».. وتنتهي هذه الجولة القصيرة وقد لمست كل حنية في تلك القلوب ولبت كل خاطر هجس فيها في لحظة الخروج. وقد تركت مكان كل مخافة طمأنينة، ومكان كل قلق ثقة، ومكان كل تعب راحة. وقد هددهت تلك القلوب وغمرتها بشعور القربى والرعاية والأمان في كنف الله الرحيم المنان. ألا إنه لا يدرك هواجس القلوب هكذا إلا خالق القلوب. ولا يداوي القلوب هكذا إلا الذي يعلم ما في القلوب.^{١١٢}

١٨ - الإيمان بالقضاء والقدر:

قال تعالى: {إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)}

[التوبة/٥٠، ٥١]

^{١١٢} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٤٩٨)

وهؤلاء تسوؤهم آية حسنة أو نصر أو فتح يصيبه الرسول والمسلمون، وإذا أصابت الرسول والمؤمنين مصيبة، أو شدة، يقولون قد احتطنا لأمرنا، وأخذنا حذرنا إذ تخلفنا عن القتال، ولم نُلْقِ بأيدينا إلى التهلكة، وينقلون إلى أهلهم فرحين بما اجتنبوه من المصائب، وبالشماتة بالتيي والمسلمين. قل يا أيها الرسول لهؤلاء الذين يفرحون بما يصيب المسلم من المصائب، وتسوؤهم النعمة التي تُصيب المسلمين: نحن تحت مشيئة الله وقدره، وما قدره لنا سيأتينا، وليس له مانع ولا دافع. ونحن متوكلون على الله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، فلا نياس عند الشدة، ولا نبطر عند النعمة. ١١٣

إنهم لا يريدون بالرسول خيرا ولا بالمسلمين وإنهم ليسوؤهم أن يجد الرسول والمسلمون خيرا: «إن تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ».. وإلهم لفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب وما يترل بهم من مشقة: «وإن تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا: قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ».. واحتطنا ألا نصاب مع المسلمين بشراً، وتخلفنا عن الكفاح والغزو! «وَيَتَوَكَّلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ».. بالنجاة وبما أصاب المسلمين من بلاء.

ذلك أنهم يأخذون بظواهر الأمور، ويحسبون البلاء شرا في كل حال، ويظنون أنهم يحققون لأنفسهم الخير بالتخلف والقيود. وقد خلت قلوبهم من التسليم لله، والرضى بقدره، واعتقاد الخير فيه. والمسلم الصادق يبذل جهده ويقدم لا يخشى، اعتقاداً بأن ما يصيبه من خير أو شر معقود بإرادة الله، وأن الله ناصر له ومعين: «قُلْ: لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»..

والله قد كتب للمؤمنين النصر، ووعدهم به في النهاية، فمهما يصيبهم من شدة، ومهما يلاقوا من ابتلاء، فهو إعداد للنصر الموعود، ليناله المؤمنون عن بينة، وبعد تحييص، وبوسائله التي اقتضتها سنة الله، نصراً عزيزاً لا رخيصة، وعزة تحميها نفوس عزيزة مستعدة لكل ابتلاء، صابرة على كل تضحية. والله هو الناصر وهو المعين: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»..

والاعتقاد بقدر الله، والتوكل الكامل على الله، لا ينفيان اتخاذ العدة بما في الطوق. فذلك أمر الله الصريح: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...» وما يتكل على الله حق الاتكال من لا ينفذ أمر الله، ومن لا يأخذ بالأسباب، ومن لا يدرك سنة الله الجارية التي لا تحابي أحداً، ولا تراعي خاطر إنسان! على أن المؤمن أمره كله خير. سواء نال النصر أو نال الشهادة. والكافر أمره كله شر سواء أصابه عذاب الله المباشر أو على أيدي المؤمنين: «قُلْ: هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا. فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ»..

فماذا يتربص المنافقون بالمؤمنين؟ إنما الحسنى على كل حال. النصر الذي تعلق به كلمة الله، فهو جزاؤهم في هذه الأرض، أو الشهادة في سبيل الحق عليا الدرجات عند الله. وماذا يتربص المؤمنون

١١٣ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٨٦، بترقيم الشاملة آليا)

بالمنافيين؟ إنه عذاب الله يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين أو يبطش المؤمنين بهم كما وقع من قبل للمشركين.. «فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ» والعاقبة معروفة.. والعاقبة للمؤمنين.^{١١٤}

وهذه حال من أحوال المنافقين مع المؤمنين.. إنهم يترصدون بالمؤمنين وهم على طريق الجهاد، فإذا عاد المسلمون بالنصر والغنيمة اغتموا، وحزنوا، وعلاهم الحزى والهوان.. وإن وقع بالمسلمين سوء فرحوا فرحتين: فرحة لأن المسلمين قد أصيبوا، وفرحة لأنهم هم لم يكونوا في هذا الوجه الذي وقع للمسلمين فيه ما وقع من بلاء.. ثم يدعوهم هذا إلى أن يحمدوا لأنفسهم بعد نظرهم، وتقديرهم للأمر.. حيث سلموا وكان من شأنهم أن يعطبوا لو أنهم استجابوا لما دعوا إليه.. «وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ».. أي أخذنا حذرنا، ونظرنا إلى عواقب الأمور، ورأينا بحسن تقديرنا ألا نشارك في هذه الحرب التي يتجه إليها المسلمون، والتي لا يلقون فيها إلا الهزيمة.. وهنا قد صحَّ تقديرنا.. هكذا تقديرهم، وذلك هو حسابهم مع الإسلام والمسلمين!..

وقد ردَّ الله عليهم هذا الردَّ الذي أمر المسلمين أن يلقوا المشركين به.. فقال تعالى: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ» أي إن الذي تنتظرونه فينا لا يخرج عن أمرين، كلاهما نعمة عندنا، ورحمة من الله ورضوان.. إما أن نظفر ونغنم، وإما أن نستشهد في سبيل الله، وننال رضوانه، وننزل منازل الشهداء عنده..

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَكْفَلُ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ بَأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»^{١١٥}

أما المسلمون فإنهم ينتظرون في المنافقين العذاب الذي لا بدَّ أنه واقع بهم، إما على أيدي المسلمين في هذه الدنيا بأن يقتلوهم، ويستولوا على أموالهم وديارهم، وإما أن يموتوا على ما هم عليه من نفاق، فيلقاهم الله بالعذاب الأليم الذي أعدَّه لهم.. «وَنَحْنُ تَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِينَا.. فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ»^{١١٦}.

١٩ - أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل :

^{١١٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٢٧٦)

^{١١٥} - صحيح البخاري (٤/ ٨٦) (٣١٢٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٩٦) (١٠٤) - (١٨٧٦)

[ش (تصديق كلماته) أي مصدقا بما وعد الله تعالى في كتابه من أجر على الجهاد]

^{١١٦} - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧٩٣)

قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء: ٥٨]

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا. وَأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْأَمَانَاتِ الْوَاجِبَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ: مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ...) وَمِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ (كَالْوَدَائِعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُؤْتَمَنُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ بِيَدِ أَصْحَابِهَا وَثَاقٌ وَبَيِّنَاتٌ عَلَيْهَا) . هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي عُثْمَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، فَقَدْ كَانَتْ لَهُ حِجَابَةُ الْكَعْبَةِ . وَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ طَافَ الرَّسُولُ ﷺ بِالْكَعْبَةِ، ثُمَّ دَعَا عُثْمَانَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ، وَأَخَذَ مِنْهُ مُفْتَاحَ الْكَعْبَةِ وَدَخَلَهَا . فَجَاءَهُ الْعَبَّاسُ (وَقِيلَ بَلْ جَاءَهُ عَلِي) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اجْمَعْ لَنَا حِجَابَةَ الْكَعْبَةِ مَعَ السَّقَايَةِ . فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ وَدَفَعَ إِلَيْهِ الْمِفْتَاحَ، وَخَرَجَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ .

وَيَأْمُرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ، وَأَنْ يَكُونَ الْعَدْلُ عَامًا لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَلِكُلِّ أَحَدٍ، وَأَنْ لَا يَمْنَعَهُمْ مِنْ إِقَامَةِ الْعَدْلِ حَقْدٌ أَوْ كِرَاهِيَةٌ أَوْ عَدَاوَةٌ .

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى إِنَّ مَا يَأْمُرُ بِهِ، وَيَعْظُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، هُوَ الشَّرْعُ الْكَامِلُ، وَفِيهِ خَيْرُهُمْ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ لَأَقْوَالِ الْعِبَادِ، بَصِيرٌ بِأَفْعَالِهِمْ، فَيُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ بِمَا يَسْتَحِقُّ .^{١١٧}

وعن البراء، قال: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا، قَالَ: الْأَمَانَةُ فِي الصَّلَاةِ ، وَالْأَمَانَةُ فِي الْغُسْلِ مِنَ الْجَنَابَاتِ ، وَالْأَمَانَةُ فِي الْكَيْلِ ، وَالْأَمَانَةُ فِي الْوَزْنِ ، وَأَعْظَمُ ذَلِكَ فِي الْوَدَائِعِ " مصنف ابن أبي شيبة^{١١٨} .

عن يونس بن مَاهِكٍ الْمَكِّيِّ قَالَ كُنْتُ أَكْتُبُ لِفُلَانٍ نَفَقَةَ أَتِيَامٍ كَانَ وَلِيَّهُمْ فَعَالِطُوهُ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ فَأَدَّاهَا إِلَيْهِمْ فَأَدْرَكْتُ لَهُمْ مِنْ مَالِهِمْ مِثْلَهَا . قَالَ قُلْتُ أَقْبِضُ الْأَلْفَ الَّذِي ذَهَبُوا بِهِ مِنْكَ قَالَ لَا حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - يَقُولُ « أَدَّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ اتَّيَمَّنَكَ وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ » سنن أبي داود^{١١٩}

هذه هي تكاليف الجماعة المسلمة وهذا هو خلقها: أداء الأمانات إلى أهلها. والحكم بين «الناس». بالعدل. على منهج الله وتعليمه.

والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى .. الأمانة التي ناط الله بها فطرة الإنسان والتي أبست السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها «الإنسان» .. أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه. فهذه أمانة الفطرة الإنسانية خاصة. فكل ما عدا الإنسان ألهمه ربه الإيمان به، والاهتداء إليه، ومعرفته، وعبادته، وطاعته. وألزمه طاعة ناموسه بغير جهد منه ولا قصد ولا إرادة ولا

^{١١٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٥١، بترقيم الشاملة آليا)

^{١١٨} - (ج ١٣ / ص ٢٠٤) برقم (٣٤٧٦٣)

^{١١٩} - برقم (٣٥٣٦) صحيح

اتجاهه. والإنسان وحده هو الذي وكل إلى فطرته، وإلى عقله، وإلى معرفته، وإلى إرادته، وإلى اتجاهه، وإلى جهده الذي يبذله للوصول إلى الله، يعون من الله: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا».. وهذه أمانة حملها وعليه أن يؤديها أول ما يؤدي من الأمانات^{١٢٠}.

ومن هذه الأمانة الكبرى، تنبثق سائر الأمانات، التي يأمر الله أن تؤدي:

ومن هذه الأمانات: أمانة الشهادة لهذا الدين.. الشهادة له في النفس أولا بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له. ترجمة حية في شعورها وسلوكها. حتى يرى الناس صورة الإيمان في هذه النفس. فيقولوا: ما أطيب هذا الإيمان وأحسنه وأزكاه وهو يصوغ نفوس أصحابه على هذا المثال من الخلق والكمال! فتكون هذه شهادة لهذا الدين في النفس يتأثر بها الآخرون.. والشهادة له بدعوة الناس إليه، وبيان فضله ومزيته - بعد تمثل هذا الفضل وهذه المزية في نفس الداعية - فما يكفي أن يؤدي المؤمن الشهادة للإيمان في ذات نفسه، إذا هو لم يدع إليها الناس كذلك، وما يكون قد أدى أمانة الدعوة والتبليغ والبيان. وهي إحدى الأمانات..

ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة إقراره في الأرض منهجا للجماعة المؤمنة ومنهجا للبشرية جميعا.. المحاولة بكل ما يملك الفرد من وسيلة، وبكل ما تملك الجماعة من وسيلة. فإقرار هذا المنهج في حياة البشر هو كبرى الأمانات بعد الإيمان الذاتي. ولا يعفى من هذه الأمانة الأخيرة فرد ولا جماعة.. ومن ثم ف «الْجِهَادُ مَاضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^{١٢١} على هذا الأساس.. أداء لإحدى الأمانات.. ومن هذه الأمانات - الداخلية في ثنايا ما سبق - أمانة التعامل مع الناس ورد أماناتهم إليهم: أمانة المعاملات والودائع المادية. وأمانة النصيحة للرعي وللرعية. وأمانة القيام على الأطفال الناشئة. وأمانة المحافظة على حرمان الجماعة وأموالها وثغراتها... وسائر ما يجلوه المنهج الرباني من الواجبات والتكاليف في كل مجالي الحياة على وجه الإجمال.. فهذه من الأمانات التي يأمر الله أن تؤدي ويحملها النص هذا الإجمال..

فأما الحكم بالعدل بين «الناس» فالنص يطلقه هكذا عدلا شاملا «بين الناس» جميعا. لا عدلا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب. ولا عدلا مع أهل الكتاب، دون سائر الناس.. وإنما هو حق لكل

^{١٢٠} - يراجع بتوسع كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» فصل: «حقيقة الإنسان». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

^{١٢١} - عَنْ عَلِيٍّ وَجَابِرٍ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: "بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَهْلٍ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا تُكْفَرُوهُمْ بِذَنْبٍ وَلَا تُشْهَدُوا عَلَيْهِمْ بِشِرْكٍ، وَمَعْرِفَةُ الْمَقَادِيرِ خَيْرُهَا وَشَرُّهَا مِنَ اللَّهِ، وَالْجِهَادُ مَاضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مُذْ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا - ﷺ - إِلَى آخِرِ عَصَابَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لَا يَنْقُضُ ذَلِكَ جَوْرُ جَائِرٍ وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ". المعجم الأوسط للطبراني [١٠/ ٤٨٨] (٤٩٣١) وفيه منهم

ولكنه ورد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: - «ثَلَاثٌ مِنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ الْكَفُّ عَمَّنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يُكْفَرُهُ بِذَنْبٍ وَلَا يُخْرِجُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى أَنْ يُقَاتَلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَالُ لَا يُطْلَعُ حَوْزُ جَائِرٍ وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ وَالْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ». السنن الكبرى للبيهقي - المكثر [٩/ ١٥٦] (١٨٩٤٧) والسنن الواردة في الفتن للداني [١/ ٤٣٢]

(٣٧٢) حسن لغيره

إنسان بوصفه «إنساناً». فهذه الصفة - صفة الناس - هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني. وهذه الصفة يلتقي عليها البشر جميعاً: مؤمنين وكفاراً. أصدقاء وأعداء. سودا وبيضاً. عرباً وعجماً. والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل - متى حكمت في أمرهم - هذا العدل الذي لم تعرفه البشرية قط - في هذه الصورة - إلا على يد الإسلام، وإلا في حكم المسلمين، وإلا في عهد القيادة الإسلامية للبشرية.. والذي افتقدته من قبل ومن بعد هذه القيادة فلم تذق له طعماً قط، في مثل هذه الصورة الكريمة التي تتاح للناس جميعاً. لأنهم «ناس»! لا لأية صفة أخرى زائدة عن هذا الأصل الذي يشترك فيه «الناس»! وذلك هو أساس الحكم في الإسلام كما أن الأمانة - بكل مدلولاتها - هي أساس الحياة في المجتمع الإسلامي.

والتعقيب على الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل هو التذكير بأنه من وعظ الله - سبحانه - وتوجيهه. ونعم ما يعظ الله به ويوجه: «إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ».. ونقف لحظة أمام التعبير من ناحية أسلوب الأداء فيه. فالأصل في تركيب الجملة: إنه نعم ما يعظكم الله به.. ولكن التعبير يقدم لفظ الجلالة، فيجعله «اسم إن» ويجعل نعم ما «نعماً» ومتعلقاً بها، في مكان «خير إن» بعد حذف الخبر.. ذلك ليوحي بشدة الصلة بين الله - سبحانه - وهذا الذي يعظهم به..

ثم إنها لم تكن «عظة» إنما كانت «أمر».. ولكن التعبير يسميه عظة. لأن العظة أبلغ إلى القلب، وأسرع إلى الوجدان، وأقرب إلى التنفيذ المنبعث عن التطوع والرغبة والحياة! ثم يجيء التعقيب الأخير في الآية يعلق الأمر بالله ومراقبته وخشيته ورجائه: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً».. والتناسق بين المأمور به من التكليف وهو أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس وبين كون الله سبحانه «سميعاً بصيراً» مناسبة واضحة ولطيفة معاً.. فالله يسمع ويصبر، قضاي العدل وقضاي الأمانة. والعدل كذلك في حاجة إلى الاستماع البصير وإلى حسن التقدير، وإلى مراعاة الملابسات والظواهر، وإلى التعمق فيما وراء الملابسات والظواهر. وأخيراً فإن الأمر بهما يصدر عن السميع البصير بكل الأمور.^{١٢٢}

الأمانات التي يأمر الله سبحانه وتعالى بأدائها إلى أهلها، كثيرة، متنوعة، وأهلها كثيرون مختلفون! فهناك أمانة عامة حملها أبناء آدم جميعاً، هي أمانة التكليف، التي أبت عوالم السماء والأرض أن تحملها، وأشفقت من حملها، والقدرة على الوفاء بها..

^{١٢٢} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٠٣١)

وأمانة التكليف هذه، هي التي أفردت الإنسان عن سائر المخلوقات، بالعقل، الذي به أصبح الإنسان سيد نفسه، بما له من قوى التفكير، والتقدير، والإرادة.. فإن شاء تقدم، وإن شاء تأخر، حسب ما يرى ويقدر! ولهذا كان عالم الناس مجموعة عوالم، بعدد أفراد الناس، فردا، فردا..

فكل إنسان عالم وحده، في تفكيره، وتقديره، وعواطفه، ومنازعه، وسلوكه، حتى لا يكاد يتساوى إنسان وإنسان بجال أبدا.. على خلاف الكائنات الأخرى، علويها وسفليها.. كل عالم منها ينظم جميع أفرادها، التي لا يختلف.

فيها واحد عن آخر، حتى لكأنها عدد مكرر من أعداد الحساب! وهذا التفرد الذي كان للإنسان، هو طموح جامع، منته به نفسه الغرور، فارتفع إلى المستوي الرفيع الذي إن زلت به قدمه فيه، سقط من علو شاهق، وهوى إلى أسفل سافلين.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» (٤ - ٥ - ٦: التين) فالإنسان إذ حمل هذه الأمانة - أمانة التكليف - أصبح سيد الكائنات كلها، لا سيد فوقه إلا الله سبحانه وتعالى، فهو بهذا الخلق القويم الكريم ظل الله في هذا الوجود، تتخايل فيه لمحات من علم الله، وقدرته، وإرادته، وكثير من صفاته، سبحانه وتعالى علوا كبيرا عن الشبيه والمثيل!

وإذ حمل الإنسان هذه الأمانة، وتحدى الموجودات كلها، التي أشفقت من حملها، فإن من البر بنفسه، والكرامة لإنسانيته، أن يرتفع إلى هذا المستوي الكريم، وأن يرفع هذه الأمانة حق رعايتها، وأن يؤديها إلى أهلها، وهو الله سبحانه وتعالى، وذلك بالتعرف على الله والإيمان به أولا، ثم الاستقامة على طريق الحق والخير على ما شرعه الله ورسمه.

وأداء هذه الأمانة على وجهها، هو ضمان وثيق لأداء الأمانات كلها، لأن كل أمانة بعد هذا هي بعض من تلك الأمانة الكبرى، وأثر من آثارها.. فما بين الناس والناس من أمانات مادية، وعقود، وعهود.. هو مما يندرج تحت هذه الأمانة وينضوى إليها..

وقوله تعالى: «وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ» هو استنتاج لأداء بعض الأمانة التي حملها الناس.. وهي الحكم بالعدل بين الناس.. لأن العدل صفة من صفات الله، وفي الإنسان لحة من هذه الصفة..

وفي خروجه عن العدل، خيانة للأمانة التي حملها، وجناية على نفسه، وردة لها إلى أسفل سافلين. وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ» تحريض قوي على امتثال هذا الأمر الكريم، وتلك الموعظة الحسنة، لأنها دعوة من الله إلى خير، ولا يدعو الله إلا إلى الخير ولا يأمر إلا بالخير.. «ونعمًا» هي فعل

مدح، أصله «نعم» و «ما» التي هي نكرة بمعنى شيء، ليفيد هذا التنكير التعميم والشمول.. فكل ما يعظنا به الله، ويدعونا إليه هو خير، وخير مطلق.^{١٢٣}

٢٠ - القيام بأعمال البر كلها

قال تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} (١٧٧) سورة البقرة

بعد أن حوّل الله قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى البيت الحرام، شقّ ذلك على نفوس طائفة من المسلمين، وأخذ اليهود في الدسّ والتقدّبعية زعزعة ثقة المسلمين بربّهم ونبیهم ﷺ، فأوضح الله في عدد من الآيات حكمته من ذلك، وهي: أن المراد أساساً هو طاعة الله عزّ وجلّ، وامتنثال أوامره، والتوجّه حيثما أمر ووجهه، فهذا هو البرّ والتقوى والإيمان الكامل، وليس في التوجّه نحو المشرق أو المغرب بحدّ ذاته طاعة ولا برّ إن لم يكن عن شرع الله وأمره. فالبرّ يقوم بالإيمان بالله، واليوم الآخر والملائكة، والكتاب المنزل من عند الله، والإيمان بالنبیین الذين أرسلهم الله إلى الناس، وبإتفاق المال في طاعته - والإنسان حيّ سليمٌ صحيحٌ يأمل العيش، ويخشى الفقر - على ذوی قرباه، وعلى الیتامی الذين مات آباؤهم، وهم صغارٌ غیر قادرین على الكسب، وعلى المساکین الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم ومسكنهم وكسوتهم، وعلى ابن السبيل - وهو المسافر المحتار الذي نفدت نفقته - وعلى من يريد سفرًا في طاعة الله فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه، وعلى السائلين الذين يتعرضون للسؤال، وعلى العبيد المكاتبين الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم .

كما أن البرّ يقوم: بإقامة الصلاة (وإتمام أفعالها بخشوع تامّ في أوقاتها وإتمام ركوعها وسجودها)، وبدفع الزكاة، وباتمسك بالعهود والمواثيق وعدم التكتّ بها، وبالصبر في البأساء - أي في حال الفقر - وفي الضراء - أي في حال المرض -، والصبر حين البأس - أي في حالة القتال ولقاء الأعداء - .

فالذين اتّصفوا بالصفات المتقدمة هم البرّة الذين صدّقوا في إيمانهم، وفازوا برضا الله .
(وقد نصب الله تعالى الصّابرين على المدح والثناء على الصبر، والحثّ عليه لشِدَّتِه، وصُعُوبَةِ احتماله على النفوس)^{١٢٤} .

^{١٢٣} - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨١٩)

إن الإيمان بالله هو نقطة التحول في حياة البشرية من العبودية لشئى القوى، وشئى الأشياء، وشئى الاعتبارات .. إلى عبودية واحدة لله تتحرر بها النفس من كل عبودية، وترتفع بها إلى مقام المساواة مع سائر النفوس في الصف الواحد أمام المعبود الواحد ثم ترتفع بها فوق كل شيء وكل اعتبار .. وهي نقطة التحول كذلك من الفوضى إلى النظام، ومن التيه إلى القصد، ومن التفكك إلى وحدة الاتجاه. فهذه البشرية دون إيمان بالله الواحد، لا تعرف لها قصدا مستقيما ولا غاية مطردة، ولا تعرف لها نقطة ارتكاز تتجمع حولها في جد وفي مساواة، كما يتجمع الوجود كله، واضح النسب والارتباطات والأهداف والعلاقات ..

والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء وبأن حياة الإنسان على هذه الأرض ليست سدى ولا فوضى بغير ميزان. وبأن الخير لا يعدم جزاءه ولو بدا أنه في هذه الأرض لا يلقى الجزاء .. والإيمان بالملائكة طرف من الإيمان بالغيب الذي هو مفرق الطريق بين إدراك الإنسان وإدراك الحيوان، وتصور الإنسان لهذا الوجود وتصور الحيوان. الإنسان الذي يؤمن بما وراء الحس والحيوان المقيد بحسه لا يتعداه^{١٢٥} ..

والإيمان بالكتاب والنبين هو الإيمان بالرسالات جميعا وبالرسل أجمعين، وهو الإيمان بوحدة البشرية، ووحدة إلهها، ووحدة دينها، ووحدة منهجها الإلهي .. ولهذا الشعور قيمة في شعور المؤمن الوارث لتراث الرسل والرسالات.

وما قيمة إيتاء المال - على حبه والاعتزاز به - لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب؟

إن قيمته هي الانعتاق من ربة الحرص والشح والضعف والأثرة. انعتاق الروح من حب المال الذي يقبض الأيدي عن الإنفاق، ويقبض النفوس عن الأريحية، ويقبض الأرواح عن الانطلاق. فهي قيمة روحية يشير إليها ذلك النص على حب المال. وقيمة شعورية أن ييسط الإنسان يده وروحه فيما يجب من مال.

لا في الرخيص منه ولا الخبيث. فيتحرر من عبودية المال، هذه العبودية التي تستذل النفوس، وتنكس الرؤوس. ويتحرر من الحرص. والحرص يذل أعناق الرجال. وهي قيمة إنسانية كبرى في حساب الإسلام، الذي يحاول دائما تحرير الإنسان من وساوس نفسه وحرصها وضعفها قبل أن يحاول تحريره من الخارج في محيط الجماعة وارتباطاتها، يقينا منه بأن عبيد أنفسهم هم عبيد الناس وأن أحرار النفوس من الشهوات هم أحرار الرؤوس في المجتمعات! .. ثم إنها بعد ذلك كله قيمة إنسانية في محيط الجماعة

^{١٢٤} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٨٤)، بترقيم الشاملة آليا

^{١٢٥} - يراجع تفسير الآيات الأولى من سورة البقرة في الجزء الأول. (السيد رحمه الله)

.. هذه الصلة لذوي القربى فيها تحقيق لمروءة النفس، وكرامة الأسرة، ووشائج القربى. والأسرة هي النواة الأولى للجماعة.

ومن ثم هذه العناية بها وهذا التقديم .. وهي لليتامى تكافل بين الكبار والصغار في الجماعة، وبين الأقوياء فيها والضعفاء وتعويض لهؤلاء الصغار عن فقدان الحماية والرعاية الأبويتين وحماية للأمة من تشرد صغارها، وتعرضهم للفساد، وللنقمة على المجتمع الذي لم يقدم لهم برا ولا رعاية .. وهي للمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون - وهم مع ذلك ساكنون لا يسألون ضنا بماء وجوههم - احتفاظ لهم بكرامة نفوسهم، وصيانة لهم من البوار، وإشعار لهم بالتضامن والتكافل في محيط الجماعة المسلمة، التي لا يهمل فيها فرد، ولا يضيع فيها عضو .. وهي لابن السبيل - المنقطع عن ماله وأهله - واجب للنجدة في ساعة العسرة، وانقطاع الطريق دون الأهل والمال والديار وإشعار له بأن الإنسانية كلها أهل، وبأن الأرض كلها وطن، يلقي فيها أهلا بأهل، ومالا بمال، وصلة بصلة، وقرارا بقرار .. وهي للسائلين إسعاف لعوزهم، وكف لهم عن المسألة التي يكرهها الإسلام. وفي الإسلام لا يسأل من يجد الكفاية أو من يجد عملا، فهو مأمور من دينه أن يعمل ولا يسأل، وأن يقنع ولا يسأل. فلا سائل إلا حيث يعينه العمل والمال .. وهي في الرقاب إعتاق وتحرير لمن أوقعه سوء عمله في الرق بحمل السيف في وجه الإسلام - حتى يسترد حريته وإنسانيته الكريمة. ويتحقق هذا النص إما بشراء الرقيق وعتقه، وإما بإعطائه ما يؤدي به ما كاتب عليه سيده في نظير عتقه. والإسلام يعلن حربة الرقيق في اللحظة التي يطلب فيها الحرية، ويطلب مكاتبته عليها - أي أداء مبلغ من المال في سبيلها، ومنذ هذه اللحظة يصبح عمله بأجر يحسب له، ويصبح مستحقا في مصارف الزكاة، ويصبح من البر كذلك إعطاؤه من النفقات غير الزكاة .. كل أولئك ليسارع في فك رقبته، واسترداد حريته .. وإقامة الصلاة؟ ما قيمتها في مجال البر الذي هو جماع الخير؟

إن إقامة الصلاة شيء غير التولي قبل المشرق والمغرب. إنها توجه الإنسان بكليته إلى ربه، ظاهرا وباطنا، جسما وعقلا وروحا. إنها ليست مجرد حركات رياضية بالجسم، وليست مجرد توجه صوفي بالروح. فالصلاة الإسلامية تلخص فكرة الإسلام الأساسية عن الحياة. إن الإسلام يعترف بالإنسان جسما وعقلا وروحا في كيان ولا يفترض أن هناك تعارضا بين نشاط هذه القوى المكونة في مجموعها للإنسان، ولا يحاول أن يكبت الجسم لتنطلق الروح، لأن هذا الكبت ليس ضروريا لانطلاق الروح. ومن ثم يجعل عبادته الكبرى .. الصلاة.

مظهرها لنشاط قواه الثلاث وتوجهها إلى خالقها جميعا في ترابط واتساق. يجعلها قياما وركوعا وسجودا تحقيقا لحركة الجسد، ويجعلها قراءة وتدبرا وتفكيريا في المعنى والمبنى تحقيقا لنشاط العقل ويجعلها توجهها واستسلاما لله تحقيقا لنشاط الروح .. كلها في آن .. وإقامة الصلاة على هذا النحو

تذكر بفكرة الإسلام كلها عن الحياة، وتحقق فكرة الإسلام كلها عن الحياة.. في كل ركعة وفي كل صلاة.

وإيتاء الزكاة؟.. إنه الوفاء بضريبة الإسلام الاجتماعية التي جعلها الله حقاً في أموال الأغنياء للفقراء، بحكم أنه هو صاحب المال، وهو الذي ملكه للفرد بعقد منه، من شروطه إيتاء الزكاة. وهي مذكورة هنا بعد الحديث عن إيتاء المال - على حبه - لمن ذكرهم الآية من قبل على الإطلاق مما يشير إلى أن الإنفاق في تلك الوجوه ليس بديلاً من الزكاة، وليست الزكاة بديلة منه.. وإنما الزكاة ضريبة مفروضة، والإنفاق تطوع طليق.. والبر لا يتم إلا بهذه وتلك. وكلتاهما من مقومات الإسلام. وما كان القرآن ليذكر الزكاة منفردة بعد الإنفاق إلا وهي فريضة خاصة لا يسقطها الإنفاق، ولا تغني هي عن الإنفاق.

والوفاء بالعهد؟ إنه سمة الإسلام التي يحرص عليها، ويكررها القرآن كثيراً ويعدها آية الإيمان، وآية الآدمية وآية الإحسان. وهي ضرورية لإيجاد جو من الثقة والطمأنينة في علاقات الأفراد وعلاقات الجماعات وعلاقات الأمم والدول. تقوم ابتداء على الوفاء بالعهد مع الله. وبغير هذه السمة يعيش كل فرد مفزعا قلقاً لا يركن إلى وعد، ولا يطمئن إلى عهد، ولا يثق بإنسان، ولقد بلغ الإسلام من الوفاء بالعهد لأصدقائه وخصومه على السواء قمة لم تصعد إليها البشرية في تاريخها كله، ولم تصل إليها إلا على حياء الإسلام وهدى الإسلام.

والصبر في البأساء والضراء وحين البأس؟.. إنها تربية للنفوس وإعداد، كي لا تطير شعاعاً مع كل نازلة، ولا تذهب حسرة مع كل فاجعة، ولا تنهار جزعاً أمام الشدة. إنه التجمل والتماسك والثبات حتى تنقشع الغاشية وترحل النازلة ويجعل الله بعد عسر يسراً. إنه الرجاء في الله والثقة بالله والاعتماد على الله. ولا بد لأمة تناط بها القوامة على البشرية، والعدل في الأرض والصلاح، أن تهياً لمشاق الطريق ووعثائه بالصبر في البأساء والضراء وحين الشدة. الصبر في البؤس والفقر. والصبر في المرض والضعف. والصبر في القلة والنقص.

والصبر في الجهاد والحصار، والصبر على كل حال. كي تنهض بواجبها الضخم، وتؤدي دورها المرسوم، في ثبات وفي ثقة وفي طمأنينة وفي اعتدال.

ويبرز السياق هذه الصفة.. صفة الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.. يبرزها بإعطاء كلمة «الصَّابِرِينَ» وصفاً في العبارة يدل على الاختصاص. فما قبلها من الصفات مرفوع أما هي فمنصوبة على الاختصاص بتقدير: «وأخص الصابرين».. وهي لفظة خاصة لها وزنها في معرض صفات البر.. لفظة خاصة تبرز الصابرين وتميزهم، وتخصص هذه السمة من بين سمات الإيمان بالله والملائكة

والكتاب والنبين وإيتاء المال - على حبه - وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد .. وهو مقام للصابر عظيم، وتقدير لصفة الصبر في ميزان الله، يلفت الأنظار^{١٢٦} ..

وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول الاعتقاد، وتكاليف النفس والمال، وتجعلها كلا لا يتجزأ، ووحدة لا تنقسم. وتضع على هذا كله عنوانا واحدا هو «البر» أو هو «جماع الخير» أو هو «الإيمان» كما ورد في بعض الأثر. والحق أنها خلاصة كاملة للتصور الإسلامي ولمبادئ المنهج الإسلامي المتكامل لا يستقيم بدونها إسلام.

ومن ثم تعقب الآية على من هذه صفاتهم بأنهم: «أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» .. أولئك الذين صدقوا بهم في إسلامهم. صدقوا في إيمانهم واعتقادهم، وصدقوا في ترجمة هذا الإيمان والاعتقاد إلى مدلولاته الواقعة في الحياة. وأولئك هم المتقون الذين يخشون بهم ويتصلون به، ويؤدون واجبهم له في حساسية وفي إشفاق ..

وننظر نحن من خلال هذه الآية إلى تلك الآفاق العالية التي يريد الله أن يرفع الناس إليها، بمنهجه الرفيع القويم .. ثم ننظر إلى الناس وهم يناون عن هذا المنهج ويتجنبونه، ويحاربونه، ويرصدون له العداوة، ولكل من يدعوهم إليه .. ونقلب أيادينا في أسف، ونقول ما قال الله سبحانه: يا حسرة على العباد! ثم ننظر نظرة أخرى فتنجلي هذه الحسرة، على أمل في الله وثيق، وعلى يقين في قوة هذا المنهج لا يتزعزع، ونستشرف المستقبل فإذا على الأفق أمل. أمل وضيء منير. أن لا بد لهذه البشرية من أن تفيء - بعد العناء الطويل - إلى هذا المنهج الرفيع، وأن تتطلع إلى هذا الأفق الوضيء .. والله المستعان.^{١٢٧}

٢١ - نصره دين الله:

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧]
يُحِثُّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْجِهَادِ، وَيُعَلِّمُهُمْ بِأَنَّهُ يَنْصُرُهُمْ إِذَا أَخْلَصُوا النِّيَّةَ فِي قِتَالِ أَعْدَائِهِ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّهُمْ إِذَا نَصَرُوا دِينَ اللَّهَ نَصَرَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَثَبَّتْ أَقْدَامَهُمْ فِي الْحَرْبِ وَفِي الدِّينِ ..^{١٢٨}
وكيف ينصر المؤمنون الله، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت؟

^{١٢٦} - يراجع تفسير الآيات: يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ... إلى قوله تعالى -: أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة» ... في الدرس الماضي في هذا الجزء. (السيد رحمه الله)

^{١٢٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٧٤)

^{١٢٨} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٣١، بترقيم الشاملة آليا)

إن لله في نفوسهم أن تتجرد له، وألا تشرك به شيئا، شركا ظاهرا أو خفيا، وألا تستبقي فيها معه أحدا ولا شيئا، وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى، وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحرركاتها وسكناتها، وسرها وعلايتها، ونشاطها كله وخلجاتها.. فهذا نصر الله في ذوات النفوس. وإن لله شريعة ومنهاجا للحياة، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة. ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء، فهذا نصر الله في واقع الحياة.

ونقف لحظة أمام قوله تعالى: «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ».. وقوله: «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ».. وفي كلتا الحالتين. حالة القتل. وحالة النصر. يشترط أن يكون هذا لله وفي سبيل الله. وهي لفظة بديهية، ولكن كثيرا من الغبش يغطي عليها عند ما تنحرف العقيدة في بعض الأجيال. وعند ما تمتهن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص، وتنحرف عن معناها الوحيد القويم. إنه لا جهاد، ولا شهادة، ولا جنة، إلا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده، والموت في سبيله وحده، والنصرة له وحده، في ذات النفس وفي منهج الحياة.

لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا. وأن تهيمن شريعته ومنهاجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم، وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء.

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً أَيْ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - « مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ١٢٩.

وليس هنالك من راية أخرى، أو هدف آخر، يجاهد في سبيله من يجاهد، ويستشهد دونه من يستشهد، فيحقق له وعد الله بالجنة. إلا تلك الارية وإلا هذا الهدف. من كل ما يروج في الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات!

ويحسن أن يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفتة البديهية، وأن يخلصوها في نفوسهم من الشوائب التي تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة، وألا يلبسوا برايتهم راية، ولا يخلطوا بتصوورهم تصورا غريبا على ضيعة العقيدة. لا جهاد إلا لتكون كلمة الله هي العليا. العليا في النفس والضمير. والعليا في الخلق والسلوك. والعليا في الأوضاع والنظم. والعليا في العلاقات والارتباطات في كل أنحاء الحياة. وما عدا هذا فليس لله. ولكن للشيطان. وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا

استشهاد. وفيما عدا هذا ليس هنالك جنة ولا نصر من عند الله ولا تثبيت للأقدام. وإنما هو الغش وسوء التصور والانحراف.

وان عز على غير أصحاب الدعوة لله أن يتخلصوا من هذا الغش وسوء التصور والانحراف، فلا أقل من أن يخلص الدعوة إلى الله أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذي لا يتفق مع البديهة الأولى في شرط الله ..

وبعد فهذا شرط الله على الذين آمنوا. فأما شرطه لهم فهو النصر وتثبيت الأقدام. وعد الله لا يخلفه. فإذا تخلف فترة فهو أجل مقدر لحكمة أخرى تتحقق مع تحقق النصر والتثبيت^{١٣٠}. ذلك حين يصح أن المؤمنين وفوا بالشرط ثم تخلف عنهم - فترة - نصر الله: ثم نقف لحظة أمام لفظة خاصة في التعبير: «يَنْصُرُكُمْ. وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ» ..

إن الظن يذهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر، ويكون سببا فيه. وهذا صحيح. ولكن تأخير ذكره في العبارة يوحي بأن المقصود معنى آخر من معاني التثبيت. معنى التثبيت على النصر وتكاليفه. فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان، وبين الحق والضلال. فللنصر تكاليفه في ذات النفس وفي واقع الحياة.

للنصر تكاليفه في عدم الزهو به والبطر. وفي عدم التراخي بعده والتهاون. وكثير من النفوس يثبت على الحنة والبلاء. ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنعماء. وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر. ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن. والعلم لله.^{١٣١}

ذَكَرَ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ نَصَرُوا رَبَّهُمْ، نَصَرَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَثَبَّتَ أَقْدَامَهُمْ، أَيَّ عَصَمَهُمْ مِنَ الْفِرَارِ وَالْهَزِيمَةِ.

وَقَدْ أَوْضَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَبَيَّنَ فِي بَعْضِهَا صِفَاتِ الَّذِينَ وَعَدَهُمْ بِهَذَا النَّصْرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [٢٢ \ ٤٠]، ثُمَّ بَيَّنَ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا النَّصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَهُ: الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ [٢٢ \ ٤١]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [٣٠ \ ٤٧]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [٤٠ \ ٥١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْعَالِبُونَ [٣٧ \ ١٧١ - ١٧٣]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي بَيَانِ صِفَاتِ مَنْ وَعَدَهُمُ بِالنَّصْرِ فِي الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ: الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ [٢٢ \ ٤١] .

١٣٠ - تراجع الظلال في سورة الحج عند قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا» من ص ٢٤٢٤ إلى ص ٢٤٢٧ من جزء ١٧. (السيد رحمه الله)

١٣١ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٠٩٨)

يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ لَا يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَلَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَلَا يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَا يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَيْسَ لَهُمْ وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ بِالنَّصْرِ الْبَتَّةِ.

فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْأَجِيرِ الَّذِي لَمْ يَعْمَلْ لِمُسْتَأْجِرِهِ شَيْئًا، ثُمَّ جَاءَهُ يَطْلُبُ مِنْهُ الْأَجْرَةَ. فَالَّذِينَ يَرْتَكِبُونَ جَمِيعَ الْمَعَاصِي مِمَّنْ يَتَسَمَّوْنَ بِاسْمِ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُنَا - مَغْرُرُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ حِزْبِ اللَّهِ الْمَوْعُودِينَ بِنَصْرِهِ كَمَا لَا يَخْفَى.

وَمَعْنَى نَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ - نَصْرُهُمْ لِدِينِهِ وَلِكِتَابِهِ، وَسَعْيُهُمْ وَجْهَادُهُمْ فِي أَنْ تَكُونَ كَلِمَتُهُ هِيَ الْعُلْيَا، وَأَنْ تُقَامَ حُدُودُهُ فِي أَرْضِهِ، وَتُمَثَّلَ أَوَامِرُهُ وَتُجْتَنَّبَ نَوَاهِيهِ، وَيُحْكَمَ فِي عِبَادِهِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِهِ - ﷺ. ١٣٢

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» .

هو التفات من الله سبحانه وتعالى إلى المؤمنين، ودعوة منه جل شأنه إلى أن يكونوا جميعاً في هذه المتزلة التي أعدها للمجاهدين في سبيله..

فالمؤمنون الذين يقاتلون في سبيل الله إنما ينصرون الله.. فهم جند الله، الذين يحاربون من حارب الله.. ونصر المؤمنين لله، إنما هو بنصر دينه، وإقامة شريعته، ودفع الضلال والشرك والإثم، وكل ما يعترض سبيل الله، ويخالف ما أمر به..

وفي إسناد نصر الله إلى المؤمنين تكريم لهم، ورفع لقدرهم، وإنزالهم منزلة المعين لله، المؤيد له، والله سبحانه غني عن كل معين ومؤيد.. إذ كل شيء في هذا الوجود هو منه، وله.. لا يملك أحد شيئاً.. فكيف يطلب النصر من خلقه الذين لا يقوم وجودهم لحظة واحدة إلا بحفظه، ورعايته؟ إن ذلك - كما قلنا - هو تكريم للمؤمنين، وإحسان من الله إليهم. كما في قوله تعالى:

«مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» .. فالله سبحانه هو المعطى لكل ما في أيدي الناس.. ثم هو سبحانه - فضلاً وإحساناً منه - يدعوهم إلى أن يقرضوه مما أعطاهم!!.

وفي قوله تعالى: «يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» - إشارة إلى أن نصر المؤمنين لله، ليس نصراً على حقيقته، وإنما هو مظهر من مظاهر الطاعة والولاء لله..

وإلا فإن النصر الحقيقي هو الذي يمنحه الله سبحانه وتعالى المؤمنين، ويمدهم بالأسباب الممكنة لهم منه.. فهو سبحانه الذي ينصرهم على عدوهم، وثبت أقدامهم في مواقع القتال على حين يملأ قلوب الذين كفروا رعباً وفزعاً.. «وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (١٠: الأنفال) .. ومع أن هذا النصر من عند الله، فإنه محسوب للمؤمنين، يلقون عليه أحسن الجزاء في جنات النعيم. ١٣٣

١٣٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٢٥١)

١٣٣ - التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٣١٩)

قال تعالى: { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) } [غافر: ٥١، ٥٢]
يقول الله تعالى، إِنَّهُ سَيَجْعَلُ رُسُلَهُ هُمُ الْغَالِبِينَ لِأَعْدَائِهِمْ وَمُعَانِدِيهِمْ، وَإِنَّهُ سَيَنْصُرُ مَعَهُمُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ يَكُونُ بِالطَّرِيقِ التَّالِيَةِ:

- إِمَّا بِجَعْلِهِمْ غَالِبِينَ عَلَى مَنْ كَذَّبَهُمْ، كَمَا فَعَلَ بِدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .
- وَإِمَّا بِالْإِنْتِقَامِ مِنْ عَادَاهُمْ وَأَذَاهُمْ، وَإِهْلَاكِهَ إِيَّاهُمْ، وَإِنْجَائِهِ الرُّسُلَ وَالْمُؤْمِنِينَ، كَمَا فَعَلَ بِنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَمُوسَى وَلُوطٍ .
- وَإِمَّا بِالْإِنْتِقَامِ مِنْ أذى الرُّسُلِ بَعْدَ وَفَاةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، بِتَسْلِيلِ بَعْضِ خَلْقِ اللَّهِ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ الْمُجْرِمِينَ لِيَنْتَقِمُوا مِنْهُمْ، كَمَا فَعَلَ مَعَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .
- وكَمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْصُرُ رُسُلَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِدَعْوَتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَذَلِكَ يَنْصُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يَقُومُ فِيهِ الْأَشْهَادُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ، بِالشَّهَادَةِ عَلَى الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ أَبْلَغُوهُمْ رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ.^{١٣٤}

فأما في الآخرة فقد لا يجادل أحد من المؤمنين بالآخرة في هذه النهاية. ولا يجد ما يدعوه إلى المجادلة. وأما النصر في الحياة الدنيا فقد يكون في حاجة إلى جلاء وبيان.
إن وعد الله قاطع جازم: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..» .. بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذبا مطرودا، وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب، وفيهم من يلقي في الأحدود، وفيهم من يستشهد، وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد .. فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل، ويفعل بما الأفاعيل! ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور. ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير.
إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان. وهي مقاييس بشرية صغيرة. فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان. ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك. وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها. فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها. وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم وبرزوها! والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم، قربية الرؤية لأعينهم. ولكن صور النصر شتى. وقد يتلبس

^{١٣٤} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٠٦٣، بترقيم الشاملة آليا)

بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة .. إبراهيم عليه السلام وهو يلقي في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها .. أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك - في منطق العقيدة - أنه كان في قمة النصر وهو يلقي في النار. كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار. هذه صورة وتلك صورة. وهما في الظاهر بعيد من بعيد. فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب! .. والحسين - رضوان الله عليه - وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب، المفجعة من جانب؟ أكانت هذه نصرا أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة. فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصرا. فما من شهيد في الأرض تهنز له الجوانح بالحب والعطف، وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه. يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين. من المسلمين. وكثير من غير المسلمين!

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده. وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفز الألفوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزا محركا للأبناء والأحفاد. وربما كانت حافزا محركا لخطى التاريخ كله مدى أجيال.

ما النصر؟ وما الهزيمة؟ إننا في حاجة إلى أن نراجع ما استقر في تقديرنا من الصور. ومن القيم. قبل أن نسأل: أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا! على أن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة. ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة. لقد انتصر محمد - ﷺ - في حياته. لأن هذا النصر يرتبط. بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض. فهذه العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعا. من القلب المفرد إلى الدولة الحاكمة. فشاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته، ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة، ويترك هذه الحقيقة مقررّة في واقعة تاريخية محددة مشهودة.

ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية. وفق تقدير الله وترتيبه.

وهناك اعتبار آخر تحسن مراعاته كذلك. إن وعد الله قائم لرسله وللذين آمنوا. ولا بد أن توجد حقيقة الإيمان في القلوب التي ينطبق هذا الوعد عليها. وحقيقة الإيمان كثيرا ما يتجوز الناس فيها. وهي لا توجد إلا حين يخلو القلب من الشرك في كل صوره وأشكاله. وإن هنالك لأشكالا من الشرك خفية لا يخلص منها القلب إلا حين يتجه لله وحده، ويتوكل عليه وحده، ويطمئن إلى قضاء الله فيه، وقدره عليه، ويحس أن الله وحده هو الذي يصرفه فلا خيرة له إلا ما احتار الله. ويتلقى هذا بالطمأنينة والثقة والرضى والقبول. وحين يصل إلى هذه الدرجة فلن يقدم بين يدي الله، ولن يقترح عليه صورة معينة من صور النصر أو صور الخير.

فسيكل هذا كله لله. ويلتزم. ويتلقى كل ما يصيبه على أنه الخير.. وذلك معنى من معاني النصر.. النصر على الذات والشهوات. وهو النصر الداخلي الذي لا يتم نصر خارجي بدونه بحال من الأحوال.

«إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ».

وقد رأينا في المشهد السابق كيف لا تنفع الظالمين معذرتهم. وكيف باءوا باللعة وبسوء الدار. فأما صورة من صور النصر في قصة موسى فهو ذلك: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدىً وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ» ..

وكان هذا نموذجاً من نماذج نصر الله. إيتاء الكتاب والهدى. ووراثه الكتاب والهدى. وهذا النموذج الذي ضربه الله مثلاً في قصة موسى، يكشف لنا رقعة فسيحة، نرى فيها صورة خاصة من صور النصر تشير إلى الاتجاه.^{١٣٥}

وقال الطبري: "يَقُولُ الْقَائِلُ: وَمَا مَعْنَى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [غافر: ٥١] وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ قَتَلَهُ أَعْدَاؤُهُ، وَمَثَلُوا بِهِ، كَشُعْيَاءَ وَيَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا وَأَشْبَاهِهِمَا، وَمِنْهُمْ مَنْ هَمَّ بِقَتْلِهِ قَوْمُهُ، فَكَانَ أَحْسَنُ أَحْوَالِهِ أَنْ يَخْلُصَ مِنْهُمْ حَتَّى فَارَقَهُمْ نَاجِياً بِنَفْسِهِ، كَأِبْرَاهِيمَ الَّذِي هَاجَرَ إِلَى الشَّامِ مِنْ أَرْضِهِ مُفَارِقاً لِقَوْمِهِ، وَعِيسَى الَّذِي رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ إِذْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ، فَأَيُّ النَّصْرَةِ الَّتِي أَخْبَرْنَا أَنَّهُ يَنْصُرُهَا رَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهَؤُلَاءِ أَنْبِيََاؤُهُ قَدْ نَالَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَمَا نُصِرُوا عَلَى مَنْ نَالَهُمْ بِمَا نَالَهُمْ بِهِ؟ قِيلَ: إِنَّ لِقَوْلِهِ: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [غافر: ٥١] وَجْهَيْنِ كِلَاهُمَا صَحِيحٌ مَعْنَاهُ أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِمَّا بِإِعْلَانَتِهِمْ عَلَى مَنْ كَذَبْنَا وَإِظْفَارِنَا بِهِمْ، حَتَّى يَفْهَرُوا مِنْهُمْ غَلَبَةً، وَيُذَلُّوا بِالظَّفَرِ ذَلَّةً، كَالَّذِي فَعَلَ مِنْ ذَلِكَ دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ، فَأَعْطَاهُمَا مِنَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ مَا قَهَرَا بِهِ كُلَّ كَافِرٍ، وَكَالَّذِي فَعَلَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ بِإِظْهَارِهِ عَلَى مَنْ كَذَبَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَإِمَّا بِإِنْتِقَامِنَا مِنْهُمْ حَادَهُمْ وَشَاقَّهُمْ بِإِهْلَاكِهِمْ وَإِنْجَاءِ الرُّسُلِ مِنْ كَذِبِهِمْ وَعَادَاهُمْ، كَالَّذِي فَعَلَ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِنُوحٍ وَقَوْمِهِ، مِنْ تَغْرِيقِ قَوْمِهِ وَإِنْجَائِهِ مِنْهُمْ، وَكَالَّذِي فَعَلَ بِمُوسَى وَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، إِذْ أَهْلَكَهُمْ غَرَقاً، وَنَجَّى مُوسَى وَمَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ وَنَحْوَ ذَلِكَ، أَوْ بِإِنْتِقَامِنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ مُكَذِّبِيهِمْ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِنَا مِنْ بَعْدِ مَهْلِكِهِمْ، كَالَّذِي فَعَلْنَا مِنْ نُصْرَتِنَا شُعْيَاءَ بَعْدَ مَهْلِكِهِ، بِتَسْلِيطِنَا عَلَى قَتْلِهِ مَنْ سَلَطْنَا حَتَّى انْتَصَرْنَا بِهِمْ مِنْ قَتْلِهِ، وَكَفَعَلْنَا بِقَتْلِهِ يَحْيَى، مِنْ تَسْلِيطِنَا بِخُتْنَصَرٍ عَلَيْهِمْ حَتَّى انْتَصَرْنَا بِهِ

^{١٣٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٨٠)

مِنْ قَتْلِهِ لَهُ وَكَانَتْ صَارِنَا لِعِيسَى مِنْ مُرِيدِي قَتْلِهِ بِالرُّومِ حَتَّى أَهْلَكْنَاهُمْ بِهِمْ، فَهَذَا أَحَدُ وَجْهَيْهِ وَقَدْ كَانَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ يُوجِّهُهُ مَعْنَى ذَلِكَ إِلَى هَذَا الْوَجْهِ

عَنِ السُّدِّيِّ، فِي قَوْلِ اللَّهِ: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [غافر: ٥١] «قَدْ كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُؤْمِنُونَ يُقْتَلُونَ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ مَنْصُورُونَ، وَذَلِكَ أَنَّ تِلْكَ الْأُمَّةَ الَّتِي تَفْعَلُ ذَلِكَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ لَا تَذْهَبُ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ قَوْمًا فَيَنْتَصِرُ بِهِمْ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ قَتَلُوا مِنْهُمْ» وَالْوَجْهُ الْآخَرُ: أَنَّ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ عَلَى وَجْهِ الْخَبَرِ عَنِ الْجَمِيعِ مِنَ الرُّسُلِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَالْمُرَادُ وَاحِدٌ، فَيَكُونُ تَأْوِيلُ الْكَلَامِ حِينَئِذٍ: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا مُحَمَّدًا ﷺ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، كَمَا بَيَّنَّا فِيمَا مَضَى أَنَّ الْعَرَبَ تُخْرِجُ الْخَبَرَ بِلَفْظِ الْجَمِيعِ، وَالْمُرَادُ وَاحِدٌ إِذَا لَمْ تَنْصِبْ لِلْخَبَرِ شَخْصًا بَعِيْنَهُ

١٣٦١١

٢٣ - الثَّباتُ عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ وَالْإِكْتِثَارِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ...

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) { [الأنفال: ٤٥]

يُحْتِثُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الثَّباتِ عِنْدَ لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، لِتَقْوَى قُلُوبِهِمْ، وَتَثَبُّتِ نَفْسِهِمْ، وَهَذَانِ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ الْفَوْزِ وَالتَّصَرُّعِ عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي الدُّنْيَا، وَمِنْ أَسْبَابِ الْفَوْزِ بِالْفَلَاحِ وَبِرِضْوَانِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ .

وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ تَعَالَى فِي الثَّباتِ عِنْدَ لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ الْمُشْرِكِينَ، وَبِالْإِخْلَاصِ لَهُ، وَبِالْجُهْدِ فِي الْقِتَالِ، وَبِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا لِتَطْمَئِنَّ الْقُلُوبُ وَتَهْدَأَ، وَيُزِيلَ الْخَوْفُ وَالتَّرَدُّدُ وَالْقَلَقُ، كَمَا أَمَرَهُمْ بِطَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَالتَّزَامِ أَوْامِرِهِ، إِنْجَاحًا لِلْخُطَّةِ الْعَامَّةِ لِلْجَيْشِ فِي الْمَعْرَكَةِ . ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالْأَمْرِ بِالنَّزَاعِ، وَلَا يَخْتَلَفُوا، لِأَنَّ فِي التَّنَازُعِ وَالْإِخْتِلَافِ الْفُشْلَ وَالْخُذْلَانَ وَضِياعَ مَا حَقَّقَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَعْرَكَةِ { وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } . ثُمَّ يُكْرِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالتَّزَامِ الصَّبْرِ، لِأَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

وَعَلَيْكُمْ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، أَنْ تَمْتَثِلُوا لِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ مِنْ طَاعَتِهِ تَعَالَى، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﷺ، وَالتَّزَامِ أَوْامِرِهِمَا، وَلَا تَكُونُوا كَأَعْدَائِكُمُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ بَطَرًا بِمَا أَوْثُوا مِنَ النِّعْمَةِ، وَمُرَاءَاةَ لِلنَّاسِ لِيُعْجِبُوا بِهِمْ، وَيُثْنُوا عَلَيْهِمْ بِالْغِنَى وَالْقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ .. وَهُمْ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِخُرُوجِهِمُ الصَّدَّ عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْعَ النَّاسِ مِنَ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَالْحَدِّ مِنْ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِأَعْمَالِهِمْ، وَلَا يُعْزَبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ، وَسَوْفَ يُجَازِيهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ..^{١٣٧}

فهذه هي عوامل النصر الحقيقية: الثبات عند لقاء العدو. والاتصال بالله بالذكر. والطاعة لله والرسول. وتجنب التزاع والشقاق. والصبر على تكاليف المعركة. والحذر من البطر والرئاء والبغي ..
فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر. فأثبت الفريقين أغلبهما. وما يدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون وأنه يألم كما يألمون، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسينين: الشهادة أو النصر؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا وهو حريص على هذه الحياة التي لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها، ولا حياة له سواها؟! وأما ذكر الله كثيراً عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن كما أنه التعليم المطرد الذي استقر في قلوب العصبة المؤمنة، وحكاها عنها القرآن الكريم في تاريخ الأمة المسلمة في موكب الإيمان التاريخي.

ومما حكاها القرآن الكريم من قول سحرة فرعون عند ما استسلمت قلوبهم للإيمان فجاءة، فواجههم فرعون بالتهديد المروع البشع الطاغوي، قولهم: «وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا. رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ» ..

ومما حكاها كذلك عن الفئة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل، وهي تواجه جالوت وجنوده: «وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا: رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ» ..
ومما حكاها عن الفئات المؤمنة على مدار التاريخ في مواجهة المعركة: «وَكَايْنِ مِنْ نَبِيِّ قَاتِلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ. وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا، وَتَبَّتْ أَعْدَامُنَا، وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» ..

ولقد استقر هذا التعليم في نفوس العصبة المسلمة فكان هذا شأنها حيثما واجهت عدوا. وقد حكى الله - فيما بعد - عن العصبة التي أصابها القرح في «أحد» فلما دعيت إلى الخروج ثاني يوم، كان هذا التعليم حاضرا في نفوسها: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» ..

إن ذكر الله عند لقاء العدو يؤدي وظائف شتى: إنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب والثقة بالله الذي ينصر أوليائه .. وهو في الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها، فهي معركة لله، لتقرير ألوهيته في الأرض، وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية وإذن فهي معركة لتكون كلمة

^{١٣٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٠٦)، بترقيم الشاملة آليا

الله هي العليا لا للسيطرة، ولا للمغنم، ولا للاستعلاء الشخصي أو القومي .. كما أنه تؤكد لهذا الواجب - واجب ذكر الله - في أخرج الساعات وأشد المواقف .. وكلها إحياءات ذات قيمة في المعركة يحققها هذا التعليم الرباني.

وأما طاعة الله ورسوله، فلن يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداء فتبطل أسباب التراجع التي أعقبت الأمر بالطاعة: «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ» .. فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار. فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للتراجع بينهم - مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة - فليس الذي يثير التراجع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصبر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها! وإنما هو وضع «الذات» في كفة، والحق في كفة وترجيح الذات على الحق ابتداء! .. ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة .. إنه من عمليات «الضبط» التي لا بد منها في المعركة .. إنما طاعة القيادة العليا فيها، التي تنبثق منها طاعة الأمير الذي يقودها. وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية في الجيوش التي لا تجاهد لله، ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها لله أصلاً .. والمسافة كبيرة كبيرة ..

وأما الصبر. فهو الصفة التي لا بد منها لخوض المعركة .. أية معركة .. في ميدان النفس أم في ميدان القتال.

«وَاصْبِرُوا، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» .. وهذه المعية من الله هي الضمان للصابرين بالفوز والغلب والفلاح ..

ويبقى التعليم الأخير: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» ..

يبقى هذا التعليم ليحمي العصبية المؤمنة من أن تخرج للقتال متبطرة طاغية تتعاجب بقوتها! وتستخدم نعمة القوة التي أعطها الله لها في غير ما أرادها .. والعصبية المؤمنة إنما تخرج للقتال في سبيل الله تخرج لتقرير ألوهيته سبحانه في حياة البشر، وتقرير عبودية العباد لله وحده. وتخرج لتحطيم الطواغيت التي تغتصب حق الله في تعبيد العباد له وحده، والتي تزاوّل الألوهية في الأرض. بمزاوّلتها للحاكمية - بغير إذن الله وشرعه - وتخرج لإعلان تحرير «الإنسان» في «الأرض» من كل عبودية لغير الله، تستندل إنسانية الإنسان وكرامته.

وتخرج لحماية حرمان الناس وكراماتهم وحرقاتهم، لا للاستعلاء على الناس واستعبادهم والتبطر بنعمة القوة باستخدامها هذا الاستخدام المنكر. وتخرج متجردة من حظ نفسها في المعركة جملة، فلا يكون لها من النصر والغلب إلا تحقيق طاعة الله في تلبية أمره بالجهاد وفي إقامة منهجه في الحياة وفي إعلاء

كلمته في الأرض وفي التماس فضله بعد ذلك ورضاه .. حتى الغنائم التي تخلفها المعركة فهي من فضل الله ..

ولقد كانت صورة الخروج بطرا ورتاء الناس وصدا عن سبيل الله حاضرة أمام العصابة المسلمة يرونها في خروج قريش بالصورة التي خرجت بها كما كانت صورة العاقبة لهذا الخروج حاضرة فيما أصاب قريشا التي خرجت في ذلك اليوم بفخرها وعزها وكبريائها تحاد الله ورسوله: وعادت في آخر اليوم بالذل والخيبة والانكسار والهزيمة .. وكان الله سبحانه يذكر العصابة المسلمة بشيء حاضر له وقعه وله إيجازه: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ. وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» ..

والبطر والمراعاة والصد عن سبيل الله تتجلى كلها في قوله أبي جهل، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَمَّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنَّهُ قَدْ أَحْرَزَ عِيْرَهُ أَرْسَلَ إِلَى قُرَيْشٍ: إِنَّكُمْ إِنَّمَا خَرَجْتُمْ لَتَمْنَعُوا عِيْرَكُمْ وَرِجَالَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ فَقَدْ نَجَّاهَا اللَّهُ فَارْجِعُوا، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا - وَكَانَ بَدْرٌ مَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ، يَجْتَمِعُ لَهُمْ بِهِ سُوقٌ كُلِّ عَامٍ - فَتَقِيمُ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَتَنْحَرُ الْجُزُرُ الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا وَجَمْعِنَا، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا بَعْدَهَا، فَاْمَضُوا .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَمَّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنَّهُ قَدْ أَحْرَزَ عِيْرَهُ أَرْسَلَ إِلَى قُرَيْشٍ: إِنَّكُمْ إِنَّمَا خَرَجْتُمْ لَتَمْنَعُوا عِيْرَكُمْ وَرِجَالَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ فَقَدْ نَجَّاهَا اللَّهُ فَارْجِعُوا، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا - وَكَانَ بَدْرٌ مَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ، يَجْتَمِعُ لَهُمْ بِهِ سُوقٌ كُلِّ عَامٍ - فَتَقِيمُ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَتَنْحَرُ الْجُزُرُ الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا وَجَمْعِنَا، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا بَعْدَهَا، فَاْمَضُوا .

وَقَالَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ وَهَبٍ الثَّقَفِيُّ، وَكَانَ حَلِيفًا لِبَنِي زُهْرَةَ وَهُمْ بِالْجُحْفَةِ يَا بَنِي زُهْرَةَ قَدْ نَجَّى اللَّهُ لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَخَلَّصَ لَكُمْ صَاحِبَكُمْ مَخْرَمَةَ بْنِ نُوفَلٍ وَإِنَّمَا نَفَرْتُمْ لَتَمْنَعُوهُ وَمَالَهُ فَاجْعَلُوا لِي جُبْنَهَا وَارْجِعُوا، فَإِنَّهُ لَا حَاجَةَ لَكُمْ بِأَنْ تَخْرُجُوا فِي غَيْرِ ضَيْعَةٍ لَا مَا يَقُولُ هَذَا، يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ. فَارْجِعُوا، فَلَمْ يَشْهَدْهَا زُهْرِيُّ وَاحِدٌ أَطَاعُوهُ وَكَانَ فِيهِمْ مُطَاعًا. وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ مِنْ قُرَيْشٍ بَطْنٌ إِلَّا وَقَدْ نَفَرَ مِنْهُمْ نَاسٌ إِلَّا بَنِي عَدِيٍّ بْنِ كَعْبٍ، لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَارْجَعَتْ بَنُو زُهْرَةَ مَعَ الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيْقٍ، فَلَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا مِنْ هَاتَيْنِ الْقَبِيلَتَيْنِ أَحَدٌ، وَمَشَى الْقَوْمُ. وَكَانَ بَيْنَ طَالِبِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - وَكَانَ فِي الْقَوْمِ - وَبَيْنَ بَعْضِ قُرَيْشٍ مُحَاوَرَةً فَقَالُوا: وَاللَّهِ لَقَدْ عَرَفْنَا يَا بَنِي هَاشِمٍ وَإِنْ خَرَجْتُمْ مَعَنَا، أَنْ هَوَاكُم لَمَعَ مُحَمَّدٌ. فَارْجَعَ طَالِبٌ إِلَى مَكَّةَ مَعَ مَنْ رَجَعَ. وَقَالَ طَالِبُ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ لَا هُمْ إِمَّا يَعْزَوْنَ طَالِبٌ... فِي عُصْبَةٍ مُحَالِفٍ مُحَارِبٍ فِي مِقْنَبٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَانِبِ... فَلْيَكُنِ الْمَسْلُوبُ غَيْرَ السَّالِبِ

وَلَيْكُنُ الْمَغْلُوبُ غَيْرَ الْغَالِبِ..^{١٣٨}

وصحت فراسة أبي سفيان، وأصاب محمد - ﷺ - النفي وذل المشركون بالبطر والبغي والرياء والصد عن سبيل الله وكانت بدر قاصمة الظهر لهم: «وَاللَّهِ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» .. لا يفوته منهم شيء، ولا يعجزه من قوتهم شيء، وهو محيط بهم وبما يعملون. ويمضي السياق يصور وسوسة الشيطان للمشركين وإغراءهم بهذا الخروج الذي نالهم منه ما نالهم من الذل والخيبة والخسار والانكسار: «وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ، وَقَالَ: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ، فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ، وَقَالَ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ، إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ» ..

ولقد وردت في هذه الآية والحادث الذي تشير إليه عدة آثار ليس من بينها حديث عن رسول الله - ﷺ - إلا ما رواه مالك في الموطأ عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن طلحة بن عبد الله بن كُرَيْزٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ، وَلَا أَذْخَرُ، وَلَا أَحْقَرُ، وَلَا أَغِيْظُ مِنْهُ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا مِمَّا يَرَى مِنْ تَنْزُلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنِ الذُّنُوبِ إِلَّا مَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الَّذِي رَأَى مِنْ يَوْمٍ بَدْرٍ؟، قَالَ: " رَأَى جِبْرِيلُ يَزْعُ الْمَلَائِكَةَ " . يَعْنِي: يَرُدُّ "١٣٩..

وعن طلحة بن عبد الله بن كُرَيْزٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ، وَلَا أَذْخَرُ، وَلَا أَحْقَرُ، وَلَا أَغِيْظُ مِنْهُ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا مِمَّا يَرَى مِنْ تَنْزُلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنِ الذُّنُوبِ إِلَّا مَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ "١٤٠

وفي هذا الأثر عبد الملك بن عبد العزيز بن الماحشون، وهو ضعيف الحديث، والخبر مرسل.

فأما سائر الآثار فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - من طريق علي بن أبي طلحة وطريق ابن جريح. وعن عروة بن الزبير من طريق ابن إسحاق. وعن قتادة من طريق سعيد بن جبيرة. وعن الحسن وعن محمد بن كعب. وهذه أمثلة منها من رواية ابن جرير الطبري عن ابن عباس، في قوله عز وجل: وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، قَالَ: أَقْبَلْتُ عِيرَ أَهْلِ مَكَّةَ تُرِيدُ الشَّامَ، فَبَلَغَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ذَلِكَ، فَخَرَجُوا وَمَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُونَ الْعِيرَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَهْلَ مَكَّةَ فَاسْرَعُوا السَّيْرَ إِلَيْهَا لِكَيْلَا يَغْلِبَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، فَسَبَقَتِ الْعِيرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَهُمْ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَكَانُوا أَنْ يَلْقُوا الْعِيرَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ، وَأَيْسَرُ شَوْكَةً، وَأَحْضَرُ مَغْنَمًا، فَلَمَّا سَبَقَتِ الْعِيرُ وَفَائَتْ سَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمُسْلِمِينَ يُرِيدُ الْقَوْمَ، فَكَرِهَ الْقَوْمَ مَسِيرَهُمْ لَشَوْكَةِ الْقَوْمِ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَاءِ رَمْلَةٌ دَعَصَةٌ، فَأَصَابَ الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ شَدِيدٌ، وَأَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِهِمُ الْعَيْظَ

^{١٣٨} - سيرة ابن هشام [١/ ٦١٨]

^{١٣٩} - شعب الإيمان [٥/ ٤٩٨] (٣٧٧٥) صحيح مرسل وعبد العزيز قد توبع كما في الرواية الثانية فلا يجوز رده

^{١٤٠} - شعب الإيمان [٥/ ٤٩٨] (٣٧٧٥) صحيح مرسل

يُوسِسُهُمْ: تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَقَدْ غَلَبَكُمْ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمَاءِ وَأَنْتُمْ كَذَا، فَأَمْطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَطَرًا شَدِيدًا، فَشَرِبَ الْمُسْلِمُونَ وَتَطَهَّرُوا، فَأَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ، وَصَارَ الرَّمْلُ كَدًّا - ذَكَرَ كَلِمَةً أَخْبَرَ أَنَّهُ أَصَابَهُ الْمَطَرُ - وَمَشَى النَّاسُ عَلَيْهِ وَالِدُّوَابُّ فَسَارُوا إِلَى الْقَوْمِ، وَمَدَّ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَمْسِمَائَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُجَنَّبَةً، وَمِيكَائِيلُ فِي حَمْسِمَائَةٍ مُجَنَّبَةٍ، وَجَاءَ إِبْلِيسُ فِي جُنْدٍ مِنَ الشَّيَاطِينِ، مَعَهُ رَايَةٌ فِي صُورَةِ رِجَالٍ مِنْ بَنِي مُدَلِّجٍ، وَالشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ، فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلْمُشْرِكِينَ: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ، فَلَمَّا اصْطَفَى الْقَوْمُ قَالَ أَبُو جَهْلٍ: اللَّهُمَّ أَوْلَانَا بِالْحَقِّ فَأَنْصُرْهُ، وَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ: "يَا رَبُّ، إِنَّ تَهْلُكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا"، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: خُذْ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ تُّرَابٍ فَرَمَى بِهَا وَجُوهَهُمْ، فَمَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا أَصَابَ عَيْنَيْهِ وَمَنْخَرِيهِ وَفَمَهُ تُّرَابٌ مِنْ تِلْكَ الْقَبْضَةِ. فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَأَقْبَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى إِبْلِيسَ، فَلَمَّا رَأَاهُ وَكَانَتْ يَدُهُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، انْتَرَعَ إِبْلِيسُ يَدَهُ ثُمَّ وَلَّى مُدْبِرًا وَشَبَّعَتْهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا سُرَاقَةُ، أَلَمْ تَزْعَمْ أَنَّكَ لَنَا جَارٌ؟ قَالَ: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ، وَذَلِكَ حِينَ رَأَى الْمَلَائِكَةَ" ١٤١.

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ، ثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُوْمَانَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: "لَمَّا أَجْمَعَتْ قُرَيْشُ الْمَسِيرَ ذَكَرَتْ الَّذِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَنِي بَكْرٍ يَعْنِي مِنَ الْحَرْبِ فَكَادَ ذَلِكَ أَنْ يُشَبِّطَهُمْ، فَتَبَدَّى لَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ جُعْشَمٍ الْمُدَلِّجِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَشْرَافِ بَنِي كِنَانَةَ، فَقَالَ: أَنَا جَارٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَأْتِيَكُمْ كِنَانَةُ بِشَيْءٍ تَكْرَهُوْنَهُ، فَخَرَجُوا سِرَاعًا" ١٤٢.

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: "لَمَّا أَجْمَعَتْ قُرَيْشُ عَلَى السَّيْرِ، قَالُوا: إِنَّمَا نَتَخَوَّفُ مِنْ بَنِي بَكْرٍ. فَقَالَ لَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ: أَنَا جَارٌ لَكُمْ مِنْ بَنِي بَكْرٍ، وَلَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ" فَتَأَوَّلَ الْكَلَامَ: وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ وَحِينَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ خُرُوجَهُمْ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لِحَرْبِكُمْ وَقِتَالِكُمْ، وَحَسَنَ ذَلِكَ لَهُمْ، وَحَنَّهُمْ عَلَيْكُمْ وَقَالَ لَهُمْ: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَاطْمَئِنُّوا وَأَبْشِرُوا، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ مِنْ كِنَانَةَ أَنْ تَأْتِيَكُمْ مِنْ وَرَائِكُمْ فَتُغَيِّرَكُمْ أُحِيرُكُمْ وَأَمْنَعُكُمْ مِنْهُمْ، وَلَا تَخَافُوهُمْ، وَاجْعَلُوا جَدَّكُمْ وَبَاسَكُمْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ. فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ يَقُولُ: فَلَمَّا تَرَاخَفَتْ جُنُودُ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَجُنُودُ الشَّيْطَانِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ يَقُولُ: رَجَعَ الْقَهْقَرَى عَلَى قَفَاهُ هَارِبًا، يُقَالُ مِنْهُ: نَكَصَ يَنْكُصُ وَيَنْكُصُ نُكُوصًا، وَمِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ:

١٤١ - دَلَائِلُ الثَّبُوتِ لِلْبَيْهَقِيِّ << بَابُ التَّقَاءِ الْجَمْعَيْنِ وَتُرُودِ الْمَلَائِكَةِ >> (٩٣٦) حسن

١٤٢ - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبْرِيِّ << سُورَةُ الْأَنْفَالِ >> الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ << (١٤٨٥١) حسن مرسل

هُمْ يَضْرِبُونَ حَبِيبَكَ الْبَيْضَ إِذْ لَحِقُوا لَا يَنْكُصُونَ إِذَا مَا اسْتَلْحِمُوا وَحَمُوا
وَقَالَ لِلْمُشْرِكِينَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ يَعْنِي: أَنَّهُ يَرَى الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ بَعَثَهُمُ اللَّهُ مَدَدًا
لِلْمُؤْمِنِينَ، وَالْمُشْرِكُونَ لَا يَرَوْنَهُمْ إِنِّي أَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ، وَكَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ" ١٤٣
وَعَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: "وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ إِلَى قَوْلِهِ: شَدِيدُ الْعِقَابِ قَالَ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ
تَنْزِلَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ، فَزَعَمَ عَدُوُّ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يَدَّ لَهُ بِالْمَلَائِكَةِ، وَقَالَ: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ
وَكَذَبَ وَاللَّهُ عَدُوُّ اللَّهِ، مَا بِهِ مَخَافَةُ اللَّهِ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّ لَا قُوَّةَ لَهُ وَلَا مَنَعَةَ لَهُ، وَتِلْكَ عَادَةُ عَدُوِّ اللَّهِ
لِمَنْ أَطَاعَهُ وَاسْتَعَاذَ بِهِ، حَتَّى إِذَا اتَّقَى الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ أَسْلَمَهُمْ شَرَّ مُسْلِمٍ وَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ" ١٤٤ ..
وكذب والله عدو الله، ما به مخافة الله، ولكن علم أن لا قوة له ولا منعة له، وتلك عادة عدو الله لمن
أطاعه واستقاد له، حتى إذا اتقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم، وتبرأ منهم عند ذلك.

ونحن - على منهجنا في هذه الظلال - لا نتعرض لهذه الأمور الغيبية بتفصيل لم يرد به نص قرآني أو
حديث نبوي صحيح متواتر ١٤٥. فهي من أمور الاعتقاد التي لا يلتزم فيها إلا بنص هذه درجته. ولكننا
في الوقت ذاته لا نقف موقف الإنكار والرفض ..

وفي هذا الحادث نص قرآني يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم، وشجعهم على الخروج
بإعلان إجارتهم لهم ونصرتهم إياهم وأنه بعد ذلك - لما تراءى الجمعان أي رأى أحدهما الآخر -
«نكص على عقبيه وقال: إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب»
.. فخذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم، ولم يوف بعهدده معهم ..

ولكننا لا نعلم الكيفية التي زين لهم بها أعمالهم، والتي قال لهم بها: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني
جار لكم. والتي نكص بها كذلك وقال ما قاله بعد ذلك .. الكيفية فقط هي التي لا نجزم بها. ذلك أن
أمر الشيطان كله غيب ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء في أمره إلا في حدود النص المسلم. والنص هنا لا
يذكر الكيفية إنما يثبت الحادث .. ١٤٦

شهد المسلمون في موقعة بدر أمداد السماء تنزل عليهم، وتضع بين أيديهم هذا النصر المبين، الذي
كان مفتتح انتصاراتهم التي ستجىء بعد هذا، فيما يدور بينهم وبين المشركين والكافرين من قتال ..

١٤٣ - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبْرِيِّ < سُورَةُ الْأَنْفَالِ > الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
< (١٤٨٥٨) حسن مرسل

١٤٤ - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبْرِيِّ < سُورَةُ الْأَنْفَالِ > الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
< (١٤٨٥٣) حسن مرسل

١٤٥ - لكن هذا الخبر ورد من طرق متعددة يقوي بعضها البعض، فيصلح للحجية

١٤٦ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٦٦) ، قلت : يمكن مراجعة كتابي " الإيمان بالجن
بين الحقيقة والتهويل "

ولئلا يغلب على المسلمين هذا الشعور الذي استولى عليهم يوم بدر، من عون الله لهم، وإمدادهم بالملائكة تقاتل معهم - لئلا يغلب هذا الشعور عليهم، ويسلمهم إلى التواكل والثقة بضمان النصر من غير إعداد وجهاد وبلاء، فقد أراهم الله في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» - أراهم الطريق الذي يأخذونه لتحقيق النصر الذي ينشدونه، ورسم لهم الدستور الذي يستقيمون عليه ليكون لهم الغلب الذي يرجونه..

فالثبات للعدو، والتصميم على لقاءه في عزم وإصرار، دون أن يقع في النفس أي هاجس يهيجس بها للفرار، أو التراجع، أو أخذ الجانب اللين من مواقف القتال - هو السلاح العامل عمالا لعمله كثيرة العدد والعدد، لكسب المعركة، وتحقيق النصر..

ولن يكون ذلك الموقف متاحا للإنسان وهو يواجه وجوه الموت، إلا إذا شدّ عزمه بالإيمان بالله، وملاً قلبه يقينا بالجزاء الذي أعدّه الله له، ومن هنا كان ذكر الله، والإكثار من ذكره في هذا الوطن، هو الزاد الذي يتزوّد به المجاهد، للصبر على الشدائد، والثبات في وجه الموت الذي يراه رأى العين، فيما يقع بين يديه من جثث وأشلاء..

فذكر الله سبحانه وتعالى، في هذا الوطن الذي تصرخ فيه في كيان الإنسان دواعي الحرص على الحياة، وطلب السلامة، وحب البقاء - هو الذي يمسك الإنسان على البلاء، ويسوّغ له طعم الموت، والاستشهاد في سبيل الله، ابتغاء الفوز برضاه، ولقائه - جلّ شأنه - على الوعد الذي وعد به المجاهدين في سبيله! ومن أجل هذا كان الفرسان والأبطال، يصحبون معهم من يؤثرون بالحب، من زوجات وخليلات، ليكون في صحبتهم لهم تذكير حتى بالموقف الذي يجب أن يأخذوه في ميدان القتال، حتى يكونوا موضع إعجاب وتقدير، عند من يحبونهم ويفعلون الشيء الكثير الذي يرضيهم، ويترّ لهم من قلوبهم منزل الإعزاز والإكبار.. فإذا لم يكن في صحبة البطل زوجه أو خليلته، استحضر صورتها في خياله، وتمثل شخصها حاضرا معه، يشهد بلاءه واستبساله.. يقول عنترة لمحبوبته.. عبلّة:

ولقد ذكرتكَ والرّماح كأنّها... أشطان بئر في لبات الأدهم
ما زلت أرميهم بشجرة نحره... ولباته حتى تسربل بالدم
ويقول أيضا:

ولقد ذكرتكَ والرماح نواهل... منى، وبيض الهند تقطر من دم
فوددت تقبيل السيوف لأتّها... لمعت كبارق ثغرك المتبسم
ويقول الحارث بن حلزة أحد أصحاب المعلقات:
على آثارنا بيض كرام... نحاذر أن تفارق أو تهونا
يقتن جيانا ويقلن لستم... بعولتنا إذا لم تمنعونا

فكيف إذ ذكر المؤمن ربّه، واستحضر جلاله، وعظمته، في هذا الموقف الذي ينتصر فيه لله، ويجاهد في سبيله، ويعمل على مرضاته، ويطلب المثوبة من جزيل عطاياه؟ إن الذي يذكر الله في هذا الوطن، ذكرًا ينبعث من قلبه، ويتحرك من وجدانه - يستخفّ بالموت، ويلذّ له طعمه، ويجد أن حياته التي يقدمها لله ليست شيئًا إلى جانب الحياة الأخرى التي هو صائر إليها، وواحد ما قدّم لها.. وهذا هو الذي أمسك بالمجاهدين في سبيل الله على حياض الموت، فكتبوا بدمائهم تلك الوثائق الخالدة على الزمن، في التضحية والفداء.

هذا عن المجاهد مع خاصة نفسه..

ولكن المسلم لا يقاتل وحده، وإنما هو واحد في جماعة المجاهدين الذين يقاتل معهم، ويستند إليهم، ويستندون إليه..

ومن هنا كان من تمام البناء لتلك القوة التي يلقي بها المسلمون عدوهم أن يكونوا صفًا واحدًا، تمسك به مشاعر واحدة، فلا يتوزعهم الخلاف، ولا يمزق وحدة مشاعرهم التراع، فذلك أمر إن وقع في جماعة أذهب ريحها، وحلّ عزيمتها، وأفسد تدبيرها، ومكّن للعدو منها، مهما كانت القوة التي عليها أفرادها، والبلاء الذي يعطيه كل فرد منها في ميدان المعركة..

ولهذا جاء قوله تعالى: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» - جاء ليشدّ تلك الجماعة بعضها إلى بعض، بعد أن شدّ كل فرد فيها إلى موطن العزم والصبر، من نفسه.

ثم إنه لكي يقوم للمسلمين شاهد حسّي، يشهد لهم بمفعول هذه الوصاة الكريمة التي وصاهم الله بها، أفرادًا وجماعة - فقد أراهم الله ما حلّ بالمشركين من بلاء، وما أصيبوا به من خذلان، وأن ذلك كان لما وقع بينهم من تنازع في الرأي واختلاف في الحساب والتقدير..

وقد صحب المشركين هذا التنازع وذلك الخلاف منذ خرجوا من مكة إلى أن التقوا بالمسلمين في بدر، فكانوا شيعة وأحزابًا، لكل شبيعة رأيها في الموقف، وتقديرها له، ولكل حزب حسابه وتقديره.. فكثّر فيهم القائلون، بآلًا حاجة لهم في القتال بعد أن سلمت العير، ومن قائل: لا بد من القتال.. ثأرًا لكرامة قريش وهيبته، كما يروى عن أبي جهل حين تنادى بعض المشركين بالرجوع عن الحرب وقد سلمت لهم العير، فقال: «والله لا نرجع حتى نرد بدرًا فنقيم ثلاثًا، فننحر الجزر، وننطمع الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا!!»..

ومن بين هذين الرأيين طارت شرارات الشقاق والخصام، وتناثرت كلمات التلاحي والتنازع، فتحرّكت في الصدور عداوات قديمة، وانبعثت من مرقدها فتن كانت نائمة.. وهكذا دخل القوم المعركة، وهم على تلك الحال، من تفرق الكلمة، وتمزق الوحدة، في الرأي والمشاعر.. وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى محذّرًا للمسلمين من أن يكون منهم مثل هذا الموقف، في لقاء يكون بينهم وبين عدوهم..

يقول الله سبحانه: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» .

فما خرج هؤلاء القوم دفاعا من حق، أو انتصارا لمبدأ، وإنما الذي أخرجهم هو البطر، أي الكبر، والكفر بنعمة الله، ثم ما يحدث به الناس عنهم من أنهم أولو قوة وأولو بأس شديد، حين يرى الناس منهم ما جمعوا من مقاتلين، وما حملوا من سلاح وعتاد، ثم ما يقع لهم من هذا التدبير الذي دبوره، وهو الوقوف في وجه تلك الدعوة التي كانت شجى في حلوقهم، وقذى في أعينهم! هذا ما أخرج القوم للقتال، وهذا ما خرجوا له.. ومن أجل هذا كان الخلاف بينهم، والتفرق في وحدتهم، والتمزق في مشاعرهم.. كل يأخذ الموقف الذي يشبع غروره وكبره، ويشهد الناس منه منزلته في قومه، وكلمته المسموعة في رهطه.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ» فهذا هو الشعور الذي غلب على رؤساء القوم وأصحاب الكلمة فيهم.. أما عامتهم فكانوا تبعاً لأهواء سادتهم، لا يقوم في كيان أحدهم شعور بمبدأ يقاتل عليه، وينتصر له..

أما قوله تعالى: «وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» فذلك هو الجرم الذي اشترك فيه القوم جميعاً، رؤساء ومرءوسين.. فكانوا جميعاً جيشاً مقاتلاً للدعوة الإسلامية، وحصرها في أضيق الحدود.. أما البطر، ومراعاة الناس فكان لونا اصطبع به بعضهم دون بعض، وغاية عمل لها أناس دون آخرين.. ولهذا اختلف النظم، لأن البطر والرياء شأنهم دائماً فعبر عنهما القرآن بالمصدر، الذي يفيد الثبوت والاستمرار، وأما الصدد عن سبيل الله، فهو أمر جدّ عليهم بعد ظهور النبيّ فعبر عنه بالفعل، الذي يفيد الحدوث والتجدد: «وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» .

وقوله تعالى: «وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ» . الآية معطوفة على قوله تعالى: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ» أي لا تكونوا كهؤلاء القوم الذين خرجوا على تلك الصفة، ولهذا الوجه، ولا تكونوا كهؤلاء على تلك الحال التي خرجوا فيها وقد زين لهم الشيطان أعمالهم.. فهؤلاء إنما خرجوا متبعين أهواءهم، منقادين للشيطان الذي دعاهم، فاستجابوا له، وأعطوه زمامهم، بعد أن ملأ صدورهم أملاً كاذباً، بأنهم قوة لا تغلب، بما هم عليه من عدد وعدة! فكيف إذا كان هو جاراً لهم، وسندا وظهيراً في ميدان القتال معهم؟

«فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ» أي التقى الفئتان، ورأى بعضهم بعضاً، والفئتان هما: المسلمون، والمشركون.. «نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ» أي رجع الشيطان إلى الوراء، يمشى القهقري، وهو ينظر إليهم كما ينظر الغريم إلى غريمه وقد أوقعه في حفرة، وتركه لمصيره الذي ينتظره.

«وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ» إنها أحجار يقذف بها الشيطان في وجه القوم بعد أن ألقى بهم في هذه الحفرة..

إنه برىء مما حلّ بهم، أو سيحلّ من بلاء، يراه قبل أن يروه.. فلقد رأى الملائكة تأخذ مكانها في ميدان المعركة مع المسلمين، وإن ذلك ليعنى عنده أن القوم قد أصبحوا في الهالكين!!

وهكذا يتبرأ الشيطان منهم، كما يتبرأ من فعلته التي فعلها بهم.. إنه يخاف الله، ويخاف ما يحلّ به من عقاب الله، وإنه لعقاب شديد! والسؤال هنا:

كيف يعلن الشيطان أنه يخاف الله، ويخشى عقابه الشديد، وهو قائم على عصيان الله ومحادثته، بفتنة الناس، وإغوائهم بالضلال، وصدّهم عن سبيل الله؟ أهذا يكون ممن يعترف بالله، ويخشى عقابه؟ والجواب: أن الشيطان معترف بوجود الله، مؤمن بسلطانه وسطوته، ولكنه مبتلى بعصيان الله في بني آدم وإغوائهم، وإفساد ما بينهم وبين الله..

هكذا كان قضاء الله، فيما بينه وبين آدم، وذرية آدم..

لقد عصى الله إذ أمره بالسجود لآدم..

فكان أن لعنه الله، وطرده من مواقع رحمته، ومواطن رضوانه..

ومن هنا بدأ إبليس ينتقم لنفسه من آدم وذريته، إذ كان بسببه، هذا الذي أنزله الله به من عقاب. وقد طلب إبليس من الله أن ينظره إلى يوم يبعثون، ليفسد هذا الإنسان الذي فضّله الله عليه، وطرده إبليس من رحمته بسببه..

وكان هذا من إبليس تحدياً لله، وإمعاناً في الضلال: «وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً». وتزيين الشيطان للمشرّكين، وقوله لهم: «لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ» هو مما وسوس لهم به في صدورهم من ضلال، وما ألقى إلى سفهائهم من غرور، حتى لقد تمثلت تلك الوسوسة خواطر تتحرك في مشاعر القوم، وحتى لقد تخلّقت هذه الخواطر فكانت قولاً، يجرى على ألسنة القوم، ويتنادون به.. وأنهم لن يغلبوا..

فموقف الشيطان وأعدائه في صفوف المشرّكين، هو مقابل لموقف الملائكة في صفوف المؤمنين.. ولكن شتان بين موقف وموقف.. فالشيطان يغري بالباطل، ويمدّ بالضلال، ويعين بالكاذب.. أما الملائكة، فقد طلعت على المسلمين بريح القوة، وهبّت بأنسام النصر، فملأت قلوب المسلمين أمناً وطمأنينة، فثبتت من أقدامهم، وقوت من عزائمهم، وأطمعتهم في عدوّهم.. فكان لهم الظفر بعدوّهم..

وفي هذا يقول الله تعالى: «قَالَ فَاحْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لَأُمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ»

(٧٧:٨٥ ص)

وهكذا يقضى الله سبحانه وتعالى بين إبليس وبين أبناء آدم. يغريه بهم، ويسلطه عليهم، ليخزيه آخر الأمر، وليريه من أبناء آدم ما يزيده حسرة وحزنا، فيما يرى مما لله في أبناء آدم من أصفياء وأولياء، أنزلهم منازل رضوانه، وفتح لهم أبواب جنّاته، يلقون فيها ما أعدّ لهم من نعيم مقيم..

وفي هذا يقول الله تعالى: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢: الحجر)

..

فإذا كان لإبليس أولياء من بنى آدم، يؤدّي فيهم رسالته الضالّة المفسدة، فإن في أبناء آدم من يقف له بالمرصاد، ويلبسه لباس الذلة والخزي! وعلى هذا، فإن الشيطان إذ يغوى الغاوين من أبناء آدم، وإذ يدفع بهم إلى مواطن الضلال - إنما يؤدّي رسالته التي تخيرها لنفسه فيهم، وهو يعلم أنه على عصيان لله، فيما يأتيه مع أبناء آدم من إغواء وإضلال.. ولكنه - مع هذا - لا يملك من نفسه أن يردّها عن هذا الاتجاه الذي اتخذته، بحكم سابق، وقضاء نافذ.. فهو - والحال كذلك - يؤدّي رسالة الشرّ في أبناء آدم، كما يؤدّي الأنبياء رسالة الخير فيهم، وللشيطان أولياؤه وأتباعه، كما للأنبياء أولياؤهم وأتباعهم..

ومن جهة أخرى، فإن الشيطان - لحكمة أَرادها الله - مغطّى على بصره، لا يرى الشرّ الذي يزرعه في أبناء آدم، حتى ينبت، ويزهر، ويثمر..

وهنا يدرك أنه اقترف الإثم، ووقع في المعصية.. وهنا أيضا يري عقاب الله الراصد له، جزاء ما اقترف من آثام.. وفي هذا بلاء عظيم، وعذاب أليم، وتلك هي لعنة الله التي حلتّ بإبليس.. يعمى عن الشرّ فيقع فيه، حتى إذا وقع فيه أبصره وتحقق منه، وجنى الحسرة والندامة مما غرس بيديه! ^{١٤٧}

٢٤ - الاعتزاز بالله ورسوله:

قال تعالى: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) } [المنافقون: ٧، ٨]

يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ وَصَفَ صِفَتَهُمْ قَبْلُ {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون: ٨] فِيهَا، وَيَعْنِي بِالْأَعَزِّ: الْأَشَدَّ وَالْأَقْوَى، قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ} [المنافقون: ٨] يَعْنِي: الشَّدَّةُ وَالْقُوَّةُ {وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: ٨] بِاللَّهِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ. وَذَكَرَ أَنَّ سَبَبَ قِيلِ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي كَانَ مِنْ أَجْلِ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ.

^{١٤٧} - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٢٦)

عَنْ عَمْرِو، قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: إِنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا أَكْثَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، ثُمَّ إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَثُرُوا فَخَرَجُوا فِي غَزْوَةٍ لَهُمْ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ [ص: ٦٦٢] الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَكَانَ بَيْنَهُمَا قِتَالٌ إِلَى أَنْ صَرَخَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، وَصَرَخَ الْمُهَاجِرُ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ؛ قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «مَا لَكُمْ وَلِدَعْوَةِ الْجَاهِلِيَّةِ؟» فَقَالُوا: كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ» قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْنِ سُلُولٍ: لَيْسَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي فَأَقْتُلْهُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: {يَقُولُونَ لَيْسَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ} [المنافقون: ٨] إِلَى {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ} [المنافقون: ٨] قَالَ: قَالَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْنِ سُلُولٍ الْأَنْصَارِيُّ رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ، وَنَاسٌ مَعَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ

وَعَنْ عِكْرَمَةَ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ أَبِي إِبْنِ سُلُولٍ، كَانَ يُقَالُ لَهُ حُبَابٌ، فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ وَالِدِي يُؤْذِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَذَرْنِي حَتَّى أَقْتُلْهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُقْتَلُ أَبَاكَ عَبْدَ اللَّهِ». ثُمَّ جَاءَ أَيْضًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ وَالِدِي يُؤْذِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَذَرْنِي حَتَّى أَقْتُلْهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُقْتَلُ أَبَاكَ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَتَوَضَّأْتُ حَتَّى أَسْقِيَهُ مِنْ وَضْؤِكَ لَعَلَّ قَلْبَهُ أَنْ يَلِينُ، فَتَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُ، فَذَهَبَ بِهِ إِلَى أَبِيهِ فَسَقَاهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: هَلْ تَذَرِي مَا سَقَيْتُكَ؟ فَقَالَ لَهُ وَالِدُهُ: نَعَمْ، سَقَيْتَنِي بَوْلَ أُمِّكَ. فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ: لَا وَاللَّهِ، وَلَكِنْ سَقَيْتُكَ وَضْوءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ قَالَ عِكْرَمَةُ: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي عَظِيمٍ الشَّانِ فِيهِمْ. وَفِيهِمْ أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْمُنَافِقِينَ: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا} [المنافقون: ٧] وَهُوَ الَّذِي قَالَ: لَيْسَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، قَالَ: فَلَمَّا بَلَغُوا الْمَدِينَةَ مَدِينَةَ الرَّسُولِ ﷺ وَمِنْ مَعَهُ، أَخَذَ ابْنُهُ السَّيْفَ، ثُمَّ قَالَ لَوَالِدِهِ: أَنْتَ تَزْعُمُ لَيْسَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَوَاللَّهِ لَا تَدْخُلُهَا حَتَّى يَأْذَنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ بِرِجْلِهِ وَذَلِكَ فِي أَهْلِ السِّيمَنِ شَدِيدٌ فَنَادَى الْمُهَاجِرِينَ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَنَادَى الْأَنْصَارُ: يَا لِلْأَنْصَارِ قَالَ: وَالْمُهَاجِرُونَ يَوْمئِذٍ أَكْثَرُ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ» فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْنِ سُلُولٍ: لَيْسَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ، إِنَّ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي إِبْنِ سُلُولٍ قَالَ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَنْفَضُوا، وَقَالَ: لَيْسَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، قَالَ: فَحَدَّثَنِي زَيْدٌ أَنَّهُ أَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، قَالَ: فَجَاءَ فَحَلَفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ

ذَلِكَ؛ قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: فَقَالَ لِي زَيْدٌ، فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي، حَتَّى أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَصْدِيقَ زَيْدٍ، وَتَكْذِيبَ [ص: ٦٦٤] عَبْدَ اللَّهِ فِي {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} [المنافقون: ١]

وَعَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون: ٨] قَرَأَ آيَةَ كُلِّهَا إِلَى {لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون: ٨] قَالَ: قَدْ قَالَهَا مُنَافِقٌ عَظِيمُ النَّفَاقِ فِي رَجُلَيْنِ اقْتَتَلَا، أَحَدُهُمَا غَفَارِيٌّ، وَالْآخَرُ جُهَنِيٌّ، فَظَهَرَ الْغَفَارِيُّ عَلَى الْجُهَنِيِّ، وَكَانَ بَيْنَ جُهَيْنَةَ وَالْأَنْصَارِ حَلْفٌ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَهُوَ ابْنُ أَبِي: يَا بَنِي الْأَوْسِ، يَا بَنِي الْخَزَرَجِ، عَلَيْكُمْ صَاحِبُكُمْ وَحَلِيفُكُمْ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا مَثَلُنَا وَمَثَلُ مُحَمَّدٍ إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: سَمَنْ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ، وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فَسَعَى بِهَا بَعْضُهُمْ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مُرْ مُعَاذَ بَنِ جَبَلٍ أَنْ يَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ». ذَكَرَ لَنَا أَنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ عِنْدَهُ، فَقَالَ: هَلْ يُصَلِّي؟ فَقَالَ: نَعَمْ وَلَا خَيْرَ فِي صَلَاتِهِ، فَقَالَ: نَهَيْتُ عَنِ الْمُصَلِّينَ، نَهَيْتُ عَنِ الْمُصَلِّينَ

وَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: اقْتَتَلَ رَجُلَانِ، أَحَدُهُمَا مِنْ جُهَيْنَةَ، وَالْآخَرُ مِنْ غِفَارٍ، وَكَانَتْ جُهَيْنَةُ حَلِيفَ الْأَنْصَارِ، فَظَهَرَ عَلَيْهِ الْغِفَارِيُّ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ عَظِيمُ النَّفَاقِ: عَلَيْكُمْ صَاحِبُكُمْ، عَلَيْكُمْ صَاحِبُكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا مَثَلُنَا وَمَثَلُ مُحَمَّدٍ إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: سَمَنْ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَهُمْ فِي سَفَرٍ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِمَّنْ سَمِعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ عُمَرُ: مُرْ مُعَاذًا يَضْرِبُ عُنُقَهُ، فَقَالَ: «وَاللَّهِ [ص: ٦٦٥] لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» فَتَزَلَّتْ فِيهِمْ: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ} [المنافقون: ٧]

وَعَنِ الْحَسَنِ، أَنَّ غُلَامًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّي سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي يَقُولُ كَذَا وَكَذَا؛ قَالَ: «فَلَعَلَّكَ غَضِبْتَ عَلَيْهِ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُهُ؛ قَالَ: «فَلَعَلَّكَ أَحْطَأَ سَمْعُكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُهُ قَالَ: فَلَعَلَّهُ شَبَّهَ عَلَيْكَ " قَالَ: لَا وَاللَّهِ قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقًا لِلْغُلَامِ: {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون: ٨] فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِأُذُنِ الْغُلَامِ، فَقَالَ: «وَفَتْ أُذُنُكَ، وَفَتْ أُذُنُكَ يَا غُلَامُ»

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِ اللَّهِ {لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون: ٨] قَالَ: كَانَ الْمُنَافِقُونَ يُسَمُّونَ الْمُهَاجِرِينَ: الْجَلَابِيبَ؛ وَقَالَ: قَالَ ابْنُ أَبِي: قَدْ أَمَرْتُكُمْ فِي هَؤُلَاءِ الْجَلَابِيبِ أَمْرِي، قَالَ: هَذَا بَيْنَ أَمَجٍ وَعُسْفَانَ عَلَى الْكَدِيدِ تَنَازَعُوا عَلَى الْمَاءِ، وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ قَدْ غَلَبُوا عَلَى الْمَاءِ؛ قَالَ: وَقَالَ ابْنُ أَبِي: أَيْضًا: أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ لَقَدْ قُلْتُ لَكُمْ: لَا تُنْفِقُوا عَلَيْهِمْ، لَوْ تَرَكْتُمُوهُمْ مَا وَجَدُوا مَا يَأْكُلُونَ، وَيَخْرُجُوا وَيَهْرُبُوا؛ فَأَتَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ ابْنُ أَبِي؟ قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» فَأَخْبَرَهُ وَقَالَ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «إِذَا تَرَعْدَ لَهُ أَنْفٌ كَثِيرَةٌ يَبْثِرُ». قَالَ عُمَرُ: فَإِنْ كَرِهْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَقْتُلَهُ رَجُلٌ مِنَ

الْمُهَاجِرِينَ، فَمَرُّ بِهِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَيَقْتُلَانِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ، ادْعُوا لِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي». فَدَعَاهُ، فَقَالَ: «أَلَا تَرَى مَا يَقُولُ أَبُوكَ؟» قَالَ: وَمَا يَقُولُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؟ قَالَ: «يَقُولُ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ»؛ فَقَالَ: فَقَدْ صَدَقَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْتَ وَاللَّهِ الْأَعَزُّ وَهُوَ الْأَذَلُّ، أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ قَدِمْتَ الْمَدِينَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ أَهْلَ يَثْرِبَ لَيَعْلَمُونَ مَا بِهَا أَحَدٌ أَبَرَّ مِنِّي، وَلَكِنْ كَانَ يُرْضِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَنْ آتِيَهُمَا بِرَأْسِهِ لَأَتِيَهُمَا بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا». فَلَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، قَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي عَلَى بَابِهَا بِالسَّيْفِ لِأَبِيهِ؛ ثُمَّ قَالَ: أَنْتَ الْقَائِلُ: لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، أَمَا وَاللَّهِ لَتَعْرِفَنَّ الْعِرَّةُ لَكَ أَوْ لِرَسُولِ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَا يَأُوبِكُ ظُلْمَهُ، وَلَا تَأُوبِيهِ أَبَدًا إِلَّا بِإِذْنِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ فَقَالَ: يَا لِلْخَزَرَجِ ابْنِي يَمْنَعُنِي بَيْتِي يَا لِلْخَزَرَجِ ابْنِي يَمْنَعُنِي بَيْتِي فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا تَأُوبِيهِ أَبَدًا إِلَّا بِإِذْنِ مَنْهُ؛ فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ رَجَالٌ فَكَلَّمُوهُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا بِإِذْنِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَأَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «ادْهَبُوا إِلَيْهِ، فَقُولُوا لَهُ خَلِّهِ وَمَسْكَنَهُ»؛ فَأَتَوْهُ، فَقَالَ: أَمَا إِذَا جَاءَ أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ فَفَعَلْهُمُ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ حَبَّانَ، قَالَ: كُلُّ قَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُ حَدِيثِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، قَالُوا: بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ بَنِي الْمُصْطَلِقِ يَجْمَعُونَ لَهُ، وَقَائِدُهُمُ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ أَبُو جُوَيْرِيَةَ بِنْتُ الْحَارِثِ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، خَرَجَ إِلَيْهِمْ حَتَّى لَقِيَهُمْ عَلَى مَاءٍ مِنْ مِيَاهِهِمْ يُقَالُ لَهُ الْمُرَيْسِيعُ مِنْ نَاحِيَةِ قُدَيْدٍ إِلَى السَّاحِلِ، فَتَزَاحَفَ النَّاسُ فَاقْتَتَلُوا، فَهَزَمَ اللَّهُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَقَتَلَ مِنْ قَتْلٍ مِنْهُمْ، وَنَقَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَفَاءَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَقَدْ أُصِيبَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كَلْبٍ بِنِ عَوْفٍ بِنِ عَامِرٍ بِنِ لَيْثٍ بِنِ بَكْرٍ، يُقَالُ لَهُ هِشَامُ بْنُ صُبَابَةَ أَصَابَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ رَهْطِ عَبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ مِنَ الْعَدُوِّ، فَقَتَلَهُ خَطَأً، فَبَيَّنَا النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ الْمَاءِ وَرَدَتْ وَارِدَةُ النَّاسِ وَمَعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَجِيرٌ لَهُ مِنْ بَنِي غِفَارٍ يُقَالُ لَهُ جَهْجَاهُ بْنُ سَعِيدٍ، يَقُودُ لَهُ فَرَسُهُ، فَازْدَحَمَ جَهْجَاهُ وَسَنَانُ الْجُهَنِيُّ حَلِيفُ بَنِي عَوْفٍ بِنِ الْخَزَرَجِ عَلَى الْمَاءِ فَاقْتَتَلَا، فَصَرَخَ الْجُهَنِيُّ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ. وَصَرَخَ جَهْجَاهُ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، فَعُضِبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنُ سُلُولٍ، وَعِنْدَهُ رَهْطٌ مِنْ قَوْمِهِ فِيهِمْ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ، غُلَامٌ حَدِيثُ السِّنِّ، فَقَالَ: قَدْ فَعَلُوهَا؟ قَدْ نَافَرُونَا وَكَاثَرُونَا فِي بِلَادِنَا، وَاللَّهِ مَا أَعُدُّنَا وَجَلَابِيْبَ قُرَيْشٍ هَذِهِ إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: سَمَنْ كَلَبَكَ يَأْكُلُكَ. أَمَا وَاللَّهِ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ؛ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَ مِنْ قَوْمِهِ، فَقَالَ: هَذَا مَا فَعَلْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ أَحَلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ، وَفَاسَمْتُمُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَمْسَكْتُمْ عَنْهُمْ مَا بِأَيْدِيكُمْ لَتَحَوَّلُوا إِلَى غَيْرِ بِلَادِكُمْ؛ فَسَمِعَ ذَلِكَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ فَمَشَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَلِكَ عِنْدَ فَرَاغِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوِهِ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرُ وَعِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَرُّ بِهِ عَبَادُ بْنُ بَشِيرٍ بِنِ وَقْشٍ فَلْيَقْتُلْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَفَيْفَ يَا عُمَرُ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ، لَأَ، وَلَكِنْ أُذِنَ بِالرَّحِيلِ» وَذَلِكَ فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْتَحِلُ فِيهَا، فَارْتَحَلَ

النَّاسُ، وَقَدْ مَشَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِيٍّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ قَدْ بَلَغَهُ مَا سَمِعَ مِنْهُ، فَحَلَفَ بِاللَّهِ مَا قُلْتُ مَا قَالَ، وَلَا تَكَلَّمْتُ بِهِ؛ وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِيٍّ فِي قَوْمِهِ شَرِيفًا عَظِيمًا، فَقَالَ مَنْ حَضَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَسَى أَنْ يَكُونَ الْعِلَامُ أَوْهُمْ فِي حَدِيثِهِ، وَلَمْ يَحْفَظْ مَا قَالَ الرَّجُلُ، حَدَّثَنَا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيٍّ، وَدَفَعًا عَنْهُ؛ فَلَمَّا اسْتَقَلَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَارَ، لَقِيَهِ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، فَحَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ النُّبُوَّةِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ؛ ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ رُحْتُ فِي سَاعَةٍ مُنْكَرَةٍ مَا كُنْتُ تَرُوحُ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ مَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ؟» قَالَ: فَأَيُّ صَاحِبٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِيٍّ». قَالَ: وَمَا قَالَ؟ قَالَ: «زَعَمَ أَنَّهُ إِنْ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَخْرَجَ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ». قَالَ أُسَيْدٌ: فَأَنْتَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْرِجُهُ إِنْ شِئْتَ، هُوَ وَاللَّهُ الدَّلِيلُ وَأَنْتَ الْعَزِيزُ؛ ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ارْفُقْ بِهِ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِكَ وَإِنَّ قَوْمَهُ لَيَنْظُمُونَ لَهُ الْخَرَزَ لِيَتَوَجَّهُوا، فَإِنَّهُ لَيَرَى أَنَّكَ قَدْ اسْتَلَبْتَهُ مَلَكًا. ثُمَّ مَشَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى أَمْسَى، وَلَيْلَتُهُمْ حَتَّى أَصْبَحَ، وَصَدَرَ يَوْمِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى آذَنَهُمُ الشَّمْسُ، ثُمَّ نَزَلَ بِالنَّاسِ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ وَجَدُوا مَسَّ الْأَرْضِ وَقَعُوا نِيَامًا، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِيَشْغَلَ النَّاسَ عَنِ الْحَدِيثِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيٍّ. ثُمَّ رَاحَ بِالنَّاسِ وَسَلَكَ الْحِجَازَ حَتَّى نَزَلَ عَلَى مَاءٍ بِالْحِجَازِ فُوقَ النَّقِيعِ، يُقَالُ لَهُ نَقْعَاءُ؛ فَلَمَّا رَاحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَبَّتْ عَلَى النَّاسِ رِيحٌ شَدِيدَةٌ آذَنَهُمْ وَتَخَوَّفُوهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَخَافُوا فَإِنَّمَا هَبَّتْ لِمَوْتِ عَظِيمٍ مِنْ عَظَمَاءِ الْكُفَّارِ». فَلَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ وَجَدُوا رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ التَّائِبِ أَحَدَ بَنِي قَيْنِقَاعٍ وَكَانَ مِنْ عَظَمَاءِ يَهُودَ، وَكَهْفًا لِلْمُنَافِقِينَ قَدْ مَاتَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَنَزَلَتْ السُّورَةُ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ فِيهَا الْمُنَافِقِينَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيٍّ ابْنِ سَلُولٍ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ عَلَى مِثْلِ أَمْرِهِ، فَقَالَ: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} [المنافقون: ١] فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأُذُنِ زَيْدٍ فَقَالَ: «هَذَا الَّذِي أَوْفَى اللَّهُ بِأُذُنِهِ» وَبَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيٍّ الَّذِي كَانَ مِنْ أَبِيهِ «١٤٨» هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ هُمُ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَأَصْحَابِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَيَتَحَوَّلُوا عَنْكُمْ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، وَيَنْفِضَ عَنْ مُحَمَّدٍ مَنْ حَوْلَهُ إِذَا عَضَّهِمُ الْجُوعُ. وَهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ جَاهِلُونَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ مَالِكُ جَمِيعِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَبِيَدِهِ مَفَاتِيحُ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ فَلَا يَصِلُ شَيْءٌ إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ قَالُوا هَذَا الْقَوْلُ. وَيَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ: إِذَا رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ فَإِنَّا سَنُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهَا، لِأَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنفُسَهُمْ هُمْ الْأَقْوِيَاءُ الْأَعَزَّاءُ فِيهَا لِكَثْرَةِ جَمْعِهِمْ، وَوَفَرَةِ مَالِهِمْ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ ضِعَافٌ قَلِيلُو الْعَدَدِ.

وَيَرُدُّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ قَائِلًا: إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَهُوَ ذُو الْجَلَالِ وَالْعِزَّةِ، ثُمَّ تَكُونُ الْعِزَّةُ مِنْ بَعْدِهِ لِرَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﷺ، ثُمَّ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَسْتَعِزُّونَ بِعِزِّ اللَّهِ، وَبِنَصْرِهِ، فَهُمْ أَعِزَّةٌ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ فَيَظُنُّونَ أَنَّ الْعِزَّةَ بِوَفْرَةِ الْمَالِ وَكَثْرَةِ النَّاصِرِ.^{١٤٩}

ثم قولتهم الأخيرة: «يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ» ..

وقد رأينا كيف حقق ذلك عبد الله بن أبي! وكيف لم يدخلها الأذل إلا بإذن الأعز! «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ. وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ» ..

ويضم الله - سبحانه - رسوله والمؤمنين إلى جانبه، ويضفي عليهم من عزته، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله! وأي تكريم بعد أن يوقف الله - سبحانه - رسوله والمؤمنين معه إلى جواره. ويقول: ها نحن أولاء! هذا لواء الأعزاء. وهذا هو الصف العزيز! وصدق الله. فجعل العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن. العزة المستمدة من عزته تعالى. العزة التي لا تهون ولا تهين، ولا تنحني ولا تلين. ولا تزايل القلب المؤمن في أخرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان. فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة.. «وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ» .. وكيف يعلمون وهم لا يتذوقون هذه العزة ولا يتصلون بمصدرها الأصيل؟^{١٥٠}

إن الأمة مهما بحثت عن سعادتها وإعادة مكانتها فلن تجد ذلك بدون الجهاد في سبيل الله . فقد جعله الله سبباً لتمكين الدين في الأرض وتخطيم عروش الطغاة من البشر وإذلال المنافقين وكسر شوكتهم وإرهاباً للأعداء مهما اتسعت ممالكهم وعظمت قوتهم . ومن ظن غير ذلك فقد افتقرى على الله الكذب وسلك طريقاً غير طريق المؤمنين وبقي يراوح في مكانه

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } (٥٤) سورة المائدة

ولم يُعلم في تاريخ هذه الأمة أنها عظمت بين الأمم بدون الجهاد في سبيل الله. ثم اعلم وفقك الله أن الجهاد هو است فراغ الوسع والطاقة وتحمل المشقة والصبر عليها في الدعوة إلى الله تعالى حسب ما يقتضيه حال المدعو من الحجة والبيان وبذل الأموال أو المحاربة بالسيف والسنان وبكل ما يمكن أن يجاهد به في كل مكان وزمان. وهو نوعان: جهاد طلب وابتداء وجهاد دفع.

فالأول: هو غزو الكفار في بلادهم فدعوتهم إلى الإسلام فإن أبو أخذت منهم الجزية فلإن امتنعوا وجب قتالهم وهذا ما درج عليه سلف هذه الأمة حيث وصلت الجيوش الإسلامية إلى شتى بقاع

^{١٤٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٧٣، بترقيم الشاملة آليا)

^{١٥٠} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٧٥)

الأرض وانتشر الإسلام في أرجائها وتوزعت أشلاء المجاهدين في أنحائها جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيرا.

ففي صحيح مسلم عن سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْ صَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَعْدُوا، وَلَا تَمُتُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ حَصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحُولِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلِّهِمُ الْجَزِيَّةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»^{١٥١}

والثاني: جهاد الدفع وذلك حينما يدخل العدو في بلاد المسلمين فيستولي عليها أو تجهز لقتالهم فإنه والحالة هذه يجب على المسلمين قتالهم حتى يندفع شرهم ويرد كيدهم. وفي كلتا الحالتين هو فرض من فروض الدين وواجب من واجباته شرعة الله سبحانه وتعالى لمصارمة العدو وإدخاله في دين الإسلام.

قال تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ) (البقرة: ٢١٦). وقال تعالى (وَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ) (التوبة: ٥).

وقال سبحانه وتعالى (وَاقْتُلُواهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ) (البقرة: ١٩١).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (التوبة: ١٢٣).

^{١٥١} - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧) - (١٧٣١)

وقال عز من قائل (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورِ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ) (التوبة: ١٤).

وفي سنن أبي داود عن أنس، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَالسِّنِّكُمْ»^{١٥٢}
وعند النسائي عن أنس، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَالسِّنِّكُمْ»^{١٥٣}
وعَنِ الزُّهْرِيِّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا تُوْفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَفَرَ مِنْ كَفَرٍ مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ"
فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَنْهَا كَانُوا يُؤْذُونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا " قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ»^{١٥٤}.

وعند أبي داود عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ، بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا، وَالصَّلَاةُ وَاجِبَةٌ عَلَيْكُمْ خَلْفَ كُلِّ مُسْلِمٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا، وَإِنْ عَمِلَ الْكِبَائِرَ، وَالصَّلَاةُ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا، وَإِنْ عَمِلَ الْكِبَائِرَ»^{١٥٥}

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَرَّ بِشَعْبٍ فِيهِ عِيْنَةٌ مَاءٍ عَذْبٍ، فَأَعْجَبَهُ طِيبُهُ، فَقَالَ: لَوْ أَقَمْتُ فِي هَذَا الشَّعْبِ، وَاعْتَزَلْتُ النَّاسَ وَالْعَمَلَ، قَالَ: حَتَّى أَسْتَأْمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: " لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ مَقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي أَهْلِهِ سِتِينَ عَامًا. أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَيُدْخِلَكُمْ الْجَنَّةَ؟ اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَوْاقَ نَاقَةٍ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ"
١٥٦

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اغْزُوا تَصِحُّوا وَنَعَمُوا.^{١٥٧}
وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ فَإِنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يُنْجِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهَمِّ وَالْعَمِّ " ١٥٨

^{١٥٢} - سنن أبي داود (١٠ / ٣) (٢٥٠٤) صحيح

^{١٥٣} - السنن الكبرى للنسائي (٤ / ٢٦٩) (٤٢٨٩) صحيح

^{١٥٤} - صحيح البخاري (١٠٥ / ٢) (١٣٩٩ و ١٤٠٠) وصحيح مسلم (١ / ٥١) (٣٢ - ٢٠)

[ش(عناقا) الأثنى من ولد المعز التي لم تبلغ سنة. (شرح الله صدر أبي بكر) لقتالهم. (فعرفت أنه الحق) بما ظهر من الدليل الذي أقامه أبو بكر رضي الله عنه]

^{١٥٥} - سنن أبي داود (١٨ / ٣) (٢٥٣٣) حسن لغيره

^{١٥٦} - شعب الإيمان (٩٦ / ٦) (٣٩٢٥) صحيح

^{١٥٧} - مصنف ابن أبي شيبة - دار القبله (١٠ / ٣٦٠) (١٩٨٩٧) حسن مرسل

وَعَنْ خَالِدِ بْنِ خَالِدِ الْيَشْكُرِيِّ، قَالَ: خَرَجْتُ زَمَنَ فُتِحَتْ تُسْتَرُ حَتَّى قَدِمْتُ الْكُوفَةَ، فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا أَنَا بِحَلَقَةٍ فِيهَا رَجُلٌ صَدَعٌ مِنَ الرِّجَالِ، حَسَنُ الثَّغْرِ، يُعْرِفُ فِيهِ أَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الْحِجَازِ، قَالَ: فَقُلْتُ: مَنْ الرَّجُلُ؟ قَالَ الْقَوْمُ: أَوْ مَا تَعْرِفُهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالُوا: هَذَا حُدَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانَ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَقَعَدْتُ، وَحَدَّثَ الْقَوْمُ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكَنتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ مِنْ ذَلِكَ، جَاءَ الْإِسْلَامُ حِينَ جَاءَ فَجَاءَ أَمْرٌ لَيْسَ كَأَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَنتُ قَدْ أُعْطِيتُ فِي الْقُرْآنِ فَهَمًّا، فَكَانَ رِجَالٌ يَجِئُونَ فَيَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَأَنَا أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْكُونُ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرًّا كَمَا كَانَ قَبْلَهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: قُلْتُ: فَمَا الْعِصْمَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «السَّيْفُ»، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ السَّيْفِ بَقِيَّةٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ، تَكُونُ إِمَارَةٌ عَلَى أَقْدَاءٍ وَهُدَنَةٌ عَلَى دَخَنٍ»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «ثُمَّ يَنْشَأُ دُعَاةُ الضَّلَالَةِ، فَإِنْ كَانَ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ يَوْمٌ خَلِيفَةٌ جَلَدَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ، فَالزَّمَهُ وَإِلَّا فَمُتْ وَأَنْتَ عَاضٌ عَلَى جَذَلِ شَجَرَةٍ»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَالُ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ، مَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطُّ وَزْرُهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ وَجَبَ وَزْرُهُ وَحُطُّ [ص: ٣٤٣] أَجْرُهُ»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «يُنْتَجِ الْمُهْرُ فَلَا يُرَكَبُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»، قَالَ فَتَادَةُ: «الصَّدْعُ مِنَ الرِّجَالِ: الضَّرْبُ، وَقَوْلُهُ: فَمَا الْعِصْمَةُ مِنْهُ؟ قَالَ: السَّيْفُ»، قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ فَتَادَةُ: نَضَعُهُ عَلَى أَهْلِ الرَّدَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِي زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: «إِمَارَةٌ عَلَى أَقْدَاءٍ وَهُدَنَةٌ» يَقُولُ: صَلُحْ، وَقَوْلُهُ: «عَلَى دَخَنٍ» يَقُولُ عَلَى ضَعَائِنٍ^{١٥٩}.

الرد على فقهاء الهزيمة:

ومع هذه النصوص القطعية في الأمر بالجهاد في سبيل الله يخرج علينا أقوام يزعمون أن هذا الوقت لا يصلح فيه تطبيق مثل تلك النصوص ويرون الاكتفاء بالدعوة إلى الله عن طريق حلقات العلم وإقامة المناشط الدعوية ظناً منهم أن هذا الوقت أشبه ما يكون بالزمن المكي بل يرون أن هذا العمل هو الجهاد الحقيقي الذي يجب على كافة المصلحين أن يهتموا به غاية الاهتمام إلى غير ذلك من التوهيمات التي لا تمت إلى الدين بصلة حيث أن التربية لا تكون بدون الجهاد فقد ربي رسول الله ﷺ أصحابه على ذلك في وقت وجيز ثم أمرهم بحمل الرايات لقتال العدو.

ولست أختلف مع هؤلاء في أن الدعوة إلى الله من الجهاد إلا أن مسلكتهم هذا يجب أن يكون مطابقاً للعهد المكي حيث أن دعوته ﷺ قائمة بين الكفار وعبداء الأصنام ولم يكن ﷺ يعيش بين المسلمين

^{١٥٨} - الجهاد لابن أبي عاصم (١/ ١٣٣) ومسنند أحمد ط الرسالة (٣٧/ ٣٥٥) (٢٢٦٨٠) حسن لغیره

^{١٥٩} - جامع معمر بن راشد (١١/ ٣٤٢) (٢٠٧١١) صحيح - الجذل : أصل الشجرة = الفلو : المهر الصغير إذا فطم

كما هي حالنا اليوم ولهذا وجب على العلماء والدعاة من المصلحين أن يجمعوا بين الأمرين الدعوة والجهاد.

وأما ما يستدل به هؤلاء على طريقتهم تلك فإنما هو مجرد اجتihad غير مبني على أصل شرعي وقد يعتقد بعضهم أن ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال حينما رجع من غزوة تبوك رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر يدل على وجوب الدعوة إلى الله وأنها أهم من الجهاد بالسيف مع أنه لم يثبت عن النبي ﷺ.

وقال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "أما الحديث الذي يرويه بعضهم أنه قال في غزوة تبوك { رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ } فَلَا أَصْلَ لَهُ وَلَمْ يَرَوْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِأَقْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَفْعَالِهِ وَجِهَادُ الْكُفَّارِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَعْمَالِ؛ بَلْ هُوَ أَفْضَلُ مَا تَطَوَّعَ بِهِ الْإِنْسَانُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) } [النساء] وَقَالَ تَعَالَى: { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) } [التوبة] ١٦٠ ..

وثبت في صحيح مسلم عن زيد بن سلام، أنه سمع أبا سلام، قال: حَدَّثَنِي الثُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ مَنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ، وَقَالَ آخَرٌ: مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أُعْمَرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَقَالَ آخَرٌ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ، فَرَجَرَهُمْ عُمَرُ، وَقَالَ: لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مَنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } [التوبة: ١٩] الْآيَةَ إِلَى آخِرِهَا، ١٦١.

وعن أبي عمرو الشَّيْبَانِيِّ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى مِقَاتِهَا»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بَرُّ

١٦٠ - مجموع الفتاوى (١١/ ١٩٧)

١٦١ - صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٩) - ١١١ - (١٨٧٩)

الْوَالِدَيْنِ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» فَسَكَتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَوْ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي " ١٦٢ ..

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ، وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ»، قُلْتُ: فَأَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَعْلَاهَا ثَمَنًا، وَأَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا»، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تُعِينُ ضَايِعًا، أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقٍ»، قَالَ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تَدْعُ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ» .. ١٦٣

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: ذَلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادُ؟ قَالَ: «لَا أَجِدُهُ» قَالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَقُتِرَ، وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ؟» قَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طَوْلِهِ، فَيَكْتُبُ لَهُ حَسَنَاتٍ» .. ١٦٤

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ النَّبِيُّ وَلِدَ فِيهَا»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» ١٦٥ .

ولا يشك عاقل أن جهاد النفس وتربيتها على الإيمان أنه من أعظم مقومات النصر إذ أن الهزيمة سببها الوقوع في المعصية لكن ليس معنى ذلك أن يترك الجهاد لهذه الحجة.

قال ابن القيم رحمه الله عند قوله تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا): "علق سُبْحَانَهُ الْهِدَايَةَ بِالْجِهَادِ فَأَكْمَلَ النَّاسَ هِدَايَةَ أَعْظَمِهِمْ جِهَادًا وَأَفْرَضَ الْجِهَادَ جِهَادَ النَّفْسِ وَجِهَادَ الْهَوَى وَجِهَادَ الشَّيْطَانِ وَجِهَادَ الدُّنْيَا فَمَنْ جَاهَدَ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ فِي اللَّهِ هَدَاهُ اللَّهُ سَبِيلَ رِضَاهُ الْمَوْصِلَةَ إِلَى جَنَّتِهِ وَمَنْ تَرَكَ

١٦٢ - صحيح البخاري (١٤/ ٤) (٢٧٨٢)

١٦٣ - صحيح البخاري (٣/ ١٤٤) (٢٥١٨) وصحيح مسلم (١/ ٨٩) (١٣٦) - (٨٤)

[ش (الرقاب) جمع رقبة وهي العبد المملوك ذكرا أم أنثى. (أفضل) أكثر ثوابا في العتق. (أنفسها) التي يرغبها مالكوها أكثر من غيرها. (تصنع لأخرق) تساعد من لا يحسن الصناعة]

١٦٤ - صحيح البخاري (٤/ ١٥) (٢٧٨٥)

[ش (لا أحده) لا أحد عملا يعدل الجهاد. (تفتر) تنقطع. والمعنى أن المجاهد في عبادة ما دام في خروجه فلا يقابله إلا من استمر في العبادة من صيام أو قيام أو غير ذلك. (ليستن) يرحل بنشاط من الاستئذان وهو العدو. (طوله) حبله الذي يشد به من طرف ويمسك طرفه الآخر ثم يرسل في المرحى. (فيكتب له حسنات) يكتب مراحه ورعيه حسنات لصاحبه]

١٦٥ - صحيح البخاري (٤/ ١٦) (٢٧٩٠)

[ش (الفردوس) هو البستان الذي يجمع ما في البساتين كلها من شجر وزهر ونبات. (أوسط الجنة) أفضلها وخيرها. (أراه) أظنه وهذا من كلام يحيى بن صالح شيخ البخاري أي أظنه قال (فوقه). (تفجر) تنشق]

الْجِهَادَ فَاتَهُ مِنَ الْهَدْيِ بِحَسَبِ مَا عَطَلَ مِنَ الْجِهَادِ قَالَ الْجُنَيْدُ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا أَهْوَاءَهُمْ فِينَا بِالتَّوْبَةِ لِنَهْدِيهِمْ سَبِيلَ الْإِخْلَاصِ وَلَا يَتِمَّكَنَ مِنْ جِهَادِ عَدُوهِ فِي الظَّاهِرِ إِلَّا مَنْ جَاهَدَ هَذِهِ الْأَعْدَاءَ بَاطِنًا فَمَنْ نَصَرَ عَلَيْهَا نَصَرَ عَلَى عَدُوهِ وَمَنْ نَصَرَتْ عَلَيْهِ نَصَرَ عَلَيْهِ عَدُوهُ^{١٦٦} :

إِلَى أَنْ قَالَ: وَلِلْأَهْلِ الْجِهَادِ فِي هَذَا مِنَ الْهِدَايَةِ وَالْكَشْفِ مَا لَيْسَ لِلْأَهْلِ الْمُجَاهِدَةِ، وَلِهَذَا قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ وَابْنُ الْمُبَارَكِ: إِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ فَأَنْظِرُوا مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الثَّغْرِ، يَعْنِي أَهْلَ الْجِهَادِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩] .^{١٦٧}

فعلى القائلين بعدم وجوب الجهاد أن يتقوا الله في أنفسهم وأن لا يقولوا على الله إلا الحق فإن القول بعدمه ليس له أصل، وسأذكر بعض الأدلة الواردة في الوعيد الشديد على من لا يرى الجهاد تذكرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (٢٤) سورة التوبة

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (التوبة: ٣٨-٣٩).

وروى النسائي عن سلمة بن نفيّل الكندي قال: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَذَالَ النَّاسُ الْخَيْلَ وَوَضَعُوا السَّلَاحَ وَقَالُوا: لَا جِهَادَ قَدْ وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَوَّحَهُ فَقَالَ: «كَذَبُوا الْآنَ جَاءَ الْقِتَالُ، وَلَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، وَيُزِيغُ اللَّهُ لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ، وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ، وَالْخَيْلُ مَعْقُودَةٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ يُوحِي إِلَيَّ أَنِّي مَقْبُوضٌ غَيْرُ مُلَبَّثٍ، وَأَنْتُمْ مُتَّبِعُونِي أَفْنَادًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، وَعَقْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ»^{١٦٨}.

^{١٦٦} - الفوائد لابن القيم (ص: ٥٩)

^{١٦٧} - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٥٠٦)

^{١٦٨} - السنن الكبرى للنسائي (٤/ ٣١١) (٤٣٨٦) صحيح

أذال : الإزالة : الإهانة والابتذال. =أوزارها : الأوزار : الأثقال ، ومعنى «حتى تضع الحرب أوزارها» أي : ينقضي أمرها ، وتخف أثقالها ، ولا يبقى قتال. =يزيغ : زاع الشيء يزيغ : إذا مال. =نواصي : جمع ناصية ، وهو شعر مقدم الرأس. =عقر الدار : أصلها بالفتح ، وهو محلة القوم ، وأهل المدينة يقولون : عقر الدار ، بالضم. جامع الأصول في أحاديث الرسول ط مكتبة الحلواني الأولى (٢/ ٥٧٠)

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " ثَلَاثٌ مِنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ: الْكَفُّ عَمَّنْ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تُكْفَرُهُ بِذَنْبٍ، وَلَا تُخْرِجُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ، وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي اللَّهُ إِلَى أَنْ يُقَاتَلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَالُ لَا يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ، وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ، وَالْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ " ١٦٩ .

أَيُّ الْإِمْتِنَاعِ عَنِ التَّعَرُّضِ بِأَهْلِ الْإِسْلَامِ (لَا تُكْفَرُهُ) بِالنَّهْيِ، وَبِالنُّونِ نَفْيٌ، وَكِلَاهُمَا مَرْوِيٌّ، وَهُوَ بَيَانٌ لِلْكَفْرِ؛ وَلِذَا قَطَعَهُ عَنْهُ، وَالْإِكْفَارُ وَالتَّكْفِيرُ نِسْبَةُ أَحَدٍ إِلَى الْكُفْرِ (بِذَنْبٍ) أَيُّ سِوَى الْكُفْرِ، وَلَوْ كَبِيرَةً خِلَافًا لِلْخَوَارِجِ (وَلَا تُخْرِجُهُ) بِالْوَجْهَيْنِ (مِنَ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ) أَيُّ وَلَوْ كَبِيرَةً سِوَى الْكُفْرِ خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ فِي إِخْرَاجِ صَاحِبِ الْكَبِيرَةِ إِلَى مَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ (وَالْجِهَادُ مَاضٍ) أَيُّ الْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ اعْتِقَادُ كَوْنِ الْجِهَادِ مَاضِيًّا، أَوْ ثَانِيَتِهَا الْجِهَادُ، أَوْ الْجِهَادُ مِنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ. وَمَاضٍ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ أَيُّ هُوَ مَاضٍ وَنَافِذٌ وَجَارٌ وَمُسْتَمِرٌّ (مُذٌ) وَفِي نُسْخَةِ بِالنُّونِ أَيُّ مِنْ ابْتِدَاءِ زَمَانٍ (بَعَثَنِي اللَّهُ) إِلَى الْمَدِينَةِ أَوْ بِالْجِهَادِ، فَمُذٌ: حَرْفٌ جَرٌّ، أَوْ أَوَّلُ مُدَّةٍ نَفَازِ الْجِهَادِ زَمَانٍ بَعَثَنِي اللَّهُ، فَـ " مُذٌ " مُبْتَدَأٌ، وَالزَّمَانُ الْمُقَدَّرُ خَبَرُهُ، وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ آخِرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَاضٍ (إِلَى أَنْ يُقَاتَلَ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ) أَيُّ أُمَّةِ الْإِحَابَةِ، يَعْنِي عِيسَى أَوْ الْمَهْدِيَّ (الدَّجَالُ) وَبَعْدَ قَتْلِ الدَّجَالِ لَا يَكُونُ الْجِهَادُ بَاقِيًّا، أَمَّا عَلَى يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ فَلَعَدَمِ الْقُدْرَةِ وَالطَّاقَةِ عَلَيْهِمْ، وَعِنْدَ ذَلِكَ لَا وَجُوبَ عَلَيْهِمْ بَنْصِ آيَةِ الْإِنْفَالِ، وَأَمَّا بَعْدَ إِهْلَاكِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ لَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَافِرٌ مَا دَامَ عِيسَى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - حَيًّا فِي الْأَرْضِ، وَأَمَّا عَلَى مَنْ كَفَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ عِيسَى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَلَمَوْتِ الْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ عَنْ قَرِيبٍ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَبَقَاءِ الْكُفَّارِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَتَجِيءُ هَذِهِ الْحِكَايَةُ فِي ذِكْرِ الدَّجَالِ (لَا يُبْطِلُهُ) بِضَمِّ أَوَّلِهِ (جَوْرٌ جَائِرٌ وَلَا عَدْلٌ عَادِلٌ) أَيُّ لَا يُسْقِطُ الْجِهَادُ كَوْنَ الْإِمَامِ ظَالِمًا أَوْ عَادِلًا، وَهُوَ صِفَةُ مَاضٍ، أَوْ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْخَبَرِ: «الْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ» (وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَبَعْضُ الْكُفَرَةِ، فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ دَوْلَةَ الْإِسْلَامِ تَنْقَرِضُ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: الْجِهَادُ مَاضٍ، أَيُّ أَعْلَامُ دَوْلَتِهِ مَنْشُورَةٌ، وَأَوَّلِيَاءُ أُمَّتِهِ مَنْصُورَةٌ، وَأَعْدَاءُ مِلَّتِهِ مَقْهُورَةٌ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَلَعَلَّ مُحْيِيَ السَّنَةِ أَوْرَدَ هَذَا الْحَدِيثَ فِي بَابِ عِلَامَاتِ التَّفَاقِ بِهَذَا الْمَعْنَى، وَكَذَا الْحَدِيثُ السَّابِقُ، فَإِنَّ الْيَهُودِيَّيْنَ نَافَقًا بِقَوْلِهِمْ: نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ، ثُمَّ قَوْلِهِمَا: إِنَّ دَاوُدَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - دَعَا رَبَّهُ؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّهُمَا لَمْ يَقُولَا ذَلِكَ عَنِ اعْتِقَادٍ، كَذَا قَالَهُ الطَّبِيبِيُّ، وَفِيهِ تَكْلُفٌ وَتَعَسُّفٌ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْبَابَ مَوْضُوعٌ لِشَيْئَيْنِ؛ لِلْكِبَائِرِ، وَعِلَامَاتِ التَّفَاقِ، فَهَذَا الْحَدِيثُ مُنَاسِبَةٌ لِلْكِبَائِرِ فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ كَمَا ظَهَرَ مِنْ مُخَالَفَةِ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَكَذَا الْجِهَادُ فَرَضٌ كِفَايَةً، وَقَدْ يَصِيرُ فَرَضٌ عَيْنٌ، وَتَرَكُّهُ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَأَمَّا الْحَدِيثُ السَّابِقُ فَفِيهِ آيَاتُ التَّسْعِ الَّتِي كُلُّهَا كِبَائِرٌ، وَالْيَهُودِيَّانِ قَدْ صَرَّحَا بِثُبُوتِهِمَا عَلَى كُفْرِهِمَا، فَلَا يَكُونَانِ مُنَافِقَيْنِ، وَلَيْسَ تَوْحِيدُ دَلَالَةٍ فِي دُعَاءِ دَاوُدَ عَلَى أَنَّهُمَا لَمْ يَقُولَا ذَلِكَ عَنِ اعْتِقَادٍ، وَاللَّهُ

أَعْلَمُ. وَقِيلَ: مَعْنَى لَا يُبْطِلُهُ الْخ: لَا يَجُوزُ تَرْكُ الْجِهَادِ بَأَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ ظَالِمًا بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِمُ الْمُوَافَقَةُ فِيهِ، وَلَا بَأَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ عَادِلًا فَلَا يَخَافُونَ مِنَ الْكُفَّارِ، وَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى الْعُنَائِمِ؛ لِأَنَّ الْقَصْدَ مِنَ الْجِهَادِ هُوَ إِغْلَاءُ كَلِمَةِ اللَّهِ، فَاحْتِيجَ لِهَذَا نَفْيًا لِهَذَا التَّوَهُّمِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ شَأْنِ عَدْلِ الْعَادِلِ أَنَّهُ لَا يُتَوَهُّمُ فِيهِ إِبْطَالُ الْجِهَادِ بَلْ تَقْوِيَتُهُ، وَلَمَّا نَظَرَ شَارِحُ لِهَذَا قَالَ: تَتِمُّمُهُ، وَإِلَّا فَعَدْلُ الْعَادِلِ لَا يُتَوَهُّمُ فِيهِ إِبْطَالُ. وَقِيلَ: فَعَلَى هَذَا يَكُونُ النَّفْيُ بِمَعْنَى النَّهْيِ (وَالْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ) أَيْ الْخَصْلَةُ الثَّلَاثَةُ، أَوْ الْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ مِنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ، يَعْنِي بَأَنْ جَمِيعَ مَا يَجْرِي فِي الْعَالَمِ هُوَ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَفِيهِ رَدُّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ لِإِتْبَاتِهِمْ لِلْعِبَادَةِ الْقُدْرَةَ الْمُسْتَقْلَةَ بِإِيجَادِ الْمَعْصِيَةِ.^{١٧٠}

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»^{١٧١} وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»^{١٧٢}

أَيْ: نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ النِّفَاقِ؛ أَيْ: مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا فَقَدْ أَشْبَهَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ، وَقِيلَ: هَذَا كَانَ مَخْصُوصًا بِزَمَانِهِ - ﷺ - وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ عَامٌّ وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَنْبُوِيَ الْجِهَادَ إِمَّا بِطَرِيقِ فَرَضِ الْكِفَايَةِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ فَرَضِ الْعَيْنِ، إِذَا كَانَ النِّفْيُ عَامًّا، وَيُسْتَدَلُّ بظَاهِرِهِ لِمَنْ قَالَ: الْجِهَادُ فَرَضٌ عَيْنٍ مُطْلَقًا. وَفِي شَرْحِ مُسْلِمٍ لِلنَّوَوِيِّ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: نَرَى أَنَّ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ مُحْتَمَلٌ، وَقَدْ قَالَ غَيْرُهُ إِنَّهُ عَامٌّ. وَالْمُرَادُ أَنَّ مَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَشْبَهَ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ فِي هَذَا الْوَصْفِ، فَإِنْ تَرَكَ الْجِهَادَ أَحَدُ شُعَبِ النِّفَاقِ، وَفِيهِ أَنَّ مَنْ نَوَى فِعْلَ عِبَادَةٍ فَمَاتَ قَبْلَ فِعْلِهَا لَا يُتَوَجَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الدِّمِّ مَا يُتَوَجَّهُ عَلَى مَنْ مَاتَ وَلَمْ يُنَوِّهَا، وَقَدْ اخْتَلَفَتْ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ تَمَكَّنَ مِنَ الصَّلَاةِ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا فَأَخَّرَهَا بَنِيَّةً أَنْ يَفْعَلَهَا وَمَاتَ، أَوْ أَخَّرَ الْحَجَّ كَذَلِكَ، قِيلَ: يَأْتُمُّ فِيهِمَا، وَقِيلَ لَا يَأْتُمُّ فِيهِمَا، وَقِيلَ: يَأْتُمُّ فِي الْحَجِّ دُونَ الصَّلَاةِ اه. وَالْأَخِيرُ مُوَافِقٌ لِمَذْهَبِنَا^{١٧٣}.

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَمْ يَغْزُ أَوْ يُجَهِّزْ غَازِيًا أَوْ يَخْلُفَ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ، أَصَابَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَارِعَةٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^{١٧٤}

^{١٧٠} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ١٣٠)

^{١٧١} - سنن أبي داود (٣/ ٢٧٤) (٣٤٦٢) صحيح

^{١٧٢} - صحيح مسلم (٣/ ١٥١٧) ١٥٨ - (١٩١٠)

[ش والمراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد في هذا الوصف فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق]

^{١٧٣} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٧٠)

^{١٧٤} - سنن ابن ماجه (٢/ ٩٢٣) (٢٧٦٢) حسن

وما ذكرته هنا من النصوص في هذا المعنى إنما هو قليل من كثير، ولكن أين من ينتفع بما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ؟

وأين من يقتدي بسلف هذه الأمة في رفع لواء التوحيد وإعلاء كلمه الله؟ ومن الذي يؤثر الباقي على الفاني ويبيع دنياه بأخراه؟

فاحذروا أيها القاعدون المتقاعسون المخذلون المرجفون من مقت الله لكم وسخطه عليكم، فإن الجهاد في سبيل الله شريعة ماضية إلى يوم القيامة. فعليكم بالتوبة إلى الله والإنابة إليه قبل العرض عليه والحساب بين يديه.

ومع الأسف أن الأمر لم يتوقف على القول بترك الجهاد فحسب بل تعدى ذلك إلى إيذاء المؤمنين المجاهدين والنيل منهم ووصفهم بأنهم إرهابيون حسب ما يراه اليهود والنصارى وأعداء الدين أو أنهم لا يفقهون حقيقة الإسلام أو أنهم خارجون على ولائهم ومجتمعاتهم فنصبوا لهم العدى وجعلوا يتبعونهم في كل مكان لأجل تسليمهم إلى العدالة المزعومة فيصبون عليهم جام غضبهم من سجن وتعذيب نكاية لهم ولما قاموا به من نصرة لدين الله عز وجل

أما يعلم هؤلاء أن الله عز وجل لهم بالمرصاد لما يتعاملون به مع حزبه وجنده الذين قال الله فيهم: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) (الحج: ٣٨).

أما يفقه هؤلاء مما هم سادرون فيه من إيذاء وتنكيل بالمؤمنين أم إنهم قد استبطئوا العذاب والانتقام للمظلومين فويل لهم ثم ويل لهم يوم يجمع الله الأولين والآخرين فيقتص للمظلوم من الظالم، أليس الله عز وجل قد تولى محاربة من حارب المؤمنين وتعذيبهم بالعذاب المهين؟

أين هؤلاء من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما فيهما من الوعيد الشديد على من تعرض المؤمنين وقام بإيذائهم؟ .

وهذه جملة من نصوص الكتاب والسنة أوردتها تحذيراً لهؤلاء من الاستمرار فيما هم فيه وتنبهاً لعافلهم، قال تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً) (الأحزاب: ٥٨).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: (وإن كان أذيه المؤمنين عظيمة وإثمها عظيماً ولهذا قال فيها: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا) أي بغير جنابة منهم موجبة للأذى (فَقَدْ احْتَمَلُوا) على ظهورهم (بُهْتَاناً) حيث آذوهم بغير سبب (وَإِثْماً مُّبِيناً) حيث تعدوا عليهم وانتهكوا حرمة الله باحترامها).^{١٧٥}

[ش - (أو يحلف) أي لم يقم بعده في خدمته أهله بأن يصير خليفة له ونائباً عنه في قضاء حوائجه (بقارعة) أي بدهاية مهلكة. يقال قرعة أمر إذا أتاه فجأة. وجمعها قوارع]

^{١٧٥} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٧١)

وفي الظلال: (وهذا التشديد يشي بأنه كان في المدينة يومذاك فريق يتولى هذا الكيد للمؤمنين والمؤمنات، بنشر قالة السوء عنهم، وتدمير المؤامرات لهم، وإشاعة التهم ضدهم. وهو عام في كل زمان وفي كل مكان. والمؤمنون والمؤمنات عرضة لمثل هذا الكيد في كل بيئة من الأشرار المنحرفين، والمنافقين، والذين في قلوبهم مرض. والله يتولى عنهم الرد على ذلك الكيد، ويصم أعداءهم بالإثم والبهتان. وهو أصدق القائلين.)^{١٧٦}

عن إسماعيل بن بشير قال: سمعت جابر بن عبد الله، وأبا طلحة بن سهل الأنصاري يقولان: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أَمْرٍ يَخْذُلُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عَرْضِهِ، إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ أَمْرٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عَرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ، إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ» قَالَ يَحْيَى: وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَعُقْبَةُ بْنُ شَدَادٍ، قَالَ أَبُو دَاوُدَ: "يَحْيَى بْنُ سَلِيمٍ، هَذَا هُوَ ابْنُ زَيْدٍ مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ بَشِيرٍ مَوْلَى بَنِي مَعَالَةَ، وَقَدْ قِيلَ: عُتْبَةُ بْنُ شَدَادٍ مَوْضِعَ عُقْبَةَ"^{١٧٧}.

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قالوا يا رسول الله، أي الإسلام أفضل؟ قال: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ، وَيَدِهِ»^{١٧٨}

ففي هذين الحديثين دليل على وجوب احترام المسلم وعدم خذلانه وإيذائه.

وعن سهل بن معاذ الجهني، قال: غزوت مع أبي الصائفة في زمن عبد الملك بن مروان وعلينا عبد الله بن عبد الملك، فنزلنا على حصن سنان، فضيق الناس في المنازل، وقطعوا الطريق، فقام أبي في الناس، فقال: أيها الناس، إني غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة كذا وكذا، فضيق الناس المنازل، وقطعوا الطريق، فبعث نبي الله ﷺ منادياً ينادي في الناس: «أَنْ مَنْ ضَيَّقَ مَنْزِلًا أَوْ قَطَعَ طَرِيقًا فَلَا جِهَادَ لَهُ»^{١٧٩}.

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: «يَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُعَذِّبُونَكُمْ وَيُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ»^{١٨٠}

فبهذه النصوص وغيرها يتبين عظم جرم المعتدي على عباد الله المؤمنين وأن مصيره إلى العذاب الأليم فاحذروا يا من نذرتم أنفسكم لمطاردة أولياء الله وتعذيبهم والزج بهم في غياهب السجون فإن الله يهمل ولا يهمل، وفي البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي

^{١٧٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٦٥٤)

^{١٧٧} - سنن أبي داود (٤/ ٢٧١) (٤٨٨٤) حسن لغيره

^{١٧٨} - صحيح البخاري (١/ ١١) (١١)

[ش(قالوا) قيل السائل هو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه نفسه وقيل هو وغيره. (أي الإسلام أفضل) أي الأعمال في الإسلام أعظم أجرا وأعلى مرتبة]

^{١٧٩} - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢١٢) (٢٤٦٨) حسن

^{١٨٠} - المستدرک علی الصحیحین للحاکم (٤/ ٥٥٠) (٨٥٣٩) صحيح

لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: {وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢] ١٨١ .

وفي مسلم عن جابر بن عبد الله، أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ» ١٨٢

وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ: «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» ١٨٣ .

وما أرى هذه الجيوش الصليبية التي قد كشرت عن أنيابها وجاءت لتعلن حقدتها الدفين إلا من جراء ما هو حاصل من الظلم والبطش بالمؤمنين والتلبس بكثير من المعاصي التي هي سبب في انتقام الله وسطوته على من تعدى حدوده وارتكب محارمه قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) (الرعد: ١١) .
وقال عز وجل (وما أصابكم من مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى: ٣٠) .
فاحذروا أن تجروا الأمة إلى الدمار وإشعال الفتن التي ربما عز إطفائها وفقدت القدرة على إخمادها فالجهاد ليس جريمة يحاسب عليها المرء ويدان بها بل الجريمة أن يترك الجهاد ويتعقب المجاهدون لا لشيء إلا لما قاموا به من هذا الأمر العظيم الذي تحدث عنه القرآن في أكثر من خمس مائة آية وجاءت الأحاديث التي لا تحصى تبين حكمه وفضله وما للمجاهدين عند الله من المرتلة العظيمة بل توعدهم الله من ترك الجهاد بالذل والهوان وتسليط العدو والعذاب في الآخرة كما قال تعالى عن المنافقين (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ) (التوبة: ٨١) .

١٨١ - صحيح البخاري (٧٤/٦) (٤٦٨٦)

[ش (ليملي) ليمهل. (لم يفلته) لم يخلصه ولم يتركه حتى يستوفي عقابه. (وكذلك) أي كما ذكر من إهلاك الأمم وأخذهم بالعذاب. (أخذ ربك) إهلاكه وعذابه. (أخذ القرى) أخذ أهلها / هود ١٠٢ /]

١٨٢ - صحيح مسلم (٤/١٩٩٦) ٥٦ - (٢٥٧٨)

[ش (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) قال القاضي قيل هو على ظاهره فيكون ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيامة سبيلا حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد وبه فسروا قوله تعالى قل من ينحيكم من ظلمات البر والبحر أي شدائدهما ويحتمل أنها عبارة عن الأنكال والعقوبات (واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم) قال القاضي يحتمل أن هذا الهلاك هو الهلاك الذي أخبر عنهم به في الدنيا بأنهم سفكوا دماءهم ويحتمل أنه هلاك الآخرة وهذا الثاني أظهر ويحتمل أنه أهلكهم في الدنيا والآخرة قال جماعة الشح أشد البخل وأبلغ في المنع من البخل وقيل هو البخل مع الحرص وقيل البخل في أفراد الأمور والشح عام وقيل الشح الحرص على ما ليس عنده والبخل بما عنده]

١٨٣ - صحيح البخاري (٣/١٢٩) (٢٤٤٨)

فتأمل قوله تعالى (قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا) لما اعتذروا له ﷺ من شدة الحر كيف كان الجواب لهذا الاعتذار الذي لا يغني عنهم من الله شيئاً وقد نهي الله عز وجل عن تقديم محبة الآباء والأبناء وغيرهم على محبة الجهاد وأن من فعل ذلك يحكم عليه بالفسق

قال تعالى: { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (٢٤) سورة التوبة

وأن من تقاعس عن الجهاد والنفرة في سبيل الله يعذبه الله العذاب الأليم

قال تعالى: {إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (٣٩) سورة التوبة

وتأمل الأحاديث المذكورة قريباً يتبين لك ما توعد الله به الناكسين والمتخاذلين عنه فضلاً أن يترصبوا بأهله الدوائر ويصفونهم بالأوصاف الشنيعة^{١٨٤}

٢٥ - الإنابة إلى الله:

قال تعالى: {وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) } [الزمر]

يستحث الله تعالى الذين أسرفوا على أنفسهم إلى المسارعة إلى التوبة، ويقول لهم: ارجعوا إلى ربكم بالتوبة، والعمل الصالح قبل أن تحل بكم نقمته، وقبل أن ينزل بكم العذاب، وحينئذ لا تجدون من ينصركم من بأس الله . ولا من يدفع عنكم عذابه ..

ثم يأمر الله تعالى عباده بالتباعد ما أمرهم به (وهو أحسن ما أنزل الله إلى عباده)، وباجتناب ما نهاهم عنه، من قبل أن ينزل بهم العذاب فجأة وهم لا يشعرون، ولا ينتظرون وقوعه حين يغشاهم .

^{١٨٤} - أين تطلب العزة - محمد بن ريس الرئيس

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالْإِيمَانِ وَبِالرُّجُوعِ إِلَيْهِ تَعَالَى لِكَيْلَا يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَقُولُ بَعْضُ الْأَنْفُسِ حِينَ تَرَى صِدْقَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ: يَا حَسْرَتِي عَلَى تَقْصِيرِي فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَلَى سُخْرِيَّتِي وَاسْتَهْزَائِي بِرَسُولِ اللَّهِ، وَمَا جَاءَنِي بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

أَوْ تَقُولُ بَعْضُ الْأَنْفُسِ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي وَأَرْشَدَنِي إِلَى دِينِهِ وَطَاعَتِهِ، لَكُنْتُ فِي الدُّنْيَا مِمَّنْ اتَّقَى اللَّهَ، وَتَرَكَ الشَّرْكَ، وَأَقْلَعَ عَنِ ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي .
أَوْ تَقُولُ بَعْضُ الْأَنْفُسِ الْمَذْنِبَةِ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَيْتَ لِي رَجْعَةً إِلَى الدُّنْيَا فَاتَّبِعِ الرُّسُلَ، وَأَكُونُ مِنَ الْمُهْتَدِينَ الْمُحْسِنِينَ فِي أَعْمَالِهِمْ .

وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِهَؤُلَاءِ الْمُتَبَاطِئِينَ فِي التَّوْبَةِ: إِنَّ رَدَّهَ تَعَالَى عَلَى تِلْكَ الْأَنْفُسِ الَّتِي تَتَمَنَّى الْمُنَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتَتَحَسَّرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهَا مِنْ قُصُورٍ، هُوَ أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ الْيَوْمَ، فَقَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فِي الدُّنْيَا عَلَى لِسَانِ رُسُلِي تُذَكِّرُكَ وَتَدْعُوكَ وَتُنذِرُكَ فَكَذَّبْتَ بِهَا، وَاسْتَكْبَرْتَ عَنْ قَبُولِهَا، وَكُنْتَ مِنَ الثَّابِتِينَ عَلَى الْكُفْرِ .^{١٨٥}

الإِنَابَةُ. وَالْإِسْلَامُ. وَالْعُودَةُ إِلَى أَفْيَاءِ الطَّاعَةِ وَظِلَالِ الْإِسْتِسْلَامِ .. هَذَا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ.. بَلَا طَقُوسٍ وَلَا مَرَّاسِمٍ وَلَا حَوَاجِزٍ وَلَا وَسْطَاءٍ وَلَا شَفْعَاءَ! إِنَّهُ حِسَابٌ مُبَاشِرٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالرَّبِّ. وَصَلَةُ مُبَاشِرَةٌ بَيْنَ الْمَخْلُوقِ وَالْخَالِقِ. مَنْ أَرَادَ الْأَوْبَةَ مِنَ الشَّارِدِينَ فَلْيُؤَبِّبْ.

وَمَنْ أَرَادَ الْإِنَابَةَ مِنَ الضَّالِّينَ، فَلْيَنْبِ. وَمَنْ أَرَادَ الْإِسْتِسْلَامَ مِنَ الْعَصَاةِ فَلْيَسْتَسْلِم. وَلِيَأْتِ .. لِيَأْتِ وَلِيَدْخُلَ فَالْبَابَ مَفْتُوحٌ. وَالْفِيءُ وَالظِّلُّ وَالنَّدَى وَالرِّخَاءُ: كُلُّهُ وَرَاءَ الْبَابِ لَا حَاجِبَ دُونَهُ وَلَا حَسِيبَ! وَهِيَ. هِيَ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ. هِيَ «مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ» .. فَمَا هُنَا لَكَ مِنْ نَصِيرٍ. هِيَ فَالْوَقْتُ غَيْرُ مَضْمُونٍ. وَقَدْ يَفْصِلُ فِي الْأَمْرِ وَتَغْلِقُ الْأَبْوَابَ فِي آيَةِ لَحْظَةٍ مِنْ لَحْظَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. هِيَ.

«وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» .. وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ .. «مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَعْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» .. هِيَ قَبْلَ أَنْ تَتَحَسَّرُوا عَلَى فَوَاتِ الْفُرْصَةِ، وَعَلَى التَّفْرِيطِ فِي حَقِّ اللَّهِ، وَعَلَى السُّخْرِيَّةِ بِوَعْدِ اللَّهِ: «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ: يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ. وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاحِرِينَ» .. أَوْ تَقُولَ إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيَّ الضَّلَالَ وَلَوْ كَتَبَ عَلَيَّ الْهُدَى لَاهْتَدَيْتُ وَاتَّقَيْتُ: «أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» .. وَهِيَ عِلَالَةٌ لَا أَصْلَ لَهَا. فَالْفُرْصَةُ هِيَ ذِي سَانِحَةٍ، وَوَسَائِلُ الْهُدَى مَا تَزَالُ حَاضِرَةً. وَبَابُ التَّوْبَةِ هِيَ هَذَا مَفْتُوحٌ! «أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ: لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» .. وَهِيَ أُمْنِيَّةٌ لَا تَنَالُ. فَإِذَا انْتَهَتْ هَذِهِ الْحَيَاةُ فَلَا كَرَّةَ وَلَا

^{١٨٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٩٩١، بترقيم الشاملة آليا)

رجوع. وها أنتم أولاء في دار العمل. وهي فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود. وستسألون عنها مع التبكيت والترذيل: «بلى. قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين»!^{١٨٦}

٢٦ - أن يكونوا جنداً للرحمن :

قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْعَالِبُونَ (١٧٣)} [الصفات: ١٧١ - ١٧٣]

ولقد سبق وعُدَّ الله في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم المخلصين في الدنيا والآخرة . وأنه سينصرهم ويؤزرهم ويذل أعداءهم وأعداء الله . وإن جند الله الذين يُقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا، ستكون لهم الغلبة على أعدائهم في الحرب . وأعرض عنهم يا محمد، واصبر على أذاهم، وانتظر مدة قليلة، فإن الله سيجعل لك العاقبة، والنصر والغلبة^{١٨٧}

والوعد واقع وكلمة الله قائمة. ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض وقام بناء الإيمان، على الرغم من جميع العوائق، وعلى الرغم من تكذيب المكذبين، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين. ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار. وذهبت سطوتهم ودولتهم وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل. تسيطر على قلوب الناس وعقولهم، وتكيف تصوراتهم وأفهامهم. وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض. وكل المحاولات التي بذلت لمحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل، وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل. باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبعث منها. وحقَّت كلمة الله لعباده المرسلين. إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون. هذه بصفة عامة. وهي ظاهرة ملحوظة. في جميع بقاع الأرض. في جميع العصور.

وهي كذلك متحققة في كل دعوة لله، يخلص فيها الجند، ويتجرد لها الدعاة. إنها غالبية منصوره مهما وضعت في سبيلها العوائق، وقامت في طريقها العراقيل. ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار، وقوى الدعاية والافتراء، وقوى الحرب والمقاومة، وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها. ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله. والذي لا يخلف ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه. الوعد بالنصر والغلبة والتمكين. هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية. سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان وكما تنشق الحياة في

^{١٨٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٥١)

^{١٨٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٨٣٨، بترقيم الشاملة آليا)

الأرض الميتة يتزل عليها الماء.. ولكنها مرهونة بتقدير الله، يحققها حين يشاء. ولقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة.

ولكنها لا تخلف أبدا ولا تتخلف وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة، ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين! ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله. ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى. فيكون ما يريده الله. ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون.. ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم غير قريش وأراد الله أن تفوقهم القافلة الراجحة الهينة وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة. وكان ما أراده الله هو الخير لهم وللإسلام. وكان هو النصر الذي أراده الله لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام.

ولقد يهزم جنود الله في معركة من المعارك، وتدور عليهم الدائرة، ويقسو عليهم الابتلاء لأن الله يعدمهم للنصر في معركة أكبر. ولأن الله يهيئ الظروف من حولهم ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع، وفي خط أطول، وفي أثر أدوم.

لقد سبقت كلمة الله، ومضت إرادته بوعده، وثبتت سنته لا تتخلف ولا تحيد: «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ»..^{١٨٨}

٢٧ - بذلُ الجهد الكامل لهداية الكفار واليأس من إصلاحهم:

قال تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [يوسف: ١١٠]

يُذَكِّرُ اللهُ تعالى رسوله ﷺ بأنه أرسل رسلاً قبلاً فافتضت حكمته تعالى أن يتراخى نصرُ الله عن الرُّسُلِ، وأن يتناول عليهم التَّكْذِيبَ مِنْ قَوْمِهِمْ، حَتَّىٰ إِذَا زُلْزِلَتِ النَّفُوسُ، وَاسْتَشْعَرَتِ الْقُنُوطُ وَالْيَأْسُ مِنَ النَّجَاةِ وَالتَّصَرُّ، فَحِينَئِذٍ يَأْتِي نَصْرُ اللهِ، فَيُنَجِّي مَنْ يَشَاءُ اللهُ إِنْجَاةً، وَيُهْلِكُ مَنْ يَشَاءُ إِهْلَاكَةً، وَلَا يُرَدُّ أَحَدٌ بِأَسِ اللهِ وَعِقَابُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ .

وفي قوله تعالى (كُذِّبُوا) قراءتان:

الأولى - (كُذِّبُوا) - بضم الكاف وتشديد الدال - وكذلك كانت تقرأها عائشة رضي الله عنها عليها - ومعناها: إن الرُّسُلَ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ، وَلَنْ يُؤْمِنُوا لَهُمْ، وَيَسْأُوا مِنْ قَوْمِهِمُ الْكَافِرِينَ .

^{١٨٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٧٨٨)

والثانية - (كذبوا) - يضم الكاف وتخفيف الذال - وكذلك كان يقرؤها ابن عباس - ومعناها: إنه لما بعث الرسل من أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم، جاء نصر الله فأيد الرسل. ففي القراءة الأولى: يشعر الرسل أنهم كذبوا من قبل أقوامهم.

وفي القراءة الثانية: يدرك القوم أن الرسل كذبوهم بما جاؤوهم به ..^{١٨٩}

استئس: واجه اليأس، ووقع في تصوره أن لا ملجأ، ولا نجاة، وذلك في لقاء الأحداث، ومصادمة الشدائد.. كذبوا: أي كذب عليهم، إذ لم يتحقق لهم ما وعدوا به إلى أن بلغ بهم الحال إلى هذا اليأس.. - وقوله تعالى: «حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا» ..

حتى حرف غاية لما قبله.. وهنا كلام محذوف هو الغاية التي يشير إليها هذا الحرف.. والتقدير:

أن مهمة الرسل هي الوقوف في وجه هذا الظلام الزاحف، والتصدي لتلك القوى العاتية من قوى الشر والعدوان، وأنهم مطالبون بأن يثبتوا، ويصبروا، ويصابروا. فإن نصر الله آت لا ريب فيه.. وهكذا يظل الرسل في متلاطم الشدائد والمحن، حتى لقد يدخل اليأس عليهم، وتغيم الحياة في أعينهم، ويغم عليهم طريق النجاة، ويخيل إليهم أن النصر أبعد ما يكون منهم - عندئذ تهب ريح النصر، وتطلع عليهم تباشير الصباح، فتطوى جحافل الظلام، وتطارد فلوله..

وإذا دولة الباطل قد ذهبت، وذهبت آثارها، وإذا راية الحق قد علت، وخفقت أعلامها..

وفي هذا تسلية للنبي الكريم، وشحد لعزيمته، وتثبيت لقدمه، وتطمين لقلبه، وتأکید للوعد الذي وعد به من ربه في قوله تعالى: «كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» (٢١: المجادلة) هذا، وليس في استئناس الرسل، وفي إطفاء الظنون بهم، وبأنهم قد كذبوا - ليس في هذا ما ينقص من قدر الرسل، أو يشكك في كمال إيمانهم برهم، واستيقانهم من صدق وعده.. فهم على يقين راسخ بما وعدهم الله به، ولكن هناك مواقف حادة من الضيق، وأحوال بالغة من الشدة، تأخذ على الإنسان تقديره وتديره، وتمثل له الحقائق المحسوسة التي عايشها، ونزلت من عقله منزل اليقين، وقد قلبت أوضاعها، وتبدلت حقائقها - عندئذ وللحظة عابرة عبور الطيف، يخون الإنسان يقينه، ويفلت منه زمام أمره.. ثم يعود إلى موقفه، أشد تثبتاً، وأقوى يقيناً، وأرسخ قدماً.. إنها سحابة صيف، تغشى وجه الشمس، ثم لا تلبث حتى تزول، وتسفر الشمس عن وجه أبهى بهاء، وأضوأ ضوءاً، وأصفى صفاء مما كانت عليه قبل أن تمر بها تلك السحابة العابرة..

فتلك الحال التي تمثل الرسل في هذا الموقف، هي القمة التي تنتهي عندها طاقة الاحتمال البشري، في مصادمة الأحداث، ومدافعة الأهوال والشدائد..

^{١٨٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٧٠٧، بترقيم الشاملة آليا)

وهي قمة لا يبلغها إلا أولو العزم من رسل الله.. حيث تون الخطوة التالية بعدها انخلاء من عالم البشر، إلى العالم العلوي، وعندها تهبّ ريح النصر، وتجيء أمداد السماء! وفي هذا ابتلاء للرسول، واستخلاص لكل ما عندهم من مذخور.. من قوى الصبر والعزم والإيمان..

- قوله تعالى: «فَنَجِّي مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ» - إشارة إلى أن نصر الله الذي يحقق به لرسوله ما وعدهم به، يحمل معه من الهلاك والبلاء للقوم المجرمين.. فإن هذا النصر إنما يمشى على جثث أعداء الرسل، الذين حاربوهم هذه الحرب القاسية، ودفعوا بهم إلى تلك المآزق الحرجة، حتى لكادوا يفتنونه في دينهم: «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» (٣٢: التوبة)^{١٩٠}

إنها صورة رهيبة، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود. وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل، وتكر الأعوام والباطل في قوته، وكثرة أهله، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة.

إنها ساعات حرجة، والباطل ينتفش ويطغى ويطش ويغدر. والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض. فتهجس في خواطرهم الهواجس.. تراهم كذبوا؟ ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟

وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه بشر. وما قرأت هذه الآية والآية الأخرى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ: مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟...» ما قرأت هذه الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة من تصور الهول الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ، ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس، والكرب المزلزل الذي يرج نفس الرسول هذه الرجعة، وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات، وما يحس به من ألم لا يطاق.

في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب، ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة.. في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً: «جَاءَهُمْ نَصْرُنَا، فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ»..

تلك سنة الله في الدعوات. لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة. ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس. يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين، وينجون من البطش

^{١٩٠} - التفسير القرآني للقرآن (٥٩ / ٧)

والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون. ويحل بأس الله بالجرمين، مدمرا ماحقا لا يقفون له، ولا يصدده عنهم ولي ولا نصير.

ذلك كي لا يكون النصر رخيصا فتكون الدعوات هزلا. فلو كان النصر رخيصا لقام في كل يوم دعيّ بدعوة لا تكلفه شيئا. أو تكلفه القليل. ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثا ولا لعبا. فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج، ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعياء. والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة، لذلك يشفقون أن يدعواها، فإذا ادّعوا عجزوا عن حملها وطرحوها، وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون الذين لا يتخلون عن دعوة الله، ولو ظنوا أن النصر لا يجيئهم في هذه الحياة!

إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل إما أن تربح ربحا معيناً محددًا في هذه الأرض، وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحا وأيسر حصيلة! والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية - والمجتمعات الجاهلية هي التي تدين لغير الله بالطاعة والاتباع في أي زمان أو مكان - يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريحة، ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل! إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود! ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله، باستثارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات! . ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف، وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثير التكاليف أيضا. وأنه من ثم لا تنضم إليها - في أول الأمر - الجماهير المستضعفة، إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله، التي تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا. وأن عدد هذه الصفوة يكون دائما قليلا جدا.

ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق، بعد جهاد يطول أو يقصر. وعندئذ فقط تدخل الجماهير في دين الله أفواجا. ^{١٩١}

٢٨ - الصبر على أذى الكفار في حال الضعف؛

قال تعالى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام: ٣٤]

^{١٩١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٦٨١)

يَلْفِتُ اللَّهُ تَعَالَى نَظَرَ رُسُولِهِ إِلَى مَا لَاقَاهُ الرُّسُلُ قَبْلَهُ مِنْ تَكْذِيبِ أَقْوَامِهِمْ هُمْ، فَصَبَرُوا عَلَى الْإِذَاءِ وَالتَّكْذِيبِ، حَتَّى جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ. ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ أَنْ تَتَأَسَّى بِهِمْ، وَتَصْبِرَ، فَكَمَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ مِنْ سَبَقِكَ مِنَ الرُّسُلِ، كَذَلِكَ سَيَنْصُرُكَ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِكَ الْكَافِرِينَ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ الَّتِي قَضَى فِيهَا أَنْ تَنْصُرَ وَالْعَاقِبَةُ سَتَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَلَقَدْ جَاءَكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ نَبَأٌ نَصَرَ اللَّهُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ كَذَّبَهُمْ وَعَادَاهُمْ مِنْ أَقْوَامِهِمْ، فِيمَا قَصَّهَ عَلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ، وَفِي ذَلِكَ تَسْلِيَةٌ لَكَ، وَتَثْبِيتٌ. ١٩٢

إن موكب الدعوة إلى الله موغل في القدم، ضارب في شعاب الزمن، ماض في الطريق اللاحب، ماض في الخط الواصب.. مستقيم الخطى، ثابت الأقدام، يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل، ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعون، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة، وتسيل الدماء وتمزق الأشلاء والموكب في طريقه لا ينحني ولا ينثني ولا ينكص ولا يجحد.. والعاقبة هي العاقبة، مهما طال الزمن ومهما طال الطريق.. إن نصر الله دائما في نهاية الطريق: «وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ، فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَاِ الْمُرْسَلِينَ».. كلمات يقولها الله - سبحانه - لرسوله - ﷺ -.. كلمات للذكرى، وللتسرية وللمواساة، والتأسية.. وهي ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله - ﷺ - طريقهم واضحا، ودورهم محمدا، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق... إنها تعلمهم أن سنة الله في الدعوات واحدة. كما أنها كذلك وحدة. وحدة لا تتجزأ.. دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب، وتتلقي أصحابها بالأذى.. وصبر من الدعاة على التكذيب وصبر كذلك على الأذى..

وسنة تجري بالنصر في النهاية.. ولكنها تجيء في موعدها. لا يعجلها عن هذا الموعد أن الدعاة الأبرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب، ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقدرون على أذى المخلصين الأبرياء الطيبين! ولا يعجلها كذلك عن موعدها أن صاحب الدعوة المخلص المتجرد من ذاته ومن شهواته إنما يرغب في هداية قومه حبا في هدايتهم، ويأسى على ما هم فيه من ضلال وشقوة، وعلى ما ينتظرهم من دمار وعذاب في الدنيا والآخرة.. لا يعجلها عن موعدها شيء من ذلك كله. فإن الله لا يعجل لعجلة أحد من خلقه. ولا مبدل لكلماته. سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم، أم تعلقت بالأجل المرسوم. إنه الجدد الصارم، والحسم الجازم، إلى جانب التطمين والتسرية والمواساة والتسلية ١٩٣...

هو عزاء بعد عزاء للنبي الكريم، ورحمات من رب رحيم تتزل عليه، وهو في مواجهة هذا العناد والعنت الذي يلقيه من قومه.. وفي هذا العزاء يرى النبي - صلوات الله وسلامه عليه - مشاهد كثيرة لهذا

١٩٢ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٨٢٤، بترقيم الشاملة آليا)

١٩٣ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٥٠١)

المشهد الذي يعيش فيه.. فهناك رسل كثيرون من رسل الله قد كذبوا من أقوامهم، وأوذوا في أنفسهم من سفهاء قومهم، ولكنهم اعتصموا بالصبر، واحتملوا الأذى في سبيل الرسالة الكريمة التي شرفهم الله بها..

فهذا نوح عليه السلام - يلقاه قومه بالنكير والاستهزاء، ويلاحقونه بالأذى والضرر - وفي هذا يقول الله على لسانه: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ» (هود: ٣٥). وقد أخذهم الله بهذا المنكر.. فأغرقهم ونجى نوحا ومن معه: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ» (١١٩ - ١٢٠: الشعراء).

وهذا هود - عليه السلام - يلقى قومه داعيا إلى الله، مبشرا ومنذرا بآياته، فتكون قولتهم له: «يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلِهتنا بسوء» (٥٣ - ٥٤: هود).. ثم كانت عاقبتهم عاقبة كل ظالم.. فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية: «وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ» (٦ - ٨: الحاقة).

وهكذا كان الشأن مع صالح، ولوط، ومع كل نبي أعنته قومه، وكذبوا بآيات الله التي بين يديه.. النجاة والسلامة للنبي والمؤمنين به، والهلاك والدمار لمن كذبوا به، وبآيات ربه..

وفي هذا أسوة للنبي، وللمؤمنين معه.. فليحتمل الأذى، وليصبر على الضرر، وليحتمل المؤمنون الأذى وليصبروا على الضرر، فإن العاقبة له ولهم، وإن النصر للحق ولن ينصرون الحق.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «فَصَبِّرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ» فتلك هي سنة في الذين خلوا، ولن تتخلف آثارها في حاضر أو مستقبل.. فإن أحكام الله لا تنقض وكلماته لن تبدل..^{١٩٤}

وقال تعالى: {وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [إبراهيم: ١٢]

وبعد أن أجابهم الأنبياء على شبهاتهم، أخذ المشركون يخوفونهم، ويتوعدونهم بالانتقام والإيذاء، فقال لهم الأنبياء: إننا لا نخاف تهديدكم، بل نتوكل على الله، ونعتمد عليه، وكيف لا نتوكل على الله، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها؟ وسنصبر على ما ألحقتموه بنا من الأذى بأقوالكم وأفعالكم، ومن توكل على الله كفاه ما أهمه وأغمه..^{١٩٥}

^{١٩٤} - التفسير القرآني للقرآن (٤ / ١٦٠)

^{١٩٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٧٦٣، بترقيم الشاملة آليا)

هو تقرير وتوكيد لتلك الحقيقة التي أعلنها الرسل، وهي أنهم قد توكلوا على الله، وأسلموا وجوههم له.. ولم لا يتوكلون عليه وقد اصطفاهم لأكرم رسالة، وجعلهم مصاييح هدى للناس؟ لقد هداهم الله إلى الحق، وأقامهم على صراطه المستقيم.. فكيف لا يسلمون أمرهم إليه، وهو سبحانه الذي أخذ بأيديهم، فأخرجهم من تلك الظلمات المطبقة على أقوامهم؟

وفي قوله تعالى: «وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا» هو بعض ما يقدمه الرسل لله، وهو الصبر على الأذى الذي يلقونه في سبيل تبليغ رسالته..^{١٩٦}

إنما مواجهة الدفاع عن النفس في وجه الاحتياج ومواجهة الدفاع عن الحاكمية المغتصبة وهي من خصائص الألوهية التي يغتصبها في الجاهلية العباد! وإذ كان هذا هو شعور الجاهلية بخطر الدعوة الإسلامية عليها، فقد واجهت هذه الدعوة في معركة حياة أو موت، لا هوادة فيها ولا هدنة ولا تعايش ولا سلام! ..

إن الجاهلية لم تخدع نفسها في حقيقة المعركة وكذلك لم يخدع الرسل الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم - أنفسهم ولا المؤمنين بهم في حقيقة المعركة.. «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ: لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا».. فهم لا يقبلون من الرسل والذين آمنوا معهم، أن يتميزوا وينفصلوا بعقيدتهم وبقيادتهم وبتجمعهم الخاص.

إنما يطلبون إليهم أن يعودوا في ملتهم، ويندمجوا في تجمعهم، ويذوبوا في هذا التجمع. أو أن يطردوهم بعيدا وينفوههم من أرضهم ..

ولم يقبل الرسل الكرام أن يندمجوا في التجمع الجاهلي، ولا أن يذوبوا فيه، ولا أن يفقدوا شخصية تجمعهم الخاص.. هذا التجمع الذي يقوم على قاعدة أخرى غير القاعدة التي يقوم عليها التجمع الجاهلي.. ولم يقولوا - كما يقول ناس ممن لا يدركون حقيقة الإسلام.. ولا حقيقة التركيب العضوي للمجتمعات - : حسنا! فلندمج في ملتهم كي نزاوّل دعوتنا ونخدم عقيدتنا من خلالهم!!!

إن تميز المسلم بعقيدته في المجتمع الجاهلي، لا بد أن يتبعه حتما تميزه بتجمعه الإسلامي وقيادته وولائه . وليس في ذلك اختيار.. إنما هي حتمية من حتميات التركيب العضوي للمجتمعات.. هذا التركيب الذي يجعل التجمع الجاهلي حساسا بالنسبة لدعوة الإسلام القائمة على قاعدة عبودية الناس لله وحده وتنحية الأرباب الزائفة عن مراكز القيادة والسلطان. كما يجعل كل عضو مسلم يتمتع في المجتمع الجاهلي خادما للتجمع الجاهلي لا خادما لإسلامه كما يظن بعض الأغرار!^{١٩٧}

ثم تبقى الحقيقة القدرية التي ينبغي ألا يغفل عنها الدعاة إلى الله في جميع الأحوال. وهي أن تحقيق وعد الله لأوليائه بالنصر والتمكين والفصل بينهم وبين قومهم بالحق، لا يقع ولا يكون، إلا بعد تميز

^{١٩٦} - التفسير القرآني للقرآن (٧/ ١٥٩)

^{١٩٧} - يراجع بتوسع فصل: «نشأة المجتمع المسلم وخصائصه» في كتاب «معالم في الطريق». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

أصحاب الدعوة وتحيزهم وإلا بعد مفاصلتهم لقومهم على الحق الذي معهم .. فذلك الفصل من الله لا يقع وأصحاب الدعوة متميعون في المجتمع الجاهلي، ذائبون في أوضاعه عاملون في تشكيلاته .. وكل فترة تميع على هذا النحو هي فترة تأخير وتأجيل لوعده الله بالنصر والتمكين .. وهي تبعة ضخمة هائلة يجب أن يتدبرها أصحاب الدعوة إلى الله، وهم واعون مقدرون .^{١٩٨}

وقال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ } [الأحقاف: ٣٥]

فاصبر يا محمد على ما ثلّاه عليه من تكذيب قومك لك، كما صبر أصحاب القوة والثبات، من الرسل الذين سبقوك، على تكذيب أقوامهم لهم حينما أبلغوهم دعوة الله إلى الإيمان به . ولا تستعجل بسؤال ربك أن ينزل بهم العذاب، فهو واقع بهم لا محالة . وإنهم حينما ينزل بهم العذاب يوم القيامة يرون أن مدة لبثهم في الدنيا (أو في قبورهم) كانت قصيرة، حتى ليحسبوها ساعة من نهار .

وهذا الذي وعظّم به لكاف في الموعظة، ولا يهلك بالعذاب إلا الكافرون الخارجون عن طاعة الله وأمره، لأن الله لا يعذب إلا من يستحق العذاب ..^{١٩٩}

أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له وأن لا يزال داعيا لهم إلى الله وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين سادات الخلق أولي العزائم والمهم العالية الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم والقفو لآثارهم والاهتداء بمنارهم.

فامتثل ﷺ لأمر ربه فصبر صبرا لم يصبره نبي قبله حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعا بصدده عن الدعوة إلى الله وفعلوا ما يمكنهم من المعادة والمخاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعا بأمر الله مقيما على جهاد أعداء الله صابرا على ما يناله من الأذى، حتى مكن الله له في الأرض وأظهر دينه على سائر الأديان وأتمته على الأمم، فﷺ تسليما. وقوله: {وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب فإن هذا من جهلهم وحقهم فلا يستخفونك بجهلهم ولا يحملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك فإن كل ما هو آت قريب، و {كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا} في الدنيا {إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ} فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صائرون إلى العذاب الويل. {بَلَاغٌ} أي: هذه الدنيا متاعها وشهوها ولذا لها بلغة منغصة ودفع وقت حاضر قليل. أو هذا القرآن العظيم الذي بينا لكم فيه البيان التام بلاغ لكم، وزاد إلى الدار الآخرة، ونعم الزاد والبلغة زاد يوصل إلى دار النعيم ويعصم من العذاب الأليم، فهو أفضل زاد يتزوده الخلاق وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم. {فَهَلْ يُهْلَكُ} بالعقوبات {إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} أي: الذين لا خير فيهم وقد خرجوا عن طاعة

^{١٩٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٧٥٦)

^{١٩٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٢٤، بترقيم الشاملة آليا)

رهم ولم يقبلوا الحق الذي جاءهم به الرسل. وأعذر الله لهم وأنذرهم فبعد ذلك إذ يستمرون على تكذيبهم وكفرهم نسأل الله العصمة.^{٢٠٠}

وبهذه الآية الكريمة تختتم السورة بهذا التوجيه الكريم من الله سبحانه لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه - يدعوه فيه إلى أن يصبر على ما يلقي من أذى المشركين، وعنادهم، وألا يستعجل لهم العذاب في الدنيا، فإن العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة قريب، وأنه حين يقع بهم، لا يحسبون حساباً لأيام الدنيا التي عاشوها، وقطعوا فيها أعمارهم، فإنه آتياً كانت أعمارهم تلك من الطول، فسيرونها يومئذ لم تكن غير ساعة من نهار.. وأنهم ولدوا صباح يوم، ثم أخذهم عذاب الآخرة في ضحى هذا اليوم! فهل من يرى هذا الزمن على حقيقته يستعجل العذاب لأهل العذاب؟ ..

وفي قوله تعالى: «كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ» - ما يسأل عنه.. فأولاً: من هم أولو العزم من الرسل؟ وهل من الرسل ما لا يتصف بهذه الصفة؟ ثم ألا يكون عدم اتصاف الرسول بتلك الصفة مما ينافي المهمة المنتدب لها من السماء؟ ..
اختلف المفسرون في تحديد أولى العزم من الرسل.. والرأى على أنهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم..

ولا شك أن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه، - وهو المقصود بهذا الأمر، كان يعرف عن يقين من هم أولو العزم من الرسل.. أما غير الرسول فإنه ليس مطالباً بأن يعرف من هم أولو العزم من الرسل، إذ لم يكن لغير الرسول شيء في هذا الأمر الموجه إليه من ربه، إذ كان امتثال هذا الأمر، والوفاء به، هو مما يطالب به النبي وحده، لما أتاه الله من فضله، من نفس عظيمة تتسع لهذا الأمر العظيم، والله سبحانه وتعالى يقول: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» (البقرة: ٢٨٦) .. وإن كان هذا لا يمنع من أن يكون لنا في رسول الله أسوة، في مقام الصبر على ما نبتلى به من شدائد.

أما أن يكون هناك من الرسل من لا يتصف بهذه الصفة، فذلك ما صرح به القرآن في قوله تعالى عن آدم عليه السلام: «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» (١١٥: طه) وقوله تعالى عن يونس عليه السلام: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ» (٤٨: القلم) ..

فالرسل - عليهم الصلاة والسلام - وإن كانوا أكمل الناس كمالاتهم وأكرمهم مقاماتهم - في كمالاتهم ومقاماتهم الذي لا يساميه أحد من البشر - درجات، بعضها فوق بعض، كما يقول سبحانه: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ» (البقرة: ٢٥٣) ..

وإذا كان في الرسل - عليهم السلام - الفاضل والمفضول، فإن هذا - كما قلنا - لا ينقص من قدر المفضول، إذ كان - وهو في مقامه هذا - على هامة الكمال المتاحة للبشر، من غير رسل الله..

^{٢٠٠} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٨٤)

وثانياً: في دعوة الرسول إلى أن يتشبه في الصبر بمن سبقه من أولى العزم من الرسل - في هذا ما يفهم منه أن غاية الرسول من الصبر هو أن يكون كأحد هؤلاء الرسل الكرام - والسؤال هنا: كيف يكون الرسول صلوات الله وسلامه عليه في مقام من يطلب الأسوة للحاق بغيره من أولى العزم، وهو خاتم النبيين، وإمام المرسلين؟.

والجواب على هذا من وجهين:

أولاً: أن الأمر بالصبر هنا يحمل تهديداً للمشركين، وأن على النبي ألا يستعجل لهم العذاب، الذي هو قريب منهم.. فالمراد بالصبر ليس صبر المعاناة والاحتمال وحسب، وإنما المراد به أولاً، هو صبر الانتظار، والإمهال، كما يقول سبحانه: «فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا» (١٧: الطارق) ..

وقد كان الرسل في هذا فريقين، فريقاً استعجل العذاب لقومه، بعد أن بلغهم رسالة ربه، كما يقول الله سبحانه على لسان نوح: «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» (٢٦: نوح) .. وكما فعل يونس، حين زایل موقفه من قومه قبل أن يؤمنوا بالله، وتركهم لمصيرهم، الذي يصير إليه الضالون المكذبون.. وفريقاً صبر وانتظر، حتى جاء أمر الله في قومه، كما فعل إبراهيم، وموسى، وعيسى، فلم يدع أحد منهم ربه بأن يهلكهم، على كثرة ما ساقط إليهم أقوامهم من ألوان العنت والأذى..

أما النبي صلوات الله وسلامه عليه، فإنه قد جاوز هذه الغاية إلى غاية أخرى، فكان لسانه دائماً داعياً إلى الله بمداية قومه، والصفح عنهم.. حتى في أشد أحوالهم إغتاها وأذى له.. كما كان ذلك في موقفه - صلوات الله وسلامه عليه - يوم أحد، وقد شجحه المشركون، وأسالوا دمه، وكسروا رباعيته، فما زاد أن وجهه إلى السماء، وبسط يديه إلى ربه قائلاً: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» .

وثانياً: أن في قوله تعالى: «وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ» - إشارة صريحة إلى أن الصبر المطلوب هنا، هو صبر الإمهال والانتظار، لا صبر الاحتمال والمعاناة، - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - وهذا يعني أن الأمر بالصبر الموجه إلى النبي من ربه سبحانه وتعالى، إنما يراد به تهديد المشركين بالعذاب الذي ينتظرهم، والذي يطلب إلى النبي ألا يستدعيه لهم، ولا يستعجل وقوعه بهم، فهم سائرون إليه، وسيلقونه عما قريب.. إنها ساعة من نهار، ثم يلقيهم العذاب الذي يستعجلونه..

وعلى هذا، فإن الصبر المطلوب من النبي ﷺ، منظور فيه إلى قومه، وإلى أنهم لن يعذبوا في الدنيا، وإنما سيؤجل عذابهم إلى الآخرة، كما فعل بأقوام أولى العزم من الرسل..^{٢٠١}

إن كل كلمة في الآية ذات رصيد ضخمة وكل عبارة وراءها عالم من الصور والظلال، والمعاني والإيجاعات، والقضايا والقيم.

^{٢٠١} - التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٢٩٩)

«فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ. وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ» ..

توجيهه يقال لمحمد - ﷺ - وهو الذي احتمل ما احتمل، وعانى من قومه ما عانى. وهو الذي نشأ يتيمًا، وجرد من الولي والحامي ومن كل أسباب الأرض واحدا بعد واحد. الأب. والأم. والجد. والعم. والزوج الوفية الحنون. وخلص لله ولدعوته مجردا من كل شاغل. كما هو مجرد من كل سند أو ظهير.

وهو الذي لقي من أقاربه من المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين. وهو الذي خرج مرة ومرة ومرة يستنصر القبائل والأفراد فرد في كل مرة بلا نصرة. وفي بعض المرات باستهزاء السفهاء ورجهم له بالحجارة حتى تدمى قدماه الطاهرتان، فما يزيد على أن يتوجه إلى ربه بذلك الابتهاال الخاشع النبيل.

وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيهه ربه: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ».

ألا إنه لطريق شاق طريق هذه الدعوة. وطريق مرير. حتى تحتاج نفس كنفس محمد - ﷺ - في تجردها وانقطاعها للدعوة، وفي ثباتها وصلابتها، وفي صفاتها وشفافيتها. تحتاج إلى التوجيه الرباني بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين.

نعم. وإن مشقة هذا الطريق تحتاج إلى مواساة، وإن صعوبته تحتاج إلى صبر. وإن مرارته تحتاج إلى جرعة حلوة من رحيق العطف الإلهي المختوم.

«فَاصْبِرْ. كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ» .. تشجيع وتصبير وتأسية وتسلية .. ثم تطمين: «كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ» ..

إنه أمد قصير. ساعة من نهار. وإنها حياة خاطفة تلك التي يمكثونها قبيل الآخرة. وإنها لتافهة لا تترك وراءها من الوقع والأثر في النفوس إلا مثلما تتركه ساعة من نهار .. ثم يلاقون المصير المحتوم. ثم يلبثون في الأبد الذي يدوم. وما كانت تلك الساعة إلا بلاغا قبل أن يحق الهلاك والعذاب الأليم:

«بَلَاغٌ. فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ» .. لا. وما الله يريد ظلما للعباد. لا. وليصبر الداعية على ما يلقاه. فما هي إلا ساعة من نهار. ثم يكون ما يكون^{٢٠٢} ...

٢٩ - الصبر على البلاء:

قال تعالى: { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) } [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]

^{٢٠٢} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٠٧٩)

يُخَيِّرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بَأَنَّهُ سَيُلَوِّهُمُ وَيُخَيِّرُهُمْ بِقَلِيلٍ (بِشْيءٍ) مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ، وَبِذَهَابِ بَعْضِ الْمَالِ، وَبِمَوْتِ بَعْضِ الْأَصْحَابِ وَالْأَقَارِبِ وَالْأَحْبَابِ، وَبِنَقْصِ غَلَالِ الْمَزَارِعِ... فَمَنْ صَبَرَ عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ أَثَابَهُ، وَمَنْ قَنَطَ وَلَجَّ أَحَلَّ بِهِ عِقَابَهُ. وَيُشِيرُ اللَّهُ الصَّابِرِينَ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ فِي أُمُورِهِمْ. أَمَّا الصَّابِرُونَ الَّذِينَ خَصَّهُمُ اللَّهُ بِالْبُشْرَى فَهُمْ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ مِنَ اللَّهِ، وَإِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ مُصِيبَةٌ صَبَرُوا، وَتَمَسَّكُوا بِقَوْلِهِمْ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أَيْ إِنَّهُمْ عِبِيدُ اللَّهِ وَمُلْكُهُ، وَإِنَّهُمْ رَاجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

يُثْنِي اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّابِرِينَ، وَيُخَيِّرُ بَأَنَّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، وَأَنَّهُمْ يَجِدُونَ أَثَرَهَا فِي بَرْدِ قُلُوبِهِمْ عِنْدَ نَزُولِ الْمُصِيبَةِ، وَأَنَّهُمْ هُمْ الْمُهْتَدُونَ إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ، وَإِلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَأَنَّهُمْ اسْتَسْلَمُوا لِقَضَاءِ اللَّهِ فَلَمْ يَسْتَحْذِ الْجَزَعُ عَلَيْهِمْ^{٢٠٣}.

الناس جميعا مبتلون في هذه الحياة - سواء أكانوا أفرادا أو جماعات أو أمما - بشيء من الخوف والجوع - يختلف قلة وكثرة - وينقص في الأموال والأنفس والثمرات.. فليس أحد في هذه الدنيا بمأمن أبدا من أن تنزل به هذه النوازل، متفرقة أو مجمعة..

والجزع في هذه المواطن هو الذي يثقل المصيبة، ويولد منها مصائب، فيضاعف معها البلاء، ويعظم الألم، ويطبق اليأس، ويغلق كل باب للأمل والرجاء!

أما الذي يلقي أحداث الحياة ومصائبها بالصبر، ويواجهها بالتسليم والرضا، عن يقين وإيمان بأن ما وقع إنما هو بقضاء الله وقدره - فإن ذلك يهون عليه من وقع المصائب وإن عظمت، ويمدّه بمعين عظيم من الصبر والاحتمال، ويفتح له بابا واسعا من الأمل والرجاء فيما هو خير عند الله وأبقى:

«وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» فحين يذكر المؤمن أنه - ذاتا ومالا وأهلا وولدا - ملك لله، لا يملك مثقال ذرة مما في ملك الله، وأن مصائر الأمور كلها إلى الله، ومردّها جميعا إليه - حين يذكر المؤمن هذا لا يأسى على فائت، ولا يحزن على مفقود، وتلك هي أولى بشرى المؤمنين في هذه الدنيا، لا يتزل الحزن ساحتهم، ولا يرهق الهم والكرب قلوبهم: «أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ»^{٢٠٤}.

أخبر تعالى أنه لا بد أن يتلي عباده بالحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عبادته؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان، ولم يحصل معها محنة، لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر. هذه فائدة الحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية أنه سيبلي عباده

^{٢٠٣} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٦٢، بترقيم الشاملة آليا)

^{٢٠٤} - التفسير القرآني للقرآن (١/ ١٧٦)

{بِشْيٍ مِّنَ الْخَوْفِ} من الأعداء {وَالْجُوعِ} أي: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله، أو الجوع، لهلكوا، والحن تمحص لا تهلك.

{وَنَقَصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ} وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق، وضياح، وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة، وقطاع الطريق وغير ذلك. {وَالْأَنْفُسِ} أي: ذهاب الأحياء من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، {وَالثَّمَرَاتِ} أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر ببرد، أو برد، أو حرق، أو آفة سماوية، من جراد (١) ونحوه.

فهذه الأمور، لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير، أخبر بها، فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجاذع، حصلت له المصيبتان، فوات المحبوب، وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتنال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل [له] السخط الدال على شدة النقصان.

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التسخط، قولاً وفعلاً واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه، لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله، وفاز بالثواب، فلماذا قال تعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} أي: بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب.

فالصابرين، هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ} وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره.

{قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ} أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها، فقد تصرف أرحم الراحمين، بمماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد، علمه، بأن وقوع البلية من المالك الحكيم، الذي أرحم بعبد من نفسه، فيوجب له ذلك، الرضا عن الله، والشكر له على تدبيره، لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك، ومع أننا مملوكون لله، فإننا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفوراً عنده، وإن جزعنا وسخطنا، لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله، وراجع إليه، من أقوى أسباب الصبر.

{أُولَئِكَ} الموصوفون بالصبر المذكور {عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ} أي: ثناء وتنويه بحالهم {وَرَحْمَةٌ} عظيمة، ومن رحمته إياهم، أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر، {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع، علمهم بأنهم لله، وأنهم إليه راجعون، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله.

ودلت هذه الآية، على أن من لم يصبر، فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله، والعقوبة، والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل، إذا وقعت، وبيان ما تقابل به، إذا وقعت، وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر، بضد حال الصابر. وأن هذا الابتلاء والامتحان، سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً وبيان أنواع المصائب.^{٢٠٥}

ولا بد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات.. لا بد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف. والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى. فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين. وكلما تألموا في سبيلها، وكلما بذلوا من أجلها.. كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها. كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها.. إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم: لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيراً مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء، ولا صبروا عليه.. وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها، مقدرين لها، مندفعين إليها.. وعندئذ يجيء نصر الله والفتح ويدخل الناس في دين الله أفواجا..

ولا بد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى. فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد. والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون، والران عن القلوب.

وأهم من هذا كله، أو القاعدة لهذا كله.. الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها، وتتوارى الأوهام وهي شتى، ويخلو القلب إلى الله وحده. لا يجد سنداً إلا سنده. وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات، وتتفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مد البصر.. لا شيء إلا الله.. لا قوة إلا قوته.. لا حول إلا حوله.. لا إرادة إلا إرادته.. لا ملجأ إلا إليه.. وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح..

والنص القرآني هنا يصل بالنفس إلى هذه النقطة على الأفق: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».. إنا لله.. كلنا.. كل ما فينا.. كل كيانتنا وذاتيتنا.. لله.. وإليه

^{٢٠٥} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٦)

المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير .. التسليم .. التسليم المطلق .. تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجها لوجه بالحقيقة الوحيدة، وبالتصور الصحيح. هؤلاء هم الصابرون .. الذين يبلغهم الرسول الكريم بالبشرى من المنعم الجليل ..

وهؤلاء هم الذين يعلن المنعم الجليل مكافئهم عنده جزاء الصبر الجميل: «أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» .. صلوات من ربهم .. يرفعهم بها إلى المشاركة في نصيب نبيه الذي يصلي عليه هو وملائكته سبحانه .. وهو مقام كريم .. ورحمة .. وشهادة من الله بأنهم هم المهتدون .. وكل أمر من هذه هائل عظيم ..

وبعد .. فلا بد من وقفة أمام هذه الخاتمة في تلك التعبئة للصف الإسلامي. التعبئة في مواجهة المشقة والجهد، والاستشهاد والقتل، والجوع والخوف، ونقص الأموال والأنفس والثمرات. والتعبئة في هذه المعركة الطويلة الشاقة العظيمة التكاليف.

إن الله يضع هذا كله في كفة. ويضع في الكفة الأخرى أمرا واحدا .. صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون .. إنه لا يعدهم هنا نصرا، ولا يعدهم هنا تمكينا، ولا يعدهم هنا مغام، ولا يعدهم هنا شيئا إلا صلوات الله ورحمته وشهادته .. لقد كان الله يعد هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها وأكبر من حياتها.

فكان من ثم يجردها من كل غاية، ومن كل هدف ومن كل رغبة من الرغبات البشرية - حتى الرغبة في انتصار العقيدة - كان يجردها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له ولطاعته ولدعوته .. كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رضى الله وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون .. هذا هو الهدف، وهذه هي الغاية، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تطفو إليها قلوبهم وحدها .. فأما ما يكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم، إنما هو لدعوة الله التي يحملونها.

إن لهم في صلوات الله ورحمته وشهادته جزاء. جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات. وجزاء على الخوف والجوع والشدة. وجزاء على القتل والشهادة .. إن الكفة ترجح بهذا العطاء فهو أثقل في الميزان من كل عطاء. أرجح من النصر وأرجح من التمكين وأرجح من شفاء غيظ الصدور ..

هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف المسلم ليعده ذلك الإعداد العجيب، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين..^{٢٠٦}

٣٠ - الاستغاثة بالله تعالى؛

^{٢٠٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٥٧)

قال تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)}

[الأنفال: ٩، ١٠]

حينما التقت الفِتان، المسلمون والمُشركون في ساحة المعركة، وجد المسلمون المُشركين كثيري العدد، فاستغاث الرسولُ برَبِّه، وقال: اللَّهُمَّ أَنْجِزْنِي وَعْدَكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي. فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة. وفيها يُعلمُ الله تعالى رسوله أنه استجاب لدُعائه ودُعاء المسلمين، وأنه سيمدُّهم بِالْفِ مِنْ الملائكة يَأْتُوهُمْ مَدَدًا يُرْدِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، أي يأتي بعضهم إثر بعض.

ويذكرُ تعالى: أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ إِرْسَالَ الْمَلَائِكَةِ لِإِمْدَادِ الْمُسْلِمِينَ فِي بَدْرٍ إِلَّا بُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ، وَتَطْمِئِنًّا لِّقُلُوبِهِمْ، بِأَنَّهُمْ سَيَنْصَرُونَ، وَتَثْبِيثًا لِأَقْدَامِهِمْ أَثْنَاءَ الْقِتَالِ، لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ بِدُونِ ذَلِكَ، لِأَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَهُوَ الْعَزِيزُ الْجَانِبُ الْحَكِيمُ فِي تَدْبِيرِهِ... ٢٠٧

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، ح وَحَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، وَاللَّفْظُ لَهُ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُوسُفَ الْحَنْفِيُّ، حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنِي أَبُو زُمَيْلٍ هُوَ سِمَاكُ الْحَنْفِيُّ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ [ص: ١٣٨٤] نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةِ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبِدُ فِي الْأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ، مَا دَامَ يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِداؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِداؤه، فَأَلْفَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشِدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيَنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال: ٩] فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ، قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ: فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةَ بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارَسِ يَقُولُ: أَقْدَمَ حَيَوزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ [ص: ١٣٨٥] فَاخْضَرَ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ، وَأَسْرُوا سَبْعِينَ، قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا أَسْرُوا الْأَسَارَى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ: «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونَ لَنَا قُوَّةٌ عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو

بَكَرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَا فَضْرِبَ أَعْنَاقِهِمْ، فَمَكَّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِي مِنْ فُلَانٍ نَسِيًّا لِعَمْرٍ، فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهُوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ جِئْتُ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي مِنْ أَيْ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخَذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَذْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - شَجَرَةِ قَرِيْبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ - وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال: ٦٧] إِلَى قَوْلِهِ {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} [الأنفال: ٦٩] فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيْمَةَ لَهُمْ" صحيح مسلم^{٢٠٨}

إنها المعركة كلها تدار بأمر الله ومشئته، وتديره وقدره وتسير بجند الله وتوجيهه.. وهي شاخصة بحركاتها وخطراتها من خلال العبارة القرآنية المصورة المتحركة المحيية للمشاهد الذي كان، كأنه يكون الآن! فأما قصة الاستغاثة فقد روى أبو زُمَيْلٍ، قَالَ حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ^{٢٠٩} وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَبِضْعَةِ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتَفُ رَبِّهِ: اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِنِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكُ هَذِهِ الْعِصَابَةُ، مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ، فَمَا زَالَ يَهْتَفُ رَبُّهُ جَلَّ وَعَلَا مَاذَا يَدِيهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبِهِ، ﷺ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، وَأَلْفَاهُ عَلَى مَنْكِبِهِ، ثُمَّ التَّرَمَّهُ مِنْ وَرَائِهِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشِدَتُكَ

^{٢٠٨} - صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣) ٥٨ - (١٧٦٣)

[ش (لما كان يوم بدر) اعلم أن بدرًا هو موضع الغزوة العظمى المشهورة وهو ماء معروف وقرية عامرة على نحو أربع مراحل من المدينة بينها وبين مكة قال ابن قتيبة بدر بئر كانت لرجل يسمى بدرًا فسميت باسمه وكانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان في السنة الثانية للهجرة (فجعل يهتف بربه) معناه يصيح ويستغيث بالله في الدعاء (أن تهلك) ضبطوا تملك بفتح الهاء وضمها فعلى الأول ترفع العصاة لأنها فاعل وعلى الثاني تنصب وتكون مفعوله (العصاة) الجماعة

(كذلك مناشدتك ربك) المناشدة السؤال مأخوذة من النشيد وهو رفع الصوت هكذا وقع لجماهير رواة مسلم كذلك ولبعضهم كفاك وكل بمعنى (مناشدتك) ضبطوها بالرفع والنصب وهو الأشهر قال القاضي من رفعه جعله فاعلاً بكفاك ومن نصبه فعلى المفعول بما في كفاك وكذلك من معنى الفعل

(ممدكم) أي معينكم من الإمداد (مردفين) متتابعين (أقدم حيزوم) ضبطوه بوجهين أصحهما وأشهرهما لم يذكر ابن دريد وكثيرون أو الأكثرون غيره أنه بهمزة قطع مفتوحة وبكسر الدال من الإقدام قالوا وهي كلمة زجر للفرس معلومة في كلامهم والثاني بضم الدال وبهمزة وصل مضمومة من التقدم وحيزوم اسم فرس الملك وهو منادى بخذف حرف النداء أي يا حيزوم (إذا هو قد خطم أنفه) الخطم الأثر على الأنف (وصناديدها) يعني أشرافها الواحد صنديد والضمير في صناديدها يعود على أئمة الكفر أو مكة (فهوى) أي أحب ذلك واستحسنه يقال هوى الشيء يهوى هوى والهوى الحبة

(ولم يهو ما قلت) هكذا هو في بعض النسخ ولم يهو وفي كثير منها ولم يهوى بالياء وهي لغة قليلة بإثبات الياء مع الجازم ومنه قراءة من قرأ إنه من يتقي ويصبر بالياء ومنه قول الشاعر ألم يأتيك والأبناء تسمى (حتى يثخن في الأرض) أي يكثر القتل والقهر في العدو^{٢٠٩} - في روايات أخرى أهم بين الألف والتسع مائة. (السيد رحمه الله)

رَبِّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ، فَاسْتَجَابَ لَكُمْ، أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ } [الأنفال]، فَأَمَدَهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ ٢١٠.

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبي - ﷺ - قال يوم بدر « هَذَا جِبْرِيلُ أَخَذَ بِرَأْسِ فَرَسِهِ - عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ » ٢١١ .

وتروى روايات كثيرة مفصلة عن الملائكة في يوم بدر: عددهم، وطريقة مشاركتهم في المعركة. وما كانوا يقولونه للمؤمنين مثبتين وما كانوا يقولونه للمشركين مخذلين... ونحن - على طريقتنا في الظلال - نكتفي في مثل هذا الشأن من عوالم الغيب بما يرد في النصوص المستيقنة من قرآن أو سنة. والنصوص القرآنية هنا فيها الكفاية: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ».. فهذا عددهم ..

«إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا، سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ».. فهذا عملهم .. ولا حاجة إلى التفصيل وراء هذا فإن فيه الكفاية ..

وبحسبنا أن نعلم أن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها في ذلك اليوم، وهي قلة والأعداء كثرة. وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيه الملائكة الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذي يصفه الله - سبحانه - في كلماته ..

روى البخاري عن معاذ بن رفاعَةَ بْنِ رَافِعِ الزُّرْقِيِّ عَنْ أَبِيهِ - وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ - قَالَ جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ « مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فَيَكُمُ قَالَ مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - قَالَ وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ » ٢١٢

«إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ، فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى، وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» ..

لقد استجاب لهم ربهم وهم يستغيثون، وأنبأهم أنه ممددهم بألف من الملائكة مردفين.. ومع عظمة هذا الأمر ودلالته على قيمة هذه العصبة وقيمة هذا الدين في ميزان الله إلا أن الله سبحانه لا يدع المسلمين يفهمون أن هناك سببا ينشئ نتيجة، إنما يرد الأمر كله إليه - سبحانه - تصحيحا لعقيدة المسلم وتصوره. فهذه الاستجابة، وهذا المدد، وهذا الإخبار به... كل ذلك لم يكن إلا بشري، ولتطمئن

٢١٠ - صحيح ابن حبان [١١٤/ ١١] (٤٧٩٣) وتفسير ابن أبي حاتم [٢٥/ ٧] (٩٥٩١) وصحيح مسلم- المكثر [١٢/ ٢٩/ (٤٦٨٧)]

٢١١ - صحيح البخارى- المكثر [٣٥٦/ ١٣] (٣٩٩٥)

٢١٢ - صحيح البخارى- المكثر [٣٥٣/ ١٣] (٣٩٩٢)

به القلوب. أما النصر فلم يكن إلا من عند الله ولا يكون .. هذه هي الحقيقة الاعتقادية التي يقررها السياق القرآني هنا، حتى لا يتعلق قلب المسلم بسبب من الأسباب أصلاً ..

لقد كان حسب المسلمين أن يذلوا ما في طوقهم فلا يستبقوا منه بقية وأن يغالبوا الهزة الأولى التي أصابت بعضهم في مواجهة الخطر الواقعي، وأن يمضوا في طاعة أمر الله، واثقين بنصر الله .. كان حسبهم هذا لينتهي دورهم ويجيء دور القدرة التي تصرفهم وتدبرهم .. وما عدا هذا فكان بشارة مطمئنة، وتثبيتاً للقلوب في مواجهة الخطر الواقعي .. وإنه لحسب العصبية المؤمنة أن تشعر أن جند الله معها لتطمئن قلوبها وتثبت في المعركة. ثم يجيء النصر من عند الله وحده. حيث لا يملك النصر غيره. وهو «العزیز» القادر الغالب على أمره. وهو «الحكيم» الذي يحل كل أمر محله ٢١٣ ..

وهذا درس رباني مهم لكل قائد أو حاكم أو زعيم أو فرد في التجرد من النفس وحظها، والخلوص واللجوء لله وحده، والسجود والجثي بين يدي الله سبحانه؛ لكي يتزل نصره. ويبقى مشهد نبه، وقد سقط رداؤه عن كتفه وهو ماؤٌ يديه يستغيث بالله، يبقى هذا المشهد محفوراً بقلبه ووجدانه، يحاول تنفيذه في مثل هذه الساعات، وفي مثل هذه المواطن، حيث تناط به المسؤولية وتلقى عليه أعباء القيادة. ٢١٤

٣١ - عدم الخوف إلا من الله :

قال تعالى: { الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥) } [آل عمران]

بعد أن انصرف قريش من ميدان المعركة يوم أحد متجهين إلى مكة، ندمت على الانصراف قبل استئصال شأفة المسلمين، والقضاء عليهم، ففكروا في العودة إلى المدينة .

وعلم رسول الله ﷺ بذلك، فندب المسلمين للخروج وراء المشركين ليشن عليهم عن التفكير في العودة، وأمر ألا يخرج معه إلا من شهد أحداً، فتسارع الناس إلى الخروج معه على ما هم عليه من جراح

٢١٣ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠١٠)

٢١٤ - السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص: ٤٠٨)

وقد وعد الله من أحسن من هؤلاء المستجيبين للرسول ﷺ واتقى أجراً عظيماً .
 وخافت قريش أن يجمع رسول الله ﷺ أهل المدينة ممن لم يشتركوا في المعركة، ويخرج
 وراءهم، فأرسلوا إليه بعض ناقلي الأخبار ليهوئلاً عليه، ليكف عن اللحاق بهم، وقال ناقلوا الأخبار
 للمسلمين: إن مشركي قريش (الناس) قد حشدوا لكم، وجمعوا قواهم، فاحذروهم، واخشوهم، فلم
 يزد هذا القول هؤلاء المؤمنين - الذين استجابوا للرسول من بعد ما أصابهم القرع وخرجوا مع
 رسول الله ﷺ ملتين دعوته، راغبين في نيل رضوان ربهم ونصره - إلا إيماناً بربهم، وثقة بوعد
 ونصره وأجره، وردوا على مخاطبيهم قائلين: إنهم يتوكلون على الله، وهو حسبهم .

فلما توكلوا على الله كفاهم الله ما أهمهم وأغمهم، ورد عنهم بأس الناس (الكافرين)، فرجعوا
 بنعمة من الله لم يمسسهم سوء، وقد فازوا برضوان الله، وعظيم فضله، والله واسع الفضل
 (خرج المسلمون مع الرسول إلى موقع يعرف بحمراء الأسد، وأرسل إلى المشركين رسلاً
 يحذروهم، فخافت قريش وتابعت سيرها نحو مكة) .

وكان أبو سفيان قد واعد رسول الله ﷺ بذراً من العام القابل، فخرج رسول الله ﷺ بالمسلمين إلى
 بدر في الموعد المحدد، وتخلفت قريش، فاشتري رسول الله غيراً مرت بهم في الموسم، ثم باعها
 فريح، ووزع الربح على أصحابه، فانقلبوا من غزوة بدر الثانية لم يمسسهم سوء، ونالوا رضوان
 الله، وحصلوا على فضله في الربح . والله عظيم الفضل على عباده .

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ، أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي يُخَوِّفُكُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُشْرِكِينَ، وَيُوهِمُكُمْ أَنَّهُمْ ذُووُ
 بَأْسٍ وَقُوَّةٍ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ لَكُمْ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَلَا تَخَافُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ، وَتَوَكَّلُوا
 عَلَى اللَّهِ، وَالْجُؤُوا إِلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقًّا، فَإِنَّهُ كَافِيكُمْ إِيَّاهُمْ، وَنَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ . وَخَافُوهُ هُوَ فَهُوَ
 الْقَادِرُ عَلَى النَّصْرِ وَعَلَى الْخُذْلَانِ، وَعَلَى الضَّرِّ وَالنَّفْعِ .. ٢١٥

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ} [آل
 عمران: ١٧٢] لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ، قَالَتْ لِعُرْوَةَ: يَا ابْنَ أُخْتِي، كَانَ أَبَوَاكَ
 مِنْهُمْ: الزُّبَيْرُ، وَأَبُو بَكْرٍ، لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَأَنْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ، خَافَ أَنْ
 يَرْجِعُوا، قَالَ: «مَنْ يَذْهَبُ فِي إِيْرِهِمْ» فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، قَالَ: كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَالزُّبَيْرُ"
 صحيح البخاري ٢١٦

إنهم أولئك الذين دعاهم الرسول - ﷺ - إلى الخروج معه ككرة أخرى غداة المعركة المريعة.

٢١٥ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٦٥، بترقيم الشاملة آليا)

٢١٦ - صحيح البخاري (١٠٢/٥) (٤٠٧٧)

[ش (استجابوا) أطاعوا الأمر وأجابوا النداء. (القرح) الجراح. / آل عمران ١٧٢. / (إيْرهم) خلفهم وعقبهم. (فانتدب) من قولهم
 ندبه لأمر فانتدب أي دعاه فأجاب]

وهم مشخنون بالجراح. وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس في المعركة. وهم لم ينسوا بعد هول الدعكة، ومرارة الهزيمة، وشدة الكرب. وقد فقدوا من أعزائهم من فقدوا، فقل عددهم، فوق ما هم مشخنون بالجراح! ولكن رسول الله - ﷺ - دعاهم. ودعاهم وحدهم. ولم يأذن لأحد تخلف عن الغزوة أن يخرج معهم - ليقويهم ويكثر عددهم كما كان يمكن أن يقال! - فاستجابوا.. استجابوا لدعوة الرسول - ﷺ - وهي دعوة الله - كما يقرر السياق وكما هي في حقيقتها وفي مفهومهم كذلك - فاستجابوا بهذا لله والرسول «مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ»، ونزل بهم الضر، وأثختهم الجراح.

لقد دعاهم رسول الله - ﷺ - ودعاهم وحدهم. وكانت هذه الدعوة وما تلاها من استجابة تحمل إيجاعات شتى، وتومئ إلى حقائق كبرى، نشير إلى شيء منها:

فعل رسول الله - ﷺ - شاء ألا يكون آخر ما تنضم عليه جوانح المسلمين ومشاعرهم، هو شعور الهزيمة، وآلام البرح والقرح فاستنهضهم لمتابعة قريش، وتعقبها، كي يقر في أخلادهم أنها تجربة وابتلاء، وليست نهاية المطاف. وأنهم بعد ذلك أقوياء، وأن خصومهم المنتصرين ضعفاء، إنما هي واحدة وتمضي، ولهم الكرة عليهم، متى نفضوا عنهم الضعف والفسل، واستجابوا لدعوة الله والرسول.

ولعل رسول الله - ﷺ - شاء في الجانب الآخر ألا تمضي قريش، وفي جوانحها ومشاعرها أخيلة النصر ومذاقاته. فمضى خلف قريش بالبقية ممن حضروا المعركة أمس يشعر قريشا أنها لم تل من المسلمين منالاً. وأنه بقي لها منهم من يتعقبها ويكر عليها..

وقد تحققت هذه وتلك كما ذكرت روايات السيرة.

ولعل رسول الله - ﷺ - شاء أن يشعر المسلمين، وأن يشعر الدنيا كلها من ورائهم، بقيام هذه الحقيقة الجديدة التي وجدت في هذه الأرض.. حقيقة أن هناك عقيدة هي كل شيء في نفوس أصحابها.

ليس لهم من أرب في الدنيا غيرها، وليس لهم من غاية في حياتهم سواها. عقيدة يعيشون لها وحدها، فلا يبقى لهم في أنفسهم شيء بعدها، ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية في أنفسهم لا يبدلونها لها، ولا يقدمونها فداها..

لقد كان هذا أمراً جديداً في هذه الأرض في ذلك الحين. ولم يكن بد أن تشعر الأرض كلها - بعد أن يشعر المؤمنون - بقيام هذا الأمر الجديد، وبوجود هذه الحقيقة الكبيرة.

ولم يكن أقوى في التعبير عن ميلاد هذه الحقيقة من خروج هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع. ومن خروجهم بهذه الصورة الناصعة الرائعة الهائلة: صورة التوكل على الله وحده وعدم المبالاة بمقالة الناس وتخويفهم لهم من جمع قريش لهم - كما أبلغهم رسل أبي سفيان - وكما هول المنافقون في أمر قريش وهو ما لا بد أن يفعلوا - : «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»..

هذه الصورة الرائعة الهائلة كانت إعلاناً قويا عن ميلاد هذه الحقيقة الكبيرة. وكان هذا بعض ما تشير إليه الخطة النبوية الحكيمة ..

وتحدثنا بعض روايات السيرة عن صور من ذلك القرح ومن تلك الاستجابة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَارِجَةَ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ أَبِي السَّائِبِ مَوْلَى عَائِشَةَ بِنْتِ عُمَانَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، كَانَ شَهِدَ أُحُدًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ شَهِدْتُ أُحُدًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَأَخٌ لِي، فَرَجَعْنَا جَرِيحِينَ فَلَمَّا أَذِنَ مُؤَدِّنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ قُلْتُ لِأَخِي أَوْ قَالَ لِي: أَتَفُوتُنَا غَزْوَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ وَاللَّهِ مَا لَنَا مِنْ دَابَّةٍ نَرْكَبُهَا، وَمَا مِنَّا إِلَّا جَرِيحٌ ثَقِيلٌ فَخَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكُنْتُ أَيْسَرَ جُرْحًا، فَكَانَ إِذَا غُلِبَ حَمَلْتَهُ عُقْبَةً وَمَشَى عُقْبَةً حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى مَا انْتَهَى إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَهَى إِلَى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ الْمَدِينَةِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ، فِيمَا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَأَقَامَ بِهَا الْاِثْنَيْنِ وَالْثَلَاثَاءِ وَالْأَرْبَعَاءِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ .

قَالَ وَقَدْ مَرَّ بِهِ كَمَا حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، مَعْبُدُ بْنُ أَبِي مَعْبُدِ الْخَزَاعِيِّ، وَكَانَتْ خَزَاعَةُ، مُسْلِمُهُمْ وَمُشْرِكُهُمْ عَيْبَةٌ نَصَحَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِتِهَامَةٍ صَفَقَتْهُمْ مَعَهُ لَا يُخْفُونَ عَنْهُ شَيْئًا كَانَ بِهَا، وَمَعْبُدٌ يَوْمئِذٍ مُشْرِكٌ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ عَزَّ عَلَيْنَا مَا أَصَابَكَ، وَلَوْ دِدْنَا أَنَّ اللَّهَ عَافَاكَ فِيهِمْ ثُمَّ خَرَجَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَمْرَاءِ الْأَسَدِ حَتَّى لَقِيَ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ بِالرَّوْحَاءِ وَقَدْ أَجْمَعُوا الرِّجْعَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَقَالُوا: أَصَبْنَا حَدَّ أَصْحَابِهِ وَأَشْرَفَهُمْ وَقَادَتْهُمْ ثُمَّ نَرَجِعُ قَبْلَ أَنْ نَسْتَأْصِلَهُمْ لَنَكُرَّنَّ عَلَى بَقِيَّتِهِمْ فَلَنَفْرُغَنَّ مِنْهُمْ. فَلَمَّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ مَعْبُدًا، قَالَ مَا وَرَاءَكَ يَا مَعْبُدُ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ قَدْ خَرَجَ فِي أَصْحَابِهِ يَطْلُبُكُمْ فِي جَمْعٍ لَمْ أَرِ مِثْلَهُ قَطُّ، يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ تَحَرُّقًا، قَدْ اجْتَمَعَ مَعَهُ مَنْ كَانَ تَخَلَّفَ عَنْهُ فِي يَوْمِكُمْ وَنَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا، فِيهِمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ لَمْ أَرِ مِثْلَهُ قَطُّ؛ قَالَ وَيْحَكَ مَا تَقُولُ؟ قَالَ وَاللَّهِ مَا أَرَى أَنْ تَرْتَحِلَ حَتَّى أَرَى نَوَاصِيَ الْخَيْلِ قَالَ فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَجْمَعْنَا الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ لِنَسْتَأْصِلَ بِقِيَّتِهِمْ قَالَ فَإِنِّي أَنُهَاكَ عَنْ ذَلِكَ قَالَ وَاللَّهِ لَقَدْ حَمَلَنِي مَا رَأَيْتُ عَلَى أَنْ قُلْتُ فِيهِمْ أَبْيَاتًا مِنْ شِعْرِ قَالَ وَمَا قُلْتُ؟ قَالَ قُلْتُ: [ص ١٠٣]

كَادَتْ تُهَدِّدُ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي ... إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَايِلِ

تَرْدِي بِأَسَدٍ كَرَامٍ لَا تَنَابِلَةَ ... عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٍ مَعَاذِلِ

فَظَلْتُ عَدُوًّا أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً ... لَمَّا سَمَوُا بِرَيْسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ

فَقُلْتُ: وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ ... إِذَا تَعَطَّطَتِ الْبَطْحَاءُ بِالْجِيلِ

إِنِّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ الْبَسْلِ ضَاحِيَةٍ ... لِكُلِّ ذِي إِرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولِ

مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لَا وَخَشٍ تَنَابِلَةَ ... وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أُنْذَرْتُ بِالْقِيلِ

فَفَتَنَى ذَلِكَ أَبَا سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ .

وَمَرَّ بِهِ رَكْبٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ، فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُونَ ؟ قَالُوا: نُرِيدُ الْمَدِينَةَ ؟ قَالَ وَلِمَ ؟ قَالُوا: نُرِيدُ الْمِيرَةَ قَالَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُبَلَّغُونَ عَنِّي مُحَمَّدًا رَسُولًا أُرْسِلُكُمْ بِهَا إِلَيْهِ وَأَحْمِلُ لَكُمْ هَذِهِ غَدًا زَبِيًّا بَعْكَاطٍ إِذَا وَافَيْتُمُوهَا ؟ قَالُوا نَعَمْ ؟ قَالَ فَإِذَا وَافَيْتُمُوهُ فَأَخْبِرُوهُ أَنَّا قَدْ أَجْمَعْنَا السَّيْرَ إِلَيْهِ وَإِلَى أَصْحَابِهِ لِنَسْتَأْصِلَ بِقِيَّتِهِمْ فَمَرَّ الرَّكْبُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِحِمْرَاءِ الْأَسَدِ فَأَخْبَرُوهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ لَمَّا انْصَرَفَ يَوْمَ أُحُدٍ، أَرَادَ الرَّجُوعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، لِيَسْتَأْصِلَ بِقِيَّةِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنُ خَلْفٍ: لَا تَفْعَلُوا، فَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ حَرَبُوا، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ قِتَالٌ غَيْرُ الَّذِي كَانَ فَارْجِعُوا، فَارْجِعُوا . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ بِحِمْرَاءِ الْأَسَدِ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّهُمْ هَمُّوا بِالرَّجْعَةِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سُوِّمَتْ لَهُمْ حِجَارَةٌ لَوْ صُبَّحُوا بِهَا لَكَانُوا كَأَمْسِ الذَّاهِبِ " .^{٢١٧}

وهكذا تتضافر مثل هذه الصور الرفيعة على إعلان ميلاد تلك الحقيقة الكبيرة، في تلك النفوس الكبيرة.

النفوس التي لا تعرف إلا الله وكيلا، وترضى به وحده وتكتفي، وتزداد إيمانا به في ساعة الشدة، وتقول في مواجهة تخويف الناس لهم بالناس: «حَسْبُنَا اللَّهُ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» ..

ثم تكون العاقبة كما هو المنتظر من وعد الله للمتوكلين عليه، المكتفين به، المتجردين له: «فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مَنْ اللَّهِ وَفَضْلِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ». فأصابوا النجاة - لم يمسسهم سوء - ونالوا رضوان الله. وعادوا بالنجاة والرضى. «بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ» ..

فهنا يردهم إلى السبب الأولى في العطاء: نعمة الله وفضله على من يشاء. ومع التنويه بموقفهم الرائع، فإنه يرد الأمر إلى نعمة الله وفضله، لأن هذا هو الأصل الكبير، الذي يرجع إليه كل فضل، وما موقفهم ذاك إلا طرف من هذا الفضل الجزيل! «وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ» ..

بهذا يسجل الله لهم في كتابه الخالد، وفي كلامه الذي تتجاوب به جوانب الكون كله، صورهم هذه، وموقفهم هذا، وهي صورة رفيعة، وهو موقف كريم.

وينظر الإنسان في هذه الصورة وفي هذا الموقف، فيحس كأن كيانه الجماعة كله قد تبدل ما بين يوم وليلة. نضجت. وتناسقت. واطمأنت إلى الأرض التي تقف عليها. وانجلي الغبش عن تصورها. وأخذت الأمر جدا كله. وخلصت من تلك الأرجحة والقلقلة، التي حدثت بالأمس فقط في التصورات

^{٢١٧} - سيرة ابن هشام [١٠١/ ٢] وهو معضل

والصفوف. فما كانت سوى ليلة واحدة هي التي تفرق بين موقف الجماعة اليوم وموقفها بالأمس .. والفارق هائل والمسافة بعيدة ..

لقد فعلت التجربة المريرة فعلها في النفوس وقد هزتها الحادثة هزا عنيفا. أطار الغيبش، وأيقظ القلوب، وثبت الأقدام، وملاً النفوس بالعزم والتصميم .. نعم. وكان فضل الله عظيماً في الابتلاء المرير ..

وأخيراً يختم هذه الفقرة بالكشف عن علة الخوف والفرع والجزع .. إنه الشيطان يحاول أن يجعل أوليائه مصدر خوف ورعب، وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة .. ومن ثم ينبغي أن يفتن المؤمنون إلى مكر الشيطان، وأن يبطلوا محاولته. فلا يخافوا أوليائه هؤلاء، ولا يخشوهم. بل يخافوا الله وحده. فهو وحده القوي القاهر القادر، الذي ينبغي أن يخاف: «إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

إن الشيطان هو الذي يضخم من شأن أوليائه، ويلبسهم لباس القوة والقدرة، ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول، وأنهم يملكون النفع والضرر .. ذلك ليقضي بهم لباناته وأغراضه، وليحقق بهم الشر في الأرض والفساد، وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب، فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار ولا يفكر أحد في الانتفاض عليهم، ودفعهم عن الشر والفساد.

والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل، وأن يتضخم الشر، وأن يتبدى قويا قادرا قاهرا بطاشا جبارا، لا تقف في وجهه معارضة، ولا يصمد له مدافع، ولا يغلبه من المعارضين غالب .. الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا. فتحت ستار الخوف والرهبنة، وفي ظل الإرهاب والبطش، يفعل أوليائه في الأرض ما يقر عينه! يقلبون المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، وينشرون الفساد والباطل والضلال، ويخفتون صوت الحق والرشد والعدل، ويقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشر وتقتل الخير .. دون أن يجرؤ أحد على مناهضتهم والوقوف في وجههم، ومطاردتهم وطردهم من مقام القيادة. بل دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذي يروجون له، وجلاء الحق الذي يطمسونه ..

والشيطان ماكر خادع غادر، يختفي وراء أوليائه، وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته .. ومن هنا يكشفه الله، ويوقفه عاريا لا يستتره ثوب من كيده ومكره. ويعرف المؤمنون الحقيقة:

حقيقة مكره ووسوسته، ليكونوا منها على حذر. فلا يرهبوا أوليائه الشيطان ولا يخافوهم. فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه، ويستند إلى قوته .. إن القوة الوحيدة التي تخشى وتخاف هي القوة التي تملك النفع والضرر. هي قوة الله. وهي القوة التي يخشاها المؤمنون بالله، وهم حين يخشونها

وحدها أقوى الأقوياء. فلا تقف لهم قوة في الأرض .. لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان: «فلا تخافوهم». وخافون إن كنتم مؤمنين» ..^{٢١٨}.

٣٢ - عدم الفرار من المعركة:

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) } [الأنفال: ١٥، ١٦]

يأمر الله تعالى المؤمنين بالثبات في المعركة، وبمواجهة الكافرين بقلوب مؤمنة، ويحثهم على عدم الفرار وتولية الظهور للأعداء، وإن كان الكافرون أكثر من المؤمنين عدداً، لأن الفرار يحدث الوهن في الجيش الإسلامي المقاتل .

ولكنه تعالى سمح للمقاتل بحرية الحركة أثناء المعركة، كأن ينتقل من مكان في المعركة إلى مكان آخر، لنصرة فريق من المسلمين، أو لسد ثغرة نفذ منها العدو، فالمهم هو أن يكون هدف المقاتل المسلم النصر أو الشهادة، وإطاعة أمر القيادة . أما الذين يتركون المعركة فراراً وهرباً من الموت، فإن الله تعالى يتوعدهم بالعذاب الأليم يوم القيامة .^{٢١٩}

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» .^{٢٢٠}

وقوله سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ» هو درس للمؤمنين، يتلقونه في هذا الموقف، الذي شهدوا فيه آيات الله، ورأوا بأعينهم أمداد نصره وتأييده، فليكن ذلك درساً لهم يتلقون منه العظة والعبرة، وليصحبهم هذا الدرس في كل موقف بعد هذا، يكون فيه بينهم وبين المشركين والكافرين قتال.. فهو نداء عام للمؤمنين، المجاهدين في سبيل الله، بأن يثبتوا

^{٢١٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٨٣٠)

^{٢١٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١٧٦، بترقيم الشاملة آليا)

^{٢٢٠} - صحيح البخاري (٤/ ١٠) (٢٧٦٦)

[ش (اجتنبوا) ابتعدوا. (الموبقات) المهلكات. (السحر) هو في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه ومعنى صرف الشيء عن وجهه ويستعمل بمعنى الخداع. والمراد هنا ما يفعله المشعوذون من تهييلات وتمويه تأخذ أبصار المشاهدين وتوهمهم الإتيان بحقيقة أو تغييرها. (بالحق) كالقتل قصاصاً. (التولي يوم الزحف) الفرار عن القتال يوم ملاقات الكفار والزحف في الأصل الجماعة الذين يرحفون إلى العدو أي يمشون إليهم بمشقة مأخوذ من زحف الصبي إذا مشى على مقعدته. (قذف) هو الاتهام والرمي بالزنا. (المحصنات) جمع محصنة وهي الغيفة التي حفظت فرجها وصانها الله من الزنا. (الغافلات) البريات اللواتي لا يفتنن إلى ما رمين به من الفجور]

للعُدُو، وأن يلقوه لقاءً جاداً مصمماً على النصر، أو الاستشهاد في المعركة، دون أن يدخل على أحد منهم شعور بالفرار من وجه العدو، أيًا كان الموقف، وأيًا كانت قوة المشركين وشوكتهم..

وقوله تعالى: «وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَنِيسَ الْمَصِيرُ».. هو وعيد شديد لمن يدخل على نفسه من المؤمنين شعور بالهزيمة، فينكص على عقبه، ويعطى العدو دبره، في أي موقف من مواقف القتال بين المؤمنين والمشركين.. وقوله تعالى: «يومئذ» هو أيّ كان، لا يراد به يوم بعينه، كما يذهب إلى ذلك بعض المفسرين بجعل، هذا اليوم خاصاً بيوم بدر.. وهذا فوق أنه غير متفق مع الدعوة العامة التي حملها القرآن الكريم إلى المؤمنين في آيات كثيرة بالثبات في الجهاد- غير متفق كذلك مع ترتيب الأحداث إذ أن سورة الأنفال، نزلت بعد بدر وأحداثها، وذلك باتفاق. وحال واحدة هي التي يحقّ للمؤمن فيها أن يعطى العدو ظهره، وهو أن يتحرّف لقتال، أي يرى تغيير موقفه الذي هو فيه، ويتخيّر موقفاً آخر، أمكن له، وأصلح لموقفه في القتال، أو أن يتحيز إلى فئة من المؤمنين، فينتقل من جماعة إلى جماعة، حيث يرى في ذلك مصلحة في النكاية بالعدوّ.. فهذا التولّي بالوجه عن مواجهة العدو هنا، هو لحساب المعركة، لا لحسابه، ولا للضنّ بنفسه عن أن يواجه العدو، ولو كان فيه الموت.

وفي التعبير عن الصّدّ عن العدو، والفرار منه بتولية الدبر، تشنيع على من يأتي هذا الفعل، وفضح له، إذ كان كأنما يكشف سواته لعدوّه أو يعطيه دبره! ^{٢٢١}

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالشجاعة الإيمانية، والقوة في أمره، والسعي في جلب الأسباب المقيوة للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار إذا التقى الزحفان، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا} أي: في صف القتال، وتزاحف الرجال، واقترب بعضهم من بعض، {فَلَا تُؤَلُّوهُمْ الْأَدْبَارَ} بل اثبتوا لقتالهم، واصبروا على جلادهم، فإن في ذلك نصرة لدين الله، وقوة لقلوب المؤمنين، وإرهاباً للكافرين.

{وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ} أي: رجع {بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ} أي: مقره {جَهَنَّمُ وَنِيسَ الْمَصِيرُ} .

وهذا يدل على أن الفرار من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد.

ومفهوم الآية: أن المتحرّف للقتال، وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى، ليكون أمكن له في القتال، وأنكى لعدوه، فإنه لا بأس بذلك، لأنه لم يول دبره فاراً، وإنما ولى دبره ليستعلي على عدوه، أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته، أو ليخدعه بذلك، أو غير ذلك من مقاصد المحاربين، وأن المتحيز إلى فئة

^{٢٢١} - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٨٠)

تمنعه وتعينه على قتال الكفار، فإن ذلك جائز، فإن كانت الفئة في العسكر، فالأمر في هذا واضح، وإن كانت الفئة في غير محل المعركة كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين، فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز، ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام أحمد عاقبة، وأبقى عليهم. أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في ثباتهم لقتالهم، فيبعد - في هذه الحال - أن تكون من الأحوال المرحص فيها، لأنه - على هذا - لا يتصور الفرار المنهي عنه، وهذه الآية مطلقة، وسيأتي في آخر السورة تقييدها بالعدد.^{٢٢٢}

٣٣ - شعورهم بأنهم مظلومون وسعيهم لإزالة الظلم:

قال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَيَعُجُ صَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) } [الحج: ٣٩، ٤٠]

هذه أول آية نزلت في الجهاد، وقد نزلت بعد خروج النبي عليه السلام وأصحابه من مكة إلى المدينة. يقول تعالى: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ ظَلَمُوا الْمُسْلِمِينَ فِي مَكَّةَ، وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَلَا ذَنْبَ لَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَقَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ. وَلِذَلِكَ أَدْنَى اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ فِي قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ، دَفْعَ لَأَذَاهُمْ، وَإِضْعَافًا لَشَوْكَتِهِمْ، وَتَشْجِيعًا لِمَنْ أَرَادَ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى الْإِتْحَاقِ بِالْمُسْلِمِينَ لِيَكُونُوا قُوَّةً تُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهَا، وَتُرْهِبُ أَعْدَاءَهَا الْكُفَّارَ، وَإِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ وَحْدَهُ عَلَى نَصْرِ الْمُسْلِمِينَ دُونَ عَوْنِ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يُرِيدُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَبْذُلُوا جُهْدَهُمْ فِي طَاعَةِ رَبِّهِمْ، وَأَنْ يَقُومُوا بِوَاجِبِهِمْ فِي الدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَدِينِهِ.^{٢٢٣}

وقال السعدي:

كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار، ومأمورين بالصبر عليهم، لحكمة إلهية، فلما هاجروا إلى المدينة، وأوذوا، وحصل لهم منعة وقوة، أذن لهم بالقتال، قال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ} يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلون، وإنما أذن لهم، لأنهم ظلموا، بمنعهم من دينهم، وأذيتهم عليه، وإخراجهم من ديارهم. {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} فليست تنصروهم، وليستعينوا به، ثم ذكر صفة ظلمهم فقال: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ} أي: أُلْجِئُوا إِلَى

^{٢٢٢} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣١٧)

^{٢٢٣} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٥١٨، بترقيم الشاملة آليا)

الخروج بالأذية والفتنة {بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا} أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم {أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} أي: إلا أنهم وحدوا الله، وعبدوه مخلصين له الدين، فإن كان هذا ذنبا، فهو ذنبهم كقوله تعالى: {وَمَا تَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} وهذا يدل على حكمة الجهاد، وأن المقصود منه إقامة دين الله، وذب الكفار المؤذنين للمؤمنين، البادئين لهم بالاعتداء، عن ظلمهم واعتدائهم، والتمكن من عبادة الله، وإقامة الشرائع الظاهرة، ولهذا قال: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين، {لَهَدَمْتُ صَوَامِعَ وَبِيعَ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ} أي: لهدمت هذه المعابد الكبار، لطوائف أهل الكتاب، معابد اليهود والنصارى، والمساجد للمسلمين، {يُذَكَّرُ فِيهَا} أي: في هذه المعابد {اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} تقام فيها الصلوات، وتتلّى فيها كتب الله، ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر، فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لاستولى الكفار على المسلمين، فخرّبوا معابدهم، وفتنّوهم عن دينهم، فدل هذا، أن الجهاد مشروع، لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره، ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله، وعمرت مساجدها، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها، من فضائل المجاهدين وبركتهم، دفع الله عنها الكافرين، قال الله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}

فإن قلت: نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب، مع أنها كثير منها إمارة صغيرة، وحكومة غير منظمة، مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج، بل نرى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة، وأهلها آمنون مطمئنون، مع قدرة ولائهم من الكفار على هدمها، والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لهدمت هذه المعابد، ونحن لا نشاهد دفعا.

أجيب بأن هذا السؤال والاستشكال، داخل في عموم هذه الآية وفرد من أفرادها، فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها، وداخل في حكمها، تعتبره عضوا من أعضاء المملكة، وجزء من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمة [ص: ٥٤٠] مقتدرة بعددها أو عددها، أو مالها، أو عملها، أو خدمتها، فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب، الدينية والدنيوية، وتخشى إن لم تفعل ذلك أن يحتل نظامها، وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصا المساجد، فإنها - والله الحمد - في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار.

وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة، نظرا لخواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارى، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة، التي لا تقدر تدافع عن نفسها، سالمة من [كثير] ضررهم، لقيام الحسد عندهم، فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها، خوفا من احتمائها بالآخر، مع أن الله تعالى لا بد أن يري عباده من نصر الإسلام والمسلمين، ما قد وعد به في كتابه.

وقد ظهرت -ولله الحمد- أسبابه [بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم والشعور مبدأ العمل] (٢) فنحمده ونسأله أن يتم نعمته، ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} أي: يقوم بنصر دينه، مخلصا له في ذلك، يقاتل في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا. {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} أي: كامل القوة، عزيز لا يرام، قد قهر الخلائق، وأخذ بنواصبيهم، فأبشروا، يا معشر المسلمين، فإنكم وإن ضعف عددكم وعددكم، وقوي عدد عدوكم وعدتكم (٣) فإن ركنكم القوي العزيز، ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ما تعملون، فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم، فلا بد أن ينصركم. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} وقوموا، أيها المسلمون، بحق الإيمان والعمل الصالح، فقد {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا}

ثم ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف، أن من ادعى أنه ينصر الله وينصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف، فهو كاذب فقال: {الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ} أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض، {أَقَامُوا الصَّلَاةَ} في أوقاتها، وحدودها، وأركانها، وشروطها، في الجمعة والجماعات.

{وَأَتُوا الزَّكَاةَ} التي عليهم خصوصا، وعلى رعييتهم عموما، أتوها أهلها، الذين هم أهلها، {وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ} وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعا وعقلا من حقوق الله، وحقوق الآدميين، {وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ} كل منكر شرعا وعقلا معروف قبحه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم، أجبروا الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعا، أو غير مقدر، كأنواع التعزير، قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له، لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به. {وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} أي: جميع الأمور، ترجع إلى الله، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى، فمن سلطه الله على العباد من الملوك، وقام بأمر الله، كانت له العاقبة الحميدة، والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه، فإنه وإن حصل له ملك موقت، فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشئومة، وعاقبته مذمومة. ٢٢٤.

إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان.

٢٢٤ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٩)

والشر جامع والباطل مسلح. وهو يبطش غير متحرج، ويضرب غير متورع ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتموا إليه، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له. فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش، وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم.

ولم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلاً تكافح قوى الطغيان والشر والباطل، اعتماداً على قوة الإيمان في النفوس وتغلغل الحق في الفطر، وعمق الخير في القلوب. فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر. وللصبر حد وللاحتمال أمد، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه.

والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم. ومن ثم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة، إلا ريثما يستعدون للمقاومة، ويتهيأون للدفاع، ويتمكنون من وسائل الجهاد.. وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان. وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذهم أنه هو سيتولى الدفاع عنهم فهم في حمايته: «إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا»^{٢٢٥} ..

وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم فهم مخذولون حتماً: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ» .. وأنه حكم لهم بأحقية دفاعهم وسلامة موقفهم من الناحية الأدبية فهم مظلومون غير معتدين ولا متبطين: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلُمُوا» ..

وأن لهم أن يطعنوا إلى حماية الله لهم ونصره إياهم: «وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ» .. وأن لهم ما يبرر خوضهم للمعركة فهم منتدبون لمهمة إنسانية كبيرة، لا يعود خيرها عليهم وحدهم، إنما يعود على الجبهة المؤمنة كلها وفيها ضمان لحرية العقيدة وحرية العبادة وذلك فوق أهم مظلومون أخرجوا من ديارهم بغير حق: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ» .. وهي أصدق كلمة أن تقال، وأحق كلمة بأن تقال. ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم. فهو البغي المطلق الذي لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين. وهو التجرد من كل هدف

^{٢٢٥} - لم يذكر المؤلف رحمه الله سبب نزول الآيات ، فعن عروة بن الزبير "إن أول آية أنزلت في القتال حين ابتلى المسلمون بمكة وسطت بهم عشائهم ليفتنوهم عن الإسلام، وأخرجوهم من ديارهم وتظاهروا عليهم، فأنزل الله: "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلُمُوا" الآية وذلك حين أذن لرسوله بالخروج، أذن لهم بالقتال". تفسير ابن أبي حاتم [٣٨٤/ ٩] (١٤٧٩٥) ذكره بلا سند وعن سعيد بن جببر ، قال: "لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ رَجُلٌ: أَخْرَجُوا نَبِيَّهْمُ فَتَرَكْتُ: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلُمُوا الْآيَةُ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ " حَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبْرِيِّ (٢٣٠٦٨) صحيح مرسل وعن ابن عباس ، قال: "لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجُوا نَبِيَّهْمُ ، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، لَيْهْلِكُنَّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ . وَهِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ " حَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبْرِيِّ (٢٣٠٦٩) صحيح وعن ابن عباس قال: "لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَاللَّهُ لَيَهْلِكُنَّ جَمِيعًا فَلَمَّا نَزَلَتْ: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلُمُوا . إِلَى قَوْلِهِ: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ عَرَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ " حَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبْرِيِّ (٢٣٠٧١) صحيح

شخصي من ناحية المعتدى عليهم، إنما هي العقيدة وحدها من أجلها يخرجون، لا الصراع على عرض من أعراض هذه الأرض، التي تشتجر فيها الأطماع وتتعارض فيها المصالح وتختلف فيها الاتجاهات وتتضارب فيها المنافع! ووراء هذا كله تلك القاعدة العامة .. حاجة العقيدة إلى الدفع عنها: «وَكَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا» .. والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان، والبيع للنصارى عامة وهي أوسع من الصوامع، والصلوات أماكن العبادة لليهود. والمساجد أماكن العبادة للمسلمين.

وهي كلها معرضة للهدم - على قداستها وتخصيصها لعبادة الله - لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض. أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها، ويعتدون على أهلها. فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصلح بها ويجول. ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه، بل لا بد من القوة تحميه وتدفع عنه. وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان! ولا بد من وقفة أمام هذه النصوص القليلة الكلمات العميقة الدلالة، وما وراءها من أسرار في عالم النفس وعالم الحياة.

إن الله يبدأ الإذن بالقتال للذين قاتلهم المشركون، واعتدى عليهم المبطلون، بأن الله يدافع عن الذين آمنوا، وأنه يكره المعتدين عليهم من الكفار الخائنين: «إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ» .. فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم. ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتما من عدوه، ظاهر حتما على عدوه .. ففيم إذن يأذن لهم بالقتال؟ وفيم إذن يكتب عليهم الجهاد؟ وفيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح، والجهد والمشقة، والتضحية والآلام ... والعاقبة معروفة، والله قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد ولا مشقة، ولا تضحية ولا ألم، ولا قتل ولا قتال؟

والجواب أن حكمة الله في هذا هي العليا، وأن لله الحجة البالغة .. والذي ندركه نحن البشر من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماها من «التناقلة» الكسالى، الذين يجلسون في استرخاء، ثم يتزل عليهم نصره سهلا هينا بلا عناء، لجرد أنهم يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى الله بالدعاء، كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء! نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة، وأن يرتلوا القرآن، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء.

ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها إنما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة. والذخيرة التي يدخرونها للموقعة، والسلاح الذي يطمثون إليه وهم يواجهون الباطل. بمثل سلاحه ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله.

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كي يتم نضجهم هم في أثناء المعركة. فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المدخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجهه

الخطر وهي تدفع وتدافع، وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة.. عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدي دورها ولتتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة ولتؤتي أقصى ما تملكه، وتبذل آخر ما تنطوي عليه وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وما هي مهياة له من الكمال.

والأمة التي تقوم على دعوة الله في حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها، واحتشاد كل قواها، وتوفير كل استعدادها، وتجمع كل طاقاتها، كي يتم نموها، ويكمل نضجها، وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها.

والنصر السريع الذي لا يكلف عناء، والذي يتزل هينا لينا على القاعدين المستريحين، يعطل تلك الطاقات عن الظهور، لأنه لا يحفزها ولا يدعوها.

وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه. أولا لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة. وثانيا لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه. فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه.

وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة، والكر والفر، والقوة والضعف والتقدم والتقهقر. ومن المشاعر المصاحبة لها.. من الأمل والألم. ومن الفرح والغم، ومن الاطمئنان والقلق.

ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة.. ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثنایا المعركة وقبلها وبعدها وكشف نقاط الضعف ونقط القوة، وتدير الأمور في جميع الحالات.. وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس.

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله.. جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم ولم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء^{٢٢٦}..

٣٤ - اليقين بوعد الله تعالى:

قال تعالى: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ

^{٢٢٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣١٣٤)

اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِبَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا كُفْتُكُمْ أَنْ كُنتُمْ تَرُدُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنِ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) { [الأحزاب]

ولما رأى المؤمنون الصادقون في إيمانهم الأحزاب، يُحَدِّقُونَ بِالْمَدِينَةِ، قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان بالشدائد، الذي يعقبه النصر القريب. وصدق الله ورسوله في النصر والثواب، كما صدق الله ورسوله في الابتلاء والاختبار، وما زادهم ذلك إلا صبراً على البلاء، وتصديقاً بتحقيق ما وعدهم به الله ورسوله، وتسليماً للقضاء .

(وقال ابن عباس: يعنون قوله تعالى في سورة البقرة: مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) .

لما ذكر الله تعالى أن المنافقين نقضوا العهد، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على المحافظة على العهد والميثاق، وأن منهم رجالاً أوفوا بما عاهدوا الله عليه من الصبر في الشدة والبأساء، فاستشهد بعضهم في بدر، وبعضهم استشهد في أحد، وبعضهم لقي وجهه ربه في غير هذين الموقفين، ومنهم من مضى على الوفاء لله بالعهد، وما غيروا وما بدّلوا .

والله تعالى يختبر عباده بالخوف والزلزلة ليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر كل منهما جلياً واضحاً، فيجزى أهل الصدق بصدقهم بما عاهدوا الله عليه، ويعذب المنافقين الناقضين للعهد، المخالفين لأوامر ربهم، إذا استمروا على نفاقهم، حتى يلقوه، أما إذا تابوا وعملوا صالحاً فإن الله يغفر لهم ما سلف منهم من سيئات وآثام، والله غفور رحيم، ورحمته لعباده هي الغالبة لغضبه .

ورد الله المشركين، من قريش وخطفان وأسد وسليم، بغيظهم لقوت ما أملوه من الظفر بمحمد وصحبه، والفوز بالغنائم، ولم ينجح المؤمنون إلى منازلهم لإجبارهم على الانسحاب، وإنما سلب الله عليهم رجاء، وأرسل عليهم ملائكته يلقون الرعب في قلوبهم، فانسحبوا مخذولين مفلولين فكفى الله المؤمنين شر القتال، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا هو . وكان الله قوياً عزيزاً، لا يُعْلَبُ وَلَا يُضَامُ . لما قدمت الأحزاب إلى المدينة كان بين رسول الله ﷺ وبين يهود بني قريظة عهد وموادة، فجاء حبي بن أخطب - زعيم يهود بني النضير - وكان مع قومه مع الأحزاب، - إلى بني قريظة يستحثهم على نقض عهدهم مع رسول الله ﷺ، ومشاركة الأحزاب في محاربة المسلمين، فاستجابوا له، فشق ذلك على المسلمين . ولما هزم الله الأحزاب أمر الله رسوله الكريم بأن يسير إلى بني قريظة ليعاقبهم على غدرهم، ونقضهم العهد . وبعد حرب دامت خمسة وعشرين يوماً اضطروا إلى التزول إلى حكم سعد بن معاذ، رضي الله عنه، وكان حليفاً لهم في الجاهلية، فاستدعاه رسول الله - وكان في المدينة يشتكي من جرح أصابه - فحكم سعد بأن تقتل

المُقاتلة، وتُسبى الذرية والأموال. ولذلك قال الله تعالى: إِنَّهُ قَذَفَ فِي قُلُوبِ بَنِي قُرَيْظَةَ الرُّعْبَ (الذين ظاهروا الأحزاب من أهل الكتاب)، وَأَنْزَلَهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ (صياصيتهم) على حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَقَتَلَ الْمُسْلِمُونَ فَرِيقًا، وَأَسْرَوْا فَرِيقًا. وَأَوْرَثَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَرْضَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَنَخِيلَهُمْ، وَمَزَارِعَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ، وَمَوَاشِيَهُمْ، وَأَوْرَثَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْأَرْضَ الَّتِي فَتَحُوهَا فِيمَا بَعْدَ، مِنْ أَرْضِي الْيَهُودِ وَالْمَشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ، فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَخَارِجِهَا، وَهِيَ أَرْضٌ لَمْ يَسْبِقْ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ وَطِئْتُهَا أَقْدَامُهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، فَلَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ شَيْءٌ..^{٢٢٧}

لقد كان الهول الذي واجهه المسلمون في هذا الحادث من الضخامة وكان الكرب الذي واجهوه من الشدة وكان الفرع الذي لقوه من العنف، بحيث زلزلهم زلزالا شديدا، كما قال عنهم أصدق القائلين: «هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا»..

لقد كانوا ناسا من البشر. وللنفس طاقة. لا يكلفهم الله ما فوقها. وعلى الرغم من ثقتهم بنصر الله في النهاية وبشارة الرسول - ﷺ - لهم، تلك البشارة التي تتجاوز الموقف كله إلى فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق.. على الرغم من هذا كله، فإن الهول الذي كان حاضرا يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم.

ومما يصور هذه الحالة أبلغ تصوير خبر حذيفة. والرسول - ﷺ - يحس حالة أصحابه، ويرى نفوسهم من داخلها، فيقول: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع. يشترط له رسول الله - ﷺ - الرجعة. أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة».. ومع هذا الشرط بالرجعة، ومع الدعاء المضمون بالرفقة مع رسول الله في الجنة، فإن أحدا لا يلي النداء. فإذا عين بالاسم حذيفة قال: فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني!.. ألا إن هذا لا يقع إلا في أقصى درجات الزلزلة.. ولكن كان إلى جانب الزلزلة، وزوغان الأبصار، وكرب الأنفاس.. كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع بالله والإدراك الذي لا يضل عن سنن الله والثقة التي لا تتزعزع بثبات هذه السنن وتحقيق أواخرها متى تحققت أوائلها. ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببا في انتظار النصر. ذلك أنهم صدقوا قول الله سبحانه من قبل: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ، مَسَّيْتُهُمُ الْبَاسُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ: مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ»..

وها هم أولاء يزلزلون. فنصر الله إذن منهم قريب! ومن ثم قالوا: «هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».. «وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا».. «هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ».. هذا الهول، وهذا الكرب، وهذه الزلزلة، وهذا الضيق. وعدنا عليه النصر.. فلا بد أن يجيء النصر: «وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»

^{٢٢٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٤٣٦، بترقيم الشاملة آليا)

..صدق الله ورسوله في الأمانة وصدق الله ورسوله في داليتها ..ومن ثم اطمأنت قلوبهم لنصر الله ووعده الله: «وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا» ..

لقد كانوا ناسا من البشر، لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر، وضعف البشر. وليس مطلوباً منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس ويفقدوا خصائصه ومميزاته. فلماذا خلقهم الله. خلقهم ليقوا بشرا، ولا يتحولوا جنسا آخر. لا ملائكة ولا شياطين، ولا بهيمة ولا حجرا ..

كانوا ناسا من البشر يفزعون، ويضيقون بالشدة، ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة. ولكنهم كانوا - مع هذا - مرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى الله وتمنعهم من السقوط وتحدد فيهم الأمل، وتحرسهم من القنوط .. وكانوا بهذا وذاك نموذجا فريدا في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير.

وعلينا أن ندرك هذا لندرك ذلك النموذج الفريد في تاريخ العصور. علينا أن ندرك أنهم كانوا بشرا، لم يتخلوا عن طبيعة البشر، بما فيها من قوة وضعف. وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قمة مهياة لبني الإنسان، في الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمسك بعروة السماء.

وحين نرانا ضعفا مرة أو زلزلنا مرة، أو فزعنا مرة، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق .. فعلينا ألا نياس من أنفسنا، وألا نهلح ونحسب أننا هلكنا أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبدا! ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا لأنه من فطرتنا البشرية! ونصر عليه لأنه يقع لمن هم خير منا! هنالك العروة الوثقى. عروة السماء. وعلينا أن نستمسك بها لننهض من الكبوة، ونسترد الثقة والطمأنينة، ونتخذ من الزلزال بشيرا بالنصر. فنثبت ونستقر، ونقوى ونطمئن، ونسير في الطريق ..

وهذا هو التوازن الذي صاغ ذلك النموذج الفريد في صدر الإسلام. النموذج الذي يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية وحسن بلائه وجهاده، وثباته على عهده مع الله، فمنهم من لقيه، ومنهم من ينتظر أن يلقاه: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ. فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ. وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» ..

هذا في مقابل ذلك النموذج الكريه. نموذج الذين عاهدوا الله من قبل لا يولون الأديار. ثم ولم يوفوا بعهد الله: «وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولا» ..

روى الإمام أحمد عن ثابت، قال: قال أنس عمي، قال هاشم: أنس بن النضر، سُميت به لَمْ يَشْهَدْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ، قَالَ: فَشَقَّ عَلَيْهِ وَقَالَ: فِي أَوَّلِ مَشْهَدِ شَهِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: غَبَّتْ عَنْهُ لَنْ أَرَانِي اللَّهَ مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيرَيْنَ اللَّهَ مَا أَصْنَعُ. قَالَ: فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا، قَالَ: فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ قَالَ: فَاسْتَقْبَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ قَالَ: فَقَالَ لَهُ أَنَسُ: يَا أَبَا عَمْرٍو أَيْنَ؟ قَالَ: وَاهَا لِرِيحِ الْجَنَّةِ أَجَدُهُ دُونَ أُحُدٍ؟ قَالَ: فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ، فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بَضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ ضَرْبَةِ وَطْعَنَةِ وَرَمِيَةٍ؟ قَالَ: فَقَالَتْ أُخْتُهُ عَمَّتِي الرَّبِيعُ بِنْتُ النَّضْرِ: فَمَا عَرَفْتُ أُخِي إِلَّا بِنَانِهِ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ

الآية: {رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ. ٢٢٨

وهذه الصورة الوضيئة لهذا النموذج من المؤمنين تذكر هنا تكملة لصورة الإيمان، في مقابل صورة النفاق والضعف ونقض العهد من ذلك الفريق. لتتم المقابلة في معرض التربية بالأحداث وبالقرآن. ويعقب عليها بيان حكمة الابتلاء، وعاقبة النقص والوفاء وتفويض الأمر في هذا كله لمشئته الله: «لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ، وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ - إِنْ شَاءَ - أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا» .. ومثل هذا التعقيب يتخلل تصوير الحوادث والمشاهد - ليرد الأمر كله إلى الله، ويكشف عن حكمة الأحداث والوقائع. فليس شيء منها عبثا ولا مصادفة. إنما تقع وفق حكمة مقدرة، وتدير قاصد. وتنتهي إلى ما شاء الله من العواقب. وفيها تتجلى رحمة الله بعباده. ورحمته ومغفرته أقرب وأكبر: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا» ..

ويختتم الحديث عن الحدث الضخم بعاقبته التي تصدق ظن المؤمنين برهم وضلال المنافقين والمرجفين وخطأ تصوراتهم وتثبت القيم الإيمانية بالنهاية الواقعية: «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا» ..

وقد بدأت المعركة، وسارت في طريقها، وانتهت إلى نهايتها، وزمامها في يد الله، يصرفها كيف يشاء. وأثبت النص القرآني هذه الحقيقة بطريقة تعبيره. فأسند إلى الله تعالى إسنادا مباشرا كل ما تم من الأحداث والعواقب، تقريراً لهذه الحقيقة، وتثبيتاً لها في القلوب وإيضاحاً للتصور الإسلامي الصحيح. ولم تدر الدائرة على المشركين من قريش وغطفان وحدهم. بل دارت كذلك على بني قريظة حلفاء المشركين من يهود: «وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا. وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَأَرْضًا لَمْ تَطُوهَا. وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا» ..

فأما قصة هذا فتحتاج إلى شيء من إيضاح قصة اليهود مع المسلمين ..

إن اليهود في المدينة لم يهادنوا الإسلام بعد وفوده عليهم إلا فترة قصيرة. وكان الرسول - ﷺ - قد عقد معهم مهادنة أول مقدمه إليها أوجب لهم فيها النصرة والحماية مشروطاً عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدواً، ولا يمدوا يداً بأذى.

ولكن اليهود ما لبثوا أن أحسوا بخطر الدين الجديد على مكائدهم التقليدية بوصفهم أهل الكتاب الأول.

٢٢٨ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٤/ ٥٠٢] (١٣٠١٥) ١٣٠٤٦ صحيح

وقد كانوا يتمتعون بمكانة عظيمة بين أهل يثرب بسبب هذه الصفة. كذلك أحسوا بخطر التنظيم الجديد الذي جاء به الإسلام للمجتمع بقيادة رسول الله - ﷺ - فقد كانوا قبل ذلك يستغلون الخلاف القائم بين الأوس والخزرج لتكون لهم الكلمة العليا في المدينة. فلما وحد الإسلام الأوس والخزرج تحت قيادة نبيهم الكريم لم يجد اليهود الماء العكر الذي كانوا يصطادون بين الفريقين فيه! وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير لإسلام حبرهم وعالمهم عبد الله بن سلام. ذلك أن الله شرح صدره للإسلام فأسلم وأمر أهل بيته فأسلموا معه. ولكنه إن هو أعلن إسلامه خاف أن تتقول عليه يهود. فطلب إلى رسول الله - ﷺ - أن يسألهم عنه قبل أن يخبرهم بإسلامه! فقالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا. فخرج عندئذ عبد الله بن سلام إليهم، وطلب منهم أن يؤمنوا بما آمن به. فوقعوا فيه، وقالوا قالة السوء، وحذروا منه أحياء اليهود^{٢٢٩}. وأحسوا بالخطر الحقيقي على كيافهم الديني والسياسي. فاعتزموا الكيد لمحمد - ﷺ - كيدا لا هوادة فيه.

ومنذ هذا اليوم بدأت الحرب التي لم تضع أوزارها قط حتى اليوم بين الإسلام ويهود! لقد بدأت في أول الأمر حربا باردة، بتعبير أيامنا هذه. بدأت حرب دعاية ضد محمد - عليه الصلاة والسلام - وضد الإسلام. واتخذوا في الحرب أساليب شتى مما عرف به اليهود في تاريخهم كله. اتخذوا خطة التشكيك في رسالة محمد - ﷺ - وإلقاء الشبهات حول العقيدة الجديدة. واتخذوا طريقة الدس بين بعض المسلمين وبعض. بين الأوس والخزرج مرة، وبين الأنصار والمهاجرين مرة. واتخذوا طريقة التجسس على المسلمين لحساب أعدائهم من المشركين. واتخذوا طريقة اتخاذ بطانة من المنافقين الذين يظهرون الإسلام يوقعون بواسطتهم الفتنة في صفوف المسلمين.. وأخيرا أسفروا عن وجوههم واتخذوا طريق التآليب على المسلمين، كالذي حدث في غزوة الأحزاب ..

وكانت أهم طوائفهم بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة. وكان لكل منها شأن مع رسول الله - ﷺ - ومع المسلمين.

٢٢٩ - عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَعَبَدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ فِي نَحْلِ لَهُ، فَأَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ أَشْيَاءَ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا نَبِيٌّ، فَإِنْ أَنْتَ أَخْبَرْتَنِي بِهَا آمَنْتُ بِكَ، فَسَأَلَهُ عَنِ الشَّيْءِ وَعَنْ أَوَّلِ شَيْءٍ يَحْشُرُ النَّاسَ، وَعَنْ أَوَّلِ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ أَنْفَاءً، قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا الشَّيْءُ إِذَا سَبَقَ مَاءَ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ ذَهَبَ بِالشَّيْءِ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءَ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ ذَهَبَ بِالشَّيْءِ، وَأَوَّلُ شَيْءٍ يَحْشُرُ النَّاسَ نَارٌ تَجِيءُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، فَتَحْشُرُ النَّاسَ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَوَّلُ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ رَأْسُ نَوْرٍ وَكَبِدُ حَوْتٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهْتُ، وَإِنَّهُمْ إِنْ سَمِعُوا بِإِيمَانِي بِكَ بَهْتُونِي، وَوَقَعُوا فِيَّ، فَأُحِبُّ أَنْي أَبْعَثُ إِلَيْهِمْ، فَبَعَثَ فَجَاؤُوا، فَقَالَ: مَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ؟ قَالُوا: سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا، وَعَالِمُنَا وَابْنُ عَالِمِنَا، وَخَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا، فَقَالَ ﷺ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ أَتَسْلَمُونَ؟ فَقَالُوا: أَعَادَهُ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ مَا كَانَ لِفِعْلٍ، فَقَالَ: أَخْرِجْ يَا ابْنَ سَلَامٍ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالُوا: بَلْ هُوَ شَرُّنَا وَابْنُ شَرُّنَا، وَجَاهِلُنَا وَابْنُ جَاهِلِنَا، قَالَ: أَلَمْ أَخْبَرَكُم يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّهُمْ قَوْمٌ بُهْتُ. صحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [١٦/ ٤٤٢] [٧٤٢٣] وصحيح البخاري - المكثر [١٣/ ٢٥٠] [٣٩١١] مطولا

فأما بنو قينقاع وكانوا أشجع يهود، فقد حقدوا على المسلمين انتصارهم بيدر وأخذوا يتحرشون بهم ويتكبرون للعهد الذي بينهم وبين رسول الله - ﷺ - خيفة أن يستفحل أمره فلا يعودون يملكون مقاومته، بعد ما انتصر على قريش في أول اشتباك بينه وبينهم.

وقد ذكر ابن هشام في السيرة عن طريق ابن إسحاق ما كان من أمرهم قال: وَقَدْ كَانَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ غَزْوِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بَنِي قَيْنَقَاعَ، وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ بَنِي قَيْنَقَاعَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَمَعَهُمْ بِسُوقِ (بَنِي) قَيْنَقَاعَ ثُمَّ قَالَ يَا مَعْشَرَ يَهُودَ احْذَرُوا مِنَ اللَّهِ مِثْلَ مَا نَزَلَ بِقُرَيْشٍ مِنَ التَّقْمَةِ وَأَسْلِمُوا، فَإِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ أَنِّي نَبِيٌّ مُرْسَلٌ تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ وَعَهْدِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ تَرَى أَنَا قَوْمُكَ لَا يَغُرُّكَ أَنَّكَ لَقِيتَ قَوْمًا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْحَرْبِ فَأَصَبْتَ مِنْهُمْ فُرْصَةً إِنَّا وَاللَّهِ لَكِنَّ حَارِبَنَا كَلْتَعْلَمَنَّ أَنَا نَحْنُ النَّاسَ ٢٣٠.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ بْنُ الْمُسَوَّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، عَنْ أَبِي عَوْنٍ قَالَ كَانَ مِنْ أَمْرِ بَنِي قَيْنَقَاعَ أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْعَرَبِ قَدِمَتْ بِجَلْبٍ لَهَا، فَبَاعَتْهُ بِسُوقِ بَنِي قَيْنَقَاعَ، وَجَلَسَتْ إِلَى صَائِغٍ بِهَا، فَجَعَلُوا يُرِيدُونَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا، فَأَبَتْ فَعَمِدَ الصَّائِغُ إِلَى طَرَفِ ثَوْبِهَا فَعَقَدَهُ إِلَى ظَهْرِهَا، فَلَمَّا قَامَتْ انْكَشَفَتْ سَوَائِهَا، فَضَحِكُوا بِهَا، فَصَاحَتْ. فَوُتِبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصَّائِغِ فَقَتَلَهُ وَكَانَ يَهُودِيًّا، وَشَدَّتْ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ فَاسْتَصْرَخَ أَهْلُ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ، فَعَضِبَ الْمُسْلِمُونَ فَوَقَعَ الشَّرَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي قَيْنَقَاعَ ٢٣١.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، قَالَ فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سُلُولٍ حِينَ أَمَكْنَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَحْسِنْ فِي مَوَالِيٍّ وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ، قَالَ فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَحْسِنْ فِي مَوَالِيٍّ قَالَ فَأَعْرَضَ عَنْهُ. فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ دِرْعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَكَانَ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ الْفُضُولِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْسَلَنِي، وَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى رَأَوْا لَوَجْهَهُ ظُلُمًا، ثُمَّ قَالَ وَيْحَكَ أَرْسَلَنِي، قَالَ لَا وَاللَّهِ لَا أُرْسَلُكَ حَتَّى تُحْسِنَ فِي مَوَالِيٍّ أَرْبَعٌ مِثَّةٍ حَاسِرٍ وَثَلَاثٌ مِثَّةٍ دَارِعٍ قَدْ مَنَعُونِي مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ تَحْصُدُهُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ إِنِّي وَاللَّهِ أَمْرُؤُ أَحْشَى الدَّوَاتِرَ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُمْ لَكَ ٢٣٢ ..

وكان عبد الله بن أبي لا يزال صاحب شأن في قومه. فقبل رسول الله - ﷺ - شفاعته في بني قينقاع على أن يجلوا عن المدينة، وأن يأخذوا معهم أموالهم عدا السلاح. وبذلك تخلصت المدينة من قطاع يهودي ذي قوة عظيمة.

٢٣٠- سيرة ابن هشام [٤٦/ ٢] وتفسير الطبري- مؤسسة الرسالة [٢٢٨/ ٦] (٦٦٦٨) بلا سند

٢٣١- سيرة ابن هشام [٤٧/ ٢] صحيح مرسل

٢٣٢- سيرة ابن هشام [٤٨/ ٢] صحيح مرسل

عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ يَسْتَعِينُهُمْ فِي ذَلِكَ الْقَتِيلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرِ
الَّذِينَ قَتَلَهُمَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، فِيمَا حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُوْمَانَ، وَكَانَ بَيْنَ بَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي عَامِرِ
عَقْدٌ وَحَلْفٌ، فَلَمَّا أَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَعِينُهُمْ فِي الدِّيَةِ، قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، نُعِينُكَ عَلَى مَا
أَحْبَبْتَ مِمَّا اسْتَعْنَتْ بِنَا عَلَيْهِ، ثُمَّ خَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا الرَّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ
هَذِهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَانِبِ جِدَارٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ قَاعِدٌ، فَقَالُوا: مَنْ رَجُلٌ يَغْلُو عَلَى هَذَا الْبَيْتِ فَيُلْقِي
عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيَقْتُلُهُ بِهَا فَيَرِيحُنَا مِنْهُ؟ فَانْتَدَبَ لِذَلِكَ مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ جَحَّاشٍ بْنُ كَعْبٍ فَقَالَ: أَنَا
لِذَلِكَ، فَصَعِدَ لِيُلْقِي عَلَيْهِ صَخْرَةً كَمَا قَالَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ: أَبُو
بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. فَأَتَاهُ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ، فَقَامَ وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: "لَا
تَبْرَحُوا"، فَخَرَجَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا اسْتَبْطَأَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ قَامُوا فِي طَلَبِهِ، فَلَقُوا رَجُلًا مُقْبِلًا مِنَ
الْمَدِينَةِ، فَسَأَلُوهُ عَنْهُ فَقَالَ: رَأَيْتُهُ دَاخِلًا الْمَدِينَةَ، فَأَقْبَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَيْهِ، فَأَخْبَرَهُمْ
الْخَبَرَ بِمَا أَرَادَتْ يَهُودُ مِنَ الْعُدْرِ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَرْبِهِمْ وَالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ، فَسَارَ بِالنَّاسِ حَتَّى نَزَلَ
بِهِمْ، فَتَحَصَّنُوا مِنْهُ فِي الْحُصُونِ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَطْعِ النَّخْلِ وَالتَّحْرِيقِ فِيهَا، فَادَّوَّهُ: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ
كُنْتُ تَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ، وَتَعْيِيهِ عَلَى مَنْ صَنَعَهُ، فَمَا بَالُكَ تَقْطَعُ النَّخْلَ وَتُحْرِقُهُ ۚ ۲۳۳.

والآن نجيء إلى غزوة بني قريظة. وقد مر من شأنهم في غزوة الأحزاب أنهم كانوا إلينا على المسلمين مع
المشركين، بتحريض من زعماء بني النضير، وحيي بن أخطب على رأسهم. وكان نقض بني قريظة
لعهدهم مع رسول الله - ﷺ - في هذا الظرف أشق على المسلمين من هجوم الأحزاب من خارج
المدينة.

ومما يصور حسامة الخطر الذي كان يتهدد المسلمين، والفرع الذي أحدثه نقض قريظة للعهد ما روى
مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُوْمَانَ مَوْلَى آلِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَعَمَّنْ لَا أَتَّهُمْ، عَنْ عَبْدِ
اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَعَنْ الزُّهْرِيِّ، وَعَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ
مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ، وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ، وَعَنْ غَيْرِهِمْ مِنْ عُلَمَائِنَا: أَنَّهُ كَانَ مِنْ حَدِيثِ
الْخُنْدَقِ أَنَّ نَفَرًا مِنَ الْيَهُودِ مِنْهُمْ سَلَامُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ النَّضْرِيُّ، وَحَيُّ بْنُ أَخْطَبِ النَّضْرِيِّ، وَكَنَانَةُ بْنُ
الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ النَّضْرِيِّ، وَهُودَةُ بْنُ قَيْسِ الْوَائِلِيِّ، وَأَبُو عَمَّارِ الْوَائِلِيِّ فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ وَنَفَرٍ
مِنْ بَنِي وَائِلٍ، وَهُمْ الَّذِينَ حَزَبُوا الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَرَجُوا حَتَّى قَدِمُوا مَكَّةَ عَلَى قُرَيْشٍ
فَدَعَوْهُمْ إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالُوا: إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ. فَقَالَ لَهُمْ قُرَيْشٌ: يَا
مَعْشَرَ يَهُودَ، إِنَّكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَالْعِلْمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ نَحْنُ وَمُحَمَّدٌ، أَفَدَيْنَا خَيْرًا أَمْ دِينُهُ
؟ قَالُوا: بَلْ دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ، وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْهُ، قَالَ: فَهُمْ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ

٢٣٣ - سيرة ابن هشام [١٨٩/ ٢] ودلائل النبوة للبيهقي (١٢٤٨) وتفسير ابن كثير - دار طيبة [٥٨/ ٨] ونضرة النعيم في مكارم

أخلاق الرسول الكريم - ﷺ - دار الوسيلة - جدة [٥٦٤٢/ ١١] بلا إسناد - وجاء به السيد رحمه الله مختصرا

أَوْثُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ
آمَنُوا سَبِيلًا، إِلَى قَوْلِهِ وَكَفَىٰ بِهِمْ سَعِيرًا، فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ لِقُرَيْشٍ سَرَّهُمْ مَا قَالُوا وَنَشَطُوا لِمَا دَعَوْهُمْ
لَهُ مِنْ حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاجْتَمَعُوا لِلذِّكِّ وَاتَّعَدُوا لَهُ. ثُمَّ خَرَجَ أُولَئِكَ التَّفَرُّ مِنَ الْيَهُودِ حَتَّى جَاءُوا
غَطَفَانَ مِنْ قَيْسِ عَيْلَانَ فَدَعَوْهُمْ إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ مَعَهُمْ عَلَيْهِ، وَأَنَّ
قُرَيْشًا قَدْ تَابَعُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَاجْتَمَعُوا فِيهِ، فَأَجَابُوهُمْ فَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ وَقَائِدُهَا أَبُو سُفْيَانُ بْنُ
حَرْبٍ، وَخَرَجَتْ غَطَفَانُ وَقَائِدُهَا عَيْيَنَةُ بْنُ حِصْنٍ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرِ فِي بَنِي فِزَارَةَ، وَالْحَارِثُ بْنُ
عَوْفٍ بْنِ أَبِي حَارِثَةَ الْمُزَيُّ فِي بَنِي مُرَّةَ، وَمِشْعَرُ بْنُ رُحَيْلَةَ بْنِ نُؤَيْرَةَ بْنِ طَرِيفٍ بْنِ سَحْمَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ
بْنِ هِلَالٍ بْنِ خَلَاوَةَ بْنِ أَشْجَعٍ بْنِ رَيْثِ بْنِ غَطَفَانَ فِيمَنْ تَابَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ أَشْجَعٍ، فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَبِمَا اجْتَمَعُوا لَهُ مِنَ الْأَمْرِ ضَرَبَ الْخَنْدَقَ عَلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ
الْخَنْدَقِ، أَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ حَتَّى نَزَلَتْ بِمُجْتَمَعِ الْأَسْيَالِ مِنْ رُومَةَ بَيْنَ الْجُرُفِ وَالْعَابَةِ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ مِنْ
أَحَابِيشِهِمْ وَمَنْ تَابَعَهُمْ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةَ، وَأَقْبَلَتْ غَطَفَانُ وَمَنْ تَابَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، حَتَّى
نَزَلُوا بِذَنْبِ نَقَمَى إِلَى جَانِبِ أُحُدٍ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ حَتَّى جَعَلُوا ظُهُورَهُمْ إِلَى سَلْعٍ
فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَضَرَبَ هُنَالِكَ عَسْكَرَهُ، وَالْخَنْدَقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَوْمِ، وَأَمَرَ بِالذَّرَارِيِّ
وَالنِّسَاءِ فَرَفَعُوا فِي الْأَطَامِ، وَخَرَجَ عَدُوُّ اللَّهِ حِيَّيُّ بْنُ أَخْطَبَ النَّضْرِيُّ حَتَّى أَتَى كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ الْقُرْظِيَّ
صَاحِبَ عَقْدِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَعَهْدِهِمْ، وَكَانَ قَدْ وَاذَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَوْمِهِ وَعَاهِدَهُ عَلَى ذَلِكَ
وَعَاقِدَهُ، فَلَمَّا سَمِعَ كَعْبٌ بِحِيَّيٍّ بْنِ أَخْطَبٍ أَغْلَقَ دُونَهُ حِصْنَهُ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، فَأَبَى أَنْ يَفْتَحَ لَهُ، فَنَادَاهُ
حِيَّيُّ: يَا كَعْبُ، افْتَحْ لِي، قَالَ: وَيْحَكَ يَا حِيَّيُّ، إِنَّكَ أَمْرٌ مَشْهُومٌ، إِنِّي قَدْ عَاهَدْتُ مُحَمَّدًا، فَلَسْتُ بِنَاقِضٍ
مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَمْ أَرْ مِنْهُ إِلَّا وَفَاءً وَصِدْقًا، قَالَ: وَيْحَكَ افْتَحْ لِي أَكَلْمُكَ، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ. قَالَ: وَاللَّهِ إِنْ
أَغْلَقْتَ دُونِي إِلَّا تَخَوَّفْتُ عَلَى حَشِيشتِكَ أَنْ أَكُلَ مَعَكَ مِنْهَا، فَأَحْفَظُ الرَّجُلَ، فَفَتَحَ لَهُ، فَقَالَ: يَا كَعْبُ
جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ وَبِبحْرِ طَمٍّ، جِئْتُكَ بِقُرَيْشٍ عَلَى قَادَاتِهَا وَسَادَاتِهَا، حَتَّى أَنْزَلْتُهُمْ بِمُجْتَمَعِ الْأَسْيَالِ مِنْ
رُومَةَ، وَبِعُظْفَانَ عَلَى قَادَاتِهَا وَسَادَاتِهَا حَتَّى أَنْزَلْتُهُمْ بِذَنْبِ نَقَمَى إِلَى جَانِبِ أُحُدٍ، قَدْ عَاهَدُونِي
وَعَاقَدُونِي أَنْ لَا يَبْرَحُوا حَتَّى يَسْتَأْصِلُوا مُحَمَّدًا وَمَنْ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ: جِئْتَنِي وَاللَّهِ بِذَلِكَ
الدَّهْرِ وَبِجِهَامٍ قَدْ هَرَأَقَ مَاؤُهُ يُرْعِدُ وَيَبْرُقُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَدَعْنِي وَمُحَمَّدًا وَمَا أَنَا عَلَيْهِ، فَلَمْ أَرْ مِنْ
مُحَمَّدٍ إِلَّا صِدْقًا وَوَفَاءً، فَلَمْ يَزَلْ حِيَّيُّ بِكَعْبٍ يَفْتَنُهُ فِي الذُّرُورَةِ وَالْغَارِبِ حَتَّى سَمَحَ لَهُ عَلَى أَنْ أَعْطَاهُمْ
عَهْدًا مِنَ اللَّهِ وَمِيثَاقًا لَنْ رَجَعَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ وَلَمْ يُصِيبُوا مُحَمَّدًا أَنْ أَدْخَلَ مَعَكَ فِي حِصْنِكَ حَتَّى
يُصِيبَنِي مَا أَصَابَكَ، فَنَقَضَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ عَهْدَهُ وَبَرَّيَّ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛
فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْخَبْرُ، وَإِلَى الْمُسْلِمِينَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذِ بْنِ النُّعْمَانِ بْنِ
أَمْرِئِ الْقَيْسِ أَحَدَ بَنِي الْأَشْهَلِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ الْأَوْسِ، وَسَعْدَ بْنَ عَبَادَةَ بْنِ دَيْلَمٍ أَخِي بَنِي سَاعِدَةَ بْنِ
كَعْبِ بْنِ الْخَزْرَجِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَمَعَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ أَخُو بَلْحَارِثِ بْنِ

الْخَزْرَجَ، وَخَوَاتُ بْنُ جُبَيْرٍ أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، فَقَالَ: "انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا أَحَقَّ مَا بَلَّغْنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالْحِنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلَا تُفْتُوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى الْوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ". فَخَرَجُوا حَتَّى أَتَوْهُمْ فَوَجَدُوهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَا بَلَّغَهُمْ عَنْهُمْ، وَنَالُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَا عَقْدَ، فَشَاتَمَهُمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَشَاتَمُوهُ، وَكَانَ رَجُلًا فِيهِ حِدَّةٌ، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: دَعْ عَنْكَ مُشَاتَمَتَهُمْ، فَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَرْبَى مِنَ الْمُشَاتَمَةِ، ثُمَّ أَقْبَلَ سَعْدُ وَسَعْدُ وَمَنْ مَعَهُمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالُوا: عِضْلُ وَالْقَارَةُ: أَيُّ كَعْدَرٍ عِضْلُ وَالْقَارَةُ بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَصْحَابِ الرَّجِيعِ، حُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اللَّهُ أَكْبَرُ، أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ"، وَعَظَّمْ عِنْدَ ذَلِكَ الْبَلَاءَ، وَاشْتَدَّ الْخَوْفُ، وَأَتَاهُمْ عَدُوُّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَمِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُمْ، حَتَّى ظَنَّ الْمُسْلِمُونَ كُلَّ ظَنٍّ وَنَجَمَ التَّفَاقُ مِنْ بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ، حَتَّى قَالَ مُعْتَبُ بْنُ قُشَيْرٍ أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ: كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَفَيْصَرَ، وَأَحَدُنَا لَا يَقْدِرُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْغَائِطِ، وَحَتَّى قَالَ أَوْسُ بْنُ قَيْظٍ أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَيُوتَنَا لَعَوْرَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ، وَذَلِكَ عَنْ مَلَأٍ مِنْ رِجَالِ قَوْمِهِ، فَأَذَنْ لَنَا فَلَنَرْجِعَ إِلَى دَارِنَا، وَإِنَّهَا خَارِجَةٌ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَضْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْقَوْمِ حَرْبٌ إِلَّا الرَّمْيُ بِالْتَّبَلِ وَالْحِصَارُ^{٢٣٤}.

فهكذا كان الأمر إبان معركة الأحزاب.

فلما أيد الله تعالى نبيه بنصره، ورد أعداءه بغیظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال.. رجع النبي - ﷺ - إلى المدينة منصورا، ووضع الناس السلاح، فبينما رسول الله - ﷺ - يغتسل من وعشاء المرابطة، في بيت أم سلمة - رضي الله عنها - إذ تبدى له جبريل - عليه السلام - فقال: «أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال - ﷺ -: نعم». قال: «ولكن الملائكة لم تضع أسلحتها! عَنْ مَعْبُدِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: "وَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً حَتَّى جَهَدَهُمُ الْحِصَارُ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ. وَقَدْ كَانَ حَيُّ بْنُ أَخْطَبَ دَخَلَ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فِي حِصْنِهِمْ حِينَ رَجَعَتْ عَنْهُمْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانٌ وَفَاءٌ لِكَعْبِ بْنِ أَسَدٍ بِمَا كَانَ عَاهَدَهُ عَلَيْهِ؛ فَلَمَّا أَيْقَنُوا بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ مُنْصَرِفٍ عَنْهُمْ حَتَّى يُنَاجِزَهُمْ، قَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا تَرَوْنَ، وَإِنِّي عَارِضٌ عَلَيْكُمْ خِلَالًا ثَلَاثًا، فَخُذُوا أَيَّهَا؟ قَالُوا: وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: تُبَايِعُ هَذَا الرَّجُلَ وَتُصَدِّقُهُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَنَبِيِّ مُرْسَلٍ، وَإِنَّهُ الَّذِي كُنْتُمْ تَجِدُونَهُ فِي كِتَابِكُمْ، فَتَأْمِنُوا عَلَى دِمَائِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ وَنِسَائِكُمْ، قَالُوا: لَا نَفَارِقُ حُكْمَ التَّوْرَةِ أَبَدًا، وَلَا نَسْتَبْدِلُ بِهِ غَيْرَهُ؛ قَالَ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ هَذِهِ عَلَيَّ، فَهَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، ثُمَّ نَخْرُجْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ رِجَالًا مُصَلِّينَ

^{٢٣٤} - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبْرِيِّ (٢٦٠٢٤) صحيح مرسل - وجاء به السيد رحمه الله مختصرا

بالسُّيُوفِ، وَلَمْ تَشْرُكْ وَرَأَيْنَا ثَقُلًا يَهْمُنَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، فَإِنْ نَهَلْتَ نَهْلَكَ وَلَمْ تَشْرُكْ وَرَأَيْنَا شَيْئًا نَخْشَى عَلَيْهِ، وَإِنْ نَظَهَرُ فَلَعَمْرِي لَتَتَّخِذَنَّ النِّسَاءُ وَالْأَبْنَاءُ قَالُوا: نَقْتُلُ هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينَ، فَمَا خَيْرُ الْعَيْشِ بَعْدَهُمْ؟ قَالَ: فَإِذَا آبَيْتُمْ هَذِهِ عَلَيَّ، فَإِنَّ اللَّيْلَةَ لَيْلَةُ السَّبْتِ، وَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ قَدْ أَمْنُوا، فَانْزِلُوا لَعَلَّنَا أَنْ نَصِيبَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ غَرَّةً. قَالُوا: تُفْسِدُ سَبْتَنَا وَنُحْدِثُ فِيهِ مَا لَمْ يَكُنْ أَحْدَثَ فِيهِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا؟ أَمَّا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ فَأَصَابَهُمْ مِنَ الْمَسْخِ مَا لَمْ يَخَفْ عَلَيْكَ؟ قَالَ: مَا بَاتَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مُنْذُ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لَيْلَةً وَاحِدَةً مِنَ الدَّهْرِ حَازِمًا، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنْ ابْعَثْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْدَرِ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَكَانُوا مِنْ حُلَفَاءِ الْأَوْسِ، نَسْتَشِيرُهُ فِي أَمْرِنَا؛ فَأَرْسَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَامَ إِلَيْهِ الرِّجَالُ، وَجَهَشَ إِلَيْهِ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ يَبْكُونَ فِي وَجْهِهِ، فَفَرَّقَ لَهُمْ وَقَالُوا لَهُ: يَا أَبَا لُبَابَةَ، أَتَرَى أَنْ نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ، إِنَّهُ الذَّبْحُ؛ قَالَ أَبُو لُبَابَةَ: فَوَاللَّهِ مَا زَالَتْ قَدَمَايَ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي قَدْ خُنْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؛ ثُمَّ انْطَلَقَ أَبُو لُبَابَةَ عَلَى وَجْهِهِ، وَلَمْ يَأْتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى ارْتَبَطَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَى عَمُودٍ مِنْ عُمُدِهِ وَقَالَ: لَا أَبْرَحُ مَكَانِي حَتَّى يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيَّ مِمَّا صَنَعْتُ، وَعَاهَدَ اللَّهُ لَا يَطَّأُ بَنِي قُرَيْظَةَ أَبَدًا وَلَا يَرَانِي اللَّهُ فِي بَلَدٍ خُنْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِيهِ أَبَدًا. فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبْرَهُ، وَكَانَ قَدْ اسْتَبْطَأَهُ، قَالَ: "أَمَّا إِنَّهُ لَوْ كَانَ جَاءَنِي لَأَسْتَغْفَرْتُ لَهُ. أَمَّا إِذَا فَعَلَ مَا فَعَلَ، فَمَا أَنَا بِالَّذِي أُطْلِفُهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ" ثُمَّ إِنَّ ثَعْلَبَةَ بْنَ سَعِيَةَ، وَأُسَيْدَ بْنَ سَعِيَةَ، وَأَسَدَ بْنَ عُبَيْدٍ، وَهُمْ نَفَرٌ مِنْ بَنِي هُذَيْلٍ لَيْسُوا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَلَا النَّضِيرِ، نَسَبَهُمْ فَوْقَ ذَلِكَ، هُمْ بَنُو عَمِّ الْقَوْمِ، أَسْلَمُوا تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا قُرَيْظَةُ عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَخَرَجَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى الْقُرْظِيُّ، فَمَرَّ بِحَرَسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ؛ فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: عَمْرُو بْنُ سُعْدَى؛ وَكَانَ عَمْرُو قَدْ أَبَى أَنْ يَدْخُلَ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي غَدْرِهِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: لَا أَغْدِرُ بِمُحَمَّدٍ أَبَدًا، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ حِينَ عَرَفَهُ: اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنِي إِقَالَه عَثَرَاتِ الْكَرَامِ، ثُمَّ حَلَّى سَبِيلَهُ؛ فَخَرَجَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى بَاتَ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ ذَهَبَ، فَلَا يُدْرَى أَيْنَ ذَهَبَ مِنْ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا؛ فَذَكَرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَأْنَهُ، فَقَالَ: "ذَاكَ رَجُلٌ نَجَّاهُ اللَّهُ بِوَفَائِهِ"، قَالَ: وَبَعْضُ النَّاسِ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ كَانَ أُوثِقَ بُرْمَةً فِيمَنْ أُوثِقَ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ حِينَ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَصْبَحَتْ رِمَتُهُ مُلْقَاةً، وَلَا يُدْرَى أَيْنَ ذَهَبَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تِلْكَ الْمَقَالَةُ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَلَمَّا أَصْبَحُوا، نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَوَاتَبَتِ الْأَوْسُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُمْ مَوَالِينَا دُونَ الْخَزَرَجِ، وَقَدْ فَعَلْتَ فِي مَوَالِي الْخَزَرَجِ بِالْأَمْسِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ بَنِي قُرَيْظَةَ حَاصِرَ بَنِي قَيْنِقَاعَ، وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزَرَجِ، فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَسَأَلَهُ إِيَّاهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنٍ سُلُولٍ، فَوَهَبَهُمْ لَهُ؛ فَلَمَّا كَلَّمَتْهُ الْأَوْسُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَوْسِ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ؟" قَالُوا: بَلَى، قَالَ: "فَذَاكَ إِلَيَّ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ"، وَكَانَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ قَدْ جَعَلَهُ رَسُولُ

اللَّهُ ﷺ فِي خَيْمَةِ امْرَأَةٍ مِنْ أَسْلَمَ يُقَالُ لَهَا رُفِيدَةٌ فِي مَسْجِدِهِ، كَانَتْ تُدَاوِي الْجَرَحَى، وَتَحْتَسِبُ بِنَفْسِهَا عَلَى خِدْمَةِ مَنْ كَانَتْ بِهِ ضِيعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَالَ لِقَوْمِهِ حِينَ أَصَابَهُ السَّهْمُ بِالْخَنْدَقِ: "اجْعَلُوهُ فِي خَيْمَةِ رُفِيدَةٍ حَتَّى أَعُوذَ مِنْ قَرِيبٍ"، فَلَمَّا حَكَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، أَتَاهُ قَوْمُهُ فَاحْتَمَلُوهُ عَلَى حِمَارٍ، وَقَدْ وَطَّئُوا لَهُ بِيَسَادَةٍ مِنْ أَدَمَ، وَكَانَ رَجُلًا جَسِيمًا، ثُمَّ أَقْبَلُوا مَعَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا أَبَا عَمْرٍو أَحْسِنِ فِي مَوَالِيكَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلَكَ ذَلِكَ لِتُحْسِنَ فِيهِمْ؛ فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ، قَالَ: قَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، فَرَجَعَ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ إِلَى دَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، فَنَعَى إِلَيْهِمْ رِجَالُ بَنِي قُرَيْظَةَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مِنْ كَلِمَتِهِ الَّتِي سَمِعَ مِنْهُ؛ فَلَمَّا انْتَهَى سَعْدٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ، قَالَ: قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ، فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: يَا أَبَا عَمْرٍو، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلَكَ مَوَالِيكَ لِتَحْكُمَ فِيهِمْ، فَقَالَ سَعْدٌ: عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ، إِنَّ الْحُكْمَ فِيهِمْ كَمَا حَكَمْتَ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَعَلَى مَنْ هَهُنَا فِي النَّاحِيَةِ الَّتِي فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُعْرَضٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِجْلَالًا لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "نَعَمْ"، قَالَ سَعْدٌ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ الرِّجَالُ، وَتُقَسَمَ الْأَمْوَالُ، وَتُسَبَى الذَّرَارِيُّ وَالنِّسَاءُ" ٢٣٥

وَعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: خَرَجْتُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَقْفُو أَثَرِ النَّاسِ، فَسَمِعْتُ وَئِيدَ الْأَرْضِ مِنْ وَرَائِي، فَالْتَفَتْتُ فَإِذَا أَنَا بِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَمَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ الْحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ يَحْمِلُ مِجَنَّهُ، فَجَلَسْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا أَطْرَافُهُ، فَأَنَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أَطْرَافِ سَعْدٍ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ وَأَطْوَلِهِمْ، قَالَتْ: فَمَرَّ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

لَبِثْتُ قَلِيلًا يُدْرِكُ الْهَيْجَا... حَمَلْتُ مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ.

إِذَا حَانَ الْأَجَلُ قَالَتْ: فَقُمْتُ فَافْتَحَمْتُ حَدِيقَةً، فَإِذَا فِيهَا نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ عُمَرُ: وَيْحَكَ مَا جَاءَ بِكَ لِعَمْرِي وَاللَّهِ إِنَّكَ لَجَرِيئَةٌ، مَا يُؤْمِنُكَ أَنْ يَكُونَ تَحَوُّزٌ أَوْ بَلَاءٌ، قَالَتْ: فَمَا زَالَ يَلُومُنِي حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنْ الْأَرْضَ قَدْ انْشَقَّتْ فَدَخَلْتُ فِيهَا، وَفِيهِمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ نَصِيفَةٌ لَهُ، فَرَفَعَ الرَّجُلُ النَّصِيفَ عَنْ وَجْهِهِ، فَإِذَا طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهِ، فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا عُمَرُ، إِنَّكَ قَدْ أَكْثَرْتَ مِنْذُ الْيَوْمِ، وَأَيْنَ الْفِرَارُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ؟ قَالَتْ: وَرَمَى سَعْدًا رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ الْعَرِيقَةِ، بِسَهْمٍ قَالَ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْعَرِيقَةِ فَأَصَابَ أَكْحَلَهُ فَقَطَعَهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تُمَتِّنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ قُرَيْظَةَ، وَكَانُوا حُلَفَاءَهُ وَمَوَالِيَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَبَرَأَ كَلِمُهُ، وَبَعَثَ اللَّهُ الرِّيحَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا، فَلَحِقَ أَبُو سُفْيَانَ بِتِهَامَةٍ، وَلَحِقَ عُيَيْنَةُ وَمَنْ مَعَهُ بِنَجْدٍ، وَرَجَعَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ، فَتَحَصَّنُوا بِصِيَاصِيهِمْ، فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَمَرَ بِقُبَّةٍ مِنْ أَدَمَ فَضُرِبَتْ عَلَى سَعْدٍ فِي الْمَسْجِدِ وَوُضِعَ السَّلَاحُ. قَالَتْ: فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: أَوْقَدْ وَضَعْتَ السَّلَاحَ، فَوَاللَّهِ مَا وَضَعْتَ

٢٣٥- تفسير ابن كثير- دار طيبة [٣٩٧/ ٦] وزاد المعاد [١١٧/ ٣] وتاريخ الرسل والملوك [٢/ ٢] وجامع البيان في تفسير القرآن للطبري << سورة الأحزاب > (٢٦٠٩٨) حسن

الْمَلَائِكَةُ السَّلَاحَ، أَخْرَجَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَقَاتَلَهُمْ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالرَّحِيلِ، وَلَيْسَ لَأُمَّتِهِ، فَخَرَجَ فَمَرَّ عَلَى بَنِي غَنَمٍ وَكَانُوا جِيرَانَ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَنْ مَرَّ بِكُمْ؟ قَالُوا: مَرَّ بَنَا دَحِيَّةُ الْكَلْبِيِّ، فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ يَوْمًا، فَلَمَّا اشْتَدَّ حَصْرُهُمْ، وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ عَلَيْهِمْ قِيلَ لَهُمْ انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَشَارُوا أَبَا لُبَابَةَ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ الذَّبْحُ، فَقَالُوا: نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ، وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى سَعْدٍ، فَحَمَلَ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَيْهِ إِكَافٌ مِنْ لَيْفٍ وَحَفٍّ بِهِ قَوْمُهُ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا أَبَا عَمْرٍو، حُلِفَاؤُكَ وَمَوَالِيكَ وَأَهْلُ النَّكَايَةِ وَمَنْ قَدْ عَلِمْتَ، فَلَا يُرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ ذَرَارِيِّهِمْ التَفَتَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: قَدْ أَنْ لِسَعْدٍ أَنْ لَا يُبَالِي فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمًا، فَلَمَّا طَلَعَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قُومُوا إِلَيَّ سَيِّدُكُمْ فَأَنْزِلُوهُ، قَالَ عُمَرُ: سَيِّدُنَا اللَّهُ، قَالَ: أَنْزِلُوهُ، فَأَنْزَلُوهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: احْكُمْ فِيهِمْ، قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسَبَّى ذَرَارِيُّهُمْ، وَتُقَسَّمْ أَمْوَالُهُمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ دَعَا اللَّهَ سَعْدُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِن كُنْتُ أَبْقَيْتَ عَلَى نَبِيِّكَ ﷺ مِنْ حَرْبٍ قُرَيْشٍ شَيْئًا، فَأَبْقَيْتَ لَهَا، وَإِنْ كُنْتُ قَطَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فَأَقْبِضْنِي إِلَيْكَ، فَاَنْفَجَرَ كَلِمُهُ، وَكَانَ قَدْ بَرَأَ مِنْهُ حَتَّى مَا بَقِيَ مِنْهُ إِلَّا مِثْلُ الْحِمَصِ، قَالَتْ: فَارْجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَرَجَعَ سَعْدٌ إِلَى بَيْتِهِ الَّذِي ضَرَبَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: فَحَضَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، قَالَتْ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَعْرِفُ بُكَاءَ أَبِي بَكْرٍ مِنْ بُكَاءِ عُمَرَ وَأَنَا فِي حُجْرَتِي، وَكَانُوا كَمَا، قَالَ اللَّهُ: {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح]، قَالَ عَلْقَمَةُ: فَقُلْتُ أَيُّ أُمَّةٍ، فَكَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ؟ قَالَتْ: كَانَ عَيْنَاهُ لَا تَدْمَعُ عَلَى أَحَدٍ، وَلَكِنَّهُ إِذَا وَجَدَ إِنَّمَا هُوَ أَخَذَ بِلَحْيَتِهِ" ٢٣٦.

ثم أمر رسول الله - ﷺ - بالأخاديد فخذت في الأرض، وحيء بهم مكتفين، فضرب أعناقهم. وكانوا ما بين السبع مائة، والثمان مائة. وسي من لم ينبت (كناية عن البلوغ) مع النساء والأموال. وفيهم حيي بن أخطب. وكان قد دخل معهم في حصنهم كما عاهدهم.

ومنذ ذلك اليوم ذلت يهود، وضعفت حركة النفاق في المدينة وطأطأ المنافقون رؤوسهم، وجنبوا عن كثير مما كانوا يأتون. وتبع هذا وذلك أن المشركين لم يعودوا يفكرون في غزو المسلمين، بل أصبح المسلمون هم الذين يغزونهم. حتى كان فتح مكة والطائف. ويمكن أن يقال: إنه كان هناك تلازم بين حركات اليهود وحركات المنافقين وحركات المشركين. وإن طرد اليهود من المدينة قد أنهى هذا التلازم، وإنه كان فارقا واضحا بين عهدين في نشأة الدولة الإسلامية واستقرارها.

فهذا مصداق قول الله سبحانه: «وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا. وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطُوهَا. وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا».

والصياصي: الحصون والأرض التي ورثها المسلمون ولم يطؤوها، ربما كانت أرضا مملوكة لبني قريظة خارج محلتهم. وقد آلت للمسلمين فيما آل إليهم من أموالهم. وربما كانت إشارة إلى تسليم بني قريظة أرضهم بغير قتال. ويكون الوطاء معناه الحرب التي توطأ فيها الأرض.

«وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا».. فهذا هو التعقيب المنتزع من الواقع وهو التعقيب الذي يرد الأمر كله إلى الله. وقد مضى السياق في عرض المعركة كلها يرد الأمر كله إلى الله. ويسند الأفعال فيها إلى الله مباشرة. تثبتا لهذه الحقيقة الكبيرة، التي يثبتها الله في قلوب المسلمين بالأحداث الواقعة، وبالقرآن بعد الأحداث، ليقوم عليها التصور الإسلامي في النفوس.^{٢٣٧}

وقال تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) } [غافر/٥٣-٥٥]

ولقد أعطينا موسى الشرائع والمعجزات التي يهتدي بها الناس، وأنزلنا عليه التوراة، وفيها ما يهدي به قومه بني إسرائيل، فتوارثوه خلفاً من سلف. وجعلنا التوراة هدى يهتدي بنو إسرائيل بأحكامها، وتذكراً لأولى العقول السليمة والأفهام المستقيمة (لأولي الألباب).

فاصبر يا محمد لأمر ربك، وبلغ ما أنزل إليك من ربك، وأيقن بأن الله منجز وعده لك، وناصرك ومؤيدك على من عاداك وعاندك، وكفر برسالتك، وسل ربك المغفرة لذنبك، والصفح عنك، وصل في طرفي النهار، واذكر ربك كثيراً في الصباح والمساء.^{٢٣٨}

كان هذا نموذجاً من نماذج نصر الله. إيتاء الكتاب والهدى. ووراثه الكتاب والهدى. وهذا النموذج الذي ضربه الله مثلاً في قصة موسى، يكشف لنا رقعة فسيحة، نرى فيها صورة خاصة من صور النصر تشير إلى الاتجاه.

وهنا يجيء الإيقاع الأخير في هذا المقطع، توجيهها لرسول الله - ﷺ - ومن كانوا معه من المؤمنين في مكة في موقف الشدة والمعاناة. ولكل من يأتي بعدهم من أمتهم، ويواجهون مثل الموقف الذي كانوا فيه: «فَاصْبِرْ. إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ، بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ»..

^{٢٣٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٦٠٨)

^{٢٣٨} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٠٦٥، بترقيم الشاملة آليا)

الإيقاع الأخير .. الدعوة إلى الصبر .. الصبر على التكذيب. والصبر على الأذى. والصبر على نفخة الباطل وانتشائه بالغلبة والسلطان في فترة من الزمان. والصبر على طباع الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم من هنا ومن هناك. والصبر على النفس وميولها وقلقها وتطلعها ورغبتها في النصر القريب وما يتعلق به من رغائب وآمال.

والصبر على أشياء كثيرة في الطريق قد تجيء من جانب الأصدقاء قبل أن تجيء من جانب الأعداء! «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» .. مهما يطل الأمد، ومهما تتعقد الأمور، ومهما تتقلب الأسباب. إنه وعد من يملك التحقيق، ومن وعد لأنه أراد.

وفي الطريق، خذ زاد الطريق: «وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْبِكَ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ» .. هذا هو الزاد، في طريق الصبر الطويل الشاق. استغفار للدنْب، وتسبيح بحمد الرب. والاستغفار المصحوب بالتسبيح وشيك أن يجاب، وهو في ذاته تربية للنفس وإعداد. وتطهير للقلب وزكاة. وهذه هي صورة النصر التي تتم في القلب، فتعقبها الصورة الأخرى في واقع الحياة. واختيار العشي والإبكار. إما كناية عن الوقت كله - فهذان طرفاه - وإما لأنهما آنان يصفو فيهما القلب، ويتسع المجال للتدبر والسياسة مع ذكر الله.

هذا هو المنهج الذي اختاره الله لتوفير عدة الطريق إلى النصر وتهيئة الزاد. ولا بد لكل معركة من عدة ومن زاد ..^{٢٣٩}

وقال تعالى: { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّيكَ بِعُضِّ الدِّمِ نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيكَ فَالْيُنَا يُرْجَعُونَ } [غافر/٧٧]

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَ مِنْ قَوْمِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُنْجِزُ وَعْدَهُ، وَسَيُظْهِرُهُ بِأَعْدَائِهِ، وَسَيُنْزِلُ الْعِقَابَ بِالْمُكْذِبِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: إِمَّا أَنْ يُرِيَهُ فِي حَيَاتِهِ بَعْضَ الَّذِي يَعِدُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّعْمَةِ، كَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ فِي بَدْرٍ، فَذَلِكَ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَتُوفَاهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يُنْزَلَ بِهِمْ عُقُوبَتُهُ وَعَذَابُهُ فَإِنَّهُ سَيُعَاقِبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ عِقَابًا شَدِيدًا حِينَمَا يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^{٢٤٠}.

وهنا نقف أمام لفظة تستحق التدبر العميق. إن هذا الرسول الذي يلاقي ما يلاقي من الأذى والتكذيب والكبر والكنود، يقال له ما مفهومه: أد واجبك وقف عنده. فأما النتائج فليست من أمرك. حتى شفاء صدره بأن يشهد تحقق بعض وعيد الله للمتكبرين المكذبين ليس له أن يعلق به قلبه! إنه يعمل وكفى. يؤدي واجبه ويمضي.

فالأمر ليس أمره. والقضية ليست قضيته. إن الأمر كله لله. والله يفعل به ما يريد.

^{٢٣٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٨٣)

^{٢٤٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٠٨٩، بترقيم الشاملة آليا)

يا لله! يا للمرتقى العالي. ويا للأدب الكامل. الذي يأخذ الله به أصحاب هذه الدعوة. في شخص رسوله الكريم.

وإنه لأمر شاق على النفس البشرية. أمر يحتاج إلى الصبر على أشواق القلب البشري العنيفة. لعله من أجل هذا كان التوجيه إلى الصبر في هذا الموضع من السورة. فلم يكن هذا تكراراً للأمر الذي سبق فيها. إنما كان توجيهها إلى صبر من لون جديد. ربما كان أشق من الصبر على الإيذاء والكبر والتكذيب؟!

إن احتجاز النفس البشرية عن الرغبة في أن ترى كيف يأخذ الله أعداءه وأعداء دعوته، بينما يقع عليها العداء والخصومة من أولئك الأعداء، أمر شديد على النفس صعب. ولكنه الأدب الإلهي العالي، والإعداد الإلهي لأصفيائه المختارين، وتخليص النفس المختارة من كل شيء لها فيه أرب، حتى ولو كان هذا الأرب هو الانتصار من أعداء هذا الدين!

ولمثل هذه الفتنة العميقة ينبغي أن تتوجه قلوب الدعاة إلى الله في كل حين. فهذا هو حزام النجاة في خضم الرغائب، التي تبدو بريئة في أول الأمر، ثم يخوض فيها الشيطان بعد ذلك ويعوم!^{٢٤١}

٣٥ - وجوب الإعداد والاستعداد للمعركة:

قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال: ٦٠]

يأمر الله المسلمين بالاستعداد للحرب، وبإعداد آلاتها لمقاتلة الكفار، ودفع العدوان، وحفظ الأنفس، والحق والفضيلة، حسب الطاقة والاستطاعة: من خيل وسلاح وعدد ومؤن وتدريب وعلم وكل ما يدخل في تعريف القوة التي تمكن الأمة من مقاومة خصومها، بحسب مفهوم العصر، وذلك لإرهاب الكفار - من قریش ومن غيرهم - أعداء الله، وأعداء الإسلام والمسلمين، ولإرهاب الأعداء الآخرين من منافقين ويهود يجاورون المسلمين في المدينة ومن حولها وغيرهم، ممن لا يعلمهم رسول الله والمسلمون، ولكن الله تعالى يعلمهم. ويخير الله تعالى المؤمنين أن كل نفقة يُنفقوها في الجهاد والاستعداد للحرب، ستوفي إليهم بالتمام والكمال، ولا ينخس الله أحداً منهم شيئاً.^{٢٤٢}

^{٢٤١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٩٥)

^{٢٤٢} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٢١)، بترقيم الشاملة آليا

فالاستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد والنص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنفها وألوانها وأسبابها ويخص «رباط الخيل» لأنه الأداة التي كانت بارزة عند من كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة.. ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها في ذلك الحين مما سيجد مع الزمن لخاطبتهم بمجاولات محيرة - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - والمهم هو عموم التوجيه: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ».. ٢٤٣

٢٤٣ - عَنْ أَبِي عَلِيٍّ ثُمَامَةَ بْنِ شُفَيْيٍّ أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ الْجُهَنِيَّ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، يَقُولُ : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ. صحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [١١]
[٧/ (٤٧٠٩) صحيح
وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيَّ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ : " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ " ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ ، قَالَهَا ثَلَاثًا (صحيح)

وَعَنْ عِكْرَمَةَ ، فِي قَوْلِهِ : " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ " ، قَالَ : الْحُصُونُ. (صحيح)
وَعَنْ مُجَاهِدٍ ، فِي قَوْلِهِ : " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ " ، قَالَ : الْقُوَّةُ : ذِكُورُ الْخَيْلِ. وَرُوِيَ عَنْ عِكْرَمَةَ ، مِثْلَ ذَلِكَ (حسن)
وعن الأوزاعي، قال : سألت الزُّهْرِيَّ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ : " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ " ، قَالَ : قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ : " الْقُوَّةُ : الْفَرَسُ إِلَى السَّهْمِ ، فَمَا دُونَهُ. (صحيح)

وَرُوِيَ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَبِآنَ أَنَّهُ قَالَ : " الْقُوَّةُ : السَّلَاحُ ، وَمَا سِوَاهُ مِنْ قُوَّةِ الْجِهَادِ. وَرُوِيَ عَنِ السُّدِّيِّ ، قَالَ : " السَّلَاحُ. وَرُوِيَ عَنْ أَبِي صَخْرٍ حُمَيْدُ بْنُ زِيَادٍ ، أَنَّهُ قَالَ : " الْقُوَّةُ : الْعِدَّةُ ، إِغْدَادُ مَا اسْتَطَعْتَ لَهُمْ مِنْ عِدَّةٍ. "
وَعَنْ رَجَاءِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ ، قَالَ : " لَقِيَ رَجُلٌ مُجَاهِدًا وَهُوَ يَتَجَهَّزُ إِلَى الْغَزْوِ ، وَمَعَهُ جَوَالِقُ ، فَقَالَ مُجَاهِدٌ : وَهَذَا مِنْ الْقُوَّةِ. تفسير ابن أبي حاتم [٧ / ١٢٦]

إن المجتمع الإسلامي — كأى مجتمع في الحياة — له ذاتيته المتميزة ، وله وجهته وفلسفته في الحياة .. وطبيعي أن تقوم في ظل هذه المعاني عصبية ، هي التي تجتمع عليها الأمم والشعوب ، وتقيم منها وحدة مميزة في مشاعرها ، ومنازع أفكارها ، ومتجه سلوكها .. كما كان لا بد أيضا أن يتعصب على هذه الأمم وتلك الشعوب أعداء يخافون قوتها ، أو يطمعون في ضعفها ، ومن هنا يكون الصراع الذي لا بد منه في الحياة ، والذي لا بد له من قوة ، ولا بد لهذه القوة من سيف ، بل ومن سيوف! ونعود فنذكر من نسي ، فنقول : إن اليوم الذي تخلى فيه المسلمون عن القوة ، كان هو اليوم الذي فيه حينهم ومصرعهم ، بأيدي من يملكون القوة ..

ثم لم يكن للمسلمين من قوة يستندون إليها إلا الإسلام ، الذي منحهم الإيمان ، والصبر ، والعزم ، وعمر قلوبهم باليقين بأن شاطئ النجاة قريب منهم ، إن هم تمسكوا بدينهم ، وقاموا على شريعته ، وأخذوا بمهديه ، والتمسوا أسباب القوة المادية التي أمرهم الله بها في قوله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » إلى جانب القوة الروحية التي عمر الإسلام قلوبهم بها .. ومن خلال هذه المشاعر كانت تنقدح في صدور المسلمين شرارات الأمل والرجاء ، فيشتد عزمهم ، ويقوى إيمانهم ، وتذهب وحشتهم ، وهم في صحبة دينهم ، وفي ظل مما يفيء عليهم من خيره الكثير. التفسير القرآني للقرآن — دار الفكر العربي — القاهرة [٥ / ٦٦٤]

من أساليب الحرب النفسية — تخويف العدو وإرهابه ، بما يرى في جيش المجاهدين من أمارات القوة ، ووسائل الغلب .. وشبيه بهذا ما تقوم به الأمم من عرض قوتها في تلك العروض العسكرية ، التي تكشف بها عن بعض عدتها وعنادها ، على حين أنها إذ تكشف عن بعض قوتها ، فإنها تشير إلى أن وراء هذا الذي أعلنته قوى كثيرة خفية ، أشد أثرا ، وأقوى فتكا ، من هذا الذي عرف الناس أمره ، وأن ذلك سر من أسرارها الخفية ، التي لا تظهر إلا عند الحرب!!.

ولهذا الجانب من الحرب النفسية أثر كبير في كسر شوكة العدو ، وفي قتل مطامعه في التليل من عدوه ، فلا يقدم على العدوان وهو يرى هذه القوى المهيأة للحرب ، الرابضة لكل عدو .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » (٦٠ : الأنفال). كل هذا الذي يراه العدو في جيش المسلمين ، من استخفاف بالموت ، وإثارة

إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في «الأرض» لتحرير «الإنسان» ..
وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة: أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في
اختيارها فلا يصدوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها ..
والأمر الثاني: أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على «دار الإسلام» التي تحميها تلك
القوة ..
والأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بمؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي، وهو
ينطلق لتحرير «الإنسان» كله في «الأرض» كلها ..
والأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس
بشرائعها هي وسلطانها ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده ومن ثم فالحاكمة له وحده سبحانه ..
إن الإسلام ليس نظاما لاهوتيا يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلوب، وتنظيما للشعائر، ثم تنتهي
مهمته! إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات وتقف وراءها
قوى مادية. فلا مفر للإسلام - لإقرار منهجه الرباني - من تحطيم تلك القوى المادية، وتدمير السلطات
التي تنفذ تلك المناهج الأخرى، وتقاوم المنهج الرباني ..
وينبغي للمسلم ألا يتمم ولا يجمع وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة .. ينبغي ألا يستشعر الخجل من
طبيعة منهجه الرباني. ينبغي أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق في الأرض إنما ينطلق لإعلان تحرير
الإنسان بتقرير ألوهية الله وحده وتحطيم ألوهية العبيد! إنه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر ولا لتقرير
سلطان زعيم، أو دولة، أو طبقة، أو جنس! إنه لا ينطلق لاسترقاق العبيد ليفلحوا مزارع الأشراف
كالرومان ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية ولا لفرض مذهب بشري من صنع
بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية .. إنما ينطلق بمنهج من صنع الله العليم
الحكيم الخبير البصير ولتقرير ألوهية الله وحده وسلطانه لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية
للعبيد ..

للموت في سبيل الله على الحياة ، والثبات في ميدان المعركة حتى النصر أو الموت ، والإعداد الدائم لعدد الحرب ورجالها — كل هذا
يبعث الرعب في قلوب الأعداء الذين يواجهون مثل هذا الجيش ، الذي لا يرجع من المعركة إلا منتصرا ، أو مستشهدا .. وإلى هذا
يشير الرسول ﷺ في قوله في مقام تعداد فضل الله سبحانه وتعالى عليه ، إذ يقول : « ونصرت بالرعب مسيرة شهر » أي أن أعداءه
الحيطين به ، يجدون في أنفسهم رهبة له ، ولجيش المسلمين ، وذلك على امتداد مسيرة شهر بينه وبينهم ، لما يتناقل الناس من أخبار
المجاهدين المسلمين ، واسترخاضهم لنفوسهم في ميدان القتال ، حتى ليكون ذلك حديث الدنيا كلها .. التفسير القرآني للقرآن — دار
الفكر العربي - القاهرة [١٣/ ٣٨٤]

هذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الدفاع وهم يتمتمون ويجمعون للاعتذار عن المد الإسلامي! والجهاد الإسلامي^{٢٤٤}.

ويحسن أن نعرف حدود التكليف بإعداد القوة. فالنص يقول: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» فهي حدود الطاقة إلى أقصاها. بحيث لا تقعد العصبية المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها.

كذلك يشير النص إلى الغرض الأول من إعداد القوة: «تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ»..

فهو إلقاء الرعب والرغبة في قلوب أعداء الله الذين هم أعداء العصبية المسلمة في الأرض. الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم، أو لم يجهروا لهم بالعداوة، والله يعلم سرائرهم وحقائقهم. وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم. والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين في الأرض ولتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله.

ولما كان إعداد العدة يقتضي أموالاً، وكان النظام الإسلامي كله يقوم على أساس التكافل، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ - يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ»..

وهكذا يجرد الإسلام الجهاد والنفقة في سبيله، من كل غاية أرضية، ومن كل دافع شخصي ومن كل شعور قومي أو طبقي، ليتمحض خالصاً لله «في سبيل الله» لتحقيق كلمة الله، ابتغاء رضوان الله. ومن ثم ينفي الإسلام من حسابه - منذ الوهلة الأولى - كل حرب تقوم على أمجاد الأشخاص والدول.

وكل حرب تقوم للاستغلال وفتح الأسواق. وكل حرب تقوم للقهر والإذلال. وكل حرب تقوم لتسويد وطن على وطن، أو قوم على قوم، أو جنس على جنس، أو طبقة على طبقة.. ويستبقي نوعاً واحداً من الحركة.. حركة الجهاد في سبيل الله.. والله - سبحانه - لا يريد تسويد جنس ولا وطن ولا قوم ولا طبقة ولا فرد ولا شعب. إنما يريد أن تسود ألوهيته وسلطانه وحاكميته. وهو غني عن العالمين. ولكن سيادة ألوهيته هي وحدها التي تكفل الخير والبركة والحرية والكرامة للعالمين.^{٢٤٥}

أنواع الإعداد:

وفعل الأسباب وإعداد العدة ينقسم لأمرين كثيراً لعل أهمهما:

^{٢٤٤} - تراجع بتوسع الرسالة القيمة بعنوان: «الجهاد في سبيل الله» للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان. كما يراجع ما كتبناه عن الجهاد في مقدمة سورة الأنفال ص ١٤٣١ - ١٤٤٣ من الجزء التاسع. (السيد رحمه الله)

^{٢٤٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٨٧)

أ- إعداد الجندي المؤمن والقيادة المؤمنة:

هذه هو أهمها وأولها، فتعد هذه القوة التي هي الجندي المؤمن والقيادة المؤمنة بالإيمان والعمل الصالح أولاً، وينقي الصف المؤمن من غير هؤلاء، ولذلك بمجرد أن تطالع كتب 'الفقه الإسلامي' تجدهم يقولون: وعلى القائد أن يمنع المخذل والمرجف من أن يسير مع الجيش؛ لأن هذا منافق لا يستطيع أن يواجه الكفار إذا حيي الوطيس.

فإذن: لابد من إعداد الجندي المؤمن الذي يذكر الله كثيراً، والذي يحافظ على طاعة ربه، ويحجب ما نهى الله عنه، والذي نصب عينيه أن يموت شهيداً ليدخل الجنة بفضل الله. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عَيْرُ أَبِي سُفْيَانَ، فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي، وَغَيْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: لَا أَدْرِي مَا اسْتَنْتَى بَعْضَ نِسَائِهِ، قَالَ: فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَكَلَّمَ، فَقَالَ: «إِنَّ لَنَا طَلِبَةً، فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا»، فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظَهْرَانِهِمْ فِي غُلُوِّ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: «لَا، إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا»، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ»، فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»، قَالَ: - يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: - يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»، فَأَخْرَجَ ثَمَرَاتٍ مِنْ قَرْنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُمْ، ثُمَّ قَالَ: لَيْسَ أَنَا حَيِّتٌ حَتَّى أَكُلَ ثَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لِحَيَاةٍ طَوِيلَةٍ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الثَّمَرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ" رواه مسلم ٢٤٦.

إذن إذا وجد مثل هذا النموذج الذي يقدم على الموت، فإنه سيوهب لنا النصر، وستوهب لنا الحياة، وسنحصل على الحسنين .

ب- الأمر الآخر في إعداد العدة إعداد العدة العسكرية:

٢٤٦ - صحيح مسلم (٣/١٥٠٩) ١٤٥ - (١٩٠١)

[ش (بسياسة) قال القاضي هكذا هو في جميع النسخ قال والمعروف في كتب السيرة بسبس بن عمرو ويقال ابن بشر من الأنصار من الخزرج ويقال حليف لهم قلت (أي الإمام النووي) يجوز أن يكون أحد اللفظين اسماً له والآخر لقباً (عيناً) أي متجسساً وريقياً (غير أبي سفيان) هي الدواب التي تحمل الطعام وغيره قال في المشارق العير هي الإبل والدواب تحمل الطعام وغيره من التجارات قال ولا تسمى عيراً إلا إذا كانت كذلك وقال الجوهري في الصحاح العير الإبل تحمل الميرة جمعها عيرات (طلبة) أي شيتا نطلبه (ظهريه) الظهر الدواب التي تركب (ظهراهم) أي مركوباتهم

(حتى أكون أنا دونه) أي قدامه مقدماً في ذلك الشيء لئلا يفوت شيء من المصالح التي لا تعلمونها (بخ) فيه لغتان إسكان الخاء وكسرها منونا وهي كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير (إلا رجاء) هكذا هو في أكثر النسخ المعتمدة رجاء بالمد ز نصب التاء وفي بعضها رجاء بلا تنوين وفي بعضها بالتنوين وكله صحيح معروف في اللغة ومعناه والله ما فعلته لشيء إلا رجاء أن أكون من أهلها (قرنه) أي جعبة الشباب]

بالعتاد.. بالأجهزة.. بما نستطيع من قوة فنعد ذلك ونجهزه، حتى لا يبقى سبب من أسباب النصر في استطاعتنا إلا وفعلناه، فإذا أعددنا تلك العدة، فإن القلوب تنام وهي مطمئنة مرتاحة .

أما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة، ومالوا إلى النعيم والترف، فأهملوا فرضاً من فروض الكفاية، فأصحبت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض، ولذا تعاني اليوم من غصته ما تعاني . وكيف لا يطمع العدو في بلاد الإسلام، وهو لا يرى فيها معامل للأسلحة، وذخائر الحرب، بل كلها مما يشتري من بلاط العدو؟

أما أن لها أن تتنبه من غفلتها، فتعد العدة التي أمر الله بها لأعدائه، وتتلافى ما فرطت قبل أن يدهم العدو ما بقي منها بخيله ورجله ..؟

إن القوة التي طلب الله من المؤمنين إعدادها لإرهاب الأعداء، تتناول كل ما من شأنه أن يجعل المؤمنين أقوياء . كإعداد الجيوش المدربة، والأسلحة المتنوعة التي تختلف بحسب الأزمنة والأمكنة .

وما روى من تفسيره القوة - التي وردت في الآية - بالرمي، فإنما هو على سبيل المثال، ولأن الرمي كان في ذلك الوقت أقوى ما يتقوى به .

قال الفخر الرازي عند تفسيره اعلم أنه تعالى لما أوجب على رسوله أن يشرد من صدر منه نقض العهد، وأن ينبذ العهد إلى من خاف منه النقص، أمره في هذه الآية بإعداد لهؤلاء الكفار. قيل: إنه لما اتفق أصحاب النبي ﷺ في قصة بدر أن قصدوا الكفار بلا آلة ولا عدة أمرهم الله أن لا يعودوا لمثله وأن يعودوا للكفار ما يمكنهم من آلة وعدة وقوة، والمراد بالقوة هاهنا: ما يكون سبباً لحصول القوة وذكرها فيه وجوهاً: الأول: المراد من القوة أنواع الأسلحة.

الثاني: روي أنه ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر وقال: «ألا إن القوة الرمي» قالها ثلاثاً. الثالث: قال بعضهم: القوة هي الحصون. الرابع: قال أصحاب المعاني الأولى أن يقال: هذا عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة. وقوله عليه الصلاة والسلام: «القوة هي الرمي» لا ينفي كون غير الرمي معتبراً، كما أن قوله عليه الصلاة والسلام: «الحج عرفة» و «الندم توبة»

لا ينفي اعتبار غيره، بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود فكذا هاهنا، وهذه الآية تدل على أن الاستعداد للجهاد بالنبل والسلاح وتعليم الفروسيّة والرمي فريضة، إلا أنه من فروض الكفايات. وقوله: ومن رباط الخيل الرباط المربطة أو جمع ريبط، كفصال وفصيل، وكذا أن رباط الخيل من أقوى آلات الجهاد. روي أن رجلاً قال لا بن سيرين: إن فلاناً أوصى بثلاث ماله للحصون. فقال ابن سيرين: يشتري به الخيل فتربط في سبيل الله ويعزى عليها، فقال الرجل: إنما أوصى للحصون، فقال هي الخيل ألم تسمع قول الشاعر:

ولقد علمت على تجنبي الردى... أن الحصون الخيل لا مدر القرى

قَالَ عِكْرِمَةُ: وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ الْإِنَاثُ وَهُوَ قَوْلُ الْفَرَّاءِ، وَوَجْهُهُ هَذَا الْقَوْلُ أَنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي الْخَيْلَ إِذَا رُبِطَتْ فِي الْإَفْنِيَةِ وَعُلِفَتْ رُبْطًا وَاحِدًا رَبيطٌ، وَيُجْمَعُ رُبْطٌ عَلَى رِبَاطٍ وَهُوَ جَمْعُ الْجَمْعِ، / فَمَعْنَى الرِّبَاطِ هَاهُنَا، الْخَيْلُ الْمَرْبُوطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَفُسِّرَ بِالْإِنَاثِ لِأَنَّهَا أَوْلَى مَا يُرْبِطُ لِتَنَاسُلِهَا وَنَمَائِهَا بِأَوْلَادِهَا، فَارْتِبَاطُهَا أَوْلَى مِنْ ارْتِبَاطِ الْفُحُولِ، هَذَا مَا ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ.

وَلَقَائِلُ أَنْ يَقُولَ: بَلْ حَمَلُ هَذَا اللَّفْظِ عَلَى الْفُحُولِ أَوْلَى، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ الْمُحَارَبَةِ عَلَيْهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْفُحُولَ أَقْوَى عَلَى الْكُرِّ وَالْفَرِّ وَالْعَدُوِّ، فَكَانَتْ الْمُحَارَبَةُ عَلَيْهَا أَسْهَلَ، فَوَجِبَ تَخْصِيصُ هَذَا اللَّفْظِ بِهَا، وَلَمَّا وَقَعَ التَّعَارُضُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ وَجِبَ حَمَلُ اللَّفْظِ عَلَى مَفْهُومِهِ الْأَصْلِيِّ، وَهُوَ كَوْنُهُ خَيْلًا مَرْبُوطًا، سَوَاءً كَانَ مِنَ الْفُحُولِ أَوْ مِنَ الْإِنَاثِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ مَا لِأَجْلِهِ أَمَرَ بِإِعْدَادِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ. فَقَالَ: تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَذَلِكَ أَنَّ الْكُفَّارَ إِذَا عَلِمُوا كَوْنَ الْمُسْلِمِينَ مُتَأَهِّبِينَ لِلْجِهَادِ وَمُسْتَعِدِّينَ لَهُ مُسْتَكْمِلِينَ لِجَمِيعِ الْأَسْلِحَةِ وَالْآلَاتِ خَافُوهُمْ، وَذَلِكَ الْخَوْفُ يُفِيدُ أُمُورًا كَثِيرَةً: أَوَّلُهَا: أَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ دُخُولَ دَارِ الْإِسْلَامِ.

وَتَانِيهَا: أَنَّهُ إِذَا اشْتَدَّ خَوْفُهُمْ فَرُبَّمَا التَّزَمُوا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ جَزِيَةً. وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ رُبَّمَا صَارَ ذَلِكَ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ. وَرَابِعُهَا: أَنَّهُمْ لَا يُعِينُونَ سَائِرَ الْكُفَّارِ. وَخَامِسُهَا: أَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ سَبَبًا لِمَزِيدِ الزَّيْنَةِ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَالْمُرَادُ أَنَّ تَكْثِيرَ آلَاتِ الْجِهَادِ وَأَدَوَاتِهَا كَمَا يُرْهِبُ الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ نَعْلَمُ كَوْنَهُمْ أَعْدَاءَ، كَذَلِكَ يُرْهِبُ الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ لَا نَعْلَمُ أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ، ثُمَّ فِيهِ وَجُوهٌ: الْأَوَّلُ:

وَهُوَ الْأَصَحُّ أَنَّهُمْ هُمُ الْمُتَنَافِقُونَ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ تَكْثِيرَ أَسْبَابِ الْغَزْوِ كَمَا يُوجِبُ رَهْبَةَ الْكُفَّارِ فَكَذَلِكَ يُوجِبُ رَهْبَةَ الْمُتَنَافِقِينَ.

فَإِنْ قِيلَ: الْمُتَنَافِقُونَ لَا يَخَافُونَ الْقِتَالَ فَكَيْفَ يُوجِبُ مَا ذَكَرْتُمُوهُ الْإِرْهَابَ؟

قُلْنَا: هَذَا الْإِرْهَابُ مِنْ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ إِذَا شَاهَدُوا قُوَّةَ الْمُسْلِمِينَ وَكَثْرَةَ آلَاتِهِمْ وَأَدَوَاتِهِمْ انْقَطَعَ عَنْهُمْ طَمَعُهُمْ مِنْ أَنْ يَصِيرُوا مَغْلُوبِينَ، وَذَلِكَ يَحْمِلُهُمْ عَلَى أَنْ يَتْرَكُوا الْكُفْرَ فِي قُلُوبِهِمْ وَبَوَاطِنِهِمْ وَيَصِيرُوا مُخْلِصِينَ فِي الْإِيمَانِ، وَالثَّانِي: أَنَّ الْمُتَنَافِقَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَتَرَبَّصَ ظُهُورَ الْآفَاتِ وَيَحْتَالَ فِي إِقَاءِ الْإِفْسَادِ وَالتَّفْرِيقِ فِيمَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا شَاهَدَ كَوْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ خَافَهُمْ وَتَرَكَ هَذِهِ الْأَفْعَالَ الْمَذْمُومَةَ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: فِي هَذَا الْبَابِ مَا رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى قَالَ: الْمُرَادُ كُفَّارُ الْجَنِّ. رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ: وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ فَقَالَ إِنَّهُمْ الْجِنُّ. ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَخْبِلُ أَحَدًا فِي دَارٍ فِيهَا فَرَسٌ عَتِيقٌ»

وَقَالَ الْحَسَنُ: صَهِيلُ الْفَرَسِ يُرْهَبُ الْجِنَّ، وَهَذَا الْقَوْلُ مُشْكِلٌ، لِأَنَّ تَكْثِيرَ آلَاتِ الْجِهَادِ لَا يُعْقَلُ تَأْثِيرُهُ فِي إِرْهَابِ الْجِنَّ.

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّ الْمُسْلِمَ كَمَا يُعَادِيهِ الْكَافِرُ، فَكَذَلِكَ قَدْ يُعَادِيهِ الْمُسْلِمُ أَيْضًا، فَإِذَا كَانَ قَوِيًّا / الْحَالِ كَثِيرَ السَّلَاحِ، فَكَمَا يَخَافُهُ أَعْدَاؤُهُ مِنَ الْكُفَّارِ، فَكَذَلِكَ يَخَافُهُ كُلُّ مَنْ يُعَادِيهِ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا. ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ عَامٌّ فِي الْجِهَادِ وَفِي سَائِرِ وُجُوهِ الْخَيْرَاتِ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُؤَفَّ لَكُمْ أَجْرُهُ، أَيْ لَا يَضِيعُ فِي الْآخِرَةِ أَجْرُهُ، وَيُعَجِّلُ اللَّهُ عَوَضَهُ فِي الدُّنْيَا وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ أَيْ لَا تُنْقَصُونَ مِنَ الثَّوَابِ، وَلَمَّا ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ هَذَا التَّفْسِيرَ ثَلَا قَوْلُهُ تَعَالَى: آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تُظْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا [الكهف: ٣٣]. ٢٤٧.

ت- ومن العدة أيضاً: إعداد الأموال اللازمة:

فإن الأموال الآن أصبحت عماد الجهاد، بل هي عماد الجهاد منذ عصر النبي ﷺ، ومن أشرف وجوه الإنفاق في سبيل الله أن يبذل المسلم ما يستطيع بذله في الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام، والذي ما تركه قوم إلا ذلوا .. وألقوا بأنفسهم في التهلكة ..

ولقد بشرت الآية الكريمة المنفقين في سبيل الله، بأنه - سبحانه - سيجازيهم على إنفاقهم جزاء وافيا لا نقص معه ولا ظلم .

قال - تعالى - { وما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } وفي الحديث عَنْ خُرَيْمِ بْنِ فَاتِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُتِبَ لَهُ سَبْعُ مِائَةِ ضِعْفٍ». ٢٤٨ ولعل الجميع يتذكر أن عثمان بن عفان لما جهز جيش العسرة، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: جَاءَ عُمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَا جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ بِصُرَّةٍ فِيهَا أَلْفُ دِينَارٍ فَوَضَعَهَا فِي حِجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْلِبُهَا وَيَقُولُ: «مَا ضَرَّ عُمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ» ٢٤٩ وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: جَاءَ عُمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَا جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ بِصُرَّةٍ فِيهَا أَلْفُ دِينَارٍ، فَوَضَعَهَا فِي حِجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْلِبُهَا وَيَقُولُ: «مَا ضَرَّ عُمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ»، يُرَدِّدُهَا مَرَارًا ٢٥٠

هذه جائزته لماذا؟ لأن المال هو عصب الجهاد، فلا بد أيضاً أن تعد الأمة الأموال اللازمة للجهاد في سبيل الله .

ث- ومن إعداد العدة: ألا يغفل المسلمون عن معرفة عدوهم وعن قدراته:

٢٤٧ - تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٥ / ٤٩٩)

٢٤٨ - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠ / ٥٠٤) (٤٦٤٧) صحيح

٢٤٩ - فضائل الخلفاء الراشدين لأبي نعيم الأصبهاني (ص: ٣٦) (٦) صحيح

٢٥٠ - مسند الشاميين للطبراني (٢ / ٢٤٥) (١٢٧٤) صحيح

عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَأَصَبْنَا مِنْ سَارِهَا اجْتَوَيْنَاهَا وَأَصَابَنَا وَعْكَ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَبَّرُ عَنْ بَدْرِ، قَالَ: فَلَمَّا بَلَّغْنَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَقْبَلُوا، سَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَدْرِ، وَبَدْرُ بَيْتٍ، فَسَبَقْنَا الْمُشْرِكِينَ إِلَيْهَا، فَوَجَدْنَا فِيهَا رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ ؛ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ، وَمَوْلَى لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، فَأَمَّا الْقُرَشِيُّ فَأَنْفَلَتْ إِلَيْهَا، وَأَمَّا الْمَوْلَى فَأَخَذْنَاهُ، فَجَعَلْنَا نَقُولُ لَهُ: كَمْ الْقَوْمُ ؟ فَيَقُولُ: هُمْ وَاللَّهِ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ، شَدِيدٌ بِأُسْهُمْ، فَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ إِذَا قَالَ ذَلِكَ ضَرْبُوهُ، حَتَّى انْتَهَوْا بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: كَمْ الْقَوْمُ ؟ فَقَالَ: هُمْ وَاللَّهِ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ، شَدِيدٌ بِأُسْهُمْ، فَجَعَلَ الْقَوْمُ عَلَى أَنْ يُخْبِرَهُمْ كَمْ هُمْ، فَأَبَى. ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَأَلَهُ: كَمْ يَنْحَرُونَ ؟ فَقَالَ: عَشْرًا كُلَّ يَوْمٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْقَوْمُ أَلْفٌ، كُلُّ جُزُورٍ لِمِئَةِ وَتَبَعِهَا. ثُمَّ إِنَّهُ أَصَابَنَا مِنَ اللَّيْلِ طَشٌّ مِنْ مَطَرٍ، فَأَنْطَلَقْنَا تَحْتَ الشَّجَرِ وَالْحَجَفِ نَسْتُظِلُّ تَحْتَهَا مِنَ الْمَطَرِ، قَالَ: وَبَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَتَهُ يَدْعُو رَبَّهُ، فَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ نَادَى: الصَّلَاةَ عِبَادَ اللَّهِ، فَجَاءَ النَّاسُ مِنْ تَحْتَ الشَّجَرِ وَالْحَجَفِ، فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَحَرَّضَ عَلَى الْقِتَالِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ جَمَعَ قُرَيْشٍ عِنْدَ هَذِهِ الضِّلَعَةِ الْحَمْرَاءِ مِنَ الْجَبَلِ،

فَلَمَّا أَنْ دَنَا الْقَوْمُ مِنَّا وَصَافَفْنَاهُمْ، إِذَا رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ يَسِيرُ فِي الْقَوْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا عَلِيُّ، نَادِ لِي حِمْرَةً، وَكَانَ أَقْرَبَهُمْ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ؛ مَنْ صَاحَبَ الْجَمَلَ الْأَحْمَرَ، وَمَا يَقُولُ لَهُمْ . ثُمَّ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنْ يَكُ فِي الْقَوْمِ أَحَدٌ، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرَ، فَجَاءَ حِمْرَةً، فَقَالَ: هُوَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَهُوَ يَنْهَى عَنِ الْقِتَالِ، وَيَقُولُ لَهُمْ: يَا قَوْمُ، إِنِّي أَرَى قَوْمًا مُسْتَمِيتِينَ، لَا تَصْلُونَ إِلَيْهِمْ وَفِيكُمْ خَيْرٌ، يَا قَوْمُ، اعْصِبُوا اللُّومَ بِرَأْسِي، وَقُولُوا: جَبْنُ عُتْبَةَ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي لَسْتُ بِأَجْبِنَكُمْ.

فَسَمِعَ ذَلِكَ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: أَنْتَ تَقُولُ هَذَا، لَوْ غَيْرُكَ قَالَ هَذَا أَعْضَضْتُهُ، لَقَدْ مُلِيتَ رِثْكَ وَجَوْفَكَ رُعبًا، فَقَالَ عُتْبَةُ: إِنِّي أَيْ تُعَيِّرُ يَا مُصَفِّرَ اسْتِهِ، سَتَعْلَمُ الْيَوْمَ أَيُّنَا أَجْبَنُ ؟.

قَالَ: فَبَرَزَ عُتْبَةُ، وَأَخُوهُ شَيْبَةُ، وَابْنُهُ الْوَلِيدُ حَمِيَّةً، فَقَالُوا: مَنْ مُبَارِزٌ ؟ فَخَرَجَ فِتْيَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ سِتَّةً، فَقَالَ عُتْبَةُ: لَا تُرِيدُ هَؤُلَاءِ، وَلَكِنْ يُبَارِزُنَا مِنْ بَنِي عَمْنَا، مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قُمْ يَا عَلِيُّ، قُمْ يَا حِمْرَةً، قُمْ يَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْحَارِثِ، فَقَتَلَ اللَّهُ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدَ بْنَ عُتْبَةَ، وَجَرَحَ عُبَيْدَةَ بْنَ الْحَارِثِ، فَقَتَلْنَا مِنْهُمْ سَبْعِينَ وَأَسْرْنَا سَبْعِينَ.

قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ قَصِيرٌ بِالْعَبَّاسِ أُسَيْرًا، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ مَا أَسْرَنِي، لَقَدْ أَسْرَنِي رَجُلٌ أَجْلَحُ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا، عَلَى فَرَسٍ أَلْبَقٍ، مَا أَرَاهُ فِي الْقَوْمِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: أَنَا أَسْرَنُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ: أَسْكُتْ، لَقَدْ آتَيْكَ اللَّهُ بِمَلِكٍ كَرِيمٍ، قَالَ عَلِيُّ: فَأَسْرَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الْعَبَّاسُ، وَعَقِيلٌ، وَتَوَفَّلَ بْنُ الْحَارِثِ. ٢٥١.

فأعدّ لذلك عدته، فهذا واجب من واجبات المسلمين، فلا يستهينوا بعدوهم، واحتقار العدو ليس من شأن المسلمين بل إننا نبحث عن مكان القوة ومواطن الضعف فيه، ثم نستنصر بالله جل وعلا عليه، ومع ذلك علينا أن نتأمل ما جاء عن سَالمِ أبي التَّضَرِّ، مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَكَانَ كَاتِبًا لَهُ، قَالَ: كَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَرَأَتْهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا، انْتَضَرَ حَتَّى مَالَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ الشُّيُوفِ»، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِي السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ»^{٢٥٢}.

ج- أن المقصود من إعداد العدة في الإسلام إنما هو إرهاب الأعداء حتى لا يفكروا في الاعتداء على المسلمين

وحتى يعيش أتباع هذا الدين آمنين مطمئنين في ديارهم، وحتى يستطيعوا أن يبلغوا رسالة الله إلى خلقه من الناس دون أن يخشوا أحداً سواه - عز وجل ..
وليس المقصود بأعداد العدة إرهاب المسلمين، أو العدوان على الأمنين، أو القهر والإذلال للناس واستغلالهم فيما يغضب الله - تعالى - .

ولذلك وجدنا الآية صريحة في بيان المقصود من هذا الإعداد، وهو - كما عبرت عنه { تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ } .
وهناك آيات أخرى صريحة في بيان سبب مشروعيته القتال في الإسلام ومن ذلك قوله - تعالى - : { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } وقوله - تعالى - : { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينَ لِلَّهِ فَإِنْ انتهوا فلا عُدْوَانٍ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } والخلاصة: أن من تتبع آيات القرآن الواردة في القتال يجدها جميعها تقرر أن سبب القتال في الاسم ينحصر في رد العدوان، وحماية الدعوة الإسلامية من التطاول عليها وتثبيت حرية العقيدة، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان .

ما المقصود بالإعداد للجهاد؟

المقصود إعدادان: إعداد مادي وإعداد إيماني، ولا يجوز قصر الإعداد على أحدهما. أما الإعداد المادي: فهو المشار إليه في آية الأنفال، قال تعالى: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }^{٢٥٣}، وقد ورد تفسير هذه الآية مرفوعاً بما لا يدع مجالاً لتأويلها أو حملها على غير

^{٢٥٢} - صحيح البخاري (٥١ / ٤) (٢٩٦٥)

[ش (بعض أيامه) بغض غزواته. (لقي فيها) العدو والحرب. (مالت) زالت. (الأحزاب) قبائل الشرك]

^{٢٥٣} - سورة الأنفال، الآية: ٦٠

المراد، فقد روى مسلم عن أبي عليٍّ ثَمَامَةَ بْنِ شُفَيْيٍّ، أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ، يَقُولُ: " {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: ٦٠]، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ" ٢٥٤

فلا يجوز حمل هذه الآية على الإعداد الإيماني والتربية، والإعداد المادي يشمل إعداد الرجال والسلاح والمال. والآية السابقة ذكرت السلاح والمال صراحة والرجال إشارة، وقد ورد الأمر بإعداد الرجال في آيات أخرى، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ} ٢٥٥، وكقوله تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا} ٢٥٦، وكقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ...} ٢٥٧.

وقد سبق تفصيل هذا في الباب الثاني من هذه الرسالة، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية إنه إذا سقط الجهاد للعجز وجب الاستعداد بإعداد القوة ورباط الخيل ٢٥٨. وقد جعل الله سبحانه هذا الإعداد من علامات صدق الإيمان وفيصلا بين المؤمن والمنافق في قوله تعالى {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} ٢٥٩. فبين الله سبحانه أن ترك المنافقين إعداد العدة كان بسابق الخذلان القدري لهم منه سبحانه، وأن هذا كان رحمة منه سبحانه للمؤمنين الصادقين فلو خرج معهم هؤلاء المنافقون لما كان منهم إلا الإفساد والفتن، خاصة وأن بعض المؤمنين يُحسنون الظن بهؤلاء المنافقين {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} فينشأ من هذا فساد كبير. هذا فيما يتعلق بالإعداد المادي.

أما الإعداد الإيماني (التربية) فلا منه أيضا، وقد سبق ذكر أدلته في هذا الفصل بما يغني عن الإعادة، وهذا الإعداد في غاية التشعب بعدد شعب الإيمان الظاهر منها والباطن، العلمي منها والعملية، وله أثر مباشر في النصر أو الخذلان القدري كما سبق في الأصول الخمسة ولكن هناك بعض التحفظات فيما يتعلق بالإعداد وهي:

٢٥٤ - صحيح مسلم (٣/ ١٦٧) (١٥٢٢) - (١٩١٧)

[ش (وأعدوا لهم ما استطعتم) قوله صلى الله عليه وسلم في تفسير قوله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة - ألا أن القوة الرمي قالها ثلاثا هذا تصريح بتفسيرها ورد لما يحكيه المفسرون من الأقوال سوى هذا وفيه وفي الأحاديث بعده فضيلة الرمي والمناضلة والاعتناء بذلك بنية الجهاد في سبيل الله تعالى وكذلك المواقفة وسائر أنواع استعمال السلاح وكذا المسابقة بالخيول وغيرها والمراد بهذا كله التمرن على القتال والتدريب والتحذق فيه ورياضة الأعضاء بذلك]

٢٥٥ - الأنفال، الآية: ٦٥

٢٥٦ - سورة النساء، الآية: ٨٤

٢٥٧ - سورة الصف، الآية: ١٤

٢٥٨ - مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٢٥٩

٢٥٩ - سورة التوبة، الآيتان: ٤٦ - ٤٧.

* ألا تُحْمَلُ آيةُ الإِعدادِ بالأَنْفَالِ على التَّربيةِ، فقد ورد تفسيرها مرفوعاً بما يُبْطِلُ تأويلها، أما التربية فلها أدلة أخرى سبق بيانها. وأقبح من هذا من يُقْصِرُ الإِعدادَ على الإِيماني دون المادي، فهذا مكذب بآيات الله.

* ألا تتخذ التربية ذريعة للقفود عن الجهاد، خاصة الجهاد العيني (فرض عين)، وهذا هو أهم التحفظات فيما يتعلق بالتربية.

* وهذا يحملنا إلى الشق الثاني من هذا التنبيه. ثانياً: هل العدالة من شروط وجوب الجهاد؟

فالذين يقولون لا نجاهد حتى نستوفي التربية الإيمانية، نسألهم سؤالين:

السؤال الأول: هل الغرض من هذه التربية الوصول بالفرد المسلم إلى مرتبة العدالة الشرعية أم إلى مرتبة أعلى؟.

السؤال الثاني: هل العدالة من شروط وجوب الجهاد؟ بمعنى أنه هل لا يجوز للمسلم أن يجاهد حتى يكون عدلاً؟ وهل يسقط وجوب الجهاد عن الفاسق؟.

ونذكر أولاً تعريف العدالة فنقول: [هي استواء أحواله في دينه، وقيل من لم تظهر منه ريبة... ويعتبر لها شيثان: ١ = الصلاح في الدين وهو أداء الفرائض برواتبها، واجتناب المحرم بأن لا يأتي كبيرة ولا يُدْمَن على صغيرة. ٢ = استعمال المروءة بفعل ما يُجَمِّلُهُ ويُزَيِّنُهُ وترك ما يدنسُه ويشينه] ٢٦٠.

ثم نذكر شروط وجوب الجهاد — وقد سبقت في الملحق السابق — وهي (الإسلام والبلوغ والعقل والذكورية والسلامة من الضرر والحرية ووجود النفقة وإذن الوالدين وإذن الدائن) ٢٦١، وهذا في الجهاد الكفائي أما العيني فالشروط هي الخمسة الأولى فقط. وكما ترى فإن العدالة ليست من هذه الشروط.

فإذا ثبت أن العدالة ليست شرطاً لوجوب الجهاد، سقط قول من يقول لا بد من التربية للوصول بالمسلم إلى رتبة العدالة قبل أن يجاهد، وبالتالي يسقط قول من يشترط رتبة أعلى من العدالة.

بل قد صرح الفقهاء بعكس ذلك، أي أنه يجوز الاستعانة بالفاسق والمنافق في الغزو، فقد قال الشوكاني: قال في البحر: قَالَ فِي الْبَحْرِ: وَتَجُوزُ الْإِسْتِعَانَةُ بِالْمُنَافِقِ إِجْمَاعًا لِاسْتِعَانَتِهِ - ﷺ - بِابْنِ أَبِي وَأَصْحَابِهِ. وَتَجُوزُ الْإِسْتِعَانَةُ بِالْفُسَّاقِ عَلَى الْكُفَّارِ إِجْمَاعًا وَعَلَى الْبُعَاةِ عِنْدَنَا لِاسْتِعَانَةِ عَلِيٍّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِالْأَشْعَثِ، انْتَهَى... أ هـ ٢٦٢.

٢٦٠ - منار السبيل شرح الدليل ط المكتب الإسلامي ١٤٠٤ هـ ج ٢ ص ٤٨٧، ٤٨٨

٢٦١ - المغني والشرح الكبير ج ١٠ ص ٣٦٦، ٣٨١، ٣٨٤

٢٦٢ - نيل الأوطار (٧/ ٢٦٤)

قال أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن قال الله تعالى: {انفروا خِفَافًا وَثِقَالًا} فلا أَجْدُنِي إِلَّا خَفِيفًا أَوْ ثَقِيلًا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْجِهَادَ وَاجِبٌ مَعَ الْفُسَاقِ كَوُجُوبِهِ مَعَ الْعُدُولِ، وَسَائِرُ الْآيِ الْمُوجِبَةِ لِفَرَضِ الْجِهَادِ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ فِعْلِهِ مَعَ الْفُسَاقِ وَمَعَ الْعُدُولِ الصَّالِحِينَ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْفُسَاقَ إِذَا جَاهَدُوا فَهُمْ مُطِيعُونَ فِي ذَلِكَ كَمَا هُمْ مُطِيعُونَ لِلَّهِ فِي الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْجِهَادَ ضَرْبٌ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَوْ رَأَيْنَا فَاسِقًا يَأْمُرُ بِمَعْرُوفٍ وَيَنْهَى عَنِ مُنْكَرٍ كَانَ عَلَيْنَا مُعَاوَنَتُهُ عَلَى ذَلِكَ، فَكَذَلِكَ الْجِهَادُ، فَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَخْصَّ بِفَرَضِ الْجِهَادِ الْعُدُولَ دُونَ الْفُسَاقِ، فَإِذَا كَانَ الْفَرَضُ عَلَيْهِمْ وَاحِدًا لَمْ يَخْتَلَفْ حُكْمُ الْجِهَادِ مَعَ الْعُدُولِ، وَمَعَ الْفُسَاقِ " ٢٦٣ .

وقال ابن حزم: قال أبو محمد - رَحِمَهُ اللَّهُ - : فَهَذَا يُبَيِّحُ الْإِسْتِعَانَةَ عَلَى أَهْلِ الْحَرْبِ بِأَمْثَالِهِمْ، وَعَلَى أَهْلِ الْبَغْيِ بِأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْفُجَّارِ الَّذِينَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ. وَأَيْضًا - فَإِنَّ الْفَاسِقَ مُفْتَرَضٌ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ، وَمِنْ دَفْعِ أَهْلِ الْبَغْيِ، كَالَّذِي أُفْتَرَضَ عَلَى الْمُؤْمِنِ الْفَاضِلِ، فَلَا يَحِلُّ مَنَعُهُمْ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ الْفَرَضُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى ذَلِكَ - وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ. ٢٦٤ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: [وَإِذَا كَانَ الْأَكْرَادُ وَالْأَعْرَابُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي الَّذِينَ لَا يَلْتَزِمُونَ شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ يَجِبُ قِتَالُهُمْ وَإِنْ لَمْ يَتَعَدَّ ضَرَرُهُمْ إِلَى أَهْلِ الْأَمْصَارِ فَكَيْفَ بِهِؤُلَاءِ. نَعَمْ يَجِبُ أَنْ يُسَلَّكَ فِي قِتَالِهِ الْمَسْلُوكُ الشَّرْعِيُّ مِنْ دُعَائِهِمْ إِلَى التَّزَامِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ إِنْ لَمْ تَكُنْ الدَّعْوَةُ إِلَى الشَّرَائِعِ قَدْ بَلَغَتْهُمْ كَمَا كَانَ الْكَافِرُ الْحَرْبِيُّ يُدْعَى أَوَّلًا إِلَى الشَّهَادَتَيْنِ إِنْ لَمْ تَكُنْ الدَّعْوَةُ قَدْ بَلَغَتْهُ. فَإِنْ اتَّفَقَ مَنْ يُقَاتِلُهُمْ عَلَى الْوَجْهِ الْكَامِلِ فَهُوَ الْعَايَةُ فِي رِضْوَانِ اللَّهِ وَإِعْزَازِ كَلِمَتِهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ فِيهِ فُجُورٌ وَفَسَادٌ نِيَّةً بَأَن يَكُونَ يُقَاتَلُ عَلَى الرِّيَاسَةِ أَوْ يَتَعَدَّى عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ وَكَانَتْ مَفْسَدَةٌ تَرُكُ قِتَالَهُمْ أَعْظَمَ عَلَى الدِّينِ مِنْ مَفْسَدَةِ قِتَالِهِمْ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ: كَانَ الْوَاجِبُ أَيْضًا قِتَالَهُمْ دَفْعًا لِأَعْظَمِ الْمُفْسِدَتَيْنِ بِالتَّزَامِ أَذْنَاهُمَا؛ فَإِنْ هَذَا مِنْ أَصُولِ الْإِسْلَامِ الَّتِي يَنْبَغِي مُرَاعَاتُهَا. وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْعَزُومُ مَعَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ وَبِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَتَفَقَّ الْعَزُومُ إِلَّا مَعَ الْأَمْرَاءِ الْفُجَّارِ أَوْ مَعَ عَسْكَرٍ كَثِيرٍ الْفُجُورِ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَحَدٍ أَمْرَيْنِ: إِمَّا تَرْكُ الْعَزُومِ مَعَهُمْ فَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ اسْتِيلَاءُ الْآخَرِينَ الَّذِينَ هُمْ أَعْظَمُ ضَرَرًا فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَإِمَّا الْعَزُومَ مَعَ الْأَمِيرِ الْفَاجِرِ فَيَحْصُلُ بِذَلِكَ دَفْعُ الْآفَجَرِينَ وَإِقَامَةُ أَكْثَرِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ؛ وَإِنْ لَمْ يُمْكِنْ إِقَامَةُ جَمِيعِهَا. فَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ وَكُلُّ مَا أَشَبَّهَهَا؛ بَلْ كَثِيرٌ مِنَ الْعَزُومِ الْحَاصِلِ بَعْدَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ لَمْ يَقَعْ إِلَّا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ. ٢٦٥ .

٢٦٣ - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (١٥٤ / ٣)

٢٦٤ - المحلى بالآثار (٣٥٦ / ١١)

٢٦٥ - مجموع الفتاوى (٥٠٦ / ٢٨)

قلت: وقد أخذت هذه المسألة من الاستقرار ما جعلها تُدَوَّن ضمن مسائل اعتقاد أهل السنة والجماعة، كما نقلته عن شرح العقيدة الطحاوية في الباب الثالث، ومما ورد فيه (قوله): (وَالْحَجُّ وَالْجِهَادُ مَاضِيَانِ مَعَ أُولِي الْأَمْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، بَرَّهِمْ وَفَاجَرِهِمْ، إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، لَا يُبْطِلُهُمَا شَيْءٌ وَلَا يَنْقُضُهُمَا). ش: يُشِيرُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى الرَّدِّ عَلَى الرَّافِضَةِ، حَيْثُ قَالُوا: لَا جِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَخْرُجَ الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، وَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَتَبِعُوهُ!! وَبُطْلَانُ هَذَا الْقَوْلِ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِدَلِيلٍ. وَهُمْ شَرَطُوا فِي الْإِمَامِ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا، اشْتِرَاطًا بَعِيرَ دَلِيلٍ! بَلْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «حَيَارُ أئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشَرَارُ أئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالْفَرَاةَ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلْيَكْرِهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِ».

وَقَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُ نَظَائِرِ هَذَا الْحَدِيثِ فِي الْإِمَامَةِ. وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّ الْإِمَامَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا. وَالرَّافِضَةُ أَخْسَرُ النَّاسِ صَفَقَةً فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؛ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا الْإِمَامَ الْمَعْصُومَ هُوَ الْإِمَامُ الْمَعْدُومُ، الَّذِي لَمْ يَنْفَعَهُمْ فِي دِينٍ وَلَا دُنْيَا!! فَإِنَّهُمْ يَدْعُونَ أَنَّ الْإِمَامَ الْمُنتَظَرَ، مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ، الَّذِي دَخَلَ السَّرْدَابَ فِي زَعْمِهِمْ، سَنَةَ سِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ بِسَامِرًا! وَقَدْ يُقِيمُونَ هُنَاكَ دَابَّةً، إِمَّا بَعْلَةً، وَإِمَّا فَرَسًا، لِيَرْكَبَهَا إِذَا خَرَجَ! وَيُقِيمُونَ هُنَاكَ فِي أَوْقَاتٍ عَيْنُوا فِيهَا مَنْ يُنَادِي عَلَيْهِ بِالْخُرُوجِ: يَا مَوْلَانَا، اخْرُجْ! يَا مَوْلَانَا، اخْرُجْ! وَيُشْهَرُونَ السَّلَاحَ؛ وَلَا أَحَدَ هُنَاكَ يُقَاتِلُهُمْ! إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَصْحَكُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا الْعُقَلَاءُ!!

وَقَوْلُهُ "مَعَ أُولِي الْأَمْرِ بَرَّهِمْ وَفَاجَرِهِمْ" - لِأَنَّ الْحَجَّ وَالْجِهَادَ فَرَضَانِ يَتَعَلَّقَانِ بِالسَّفَرِ، فَلَا بُدَّ مِنْ سَائِسٍ يَسُوسُ النَّاسَ فِيهِمَا، وَيُقَاوِمُ فِيهَا الْعَدُوَّ، وَهَذَا الْمَعْنَى كَمَا يَحْصُلُ بِالْإِمَامِ الْبَرِّ يَحْصُلُ بِالْإِمَامِ الْفَاجِرِ. ^{٢٦٦}.

مما سبق ترى أن الجهاد مع الفاسق متبوعا كان أم تابعا جائز إجماعا، وقد يجب إذا لم يمكن دفع الكفار إلا بالجهاد مع الفاسق كما قال ابن تيمية رحمه الله في كلامه السابق.

والأصل في هذه المسألة هو أن الجهاد مخاطب به الذين آمنوا كما قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا

^{٢٦٦} - التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية (ص: ١٨٦) وشرح الطحاوية - ط الأوقاف السعودية (ص: ٣٨١) وشرح الطحاوية - ط دار السلام (ص: ٣٨٨) وشرح الطحاوية ت الأرنؤوط (٢/ ٥٥٥)

نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) } [الصف: ١٠ - ١٤]، وغيرها من الآيات، فهذه الآية خطاب للمؤمنين بالجهاد، ومن هؤلاء من له ذنوب {يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} فدلّت الآية على أن إمام المؤمن بالذنوب لا يُسقط مخاطبته بالجهاد. والفاسق وإن عظمت ذنوبه فإنه لا يسلب الإيمان بالكلية، فإن معه مطلق الإيمان (أي الحد الأدنى منه) الموجب لتكليفه بالشرائع، وإن لم يكن معه الإيمان المطلق (أي الكامل) واجتماع الطاعة والمعصية في العبد من عقيدة أهل السنة، وهذا مستفاد من القاعدة العمة وهي أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية — وقد سبق بيان هذا — ومن أمثلة ذلك ما رواه البخاري عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَكَانَ يُلقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأَتَى بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنَهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَلْعَنُوهُ، فَإِنَّ اللَّهَ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^{٢٦٧}، فهذا الصحابي رغم معصيته بشرب الخمر إلا أن معه من الطاعة كمحبة الله ورسوله ﷺ، وهذه المحبة من أعظم شعب الإيمان، وتأمل مترتها في آية إبطال الأعذار الثمانية بسورة التوبة {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ...} الآية.

ثم إن صاحب المعصية له نفع خاص من الجهاد وذلك لتكفير ذنوبه. كما قال ابن تيمية رحمه الله معقبا على آية الصف السابقة [ومن كان كثير الذنوب فأعظم دوائه الجهاد، فإن الله ﷻ يغفر ذنوبه، كما أخبر الله في كتابه بقوله سبحانه وتعالى {يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}، ومن أراد التخلص من الحرام والتوبة ولا يمكن رده إلى أصحابه فلينفقه في سبيل الله عن أصحابه، فإن ذلك طريق حسنة إلى خلاصه مع ما يحصل له من أجر الجهاد]^{٢٦٨}.

مما سبق تعلم أن الفسق لا يُسقط التكليف بالجهاد، فالفاسق خاطب شرعا بالجهاد كالصالح العادل، وسبق ما نقله الشوكاني من جواز — وليس وجوب — الاستعانة بالفاسق والمنافق إجماعا. فإذا ثبت الجواز آل الأمر إلى اعتبار المنافع والمفاسد المترتبة على خروجه في الجهاد فأيتهما غلبت فالحكم لها. أي إذا كانت منفعة خروجه أعظم من مفسدته، سُمح له بالخروج وعكسه بعكسه.

ومن هذا ما قاله ابن قدامة [وَلَا يَسْتَصْحَبُ الْأَمِيرُ مَعَهُ مُخَذَّلًا، وَهُوَ الَّذِي يُثَبِّطُ النَّاسَ عَنِ الْعَزْوِ، وَيَزْهَدُهُمْ فِي الْخُرُوجِ إِلَيْهِ وَالْقِتَالِ وَالْجِهَادِ، مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: الْحَرُّ أَوْ الْبُرْدُ شَدِيدٌ، وَالْمَشَقَّةُ شَدِيدَةٌ، وَلَا تُؤْمَنُ هَزِيمَةُ هَذَا الْجَيْشِ].

^{٢٦٧} - صحيح البخاري (١٥٨ / ٨) (٦٧٨٠)

[ش (يضحك رسول الله) يفعل في حضرته ما يضحك ورد أنه كان يهدي للنبي صلى الله عليه وسلم سمنًا أو عسلا فإذا جاء صاحبه يطلب قيمته منه قال للنبي صلى الله عليه وسلم أعط هذا ثمن متاعه فيبتسم النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر بإعطاء الثمن له. (في الشراب) بسبب شربه الشراب. (رجل) قيل هو عمر رضي الله عنه. (ما علمت) لم أعلم منه]

^{٢٦٨} - مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٤٢١، ٤٢٢

وَأَشْبَاهَ هَذَا، وَلَا مُرْجَفًا، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ: هَلَكْتَ سَرِيَّةَ الْمُسْلِمِينَ، وَمَالَهُمْ مَدَدٌ، وَلَا طَاقَةَ لَهُمْ بِالْكَفَّارِ، وَالْكَفَّارُ لَهُمْ قُوَّةٌ، وَمَدَدٌ، وَصَبْرٌ، وَلَا يَثْبُتُ لَهُمْ أَحَدٌ. وَنَحْوَ هَذَا، وَلَا مَنْ يُعِينُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالتَّجَسُّسِ لِلْكَفَّارِ، وَإِطْلَاعِهِمْ عَلَى عَوَرَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَمُكَاتِبَتِهِمْ بِأَخْبَارِهِمْ، وَدَلَالَتِهِمْ عَلَى عَوَرَاتِهِمْ، أَوْ إِيوَاءِ جَوَاسِيْسِهِمْ. وَلَا مَنْ يُوقِعُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَسْعَى بِالْفَسَادِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة: ٤٦] {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} [التوبة: ٤٧].

وَلَاَنَّ هَؤُلَاءِ مُضِرَّةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَيَلْزِمُهُ مَنَعُهُمْ. وَإِنْ خَرَجَ مَعَهُ أَحَدٌ هَؤُلَاءِ، لَمْ يُسْهِمَ لَهُ وَلَمْ يَرْضَخْ وَإِنْ أَظْهَرَ عَوْنَ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَظْهَرُهُ نِفَاقًا، وَقَدْ ظَهَرَ دَلِيلُهُ، فَيَكُونُ مُجَرَّدَ ضَرَرٍ، فَلَا يَسْتَحِقُّ مِمَّا غَنِمُوا شَيْئًا. وَإِنْ كَانَ الْأَمِيرُ أَحَدًا هَؤُلَاءِ، لَمْ يُسْتَحَبَّ الْخُرُوجُ مَعَهُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا مَنَعَ خُرُوجَهُ تَبَعًا، فَمَتَّبِعًا أَوَّلَى، وَلِأَنَّهُ لَا تُؤْمَنُ الْمَضَرَّةُ عَلَى مَنْ صَحِبَهُ.^{٢٦٩}، وَهَذَا كُلُّهُ يَرْجِعُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ}،^{٢٧٠} وَقَوْلُهُ تَعَالَى {فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ}،^{٢٧١}

وَمَحْصَلُ ذَلِكَ أَنَّهُ يُمْنَعُ مِنَ الْجِهَادِ مَنْ فِيهِ تَخْذِيلٌ أَوْ إِفْسَادٌ لِلصَّفِّ أَوْ خِيَانَةٌ، فَهَذَا عَظِيمُ الْمَفْسَدَةِ وَإِنْ كَانَ فِيهِ بَعْضُ النِّفَعِ.

فَإِذَا سَمَحَ الْأَمِيرُ لِلْفَاسِقِ الْعَاصِي — الَّذِي مَنْفَعَتُهُ أَعْظَمُ مِنْ فُسْقِهِ — بِالْخُرُوجِ لِلْجِهَادِ، فَهَذَا لَا يَعْنِي إِقْرَارَهُ عَلَى فُسْقِهِ وَمَعْصِيَتِهِ، بَلْ يَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ تَعْلِيمًا وَنَصْحًا، وَيَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ زَجْرًا وَعَقُوبَةً، وَهَذَا مَعْنَاهُ مُمَارَسَةُ التَّرْبِيَةِ الْإِيمَانِيَةِ أَثْنَاءَ الْجِهَادِ، وَلَا نَقُولُ يَوْجَلُ الْجِهَادُ حَتَّى نَنْتَهِيَ مِنَ التَّرْبِيَةِ الْإِيمَانِيَةِ فَهَذِهِ لَأَهْلِيهَا هِيَ إِلَّا بِالمَوْتِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: ٩٩] وَالْيَقِينُ هُوَ الْمَوْتُ كَمَا فِي التَّفْسِيرِ، وَقَدْ يَحِينُ الْأَجَلُ وَلَمْ يُحْصَلِ الْعَبْدُ إِلَّا قَدْرًا يَسِيرًا مِنْ هَذِهِ التَّرْبِيَةِ، قَالَ تَعَالَى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) {[فاطر: ٣٢، ٣٣]، فَهَذِهِ هِيَ الْمَنَازِلُ الْإِيمَانِيَّةُ لِاتِّبَاعِ الرِّسْلِ وَوَرِثَةِ الْكِتَابِ.

وَيُمْكِنُنِي أَنْ أَخْصِصَ مَا سَبَقَ فِيمَا يَلِي:

^{٢٦٩} — المعني لابن قدامة (٩/ ٢٠١)

^{٢٧٠} — سورة التوبة، الآيتان: ٤٦ — ٤٧.

^{٢٧١} — سورة التوبة، الآية: ٨٣

١ = الإعداد الإيماني (التربية) واجب ومقوم أساسي من مقومات النصر، وقد سبق تفصيل هذا، خاصة ما يتعلق بأثر المعاصي في الخذلان، وأن معصية البعض تضر الكل إذا تركوا الإنكار، وهذا هو الحال الأمل الذي إن وُجد فيها ونعمت.

٢ = ومع ذلك نقول إن الجهاد لا يؤجل من أجل الإعداد الإيماني — وإن كان يؤجل من أجل الاستعداد المادي عند العجز — خاصة إذا كان الجهاد فرض عين وأخص من الجهاد العيني ما إذا نزل العدو ببلد المسلمين، وهو حال كثير من البلدان الآن، فمثل هذا الجهاد واجب عيني مُضَيِّق الوقت، وتأجيل مثل هذا الجهاد العيني يؤدي إلى ضرر وفساد، فأى فتنة أعظم من حلول الكافرين بعقر بلاد المسلمين يفرضون عليهم أحكام الكفر ويسعون في إفساد المسلمين وفتنتهم عن دينهم بشتى وسائل المكر، فمن قال بتأجيل جهاد هؤلاء حتى يتسنى تربية من يرغب في الجهاد، فصاحب هذه المقولة لا يدرك أن عوامل الهدم أضعاف عوامل البناء، {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢١٧]، {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [البقرة: ١٢٠]، كذلك فإنه لا يدرك أن الكافرين لن يُيقوا على أي وسيلة من وسائل التربية الصالحة، قال تعالى: {وَكُلُّوا دَفْعَ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْ دَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠]، فلولا دفع الله تعالى للكافرين بالمجاهدين في سبيله لما بقي مكان صالح لعبادة الله سبحانه، ولذلك وصف ابن القيم رحمه الله المجاهدين بقوله: [وهم جند الله، الذين يقيم بهم دينه ويدفع بهم بأس أعدائه ويحفظ بهم بيضة الإسلام ويحمي لهم حوزة الدين، وهم الذين يقاتلون أعداء الله ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا، قد بذلوا أنفسهم في محبة الله ونصر دينه وإعلاء كلمته ودفع أعدائه، وهم شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم في أعمالهم التي يعملونها وإن [باتوا] في ديارهم، ولهم مثل أجور من عبد الله بسبب جهادهم وفتوحهم فإنهم كانوا هم السبب فيه. والشارع قد نزل المتسبب منزلة الفاعل التام في الأجر والوزر، ولهذا كان الداعي إلى الهدى والداعي إلى الضلال لكل منهما بتسببه مثل أحر من تبعه].^{٢٧٢}

٣ = إذا اكتمل للمسلمين الإعداد المادي قدر الاستطاعة {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ} مع مظنة الظفر فيجب الشروع في الجهاد ولا يؤجل من أجل إكمال الإعداد الإيماني، وهذا معناه أنه عند العجز عن

^{٢٧٢} - طريق المجرتين وباب السعادتین (ص: ٣٥٥)

الجهاد يجب السعي في الإعدادين المادي والإيماني معاً، فمن سعى في الإعداد الإيماني وترك المادي أو أحله، فقد أثم لترك المأمور به {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ}.

٤ = الإعداد الإيماني يجب ممارسه في كل المراحل قبل الشروع في الجهاد وخلاله، وكما قلت من قبل إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة لازمة للمسلمين قبل التمكين وبعده، وخير أنواع التربية تلك التي تمارس أثناء الجهاد حيث يغلب على الناس القرب من الله تعالى في هذه الحالة. والرسول ﷺ كان دائم التوجيه لأصحابه مع قيامهم بالجهاد، وما قال أحد نوجل الجهاد حتى تكتمل التربية، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَّأْنَا صَبَّأْنَا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْهَا أَسِيرَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهَا أَسِيرَهُ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ أَسِيرِي، وَلَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ، حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرْنَا، فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ مَرَّتَيْنِ»^{٢٧٣}

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَّا جَمَعْتُمْ حَطَبًا، وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا، ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا، فَأَوْقَدُوا نَارًا، فَلَمَّا هَمُّوا بِالْدُخُولِ، فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا تَبْعَنَا النَّبِيُّ ﷺ فِرَارًا مِنَ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»^{٢٧٤}

وَقَالَ أَبُو طَيْيَانٍ: سَمِعْتُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ، فَصَبَحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشِيْنَاهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَكَفَّ الْأَنْصَارِيُّ فَطَعَنَتْهُ بِرُمَحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» قُلْتُ: كَانَ مُتَعَوِّدًا، فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا، حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ^{٢٧٥}

^{٢٧٣} - صحيح البخاري (١٦٠/٥) (٤٣٣٩)

[ش (بني جذيمة) قبيلة من قبائل العرب. (صبأنا) خرجنا من دين إلى دين وقصدوا الدخول في الإسلام ولكن خالدًا رضي الله عنه ظن أنهم لم يتقادوا ولهذا لم يقولوا أسلمنا. (أبرأ إليك) أعتذر. (مما صنع خالد) من قتل وأسر لهؤلاء]

^{٢٧٤} - صحيح البخاري (٦٣/٩) (٧١٤٥)

[ش (عزمت عليكم) آمركم وأؤكد أمري لكم وأجد فيه. (ما خرجوا). لأن الدخول فيها معصية فإذا استحلوها كفروا واستحقوا الخلود فيها وهذا جزء من جنس العمل. (الطاعة) للأمر واجبة. (المعروف) هو ما لا يتناقض مع الشرع]

^{٢٧٥} - صحيح البخاري (١٤٤/٥) (٤٢٦٩)

[ش (الحرقه) قبيلة من جهينة. (رجلا) هو مرادس بن نفيك. (متعوذا) مستجير من القتل. (يكورها) أي يكرر إنكاره عليه وقوله]

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: رَأَيْتُ عَلَيْهِ بُرْدًا، وَعَلَى غُلَامِهِ بُرْدًا، فَقُلْتُ: لَوْ أَخَذْتَ هَذَا فَلَيْسَتْهُ كَانَتْ حُلَّةً، وَأَعْطَيْتَهُ ثَوْبًا آخَرَ، فَقَالَ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ كَلَامٌ، وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً، فَلَنْتُ مِنْهَا، فَذَكَرَنِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لِي: «أَسَابَيْتَ فَلَانًا» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «أَفَلَنْتَ مِنْ أُمِّهِ» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «إِنَّكَ أَمْرُو فَيْكَ جَاهِلِيَّةٌ» قُلْتُ عَلَى حِينِ سَاعَتِي: هَذِهِ مِنْ كِبَرِ السِّنِّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا يُكَلِّفْهُ مِنَ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ، فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيَعْنَهُ عَلَيْهِ»^{٢٧٦}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: شَهِدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُنَيْنًا، فَقَالَ لِرَجُلٍ مِمَّنْ يُدْعَى بِالْإِسْلَامِ: «هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فَلَمَّا حَضَرْنَا الْقِتَالَ قَاتَلَ الرَّجُلُ قَاتِلًا شَدِيدًا، فَأَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلُ الَّذِي قُلْتَ لَهُ آتِفًا: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» فَإِنَّهُ قَاتَلَ الْيَوْمَ قِتَالَ شَدِيدًا، وَقَدْ مَاتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِلَى النَّارِ»، فَكَادَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَرْتَابَ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ، وَلَكِنْ بِهِ جِرَاحٌ شَدِيدٌ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ اللَّيْلِ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى الْجِرَاحِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَأُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»، ثُمَّ أَمَرَ بِلَا فَنَادَى فِي النَّاسِ: «أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ»^{٢٧٧}

كَذَلِكَ فَقَدْ وَقَعَتْ قِصَّةُ الْإِفْكِ بَعْدَ إِحْدَى الْغَزَوَاتِ وَأَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَدَ الْقَذْفِ عَلَى مَنْ خَاضُوا فِيهَا وَمِنْهُمْ مَنْ شَهِدَ بِدِرَا وَهُوَ مُسْطَحٌ بِنِ اثْنَةٍ وَمِنْهُمْ شَاعِرُ النَّبِيِّ ﷺ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ^{٢٧٨}. وَلِهَذَا فَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ كَامِلًا فَاضِلًا مَشْهُودًا لَهُ بِالْجَنَّةِ يَعْنَى وَيَقَعُ فِي الْكِبَائِرِ كَمُسْطَحٍ بِنِ اثْنَةٍ وَحَاطَبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: بَعَثَنِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَبَا مَرْثَدَةَ السُّلَمِيِّ، وَكَلَانَا فَارِسٌ، قَالَ: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً وَمَعَهَا صَحِيفَةٌ مِنْ حَاطَبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَأَتُونِي بِهَا فَأَذْكُرْكُمْهَا وَهِيَ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا، حَيْثُ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: أَيْنَ الْكِتَابُ الَّذِي مَعَكَ؟ فَقَالَتْ: مَا مَعِيَ كِتَابٌ، قَالَ: فَأَنْخَنَّا بِعِيرِهَا وَفَتَشْنَا رَحْلَهَا، فَقَالَ صَاحِبِي: مَا نَرَى مَعَهَا شَيْئًا، فَقُلْتُ لَهُ: لَقَدْ عَلِمْتُ مَا كَذَبْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِي يُخْلَفُ بِهِ لَتُخْرِجَنَّهُ أَوْ لَأُجَزَّتْكَ بِالسَّيْفِ، فَلَمَّا رَأَتْ الْجِدَّ أَهْوَتْ إِلَى حُجْرَتِهَا، وَعَلَيْهَا إِزَارٌ مِنْ صُوفٍ، فَأَخْرَجَتْ

^{٢٧٦} - صحيح البخاري (١٦ / ٨) (٦٠٥٠)

[ش (بردا) هو كساء مربع مخطط. (أعجمية) أي حبشية من غير العرب (فلنت منها) أي ذمها ووصفها بأنها سوداء. (على حين ساعتي) أي فور قوله وعقبه. (هذه من كبر السن) قال في الفتح أي هل في جاهلية أو جهل وأنا شيخ كبير؟]

^{٢٧٧} - صحيح مسلم (١ / ١٠٥) ١٧٨ - (١١١)

[ش (حنينا) كذا وقع في الأصول قال القاضي عياض رحمه الله صوابه خير (الرجل الذي قلت له آتفا إنه من أهل النار) أي قلت في شأنه وفي سببه قال الفراء وابن الشجري وغيرهما من أهل العربية اللام قد تأتي بمعنى في ومنه قول الله عز وجل ونضع الموازين القسط ليوم القيامة أي فيه وقوله آتفا أي قريبا]

^{٢٧٨} - انظر فتح الباري ج ٨ ص ٤٧٨ - ٤٧٩

الْكِتَابَ، فَأَتَيْنَا بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا حَاطِبُ مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بِي أَنْ لَا أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَكِنِّي أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ لِي عِنْدَ الْقَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقَ، لَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا»، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَدَعْنِي حَتَّى أَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ؟ مَا يُدْرِيكَ يَا عُمَرُ لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ»، فَقَالَ: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ»، فَدَمَعَتْ عَيْنُ عُمَرَ، وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ^{٢٧٩}

وقال ابن حجر: [إن المؤمن ولو بلغ بالصلاح أن يُقطع له بالجنة لا يُعصم من الوقوع في الذنب لأن حاطبا دخل فيمن أوجب الله لهم الجنة ووقع منه ما وقع]^{٢٨٠}.

وأمثلة هذا كثيرة. فالتربية الإيمانية تمارس أثناء الجهاد ولا يؤجل الجهاد من أجلها. فهي — كما سبق — لا تنتهي إلا بموت العبد، والله سبحانه يقلب القلوب ويصرفها كيف يشاء.

٥ = العدالة ليست من شروط وجوب الجهاد، ويجوز للفاسق أن يخرج للجهاد تابعا (جنديا) إذا كانت منفعة للجهاد أعظم من مفسدته، كما سبق تفصيله، ويُمنع من فيه إفساد أو خيانة.

٦ = إنه لا يعيب طائفة من المسلمين أن يكون بين صفوفها بعض العصاة، إنما يعيبها أن تقرهم على المعاصي ولا تأخذهم بطاعة الله تعالى أمرا ونهيا، إذ إن الخطأ والمعصية لا تنفك عن الإنسان، وقد أقام ﷺ حدود الزنا والقذف والخمر والسرقه والحراة في حياته ﷺ، وكان المنافقون يخرجون معه في الغزو كما سبق في أوائل هذه الرسالة، ولم يقل أحد لا نجاهد طالما في الصفوف عصاة أو منافقون، فعن الزبير بن عدي، قال: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، فَشَكَّوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلَقَى مِنَ الْحَجَّاجِ، فَقَالَ: «اصْبِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ» سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ " ٢٨١

والمقصد من هذا أنه إذا وجد بعض العصاة في طائفة مجاهدة قائمة بأمر الله فإن هذا ليس بمبرر لتترك الجهاد معها بحجة أن بها بعض العصاة.

٧ = فإن عدمت مثل هذه الطائفة المشار إليها أعلاه (وهي الطائفة الصالحة التي تضم بعض العصاة) ولم يمكن الجهاد إلا مع أمي فاجر أو مع عسكر كثير الفجور، فالجهاد معهم واجب — كما قال ابن

^{٢٧٩} - صحيح ابن حبان - مخرجا (٥٧ / ١٦) (٧١١٩) صحيح

^{٢٨٠} - فتح الباري ج ١٢ ص ٣١٠

^{٢٨١} - صحيح البخاري (٤٩ / ٩) (٧٠٦٨)

[ش (ما يلقون) من ظلمه لهم وتعليه عليهم وفيه التفات حيث انتقل من التكلم إلى الغيبة. (الذي بعده شر منه) يكون فيه الخير والشر أكثر منه أحيانا وقد يكون زمان خيرا من سابقه بكثير فلا حجة في هذا ونحوه لمن يؤثرون الراحة والانهزام فيتركون الأمر المعروف والنهي عن المنكر ويستسلمون للشر والفساد والظلم والطغيان. وفي بعض النسخ (أشر منه) بالهمزة والأولى أفصح وأصوب] وَالسَّبَبُ هُوَ الْبُعْدُ عَنْ أَنْوَارِهِ وَالْإِحْتِجَابُ عَنْ أَسْرَارِهِ الْمُقْتَضِي لِظُلُمَاتِ الظُّلْمِ عَلَى أَنْفُسِنَا، فَسَأَلَ اللَّهُ حُسْنَ الْخَاتِمَةِ فِي أَنْفُسِ أَنْفُسِنَا "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧ / ٢٧٩٤)

تيمية — لدفع أعظم المفسدين وهي مفسدة الكافرين — وهذه هي تقوى الله المستطاعة للعباد { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحْخَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [التغابن: ١٦]، فإنه لا توجد مفسدة أعظم من استيلاء الكفار على بلاد المسلمين وما يترتب على ذلك من الردة الإجبارية لعموم المسلمين إلا من رحم الله إنه هو الغفور الرحيم، قال تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢١٧]. فإن خرج المسلم مع أمير فاجر أو عسكر كثير الفجور، فإنه يعاونهم على البر والتقوى ولا يعاونهم على الإثم والعدوان، يطيعهم في الطاعة ويعصيهم في المعصية، ويذلل النصيح لهم عسى الله تعالى أن يصلح به. وقال ابن تيمية رحمه الله في موضع آخر: [فإن تعذر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك إلا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك ذلك الواجب: كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيرا من العكس، ولهذا كان الكلام في هذه المسائل فيه تفصيل] ٢٨٢.

وقال الشاطبي: [وكذلك الجهاد مع ولاية الجور قال العلماء بجوازه، قال مالك: “لو ترك ذلك لكان ضررا على المسلمين؟ فالجهاد ضروري، والوالي فيه ضروري، والعدالة فيه مكمل للضروري، والمكمل إذا عاد للأصل بالإبطال لم يُعتبر] ٢٨٣.

ولأبي محمد بن حزم كلام شديد في النكير على من يتهى عن جهاد الكفار مع الأمير الفاجر، قال ابن حزم: [ولا إثم بعد الكفر أعظم من إثم من نهي عن جهاد الكفار وأمر بإسلام حريم المسلمين إليهم من أجل فسق رجل مسلم لا يُحاسب غيره بفسقه] ٢٨٤.

ومما سبق ترى يا أخي المسلم أن القول بأنه لا نجاهد حتى نطلب العلم الشرعي أو حتى نستكمل التربية الإيمانية، وإلزام كل مسلم بهذا، هو قول يفضي إلى استئصال دين الإسلام.

الرد على الألباني في اعتماده على التربية فقط دون الجهاد:

وكما قلت في الرد على شبهة الشيخ الألباني، فإن العلم والتربية حق ونحن ندعو الناس إليهما، مع مراعاة ما يلي:

أ = أهما — العلم والتربية ليسا من شروط وجوب الجهاد، بمعنى أنه لا يصح أن ننهي أحدا عن الجهاد حتى يتعلم دينه أو يزكي نفسه، اللهم إلا العلم العيني الخاص بالجهاد كعلم مشروعية الجهاد ومعرفة الراية التي يقاتل تحتها.

٢٨٢ — مجموع الفتاوى ٢٨ / ٢١٢

٢٨٣ — الموافقات ٢ / ١٥

٢٨٤ — المحلى ٧ / ٣٠٠

ب = إن طريق الخلاص من حياة الذل التي يحياها المسلمون هو طريق الجهاد، عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الْقَوْمُ إِلَى قَصْعَتِهِمْ» قَالَ: قِيلَ: مِنْ قِلَّةٍ؟ قَالَ: «لَا وَلَكِنَّهُ غُثَاءٌ كَثُثَاءٌ السَّيْلُ يُجْعَلُ الْوَهْنُ فِي قُلُوبِكُمْ، وَيُنَزَعُ الرُّعْبُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ لِحُبِّكُمْ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَّتِكُمُ الْمَوْتَ»^{٢٨٥}

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»^{٢٨٦} وقد سبقا، وهذا الجهاد نراه واجبا على معظم المسلمين خاصة جهاد الحكام المرتدين، ومن هنا فإننا نعتبر العلم والتربية جزءا من الإعداد للجهاد من أجل تكوين طائفة مجاهدة على علم ودين، ولا نعتبر العلم والتربية بدون الجهاد طريقا للخلاص كما سبق في الرد على شبهة الشيخ الألباني.^{٢٨٧}

٣٦ - بذل الغالي والنفيس في سبيل الله :

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) [التوبة]}

يُرْعَبُ اللَّهُ تعالى الناس في الجهاد، وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّهُ سَيُعَوِّضُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ عَنْ بَذْلِهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَإِلْحَاقِ الْحَقِّ، وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الْأَرْضِ، فَهُمْ حِينَ يُجَاهِدُونَ يَقْتُلُونَ أَعْدَاءَهُمْ، وَيُقْتَلُونَ هُمْ، وَهُمْ فِي كِلَا الْحَالَيْنِ مُثَابِرُونَ عَلَى ذَلِكَ. وقد وعد الله عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بهذا الجزاء الحق، وجعله حَقًّا عَلَيْهِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ .

ثُمَّ يَدْعُو اللَّهُ تعالى مِنَ التَّزَمِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِعَهْدِهِ لِلَّهِ إِلَى الْإِسْتِبْشَارِ بِذَلِكَ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ، وَالتَّعْيِيمِ الْمُقِيمِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنَ اللَّهِ تعالى وَفَاءً بِالْعَهْدِ، وَلَا أَكْثَرُ مِنْهُ التَّزَامًا بِالْوَعْدِ الَّذِي يَقْطَعُهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ رِبْحٌ أَكْبَرُ مِنَ الرَّبْحِ الَّذِي يُحَقِّقُهُ الْمُؤْمِنُونَ فِي هَذِهِ الصَّفَقَةِ .

وهنا يُعَدِّدُ اللَّهُ تعالى صفات المؤمنين الذين اشترى مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَهُمْ: التَّائِبُونَ مَنْ الذُّنُوبِ كُلِّهَا، التَّارِكُونَ لِلْفَوَاحِشِ، الْقَائِمُونَ بِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ، وَالْحَافِظُونَ عَلَيْهَا، وَالْحَامِدُونَ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ

^{٢٨٥} - مسند أبي داود الطيالسي (٢/ ٣٣٣) (١٠٨٥) صحيح

^{٢٨٦} - سنن أبي داود (٣/ ٢٧٤) (٣٤٦٢) صحيح

^{٢٨٧} - انظر كتاب (العمدة في إعداد العدة)

وأفضاله، السَّائِحُونَ فِي الْأَرْضِ، لِلْإِعْتِبَارِ وَالِاسْتِبْصَارِ بِمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنَ الْعِبَرِ وَالْآيَاتِ، (وَقِيلَ أَيْضاً إِنَّ مَعْنَى السَّائِحِينَ هُنَا الصَّائِمُونَ) وَالْمُصَلُّونَ. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ يَسْعَوْنَ فِي نَفْعِ خَلْقِ اللَّهِ، وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى طَاعَتِهِ، بِأَمْرِهِمُ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمُ عَنِ الْمُنْكَرِ، مَعَ الْعِلْمِ بِمَا يَنْبَغِي فِعْلُهُ، وَيَجِبُ تَرْكُهُ طَاعَةً لِلَّهِ (أَيَّ إِنَّهُمْ يَحْفَظُونَ حُدُودَ اللَّهِ). وَيُشِيرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْكَرِيمَةِ بِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ..^{٢٨٨} إنها صفقة مشتراة، لشاريها أن يتصرف بما يشاء، وفق ما يفرض ووفق ما يحدد، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم، لا يتلفت ولا يتخير، ولا يناقش ولا يجادل، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام .. والثلث: هو الجنة .. والطريق: هو الجهاد والقتل والقتال .. والنهية: هي النصر أو الاستشهاد: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ» ..

من بايع على هذا. من أمضى عقد الصفقة. من ارتضى الثمن ووفى. فهو المؤمن .. فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا .. ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمناً، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال، وهو مالك الأنفس والأموال. ولكنه كرم هذا الإنسان فجعله مريداً وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها - حتى مع الله - وكرمه فقيده بعقوده وعهوده وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمية: .. «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ» .. كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنما لبيعة رهيبة - بلا شك - ولكنها في عنق كل مؤمن - قادر عليها - لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه.

ومن هنا تلك الرهبة التي أشتعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ» ..

عونك اللهم! فإن العقد رهيبة .. وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم «مسلمين» في مشارق الأرض ومغاربها، قاعدون، لا يجاهدون لتقرير ألوهية الله في الأرض، وطرده الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد. ولا يقتلون. ولا يقتلون. ولا يجاهدون جهاداً ما دون القتل والقتال! ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين - على عهد رسول الله - ﷺ - فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم ولم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم، أو يحسونها مجردة في مشاعرهم. كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها. لتحويلها إلى حركة منظورة، لا إلى صورة متأملة .. هكذا أدركها عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - في بيعة العقبة الثانية. عن محمد بن كعب

^{٢٨٨} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣٤٧، بترقيم الشاملة آليا)

القرظي وغيره قالوا: قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت ! قال: اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم. قالوا: فإذا فعلنا ذلك، فماذا لنا؟ قال: الجنة! قالوا: ربح البيع، لا نُقِيل ولا نستقيل! فترلت: (إن الله اشترى من المؤمنين)، الآية^{٢٨٩}..

هكذا.. «ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل».. لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين انتهى أمرها، وأمضى عقدها، ولم يعد إلى مرد من سبيل: «لا نقيل ولا نستقيل» فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار والجنة: ثمن مقبوض لا موعود! أليس الوعد من الله؟ أليس الله هو المشتري؟ أليس هو الذي وعد الثمن.

وعدا قديما في كل كتبه: «وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ».. «وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟». أجل! ومن أوفى بعهده من الله؟

إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن.. كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله.. إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ».. «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا»..

إن الحق لا بد أن ينطلق في طريقه. ولا بد أن يقف له الباطل في الطريق!.. بل لا بد أن يأخذ عليه الطريق.. إن دين الله لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية لله وحده. ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق.. بل لا بد أن يقطع عليه الطريق.. ولا بد لدين الله أن ينطلق في «الأرض» كلها لتحرير «الإنسان» كله. ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع للباطل طريقا!.. وما دام في «الأرض» كفر. وما دام في «الأرض» باطل. وما دامت في «الأرض» عبودية لغير الله تذلل كرامة «الإنسان» فالجهاد في سبيل الله ماض، والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء. وإلا فليس بالإيمان، فعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»^{٢٩٠}.

فيومذاك لم يكن قد فرض قتال. وهذه آية مدنية قطعاً. ولكنها تنفق مع مضمون تلك البيعة العام.

«فَاسْتَبْشِرُوا بِنَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم لله، وأخذ الجنة عوضاً وثناً، كما وعد الله.. وما الذي فات؟

^{٢٨٩} - تفسير ابن كثير - دار طيبة [٢١٨/ ٤] وتفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٤٩٩/ ١٤] (١٧٢٧٠)

ونحن نستبعد أن تكون الآية نزلت يومذاك. السيد رحمه الله

^{٢٩٠} - صحيح مسلم - المكثر [٤٦٣/ ١٢] (٥٠٤٠)

ما الذي فات المؤمن الذي يسلم لله نفسه وماله ويستعيز الجنة؟ والله ما فاته شيء. فالنفس إلى موت، والمال إلى فوت. سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل الله أم في سبيل سواه! والجنة كسب. كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة! فالمقابل زائل في هذا الطريق أو ذاك! ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش لله. ينتصر - إذا انتصر - لإعلاء كلمته، وتقرير دينه، وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه. ويستشهد - إذا استشهد - في سبيله، ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة. ويستشعر في كل حركة وفي كل خطوة - أنه أقوى من قيود الأرض وأنه أرفع من ثقله الأرض، والإيمان ينتصر فيه على الألم، والعقيدة تنتصر فيه على الحياة.

إن هذا وحده كسب. كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة وانتصار الإيمان فيه على الألم، وانتصار العقيدة فيه على الحياة.. فإذا أضيفت إلى ذلك كله.. الجنة.. فهو يبع يدعو إلى الاستبشار وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال: «فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعِيكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

ثم نقف وقفة قصيرة أمام قوله تعالى في هذه الآية: «وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ».. فوعد الله للمجاهدين في سبيله في القرآن معروف مشهور مؤكد مكرور.. وهو لا يدع مجالاً للشك في أصالة عنصر الجهاد في سبيل الله في طبيعة هذا المنهج الرباني باعتباره الوسيلة المكافئة للواقع البشري - لا في زمان بعينه ولا في مكان بعينه - ما دام أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية تقابل بنظرية ولكنها تتمثل في تجمع عضوي حركي، يحمي نفسه بالقوة المادية ويقاوم دين الله وكل تجمع إسلامي على أساسه بالقوة المادية كذلك ويحول دون الناس والاستماع لإعلان الإسلام العام بألوهية الله وحده للعباد، وتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد. كما يحول دونهم ودون الانضمام العضوي إلى التجمع الإسلامي المتحرر من عبادة الطاغوت بعبوديته لله وحده دون العباد.. ومن ثم يتحتم على الإسلام في انطلاقه في «الأرض» لتحقيق إعلانه العام بتحرير «الإنسان» أن يسطدم بالقوة المادية التي تحمي التجمعات الجاهلية والتي تحاول بدورها - في حتمية لا فكاك منها - أن تسحق حركة البعث الإسلامي وتخفت إعلانه التحريري، لاستبقاء العباد في رق العبودية للعباد! فأما وعد الله للمجاهدين في التوراة والإنجيل. فهو الذي يحتاج إلى شيء من البيان..

إن التوراة والإنجيل اللذين في أيدي اليهود والنصارى اليوم لا يمكن القول بأنهما هما اللذان أنزلهما الله على نبيه موسى وعلى نبيه عيسى عليهما السلام! وحتى اليهود والنصارى أنفسهم لا يجادلون في أن النسخة الأصلية لهذين الكتابين لا وجود لها وأن ما بين أيديهم قد كتب بعد فترة طويلة ضاعت فيها معظم أصول الكتابين ولم يبق إلا ما وعته ذاكرة بعد ذاكرة.. وهو قليل.. أضيف إليه الكثير! ومع ذلك فما تزال في كتب العهد القديم إشارات إلى الجهاد، والتحريض لليهود على قتال أعدائهم

الوثنيين، لنصر إلههم وديانته وعبادته! وإن كانت التحريفات قد شوهت تصورهم لله - سبحانه - وتصورهم للجهاد في سبيله.

فأما في الأناجيل التي بين أيدي النصارى اليوم فلا ذكر ولا إشارة إلى جهاد.. ولكننا في حاجة شديدة إلى تعديل المفهومات السائدة عن طبيعة النصرانية فهذه المفهومات إنما جاءت من هذه الأناجيل التي لا أصل لها - بشهادة الباحثين النصارى أنفسهم! - وقبل ذلك بشهادة الله سبحانه كما وردت في كتابه المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والله سبحانه يقول في كتابه المحفوظ: إن وعده بالجنة لمن يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن.. فهذا إذن هو القول الفصل الذي ليس بعده لقائل مقال! إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن. كل مؤمن على الإطلاق. منذ كانت الرسل، ومنذ كان دين الله..

ولكن الجهاد في سبيل الله ليس مجرد اندفاع إلى القتال إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل في مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال: والمؤمنون الذين عقد الله معهم البيعة، والذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تتمثل فيهم صفات إيمانية أصيلة: «التَّائِبُونَ. الْعَابِدُونَ. الْحَامِدُونَ. السَّائِحُونَ. الرَّكَعُونَ السَّاجِدُونَ. الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» «التَّائِبُونَ».. مما أسلفوا، العائدون إلى الله مستغفرين. والتوبة شعور بالندم على ما مضى، وتوجه إلى الله فيما بقي، وكف عن الذنب، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك. فهي طهارة وزكاة وتوجه وصلاح.

«الْعَابِدُونَ».. المتوجهون إلى الله وحده بالعبادة وبالعبودية، إقرارا بالربوبية.. صفة هذه ثابتة في نفوسهم تترجمها الشعائر، كما يترجمها التوجه إلى الله وحده بكل عمل وبكل قول وبكل طاعة وبكل اتباع. فهي إقرار بالألوهية والربوبية لله في صورة عملية واقعية.

«الْحَامِدُونَ».. الذين تنطوي قلوبهم على الاعتراف بالمنعم بالنعمة وتلهج ألسنتهم بحمد الله في السراء والضراء. في السراء للشكر على ظاهر النعمة، وفي الضراء للشعور بما في الابتلاء من الرحمة. وليس الحمد هو الحمد في السراء وحدها، ولكنه الحمد في الضراء حين يدرك القلب المؤمن أن الله الرحيم العادل ما كان ليبتلي المؤمن إلا لخير يعلمه، مهما خفي على العباد إدراكه.

«السَّائِحُونَ».. وتختلف الروايات فيهم. فمنها ما يقول: إنهم المهاجرون. ومنها ما يقول: إنهم المجاهدون. ومنها ما يقول: إنهم المتنقلون في طلب العلم. ومنهم من يقول: إنهم الصائمون.. ونحن نميل إلى اعتبارهم المتفكرين في خلق الله وسننه، ممن قيل في أمثالهم في موضع آخر: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَاختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ!...»

..فهذه الصفة أليق هنا بالجو بعد التوبة والعبادة والحمد. فمع التوبة والعبادة والحمد يكون التدبر في ملكوت الله على هذا النحو الذي ينتهي بالإجابة إلى الله، وإدراك حكمته في خلقه، وإدراك الحق الذي يقوم عليه الخلق. لا للاكتفاء بهذا الإدراك وإنفاق العمر في مجرد التأمل والاعتبار. ولكن لبناء الحياة وعمرانها بعد ذلك على أساس هذا الإدراك ..

«الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ» ..الذين يقيمون الصلاة ويقومون بالصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاتهم وكأن الركوع والسجود طابع مميز بين الناس لهم.

«الْأَمْرُؤَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُؤَ عَنِ الْمُنْكَرِ» ..وحيث يقوم المجتمع المسلم الذي تحكمه شريعة الله، فيدين لله وحده ولا يدين لسواه، يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في داخل هذا المجتمع ويتناول ما يقع فيه من أخطاء وانحرافات عن منهج الله وشرعه ..ولكن حين لا يكون في الأرض مجتمع مسلم وذلك حين لا يكون في الأرض مجتمع الحاكمية فيه لله وحده، وشريعة الله وحدها هي الحاكمة فيه، فإن الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولاً إلى الأمر بالمعروف الأكبر، وهو تقرير ألوهية الله وحده سبحانه وتحقيق قيام المجتمع المسلم. والنهي عن المنكر يجب أن يتجه أولاً إلى النهي عن المنكر الأكبر. وهو حكم الطاغوت وتعبيد الناس لغير الله عن طريق حكمهم بغير شريعة الله ..والذين آمنوا بمحمد - ﷺ - هاجروا وجاهدوا ابتداء لإقامة الدولة المسلمة الحاكمة بشريعة الله، وإقامة المجتمع المسلم المحكوم بهذه الشريعة. فلما تم لهم ذلك كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصي. ولم ينفقوا قط جهدهم، قبل قيام الدولة المسلمة والمجتمع المسلم في شيء من هذه التفرعات التي لا تنشأ إلا بعد قيام الأصل الأصيل! ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يدرك وفق مقتضى الواقع. فلا يبدأ بالمعروف الفرعي والمنكر الفرعي قبل الانتهاء من المعروف الأكبر والمنكر الأكبر، كما وقع أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم! «وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» ..وهو القيام على حدود الله لتنفيذها في النفس وفي الناس. ومقاومة من يضيعها أو يعتدي عليها ..ولكن هذه كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يقام عليها إلا في مجتمع مسلم.

ولا مجتمع مسلم إلا المجتمع الذي تحكمه شريعة الله وحدها في أمره كله وإلا الذي يفرد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والحاكمية والتشريع ويرفض حكم الطاغوت المتمثل في كل شرع لم يأذن به الله ..والجهد كله يجب أن ينفق ابتداء لإقامة هذا المجتمع. ومتى قام هناك مكان للحافظين لحدود الله

فيه .. كما وقع كذلك أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم!

هذه هي الجماعة المؤمنة التي عقد الله معها بيعته. وهذه هي صفاتها ومميزاتها: توبة ترد العبد إلى الله، وتكفه عن الذنب، وتدفعه إلى العمل الصالح. وعبادة تصله بالله وتجعل الله معبوده وغايته ووجهته. وحمد لله على السراء والضراء نتيجة الاستسلام الكامل لله والثقة المطلقة برحمته وعدله. وسياحة في ملكوت الله مع آيات الله الناطقة في الكون الدالة على الحكمة والحق في تصميم

الخلق. وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة. وحفظ الحدود الله يرد عنها العادين والمضيعين، ويصونها من التهجم والانتهاك ..

هذه هي الجماعة المؤمنة التي بايعها الله على الجنة، واشترى منها الأنفس والأموال، لتمضي مع سنة الله الجارية منذ كان دين الله ورسله ورسالاته. قتال في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وقتل لأعداء الله الذين يحادون الله أو استشهاد في المعركة التي لا تفرق بين الحق والباطل، وبين الإسلام والجاهلية، وبين الشريعة والطاغوت، وبين الهدى والضلال.

وليست الحياة هوا ولعبا. وليست الحياة أكلا كما تأكل الأنعام ومتاعا. وليست الحياة سلامة ذليلة، وراحة بليدة ورضى بالسلم الرخيصة .. إنما الحياة هي هذه: كفاح في سبيل الحق، وجهاد في سبيل الخير، وانتصار لإعلاء كلمة الله، أو استشهاد كذلك في سبيل الله .. ثم الجنة والرضوان ..

هذه هي الحياة التي يدعى إليها المؤمنون بالله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» ... وصدق الله. وصدق رسول الله .. ٢٩١

٣٧ - النظر في السنن الربانية:

قال تعالى: { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) } [آل عمران: ١٣٧ - ١٤٠]

يُخَاطَبُ اللهُ تعالى الْمُؤْمِنِينَ بعد مصابهم في وقعة أُحُدٍ فيقول لهم: لقد جرى على أتباع الأنبياء السابقين من الأمم الغابرة نحو مما جرى لكم يوم أُحُدٍ، فأصيبوا وقُتلوا وهُزِمُوا .. ولكنَّ العاقبة كانت لهم، والدائرة كانت على الكافرين ... وهذه هي سنة الله في خلقه أنه ما التقى الإيمان والشرك إلا نصر الله المؤمنين المخلصين، وأعلى راية الإيمان، وهزم الشرك وأهله، ونكس أعلامه. وأجدر الناس بمعرفة هذه الحقيقة هم المؤمنون فسِيرُوا يا أيُّها المؤمنون في الأرض، وتأملوا فيما حلَّ بالأمم السابقة . وما تقدَّم هو بيان للناس كافَّةً، وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ مِنْهُمْ خاصَّةً، فالإرشاد عامٌّ للناس، وَحُجَّةٌ على الْمُؤْمِنِ وَالكَافِرِ، (وذلك يدحض ما قاله المشركون: لو كان مُحَمَّدٌ رَسُوْلًا حَقًّا لَمَا غَلَبَ فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ) . فهذا البيان والهدى يُرشدان إلى أنَّ سُنَنَ اللهِ حاكمَةٌ على الأنبياء والرُّسُلِ، كما هي حاكمَةٌ على

٢٩١ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٣٣٦)

سائر خلقه، فما من قائد يُخالفه جُنْدُهُ، ويتركون حماية الثَّغْرِ الذي عهد إليهم بحمايته، إلا كان جيشه عرضةً للهزيمة. وهذا البيان هُدًى وموعظةٌ للمُتَّقِينَ، لأنَّهم هم الذين يتفكرون فيعتبرون .

ولا تضعفوا عن الجهاد، وما يتطلبه من حسن التدبير والإعداد، بسبب ما أصابكم من الفشل والجراح يوم أحد، ولا تحزنوا على ما فقدتم في ذلك اليوم، فإنَّ العاقبة والتصر سيكُونان لكم إذا تمسَّكتم بحبل الله، وراعيتم تعاليمه، فقد مضت سنة الله أن يجعل العاقبة للمُتَّقِينَ. إن كُنْتُمْ قد أصابكم جراح، وقُتل منكم رجالٌ يوم أحد، فقد أصاب أعداءكم قريبٌ مما أصابكم، فلا ينبغي لكم أن تقعدوا وتتقاعدوا عن الجهاد بسبب ما أصابكم، فالمُشْرِكُونَ قد سبق أن أصابهم يوم بدرٍ مثل ما أصابكم أنتم في أحد، فلم يتقاعدوا، ولم يقعدوا عن الإعداد للحرب ومباشرتها، وهم على باطلهم، فكيف تردّدون وأنتم على حقٍّ، والله وعدكم نصره، وجعل العاقبة لكم؟ ومن سنن الله تعالى مداولة الأيام بين الناس، فمرة تكون الغلبة للباطل على الحق، إذا أعد له أهله واحتاطوا، وتراخى أهل الحق، ومرة تكون الغلبة للحق على الباطل. ولكنَّ العاقبة تكون دائماً للحق وأهله. والله تعالى يبتلي المؤمنين ليعلم الصَّابِرِينَ الصَّادِقِينَ مِنْهُمْ، وليتخذ من المؤمنين رجالاً يُكرِّمهم بالشهادة .. ٢٩٢

لقد أصاب المسلمين القرع في هذه الغزوة، وأصابهم القتل والهزيمة. أصيبوا في أرواحهم وأصيبوا في أبدانهم بأذى كثير. قتل منهم سبعون صحابياً، وكسرت رباعية الرسول - ﷺ - وشج وجهه، وأرهقه المشركون، وأنخن أصحابه بالجراح .. وكان من نتائج هذا كله هزة في النفوس، وصدمة لعلها لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب في بدر، حتى لقال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم: «أنتى هذا؟» وكيف تجري الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون؟! والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض. يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور. فهم ليسوا بدعا في الحياة فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمر لا تمضي جزافاً، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشف لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبين لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام. واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق. ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول.

والسنن التي يشير إليها السياق هنا، ويوجه أبصارهم إليها هي: عاقبة المكذبين على مدار التاريخ. ومداولة الأيام بين الناس. والابتلاء لتمحيص السرائر، وامتحان قوة الصبر على الشدائد، واستحقاق النصر للصابرين والحق للمكذبين.

٢٩٢ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٣٠، بترقيم الشاملة آليا)

وفي خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال، والمواساة في الشدة، والتأسية على القرع، الذي لم يصيبهم وحدهم، إنما أصاب أعدائهم كذلك، وهم أعلى من أعدائهم عقيدة وهدفاً، وأهدى منهم طريقاً ومنهجاً، والعاقبة بعد لهم، والدائرة على الكافرين.

« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ، فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ. هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ » ..

إن القرآن ليربط ماضي البشرية بحاضرها، وحاضرها بماضيها، فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها. وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم، ولم تكن معارفهم، ولم تكن تجاربهم - قبل الإسلام - لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة. لولا هذا الإسلام - وكتابه القرآن - الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا ..

إن النظام القبلي الذي كانوا يعيشون في ظله، ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة وما جريات حياتهم فضلاً على الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها، فضلاً على الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة جميعاً .. وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة، ولم تنشأ من مقتضيات الحياة في ذلك الزمان! إنما حملتها إليهم هذه العقيدة. بل حملتهم إليها! وارتقت بهم إلى مستواها، في ربع قرن من الزمان. على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير العالي إلا بعد قرون وقرون ولم يهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس الكونية، إلا بعد أجيال وأجيال .. فلما اهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس نسوا أن معها كذلك طلاقة المشيئة الإلهية، وأنه إلى الله تصير الأمور .. فأما هذه الأمة المختارة فقد استيقنت هذا كله، واتسع له تصورهما، ووقع في حسها التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة، فاستقامت حياتها على التعامل مع سنن الله الثابتة والاطمئنان - بعد هذا - إلى مشيئته الطليقة! « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ » ..

وهي هي التي تحكم الحياة. وهي هي التي قررت المشيئة الطليقة. فما وقع منها في غير زمانكم فسيقع مثله - بمشيئة الله - في زمانكم، وما انطبق منها على مثل حالكم فهو كذلك سينطبق على حالكم.

« فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ » .. فالأرض كلها وحدة. والأرض كلها مسرح للحياة البشرية. والأرض والحياة فيها كتاب مفتوح تتملاه الأبصار والبصائر.

« فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ » .. وهي عاقبة تشهد بما آثروا في الأرض، وتشهد بما سيرهم التي يتناقلها خلفهم هناك .. ولقد ذكر القرآن الكريم كثيراً من هذه السير ومن هذه الآثار في مواضع منه متفرقة. بعضها حدد مكانه وزمانه وشخصه.

وبعضها أشار إليه بدون تحديد ولا تفصيل .. وهنا يشير هذه الإشارة الجملة ليصل منها إلى نتيجة مجملة:

إن ما جرى للمكذبين بالأمس سيجري مثله للمكذبين اليوم وغدا. ذلك كي تطمئن قلوب الجماعة المسلمة إلى العاقبة من جهة. وكي تحذر الانزلاق مع المكذبين من جهة أخرى. وقد كان هنالك ما يدعو إلى الطمأنينة وما يدعو إلى التحذير. وفي السياق سيرد من هذه الدواعي الكثير. وعلى إثر بيان هذه السنة يتجاوب النداء للعظة والعبرة بهذا البيان: «هذا بيانٌ للنَّاسِ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ» ..

هذا بيان للناس كافة. فهو نقلة بشرية بعيدة ما كان الناس ببالغها لولا هذا البيان الهادي. ولكن طائفة خاصة هي التي تجد فيه الهدى، وتجد فيه الموعظة، وتنتفع به وتصل على هداها .. طائفة «المتقين» .. إن الكلمة الهادية لا يستشرفها إلا القلب المؤمن المفتوح للهدى. والعظة البالغة لا ينتفع بها إلا القلب التقى الذي يخفق لها ويتحرك بها .. والناس قلما ينقصهم العلم بالحق والباطل، وبالهدى والضلال .. إن الحق بطبيعته من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى بيان طويل. إنما تنقص الناس الرغبة في الحق، والقدرة على اختيار طريقه .. والرغبة في الحق والقدرة على اختيار طريقه لا ينشئهما إلا الإيمان، ولا يحفظهما إلا التقوى .. ومن ثم تتكرر في القرآن أمثال هذه التقارير. تنص على أن ما في هذا الكتاب من حق، ومن هدى، ومن نور، ومن موعظة، ومن عبرة .. إنما هي للمؤمنين وللمتقين. فالإيمان والتقوى هما اللذان يشرعان القلب للهدى والنور والموعظة والعبرة. وهما اللذان يزينان للقلب اختيار الهدى والنور والانتفاع بالموعظة والعبرة .. واحتمال مشقات الطريق .. وهذا هو الأمر، وهذا هو لب المسألة .. لا مجرد العلم والمعرفة .. فكم ممن يعلمون ويعرفون، وهم في حمأة الباطل يتمرغون. إما خضوعاً لشهوة لا يجدي معها العلم والمعرفة، وإما خوفاً من أذى ينتظر حملة الحق وأصحاب الدعوة!

وبعد هذا البيان العريض يتجه إلى المسلمين بالتقوية والتأسية والتثبیت: «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ. إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» .. لا تهنوا - من الوهن والضعف - ولا تحزنوا - لما أصابكم ولما فاتكم - وأنتم الأعلون .. عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون لله وحده، وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه! ومنهجمكم أعلى. فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله، وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله! ودوركم أعلى. فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها، الهداة لهذه البشرية كلها، وهم شاردون عن النهج، ضالون عن الطريق. ومكانكم في الأرض أعلى، فلکم وراثۃ الأرض التي وعدكم الله بها، وهم إلى الفناء والنسيان صائرون .. فإن كنتم مؤمنين حقاً فأنتم الأعلون. وإن كنتم مؤمنين حقاً فلا تهنوا ولا تحزنوا. فإنما هي سنة الله أن تصابوا وتصيبوا، على أن تكون لكم العقبي بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص: «إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ. وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ. وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا، وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ. وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ» ..

وذكر القرع الذي أصاب المكذبين قرع مثله، قد يكون إشارة إلى غزوة بدر. وقد مس القرع فيها المشركون وسلم المسلمون. وقد يكون إشارة إلى غزوة أحد. وقد انتصر فيها المسلمون في أول الأمر. حتى هزم المشركون وقتل منهم سبعون، وتابعهم المسلمون يضربون أقفيتهم حتى لقد سقط علم المشركين في ثنايا المعركة فلم يتقدم إليه منهم أحد. حتى رفعته لهم امرأة فلاثوا بها وتجمعوا عليها.. ثم كانت الدولة للمشركين، حينما خرج الرماة على أمر رسول الله - ﷺ - واختلفوا فيما بينهم. فأصاب المسلمين ما أصابهم في نهاية المعركة. جزاء وفاقا لهذا الاختلاف وذلك الخروج، وتحقيقا لسنة من سنن الله التي لا تتخلف، إذ كان اختلاف الرماة وخروجهم ناشئين من الطمع في الغنيمة. والله قد كتب النصر في معارك الجهاد لمن يجاهدون في سبيله، لا ينظرون إلى شيء من عرض هذه الدنيا الزهيد. وتحقيقا كذلك لسنة أخرى من سنن الله في الأرض، وهي مداولة الأيام بين الناس - وفقا لما يبدو من عمل الناس ونيتهم - فتكون لهؤلاء يوما ولأولئك يوما. ومن ثم يتبين المؤمنون ويتبين المنافقون. كما تتكشف الأخطاء. وينجلي الغيب.

«إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ. وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ. وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا»

..

إن الشدة بعد الرخاء، والرخاء بعد الشدة، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس، وطبائع القلوب، ودرجة الغيب فيها والصفاء، ودرجة الملح فيها والصبر، ودرجة الثقة فيها بالله أو القنوط، ودرجة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجموح! عندئذ يتميز الصف ويتكشف عن: مؤمنين ومنافقين، ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم، وتتكشف في دنيا الناس دخائل نفوسهم. ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلة التناسق بين أعضائه وأفراده، وهم مختلطون مبهمون! والله سبحانه يعلم المؤمنين والمنافقين. والله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه الصدور. ولكن الأحداث ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوء، وتجعله واقعا في حياة الناس، وتحول الإيمان إلى عمل ظاهر، وتحول النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر، ومن ثم يتعلق به الحساب والجزاء. فالله سبحانه لا يحاسب الناس على ما يعلمه من أمرهم ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم.

ومداولة الأيام، وتعاقب الشدة والرخاء، محك لا يخطئ، وميزان لا يظلم. والرخاء في هذا كالشدة. وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك، ولكنها تتراخي بالرخاء وتنحل. والنفوس المؤمنة هي التي تصبر للضراء ولا تستخفها السراء، وتتجه إلى الله في الحالين، وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن الله. وقد كان الله يربي هذه الجماعة - وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية - فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء، والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنصر العجيب - وإن يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن الله الجارية في النصر والهزيمة. لتتعلم هذه الجماعة أسباب

النصر والهزيمة. ولتزيد طاعة لله، وتوكلا عليه، والتصاقا بركنه. ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين.

ويعضي السياق يكشف للأمة المسلمة عن جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث المعركة، وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس، وفيما بعد تمييز الصفوف، وعلم الله للمؤمنين: «وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ» .. وهو تعبير عجيب عن معنى عميق - إن الشهداء لمختارون. يختارهم الله من بين المجاهدين، ويتخذهم لنفسه - سبحانه - فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد. إنما هو اختيار وانتقاء، وتكريم واختصاص .. إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة، ليستخلصهم لنفسه - سبحانه - ويخصهم بقربه.

ثم هم شهداء يتخذهم الله، ويستشهدهم على هذا الحق الذي يعث به للناس. يستشهدهم فيؤدون الشهادة. يؤدونها أداء لا شبهة فيه، ولا مطعن عليه، ولا جدال حوله. يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق، وتقريره في دنيا الناس. يطلب الله - سبحانه - منهم أداء هذه الشهادة، على أن ما جاءهم من عنده الحق، وعلى أنهم آمنوا به، وتجردوا له، وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء دونه وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق وعلى أنهم هم استيقنوا هذا، فلم يألوا جهدا في كفاح الباطل وطرده من حياة الناس، وإقرار هذا الحق في عالمهم وتحقيق منهج الله في حكم الناس .. يستشهدهم الله على هذا كله فيشهدون. وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت. وهي شهادة لا تقبل الجدل والحوال! وكل من ينطق بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. لا يقال له إنه شهد، إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها. ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إليها. ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله. فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد وأخص خصائص العبودية التلقي من الله .. ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد بما أنه رسول الله. ولا يعتمد مصدرا آخر للتلقي إلا هذا المصدر ..

ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده في الأرض، كما بلغها محمد - ﷺ - فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس، والذي بلغه عنه محمد - ﷺ - هو المنهج السائد والغالب والمطاع، وهو النظام الذي يصرف حياة الناس كلها بلا استثناء.

فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله، فهو إذن شهيد. أي شاهد طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها. واتخذ الله شهيدا .. ورزقه هذا المقام. هذا فقه ذلك التعبير العجيب: «وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ» ..

وهو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ومقتضاه .. لا ما انتهى إليه مدلول هذه الشهادة من الرخص والتفاهة والضياع! «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» ..

والظلم كثيرا ما يذكر في القرآن ويراد به الشرك. بوصفه أظلم الظلم وأقبحه. وفي القرآن: «إِنَّ الشَّرَّكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ».. وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ . قَالَ وَحَدَّثَنِي وَأَصْلٌ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ سَأَلْتُ - أَوْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَيْ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ قَالَ « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نَدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » . قُلْتُ ثُمَّ أَيْ قَالَ « ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ . قُلْتُ ثُمَّ أَيْ قَالَ « أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ » . قَالَ وَنَزَلَتْ هَذِهِ آيَةٌ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) ٢٩٣ ...

وقد أشار السياق من قبل إلى سنة الله في المكذبين فالآن يقرر أن الله لا يحب الظالمين. فهو توكيد في صورة أخرى لحقيقة ما ينتظر المكذبين الظالمين الذين لا يحبهم الله. والتعبير بأن الله لا يحب الظالمين، يثير في نفس المؤمن بغض الظلم وبغض الظالمين. وهذه الإثارة في معرض الحديث عن الجهاد والاستشهاد، لها مناسبتها الحاضرة. فالمؤمن إنما يبذل نفسه في مكافحة ما يكرهه الله ومن يكرهه. وهذا هو مقام الاستشهاد، وفي هذا تكون الشهادة ومن هؤلاء يتخذ الله الشهداء ..

ثم يمضي السياق القرآني يكشف عن الحكمة الكامنة وراء الأحداث، في تربية الأمة المسلمة وتمحيصها وإعدادها لدورها الأعلى، ولتكون أداة من أدوات قدره في محق الكافرين، وستارا لقدرته في هلاك المكذبين: «وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ» ..

والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز. التمهيص عملية تتم في داخل النفس، وفي مكنون الضمير .. إنها عملية كشف لمكونات الشخصية، وتسليط الضوء على هذه المكونات. تمهيدا لإخراج الدخيل والدغل والأوشاب، وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق، بلا غبش ولا ضباب ..

وكثيرا ما يجهل الإنسان نفسه، ومخابئها ودروبها ومنحنياتها. وكثيرا ما يجهل حقيقة ضعفها وقوتها، وحقيقة ما استكن فيها من رواسب، لا تظهر إلا بمثير! وفي هذا التمهيص الذي يتولاه الله - سبحانه - بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء، يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير: محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية.

ولقد يظن الإنسان في نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والخلاص من الشح والحرص .. ثم إذا هو يكشف - على ضوء التجربة العملية، وفي مواجهة الأحداث الواقعية - أن في نفسه عقايل لم تمحص. وأنه لم يتهيا لمثل هذا المستوي من الضغوط! ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه، ليعاود المحاولة في سببها من جديد، على مستوى الضغوط التي تقضيها طبيعة هذه الدعوة، وعلى مستوى التكاليف التي تقتضيها هذه العقيدة! والله - سبحانه - كان يربي هذه الجماعة المختارة لقيادة البشرية، وكان يريد بها أمرا في هذه الأرض. فمحصها هذا التمهيص، الذي تكشف عنه الأحداث في أحد، لترتفع إلى

٢٩٣ - صحيح البخاري - المکتز [١٥ / ٤٧٩] (٤٧٦١) وصحيح مسلم - المکتز [١ / ٣١٧] (٢٦٧)

مستوى الدور المقدر لها، وليتحقق على يديها قدر الله الذي ناطه بها: «وَيَمَحَقُ الْكَافِرِينَ».. تحقيقاً
لسنته في دمع الباطل بالحق متى استعلن الحق، وخلص من الشوائب بالتمحيص..^{٢٩٤}

٣٨ - وجوبُ التعلُّق بالمبدأ وليس بالأشخاص:

لأنَّ المبدأ لا يضل ولكن الأشخاص قد يضلون أو يجسسون أو يشردون في الأرض أو يقتلون.
وهذه نقطة جوهرية في صميم هذه الرسالة الخالدة، وقد ترك كثير من الصحابة الجهاد في غزوة
أحد لما سمعوا بمقتل النبي ﷺ وكثير من الناس اليوم إذا قتل الداعية أو سجن أو انحرف تخلوا عن
الدعوة ويئسوا من رحمة الله تعالى وهذا أمر خطير يتعلق بعقيدة المسلم تجاه هذه الرسالة الخاتمة .
قال تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)} وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي
الشَّاكِرِينَ (١٤٥)} [آل عمران: ١٤٤، ١٤٥]

لما انهزم المسلمون يوم أحد، وقُتل منهم من قُتل، أُشيع أن رسول الله ﷺ قد قُتل، فحصل ضعف في
صُفوف المسلمين، وتأخر عن القتال، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وفيها يُذكر المسلمين بأن محمداً بشرٌ
قد سبقته رُسُلٌ، منهم من مات، ومنهم من قُتل، ثم يُنكر الله تعالى على من ضعف منهم، حين سماع
إشاعة قتل الرسول، ضعفه، فقال لهم: أفإن مات محمداً، أو قُتل، تراجعتم ونكصتم على أعقابكم؟ ومن
يتراجع وينكص على عقبيه، فلن يضر الله شيئاً، لأن الله غني عن العالمين، أما الذين أمثلوا لأمر
الله، وفاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله، فهو لاء هم الشاكرون، وسيجزى بهم ربهم على ذلك
لا يموت أحدٌ إلا بقدر الله، وحتى يستوفي المدة التي جعلها الله له أجلاً (كِتَابًا مُؤَجَّلًا)، فلا يتقدم عنه
ولا يتأخر. وإذا كان محياً الإنسان ومماته بإذن الله فلا محل للخوف والجبن، ولا عذر في الوهن
والضعف.

وفي هذه الآية تشجيع للجبناء على القتال. فإن الإقدام والإحجام لا يُنقصان من عمر الإنسان، ولا
يزيدان فيه. ومن كان عمله للدنيا فقط ناله منها ما قدره الله له من ثوابها، ولم يكن له في الآخرة
نصيب. ومن قصد بعمله ثواب الآخرة أعطاه الله من ثوابها، وأعطاه معها ما قسمه له في الدنيا من

^{٢٩٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٧٧٩)

نَصِيبٍ. وَاللَّهُ يَجْزِي الشَّاكِرِينَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ أَنْعُمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَيَسْتَعْمِلُونَهَا فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ. وَيُعْطِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِمِقْدَارِ شُكْرِهِمْ وَعَمَلِهِمْ.^{٢٩٥}

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ، - قَالَ: إِسْمَاعِيلُ يَعْنِي بِالْعَالِيَةِ - فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ، وَلَيَعْنَتُهُ اللَّهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِي رِجَالٍ وَأَرْجُلُهُمْ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ " فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [ص: ٧] فَقَبَّلَهُ، قَالَ: يَا أَبَيَّ أَنْتَ وَأُمِّي، طُبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رَسُولِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمَدَ اللَّهُ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَالَ: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر: ٣٠]، وَقَالَ: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٤]، قَالَ: فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ، قَالَ: وَاجْتَمَعَتِ الْأَنْصَارُ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، فَقَالُوا: مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ فَأَسْكَنَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي قَدْ هَيَّأتُ كَلَامًا قَدْ أَعْجَبَنِي، خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْلُغَهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَتَكَلَّمَ أَلْبَغَ النَّاسِ، فَقَالَ فِي كَلَامِهِ: نَحْنُ الْأَمْراءُ وَأَنْتُمْ الْوُزراءُ، فَقَالَ حُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ: لَا وَاللَّهِ لَا نَفْعَ لَنَا مِنْكُمْ أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَا، وَلَكِنَّا الْأَمْراءُ، وَأَنْتُمْ الْوُزراءُ، هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ دَارًا، وَأَعْرَبُهُمْ أَحْسَابًا، فَبَايَعُوا عُمَرَ، أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ، فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ يُبَايِعُكَ أَنْتَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ، فَقَالَ قَاتِلٌ: قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، فَقَالَ عُمَرُ قَتَلَهُ اللَّهُ " ٢٩٦

إن البشر إلى فناء، والعقيدة إلى بقاء، ومنهج الله للحياة مستقل في ذاته عن الذين يحملونه ويؤدونه إلى الناس، من الرسل والدعاة على مدار التاريخ.. والمسلم الذي يحب رسول الله - ﷺ - وقد كان أصحابه يحبونه الحب الذي لم تعرف له النفس البشرية في تاريخها كله نظيرا. الحب الذي يفدونه معه

^{٢٩٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٣٧، بترقيم الشاملة آليا)

^{٢٩٦} - صحيح البخاري (٦/٥) (٣٦٦٧-٣٦٧٠)

[ش (الحالف) أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. (على رسلك) اتعد ولا تعجل. (وقال) أي قرأ. (إنك) أي يا محمد صلى الله عليه وسلم. (ميت) ستموت كما أنهم سيموتون. / الزمر ٣٠. / (خلت) مضت وماتت. (انقلبتم على أعقابكم) رجعتكم عن عقيدتم وإسلامكم. / آل عمران ١٤٤. / (فنشج) بكى والنشيج بكاء معه صوت ونشج الباكي إذا غص البكاء في حلقه. (منا) أي من الأنصار. (منكم) أي من المهاجرين وقالوا ذلك بناء على عادة العرب إذ لا يسود القبيلة إلا رجل منها فلما علموا أن حكم الإسلام ليس كذلك أذعنوا له وبايعوا. (الوزراء) المستشارون في الأمور والمعينون عليها. (هم) أي قريش. (أوسط العرب دارا) أشرفهم مسكنا وهو مكة. (أعربهم أحسابا) أكثر العرب أصالة وأشبههم بشمائل العرب وأفعالهم. (قاتل) من الأنصار. (قتلتم سعدا) أي ابن عبادة رضي الله عنه أي خذلتموه وأعرضتم عنه. (خطبتهما) أي خطبة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما]

بحياتهم أن تشوكة شوكة. وقد رأينا أبا دجاجة يترس عليه بظهره والنبيل يقع فيه ولا يتحرك! ورأينا التسعة الذين أفرد فيهم ينافحون عنه ويستشهدون واحدا إثر واحد.. وما يزال الكثيرون في كل زمان وفي كل مكان يحبونه ذلك الحب العجيب بكل كياتهم، وبكل مشاعرهم، حتى ليأخذهم الوجد من مجرد ذكره - ﷺ - .. هذا المسلم الذي يحب محمداً ذلك الحب، مطلوب منه أن يفرق بين شخص محمد - ﷺ - والعقيدة التي أبلغها وتركها للناس من بعده، باقية ممتدة موصولة بالله الذي لا يموت.

إن الدعوة أقدم من الداعية: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» .. قد خلت من قبله الرسل يحملون هذه الدعوة الضاربة في جذور الزمن، العميقة في منابت التاريخ، المبتدئة مع البشرية، تحدد لها بالهدى والسلام من مطالع الطريق. وهي أكبر من الداعية، وأبقى من الداعية. فدعاها يحيئون ويذهبون، وتبقى هي على الأجيال والقرون، ويبقى أتباعها موصولين بمصدرها الأول، الذي أرسل بها الرسل، وهو باق - سبحانه - يتوجه إليه المؤمنون ..

وما يجوز أن ينقلب أحد منهم على عقبيه، ويرتد عن هدى الله. والله حي لا يموت: ومن ثم هذا الاستنكار، وهذا التهديد، وهذا البيان المنير: «أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً. وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ»^{٢٩٧} ..

^{٢٩٧} - عن الزهري، قال: وأخبرني أنس بن مالك: أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر يوم الاثنين وأبو بكر يصلي بهم، لم يفتحهم إلا رسول الله ﷺ وقد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم صفوف في صلاتهم، ثم تبسم فضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة. قال أنس: وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ حين رأوه، فأشار إليهم رسول الله ﷺ أن اقضوا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر بينه وبينهم، وثوفاً ذلك اليوم. قال الزهري: وأخبرني أنس بن مالك: أنه لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب في الناس خطيباً، فقال: لا أسمع أحداً يقول: إن محمداً ﷺ قد مات، إن محمداً ﷺ لم يمت، ولكن أرسل إليه ربه كما أرسل إلى موسى، فلبث عن قومه أربعين ليلة. قال الزهري: وأخبرني سعيد بن المسيب، أن عمر بن الخطاب قال في خطبته: إني لأرجو أن يقطع رسول الله ﷺ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات.

قال الزهري: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته: أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنع حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتميم رسول الله ﷺ وهو مسجى ببردة حبرة، فكشف عن وجهه، فأكب عليه فقبله وبكى، ثم قال: يا بني أنت، والله لا يجمع الله عليك موتتين أبداً، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها. قال الزهري: قال أبو سلمة: أخبرني ابن عباس: أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس، فأبى عمر أن يجلس، فقال: اجلس، فأبى أن يجلس، فتشهد أبو بكر، فقال الناس إليه، وتروكوا عمر، فقال: أيها الناس من كان منكم يعبد محمداً، فإن محمداً ﷺ قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله تبارك وتعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} . قال: والله لكان الناس لم يكونوا يعلموا أن الله حلّ وعلا أنزل هذه الآية إلا حين تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فلم تسمع بشراً إلا يتلوها.

قال الزهري: وأخبرني سعيد بن المسيب، أن عمر بن الخطاب قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها عقرت حتى ما ثقلني رجلاي، وأهويت إلى الأرض، وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله ﷺ قد مات.

وفي التعبير تصوير حي للارتداد: «انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ».. «وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ».. فهذه الحركة الحسية في الانقلاب تجسم معنى الارتداد عن هذه العقيدة، كأنه منظر مشهود، والمقصود أصلاً ليس حركة الارتداد الحسية بالهزيمة في المعركة، ولكن حركة الارتداد النفسية التي صاحبها حينما هتف الهااتف: إن محمداً قد قتل، فأحس بعض المسلمين أن لا جدوى إذن من قتال المشركين، وبموت محمد انتهى أمر هذا الدين، وانتهى أمر الجهاد للمشركين! فهذه الحركة النفسية يجسمها التعبير هنا، فيصورها حركة ارتداد على الأعقاب، كارتدادهم في المعركة على الأعقاب!

وهذا هو الذي حذرهم إياه النضر بن أنس - رضي الله عنه - قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي الْقَاسِمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ رَافِعٍ أَخُو بَنِي عَدِيٍّ بْنِ النَّجَّارِ قَالَ انْتَهَى أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ، عَمَّ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَطَلَحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، فِي رَجَالٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَقَدْ أَلْفَوْا بِأَيْدِيهِمْ فَقَالَ مَا يُجْلِسُكُمْ؟ قَالُوا: قُتِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ فَمَاذَا تَصْنَعُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَهُ؟ (قُومُوا) فَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الْقَوْمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ وَبِهِ سُمِّيَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي حُمَيْدُ الطَّوِيلُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ لَقَدْ وَجَدْنَا بِأَنَسِ بْنِ النَّضْرِ يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ ضَرْبَةً فَمَا عَرَفَهُ إِلَّا أُخْتُهُ عَرَفَتْهُ بِنَانِهِ ٢٩٨ .

وعَنْ حُمَيْدٍ قَالَ سَأَلْتُ أَنَسًا . حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ زُرَّارَةَ حَدَّثَنَا زِيَادٌ قَالَ حَدَّثَنِي حُمَيْدُ الطَّوِيلُ عَنْ أَنَسِ - رضي الله عنه - قَالَ غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَعَنَ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ كَيَّرَنِي اللَّهُ مَا أَصْنَعُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ قَالَ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي أَصْحَابَهُ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ» - يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ يَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، الْجَنَّةُ، وَرَبُّ النَّضْرِ إِنِّي أَحَدُ رِيحَيْهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ. قَالَ سَعْدُ فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ. قَالَ أَنَسُ فَوَجَدْنَا بِهِ بَضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمَحٍ أَوْ رَمِيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِنَانِهِ. قَالَ أَنَسُ كُنَّا نَرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٢٩٩ ..

قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَأَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنَ الْعَدِ حِينَ بُويعَ أَبُو بَكْرٍ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاسْتَوَى أَبُو بَكْرٍ عَلَى مَنبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَامَّ عُمَرُ، فَتَشَهَّدَ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ قُلْتُ لَكُمْ أَمْسَ مَقَالَةً لَمْ تَكُنْ، كَمَا قُلْتُ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا وَجَدْتُهَا فِي كِتَابِ أَنْزَلَهُ اللَّهُ، وَلَا فِي عَهْدِ عَهْدِهِ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَعِيشَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَدُبِّرَنَا - يَقُولُ حَتَّى يَكُونَ آخِرَنَا - فَاخْتَارَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا لِرَسُولِهِ ﷺ الَّذِي عِنْدَهُ عَلَى الَّذِي عِنْدَكُمْ، وَهَذَا كِتَابُ اللَّهِ هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ، فَخَذُّوا بِهِ تَهْتَدُوا بِمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ. صحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [١٤/ ٥٨٧] (٦٦٢٠) وصحيح البخاري - المكثر [١٢]

/[٤٢٧] (٣٦٦٧ و ٣٦٦٨) مختصراً

٢٩٨ - سيرة ابن هشام [٨٢/ ٢] صحيح مرسل

٢٩٩ - صحيح البخاري - المكثر [١٠/ ٢٠٧] (٢٨٠٥)

«وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا».. فإنما هو الخاسر، الذي يؤدي نفسه فيتنكب الطريق ..وانقلابه لن يضر الله شيئا. فالله غني عن الناس وعن إيمانهم. ولكنه - رحمة منه بالعباد - شرع لهم هذا المنهج لسعادتهم هم، ولخيرهم هم. وما يتنكبه متنكب حتى يلاقي جزاءه من الشقوة والحيرة في ذات نفسه وفيمن حوله. وحتى يفسد النظام وتفسد الحياة ويفسد الخلق، وتعوج الأمور كلها، ويذوق الناس وبال أمرهم في تنكبهم للمنهج الوحيد الذي تستقيم في ظله الحياة، وتستقيم في ظله النفوس، وتجد الفطرة في ظله السلام مع ذاتها، والسلام مع الكون الذي تعيش فيه.

«وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ».. الذين يعرفون مقدار النعمة التي منحها الله لعباده في إعطائهم هذا المنهج، فيشكرونها باتباع المنهج، ويشكرونها بالثناء على الله، ومن ثم يسعدون بالمنهج فيكون هذا جزاء طيبا على شكرهم، ثم يسعدون بجزاء الله لهم في الآخرة، وهو أكبر وأبقى ..

وكأنما أراد الله - سبحانه - بهذه الحادثة، وبهذه الآية، أن يقطع المسلمين عن تعلقهم الشديد بشخص النبي - ﷺ - وهو حي بينهم. وأن يصلهم مباشرة بالنعيم. النعم الذي لم يفجره محمد - ﷺ - ولكن جاء فقط ليومئ إليه، ويدعو البشر إلى فيضه المتدفق، كما أوماً إليه من قبله من الرسل، ودعوا القافلة إلى الارتواء منه! وكأنما أراد الله - سبحانه - أن يأخذ بأيديهم، فيصلها مباشرة بالعروة الوثقى. العروة التي لم يعقدها محمد - ﷺ - إنما جاء ليعقد بها أيدي البشر، ثم يدعهم عليها ويمضي وهم بها مستمسكون! وكأنما أراد الله - سبحانه - أن يجعل ارتباط المسلمين بالإسلام مباشرة، وأن يجعل عهدهم مع الله مباشرة، وأن يجعل مسؤوليتهم في هذا العهد أمام الله بلا وسيط. حتى يستشعروا تبعثهم المباشرة، التي لا يخليهم منها أن يموت الرسول - ﷺ - أو يقتل، فهم إنما بايعوا الله. وهم أمام الله مسؤولون! وكأنما كان الله - سبحانه - يعد الجماعة المسلمة لتلقي هذه الصدمة الكبرى - حين تقع - وهو - سبحانه - يعلم أن وقعها عليهم يكاد يتجاوز طاقتهم. فشاء أن يدربهم عليها هذا التدريب، وأن يصلهم به هو، وبدعوته الباقية، قبل أن يستبد بهم الدهش والذهول.

ولقد أصيبوا - حين وقعت بالفعل - بالدهش والذهول. حتى لقد وقف عمر - رضي الله عنه - شاهرا سيفه، يهدد به من يقول: إن محمدا قد مات! ولم يثبت إلا أبو بكر، الموصول القلب بصاحبه، وبقدر الله فيه، والاتصال المباشر الوثيق. وكانت هذه الآية - حين ذكرها وذكر بها المدهوشين الداهلين - هي النداء الإلهي المسموع، فإذا هم يثوبون ويرجعون!

ثم يلمس السياق القرآني مكنن الخوف من الموت في النفس البشرية، لمسمة موحية، تطرد ذلك الخوف، عن طريق بيان الحقيقة الثابتة في شأن الموت وشأن الحياة، وما بعد الحياة والموت من حكمة لله وتدبير، ومن ابتلاء للعباد وجزاء: «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا. وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا. وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ» ..

إن لكل نفس كتاباً مؤجلاً إلى أجل مرسوم. ولن تموت نفس حتى تستوفي هذا الأجل المرسوم. فالخوف والهلع، والحرص والتخلف، لا تطيل أجلاً. والشجاعة والثبات والإقدام والوفاء لا تقصر عمراً. فلا كان الجبن، ولا نامت أعين الجبناء. والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد! بذلك تستقر حقيقة الأجل في النفس، فتترك الاشتغال به، ولا تجعله في الحساب، وهي تفكر في الأداء والوفاء بالالتزامات والتكاليف الإيمانية. وبذلك تنطلق من عقال الشح والحرص، كما ترتفع على وهلة الخوف والفرع. وبذلك تستقيم على الطريق بكل تكاليفه وبكل التزاماته، في صبر وطمأنينة، وتوكل على الله الذي يملك الآجال وحده.

ثم ينتقل بالنفس خطوة وراء هذه القضية التي حسم فيها القول.. فإنه إذا كان العمر مكتوباً، والأجل مرسوماً.. فلتنظر نفس ما قدمت لغد ولتنظر نفس ماذا تريد.. أتريد أن تقعد عن تكاليف الإيمان، وأن تحصر همها كله في هذه الأرض، وأن تعيش لهذه الدنيا وحدها؟ أم تريد أن تتطلع إلى أفق أعلى، وإلى اهتمامات أرفع، وإلى حياة أكبر من هذه الحياة؟.. مع تساوي هذا الهم وذلك فيما يختص بالعمر والحياة؟! «وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا. وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا».

وشتان بين حياة وحياة! وشتان بين اهتمام واهتمام! - مع اتحاد النتيجة بالقياس إلى العمر والأجل - والذي يعيش لهذه الأرض وحدها، ويريد ثواب الدنيا وحدها.. إنما يحيا حياة الديدان والدواب والأنعام! ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب. والذي يتطلع إلى الأفق الآخر.. إنما يحيا حياة «الإنسان» الذي كرمه الله واستخلفه وأفرده بهذا المكان ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب والذي يتطلع إلى الأفق الآخر.. إنما يحيا حياة "الإنسان" الذي كرمه الله واستخلفه وأفرده بهذا المكان ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب.... «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً»..

«وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ».. الذين يدركون نعمة التكريم الإلهي للإنسان، فيرتفعون عن مدارج الحيوان ويشكرون الله على تلك النعمة، فينهضون بتبعات الإيمان..

وهكذا يقرر القرآن حقيقة الموت والحياة، وحقيقة الغاية التي ينتهي إليها الأحياء، وفق ما يريدونه لأنفسهم، من اهتمام قريب كاهتمام الدود، أو اهتمام بعيد كاهتمام الإنسان! وبذلك ينقل النفس من الانشغال بالخوف من الموت والجزع من التكاليف - وهي لا تملك شيئاً في شأن الموت والحياة - إلى الانشغال بما هو أنفع للنفس، في الحقل الذي تملكه، وتملك فيه الاختيار. فتختار الدنيا أو تختار الآخرة. وتنال من جزاء الله ما تختار! ^{٣٠٠}

^{٣٠٠} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٧٨٧)

كالإقتداء بسحرة فرعون لما عرفوا الحق آمنوا به وثبتوا عليه والإقتداء بصاحب يس الذي قدم نفسه سخية في سبيل الله وغيرهم كثير، قال تعالى: { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) } [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨]

في هذه الآية يُسَلِّي الله تعالى المؤمنين عما وقع في نفوسهم يوم أُحُد، فقال لهم: كم من نبي قُتل وهو يُقاتل، وكان معه جماعات كثيرة (رِبِّيُّونَ) ممن آمنوا به، واعتقدوا أنه رسول الله، فما وهنوا، وما ضعفوا بعد قتل النبي، وما استكانوا، وما استدلوا لما أصابهم في الجهاد في سبيل الله، وفي سبيل إعلاء دينه، وإنما صبروا على قتال الأعداء، ولم يهربوا مولين الأدبار، لأنهم يعتقدون أنهم يُقاتلون في سبيل الله لا في سبيل نبيهم، فعليكم أيها المسلمون أن تعتبروا بأولئك الرِّبِّيِّين، وتصبروا كما صبروا فإن دين الله واحد، وسنته في خلقه واحدة ..

فاحتسب هؤلاء المؤمنون (الرِبِّيُّونَ) الله عند اشتداد الخطب، وهم يُقاتلون أعداءهم، ولم يكن لهم من قول عند نزول الكوارث إلا الدعاء إلى الله أن يغفر لهم بجهادهم ما كانوا ألموا به من ذنوب، وتجاوزوا فيه حدود الشرائع، وأن يثبت أقدامهم على الصراط القويم، حتى لا تُزحزحهم الفتن، ولا يغروهم الفشل حين مقابلة الأعداء في ساحة الحرب .

فآتاهم الله النصر والظفر على الأعداء، وهما ثواب الدنيا، وجمع لهم، إلى ذلك الظفر، حُسن ثواب الآخرة، وهو الفوز برضوان الله ورحمته، والله يُحبُّ الذين يُحسنون العمل، لأنهم يُقيمون سنته في أرضه، ويُظهرون بأنفسهم وأعمالهم أنهم جديرون بخلافة الله فيها .^{٣٠١}

لقد كانت الهزيمة في «أحد»، هي أول هزيمة تصدم المسلمين، الذين نصرهم الله ببدر وهم ضعاف قليل فكأنما وفر في نفوسهم أن النصر في كل موقعة هو السنة الكونية. فلما أن صدمتهم أحد، فوجئوا بالابتلاء كأنهم لا ينتظرونه! ولعله لهذا طال الحديث حول هذه الواقعة في القرآن الكريم. واستطرد السياق يأخذ المسلمين بالتأسية تارة، وبالاستنكار تارة، وبالتقرير تارة، وبالمثل تارة، تربية لنفوسهم، وتصحيحاً لتصورهم، وإعداداً لهم.

فالطريق أمامهم طويل، والتجارب أمامهم شاقة، والتكاليف عليهم باهظة، والأمر الذي يندبون له عظيم.

^{٣٠١} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٣٩، بترقيم الشاملة آليا) وانظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/٢٠٤)

والمثل الذي يضربه لهم هنا مثل عام، لا يحدد فيه نبيا، ولا يحدد فيه قوما. إنما يربطهم بموكب الإيمان ويعلمهم أدب المؤمنين ويصور لهم الابتلاء كأنه الأمر المطرد في كل دعوة وفي كل دين ويربطهم بأسلافهم من أتباع الأنبياء ليقرر في حسهم قرابة المؤمنين للمؤمنين ويقر في أخلادهم أن أمر العقيدة كله واحد.

وأهم كتيبة في الجيش الإيماني الكبير: «وَكَايْنِ مِنْ نَبِيِّ قَاتِلَ مَعَهُ رِيُونَ كَثِيرٌ. فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَأُوا».... وكم من نبي قاتلت معه جماعات كثيرة. فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والكرب والشدة والجراح. وما ضعفت قواهم عن الاستمرار في الكفاح، وما استسلموا للجزع ولا للأعداء.. فهذا هو شأن المؤمنين، المنافحين عن عقيدة ودين.. «وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ».. الذين لا تضعف نفوسهم، ولا تتضعض قواهم، ولا تلين عزائمهم، ولا يستكينون أو يستسلمون..

والتعبير بالحب من الله للصابرين. له وقعه. وله إيحاؤه. فهو الحب الذي يأسو الجراح، ويمسح على القرع، ويعوض ويربو عن الضر والقرح والكفاح المرير!

وإلى هنا كان السياق قد رسم الصورة الظاهرة لهؤلاء المؤمنين في موقفهم من الشدة والابتلاء. فهو يمضي بعدها ليرسم الصورة الباطنة لنفوسهم ومشاعرهم. صورة الأدب في حق الله، وهم يواجهون الهول الذي يذهل النفوس، ويقيدها بالخطر الراهق لا تتعداه. ولكنه لا يذهل نفوس المؤمنين عن التوجه إلى الله.. لا لتطلب النصر أول ما تطلب - وهو ما يتبادر عادة إلى النفوس - ولكن لتطلب العفو والمغفرة، ولتعترف بالذنب والخطيئة، قبل أن تطلب الثبات والنصر على الأعداء: «وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا، وَتَبَتْ أْقْدَامُنَا، وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».. إنهم لم يطلبوا نعمة ولا ثراء. بل لم يطلبوا ثوابا ولا جزاء.. لم يطلبوا ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة. لقد كانوا أكثر أدبا مع الله، وهم يتوجهون إليه، بينما هم يقاتلون في سبيله. فلم يطلبوا منه - سبحانه - إلا غفران الذنوب، وتثبيت الأقدام.. والنصر على الكفار. فحتى النصر لا يطلبونه لأنفسهم إنما يطلبونه هزيمة للكفر وعقوبة للكفار.. إنه الأدب اللائق بالمؤمنين في حق الله الكريم.

وهؤلاء الذين لم يطلبوا لأنفسهم شيئا، أعطاهم الله من عنده كل شيء. أعطاهم من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا وزيادة. وأعطاهم كذلك كل ما يتمناه طلاب الآخرة ويرجونه: «فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا، وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ»..

وشهد لهم - سبحانه - بالإحسان. فقد أحسنوا الأدب وأحسنوا الجهاد، وأعلن حبه لهم. وهو أكبر من النعمة وأكبر من الثواب: «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»..

وهكذا تنتهي هذه الفقرة في الاستعراض وقد تضمنت تلك الحقائق الكبيرة في التصور الإسلامي. وقد أدت هذا الدور في تربية الجماعة المسلمة. وقد ادخرت هذا الرصيد للأمة المسلمة في كل جيل^{٣٠٢}..

وقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: ٢١]

يُحِثُّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْاِقْتِدَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالتَّأْسِي بِهِ فِي صَبْرِهِ وَمَصَابِرَتِهِ وَمُرَابِطَتِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ فَقَالَ لِلَّذِينَ أَظْهَرُوا الضَّجْرَ وَتَزَلُّوْا وَاضْطَرُّوْا فِي أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: هَلَّا اقْتَدَيْتُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ، وَتَأَسَّيْتُمْ بِشَمَائِلِهِ فَلَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ إِنْ كُنْتُمْ تَبْتَغُونَ ثَوَابَ اللَّهِ، وَتَخَافُونَ عِقَابَهُ، وَتَذْكُرُونَ اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، فَذِكْرُ اللَّهِ يُؤَدِّي إِلَى أُسْوَةٍ حَسَنٍ - قُدْوَةٍ صَالِحَةٍ فِي كُلِّ أَمْرٍ^{٣٠٣}..

وقد كان رسول الله - ﷺ - على الرغم من الهول المرعب والضيق المجهد، مثابة الأمان للمسلمين، ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان. وإن دراسة موقفه - ﷺ - في هذا الحادث الضخم لما يرسم لقادة الجماعات والحركات طريقهم وفيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وتطلب نفسه القدوة الطيبة ويذكر الله ولا ينساه.

ويحسن أن نلم بلمحات من هذا الموقف على سبيل المثال. إذ كنا لا نملك هنا أن نتناوله بالتفصيل. خرج رسول الله - ﷺ - يعمل في الخندق مع المسلمين. يضرب بالفأس، ويجرف التراب بالمسحاة، ويحمل التراب في المكنل. ويرفع صوته مع المرتجزين، وهم يرفعون أصواتهم بالرجز في أثناء العمل، فيشاركونهم الترحيع! وقد كانوا يتغنون بأغان ساذجة من وحي الحوادث الجارية: كان هناك رجل من المسلمين اسمه جعيل، فكره رسول الله - ﷺ - اسمه، وسماه عمرا. فراح العاملون في الخندق يغنون جماعة بهذا الرجز الساذج:

سماه من بعد جعيل عمرا وكان للبائس يوما ظهرا

فإذا مروا في ترجيعهم بكلمة «عمرو»، قال رسول الله - ﷺ -: «عمرا». وإذا مروا بكلمة «ظهر» قال رسول الله - ﷺ -: «ظهر».

ولنا أن نتصور هذا الجو الذي يعمل فيه المسلمون، والرسول - ﷺ - بينهم، يضرب بالفأس، ويجرف بالمسحاة، ويحمل في المكنل، ويرجع معهم هذا الغناء. ولنا أن نتصور أية طاقة يطلقها هذا الجو في أرواحهم وأي ينبوع يتفجر في كيانهم بالرضى والحماسة والثقة والاعتزاز.

عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعْدِ بْنِ زُرَّارَةَ، قَالَ: قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: كَانَتْ وَقْعَةُ بُعَاثَ وَأَنَا ابْنُ سِتِّ سِنِينَ، وَكَانَتْ قَبْلَ هِجْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسِ سِنِينَ: - قَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَكَانَ زَيْدُ بْنُ

^{٣٠٢} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٧٩١)

^{٣٠٣} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٤٣٥، بترقيم الشاملة آليا)

ثَابِتٌ يَكْتُبُ الْكِتَابَيْنِ جَمِيعًا كِتَابَ الْعَرَبِيَّةِ، وَكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّةِ، وَأَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ زَيْدٌ بُنُ ثَابِتٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْخَنْدَقُ وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ عَشْرَةَ سَنَةً، وَكَانَ فَيَمَنُ يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَئِذٍ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا إِنَّهُ نَعَمُ الْغُلَامُ، وَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ يَوْمَئِذٍ، فَرَقَدَ، فَجَاءَ عُمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ، فَأَخَذَ سِلَاحَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا أَبَا رُقَادٍ نِمْتَ حَتَّى ذَهَبَ سِلَاحُكَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ لَهُ عِلْمٌ بِسِلَاحِ هَذَا الْغُلَامِ؟ فَقَالَ عُمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخَذْتُهُ فَرَدَّهُ، فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَرُوعَ الْمُؤْمِنُ، وَأَنْ يُؤْخَذَ مَتَاعُهُ لَاعِبًا وَجَدًّا، وَكَانَتْ رَأْيَةُ بَنِي مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ فِي تَبُوكَ مَعَ عُمَارَةَ بْنِ حَزْمٍ، فَأَذْرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَهَا مِنْهُ فَدَفَعَهَا إِلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، فَقَالَ عُمَارَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَلَّغْكَ عَنِّي شَيْءٌ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ يُقَدِّمُ، وَكَانَ زَيْدٌ أَكْثَرَ أَخَذًا مِنْكَ لِلْقُرْآنِ ٣٠٤..

ثم كانت روحه - ﷺ - تستشرف النصر من بعيد، وتراه رأي العين في ومضات الصخور على ضرب المعاول فيحدث بها المسلمين، ويث فيهم الثقة واليقين.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَخُذْتُ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، أَنَّهُ قَالَ ضَرَبْتُ فِي نَاحِيَةِ مِنَ الْخَنْدَقِ، فَعَلُظْتُ عَلَى صَخْرَةٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَرِيبٌ مِنِّي؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ أَضْرِبُ وَرَأَيْتُ شِدَّةَ الْمَكَانِ عَلَيَّ نَزَلَ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ مِنْ يَدِي، فَضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً لَمَعَتْ تَحْتَ الْمِعْوَلِ بُرْقَةٌ قَالَ ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بُرْقَةٌ أُخْرَى؛ قَالَ ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ الثَّلَاثَةَ فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بُرْقَةٌ أُخْرَى. قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتَ لَمَعَتْ تَحْتَ الْمِعْوَلِ وَأَنْتَ تَضْرِبُ؟ قَالَ أَوْقَدْ رَأَيْتَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ؟ قَالَ قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ أَمَّا الْأُولَى فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الْيَمْنَ؛ وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الشَّامَ وَالْمَغْرِبَ وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الْمَشْرِقَ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَخُذْتُ مِنْ لَا أَتَّهِمُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ حِينَ فَتَحَتْ هَذِهِ الْأَمْصَارُ فِي زَمَانِ عُمَرَ وَزَمَانِ عُثْمَانَ وَمَا بَعْدَهُ افْتَتَحُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسِي أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ مَا افْتَتَحْتُمْ مِنْ مَدِينَةٍ وَلَا تَفْتَتِحُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا ﷺ مَفَاتِيحَهَا قَبْلَ ذَلِكَ ٣٠٥..

وعن البراء بن عازب قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَفْرِ الْخَنْدَقِ، قَالَ: وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الْخَنْدَقِ، لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، قَالَ: فَشَكَّوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ عَوْفٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَضَعَ ثَوْبَهُ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ، فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلْثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا. ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلْثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ

٣٠٤- المستدرک للحاکم مشکلا [١٩/ ٥] (٥٧٧٨) حسن

٣٠٥- سيرة ابن هشام [٢/ ٢١٩] فيه انقطاع وله شاهد يحسنه - المعول: آلة من الحديد يُنقر بها الصخر

إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا. ٣٠٦
وجاء في «إمتاع الأسماع للمقرئ» أن هذا الحادث وقع لعمر بن الخطاب بحضور سلمان. رضي الله عنهما.

ولنا أن نتصور اليوم كيف يقع مثل هذا القول في القلوب، والخطر محقق بها محيط.
ولنا أن نضيف إلى تلك الصور الوضيئة صورة حذيفة عائدا من استطلاع خبر الأحزاب وقد أحذره القر الشديد ورسول الله - ﷺ - قائم يصلي في ثوب لإحدى أزواجه. فإذا هو في صلاته واتصاله بربه، لا يترك حذيفة يرتعش حتى ينتهي من صلاته بل يأخذه - صلوات الله وسلامه عليه - بين رجليه، ويلقي عليه طرف الثوب ليدفئه في حنو. ويمضي في صلاته. حتى ينتهي، فينبئه حذيفة النبأ، ويلقي إليه بالبشرى التي عرفها قلبه - ﷺ - فبعث حذيفة يبصر أخبارها! أما أخبار شجاعته - ﷺ - في الهول، وثباته ويقينه، فهي بارزة في القصة كلها، ولا حاجة بنا إلى نقلها، فهي مستفيضة معروفة. وصدق الله العظيم: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» ٣٠٧..

وقال تعالى: { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَخَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) } [المتحنة]

أفلا تأسى هؤلاء الذين يؤادون الكافرين بأبيهم إبراهيم، وأصحابه المؤمنين، حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله: إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ، وَجَحَدْنَا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَأَنْكَرْنَا عِبَادَتَكُمْ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ حِجَارَةٍ وَأَوْثَانٍ وَأَصْنَامٍ، وَقَدْ أَعْلَنَّا الْحَرْبَ عَلَيْكُمْ، فَلَا هَوَادَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، وَسَنَبْقَى عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَتُوحِّدُوهُ، وَتَعْبُدُوهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا صَاحِبَةَ وَلَا وَلَدَ، وَتَتَخَلَّصُوا مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ. وَلَكُمْ فِي أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ

٣٠٦ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٣٦١/ ٦] (١٨٦٩٤) ١٨٨٩٨ ضعيف - زيادة مني

قال السندي: قوله: لا تأخذ فيها المعاول، أي: لا تعمل فيها ولا تؤثر، والمعاول جمع مغول، بكسر الميم، وهو الفأس. = فشكوا، من الشكاية، والضمير للمؤمنين.

٣٠٧ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٦٠٦)

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ تَتَّأَسُّونَ بِهَا، وَتَعْتَبِرُونَ بِهَا فِي مَسَلِكِكُمْ وَعِبَادَتِكُمْ، وَلَا تَسْتَشْنُوا مِنْ تَصَرُّفَاتِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي تَقْتَدُونَ بِهَا إِلَّا اسْتَعْفَارُهُ لِأَيِّهِ الَّذِي بَقِيَ مُقِيمًا عَلَى الْكُفْرِ، فَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيِّهِ: إِنَّهُ سَيَسْتَغْفِرُ لَهُ اللَّهُ، وَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ، فَلَا مَرْمَزُودٌ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَ. وَلَكِنْ هَذَا الْقَوْلُ صَدَرَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ حِينَما وَعَدَهُ أَبُوهُ بِأَنَّهُ سَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَيَتَّبِعُهُ فِيمَا يَعْبُدُ. فَلَمَّا تَبَيَّنَ إِبْرَاهِيمُ أَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ. وَحِينَما فَارَقَ إِبْرَاهِيمُ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ قَوْمَهُمْ لَجُؤًا إِلَى اللَّهِ مُتَضَرِّعِينَ قَائِلِينَ: رَبَّنَا إِنَّا اعْتَمَدْنَا عَلَيْكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا (تَوَكَّلْنَا)، وَرَجَعْنَا إِلَيْكَ بِالتَّوْبَةِ مِنْ ذُنُوبِنَا، وَإِلَيْكَ مَصِيرُنَا حِينَ تَبْعُنَا مِنْ قُبُورِنَا لِلْعَرْضِ وَالْحِسَابِ. فَاقْتَدُوا بِهِمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَقُولُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ .. رَبَّنَا وَلَا تُسَلِّطْ قَوْمَنَا الْكَافِرِينَ عَلَيْنَا، وَلَا تَجْعَلْهُمْ يَظْهَرُونَ عَلَيْنَا، فَيَعْمَلُوا عَلَى فِتْنَتِنَا عَنْ دِينِنَا بِالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ. وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا ظَهَرُوا عَلَيْنَا لِأَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ فِيمَا يَقُولُونَ، وَفِيمَا يَعْبُدُونَ، رَبَّنَا وَاسْتُرْ ذُنُوبَنَا عَنْ غَيْرِكَ، وَاعْفُ عَنَّا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، إِنَّكَ يَا رَبُّ أَنْتَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يَضَامُ، الْحَكِيمُ فِيمَا تَشْرَعُ، وَفِيمَا تَقْضِي.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ قُدْوَةٌ حَسَنَةٌ، وَأُسْوَةٌ تَتَّأَسُّونَ بِهَا، لِمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَطْمَعُ فِي الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ مِنَ اللَّهِ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ. وَمَنْ يُعْرِضُ عَمَّا دَعَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَبِمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَسْتَكْبِرُ وَيُؤَالِ أَعْدَاءَ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ بِذَلِكَ إِلَّا نَفْسَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْهُ وَعَنْ إِيْمَانِهِ وَعَنْ طَاعَتِهِ، مَحْمُودٌ بِأَنْعَمِهِ وَأَفْضَالِهِ عَلَى خَلْقِهِ. ٣٠٨

وينظر المسلم فإذا له نسب عريق، وماض طويل، وأسوة ممتدة على آمار الزمان. وإذا هو راجع إلى إبراهيم، لا في عقيدته فحسب، بل في تجاربه التي عاناها كذلك. فيشعر أن له رصيذا من التجارب أكبر من رصيده الشخصي وأكبر من رصيده جيله الذي يعيش فيه. إن هذه القافلة الممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله، الواقفين تحت راية الله، قد مرت بمثل ما يمر به، وقد انتهت في تجربتها إلى قرار اتخذته. فليس الأمر جديدا ولا مبتدعا ولا تكليفا يشق على المؤمنين .. ثم إن له لأمة طويلة عريضة يلتقي معها في العقيدة ويرجع إليها، إذا أنبتت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته. فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال .. الشجرة التي غرسها أول المسلمين .. إبراهيم .. مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التي يعانها المسلمون المهاجرون. وفيهم أسوة حسنة: «إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَفَرْنَا بِكُمْ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ» ..

فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعبادتهم. وهو الكفر بهم والإيمان بالله. وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده. وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئا من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان. وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها المؤمن في أي جيل. وفي قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين. ولقد كان بعض المسلمين يجد في استغفار إبراهيم لأبيه - وهو مشرك - ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوي قرباهم من المشركين. فجاء القرآن لشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم في قوله لأبيه: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ».. فلقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك. قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقعه: «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ».. كما جاء في سورة أخرى.

ويثبت هنا أن إبراهيم فوض الأمر كله لله، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال: «وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ. رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ».. وهذا التسليم المطلق لله، هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم يبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين. كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه، وإبراز ما في ثناياه من ملامح وسمات وتوجيهات على طريقة القرآن الكريم^{٣٠٩}.

ويستطرد لهذا في إثبات بقية دعاء إبراهيم ونجواه لمولاه: «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا».. فلا تسلطهم علينا. فيكون في ذلك فتنة لهم، إذ يقولون: لو كان الإيمان يحمي أهله ما سلطنا عليهم وقهرناهم! وهي الشبهة التي كثيرا ما تحيك في الصدور، حين يتمكن الباطل من الحق، ويتسلط الطغاة على أهل الإيمان - لحكمة يعلمها الله - في فترة من الفترات. والمؤمن يصبر للابتلاء، ولكن هذا لا يمنعه أن يدعو الله ألا يصيبه البلاء الذي يجعله فتنة وشبهة تحيك في الصدور. وبقية الدعاء: «وَاغْفِرْ لَنَا».. يقولها إبراهيم خليل الرحمن. إدراكا منه لمستوى العبادة التي يستحقها منه ربه، وعجزه ببشريته عن بلوغ المستوي الذي يكافئ به نعم الله وآلاءه، ويمجد جلاله وكبريائه فيطلب المغفرة من ربه، ليكون في شعوره وفي طلبه أسوة لمن معه ولمن يأتي بعده.

ويختتم دعاءه وإنابته واستغفاره يصف ربه بصفته المناسبة لهذا الدعاء: «رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».. العزيز: القادر على الفعل، الحكيم: فيما يمضي من تدبير.

وفي نهاية هذا العرض لموقف إبراهيم والذين معه، وفي استسلام إبراهيم وإنابته يعود فيقرر الأسوة ويكررها مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ. وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ»..

^{٣٠٩} - يراجع فصل: القصة في القرآن في كتاب: التصوير الفني في القرآن «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

فالأُسوة في إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. هؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التي عاناها هذا الرهط الكريم، ويجدون فيها أسوة تتبع، وسابقة تهدي. فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أسوة.. وهو تلميح موح للحاضرين من المؤمنين.

فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج. من يريد أن يجيد عن طريق القافلة. من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق. فما بالله من حاجة إليه - سبحانه - «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» ..

وتنتهي الجولة وقد عاد المؤمنون أدراجهم إلى أوائل تاريخهم المديد، ورجعوا بذكرياتهم إلى نشأتهم في الأرض وعرفوا تجاربهم المذخورة لهم في الأجيال المتطاولة، ورأوا القرار الذي انتهى إليه من مروا بهذه التجربة ووجدوها طريقا معبدة من قبل ليسوا هم أول السالكين فيها.

والقرآن الكريم يؤكد هذا التصور ويكرره ليتصل ركب المؤمنين، فلا يشعر بالغربة أو الوحشة سالك - ولو كان وحده في جيل!

ولا يجد مشقة في تكليف فحضر به السالكون معه في الطريق! ٣١٠

٤٠ - عدم التطلع إلى أية لعاعة من لعاعات الدنيا

وذلك لأنها تفقد دورهم الحقيقي في هذه الأرض المهم مرضاة الله تعالى ليس إلا، عَنْ عَامِرٍ، قَالَ: انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ عَمُّهُ إِلَى السَّبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ عِنْدَ الْعُقْبَةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَقَالَ: "لَيْتَكُمْ مُتَكَلِّمُكُمْ، وَلَا يُطِيلُ الْخُطْبَةَ، فَإِنَّ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَيْنًا، وَإِنْ يَعْلَمُوا بِكُمْ يَفْضَحُوكُمْ". فَقَالَ قَائِلُهُمْ وَهُوَ أَبُو أُمَامَةَ: سَلْ يَا مُحَمَّدُ لِرَبِّكَ مَا شِئْتَ، ثُمَّ سَلْ لِنَفْسِكَ وَلِأَصْحَابِكَ مَا شِئْتَ، ثُمَّ أَخْبَرْنَا مَا لَنَا مِنَ الثَّوَابِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَيْكُمْ إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ؟ قَالَ: فَقَالَ: "أَسْأَلُكُمْ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَسْأَلُكُمْ لِنَفْسِي وَلِأَصْحَابِي أَنْ تُؤْوُوا نَا وَتَنْصُرُونَا وَتَمْنَعُونَا مِمَّا مَنَعْتُمْ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ" قَالُوا: فَمَا لَنَا إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ؟ قَالَ: "لَكُمْ الْجَنَّةُ" قَالُوا: فَلَكَ ذَلِكَ " مسند أحمد ٣١١

إنه يعدهم هنا شيئا واحدا. هو «ما عند الله». فهذا هو الأصل في هذه الدعوة. وهذه هي نقطة الانطلاق في هذه العقيدة: التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية، ومن كل مطمع - حتى رغبة المؤمن في غلبة عقيدته وانتصار كلمة الله وقهر أعداء الله - حتى هذه الرغبة يريد الله أن يتجرد منها المؤمنون، ويكلوا أمرها إليه، وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه شهوة لها ولو كانت لا تخصها! هذه

٣١٠ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٢٤)

٣١١ - مسند أحمد ط الرسالة (٣٠٩ / ٢٨) (١٧٠٧٨) صحيح مرسل

العقيدة: عطاء ووفاء وأداء.. فقط. وبلا مقابل من أعراض هذه الأرض، وبلا مقابل كذلك من نصر وغلبة وتمكين واستعلاء.. ثم انتظار كل شيء هناك! ثم يقع النصر، ويقع التمكين، ويقع الاستعلاء.. ولكن هذا ليس داخلا في البيعة. ليس جزءا من الصفقة.

ليس في الصفقة مقابل في هذه الدنيا. وليس فيها إلا الأداء والوفاء والعطاء.. والابتلاء.. على هذا كانت البيعة والدعوة مطاردة في مكة وعلى هذا كان البيع والشراء. ولم يمنح الله المسلمين النصر والتمكين والاستعلاء ولم يسلمهم مقاليد الأرض وقيادة البشرية، إلا حين تجردوا هذا التجرد، ووفوا هذا الوفاء:

عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: لَمَّا جَاءَتِ الْأَنْصَارُ وَعَدَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ الْعَقَبَةَ ، فَأَتَاهُمْ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ تَكَلَّمُوا وَأَوْجِزُوا فَإِنَّ عَلَيْنَا عَيْوَنًا " فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اشْتَرِطُ لِرَبِّكَ وَاشْتَرِطُ لِنَفْسِكَ وَاشْتَرِطُ لِأَصْحَابِكَ ، فَقَالَ ﷺ: " اشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَلِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ ، وَلِأَصْحَابِي الْمُسَاوَاةَ فِي ذَاتِ أَيْدِيكُمْ " ثُمَّ حَطَبَ حُطْبَةً لَمْ يَخْطُبِ الْمُرْدُ وَلَا الشَّيْبُ حُطْبَةً مِثْلَهَا قَالَ: فَمَا لَنَا قَالَ: " الْجَنَّةُ " قَالَ: ابْسُطْ يَدَكَ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعُكَ . ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: فَقَالَ يَعْنِي أَبَا أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ، إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَإِنْ إِخْرَاجُهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعْصَكُمْ السُّيُوفُ ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَيْهَا إِذَا مَسَّتْكُمْ وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَمُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ ، وَإِمَّا أَنْتُمْ تَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ فَهُوَ أَعْدَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، فَقَالُوا يَا أَسْعَدُ أَمْطَ عَنْكَ يَدَكَ فَوَاللَّهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا ، قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشَرِّطِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ . " ٣١٢

هكذا.. «الجنة».. والجنة فقط! لم يقل: النصر والعز والوحدة والقوة. والتمكين. والقيادة. والمال. والرخاء - مما منحهم الله وأجراه على أيديهم - فذلك كله خارج عن الصفقة! وهكذا.. ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل.. لقد أخذوها صفقة بين متبايعين أنهى أمرها، وأمضى عقدها. ولم تعد هناك مساومة حولها! وهكذا ربي الله الجماعة التي قدر أن يضع في يدها مقاليد الأرض، وزمام القيادة، وسلمها الأمانة الكبرى بعد أن تجردت من كل أطماعها، وكل رغباتها، وكل شهواتها، حتى ما يختص منها بالدعوة التي تحملها، والمنهج الذي تحققه، والعقيدة التي تموت من أحلها. فما يصلح لحمل هذه الأمانة الكبرى من بقي له أرب لنفسه في نفسه، أو بقيت فيه بقية لم تدخل في السلم كافة ٣١٣.

٣١٢ - أخبار مكة للفاكهي - (٤ / ٢٣٢) (٢٥٤٠) صحيح لغيره

٣١٣ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٨٦٨)

لقد كان القرآن ينشئ قلوبا يعدها لحمل الأمانة. وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع - وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء - إلى شيء في هذه الأرض. ولا تنتظر إلا الآخرة. ولا ترجو إلا رضوان الله. قلوبا مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال، بلا جزاء في هذه الأرض قريب. ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين!

حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل. وأن تنتظر الآخرة وحدها موعدا للجزاء. وموعدا كذلك للفصل بين الحق والباطل.. حتى إذا وجدت هذه القلوب، وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت، آتاها النصر في الأرض، واثمنها عليه. لا لنفسها. ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة، مذ كانت لم توعده بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه. وقد تجردت لله حقا يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه!

وكل الآيات التي ورد فيها ذكر للنصر في الدنيا جاءت في المدينة. بعد ذلك. وبعد أن أصبح هذا الأمر خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه. وجاء النصر ذاته لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإنسانية تقرر في صورة عملية محددة، تراها الأجيال. فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام. إنما كان قدرا من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن!^{٣١٤}

٤١ - أن يكون القتال في سبيل الله وإنقاذ المستضعفين ليس إلا

قال تعالى: { فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) } [النساء]

فليقاتل في سبيل الله من أراد أن يبيع الحياة الدنيا، ويبدلها، ويجعلها ثمنًا للآخرة، لأنه يكون قد أعز دين الله، وجعل كلمة الله هي العليا. ومن يقاتل في سبيل الله فيظفر به عدوه ويقتله، أو يظفر هو بعدوه، فإن الله سيؤتيه أجرا عظيما من عنده.

^{٣١٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٧٩)

(وفي هذه الآية إشارة إلى أن همّ المقاتل المسلم يجب أن يكون الظفر أو الشهادة في سبيل الله، وعليه أن لا يفكر في الهرب والتجاة بالنفس، فالهرب لا يُنجي من قدر الله، وفيه غضب الله وسخطه) ..

يُحَرِّضُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، وَفِي سَبِيلِ إِنْقَازِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَوْجُودِينَ فِي مَكَّةَ، مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، الْمُتَبَرِّمِينَ بِالْمَقَامِ فِيهَا، وَيَقُولُ لَهُمْ: أَيُّ عُذْرٍ لَكُمْ يَمْنَعُكُمْ مِنْ أَنْ تُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِتُقِيمُوا التَّوْحِيدَ، وَتَنْصُرُوا الْعَدْلَ وَالْحَقَّ، وَفِي سَبِيلِ إِنْقَازِ إِخْوَانِكُمُ الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ يَسْتَذِلُّهُمْ الطَّغَاةُ الْكَافِرَةُ فِي مَكَّةَ، وَهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْبَلَدَةِ (الْقُرْيَةِ) الظَّالِمِ أَهْلِهَا، وَأَنْ يُسَخِّرَ لَهُمْ مِنْ عِنْدِهِ مَنْ يَنْصُرُهُمْ، وَيُنْقِذَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ .

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَنَشْرِ دِينِهِ، لَا يَبْتَغُونَ غَيْرَ رِضْوَانِ اللَّهِ . أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا، فَإِنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ (الطَّاغُوتِ)، الَّذِينَ يُزَيِّنُ لَهُمُ الْكُفْرَ، وَيُمْنِيهِمُ التَّصَرُّ . وَكَيْدُ الشَّيْطَانِ ضَعِيفٌ، وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ نَصْرَ أَوْلِيَائِهِ . أَمَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فَهُمْ الْأَعَزَّةُ، لِأَنَّ اللَّهَ حَامِيَهُمْ وَنَاصِرُهُمْ وَمُعِزُّهُمْ، وَلِذَلِكَ فَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، أَنْ لَا يَخَافُوا أَعْدَاءَهُمُ الْكُفَّارَ، لِأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ

٣١٥ .

فليقاتل في سبيل الله - فالإسلام لا يعرف قتالا إلا في هذا السبيل. لا يعرف القتال للغنيمة ولا يعرف القتال للسيطرة. ولا يعرف القتال للمجد الشخصي أو القومي! إنه لا يقاتل للاستيلاء على الأرض ولا للاستيلاء على السكان .. لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات، والأسواق للمنتجات أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات! إنه لا يقاتل لمجد شخص. ولا لمجد بيت. ولا لمجد طبقة. ولا لمجد دولة، ولا لمجد أمة، ولا لمجد جنس. إنما يقاتل في سبيل الله. لإعلاء كلمة الله في الأرض. ولتمكين منهجه من تصريف الحياة. ولتمتع البشرية بخيرات هذا المنهج، وعدله المطلق «بين الناس» مع ترك كل فرد حرا في اختيار العقيدة التي يقتنع بها .. في ظل هذا المنهج الرباني الإنساني العالمي العام ..

وحين يخرج المسلم ليقاتل في سبيل الله، بقصد إعلاء كلمة الله، وتمكين منهجه في الحياة. ثم يقتل .. يكون شهيدا. وينال مقام الشهداء عند الله .. وحين يخرج لأي هدف آخر - غير هذا الهدف - لا يسمى «شهيدا» ولا ينتظر أجره عند الله، بل عند صاحب الهدف الآخر الذي خرج له .. والذين يصفونه حينئذ بأنه «شهيد» يفترون على الله الكذب ويزكون أنفسهم أو غيرهم بغير ما يزكي به الله الناس. افتراء على الله! فليقاتل في سبيل الله - بهذا التحديد .. من يريدون أن يبيعوا الدنيا ليشترروا بها الآخرة. ولهم - حينئذ - فضل من الله عظيم في كلتا الحالتين: سواء من يقتل في سبيل الله ومن

٣١٥ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٦٧، بترقيم الشاملة آليا)

يغلب في سبيل الله أيضا: «وَمَنْ يُقَاتِلْ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ - فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ، فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا»

..

بهذه اللمسة يتجه المنهج القرآني إلى رفع هذه النفوس وإلى تعليقها بالرجاء في فضل الله العظيم، في كلتا الحالتين. وأن يهون عليها ما تخشاه من القتل، وما ترجوه من الغنيمة كذلك! فالحياة أو الغنيمة لا تساوي شيئا إلى جانب الفضل العظيم من الله. كما يتجه إلى تنفيرها من الصفقة الخاسرة إذا هي اشترت الدنيا بالآخرة ولم تشتت الآخرة بالدنيا (ولفظ يشري من ألفاظ الضد فهي غالبا بمعنى يبيع) فهي خاسرة سواء غنموا أو لم يغنموا في معارك الأرض. وأين الدنيا من الآخرة؟ وأين غنيمة المال من فضل الله؟ وهو يحتوي المال - فيما يحتويه - ويحتوي سواه؟^{٣١٦}

وقال تعالى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِذَا أَحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢)} [التوبة: ٥١، ٥٢]

قُلْ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا يُصِيبُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَصَائِبِ، وَتَسُوؤُهُمُ النِّعْمَةُ الَّتِي تُصِيبُ الْمُسْلِمِينَ: نَحْنُ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَمَا قَدَرُهُ لَنَا سَيِّئَاتِنَا، وَلَيْسَ لَهُ مَانِعٌ وَلَا دَافِعٌ. وَنَحْنُ مُتَوَكِّلُونَ عَلَى اللَّهِ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَلَا نَيَّاسُ عِنْدَ الشَّدَّةِ، وَلَا نَبْطَرُ عِنْدَ النِّعْمَةِ. وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ: هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا، وَتَنْتَظِرُونَ أَنْ يَقَعَ لَنَا، إِلَّا وَاحِدَةً مِنْ اثْنَتَيْنِ: وَكِلْتَاهُمَا خَيْرٌ لَنَا وَفِيهِمَا حَسَنَةٌ: شَهَادَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ظَفَرٌ. أَمَّا نَحْنُ فَإِنَّا نَنْتَظِرُ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ عَذَابُ اللَّهِ، أَوْ أَنْ يُسَلِّطَنَا عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ فَنُذِيقَكُمْ بِأَسْنَا.^{٣١٧}

فماذا يترصد المنافقون بالمؤمنين؟ إنما الحسنى على كل حال. النصر الذي تعلو به كلمة الله، فهو جزاؤهم في هذه الأرض، أو الشهادة في سبيل الحق عليا الدرجات عند الله. وماذا يترصد المؤمنون بالمنافقين؟ إنه عذاب الله يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين أو يبطل المؤمنين بهم كما وقع من قبل للمشركين.. «فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ» والعاقبة معروفة.. والعاقبة للمؤمنين^{٣١٨}.. أي إن الذي تنتظرونه فينا لا يخرج عن أمرين، كلاهما نعمة عندنا، ورحمة من الله ورضوان.. إما أن نظفر ونغنم، وإما أن نستشهد في سبيل الله، وننال رضوانه، وننزل منازل الشهداء عنده..

^{٣١٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٠٥٧)

^{٣١٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٨٧، بترقيم الشاملة آليا)

^{٣١٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٢٧٦)

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِهِ، وَتَصَدِّقُ كَلِمَتَهُ، بَأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ». ٣١٩

أما المسلمون فإنهم ينتظرون في المنافقين العذاب الذي لا بد أنه واقع بهم، إما على أيدي المسلمين في هذه الدنيا بأن يقتلوههم، ويستولوا على أموالهم وديارهم، وإما أن يموتوا على ما هم عليه من نفاق، فيلقاهم الله بالعذاب الأليم الذي أعدّه لهم.. «وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا.. فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ» ٣٢٠ .

٤٢ - عدم الخوف إلا من الله وحده مهما بلغت الشدائد

قال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥) } [آل عمران]

خافت قريش أن يجمع رسول الله ﷺ أهل المدينة ممن لم يشتركوا في المعركة، ويخرج وراءهم، فأرسلوا إليه بعض ناقلي الأخبار ليُهوّلوا عليه، ليكفّ عن اللّحاق بهم، وقال ناقلوا الأخبار للمسلمين: إن مشركي قريش (الناس) قد حشدوا لكم، وجمعوا قواهم، فاحذروهم، واخشوهم، فلم يزد هذا القول هؤلاء المؤمنين - الذين استجابوا للرسول من بعد ما أصابهم القرعُ وخرجوا مع رسول الله ﷺ مُلبّين دعوته، راغبين في نيل رضوان ربهم ونصره - إلا إيماناً برّبهم، وثقةً بوعدِهِ ونصرِهِ وأجرِهِ، وردّوا على مخاطبيهم قائلين: إنهم يتوكلون على الله، وهو حسبيهم. فلما توكلوا على الله كفاهم الله ما أهمهم وأغهمهم، وردّ عنهم بأس الناس (الكافرين)، فرجعوا بنعمة من الله لم يمسسهم سُوءٌ، وقد فازوا برضوان الله، وعظيم فضله، والله واسع الفضل (خرج المسلمون مع الرسول إلى موقع يُعرف بحمراء الأسد، وأرسل إلى المشركين رسلاً يُحذروهم، فخافت قريش وتابعت سيرها نحو مكة) .

وكان أبو سفيان قد واعد رسول الله ﷺ بذرّاً من العام القابل، فخرج رسول الله ﷺ بالمسلمين إلى بذرٍ في الموعد المحدد، وتخلّفت قريش، فاشتري رسول الله ﷺ غيراً مرّت بهم في الموسم، ثم باعها

٣١٩ - صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٦) - ١٠٤ (١٨٧٦)

[ش (وتصديق كلمته) أي كلمة الشهادتين وقيل تصديق كلام الله تعالى في الإخبار بما للمجاهد من عظيم ثوابه]

٣٢٠ - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧٩٤)

فريح، ووزع الرّيح على أصحابه، فأنقلبوا من غزوة بدر الثانية لم يمسسهم سوء، ونالوا رضوان الله، وحصلوا على فضله في الرّيح. والله عظيم الفضل على عباده .

يُبين الله تعالى للمؤمنين، أنّ الشيطان هو الذي يخوفكم من أوليائه المشركين، ويوهمكم أنّهم ذوو بأس وقوة، وهو الذي قال لكم إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فلا تخافوا أولياء الشيطان، وتوكلوا على الله، والجهنم إليه إنّ كنتم مؤمنين حقاً، فإنّه كافٍكم إياهم، وناصركم عليهم. وخافوه هو فهو القادر على النصر وعلى الخذلان، وعلى الضر والنفع^{٣٢١}.

إنهم أولئك الذين دعاهم الرسول - ﷺ - إلى الخروج معه كره أخرى غداة المعركة المريعة.

وهم متخنون بالجراح. وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس في المعركة. وهم لم ينسوا بعد هول الدعكة، ومرارة الهزيمة، وشدة الكرب. وقد فقدوا من أعزائهم من فقدوا، فقل عددهم، فوق ما هم متخنون بالجراح! ولكن رسول الله - ﷺ - دعاهم. ودعاهم وحدهم. ولم يأذن لأحد تخلف عن الغزوة أن يخرج معهم - ليقويهم ويكثر عددهم كما كان يمكن أن يقال! - فاستجابوا.. استجابوا لدعوة الرسول - ﷺ - وهي دعوة الله - كما يقرر السياق وكما هي في حقيقتها وفي مفهومهم كذلك - فاستجابوا بهذا لله والرسول «مَنْ بَعْدَ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ»، ونزل بهم الضر، وأتختتهم الجراح.

لقد دعاهم رسول الله - ﷺ - ودعاهم وحدهم. وكانت هذه الدعوة وما تلاها من استجابة تحمل إيجاعات شتى، وتومئ إلى حقائق كبرى، نشير إلى شيء منها:

فلعل رسول الله - ﷺ - شاء ألا يكون آخر ما تنضم عليه جوائح المسلمين ومشاعرهم، هو شعور الهزيمة، وآلام البرح والقرح فاستنهضهم لمتابعة قريش، وتعبها، كي يقر في أخلادهم أنها تجربة وابتلاء، وليست نهاية المطاف. وأنهم بعد ذلك أقوياء، وأن خصومهم المنتصرين ضعفاء، إنما هي واحدة وتمضي، ولهم الكرة عليهم، متى نفضوا عنهم الضعف والفشل، واستجابوا لدعوة الله والرسول.

ولعل رسول الله - ﷺ - شاء في الجانب الآخر ألا تمضي قريش، وفي جوانحها ومشاعرها أخيلة النصر ومذاقاته. فمضى خلف قريش بالبقية ممن حضروا المعركة أمس يشعر قريشا أنها لم تنل من المسلمين منالاً. وأنه بقي لها منهم من يتعقبها ويكر عليها ..

وقد تحققت هذه وتلك كما ذكرت روايات السيرة.

ولعل رسول الله - ﷺ - شاء أن يشعر المسلمين، وأن يشعر الدنيا كلها من ورائهم، بقيام هذه الحقيقة الجديدة التي وجدت في هذه الأرض .. حقيقة أن هناك عقيدة هي كل شيء في نفوس أصحابها.

^{٣٢١} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٦٦، بترقيم الشاملة آليا)

ليس لهم من أرب في الدنيا غيرها، وليس لهم من غاية في حياتهم سواها. عقيدة يعيشون لها وحدها، فلا يبقى لهم في أنفسهم شيء بعدها، ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية في أنفسهم لا ييذلونها لها، ولا يقدمونها فداها ..

لقد كان هذا أمرا جديدا في هذه الأرض في ذلك الحين. ولم يكن بد أن تشعر الأرض كلها - بعد أن يشعر المؤمنون - بقيام هذا الأمر الجديد، وبوجود هذه الحقيقة الكبيرة.

ولم يكن أقوى في التعبير عن ميلاد هذه الحقيقة من خروج هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع. ومن خروجهم بهذه الصورة الناصعة الرائعة الهائلة: صورة التوكل على الله وحده وعدم المبالاة بمقالة الناس وتخويفهم لهم من جمع قريش لهم - كما أبلغهم رسل أبي سفيان - وكما هوّل المنافقون في أمر قريش وهو ما لا بد أن يفعلوا - : «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمُ الْوَكِيلُ» ..

هذه الصورة الرائعة الهائلة كانت إعلانا قويا عن ميلاد هذه الحقيقة الكبيرة. وكان هذا بعض ما تشير إليه الخطة النبوية الحكيمة ..

وتحدثنا بعض روايات السيرة عن صور من ذلك القرع ومن تلك الاستجابة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَارِجَةَ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ أَبِي السَّائِبِ مَوْلَى عَائِشَةَ بِنْتِ عُثْمَانَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، كَانَ شَهِدَ أُحُدًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ شَهِدْتُ أُحُدًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَأَخِي لِي، فَرَجَعْنَا جَرِيحِينَ فَلَمَّا أَدْنَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ قُلْتُ لِأَخِي أَوْ قَالَ لِي: أَتَفُوتُنَا غَزْوَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ وَاللَّهِ مَا لَنَا مِنْ دَابَّةٍ نَرْكَبُهَا، وَمَا مِنَّا إِلَّا جَرِيحٌ ثَقِيلٌ فَخَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكُنْتُ أَيْسَرَ جُرْحًا، فَكَانَ إِذَا غُلِبَ حَمَلَتْهُ عُقْبَةٌ وَمَشَى عُقْبَةً حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى مَا انْتَهَى إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَهَى إِلَى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ الْمَدِينَةِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فِيمَا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَأَقَامَ بِهَا الثَّانِيْنَ وَالثَّلَاثَاءَ وَالْأَرْبَعَاءَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ .

قَالَ وَقَدْ مَرَّ بِهِ كَمَا حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، مَعْبُدُ بْنُ أَبِي مَعْبُدِ الْخَزَاعِيِّ، وَكَانَتْ خَزَاعَةٌ، مُسْلِمُهُمْ وَمُشْرِكُهُمْ عَيْبَةٌ نَصَحَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِتِهَامَةٍ صَفَقَتْهُمْ مَعَهُ لَا يُخْفُونَ عَنْهُ شَيْئًا كَانَ بِهَا، وَمَعْبُدٌ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ عَزَّ عَلَيْنَا مَا أَصَابَكَ، وَلَوْ دِدْنَا أَنَّ اللَّهَ عَافَاكَ فِيهِمْ ثُمَّ خَرَجَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَمْرَاءِ الْأَسَدِ حَتَّى لَقِيَ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ بِالرُّوحَاءِ وَقَدْ أَجْمَعُوا الرِّجْعَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَقَالُوا: أَصَبْنَا حَدَّ أَصْحَابِهِ وَأَشْرَافِهِمْ وَقَادَتْهُمْ ثُمَّ نَرَجِعُ قَبْلَ أَنْ نَسْتَأْصِلَهُمْ لَنَكُرَنَّ عَلَى بَقِيَّتِهِمْ فَلَنَفْرُغَنَّ مِنْهُمْ . فَلَمَّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ مَعْبُدًا، قَالَ مَا وَرَاءَكَ يَا مَعْبُدُ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ قَدْ خَرَجَ فِي أَصْحَابِهِ يَطْلُبُكُمْ فِي جَمْعٍ لَمْ أَرِ مِثْلَهُ قَطُّ، يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ تَحَرَّقًا، قَدْ

اجْتَمَعَ مَعَهُ مَنْ كَانَ تَخَلَّفَ عَنْهُ فِي يَوْمِكُمْ وَنَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا، فِيهِمْ مِنْ الْحَقِّ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ لَمْ أَرِ
مِثْلَهُ قَطُّ ؛ قَالَ وَيَحْكُ مَا تَقُولُ ؟ قَالَ وَاللَّهِ مَا أَرَى أَنْ تَرْتَحِلَ حَتَّى أَرَى نَوَاصِيَ الْخَيْلِ قَالَ فَوَاللَّهِ
لَقَدْ أَجْمَعْنَا الْكِرَّةَ عَلَيْهِمْ لِنَسْتَأْصِلَ بَقِيَّتَهُمْ قَالَ فَإِنِّي أَنُهَاكَ عَنْ ذَلِكَ قَالَ وَاللَّهِ لَقَدْ حَمَلَنِي مَا رَأَيْتُ
عَلَى أَنْ قُلْتُ فِيهِمْ أَيْبَاءًا مِنْ شَعْرِ قَالَ وَمَا قُلْتُ ؟ قَالَ قُلْتُ: [ص ١٠٣]

كَادَتْ تُهَدِّدُ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي ... إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ
تُرْدِي بِأَسَدٍ كَرَامٍ لَا تَنَابِلَةَ ... عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٍ مَعَارِيزِ
فَظَلْتُ عَدُوًّا أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً ... لَمَّا سَمَوُا بِرَيْسٍ غَيْرٍ مَخْذُولِ
فَقُلْتُ: وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ ... إِذَا تَغَطَّمْتَ الْبُطْحَاءُ بِالْجِيلِ
إِنِّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ الْبَسَلِ ضَاحِيَةٌ ... لِكُلِّ ذِي إِرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولِ
مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لَا وَخَشٍ تَنَابِلَةَ ... وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أُنْذَرْتُ بِالْقِيلِ
فَنَنَى ذَلِكَ أَبَا سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ .

وَمَرَّ بِهِ رَكْبٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ، فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُونَ ؟ قَالُوا: تُرِيدُ الْمَدِينَةَ ؟ قَالَ وَلِمَ ؟ قَالُوا: تُرِيدُ الْمِيرَةَ
قَالَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُبْلَغُونَ عَنِّي مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ أُرْسِلُكُمْ بِهَا إِلَيْهِ وَأُحْمِلَ لَكُمْ هَذِهِ غَدًا زَبِيًّا بَعُكَازٍ إِذَا
وَأَفْتَيْتُمُوهَا ؟ قَالُوا نَعَمْ ؟ قَالَ فَإِذَا وَافَيْتُمُوهُ فَأَخْبِرُوهُ أَنَا قَدْ أَجْمَعْنَا السَّيْرَ إِلَيْهِ وَإِلَى أَصْحَابِهِ لِنَسْتَأْصِلَ
بَقِيَّتَهُمْ فَمَرَّ الرُّكْبُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِحِمْرَاءِ الْأَسَدِ فَأَخْبَرُوهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ حَسْبُنَا اللَّهُ
وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ لَمَّا انْصَرَفَ يَوْمَ أُحُدٍ، أَرَادَ الرَّجُوعَ إِلَى
الْمَدِينَةِ، لِيَسْتَأْصِلَ بِقِيَّةِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ خَلْفٍ: لَا تَفْعَلُوا، فَإِنَّ الْقَوْمَ
قَدْ حَرَبُوا، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ قِتَالٌ غَيْرُ الَّذِي كَانَ فَارْجِعُوا، فَرَجَعُوا . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ
بِحِمْرَاءِ الْأَسَدِ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّهُمْ هَمُّوا بِالرَّجْعَةِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سُوِّمَتْ لَهُمْ حِجَارَةٌ لَوْ صُبَّحُوا
بِهَا لَكَأَنُوا كَأَمْسِ الذَّاهِبِ " ٣٢٢ .

وهكذا تتضافر مثل هذه الصور الرفيعة على إعلان ميلاد تلك الحقيقة الكبيرة، في تلك النفوس
الكبيرة.

النفوس التي لا تعرف إلا الله وكيلا، وترضى به وحده وتكتفي، وترداد إيماننا به في ساعة الشدة، وتقول
في مواجهة تخويف الناس لهم بالناس: «حَسْبُنَا اللَّهُ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» ..

ثم تكون العاقبة كما هو المنتظر من وعد الله للمتوكلين عليه، المكتفين به، المتجردين له: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا كُنْتُمْ تُكَفِّرُونَ بِهِ»..
مِنْ اللَّهِ وَفَضِّلْ لَمْ يَسْأَلْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ». فأصابوا النجاة - لم يمسسهم سوء - ونالوا
رضوان الله. وعادوا بالنجاة والرضى. «بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ»..

فهنا يرددهم إلى السبب الأولى في العطاء: نعمة الله وفضله على من يشاء. ومع التنويه بموقفهم
الرائع، فإنه يرد الأمر إلى نعمة الله وفضله، لأن هذا هو الأصل الكبير، الذي يرجع إليه كل فضل، وما
موقفهم ذاك إلا طرف من هذا الفضل الجزيل! «وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ»..

بهذا يسجل الله لهم في كتابه الخالد، وفي كلامه الذي تتجاوب به جوانب الكون كله، صورهم
هذه، وموقفهم هذا، وهي صورة رفيعة، وهو موقف كريم.

وينظر الإنسان في هذه الصورة وفي هذا الموقف، فيحس كأن كيانه الجماعة كله قد تبدل ما بين يوم
وليلة. نضجت. وتناسقت. واطمأنت إلى الأرض التي تقف عليها. وانجلي الغبش عن تصورها. وأخذت
الأمر جدا كله. وخلصت من تلك الأرجحة والقلقلة، التي حدثت بالأمس فقط في التصورات
والصفوف. فما كانت سوى ليلة واحدة هي التي تفرق بين موقف الجماعة اليوم وموقفها بالأمس
.. والفارق هائل والمسافة بعيدة ..

لقد فعلت التجربة المريعة فعلها في النفوس وقد هزتها الحادثة هزا عنيفا. أطار الغبش، وأيقظ
القلوب، وثبت الأقدام، وملا النفوس بالعزم والتصميم .. نعم. وكان فضل الله عظيما في الابتلاء المرير
..

وأخيرا يختتم هذه الفقرة بالكشف عن علة الخوف والفرع والجزع .. إنه الشيطان يحاول أن يجعل
أوليائه مصدر خوف ورعب، وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة .. ومن ثم ينبغي أن يفطن المؤمنون إلى
مكر الشيطان، وأن يبطلوا محاولته. فلا يخافوا أوليائه هؤلاء، ولا يخشوهم. بل يخافوا الله وحده. فهو
وحده القوي القاهر القادر، الذي ينبغي أن يخاف: «إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ
وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

إن الشيطان هو الذي يضخم من شأن أوليائه، ويلبسهم لباس القوة والقدرة، ويوقع في القلوب أنهم
ذوو حول وطول، وأنهم يملكون النفع والضرر .. ذلك ليقضي بهم لباناته وأغراضه، وليحقق بهم الشر في
الأرض والفساد، وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب، فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار ولا
يفكر أحد في الانتفاض عليهم، ودفعهم عن الشر والفساد.

والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل، وأن يتضخم الشر، وأن يتبدى قويا قادرا قاهرا بطاشا
جبارا، لا تقف في وجهه معارضة، ولا يصمد له مدافع، ولا يغلبه من المعارضين غالب .. الشيطان
صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا. فتحت ستار الخوف والرهبنة، وفي ظل الإرهاب
والبطش، يفعل أوليائه في الأرض ما يقر عينه! يقلبون المعروف منكرا، والمنكر معروفا، وينشرون الفساد

والباطل والضلال، ويخفتون صوت الحق والرشد والعدل، ويقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشر وتقتل الخير.. دون أن يجرؤ أحد على مناهضتهم والوقوف في وجههم، ومطاردتهم وطردهم من مقام القيادة.. بل دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذي يروجون له، وجلاء الحق الذي يطمسونه.. والشيطان ماكر خادع غادر، يختفي وراء أوليائه، وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته.. ومن هنا يكشفه الله، ويوقفه عاريا لا يستر ثوب من كيده ومكره. ويعرف المؤمنون الحقيقة:

حقيقة مكره ووسوسته، ليكونوا منها على حذر. فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم. فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه، ويستند إلى قوته.. إن القوة الوحيدة التي تخشى وتخاف هي القوة التي تملك النفع والضرر. هي قوة الله. وهي القوة التي يخشاها المؤمنون بالله، وهم حين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء. فلا تقف لهم قوة في الأرض.. لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان: «فَلا تَخَافُوهُمْ. وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».. ٣٢٣.

٤٣ - يقيئهم - مهما كانوا ضعفاء - أنهم على الحق وعدوهم على الباطل :

قال تعالى: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ يَكُونُ لَهُمْ جَهَنَّمُ ذَاتَ الْبَابِ وَإِلَى جَهَنَّمَ يَكُونُونَ فِيهَا مُدْخِلِينَ) (آل عمران: ١٢) قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْكَافِرِينَ - وَهُمْ هُنَا الْيَهُودُ - :إِنَّهُمْ سَيُعْلَبُونَ فِي الدُّنْيَا وَيُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُسَاقُونَ إِلَى جَهَنَّمَ، لَتَكُونَ لَهُمْ مَهْدًا وَفِرَاشًا، وَيَبْسُ الْمَهْدُ وَالْفِرَاشُ. (هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي يَهُودِ بَنِي قَيْنِقَاعَ. فَبَعْدَ أَنْ نَصَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ بَدْرٍ، جَمَعَ الرَّسُولُ ﷺ يَهُودَ الْمَدِينَةِ، وَقَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِمَا أَصَابَ بِهِ قُرَيْشًا. فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ لَا يُعْرَتُكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنْتَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ وَاللَّهِ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنْتَ لَمْ تَلَقْ مِثْلَنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ وَالَّتِي بَعْدَهَا، وَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ وَعْدَهُ فَقَتَلَ الْمُسْلِمُونَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَأَجْلَوْا بَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي قَيْنِقَاعَ، وَفُتِحُوا خَيْبَرَ.) ٣٢٤.

في سكرة السلطان، يفقد كثير من الناس صوابهم، ويضل عنهم رشدهم، فتتمر بهم العير وهم عنها غافلون.. وفيما ذكر الله سبحانه - مما أخذ به الطغاة والظلمة، ما فيه عبرة ومزدجر للطغاة والظلمة، من كفار مكة.. ولكنهم في سكرتهم يعمهون. وإنه لكي تنقطع أعدارهم ولا يكون لهم على الله حجة، فقد أمر الله نبيه عليه السلام، أن يلقاها صراحة بهذا النذير، وأن يقرع آذانهم بما ينتظرهم من مصير

٣٢٣ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٨٣١)

٣٢٤ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٠٦، بترقيم الشاملة آليا)

مشئوم، إن هم ظلّوا على ما هم عليه من عمى وضلال.. «سَتُعْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ» فلا حظّ لهم في الدنيا ولا في الآخرة.. إذ لا يعصمهم سلطانهم، ولا تمنعهم كثرتهم وقوتهم، من أن يلقوا الهزيمة في هذه الدنيا على يد هؤلاء الذين استضعفوه واستبدّوا بهم، وهذا من أنباء الغيب التي حملها القرآن عزاء وبشرى للمؤمنين، إذ تلقّوا هذا الوعد الصادق الذي لا يخلف أبداً، فهوّن عليهم البلاء الذي هم فيه، وربط على قلوبهم بالصبر، انتظارا ليوم النصر، وقد جاء تأويل هذا في تلك الخاتمة التي ختمت بها حياة الكفر والكافرين، يوم فتح مكة، يوم جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

هذا ما كان ينتظر الكافرين في الدنيا، التي ظنوا أنهم بمسكون منها بالسبب القويّ الذي لا ينقطع.. أما في الآخرة فالأمر أدهى وأمرّ.. حيث تنتظرهم جهنم بسعيرها المتسعر، وعذابها الأليم.. «وَبِئْسَ الْمِهَادُ»
٣٢٥.

وما يزال القرآن يعمل بحقيقته الكبيرة. وبما يتضمنه من مثل هذه الحقيقة.. إن وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله، قائم في كل لحظة. ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة - ولو قل عددها - قائم كذلك في كل لحظة. وتوقف النصر على تأييد الله الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ، وسنة ماضية لم تتوقف.

وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة وتتق في ذلك الوعد وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة وتصبر حتى يأذن الله ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيّب في علم الله، المدبر بحكمته، المؤجل لموعده الذي يحقق هذه الحكمة.

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ».. ولا بد من بصر ينظر وبصيرة تدبر، لتبرز العبرة، وتعيها القلوب. وإلا فالعبرة تمر في كل لحظة في الليل والنهار! ٣٢٦.

وقال تعالى: { لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) } [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]

لا تنظر إلى ما أترّف فيه هؤلاء الكفار من النعمة والغبطة والشُّرور. ولا تعجب من تصرّفهم في الأسفار للتجارة والتكسب ثم عودتهم سالمين إلى أهلبيهم وديارهم. فإنه متاع قليل زائل، يتمتعون به في الحياة الدنيا، ثم يكون مصيرهم إلى جهنم وبئس المصير والمهد ٣٢٧.

٣٢٥ - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٤١٠)

٣٢٦ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٦٣٦)

٣٢٧ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٨٩، بترقيم الشاملة آليا)

في هذه المناجاة التي كانت تسبح فيها أرواح المؤمنين في رحاب الله، وترفّ بها على مشارف الملائ الأعلى، يؤدّن فيهم بالعودة إلى عالمهم الذي يعيشون فيه، العالم الأرضي، إذ كان لا بدّ من العودة بعد هذه الرحلة المسعدة في عالم الروح، والحق، والنور، لأن الحياة تدعوهم إليها، ليكونوا مع الناس، وليعيشوا في الناس! ومع ما معهم من زاد طيب تزودوا به في تلك الرحلة المسعدة، فإن ما على الأرض من مفسد وشور، وما في الناس من مفسدين وأشرار، جدير به أن يغتال هذا الزاد الطيب، وأن يحرم أصحابه منه إذا لم يحذروا.

ولهذا فقد تلقّاهم الله سبحانه وتعالى بتلك اللفتة الكريمة - تلقّاهم وهم يهبطون إلى هذا العالم الأرضي، ليأخذوا حذرهم من العدو الراصد لهم بما في يديه من مفاتن ومفاسد، وليظلوا هكذا محتفظين بما وقع لأيديهم من خير، في تطوافهم بالعالم العلوي، وسبحهم فيه..

وكان قوله تعالى مخاطبا نبيّه الكريم: «لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ» هو اليد القويّة الرّحيمة، التي تمسك على المؤمنين إيمانهم، وتثبت على طريق الحق والخير خطوهم، فلا يغريهم ما يغدو فيه الكافرون وما يرووحون، من متاع الحياة وزخرفها، وما يحصلون فيها من مال، وما يقع لأيديهم من جاه وسلطان، فذلك كله «مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ».

وفي خطاب النبيّ الكريم بهذا النهي ومواجهته بالتحذير مما فيه.. ما يلقي إلى المؤمنين أن يكونوا على حذر دائم، وإشفاق متصل.. إذ كان النبيّ الكريم، وهو ما هو في صلته بربه وخشيته منه، وفي رعاية الله له، وعصمته من الزلل - يواجه بهذا التحذير، ويلفت إلى مراقبة نفسه، وحراستها، فإن غير النبيّ من المؤمنين أولى بأن يحذر ويخشى العدو المتربص به، إن أراد النجاة والسلامة.^{٣٢٨}

وتقلب الذين كفروا في البلاد، مظهر من مظاهر النعمة والوجدان، ومن مظاهر المكانة والسلطان، وهو مظهر يحيك في القلوب منه شيء لا محالة. يحيك منه شيء في قلوب المؤمنين وهم يعانون الشظف والحرمان، ويعانون الأذى والجهد، ويعانون المطاردة أو الجهاد.. وكلها مشقات وأهوال، بينما أصحاب الباطل ينعمون ويستمتعون!.. ويحيك منه شيء في قلوب الجماهير الغافلة، وهي ترى الحق وأهله يعانون هذا العناء، والباطل وأهله في منجاة، بل في مسلاة! ويحيك منه شيء في قلوب الضالين المبطلين أنفسهم فيزيدهم ضلالا وبطرا ولجاجة في الشر والفساد.

هنا تأتي هذه اللمسة: «لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ». متاع قليل.. ينتهي ويذهب.. أما المأوى الدائم الخالد، فهو جهنم.. وبئس المهاد!^{٣٢٩}.

^{٣٢٨} - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٧٥)

^{٣٢٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٨٦٧)

٤٤ - كون الأمة في مستوى النصر بإمكاناتها بقدراتها بعزائنها ونياتها:

من أهم أسباب النصر التي ينبغي أن يعرفها المؤمنون حتى لا يصابوا بشيء من الإحباط: كون الأمة في مستوى النصر بإمكاناتها بقدراتها بعزائنها ونياتها ، كيف ذلك؟
الأمة- أحياناً- قد تحارب ولكنها لا تكون في مستوى النصر، فيؤخر الله النصر قليلاً حتى يرتفع مستوى هذه الأمة وتصبح قادرة على تحمل أعباء النصر الذي سيمنحه الله إياها إذا جاء وقته، يقول الله سبحانه: { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } [سورة الحج] من هم يا رب؟
{ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } [سورة الحج] . { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ } إذن: ها هنا نيات وعزائم في القلوب لا يطلع عليها إلا علام الغيوب .

{ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ } هذا مستقبل { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ } ربما يوجد من الدعاة من لو مُكن في الأرض لترك بعض أمور الدعوة، وما أقام الصلاة وما أتى الزكاة، أو ربما يقوم بالصلاة ويؤدي الزكاة، ولكنه لا يقوم تمام القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ربما يتنازل بعض المحسوبين على الدعوة عن بعض الأمور الهامة، ربما يتحالف مع الشيوعيين، ربما يتحالف مع علمانيين من أجل مكاسب.. هذا لا يستحق النصر.

أيضاً: تكون الأمة في مستوى النصر بالإمكانات بالقدرات، فيكون لديها من يستطيعون إدارة البلدان المسلمة لو تيسر لها النصر، أو إدارة العالم لو تمكنت من فتح العالم كله، فإذا أصبحت الأمة في هذا المستوى، وتوفرت لها بقية الأسباب؛ فإن الله جل وعلا يمنحها النصر أمراً مؤكداً لا شك فيه ولا ريب

٣٣٠ .

٤٥ - عدم الاكتراث بالذين لا يوقنون:

قال تعالى: { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفِّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ } (٦٠) سورة الروم
فاصبر يا محمد على هؤلاء المشركين، ولا تلتفت إلى تكذيبهم ومكابرتهم، وبلغهم رسالة ربهم، فإنه وعدك النصر والظفر، وسيُنجز لك وعده، ولا يَحْمِلَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ (لا يُوقِنُونَ) على الخفة والانعغال، فيصرفوك بذلك عما أمرك به ربك من إبلاغ رسالاته إلى الناس .^{٣٣١}

٣٣٠ - أسباب الانتصار في التاريخ الإسلامي - د . بشر بن فهد البشر

٣٣١ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٣٥٠، بترقيم الشاملة آيا)

بهذه الآية تحتّم السورة الكريمة، وهي تحمل إلى النبي الكريم دعوة من الله سبحانه وتعالى إلى الصبر على ما يلقي من قومه من مكاره، مستعينا على الصبر، واحتمال المكروه، بما وعده ربه من نصر لدين الله الذي يدعو إليه، ومن تمكن له وللمؤمنين معه في هذه الدنيا، ومغفرة من الله ورضوان في الآخرة، هذا، إلى ما يلقي هؤلاء المشركون الضالون من خزي وخذلان في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة.

وفي قوله تعالى: «وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْفِقُونَ» - إشارة لافتة إلى ما قد يرد على النبي - صلوات الله وسلامه عليه - من تلك الخواطر التي تساور بعض النفوس، من المؤمنين الذين اشتدت عليهم وطأة البلاء، وطال بهم الانتظار لملاقاة ما وعدهم الله من نصر، ففي ساعات الضيق والعسرة، قد يتسرب إلى بعض المؤمنين شيء من القلق، وربما شيء من الشك والريب، ذلك أن للنفس البشرية حدا من الاحتمال والصبر على المكاره، إذا بلغت زايلتها القدرة على الاحتمال، وأدّتها الصبر بالرحيل، وعندئذ تنحلّ العزيمة، ويضعف اليقين، وتبرد حرارة الإيمان، وفي هذا يقول الله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟» (٢١٤: البقرة) . فهذه حال تعرض المؤمنين، ولن يعصم منها إلا التحصن بالإيمان، واللياذ باليقين الذي يدفع كل شك في قدرة الله، وفي تحقيق ما وعد المؤمنين به، من نصر، وعافية مما هم فيه من بلاء.

فقوله تعالى: «وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْفِقُونَ» دعوة للمؤمنين أن يوثقوا بإيمانهم بالله، وأن يمتحنوا هذا الإيمان على محك الشدائد والحن، فعلى هذا المحك يظهر معدن الإيمان، وتعرف حقيقته..

والاستخفاف: أصله من الخفة، والمراد به التحول من حال إلى حال، والانتقال من وضع إلى وضع، عند كل خاطرة، ولأية مسة.. فإن الخفيف من الشيء، هدف سهل لكل عارض يعرض له، ويريد زحزحته عن موضعه الذي هو عليه..

والآية، إذ تدعو المؤمنين إلى أن يكونوا من الموقنين بالله، والمستيقنين بنصره، فإنها تدعو النبي إلى أن يثبت في موقفه من الإيمان بربه، والثقة فيما وعده به، حتى ترتدّ عنه العوارض التي تعرض له داخل نفسه أو خارجها، حين تجده جبلا راسخا، لا تصادف أية خفة في أي جانب منه.. وقد كان صلوات الله وسلامه عليه على هذا اليقين الذي تزول الجبال ولا يزول.. حتى ليقول لعمه أبي طالب، وقد جاء يدعو إلى مهادنة قومه، على أن يحتكم بما شاء فيهم، من مال أو سلطان، قال ابن إسحاق: وَحَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ عُثْبَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ الْأَخْنَسِ أَنَّهُ حَدَّثَ: أَنَّ قُرَيْشًا حِينَ قَالُوا لِلْأَبِيِّ طَالِبِ هَذِهِ الْمَقَالَةَ، بَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَاءُونِي، فَقَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا، لِلَّذِي كَانُوا قَالُوا لَهُ، فَأَبْقَى عَلَيَّ وَعَلَى نَفْسِكَ، وَلَا تُحْمِلْنِي مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا أَطِيقُ، قَالَ: فَظَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَدْ بَدَأَ لِعَمِّهِ فِيهِ بَدَأٌ أَنَّهُ خَاذِلُهُ وَمُسْلِمُهُ، وَأَنَّهُ قَدْ ضَعُفَ عَنْ نُصْرَتِهِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا

عَمُّ، وَاللَّهُ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَثْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ، أَوْ أَهْلَكَ فِيهِ، مَا تَرَكْتُهُ. قَالَ: ثُمَّ اسْتَعْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبَكَى ثُمَّ قَامَ، فَلَمَّا وَلَّى نَادَاهُ أَبُو طَالِبٍ، فَقَالَ: أَقْبِلْ يَا بَنَ أَخِي، قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَذْهَبَ يَا بَنَ أَخِي، فَقُلْ مَا أَحْبَبْتَ، فَوَاللَّهِ لَا أُسْلِمُكَ لَشَيْءٍ أَبَدًا.. ٣٣٢

إنه الصبر وسيلة المؤمنين في الطريق الطويل الشائك الذي قد يبدو أحيانا بلا نهاية! والثقة بوعده الله الحق، والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حيرة ولا شكوك.. الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين، ومن تكذيبهم للحق وشكهم في وعد الله. ذلك أنهم محجوبون عن العلم محرومون من أسباب اليقين. فأما المؤمنون الواصلون الممسكون بحبل الله فطريقهم هو طريق الصبر والثقة واليقين. مهما يطل هذا الطريق، ومهما تحتجب نهايته وراء الضباب والغيوم! وهكذا تحتّم السورة التي بدأت بوعده الله في نصر الروم بعد بضع سنين، ونصر المؤمنين. تحتّم بالصبر حتى يأتي وعد الله والصبر كذلك على محاولات الاستخفاف والزعزعة من الذين لا يوقنون. فيتناسق البدء والختام. وتنتهي السورة وفي القلب منها إيقاع التثبيت القوي بالوعد الصادق الذي لا يكذب، واليقين الثابت الذي لا يخون.. ٣٣٣

٤٦ - وجوب الصبر والمصابرة والمراعاة والتقوى

قال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران: ٢٠٠)

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ لَهُمْ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، فَلَا يَدْعُوهُ لَشِدَّةٍ وَلَا لِرَخَاءٍ، حَتَّى يُمُوتُوا مُسْلِمِينَ. وَالْمُرَابِطَةُ هِيَ الْمُرَابِطَةُ فِي الثُّغُورِ لِلْغَزْوِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا" ٣٣٤.

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، قَالَ كَتَبَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، يَذْكُرُ لَهُ جُمُوعًا مِنَ الرُّومِ وَمَا يَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: "أَمَّا بَعْدُ. فَإِنَّهُ مَهْمَا يَنْزِلُ بِعَبْدٍ مُؤْمِنٍ مِنْ مُنْزَلٍ

٣٣٢ - سيرة ابن هشام ت السقا (١/ ٢٦٦) صحيح مرسل، التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٥٤٩)

شري: زاد واشتد = تذا مروا: تعيظوا وحض بعضهم بعضا عليه.

٣٣٣ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٥٣١)

٣٣٤ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٩٣، بترقيم الشاملة آليا)

شِدَّةٍ، يَجْعَلِ اللَّهُ بَعْدَهُ فَرَجًا. وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ. وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠] ٣٣٥

وهكذا روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك من طريق محمد بن إبراهيم ابن أبي سكينه قال: أُملى عليَّ عبد الله بن المبارك هذه الآيات بطرسوس وودعته للخروج وأنشدها معي إلى الفضيل بن عياض في سنة سبعين ومائة وفي رواية سنة سبع وسبعين ومائة.

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا... لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه... فحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبرنا... رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبار خيل الله في... أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا... ليس الشهيد بميت لا يكذب

فَلَقِيتُ الْفُضَيْلَ بَكْتَابِهِ فِي الْحَرَمِ، فَقَرَأَهُ، وَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَنَصَحَ. ٣٣٦

وفي مسند أبي عوانة عن سلمان الفارسي، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «رَبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَفِيَّامِهِ، وَإِنْ مَاتَ مُرَابِطًا جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَنَ» ٣٣٧.

والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة. إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك، مفروش بالدماء والأشلاء، وبالإيذاء والابتلاء.. الصبر على أشياء كثيرة: الصبر على شهوات النفس ورغائبها، وأطماعها ومطامعها، وضعفها ونقصها، وعجلتها وملاها من قريب! والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصرفهم، وانحراف طباعهم، وأثرهم، وغرورهم، والتوائهم، واستعجالهم للثمار! والصبر على تنفج الباطل، ووقاحة الطغيان، وانتفاش الشر، وغلبة الشهوة، وتصعير الغرور والخيلاء!

والصبر على قلة الناصر، وضعف المعين، وطول الطريق، ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق! والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله، وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة. من الألم والغضب، والحقد، والضيق، وضعف الثقة أحيانا في الخير، وقلة الرجاء أحيانا في الفطرة البشرية والمملل والسأم واليأس أحيانا والقنوط!

٣٣٥ - موطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٤٤٦) (٦) صحيح مرسل

٣٣٦ - سير أعلام النبلاء ط الحديث (٧/ ٣٨٦)

٣٣٧ - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٤٩٧) (٧٤٦٨)

والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر، وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام، وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء! والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله، واستسلام لقدره، ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع ..

والصبر على هذا كله - وعلى مثله - مما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل .. لا تصوره حقيقة الكلمات.

فالكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة. إنما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق وتذوقها انفعالات وتجارب ومرارات!

والذين آمنوا كانوا قد ذاقوا جوانب كثيرة من ذلك المدلول الحقيقي. فكانوا أعرف بمذاق هذا النداء. كانوا يعرفون معنى الصبر الذي يطلب الله إليهم أن يزاووه ..

والمصابرة .. وهي مفاعلة من الصبر .. مصابرة هذه المشاعر كلها، ومصابرة الأعداء الذين يحاولون جاهدين أن يفلقوا من صبر المؤمنين .. مصابرتها ومصابرتهم، فلا ينفد صبر المؤمنين على طول المجاهدة.

بل يظلون أصبر من أعدائهم وأقوى: أعدائهم من كوامن الصدور، وأعدائهم من شرار الناس سواء.

فكأنما هو رهان وسباق بينهم وبين أعدائهم، يدعون فيه إلى مقابلة الصبر بالصبر، والدفع بالدفع، والجهد بالجهد، والإصرار بالإصرار .. ثم تكون لهم عاقبة الشوط بأن يكونوا أثبت وأصبر من الأعداء. وإذا

كان الباطل يصبر ويصبر ويمضي في الطريق، فما أجدد الحق أن يكون أشد إصراراً وأعظم صبراً على المضي في الطريق! والمرابطة .. الإقامة في مواقع الجهاد، وفي الثغور المعرضة لهجوم الأعداء .. وقد كانت

الجماعة المسلمة لا تغفل عيونها أبداً، ولا تستسلم للرقاد! فما هادئها أعداؤها قط، منذ أن نوديت لحمل أعباء الدعوة، والتعرض بها للناس. وما يهادئها أعداؤها قط في أي زمان أو في أي مكان وما تستغني

عن المrabطة للجهاد، حيثما كانت إلى آخر الزمان! إن هذه الدعوة تواجه الناس بمنهج حياة واقعي. منهج يتحكم في ضمائرهم، كما يتحكم في أموالهم، كما يتحكم في نظام حياتهم

ومعايشهم. منهج خير عادل مستقيم. ولكن الشر لا يستريح للمنهج الخير العادل المستقيم والباطل لا يحب الخير والعدل والاستقامة والطغيان لا يسلم للعدل والمساواة والكرامة .. ومن ثم ينهد لهذه الدعوة

أعداء من أصحاب الشر والباطل والطغيان. ينهد لحرها المستنفعون المستغلون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الاستنفاع والاستغلال. وينهد لحرها الطغاة المستكبرون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن

الطغيان والاستكبار. وينهد لحرها المستهترون المنحلون، لأنهم لا يريدون أن يتخلوا عن الانحلال والشهوات .. ولا بد من مجاهدتهم جميعاً. ولا بد من الصبر والمصابرة. ولا بد من المrabطة والحراسة. كي

لا تؤخذ الأمة المسلمة على غرة من أعدائها الطبيعيين، الدائمين في كل أرض وفي كل جيل ..

هذه طبيعة هذه الدعوة، وهذا طريقها .. إنها لا تريد أن تعتدي ولكن تريد أن تقيم في الأرض منهجها القويم ونظامها السليم .. وهي واجدة أبدا من يكره ذلك المنهج وهذا النظام. ومن يقف في طريقها بالقوة والكيد. ومن يتربص بها الدوائر. ومن يحاربها باليد والقلب واللسان .. ولا بد لها أن تقبل المعركة بكل تكاليفها، ولا بد لها أن ترابط وتحرس ولا تغفل لحظة ولا تنام!!
والتقوى .. التقوى تصاحب هذا كله. فهي الحارس اليقظ في الضمير يحرسه أن يغفل ويحرسه أن يضعف ويحرسه أن يعتدي ويحرسه أن يحميد عن الطريق من هنا ومن هناك.
ولا يدرك الحاجة إلى هذا الحارس اليقظ، إلا من يعاني مشاق هذا الطريق ويعالج الانفعالات المتناقضة المتكاثرة المتواكبة في شتى الحالات وشتى اللحظات ..
إنه الإيقاع الأخير في السورة التي حوت ذلك الحشد من الإيقاعات. وهو جماعها كلها، وجماع التكاليف التي تفرضها هذه الدعوة في عمومها .. ومن ثم يعلق الله بها عاقبة الشوط الطويل وينوط بها الفلاح في هذا المضمار: «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». وصدق الله العظيم .. ٣٣٨.

٤٧ - وجوب الاستعانة بالصبر والصلاة

قال تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) (البقرة: ٤٥)
ويأمر الله تعالى عباده بالاستعانة على أداء التكاليف، وما فرضه عليهم، بالصبر على الفرائض، وضبط النفس عن المعاصي، وبالصلاة، لعلهم يفلحون ما يؤملون من خير الدنيا والآخرة. ويُنَبِّههم الله تعالى إلى أن القيام بهذه الوصية التي يطلب من الناس الأخذ بها من صبر وصلاة ... أمر شاق ثقيل على النفوس، إلا النفوس المؤمنة الخاشعة المستكنة لطاعة الله، المتذلة من مخافته ٣٣٩.
يتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيرا ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات والذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب، بمجدة القوى، يقظة للمداخل والمخارج ..

ولا بد من الصبر في هذا كله .. لا بد من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، والصبر على جهاد المشايق لله، والصبر على الكيد بشتى صنوفه، والصبر على بقاء النصر، والصبر على بعد الشقة، والصبر

٣٣٨ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٨٧٠)

٣٣٩ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٢، بترقيم الشاملة آليا)

على انتفاش الباطل، والصبر على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس، وضلال القلوب، وثقله العناد، ومضاضة الإعراض ..

وحين يطول الأمد، ويشق الجهد، قد يضعف الصبر، أو ينفد، إذا لم يكن هناك زاد ومدد. ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر فهي المعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد. المعين الذي يجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع. ثم يضيف إلى الصبر، الرضى والبشاشة، والطمأنينة، والثقة، واليقين.

إنه لا بد للإنسان الفاني الضعيف المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى، يستمد منها العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة. حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة. حينما تثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد وهي عنيفة. حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة في عمره المحدود، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئاً وقد أوشك المغيب، ولم ينل شيئاً وشمس العمر تميل للغروب. حينما يجد الشر نافثاً والخير ضاويًا، ولا شعاع في الأفق ولا معلم في الطريق ..

هنا تبدو قيمة الصلاة .. إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني والقوة الباقية. إنها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذي لا يغيض. إنها مفتاح الكثر الذي يغني ويقني ويفيض. إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير. إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود .. ومن هنا كان رسول الله - ﷺ - إذا كان في الشدة قال: «أرحنا بها يا بلال» فعن عبد الله بن محمد بن الحنفية قال: دخلت مع أبي علي صهر لنا من الأنصار، فحضرت الصلاة، فقال: يا جاري، اتنني بوضوء لعلني أتوضأ فأستريح، فرأنا أنكرونا ذلك، أو فكأنه رأنا أنكرونا ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "فم يا بلال فأرحنا بالصلاة" ٣٤٠

وعن عبد الله بن محمد بن الحنفية، قال: انطلقت مع أبي إلى صهر لنا من أصحاب النبي ﷺ، فسمعتة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أرحنا بها يا بلال الصلاة»، قال: قلت: أسمعته ذا من رسول الله ﷺ؟ فعضب وأقبل على القوم يحدثهم: أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً إلى حي من العرب، فلما أتاهم، قال: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أحكم في نسائكم بما شئتم، فقالوا: سمعنا وطاعة لأمر رسول الله ﷺ، وبعثوا رجلاً إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: إن فلاناً جاءنا، فقال: إن النبي ﷺ أمرني أن

٣٤٠ - شرح مشكل الآثار - (١٤ / ١٦٧) (٥٥٤٩) صحيح

قال الطحاوي: "فإن أنكر هذا الحديث منكراً، وقال: كيف تقبلون على رسول الله ﷺ أمره بأن يراح من الصلاة؟، فكان جوابنا له في ذلك: أنه ليس في الحديث أن رسول الله ﷺ أمر أن يراح من الصلاة، ولو كان الحديث كذلك، لأنكرناه كما أنكروه، ولكن الذي في الحديث إنما هو أمره ﷺ بلالاً أن يريحه بالصلاة من غيرها إذ كانت الصلاة هي قوة عينه، فأمر أن يراح بها مما سواها مما ليس منزله كمنزلة، وهذا كلام صحيح معقول، والله أعلم بمراده ﷺ بذلك، ما هو مما يشبه ما كان عليه في أمور الله عز وجل وفي أداء فرائضه، وفي التمسك بها، وفي غلبتها على قلبه، وفي أن لا شيء عنده مثلها، وبالله التوفيق" شرح مشكل الآثار [١٤ / ١٦٧]

أَحْكَمَ فِي نِسَائِكُمْ بِمَا شِئْتُ، فَإِنْ كَانَ أَمْرُكَ فَسَمْعًا وَطَاعَةً، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَأَحْبَبْنَا أَنْ نَعْلَمَكَ، فَعَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَبَعَثَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَقَالَ: اذْهَبْ إِلَى فُلَانٍ فَاقْتُلْهُ وَأَحْرِقْهُ بِالنَّارِ، فَاَنْتَهَى إِلَيْهِ وَقَدْ مَاتَ وَقَبِرَ، فَأَمَرَ بِهِ فَنَبِشَ، ثُمَّ أَحْرِقْهُ بِالنَّارِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: تَرَانِي كَذَبْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذَا؟ ٣٤١

وَعَنْ سَلْمَانَ بْنِ خَالِدٍ، أَرَاهُ مِنْ خُرَاعَةَ، قَالَ: صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا" ٣٤٢. . ويكثر من الصلاة إذا حزبه أمر ليكثر من اللقاء بالله، فعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ - إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى ٣٤٣

إن هذا المنهج الإسلامي منهج عبادة. والعبادة فيه ذات أسرار. ومن أسرارها أنها زاد الطريق. وأنها مدد الروح. وأنها جلاء القلب. وأنه حيثما كان تكليف كانت العبادة هي مفتاح القلب لتذوق هذا التكليف في حلاوة وبشاشة ويسر. . إن الله سبحانه حينما انتدب محمداً - ﷺ - للدور الكبير الشاق الثقيل، قال له: «يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا. نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا. . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا» . فكان الإعداد للقول الثقيل، والتكليف الشاق، والدور العظيم هو قيام الليل وترتيل القرآن. . إنها العبادة التي تفتح القلب، وتوثق الصلة، وتيسر الأمر، وتشرق بالنور، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان. ومن ثم يوجه الله المؤمنين هنا وهم على أبواب المشقات العظام. . إلى الصبر وإلى الصلاة. .

ثم يحییء التعقيب بعد هذا التوجيه: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» . معهم، يؤيدهم، ويثبتهم، ويقويههم، ويؤنسهم، ولا يدعهم يقطعون الطريق وحدهم، ولا يتركهم لطاقاتهم المحدودة، وقوتهم الضعيفة، إنما يمددهم حين ينفذ زادهم، ويجدد عزيمتهم حين تطول بهم الطريق. .

وهو يناديهم في أول الآية ذلك النداء الحبيب: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» . ويختتم النداء بذلك التشجيع العجيب: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» .

والأحاديث في الصبر كثيرة نذكر بعضها لمناسبتها للسياق القرآني هنا في إعداد الجماعة المسلمة لحمل عبثها والقيام بدورها:

٣٤١ - المعجم الكبير للطبراني [٩٥/ ٦] (٦٠٩١) فيه ضعف

٣٤٢ - المعجم الكبير للطبراني [٩٥/ ٦] (٦٠٩٠) صحيح - وهذه الأحاديث مفصلة مني لأن السيد رحمه الله ذكره مختصراً

٣٤٣ - سنن أبي داود - المكثر - (١٣٢١) صحيح

عَنْ حَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ « كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمَنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّأَكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ » ٣٤٤ ...

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَذَمُّوهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ٣٤٥ .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " إِنَّ الْمُسْلِمَ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ " ٣٤٦

٤٨ - تعمل الأذى الشديد في سبيل الله تعالى وعدم الوهن في طلب الكفار

قال تعالى: (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكتفوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً) (النساء: ١٠٤)

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْجِدِّ فِي قِتَالِ الْأَعْدَاءِ، وَفِي طَلِبِهِمْ وَتُبَّهِهِمْ إِلَى أَنَّهُمْ إِنْ كَانَتْ تُصِيبُهُمْ جِرَاحٌ، وَيَأْلَمُونَ مِنْهَا، فَإِنَّ أَعْدَاءَهُمْ تُصِيبُهُمْ أَيْضاً جِرَاحٌ، وَيَأْلَمُونَ مِنْهَا . وَالْفَارِقُ الْوَحِيدُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْتَظِرُ مِنَ اللَّهِ الْمُثُوبَةَ وَالْأَجْرَ، وَالنَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ، وَإِعْلَاءَ كَلِمَةِ اللَّهِ، الَّتِي وَعَدَهُ اللَّهُ بِهَا عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ، فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَالْكَافِرِ لَا يَنْتَظِرُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ فِيمَا يَفْرِضُهُ وَيُقَدِّرُهُ .. ٣٤٧

إنهن كلمات معدودات. يضعن الخطوط الحاسمة، ويكشفن عن الشقة البعيدة، بين جبهتي الصراع ..

إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح في المعركة .. ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملونه .. إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح والأواء .. ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء .. إن المؤمنين يتوجهون إلى الله بجهادهم، ويرتقبون عنده جزاءهم .. فأما الكفار فهم ضائعون مضيعون، لا يتجهون لله، ولا يرتقبون عنده شيئاً في الحياة ولا بعد الحياة ..

٣٤٤ - صحيح البخارى - المكثر - (٣٦١٢)

٣٤٥ - صحيح البخارى - المكثر - (٣٤٧٧).

٣٤٦ - شعب الإيمان - (١٢ / ٢٠١) (٩٢٧٧) صحيح وفي ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص:

٣٥٢)

٣٤٧ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٩٧، بترقيم الشاملة آليا)

فإذا أصر الكفار على المعركة، فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصراراً، وإذا احتمل الكفار آلامها، فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام. وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال، وتعقب آثارهم، حتى لا تبقى لهم قوة، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله. وإن هذا هو فضل العقيدة في الله في كل كفاح. فهناك اللحظات التي تلعو فيها المشقة على الطاقة، ويربو الألم على الاحتمال. ويحتاج القلب البشري إلى مدد فائض وإلى زاد. هنالك يأتي المدد من هذا المعين، ويأتي الزاد من ذلك الكنف الرحيم.

ولقد كان هذا التوجيه في معركة مكشوفة متكافئة. معركة يألم فيها المتقاتلون من الفريقين. لأن كلا الفريقين يحمل سلاحه ويقاتل. ولربما أتت على العصبية المؤمنة فترة لا تكون فيها في معركة مكشوفة متكافئة.. ولكن القاعدة لا تتغير.

فالباطل لا يكون بعافية أبداً، حتى ولو كان غالباً! إنه يلاقي الآلام من داخله. من تناقضه الداخلي ومن صراع بعضه مع بعض. ومن صراعه هو مع فطرة الأشياء وطبائع الأشياء. وسبيل العصبية المؤمنة حينئذ أن تحتل ولا تنهار. وأن تعلم أنها إن كانت تألم، فإن عدوها كذلك يألم. والألم أنواع. والقرح ألوان.. «وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ».. وهذا هو العزاء العميق. وهذا هو مفرق الطريق.. «وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً».. يعلم كيف تعتلج المشاعر في القلوب. ويصف للنفس ما يطب لها من الألم والقرح..^{٣٤٨}

وقد تكلم الإمام الرازي عن الحكمة في مداولة الأيام بين الناس فقال: وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْمُدَاوَلَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَارَةً يَنْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأُخْرَى يَنْصُرُ الْكَافِرِينَ وَذَلِكَ لِأَنَّ نَصْرَةَ اللَّهِ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ وَإِعْزَازٌ عَظِيمٌ، فَلَا يَلِيقُ بِالْكَافِرِ، بَلِ الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْمُدَاوَلَةِ أَنَّهُ تَارَةً يُشَدِّدُ الْمِحْنَةَ عَلَى الْكُفَّارِ وَأُخْرَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْفَائِدَةُ فِيهِ مِنْ وَجْهِهِ:

الأول: أَنَّهُ تَعَالَى لَوْ شَدَّدَ الْمِحْنَةَ عَلَى الْكُفَّارِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ وَأَزَالَهَا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ لَحَصَلَ الْعِلْمُ الْاضْطِرَّارِيُّ بِأَنَّ الْإِيمَانَ حَقٌّ وَمَا سِوَاهُ بَاطِلٌ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَبَطَلَ التَّكْلِيفُ وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ فَلِهَذَا الْمَعْنَى تَارَةً يُسَلِّطُ اللَّهُ الْمِحْنَةَ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَأُخْرَى عَلَى أَهْلِ الْكُفْرِ لَتَكُونَ الشُّبُهَاتُ بَاقِيَةً وَالْمُكَلَّفُ يَدْفَعُهَا بِوَاسِطَةِ النَّظَرِ فِي الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَى صِحَّةِ الْإِسْلَامِ فَيَعْظُمُ ثَوَابُهُ عِنْدَ اللَّهِ.

^{٣٤٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١١١٢)

وَالثَّانِي: أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ يُقَدِّمُ عَلَى بَعْضِ الْمَعَاصِي، فَيَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ تَشْدِيدُ الْمِحْنَةِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا أَدْبًا لَهُ وَأَمَّا تَشْدِيدُ الْمِحْنَةِ عَلَى الْكَافِرِ فَإِنَّهُ يَكُونُ غَضَبًا مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ.

وَالثَّلَاثُ: وَهُوَ أَنَّ لَذَاتِ الدُّنْيَا وَالْآمَةِا غَيْرُ بَاقِيَةٍ وَأَحْوَالُهَا غَيْرُ مُسْتَمِرَّةٍ، وَإِنَّمَا تَحْصُلُ السَّعَادَاتُ الْمُسْتَمِرَّةُ فِي دَارِ الْآخِرَةِ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ تَعَالَى يُمِيتُ بَعْدَ الْإِحْيَاءِ، وَيُسْقِمُ بَعْدَ الصَّحَّةِ، فَإِذَا حَسَنَ ذَلِكَ فَلَمْ لَا يَحْسُنْ أَنْ يُدِلَّ السَّرَّاءَ بِالضَّرَّاءِ، وَالْقُدْرَةَ بِالْعِزِّ، وَرُؤْيَى أَنْ أَبَا سُفْيَانَ صَعِدَ الْجَبَلَ يَوْمَ أُحُدٍ ثُمَّ قَالَ: أَأَيْنَ ابْنُ أَبِي كَبِشَةَ أَأَيْنَ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ أَأَيْنَ ابْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ عُمَرُ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا أَبُو بَكْرٍ، وَهَذَا أَنَا عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمَ بِيَوْمٍ وَالْأَيَّامُ دَوْلٌ وَالْحَرْبُ سَجَالٌ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا سَوَاءَ، فَتَلَّانَا فِي الْجَنَّةِ وَفَتَلَّكُمْ فِي النَّارِ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ كَمَا تَزْعُمُونَ، فَقَدْ خَبِنَا إِذَنْ وَخَسِرْنَا. ٣٤٩

٤٩ - أن يكون القتال في سبيل الله :

قال تعالى: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } (١٩٠) سورة البقرة

هذه أولُ آيةٍ نزلت في القتال في المدينة. قال بعضُ المفسرين إنَّ رسولَ الله ﷺ لبث بعد هذه الآية يُقاتل من قاتله، ويكفَّ عمن كَفَّ عنه، حتَّى نزلت سورةُ التَّوْبَةِ، وجاء فيها: { فاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ } وهذه الآية نزلت في صلحِ الحُدَيْبِيَّةِ، فقد خاف المسلمون أن لا تفي لهم قُرَيْشٌ بما اتَّفقت عليه مع رسولِ الله ﷺ فتصدَّهم عن المسجد الحرام بالقوَّة وثقاتلهم، وكره المسلمون القتال في الشَّهْرِ الحرام، وفي البلد الحرام .

وفي هذه الآية يأذنُ الله للمؤمنين في قتالِ المُشْرِكِينَ إِعْزَازاً لِلدِّينِ اللَّهِ، وَإِعْلَاءً لِكَلِمَتِهِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِأَلَّا يَعْتَدُوا فِي ذَلِكَ، وَأَنْ لَا يَبْدُوهُمْ بِالْقِتَالِ ٣٥٠.

وفي أول آية من آيات القتال نجد التحديد الحاسم لهدف القتال، والراية التي تخاض تحتها المعركة في وضوح وجلاء: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ»..

إنه القتال لله، لا لأي هدف آخر من الأهداف التي عرفتها البشرية في حروبها الطويلة. القتال في سبيل الله. لا في سبيل الأحماد والاستعلاء في الأرض، ولا في سبيل المغنم والمكاسب ولا في سبيل الأسواق والخامات ولا في سبيل تسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس .. إنما هو القتال لتلك الأهداف المحددة التي من أجلها شرع الجهاد في الإسلام، القتال لإعلاء كلمة الله في الأرض، وإقرار منهجه في

٣٤٩ - تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٩/ ٣٧٢)

٣٥٠ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٩٧، بترقيم الشاملة آليا)

الحياة، وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم، أو أن يجرفهم الضلال والفساد، وما عدا هذه فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام، وليس لمن يخوضها أجر عند الله ولا مقام. ومع تحديد الهدف، تحديد المدى: «وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ».. والعدوان يكون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الآمنين المسلمين الذين لا يشكلون خطرا على الدعوة الإسلامية ولا على الجماعة المسلمة، كالنساء والأطفال والشيوخ والعباد المنقطعين للعبادة من أهل كل ملة ودين.. كما يكون بتجاوز آداب القتال التي شرعها الإسلام، ووضع بها حدا للشناعات التي عرفتها حروب الجاهليات الغابرة والحاضرة على السواء.. تلك الشناعات التي ينفر منها حس الإسلام، وتأبأها تقوى الإسلام.

وهذه طائفة من أحاديث الرسول - ﷺ - ووصايا أصحابه، تكشف عن طبيعة هذه الآداب، التي عرفتها البشرية أول مرة على يد الإسلام:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ وَجَدْتُ امْرَأَةً مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَعَارِى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - ، فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ ٣٥١ .
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ « إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ » . (أخرجه الشيخان) ٣٥٢ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فِي بَعْثٍ فَقَالَ « إِنْ وَجَدْتُمْ فُلَانًا وَفُلَانًا فَأَحْرِقُوهُمَا بِالنَّارِ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - حِينَ أَرَدْنَا الْخُرُوجَ « إِنِّي أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحْرِقُوا فُلَانًا وَفُلَانًا، وَإِنَّ النَّارَ لَا يُعَذَّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ، فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا » ٣٥٣ ..
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنْ أَعَفَّ النَّاسُ قَتْلَهُ أَهْلِ الْإِيمَانِ ٣٥٤ .
وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ يَزِيدَ الْأَنْصَارِيَّ - وَهُوَ جَدُّ أَبُو أُمِّهِ - قَالَ نَهَى النَّبِيُّ - ﷺ - عَنِ التُّهْبِيِّ وَالْمُثَلَّةِ . (أخرجه البخاري) ٣٥٥ .

وَعَنْ عُبَيْدِ بْنِ تَعْلَى، أَنَّهُ قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، فَأَتَنِي بِأَرْبَعَةِ أَعْلَاجٍ مَعَ الْعَدُوِّ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَقَتَلُوا صَبْرًا بِالنَّبْلِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا أَيُّوبَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْهَى عَنْ قَتْلِ

٣٥١ - أخرجه الجماعة المسند الجامع [١٠/ ١٢٢٠] (٨١٢٩) وصحيح البخاري- المكثر [١١/ ٥٦]

٣٥٢ - صحيح البخاري- المكثر [٩/ ٢٩٣] (٢٥٥٩) وأخرجه الجماعة المسند الجامع [١٧/ ١١٦٧] (١٤١٠٠)

٣٥٣ - صحيح البخاري- المكثر [١١/ ٥٨] (٣٠١٦) والمسند الجامع [١٨/ ٨١] (١٤٦٣٣)

٣٥٤ - صحيح ابن حبان- ط ٢ مؤسسة الرسالة [١٣/ ٣٣٥] (٥٩٩٤) صحيح

٣٥٥ - صحيح البخاري- المكثر [٩/ ١٥٦] (٢٤٧٤)

الصَّبْرُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَتْ دَجَاجَةٌ مَا صَبَرْتُهَا فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ خَالِدٍ، فَأَعْتَقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ. (أخرجه أبو داود) ٣٥٦.

عَنْ مُسْلِمِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مُسْلِمِ التَّمِيمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَلَمَّا بَلَغْنَا الْمُغَارَ، اسْتَحْشَتُ فَرَسِي، فَسَبَقْتُ أَصْحَابِي، فَتَلَقَّانِي الْحَيُّ بِالرَّيْنِ، فَقُلْتُ: قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُحَرِّزُوا، فَقَالُوا: فَلَا مَنِي أَصْحَابِي، وَقَالُوا: حُرْمَتَا الْغَنِيمَةِ بَعْدَ أَنْ رُدَّتْ بِأَيْدِينَا، فَلَمَّا قَدَمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَخْبَرُونَهُ بِمَا صَنَعْتُ، فَدَعَانِي، فَحَسَنَ لِي مَا صَنَعْتُ، وَقَالَ: أَمَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ لَكَ بِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ كَذَا وَكَذَا. ٣٥٧.

وعن مُسْلِمِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مُسْلِمِ التَّمِيمِيِّ، أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرْسَلَهُمْ فِي سَرِيَّةٍ، قَالَ فَلَمَّا بَلَغْنَا الْمُغَارَ، اسْتَحْشَتُ فَرَسِي، فَسَبَقْتُ أَصْحَابِي، قَالَ: وَاسْتَقْبَلْنَا الْحَيُّ بِالرَّيْنِ، فَقُلْتُ لَهُمْ: قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُحَرِّزُوا، فَقَالُوا: وَجَاءَ أَصْحَابِي فَلَا مَنِي، وَقَالُوا: حُرْمَتَا الْغَنِيمَةِ بَعْدَ أَنْ بَرَدَتْ فِي أَيْدِينَا، قَالَ: فَلَمَّا قَفَلْنَا، ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَدَعَانِي، فَحَسَنَ مَا صَنَعْتُ، وَقَالَ: "أَمَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ لَكَ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ كَذَا وَكَذَا"، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: إِذَا نَسِيتُ ذَلِكَ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَمَا إِنِّي سَأَكْتُبُ لَكَ كِتَابًا وَأُوصِي بِكَ مَنْ يَكُونُ بَعْدِي مِنْ أُمَّةٍ الْمُسْلِمِينَ" فَفَعَلَ، وَخَتَمَ عَلَيْهِ وَدَفَعَهُ إِلَيَّ، قَالَ: وَقَالَ لِي: "إِذَا صَلَّيْتَ الْغَدَاةَ فَقُلْ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمَ أَحَدًا: اللَّهُمَّ أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَإِنَّكَ إِنْ مِتُّ مِنْ يَوْمِكَ ذَلِكَ كَتَبَ اللَّهُ لَكَ جَوَارًا مِنَ النَّارِ، وَإِذَا صَلَّيْتَ الْمَغْرِبَ، فَقُلْ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمَ أَحَدًا: اللَّهُمَّ أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَإِنَّكَ إِنْ مِتُّ مِنْ لَيْلَتِكَ، كَتَبَ اللَّهُ لَكَ جَوَارًا مِنَ النَّارِ" قَالَ فَلَمَّا قَبِضَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ، أَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ بِالْكِتَابِ، فَقَضَّاهُ فَقَرَأَهُ، وَأَمَرَ لِي وَخَتَمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ عُمَرَ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ عُثْمَانَ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ. قَالَ مُسْلِمُ بْنُ حَارِثٍ قُتُوبِي الْحَارِثُ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ، فَكَانَ الْكِتَابُ عِنْدَنَا حَتَّى وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَكَتَبَ إِلَيَّ عَامِلَ قِبَلِنَا أَنَّ أَشْخَصَ إِلَيَّ مُسْلِمُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ مُسْلِمِ التَّمِيمِيِّ بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي كَتَبَهُ لِأَبِيهِ، قَالَ: فَشَخَّصْتُ بِهِ إِلَيْهِ فَقَرَأَهُ، وَأَمَرَ لِي، وَخَتَمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ إِلَّا لِتُحَدِّثَنِي بِمَا حَدَّثَكَ بِهِ أَبُوكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَحَدَّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ عَلَى وَجْهِهِ ٣٥٨.

٣٥٦ - سنن أبي داود - المكثر [١٣/ ٣] (٢٦٨٩) وصحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [٤٢٤/ ١٢] (٥٦١٠) وفتح الباري

شرح صحيح البخاري - ط دار الفكر [٦٤٤/ ٩] وهو حسن والمتن المرفوع صحيح

الأعلاج: جمع العالج وهو الشديد القوى على العمل = قتل الصبر: القتل بصفحة السيف لا بشفرته. وفيه نوع من التعذيب بالموت البطيء.. وأعتق عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أربع رقاب وهي كفارة القتل الخطأ.

٣٥٧ - صحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [٣٦٦/ ٥] (٢٠٢٢) حسن وضعفه بعضهم لاضطراب في سنده

أي مكان الإغارة على العدو. - تحفظوا وتصانوا وتحرم دماؤكم وأموالكم.

٣٥٨ - معرفة الصحابة لأبي نعيم [٧٩٤/ ٢] (٢٠٩٨) وقد حسن الحافظ ابن حجر الحديث كما ذكره عنه ابن علان في الفتوحات الربانية وهو كما قال - هذا زيادة مني

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ الْجُنُودَ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَشُرَحْبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ، قَالَ: لَمَّا رَكِبُوا مَشَى أَبُو بَكْرٍ مَعَ أُمَرَاءِ جُنُودِهِ يُودِّعُهُمْ حَتَّى بَلَغَ نَتِيبَةَ الْوَدَاعِ، فَقَالُوا: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ، أَتَمْشِي وَنَحْنُ رُكْبَانُ؟ فَقَالَ: "إِنِّي أَحْتَسِبُ خَطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ". ثُمَّ جَعَلَ يُوصِيهِمْ، فَقَالَ: "أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ دِينَهُ، وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَعْدُوا، وَلَا تَجْبُوا، وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، وَلَا تَعْصُوا مَا تَوْمَرُونَ، فَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَادْعُوهُمْ إِلَى ثَلَاثِ حِصَالٍ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ، ادْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُوهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ عَلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّهُمْ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي فَرَضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَيْسَ لَهُمْ فِي الْفَيِّءِ وَالْغَنَائِمِ شَيْءٌ حَتَّى يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ فَادْعُوهُمْ إِلَى الْجَزْيَةِ، فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ فَقَاتِلُوهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَلَا تُعْرِفَنَّ نَحْلًا وَلَا تَحْرِقْنَهَا، وَلَا تَعْقِرُوا بِهَيْمَةً، وَلَا شَجَرَةً تُثْمِرُ، وَلَا تَهْدُمُوا بَيْعَةً، وَلَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلَا الشُّيُوخَ وَلَا النِّسَاءَ، وَتَسْجُدُونَ أَقْوَامًا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ فَادْعُوهُمْ وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ، وَتَسْجُدُونَ آخَرِينَ اتَّخَذَ الشَّيْطَانُ فِي رُءُوسِهِمْ أَفْحَاصًا، فَإِذَا وَجَدْتُمْ أُولَئِكَ فَاضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ" .. ٣٥٩

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدَةَ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أَمَرَ عَلَى الْأَجْنَادِ: يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى جُنْدٍ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى جُنْدٍ، وَشُرَحْبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ عَلَى جُنْدٍ، وَأَمَرَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ عَلَى جُنْدٍ، ثُمَّ جَعَلَ يَزِيدُ عَلَى الْجَمَاعَةِ، وَخَرَجَ مَعَهُ يُشِيعُهُ وَيُوصِيهِ، وَيَزِيدُ رَاكِبٌ، وَأَبُو بَكْرٍ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ، فَقَالَ يَزِيدُ: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ، وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ وَأَمْشِيَ مَعَكَ، فَقَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِرَاكِبٍ، وَلَسْتُ بِتَارِكٍ أَنْ تَنْزَلَ، إِنِّي أَحْتَسِبُ هَذَا الْخَطَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَا يَزِيدُ إِنَّكُمْ سَتَقْدَمُونَ أَرْضًا يُقَدَّمُ إِلَيْكُمْ فِيهَا أَلْوَانُ الْأَطْعِمَةِ، فَسَمُّوا اللَّهَ إِذَا أَكَلْتُمْ، وَاحْمَدُوهُ إِذَا فَرَعْتُمْ، يَا يَزِيدُ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ قَوْمًا قَدْ فَحَصُوا أَوْسَاطَ رُءُوسِهِمْ فَهِيَ كَالْعَصَائِبِ، فَفَلَقُوا هَامَهُمْ بِالسُّيُوفِ، وَسَتَمُّوْنَ عَلَى قَوْمٍ فِي

٣٥٩ - السنن الكبرى للبيهقي - حيدر آباد [٨٥/ ٩] (١٨٥٩٢) وموطأ مالك (٩٧٦) مرسل حسن لغيره

الغلل: الخيانة والسرقة = التمثيل: جدد الأطراف أو قطعها أو تشويهه الجسد والتنكيل به = الخصال: جمع خصلة وهي خلق في الإنسان يكون فضيلة أو رذيلة = الفيء: ما يؤخذ من العدو من مال ومتاع بغير حرب = أبي: امتنع ورفض = الجزية: هي عبارة عن المال الذي يُعقد للكتابي عليه الذمة، وهي فِئلة، من الجزاء، كأنها حَزَتْ عن قتله، والجزية مقابل إقامتهم في الدولة الإسلامية وحمائتها لهم قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: قَوْلُهُ: فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا، يَعْنِي مِنْ دَارِ التَّعَرُّبِ إِلَى دَارِ الْهَجْرَةِ، يَقُولُ: إِنْ لَمْ يَهَاجِرُوا، فَهَذَا حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمْرُهُ فِي الْفَيِّءِ، أَنَّهُ لَمْ يَرِ لِمَنْ لَمْ يَلْحَقْ بِالْمُهَاجِرِينَ وَيُعِينَهُمْ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ وَيُجَامِعَهُمْ فِي أُمُورِهِمْ فِي الْفَيِّءِ وَالْغَنِيمَةِ حَقًّا ثُمَّ رَوَى النَّاسُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ رَأَى أَنَّ كُلَّ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ شُرَكَاءُ "الْأَمْوَالُ لِابْنِ زُنُجُوَيْهِ (٥٧٩)

صَوَامِعَ لَهُمْ، احْتَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِيهَا، فَدَعَهُمْ حَتَّى يُمِيتَهُمُ اللَّهُ فِيهَا عَلَى ضَلَالَتِهِمْ، يَا زَيْدُ لَا تَقْتُلْ صَبِيًّا، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا صَغِيرًا، وَلَا تُخْرِبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تُعْقِرَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا دَابَّةً عَجْمَاءَ، وَلَا بَقْرَةً، وَلَا شَاةً إِلَّا لِمَا كَلَّةٌ، وَلَا تُحْرِقَنَّ نَخْلًا، وَلَا تُعْرِقَنَّهُ، وَلَا تُغْلِلْ، وَلَا تَجْبِنَ ٣٦٠

فهذه هي الحرب التي يخوضها الإسلام وهذه هي آدابه فيها وهذه هي أهدافه منها .. وهي تنبثق من ذلك التوجيه القرآني الجليل: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ، وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» ..

وقد كان المسلمون يعلمون أنهم لا ينصرون بعددهم - فعددهم قليل - ولا ينصرون بعدتهم وعتادهم - فما معهم منه أقل مما مع أعدائهم - إنما هم ينصرون بإيمانهم وطاعتهم وعون الله لهم. فإذا هم تخلوا عن توجيه الله لهم وتوجيه رسول الله - ﷺ - فقد تخلوا عن سبب النصر الوحيد الذي يرتكنون إليه. ومن ثم كانت تلك الآداب مرعية حتى مع أعدائهم الذين فتنوهم ومثلوا ببعضهم أشنع التمثيل .. ولما فار الغضب برسول الله - ﷺ - فأمر بحرق فلان وفلان (رجلين من قريش) عاد فنهى عن حرقهما، لأنه لا يحرق بالنار إلا الله، فعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أَنَّهُ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فِي بَعْثٍ فَقَالَ «إِنْ وَجَدْتُمْ فُلَانًا وَفُلَانًا فَأَحْرِقُوهُمَا بِالنَّارِ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - حِينَ أَرَدْنَا الْخُرُوجَ «إِنِّي أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحْرِقُوا فُلَانًا وَفُلَانًا، وَإِنَّ النَّارَ لَا يُعَذَّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ، فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا» ٣٦١ .

٥٠ - المواظبة على طاعة الله بكل أشكالها في السر والعلن

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) } [الحج: ٧٧، ٧٨]

يأمر الله المؤمنين بعبادته، وإقامة الصلاة، وبالركوع والسجود له، وبفعل الخير، لعل ذلك يوصلهم إلى الخير، لعل ذلك يوصلهم إلى الخير والفلاح في الدنيا والآخرة .

يأمر الله المؤمنين بالجهاد وأخلصه: بالأموال والأنفس والألسنة، فقد اصطفى الله المؤمنين من هذه الأمة، واختارهم على من سواهم، ولم يكلفهم ما لا يطيقون، ولم يضيق الله عليهم في شيء من أمور

٣٦٠ - سُنُّ سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ (٢٢٠٧) حسن لغیره - زيادة مني

٣٦١ - صحيح البخارى - المكثر [٥٨/ ١١] (٣٠١٦) والمسند الجامع [٨١/ ١٨] (١٤٦٣٣) وفي ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ -

ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٤١١)

دِينِهِمْ، بَلْ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ، فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ، بَلْ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ، كَمَا وَسَّعَ فِي مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ، بَلْ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ، كَمَا وَسَّعَ فِي مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (وَنَصَبَ مِلَّةً) عَلَى تَقْدِيرِ الزُّمُومَا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ)، وَقَدْ سَمَّاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْمُسْلِمِينَ فِي شَرْعِ إِبْرَاهِيمَ وَفِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَفِي هَذَا الْقُرْآنِ (مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا) . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ أُمَّةً وَسَطًا عُدُولًا لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا يَعْتَرِفُونَ بِفَضْلِ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَلِهَذَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ عَلَيْهِمْ، فِي أَنَّ الرُّسُلَ أُنْبِغَتْهُمْ رِسَالَةً أُنْبِغَتْهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِمْ، وَالرُّسُولُ يَشْهَدُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنَّهُ أُنْبِغَهَا مَا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، فَيُقَابِلُ الْمُسْلِمُونَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ بِالْقِيَامِ بِشُكْرِ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَأَدَاءِ حَقِّ اللَّهِ فِيهَا فَرَضُهُ عَلَيْهِمْ، وَمِنْ أَمَمٍ ذَلِكَ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ وَأَدَاؤُهَا حَقَّ أَدَائِهَا، وَدَفْعُ الزَّكَاةِ، وَالِاعْتِصَامُ بِاللَّهِ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ، وَالِاتِّكَالُ عَلَيْهِ، فَهُوَ مَوْلَاهُمْ وَحَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ، وَهُوَ نِعَمُ الْمَوْلَى وَنِعَمُ النَّاصِرِ عَلَى الْإِعْدَاءِ .^{٣٦٢}

وَفِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ يَجْمَعُ الْمُنْهَاجُ الَّذِي رَسَمَهُ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَيُلَخِّصُ تَكْلِيفَهَا الَّتِي نَاطَهَا بِهَا، وَيَقَرُّرُ مَكَانَهَا الَّذِي قَدَرَهُ لَهَا، وَيُثَبِّتُ جَذُورَهَا فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ، مَتَى اسْتَقَامَتْ عَلَى الْمُنْهَاجِ الَّذِي أَرَادَهُ لَهَا اللَّهُ.

إِنَّهُ يَبْدَأُ بِأَمْرِ الَّذِينَ آمَنُوا بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ. وَهُمَا رَكْنَا الصَّلَاةَ الْبَارِزَانِ. وَيَكْنِي عَنِ الصَّلَاةِ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ لِيَمْنَحَهَا صُورَةً بَارِزَةً، وَحَرَكَةً ظَاهِرَةً فِي التَّعْبِيرِ، تَرَسِّمُهَا مَشْهَدًا شَاخِصًا، وَهَيْئَةً مَنْظُورَةً. لِأَنَّ التَّعْبِيرَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ أَوْقَعَ أَثْرًا وَأَقْوَى اسْتِجَاشَةً لِلشُّعُورِ^{٣٦٣}.

وَيُنِثِي بِالْأَمْرِ الْعَامِّ بِالْعِبَادَةِ. وَهِيَ أَشْمَلُ مِنَ الصَّلَاةِ. فَعِبَادَةُ اللَّهِ تَشْمَلُ الْفَرَائِضَ كُلَّهَا وَتَزِيدُ عَلَيْهَا كَذَلِكَ كُلَّ عَمَلٍ وَكُلَّ حَرَكَةٍ وَكُلَّ خَاجِلَةٍ يَتَوَجَّهُ بِهَا الْفَرْدُ إِلَى اللَّهِ. فَكُلُّ نَشَاطٍ الْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى عِبَادَةٍ مَتَى تَوَجَّهَ الْقَلْبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ. حَتَّى لِدَائِدِهِ الَّتِي يَنَالُهَا مِنْ طَيِّبَاتِ الْحَيَاةِ بِلَفْتَةٍ صَغِيرَةٍ تَصْبَحُ عِبَادَاتٍ تَكْتُبُ لَهُ بِهَا حَسَنَاتٍ. وَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ الَّذِي أَنْعَمَ بِهَا، وَيُنَوِّي بِهَا أَنْ يَتَقَوَّى عَلَى طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ فَإِذَا هِيَ عِبَادَاتٌ وَحَسَنَاتٌ، وَلَمْ يَتَحَوَّلْ فِي طَبِيعَتِهَا شَيْءٌ، وَلَكِنْ تَحَوَّلَ الْقَصْدُ مِنْهَا وَالِاتِّجَاهُ! وَيَخْتِمُ بِفَعْلِ الْخَيْرِ عَامَّةً، فِي التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ بَعْدَ التَّعَامُلِ مَعَ اللَّهِ بِالصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ.

يَأْمُرُ الْأُمَّةَ الْمُسْلِمَةَ بِهَذَا رَجَاءً أَنْ تَفْلَحَ. فَهَذِهِ هِيَ أَسْبَابُ الْفَلَاحِ.. الْعِبَادَةُ تَصْلُحُهَا بِاللَّهِ فَتَقُومُ حَيَاتُهَا عَلَى قَاعِدَةٍ ثَابِتَةٍ وَطَرِيقٍ وَاصِلٍ. وَفَعْلُ الْخَيْرِ يُؤَدِّي إِلَى اسْتِقَامَةِ الْحَيَاةِ، الْجَمَاعِيَّةِ عَلَى قَاعِدَةٍ مِنَ الْإِيمَانِ وَأَصَالَةِ الْإِتِّجَاهِ.

فَإِذَا اسْتَعَدَّتْ الْأُمَّةُ الْمُسْلِمَةُ بِهَذِهِ الْعِدَّةِ مِنَ الصَّلَاةِ بِاللَّهِ وَاسْتِقَامَةِ الْحَيَاةِ، فَاسْتِقَامَ ضَمِيرُهَا وَاسْتَقَامَتْ حَيَاتُهَا.. نَهَضَتْ بِالتَّبَعَةِ الشَّاقَّةِ: «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ».. وَهُوَ تَعْبِيرٌ شَامِلٌ جَامِعٌ دَقِيقٌ، يَصُورُ تَكْلِيفًا ضَخْمًا، يَحْتَاجُ إِلَى تِلْكَ التَّعَبُّتِ وَهَذِهِ الذَّخِيرَةِ وَذَلِكَ الْإِعْدَادِ..

^{٣٦٢} - أَيْسَرُ التَّفَاسِيرِ لِأَسْعَدِ حُومِدٍ (ص: ٢٥٥٢، بِتَرْقِيمِ الشَّامِلَةِ آيَا)

^{٣٦٣} - يَرَاجِعُ فَصْلًا: «طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ» فِي كِتَابِ «التَّصْوِيرُ الْفَنِّي فِي الْقُرْآنِ». «دَارُ الشُّرُوقِ». (السَّيِّدُ رَحِمَهُ اللَّهُ)

«وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ».. والجهاد في سبيل الله يشمل جهاد الأعداء، وجهاد النفس، وجهاد الشر والفساد.. كلها سواء.. «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ».. فقد انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة، واختاركم لها من بين عباد: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ».. وإن هذا الاختيار ليضخم التبعة، ولا يجعل هنالك مجالاً للتخلي عنها أو الفرار! وإنه لإكرام من الله لهذه الأمة ينبغي أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء! وهو تكليف محفوف برحمة الله: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ».. وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته. ملحوظ فيه تليته تلك الفطرة. وإطلاق هذه الطاقة، والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء. فلا تبقى حبيسة كالبحار المكنوم. ولا تنطلق انطلاق الحيوان الغشيم!

وهو منهج عريق أصيل في ماضي البشرية، موصول الماضي بالحاضر: «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ» وهو منبع التوحيد الذي اتصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم - عليه السلام - فلم تنقطع من الأرض، ولم تفصل بينها فجوات مضیعة لمعالم العقيدة كالفجوات التي كانت بين الرسالات قبل إبراهيم عليه السلام. وقد سمى الله هذه الأمة الموحدة بالمسلمين. سماها كذلك من قبل وسماها كذلك في القرآن: «هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا»..

والإسلام إسلام الوجه والقلب لله وحده بلا شريك. فكانت الأمة المسلمة ذات منهج واحد على تنابع الأجيال والرسل والرسالات. حتى انتهى بها المطاف إلى أمة محمد - ﷺ - وحتى سلمت إليها الأمانة، وعهد إليها بالوصاية على البشرية. فاتصل ماضيها بحاضرها بمستقبلها كما أرادها الله: «لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ».. فالرسول - ﷺ - يشهد على هذه الأمة، ويحدد نهجها واتجاهها، ويقرر صوابها وخطأها. وهي تشهد على الناس بمثل هذا، فهي القوامة على البشرية بعد نبينا وهي الوصية على الناس بموازين شريعتها، وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة. ولن تكون كذلك إلا وهي أمانة على منهجها العريق المتصل الوشائج، المختار من الله.

ولقد ظلت هذه الأمة وصية على البشرية طالما استمسكت بذلك المنهج الإلهي وطبقته في حياتها الواقعية. حتى إذا انحرفت عنه، وتخلت عن تكاليفه، ردها الله عن مكان القيادة إلى مكان التابع في ذيل القافلة. وما تزال. ولن تزال حتى تعود إلى هذا الأمر الذي اجتباها له الله.

هذا الأمر يقتضي الاحتشاد له والاستعداد.. ومن ثم يأمرها القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله: «فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ».. فالصلاة صلة الفرد الضعيف الفاني بمصدر القوة والازد. والزكاة صلة الجماعة بعضها ببعض والتأمين من الحاجة والفساد. والاعتصام بالله العروة الوثقى التي لا تنفصم بين المعبود والعباد.

بهذه العدة تملك الأمة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصاية على البشرية التي اجتباها لها الله. وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات المادية التي تعارف الناس على أنها مصادر القوة في الأرض. والقرآن الكريم

لا يغفل من شأنها، بل يدعو إلى إعدادها. ولكن مع حشد القوى والطاقات والزراد الذي لا ينفد، والذي لا يملكه إلا المؤمنون بالله. فيوجهون به الحياة إلى الخير والصالح والاستعلاء.

إن قيمة المنهج الإلهي للبشرية أنه يمضي بها قدما إلى الكمال المقدر لها في هذه الأرض ولا يكتفي بأن يقودها للذائد والمتاع وحدهما كما تقاد الأنعام.

وإن القيم الإنسانية العليا لتعتمد على كفاية الحياة المادية، ولكنها لا تقف عند هذه المداخل الأولى. وكذلك يريد الإسلام في كنف الوصاية الرشيدة، المستقيمة على منهج الله في ظل الله^{٣٦٤}.

٥١ - وجوب التحلي بمكارم الأخلاق :

قال تعالى: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) } [الرعد]

لا يستوي المهتدي من الناس، الذي يعلم أن الذي أنزل عليك يا محمد من ربك هو الحق، الذي لا شك فيه، مع الضال، الذي لا يعلم ذلك، لأنه يكون كالأعمى لا يهتدي إلى خير، ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد إليه، ولا صدق به ولا انتفع. ؟ فالذين يتعظون ويعتبرون هم أصحاب العقول السليمة، والبصائر المدركة (أولو الألباب) .

والمهتدون الذين ستكون لهم العاقبة والنصرة، في الدنيا والآخرة، هم الذين يؤفون بعهد الله إذا عاهدوا، ولا ينقضون عهدهم مع عباده، ولا يعدلون بدمه، ولا يفجرون ولا يخونون. وهؤلاء المؤمنون المهتدون يصلون الأرحام التي أمر الله بوصولها، ويحسنون إلى الأقرباء والفقراء، ويعاملونهم بالموادة والحسنى، ويبدلون المعروف، ويخشون ربهم فيما يأتون، ويراقبونه في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة، وعدم الصفح عن ذنوبهم وخطاياهم. وهؤلاء المؤمنون المهتدون يصبرون عن ارتكاب المحارم والمآثم، ويمتنعون عن مقارفتها طاعة لله، وتقرباً إليه، وطمعاً بمرضاته وجزيل ثوابه، ويؤدون الصلاة حق أدائها، وينفقون مما رزقهم الله على من تجب عليهم نفقتهم، من أقرباء ومحتاجين وسائلين.. في السر والعلن، لا يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل

^{٣٦٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣١٦٨)

صَبْرًا، وَاحْتِمَالًا وَحِلْمًا وَعَفْوًا، فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ حُسْنُ الْعَاقِبَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . وَتِلْكَ الْعَاقِبَةُ الْحَسَنَةُ هِيَ دُخُولُ جَنَّاتِ عَدْنٍ، وَالْإِقَامَةُ فِيهَا خَالِدِينَ أَبَدًا، لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا . وَيَجْمَعُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحِبَّابِهِمْ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَزْوَاجِ وَالْأَنْبَاءِ الصَّالِحِينَ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ، لِتَقَرَّبِهِمْ أَعْيُنُهُمْ؛ وَتَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ كُلِّ بَابٍ مُسَلِّمِينَ مُهَيَّئِينَ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، وَبِرِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ .

وَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، وَأَمْنٌ دَائِمٌ لَكُمْ، لَقَدْ صَبَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاحْتَمَلْتُمُ الْمَشَاقَّ وَالْآلَامَ، فَفُزْتُمْ بِرِضْوَانِ اللَّهِ، فَنِعِمْتَ عَاقِبَتُكُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ..^{٣٦٥}

إن حياة الناس لا تصلح إلا بأن يتولى قيادتها المبصرون أولو الألباب الذين يعلمون أن ما أنزل إلى محمد - ﷺ - هو الحق. ومن ثم يوفون بعهد الله على الفطرة، وبعهد الله على آدم وذريته، أن يعبدوه وحده، فيدينوا له وحده، ولا يتلقوا عن غيره، ولا يتبعوا إلا أمره ونهيه. ومن ثم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم فيخافون أن يقع منهم ما نهى عنه وما يغضبه ويخافون سوء الحساب، فيجعلون الآخرة في حسابهم في كل خالجة وكل حركة ويصبرون على الاستقامة على عهد الله ذاك بكل تكاليف الاستقامة ويقىمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية ويدفعون السوء والفساد في الأرض بالصالح والإحسان ..

إن حياة الناس في الأرض لا تصلح إلا بمثل هذه القيادة المبصرة التي تسير على هدى الله وحده والتي تصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه .. إنها لا تصلح بالقيادات الضالة العمياء، التي لا تعلم أن ما أنزل على محمد - ﷺ - هو الحق وحده والتي تتبع - من ثم - مناهج أخرى غير منهج الله الذي ارتضاه للصالحين من عباده .. إنها لا تصلح بالإقطاع والرأسمالية، كما أنها لا تصلح بالشيوعية والاشتراكية العلمية! ..

إنها كلها من مناهج العمي الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد - ﷺ - هو وحده الحق، الذي لا يجوز العدول عنه، ولا التعديل فيه .. إنها لا تصلح بالثيوقراطية كما أنها لا تصلح بالديكتاتورية أو الديمقراطية! فكلها سواء في كونها من مناهج العمي، الذين يقيمون من أنفسهم أربابا من دون الله، تضع هي مناهج الحكم ومناهج الحياة، وتشرع للناس ما لم يأذن به الله وتعبد لهم لما تشرع، فتجعل دينوتهم لغير الله ..

وآية هذا الذي نقوله - استمداد من النص القرآني - هو هذا الفساد الطامي الذي يعم وجه الأرض اليوم في جاهلية القرن العشرين. وهو هذه الشقوة النكدة التي تعانيها البشرية في مشارق الأرض ومغاربها .. سواء في ذلك أوضاع الإقطاع والرأسمالية، وأوضاع الشيوعية والاشتراكية العلمية! .. وسواء في ذلك أشكال الديكتاتورية في الحكم أو الديمقراطية! ..

^{٣٦٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٧٢٧، بترقيم الشاملة آليا)

إنها كلها سواء فيما تلقاه البشرية من خلالها من فساد ومن تحلل ومن شقاء ومن قلق .. لأنها كلها سواء من صنع العمي الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد من ربه هو الحق وحده ولا تلتزم - من ثم - بعهد الله وشرعه ولا تستقيم في حياتها على منهجه وهديه.

إن المسلم يرفض - بحكم إيمانه بالله وعلمه بأن ما أنزل على محمد هو الحق - كل منهج للحياة غير منهج الله وكل مذهب اجتماعي أو اقتصادي وكل وضع كذلك سياسي، غير المنهج الوحيد، والمذهب الوحيد، والشرع الوحيد الذي سنه الله وارتضاه للصالحين من عباده.

وبمجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله، هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله فالإسلام لله هو توحيد الدينونة له دون سواه.

إن هذا الاعتراف فوق أنه يخالف بالضرورة مفهوم الإسلام الأساسي، فهو في الوقت ذاته يسلم الخلافة في هذه الأرض للعمي الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض .. فهذا الفساد في الأرض مرتبط كل الارتباط بقيادة العمي! ..

ولقد شقيت البشرية في تاريخها كله وهي تتخبط بين شتى المناهج وشتى الأوضاع وشتى الشرائع بقيادة أولئك العمي، الذين يلبسون أردية الفلاسفة والمفكرين والمشرعين والسياسيين على مدار القرون. فلم تسعد قط ولم ترتفع «إنسانيتها» قط، ولم تكن في مستوى الخلافة عن الله في الأرض قط، إلا في ظلال المنهج الرباني في الفترات التي فاءت فيها إلى ذلك المنهج القويم^{٣٦٦}.

هذه بعض المعالم البارزة في هذه السورة، وقفنا عندها هذه الوقفات التي لا تبلغ مداها، ولكنها تشير إليها. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله^{٣٦٧}

٥٢ - المسارعة بالتوبة من الذنوب والآثام

قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)} [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦]

^{٣٦٦} - يراجع بتوسع فصل: «تخبط واضطراب» في كتاب: «الإسلام ومشكلات الحضارة». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

^{٣٦٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٧٢٧)

يَنْدُبُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْقِيَامِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَإِلَى الْمُسَارَعَةِ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ، لِيُنَالُوا مَغْفِرَةَ اللَّهِ وَرِضْوَانَهُ، وَجَنَّتَهُ الْوَاسِعَةَ الْعَرِيضَةَ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يَمْتَثِلُونَ أَمْرَهُ .

يَذْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ صِفَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: إِنَّهُمْ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ مَرْضَاةِ اللَّهِ، فِي الرِّخَاءِ (السَّرَّاءِ)، وَفِي الشَّدَّةِ (الضَّرَّاءِ)، وَفِي الصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ، وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، لَا يَشْغُلُهُمْ أَمْرٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ، وَإِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ غَيْظَهُمْ إِذَا ثَارَ، وَيَعْفُونَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ . وَاللَّهُ يُحِبُّ الَّذِينَ يَتَفَضَّلُونَ عَلَى عِبَادِهِ الْبَائِسِينَ، وَيُوَاسُواهُمْ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى جَزِيلِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ . وَمِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَّهُمْ إِذَا صَدَرَ عَنْهُمْ فِعْلٌ قَبِيحٌ يَتَعَدَّى أَثَرُهُ إِلَى غَيْرِهِمْ (كَغِيْبَةِ إِنْسَانٍ)، أَوْ صَدَرَ عَنْهُمْ ذَنْبٌ يَكُونُ مُقْتَصِرًا عَلَيْهِمْ (كَشُرْبِ خَمْرٍ وَنَحْوِهِ)، ذَكَرُوا اللَّهَ تَعَالَى وَوَعِيدَهُ، وَعَظَمْتُهُ وَجَلَالَهُ، فَرَجَعُوا إِلَى اللَّهِ تَائِبِينَ، طَالِبِينَ مَغْفِرَتَهُ، وَلَمْ يُقِيمُوا عَلَى الْقَبِيحِ مِنْ غَيْرِ اسْتِعْفَارٍ، لَعَلَّهُمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى الذَّنْبِ، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَغُفِرَ لَهُ .

وَالْمُتَّقُونَ الْمُتَمَتِّعُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ سَيَجْزِيهِمْ رَبُّهُمْ عَلَيْهَا بِالْمَغْفِرَةِ، وَبِالْأَمْرِ مِنَ الْعِقَابِ، وَلَهُمْ ثَوَابٌ عَظِيمٌ فِي جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَهُمْ مُخْلَدُونَ فِيهَا أَبَدًا، وَالْجَنَّةُ خَيْرٌ مَّا يُكَافَأُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ الْعَامِلُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَاتِ^{٣٦٨}

فَهُمْ ثَابِتُونَ عَلَى الْبَذْلِ، مَاضُونَ عَلَى النَّهْجِ، لَا تَغْيِرُهُمُ السَّرَّاءُ وَلَا تَغْيِرُهُمُ الضَّرَّاءُ. السَّرَّاءُ لَا تَبْطِرُهُمْ فَتَلْهِيَهُمْ. وَالضَّرَّاءُ لَا تَضْجِرُهُمْ فَتَنْسِيَهُمْ. إِنَّمَا هُوَ الشُّعُورُ بِالْوَاجِبِ فِي كُلِّ حَالٍ وَالتَّحَرُّرُ مِنَ الشَّحِّ وَالْحِرْصِ وَمِرَاقَبَةُ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ .. وَمَا يَدْفَعُ النَّفْسَ الشَّحِيحَةَ بِطَبْعِهَا، الْخَبَةَ لِلْمَالِ بِفَطَرَتِهَا .. مَا يَدْفَعُ النَّفْسَ إِلَى الْإِنْفَاقِ فِي كُلِّ حَالٍ، إِلَّا دَافِعٌ أَقْوَى مِنْ شَهْوَةِ الْمَالِ، وَرَبْقَةِ الْحِرْصِ، وَثِقَلَةِ الشَّحِّ .. دَافِعٌ التَّقْوَى. ذَلِكَ الشُّعُورُ اللَّطِيفُ الْعَمِيقُ، الَّذِي تَشْفَى بِهِ الرُّوحُ وَتَخْلُصُ، وَتَنْتَقِلُ مِنَ الْقَيُودِ وَالْأَغْلَالِ .. وَلَعَلَّ لِلتَّنْوِيهِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مَنَاسِبَةً خَاصَّةً كَذَلِكَ فِي جَوْ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ. فَنَحْنُ نَرَى الْحَدِيثَ عَنِ الْإِنْفَاقِ يَتَكَرَّرُ فِيهَا، كَمَا نَرَى التَّنْذِيرَ بِالْمَمْتَنِّعِينَ وَالْمَانِعِينَ لِلْبَذْلِ - كَمَا سَيَأْتِي فِي السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ - مَكَرَّرًا كَذَلِكَ. مِمَّا يَشِيرُ إِلَى مَلَاسِمَاتٍ خَاصَّةٍ فِي جَوْ الْغَزْوَةِ، وَمَوْقِفٍ بَعْضُ الْفَنَائِتِ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

«وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ» .. كَذَلِكَ تَعْمَلُ التَّقْوَى فِي هَذَا الْحَقْلِ، بِنَفْسِ الْبَوَاعِثِ وَنَفْسِ الْمُؤَثِّرَاتِ. فَالْغَيْظُ انْفِعَالٌ بَشَرِيٌّ، تَصَاحَبُهُ أَوْ تَلَاحِقُهُ فَوْرَةٌ فِي الدَّمِ فَهُوَ إِحْدَى دَفْعَاتِ التَّكْوِينِ الْبَشَرِيِّ، وَإِحْدَى ضَرُورَاتِهِ. وَمَا يَغْلِبُهُ الْإِنْسَانُ إِلَّا بِتِلْكَ الشِّفَافِيَةِ اللَّطِيفَةِ الْمُنْبَعِثَةِ مِنْ إِشْرَاقِ التَّقْوَى وَإِلَّا بِتِلْكَ الْقُوَّةِ الرُّوحِيَّةِ الْمُنْبَثَّةِ مِنَ التَّطَلُّعِ إِلَى أَفْقٍ أَعْلَى وَأَوْسَعِ مِنْ آفَاقِ الْذَاتِ وَالضَّرُورَاتِ.

٣٦٨ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٢٦، بترقيم الشاملة آليا)

وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى. وهي وحدها لا تكفي. فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين .. وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن .. لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ العظيم في نفوس المتقين .. إنها العفو والسماحة والانطلاق ..

إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه وشواظ يلفح القلب ودخان يغشى الضمير .. فأما حين تصفح النفس ويعفو القلب، فهو الانطلاق من ذلك الوقر، والرفرة في آفاق النور، والبرد في القلب، والسلام في الضمير.

«وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» .. والذين يجودون بالمال في السراء والضراء محسنون. والذين يجودون بالعفو والسماحة بعد الغيظ والكظم محسنون .. واللَّهُ «يُحِبُّ» المحسنين .. والحب هنا هو التعبير الودود الحاني المشرق المنير، الذي يتناسق مع ذلك الجو اللطيف الوضيء الكريم ..

ومن حب الله للإحسان وللمحسنين، ينطلق حب الإحسان في قلوب أحبائه. وتنبثق الرغبة الدافعة في هذه القلوب .. فليس هو مجرد التعبير الموحى، ولكنها الحقيقة كذلك وراء التعبير! والجماعة التي يحبها الله، وتحب الله .. والتي تشيع فيها السماحة واليسر والطلاقة من الإحن والأضغان .. هي جماعة متضامنة، وجماعة متآخية، وجماعة قوية. ومن ثم علاقة هذا التوجيه بالمعركة في الميدان والمعركة في الحياة على السواء في هذا السياق!

ثم تنتقل إلى صفة أخرى من صفات المتقين: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ - وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ؟ - وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» .. يا لسماحة هذا الدين! إن الله - سبحانه - لا يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم حتى يطلعهم على جانب من سماحته - سبحانه وتعالى - معهم. ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا:

إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين .. ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تسلك في عداد المتقين «الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ» .. والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها. ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها، من رحمة الله. ولا تجعلهم في ذيل القافلة .. قافلة المؤمنين .. إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة .. مرتبة «المتقين» .. على شرط واحد. شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته ..

أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم، وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة، وألا يتبجحوا بالمعصية في غير تخرج ولا حياء .. وبعبارة أخرى أن يكونوا في اطار العبودية لله، والاستسلام له في النهاية. فيظلوا في كنف الله وفي محيط عفوهِ ورحمته وفضله.

إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقله الجسد أحياناً إلى درك الفاحشة، وتهيج به فورة اللحم والدم فيتزو الحيوان في حمى الشهوة، وتدفعه نزواته وشهواته

وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله في حمى الاندفاع. يدرك ضعفه هذا فلا يقسو عليه، ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه. حين يرتكب الفاحشة.. المعصية الكبيرة.. وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم تنطفئ، وأن نداوة الإيمان ما تزال في قلبه لم تجف، وأن صلته بالله ما تزال حية لم تذبل، وأنه يعرف أنه عبد يخطئ وأن له ربا يغفر.. وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطئ المذنب بخير.. إنه سائر في الدرب لم ينقطع به الطريق، ممسك بالعروة لم ينقطع به الحبل، فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر. فهو واصل في النهاية ما دامت الشعلة معه، والحبل في يده. ما دام يذكر الله ولا ينساه، ويستغفره ويقر بالعبودية له ولا يتبجح بمعصيته.

إنه لا يغلق في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة، ولا يلقيه منبوذا حائرا في التيه! ولا يدعه مطرودا خائفا من المآب.. إنه يطمعه في المغفرة، ويدله على الطريق، ويأخذ بيده المرتعشة، ويسند خطواته المتعثرة، وينير له الطريق، ليفيء إلى الحمى الآمن، ويثوب إلى الكنف الأمين. شيء واحد يتطلبه: ألا يحف قلبه، وتظلم روحه، فينسى الله.. وما دام يذكر الله. ما دام في روحه ذلك المشعل الهادي. ما دام في ضميره ذلك الهاتف الحادي. ما دام في قلبه ذلك الندى البليل.. فسيطلع النور في روحه من جديد، وسيؤوب إلى الحمى الآمن من جديد، وستنبت البذرة الهامدة من جديد.

إن طفلك الذي يخطئ ويعرف أن السوط - لا سواه - في الدار.. سيروح آبقا شاردا لا يثوب إلى الدار أبدا. فأما إذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يدا حانية، تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب، وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة.. فإنه سيعود! وهكذا يأخذ الإسلام هذا المخلوق البشري الضعيف في لحظات ضعفه.. فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة، وبجانب الثقله رفرقة، وبجانب التزوة الحيوانية أشواقا ربانية.. فهو يعطف عليه في لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقبي الصعود، ويربت عليه في لحظة العثرة ليحلق به إلى الأفق من جديد. ما دام يذكر الله ولا ينساه، ولا يصبر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة! عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - « مَا أَصْرٌ مَنْ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً »^{٣٦٩}.

والإسلام لا يدعو - بهذا - إلى الترخص، ولا يمجّد العاثر الهابط، ولا يهتف له بجمال المستنقع! كما تهتف «الواقعية»! إنما هو يقلل عثرة الضعف، ليستجيش في النفس الإنسانية الرجاء، كما يستجيش فيها الحياة! فالمغفرة من الله - ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ - تخجل ولا تطمع، وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار.

^{٣٦٩} - سنن أبي داود - المكثر - (١٥١٦) والدعاطب (١٧٩٧) والاتحاف ٦٠٥/٨ والفتح ٩٩/١١ حسن لغيره

فأما الذين يستهترون ويصرون، فهم هنالك خارج الأسوار، موصدة في وجوههم الأسوار! وهكذا يجمع الإسلام بين الهمّة للبشرية إلى الآفاق العلى، والرحمة بهذه البشرية التي يعلم طاقتها. ويفتح أمامها باب الرجاء أبداً، ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها... هؤلاء المتقون ما لهم؟

«أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا. وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ»
فهم ليسوا سلبين بالاستغفار من المعصية. كما أنهم ليسوا سلبين بالإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ والعفو عن الناس.. إنما هم عاملون. «وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ».. المغفرة من ربهم، والجنة تجري من تحتها الأنهار بعد المغفرة وحب الله.. فهنالك عمل في أغوار النفس، وهنالك عمل في ظاهر الحياة. وكلاهما عمل، وكلاهما حركة، وكلاهما نماء.

وهنالك الصلة بين هذه السمات كلها وبين معركة الميدان التي يتعقبها السياق.. وكما أن للنظام الربوي - أو النظام التعاوني - أثره في حياة الجماعة المسلمة وعلاقته بالمعركة في الميدان، فكذلك لهذه السمات النفسية والجماعية أثرها الذي أشرنا إليه في مطلع الحديث.. فالانتصار على الشح، والانتصار على الغيظ، والانتصار على الخطيئة، والرجعة إلى الله وطلب مغفرته ورضاه.. كلها ضرورية للانتصار على الأعداء في المعركة. وهم إنما كانوا أعداء لأنهم يمثلون الشح والهوى والخطيئة والتبجح! وهم إنما كانوا أعداء لأنهم لا يخضعون ذواتهم وشهواتهم ونظام حياتهم لله ومنهجه وشريعته. ففي هذا تكون العداوة، وفي هذا تكون المعركة، وفي هذا يكون الجهاد.^{٣٧٠}

وليس هنالك أسباب أخرى يعادي فيها المسلم ويعارك ويجاهد. فهو إنما يعادي لله، ويعارك لله، ويجاهد لله! فالصلة وثيقة بين هذه التوجيهات كلها وبين استعراض المعركة في هذا السياق.. كما أن الصلة وثيقة بينها وبين الملابس الخاصة التي صاحبت هذه المعركة. من مخالفة عن أمر رسول الله - ﷺ - ومن طمع في الغنيمة نشأت عنه المخالفة. ومن اعتزاز بالذات والهوى نشأ عنه تخلف عبد الله ابن أبيّ ومن معه.

ومن ضعف بالذنب نشأ عنه تولى من تولى - كما سيرد في السياق - ومن غبش في التصور نشأ عنه عدم رد الأمور إلى الله، وسؤال بعضهم: «هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟» وقول بعضهم: «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا»..

والقرآن يتناول هذه الملابس كلها، واحدة واحدة، فيجلوها، ويقرر الحقائق فيها، ويلمس النفوس لمسات موحية تستجيشها وتحييها.. على هذا النحو الفريد الذي نرى نماذج منه في هذا السياق.

٣٧٠ - يراجع بتوسع فصل: «سلام الضمير» في كتاب: «السلام العالمي والإسلام».. «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

بعد ذلك يبدأ السياق في الفقرة الثالثة من الاستعراض فيلمس أحداث المعركة ذاتها، ولكنه ما يزال يتوخى تقرير الحقائق الأساسية الأصيلة في التصور الإسلامي، ويجعل الأحداث مجرد محور ترتكن إليه هذه الحقائق.

وفي هذه الفقرة يبدأ بالإشارة إلى سنة الله الجارية في المكذبين، ليقول للمسلمين إن انتصار المشركين في هذه المعركة ليس هو السنة الثابتة، إنما هو حادث عابر، وراءه حكمة خاصة.. ثم يدعوهم إلى الصبر والاستعلاء بالإيمان. فإن يكن أصابتهم جراح وآلام فقد أصاب المشركين مثلها في المعركة ذاتها. وإنما هنالك حكمة وراء ما وقع يكشف لهم عنها: حكمة تمييز الصفوف، وتمحيص القلوب، واتخاذ الشهداء الذين يموتون دون عقيدتهم ووقف المسلمين أمام الموت وجهها لوجه وقد كانوا يتمنون، ليزنوا وعودهم وأمانهم بميزان واقعي!

ثم في النهاية محق الكافرين، بإعداد الجماعة المسلمة ذلك الإعداد المتين.. وإذن فهي الحكمة العليا من وراء الأحداث كلها سواء كانت هي النصر أو هي الهزيمة..^{٣٧١}

٥٣ - اللجوء إلى الله تعالى ولا سيما عند الشدائد:

قال تعالى: { وَذَا الثُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) } [الأنبياء: ٨٧ - ٩٠]

يذكر الله تعالى قصة يونس عليه السلام (وهو ذو الثون أي صاحب الحوت)، وكان الله قد بعثه نبياً إلى أهل نينوى فدعاهم إلى عبادة الله وحده فأبوا، وتمادوا في كفرهم، فخرج يونس من بينهم مغاضباً لهم، وأأذرههم بأن العذاب واقع بهم بعد ثلاثة أيام، فلما تحققوا من ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا من البلد بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، ثم تضرعوا إلى الله تعالى، وجأروا إليه بالدعاء، فرفع الله عنهم العذاب، وصرفه عنهم، كما جاء في آية أخرى .

أما يونس فإنه ترك قومه مغاضباً لهم، وذهب فركب في سفينة فاضطربت وخاف من فيها من غرقها، فافترعوا على رجل يلقونه من بينهم في الماء يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن

^{٣٧١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٧٧٥)

يُنْقُوهُ، ثُمَّ أَعَادُوا الْقِرْعَةَ فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ، فَأَبَوْا، ثُمَّ أَعَادُوا لِلْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ، فَتَجَرَّدَ يُونُسُ مِنْ ثِيَابِهِ، وَأَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي الْمَاءِ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ بِصَاحِبِ الْحُوتِ (ذُو النُّونِ) .
 وكان يُونسُ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْهِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، (أو أنه تعالى لن يقدر عليه أن يكون في بطن الحوت) فكان في بطن الحوت في ظلمة، وفي أعماق البحر في ظلمة، وفي ظلام الليل في ظلمة، ولذلك قال تعالى: { فنادى في الظلمات } ودعا ربه قائلاً: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .

وقوله " فاستجبنا له ونجينا من الغم " أي أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات " وكذلك نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ " أي إذا كانوا في الشدائد ودعونا مُبِينِينَ إِلَيْنَا وَلَا سِيَّما إِذَا دَعَوْا بِهَذَا الدُّعَاءِ فِي حَالِ الْبَلَاءِ فَقَدْ جَاءَ التَّرْغِيبُ فِي الدُّعَاءِ بِهِ عَنْ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ ^{٣٧٢}

لقد سمي ذا النون - أي صاحب الحوت - لأن الحوت التقمه ثم نبذه. وقصة ذلك أنه أرسل إلى قرية فدعا أهلها إلى الله فاستعصوا عليه، فضاق بهم صدره، وغادرهم مغاضبا، ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم. ظانا أن الله لن يضيق عليه الأرض، فهي فسيحة، والقرى كثيرة، والأقوام متعددون. وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة، فسيوجهه الله إلى قوم آخرين. ^{٣٧٣}

ذلك معنى «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» أي أن لن تضيق عليه. وقاده غضبه الجامح، وضيقه الخانق، إلى شاطئ البحر، فوجد سفينة مشحونة فركب فيها. حتى إذا كانت في اللجة ثقلت، وقال ربانها: إنه لا بد من إلقاء أحد ركبها في البحر لينجو سائر من فيها من الغرق.

فسأهموا فجاء السهم على يونس، فألقوه أو ألقى هو بنفسه. فالتقمه الحوت. مضيقا عليه أشد الضيق! فلما كان في الظلمات: ظلمة جوف الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل نادى: «أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ

^{٣٧٢} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٤٨٦، بترقيم الشاملة آليا)

^{٣٧٣} - قلت: في هذا الكلام نظر، قال ابن كثير رحمه الله: "إن يونس بن متى، عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية "نينوى"، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبا لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث. فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادهن، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا إليه، ورغبت الإبل وفُضِّلَتْها، وخارت البقر وأولادهن، وثغت الغنم وحُمِّلَتْها، ورفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: { فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ } [يونس: ٩٨] .

وأما يونس، عليه السلام، فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فَلَجَّجَتْ بهم، وخافوا أن يغرقوا. فافترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضا، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضا، قال الله تعالى: { فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ } [الصافات: ١٤١]، أي: وقعت عليه القرعة، فقام يونس، عليه السلام، وتجرّد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله، سبحانه وتعالى، من البحر الأخضر - فيما قاله ابن مسعود - حوتًا يشق البحار، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظما؛ فإن يونس ليس لك رزقا، وإنما بطنك له يكون سجنا. تفسير ابن كثير - دار طيبة [٣٦٦/ ٥]

سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»^{٣٧٤}. فاستجاب الله دعاءه، ونجاه من الغم الذي هو فيه. ولفظه الحوت على الساحل. ثم كان من أمره ما يفصله في سورة الصافات. فحسبنا هذا في هذا السياق.

إن في هذه الحلقة من قصة يونس - عليه السلام - لفتات ولمسات نقف أمامها لحظات. إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة^{٣٧٥}، فضاقت صدره بالقوم، وألقى عبء الدعوة، وذهب مغاضبا، ضيق الصدر، حرج النفس فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين. ولولا أن ثاب إلى ربه! واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه. لما فرج الله عنه هذا الضيق. ولكنها القدرة حفظته ونجته من الغم الذي يعانيه.

وأصحاب الدعوات لا بد أن يحتملوا تكاليفها، وأن يصبروا على التكذيب بها، والإيذاء من أجلها. وتكذيب الصادق الوائق مرير على النفس حقا. ولكنه بعض تكاليف الرسالة. فلا بد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا، ولا بد أن يثابروا ويثبتوا. ولا بد أن يكرروا الدعوة ويدؤوا فيها ويعيدوا.

إنهم لا يجوز لهم أن يياسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب، ومن عتو وجحود. فإذا كانت المرة المائة لم تصل إلى القلوب، فقد تصل المرة الواحدة بعد المائة.. وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف.. ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ولم يقنطوا لتفتحت لهم أرصاد القلوب! إن طريق الدعوات ليس هينا لينا. واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة. فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات، والنظم والأوضاع، يحشم على القلوب. ولا بد من إزالة هذا الركام.

ولا بد من استحياء القلوب بكل وسيلة. ولا بد من لمس جميع المراكز الحساسة. ومن محاولة العثور على العصب الموصل.. وإحدى اللمسات ستصادف مع المثابرة والصبر والرجاء. ولمسة واحدة قد

^{٣٧٤} - عَنْ سَعْدٍ، قَالَ: مَرَرْتُ بِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ فِي الْمَسْجِدِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَمَلَأَ عَيْنِي مَنًى ثُمَّ لَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَأَتَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَلْ حَدَّثَ فِي الْإِسْلَامِ شَيْءٌ؟ مَرَّتَيْنِ قَالَ: لَا، وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا. إِلَّا أَنِّي مَرَرْتُ بِعُثْمَانَ أَنفًا فِي الْمَسْجِدِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَمَلَأَ عَيْنِي مَنًى، ثُمَّ لَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ. قَالَ: فَأَرْسَلَ عُمَرُ إِلَى عُثْمَانَ فَدَعَاهُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تُكُونَ رَدَدْتُ عَلَى أَخِيكَ السَّلَامَ؟ قَالَ عُثْمَانُ: مَا فَعَلْتُ قَالَ سَعْدٌ: قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: حَتَّى حَلَفَ وَحَلَفْتُ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّ عُثْمَانَ ذَكَرَ، فَقَالَ: بَلَى، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ إِنَّكَ مَرَرْتَ بِي أَنفًا، وَأَنَا أُحَدِّثُ نَفْسِي بِكَلِمَةٍ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَا وَاللَّهِ مَا ذَكَرْتُهَا قَطُّ إِلَّا تَغَشَّى بَصْرِي وَقَلْبِي غِشَاوَةٌ، قَالَ: قَالَ سَعْدٌ: فَأَنَا أَتَيْنُكَ بِهَا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ لَنَا أَوَّلَ دَعْوَةٍ، ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِي فَشَغَلَهُ حَتَّى قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَاتَّبَعْتُهُ فَلَمَّا أَشْفَقْتُ أَنْ يَسْبِقَنِي إِلَى مَنْزِلِهِ، ضَرَبْتُ بِقَدَمِي الْأَرْضَ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا أَبُو إِسْحَاقَ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَمَنْ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ، إِلَّا أَنَّكَ ذَكَرْتَ لَنَا أَوَّلَ دَعْوَةٍ ثُمَّ جَاءَ هَذَا الْأَعْرَابِيُّ فَشَغَلَكَ، قَالَ: نَعَمْ دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ. مسند أحمد (عالم الكتب) [١/ ٤٦٣] (١٤٦٢) صحيح لغيره

^{٣٧٥} - لظنه أن قومه لن يسلموا بعد أن هددهم الله تعالى بالعذاب، وليس لعدم صبره على تكاليف الرسالة، ولكنه ذهب بغير أمر الله تعالى، فجاء العتاب من الله تعالى له، وربما لولا ذهابه لما أسلم قومه قبل فوات الأوان.

تحول الكائن البشري تحويلاً تاماً في لحظة متى أصابت اللمسة موضعها. وإن الإنسان ليدّش أحياناً وهو يحاول ألف محاولة، ثم إذا لمسة عابرة تصيب موضعها في الجهاز البشري فينتفض كله بأيسر مجهود، وقد أعيا من قبل على كل الجهود!

وأقرب ما يحضرنى للتمثيل لهذه الحالة جهاز الاستقبال عند البحث عن محطة إرسال.. إنك لتحرك المشير مرات كثيرة ذهاباً وإياباً فتخطئ الحطة وأنت تدقق وتصوب. ثم إذا حركة عابرة من يدك. فتتصل الموجة وتنطلق الأصدا والأنغام!

إن القلب البشري هو أقرب ما يكون إلى جهاز الاستقبال. وأصحاب الدعوات لا بد أن يحاولوا تحريك المشير ليتلقى القلب من وراء الأفق. ولمسة واحدة بعد ألف لمسة قد تصله بمصدر الإرسال! إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لأن الناس لا يستجيبون لدعوته، فيهجر الناس.. إنه عمل مريح، قد يفتأ الغضب، ويهدى الأعصاب.. ولكن أين هي الدعوة؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين؟!

إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية! فليضق صدره. ولكن ليكظم ويمض. وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون!

إن الداعية أداة في يد القدرة. والله أرعى لدعوته وأحفظ. فليؤد هو واجبه في كل ظرف، وفي كل جو، والبقية على الله. والهدى هدى الله.

وإن في قصة ذي النون درساً لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأملوه.

وإن في رجعة ذي النون إلى ربه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتدبروها.

وإن في رحمة الله لذي النون واستجابة دعائه المتب في الظلمات لبشرى للمؤمنين: «وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ»..^{٣٧٦}.

وقال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} (١٨٦) سورة البقرة
يأمر الله تعالى عباده بالاستجابة إليه، وبالقيام بما أمرهم به من الإيمان والعبادات، كالصوم والصلاة والزكاة.. لعلهم يكونون من المهتدين الراشدين.^{٣٧٧}

قال الطبري: "وَإِذَا سَأَلَكَ يَا مُحَمَّدُ عِبَادِي عَنِّي أَيْنَ أَنَا؟ فَإِنِّي قَرِيبٌ مِنْهُمْ أَسْمَعُ دُعَاءَهُمْ، وَأُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي مِنْهُمْ. وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيمَا أُنْزِلَتْ فِيهِ هَذِهِ آيَةُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَتْ فِي سَائِلِ سَأَلَ

^{٣٧٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٠٩٧)

^{٣٧٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٩٣، بترقيم الشاملة آليا)

[ص: ٢٢٣] النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَقْرَبُ رَبُّنَا فَنُنَاجِيهِ، أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيهِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ} [البقرة: ١٨٦] الْآيَةَ

عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ " سَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ: أَيُّنَ رَبُّنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ..} [البقرة: ١٨٦] الْآيَةَ " وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ نَزَلَتْ جَوَابًا لِمَسْأَلَةِ قَوْمٍ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ سَاعَةٍ يَدْعُونَ اللَّهَ فِيهَا؟

عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ " لَمَّا نَزَلَتْ {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠] قَالُوا فِي أَيِّ سَاعَةٍ؟ قَالَ: فَتَزَلَتْ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} [البقرة: ١٨٦] إِلَى [ص: ٢٢٤] قَوْلِهِ: {لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦] "

وَعَنْ عَطَاءٍ، فِي قَوْلِهِ " {أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦] قَالُوا: لَوْ عَلِمْنَا أَيُّ سَاعَةٍ نَدْعُو؟ فَتَزَلَتْ {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} [البقرة: ١٨٦] الْآيَةَ "

وَعَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: زَعَمَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، أَنَّهُ بَلَغَهُ لَمَّا نَزَلَتْ {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠] قَالَ النَّاسُ: لَوْ نَعْلَمُ أَيُّ سَاعَةٍ نَدْعُو؟ فَتَزَلَتْ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦] "

وَمَعْنَى مُتَأَوَّلِي هَذَا التَّأْوِيلِ: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي أَيُّ سَاعَةٍ يَدْعُونَنِي فَإِنِّي مِنْهُمْ قَرِيبٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ نَزَلَتْ جَوَابًا لِقَوْلِ قَوْمٍ قَالُوا إِذْ قَالَ اللَّهُ لَهُمْ: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠] إِلَى أَيُّنَ نَدْعُوهُ؟

قَالَ مُجَاهِدٌ، {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠] قَالُوا: إِلَى أَيُّنَ؟ فَتَزَلَتْ: {أَيُّنَ مَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} " وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ نَزَلَتْ جَوَابًا لِقَوْمٍ قَالُوا: كَيْفَ نَدْعُو؟

عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ " ذَكَرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠] قَالَ رِجَالٌ: كَيْفَ نَدْعُو يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} [البقرة: ١٨٦] إِلَى قَوْلِهِ: {يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦] " وَأَمَّا قَوْلُهُ: {فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي} [البقرة: ١٨٦] فَإِنَّهُ يَعْنِي: فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي بِالطَّاعَةِ، يُقَالُ مِنْهُ: اسْتَجَبْتُ لَهُ وَاسْتَجَبْتُهُ بِمَعْنَى أَجَبْتُهُ، كَمَا قَالَ كَعْبُ بْنُ سَعْدٍ [ص: ٢٢٦] الْعَنَوِيُّ:

وَدَاعَ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى... النَّدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ
يُرِيدُ: فَلَمْ يُجِبْهُ. وَبَنَحُوا مَا قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَجَمَاعَةٌ غَيْرُهُ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ قَوْلُهُ {فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي} [البقرة: ١٨٦] قَالَ: فَلْيُطِيعُوا لِي، قَالَ: الِاسْتِجَابَةُ: الطَّاعَةُ "

وَعَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ، قَالَ {فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي} [البقرة: ١٨٦] فَلْيَدْعُونِي " وَأَمَّا قَوْلُهُ: {وَلْيُؤْمِنُوا بِي} [البقرة: ١٨٦] فَإِنَّهُ يَعْنِي: وَلْيُصَدِّقُوا، أَيُّ وَلْيُؤْمِنُوا بِي إِذَا هُمْ اسْتَجَابُوا لِي بِالطَّاعَةِ أَنِّي لَهُمْ مِنْ وَرَاءِ طَاعَتِهِمْ لِي فِي الثَّوَابِ عَلَيْهَا وَإِحْزَالِي الْكَرَامَةِ لَهُمْ عَلَيْهَا وَأَمَّا الَّذِي تَأَوَّلَ قَوْلِهِ: {فَلْيَسْتَجِيبُوا

لي} [البقرة: ١٨٦] أَيِ بِمَعْنَى فَلْيَدْعُونِي، فَإِنَّهُ كَانَ يَتَأَوَّلُ [ص: ٢٢٧] قَوْلُهُ: {وَلْيُؤْمِنُوا بِي} [البقرة: ١٨٦] وَلْيُؤْمِنُوا بِي أَنِّي أَسْتَجِيبُ لَهُمْ

وَعَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْخُرَّاسَانِيِّ {وَلْيُؤْمِنُوا بِي} [البقرة: ١٨٦] يَقُولُ: إِنِّي أَسْتَجِيبُ لَهُمْ " وَأَمَّا قَوْلُهُ: {لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦] فَإِنَّهُ يَعْنِي: فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي بِالطَّاعَةِ، وَلْيُؤْمِنُوا بِي فَيُصَدِّقُوا عَلَى طَاعَتِهِمْ إِيَّايَ بِالثَّوَابِ مِنِّي لَهُمْ وَلْيَهْتَدُوا بِذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ فَيَرْشُدُوا كَمَا

وَعَنْ الرَّبِيعِ، فِي قَوْلِهِ {لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦] يَقُولُ: لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ " فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: وَمَا مَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ؟ فَأَنْتَ تَرَى كَثِيرًا مِنَ الْبَشَرِ يَدْعُونَ اللَّهَ فَلَا يُجَابُ لَهُمْ دُعَاءٌ وَقَدْ قَالَ: {أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦] قِيلَ: إِنَّ لَذَلِكَ وَجْهَيْنِ مِنَ الْمَعْنَى: أَحَدُهُمَا أَنَّ يَكُونَ مَعْنِيًا بِالدَّعْوَةِ الْعَمَلُ بِمَا نَدَبَ اللَّهُ إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ، فَيَكُونُ تَأْوِيلُ الْكَلَامِ: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ مِمَّنْ أَطَاعَنِي وَعَمِلَ بِمَا أَمَرْتُهُ بِهِ أُجِيبُهُ بِالثَّوَابِ عَلَى طَاعَتِهِ إِيَّايَ إِذَا أَطَاعَنِي. فَيَكُونُ مَعْنَى الدُّعَاءِ مَسْأَلَةَ الْعَبْدِ رَبَّهُ وَمَا وَعَدَ أَوْلِيَاؤُهُ عَلَى طَاعَتِهِمْ بِعِلْمِهِمْ بِطَاعَتِهِ، وَمَعْنَى الْإِجَابَةِ مِنَ اللَّهِ الَّتِي ضَمَّنَهَا لَهُ الْوَفَاءَ لَهُ بِمَا وَعَدَ الْعَامِلِينَ لَهُ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، كَمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ»

وَعَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ» ثُمَّ قَرَأَ: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠] " فَأُخْبِرَ ﷺ أَنَّ دُعَاءَ اللَّهِ إِنَّمَا هُوَ عِبَادَتُهُ وَمَسْأَلَتُهُ بِالْعَمَلِ لَهُ وَالطَّاعَةُ وَبَنَحُو الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ، ذَكَرَ أَنَّ الْحَسَنَ كَانَ يَقُولُ فِيهَا: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠] قَالَ «اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَإِنَّهُ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْتَجِيبَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» وَالْوَجْهُ الْآخَرُ: أَنَّ يَكُونَ مَعْنَاهُ: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ إِنْ شِئْتَ. فَيَكُونُ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ عَامًّا، مَخْرَجُهُ فِي التَّلَاوَةِ خَاصًّا مَعْنَاهُ^{٣٧٨}

جاءت هذه الآية بين الآيات الشارحة للصوم وأحكامه لتلفت الصائمين إلى ما هم عليه في تلك الحال من صفاء روحى يدينهم من الله ويجعلهم أكثر استعدادا للاتصال به.. فالله سبحانه وتعالى دائما أبدا أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، ولكن الإنسان هو الذي تختلف أحواله، مع الله، فيدنو أو يبعد، ويتصل أو ينقطع حسب إيمانه به، وطاعته له، ورجاءه فيه.. والإنسان في شهر الصوم مهياً للقرب من الله، مستيقظ المشاعر والأحاسيس لمناجاته.^{٣٧٩}

والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق. فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره

^{٣٧٨} - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢٢ / ٣)

^{٣٧٩} - التفسير القرآني للقرآن (٢٠٢ / ١)

ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به، الموجب للاستجابة، فلماذا قال: {فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} أي: يحصل لهم الرشd الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره، سبب لحصول العلم كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا} ٣٨٠

فإني قريب .. أجب دعوة الداع إذا دعان .. أية رقة؟ وأي انعطاف؟ وأية شفافية؟ وأي إيناس؟ وأي نفع مشقة الصوم ومشقة أي تكليف في ظل هذا الود، وظل هذا القرب، وظل هذا الإيناس؟ وفي كل لفظ في التعبير في الآية كلها تلك الندوة الحبيبة: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ. أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» ..

إضافة العباد إليه، والرد المباشر عليهم منه .. لم يقل: فقل لهم: إني قريب .. إنما تولى بذاته العلية الجواب على عبادته بمجرد السؤال .. قريب .. ولم يقل أسمع الدعاء .. إنما عجل بإجابة الدعاء: «أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» ..

إنما أية عجيبة .. أية تسكب في قلب المؤمن الندوة الحلوة، والود المؤنس، والرضى المطمئن، والثقة واليقين .. ويعيش منها المؤمن في جناب رضي، وقربى ندية، وملاذ أمين وقرار مكين.

وفي ظل هذا الأنس الحبيب، وهذا القرب الودود، وهذه الاستجابة الوحية .. يوجه الله عباده إلى الاستجابة له، والإيمان به، لعل هذا أن يقودهم إلى الرشd والهداية والصالح. «فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي، وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ» .. فالثمرة الأخيرة من الاستجابة والإيمان هي لهم كذلك .. وهي الرشd والهدى والصالح. فالله غني عن العالمين.

والرشd الذي ينشئه الإيمان وتنشئه الاستجابة لله هو الرشd. فالمنهج الإلهي الذي اختاره الله للبشر هو المنهج الوحيد الراشد القاصد وما عداه جاهلية وسفه لا يرضاه راشد، ولا ينتهي إلى رشاد. واستجابة الله للعباد مرجوة حين يستجيبون له هم ويرشدون. وعليهم أن يدعوه ولا يستعجلوه. فهو يقدر الاستجابة في وقتها بتقديره الحكيم.

عَنْ سَلْمَانَ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَيَسْتَحْيِي أَنْ يَسْطُرَ الْعَبْدُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ يَسْأَلُهُ فِيهِمَا خَيْرًا، فَيَرُدُّهُمَا خَائِبَتَيْنِ ٣٨١. وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ حَدَّثَهُمْ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، أَوْ كَفَّ عَنْهُ مِنَ الشَّوِّ مِثْلَهَا، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ، أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمٍ ٣٨٢.

٣٨٠ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٧)

٣٨١ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٧/ ٨٢١] (٢٣٧١٤) ٢٤١١٥ صحيح

٣٨٢ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٧/ ٨٢١] (٢٢٧٨٥) ٢٣١٦٨ صحيح

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، فيقول: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي. ٣٨٣ ..

وفي صحيح مسلم وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ - أنه قال « لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ مَا لَمْ يَسْتَعْجَلْ ». قيل يا رسول الله ما الاستعجال قال « يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرِ يَسْتَجِبْ لِي فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدْعُ الدُّعَاءَ ». ٣٨٤ .

والصائم أقرب الدعاة استجابة، كما روى الإمام أبو داود الطيالسي في مسنده عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لِلصَّائِمِ عِنْدَ إِفْطَارِهِ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو إِذَا أَفْطَرَ دَعَا أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَدَعَا. ٣٨٥ .

وعن عبد الله، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ دَعْوَةٌ مَا تُرَدُّ "، قَالَ: وَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ يَقُولُ عِنْدَ فِطْرِهِ: " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ أَنْ تَغْفِرَ لِي " ٣٨٦ .

وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه وعن سعد الطائي، قال: حَدَّثَنِي أَبُو الْمُدَلَّةِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَوْلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ رَقَّتْ قُلُوبُنَا، وَكُنَّا مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ، وَإِذَا فَارَقْنَاكَ أَعْجَبْتَنَا الدُّنْيَا، وَشَمَمْنَا النِّسَاءَ وَالْأَوْلَادَ، فَقَالَ: لَوْ تَكُونُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَلَى الْحَالِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ عِنْدِي لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةَ بِأَكْفُكُمْ، وَلَوْ أَنَّكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَوْ لَمْ تُدْنِبُوا لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُدْنِبُونَ كَيْ يَغْفَرَ لَهُمْ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَدِّثْنَا عَنْ الْجَنَّةِ مَا بَنَّاؤُهَا ؟ قَالَ: لَبَنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبَنَةٌ مِنْ فَضَّةٍ وَمَلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ أَوْ الْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الرِّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ، فَلَا يَبُورُ، وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ، ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْعَمَامِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ. ٣٨٧ .

وقال تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) }
سورة الأنفال

٣٨٣ - أخرجه الشيخان وغيرهما المسند الجامع [١٧/ ١٥٠٧] (١٤٣٦٥)

٣٨٤ - صحيح مسلم - المكثر [١٧/ ٤٠٨] (٧١١٢) يستحسر: ينقطع عن الدعاء

٣٨٥ - مسند الطيالسي - طبعة دار هجر - مصر [٤/ ١١١] (٢٣٧٦) حسن

٣٨٦ - شعب الإيمان [٥/ ٤٠٧] (٣٦٢١) ضعيف

٣٨٧ - المسند الجامع [١٨/ ٥٦٩] (١٥٠٧٤) وصحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [١٦/ ٣٩٦] (٧٣٨٧) صحيح لغيره

حينما التقت الفِتنان، المسلمون والمُشركون في ساحة المعركة، وجد المسلمون المُشركين كثيرين العدد، فاستغاث الرسولُ برَبِّه، وقال: اللَّهُمَّ أَنْجِزْنِي وَعْدَكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ. وَفِيهَا يُعَلِّمُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنَّهُ اسْتَجَابَ لِدُعَائِهِ وَدُعَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُ سَيَمُدُّهُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَأْتُوهُمْ مَدَدًا يُرَدُّ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا، أَيَّ يَأْتِي بَعْضُهُمْ إِثْرَ بَعْضٍ.^{٣٨٨}

يتعلق الظرف «إِذْ» بقوله تعالى: «وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» أَيَّ إِنْ إِرَادَةَ اللَّهِ بِإِحْقَاقِ الْحَقِّ بِكَلِمَاتِهِ، وَقَطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ - قَدْ رَأَيْتُمْ تَحْقِيقَهَا فِي هَذَا الْوَقْتِ الَّذِي كُنْتُمْ تَسْتَغِيثُونَ فِيهِ رَبَّكُمْ، وَقَدْ اتَّقَيْتُمُ بِالْمُشْرِكِينَ فِي كَثَرَتِهِمْ، وَقَلَّتْكُمْ..

وقوله تعالى: «فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ» أَيَّ حِينَ وَاجِهْتُمْ الْعَدُوَّ، وَأَفْرَعْتُمْ كَثَرَتَهُ، وَفَزَعْتُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَمْدُكُمْ بِنَصْرِهِ - اسْتَجَابَ لَكُمْ رَبَّكُمْ، وَأَمْدَكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ، أَيَّ يَرْدِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَجِيءُ بَعْضُهُمْ إِثْرَ بَعْضٍ.

وقوله سبحانه: «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» الضمير في «جَعَلَهُ» يعود إلى هذا المدد السماوي.. أَيَّ مَا جَعَلَ اللَّهُ هَذَا الْمَدَدَ السَّمَاوِيَّ الَّذِي أَمْدَكُمْ بِهِ إِلَّا بُشْرَى لِلنَّصْرِ الَّذِي وَعَدَكُمْ بِهِ، وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، فَلَا يَهْوِلَنَّكُمُ الْعَدُوُّ وَكَثْرَةُ عَدَدِهِ، بَعْدَ أَنْ عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ مَعَكُمْ، وَأَنَّ إِشَارَاتِ النَّصْرِ وَبُشْرِيَّاتِهِ قَدْ جَاءَتْ إِلَيْكُمْ، تَحْمِلُهَا مَلَائِكَةُ الرَّحْمَنِ الَّتِي بَعَثَهَا اللَّهُ لِتُقَاتِلَ مَعَكُمْ.. فَهَلْ يَغْلِبُ مَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ؟ وَهَلْ يَهْزِمُ مَنْ كَانَتْ جُنُودُ الرَّحْمَنِ تُقَاتِلُ فِي صُفُوفِهِ، وَلَوْ كَانَ فَرْدًا يُقَاتِلُ النَّاسَ جَمِيعًا؟

وهذه الجند المرسلة من السماء، ليست إلا أَلُطَافًا مِنْ أَلُطَافِ اللَّهِ بِكُمْ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْحَرَجِ، تَرَوْنَ مِنْهَا بُشَائِرَ النَّصْرِ، وَتَجِدُونَ فِيهَا رِيحَ السَّكِينَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ - أَمَّا النَّصْرُ فَهُوَ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَهُوَ الَّذِي كَتَبَ لَكُمْ النَّصْرَ، وَلَيْسَتْ الْمَلَائِكَةُ الَّتِي قَاتَلَتْ مَعَكُمْ.. «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» لَهُ سُبْحَانَهُ، الْعِزَّةُ، يَعِزُّ بِهَا مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْصُرُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ، وَيُخْذِلُ مَنْ يَشَاءُ، حَسَبَ مَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ..^{٣٨٩}

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَيُذِلُّ الْبَاطِلَ حِينَ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ، فَ - «إِذْ» مِنْ صِلَةٍ «يُذِلُّ» وَمَعْنَى قَوْلِهِ: {تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ} [الأنفال: ٩] تَسْتَجِيرُونَ بِهِ مِنْ عَدُوِّكُمْ، وَتَدْعُوهُ لِلنَّصْرِ عَلَيْهِمْ. {فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} [الأنفال: ٩] يَقُولُ: فَاجَابَ دُعَاءَكُمْ بِأَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ [ص: ٥١] مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَرْدِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَتْلُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَبَنَحُوا مَا قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ وَجَاءَتِ الرَّوَايَةُ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

عَنْ عِكْرَمَةَ بْنِ عَمَّارٍ، قَالَ: ثَنِي سِمَاكَ الْحَنْفِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: ثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ وَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَعَدَّتْهُمْ، وَنَظَرَ إِلَى أَصْحَابِهِ نَفْسًا

^{٣٨٨} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١٧٠، بترقيم الشاملة آليا)

^{٣٨٩} - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٧١)

عَلَى ثَلَاثِمِائَةٍ، فَاسْتَقْبَلَ الْقَبِيلَةَ، فَجَعَلَ يَدْعُو وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، لَا تُعْبِدُ فِي الْأَرْضِ»، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ، وَأَخَذَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: كَفَاكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ بِأَبِي وَأُمِّي مُنَاشِدَتَكَ رَبِّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال: ٩]

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "لَمَّا اصْطَفَى الْقَوْمُ قَالَ أَبُو جَهْلٍ: اللَّهُمَّ أَوْلَانَا بِالْحَقِّ فَاَنْصُرْهُ، وَرَفَعَ [ص: ٥٢] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ، فَقَالَ: «يَا رَبِّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا»
وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "قَامَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيَّ الْكِتَابَ، وَأْمُرْنِي بِالْقِتَالِ، وَوَعِدْتَنِي بِالنَّصْرِ، وَلَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [آل عمران: ١٢٥]

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ يُثَيْعٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْعَرِيشِ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اَنْصُرْ هَذِهِ الْعَصَابَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ» قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَعْضُ مُنَاشِدَتِكَ مُنْجِرُكَ مَا وَعَدَكَ "

وَعَنْ السُّدِّيِّ، قَالَ: «أَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو اللَّهَ وَيَسْتَغِيثُهُ وَيَسْتَنْصِرُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ»
وَعَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَوْلُهُ: " {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ} [الأنفال: ٩] قَالَ: دُعَاءُ النَّبِيِّ ﷺ
وَعَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ: " {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ} [الأنفال: ٩] أَي: بِدُعَائِكُمْ حِينَ نَظَرُوا إِلَى كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ، فَاسْتَجَابَ لَكُمْ بِدُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَدُعَائِكُمْ مَعَهُ "

وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ، قَالَ: "لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُنَاشِدُ رَبَّهُ أَشَدَّ النَّشْدَةِ، يَدْعُو فَأَتَاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْضُ نَشِدَتِكَ، فَوَاللَّهِ لَيَفِينَنَّ اللَّهُ لَكَ بِمَا وَعَدَكَ "
وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: " {مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال: ٩] قَالَ: وَرَاءَ كُلِّ مَلِكٍ مَلِكٌ "
وَعَنْ قَابُوسَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا ظُبْيَانَ، يَقُولُ: " {مُرْدِفِينَ} [الأنفال: ٩] قَالَ: الْمَلَائِكَةُ بَعْضُهُمْ عَلَى إِثْرِ بَعْضٍ "

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ إِرْدَافَ الْمَلَائِكَةِ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَتَابَعَهَا بِالْمَصِيرِ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَدَدًا لَكُمْ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ: أَي: بَشَارَةً لَكُمْ تُبَشِّرُكُمْ بِنَصْرِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ. {وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ} [الأنفال: ١٠] يَقُولُ: وَلِتَسْكُنَ قُلُوبُكُمْ بِمَجِيئِهَا إِلَيْكُمْ، وَتُوقِنَ بِنُصْرَةِ اللَّهِ لَكُمْ، يَقُولُ: وَمَا تُنْصِرُونَ عَلَى عَدُوِّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَنْ يَنْصُرَكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، لَا بِشِدَّةِ بَأْسِكُمْ وَقَوَائِكُمْ، بَلْ بِنَصْرِ اللَّهِ لَكُمْ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ بِيَدِهِ وَإِلَيْهِ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ. يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ الَّذِي يَنْصُرُكُمْ وَيَبْدَهُ نَصْرُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، عَزِيزٌ لَا يَقْهَرُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ، بَلْ يَقْهَرُ كُلَّ شَيْءٍ وَيَغْلِبُهُ؛ لِأَنَّهُ خَلَقَهُ، {حَكِيمٌ}

[البقرة: ٢٠٩] يَقُولُ: حَكِيمٌ فِي تَدْبِيرِهِ وَنَصْرِهِ مَنْ نَصَرَ، وَخَذَلَانِهِ مَنْ خَذَلَ مِنْ خَلْقِهِ، لَا يَدْخُلُ تَدْبِيرَهُ وَهْنٌ وَلَا خَلَلٌ. وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَثِيرٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي ذَلِكَ^{٣٩٠}

وبحسبنا أن نعلم أن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها في ذلك اليوم، وهي قلة والأعداء كثرة. وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيه الملاء الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذي يصفه الله - سبحانه - في كلماته ..

روى البخاري عَنْ مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعِ الزُّرَقِيِّ عَنْ أَبِيهِ - وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ - قَالَ جَاءَ جَبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ « مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فَيْكُمْ قَالَ مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - قَالَ وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ »^{٣٩١}....

«إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ، فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى، وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» ..

لقد استجاب لهم ربهم وهم يستغيثون، وأنبأهم أنه ممدهم بألف من الملائكة مردفين .. ومع عظمة هذا الأمر ودلالته على قيمة هذه العصبة وقيمة هذا الدين في ميزان الله إلا أن الله سبحانه لا يدع المسلمين يفهمون أن هناك سببا ينشئ نتيجة، إنما يرد الأمر كله إليه - سبحانه - تصحيحا لعقيدة المسلم وتصوره. فهذه الاستجابة، وهذا المدد، وهذا الإخبار به ... كل ذلك لم يكن إلا بشري، ولتطمئن به القلوب. أما النصر فلم يكن إلا من عند الله ولا يكون .. هذه هي الحقيقة الاعتقادية التي يقررها السياق القرآني هنا، حتى لا يتعلق قلب المسلم بسبب من الأسباب أصلا ..

لقد كان حسب المسلمين أن يبذلوا ما في طوقهم فلا يستبقوا منه بقية وأن يغالبوا الهزة الأولى التي أصابت بعضهم في مواجهة الخطر الواقعي، وأن يمضوا في طاعة أمر الله، واثقين بنصر الله .. كان حسبهم هذا لينتهي دورهم ويحيى دور القدرة التي تصرفهم وتدبرهم .. وما عدا هذا فكان بشارة مطمئنة، وتثبيتا للقلوب في مواجهة الخطر الواقعي .. وإنه لحسب العصبة المؤمنة أن تشعر أن جند الله معها لتطمئن قلوبها وتثبت في المعركة. ثم يحيى النصر من عند الله وحده. حيث لا يملك النصر غيره. وهو «العزیز» القادر الغالب على أمره. وهو «الحكيم» الذي يحل كل أمر محله ..^{٣٩٢}.

وقال تعالى: {قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} (٧٧) سورة الفرقان

^{٣٩٠} - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١ / ٥٠)

^{٣٩١} - صحيح البخاري - المكثر [١٣ / ٣٥٣] (٣٩٩٢)

^{٣٩٢} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠١١)

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤَلَاءِ الَّذِينَ أُرْسِلْتُ إِلَيْهِمْ: إِنَّ الْفَائِزِينَ بِنِعَمِ اللَّهِ الْجَلِيلَةِ، الَّتِي يَتَنَافَسُ فِيهَا الْمُتَنَافِسُونَ إِنَّمَا نَالُوهَا بِمَا ذَكَرَ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي اتَّصَفُوا بِهَا، وَلَوْلَا هَا لَمْ يَهْتَمَّ بِهِمْ رَبُّهُمْ، وَلَمْ يَعْتَدَّ. وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَعْجَبُ بِكُمْ إِذَا لَمْ تَعْبُدُوهُ، فَمَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ إِلَّا لِيَعْبُدُوا رَبَّهُمْ وَيُطِيعُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمَا دُمْتُمْ قَدْ خَالَفْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ، وَعَصَيْتُمْ حُكْمَهُ، وَكَذَّبْتُمْ رَسُولَهُ، فَسَوْفَ يَلْزَمُكُمْ أَثَرُ تَكْذِيبِكُمْ، وَهُوَ الْعِقَابُ الَّذِي لَا مَنَاصَ مِنْهُ، فَاسْتَعِدُّوا لَهُ، وَهَيِّئُوا أَنْفُسَكُمْ لِذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَصِيبِ، وَهُوَ آتٍ قَرِيبٌ. ^{٣٩٣}

يَقُولُ جَلَّ ثَنَاهُ لِنَبِيِّهِ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤَلَاءِ الَّذِينَ أُرْسِلْتُ إِلَيْهِمْ: أَيَّ شَيْءٍ يَعِدُكُمْ ، وَأَيَّ شَيْءٍ يَصْنَعُ بِكُمْ رَبِّي؟ يُقَالُ مِنْهُ: عَبَّاتُ بِهِ أَعْبَأَ عَيْبًا ، وَعَبَّاتُ الطَّيْبِ أَعْبَوْهُ: إِذَا هَيَّأَتْهُ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

كَأَنَّ بَنَحْرَهُ وَبِمَنْكَبِهِ... عَبِيرًا بَاتَ يَعْبُوهُ عَرُوسُ

يَقُولُ: يَهَيِّئُهُ وَيَعْمَلُهُ يَعْبُوهُ عَبَاً وَعَبُوءًا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: عَبَّاتُ الْحَيْشِ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ فَإِنَّا أَعْبَوْهُ: أَهَيَّئُهُ. وَالْعَبَاءُ: الثَّقَلُ. وَبَنَحْرُ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ

يَقُولُ: لَوْلَا عِبَادَةُ مَنْ يَعْبُدُهُ مِنْكُمْ ، وَطَاعَةُ مَنْ يُطِيعُهُ مِنْكُمْ. وَبَنَحْرُ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: " { مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ } [الفرقان: ٧٧] يَقُولُ: لَوْلَا إِيمَانُكُمْ ، وَأَخْبَرَ اللَّهُ الْكُفَّارَ أَنَّهُ لَا حَاجَةَ لَهُ بِهِمْ إِذْ لَمْ يَخْلُقْهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَلَوْ كَانَ لَهُ بِهِمْ حَاجَةٌ لَحَبَّبَ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ كَمَا حَبَّبَهُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ "

عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَوْلُهُ: { لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ } [الفرقان: ٧٧] قَالَ: «لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ إِيَّاهُ لَتَعْبُدُوهُ وَتُطِيعُوهُ»

وَقَوْلُهُ { فَقَدْ كَذَّبْتُمْ } [الفرقان: ٧٧] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِمُشْرِكِي قُرَيْشٍ قَوْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ وَخَالَفْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ الَّذِي أَمَرَ بِالتَّمَسُّكِ بِهِ. لَوْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ ، كَانَ يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي؛ فَسَوْفَ يَكُونُ تَكْذِيبُكُمْ رَسُولَ رَبِّكُمْ ، وَخِلَافُكُمْ أَمْرَ بَارِئِكُمْ عَذَابًا لَكُمْ مُلَازِمًا ، قَتْلًا بِالسَّيُوفِ وَهَلَاكًا لَكُمْ مُفْنِيًا يُلْحِقُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ^{٣٩٤}

وما هذه البشرية كلها، لولا القلة المؤمنة التي تدعو الله. وتتضرع إليه.

كما يدعو عباد الرحمن ويتضرعون؟

من هم والأرض التي تضم البشر جميعا إن هي إلا ذرة صغيرة في فضاء الكون الهائل. والبشرية كلها إن هي إلا نوع من أنواع الأحياء الكثيرة على وجه هذه الأرض. والأمة واحدة من أمم هذه الأرض. والجيل الواحد من أمة إن هو إلا صفحة من كتاب ضخم لا يعلم عدد صفحاته إلا الله؟

^{٣٩٣} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٨١٤ ، بترقيم الشاملة آليا)

^{٣٩٤} - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٧/ ٥٣٥)

وإن الإنسان مع ذلك لينتفخ وينتفخ ويحسب نفسه شيئاً ويتطاول ويتطاول حتى ليتطاول على خالقه سبحانه! وهو هين هين، ضعيف ضعيف، قاصر قاصر. إلا أن يتصل بالله فيستمد منه القوة والرشاد، وعندئذ فقط يكون شيئاً في ميزان الله وقد يرجح ملائكة الرحمن في هذا الميزان. فضلاً من الله الذي كرم هذا الإنسان وأسجد له الملائكة، ليعرفه ويتصل به ويتعبد له، فيحفظ بذلك خصائصه التي سجدت له معها الملائكة وإلا فهو لقي ضائع، لو وضع نوعه كله في الميزان ما رجحت به كفة الميزان! «قُلْ: مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ». وفي التعبير سند للرسول - ﷺ - وإعزاز: «قُلْ: مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي». فأنا في جواره وحماه. هو ربي وأنا عبده. فما أنتم بغير الإيمان به، والانضمام إلى عباده؟ إنكم حصب جهنم «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا»^{٣٩٥}.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: لَمَّا تُوفِّي أَبُو طَالِبٍ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ مَاشِياً عَلَى قَدَمَيْهِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُجِيبُوهُ، فَانْصَرَفَ فَأَتَى ظِلَّ شَجَرَةٍ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، إِلَى مَنْ تَكَلَّنِي، إِلَى عَدُوِّ يَتَجَهَّمُنِي أَوْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَكَتْهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضَبَانَ عَلَيَّ فَلَا أَبَالِي، غَيْرَ أَنْ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلِّحْ عَلَيَّ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»^{٣٩٦}.

وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، حَاحَ وَحَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، وَاللَّفْظُ لَهُ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُوسُفَ الْحَنْفِيُّ، حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنِي أَبُو زُمَيْلٍ هُوَ سِمَاكُ الْحَنْفِيُّ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةِ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبِدْ فِي الْأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ، مَا دَامَ يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِذَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشِدَتُكَ رَبِّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال: ٩] فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ، قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ: فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَسْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ [ص: ١٣٨٥] فَاخْضَرَ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ

^{٣٩٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٣١٦)

^{٣٩٦} - الدعاء للطبراني (ص: ٣١٥) (١٠٣٦) حسن

سَبْعِينَ، وَأَسْرُوا سَبْعِينَ، قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا أَسْرُوا الْأَسَارَى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِبَكْرِ، وَعُمَرَ: «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةٌ عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلَيْنَا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِي مِنْ فُلَانٍ نَسِيًّا لِعُمَرَ، فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أُمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهُوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ جِئْتُ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءَ بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءَ تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أُبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخَذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - شَجَرَةِ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ - وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخَنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال: ٦٧] إِلَى قَوْلِهِ {فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} [الأنفال: ٦٩] فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ ٣٩٧^{١١٥}

وَعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الْبَرَاءِ، فَقَالَ: أَكُنْتُمْ وَلَيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ يَا أَبَا عُمَارَةَ؟ فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ مَا وَلَّى، وَلَكِنَّهُ انْطَلَقَ أَخْفَاءُ مِنَ النَّاسِ، وَخَسِرَ إِلَى هَذَا الْحَيِّ مِنْ هَوَازِنَ، وَهُمْ قَوْمٌ رُمَاءٌ، فَرَمَوْهُمْ بِرَشْقٍ مِنْ نَبْلِ كَانَتْهَا رَجُلٌ مِنْ جَرَادٍ، فَانْكَشَفُوا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ يَقُودُ بِهِ بَعْلَتَهُ، فَنَزَلَ وَدَعَا وَاسْتَنْصَرَ، وَهُوَ يَقُولُ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ

٣٩٧ - صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣) ٥٨ - (١٧٦٣)

[ش (لما كان يوم بدر) اعلم أن بدرًا هو موضع الغزوة العظمى المشهورة وهو ماء معروف وقرية عامرة على نحو أربع مراحل من المدينة بينها وبين مكة قال ابن قتيبة بدر بئر كانت لرجل يسمى بدرًا فسميت باسمه وكانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان في السنة الثانية للهجرة (فجعل يهتف بربه) معناه يصيح ويستغيث بالله في الدعاء (أن تملك) ضبطوا تملك بفتح الهاء وضمها فعلى الأول ترفع العصاة لأنها فاعل وعلى الثاني تنصب وتكون مفعوله (العصاة) الجماعة (كذلك مناشدتك ربك) المناشدة السؤال مأخوذة من التشديد وهو رفع الصوت هكذا وقع لجماهير رواة مسلم كذلك ولبعضهم كفك وكل بمعنى (مناشدتك) ضبطوها بالرفع والنصب وهو الأشهر قال القاضي من رفعه جعله فاعلاً بكفك ومن نصبه فعلى المفعول بما في كفك وكذلك من معنى الفعل (مدمكم) أي معينكم من الإمداد (مردفين) متتابعين (أقدم حيزوم) ضبطوه بوجهين أحدهما وأشهرهما لم يذكر ابن دريد وكثيرون أو الأكثرون غيره أنه بجمزة قطع مفتوحة وبكسر الدال من الإقدام قالوا وهي كلمة زجر للفرس معلومة في كلامهم والثاني بضم الدال وبهمزة وصل مضمومة من التقدم وحيزوم اسم فرس الملك وهو منادى بحذف حرف النداء أي يا حيزوم

(فإذا هو قد خطم أنفه) الخطم الأثر على الأنف (وصناديدها) يعني أشرافها الواحد صنديد والضمير في صناديدها يعود على أئمة الكفر أو مكة (فهوى) أي أحب ذلك واستحسنه يقال هوى الشيء بهوى هوى والهوى المحبة (ولم يهو ما قلت) هكذا هو في بعض النسخ ولم يهو وفي كثير منها ولم يهوى بالياء وهي لغة قليلة بإثبات الياء مع الجازم ومنه قراءة من قرأ إنه من يتقي ويصبر بالياء ومنه قول الشاعر ألم يأتيك والأبناء تمني (حتى يثخن في الأرض) أي يكثر القتل والفقر في العدو]

الْمُطَلَّبُ، اللَّهُمَّ نَزَّلْ نَصْرَكَ»، قَالَ الْبَرَاءُ: «كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لِلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ» ٣٩٨

٥٤ - إيثَارُ حُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قال تعالى: { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) } [آل عمران]

هذه الآية نزلت حين دعا رسولُ الله ﷺ كعب بن الأشرف ومن تابعه من اليهود إلى الإيمان، فقالوا: (نحن أبناءُ الله وأحباؤه). فأنزل الله تعالى هذه الآية، وفيها يأمرُ الله نبيه الكريم بأن يقول لهم: من ادعى حُبَّ الله دون أن يتبع شرعَ مُحَمَّدٍ، فهو غيرُ صادقٍ، فدينُ الله واحدٌ، وشرعُه واحدٌ، والأديانُ يصدقُ بعضها بعضاً ويكملُها. وجاء دينُ مُحَمَّدٍ ﷺ ليختم الأديانَ السابقة ويكملُها، فلا يُمكنُ أن يدعي أحدٌ حُبَّ الله، وهو يكفرُ بشرعِه وما أنزلَه على رسولِه. ومن يتبع شرعَ مُحَمَّدٍ ﷺ ويُخلصُ في ذلك يُحِبُّه الله، واتباعُ أمرِه. والله كثيرُ العُفْوانِ لعباده، عظيمُ الرَّحمةِ بهم. ٣٩٩

ومما هو مكر بالله ما يدعيه المدعون على الله من اليهود أنهم أبناءُ الله وأحباؤه، وهم في الوقت نفسه يعادون أولياء الله، ويشاققون رسله، ويقتلون أنبياءه.. فكيف تصح لهم هذه الدعوى، وآخرها ينقض أولها؟

فإن الحبَّ الحقيقي يحبُّ كل من أحبَّ من يحبُّ، وإلا فحبُّه لمن أحبَّ نزوة طارئة، أو دعوى باطلة. والعداوة التي يضرها اليهود للنبي، والتي تستعلن في كيدهم له ومكرهم به، لا تستقيم مع دعواهم بأنهم أحباء الله، فإن كانوا أحباء الله حقاً فليتبِعُوا رسولَه، وليستجيبوا لما يدعوهم إليه من كلمات ربِّه.. إنهم لو فعلوا ذلك لصدقت دعواهم، ولأحبَّهم الله حقاً، ولغفر لهم ذنوبهم، وما قطعوا من عمر طويل مع الشقاق والنفاق «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».. فإن أبوا إلا شقاقاً ونفاقاً، فهم على دعوى باطلة.. إنهم ليسوا أحباباً لله، بل هم أعداء محاربون له، كافرون بآياته وبرسله «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

٣٩٨ - صحيح مسلم (٣/ ١٤٠١) - ٧٩ (١٧٧٦)

[ش (كأها رجل من جراد) يعني كأها قطعة من جراد قال في النهاية الرجل بالكسر الجراد الكثير

(فانكشفوا) أي انهزموا وفارقوا مواضعهم وكشفوها (إذا احمر البأس) احمرار البأس كناية عن شدة الحرب واستعير ذلك لحرارة الدماء

الحاصلة فيها في العادة أو لاستعار الحرب واشتعالها كاحمرار الجمر

٣٩٩ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٢٥، بترقيم الشاملة آليا)

الْكَافِرِينَ» وَإِنَّمَا حُبُّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَمَنْ لَبَسَ الْإِيمَانَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَحِبَّائِهِ، وَمَنْ اسْتَبْطَنَ الْكُفْرَ وَالتَّفَاقُ فَهُوَ عَدُوٌّ لِلَّهِ، لَا يَكُونُ مُحِبًّا وَلَا مَحْبُوبًا.^{٤٠٠}

وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ} أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محبا لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص.^{٤٠١}

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ حَاكِمَةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ، وَلَيْسَ هُوَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، حَتَّى يَتَّبِعَ الشَّرْعَ الْمُحَمَّدِيَّ وَالَّذِينَ التَّبَوَّى فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: سَأَلْتُ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ عَنْ رَجُلٍ لَهُ ثَلَاثَةُ مَسَاكِنَ، فَأَوْصَى بِثُلْثِ كُلِّ مَسْكَنٍ مِنْهَا، قَالَ: يُجْمَعُ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي مَسْكَنٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبَرْتَنِي عَائِشَةُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^{٤٠٢}

وَلِهَذَا قَالَ: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} أي: يَحْصُلُ لَكُمْ فَوْقَ مَا طَلَبْتُمْ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ إِيَّاهُ، وَهُوَ مَحَبَّتُهُ إِيَّاكُمْ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْأَوَّلِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ الْعُلَمَاءِ: لَيْسَ الشَّيْءُ أَنْ تُحِبَّ، إِنَّمَا الشَّيْءُ أَنْ تُحَبَّ وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ فَابْتَلَاهُمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} .

ثُمَّ قَالَ: {وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} أي: بِاتِّبَاعِكُمْ لِلرَّسُولِ ﷺ يَحْصُلُ لَكُمْ هَذَا كُلُّهُ بِبَرَكَتِ سِفَارَتِهِ.

ثُمَّ قَالَ أَمْرًا لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ خَاصٍّ وَعَامٍّ: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا} أي: خَالَفُوا عَنْ أَمْرِهِ {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُخَالَفَتَهُ فِي الطَّرِيقَةِ كُفْرٌ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ اتَّصَفَ

^{٤٠٠} - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٤٣٢)

^{٤٠١} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٢٨)

^{٤٠٢} - صحيح مسلم (٣/ ١٨٤٣) - (١٧١٨)

[ش (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سبق إليها فإذا احتج عليه بالرواية الأولى يقول أنا ما أحدثت شيئا فيحتاج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات سواء أحدثها الفاعل أو سبق بإحداثها وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به]

بِذَلِكَ، وَإِنْ ادَّعَى وَزَعَمَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ يُحِبُّ لِلَّهِ وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ، حَتَّى يُتَابِعَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ خَاتَمَ الرُّسُلِ، وَرَسُولَ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ الَّذِي لَوْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ - بَلِ الْمُرْسَلُونَ، بَلِ أَوْلُو الْعِزْمِ مِنْهُمْ - فِي زَمَانِهِ لَمَّا وَسِعَهُمْ إِلَّا أَتْبَاعُهُ، وَالِدُخُولُ فِي طَاعَتِهِ، وَأَتْبَاعُ شَرِيعَتِهِ...^{٤٠٣}.

إن حب الله ليس دعوى باللسان، ولا هياما بالوجدان، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله، والسير على هدايته، وتحقيق منهجه في الحياة.. وإن الإيمان ليس كلمات تقال، ولا مشاعر تحيش، ولا شعائر تقام. ولكنه طاعة لله والرسول، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول..

ويقول الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية في كتابه: «زاد المعاد في هدى خير العباد»: «وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا فِي السَّيْرِ وَالْأَخْبَارِ الثَّابِتَةِ مِنْ شَهَادَةِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ لَهُ ﷺ بِالرَّسَالَةِ، وَأَنَّهُ صَادِقٌ، فَلَمْ تَدْخُلْهُمْ هَذِهِ الشَّهَادَةُ فِي الْإِسْلَامِ، عَلِمَ أَنَّ الْإِسْلَامَ أَمْرٌ وَرَاءَ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الْمَعْرِفَةُ فَقَطْ، وَلَا الْمَعْرِفَةُ وَالْإِقْرَارُ فَقَطْ، بَلِ الْمَعْرِفَةُ وَالْإِقْرَارُ، وَالْإِنْقِيَادُ، وَالتَّزَامُ طَاعَتِهِ وَدِينِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا...»^{٤٠٤}.

إن هذا الدين له حقيقة مميزة لا يوجد إلا بوجودها.. حقيقة الطاعة لشريعة الله، والاتباع لرسول الله، والتحاكم إلى كتاب الله.. وهي الحقيقة المنبثقة من عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام. توحيد الألوهية التي لها وحدها الحق في أن تعبد الناس لها، وتطوِّعهم لأمرها، وتنفيذ فيهم شرعها، وتضع لهم القيم والموازن التي يتحاكمون إليها ويرتضون حكمها. ومن ثم توحيد القوامة التي تجعل الحاكمية لله وحده في حياة البشر وارتباطها جميعا، كما أن الحاكمية لله وحده في تدبير أمر الكون كله. وما الإنسان إلا قطاع من هذا الكون الكبير.

وهذا الدرس الأول من السورة يقرر هذه الحقيقة - كما رأينا - في صورة ناصعة كاملة شاملة، لا مهرب من مواجهتها والتسليم بها لمن شاء أن يكون مسلما. إن الدين عند الله الإسلام.. وهذا - وحده - هو الإسلام كما شرعه الله، لا كما تصوره المفتريات والأوهام...^{٤٠٥}.

وقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} (١٦٥) سورة البقرة

ومع قيام الأدلة على قُدْرَةِ اللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ مِنَ الْكُفَّارِ يَتَّخِذُونَ لِلَّهِ شُرَكَاءَ وَأَمْثَالًا (أَنْدَادًا) يَعْبُدُونَهُمْ مَعَهُ، وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ، وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا مِثِيلَ لَهُ، وَلَا شَرِيكَ مَعَهُ. أَمَّا الَّذِينَ

^{٤٠٣} - تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٣٢)

^{٤٠٤} - زاد المعاد في هدي خير العباد - مؤسسة الرسالة، بيروت [٣/ ٦٣٨]

^{٤٠٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٦٥٣)

آمَنُوا فَإِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَيُحِبُّونَهُ وَحْدَهُ، وَهُمْ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ. وَحِينَ يَرَى الْمُشْرِكُونَ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ الَّذِي يَنْزِلُهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْكَفَّارِ، فَتَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَسْبَابُ، وَلَا تُغْنِي عَنْهُمْ الْأَنْدَادُ، يُذَرِّكُونَ حِينَئِذٍ أَنَّ الْقُوَّةَ جَمِيعَهَا لِلَّهِ، وَأَنَّ الْحُكْمَ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ٤٠٦.

وإنه لضلال ما بعده من ضلال، وسفه ليس وراءه من سفه أن تكون دلائل القدرة، وشواهد الوحدانية ماثلة في كل أفق، ناجمة في كل مكان، ثم يكون مع ذلك في الناس من لا يعرف طريقه المستقيم إلى الله فتتفرق به السبل إليه، فيرى الله بعين مريضة، وبقلب سقيم، وإذا الله عنده ربّ مع أرباب، وإله بين آلهة، فولأوه الله قسمة بينه وبين ما أشرك معه من آلهة وأرباب، وحبه لله موزع مشاع بينه وبين الشركاء الذين جعلهم معه، وليس كذلك حبّ الذين آمنوا وأخلصوا بإيمانهم لله، فهو الحبّ كل الحبّ لله وحده، لا شريك له فيه. وقوله تعالى: «وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ» وعيد منزل لكيان أولئك الذين أشركوا بالله وجعلوا له أندادا، وانتقال خاطف بهم إلى يوم القيامة وأهوالها، والنار الجاحمة المعدة لهم، وعندئذ يرون أن الملك لله وحده، وأن القوة كلها بيده، لا يملك أحد منها مع الله شيئا، يدفع عنهم هذا العذاب المحيط بهم. ٤٠٧.

ومن كان بهذه الحالة - بعد إقامة الحجة، وبيان التوحيد - علم أنه معاند لله، مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته والتفكير في مخلوقاته، فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب.

وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد [ص: ٨٠] مع الله، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة، فيعبدونهم، ليقربوهم إليه، وفي قوله: {اتخذوا} دليل على أنه ليس لله ند وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أندادا له، تسمية مجردة، ولفظا فارغا من المعنى، كما قال تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ} .

{إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ} فالمخلوق ليس ندا لله لأن الله هو الخالق، وغيره مخلوق، والرب الرازق ومن عداه مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضرر والأمر شيء، فعلم علما يقينا، بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأندادا، سواء كان ملكا أو نبيا، أو صالحا، صنما، أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة، والذل التام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} أي: من أهل الأنداد لأنادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على

٤٠٦ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٧٢، بترقيم الشاملة آليا)

٤٠٧ - التفسير القرآني للقرآن (١/ ١٨٤)

الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئاً، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره.

فلهذا توعدهم الله بقوله: {وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا} باتخاذ الأنداد والانقياد لغير رب العباد وظلموا الخلق بصددهم عن سبيل الله، وسعيهم فيما يضرهم.

{إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ} أي: يوم القيامة عياناً بأبصارهم، {أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} أي: لعلموا علماً جازماً، أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فتبين لهم في ذلك اليوم ضعفها وعجزها، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا، وظنوا أن لها من الأمر شيئاً، وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه، فخاب ظنهم، وبطل سعيهم، وحق عليهم شدة العذاب، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها، من حيث ظنوا نفعها.

وتبرأ المتبوعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوصل، التي كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله، وعلى غير أمر الله، ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له، فاضمحلت أعمالهم، وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها، انقلبت عليهم حسرة وندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبداً، فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل، فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو، وتعلقوا بغير متعلق، فبطلت الأعمال ببطلان متعلقها، ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها، فضررتهم غاية الضرر، وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المبين، وأخلص العمل لوجهه، ورجا نفعه، فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقاً، لتعلقها بالحق، ففاز بنتيجة عمله، ووجد جزاءه عند ربه، غير منقطع كما قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرُوا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} ٤٠٨.

من الناس من يتخذ من دون الله أنداداً.. كانوا على عهد المخاطبين بهذا القرآن أحجاراً وأشجاراً، أو نجوماً وكواكباً، أو ملائكة وشياطين.. وهم في كل عهد من عهود الجاهلية أشياء أو أشخاص أو شارات أو اعتبارات.. وكلها شرك خفي أو ظاهر، إذا ذكرت إلى جانب اسم الله، وإذا أشركها المرء في قلبه مع حب الله. فكيف إذا نزع حب الله من قلبه وأفرد هذه الأنداد بالحب الذي لا يكون إلا لله؟

٤٠٨ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٩)

إن المؤمنين لا يحبون شيئاً حبهم لله. لا أنفسهم ولا سواهم. لا أشخاصاً ولا اعتبارات ولا شارات ولا قيماً من قيم هذه الأرض التي يجري وراءها الناس: «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ».. أشد حبا لله، حبا مطلقاً من كل موازنة، ومن كل قيد. أشد حبا لله من كل حب يتجهون به إلى سواه. والتعبير هنا بالحب تعبير جميل، فوق أنه تعبير صادق. فالصلة بين المؤمن الحق وبين الله هي صلة الحب. صلة الوشيجة القلبية، والتجاذب الروحي. صلة المودة والقربى. صلة الوجدان المشدود بعاطفة الحب المشرق الودود.

« وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا - إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ - أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً، وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ. إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا، وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا: لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأْنَا مِنَّا! كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ» .. أولئك الذين اتخذوا من دون الله أنداداً. فظلموا الحق، وظلموا أنفسهم.. لو مدوا بأبصارهم إلى يوم يقفون بين يدي الله الواحد! لو تطلعوا ببصائرهم إلى يوم يرون العذاب الذي ينتظر الظالمين! لو يرون لرأوا «أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» فلا شركاء ولا أنداد.. «وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ».

لو يرون إذ تبرأ المتبوعون من التابعين. ورأوا العذاب. فتقطعت بينهم الأواصر والعلاقات والأسباب، وانشغل كل بنفسه تابعا كان أم متبوعا. وسقطت الرياسات والقيادات التي كان المخدوعون يتبعونها، وعجزت عن وقاية أنفسها فضلاً على وقاية تابعيها. وظهرت حقيقة الألوهية الواحدة والقدرة الواحدة، وكذب القيادات الضالة وضعفها وعجزها أمام الله وأمام العذاب.

«وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأْنَا مِنَّا» .. وتبدى الحق والغيب من التابعين المخدوعين في القيادات الضالة. وتمنوا لو يردون لهم الجميل! لو يعودون إلى الأرض فيتبرأوا من تبعيتهم لتلك القيادات العاجزة الضعيفة في حقيقتها، التي خدعتهم ثم تبرأت منهم أمام العذاب! إنه مشهد مؤثر: مشهد التبرؤ والتعادي والتخاصم بين التابعين والمتبوعين. بين الحبين والمحبوبين! وهنا يجيء التعقيب الممض المؤلم: «كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ»^{٤٠٩}.

٥٥ - لا يليهم شيء عن أداء رسالتهم في الأرض

قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ

^{٤٠٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٦٨)

الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) { سورة النور

بعد أن ذكر الله تعالى مثل نوره لعباده، وهدايته إياهم، أراد هنا بيان حال من اهتدوا بذلك النور، وصفاتهم، فقال: إنَّ حال هؤلاء المهتدين في الطهارة من التجاسات الحسية والمعنوية (كاللغو والرفث في الحديث) كمثلي القنديل في المصباح المضيء، الدري المقام في بيت من بيوت الله التي أقيمت لعبادة الله تعالى فيها، وهي مطهرة مژة، يقوم فيها بعبادته تعالى رجال مؤمنون يترهون الله تعالى فيها ويقدسونه في أوائل النهار (العُدُو) وفي آخره (الأصال) .

وهؤلاء الرجال، الذين يعمرون بيوت الله، هم رجال أصحاب همم وعزائم لا يلهيهم شيء عن ذكر الله، وإقام الصلاة: لا تجارة، ولا بيع، ولا تشغلهم الدنيا وزخرفها، وزينتها، وملاذها، ولا بيعها، ولا ربحها . عن ذكر ربهم لأنهم يعلمون أن الذي عند الله خير لهم وأنفع مما بأيديهم، وهم يقدمون طاعة ربهم ومحبة على مرادهم ومحبتهم، فلا شيء يلهيهم عن أن يؤدوا الصلاة في وقتها، لأنهم يخافون يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار من شدة الفزع، وعظم الهول .

وهؤلاء هم الذين يتقبل الله تعالى حسناتهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، فيضاعف لهم الحسنات (ويزيدهم من فضله)، وهو تعالى يرزق من يشاء بغير حساب، ويدون تحديد فهو الكريم الجواد^{٤١٠} . إذا أردتم التماس هذا النور.. نور الله.. فالنمسه «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه» .

وهذا الذي نقول به، هو أنسب من القول بأن هذا الجار والمجرور متعلق بمشكاة، على تقدير: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ.. فِي بُيُوتٍ أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ» .

وهذا بعيد من حيث النظم، ثم بعيد من حيث المعنى. إذ أن نور الله هو نور الله، سواء في المساجد، أو في غيرها.. والذي ذهبنا إليه، هو المناسب للمقام.. إذ كان قوله تعالى: «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ»

مشوقاً للنفوس أن يكون لها نصيبها من هذا النور، وأن تكون فيمن شاء الله هدايتهم إليه.. ومن بواعث هذا الشوق تجيء تساؤلات عن هذا النور، وكيف السبيل إليه، وبلوغ النفس حظها منه؟ ولا تكاد النفس تتلقى هذه الخواطر المتسائلة، وهي بين يدي قوله تعالى: «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» - حتى يلقاها الدليل الذي يأخذ بها إلى مواقع هذا النور:

«فِي بُيُوتٍ أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ» - ففي هذه البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يلتبس نور الله، حيث يتجلى الله سبحانه وتعالى على كل من يغشون هذه البيوت، ويذكرون الله فيها..

^{٤١٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٧٠٩، بترقيم الشاملة آليا)

وفي تنكير البيوت، تعظيم لمقامها، ورفع لشأنها، وتضخيم لقدرها، وإن ضاقت رقعة وقلت عددا.. فهى أيا كانت، أعلى البيوت مقاما، وأرفعها عمادا، وكل بيوت غيرها، ظلّ لها، ومرفق من مرافقها.
وإذن الله يرفع هذه البيوت، هو أمره بإقامتها.. فحيث أقيمت، فهى مرفوعة على كل بنية، وإن علا بناء، وعظم جسما.

وقوله تعالى: «وَيُذَكِّرُ فِيهَا اسْمَهُ» معطوف على قوله تعالى: «تُرْفَعُ» أي أذن الله أن ترفع، وأذن أن يذكر فيها اسمه.. وهو بيان للغاية من رفعها، وإقامتها، وأنها إنما رفعت وأقيمت ليذكر فيها اسم الله.. فهى بيوت عبادة، وذكر لله..

وذكر اسم الله، هو ذكر الله.. واسم الله، هو صفته، وليس لله سبحانه اسم واحد، أو صفة واحدة، وإنما له أسماء وصفات كثيرة، هى الكمال المطلق، كما يقول سبحانه: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا» (١٨٠: الأعراف) ودعاء الله بأسمائه، هو ذكر وتمجيد له.. وفي ذكر الله، ذكر لجلاله، وعظمته، وقيومته، واستحضار لما له سبحانه وتعالى فى خلقه، من تقدير وتدبير، وفى هذا الذكر يتصل العبد بربه، ويقترّب من مواقع رضاه ورحمته.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (٢٨: الرعد)

وقوله تعالى: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ».. هو بيان شارح لهذه المساجد، ولن يغشونها من عباد الله.. فهذه البيوت لا تمسّ، ولا تسعد إلا بمن يتعلق قلبه بها، ويجد الأُنس والمسرّة فى رحابها، ويستشعر الغربة والوحشة فى البعد عنها، فهو لهذا غاد ورائح إليها، لا تلهيه تجارة ولا بيع عن غشيانها وذكر الله فيها، ابتغاء رضوانه، وخوفا من لقائه فى يوم «تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» أي تضطرب فيه القلوب هولا وفزعا، وتزيع فيه الأبصار، كربا وجزعا.. والغدو: أول النهار، والآصال: جمع أصيل، وهو آخر النهار.. وأفرد الغدو: لأن فيه صلاة واحدة، هى صلاة الصبح.. وجمع الأصيل.. لأنه زمن ممتد، فيه صلاة الظهر، والعصر، والعشاءين.. (المغرب والعشاء). قوله تعالى: «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».. هو تعليل لما يبغيه الغادون والرائحون إلى بيوت الله.. أي أنهم يفعلون هذا، ويولّون وجوههم إلى ربهم بالغدو والآصال، ليكون ذلك سببا فى أن يرضى الله عنهم، ويجزيهم أحسن ما عملوا ويقبله منهم، ويتجاوز بإحسانهم هذا عن سيئاتهم، كما يقول سبحانه: «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ» (١٦: الأحقاف) .. وليس هذا فحسب، بل إنه سبحانه وتعالى - سيزيدهم من فضله، ويضاعف الجزاء لهم من إحسانه..

فهذا رزق من رزقه «وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» لأن خزائنه مالاى أبدا، لا تنقص بالعطاء.. وإذن فلا يجرى حساب على هذه الخزائن، لإحصاء ما ذهب منها وما بقي.. ولكن - مع هذه

الخزائن المملأى من رزق الله، ومن فضله، وإحسانه - فإنه سبحانه، قيوم حكيم، يضع رحمته حيث يشاء، ويعطى منها ما يشاء لمن يشاء، بحساب وتقدير، حسب ما تقضى به حكمته وتديره، وفي هذا يقول سبحانه: «وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ».. ويقول جلّ شأنه: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» (الحجر: ٢١) ..^{٤١١}

أي: يتعبد لله {فِي ثُبُوتٍ} عظيمة فاضلة، هي أحب البقاع إليه، وهي المساجد. {أَذِنَ اللَّهُ} أي: أمر ووصى {أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} هذان مجموع أحكام المساجد، فيدخل في رفعها، بناؤها، وكنسها، وتنظيفها من النجاسة والأذى، وصورها من المجانين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسة، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها، ورفع الأصوات بغير ذكر الله.

{وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} يدخل في ذلك الصلاة كلها، فرضها، ونفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتهليل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات التي تفعل في المساجد، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين: عمارة بنيان، وصيانة لها، وعمارة بذكر اسم الله، من الصلاة وغيرها، وهذا أشرف القسمين، ولهذا شرعت الصلوات الخمس والجمعة في المساجد، وجوبا عند أكثر العلماء، أو استحبابا عند آخرين. ثم مدح تعالى عمارها بالعبادة فقال: {يُسَبِّحُ لَهُ} إخلاصا {بِالْعُدُوِّ} أول النهار {وَالْآصَالِ} آخره. {رِجَالٌ} حص هذين الوقتين لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته. ويدخل في ذلك، التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادها عند الصباح والمساء. أي: يسبح فيها الله، رجال، وأي: رجال، ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا، ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب، مشغلة عنه، {لَا تُلهِيهِمْ تِجَارَةٌ} وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله: {وَلَا يَبِيعُ} من باب عطف الخاص على العام، لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره، فهؤلاء الرجال، وإن اتجروا، وباعوا، واشتروا، فإن ذلك، لا محذور فيه. لكنه لا تلهيهم تلك، بأن يقدموها ويؤثروها على {ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ} بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه.

ولما كان ترك الدنيا شديدا على أكثر النفوس، وحب المكاسب بأنواع التجارات محبوبا لها، ويشق عليها تركه في الغالب، وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك، ذكر ما يدعوها إلى ذلك - ترغيبا وترهيبا - فقال: {يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} من شدة هولته وإزعاجه للقلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل، وترك ما يشغل عنه، {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا} والمراد بأحسن ما عملوا: أعمالهم الحسنة الصالحة، لأنها أحسن ما عملوا، لأنهم يعملون

^{٤١١} - التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٢٨٩)

المباحات وغيرها، فالثواب لا يكون إلا على العمل الحسن، كقوله تعالى: {لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم، {وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته، ويعطيه من الأجر بلا عد ولا كيل، وهذا كناية عن كثرة جدا. ٤١٢

وهناك صلة تصويرية بين مشهد المشكاة هناك ومشهد البيوت هنا، على طريقة التناسق القرآنية في عرض المشاهد ذات الشكل المتشابه أو المتقارب. وهناك صلة مثلها بين المصباح المشرق بالنور في المشكاة، والقلوب المشرقة بالنور في بيوت الله. تلك البيوت «أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ» - وإذن الله هو أمر للنفاذ - فهي مرفوعة قائمة، وهي مطهرة رفيعة.

يتناسق مشهدها المرفوع مع النور المتألق في السماوات والأرض. وتتناسق طبيعتها الرفيعة مع طبيعة النور السني الوضيء. وتتهياً بالرفعة والارتفاع لأن يذكر فيها اسم الله: «وَيَذْكُرُ فِيهَا اسْمُهُ». وتتسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة، المسبحة الواحفة، المصلية الواهبة. قلوب الرجال الذين «لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ».. والتجارة والبيع لتحصيل الكسب والشراء. ولكنهم مع شغلهم بما لا يغفلون عن أداء حق الله في الصلاة، وأداء حق العباد في الزكاة: «يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ».. تتقلب فلا تثبت على شيء من الهول والكرب والاضطراب. وهم يخافون ذلك اليوم فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

وهم مع هذا الخوف يعلقون رجاءهم بثواب الله: «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا، وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ».. ورجاؤهم لن يخيب في فضل الله: «وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» من فضله الذي لا حدود له ولا قيود. ٤١٣

٥٦ - تلاوة كتاب الله حق تلاوته

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ} (٢٩) لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) { سورة فاطر
إن عباد الله المؤمنين الذين يتلون كتاب الله، ويؤمنون به، ويعملون بما فيه من أوامر: من إقامة الصلاة وأدائها بخشوعها، وإتمامها برُكوعها وسُجودها، ومن الإنفاق مما رزقهم الله سِرًّا وَعَلَانِيَةً في سبيل

٤١٢ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٦٩)

٤١٣ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٢٥٢)

اللَّهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ، وَفِيهِ خَيْرُ الْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ، إِنَّ هَؤُلَاءِ الْعِبَادَ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ يَقُومُونَ بِذَلِكَ، يَرْجُونَ الثَّوَابَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، عِنْدَ اللَّهِ، وَسَتَكُونُ تِجَارَتُهُمْ رَابِحَةً عِنْدَ اللَّهِ، وَلَنْ تَكْسُدَ .
وَيَرْجُونَ أَنْ يَجْزِيَهُمُ اللَّهُ الْجِزَاءَ الْأَوْفَى عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ، وَأَنْ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، فَيَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ وَهَفَوَاتِهِمْ، وَيُضَاعِفَ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ حَتَّى سَبْعِمِئَةٍ ضِعْفٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى غَفُورٌ لِلذُّنُوبِ، شَكُورٌ لِلْقَلِيلِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ .^{٤١٤}

مناسبة هذه الآية لما قبلها، هي أن الآية السابقة، أشارت إلى العلم، وإلى ما للعلماء من مقام عند الله، وما في قلوبهم من خشية له، وذلك بما علموا من دلائل قدرته بالنظر في آياته الكونية، نظرا عاقلا، مدركا، متفحصا. ملأ قلوبهم خشية لله، ومراقبة له، ومجانبة لحرماته..
وهنا- في هذه الآية- دعوة إلى النظر في آيات الله القرآنية، وما يقع للعقل منها من علم بالله سبحانه، وبما له- سبحانه- من علم، وحكمة، وقدره..

ففي هذه الآيات القرآنية، معجزات، يرى فيها الذين يتلوها تلاوة مبصرة، وشواهد ناطقة تشهد بما لله من كمال وجلال، تماما كما يرى الرءون لآيات الله المادية المعجزة.. فقلوه تعالى:
«إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ» دعوة إلى التلاوة المتدبرة الفاقهة، التي تحصّل علما وحكمة، وهي التي تملأ القلوب إجلالا وخشية لله.

«وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ».. الجملة هنا حالية من فاعل يتلون، أي يتلون كتاب الله، أي يخشون الله، وقد أقاموا الصلاة، في ظل من هذه الخشية، وفي استصحاب لها..

فلآية هنا مثل قوله تعالى: «إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ» (١٨: فاطر) .
«وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً» معطوف على «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ» أي وأنفقوا مما رزقهم الله سراً وجهراً، في ظل من خشية الله كذلك، وفي استصحاب لتلك الخشية..

«يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ».. خبر إن.. أي أن هؤلاء الذين يتلون كتاب الله، تلاوة تملأ قلوبهم خشية لله، ثم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة- وهم على خشية من الله- هؤلاء يرجون تجارة رائجة، رابحة لن تبور..

بل إنها تجدد من يشتريها منهم، ويضاعف لهم الثمن فيها.. وإنه الله سبحانه وتعالى هو الذي يشتري منهم هذه البضاعة، ويضاعف لهم الثمن عليها..

قوله تعالى: «لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ».. إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ».. هو تعليل لنفى البوار عن تجارة هؤلاء العاملين، إنها تجارة يتقبلها الله منهم «لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ» أي ليعطيهم أجر ما عملوا كاملا وافيا

^{٤١٤} أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٥٧٠، بترقيم الشاملة آليا) -

غير منقوص، بل وأكثر من هذا، فإن الله سيزيدهم، ويضاعف لهم الأجر، فضلا وكرما وإحسانا منه.. «إِنَّهُ غَفُورٌ» يتجاوز عن سيئاتهم، «شكور» يقابل القليل من الإحسان بالجزيل من العطاء..^{٤١٥} وتلاوة كتاب الله تعني شيئا آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت. تعني تلاوته عن تدبر، ينتهي إلى إدراك وتأثر، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك. ومن ثم يتبعها بإقامة الصلاة، وبالإلفاق سرا وعلانية من رزق الله. ثم رجاؤهم بكل هذا «تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ».. فهم يعرفون أن ما عند الله خير مما ينفقون. ويتاجرون تجارة كاسبة مضمونة الربح. يعاملون فيها الله وحده وهي أربح معاملة ويتأجرون بها في الآخرة وهي أربح تجارة. تجارة مؤدية إلى توفيتهم أجورهم، وزيادتهم من فضل الله.. «إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ».. يغفر التقصير ويشكر الأداء. وشكره - تعالى - كناية عما يصاحب الشكر عادة من الرضا وحسن الجزاء. ولكن التعبير يوحي للبشر بشكر المنعم. تشبها واستحياء. فإذا كان هو يشكر لعباده حسن الأداء أفلا يشكرون له هم حسن العطاء؟!^{٤١٦}

وفي صحيح البخاري عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^{٤١٧}.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا»^{٤١٨}.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَتهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ»^{٤١٩}.

وَعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ»^{٤٢٠}.

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي قَالَ: «أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهَا رَأْسُ أَمْرِكَ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زِدْنِي قَالَ: «عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَكَ نُورٌ فِي السَّمَوَاتِ وَنُورٌ فِي الْأَرْضِ»^{٤٢١}

^{٤١٥} - التفسير القرآني للقرآن (١١ / ٨٨٣)

^{٤١٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٧٢٦)

^{٤١٧} - صحيح البخاري (١٩٢ / ٦) (٥٠٢٧)

^{٤١٨} - السنن الكبرى للنسائي (٢٧٢ / ٧) (٨٠٠٢) صحيح

^{٤١٩} - الدعاء للطبراني (ص: ٥١٩) (١٨٥١) حسن لغيره

^{٤٢٠} - صحيح مسلم (١ / ٥٤٩) (٢٤٤) - (٧٩٨)

[ش (الماهر بالقرآن) هو الحاذق الكامل الحفظ الذي لا يتوقف ولا يشق عليه القراءة لجودة حفظه وإتقانه (مع السفرة الكرام البررة) السفرة جمع سافر ككتبة وكاتب والسافر الرسول والسفرة الرسل لأهم يسفرون إلى الناس برسالات الله وقيل السفرة الكتب والبررة المطيعون من البر وهو الطاعة (ويتتعتع فيه) هو الذي يتردد في تلاوته لضعف حفظه فله أجران أجر بالقراءة وأجر بتتعتعه في تلاوته ومشقته]

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَمَا حِلٌّ مُصَدَّقٌ، فَمَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ قَادَهُ إِلَى النَّارِ.^{٤٢٢}

وَعَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «الْقُرْآنُ مُشَفَّعٌ، وَمَا حِلٌّ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ».^{٤٢٣}

ما حل بكسر الحاء المهملة أي ساع وقيل خصم مجادل
وَعَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ الْجُهَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، أُلِيسَ وَالِدَاهُ تَاجًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ضَوْؤُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ فِي بُيُوتِ الدُّنْيَا لَوْ كَانَتْ فِيكُمْ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهِذَا؟»^{٤٢٤}

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا " ^{٤٢٥}.

٥٧ - التجارة التي تنجي من العذاب الأليم:

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) } [الصف: ١٠ - ١٣]

يا أيُّها المؤمنون بالله، والمُصدِّقون برُّسُلِهِ وَكُتُبِهِ وآيَاتِهِ، ألا تُريدون أن أدلِّكم على صفقة رابحة، وتجارة نافعة، تفوزون فيها بالربح العظيم، وتُنقذكم من عذاب الله الأليم يوم القيامة؟

^{٤٢١} - مكارم الأخلاق للطبراني (ص: ٣١٢) (١) حسن لغيره

^{٤٢٢} - مصنف ابن أبي شيبة - دار القبله (١٥ / ٤٧٨) (٣٠٦٧٧) صحيح

^{٤٢٣} - صحيح ابن حبان - مخرجا (١ / ٣٣١) (١٢٤) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: هَذَا خَبَرٌ يُوهِمُ لَفْظُهُ مَنْ جَهَلَ صِنَاعَةَ الْعِلْمِ أَنَّ الْقُرْآنَ مَجْعُولٌ مَرْبُوبٌ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، لَكِنَّ لَفْظَهُ مِمَّا نَقُولُ فِي كُتُبِنَا: إِنَّ الْعَرَبَ فِي لُغَتِهَا تُطْلِقُ اسْمَ الشَّيْءِ عَلَى سَبَبِهِ، كَمَا تُطْلِقُ اسْمَ السَّبَبِ عَلَى الشَّيْءِ، فَلَمَّا كَانَ الْعَمَلُ بِالْقُرْآنِ قَادَ صَاحِبَهُ إِلَى الْجَنَّةِ أُطْلِقَ اسْمُ ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ الْعَمَلُ بِالْقُرْآنِ عَلَى سَبَبِهِ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ، لَا أَنَّ الْقُرْآنَ يَكُونُ مَخْلُوقًا.

^{٤٢٤} - سنن أبي داود (٢ / ٧٠) (١٤٥٣) حسن

^{٤٢٥} - صحيح البخاري (١ / ٢٦) (٧٣)

[ش (لا حسد) المراد حسد الغبطة وهو أن يرى النعمة في غيره فيتمناها لنفسه من غير أن تزول عن صاحبها وهو جائز ومحمود. (فسلط على هلكته في الحق) تغلب على شح نفسه وأنفقه في وجوه الخير. (الحكمة) العلم الذي يمنع من الجهل ويزجر عن القبيح]

وهذه الصِّفَةُ هي أن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَصَدَّقُوا بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ، وما أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَتُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ رَفْعِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَعِزَّةِ دِينِهِ، بِأَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ، كَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَكُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا: مِنَ النَّفْسِ وَالْمَالِ وَالزَّوْجِ وَالْوَلَدِ، هَذَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُجَاهِدِينَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

وإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ سَتَرَ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ وَمَحَاها، وَأَدْخَلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي الْأَنْهَارُ فِي جَنَابَتِهَا، وَأَسْكَنْكُمْ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً تَقْرُبُ بِهَا الْعُيُونُ، وَهَذَا هُوَ مُنْتَهَى مَا تَصْبَوْنَ إِلَيْهِ النَّفُوسُ، وَهُوَ الْفَوْزُ الَّذِي لَا فَوْزَ أَعْظَمَ مِنْهُ وَلَكُمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، مَعَ الْفَوْزِ فِي الْآخِرَةِ، الَّذِي وَعَدَكُمْ اللَّهُ بِهِ، نِعْمَةٌ أُخْرَى تُحِبُّونَهَا، وَهِيَ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ، وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، تَجْنُونَ مَغَانِمَهُ، وَبَشَرٌ يَا مُحَمَّدُ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا الْجِزَاءِ^{٤٢٦}

يبدأ بالنداء باسم الإيمان: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» .. يليه الاستفهام الموحى. فالله - سبحانه - هو الذي يسألهم ويشوقهم إلى الجواب: «هَلْ أَذَلَّكُمْ عَلَى تِجَارَةِ تُنْجِيَكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ؟» ..

ومن ذا الذي لا يشتاق لأن يدلّه الله على هذه التجارة؟ وهنا تنتهي هذه الآية، وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق. ثم يجيء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع: «تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» .. وهم مؤمنون بالله ورسوله. فتشرق قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم! «وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ» .. وهو الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة، يجيء في هذا الأسلوب، ويكرر هذا التكرار، ويساق في هذا السياق. فقد علم الله أن النفس البشرية في حاجة إلى هذا التكرار، وهذا التنويع، وهذه الموحيات، لتنهض بهذا التكليف الشاق، الضروري الذي لا مفر منه لإقامة هذا المنهج وحراسته في الأرض ...

ثم يعقب على عرض هذه التجارة التي دلهم عليها بالتحسين والترتين: «ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» .. فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد .. ثم يفصل هذا الخير في آية تالية مستقلة، لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه، ويقره في الحس ويمكن له: «يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» .. وهذه وحدها تكفي .

فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء؟ أو يدخر في سبيلها شيئاً؟ ولكن فضل الله ليست له حدود: «وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ» .. وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة - حتى حين يفقد هذه الحياة كلها - ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم .. وحقا .. «ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» ..

وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الراجحة. وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة. فالذي يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق. فكيف بمن يتجر في أيام قليلة

^{٤٢٦} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠١)، بترقيم الشاملة آليا

معدودة في هذه الأرض، ومتاع محدود في هذه الحياة الدنيا، فيكسب به خلودا لا يعلم له نهاية إلا ما شاء الله، ومتاعا غير مقطوع ولا ممنوع؟

لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله - ﷺ - وعبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - ليلة العقبة. عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت ! قال: اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم. قالوا: فإذا فعلنا ذلك، فماذا لنا؟ قال: الجنة! قالوا: ربح البيع، لا نُقِيل ولا نستقيل ! فترلت: (إن الله اشترى من المؤمنين)، الآية ٤٢٧.

وعن قتادة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ) قال: " قد كانت لله أنصار من هذه الأمة تجاهد على كتابه وحقه". وذكر لنا أنه بايعه ليلة العقبة اثنان وسبعون رجلا من الأنصار، ذكر لنا أن بعضهم قال: هل تدرون علام تباعون هذا الرجل؟ إنكم تباعون على محاربة العرب كلها أو يُسلموا. ذكر لنا أن رجلا قال: يا نبي الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: اشترط لربي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئا، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما منعتم منه أنفسكم وأبناءكم" قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبي الله؟ قال: "لكم النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة"، ففعلوا، ففعل الله ٤٢٨.

ولكن فضل الله عظيم. وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض، يناسب تركيبها البشري المحدود. وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض، وتحقيق منهجه وهيمته على الحياة في ذلك الجيل: «وأخرى تحبونها: نصر من الله وفتح قريب. وبشر المؤمنين» ..

وهنا تبلغ الصفقة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا الله. الله الذي لا تنفد خزائنه، والذي لا ممسك لرحمته. فهي المغفرة والجنات والمساكن الطيبة والنعيم المقيم في الآخرة. وفوقها .. فوق البيعة الراجحة والصفقة الكاسبة النصر والفتح القريب .. فمن الذي يدله الله على هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يحيد؟! وهنا يعن للنفس خاطر أمام هذا الترغيب والتجيب .. إن المؤمن الذي يدرك حقيقة التصور الإيماني للكون والحياة ويعيش بقلبه في هذا التصور ويطلع على آفاقه وآماده ثم ينظر للحياة بغير إيمان، في حدودها الضيقة الصغيرة، وفي مستوياتها الهابطة الواطية، وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة .. هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان، ولا يتردد لحظه واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الواسع الرفيع في عالم الواقع، ليعيش فيه، وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كذلك .. ولعله لا يطلب على جهاده هذا أجرا خارجا عن ذاته. فهو ذاته أجر .. هذا الجهاد .. وما

٤٢٧ - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [١٤/ ٤٩٩] ١٧٢٧٠ صحيح مرسل

٤٢٨ - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٢٣/ ٣٦٥] صحيح مرسل

يسكبه في القلب من رضى وارتياح. ثم إنه لا يطبق أن يعيش في عالم بلا إيمان. ولا يطبق أن يقعد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان. فهو مدفوع دفعا إلى الجهاد. كائننا مصيره فيه ما يكون .. ولكن الله - سبحانه - يعلم أن النفس تضعف، وأن الاندفاع يهبط، وأن الجهد يكل وأن حب السلامة قد يهبط بتلك المشاعر كلها ويقودها إلى الرضى بالواقع الهابط ^{٤٢٩} ..

٥٨ - أن يكونوا أنصاراً لله:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ } [الصف: ١٤]

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأن يكونوا أنصاراً لله في جميع أحوالهم: بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله وللرسول، كما استجاب الحواريون لعيسى حينما سألهم: من يعينني في الدعوة إلى الله؟ فقال له الحواريون: إنهم أنصار الله، وإتاهم سعيئونهم وسيؤازرونه فيما يقوم به من إبلاغ رسالة ربه، فأمنت طائفة من بني إسرائيل برسالة عيسى، وكفرت طائفة فحدثت ثبوتهم، وورثته وأمه بالبُهتان، وغلت فرق منهم في عيسى، فقالوا: إنه الله، أو إنه ابن الله، أو إنه ثالث ثلاثة، ورفعوه مرتبة النبوة. فأيد الله المؤمنين المخلصين برسالة عيسى بنصره، وأظهرهم على من عاداهم، وتلك سنة الله في خلقه. ^{٤٣٠}

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ } [آي:] بالأقوال والأفعال، وذلك بالقيام بدين الله، والحرص على إقامته على الغير، وجهاد من عانده ونابذه، بالأبدان والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق، بدحض حجته، وإقامة الحجة عليه، والتحذير منه.

ومن نصر دين الله، تعلم كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك، [والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]. ثم هيج الله المؤمنين بالافتداء. بمن قبلهم من الصالحين بقوله: {كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ } أي: قال لهم عارضا ومنهضا من يعاونني ويقوم معي في نصرتي لدين الله، ويدخل مدخلي، ويخرج مخرجي؟

فابتدر الحواريون، فقالوا: {نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ } فمضى عيسى عليه السلام على أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين، {فَأَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ } بسبب دعوة عيسى والحواريين، {وَكَفَرَتْ

^{٤٢٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٤٧)

^{٤٣٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٥١، بترقيم الشاملة آليا)

طَائِفَةٌ} منهم، فلم ينقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين، {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ} أي: قويناهم ونصرناهم عليهم. {فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} عليهم وقاهرين [لهم]، فأنتم يا أمة محمد، كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم الله كما نصر من قبلكم، ويظهركم على عدوكم.^{٤٣١}

والحواريون هم تلاميذ المسيح - عليه السلام - قيل: الاثنا عشر الذين كانوا يلوذون به، وينقطعون للتلقي عنه. وهم الذين قاموا بعد رفعه بنشر تعاليمه وحفظ وصاياه.

والآية هنا تهدف إلى تصوير موقف لا إلى تفصيل قصة، ففسير نحن معها في ظلها المقصودة إلى الغاية من سردها في هذا الموضع من السورة.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ».. في هذا الموضع الكريم الذي يرفعكم إليه الله. وهل أرفع من مكان يكون فيه العبد نصيراً للرب؟! إن هذه الصفة تحمل من التكريم ما هو أكبر من الجنة والنعيم.. كونوا أنصار الله، «كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ».. فانتدبوا لهذا الأمر ونالوا هذا التكريم. وعيسى جاء ليبشر بالني الجديد والدين الأخير.. فما أجدر أتباع محمد أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم، كما انتدب الحواريون للأمر الموقوت! وهذه هي اللمسة الواضحة في عرض هذا الحوار في هذا السياق. وماذا كانت العاقبة؟

«فَأَمَّنْتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتُ طَائِفَةٌ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ».

وتأويل هذا النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين: إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى عليه السلام هم المسيحيون إطلاقاً من استقام ومن دخلت في عقيدته الانحرافات، وقد أيدهم الله على اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلاً كما حدث في التاريخ. وإما أن الذين آمنوا هم الذين أصروا على التوحيد في وجه المؤلهين لعيسى والمثلثين وسائر النحل التي انحرفت عن التوحيد. ومعنى أنهم أصبحوا ظاهرين أي بالحجة والبرهان. أو أن التوحيد الذي هم عليه هو الذي أظهره الله بهذا الدين الأخير وجعل له الجولة الأخيرة في الأرض كما وقع في التاريخ. وهذا المعنى الأخير هو الأقرب والأرجح في هذا السياق.

والعبرة المستفادة من هذه الإشارة ومن هذا النداء هي العبرة التي أشرنا إليها، وهي استنهاض هممة المؤمنين بالدين الأخير، الأمانة على منهج الله في الأرض، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية. المختارين لهذه المهمة الكبرى. استنهاض هممتهم لنصرة الله ونصرة دينه «كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ».. والنصر في النهاية لأنصار الله المؤمنين.

إنها الجولة الأخيرة في السورة، واللمسة الأخيرة في السياق وهي ذات لون وذات طعم يناسبان جو السورة وسياقها، مع ما فيها من تجدد في اللون وتنوع في المذاق.^{٤٣٢}

^{٤٣١} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٦١)

^{٤٣٢} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٤٩)

قال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) } [المائدة/٨، ٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَكُنْ هَمُّكُمْ وَدَائِبُكُمْ التَّزَامُ الْحَقِّ فِي أَنْفُسِكُمْ (بِدُونِ اعْتِدَاءٍ عَلَى أَحَدٍ)، وَفِي غَيْرِكُمْ (بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَحُدَّةٍ، لَا لِأَجْلِ إِرْضَاءِ النَّاسِ، وَاكْتِسَابِ السُّمْعَةِ الْحَسَنَةِ عِنْدَهُمْ)، وَكُونُوا شُهَدَاءَ بِالْعَدْلِ (الْقِسْطِ)، دُونَ مُحَابَاةٍ لِمَشْهُودٍ لَهُ، وَلَا لِمَشْهُودٍ عَلَيْهِ، فَالْعَدْلُ مِيزَانُ الْحَقُّوقِ، وَمَتَى وَقَعَ الْجَوْرُ فِي أُمَّةٍ، زَالَتِ الثَّقَةُ مِنْ نَفُوسِ النَّاسِ، وَانْتَشَرَتِ الْمَفَاسِدُ، وَتَقَطَّعَتْ رَوَابِطُ الْمُجْتَمَعِ. وَلَا تَحْمِلَنَّكُمْ عِدَاوَتُكُمْ الشَّدِيدَةَ لِقَوْمٍ، وَبُعْضُكُمْ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ الْعَدْلِ فِي أَمْرِ الشَّهَادَةِ لَهُمْ بِحَقِّهِمْ إِذَا كَانُوا أَصْحَابَ حَقٍّ، أَوْ عَلَى عَدَمِ الْحُكْمِ لَهُمْ بِذَلِكَ، فَالْمُؤْمِنُ يُؤَثِّرُ الْعَدْلَ عَلَى الْجَوْرِ وَالْمُحَابَاةِ. ثُمَّ يُؤَكِّدُ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُ السَّابِقَ بِضُرُورَةِ إِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَأَدَاءِ الشَّهَادَةِ بِالْقِسْطِ فَيَقُولُ: اعْدِلُوا لِأَنَّ الْعَدْلَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى اللَّهِ، وَابْعُدْ عَنْ سَخَطِهِ، وَاتَّقُوا سَخَطَ اللَّهِ وَعِقَابَهُ لِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا، وَاحْذَرُوا أَنْ يُجَازِيَكُمْ بِالْعَدْلِ عَلَى تَرْكِكُمْ الْقِيَامَ بِالْعَدْلِ .

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَبِكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ.. وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الَّتِي يَرْضَاهَا رَبُّهُمْ (مِثْلَ الْعَدْلِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمُرَاعَاةِ جَانِبِ اللَّهِ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي رَوَابِطِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ)، بِأَنَّهُ سَيَغْفِرُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ، وَيتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَيُثَبِّتُهُمْ بِالْأَجْرِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ الْجَزَاءُ الْمُضَاعَفُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَضْلاً مِنْهُ وَرَحْمَةً مِنْ لَدُنْهُ ٤٣٣.

لَقَدْ نَهَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَحْمِلَهُمُ الشَّنَانُ لِمَنْ صَدَوْهُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، عَلَى الْإِعْتِدَاءِ. وَكَانَتْ هَذِهِ قِمَّةٌ فِي ضَبْطِ النَّفْسِ وَالسَّمَاخَةِ يَرْفَعُهُمُ اللَّهُ إِلَيْهَا. مَنِهْجُهُ التَّرْبِيُّوِي الرِّبَاطِي الْقَوِيْم. فَهَاهُمْ أَوْلَاءُ يَنْهَوْنَ أَنْ يَحْمِلَهُمُ الشَّنَانُ عَلَى أَنْ يَمِيلُوا عَنِ الْعَدْلِ.. وَهِيَ قِمَّةٌ أَعْلَى مَرْتَقَى وَأَصْعَبُ عَلَى النَّفْسِ وَأَشَقُّ. فَهِيَ مَرَحَلَةٌ وَرَاءَ عَدَمِ الْإِعْتِدَاءِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَهُ تَتَجَاوَزُهُ إِلَى إِقَامَةِ الْعَدْلِ مَعَ الشُّعُورِ بِالكَرْهِ وَالْبَغْضِ! إِنَّ التَّكْلِيفَ الْأَوَّلَ أَيْسَرَ لِأَنَّهُ إِجْرَاءٌ سَلْبِي يَنْتَهِي عِنْدَ الْكَفِّ عَنِ الْإِعْتِدَاءِ. فَأَمَّا التَّكْلِيفُ الثَّانِي فَأَشَقُّ لِأَنَّهُ إِجْرَاءٌ إِيْجَابِي يَحْمِلُ النَّفْسَ عَلَى مَبَاشَرَةِ الْعَدْلِ وَالْقِسْطِ مَعَ الْمَبْغُوضِينَ الْمَشْنُوءِينَ! وَالمَنْهَجُ التَّرْبِيُّوِي الْحَكِيمُ يَقْدِرُ مَا فِي هَذَا الْمَرْتَقَى مِنْ صَعُوبَةٍ. فَيَقْدَمُ لَهُ عَمَّا يَعْينُ عَلَيْهِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ...»

٤٣٣ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٧٨، بترقيم الشاملة آليا)

ويعقب عليه بما يعين عليه أيضا: «وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» ..

إن النفس البشرية لا ترتقي هذا المرتقى قط، إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مع الله. حين تقوم لله، متجردة عن كل ما عداه. وحين تستشعر تقواه، وتحس أن عينه على خفايا الضمير وذات الصدور. وما من اعتبار من اعتبارات الأرض كلها يمكن أن يرفع النفس البشرية إلى هذا الأفق، ويثبتها عليه. وما غير القيام لله، والتعامل معه مباشرة، والتجرد من كل اعتبار آخر، يملك أن يستوي بهذه النفس على هذا المرتقى.

وما من عقيدة أو نظام في هذه الأرض يكفل العدل المطلق للأعداء المشنوثين، كما يكفله لهم هذا الدين حين ينادي المؤمنين به أن يقوموا لله في هذا الأمر وأن يتعاملوا معه، متجردين عن كل اعتبار . وبهذه المقوّمات في هذا الدين كان الدين العالمي الإنساني الأخير الذي يتكفل نظامه للناس جميعا - معتنقيه وغير معتنقيه - أن يتمتعوا في ظله بالعدل وأن يكون هذا العدل فريضة على معتنقيه، يتعاملون فيها مع ربهم، مهما لاقوا من الناس من بغض وشنآن ..

وإنما لفريضة الأمة القوامة على البشرية: مهما يكن فيها من مشقة وجهاد.

ولقد قامت هذه الأمة بهذه القوامة وأدت تكاليفها هذه يوم استقامت على الإسلام. ولم تكن هذه في حياتها مجرد وصايا، ولا مجرد مثل عليا، ولكنها كانت واقعا من الواقع في حياتها اليومية، واقعا لم تشهد البشرية مثله من قبل ولا من بعد، ولم تعرفه في هذا المستوي إلا في الحقبة الإسلامية المنيرة .. والأمثلة التي وعائها التاريخ في هذا المجال كثيرة مستفيضة. تشهد كلها بأن هذه الوصايا والفرائض الربانية، قد استحالت في حياة هذه الأمة منهجا في عالم الواقع يؤدي ببساطة، ويتمثل في يوميات الأمة المألوفة .. إنها لم تكن مثلا عليا خيالية، ولا نماذج كذلك فردية. إنما كانت طابع الحياة الذي لا يرى الناس أن هناك طريقا آخر سواه.

وحين نطل من هذه القمة السامقة على الجاهلية في كل أعصارها وكل ديارها - بما فيها جاهلية العصور الحديثة - ندرك المدى المتطاوّل بين منهج يصنعه الله للبشر، ومنهج يصنعها الناس للناس. ونرى المسافة التي لا تعبر بين آثار هذه المناهج وآثار ذلك المنهج الفريد في الضمائر والحياة.

إن الناس قد يعرفون المبادئ ويهتفون بها .. ولكن هذا شيء، وتحقيقها في عالم الواقع شيء آخر .. وهذه المبادئ التي يهتف بها الناس للناس طبعي، ألا تتحقق في عالم الواقع .. فليس المهم أن يدعى الناس إلى المبادئ ولكن المهم هو من يدعوهم إليها .. المهم هو الجهة التي تصدر منها الدعوة .. المهم هو سلطان هذه الدعوة على الضمائر والسرائر .. المهم هو المرجع الذي يرجع إليه الناس بحصيلة كدهم وكدهم لتحقيق هذه المبادئ ..

وقيمة الدعوة الدينية إلى المبادئ التي تدعو إليها، هو سلطان الدين المستمد من سلطان الله، فما يقوله فلان وعلان علام يستند؟ وأي سلطان له على النفوس والضمائر؟ وماذا يملك للناس حين يعودون

إليه بكـدحهم وكـدهم في تحقيق هذه المبادئ؟ يهتف ألف هاتف بالعدل. وبالتطهر. وبالتحرر. وبالتسامي. وبالسماحة. وبالحب. وبالتضحية. وبالإيثار ... ولكن هتافهم لا يهز ضمائر الناس ولا يفرض نفسه على القلوب. لأنه دعاء ما أنزل الله به من سلطان! ليس المهم هو الكلام .. ولكن المهم من وراء هذا الكلام! ويسمع الناس الهتاف من ناس مثلهم بالمبادئ والمثل والشعارات - مجردة من سلطان الله - ولكن ما أثرها؟ إن فطرتم تدرك أنها توجيهات من بشر مثلهم. تتسم بكل ما يتسم به البشر من جهل وعجز وهوى وقصور. فتتلقاها فطرة الناس على هذا الأساس. فلا يكون لها على فطرهم من سلطان! ولا يكون لها في كيانهم من هزة، ولا يكون لها في حياتهم من أثر إلا أضعف الأثر! ثم إن قيمة هذه «الوصايا» في الدين، أنها تتكامل مع «الإجراءات» لتكيف الحياة. فهو لا يلقيها مجردة في الهواء .. فأما حين يتحول الدين إلى مجرد وصايا وإلى مجرد شعائر فإن وصاياه لا تنفذ ولا تتحقق! كما نرى ذلك الآن في كل مكان ..

إنه لا بد من نظام للحياة كلها وفق منهج الدين وفي ظل هذا النظام ينفذ الدين وصاياه. ينفذها في أوضاع واقعية تتكامل فيها الوصايا والإجراءات! .. وهذا هو «الدين» في المفهوم الإسلامي دون سواه .. الدين الذي يتمثل في نظام يحكم كل جوانب الحياة. وحين تحقق «الدين». بمفهومه هذا في حياة الجماعة المسلمة أطلت على البشرية كلها من تلك القمة السامقة والتي ما تزال سامقة على سفوح الجاهلية الحديثة كما كانت سامقة على سفوح الجاهلية العربية وغيرها على السواء .. وحين تحول «الدين» إلى وصايا على المنابر وإلى شعائر في المساجد وتخلي عن نظام الحياة .. لم يعد لحقيقة الدين وجود في الحياة! ^{٤٣٤}.

وقال تعالى: {وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (١٥٢) سورة الأنعام ويتابع الله تعالى، في هذه الآية، بيان ما أوصى به الناس، وما حرّمه عليهم، فيقول تعالى: وَمِمَّا أَوْصَىٰ بِهِ النَّاسُ: أَلَّا يَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ، إِذَا وَلُّوا أَمْرَهُ، أَوْ تَعَامَلُوا مَعَهُ، إِلَّا بِالطَّرِيقَةِ الْحَسَنَةِ (إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) الَّتِي تَحْفَظُ مَالَهُ، وَتُثْمِرُهُ، وَتُرَجِّحُ مَصْلَحَتَهُ، وَأَنْ يُنْفِقُوا عَلَيْهِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ تَرْبِيَّتِهِ وَتَعْلِيمِهِ، وَأَنْ يَسْتَمِرَّ ذَلِكَ حَتَّى يَبْلُغَ الْيَتِيمُ سِنَّ الرُّشْدِ، وَالْقُوَّةَ وَالْقُدْرَةَ عَلَى الْإِدْرَاكِ وَالتَّصَرُّفِ .

^{٤٣٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٢٣٣)

ولما نزلت هذه الآية شقَّ ذلك على المسلمين، فأخذوا في عزل مال اليتيم وطعامه، عن مالهم، فكان طعام اليتيم يفسد، لا يمسه أحدٌ ممن هو عندهم. فشكوا ذلك للنبي ﷺ فأَنْزَلَ اللهُ تعالى قوله { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ } . فالله تعالى يأمرُ الناس بِمُرَاعَاةِ مَصْلَحَةِ الْيَتِيمِ، وَالْعِنَايَةِ بِمَالِهِ، وَعَدَمِ التَّصَرُّفِ فِيهِ إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ، وَيُحَذِّرُهُمْ تَعَالَى مِنَ التَّجَاوُزِ عَلَى مَالِ الْيَتِيمِ . ويقولُ تعالى: إِنَّ مِمَّا أَوْصَى بِهِ النَّاسَ أَيْضًا: إِيْفَاءَ الْكِيلِ وَالْمِيزَانَ عِنْدَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَعَدَمَ غَمْطِ النَّاسِ حُقُوقَهُمْ وَاللَّهُ تَعَالَى يَدْعُو الْمُؤْمِنَ أَنْ يَبْلُغَ جُهِدَهُ فِي آدَاءِ ذَلِكَ، فَإِذَا بَلَغَ جُهِدَهُ، وَعَمِلَ مَا فِي وَسْعِهِ، يَكُونُ قَدْ قَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ إِنْ أَخْطَأَ بَعْدَ ذَلِكَ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، وَقَدَّرَ طَاقَتَهَا . ويقولُ تعالى: إِنَّ مِمَّا وَصَّى بِهِ النَّاسَ أَيْضًا الْعَدْلُ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ لِكُلِّ وَاحِدٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَفِي كُلِّ حَالٍ: فِي الشَّهَادَةِ وَفِي الْحُكْمِ وَفِي الْكِيلِ وَالْمِيزَانِ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِقَرِيبٍ، فَإِنَّ الْقَرَابَةَ وَالصَّدَاقَةَ يَجِبُ إِلَّا تَصَرُّفًا الْإِنْسَانِ عَنْ قَوْلِ الْحَقِّ، وَعَنِ الْعَدْلِ فِيهِ .

كما يأمرُ اللهُ تعالى الْمُؤْمِنِينَ بِالْوَفَاءِ بِعَهْدِ اللَّهِ، وَالْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ، فِيمَا أَمَرَ وَهَى، وَفِيمَا عَاهَدُوا النَّاسَ عَلَيْهِ وَهَذَا مَا أَوْصَى بِهِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَرَهُمْ بِهِ، وَأَكَّدَ عَلَيْهِ . ويقولُ تعالى: إِذَا اجْتَهَدْتُمْ بِالْوَفَاءِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ، وَتَوَاصَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَلَعَلَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ تَتَعَزَّوْنَ، وَتَنْتَهُوْنَ عَمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ .^{٤٣٥}

واليتيم ضعيف في الجماعة، بفقد الوالد الحامي والمربي. ومن ثم يقع ضعفه على الجماعة المسلمة - على أساس التكافل الاجتماعي الذي يجعله الإسلام قاعدة نظامه الاجتماعي^{٤٣٦} - وكان اليتيم ضائعا في المجتمع العربي في الجاهلية. وكثرة التوجيهات الواردة في القرآن وتنوعها وعنفها أحيانا تشي بما كان فاشيا في ذلك المجتمع من ضيعة اليتيم فيه حتى انتدب الله يتيما كريما فيه فعهد إليه بأشرف مهمة في الوجود. حين عهد إليه بالرسالة إلى الناس كافة، وجعل من آداب هذا الدين الذي بعثه به رعاية اليتيم وكفالته على النحو الذي نرى منه هذا التوجيه: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ». فعلى من يتولى اليتيم ألا يقرب ماله إلا بالطريقة التي هي أحسن لليتيم. فيصونه وينميها، حتى يسلمه له كاملا ناميا عند بلوغه أشده. أي اشتداد قوته الجسمية والعقلية. ليحمي ماله، ويحسن القيام عليه. وبذلك تكون الجماعة قد أضافت إليها عضوا نافعا وسلمته حقه كاملا.

وهناك خلاف فقهي حول سن الرشد أو بلوغ الأشد .. عند عبد الرحمن بن زيد وعند مالك، بلوغ الحلم. وعند أبي حنيفة خمسة وعشرون عاما. وعند السدي ثلاثون، وعند أهل المدينة بلوغ الحلم وظهور الرشد معا بدون تحديد.

^{٤٣٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٩٤٢، بترقيم الشاملة آليا)

^{٤٣٦} - يراجع بتوسع فصل: «مجتمع متكافل» في كتاب: «نحو مجتمع إسلامي». (السيد رحمه الله)

«وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ - لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا -».

وهذه في المبادلات التجارية بين الناس في حدود طاقة التحري والإنصاف. والسياق يربطها بالعقيدة لأن المعاملات في هذا الدين وثيقة الارتباط بالعقيدة. والذي يوصي بها ويأمر هو الله. ومن هنا ترتبط بقضية الألوهية والعبودية، وتذكر في هذا المعرض الذي يبرز فيه شأن العقيدة، وعلاقتها بكل جوانب الحياة ..

ولقد كانت الجاهليات - كما هي اليوم - تفصل بين العقيدة والعبادات، وبين الشرائع والمعاملات .. من ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن قوم شعيب: «قَالُوا: يَا شُعَيْبُ أَصْلَافُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ؟!» ومن ثم يربط السياق القرآني بين قواعد التعامل في المال والتجارة والبيع والشراء، وبين هذا المعرض الخاص بالعقيدة، للدلالة على طبيعة هذا الدين، وتسويته بين العقيدة والشريعة، وبين العبادة والمعاملة، في أنها كلها من مقومات هذا الدين، المرتبطة كلها في كيانه الأصيل.

«وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ..»

وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشري - وقد ربطه بالله ابتداء - إلى مستوى سامق رفيع، على هدى من العقيدة في الله ومراقبته .. فهنا منزلة من مزلات الضعف البشري. الضعف الذي يجعل شعور الفرد بالقراءة هو شعور التناصر والتكامل والامتداد، بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل وفي قوة القراءة سند لضعفه وفي سعة رقعتها كمال لوجوده، وفي امتدادها جيلا بعد جيل ضمان لامتداده! ومن ثم يجعله ضعيفا تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم، أو القضاء بينهم وبين الناس .. وهنا في هذه المزية يأخذ الإسلام بيد الضمير البشري ليقول كلمة الحق والعدل، على هدى من الاعتصام بالله وحده، ومراقبة الله وحده، اكتفاء به من مناصرة ذوي القربى، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه وهو - سبحانه - أقرب إلى المرء من حبل الوريد ..

لذلك يعقب على هذا الأمر - وعلى الوصايا التي قبله - مذكرا بعهد الله: «وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا» .. ومن عهد الله قوله الحق والعدل ولو كان ذا قربي. ومن عهد الله توفية الكيل والميزان بالقسط. ومن عهد الله ألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن. ومن عهد الله حرمة النفس إلا بالحق .. وقبل ذلك كله .. من عهد الله ألا يشركوا به شيئا. فهذا هو العهد الأكبر، المأخوذ على فطرة البشر، بحكم خلقها متصلة بمبدعها، شاعرة بوجوده في النواميس التي تحكمها من داخلها كما تحكم الكون من حولها. ثم يجيء التعقيب القرآني في موضعه بعد التكليف: «ذَلِكَ وَمَا كَانَ لَكُمْ بِهِ لَعْنٌ تَذَكَّرُونَ» ..

والذكر ضد الغفلة. والقلب الذاكر غير الغافل، وهو يذكر عهد الله كله، ويذكر وصاياه المرتبطة بهذا العهد ولا ينساها..^{٤٣٧}

٦٠ - الحكم بين الناس بالحق

قال تعالى: { يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } [ص: ٢٦]
وقال الله تعالى لداود: إِنَّهُ جَعَلُهُ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ، نافذ الكلمة والحكم بين الرعية، فعليه أن يحكم بين الناس بالحق والعدل، وأن لا يتبع الهوى لأن أتباع الهوى يكون سبباً للضلالة والجور عن الطريق القويم الذي شرعه الله تعالى.

ثم يقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَهُدَاهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ (يَوْمَ الْحِسَابِ) عَذَابٌ شَدِيدٌ لِّنَسْيَانِهِمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وإن الله سيحاسب العباد فيه على أعمالهم جميعاً، صغيرها وكبيرها.^{٤٣٨}
فهي الخلافة في الأرض، والحكم بين الناس بالحق، وعدم اتباع الهوى. واتباع الهوى - فيما يختص بني - هو السير مع الانفعال الأول، وعدم التريث والتبیین.. مما ينتهي مع الاستطراد فيه إلى الضلال. أما عقب الآية المصور لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبيل الله. وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب.

ومن رعاية الله لعبده داود، أنه نبهه عند أول لفظة. ورده عند أول اندفاعه. وحذره النهاية البعيدة. وهو لم يخط إليها خطوة! وذلك فضل الله على المختارين من عباده. فهم ببشريتهم قد تعثر أقدامهم أقل عشرة، فيقليلها الله، ويأخذ بيدهم، ويعلمهم، ويوفقهم إلى الإنابة، ويغفر لهم، ويغدق عليهم، بعد الابتلاء.. وعند تقرير مبدأ الحق في خلافة الأرض، وفي الحكم بين الناس..^{٤٣٩}.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّهُ قَالَ: "أَفَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَبِيرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَقَرَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا كَانُوا، وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ، قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ، وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، قَدْ أَخَذْنَا، فَأَخْرَجُوا عَنَّا"^{٤٤٠}

^{٤٣٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب- ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٦٧٧)

^{٤٣٨} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٨٧٥، بترقيم الشاملة آليا)

^{٤٣٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب- ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٠٦)

^{٤٤٠} - مسند أحمد ط الرسالة (٢٣/ ٢١٠) (١٤٩٥٣) صحيح

وَعَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: الْقَضَاءُ ثَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ، رَجُلٌ قَضَى بِغَيْرِ الْحَقِّ فَعَلِمَ ذَلِكَ فَذَاكَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ لَا يَعْلَمُ فَأَهْلَكَ حُقُوقَ النَّاسِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ فَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ. ^{٤٤١}

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ فِي اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ بِمَا أَقْسَطُوا فِي الدُّنْيَا» ^{٤٤٢}

٦١ - إقامة الحدود على الجميع:

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) } [البقرة]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ قَدْ فَرَضَ (كُتِبَ) عَلَيْهِمُ الْعَدْلَ وَالْمُسَاوَاةَ فِي الْقِصَاصِ، فَالْحُرُّ يُقْتَلُ بِالْحُرِّ، إِذَا كَانَ الْقَتْلُ عَمْدًا، وَالْعَبْدُ يُقْتَلُ بِالْعَبْدِ، وَالْأُنْثَى تُقْتَلُ بِالْأُنْثَى (وَقَدْ جَرَى الْعَمَلُ مِنْ لَدُنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَتْلِ الرَّجُلِ بِالْمَرْأَةِ، وَالْحُرِّ بِالْعَبْدِ إِنْ لَمْ يَكُنِ الْقَاتِلُ سَيِّدَ الْعَبْدِ، فَإِذَا كَانَ سَيِّدُهُ عَزَرَ بِشِدَّةٍ)، وَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالْأَلَا يَعْتَدُوا وَلَا يَتَجَاوَزُوا، كَمَا اعْتَدَى الْيَهُودُ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَغَيَّرُوا حُكْمَ اللَّهِ، فَكَانَتْ قَبِيلَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ ضَعِيفَةً، وَقَبِيلَةُ بَنِي النَّضِيرِ قَوِيَّةً، فَكَانُوا إِذَا قَتَلَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ أَحَدًا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ لَمْ يَكُنْ يُقْتَلُ بِهِ بَلْ يُفَادَى، وَإِذَا قَتَلَ الْقُرَظِيُّ نَضِيرِيًّا كَانَ يُقْتَلُ بِهِ، وَإِذَا فَادَوْهُ كَانَ يُفَادَى بِمِثْلِي مَا يُفَادَى بِهِ النَّضِيرِيُّ.

وَكَانَ حَيَّانٍ مِنَ الْعَرَبِ قَدْ اقْتَتَلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قُبَيْلَ الْإِسْلَامِ، فَكَانَ بَيْنَهُمْ قَتْلَى وَجَرَاحَاتٌ حَتَّى قَتَلُوا الْعَبْدَ وَالنِّسَاءَ، فَكَانَ أَحَدُ الْحَيِّينَ لَا يَرْضَى حَتَّى يُقْتَلَ بِالْعَبْدِ مِنْهُ الْحُرُّ مِنْ خُصُومِهِ، وَبِالْمَرْأَةِ مِنْهُ الرَّجُلُ. وَكَانَ هَؤُلَاءِ لَا يَقْتُلُونَ الرَّجُلَ الَّذِي يَقْتُلُ الْمَرْأَةَ عَمْدًا، وَلَكِنْ كَانُوا يَقْتُلُونَ الرَّجُلَ بِالرَّجُلِ، وَالْمَرْأَةَ بِالْمَرْأَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ مُبْطِلًا ذَلِكَ التَّعَامُلَ، فَإِذَا قَبِلَ وَلِيُّ الدَّمِ أَنْ يَأْخُذَ الدِّيَّةَ، وَيُعْفُو عَنِ الْقَاتِلِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ ذَلِكَ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْ يَطْلُبَ الدِّيَّةَ بِرِفْقٍ، وَأَنْ لَا يُرْهَقَ الْقَاتِلَ مِنْ أَمْرِهِ عُسْرًا. وَعَلَى الْقَاتِلِ أَنْ يُؤَدِّيَ الْمَطْلُوبَ مِنْهُ بِإِحْسَانٍ، وَأَنْ لَا يَمْطُلَ وَلَا يَنْقُصَ، وَلَا يُسِيءَ فِي كَيْفِيَّةِ الْأَدَاءِ.

^{٤٤١} - سنن الترمذي ت بشار (٦/٣) (١٣٢٢م) صحيح

^{٤٤٢} - السنن الكبرى للنسائي (٥/٣٩٥) (٥٨٨٦) صحيح

وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّهُ شَرَعَ لِلنَّاسِ أَخَذَ الدِّيَّةِ فِي حَالَةِ الْقَتْلِ الْعَمْدِ تَخْفِيفاً مِنْهُ، وَرَحْمَةً بِالْمُسْلِمِينَ، إِذْ كَانَ يَتَوَجَّبُ عَلَى الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الْقَتْلُ أَوْ الْعَفْوُ. وَإِذَا تَعَدَّدَ أَوْلِيَاءُ الدَّمِّ وَعَفَا أَحَدُهُمْ وَجَبَ اتِّبَاعُهُ، وَسَقَطَ الْقِصَاصُ.. وَيَجُوزُ الْعَفْوُ فِي الدِّيَّةِ أَيْضاً. (وَقِيلَ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ مَفْرُوضاً عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ لَا غَيْرَ، وَأَهْلَ الْإِنْجِيلِ أُمِرُوا بِالْعَفْوِ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا مُقَابِلَ الْعَفْوِ دِيَّةً).
وَيَهْدُدُّ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ يَعْتَدِي بِالْقَتْلِ عَلَى الْقَاتِلِ - بَعْدَ الْعَفْوِ وَالرِّضَا بِالْدِّيَّةِ - بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ مِنْ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فِي الْقِصَاصِ رَاحَةُ الْبَالِ، وَصِيَانَةُ النَّاسِ مِنْ اعْتِدَاءِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضِهِمْ الْآخِرَ، لِأَنَّ مَعْرِفَةَ النَّاسِ أَنَّ مَنْ قَتَلَ يُعَاقَبُ بِالْقَتْلِ، تَحْمِلُهُمْ عَلَى الْارْتِدَاعِ عَنِ الْقَتْلِ، فَتُصَانُ حَيَاةُ النَّاسِ، وَحَيَاةُ مَنْ يُفَكَّرُ بِالْقَتْلِ. وَخَصَّ اللَّهُ تَعَالَى بِاللَّذَاءِ أَرْبَابَ الْعُقُولِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ يَفْهَمُونَ قِيَمَةَ الْحَيَاةِ، وَيَحَافِظُونَ عَلَيْهَا هُمْ الْعُقَلَاءُ. وَإِذَا تَدَبَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ الْحِكْمَةَ مِنْ شَرِّ الْقِصَاصِ حَمَلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى اتِّقَاءِ الْعِتْدَاءِ، وَالْكَفِّ عَنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ.^{٤٣}

مَّا هُوَ مِنَ الْبِرِّ الَّذِي ذَكَرَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ، أَنْ يَأْخُذَ الْمُسْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالتَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ لِمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي جَرَائِمِ الْقَتْلِ، وَهُوَ الْقِصَاصُ، وَهُوَ قَتْلُ الْقَاتِلِ. مَنْ قَتَلَ!.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى» بَيَانٌ لَتَكَاثُرِ الْمُسْلِمِينَ.. فَلَيْسَ حَرٌّ أَحْسَنَ مِنْ حَرٍّ، أَوْ عَبْدٌ أَكْرَمَ مِنْ عَبْدٍ، أَوْ أَنْثَى أَفْضَلَ مِنْ أَنْثَى!.

وَقَدْ رَأَى بَعْضُ الْأُتَمَّةِ الْفُقَهَاءِ أَنَّ الْقِصَاصَ هُنَا إِنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلِينَ:

الْحُرُّ بِالْحُرِّ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ، وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى.. فَلَا يَقْتُلُ الْحُرُّ بِالْعَبْدِ، وَلَا الرَّجُلُ بِالْمَرْأَةِ!.

وَهَذَا تَخْرِيجٌ غَيْرُ سَلِيمٍ لِلآيَةِ الْكَرِيمَةِ.. إِذْ لَيْسَ هَذَا التَّقْسِيمُ التَّنْوِيعِيُّ لِلنَّاسِ، بِالَّذِي يَوْجِبُ التَّفَاضُلَ بَيْنَ نَوْعٍ وَنَوْعٍ! وَلَوْ كَانَ مُوجِباً لِدَلَالَةِ مَا كَانَ قَتْلُ الْمَرْأَةِ بِالرَّجُلِ، وَلَا الْعَبْدُ بِالْحُرِّ قِصَاصاً.. إِذْ لَا بِفِي دَمِ الْمَرْأَةِ - عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ - بَدَمُ الرَّجُلِ، وَكَذَلِكَ دَمُ الْعَبْدِ وَدَمُ الْحُرِّ!.

وَأَوَّلَى مَنْ هَذَا أَنْ تَفْهَمَ الْآيَةَ عَلَى وَجْهِ آخَرَ.. وَهُوَ أَنَّ التَّنْوِيعَ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الْآيَةُ، لَيْسَ مَقْصُوداً بِهِ التَّفَاضُلُ بَيْنَ نَوْعٍ وَنَوْعٍ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ بِهِ أَوَّلًا هُوَ: أَلَّا تَفَاضَلَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْأَنْوَاعِ.. فَالْحُرُّ لَا يَفْضُلُ الْحُرَّ، سِوَاكَ أَمَّا قَرَشِيَا، أَوْ غَيْرَ قَرَشِيٍّ.. وَهَكَذَا سَائِرُ الْأَنْوَاعِ..

فَإِذَا اسْتَقَامَ ذَلِكَ، وَزَالَتِ الْفَوَارِقُ بَيْنَ النَّاسِ، فِي النَّسَبِ، وَالدَّمِ، وَالْجَاهِ، وَالسُّلْطَانِ، جَمْعُهُمْ جَمِيعاً - أَحْرَاراً وَعَبِيداً، ذُكُوراً وَإِنَاثاً - نَسَبٌ وَاحِدٌ.. هُوَ الْإِسْلَامُ، الَّذِي اصْطَبَغُوا بِصَبْغَتِهِ وَحَدَّهَا، وَتَعَرَّوْا مِنْ كُلِّ نَسَبَةٍ إِلَّا نَسَبَتَهُ، وَهُنَا تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ.. الْحُرُّ، وَالْعَبْدُ، وَالْأُنْثَى.. سِوَاكَ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ» .

^{٤٣} - أَيْسَرُ التَّفَاسِيرِ لِأَسْعَدِ حُومِدٍ (ص: ١٨٥، بِتَرْقِيمِ الشَّامِلَةِ آيَا)

وعلى هذا تقتل النفس بالنفس، أيًا كان جنسها، أو مكانها الاجتماعي.. إنسان بإنسان، وروح بروح.^{٤٤٤}

يتمتع تعالى على عباده المؤمنين، بأنه فرض عليهم { الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ } أي: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل على الصفة، التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل والقسط بين العباد.

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين، فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم، حتى أولياء القاتل حتى القاتل بنفسه إعانة ولي المقتول، إذا طلب القصاص وتمكينه من القاتل، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد، ويمنعوا الولي من الاقتصاص، كما عليه عادة الجاهلية، ومن أشبههم من إيواء المحدثين.

ثم بين تفصيل ذلك فقال: { الْحُرُّ بِالْحُرِّ } يدخل بمنطوقها، الذكر بالذكر، { وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى } والأنثى بالذكر، والذكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدما على مفهوم قوله: "الأنثى بالأنثى" مع دلالة السنة، على أن الذكر يقتل بالأنثى، وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا، فلا يقتلان بالولد، لورود السنة بذلك، مع أن في قوله: { الْقِصَاصُ } ما يدل على أنه ليس من العدل، أن يقتل الوالد بولده، ولأن في قلب الوالد من الشفقة والرحمة، ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله، أو أذية شديدة جدا من الولد له.

وخرج من العموم أيضا، الكافر بالسنة، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة. وأيضا فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه، والعبد بالعبد، ذكرا كان أو أنثى، تساوت قيمتهما أو اختلفت، ودل بمفهومها على أن الحر، لا يقتل بالعبد، لكونه غير مساو له، والأنثى بالأنثى، أخذ بمفهومها بعض أهل العلم فلم يجز قتل الرجل بالمرأة، وتقدم وجه ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل، وأن الدية بدل عنه، فلهذا قال: { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ } أي: عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية، أو عفا بعض الأولياء، فإنه يسقط القصاص، وتجب الدية، وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي.

فإذا عفا عنه وجب على الولي، [أي: ولي المقتول] أن يتبع القاتل { بِالْمَعْرُوفِ } من غير أن يشق عليه، ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب، ولا يجرجه.

وعلى القاتل { أَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ } من غير مظل ولا نقص، ولا إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو، إلا الإحسان بحسن القضاء، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذمم الناس للإنسان، مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف، ومن عليه الحق، بالأداء بإحسان.

وفي قوله: { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ } ترقيق وحث على العفو إلى الدية، وأحسن من ذلك العفو مجانا. وفي قوله: { أَخِيهِ } دليل على أن القاتل لا يكفر، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان، فلم يخرج

^{٤٤٤} - التفسير القرآني للقرآن (١/ ١٩٤)

بالقتل منها، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر، لا يكفر بها فاعلها، وإنما ينقص بذلك إيمانه.

وإذا عفا أولياء المقتول، أو عفا بعضهم، احتقن دم القاتل، وصار معصوما منهم ومن غيرهم، ولهذا قال: {فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ} أي: بعد العفو {فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: في الآخرة، وأما قتله وعدمه، فيؤخذ مما تقدم، لأنه قتل مكافئا له، فيجب قتله بذلك.

وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل، فإن الآية تدل على أنه يتعين قتله، ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء والصحيح الأول، لأن جنايته لا تزيد على جناية غيره.

ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص فقال: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} أي: تنحقت بذلك الدماء، وتنقمع به الأشقياء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رئي القاتل مقتولا اندعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر، الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكابة والانزجار، ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، ونكر "الحياة" لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم، لا يعرف حقيقته، إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى، يحب من عباده، أن يعملوا أفكارهم وعقولهم، في تدبر ما في أحكامه من الحكم، والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته وحمده، وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلا وشرفا لقوم يعقلون.

وقوله: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.^{٤٤٥}

النداء للذين آمنوا.. بهذه الصفة التي تقتضي التلقي من الله، الذي آمنوا به، في تشريع القصاص. وهو يناديهم لينبئهم أن الله فرض عليهم شريعة القصاص في القتلى، بالتفصيل الذي جاء في الآية الأولى. وفي الآية الثانية يبين حكمة هذه الشريعة، ويوقظ فيهم التعقل والتدبر لهذه الحكمة، كما يستجيش في قلوبهم شعور التقوى وهو صمام الأمن في مجال القتلى والقصاص.

وهذه الشريعة التي تبينها الآية: أنه عند القصاص للقتلى - في حالة العمد - بقتل الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى.

^{٤٤٥} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٤)

«فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ».. وهذا العفو يكون بقبول الدية من أولياء الدم بدلا من قتل الجاني. ومتى قبل ولي الدم هذا ورضيه، فيجب إذن أن يطلبه بالمعروف والرضى والمودة. ويجب على القاتل أو وليه أن يؤديه بإحسان وإجمال وإكمال. تحقيقا لصفاء القلوب، وشفاء لجراح النفوس، وتقوية لأواصر الأخوة بين البقية الأحياء.

وقد امتن الله على الذين آمنوا بشريعة الدية هذه بما فيها من تخفيف ورحمة: «ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ».. ولم يكن هذا التشريع مباحا لبني إسرائيل في التوراة. إنما شرع للأمة المسلمة استبقاء للأرواح عند الترضي والصفاء.

«فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ».. وفوق العذاب الذي يتوعده به في الآخرة.. يتعين قتله، ولا تقبل منه الدية. لأن الاعتداء بعد التراضي والقبول، نكث للعهد، وإهدار للتراضي، وإثارة للشحناء بعد صفاء القلوب، ومتى قبل ولي الدم الدية، فلا يجوز له أن يعود فينتقم ويعتدي.

ومن ثم ندرك سعة آفاق الإسلام وبصره بحوافر النفس البشرية عند التشريع لها ومعرفته بما فطرت عليه من النوازع.. إن الغضب للدم فطرة وطبيعة. فالإسلام يلبّيها بتقرير شريعة القصاص. فالعدل الجازم هو الذي يكسر شرة النفوس، ويفثأ حنق الصدور، ويردع الجاني كذلك عن التمادي، ولكن الإسلام في الوقت ذاته يحبب في العفو، ويفتح له الطريق، ويرسم له الحدود، فتكون الدعوة إليه بعد تقرير القصاص دعوة إلى التسامي في حدود التطوع، لا فرضا يكبت فطرة الإنسان ويحملها ما لا تطيق:

وتذكر بعض الروايات أن هذه الآية منسوخة. نسختها آية المائدة التي نزلت بعدها وجعلت النفس بالنفس إطلاقا: «وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ.. الآية».. قال ابن كثير في التفسير: «وذكر في سبب نزولها ما رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم. حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ، ثنا يَحْيَى، حَدَّثَنِي ابْنُ لَهْيَعَةَ، حَدَّثَنِي عَطَاءٌ، عَنْ سَعِيدٍ، فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ " يَعْنِي إِذَا كَانَ عَمْدًا الْحُرُّ بِالْحُرِّ، وَذَلِكَ أَنَّ حَيَيْنَ مِنَ الْعَرَبِ اقْتَتَلُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ بَقِيلٍ، فَكَانَ بَيْنَهُمْ قَتْلٌ وَجَرَاحَاتٌ حَتَّى قَتَلُوا الْعَبِيدَ وَالنِّسَاءَ، فَلَمْ يَأْخُذْ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّى أَسْلَمُوا، فَكَانَ أَحَدُ الْحَيَيْنِ يَتَطَاوَلُ عَلَى الْآخَرِ فِي الْعِدَّةِ وَالْأَمْوَالِ، فَحَلَفُوا أَلَّا يَرْضَوْا، حَتَّى يَقْتُلُوا بِالْعَبْدِ مِمَّنَّا، الْحُرُّ مِنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ مِمَّنَّا، بِالرَّجُلِ مِنْهُمْ، فَنَزَلَ فِيهِمْ: " الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى "، مِنْهُمَا مَنَسُوخَةٌ نَسَخَتْهَا: " النَّفْسُ بِالنَّفْسِ "، وَرُويَ عَنْ أَبِي مَالِكٍ نَحْوُ ذَلِكَ. ٤٤٦»

وعن ابن عباس في قوله: " كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ قَالَ: كَانُوا لَا يَقْتُلُونَ الرَّجُلَ بِالْمَرْأَةِ، وَلَكِنْ يَقْتُلُونَ الرَّجُلَ بِالرَّجُلِ وَالْمَرْأَةَ بِالْمَرْأَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ

٤٤٦ - تفسير ابن أبي حاتم - (١ / ٤٤٤) (١٥٨٨) حسن مرسل

قَالَ: فَجَعَلَ الْأَحْرَارَ فِي الْقِصَاصِ سَوَاءً فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي الْعَمْدِ، رِجَالَهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ فِي النَّفْسِ وَفِيمَا دُونَ النَّفْسِ مُتَسَاوِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي الْعَمْدِ فِي النَّفْسِ، وَفِيمَا دُونَ النَّفْسِ رِجَالَهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ^{٤٤٧} وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ" قَالَ: كَانُوا لَا يَقْتُلُونَ الرَّجُلَ بِالْمَرْأَةِ، وَلَكِنْ يَقْتُلُونَ الرَّجُلَ بِالرَّجُلِ وَالْمَرْأَةَ بِالْمَرْأَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ قَالَ: فَجَعَلَ الْأَحْرَارَ فِي الْقِصَاصِ سَوَاءً فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي الْعَمْدِ، رِجَالَهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ فِي النَّفْسِ وَفِيمَا دُونَ النَّفْسِ مُتَسَاوِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي الْعَمْدِ فِي النَّفْسِ، وَفِيمَا دُونَ النَّفْسِ رِجَالَهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ^{٤٤٨} والذي يظهر لنا أن موضع هذه الآية غير موضع آية النفس بالنفس.. وأن لكل منهما مجالا غير مجال الأخرى. وأن آية النفس بالنفس بمجالها مجال الاعتداء الفردي من فرد معين على فرد معين، أو من أفراد معينين على فرد أو أفراد معينين كذلك. فيؤخذ الجاني ما دام القتل عمدا.. فأما الآية التي نحن بصددتها فمجالها مجال الاعتداء الجماعي - كحالة ذينك الحيين من العرب - حيث تعتدي أسرة على أسرة، أو قبيلة على قبيلة، أو جماعة على جماعة. فتصيب منها من الأحرار والعبيد والنساء.. فإذا أقيم ميزان القصاص كان الحر من هذه بالحر من تلك، والعبد من هذه بالعبد من تلك، والأنثى من هذه بالأنثى من تلك. وإلا فكيف يكون القصاص في مثل هذه الحالة التي يشترك فيها جماعة في الاعتداء على جماعة؟

وإذا صح هذا النظر لا يكون هناك نسخ لهذه الآية، ولا تعارض في آيات القصاص. ثم يكمل السياق الحديث عن فريضة القصاص بما يكشف عن حكمته العميقة وأهدافها الأخيرة: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».. إنه ليس الانتقام، وليس إرواء

^{٤٤٧} - النَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ لِلْقَاسِمِ بْنِ سَلَامٍ (٢٠٩) صحيح مرسل زيادة مني

^{٤٤٨} - النَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ لِلْقَاسِمِ بْنِ سَلَامٍ (٢١٠) حسن - زيادة مني

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: "يَذْهَبُ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيمَا نَرَى إِلَى أَنَّ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ لَيْسَتْ بِنَاسِخَةٍ لِلَّتِي فِي الْبَقَرَةِ: الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَلَا هِيَ خِلَافُهَا، وَلَكِنَّهُمَا جَمِيعًا مُحْكَمَتَانِ، إِلَّا أَنَّهُ رَأَى أَنَّ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ كَالْمُفْسَّرَةِ لِلَّتِي فِي الْبَقَرَةِ فَتَأْوِيلُ أَنَّ قَوْلَهُ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى أَنَّ أَنْفُسَ الْأَحْرَارِ مُتَسَاوِيَةٌ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْعَبِيدِ، وَأَنَّهُمْ يَتَكَفَّفُونَ دِمَاؤَهُمْ ذُكُورًا كَانُوا أَمْ إِنَاثًا، وَأَنَّ أَنْفُسَ الْمَمَالِكِ مُتَسَاوِيَةٌ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْأَحْرَارِ تَتَكَفَّفُونَ دِمَاؤَهُمْ ذُكُورًا كَانُوا أَمْ إِنَاثًا، وَأَنَّهُ لَا قِصَاصَ لِلْمَالِكِ عَلَى الْأَحْرَارِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ نَفْسٍ، وَلَا مَا دُونَهَا لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ بْنُ أَنَسٍ وَأَهْلِ الْحِجَازِ، لَا يَرَوْنَ أَنَّ يُقْتَصَّ مِنَ الْحَرِّ لِلْمَمْلُوكِ فِي نَفْسٍ وَلَا غَيْرِهِمَا، وَأَمَّا أَهْلُ الْعِرَاقِ، فَيَرَوْنَ أَنَّ مَنْ رَأَى مِنْهُمْ أَنَّ آيَةَ: الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ مَنْسُوخَةٌ نَسَخَتْهَا: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ فِي قَوْلِهِ، فَيَجْعَلُونَ بَيْنَ الْأَحْرَارِ وَالْعَبِيدِ الْقِصَاصَ فِي النَّفْسِ خَاصَّةً وَلَا يَرَوْنَ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ قِصَاصًا"

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: "وَالْقَوْلُ الَّذِي نَخْتَارُهُ فِي هَذَا مَا قَالَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنْ جِهَتَيْنِ أَحَدِهِمَا: تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ الَّذِي فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْأُخْرَى أَنَّهُ قَوْلٌ يُؤَافِقُ بَعْضَهُ بَعْضًا وَلَا يَخْتَلِفُ، وَأَمَّا الْقَوْلُ الْآخَرُ فَلَيْسَ بِمُتَّفِقٍ مِنَ التَّنْزِيلِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ: أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ، فَأَخَذَ هَؤُلَاءِ بِأَوَّلِ الْآيَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَتَرَكَوْا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَفَرِّقَ بَيْنَ مَا جَمَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَيَأْخُذَ بِبَعْضِهِ دُونَ بَعْضٍ إِلَّا أَنْ يَفَرِّقَ بَيْنَ ذَلِكَ كِتَابٌ أَوْ سُنَّةٌ، فَهَذَا مَا نُسَخَ مِنْ حُدُودِ الْقُرْآنِ.."

الأحقاد. إنما هو أجل من ذلك وأعلى. إنه للحياة، وفي سبيل الحياة، بل هو في ذاته حياة .. ثم إنه للتعقل والتدبر في حكمة الفريضة، ولاستحياء القلوب واستجاشتها لتقوى الله ..

والحياة التي في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء. فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمنا للحياة من يقتل .. جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد. كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل. شفائها من الحقد والرغبة في الثأر. الثأر الذي لم يكن يقف عند حد في القبائل العربية حتى لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عاما كما في حرب البسوس المعروفة عندهم. وكما نرى نحن في واقع حياتنا اليوم، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية جيلا بعد جيل، ولا تكف عن المسيل ..

وفي القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم. فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حي، يشترك مع القتل في سمة الحياة. فإذا كف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها. وكان في هذا الكف حياة. حياة مطلقة. لا حياة فرد، ولا حياة أسرة، ولا حياة جماعة .. بل حياة .. ثم - وهو الأهم والعامل المؤثر الأول في حفظ الحياة - استجاشة شعور التدبر لحكمة الله، ولتقواه: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» ..

هذا هو الرباط الذي يعقل النفوس عن الاعتداء. الاعتداء بالقتل ابتداء، والاعتداء في الثأر أخيرا .. التقوى .. حساسية القلب وشعوره بالخوف من الله وتحرجه من غضبه وتطلبه لرضاه. إنه بغير هذا الرباط لا تقوم شريعة، ولا يفلح قانون، ولا يتخرج متخرج، ولا تكفي التنظيمات الخاوية من الروح والحساسية والخوف والطمع في قوة أكبر من قوة الإنسان! وهذا ما يفسر لنا ندرة عدد الجرائم التي أقيمت فيها الحدود على عهد النبي - ﷺ - وعهد الخلفاء، ومعظمها كان مصحوبا باعتراف الجاني نفسه طائعا مختارا .. لقد كانت هنالك التقوى .. كانت هي الحارس اليقظ في داخل الضمائر، وفي حنايا القلوب، تكفها عن مواضع الحدود .. إلى جانب الشريعة النيرة البصيرة بخفايا الفطر ومكونات القلوب .. وكان هناك ذلك التكامل بين التنظيمات والشرائع من ناحية والتوجيهات والعبادات من ناحية أخرى، تتعاون جميعها على إنشاء مجتمع سليم التصور سليم الشعور. نظيف الحركة نظيف السلوك. لأنها تقيم محكمتها الأولى في داخل الضمير! «حتى إذا جمحت السورة البهيمية في حين من الأحيان، وسقط الإنسان سقطة، وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ولا تتناوله يد القانون، تحول هذا الإيمان نفسا لوامة عنيفة، ووخزا لاذعا للضمير، وخيالا مروعا، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة، ويتحملها مطمئنا مرتاحا، تفاديا من سخط الله، وعقوبة الآخرة»^{٤٤٩}

^{٤٤٩} - عن كتاب: ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين للسيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي. ص ٦٢ طبعة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. (السيد رحمه الله)

٦٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال تعالى: { وَلِتُكِنِّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) } [آل عمران: ١٠٤، ١٠٥]

لِتُكِنِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ جَمَاعَةٌ مُتَخَصَّصَةٌ مُتَمَيِّزَةٌ تَعْرِفُ أَسْرَارَ الْأَحْكَامِ، وَحِكْمَةَ التَّشْرِيعِ وَفِقْهَهُ، تَتَوَلَّى الْقِيَامَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الدِّينِ، وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتُحَارِبُ الْمُنْكَرَ، وَتَنْهَى عَنْهُ، وَمِنْ وَاجِبِ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُحَارِبَ الْمُنْكَرَ مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْفَائِزُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ٤٥١

علماء أهل الكتاب هم الذين أفسدوا على الناس دينهم، فغيروا، وبدلوا، وحرفوا.. وهذه خيانة لله، وخيانة للعلم، إذ كان العلماء هم ورثة الأنبياء، وهم المؤتمنون على دعوة السماء، بعد الرسل، يعلمون الجاهلين، ويهدون الضالين، ويقيمون المنحرفين، فإذا تحول العلماء أنفسهم إلى أدوات هدم وتدمير في المجتمع، كانت المصيبة قاصمة مهلكة! من أجل هذا، كانت دعوة الله سبحانه وتعالى إلى الأمة الإسلامية، أن تندب منها أمة، أي جماعة، يتولون قيادة الناس، وهدايتهم إلى سبل الرشاد..

فيأمرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ.. وبهذا يقومون في المجتمع مقام الأطباء، الذين يرصدون الآفات والأمراض التي تعرض للناس، فيعملون على دفعها، والقضاء عليها.. ويمكن أن يكون قوله تعالى: «وَلِتُكِنِّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» دعوة للأمة الإسلامية كلها أن تكون على تلك الصفة.. أمة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر. ويكون معنى «من» في «منكم» للبيان لا للتبعض، وهذا ما يناسب قول الله تعالى بعد هذه الآية: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ».

(١١٠: آل عمران) وسواء أكان الأمر موجهاً إلى الأمة الإسلامية كلها، أو إلى جماعة العلماء المتخيرة فيها، فإن معطيات هذا الأمر واحدة، حيث تكون الأمة كلها منقاداً للقيادة الرشيدة فيها، وهي جماعة العلماء العاملين بعلمهم، الداعين إلى الخير، الأمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، وبهذا تصبح الأمة كلها على هذا الطريق المستقيم.

وإذ يأمر الله تعالى الجماعة الإسلامية بهذا، فإنه يحذرها من أن تذهب مذاهب الجماعات المنحرفة من أهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا، ولم يقم من بينهم راشدون، يقومون في وجه تلك

٤٥٠ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٠)

٤٥١ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٩٧، بترقيم الشاملة آليا)

الانحرافات، وهذه الاختلافات، فكان أن ضلّوا جميعاً، وهلكوا جميعاً!! وهكذا شأن الجماعات التي تفقد القيادة الرشيدة.. لا يستقيم لها طريق، ولا تستقر لها حال.. إنها أشبه بالغنم ليس لها راع يوردها موارد العشب والماء، ويدفع عنها عادية الذئب والسباع..^{٤٥٢}

وليكن منكم أيها المؤمنون الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله {أمة} أي: جماعة {يبدعون إلى الخير} وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه {ويأمرون بالمعروف} وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه {وينهون عن المنكر} وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكاييل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله {ولتكن منكم أمة} إلخ أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالأستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: {وأولئك هم المفلحون} الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب، ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال: {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا} ومن العجائب أن اختلافهم {من بعد ما جاءهم البينات} الموجبة لعدم التفرق والاختلاف، فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين، فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، فاستحقوا العقاب البليغ، ولهذا قال تعالى: {وأولئك لهم عذاب عظيم}..^{٤٥٣}

فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير، وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر. لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر. والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته.

فهناك «دعوة» إلى الخير. ولكن هناك كذلك «أمر» بالمعروف. وهناك «نهي» عن المنكر. وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان، فإن «الأمر والنهي» لا يقوم بهما إلا ذو سلطان ..

^{٤٥٢} - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٥٤٢)

^{٤٥٣} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٤٢)

هذا هو تصور الإسلام للمسألة .. إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى .. سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر .. سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة في الله .. سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر .. وتحقيق هذا المنهج يقتضي «دعوة» إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج. ويقتضي سلطة «تأمر» بالمعروف «وتنهى» عن المنكر .. فتطاع .. والله يقول: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ» .. فمنهج الله في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد وبيان. فهذا شطر. أما الشطر الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهي، على تحقيق المعروف ونفي المنكر من الحياة البشرية، وصيانة تقاليد الجماعة الخيرة من أن يعيث بها كل ذي هوى وكل ذي شهوة وكل ذي مصلحة، وضمانة هذه التقاليد الصالحة من أن يقول فيها كل امرئ برأيه وبتصوره، زاعما أن هذا هو الخير والمعروف والصواب! والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - من ثم - تكليف ليس بالهين ولا باليسير، إذا نظرنا إلى طبيعته، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم، ومصالح بعضهم ومنافعهم، وغرور بعضهم وكبريائهم.

وفيهم الجبار الغاشم. وفيهم الحاكم المتسلط. وفيهم الهابط الذي يكره الصعود. وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد. وفيهم المنحل الذي يكره الجد. وفيهم الظالم الذي يكره العدل. وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة ..

وفيهم وفيهم ممن ينكرون المعروف، ويعرفون المنكر. ولا تفلح الأمة، ولا تفلح البشرية، إلا أن يسود الخير، وإلا أن يكون المعروف معروفاً، والمنكر منكراً .. وهذا ما يقتضي سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى ..

وتطاع ..

ومن ثم فلا بد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين: الإيمان بالله والأخوة في الله. لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى ثم بقوة الحب والألفة، وكلتاها ضرورة من ضرورات هذا الدور الذي ناطه الله بالجماعة المسلمة، وكلفها به هذا التكليف. وجعل القيام به شريطة الفلاح. فقال عن الذين ينهضون به: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» ..

إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته. فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية. هو الوسط الخير المتكافل المتعاون على دعوة الخير. المعروف فيه هو الخير والفضيلة والحق والعدل. والمنكر فيه هو الشر والرذيلة والباطل والظلم .. عمل الخير فيه أيسر من عمل الشر. والفضيلة فيه أقل تكاليف من الرذيلة. والحق فيه أقوى من الباطل. والعدل فيه أنفع من الظلم .. فاعل الخير فيه يجد على الخير أعواناً. وصانع الشر فيه يجد مقاومة وخذلانا .. ومن هنا قيمة هذا التجمع ..

إنه البيئة التي ينمو فيها الخير والحق بلا كبير جهد، لأن كل ما حوله وكل من حوله يعاونه. والتي لا ينمو فيها الشر والباطل إلا بعسر ومشقة، لأن كل ما حوله يعارضه ويقاومه.

والتصور الإسلامي عن الوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص.. يختلف في هذا كله عن التصورات الجاهلية اختلافا جوهريا أصيلا. فلا بد إذن من وسط خاص يعيش فيه هذا التصور بكل قيمه الخاصة. لا بد له من وسط غير الوسط الجاهلي، ومن بيئة غير البيئة الجاهلية.

هذا الوسط الخاص يعيش بالتصور الإسلامي ويعيش له فيحيا فيه هذا التصور، ويتنفس أنفاسه الطبيعية في طلاقة وحرية، وينمو نموه الذاتي بلا عوائق من داخله تؤخر هذا النمو أو تقاومه. وحين توجد هذه العوائق تقابلها الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وحين توجد القوة الغاشمة التي تصد عن سبيل الله تجدد من يدافعها دون منهج الله في الحياة.

هذا الوسط يتمثل في الجماعة المسلمة القائمة على ركيزتي الإيمان والأخوة. الإيمان بالله كي يتوحد تصورها للوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص، وترجع إلى ميزان واحد تقوم به كل ما يعرض لها في الحياة، وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله، وتتجه بولائها كله إلى القيادة القائمة على تحقيق منهج الله في الأرض.. والأخوة في الله. كي يقوم كيانها على الحب والتكافل اللذين تحتفي في ظلالهما مشاعر الأثرة، وتتضاعف بهما مشاعر الإيثار. الإيثار المنطلق في يسر، المندفع في حرارة، المطمئن الواثق المرتاح.

وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى - في المدينة - على هاتين الركيزتين.. على الإيمان بالله: ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله - سبحانه - وتمثل صفاته في الضمائر وتقواه ومراقبته، واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال. وعلى الحب. الحب الفياض الرائق، والود. الود العذب الجميل، والتكافل. التكافل الجاد العميق.. وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغا، لولا أنه وقع، لعد من أحلام الحالمين! وقصة المواخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة، ولكنها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحاملة! وهي قصة وقعت في هذه الأرض. ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد والجنان! ^{٤٤}.

وقال تعالى: { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وعد الله الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) } [التوبة/٧١، ٧٢]

^{٤٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٧١٥)

الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَيْنَهُمْ أُخُوَّةٌ، وَمَوَدَّةٌ، وَتَعَاوُنٌ، وَتَرَاحُمٌ، وَيَتَصَفُّونَ بِالصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي يَأْمُرُهُمْ بِهَا دِينُهُمْ: فَيَتَنَاصَرُونَ وَيَتَعَاذُونَ وَيَفْعَلُونَ الْخَيْرَ، وَيَأْمُرُونَ بِهِ، وَيَنْتَهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤَدُّونَهَا حَقَّ آدَائِهَا، وَيُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَى مُسْتَحَقِّهَا، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَيَتْرَكُونَ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ. وَالْمُتَصَفُّونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الطَّيِّبَةِ الْكَرِيمَةِ سَيَرَحْمُهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ عَزِيزُ الْجَانِبِ، يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ حَكِيمٌ فِي قِسْمَتِهِ الصِّفَاتِ بَيْنَ خَلْقِهِ، فَجَعَلَ الْمُؤْمِنِينَ يَخْتَصُّونَ بِالصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، وَالْمُنَافِقِينَ يَخْتَصُّونَ بِالصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ الْمُنْكَرَةِ.

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أَنَّهُ سَيُدْخِلُهُمْ فِي الْآخِرَةِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، يُقِيمُونَ فِيهَا خَالِدِينَ أَبَدًا، فِي مَسَاكِنَ طَيِّبَةٍ حَسَنَةِ الْبِنَاءِ، وَطَيِّبَةِ الْقَرَارِ فِي هَذِهِ الْجَنَّاتِ، وَوَعَدَهُمْ بِرِضْوَانٍ مِنْهُ أَكْبَرَ وَأَجَلَ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. ^{٤٥٥}

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِلْأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبُّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبُّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا" ^{٤٥٦}.

مِمَّا يَضَاعَفُ حَسْرَةَ الْمُنَافِقِينَ، وَيَزِيدُ فِي بِلَائِهِمْ، أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ فِي هَذَا الْمَوْكَبِ الْعَظِيمِ، الَّذِي يَحْفَهُ الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ، وَيَتَغَشَّاهُ النَّعِيمُ وَالرِّضْوَانُ، بَعْدَ أَنْ انْكَشَفَ لِلْمُنَافِقِينَ سُوءُ أَمْرِهِمْ، وَعَاقِبَةُ سَعْيِهِمْ، وَمَا أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ نِكَالٍ وَبَلَاءٍ..

وَفِي هَذَا الْمَوْكَبِ الَّذِي يَنْتَظِمُ الْمُؤْمِنُونَ، يَرَى الرَّائِي لَهُمْ أَنْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، تَجْمَعُهُمُ الْأُخُوَّةُ، وَتَوَلَّفُ بَيْنَهُمُ الْمَوَدَّةُ، يَلْتَقُونَ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَالْوَلَاءِ لَهُ، وَالِاسْتِجَابَةِ لِرَسُولِهِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ..

«وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..».. فتلک هی سبیل المؤمنین، وذلک هو حبیل الله الذی یعتمصمون به، ویشدون أیدیهم علیه.. «أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ» لأنهم لجثوا إليه والتمسوا مرضاته، وأخلصوا القول والعمل له.. «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ» لا یضام من لجأ إليه، واعتصم به..

«حکیم» فی قضائه بین عبادہ، وحکمہ فیهم، فیجزی المحسنین بإحسانهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويأخذ المسيئين بما عملوا إن شاء، أو يتوب عليهم..

کل ذلک عن قدرة متمكنة، وعزة غالبية، وحكمة بالغة.. سبحانه، عزّ فحکم، لا معقب لحکمہ، ولا منازع لسلطانہ..

هذا، وليس دخول حرف الاستقبال في قوله تعالى: «سَيَرْحَمُهُمُ»..

^{٤٥٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣٠٧، بترقيم الشاملة آليا)

^{٤٥٦} - صحيح البخاري (١٥١/٩) (٧٥١٨) وصحيح مسلم (٤/٢١٧٦) ٩ - (٢٨٢٩)

بالذي يجعل وعد الله غير محقق في الحال كما هو محقق في الاستقبال، بل هو وعد منجز في جميع الأحوال، والأزمان.. فالمؤمن مخوف برحمة الله دائما، ولولا هذه الرحمة لما كان من المؤمنين، الذين دعاهم الله إلى الإيمان، وهداهم إليه، وأمسك بهم على طريقه.

وفي قوله تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» ما يشير إلى ما في المؤمنين من معاني الإنسانية، التي تعطى المؤمن وجودا مشخصا، وذاتية مستقلة.. ثم هو - مع هذا الوجود الذاتي المستقل - يحكمه عقل رشيد، ويوجهه قلب سليم، فيلتقى مع أصحاب العقول الرشيدة، ويتجاوب مع أولى القلوب السليمة، على جبهة الحق، وتحت راية الخير، فإذا هو قوة عاملة في هذا الميدان، يعمل للحق مع العاملين، وينتصر للخير مع أهل الخير.. يبادلهم ولاء بولاء، وحبًا بحب، وإخاء بإخاء! وليس كذلك المنافقون والمنافقات.. «بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ».. إنهم كتلة متضخمة من الخبث.. أشبه بالديدان التي تتخلق من الرّم، ليس بينها تجاوب في المشاعر، أو تلاق في التفكير، وإنما هي كائنات تسبح فوق هذه الرّم، وتغتذى منها! قوله تعالى: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» هو بيان لما أعدّ الله للمؤمنين والمؤمنات من جزاء حسن، ومقام كريم في الآخرة.. إنّ لهم عند الله جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ومسكن طيبة في جنّات عدن.. أي جنّات إقامة واستقرار.. يقال عدن بالمكان، أي أقام واستقر.. فهي جنّات لا يتحول عنها ساكنوها إلى مكان آخر، حيث تطيب لساكنيها الإقامة، لما يجدون فيها من نعيم لا ينفد، ولا يملّ مهما طالت صحبته، وامتدّ الزمن في الحياة معه.

وقوله سبحانه: «وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ».. هو نعيم فوق هذا النعيم الذي يناله أصحاب الجنة.. عما يفيض الله سبحانه وتعالى عليهم من رضوانه، وما يضيفه عليهم من رضا.. فكل نعيم - وإن عظم - هو قليل إلى رضوان الله، الذي يناله من رضى الله عنهم، ثم إن كل نعيم هو تبع لهذا الرضا، ونسمة من أنسامه الطيبة المباركة.. ولهذا جاء قوله تعالى: «ورضوان من الله أكبر» مستأنفاً، غير معطوف على ما قبله، حتى لكانه إضراب عما سبقه، بمعنى «بل».. وعلى هذا يكون التقدير: «بل.. ورضوان من الله أكبر».. وقوله تعالى: «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» الإشارة هنا إلى رضوان الله، الذي هو الفوز كل الفوز، والنعيم كل النعيم.^{٤٥٧}

إذا كان المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض. إذا كانوا جبلة واحدة وطبيعة واحدة.. فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض. إن المنافقين والمنافقات مع وحدة طبيعتهم لا يبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض. فالولاية تحتاج إلى شجاعة وإلى نجدة وإلى تعاون وإلى تكاليف. وطبيعة النفاق تأبى هذا

^{٤٥٧} - التفسير القرآني للقرآن (٥ / ٨٤٢)

كله ولو كان بين المنافقين أنفسهم. إن المنافقين أفراد ضعاف مهازيل، وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة، على ما يبدو بينهم من تشابه في الطبيعة والخلق والسلوك. والتعبير القرآني الدقيق لا يغفل هذا المعنى في وصف هؤلاء وهؤلاء ..

«الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ» .. «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» .. إن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة. طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل، وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن في تحقيق الخير ودفع الشر.

«يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» .. وتحقيق الخير ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون. ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفا واحدا. لا تدخل بينها عوامل الفرقة. وحيثما وجدت الفرقة في الجماعة المؤمنة فثمة ولا بد عنصر غريب عن طبيعتها، وعن عقيدتها، هو الذي يدخل بالفرقة. ثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى ويدفعها. السمة التي يقررها العليم الخبير! «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» .. يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعلاء كلمة الله، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة في الأرض.

«وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ» .. الصلة التي تربطهم بالله. «وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» .. الفريضة التي تربط بين الجماعة المسلمة، وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن.

«وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» .. فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله. ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله .. وبذلك يوحّدون نهجهم ويوحّدون هدفهم ويوحّدون طريقتهم، فلا تتفرق بهم السبل عن الطريق الواحد الواصل المستقيم.

«أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ» .. والرحمة لا تكون في الآخرة وحدها، إنما تكون في هذه الأرض أولا ورحمة الله تشمل الفرد الذي ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح. رحمة الله في اطمئنان القلب، وفي الاتصال بالله، وفي الرعاية والحماية من الفتن والأحداث.

ورحمة الله في صلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة واطمئنانه لرضاء الله. إن هذه الصفات الأربع في المؤمنين: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، لتقابل من صفات المنافقين: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ونسيان الله وقبض الأيدي .. وإن رحمة الله للمؤمنين لتقابل لعنته للمنافقين والكفار .. وإن تلك الصفات هي التي وعد الله المؤمنين عليها بالنصر والتمكين في الأرض ليحققوها في وصايتهم الرشيدة على البشرية: «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»

..قادر على إعزاز الفئة المؤمنة ليكون بعضها أولياء بعض في النهوض بهذه التكاليف، حكيم في تقدير النصر والعزة لها، لتصلح في الأرض، وتحرس كلمة الله بين العباد.

وإذا كان عذاب جهنم ينتظر المنافقين والكافرين، وكانت لعنته لهم بالمرصاد، وكان نسيانه لهم يدمغهم بالضلالة والحرمان. فإن نعيم الجنة ينتظر المؤمنين: «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ».. للإقامة المطمئنة. ولهم فوقها ما هو أكبر وأعظم: «وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ».. وإن الجنة بكل ما فيها من نعيم لتتضاءل وتتوارى في هالات ذلك الرضوان الكريم.^{٤٥٨}.

«وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ».. إن لحظة اتصال بالله. لحظة شهود لجلاله. لحظة انطلاق من حبسة هذه الأمشاج، ومن ثقله هذه الأرض وهمومها القريبة. لحظة تنبثق فيها في أعماق القلب البشري شعاعة من ذلك النور الذي لا تدركه الأبصار.

لحظة إشراق تنير فيها حنايا الروح بقبس من روح الله.. إن لحظة واحدة من هذه اللحظات التي تتفق للندرة القليلة من البشر في ومضة صفاء، ليتضاءل إلى جوارها كل متاع، وكل رجاء.. فكيف برضوان من الله يغمر هذه الأرواح، وتستشعره بدون انقطاع؟ «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»...^{٤٥٩}

٦٣ - عدمُ الاغترار بالحياة الدنيا

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْرِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٣٣) } [لقمان/٣٣] يُحَذِّرُ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِتَقْوَاهُ لِيُنْقِذُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَهْوَالِهِ، فَهُوَ يَوْمٌ لَا يَسْتَطِيعُ فِيهِ أَحَدٌ نَفْعَ أَحَدٍ، فَلَا الْوَالِدُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفِدِيَ ابْنَهُ، وَلَا الْمَوْلُودُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفِدِيَ وَالِدَهُ، أَوْ أَنْ

^{٤٥٨} - قلت : هناك أحاديث تفسر بعض هذا الرضوان ، فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : كَيْبِكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : مَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نَعْطَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ : أَلَا أُعْطِيَكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، فَيَقُولُونَ : يَا رَبِّ ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلَّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ بَعْدَهُ أَبَدًا. صحيح البخارى - المكثر [٣٨٧/ ٢٤] (٧٥١٨) وصحيح مسلم - المكثر [١٨/ ١٥٦] (٧٣١٨) وصحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [١٦/ ٤٧٠] (٧٤٤٠)

وَعَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : "الْجَنَّةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ ، دَرَجَةٌ مِنْ فَضَّةٍ أَرْضُهَا فَضَّةٌ وَمَسَاكِنُهَا فَضَّةٌ وَأَنْبِيَتْهَا فَضَّةٌ ، وَثَرَابُهَا مِسْكٌ ، وَالثَّانِيَةُ : مِنْ ذَهَبٍ ، أَرْضُهَا ذَهَبٌ وَمَسَاكِنُهَا ذَهَبٌ ، وَأَنْبِيَتْهَا ذَهَبٌ ، وَثَرَابُهَا مِسْكٌ وَسَبْعَةٌ وَتِسْعِينَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ". تفسير ابن أبي حاتم [٣٣٢/ ٧] (١٠٦٠٥) صحيح مرسل

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، قَالَ : يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا فَأَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا وَمَا فَوْقَ مَا أُعْطِينَا ؟ قَالَ : يَقُولُ : رِضْوَانِي أَكْبَرُ". المستدرک للحاکم مشکلا [١/ ٧٠] (٢٧٦) ورواه أبو نعيم في

صفة الجنة برقم (٢٣٨) وتفسير ابن كثير - دار طيبة [١٧٧/ ٤] صحيح

^{٤٥٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٢٨٨)

يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، أَوْ أَنْ يَحْمِلَ مِنْ ذُنُوبِهِ شَيْئًا، وَلَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمَ إِلَّا إِيمَانُهُ بِرَبِّهِ، وَإِخْلَاصُهُ الْعِبَادَةَ لَهُ، وَعَمَلُهُ الصَّالِحُ .

ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْعِبَادَ بِالْأَثْلَاءِ لِيُفْلِحُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِزُخْرُفِهَا، وَزِينَتِهَا، وَمَتَاعِهَا، عَنِ الْعَمَلِ النَّافِعِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ هُوَ وَعْدٌ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ أَبَدًا . كَمَا يَأْمُرُهُمْ بِالْأَثْلَاءِ يَعْزِّزُهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَحْمِلُهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي بِتَزْيِينِهَا لَهُمْ^{٤٦٠} .

وَفِي هَذَا الْخَتَامِ دَعْوَةٌ عَامَّةٌ لِلنَّاسِ جَمِيعًا إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَالْخَشْيَةِ لَهُ، وَاتَّقَاءِ عَذَابِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَيْثُ تَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، وَلَا يَغْنَى أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا..

فَهَذَا تَقَطُّعُ الْأَنْسَابِ، وَيَشْغَلُ كُلُّ امْرِئٍ بِنَفْسِهِ، «يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنَ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» (٣٤ - ٣٧: عبس) .. «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (٨٨ - ٨٩: الشعراء) . وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» وَعَدَ اللَّهُ هُنَا هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، حَيْثُ وَعَدَ النَّاسَ بِالْبَعْثِ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ، لِيَلْقُوا جِزَاءَ مَا عَمِلُوا.. وَهَذَا وَعْدٌ حَقٌّ.. «وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ» (٦: الروم) . وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَلَا تُغْنِيكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا تُغْنِيكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ» تَحْذِيرٌ مِنَ الْغَفْلَةِ عَنْ هَذَا الْيَوْمِ، وَمِنْ عَدَمِ الْعَمَلِ لَهُ، وَالْحَذَرِ مِمَّا يَشْغَلُ الْإِنْسَانَ عَنْهُ، مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزُخَارِفِهَا، وَمِنْ الْمَغْرَبَاتِ الَّتِي تَزِينُ لِلْإِنْسَانِ الشَّرَّ، وَتَدْفَعُهُ عَنْ مَوَاقِعِ الْإِحْسَانِ، بِمَا يُوَسَّوِسُ لَهُ بِهِ الشَّيْطَانُ، وَمَا تَزِينُ لَهُ بِهِ النَّفْسُ^{٤٦١} .

يَأْمُرُ تَعَالَى النَّاسَ بِتَقْوَاهُ، الَّتِي هِيَ امْتِثَالُ أَوْامِرِهِ، وَتَرْكُ زَوَاجِرِهِ، وَيُسْتَلَفَتُهُمْ لَخَشْيَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الْيَوْمِ الشَّدِيدِ، الَّذِي فِيهِ كُلُّ أَحَدٍ لَا يَهْمُهُ إِلَّا نَفْسُهُ فَ { لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا } لَا يَزِيدُ فِي حَسَنَاتِهِ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ، قَدْ تَمَّ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ عَمَلُهُ، وَتَحَقَّقَ عَلَيْهِ جِزَاؤُهُ. فَلَفَتَ النَّظَرَ فِي هَذَا لِهَذَا الْيَوْمِ الْمَهِيلِ، مِمَّا يَقْوِي الْعَبْدَ وَيُسَهِّلُ عَلَيْهِ تَقْوَى اللَّهِ، وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِالْعِبَادِ، يَأْمُرُهُمْ بِتَقْوَاهُ الَّتِي فِيهَا سَعَادَتُهُمْ، وَيَعِدُهُمْ عَلَيْهَا الثَّوَابَ، وَيَحْذَرُهُمُ مِنَ الْعِقَابِ، وَيُزَعِّجُهُمْ إِلَيْهِ بِالْمَوَاعِظِ وَالْمَخَوِّفَاتِ، فَلِكِ الْحَمْدُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

{ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } فَلَا تَمْتَرُوا فِيهِ، وَلَا تَعْمَلُوا عَمَلًا غَيْرَ الْمَصْدَقِ، فَلِهَذَا قَالَ: { فَلَا تُغْنِيكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } بِزِينَتِهَا وَزُخَارِفِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْفِتَنِ وَالْخُنْ.

{ وَلَا يُغْنِيكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ } الَّذِي هُوَ الشَّيْطَانُ، الَّذِي مَا زَالَ يَخْدَعُ الْإِنْسَانَ وَلَا يَغْفُلُ عَنْهُ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى عِبَادِهِ حَقٌّ، وَقَدْ وَعَدَهُمْ مَوْعِدًا يُجَازِيهِمْ فِيهِ بِأَعْمَالِهِمْ، وَهَلْ وَفَوْا حَقَّهُ أَمْ قَصَرُوا فِيهِ. وَهَذَا أَمْرٌ يَجِبُ الْإِهْتِمَامُ بِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَ الْعَبْدُ نَصَبَ عَيْنَيْهِ، وَرَأْسَ مَالِ تِجَارَتِهِ، الَّتِي يَسْعَى إِلَيْهَا. وَمَنْ

^{٤٦٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٣٨٣، بترقيم الشاملة آليا)

^{٤٦١} - التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٥٩٣)

أعظم العوائق عنه والقواطع دونه، الدنيا الفتانة، والشيطان الموسوس المُسَوَّل، فنهى تعالى عباده، أن تغرهم الدنيا، أو يغرهم بالله الغرور {يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} ^{٤٦٢} إن الهول هنا هول نفسي، يقاس بمداه في المشاعر والقلوب ^{٤٦٣}. وما تنقطع أو أصر القربى والدم، ووشتائج الرحم والنسب بين الوالد ومن ولد، وبين المولود والوالد. وما يستقل كل بشأته، فلا يجزى أحد عن أحد، ولا ينفع أحدًا إلا عمله وكسبه. ما يكون هذا كله إلا هول لا نظير له في مألوف الناس.. فالدعوة هنا إلى تقوى الله تحييء في موضعها الذي فيه تستجاب وقضية الآخرة تعرض في ظلال هذا الهول الغامر فتسمع لها القلوب.

«إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ».. فلا يخلف ولا يتخلف ولا مفر من مواجهة هذا الهول العصيب. ولا مفر من الحساب الدقيق والجزاء العادل، الذي لا يغني فيه والد عن ولد ولا مولود عن والد.

«فَلَا تُغْرِكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا».. وما فيها من متاع وهو ومشغلة فهي مهلة محدودة وهي ابتلاء واستحقاق للجزاء.

«وَلَا يُغْرِكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ».. من متاع يلهي، أو شغل ينسي، أو شيطان يوسوس في الصدور. والشياطين كثير. الغرور بالمال شيطان. والغرور بالعلم شيطان. والغرور بالعمر شيطان. والغرور بالقوة شيطان. والغرور بالسلطان شيطان. ودفعة الهوى شيطان. ونزوة الشهوة شيطان. وتقوى الله وتصور الآخرة هما العاصم من كل غرور! ^{٤٦٤}

و قال تعالى: {يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرركم الحياة الدنيا ولا يغركم بالله الغرور (٥) { [فاطر/ ٥]

يا أيها الناس إن وعد الله بالبعث والتشور والحساب والجزاء.. هو وعد حق لا شك فيه ولا مرية، فلا تغرركم الحياة الدنيا، ولا تلهينكم بزخرفها وزينتها، عن طلب ما ينفعكم يوم حلول موعد الحشر، وبعث الخلائق، ولا تدعوا الشيطان يغركم، ويفتنكم، ويصرفكم عن اتباع رسل الله، وتصديق كلماته، فإنه غرار كذاب فلا تغرركم - فلا تخدعنكم ولا تلهينكم. ^{٤٦٥}

وعد الله: هو ما وعد الله سبحانه في آياته، وعلى لسان رسوله، من البعث والحساب.. والجزاء، والجنة والنار. وهذا الوعد حق، وهو آت لا ريب فيه..

^{٤٦٢} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٥٢)

^{٤٦٣} - يراجع فصل العالم الآخر في القرآن «في كتاب: مشاهد القيامة في القرآن» ص ٤٢-٤٤. «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

^{٤٦٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب- ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٥٥٤)

^{٤٦٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٥٤٦، بترقيم الشاملة آليا)

وقوله تعالى: «فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا» تنبيه للغافلين عن هذا اليوم، المتناسين أو الناسين لهذا الوعد، المشغولين عنه بما بين أيديهم من متاع الدنيا وزخارفها..

وقوله تعالى: «وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ» الغرور: هو الشيطان، وسمى غرورا، لأن يغر الناس، ويخدعهم، ويزين لهم الضلال، فيأتونه وكأنه الهدى.. وكل ما يشغل الإنسان عن الله، وعن العمل الصالح، هو غرور، لأنه يغرر بالإنسان ويخدعه.. ومنه الغرر في البيوع. وقد حرمه الإسلام لما فيه من مخاطرة وغبن.^{٤٦٦}

إن وعد الله حق.. إنه آت لا ريب فيه. إنه واقع لا يتخلف. إنه حق والحق لا بد أن يقع، والحق لا يضيع ولا يبطل ولا يتبدد ولا يحيد. ولكن الحياة الدنيا تغر وتخدع. «فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا». ولكن الشيطان يغر ويخدع فلا تمكنوه من أنفسكم «وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ».. والشيطان قد أعلن عداؤه لكم وإصراره على عداكم «فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا» لا تركزوا إليه، ولا تتخذوه ناصحا لكم، ولا تتبعوا خطاه، فالعدو لا يتبع خطى عدوه وهو يعقل! وهو لا يدعوكم إلى خير، ولا ينتهي بكم إلى نجاة: «إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ»! فهل من عاقل يجيب دعوة الداعي إلى عذاب السعير؟! إنما لمسة وجدانية صادقة. فحين يستحضر الإنسان صورة المعركة الخالدة بينه وبين عدوه الشيطان، فإنه يتحفز بكل قواه وبكل يقظته وبغريزة الدفاع عن النفس وحماية الذات. يتحفز لدفع الغواية والإغراء ويستيقظ لمداخل الشيطان إلى نفسه، ويتوجس من كل هاجسة، ويسرع ليعرضها على ميزان الله الذي أقامه له ليتبين، فلعلها خدعة مستترة من عدوه القديم! وهذه هي الحالة الوجدانية التي يريد القرآن أن ينشئها في الضمير. حالة التوفز والتحفز لدفع وسوسة الشيطان بالغواية كما يتوفز الإنسان ويتحفز لكل بادرة من عدوه وكل حركة خفية! حالة التعبئة الشعورية ضد الشر ودواعيه، وضد هواتفه المستترة في النفس، وأسبابه الظاهرة للعيان. حالة الاستعداد الدائم للمعركة التي لا تهدأ لحظة ولا تضع أوزارها في هذه الأرض أبدا^{٤٦٧}.

خطاب الحق سبحانه لعباده بآيها الناس يدل على أنه تعالى يريد أن يسعدهم جميعاً في الآخرة، وسبق أن ذكرنا الحديث القدسي الذي تقول فيه الأرض: يارب ائذن لي أن أخسف بابن آدم، وقالت البحار: نغرقه... إلخ، فكان الرد من الخالق عزَّ وجلَّ «دعوني وخلقني، فلو خلقتهم لرحمتهم، وإن تابوا إلي فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم».

وقوله تعالى: {اتقوا ربَّكم..} [لقمان: ٣٣] التقوى أن تجعل بينك وبين ما يضررك وقاية تقيك وتحملك؛ لذلك يقول تعالى في آية أخرى {واتقوا النار...} [آل عمران: ١٣١] وهما بمعنى واحد؛

^{٤٦٦} - التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٨٥٣)

^{٤٦٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٧٠٧)

لأن معنى اتقوا الله: اجعلوا بينكم وبين صفات جلال ربكم وانتقامه وجبروته وقاية، وكذلك في: اتقوا النار.

فالخطاب هنا عام للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، فالله تعالى يريد أن يدخلهم جميعاً حيز الإيمان والطاعة، ويريد أن يعطيهم ويمنّ عليهم ويعينهم، وكأنه سبحانه يقول لهم: لا أريد لكم نعيم الدنيا فحسب، إنما أريد أن أعطيكم أيضاً نعيم الآخرة.

وكذلك النبي ﷺ، كان رحيماً حتى بالكافرين والمعاندين له، كما ذكرنا في قصة اليهودي الذي اهتموه ظلماً بسرقة درع أحد المسلمين، وقد عزّ على المسلمين أن يُرمى واحد منهم بالسرقه، فجعلوها عند اليهودي، وعرضوا الأمر على سيدنا رسول الله، فأداره في رأسه: كيف يتصرف فيه؟

فأسعفه الله، وأنزل عليه: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ...} [النساء: ١٠٥] لا بين المؤمنين فحسب {وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً} [النساء: ١٠٥] أي: لا تخصم لصالح الخائن، وإن كان مسلماً، فالناس جميعاً سواء أمام مسئولية الإيمان.

وفرق بين: اتقوا ربكم واتقوا الله؛ لأن عطاء الربوبية غير عطاء الألوهية، عطاء الربوبية إيجاد من عُدْم، وإمداد من عُدْم، وتربية للمؤمن وللکافر، أما عطاء الألوهية فطاعة وعبادة وتنفيذ للأوامر، فاختار هنا الرب الذي خلق وربّى، وكأنه سبحانه يقول للناس جميعاً: من الواجب عليكم أن تجعلوا تقوى الله شكراً لنعمته عليكم، وإن كنتم قد كفرتم بها.

ولا تنتهي المسألة عند تقوى الرب في الدنيا، إنما {واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده..} [لقمان: ٣٣] أي: خافوا يوماً ترجعون فيه إلى ربكم، وكلمة (يوم) تأتي ظرفاً، وتأتي اسماً مُتصرفاً، فهي ظرف إذا كان هناك حدث سيحدث في هذا اليوم كما تقول: خفت شدة الملاحظة يوم الامتحان، فالخوف من الحدث، لا من اليوم نفسه، أمّا لو قلت خفت يوم الامتحان، فالخوف من كل شيء في هذا اليوم، أي من اليوم نفسه.

فالمعنى هنا {واخشوا يوماً..} [لقمان: ٣٣] لأن اليوم نفسه مخيف بصرف النظر عن الجزاء فيه، وفي هذا اليوم {لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ..} [لقمان: ٣٣] حصّ هنا الوالد والولد؛ لأنه سبحانه نصح الجميع، ثم خصّ الوالدين في الوصية المعروفة {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ...} [لقمان: ١٤]

ثم ذكر حيثيات هذه الوصية وقال: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ...} [لقمان: ١٤] فجعل لهما فضلاً وميزة ومثلة عند الله، حتى أصبحتا مظنة النفع حتى يوم القيامة، فأراد سبحانه أن يُبين لنا أن نفع الوالد لولده ينقطع في الآخرة، فكلّ منهما مشغول بنفسه، فلا ينفع الإنسان حتى أقرب الناس إليه.

وفي سورة البقرة: {واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً...} [البقرة: ٤٨] أي: مطلق النفس، لا مجرد الوالد والولد، إنما عامة الناس لا ينفع أحد منهم أحداً أيّاً كان.

والآية بهذا اللفظ وردت في موضعين: اتفقا في الصدر، واختلفا في العجز، وهي تتحدث عن نفسين: الأولى هي النفس الجازية أي: التي تتحمل الجزاء، والأخرى هي النفس المجزئة التي تستحق العقوبة.

فالآية التي نظرت إلى النفس المجزئ عنها، جاء عجزها {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ...} [البقرة: ١٢٣]

ومعنى: عدل أي فدية، فالنفس المجزئ عنها أول مرحلة عندها لتدفع عن نفسها العذاب أن تعرض الفدية، فلا يقبل منها فدية، لكنها لا تيأس، بل تبحث عما يشفع لها من أصحاب الجاه والمترلة يتوسط لها عند الله، وهذه أيضاً لا تنفع.

أما النفس الجازية، فأول ما تعرض تعرض الشفاعة، فإن لم تقبل عرضت العدل والفدية؛ لذلك جاء عجز الآية الأخرى الذي اعتبر النفس الجازية بتقديم الشفاعة على العدل. إذن: ذيل الآية الأولى عائد على النفس المجزئ عنها، وذيل الآية الثانية يعود على النفس الجازية.

وهنا {لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ..} [لقمان: ٣٣] لأن الوالد مظنة الحنان على الولد، وحين يرى الوالد ولده يُعَذِّب يريد أن يفديه، فقدّم هنا (الوالد) ثم قال: {وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئاً..} [لقمان: ٣٣] فقدم المولود، وكان مقتضى الكلام أن نقول: ولا يجزي ولده عن والده، فلماذا عدل عن ولد إلى مولود؟

الكلام هنا كلام رب، وفرق كبير بين ولد ومولود؛ لأن المسلمين الأوائل كان لهم آباء ماتوا على الكفر، فظنوا أن وصية الله بالوالدين تبيح لهم أن يجزوا عنهم يوم القيامة، فأنزل الله هذه الآية تبين لهؤلاء ألا يطعموا في أن يدفعوا شيئاً عن آبائهم الذين ماتوا على الكفر.

لذلك لم يقل هنا ولد، إنما مولود، لأن المولود هو المباشر للوالد، والولد يقال للجد وإن علا فهو ولده، والجد وإن علا والده، فإذا كانت الشفاعة لا تقبل من المولود لوالده المباشر له، فهي من باب أولى لا تقبل للجد؛ لذلك عدل عن ولد إلى مولود، فالمسألة كلام رب حكيم، لا مجرد رصف كلام.

لكن، متى يجزي الوالد عن الولد، والمولود عن والده؟ قالوا: الولد ضعيف بالنسبة لوالده يحتاج منه العطف والرعاية، فإذا رأى الوالد ولده يتألم سارع إلى أن يشفع له ويدفع عنه الألم، أما الولد فلا يدفع عن أبيه الألم لأنه كبير، إنما يدفع عنه الإهانة، فالوالد يشفع في الإيلاء، والولد يشفع في الإهانة، فكل منهما مقام.

ثم يقول سبحانه: {إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ..} [لقمان: ٣٣] عرفنا أن الوعد: إخبار بشيء يسر لم يأت وقته، ووضده الوعيد، وهو إخبار بشيء يؤدي لم يأت وقته بعد، لكن ما فائدة كل منهما؟

فائدة الوعد أن تستعد له، وتأخذ في أسبابه، فهو يشجعك على العمل والسعي الذي يُحقق لك هذا الوعد كأن تعدّ ولدك مثلاً بجائزة إن نجح في الامتحان، وعلى العكس من ذلك الوعيد؛ لأنه يُخوّفك من عاقبته فتحترس، وتأخذ بأسباب النجاة منه.

إذن: الوعد حق، وكذلك الوعيد حق، لكنه حصّ الوعد لأنه يجلب للنفس ما تحب، أمّا الوعيد فقد يمنعها من شهوة تحبها، ووضحنا هذه المسألة بأن الحق - سبحانه وتعالى - يتكلم في النعم أن منها نعم إيجاب، ونعم سلب.

واقراً في ذلك قول ربك: {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٣٥ - ٣٦]

فإذا كانت الجنة وما فيها نعماً تستحق الشكر، ويمتنّ الله بها علينا، فأَيُّ نعمة في الشواظ والنار والعذاب؟ قالوا: هي نعمة من حيث هي تحذير وتخويف من العذاب لتبتعد عن أسبابه، وتنجو منه قبل أن تقع فيه، نعمة لأن الله لم يأخذنا على غرّة، ونبهنا إلى الخطر قبل أن تقع فيه.

ووعّد الله حقاً؛ لأنه وعد مَن يملك الوفاء بما وعد، وإنفاذ ما وعد به، أما غير الله سبحانه فلا يملك أسباب الوفاء، فوعده لا يُوصَف بأنه حق؛ لذلك قال سبحانه في سورة الكهف: {وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ...} [الكهف: ٢٣ - ٢٤]

فأنت وإن كنت صادقاً فيما وعدت به إلا أنك لا تضمن البقاء إلى أن تفي بما وعدت، فإن بقيت فقد تتغير الأسباب فتحول بينك وبين الوفاء، وأنت لا تملك سبباً واحداً من هذه الأسباب.

إذن: تأدب ودع الأمر لمن يملك كل أسباب إنفاذ الوعد، وقُلْ سأفعل كذا إن شاء الله، حتى إذا لم تنفذ يكون لك حجة فتقول: أردتُ لكن الله لم يشأ.

وكان ربنا - عزَّ وجلَّ - يريد أن يداري كذبنا ويستره علينا، يريد ألا يفضحنا به، وأخرجنا من هذه المسؤولية بترك المشيئة له سبحانه، وكان قدر الله في الأشياء صيانة لعبيده من عبیده. لذلك كثيراً ما نقول حينما لا نستطيع الوفاء: هذا قدر الله، وماذا أفعل أنا، والأمر لا يُقضى في الأرض حتى يُقضى في السماء.

وما دما قد آمنا بقدر الله والحكمة منه، فلا تغضب مني إن لم أف لك وأنت كذلك، والعاقل يعلم تماماً حين يقضي أمراً لأحد أن قضاء الأمر جاء معه لا به، فالقدر قضاء، ووافق قضاؤه قضاء الله للأمر، فكان الله كرمه بأن يقضي الأمر على يديه، لذلك قلنا: إن الطبيب المؤمن يقول: جاء الشفاء معي لا بي، وأن الطبيب يعالج والله يشفي، إذن: لا يُوصَف الوعد بأنه حق إلا وعد الله عزَّ وجلَّ.

وما دام وعد الله حقاً فعليك أن تفعل ما وعدك عليه بالخير وتجتنب ما توعدك عليه بشرٍّ، وألاً تغرك الحياة {فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا...} [لقمان: ٣٣] أي: بزينتها وزُخرفها، فهي سراب خادع ليس وراءه شيء، واقراً قول الله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون: ١١٥]

والحق سبحانه يضرب لنا مثلاً للدنيا، لا لِنُفَرِّنا منها، وإنما لنحتاط في الإقبال عليها، وإلا فحبُّ الحياة أمر مطلوب من حيث هي مجال للعمل للآخرة ومضمار للتسابق إليها.

يقول تعالى في هذا المثل: {واضرب لَهُمْ مَثَلْ الحياة الدنيا ...} [الكهف: ٤٥] فسمّاها دنيا، وليس هناك وصف أبلغ في تحقيرها من أنّها دنيا {كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ...} [الكهف: ٤٥] نعم، كذلك الدنيا تزدهي، لكن سرعان ما تزول، تبدأ ابتداءً مقنعاً مغريباً، وتنتهي انتهاءً مؤسفاً.

وقوله تعالى: {وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ} [لقمان: ٣٣] والغرور بالفتح الذي يغرُّك في شيء ما، والغرور يوضحه لنا الشاعر الجاهلي وهو يخاطب محبوبته فيقول:

أَقَاطِمُ مَهَلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ ... وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَرْمَعْتُ صَرْمِي فَأَجْمَلِي
أَغْرَكَ مِنِّي أَنْ حَبَّكَ قَاتِلِي ... وَأَنْتَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلُ

فمعنى غرّك: أدخل فيك الغرور، بحيث تُقبل على الأشياء، وتتصرف فيها في كنف هذا الغرور وعلى ضوئه.

والغُرُور بالفتح هو الشيطان، وله في غروره طرق وألوان، فغرور للطائعين وغرور للعاصين، فلكل منهما مدخل خاص، فيغرّ العاصي بالمعصية، ويوسوس له بأن الله غفور رحيم، وقد عصا أبوه فغفر الله له. لذلك أحد الصالحين سمع قول الله تعالى: {يَأْيُهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ} [الانفطار: ٦ - ٧] فأجاب هو: غرّني كرمه، لأنه خلّقني وسوّاني في أحسن صورة، وعاملني بكرم ودلّني، حتى أصابني الغرور بذلك، ولو أنه عزَّ وجلَّ قسا علينا ما اغتررنا.

وكان لأحدهم دين خمسة صاغ فضة عند آخر، فردّها إليه، فلما نظر فيها الدائن وجدّها ممسوحة فأعادها إليه، فقال المدين: والله لو كنت كريماً لقبلتها دون أن تنظر فيها.

فأخذ الواعظ هذه الواقعة وأراد أن يعظ بها الدائن، وكان يصلي صلاة لا خشوع فيها، فقال له: إن صلاتك هذه لا تعجبي، فهي نقر لا خشوع فيها، أرايت لو أن لك ديناً فأعطاك صاحب الدين نقوداً ممسوحة قديمة أكنت تقبلها؟ فقال الرجل: والله لو كنت كريماً أقبلها ولا أردّها.^{٤٦٨}

٦٤ - اتباعُ شرع الله:

^{٤٦٨} - تفسير الشعراوي (١٩/ ١١٧٥٥)

قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوفُونَ (٢٠)} [الجاثية: ١٨ - ٢٠]

لقد بعثك الله يا محمد، بعد اختلاف أهل الكتاب، على منهاج واضح من أمر الدين شرعه لك، ولمن قبلك من الرسل، فاتبع ما أوحى إليك ربك، ولا تتبع ما دعاك المشركون الجاهلون إليه من عبادة آلهتهم، فهؤلاء لا يعلمون طريق الحق.

وهؤلاء الجاهلون لا يدفعون عنك شيئاً مما أراد الله بك إن اتبعت أهواءهم، وتركت شرع ربك والكافرون يتولّى بعضهم بعضاً في الدنيا، ويظهر بعضهم بعضاً، أما في الآخرة فلا يغني أحد عن أحد شيئاً. أما المتقون المهتدون فإن الله وليهم ينصرهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

إن هذا القرآن هدى ودلائل للناس فيما يحتاجون إليه في أمر دينهم، وهو بينات تبصرهم، وتعرفهم بواجباتهم نحو ربهم، وهو هدى يهديهم إلى ما فيه خيرهم وصالح أمرهم، وفيه الرحمة لقوم يوفون بأئنه مئزلاً من عند الله رب العالمين.^{٤٦٩}

قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} ..

هو معطوف على قوله تعالى: {وَاتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ} .. أي ثم بعد أن آتينا بني إسرائيل ما آتيناهم من بينات من دين الله وشريعته، جعلناك أيها النبي على شريعة من الأمر، فاتبعها..

وفي العطف بـثم، إشارة إلى تراخي الزمن، بين ما أنزل الله سبحانه على بني إسرائيل من آيات ومعجزات، وبين بعثه الرسول، وما أنزل الله سبحانه وتعالى عليه من آياته وكلماته..

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ} - إشارة إلى أن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - لم يؤت مجرد آيات، وبينات من الدين، وإنما أوتى الدين كله، وأنه قد جعل القائم على شريعة هذا الدين، حيث يرد الواردون إليه، فيجدون الرّى من هذا المورد، ويحمل كل وارد ما استطاع حمله منه..

والشريعة: مورد الماء.. وفي تشبيه الشريعة الإسلامية بمورد الماء، إشارة إلى أمور:

أولها: أن القرآن الكريم، الذي هو مصدر هذه الشريعة، هو شيء واحد، أشبه بالماء... طبيعة واحدة، لا يختلف بعض عن بعض من حيث هو ماء يرده الواردون للسقيا منه.. وكذلك آيات الله وكلماته، كلها على سواء في جلالها وإعجازها وما فيها للأرواح من حياة.

وثانيها: أن إعجاز القرآن، يبدو في كل آية من آياته، كما يبدو في القرآن كله.. كالماء تكشف القطرة منه عن جوهره كله..

^{٤٦٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٣٧٠، بترقيم الشاملة آليا)

وثالثها: أن ما أوتيهِ الرسل من المعجزات، هو بينات من الدين الذي يدعون إليه، وليس بيّنة واحدة، إذ كانت كل معجزة تختلف عن أختها في صورتها، وفي آثارها في الناس.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى عن الآيات التي جاء بها موسى إلى فرعون وملائته...: «وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا» (٤٨: الزخرف) ..

أما ما أوتيهِ الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فهو بيّنة واحدة، وآية واحدة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ» (١ - ٣: البينة) كما يشير إليه الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - في قوله: «ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحى إليّ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» .

وفي قوله تعالى: «فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» - إشارة إلى أن هذه الشريعة، لا يتجده إليها، ولا يرد مواردها إلا من كانت معهم عقولهم التي ينظرون بها إلى هذه الشريعة، ثم يؤديهم هذا النظر إلى العلم الذي يكشف لهم الطريق إليها.. أما من زهد في عقله، وصحب هواه، فلن يتعرف إلى هذه الشريعة، ولن يرد مواردها.

قوله تعالى: «إِنَّهُمْ لَنْ يُعْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ» ..

الضمير في «إِنَّهُمْ» يعود إلى المذكورين في قوله تعالى في الآية السابقة «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» .. وهم المشركون الذين استولى عليهم الجهل، واستبد بهم العمى، فانقادوا لأهوائهم، ولم يلتفتوا إلى هذا الهدى الذي يدعون إليه..

فهؤلاء الضالون، ينبغي على النبي أن يدعهم وما اختاروا لأنفسهم، بعد أن أنذرهم، ومدّ إليهم حبل النجاة، فأعرضوا عنه، وأن يستقيم هو على طريقه، وألا يشغل نفسه بهم.. فإنه مسئول عن نفسه أولا، وأن هؤلاء الضالين لن يغنوا عن النبي شيئا، إذا هو شغل بهم، وقصّر - وحاشاه - في حق ربه.. وأنه إنما يتولى المؤمنين، الذين استجابوا لله وللرسول، ويعمل على ما يعينهم على البر والتقوى.. أما الظالمون فإنما يتولى بعضهم بعضا.. لا ولاية لهم من الله، ولا من رسوله، ولا من المؤمنين.. أما المؤمنون فإن بعضهم أولياء بعض، والله ورسوله أولياء لهم، كما يقول سبحانه: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» (٥٥: المائدة) ..

قوله تعالى: «هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» .. الإشارة هنا إلى القرآن الكريم، وهو الشريعة التي جعل الله - سبحانه وتعالى - النبي قائما عليها..

فهذا القرآن هو «بَصَائِرُ لِلنَّاسِ» - أي مراد ومسرح للعقول، حيث يقيم لها من النظر فيه، بصائر، تنهدى إلى الحق، وتتعرف إلى مواقع الهدى..

والبصائر: جمع بصيرة، والبصيرة، قوة من قوى الإدراك المستنير المشرق.. يرى بها الإنسان من عالم الحق، ما يرى البصر من عالم الحس..

وفي تسمية القرآن بأنه «بصائر» إشارة إلى أنه هو ذاته عيون مبصرة، وأنه بقدر ما يفتح الله للناس منه، بقدر ما يكون لهم من نور تستبصر به عقولهم، وبقدر ما يحصلون من «هدى» وما ينالون من «رحمة».

وقوله تعالى: «لَقَوْمٌ يُوفُّونَ» - إشارة إلى أن هذا القرآن، وما فيه من بصائر للناس جميعا وهدى ورحمة لهم - لا يرد مورد، ولا يرتوى من هذا المورد إلا من جاء إليه بقلب سليم، مهياً لاستقبال الخير وتقبله. ٤٧٠.

ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير وتنهى عن كل شر من أمرنا الشرعي {فَاتَّبِعْهَا} فإن في اتباعها السعادة الأبدية والصلاح والفلاح، {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم ولا ماشية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هو اه وإرادته فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

{إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} أي: لا ينفعونك عند الله فيحصلوا لك الخير ويدفعوا عنك الشر إن اتبعتهم على أهوائهم، ولا تصلح أن توافقهم وتواليهم فإنك وإياهم متباينون، وبعضهم ولي لبعض {وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب تقواهم وعملهم بطاعته. و{هَذَا} القرآن الكريم والذكر الحكيم {بَصَائِرَ لِلنَّاسِ} أي: يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة.

{لَقَوْمٌ يُوفُّونَ} فيهدون به إلى الصراط المستقيم في أصول الدين وفروعه ويحصل به الخير والسرور والسعادة في الدنيا والآخرة وهي الرحمة. فتزكو به نفوسهم وتزداد به عقولهم ويزيد به إيمانهم و يقينهم، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند. ٤٧١.

وهكذا يتمحض الأمر. فإما شريعة الله. وإما أهواء الذين لا يعلمون. وليس هنالك من فرض ثالث، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة وما يترك أحد شريعة الله إلا ليحكم الأهواء فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون! والله - سبحانه - يحذر رسوله - ﷺ - أن يتبع أهواء الذين لا يعلمون، فهم لا يغنون عنه من الله شيئا. وهم يتولون بعضهم بعضا. وهم لا يملكون أن يضروه شيئا حين يتولى بعضهم بعضا، لأن الله هو مولاه: «إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ. وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ».. وإن هذه الآية مع التي قبلها لتعين سبيل صاحب الدعوة وتحدده، وتغني في هذا عن كل قول وعن كل تعليق أو تفصيل: «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ

٤٧٠ - التفسير القرآني للقرآن (١٣ / ٢٣٨)

٤٧١ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٧٧)

فَاتَّبِعْهَا، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ. إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ» ..

إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف، وما عداها أهواء منيعها الجهل. وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها، ويدع الأهواء كلها. وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء. فأصحاب هذه الأهواء أعجز من أن يغنوا عنه من الله صاحب الشريعة. وهم إلب عليه فبعضهم ولي لبعض. وهم يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة فلا يجوز أن يأمل في بعضهم نصرة له أو جنوحا عن الهوى الذي يربط بينهم برباطه. ولكنهم أضعف من أن يؤذوه. والله ولي المتقين. وأين ولاية من ولاية؟ وأين ضعف جهال مهازيل يتولى بعضهم بعضا من صاحب شريعة يتولاه الله. ولي المتقين؟

وتعقبا على هذا البيان الحاسم الجازم، يتحدث عن اليقين، وعما في هذا القول وأمثاله في القرآن من تبصرة وهدى ورحمة لأهل اليقين: «هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون» .. ووصف القرآن بأنه بصائر للناس يعمق معنى الهداية فيه والإنارة. فهو بذاته بصائر كاشفة كما أن البصائر تكشف لأصحابها عن الأمور. وهو بذاته هدى. وهو بذاته رحمة .. ولكن هذا كله يتوقف على اليقين. يتوقف على الثقة التي لا يخامرها شك، ولا يخالطها قلق، ولا تتسرب إليها ريبة. وحين يستيقن القلب ويستوثق يعرف طريقه، فلا يتلجلج ولا يتلعثم ولا يحيد. وعندئذ يبدو له الطريق واضحا، والأفق منيرا، والغاية محددة، والنهج مستقيما. وعندئذ يصبح هذا القرآن له نورا وهدى ورحمة بهذا اليقين. ^{٤٧٢}.

٦٥ - الإخلاص في العبادة والعمل

قال تعالى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) }

{ الزمر: ١١ - ١٨ }
وقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَنْ أَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ أَخْلِصَ لَهُ الْعِبَادَةَ

^{٤٧٢} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٠٤٢)

وأمرني ربي بأن أكون أول من أسلم واتقاد، وأخلص العبادة والتوحيد لله. وقُلْ لَهُمْ: إِنِّي أَخَافُ - وأنا رسولُ الله - عذاب يوم القيامة الكثير الأهوال إن عصيتُ ربي، وتركتُ الإخلاصَ له وإفراده بالربوبية. وقُلْ لَهُمْ: إِنِّي أَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأُخْلِصُ لَهُ عِبَادَتِي. فاعْبُدُوا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ مَا شِئْتُمْ مِنْ أَصْنَامٍ وَأَوْثَانٍ، وَتَعْلَمُونَ سُوءَ مُنْقَلَبِكُمْ حِينَما تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وقُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ: إِنَّ الْخُسْرَانَ الَّذِي لَا خُسْرَانَ بَعْدَهُ، هُوَ خُسْرَانُ النَّفْسِ وَإِضَاعَتُهَا بِالضَّلَالِ، وَخُسْرَانُ الْأَهْلِ، وَعَدَمُ الْإِتْقَاءِ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، سِوَاءَ ذَهَبِ الْخَاسِرِ إِلَى النَّارِ وَأَهْلِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، أَوْ ذَهَبُوا جَمِيعاً إِلَى النَّارِ، وَذَلِكَ الْخُسْرَانُ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ الظَّاهِرُ لِفُطَاعَتِهِ وَهَوْلِهِ. يَصِفُ اللَّهُ تَعَالَى حَالَهُ هَؤُلَاءِ الْخَاسِرِينَ وَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فيَقُولُ: إِنَّهُمْ يَكُونُونَ فِيهَا، وَمِنْ فَوْقِهِمْ طَبَقَاتٌ مُتْرَاكِمَةٌ مِنَ النَّارِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَكَأَنَّهُا الظُّلُمُ، وَمِنْ تَحْتِهِمْ طَبَقَاتٌ مِثْلُهَا، فَتَغْمُرُهُمُ النَّارُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقْصُصُ عَلَى النَّاسِ مَا سَيَكُونُ عَلَيْهِ حَالُ الْكَفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيُخَوِّفَهُمْ مِنْ أَهْوَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَيَزِدَّجِرَ الْعُقُلَاءَ عَنِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، وَيَعْمَلُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ، فَيَا عِبَادَ اللَّهِ اتَّقُوا رَبَّكُمْ تَعَالَى، وَبِالْعَوَا فِي الْخَوْفِ وَالْحَذَرِ، وَلَا تَرْتَكِبُوا مَا يُسْخِطُ رَبَّكُمْ عَلَيْكُمْ. وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، وَاتَّبَاعَ الشَّيَاطِينِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ مُعْرِضِينَ عَمَّا سِوَاهُ، يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ بِالْثَوَابِ الْعَظِيمِ حِينَ الْمَوْتِ، وَحِينَ يَلْقَوْنَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الْحِسَابِ. الطَّاعُونَ - الشَّيْطَانُ وَيُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ وَسُمِّيَتْ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ عِبَادَةً لِلشَّيْطَانِ. أَوْ هُوَ الْأَوْثَانُ وَالْمَعْبُودَاتُ الْبَاطِلَةُ. وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاعُونَ، وَأَنَابُوا إِلَى رَبِّهِمْ، وَاسْمَعُوا الْقَوْلَ فَاتَّبَعُوا أَحْسَنَهُ وَأَوَّلَاهُ بِالْقَبُولِ. هَؤُلَاءِ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِالتَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ وَقَّعَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِلرَّشَادِ وَالصَّوَابِ، وَأُولَئِكَ هُمُ أَصْحَابُ الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ السَّلِيمَةِ. ٤٧٣

هو بيان لحال النبي في هذه الدعوة التي حملها إلى الناس من ربه، وأنه مأمور من الله، بما يأمر الله به عباده جميعاً. فهو والناس في هذا الأمر السماوي على سواء، فلا استثناء لأحد في هذا القانون، كما يقع ذلك في القوانين الوضعية، التي ترفع السلطان عن الخضوع للقانون العام الذي تخضع له الرعية.. بل وأكثر من هذا، فإن صاحب الدعوة - صلوات الله وسلامه عليه - يتلقى هذه الدعوة من ربه في صورة أمر وإلزام، على حين يتلقاها الناس مجرد دعوة لا إلزام فيها، ولا إكراه معها.. «إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ» .

وفي قوله تعالى: «وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ» - إشارة إلى أن رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - هو أول المسلمين: خضوعاً لسلطان الله، وامتنالاً لأمره، يسلم إليه وجوده، وتخلص له ولأهله.. وأنه - صلوات الله وسلامه عليه - القدوة للمسلمين في طاعة ربه، وفي اتقاء حرمانه، وأنه - وهو سلطان المؤمنين - أكثر المؤمنين عبادة لله، واجتهاداً في عبادته، واتقاء لحرمانه، وخوفاً من عقابه.. إنه عبد

٤٧٣ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٩٤٨، بترقيم الشاملة آليا)

من عباد الله. وأفضل عباد الله، وأكرمهم عنده، وأقربهم إليه، من كان أعرفهم به، وأكثرهم طاعة وولاء له.. فمن أراد من المؤمنين أن يكون أقرب إلى الله، فليكن في طاعة الله، فإنه كلما ازداد طاعة ازداد قربا..

قوله تعالى: «قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» وشأن عباد الله في طاعته، شأنهم في معصيته.. فكما أنه من ازداد طاعة لله، ازداد قربا منه، كذلك من أقام أمره مع الله على معصيته، والخروج عن أمره، والاجترأ على محارمه - كلما ازداد معصية لله، ازداد بعدا عنه، وتعرضا لسخطه وعذابه.. حتى الأنبياء، وحتى سيد الأنبياء، رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - إنه لو عصى الله - وحاشاه - فهو محاسب بهذا الحساب..

وهكذا شريعة الله.. وهكذا عدل الله: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى» (٣١: النجم) قوله تعالى: «قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي.. فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ» هذا هو حال النبي - صلوات الله وسلامه عليه - مع ربه.. إنه على العبادة الخالصة لله، لا يلتفت إلى غيره. ولا يدين لسواه. أما أنتم أيها المشركون فلكم ما تشاءون من معبودات تعبدونها من دون الله.. «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» (٦: الكافرون) فكل محاسب بما يدين به، وكل مجزى بما يعمل: «لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ» (٢٥: سبأ) قوله تعالى: «قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.. أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ» إن العبرة في الريح أو الخسارة، هي في الحساب الختامى، الذي يسوّى فيه حساب الإنسان.. أما هذا الحساب اليومي في هذه الدنيا، فإنه لا يكشف عن المركز الصحيح للإنسان..

هكذا يعرف الناس شئوهم في هذه الدنيا. إنهم يقيمون موازين حياتهم لا على لحظه عابرة، ولا على يوم يعيشون فيه، وإنما ينظرون إلى الغد، وما بعد الغد.. وحياتهم الدنيوية، هذه - لو عقلوا - لحظة من لحظات حياتهم الممتدة إلى ما وراء هذه الحياة، وأنها ليست إلا يوما، أو بعض يوم.. وإنه لضلال مبين أن يقيم المرء حسابه كله على ميزان يوم أو بعض يوم، حتى إذا طلع عليه صبح يوم جديد، ولم يكن قد عمل له حسابا، وجد نفسه ولا شيء معه. وهنا يكون الندم، ويكون الخسران..

والخاسرون حقا، هم أولئك الذين أقاموا ميزانهم على هذه الحياة الدنيا، ولم يجعلوا للآخرة حسابا.. إنهم يجهنون إلى الحياة الآخرة، وقد صفرت أيديهم من كل خير يجدونه في هذا اليوم، بل سيجدون ديونا كثيرة هم مطالبون بها، ولا يقدرّون على أداء شيء منها، إلا الحبس في جهنم، وفاء لهذه الديون! والسؤال هنا: إذا خسر المجرمون أنفسهم، وأوردوها موارد الهلاك يوم القيامة، فكيف تكون خسارتهم لأهلبيهم في هذا اليوم؟

والجواب - والله أعلم - من وجهين:

الوجه الأول: أن أهل الضلال لا يلتقى بعضهم ببعض يوم القيامة إلا على عداوة وخصام، وإلا على قطيعة ونفور.. كما يقول الله تعالى: «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ». (٢٥: العنكبوت) .

فأهل الضلال بعضهم فتنة لبعض، ومن هنا يقع بينهم يوم القيامة هذا الخصام، وتلك العداوة، ومن هنا يلتفت الضالّ، فلا يجد حوله في جهنم إلا وجوها كالحلة تلعنه، وترمى إليه بالعداوة، ممن كانوا هم أقرب الناس إليه في الدنيا من أهل وصديق.

والوجه الثاني: أن خسارة الضال لأهله يوم القيامة، هو تفرقهم عنه، فلا يلتقى بهم إذا كانوا في الجنة، أما إذا كانوا في جهنم فإن لقاءهم بهم حسرة وبكاء وعويل.. على خلاف لقاء المؤمنين، حيث يجمعهم الله بأهليهم، وبإخوانهم من أهل الجنة، فيتضاعف لذلك سرورهم، نعيمهم، كما يقول سبحانه: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» (٢١: الطور) وكما يقول سبحانه عن أهل الإيمان: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمُ تُحْبَرُونَ» (٧٠: الزخرف) .

قوله تعالى: «لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنَ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ.. ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَ فَاَتَّقُونَ» هذا هو الذي يلقاه أهل الضلال في الآخرة تغشاهم النار، وتشتمل عليهم، من فوقهم، ومن تحت أرجلهم.. كما يقول سبحانه: «لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنَ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ» (٤١: الأعراف) والظلل جمع ظلة، وهى ما يستظل به وفى التعبير عن النار بالظلل، مع أن الظلل يتقى بها وهج الشمس - إشارة إلى أن النار المسطرة على أهل النار لا تتقى هناك إلا بنار من النار..

إذا استصرخ أهلها، كان الصرخ لهم بعضا منها، وقطعا من شواظها..

وفى هذا بلاء إلى بلاء، وعذاب إلى عذاب.. حيث تتضاعف البلوى بهذا الطارق الجديد، الذي كان موضع أمل ورجاء.. وفى هذا يقول المتنبي:

إذا استشفيت من دء بداء... فأقتل ما أعلك ما شفاكا

والظلل التي من تحت أهل النار هى نار، يمشون على شواظها، فلا ينتقلون إلا من نار إلى نار، فحيثما وضعوا أرجلهم كانت النار تحتها، فلا ظلّ يمشون عليه إلا هذه النار الجاحمة التي يضعون أقدامهم عليها.

وقوله تعالى: «ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ».. أي هذا العوض لأهوال جهنم - أعاذنا الله منها - وما يلقى فيها أهلها من هذا العذاب الأليم - هو تحذير من الله لعباده، وتخويف لهم من هذا المورد الويل، وهم فى هذه الدنيا، ليأخذوا لذلك حذرهم، وليعملوا على توقيه، بالإيمان بالله واتقاء محارمه، ولهذا جاء قوله تعالى: «يَا عِبَادِ فَاَتَّقُونَ» تعقيبا على هذا التحذير، وإلفاتا إلى طريق السلامة والنجاة من هذا البلاء الراصد، وذلك بتقوى الله. فالتقوى هى مركب النجاة من هذا الطوفان الجهنمي، الذي يحتوى بأمواحه المتلاطمة كل من لم يكن فى هذا المركب! وفى قوله تعالى: «يَا عِبَادِ» نداء من رب كريم إلى

عباده، ليأخذوا طريقهم إليه سبحانه وتعالى، حيث الأمن والسلامة والنعيم والرضوان. والفاء في قوله تعالى: «فَاتَّقُوا» هي فاء الفصيح، والتفريع، وهي تفصح عن كلام محذوف.. أي قد بينت لكم ما ينتظر الذين لا يؤمنون بي، ولا يتقون محارمي، من بلاء شديد وعذاب أليم، فاتقون، أنتم حتى لا تقعوا تحت طائلة نقمتي وعذابي..

قوله تعالى «وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ.. لَهُمُ الْبُشْرَى.. فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ» هو تعقيب أيضا على هذا العرض الذي عرضت فيه جهنم وأهلها، وما يلقون فيها..

وفي هذا التعقيب بيان شارح للطريق الذي يعدل بالناس عن الطريق الجهنمي، إلى طريق النجاة والفوز بجنات النعيم..

فمن اجتنب الشرك بالله، وأخلى يديه، وقلبه، من هذه المعبودات المخلوقة لله، أو المصنوعة بأيدي الناس - من اجتنب هذه المعبودات ابتداء، أو تاب إلى الله من بعد شركه، وأخلص لله عبادته، فله البشري بالنجاة والفوز برضوان الله..

وقوله تعالى: «فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» أي أن هذه البشري بالنجاة والفلاح إنما ينالها عباد الله الذين يستضيئون بنور الله ويتدبرون ما يقع لأسماعهم من كلمات، فيميزون الخبيث من الطيب، والضلال من الهدى، ثم يؤدّيههم هذا إلى أن يستجيبوا لكل ما هو طيب، وأن يتبعوا كل ما هو هدى ورشاد.. فإنهم إن فعلوا ذلك كانوا من عباد الله المهتدين، الذين إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وأخذوا طريقهم المستقيم، السالك بهم إلى جنات النعيم.. ثم كانوا مع هذا - أو قبل هذا - أصحاب عقول، يعيشون بها في صورة بشرية كريمة..

والطاغوت: هو كل ضلال.. وأصله من الطغيان، الذي يعدل بصاحبه عن طريق الحق والخير، إلى متاهات الضلال والهلاك..

وفي التعبير عن الضلال بكلمة «الطاغوت» - تشنيع على الضلال، وعرض له في تلك الصورة، التي تتمثل في هذه الأحرف المتنافرة، التي تشكلت منها هذه الكلمة، كما يتشكل الضلال من وجوه الآثام والشرور..

وقوله تعالى: «أَنْ يَعْبُدُوهَا» مصدر مؤوّل، وقع بدلا من الطاغوت في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ».. أي اجتنبوا عبادة الطاغوت.. وفي تأنيث الطاغوت، إثارة لمشاعر البغضاء والكراهية، التي عند الجاهليين للأثني، ليلتقوا بهذه المشاعر مع معبوداتهم، ولينظروا إليها في صورة أنثى يعبدونها، ويخرون للأدقان سجّدا بين يديها..

وهكذا من المتناقضات التي تعيش في عقولهم الفاسدة، إذ كيف يستقيم لدى عقل أن يحقر الأثنى، ويكره وجهها في صورة ابنة هي فلذة من كبده، ثم إذا هو عبد ذليل بين يدي أثنى سوّها بيده من، حجر، أو خشب؟^{٤٧٤}

وهذا الإعلان من النبي - ﷺ - بأنه مأمور أن يعبد الله وحده، ويخلص له الدين وحده وأن يكون بهذا أول المسلمين وأنه يخاف عذاب يوم عظيم إن هو عصى ربه .. هذا الإعلان ذو قيمة كبرى في تجريد عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام. فالنبي - ﷺ - في هذا المقام هو عبد لله. هذا مقامه لا يتعداه. وفي مقام العبادة يقف العبيد كلهم صفا، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العباد .. وهذا هو المراد.

وعند ذلك يقر معنى الألوهية، ومعنى العبودية، ويتميزان، فلا يختلطان ولا يشتبهان، وتجرد صفة الوجدانية لله سبحانه بلا شريك ولا شبهة. وحين يقف محمد رسول الله - ﷺ - في مقام العبودية لله وحده يعلن هذا الإعلان، ويخاف هذا الخوف من العصيان، فليس هنالك مجال لدعوى شفاعة الأصنام أو الملائكة بعبادتهم من دون الله أو مع الله بحال من الأحوال.

ومرة أخرى يكرر الإعلان مع الإصرار على الطريق، وترك المشركين لطريقهم ونهايته الأليمة: «قُلِ: اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ. قُلِ: إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ» ..

مرة أخرى يعلن: إنني ماضٍ في طريقي. أحص الله بالعبادة، وأخلص له الدينونة. فأما أنتم فامضوا في الطريق التي تريدون واعبدوا ما شئتم من دونه. ولكن هنالك الخسران الذي ما بعده خسران. خسران النفس التي تنتهي إلى جهنم. وخسران الأهل سواء كانوا مؤمنين أم كافرين. فإن كانوا مؤمنين فقد خسرهم المشركون لأن هؤلاء إلى طريق وهؤلاء إلى طريق. وإن كانوا مشركين مثلهم فكلهم خسر نفسه بالجميع .. «أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ» ..

ثم يعرض مشهد الخسران المبين: «لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ. ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ. يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ» .. وهو مشهد رعب حقا. مشهد النار في هيئة ظلل من فوقهم وظلل من تحتهم، وهم في طيات هذه الظلل المعتمة تلفهم وتحتوي عليهم. وهي من النار! إنه مشهد رعب. يعرضه الله لعباده وهم بعد في الأرض يملكون أن ينأوا بأنفسهم عن طريقه. ويخوفهم مغيبته لعلمهم يجتنبونه: «ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ» .. ويناديهم ليحذروا ويتقوا ويسلموا: «يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ».

^{٤٧٤} - التفسير القرآني للقرآن (١٢ / ١٣١)

وعلى الضفة الأخرى يقف الناجون، الذين خافوا هذا المصير المشئوم: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادَ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) } [الزمر: ١٧، ١٨]..

والطاغوت صياغة من الطغيان نحو ملكوت وعظمت ورحموت. تفيد المبالغة والضحامة. والطاغوت كل ما طغا وتجاوز الحد. والذين اجتنبوا عبادتها هم الذين اجتنبوا عبادة غير المعبود في أية صورة من صور العبادة. وهم الذين أنابوا إلى ربهم. وعادوا إليه، ووقفوا في مقام العبودية له وحده.

هؤلاء «لَهُمُ الْبُشْرَى» صادرة إليهم من الملائكة الأعلى. والرسول - ﷺ - يبلغها لهم بأمر الله: «فَبَشِّرْ عِبَادَ».. إنها البشري العلوية يحملها إليهم رسول كريم. وهذا وحده نعيم! هؤلاء من صفاقم أنهم يستمعون ما يستمعون من القول، فتلتقط قلوبهم أحسنه وتطرده ما عداه، فلا يلحق بها ولا يلصق إلا الكلم الطيب، الذي تزكو به النفوس والقلوب.. والنفوس الطيبة تتفتح للقول الطيب فتتلقاه وتستجيب له. والنفوس الخبيثة لا تتفتح إلا للخبيث من القول ولا تستجيب إلا له.

«أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ».. فقد علم الله في نفوسهم خيرا فهداهم إلى استماع أحسن القول والاستجابة له. والهدى هدى الله. «وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ».. فالعقل السليم هو الذي يقود صاحبه إلى الزكاة، وإلى النجاة. ومن لا يتبع طريق الزكاة والنجاة فكأنه مسلوب العقل محروم من هذه النعمة التي أعطاها له الله. وقبل أن يعرض مشهد هؤلاء في نعيمهم في الآخرة يقرر أن عبدة الطاغوت قد وصلوا فعلا إلى النار. وأن أحدا لا يملك أن ينقذهم من هذه النار: «أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ؟».. والخطاب لرسول الله - ﷺ - وإذا كان هو لا يملك إنقاذهم من النار التي هم فيها فمن يملكها إذن سواه؟^{٤٧٥}

وقال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) } سورة الزمر

إن الله تعالى هو الذي أنزل إليك القرآن (الكتاب) أمراً بالحق والعدل الواجب اتباعهما، والعمل بهما، فاعبده يا محمد مخلصاً له الدين والعبادة، وادع الخلق إلى ذلك.

ألا لله وحده العبادة والطاعة، ولا شركة لأحد معه فيهما، لأن كل ما دونه هو مُلْكٌ له، وعلى المملوك طاعة مالِكِهِ، وعلى العبد أن يُخلص العبادة لله، والذين يعبدون الأصنام من المشركين يقولون إن الذي يحملهم على عبادتها هو أنهم مثلوا بهذه الأصنام الملائكة، فعبدوا تلك الصور تُنزِلاً لها منزلة

^{٤٧٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٣٤)

الملائكة، لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ فِي حَاجَتِهِمْ. وكان المُشْرِكُونَ يُرَوِّونَ عِبَادَتَهُمْ لِمَنْ دُونِ اللَّهِ بِأَنَّ الإله الأعظم أجلُّ من أن يعبدَهُ البشرُ مباشرةً، فَهُمْ يَعْبُدُونَ هَذِهِ الْآلِهَةَ، وَهِيَ تَعْبُدُ إِلَهَ الْأَعْظَمِ. وَاللَّهُ تَعَالَى يَحْكُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَهُمْ وَيُبَيِّنُ خُصُومَهُمْ، مُتَّبِعِي الْحَقِّ وَسُبُلِ الْهُدَى، فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ، وَيُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ بِعَمَلِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُرْشِدُ إِلَى الْحَقِّ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ مُفْتَرٍ عَلَيْهِ، فَيَزْعُمُ أَنَّ لَهُ وَلَدًا أَوْ صَاحِبَةً. تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ غُلُوبًا كَبِيرًا. ٤٧٦

إن أساس الحق الذي أنزل به الكتاب، هو الوحدانية المطلقة التي يقوم عليها الوجود. وفي الآية الخامسة من السورة يجيء: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ». فهو الحق الواحد الذي قامت به السماوات والأرض، وأنزل به هذا الكتاب. الحق الواحد الذي تشهد به وحدة النظام الذي يصرف السماوات والأرض والذي ينطق به هذا الكتاب. الحق الذي يتسم به كل ما خرج من يد الصانع المبدع في هذا الوجود.. «فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ».

والخطاب لرسول الله - ﷺ - الذي أنزل إليه الكتاب بالحق. وهو منهجه الذي يدعو إليه الناس كافة.. عبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، وقيام الحياة كلها على أساس هذا التوحيد. وتوحيد الله وإخلاص الدين له، ليس كلمة تقال باللسان إنما هو منهج حياة كامل. يبدأ من تصور واعتقاد في الضمير وينتهي إلى نظام يشمل حياة الفرد والجماعة.

والقلب الذي يوحد الله، يدين لله وحده، ولا يحني هامته لأحد سواه، ولا يطلب شيئاً من غيره ولا يعتمد على أحد من خلقه. فالله وحده هو القوي عنده، وهو القاهر فوق عباده. والعباد كلهم ضعاف مهزلة، لا يملكون له نفعاً ولا ضراً فلا حاجة به إلى أن يحني هامته لواحد منهم. وهم مثله لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً. والله وحده هو المانع المانع، فلا حاجة به إلى أن يتوجه لأحد غيره وهو الغني والخلق كلهم فقراء.

والقلب الذي يوحد الله، يؤمن بوحدة الناموس الإلهي الذي يصرف الوجود كله ويؤمن إذن بأن النظام الذي اختاره الله للبشر هو طرف من ذلك الناموس الواحد، لا تصلح حياة البشر ولا تستقيم مع الكون الذي يعيشون فيه إلا باتباعه. ومن ثم لا يختار غير ما اختاره الله من النظم، ولا يتبع إلا شريعة الله المتسقة مع نظام الوجود كله ونظام الحياة.

والقلب الذي يوحد الله يدرك القرابة بينه وبين كل ما أبدعت يد الله في هذا الكون من أشياء وأحياء ويحيا في كون صديق يعاطفه ويتجاوب معه ويحس يد الله في كل ما حوله، فيعيش في أنس بالله وبدائعه التي تلمسها يداه وتقع عليها عيناه. ويشعر كذلك بالتحرج من إيذاء أحد، أو إتلاف

٤٧٦ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٩٣، بترقيم الشاملة آليا)

شيء أو التصرف في أحد أو في شيء إلا بما أمره الله. خالق كل شيء، ومحيي كل حي. ربه ورب كل شيء وكل حي ..

وكذلك تبدو آثار التوحيد في التصورات والمشاعر، كما تبدو في السلوك والتصرفات. وترسم للحياة كلها منهاجا كاملا واضحا متميزا. ولا يعود التوحيد كلمة تقال باللسان. ومن ثم تلك العناية بتقرير عقيدة التوحيد وتوضيحها وتكرار الحديث عنها في الكتاب الذي أنزله الله: وهو حديث يحتاج إلى تدبره كل أحد، في كل عصر، وفي كل بيئة. فالتوحيد بمعناه ذلك معنى ضخم شامل يحتاج إلى فهم وإدراك.

«أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ» .. يعلنها هكذا ملوية عالية في ذلك التعبير المجلجل. بأداة الافتتاح «ألا» وفي أسلوب القصر «لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ». فيؤكد معناها بالبناء اللفظي للعبارة .. فهي القاعدة التي تقوم عليها الحياة كلها. بل التي يقوم عليها الوجود كله. ومن ثم ينبغي أن ترسخ وتتضح وتعلن في هذا الأسلوب الحازم الحاسم: «أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ» ..

ثم يعالج الأسطورة المعقدة التي كان المشركون يواجهون بها دعوة التوحيد. «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى . إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ» .. فلقد كانوا يعلنون أن الله خالقهم وخالق السموات والأرض .. ولكنهم لم يكونوا يسيرون مع منطق الفطرة في أفراد الخالق إذن بالعبادة، وفي إخلاص الدين لله بلا شريك. إنما كانوا يبتدعون أسطورة بنوة الملائكة لله سبحانه. ثم يصوغون للملائكة تماثيل يعبدونها فيها. ثم يزعمون أن عبادتهم لتماثيل الملائكة - وهي التي يدعوها آلهة أمثال اللات والعزى ومناة - ليست عبادة لها في ذاتها إنما هي زلفى وقربى لله. كي تشفع لهم عنده، وتقربهم منه!

وهو انحراف عن بساطة الفطرة واستقامتها، إلى هذا التعقيد والتخريف. فلا الملائكة بنات الله. ولا الأصنام تماثيل للملائكة. ولا الله - سبحانه - يرضى بهذا الانحراف. ولا هو يقبل فيهم شفاعة. ولا هو يقربهم إليه عن هذا الطريق! وإن البشرية لتتحرف عن منطق الفطرة كلما انحرفت عن التوحيد الخالص البسيط الذي جاء به الإسلام وجاءت به العقيدة الإلهية الواحدة مع كل رسول. وإنا لنرى اليوم في كل مكان عبادة للقديسين والأولياء تشبه عبادة العرب الأولين للملائكة - أو تماثيل الملائكة - تقربا إلى الله - بزعمهم - وطلبا لشفاعتهم عنده. وهو سبحانه يحدد الطريق إليه. طريق التوحيد الخالص الذي لا يتلبس بوساطة أو شفاعة على هذا النحو الأسطوري العجيب!

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ» .. فهم يكذبون على الله. يكذبون عليه بنسبة بنوة الملائكة إليه ويكذبون عليه بأن هذه العبادة تشفع لهم عنده! وهم يكفرون بهذه العبادة ويخالفون فيها عن أمر الله الواضح الصريح. والله لا يهدي من يكذب عليه، ويكفر به. فالهداية جزاء على التوجه والإخلاص

والتحرج، والرغبة في الهدى، وتحري الطريق. فأما الذين يكذبون ويكفرون فهم لا يستحقون هداية الله ورعايته. وهم يختارون لأنفسهم البعد عن طريقه^{٤٧٧}..

وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} (١١٠) سورة الكهف
وقُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤَلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِرِسَالَتِكَ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ، فَمَنْ زَعَمَ أَنِّي كَاذِبٌ فَلْيَأْتِ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ فِيمَا أُخْبِرُكُمْ بِهِ، مِنَ الْمَاضِي، عَمَّا سَأَلْتُمْ مِنْ قِصَصِ أَهْلِ الْكَهْفِ، وَخَبَرِ ذِي الْقَرْنَيْنِ، مِمَّا هُوَ مُطَابِقٌ لِلْحَقِيقَةِ وَوَاقِعُ الْحَالِ، وَلَوْ لَمْ يُطْلَعْنِي عَلَيْهِ اللَّهُ رَبِّي لِمَا عَلِمْتُهُ. وَأَنَا أُخْبِرُكُمْ أَنَّ إِلَهُكُمْ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ. فَمَنْ كَانَ يَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ (لِقَاءَ رَبِّهِ)، وَجَزَاءَهُ الْحَسَنَ فِي الْآخِرَةِ، فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا خَيْرًا مُّوَافِقًا لِلشَّرْعِ، وَلَا يُرِدْ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى. (وَمُوَافَقَةً الْعَمَلِ لِلشَّرْعِ، وَابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ بِهِ هُمَا الرُّكْنَانِ الْأَسَاسِيَانِ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يَقْبَلُهُ اللَّهُ)^{٤٧٨}

إنه أفق الألوهية الأسمى.. فأين هنا آفاق النبوة، وهي - على كل حال - آفاق بشرية؟
«قُلْ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ...».. بشر يتلقى من ذلك الأفق الأسمى. بشر يستمد من ذلك المعين الذي لا ينضب. بشر لا يتجاوز الهدى الذي يتلقاه من مولاه. بشر يتعلم فيعلم فيعلم.. فمن كان يتطلع إلى القرب من ذلك الجوار الأسنى، فلينتفع بما يتعلم من الرسول الذي يتلقى، وليأخذ بالوسيلة التي لا وسيلة سواها: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا».. هذا هو جواز المرور إلى ذلك اللقاء الأثير.^{٤٧٩}..

هذه الآية تختتم سورة الكهف، بتقرير بشرية الرسول، وأنه وجميع رسل الله، ليسوا إلا خلقاً من خلق الله، وعبيداً من عبيده، اختصهم الله برحمته، واصطفاهم لرسالته..

وكما تقرر الآية بشرية الرسول، تقرر الطريق السوي الذي ينبغي أن يستقيم عليه الإنسان كي يكون في عبادة الله الصالحين المؤمنين.. وهذا الطريق إنما يقوم على الإيمان بالله، وبالיום الآخر، والعمل الصالح، الذي لا يجد الإنسان غيره في هذا اليوم، مركباً يدفع به إلى شاطئ الأمن والسلام، ويفتح له أبواب الجنة والرضوان.. ويلتقى ختام السورة مع بدئها.. في تقرير وحدانية الله، وتزويجه عن الشريك والولد.. فقد جاء بدؤها: «لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَا كُنَّ فِيهِ أَبَدًا وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِابَائِهِمْ

^{٤٧٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٢٤)

^{٤٧٨} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٢٥٠، بترقيم الشاملة آليا)

^{٤٧٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٩٩٥)

كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا» وهكذا يجيء ختامها: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» .

فإذا ادعى المدّعون من أهل الكتاب، أو غيرهم، أن الله ولد، من هؤلاء الذين اصطفاهم الله لرسالته، وآتاهم من فضله، ما زاغت به عيون الضالين، حتى حسبوا أن هذا الاصطفاء وهذا الفضل، هو لقراءة أو نسب لله - إذا ادعى المدّعون الضالون نسبة أحد إلى الله، فإن محمدا براء من هذا، وبريء ممن يضعه بهذا الموضع. فما هو إلا بشر من البشر، وإنسان من الناس، وعبد من عباد الله، وأنه إذا كان يدعو الناس إلى الله بكلمات الله التي معه، فذلك من فضل الله عليه، وهذه الكلمات التي يدعو بها إنما هي وحي أوحاه الله إليه، لهداية الناس، وخيرهم وسلامتهم.^{٤٨٠}

٦٦ - تحكيم الله والرسول في كل شئون حياتنا

قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } [الأحزاب: ٣٦]

ليس لمؤمن ولا لمؤمنة إذا قضى الله ورسوله قضاء، أن يتخيروا من أمرهم غير ما قضاه الله ورسوله لهم، ولا أن يخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما. ومن يعص الله ورسوله فيما أمرا به، ونهيا عنه، فقد جار عن السبيل القويم، وسلك غير طريق الهدى والرشاد.^{٤٨١}

مناسبة هذه الآية لما قبلها، هي أن الآية السابقة ذكرت الأوصاف التي تجمع صفات المؤمن الكامل الإيمان.. ومن شأن الإيمان الصحيح أن يقيم في كيان صاحبه ولاء خالصا لله، الذي آمن به، ولرسوله، الذي بلغه رسالة ربه، وشرعية دينه.. وإنه لا إيمان مطلقا، إذا لم يكن هذا الولاء ركيزة له، وأساسا يقوم عليه.. فهذه الآية إذن تعقيب على تلك الأوصاف السابقة، وإشارة إلى أن تلك الصفات، لا محصل لها - مفردة ومجتمعة - إلا إذا قامت في ظلّ الولاء لله ورسوله، والتسليم المطلق لأمر الله ورسوله.

فإذا قضى الله ورسوله أمرا، لم يكن لمؤمن أن ينازع في هذا الأمر، أو يتوقف في إمضائه، أو يبدل في صفته.. وإلا فهو ليس من الإيمان في شيء.. إنه حينئذ يكون عاصيا لله ولرسول الله، خارجا عن سلطانهما.. «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا» .

^{٤٨٠} - التفسير القرآني للقرآن (٨ / ٧١٨)

^{٤٨١} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٤٥٠، بترقيم الشاملة آليا)

أما مناسبة الآية الكريمة لما بعدها فهو ترشيح لما ستقرره الآيات بعدها من مقررات، وبما تقضى به من أحكام لله ولرسول الله، وأن على المؤمنين تلقى هذه المقررات وتلك الأحكام بما ينبغى لها، من طاعة وولاء مطلقين، من غير تعقيب أو تردد..

فالآية في موضعها هنا، تعمل - مقدّمًا - على إخلاء شعور المؤمن من أية لفتة إلى غير ما يقضى به الله ورسوله من أمر.. وبهذا يستقبل المؤمن - في ولاء وامتنال - ما تحمل إليه الآيات التالية من أمر الله ورسوله.. كما سنرى..^{٤٨٢}

أي: لا ينبغي ولا يليق، ممن اتصف بالإيمان، إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتنال أمرهما، واجتناب نهيهما، فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة {إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا} من الأمور، وحثّما به وألزما به {أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} أي: الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة، أن الرسول أولى به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجابًا بينه وبين أمر الله ورسوله. {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} أي: بيّنًا، لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله، إلى غيرها، من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولا السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال، الدال على العقوبة والنكال.^{٤٨٣}

فهذا المقوم من مقومات العقيدة هو الذي استقر في قلوب تلك الجماعة الأولى من المسلمين استقرارا حقيقيا واستيقنته أنفسهم، وتكيفت به مشاعرهم.. هذا المقوم يتلخص في أنه ليس لهم في أنفسهم شيء وليس لهم من أمرهم شيء. إنما هم وما ملكت أيديهم لله. يصرفهم كيف يشاء، ويختار لهم ما يريد. وإن هم إلا بعض هذا الوجود الذي يسير وفق الناموس العام. وخالق هذا الوجود ومديره يحركهم مع حركة الوجود العام ويقسم لهم دورهم في رواية الوجود الكبيرة ويقرر حركاتهم على مسرح الوجود العظيم. وليس لهم أن يختاروا الدور الذي يقومون به، لأنهم لا يعرفون الرواية كاملة وليس لهم أن يختاروا الحركة التي يجوبونها لأن ما يجوبونه قد لا يستقيم مع الدور الذي خصص لهم! وهم ليسوا أصحاب الرواية ولا المسرح وإن هم إلا أجراء، لهم أجرهم على العمل، وليس لهم ولا عليهم في النتيجة! عندئذ أسلموا أنفسهم حقيقة لله. أسلموها بكل ما فيها فلم يعد لهم منها شيء. وعندئذ استقامت نفوسهم مع فطرة الكون كله واستقامت حركاتهم مع دورته العامة وساروا في فلكهم كما تسير تلك الكواكب والنجوم في أفلاكها، لا تحاول أن تخرج عنها، ولا أن تسرع أو تبطئ في دورتها المتناسقة مع حركة الوجود كله.

^{٤٨٢} - التفسير القرآني للقرآن (١١ / ٧١٤)

^{٤٨٣} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٦٥)

وعندئذ رضيت نفوسهم بكل ما يأتي به قدر الله، لشعورهم الباطن الواصل بأن قدر الله هو الذي يصرف كل شيء، وكل أحد، وكل حادث، وكل حالة. واستقبلوا قدر الله فيهم بالمعرفة المدركة المريحة الواثقة المطمئنة. وشيئا فشيئا لم يعودوا يحسون بالمفاجأة لقدر الله حين يصيبهم، ولا بالجزع الذي يعالج بالتجمل أو بالألم الذي يعالج بالصبر. إنما عادوا يستقبلون قدر الله استقبال العارف المنتظر المرتقب لأمر مألوف في حسه، معروف في ضميره، ولا يثير مفاجأة ولا رجفة ولا غرابة!

ومن ثم لم يعودوا يستعجلون دورة الفلك ليقضوا أمرا هم يريدون قضاءه، ولم يعودوا يستبطنون الأحداث لأن لهم أربا يستعجلون تحقيقه، ولو كان هذا الأرب هو نصر دعوتهم وتمكينها! إنما ساروا في طريقهم مع قدر الله، ينتهي بهم إلى حيث ينتهي، وهم راضون مستروحوون، يذلون ما يملكون من أرواح وجهود وأموال في غير عجلة ولا ضيق، وفي غير من ولا غرور، وفي غير حسرة ولا أسف. وهم على يقين أنهم يفعلون ما قدر الله لهم أن يفعلوه وأن ما يريد الله هو الذي يكون، وأن كل أمر مرهون بوقته وأجله المرسوم.

إنه الاستسلام المطلق ليد الله تقود خطاهم، وتصرف حركاتهم وهم مطمئنون لليد التي تقودهم، شاعرون معها بالأمن والثقة واليقين، سائرون معها في بساطة ويسر ولين.

وهم - مع هذا - يعملون ما يقدرون عليه، ويذلون ما يملكون كله، ولا يضيعون وقتا ولا جهدا، ولا يتركون حيلة ولا وسيلة. ثم لا يتكلفون ما لا يطيقون، ولا يحاولون الخروج عن بشريتهم وما فيها من خصائص، ومن ضعف وقوة ولا يدعون ما لا يجدونه في أنفسهم من مشاعر وطاقات، ولا يجبون أن يحمدا بما لم يفعلوا، ولا أن يقولوا غير ما يفعلون.

وهذا التوازن بين الاستسلام المطلق لقدر الله، والعمل الجاهد بكل ما في الطاقة، والوقوف المطمئن عند ما يستطيعون.. هذا التوازن هو السمة التي طبعت حياة تلك المجموعة الأولى وميزتها وهي التي أهلتها لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة التي تنوء بها الجبال!

واستقرار ذلك المقوم الأول في أعماق الضمائر هو الذي كفل لتلك الجماعة الأولى تحقيق تلك الخوارق التي حققتها في حياتها الخاصة، وفي حياة المجتمع الإنساني إذ ذاك. وهو الذي جعل خطواتها وحرركاتها تتناسق مع دورة الأفلاك، وخطوات الزمان، ولا تحتك بها أو تصطدم، فتتوق أو تبطئ نتيجة الاحتكاك والاصطدام. وهو الذي بارك تلك الجهود، فإذا هي تثمر ذلك الثمر الحلو الكثير العظيم في فترة قصيرة من الزمان.

ولقد كان ذلك التحول في نفوسهم بحيث تستقيم حركتها مع حركة الوجود، وفق قدر الله المصروف لهذا الوجود.. كان هذا التحول في تلك النفوس هو المعجزة الكبرى التي لا يقدر عليها بشر إنما تتم بإرادة الله المباشرة التي أنشأت الأرض والسموات، والكواكب والأفلاك ونسقت بين خطاها ودوراتها ذلك التنسيق الإلهي الخاص.

وإلى هذه الحقيقة تشير هذه الآيات الكثيرة في القرآن .. حيث يقول الله تبارك وتعالى: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» .. أو يقول: «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» .. أو يقول: «إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ» .. فذلك هو الهدى بحقيقته الكبيرة ومعناه الواسع. هدى الإنسان إلى مكانه في هيكل هذا الوجود وتنسيق خطاه مع حركة هذا الوجود.

ولن يؤتي الجهد كامل ثماره إلا حين يستقيم القلب على هدى الله. بمعناه وتستقيم حركة الفرد مع دورة الوجود ويطمئن الضمير إلى قدر الله الشامل الذي لا يكون في الوجود أمر إلا وفق مقتضاه. ومن هذا البيان ينجلي أن هذا النص القرآني: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» .. أشمل وأوسع وأبعد مدى من أي حادث خاص يكون قد نزل فيه. وأنه يقرر كلية أساسية، أو الكلية الأساسية، في منهج الإسلام! ^{٤٨٤}

٦٧ - رد المتنازع فيه لله وللرسول

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } (٥٩) سورة النساء

في هذه الآية يأمر الله تعالى المؤمنين بإطاعته تعالى، وبالعَمَلِ بكتابه، وبإطاعة رسوله، لأنه يبين للناس ما نزل إليهم من عند الله، ويبلغ عن الله شرع وأوامره، كما يأمر الله بإطاعة أولي الأمر، من حكام وأمرأ ورؤساء جند، ممن يرجع الناس إليهم في الحاجات، والمصالح العامة، فهؤلاء إذا اتفقوا على أمر وجب أن يطاعوا فيه، بشرط أن يكونوا أمناء، وأن لا يخالفوا أمر الله، ولا سنة نبيه التي عرفت بالتواتر، وأن يكونوا مختارين في بحثهم في الأمر، واتفاقهم عليه غير مكرهين عليه بقوة أحد أو نفوذه وكل ما اختلف فيه المسلمون فمن الواجب رده إلى كتاب الله، وسنة رسوله، ومن لم يفعل ذلك، ويحتكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر . ومن يحتكم إلى شرع الله، وسنة رسوله، فذلك خير له وأحسن عاقبة ومآلاً (تأويلاً)، لأن الله تعالى لم يشرع للناس إلا ما فيه مصلحتهم ومنفعتهم، والاحتكام إلى الشرع بمنع الاختلاف المؤدي إلى التنازع والضلال. ^{٤٨٥}

^{٤٨٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٦٣٧)

^{٤٨٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٥٢، بترقيم الشاملة آليا)

وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» هو استنجاز آخر لأداء بعض ما يتعلق بالأمانة الكبرى التي حملها الإنسان، وهو طاعة الله والرسول، وأولى الأمر.. فالانقياد لله هو المظهر العملي الواضح لأداء هذه الأمانة، وغير هذا الانقياد هو التضييع للأمانة، والعدوان عليها..

والانقياد لله يتبعه الانقياد لرسول الله.. إذ كان هو السفير بين الله وبين عباده، وهو الحامل لكلمة الله إليهم، والمؤذن بها فيهم.. فلا انقياد لله لمن لا ينقاد لرسول الله..

وأولو الأمر.. هم من يلون أمر الإنسان، ويقومون على رعاية مصالحه، من آباء، وقادة، وحكام.. وغيرهم، ممن لهم على الإنسان سلطان أدبي أو مادي..

والانقياد لأولى الأمر ليس انقيادا مطلقا، بل هو انقياد محكوم بحدود العدل، والخير، والإحسان.. ولهذا كانت طاعة الوالدين - وهما في المقام الأول من أولى الأمر - قائمة على سنن المعروف، فإن دعوا إلى منكر، فلا طاعة لهما، وفي هذا يقول الله تعالى: «وَأِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا» (١٥: لقمان) .

فالولاية إذا لم تكن ولاية راشدة حكيمة، مستقيمة مع العدل والإحسان كان لمن تحت ولايتها أن يراجعوها، وأن ينصحوا لها، وأن يعملوا على تبصرتها بالطريق القويم، الذي فيه خير الجماعة كلها..

فإن كان خلاف بين أولى الأمر، وبين من في ولايتهم، ولم يلتقوا عنده على كلمة سواء.. كان الحكم بينهم في هذا، كتاب الله وسنة رسول الله، فذلك هو الميزان العدل، الذي توزن به الأمور، وما يقضى به هنا كان هو الحق والخير، وكان التزامه أمرا واجبا.. من أباه، وخرج عليه، كان متعديا حدود الله، أثما ظلما.. تجرى عليه أحكام الآثمين الظالمين..

وفي قوله تعالى: «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» ما يشير إلى احتمالات النزاع المتوقعة بين أولى الأمر ومن في ولايتهم، وأن ذلك أمر غير مستبعد، بين الناس والناس..

فإذا وقع نزاع في أمر ما، كان رده إلى حكم الله ورسوله أمرا واجبا على المؤمنين، وكان الله سبحانه وتعالى هو وليهم جميعا، وكانت شريعته لهم، هي الدستور الواجب اتباعه، والاحتكام إليه فيما يقع بينهم من خلاف..

فمن كان مؤمنا بالله واليوم الآخر، استقام على شرع الله، ووقف عند حدوده، وخضع لحكمه.. وفي قوله تعالى: «ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» إشارة إلى أن الرجوع عند الخلاف إلى ما قضى به كتاب الله وسنة رسوله، هو الطريق المأمون، الذي يسلم المختلفين إلى يد الوفاق والسلام، حيث كان

احتكامهم إلى أحكم الحاكمين، الذي يحكم بين عباده بالحق، فلا ميل مع هوى، ولا محاباة لكبير أو عظيم، لأن الخلق خلقه، والناس عبيده، لا تفاضل بينهم عنده إلا بالتقوى!^{٤٨٦}

الأمانات كل ما ائتمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به. فأمر الله عباده بأدائها أي: كاملة موفرة، لا منقوصة ولا مبخوسة، ولا ممطولا بها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال والأسرار؛ والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله. وقد ذكر الفقهاء على أن من أؤتمن أمانة وجب عليه حفظها في حرز مثلها. قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛ فوجب ذلك.

وفي قوله: {إِلَى أَهْلِهَا} دلالة على أنها لا تدفع وتؤدى لغير المؤتمن، ووكيله بتمثلته؛ فلو دفعها لغير ربها لم يكن مؤديا لها.

{وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو.

والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به. ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة قال: {إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه، لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما، لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون.

ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله وذلك بامثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما. وأمر بطاعة أولي الأمر وهم: الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمرُوا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية.

ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله وإلى رسوله أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما أو عمومهما؛ أو إيماء، أو تنبيه، أو مفهوم، أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه، لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما.

فالرد إليهما شرط في الإيمان فلهذا قال: {إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها

^{٤٨٦} - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٢١)

{ذَلِكَ} أي: الرد إلى الله ورسوله {خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.^{٤٨٧}

إن للعقل البشري وزنه وقيمته بوصفه أداة من أدوات المعرفة والهداية في الإنسان.. هذا حق.. ولكن هذا العقل البشري هو عقل الأفراد والجماعات في بيئة من البيئات، متأثراً بشتى المؤثرات.. ليس هناك ما يسمى «العقل البشري» كمدلول مطلق! إنما هناك عقلي وعقلك، وعقل فلان وعلان، وعقول هذه المجموعة من البشر، في مكان ما وفي زمان ما.. وهذه كلها واقعة تحت مؤثرات شتى تميل بها من هنا، وتميل بها من هناك.. ولا بد من ميزان ثابت، ترجع إليه هذه العقول الكثيرة فتعرف عنده مدى الخطأ والصواب في أحكامها وتصوراتها. ومدى الشطط والغلو، أو التقصير والقصور في هذه الأحكام والتصورات. وقيمة العقل البشري هنا هو أنه الأداة المهيأة للإنسان، ليعرف بها وزن أحكامه في هذا الميزان.. الميزان الثابت، الذي لا يميل مع الهوى، ولا يتأثر بشتى المؤثرات..

ولا عبرة بما يضعه البشر أنفسهم من موازين.. فقد يكون الخلل في هذه الموازين ذاتها. فتختل جميع القيم.. ما لم يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت القويم.

والله يضع هذا الميزان للبشر، للأمانة والعدل، ولسائر القيم، وسائر الأحكام، وسائر أوجه النشاط، في كل حقل من حقول الحياة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، وَأُولِي الْأَمْرِ.. مِنْكُمْ.. فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ، فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ.. إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.. ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا»..

وفي هذا النص القصير يبين الله - سبحانه - شرط الإيمان وحد الإسلام. في الوقت الذي يبين فيه قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة وقاعدة الحكم، ومصدر السلطان.. وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من الله وحده والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصاً، من جزئيات الحياة التي تعرض في حياة الناس على مدى الأجيال مما تختلف فيه العقول والآراء والأفهام.. ليكون هنالك الميزان الثابت، الذي ترجع إليه العقول والآراء والأفهام!

إن «الحاكمية» لله وحده في حياة البشر - ما جل منها وما دق، وما كبر منها وما صغر - والله قد سن شريعة أودعها قرآنه. وأرسل بها رسولا يبينها للناس. ولا ينطق عن الهوى. فسنته - ﷺ - من ثم شريعة من شريعة الله.

والله واجب الطاعة. ومن خصائص ألوهيته أن يسن الشريعة. فشريعته واجبة التنفيذ. وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله - ابتداء - وأن يطيعوا الرسول - بما له من هذه الصفة. صفة الرسالة من الله - فطاعته إذن من طاعة الله، الذي أرسله بهذه الشريعة، وبيهاها للناس في سنته.. وسنته وقضاؤه - على هذا -

^{٤٨٧} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٨٣)

جزء من الشريعة واجب النفاذ.. والإيمان يتعلق - وجودا وعدما - بهذه الطاعة وهذا التنفيذ - بنص القرآن: «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».. فأما أولو الأمر فالنص يعين من هم. «وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ».. أي من المؤمنين.. الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الإسلام المبين في الآية.. من طاعة الله وطاعة الرسول وإفراد الله - سبحانه - بالحاكمة وحق التشريع للناس ابتداء والتلقي منه وحده - فيما نص عليه - والرجوع إليه أيضا فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء، مما لم يرد فيه نص لتطبيق المبادئ العامة في النصوص عليه. والنص يجعل طاعة الله أصلا وطاعة رسوله أصلا كذلك - بما أنه مرسل منه - ويجعل طاعة أولي الأمر.. منكم.. تبعا لطاعة الله وطاعة رسوله. فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم، كما كررها عند ذكر الرسول - ﷺ - ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله - بعد أن قرر أنهم «منكم» بقيد الإيمان وشرطه..

وطاعة أولي الأمر.. منكم.. بعد هذه القرارات كلها، في حدود المعروف المشروع من الله، والذي لم يرد نص بحرمته ولا يكون من المحرم عند ما يرد إلى مبادئ شريعته، عند الاختلاف فيه.. والسنة تقرر حدود هذه الطاعة، على وجه الجزم واليقين: في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - رضى الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ « السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ، فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ »^{٤٨٨}.

وعَنْ عَلِيٍّ - رضى الله عنه - قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ - ﷺ - سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَعَضِبَ فَقَالَ أَلَيْسَ أَمْرُكُمْ النَّبِيَّ - ﷺ - أَنْ تُطِيعُونِي. قَالُوا بَلَى. قَالَ فَاجْمَعُوا لِي حَطْبًا. فَجَمَعُوا، فَقَالَ أَوْقِدُوا نَارًا. فَأَوْقَدُوهَا، فَقَالَ ادْخُلُوهَا. فَهَمُّوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمَسِّكُ بَعْضًا، وَيَقُولُونَ فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - مِنَ النَّارِ. فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتِ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَقَبَّلَ النَّبِيُّ - ﷺ - فَقَالَ « لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ »^{٤٨٩}.

وأخرج عَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ سَمِعْتُ جَدَّتِي تُحَدِّثُ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ - ﷺ - يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ يَقُولُ « وَلَوْ اسْتَعْمَلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا »^{٤٩٠}. وعن يَحْيَى بْنِ الْحُصَيْنِ، أَنَّهُ سَمِعَ جَدَّتَهُ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَخْطُبُ بِعَرَفَاتٍ وَهُوَ يَقُولُ: وَلَوْ اسْتَعْمَلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَسَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: إِنِّي لَأَرَى لَهُ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ^{٤٩١}.

^{٤٨٨} - صحيح البخارى - المكثر [٢٣/ ٣٦٣] (٧١٤٤) وأخرجه الجماعة المسند الجامع [١٠/ ١٢٥٩] (٨١٥٩)

^{٤٨٩} - صحيح البخارى - المكثر [١٤/ ٢٥٦] (٤٣٤٠) وصحيح مسلم - المكثر [١٢/ ٢٥٥] (٤٨٧١)

^{٤٩٠} - صحيح مسلم - المكثر [١٢/ ٢٤٨] (٤٨٦٤)

^{٤٩١} - مسند أحمد (عالم الكتب) [٨/ ٨٠٩] (٢٧٢٦٩) ٢٧٨١٢ صحيح

فالعبارة هي الحكم بما أنزل الله ليس إلا، ولا قيمة لأي حاكم مهما علا كعبه إذا لم يحكم بما أنزل الله .

بهذا يجعل الإسلام كل فرد أميناً على شريعة الله وسنة رسوله. أميناً على إيمانه هو ودينه. أميناً على نفسه وعقله. أميناً على مصيره في الدنيا والآخرة.. ولا يجعله بهيمة في القطيع تزجر من هنا أو من هنا فتسمع وتطيع! فالمنهج واضح، وحدود الطاعة واضحة. والشريعة التي تطاع والسنة التي تتبع واحدة لا تتعدد، ولا تتفرق، ولا يتوه فيها الفرد بين الظنون! ذلك فيما ورد فيه نص صريح. فأما الذي لم يرد فيه نص. وأما الذي يعرض من المشكلات والأقضية، على مدى الزمان وتطور الحاجات واختلاف البيئات - ولا يكون فيه نص قاطع، أو لا يكون فيه نص على الإطلاق.. مما تختلف في تقديره العقول والآراء والأفهام - فإنه لم يترك كذلك تيهها. ولم يترك بلا ميزان.

ولم يترك بلا منهج للتشريع فيه والتفريع.. ووضع هذا النص القصير، منهج الاجتهاد كله، وحدوده بمحدوده وأقام «الأصل» الذي يحكم منهج الاجتهاد أيضاً.

«فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ».. رده إلى النصوص التي تنطبق عليه ضمناً. فإن لم توجد النصوص التي تنطبق على هذا النحو، فردوه إلى المبادئ الكلية العامة في منهج الله وشريعته.. وهذه ليست عائمة، ولا فوضى، ولا هي من المجهلات التي تتيه فيها العقول كما يحاول بعض المخادعين أن يقول. وهناك - في هذا الدين - مبادئ أساسية واضحة كل الوضوح، تغطي كل جوانب الحياة الأساسية، وتضع لها سياجاً حرقه لا يخفى على الضمير المسلم المضبوط. بميزان هذا الدين^{٤٩٢}.

«إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».. تلك الطاعة لله والطاعة للرسول، ولأولي الأمر المؤمنين القائمين على شريعة الله وسنة الرسول.. ورد ما يتنازع فيه إلى الله والرسول.. هذه وتلك شرط الإيمان بالله واليوم الآخر. كما أنها مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر.. فلا يوجد الإيمان ابتداءً وهذا الشرط مفقود.. ولا يوجد الإيمان، ثم يتخلف عنه أثره الأكيد.

وبعد أن يضع النص المسألة في هذا الوضع الشرطي، يقدمها مرة أخرى في صورة «العظة» والترغيب والتحبيب على نحو ما صنع في الأمر بالأمانة والعدل ثم التحبيب فيها والترغيب: «ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا».. ذلك خير لكم وأحسن مآلاً. خير في الدنيا وخير في الآخرة. وأحسن مآلاً في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة كذلك.. فليست المسألة أن اتباع هذا المنهج يؤدي إلى رضا الله وثواب الآخرة - وهو أمر هائل، عظيم - ولكنه كذلك يحقق خير الدنيا وحسن مآل الفرد والجماعة في هذه الحياة القريبة.

إن هذا المنهج معناه: أن يستمتع «الإنسان» بمزايا منهج يضعه له الله.. الله الصانع الحكيم العليم البصير الخبير.. منهج بريء من جهل الإنسان، وهوى الإنسان، وضعف الإنسان. وشهوة الإنسان

^{٤٩٢} - يراجع بتوسع فصل: «الثبات» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

..منهج لا محاباة فيه لفرد، ولا لطبقة، ولا لشعب، ولا لجنس، ولا لجيل من البشر على جيل .. لأن الله رب الجميع، ولا تخالجه - سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا - شهوة المحاباة لفرد، أو طبقة، أو شعب، أو جنس، أو جيل.

ومنهج من مزاياه، أن صانعه هو صانع هذا الإنسان .. الذي يعلم حقيقة فطرته، والحاجات الحقيقية لهذه الفطرة، كما يعلم منحنيات نفسه ودروها ووسائل خطاها وإصلاحها، فلا يخط - سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا - في تيه التجارب بحثا عن منهج يوافق. ولا يكلف البشر ثمن هذه التجارب القاسية، حين يخطون هم في التيه بلا دليل! وحسبهم أن يجربوا في ميدان الإبداع المادي ما يشاءون. فهو مجال فسيح جد فسيح للعقل البشري. وحسبهم كذلك أن يحاول هذا العقل تطبيق ذلك المنهج ويدرك مواضع القياس والاجتهاد فيما تنازع فيه العقول.

ومنهج من مزاياه أن صانعه هو صانع هذا الكون، الذي يعيش فيه الإنسان. فهو يضمن للإنسان منهجا تتلاءم قواعده مع نوااميس الكون فلا يروح يعارك هذه النوااميس. بل يروح يتعرف إليها، ويصادقها، وينتفع بها .. والمنهج يهديه في هذا كله ويحميه.

ومنهج من مزاياه أنه - في الوقت الذي يهدي فيه الإنسان ويحميه - يكرمه ويحترمه ويجعل لعقله مكانا للعمل في المنهج .. مكان الاجتهاد في فهم النصوص الواردة. ثم الاجتهاد في رد ما لم يرد فيه نص إلى النصوص أو إلى المبادئ العامة للدين .. ذلك إلى المجال الأصيل، الذي يحكمه العقل البشري، ويعلن فيه سيادته الكاملة: ميدان البحث العلمي في الكون والإبداع المادي فيه ^{٤٩٣} .. «ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» .. وصدق الله العظيم. ^{٤٩٤}

٦٨ - الاستجابة لله وللرسول

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمْتُمْ مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) } سورة الأنفال .

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالاسْتِجَابَةِ إِلَى دَعْوَتِهِ تَعَالَى، وَإِلَى دَعْوَةِ رَسُولِهِ ﷺ الَّتِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِإِبْلَاغِهَا إِلَيْهِمْ، لِأَنَّهَا تُرَكِّي نَفْسَهُمْ وَتُطَهِّرُهَا، وَتُحْيِيهَا بِالْإِيمَانِ، وَتَرْفَعُهَا إِلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ فَتَحْظَى بِرِضَا اللَّهِ، ثُمَّ يَعْلَمُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى قُلُوبِ الْعِبَادِ يُوجِّهُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، فَيَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ

^{٤٩٣} - يراجع كتاب: «هذا الدين» فصل «منهج متفرد». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

^{٤٩٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٠٣٣)

قَلْبِهِ، فِيمَيَّتْ الْإِحْسَاسَ وَالْوَجْدَانَ وَالْإِذْرَاقَ فِيهِ، فَتَشَلُّ الْإِرَادَةُ، وَيَفْقِدُ الْإِنْسَانُ سَيِّطَرَتَهُ عَلَى أَعْمَالِهِ، وَيَتَّبِعْ هَوَاهُ، فَلَا تَعُودُ تَنْفَعُ فِيهِ الْمَوَاعِظُ وَالْعِبَرُ. وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ وَحْدَهُ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يُنْقِذَهُمْ مِمَّا تَرَدُّوا فِيهِ، إِذَا اتَّجَّهُوا إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ .

ثُمَّ يُحْشَرُ اللَّهُ الْعِبَادَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيُحَاسِبَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَيُجْزِيَهُمْ عَلَيْهَا بِمَا يَسْتَحِقُّونَ .
يُحَذِّرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ وَقُوعِ الْبَلَاءِ وَالْفِتَنِ بَيْنَهُمْ إِذَا لَمْ يَقُومُوا بِوَاجِبِهِمْ نَحْوَ دِينِهِمْ وَجَمَاعَتِهِمْ فِي الْجِهَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَفِي الضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ، وَفِي التَّصْحِ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ، وَفِي إِطَاعَةِ أَوْلِي الْأَمْرِ . وَيُنَبِّهُهُمْ تَعَالَى إِلَى أَنَّ الْعِقَابَ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللَّهُ بِالْأُمَّمِ الْمُقْصَرَةِ بِالْقِيَامِ بِوَاجِبَاتِهَا لَا يُصِيبُ السَّيِّئَ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا يَعُمُّ بِهِ الْمُسِيءُ وَغَيْرُهُ، وَيُعْلِمُهُمْ أَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِلْأُمَّمِ الَّتِي تُخَالِفُ سُنَنَهُ وَهُدَى دِينِهِ، وَتُقْصِرُ فِي دَرْءِ الْفِتَنِ، وَفِي التَّعَاوُنِ عَلَى دَفْعِهَا، وَالْقَضَاءِ عَلَيْهَا ٤٩٥ .

هو نداء بعد نداء للمؤمنين، أن يقبلوا على الله، ويستجيبوا لله ولرسوله، وقد رأوا إعراض المشركين عن الله، ونفورهم من دعوته، فكانوا عند الله شر الدواب وأنكدها حظًا.
فالمطلوب من المؤمنين أن يستجيبوا لأمر الله وأمر رسوله، فيما يدعوهم إليه الرسول من أمر ربه. وهذا يعني التسليم للرسول بالطاعة والولاء، في كل ما يحييهم به، ويدعوهم إليه.
وفي قوله تعالى: «إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» إشارة إلى أن ما يدعو به الرسول هو حياة للناس، واستنقاذ لهم من الهلاك والضياع..
والسؤال هنا هو:

ما معنى «إذا» وهل هي شرطية، بمعنى أن المؤمنين لا يستجيبون للنبي إلا على هذا الشرط، وهو أن يدعوهم للذي فيه حياة لهم؟ وهل يدعو الرسول بغير ما يحمل الحياة إلى الناس من أمر الله؟ وهل للمؤمن أن يتوقف عند أي أمر يدعو الرسول إليه حتى يختبره ويصدر حكمه عليه، بعد أن يرى: إن كان فيه حياة له، أو لم يكن؟ وكيف والله سبحانه وتعالى يقول: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ؟» (الأحزاب: ٣٦) .. فما تأويل هذا؟
والجواب - والله أعلم - : أن هذا القيد الوارد على دعوة الرسول، والأمر بالاستجابة لتلك الدعوة على هذا الوصف، وهي أن تكون دعوة فيها حياة وخير، يصيب الإنسان في جانبيه الروحي والمادي معاً - نقول إن هذا القيد يحقق أمرين:

أولهما: الدعوة إلى إيقاظ العقل، وحمله على النظر في كل أمر يواجهه، أو يدعى إليه، ليزنه بميزان الحق والخير، حتى ولو كان هذا الأمر وارداً من جهة لا يرد منها إلا الحق المشرق، والخير الخالص.

فذلك لا يحول بين العقل وبين أن يتفحص الأمر، ويقلّبه على وجوهه، ليعرف مدى الخير الذي يحصله، إذا هو أخذ بهذا الأمر، وجعله معتقداً، له، يعمل في ظله، ويسير على هواه.. فهذا من شأنه أن يجعل لهذا الأمر سلطاناً متمكناً في كيان الإنسان إذ أقامه بيده، ومكّن له بإرادته، ونزل على حكمه طائعا مختاراً، يرجو منه الخير، ويتوقع السلامة والعافية.

ومن أجل هذا كان الإيمان الذي آمن عليه المسلمون الأولون، إيماناً راسخاً متمكناً، جعل منهم أوتاد هذا الدين، وعمدته، التي قام عليها صرحه، وامتدّت عليها ظلال دوحته.

وهذا يعني احترام العقل الإنساني، وإعطائه الحق في البحث والنظر حتى فيما يصدر إليه من أحكام الحاكمين، رب العالمين.. وليس بعد هذا عذر لإنسان يمتنن إنسانيته، ويبيع عقله، ويسلم مقوده لكل داع يدعوه، من غير أن يعمل فيه نظره، ويوجه إليه عقله، كما هو حال أولئك المشركين الذين لا يبصرون إلى ما يدعوههم إليه شياطينهم، أو تمليه عليهم أهواؤهم، وإن كان فيه هلاكهم.

وثاني هذين الأمرين: أن ما تحمله أوامر الشريعة وأحكامها هو الخير المطلق الذي لا يزداد على البحث والنظر إلا وضوحاً وألقاً.

فمن المطلوب إذن أن تتعلق الأنظار بهذه الأوامر وتلك الأحكام، وأن تتحرك بها العقول، وتتردد عليها الأفهام، حتى تتعرف إلى أسرارها، وتنشق العبير الطيب من أريجها، وبهذا تعرف قدرها، فيشتدّ حرصها عليها، وتمسكها بها.. وهكذا كل شيء طيب كريم، تتغذّى الأنظار من ترداد النظر فيه، وتتبعش النفوس من كثرة لقاء العقل له..

يزيدك وجهه عجباً... إذا ما زدته نظراً

وفي قوله تعالى: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ»..

إشارة إلى ما لله سبحانه وتعالى من قدرة وعلم، وأنه بقدرته قادر على كل شيء، وبعلمه محيط بكل شيء..

فالإنسان لا يملك من أمر نفسه شيئاً مع ما لله عليه من سلطان، حتى إن قلبه الذي هو بين جنبيه، والذي هو الجهاز المسك بزمام الحياة فيه، واقع تحت سلطان الله، يصرفه كيف يشاء، ويحوّله إلى حيث يريد.. وإذا الإنسان في واد، وقلبه في واد آخر..

وإذا كان ذلك كذلك، فإن من السّفه أن يتحدّى الإنسان أمر الله، ولا يستجيب له إذا دعاه إليه، ولا يطيع رسول الله إذا بلغه رسالة ربه، فإنه بهذا يهلك نفسه، إذ يحول بينها وبين الخير الذي يدعوها الله ورسوله إليه، ويقطع عنها شريان الحياة، كما يقطع الله سبحانه وتعالى عنه أسباب الحياة، حين يمسك قلبه فلا يخفّق أبداً..^{٤٩٦}

^{٤٩٦} - التفسير القرآني للقرآن (٥ / ٥٨٦)

يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة لله وللرسول، أي: الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه، والاجتناب لما نهي عنه، والانكفاف عنه والنهي عنه.

وقوله: {إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام. ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال: {وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} فإياكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء ويصرفها أنى شاء.

فليكثر العبد من قول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب، اصرف قلبي إلى طاعتك. {وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} أي: تجمعون ليوم لا ريب فيه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بعصيانته. ٤٩٧

إن رسول الله - ﷺ - إنما يدعوهم إلى ما يحييهم.. إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة، وبكل معاني الحياة ..

إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول، وتطلقها من أوهاق الجهل والخرافة، ومن ضغط الوهم والأسطورة، ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والحتميات القاهرة، ومن العبودية لغير الله والمذلة للعبد أو للشهوات سواء ..

ويدعوهم إلى شريعة من عند الله تعلن تحرر «الإنسان» وتكرمه بصدورها عن الله وحده، ووقوف البشر كلهم صفا متساوين في مواجهتها لا يتحكم فرد في شعب، ولا طبقة في أمة، ولا جنس في جنس، ولا قوم في قوم.. ولكنهم ينطلقون كلهم أحرارا متساوين في ظل شريعة صاحبها الله رب العباد.

ويدعوهم إلى منهج للحياة، ومنهج للفكر، ومنهج للتصور يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة، المتمثلة في الضوابط التي وضعها خالق الإنسان، العليم بما خلق هذه الضوابط التي تصون الطاقة البانية من التبدد ولا تكبت هذه الطاقة ولا تحطمها ولا تكفها عن النشاط الإيجابي البناء.

ويدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم، والثقة بدينهم وبرهم، والانطلاق في «الأرض» كلها لتحرير «الإنسان» بحملته وإخراجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده وتحقيق إنسانيته العليا التي وهبها له الله، فاستلبها منه الطغاة! ويدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله، لتقرير ألوهية الله سبحانه - في الأرض وفي حياة الناس وتحطيم ألوهية العبيد المدعاة ومطاردة هؤلاء المعتدين على

٤٩٧ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣١٨)

ألوهية الله - سبحانه - وحاكميته وسلطانه حتى يفيتوا إلى حاكمية الله وحده وعندئذ يكون الدين كله لله. حتى إذا أصابهم الموت في هذا الجهاد كان لهم في الشهادة حياة.

ذلك يحمل ما يدعوهم إليه الرسول - ﷺ - وهو دعوة إلى الحياة بكل معاني الحياة.

إن هذا الدين منهج حياة كاملة، لا مجرد عقيدة مستسرة. منهج واقعي تنمو الحياة في ظله وتترقى. ومن ثم هو دعوة إلى الحياة في كل صورها وأشكالها.. وفي كل مجالاتها ودلالاتها. والتعبير القرآني يحمل هذا كله في كلمات قليلة موحية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ».. استجيبوا له طائعين مختارين وإن كان الله - سبحانه - قادرا على قهركم على الهدى لو أراد: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ».. ويا لها من صورة رهيبة مخيفة للقدرة القاهرة اللطيفة.. «يحول بين المرء وقلبه» فيفصل بينه وبين قلبه ويستحوذ على هذا القلب ويحتجزه، ويصرفه كيف شاء، ويقلبه كما يريد. وصاحبه لا يملك منه شيئا وهو قلبه الذي بين جنبيه! إنها صورة رهيبة حقا يمثّلها القلب في النص القرآني، ولكن التعبير البشري يعجز عن تصوير إيقاعها في هذا القلب، ووصف هذا الإيقاع في العصب والحس! إنها صورة تستوجب اليقظة الدائمة، والحذر الدائم، والاحتياط الدائم. اليقظة للخلجات القلب وخفقاته ولفثاته والحذر من كل هاجسة فيه وكل ميل مخافة أن يكون انزلاقا والاحتياط الدائم للمزالق والهواتف والهواجس. والتعلق الدائم بالله سبحانه مخافة أن يقلب هذا القلب في سهوة من سهواته، أو غفلة من غفلاته، أو دفعة من دفعاته..

ولقد كان رسول الله - ﷺ - وهو رسول الله المعصوم يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ: "يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ فَقَالَ لَهُ أَهْلُهُ أَوْ أَصْحَابُهُ: اتَّخَافُ عَلَيْكَ وَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ قَالَ: إِنَّ الْقُلُوبَ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُقَلِّبُهَا" ٤٩٨..

فكيف بالناس، وهم غير مرسلين ولا معصومين؟! إنها صورة تمز القلب حقا ويجد لها المؤمن رجفة في كيانه حين يخلو إليها لحظات، ناظرا إلى قلبه الذي بين جنبيه، وهو في قبضة القاهر الجبار وهو لا يملك منه شيئا، وإن كان يحمله بين جنبيه ويسير! صورة يعرضها على الذين آمنوا وهو يناديهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ»..

ليقول لهم: إن الله قادر على أن يقهركم على الهدى - لو كان يريد - وعلى الاستجابة التي يدعوكم إليها هذه الدعوة، ولكنه - سبحانه - يكرمكم فيدعوكم لتستجيبوا عن طوعية تنالون عليها الأجر وعن إرادة تعلقو بها إنسانيتكم وترتفع إلى مستوى الأمانة التي ناطها الله بهذا الخلق المسمى بالإنسان.. أمانة الهداية المختارة وأمانة الخلافة الواعية، وأمانة الإرادة المتصرفة عن قصد ومعرفة.

«وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».. فقلوبكم بين يديه. وأنتم بعد ذلك محشورون إليه. فما لكم منه مفر. لا في دنيا ولا في آخرة. وهو مع هذا يدعوكم لتستجيبيوا استجابة الحر المجاور، لا استجابة العبد المقهور.^{٤٩٩}

٦٩ - لا بد من انتفاضة العقيدة

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) } [البقرة]

قال المفسرون إن بني إسرائيل كانوا في زمن موسى على طريق مستقيم، وليثوا على ذلك مدة من الزمن. ثم تضعع أمرهم، وعبد بعضهم الأوثان، وضاع الملك منهم. وتسلب عليهم أعداؤهم، فأخرجوهم من ديارهم بالقهر، فأرسل الله إليهم نبيًا، وأمره بدعوتهم إلى الله، وإلى عبادة ربهم وتوحيده. فدعاهم النبي، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكًا يقاتلون معه أعداءهم. فقال لهم نبيهم: لعلكم إن أقام الله لكم ملكًا ألا تقاتلوا في سبيل الله، وألا توفوا بما التزمتم به من القتال معه. فقالوا: كيف لا نقاتل في سبيل الله وقد ضاعت بلادنا، وسبيت ذرارينا؟ فلما كتب عليهم القتال لم يوفوا بما وعدوا، ونكلوا عن الجهاد والله عليهم بالظالمين الناكِلين عن الجهاد دفاعًا عن دينهم وأرضهم وأمتهم.

^{٤٩٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٣٠)

كان مُلْكُ بني إِسْرَائِيلَ فِي سَبْطِ يَهُوذَا وَلَمَّا قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ إِنَّ الْمَلِكَ سَيَكُونُ طَالُوتُ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْتِ يَهُوذَا، احْتَجُّوا عَلَى ذَلِكَ، وَقَالُوا كَيْفَ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَهُوَ لَيْسَ مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ، وَلَيْسَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ الَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ تَحْمِيلَ نَفَقَاتِ الْمَلِكِ؟ فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ وَاخْتَارَهُ عَلَيْكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْكُمْ بِهِ، وَزَادَهُ عِلْمًا وَقُوَّةً فِي بَدَنِهِ، وَجَعَلَهُ أَصْبَرَ مِنْكُمْ عَلَى الْحُرُوبِ، وَاللَّهُ هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُوَ وَاسِعُ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْمُلْكَ مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ .

كَانَ عِنْدَ بني إِسْرَائِيلَ التَّوْرَةُ وَتَأْبُوتُ الْعَهْدِ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُمْ مُنْذُ مَطْلَعِ تَارِيخِهِمْ، وَكَانَ يَرْتُهُ حَلْفُهُمْ عَنْ سَلَفِهِمْ، وَكَانُوا يَتَبَرَّكُونَ بِهِ فِي حُرُوبِهِمْ . وَلَمَّا ضَلُّوا وَبَغَوْا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سَلْبِهِمْ إِيَّاهُ (وَهُمْ الْعَمَالِيقُ الْفِلِسْطِينِيُّونَ)، وَقَدْ حَارَبُوا الْيَهُودَ وَانْتَصَرُوا عَلَيْهِمْ، فَأَحْذَوْا التَّأْبُوتَ وَنَكَلُوا بِهِمْ تَنكِيلًا شَدِيدًا، فَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ عَلَامَةَ رِضَا اللَّهِ عَلَى مُلْكِ طَالُوتَ هُوَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْكُمْ التَّأْبُوتَ فَيُورِثَكُمْ رُذْهُ عَلَيْكُمْ السَّكِينَةَ وَالطَّمَأْنِينَةَ . وَفِي التَّأْبُوتِ التَّوْرَةُ وَبَقِيَّةُ مِمَّا تَرَكَ مُوسَى وَهَارُونُ وَمِنْهَا بَقَايَا الْأَلْوَاحِ . فَجَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ تَحْمِلُ التَّأْبُوتَ وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ يَدَيْ طَالُوتَ وَالنَّاسِ يَنْظُرُونَ . وَفِي ذَلِكَ آيَةٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّةِ نَبِيِّهِمْ، وَعَلَى صِدْقِهِ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ رَبُّهُمْ مِنْ وَجُوبِ إِطَاعَةِ طَالُوتَ، هَذَا إِنْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

وَلَمَّا خَرَجَ طَالُوتُ بِجَيْشِهِ مِنَ الْبَلَدِ مُتَّجِهًا إِلَى حَرْبِ الْأَعْدَاءِ، وَكَانَ الْوَقْتُ قَائِضًا، سَأَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ طَالُوتَ الْمَاءَ، فَقَالَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ مُخْتَبِرُكُمْ بِنَهْرٍ سَتَمُرُّونَ بِهِ (وَهُوَ نَهْرُ الْأُرْدُنِّ عَلَى قَوْلٍ) فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يُصَاحِبُنِي، وَمَنْ لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ فَلْيُصَاحِبْنِي، وَلَكِنْ لَا بَأْسَ فِي أَنْ يَغْتَرِفَ الْوَاحِدُ غُرْفَةً بِيَدَيْهِ يُلِّبُ بِهَا رِيقَهُ، فَتَمَرَّدَ أَكْثَرُهُمْ، وَشَرَبُوا مِنَ النَّهْرِ، وَبَقِيَ طَالُوتُ فِي فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ مِنْ جُنُودِهِ، فَاجْتَنَزَ بِهِمُ النَّهْرَ، فَلَمَّا نَظَرَ أَصْحَابُ طَالُوتَ إِلَى قَلَّةِ عَدَدِهِمْ، وَكَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ، قَالُوا: إِنْتُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ مُحَارَبَةَ جَالُوتَ وَجُنُودَهُ لِقَلَّةِ عَدَدِهِمْ، فَشَجَّعَهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ، وَقَالُوا لَهُمْ: إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَإِنْ النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَيْسَ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَكَثِيرًا مَا غَلَبَتْ قُوَّةُ صَغِيرَةٍ مُؤْمِنَةٍ مُخْلِصَةً فِي قِتَالِهَا، فَتَةً كَثِيرَةً الْعَدَدِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ الصَّابِرِينَ وَيَنْصُرُهُمْ .

وَلَمَّا تَقَدَّمَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَوَكِّلُونَ عَلَى اللَّهِ مَعَ طَالُوتَ لِقِتَالِ جَالُوتَ وَجُنُودِهِ، دَعَا اللَّهُ وَرَجَوْهُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمُ الصَّبْرُ عَلَى الشَّدَةِ، وَأَنْ يُثَبَّتَ أَقْدَامُهُمْ عِنْدَ لِقَاءِ أَعْدَائِهِمْ، وَأَنْ يُجَنَّبَهُمُ الْعِجْزُ وَالْفِرَارُ، وَأَنْ يُؤْمِنَ عَلَيْهِمْ بِالنَّصْرِ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

فَهَزَمَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ طَالُوتَ أَعْدَاءَهُمُ الْكَافِرِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَقَتَلَ دَاوُدُ (مِنْ جَيْشِ طَالُوتَ) جَالُوتَ مَلِكَ الْكُفَّارِ، وَمَنْنَ اللَّهُ عَلَى دَاوُدَ بِأَنْ آتَاهُ الْمَلِكُ الَّذِي كَانَ بِيَدِ طَالُوتَ، وَالتُّبُوءَ (الْحِكْمَةَ)، وَعَلَّمَهُ اللَّهُ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ بِأَسْ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالْجَوْرِ وَالْآثَامِ، بِأَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ، لَغَلَبَ أَهْلُ الْفَسَادِ، وَبَغَوْا عَلَى الصَّالِحِينَ، وَصَارَ لَهُمْ سُلْطَانٌ فَفَسَدَتِ الْأَرْضُ، فَكَانَ مِنْ

رَحْمَةُ اللَّهِ أَنْ أذنَ لِلْمُصْلِحِينَ بِقِتَالِ الْبُغَاةِ الْمُفْسِدِينَ . وَاللَّهُ يُمْنُ عَلَى عِبَادِهِ وَيَرْحَمُهُمْ وَيَذْفَعُ عَنْهُمْ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ عَلَى خَلْقِهِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ .

وهذه القصصُ التي قصَّها اللهُ تعالى على نبيه ﷺ إنما قصَّها بالحقِّ (أي بالواقع الذي كان الأمرُ عليه، وهو مُطابقٌ لما بين يدي أهل الكتاب من الحقِّ) لتَكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أُسْوَةٌ يُتَأَسَّى بِهَا، ولِتَكُونَ دليلاً على صِدْقِ نُبوَّتِهِ، وليَعْلَمَنَّ اللهُ سَيْنَصْرُهُ كما نصر من جاء قبله من الرُّسُلِ، وليَعْلَمَنَّ أَنَّهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمُ اللهُ لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ .^{٥٠٠}

إن هذا القرآن ليس مجرد كلام يتلى .. ولكنه دستور شامل .. دستور للتربية، كما أنه دستور للحياة العملية، ومن ثم فقد تضمن عرض تجارب البشرية بصورة موحية على الجماعة المسلمة التي جاء لينشئها ويربيها وتضمن بصفة خاصة تجارب الدعوة الإيمانية في الأرض من لدن آدم - عليه السلام - وقدمها زادا للأمة المسلمة في جميع أجيالها. تجاربها في الأنفس، وتجاربها في واقع الحياة. كي تكون الأمة المسلمة على بينة من طريقها، وهي تتزود لها بذلك الزاد الضخم، وذلك الرصيد المتنوع.

ومن ثم جاء القصص في القرآن بهذه الوفرة، وبهذا التنوع، وبهذا الإيجاز .. وقصص بني إسرائيل هو أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم، لأسباب عدة، ذكرنا بعضها في الجزء الأول من الظلال عند استقبال أحداث بني إسرائيل وذكرنا بعضها في هذا الجزء في مناسبات شتى - وبخاصة في أوله - ونضيف إليها هنا ما نرجحه .. وهو أن الله - سبحانه - علم أن أجيالاً من هذه الأمة المسلمة ستمر بأدوار كالتي مر فيها بنو إسرائيل، وتقف من دينها وعقيدتها مواقف شبيهة بمواقف بني إسرائيل فعرض عليها مزالق الطريق، مصورة في تاريخ بني إسرائيل، لتكون لها عظة وعبرة ولترى صورتها في هذه المرفوعة لها بيد الله - سبحانه - قبل الوقوع في تلك المزالق أو اللجاج فيها على مدار الطريق! إن هذا القرآن ينبغي أن يقرأ وأن يتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعي. وينبغي أن يتدبر على أنه توجيهات حية، تنتزل اليوم، لتعالج مسائل اليوم، ولتنير الطريق إلى المستقبل. لا على أنه مجرد كلام جميل يرتل أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود! ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تتلقاه لتلتمس عنده التوجيه الحاضر في شؤون حياتها الواقعة .. وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد. وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي! سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض وتتحرك وتشير إلى معالم الطريق وتقول لنا: هذا فافعلوه وهذا لا تفعلوه. وتقول لنا: هذا عدولكم وهذا صديق. وتقول لنا: كذا فاتخذوا من الحيلة وكذا فاتخذوا من العدة. وتقول لنا حديثاً طويلاً مفصلاً دقيقاً في كل ما يعرض لنا من الشؤون .. وسنجد عندئذ في القرآن متاعاً وحياة وسندرك معنى قوله

^{٥٠٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٥٣، بترقيم الشاملة آليا)

تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ».. فهي دعوة للحياة.. للحياة الدائمة المتجددة. لا لحياة تاريخية محدودة في صفحة عابرة من صفحات التاريخ.

هذا الدرس يعرض تجربتين من تجارب الأمم يضمهما إلى ذخيرة هذه الأمة من التجارب ويعد بهما الجماعة المسلمة لما هي معرضة له في حياتها من المواقف بسبب قيامها بدورها الكبير، بوصفها وارثة العقيدة الإيمانية، ووارثة التجارب في هذا الحقل الحبيب.

والأولى تجربة لا يذكر القرآن أصحابها ويعرضها في اختصار كامل، ولكنه واف. فهي تجربة جماعة «خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ».. فلم ينفعهم الخروج والفرار والحذر وأدركهم قدر الله الذي خرجوا حذرا منه.. فقال لهم الله: «مُوتُوا».. «ثُمَّ أَحْيَاهُمْ».. لم ينفعهم الجهد في اتقاء الموت، ولم يذلوا جهدا في استرجاع الحياة. وإنما هو قدر الله في الحالين.

وفي ظل هذه التجربة يتجه إلى الذين آمنوا يحرضهم على القتال، وعلى الإنفاق في سبيل الله، واهب الحياة. وواهب المال. والقادر على قبض الحياة وقبض المال.

والثانية تجربة في حياة بني إسرائيل من بعد موسى.. بعد ما ضاع ملكهم، ونهبت مقدساتهم، وذلوا لأعدائهم، وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدي ربهم، وتعاليم نبينهم.. ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة واستيقظت في قلوبهم العقيدة واشتاقوا القتال في سبيل الله. فقالوا: «لَنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

ومن خلال هذه التجربة - كما يعرضها السياق القرآني الموحى - تبرز جملة حقائق، تحمل إحياءات قوية للجماعة المسلمة في كل جيل، فضلا على ما كانت تحمله للجماعة المسلمة في ذلك الحين.

والعبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي أن هذه الانتفاضة - انتفاضة العقيدة - على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلي القوم عنها فوجا بعد فوج في مراحل الطريق - على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جدا..

فقد كان فيها النصر والعز والتمكين، بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين. ولقد جاءت لهم بملك داود، ثم ملك سليمان - وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بني إسرائيل في الأرض، وهي عهدهم الذهبي الذي يتحدثون عنه والذي لم يبلغوه من قبل في عهد النبوة الكبرى.. وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لا انتفاضة العقيدة من تحت الركाम وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت!

وفي خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين: من ذلك.. أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها. فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة.. فقد تقدم الملائم من بني إسرائيل - من ذوي الرأي والمكانة

فيهم - إلى نبيهم في ذلك الزمان، يطلبون إليه أن يختار لهم ملكا يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم، الذين سلبوا ملكهم وأموالهم ومعها مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون. فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال، وقال لهم: «هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا!» استنكروا عليه هذا القول، وارتفعت حماسهم إلى الذروة وهم يقولون له: «وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا؟» ..

ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها، وتهاوت على مراحل الطريق كما تذكر القصة وكما يقول السياق بالإجمال: «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ» .. ومع أن لبني إسرائيل طابعا خاصا في النكول عن العهد، والنكوص عن الوعد، والتفرق في منتصف الطريق .. إلا أن هذه الظاهرة هي ظاهرة بشرية على كل حال، في الجماعات التي لم تبلغ تربيته الإيمانية مبلغا عاليا من التدريب .. وهي خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة في أي جيل .. فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بني إسرائيل.

ومن ذلك أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر في نفوس الجماعات ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول .. فإن كثرة بني إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم. ولم تبق إلا قلة مستمسكة بعهدا مع نبيها. وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت بعد الحجاج والجدال حول جدارته بالملك والقيادة، ووقع علامة الله باختياره لهم، ورجعة تابوهم وفيه مخلفات أنبيائهم تحمله الملائكة ...!

ومع هذا فقط سقطت كثرة هؤلاء الجنود في المرحلة الأولى. وضعفوا أمام الامتحان الأول الذي أقامه لهم قائدهم: «فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ: فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي. وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي - إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ - فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ» .. وهذا القليل لم يثبت كذلك إلى النهاية.

فأمام الهول الحي، أمام كثرة الأعداء وقوتهم، تهاوت العزائم وزلزلت القلوب: «فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا: لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ» .. وأمام هذا التخاذل ثبتت الفئة القليلة المختارة .. اعتصمت بالله ووثقت، وقالت: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» .. وهذه هي التي رجحت الكفة، وتلقت النصر، واستحقت العز والتمكين.

وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة .. وكلها واضحة في قيادة طالوت. تبرز منها خبرته بالنفوس وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة، وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه .. ثم - وهذا هو الأهم - عدم تخاذله وقد تضاعل جنوده تجربة بعد تجربة ولم يثبت معه في

النهاية إلا تلك الفئة المختارة. فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص، ووعد الله الصادق للمؤمنين.

والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير المعركة .. أن القلب الذي يتصل بالله تتغير موازينه وتصوراته لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود. فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر، كانت ترى من قتلها وكثرة عدوها ما يراه الآخرون الذين قالوا: «لا طاقةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ» .. ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف. إنما حكمت حكما آخر، فقالت: «كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» .. ثم اتجهت لربها تدعوه: «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» ..

وهي تحس أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين، إنما هو في يد الله وحده. فطلبت منه النصر، ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه .. وهكذا تتغير التصورات والموازن للأمر عند الاتصال بالله حقًا، وعند ما يتحقق في القلب الإيمان الصحيح. وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون! ولا نستوعب الإحباطات التي تتضمنها القصة. فالنصوص القرآنية - كما علمتنا التجربة - تفصح عن إichاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن وبقدر حاجته الظاهرة فيه. ويبقى لها رصيدها المذخور تفتح به على القلوب، في شتى المواقف، على قدر مقسوم ..

فنخلص إذن من هذا العرض العام إلى تفصيل النصوص:

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ: مُوتُوا. ثُمَّ أَحْيَاهُمْ. إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ» ..

لا أحب أن نذهب في تيه التأويلات، عن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلُوفٌ حذروا الموت .. من - هم؟ وفي أي أرض كانوا؟ وفي أي زمان خرجوا؟ فلو كان الله يريد بياناً عنهم لبين، كما يجيء القصص المحدد في القرآن. إنما هذه عبرة وعظة يراد مغزاها، ولا تتراد أحداثها وأماكنها وأزمانها. وتحديد الأماكن والأزمان لا يزيد هنا شيئاً على عبرة القصة ومغزاها ..

إنما يراد هنا تصحيح التصور عن الموت والحياة، وأسبابهما الظاهرة، وحقيقتيهما المضمرة ورد الأمر فيهما إلى القدرة المدبرة. والاطمئنان إلى قدر الله فيهما. والمضي في حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع، فالمقدر كائن، والموت والحياة بيد الله في نهاية المطاف ..

يراد أن يقال: إن الحذر من الموت لا يجدي وإن الفزع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمدان أجلاً، ولا يردان قضاء وإن الله هو واهب الحياة، وهو آخذ الحياة وإنه متفضل في الحالتين: حين يهب، وحين يسترد والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خلف الهبة وخلف الاسترداد. وإن مصلحة الناس متحققة في هذا

وذاك وإن فضل الله عليهم متحقق في الأخذ والمنح سواء: «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ».

إن تجمع هؤلاء القوم «وَهُمْ أُلُوفٌ» وخروجهم من ديارهم «حَذَرَ الْمَوْتِ».. لا يكون إلا في حالة هلع وجزع، سواء كان هذا الخروج خوفا من عدو مهاجم، أو من وباء حائم.. إن هذا كله لم يغن عنهم من الموت شيئا: «فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ.. مُوتُوا»..

كيف قال لهم؟ كيف ماتوا؟ هل ماتوا بسبب مما هربوا منه وفرعوا؟ هل ماتوا بسبب آخر من حيث لم يحتسبوا؟ كل ذلك لم يرد عنه تفصيل، لأنه ليس موضع العبرة. إنما موضع العبرة أن الفرع والجزع والخروج والحذر، لم تغير مصيرهم، ولم تدفع عنهم الموت، ولم ترد عنهم قضاء الله. وكان الثبات والصبر والتحمل أولى لورجعو الله.. «ثُمَّ أَحْيَاهُمْ».. كيف؟ هل بعثهم من موت ورد عليهم الحياة هل خلف من ذريتهم خلف تتمثل فيه الحياة القوية فلا يجزع ولا يهلع هلع الآباء؟.. ذلك كذلك لم يرد عنه تفصيل. فلا ضرورة لأن نذهب وراءه في التأويل، لثلاث نتيجه في أساطير لا سند لها كما جاء في بعض التفاسير.. إنما الإيحاء الذي يتلقاه القلب من هذا النص أن الله وهبهم الحياة من غير جهد منهم. في حين أن جهدهم لم يرد الموت عنهم.

إن الهلع لا يرد قضاء وإن الفرع لا يحفظ حياة وإن الحياة بيد الله هبة منه بلا جهد من الأحياء..

إذن فلا نامت أعين الجبناء!

«وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».. هنا ندرك طرفا من هدف تلك الحادثة ومغزاها وندرك طرفا من حكمة الله في سوق هذه التجربة للجماعة المسلمة في جيلها الأول وفي أجيالها جميعا.. ألا يقعدن بكم حب الحياة، وحذر الموت، عن الجهاد في سبيل الله. فالموت والحياة بيد الله. قاتلوا في سبيل الله لا في سبيل غاية أخرى. وتحت راية الله لا تحت راية أخرى.. قاتلوا في سبيل الله: «وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»..

يسمع ويعلم.. يسمع القول ويعلم ما وراءه. أو يسمع فيستجيب ويعلم ما يصلح الحياة والقلوب. قاتلوا في سبيل الله وليس هناك عمل ضائع عند الله، واهب الحياة وأخذ الحياة.

والجهاد في سبيل الله بذل وتضحية. وبذل المال والإنفاق في سبيل الله يقتدرن في القرآن غالبا بذكر الجهاد والقتال. وبخاصة في تلك الفترة حيث كان الجهاد تطوعا، والجهاد ينفق على نفسه، وقد يقعد به المال حين لا يقعد به الجهد فلم يكن بد من الحث المستمر على الإنفاق لتيسير الطريق للمجاهدين في سبيل الله. وهنا تجيء الدعوة إلى الإنفاق في صورة موحية دافعة: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»..

وإذا كان الموت والحياة بيد الله، والحياة لا تذهب بالقتال إذا قدر الله لها البقاء، فكذلك المال لا يذهب بالإنفاق. إنما هو قرض حسن لله، مضمون عنده، يضاعفه أضعافا كثيرة. يضاعفه في الدنيا مالا وبركة

وسعادة وراحة ويضاعفه في الآخرة نعيما ومتاعا، ورضى وقربى من الله. ومرد الأمر في الغنى والفقر إلى الله، لا إلى حرص وبخل، ولا إلى بذل وإنفاق: «وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ» ..

والمرجع إليه سبحانه في نهاية المطاف. فأين يكون المال والناس أنفسهم راجعون بقضيتهم وقضيتهم إلى الله: «وَالِيهِ تُرْجَعُونَ» ..

وإذن فلا فرع من الموت، ولا خوف من الفقر، ولا محيد عن الرجعة إلى الله. وإذن فليجاهد المؤمنون في سبيل الله، وليقدموا الأرواح والأموال وليستقنوا أن أنفاسهم معدودة، وأن أرزاقهم مقدرة، وأنه من الخير لهم أن يعيشوا الحياة قوية طليقة شجاعة كريمة. ومردهم بعد ذلك إلى الله ..

ولا يفوتني بعد تقرير تلك الإحياءات الإيمانية التربوية الكريمة التي تضمنتها الآيات .. أن ألم بذلك الجمال الفني في الأداء: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ؟» .. إن في التعبير استعراضا لهذه الألوف وهذه الصفوف استعراضا ترسمه هاتان الكلمتان: «أَلَمْ تَرَ؟» .. وأي تعبير آخر ما كان ليرسم أمام المخيلة هذا الاستعراض كما رسمته هاتان الكلمتان العاديتان في موضعهما المختار.

ومن مشهد الألوف المؤلفة، الحذرة من الموت، المتلفتة من الذعر .. إلى مشهد الموت المطبق في لحظة ومن خلال كلمة: «مُوتُوا» .. كل هذا الحذر، وكل هذا التجمع، وكل هذه المحاولة .. كلها ذهبت هباء في كلمة واحدة: «مُوتُوا» .. ليلقي ذلك في الحس عبث المحاولة، وضلالة المنهج كما يلقي صرامة القضاء، وسرعة الفصل عند الله.

«ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» .. هكذا بلا تفصيل للوسيلة .. إنها القدرة المالكة زمام الموت وزمام الحياة. المتصرف في شؤون العباد، لا ترد لها إرادة ولا يكون إلا ما تشاء .. وهذا التعبير يلقي الظل المناسب على مشهد الموت ومشهد الحياة.

ونحن في مشهد إماتة وإحياء. قبض للروح وإطلاق .. فلما جاء ذكر الرزق كان التعبير: «وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ» .. متناسقا في الحركة مع قبض الروح وإطلاقها في إنجاز كذلك واختصار.

وكذلك يبدو التناسق العجيب في تصوير المشاهد، إلى جوار التناسق العجيب في إحياء المعاني وجمال الأداء ..

ثم يورد السياق التجربة الثانية، وأبطالها هم بنو إسرائيل من بعد موسى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. قَالَ: هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا! قَالُوا: وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا؟ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» ..

ألم تر؟ كأنها حادث واقع ومشهد منظور .. لقد اجتمع الملائم من بني إسرائيل، من كبرائهم وأهل الرأي فيهم - إلى نبي لهم. ولم يرد في السياق ذكر اسمه، لأنه ليس المقصود بالقصة، وذكره هنا لا يزيد شيئا

في ايجاء القصة، وقد كان لبني إسرائيل كثرة من الأنبياء يتتبعون في تاريخهم الطويل .. لقد اجتمعوا إلى نبي لهم، وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكا يقاتلون تحت إمرته «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» .. وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال، وأنه في «سَبِيلِ اللَّهِ» يشي بانتفاضة العقيدة في قلوبهم، ويقظة الإيمان في نفوسهم، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل ووضوح الطريق أمامهم للجهاد في سبيل الله.

وهذا الوضوح وهذا الحسم هو نصف الطريق إلى النصر. فلا بد للمؤمن أن يتضح في حسه أنه على الحق وأن عدوه على الباطل ولا بد أن يتجرد في حسه الهدف .. في سبيل الله .. فلا يغشيه الغش الذي لا يدري معه إلى أين يسير.

وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم، وثبات نيتهم، وتصميمهم على النهوض بالتبعة الثقيلة، وجدّهم فيما يعرضون عليه من الأمر: «قَالَ: هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا» .. ألا ينتظر أن تنكلوا عن القتال إن فرض عليكم؟ فأنتم الآن في سعة من الأمر. فأما إذا استجبت لكم، فتقرر القتال عليكم فتلك فريضة إذن مكتوبة ولا سبيل بعدها إلى النكول عنها .. إنها الكلمة اللائقة بني، والتأكد اللائق بني. فما يجوز أن تكون كلمات الأنبياء وأوامرهم موضع تردد أو عبث أو تراخ.

وهنا ارتفعت درجة الحماسة والفورة وذكر الملاء أن هناك من الأسباب الحافزة للقتال في سبيل الله ما يجعل القتال هو الأمر المتعين الذي لا تردد فيه: «قَالُوا: وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا؟» ..

ونجد أن الأمر واضح في حسهم، مقرر في نفوسهم .. إن أعداءهم أعداء الله ولدين الله. وقد أخرجوهم من ديارهم وسبوا أبناءهم. فقتالهم واجب والطريق الواحدة التي أمامهم هي القتال ولا ضرورة إلى المراجعة في هذه العزيمة أو الجدل.

ولكن هذه الحماسة الفائرة في ساعة الرخاء لم تدم. ويعجل السياق بكشف الصفحة التالية: «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ» ..

وهنا نطلع على سمة خاصة من سمات إسرائيل في نقض العهد، والنكث بالوعد، والتفلت من الطاعة، والنكوص عن التكليف، وتفرق الكلمة، والتولي عن الحق البين .. ولكن هذه كذلك سمة كل جماعة لا تنضج تربيتها الإيمانية فهي سمة بشرية عامة لا تغير منها إلا التربية الإيمانية العالية الطويلة الأمد العميقة التأثير. وهي - من ثم - سمة ينبغي للقيادة أن تكون منها على حذر، وأن تحسب حسابها في الطريق الوعر، كي لا تفاجأ بها، فيتعاضمها الأمر! فهي متوقعة من الجماعات البشرية التي لم تخلص من الأوشاب، ولم تصهر ولم تطهر من هذه العقايل.

والتعقيب على هذا التولي: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».. وهو يشي بالاستنكار ووصم الكثرة التي تولت عن هذه الفريضة - بعد طلبها - وقبل أن تواجه الجهاد مواجهة عملية.. وصمها بالظلم. فهي ظالمة لنفسها، وظالمة لنبينا، وظالمة للحق الذي خذلتها وهي تعرف أنه الحق، ثم تتخلى عنه للمبطلين! إن الذي يعرف أنه على الحق، وأن عدوه على الباطل - كما عرف الملائ من بني إسرائيل وهم يطلبون أن يبعث لهم نبيهم ملكا ليقاتلوا «فِي سَبِيلِ اللَّهِ».. ثم يتولى بعد ذلك عن الجهاد ولا ينهض بتبعة الحق الذي عرفه في وجه الباطل الذي عرفه.. إنما هو من الظالمين المحزين بظلمهم.. «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».. «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا. قَالُوا: أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ، وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ، وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ. وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ. وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»..

وفي هذه اللجاجة تتكشف سمة من سمات إسرائيل التي وردت الإشارات إليها كثيرة في هذه السورة.. لقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه. ولقد قالوا: إنهم يريدون أن يقاتلوا «فِي سَبِيلِ اللَّهِ». فيها هم أولاء ينغضون رؤوسهم، ويلوون أعناقهم، ويجادلون في اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم ويستنكرون أن يكون طالوت - الذي بعثه الله لهم - ملكا عليهم. لماذا؟ لأنهم أحق بالملك منه بالوراثة. فلم يكن من نسل الملوك فيهم! ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر التغاضي عن أحقية الوراثة!.. وكل هذا غبش في التصور، كما أنه من سمات بني إسرائيل المعروفة..

ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقيته الذاتية، وعن حكمة الله في اختياره: «قَالَ: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ، وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ. وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ. وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»..

إنه رجل قد اختاره الله.. فهذه واحدة.. وزاده بسطة في العلم والجسم.. وهذه أخرى.. والله «يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ».. فهو ملكه، وهو صاحب التصرف فيه، وهو يختار من عباده من يشاء.. «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».. ليس لفضله خازن وليس لعطائه حد. وهو الذي يعلم الخير، ويعلم كيف توضع الأمور في مواضعها.. وهي أمور من شأنها أن تصحح التصور المشوش، وأن تجلو عنه الغبش.. ولكن طبيعة إسرائيل - ونبيها يعرفها - لا تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها. وهم مقبلون على معركة. ولا بد لهم من خارقة ظاهرة تهمز قلوبهم، وتردها إلى الثقة واليقين: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ، فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ، وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ»..

وكان أعداؤهم الذين شردوهم من الأرض المقدسة - التي غلبوا عليها على يد نبيهم يوشع بعد فترة التيه ووفاة موسى - عليه السلام - قد سلبوا منهم مقدساتهم ممثلة في التابوت الذي يحفظون فيه مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون. وقيل: كانت فيه نسخة الألواح التي أعطها الله لموسى على الطور.. فجعل لهم نبيهم علامة من الله، أن تقع خارقة يشهدونها، فيأتيهم التابوت. بما فيه «تَحْمِلُهُ

الْمَلَأَتْكُمْ» فتفيض على قلوبهم السكينة .. وقال لهم: إن هذه الآية تكفي دلالة على صدق اختيار الله لطالوت، إن كنتم حقا مؤمنين .. ويبدو من السياق أن هذه الخارقة قد وقعت، فانتهى القوم منها إلى اليقين.

ثم أعد طالوت جيشه ممن لم يتولوا عن فريضة الجهاد، ولم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم من أول الطريق .. والسياق القرآني على طريقته في سياقة القصص^{٥٠١} يترك هنا فجوة بين المشهدين. فيعرض المشهد التالي مباشرة وطالوت خارج بالجنود: «فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بَنَهَرٍ. فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي - إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ. فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ» ..

هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل .. إنه مقدم على معركة ومعه جيش من أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة. وهو يواجه جيش أمة غالبية فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة. هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة. الإرادة التي تضبط الشهوات والتزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلي على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء .. فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه، وصموده وصبره: صموده أولا لل رغبات والشهوات، وصبره ثانيا على الحرمان والمتاعب .. واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش. ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه، ويؤثر العافية .. وصحت فراسته: «فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ» ..

شربوا وارتووا. فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده، تبل الظما ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلف! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم. انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم. وكان من الخير ومن الحزم أن انفصلوا عن الجيش الزاحف، لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة. والجيش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الجازمة، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق.

ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفي ولا بد من التجربة العملية، ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها. ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذي لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى .. بل مضى في طريقه.

وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت - إلى حد - ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد: «فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا: لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ» ..

٥٠١ - يراجع فصل: القصة في القرآن. في كتاب: «التصوير الفني في القرآن». (دار الشروق) (السيد رحمه الله)

لقد صاروا قلة. وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته: بقيادة جالوت. إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم. ولكنهم هنا أمام الواقع الذي يروونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته. إنها التجربة الحاسمة. تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور. وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم، فاتصلت بالله قلوبهم وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم، غير الموازين التي يستمدونها الناس من واقع حالهم! وهنا برزت الفئة المؤمنة. الفئة القليلة المختارة. والفئة ذات الموازين الربانية: «قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ: كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ. وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ».. هكذا.. «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً».. بهذا التكثير. فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقوا الله. القاعدة: أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار. ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى ولأنها تمثل القوة الغالبة. قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين.

وهم يكلون هذا النصر لله: «بِإِذْنِ اللَّهِ».. ويعلّلونه بعلمته الحقيقية: «وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ».. فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل..

ونمضي مع القصة. فإذا الفئة القليلة الواثقة بقاء الله، التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء، وتستمد قوتها كلها من إذن الله، وتستمد يقينها كله من الثقة في الله، وأنه مع الصابرين..

إذا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة، الثابتة، التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته، مع ضعفها وقتلها.. إذا هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة. بعد أن تجدد عهدها مع الله، وتوجه بقلوبها إليه، وتطلب النصر منه وحده، وهي تواجه الهول الرعب: «وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا: رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ، وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ، وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ».. هكذا.. «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا».. وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضاً من الله يفرغه عليهم فيغمرهم، وينسكب عليهم سكينه وطمانينة واحتمالاً للهول والمشقة. «وَوَثِّبْتَ أَقْدَامَنَا».. فهي في يده - سبحانه - يثبتها فلا تتزعزع ولا تتزلزل ولا تميد. «وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».. فقد وضع الموقف.. إيمان تجاه كفر. وحق إزاء باطل. ودعوة إلى الله لينصر أوليائه المؤمنين على أعدائه الكافرين. فلا تلجج في الضمير، ولا غبش في التصور، ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق.

وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها: «فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ».. ويؤكد النص هذه الحقيقة: «بِإِذْنِ اللَّهِ».. ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علماً. ولتوضح التصور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون، ولطبيعة القوة التي تجريه.. إن المؤمنين ستار القدرة يفعل الله بهم ما يريد، وينفذ بهم ما يختار.. بإذنه.. ليس لهم من الأمر شيء، ولا حول لهم ولا قوة ولكن الله يختارهم لتنفيذ

مشيئته، فيكون منهم ما يريد بإذنه .. وهي حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين .. إنه عبد الله. اختاره الله لدوره. وهذه منة من الله وفضل. وهو يؤدي هذا الدور المختار، ويحقق قدر الله النافذ. ثم يكرمه الله - بعد كرامة الاختيار - بفضل الثواب .. ولولا فضل الله ما فعل، ولولا فضل الله ما أثيب .. ثم إنه مستيقن من نبل الغاية وطهارة القصد ونظافة الطريق .. فليس له في شيء من هذا أرب ذاتي، إنما هو منفذ لمشيئة الله الخيرة قائم بما يريد. استحق هذا كله بالنية الطيبة والعزم على الطاعة والتوجه إلى الله في خلوص.

ويبرز السياق دور داود: «وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ» .. وداود كان فتى صغيراً من بني إسرائيل. وجالوت كان ملكاً قوياً وقائداً مخوفاً .. ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بطواهرها، إنما تجري بحقائقها. وحقائقها يعلمها هو. ومقاديرها في يده وحده. فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم، ويفوا الله بعهدهم. ثم يكون ما يريد الله بالشكل الذي يريد. وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم .. وكانت هنالك حكمة أخرى مغيبة يريد الله. فلقد قدر أن يكون داود هو الذي يتسلم الملك بعد طالوت، ويرثه ابنه سليمان، فيكون عهده هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود: «وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ» .. وكان داود ملكاً نبياً، وعلمه الله صناعة الزرد وعدة الحرب مما يفصله القرآن في مواضعه في سور أخرى ..

أما في هذا الموضع فإن السياق يتجه إلى هدف آخر من وراء القصة جميعاً .. وحين ينتهي إلى هذه الخاتمة، ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية، ولإرادة المستعيلة لا للكثرة العددية .. حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اضطراع تلك القوى .. إنها ليست المغامر والأسلاب، وليست الأبحار والهلالات .. إنما هو الصلاح في الأرض، وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر: «وَكُلُّوا دَفْعَ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ. وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ» ..

وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا في الأرض من اضطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاحب الموارد. وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس، في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات .. ومن ورائها جميعاً تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعاً، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق، إلى الخير والصلاح والنماء، في نهاية المطاف ..

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعض لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض. ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة، لتنتقل الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبداً

يقظة عاملة، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة .. وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء .. يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة. تعرف الحق الذي بينه الله لها. وتعرف طريقها إليه واضحا. وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض. وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل، وإلا أن تحتل في سبيله ما تحتل في الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه ..

وهنا يمضي الله أمره، وينفذ قدره، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا، ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية، التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمها. وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة.

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب في النهاية وتنتصر. ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض، وتمكين الصلاح في الحياة. إنها تنتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار. وفي النهاية يجيء التعقيب الأخير على القصة: «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ، وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» .. تلك الآيات العالية المقام البعيدة الغايات «تَتْلُوها عَلَيْكَ» .. الله - سبحانه وتعالى - هو الذي يتلوها وهو أمر هائل عظيم حين يتدبر الإنسان حقيقته العميقة الرهيبة .. «تَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ» .. تحمل معها الحق ..

ويتلوها من يملك حق تلاوتها وتزليها، وجعلها دستوراً للعباد. وليس هذا الحق لغير الله سبحانه. فكل من يسن للعباد منهجا غيره إنما هو مفتات على حق الله، ظالم لنفسه وللعباد، مدع ما لا يملك، مبطل لا يستحق أن يطاع. فإنما يطاع أمر الله. وأمر من يهتدي بهدى الله .. دون سواه .. «وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» ..

ومن ثم نتلو عليك هذه الآية ونزودك بتجارب البشرية كلها في جميع أعصارها وتجارب الموكب الإيماني كله في جميع مراحلها، ونورثك ميراث المرسلين أجمعين ..

بهذا ينتهي هذا الدرس القيم الحافل بذخيرة التجارب. وبهذا ينتهي هذا الجزء الذي طوّف بالجماعة المسلمة في شتى المجالات وشتى الاتجاهات وهو يريها ويعدّها للدور الخطير، الذي قدره الله لها في الأرض، وجعلها قيمة عليه، وجعلها أمة وسطا تقوم على الناس بهذا المنهج الرباني - إلى آخر الزمان. انتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث مبدؤا بقوله تعالى: تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض^{٥٠٢}.

٧٠ - عدم الردة مهما أصاب المسلم من مكروه

^{٥٠٢} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٥١٠)

قال تعالى: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ
وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى
يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة: ٢١٧]

بعث الرسول ﷺ عبد الله بن جحش على سرية وأمرها بأمر، فلقيت السرية ابن الحضرمي فقتلته، ولم
يعرف رجال السرية إن كان ذلك اليوم من رجب أو من جمادى الآخرة، فقال المشركون
للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله هذه الآية. وفيها يقول سبحانه للمشركين: إِنَّ الْقِتَالَ فِي
الشَّهْرِ الْحَرَامِ أَمْرٌ كَبِيرٌ فِي نَفْسِهِ، وَجُرْمٌ عَظِيمٌ، وَلَكِنَّهُ إِذَا ارْتُكِبَ لِإِزَالَةِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، كَانَ لَهُ مَا
يُزِيدُهُ، وَإِنَّ مَا فَعَلَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ، وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَمُحَاوَلَةِ فِتْنَةِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ دِينِهِمْ
بِالتَّعْذِيبِ وَالتَّهْدِيدِ، وَإِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مَكَّةَ. كُلُّ ذَلِكَ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ.

وقد كان المشركون يفتنون المسلمين عن دينهم بالتعذيب والإخافة ليردوهم إلى الكفر، وهذا أكبر عند
الله من القتل، وهم ما زالوا مقيمين على الكفر، وعلى محاولة فتنة المسلمين ليردوهم عن دينهم إن
استطاعوا، وعلى محاولة منع الإسلام من الانتشار والقضاء عليه، إن أمكنهم ذلك، لاستحكام عداوتهم
للمسلمين. ويهدد الله من يضعف من المسلمين أمام هجماتهم، ومحاولاتهم وإغراءاتهم فيرتد عن
دينه، ثم يموت وهو كافر، بالعذاب الأليم الأبدي في نار جهنم، وبحبوط عمله في الدنيا والآخرة^{٥٣}.

إن المسلمين لم يبدأوا القتال، ولم يبدأوا العدوان. إنما هم المشركون. هم الذين وقع منهم الصد عن
سبيل الله، والكفر به وبالمسجد الحرام. لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله. ولقد كفروا
بالله وجعلوا الناس يكفرون. ولقد كفروا بالمسجد الحرام. انتهكوا حرمة فآذوا المسلمين فيه، وفتنوه
عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاما قبل الهجرة. وأخرجوا أهله منه، وهو الحرم الذي جعله الله آمنا، فلم
يأخذوا بحرمة ولم يحترموا قدسيته. وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام
.. وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل.

وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر
الحرام.

ووضح موقف المسلمين في دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات الذين يتخذون منها ستارا حين
يريدون، وينتهكون قداستها حين يريدون! وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم، لأنهم
عادون باغون أشرار، لا يرقبون حرمة، ولا يتحرجون أمام قداسة. وكان على المسلمين ألا يدعوه
يحتمون بستار زائف من الحرمات التي لا احترام لها في نفوسهم ولا قداسة! لقد كانت كلمة حق

^{٥٣} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٢٤، بترقيم الشاملة آليا)

يراد بها باطل. وكان التلويح بجرمة الشهر الحرام مجرد ستار يحمون خلفه، لتشويه موقف الجماعة المسلمة، وإظهارها بمظهر المعتدي.. وهم المعتدون ابتداء. وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء. إن الإسلام منهج واقعي للحياة، لا يقوم على مثاليات خيالية جامدة في قوالب نظرية. إنه يواجه الحياة البشرية - كما هي - بعوائقها وجواذبها وملابساتها الواقعية. يواجهها ليقودها قيادة واقعية إلى السير وإلى الارتقاء في آن واحد. يواجهها بحلول عملية تكافئ واقعياتها، ولا ترفوف في خيال حالم، ورؤى مجنحة: لا تجدي على واقع الحياة شيئاً! هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون. لا يقيمون للمقدسات وزناً، ولا يتخرجون أمام الحرمات، ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة. يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه، ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء، ويخرجونهم من البلد الحرام الذي يأمن فيه كل حي حتى الهوام!.. ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام، ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات، ويرفعون أصواتهم: انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام! فكيف يواجههم الإسلام؟ يواجههم بحلول مثالية نظرية طائفة؟ إنه إن يفعل مجرد المسلمين الأخيار من السلاح، بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح، ولا يتورعون عن سلاح..!

كلا إن الإسلام لا يصنع هذا، لأنه يريد مواجهة الواقع، لدفعه ورفع. يريد أن يزيل البغي والشر، وأن يقلم أظافر الباطل والضلال. ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة، ويسلم القيادة للجماعة الطيبة. ومن ثم لا يجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغاة الطغاة ليرموا الطيبين الصالحين البناءة، وهم في مأمن من رد الهجمات ومن نبل الرماة! إن الإسلام يرفع حرمات من يرفعون الحرمات، ويشدد في هذا المبدأ ويصونه. ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات، ويؤذون الطيبين، ويقتلون الصالحين، ويفتنون المؤمنين، ويرتكبون كل منكر وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان! وهو يمضي في هذا المبدأ على أطراد.. إنه يحرم الغيبة.. ولكن لا غيبة لفاسق.. فالفاسق الذي يشتهر بفسقه لا حرمة له يعف عنها الذين يكتون بفسقه. وهو يحرم الجهر بالسوء من القول. ولكنه يستثني «إِلَّا مَنْ ظَلِمَ».. فله أن يجهر في حق ظالمه بالسوء من القول، لأنه حق. ولأن السكوت عن الجهر به يطمع الظالم في الاحتماء بالمبدأ الكريم الذي لا يستحقه! ومع هذا يبقى الإسلام في مستواه الرفيع لا يتدن إلى مستوى الأشرار البغاة. ولا إلى أسلحتهم الخبيثة ووسائلهم الخسيسة.. إنه فقط يدفع الجماعة المسلمة إلى الضرب على أيديهم، وإلى قتالهم وقتلهم، وإلى تطهير جو الحياة منهم.. هكذا جهرة وفي وضوح النهار..

وحين تكون القيادة في الأيدي النظيفة الطيبة المؤمنة المستقيمة، وحين يتطهر وجه الأرض ممن ينتهكون الحرمات ويدوسون المقدسات.. حينئذ تصان للمقدسات حرمتها كاملة كما أرادها الله.

هذا هو الإسلام.. صريحا واضحا قويا دامغا، لا يلف ولا يدور ولا يدع الفرصة كذلك لمن يريد أن يلف من حوله وأن يدور.

وهذا هو القرآن يقف المسلمين على أرض صلبة، لا تتأرجح فيها أقدامهم، وهم يمضون في سبيل الله، لتطهير الأرض من الشر والفساد، ولا يدع ضمايرهم قلقا متحرجة تأكلها الهواجس وتؤذيها الوسوس.. هذا شر وفساد وبغي وباطل.. فلا حرمة له إذن، ولا يجوز أن يتترس بالحرمت، ليضرب من ورائها الحرمت! وعلى المسلمين أن يمضوا في طريقهم في يقين وثقة في سلام مع ضمايرهم، وفي سلام من الله ..

ويعمضي السياق بعد بيان هذه الحقيقة، وتمكين هذه القاعدة، وإقرار قلوب المسلمين وأقدامهم .. يعمضي فيكشف لهم عن عمق الشر في نفوس أعدائهم، وأصالة العدوان في نيتهم وخطتهم: «وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا» ..

وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث على الشر وعلى فتنة المسلمين عن دينهم بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم. وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل .. إن وجود الإسلام في الأرض هو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين ولأعداء الجماعة المسلمة في كل حين إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم. فهو من القوة ومن المتانة بحيث يخشاه كل مبطل، ويرهبه كل باغ، ويكرهه كل مفسد. إنه حرب بذاته وبما فيه من حق أبلج، ومن منهج قويم، ومن نظام سليم .. إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغي والفساد. ومن ثم لا يطيقه المبطلون البغاة المفسدون.

ومن ثم يرصدون لأهله ليفتنوهم عنه، ويردوهم كفارا في صورة من صور الكفر الكثيرة. ذلك أنهم لا يأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم، وفي الأرض جماعة مسلمة تؤمن بهذا الدين، وتتبع هذا المنهج، وتعيش بهذا النظام.

وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته، ولكن الهدف يظل ثابتا .. أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا. وكلما انكسر في يدهم سلاح انتضوا سلاحا غيره، وكلما كلت في أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها .. والخير الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام، وينبهاها إلى الخطر ويدعوها إلى الصبر على الكيد، والصبر على الحرب، وإلا فهي خسارة الدنيا والآخرة والعذاب الذي لا يدفعه عذر ولا مبرر: «وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ، فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» ..

والحبوط مأخوذ من حبطت الناقة إذا رعت مرعى خبيثا فانتفخت ثم نفقت .. والقرآن يعبر بهذا عن حبوط العمل، فيتطابق المدلول الحسي والمدلول المعنوي .. يتطابق تضخم العمل الباطل وانتفاخ

مظهره، وهلاكه في النهاية وبواره .. مع تضخم حجم الناقة وانتفاخها ثم هلاكها في النهاية بهذا الانتفاخ!

ومن يرتدد عن الإسلام وقد ذاقه وغرفه تحت مطارق الأذى والفتنة - مهما بلغت - هذا مصيره الذي قرره الله له .. حبوط العمل في الدنيا والآخرة. ثم ملازمة العذاب في النار خلودا. إن القلب الذي يذوق الإسلام ويعرفه، لا يمكن أن يرتد عنه ارتدادا حقيقيا أبدا. إلا إذا فسد فسادا لا صلاح له. وهذا أمر غير التقية من الأذى البالغ الذي يتجاوز الطاقة. فالله رحيم. رخص للمسلم - حين يتجاوز العذاب طاقته - أن يقي نفسه بالتظاهر، مع بقاء قلبه ثابتا على الإسلام مطمئنا بالإيمان. ولكنه لم يرخص له في الكفر الحقيقي، وفي الارتداد الحقيقي، بحيث يموت وهو كافر .. والعياذ بالله ..

وهذا التحذير من الله قائم إلى آخر الزمان .. ليس لمسلم عذر في أن ينجح للعذاب والفتنة فيترك دينه ويقينه، ويرتد عن إيمانه وإسلامه، ويرجع عن الحق الذي ذاقه وعرفه .. وهناك المجاهدة والمجاهدة والصبر والثبات حتى يأذن الله. والله لا يترك عباده الذين يؤمنون به، ويصبرون على الأذى في سبيله. فهو معوضهم خيرا: إحدى الحسينين: النصر أو الشهادة.

وهناك رحمته التي يرجوها من يؤذون في سبيله لا يبيس منها مؤمن عامر القلب بالإيمان: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .. ورجاء المؤمن في رحمة الله لا يخيبه الله أبدا .. ولقد سمع أولئك النفر المخلص من المؤمنين المهاجرين هذا الوعد الحق، فجاهدوا وصبروا، حتى حقق الله لهم وعده بالنصر أو الشهادة. وكلاهما خير. وكلاهما رحمة. وفازوا بمغفرة الله ورحمته: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .. وهو هو طريق المؤمنين^{٥٠٤} ..

٧١ - وجوب التعلق بالرسول والرسالة

قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [آل عمران: ١٦٤]
من فضل الله على المؤمنين أن بعث فيهم رسولا من جنسهم، ومن أهل بلدهم ولغتهم (من أنفسهم)، ليتمكنوا من مخاطبته ومجالسته، والانتفاع بصحته وسؤاله عما سيتشكّل عليهم في أمور دينهم، ويتلوا عليهم القرآن (آيات الله) ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، لتزكو أنفسهم، وتطهر

^{٥٠٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٦٥)

مِنْ أَرْجَاسِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ (الْكِتَابَ) وَالسُّنَّةَ (الْحِكْمَةَ) فَقَدْ كَانُوا قَبْلَ هَذَا الرَّسُولِ فِي غِيٍّ وَجَهَالَةٍ (ضَلَالٍ) ظَاهِرَيْنِ لِكُلِّ أَحَدٍ .^{٥٠٥}

في هذه الآية الكريمة ما يزكي الرأي الذي ذهبنا إليه في تفسير قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَلَّ» وهو أن الغلَّ من الحقد، لا من الغلول بمعنى الخيانة..

ففي هذه الآية:

أولاً: تذكير النبي الكريم بأنه رحمة أرسلها الله للناس، ومِنَّةٌ مِنَ اللَّهِ بِمَا عَلَيْهِمْ، بما يتلو عليهم من آيات الله، وبما يفتح لهم من طاقات النور، وبما يفيض عليهم من مواطر الهدى، فيطهرهم من أرجاس الكفر والضلال، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويفتح قلوبهم المظلمة إلى حيث مطالع الهدى والنور، ويوقظ عقولهم النائمة الغافية لتتصل بهذا الكون وتطالع في صفحات الوجود وعلى قسَمات الموجودات، بعض ما أبدعت قدرة الخالق العظيم، وما وسع علمه.

وهنا يرى الرسول - مع عظم المسؤولية التي يحملها - مدى الخير الذي يسوقه الله على يديه إلى الناس، الذين هو منهم وهم منه، فيحمله ذلك على أن يبالي في تحرّى الدقة البالغة في ألا يشوب هذه النعمة العظيمة كدر، أو يعلق بها أذى، حتى تصل إلى مكانها من الناس صافية، مشرقة، طيبة..

وهذا ما يجعل الرسول الكريم مستعداً لتحمل الأذى في سبيل رسالته، متجاوزاً عن كل ما يعرض له في طريقه، من حماقات الحمقى وسفاهات السفهاء، فإذا دعى من ربّه إلى أن يكظم غيظه، ويعفو الناس، ويلين لهم، ويستغفر للمسيئين منهم، وجدت تلك الدعوة الكريمة من قلب الرسول مكاناً، ووجد منها الرسول الكريم ما تهمفوا إليه نفسه، ويناجيه به وجدانه..

وثانياً: في الآية الكريمة أيضاً، يرى المؤمنون ما آتاهم الله من فضله، وما أوسع لهم في برّه وكرمه، إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم، يعرفون وجهه، ويأمنون إليه، ويتلقون من بين يديه ما يتلقى هو من ربّه من نفحات ورحمات، يسوقها إليهم، فيعيدهم خلقاً جديداً، فإذا هم ناس غير الناس، وقوم غير القوم.. قد أشرقت قلوبهم بنور الحق، واستنارت عقولهم بأضواء المعرفة..

«وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ».. وتلك نعم من الله سابعة، وأفضال غامرة، ينبغي أن يذكرها، ويؤدوا شكرها، إيماناً بالله، وجهادا في سبيل الله، وطاعة وولاء لرسول الله، الذي حمل إليهم هذا الخير، وغرسه في مغارسه، ورواه من خفقات قلبه، ومسارب وجدانه.^{٥٠٦}

إن ختام هذه الفقرة بهذه الحقيقة الكبيرة. حقيقة الرسول - ﷺ - وقيمتها الذاتية، وعظم المنّة الإلهية بها، ودورها في إنشاء هذه الأمة وتعليمها وتربيتها وقيادتها، ونقلها من الضلال المبين إلى العلم والحكمة والطهارة.. إن هذا الختام يتضمن لمسات قرآنية كثيرة متنوعة عميقة:

^{٥٠٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٥٧، بترقيم الشاملة آليا)

^{٥٠٦} - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٣٤)

إنما تجيء ابتداء تعقيبا على الغنائم والطمع فيها والغلول، والانشغال بهذا الأمر الصغير، الذي كان الانشغال به هو السبب المباشر الذي قلب الموقف في المعركة، وبدل النصر هزيمة، وفعل بالمسلمين الأفاعيل.. فالإشارة إلى حقيقة الرسالة الكبيرة، والمنة العظيمة المتمثلة فيها، لمسة عميقة من لمسات التربية القرآنية الفريدة. تبدو في ظلها غنائم الأرض كلها، وأسلاك الأرض كلها، وأعراض الأرض كلها، شيئا تافها زهيدا، لا يذكر ولا يقدر. شيئا تحجل النفس المؤمنة أن تذكره، بل تستحي أن تفكر فيه! فضلا عن أن تشغل به! وهي تجيء في سياق الحديث عن الهزيمة والقرح والألم والخسارة التي أصابت الجماعة المسلمة في المعركة..

فالإشارة إلى تلك الحقيقة الكبيرة، وما تمثله من منة عظيمة، لمسة عميقة من لمسات التربية القرآنية العجيبة، تصغر في ظلها الآلام والخسائر، وتصغر إلى جانبها الجراح والتضحيات. على حين تعظم المنة، ويتجلى العطاء الذي يرجح كل شيء في حياة الأمة المسلمة على الإطلاق.

ثم.. الإشارة إلى آثار هذه المنة في حياة الأمة المسلمة «يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ».. وهي تشي بالنقلة من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، ومن عهد إلى عهد. فتشعر الأمة المسلمة بما وراء هذه النقلة من قدر الله الذي يريد بهذه الأمة أمرا ضخما في تاريخ الأرض، وفي حياة البشر، والذي يعدها لهذا الأمر الضخم بإرسال الرسول - ﷺ - فما ينبغي لأمة هذا شأنها، أن تشغل بالها بالغنائم التي تبدو تافهة زهيدة في ظل هذا الهدف الضخم، ولا أن تجزع من التضحيات والآلام، التي تبدو هينة يسيرة في ظل هذه الغاية الكبيرة.. هذه بعض اللمسات المستفادة من ذكر هذه المنة في هذا السياق. نذكرها باختصار وإجمال، لنواجه النص القرآني الحافل بالإيجاءات والظلال: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»..

إنما المنة العظمى أن يبعث الله فيهم رسولا، وأن يكون هذا الرسول «مِنْ أَنْفُسِهِمْ».. إن العناية من الله الجليل، بإرسال رسول من عنده إلى بعض خلقه، هي المنة التي لا تنبثق إلا من فيض الكرم الإلهي. المنة الخالصة التي لا يقابلها شيء من جانب البشر. وإلا فمن هم هؤلاء الناس، ومن هم هؤلاء الخلق، حتى يذكرهم الله هذا الذكر، ويعني بهم هذه العناية؟ ويبلغ من حفاوة الله بهم، أن يرسل لهم رسولا من عنده، يحدثهم بآياته - سبحانه - وكلماته، لولا أن كرم الله يفيض بلا حساب، ويغمر خلائقه بلا سبب منهم ولا مقابل؟

وتتضاعف المنة بأن يكون هذا الرسول «مِنْ أَنْفُسِهِمْ».. لم يقل «منهم» فإن للتعبير القرآني «مِنْ أَنْفُسِهِمْ» ظلالا عميقة الإيجاء والدلالة.. إن الصلة بين المؤمنين والرسول هي صلة النفس بالنفس، لا صلة الفرد بالجنس.

فليست المسألة أنه واحد منهم وكفى. إنما هي أعمق من ذلك وأرقى. ثم إنهم بالإيمان يرتفعون إلى هذه الصلة بالرسول، ويصلون إلى هذا الأفق من الكرامة على الله. فهو منة على المؤمنين.. فالمنة

مضاعفة، ممثلة في إرسال الرسول، وفي وصل أنفسهم بنفس الرسول، ونفس الرسول بأنفسهم على هذا النحو الحبيب.

ثم تتجلى هذه المنة العلوية في آثارها العملية .. في نفوسهم وحياتهم وتاريخهم الإنساني: «يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» .. تتجلى هذه المنة في أكبر مجالها. في تكريم الله لهم. بإرسال رسول من عنده يخاطبهم بكلام الله الجليل: «يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ» ..

ولو تأمل الإنسان هذه المنة وحدها لراعتة وهزته حتى ما يتمالك أن ينصب قامته أمام الله، حتى وهو يقف أمامه للشكر والصلاة! ولو تأمل أن الله الجليل - سبحانه - يتكرم عليه، فيخاطبه بكلماته. يخاطبه ليحدثه عن ذاته الجليلة وصفاته ويعرفه بحقيقة الألوهية وخصائصها. ثم يخاطبه ليحدثه عن شأنه هو - هو الإنسان - هو العبد الصغير الضئيل - وعن حياته، وعن خواجه، وعن حركاته وسكناته. يخاطبه ليدعوه إلى ما يحبه، وليرشده إلى ما يصلح قلبه وحاله، ويهتف به إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

فهل هو إلا الكرم الفاضل الذي يجري بهذه المنة، وهذا التفضل، وهذا العطاء؟ إن الله الجليل غني عن العالمين. وإن الإنسان الضئيل هو الفقير المحوج .. ولكن الجليل هو الذي يحفل هذا الضئيل، ويتلمسه بعنايته، ويتابعه بدعوته! والغني هو الذي يخاطب الفقير ويدعوه ويكرر دعوته! فيا للكرم! ويا للمنة! ويا للتفضل والعطاء الذي لا كفاء له من الشكر والوفاء! «وَيُزَكِّيهِمْ»

يطهرهم ويرفعهم وينقيهم. يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم. ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم. ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم .. يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة، وما تبثه في الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة مزرية بالإنسان ومعنى إنسانيته .. ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية، وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم. وقد كان لكل جاهلية من حولهم أرجاسها، وكان للعرب جاهليتهم وأرجاسها.

من أرجاسها هذا الذي وصفه جعفر بن أبي طالب وهو يحدث نجاشي الحبشة في مواجهة رسولي قريش إليه، وقد جاء إليه ليسلمهما المهاجرين من المسلمين عنده .. عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بِنِ الْمُغِيرَةِ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ، جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ حَارِ النَّجَاشِيِّ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ لَا نُؤْذِي، وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا، اتَّخَذُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ، وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطَرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبَ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَيْهِ الْأَدَمُ، فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا، وَلَمْ يَتْرَكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بَطْرِيْقًا إِلَّا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمُخَزُومِيِّ، وَعَمَرُوهُ بِنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ، وَأَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ، وَقَالُوا لَهُمَا: ادْفَعُوا إِلَى كُلِّ بَطْرِيْقٍ هَدِيَّتَهُ، قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ قَدَّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ، ثُمَّ سَلَوْهُ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ، قَالَتْ: فَخَرَجَا فَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ

بِخَيْرِ دَارٍ، وَعِنْدَ خَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بَطْرِيْقٌ إِلَّا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ، ثُمَّ قَالَا لِكُلِّ بَطْرِيْقٍ مِنْهُمُ: إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مَنَا غُلْمَانُ سُفَهَاءُ، فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاؤُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ لِنَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ، فَتَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا وَلَا يُكَلِّمَهُمْ، فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ، ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُمَا إِلَى النَّجَاشِيِّ فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ، فَقَالَا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مَنَا غُلْمَانُ سُفَهَاءُ، فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاؤُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ، وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ، لِنَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ. قَالَتْ: وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، وَعَمَرُو بَنِي الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ النَّجَاشِيُّ كَلَامَهُمْ، فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ: صَدَقُوا أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَاسَلِّمَهُمْ إِلَيْهِمَا، فَلْيَرُدَّهُمَا إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ، قَالَتْ: فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ، ثُمَّ قَالَ: لَا هَا اللَّهُ، أَيْمُ اللَّهِ إِذَنْ لَا أُسَلِّمُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَلَا أَكَادُ قَوْمًا جَاوَرُونِي، وَنَزَلُوا بِلَادِي، وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ حَتَّى أَدْعُوهُمْ فَاسْأَلَهُمْ مَاذَا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولَانِ أَسَلِّمْتُهُمُ إِلَيْهِمَا وَرَدَدْتُهُمُ إِلَى قَوْمِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جَوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي. قَالَتْ: ثُمَّ أَرْسَلَتْ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَدَعَاهُمْ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاللَّهِ مَا عَلَّمْنَا، وَمَا أَمَرْنَا بِهِ نَبِيَّنَا ﷺ، كَانَتْ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنْ. فَلَمَّا جَاؤُوهُ، وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَافِقَتَهُ، فَتَشَرُّوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ، سَأَلَهُمْ فَقَالَ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟ قَالَتْ: فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجَوَارِيَ كُلَّ الْقَوِيِّ مِنْهَا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مَنَا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرْنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالِدَّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرْنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرْنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحَلَّلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمًا، فَعَدُّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنَ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا، وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغَبْنَا فِي جَوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ

مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ كَهْيَعَص، قَالَتْ: فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَافَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لِيَخْرُجَ مِنْ مَشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلَقَا فَوَاللَّهِ لَا أُسَلِّمُهُمَ إِلَيْكُمْ أَبَدًا، وَلَا أَكَادُ، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ، قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاللَّهِ لَا نَبِئْتُهُمْ غَدًا عِيَّتُهُمْ عِنْدَهُمْ، ثُمَّ اسْتَأْصِلُ بِهِ خَضِرَاءَهُمْ، قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَكَانَ أَتَقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا: لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ لَهُمَ أَرْحَامًا، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا. قَالَ: وَاللَّهِ لَا خَيْرَ لَهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ، قَالَتْ: ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ الْغَدُ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا، فَأَرْسِلَ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ، قَالَتْ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ، قَالَتْ: وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلَهُ، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاللَّهِ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ، وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِينًا كَانْنَا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ، قَالَ لَهُمْ: مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِينًا، هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبُتُولِ، قَالَتْ: فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَأَخَذَ مِنْهَا عُوْدًا، ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُوْدَ، فَتَنَاحَرَتْ بِطَارِقَتِهِ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ، فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللَّهِ أَذْهَبُوا، فَأَنْتُمْ سَيُّومٌ بَارِضِي، وَالسَّيُّومُ: الْآمِنُونَ، مَنْ سَبَّكُمُ غَرَمٌ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمُ غَرَمٌ، فَمَا أُحِبُّ أَنْ لِي دَبْرًا ذَهَبًا، وَأَنْتِي آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ، وَالِدَبْرِ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ: الْجَبَلُ، رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَذَايَاهُمَا، فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهِمَا، فَوَاللَّهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي، فَأَخَذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِيَّ، فَأُطِيعُهُمْ فِيهِ. قَالَتْ: فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ إِنَّا عَلَى ذَلِكَ إِذْ نَزَلَ بِهِ، يَعْنِي مَنْ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا حُزْنًا قَطُّ كَانَ أَشَدَّ مِنْ حُزْنِ حَزَنَاهُ عِنْدَ ذَلِكَ، تَخَوُّفًا أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ عَلَى النَّجَاشِيِّ، فَيَأْتِي رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقَّنَا مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ. قَالَتْ: وَسَارَ النَّجَاشِيُّ وَيَنْتَهُمَا عَرْضُ النَّبِيلِ، قَالَتْ: فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَتَّى يَحْضُرَ وَفَعَةَ الْقَوْمِ ثُمَّ يَأْتِينَا بِالْخَبَرِ؟ قَالَتْ: فَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ: أَنَا، قَالَتْ: وَكَانَ مِنْ أَحَدَثِ الْقَوْمِ سِنًا، قَالَتْ: فَتَفَخَّخُوا لَهُ قَرَبَةً، فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ ثُمَّ سَبَّحَ عَلَيْهَا حَتَّى خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ النَّبِيلِ الَّتِي بِهَا مُلْتَقَى الْقَوْمِ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى حَضَرَهُمْ. قَالَتْ: وَدَعَوْنَا اللَّهَ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى عَدُوِّهِ، وَالتَّمَكُّنِ لَهُ فِي بِلَادِهِ، وَاسْتَوْسَقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبَشَةِ، فَكُنَّا عِنْدَهُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ، حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ بِمَكَّةَ. ٥٠٧

ومن أرجاسها ما حكته عائشة - رضي الله عنها - وهي تصور أنواع الاتصال بين الجنسين في الجاهلية كما جاء في صحيح البخاري عن ابن شهاب قال أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوجة النبي - ﷺ - أخبرته أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه. ويعتزلها زوجها، ولا يمسها أبداً، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإلما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيها. فإذا حملت ووضعت، ومر عليها ليالي بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان. تسمى من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل. ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرؤن فالتاط به، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد - ﷺ - بالحق هدم نكاح الجاهلية كله، إلا نكاح الناس اليوم. ٥٠٨..

ودلالة هذه الصورة على هبوط التصور الإنساني وبهيميته لا تحتاج إلى تعليق. ويكفي تصور الرجل، وهو يرسل امرأته إلى «فلان» لتأتي له منه بولد نجيب. تماماً كما يرسل ناقته أو فرسه أو بهيمته إلى الفحل النجيب، لتأتي له منه بنتاج جيد! ويكفي تصور الرجال - ما دون العشرة! - يدخلون إلى المرأة مجتمعين - «كلهم يصيها!».. ثم تختار هي أحدهم لتلحق به ولدها! أما البغاء - وهو الصورة الرابعة - فهو البغاء! يزيد عليه إلحاق نتاجه برجل من البغاء! لا يجد في ذلك معرة! ولا يمتنع من ذلك! إنه الوحل. الذي طهر الإسلام منه العرب. وزكاهم. وكانوا - لولا الإسلام - غارقين إلى الأذقان فيه! ولم يكن هذا الوحل في العلاقات الجنسية إلا طرفاً من النظرة الهابطة إلى المرأة في الجاهلية. يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»:

«وكانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة غبن وحيف، تؤكل حقوقها، وتبتز أموالها، وتحرم من إرثها، وتعزل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجها ترضاه ٥٠٩، وتورث كما يورث المتاع أو

٥٠٨ - صحيح البخاري - المكثر - (٥١٢٧) - الناظر: التصق به

٥٠٩ - {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (٢٣٢) سورة البقرة

الدابة^{٥١٠}. عن ابن عباس في قوله: "يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً" الآية، قال: كان الرجل إذا مات أبوه أو حميمه، فهو أحق بامرأته، إن شاء أمسكها، أو يحبسها حتى تفترق منه بصداقها، أو تموت فيذهب بما لها = قال ابن جريج، فأخبرني عطاء بن أبي رباح: أن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل فترك امرأة حبسها أهلها على الصبي يكون فيهم، فترت: "لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً" الآية = قال ابن جريج، وقال مجاهد: كان الرجل إذا توفي أبوه، كان أحق بامرأته، ينكحها إن شاء إذا لم يكن ابنها، أو ينكحها إن شاء أخاه أو ابن أخيه = قال ابن جريج، وقال عكرمة نزلت في كبيشة بنت معن بن عاصم، من الأوس، توفي عنها أبو قيس بن الأسلت، فجنح عليها ابنه، فجاءت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، لا أنا ورثت زوجي، ولا أنا تركت فأنكح! فترت هذه الآية^{٥١١}..

وعن السدي: أمّا قوله: لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً، "فإن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه، فإذا مات وترك امرأته، فإن سبق وارث الميت فآلفى عليها ثوبه فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه أو ينكحها فيأخذ مهرها، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها فهم أحق بنفسها"^{٥١٢}. وكانت المرأة في الجاهلية يطفف معها الكيل، فيتمتع الرجل بحقوقه ولا تتمتع هي بحقوقها، يؤخذ مما تؤتى من مهر، وتمسك ضراراً للاعتداء^{٥١٣}. وتلاقي من بعلمها نشوزاً أو إعراضاً، وترك في بعض الأحيان كالمعلقة^{٥١٤}. ومن المأكولات ما هو خالص للذكور ومحرم على الإناث^{٥١٥}. وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من غير تحديد^{٥١٦}.

«وقد بلغت كراهة البنات إلى حد الوأد. ذكر الهيثم بن عدي - على ما حكاه عنه الميداني - أن الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة، فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة. فجاء الإسلام، وكانت

^{٥١٠} - {يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبن ما أتيتن منهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً} (١٩) سورة النساء

^{٥١١} - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [١٠٦/ ٨] (٨٨٧٣) حسن وحسن مرسل

^{٥١٢} - جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ٤ / ٣٠٨ (٨١٢٢) حسن مرسل

^{٥١٣} - {وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكنهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكنهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزواً وأذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله وأعلموا أن الله بكل شيء عليم} (٢٣١) سورة البقرة

^{٥١٤} - {ولئن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتدروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً} (١٢٩) سورة النساء

^{٥١٥} - {قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين} (١٤٠)

سورة الأنعام

^{٥١٦} - {وإن خفتن ألا ينصبن في التامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا} (٣) سورة النساء

مذاهب العرب مختلفة في وأد الأولاد. فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن. ومنهم من كان يئد من البنات من كانت زرقاء. أو شيماء (سوداء) أو برشاء (برصاء) أو كسحاء (عرجاء) تشاؤما منهم بهذه الصفات. ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق، وخوف الفقر ..

«وكانوا يقتلون البنات ويئدونهن بقسوة نادرة في بعض الأحيان، فقد يتأخر وأد المؤودة لسفر الوالد وشغله، فلا يئدها إلا وقد كبرت، وصارت تعقل. وقد حكوا في ذلك عن أنفسهم مبيكات. وقد كان بعضهم يلقي الأنثى من شاهق»^{٥١٧} ..

ومن أرجاسها - وأصل هذه الأرجاس جميعا - الشرك والوثنية الهابطة الساذجة: كما يصورها في إجمال الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه: «انغمست الأمة في الوثنية وعبادة الأصنام بأشنع أشكالها. فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة، صنم خاص، بل كان لكل بيت صنم خصوصي. قال الكلبي: كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر، كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضا»^{٥١٨}. واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتا، ومنهم من اتخذ صنما ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجرا أمام الحرم، وأمام غيره مما استحسنت، ثم طاف به كطوافه بالبيت، وسموها الأنصاب^{٥١٩}. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَحَوْلَ الْبَيْتِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَمًا، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِقَضِيبٍ مَعَهُ، وَيَقُولُ: {جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [سورة الإسراء آية ٨١] ^{٥٢٠}

وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة جنس الحجارة. روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال: كُنَّا نَعْبُدُ الْحَجَرَ، فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَحْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ وَأَخَذْنَا الْآخَرَ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثُوَّةً مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ طَفْنَا بِهِ، فَإِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَجَبٍ قُلْنَا مُنْصِلُ الْأَسِنَّةِ. فَلَا نَدْعُ رُمْحًا فِيهِ حَدِيدَةٌ وَلَا سَهْمًا فِيهِ حَدِيدَةٌ إِلَّا نَزَعْنَاهُ وَأَلْقَيْنَاهُ شَهْرَ رَجَبٍ ^{٥٢١}.

وقال الكلبي: كان الرجل إذا سافر فتزل منزله، أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها، فاتخذها ربا، وجعل ثلاث أثافيّ لقدره، وإذا ارتحل تركه ^{٥٢٢}.

^{٥١٧} - بلوغ الأرب في أحوال العرب (السيد رحمه الله)

^{٥١٨} - كتاب الأصنام. (السيد رحمه الله)

^{٥١٩} - كتاب الأصنام. (السيد رحمه الله)

^{٥٢٠} - مسند أبي عوانة (٥٤٣٢) صحيح

^{٥٢١} - صحيح البخاري - المكثر - (٤٣٧٦) الجثوة: الكومة - المنصل: مخرج الأسنة من أماكنها

^{٥٢٢} - كتاب الأصنام. (السيد رحمه الله)

«وكان للعرب - شأن كل أمة مشركة في كل زمان ومكان - آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب. فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله، ويعبدونهم، ويتوسلون بهم عند الله.

واتخذوا كذلك معه الجن شركاء لله، وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم، وعبدوهم^{٥٢٣}. قال الكلبي: كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن^{٥٢٤}. وقال صاعد: كانت حمير تعد الشمس. وكنانة القمر. وتميم الدبران. ولحم وجذام المشتري. وطى سهيلا. وقيس الشعري العبور. وأسد عطاردا^{٥٢٥}.

ويكفي أن يتصفح الإنسان هذه الصورة البدائية الغليظة من الوثنية، ليعرف أي رجس كانت تنشره في القلوب والتصورات وفي واقع الحياة! ويدرك النقلة الضخمة التي نقلها الإسلام للقوم، والطهارة التي أسبغها على تصوراتهم وعلى حياتهم سواء. ومن هذه الأرجاس تلك الأدواء الخلقية والاجتماعية، التي كانت في الوقت ذاته من مفاخرهم في أشعارهم! ومن مفاخراتهم في أسواقهم! من الخمر إلى القمار إلى الثارات القبلية الصغيرة، التي تشغل اهتمامهم، فلا ترتفع على تلك التصورات المحلية المحدودة:

«هانت عليهم الحرب وإراقة الدماء حتى كانت تثيرها حادثة ليست بذات خطر. فقد وقعت الحرب بين بكر وتغلب ابني وائل، ومكثت أربعين سنة أريققت فيها دماء غزيرة، وما ذاك إلا أن كليبا رئيس معد، رمى ضرع ناقة البسوس بنت منقذ فاحتلط دمها بلبنها وقتل جساس بن مرة كليبا، واشتبتك الحرب بين بكر وتغلب. وكان كما قال المهلهل أخو كليب: «قد فني الحياة، وثكلت الأمهات، ويتم الأولاد. دموع لا ترقأ، وأجساد لا تدفن».

«وكذلك حرب داحس والغبراء. فما كان سببها إلا أن داحسا فرس قيس بن زهير، كان سابقا في رهان بين قيس بن زهير وحذيفة بن بدر، فعارضه أسدي بإيعاز من حذيفة، فلطم وجهه وشغله، ففاته الخيل.

وتلا ذلك قتل، ثم أخذ بالتأثر. ونصر القبائل لأبنائها، وأسر، ونزح للقبائل، وقتل في ذلك ألوف من الناس^{٥٢٦}.

وكان ذلك علامة فراغ الحياة من الاهتمامات الكبيرة، التي تشغلهم عن تفريغ الطاقة في هذه الملايسات الصغيرة. إذ لم تكن لهم رسالة للحياة، ولا فكرة للبشرية، ولا دور للإنسانية، يشغلهم عن هذا السفساف ..

^{٥٢٣} - كتاب الأصنام. (السيد رحمه الله)

^{٥٢٤} - كتاب الأصنام. (السيد رحمه الله)

^{٥٢٥} - طبقات الأمم لصاعد. (السيد رحمه الله)

^{٥٢٦} - كتاب: ماذا خسر العالم بالخطايا المسلمين ص ٣٤. (السيد رحمه الله)

ولم تكن هناك عقيدة تطهرهم من هذه الأرجاس الاجتماعية الذميمة .. وماذا يكون الناس من غير عقيدة إلهية؟

ماذا تكون اهتماماتهم؟ وماذا تكون تصوراتهم؟ وماذا تكون أخلاقهم؟

إن الجاهلية هي الجاهلية. ولكل جاهلية أرجاسها وأدناسها. لا يهم موقعها من الزمان والمكان. فحيثما حلت قلوب الناس من عقيدة إلهية تحكم تصوراتهم، ومن شريعة - منبثقة من هذه العقيدة - تحكم حياتهم، فلن تكون إلا الجاهلية في صورة من صورها الكثيرة .. والجاهلية التي تتمرغ البشرية اليوم في وحلها، لا تختلف في طبيعتها عن تلك الجاهلية العربية أو غيرها من الجاهليات التي عاصرتها في أنحاء الأرض، حتى أنقذها منها الإسلام وطهرها وزكاها.

إن البشرية اليوم تعيش في ماحور كبير! ونظرة إلى صحافتها وأفلامها ومعارض أزيائها. ومسابقات جمالها، ومراقصها، وحاناتها. وإذاعاتها. ونظرة إلى سعارها المجنون للحم العاري، والأوضاع المثيرة، والإليحاءات المريضة، في الأدب والفن وأجهزة الإعلام كلها .. إلى جانب نظامها الربوي، وما يكمن وراءه من سعار للمال، ووسائل خسيصة لجمعه وتثميده، وعمليات نصب واحتيال وابتزاز تلبس ثوب القانون^{٥٢٧} .. وإلى جانب التدهور الخلقي والانحلال الاجتماعي، الذي أصبح يهدد كل نفس وكل بيت، وكل نظام، وكل تجمع إنساني .. نظرة إلى هذا كله تكفي للحكم على المصير البائس الذي تدلف إليه البشرية في ظل هذه الجاهلية.

إن البشرية تتآكل إنسانيتها، وتحلل آدميتها، وهي تلهث وراء الحيوان، ومثيرات الحيوان، لتلحق بعالمه الهابط! والحيوان أنظف وأشرف وأطهر. لأنه محكوم بفطرة حازمة لا تتميع، ولا تأسن كما تأسن شهوات الإنسان حين ينفلت من رباط العقيدة، ومن نظام العقيدة، ويرتد إلى الجاهلية التي أنقذه الله منها، والتي يمتن الله على عباده المؤمنين بتطهيرهم منها في تلك الآية الكريمة: «وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» ..

وكان المخاطبون بهذه الآية أميين جهالا. أمية القلم، وأمية العقل سواء. وما كان لهم من المعرفة شيء ذو قيمة بالمقاييس العالمية للمعرفة، في أي باب من الأبواب. وما كان لهم في حياتهم من هموم كبيرة تنشئ معرفة ذات قيمة عالمية في أي باب من الأبواب. فإذا هذه الرسالة تحيلهم أساتذة الدنيا، وحكماء العالم، وأصحاب المنهج العقيدي والفكري والاجتماعي والتنظيمي، الذي ينقذ البشرية كلها من جاهليتها في ذلك الزمان. والذي يرتقب دوره في الجولة القادمة - بإذن الله - لإنقاذ البشرية مرة أخرى من جاهليتها الحديثة، التي تتمثل فيها كل خصائص الجاهلية القديمة من النواحي الأخلاقية

^{٥٢٧} - يراجع ما جاء عن الربا في الجزء الثالث من الظلال ص ٣١٨ - ٣٢٨ ويراجع كتاب: الربا للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان. (السيد رحمه الله)

والاجتماعية وتصور أهداف الحياة الإنسانية وغاياتها كذلك! على الرغم من فتوحات العلم المادي والإنتاج الصناعي، والرخاء الحضاري! «وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين».

ضلال في التصور والاعتقاد، وضلال في مفهومات الحياة، وضلال في الغاية والاتجاه، وضلال في العادات والسلوك. وضلال في الأنظمة والأوضاع، وضلال في المجتمع والأخلاق ..

والعرب الذين كانوا يخاطبون بهذه الآية كانوا يذكرون - ولا شك - ماضي حياتهم وأوضاعهم، ويعرفون طبيعة النقلة التي نقلهم إليها الإسلام، وما كانوا بباليغها بغير الإسلام وهي نقلة غير معهودة في تاريخ بني الإنسان.

كانوا يدركون أن الإسلام - والإسلام وحده - هو الذي نقلهم من طور القبيلة، واهتمامات القبيلة، وثارات القبيلة، لا ليكونوا أمة فحسب. ولكن ليكونوا - على حين فجأة ومن غير تمهيد يتدخل فيه الزمن - أمة تقود البشرية، وترسم لها مثلها، ومناهج حياتها، وأنظمتها كذلك، في صورة غير معهودة في تاريخ البشرية الطويل.

كانوا يدركون أن الإسلام - والإسلام وحده - هو الذي منحهم وجودهم القومي، ووجودهم السياسي ووجودهم الدولي .. وقبل كل شيء وأهم من كل شيء .. وجودهم الإنساني، الذي يرفع إنسانيتهم، ويكرم آدميتهم، ويقيم نظام حياتهم كله على أساس هذا التكرم، الذي جاءهم هدية ومنة من لدن ربهم الكريم.

والذي أفاضوه هم على البشرية كلها بعد ذلك، وعلموها كيف تحترم «الإنسان» وتكرمه بتكريم الله. غير مسبوقين في هذا، لا في الجزيرة العربية، ولا في أي مكان .. وفي الفتنة السابقة إلى «الشورى» طرف من هذا المنهج الإلهي، الذي كانوا يدركون فيه عظم المنة عليهم من الله.

وكانوا يدركون أن الإسلام - والإسلام وحده - هو الذي جعل لهم رسالة يقدمونها للعالم، ونظرية للحياة البشرية، ومذهبا مميذا للحياة الإنسانية .. والأمة لا توجد في الحقل الإنساني الكبير إلا برسالة ونظرية ومذهب، تقدمه للبشرية، لتدفع بالبشرية إلى الأمام.

وقد كان الإسلام، وتصوره للوجود، ورأيه في الحياة، وشريعته للمجتمع، وتنظيمه للحياة البشرية، ومنهجه المثالي الواقعي الإيجابي لإقامة نظام يسعد في ظله «الإنسان» .. كان الإسلام بخصائصه هذه هو «بطاقة الشخصية» التي تقدم بها العرب للعالم، فعرفهم، واحترمهم، وسلمهم القيادة.

وهم اليوم وغدا لا يحملون إلا هذه البطاقة. ليست لهم رسالة غيرها يتعرفون بها إلى العالم. وهم إما أن يحملوها فتعرفهم البشرية وتكرمهم وإما أن ينبذوها فيعودوا هملا - كما كانوا - لا يعرفهم أحد، ولا يعترف بهم أحد! وما الذي يقدمونه للبشرية حين لا يتقدمون إليها بهذه الرسالة؟

يقدمون لها عبقریات في الآداب والفنون والعلوم؟ لقد سبقتهم شعوب الأرض في هذه الحقول. والبشرية تغص بالعبقریات في هذه الحقول الفرعية للحياة. وليست في حاجة ولا في انتظار إلى

عبقريات من هناك في هذه الحقول الفرعية للحياة! يقدمون لها عبقریات في الإنتاج الصناعي المتفوق، تنحني له الجباه، ويغرقون به أسواقها، ويغطون به على ما عنده من إنتاج؟؟ لقد سبقتهم شعوب كثيرة، في يدها عجلة القيادة في هذا المضمار! يقدمون لها فلسفة مذهبية اجتماعية، ومناهج اقتصادية وتنظيمية من صنع أيديهم، ومن وحي أفكارهم البشرية؟ إن الأرض تعج بالفلسفات والمذاهب والمناهج الأرضية. وتشقى بما جميعا غاية الشقاء! ماذا إذن يقدمون للبشرية لتعرفهم به، وتعترف لهم بالسبق والتفوق والامتياز؟

لا شيء إلا هذه الرسالة الكبيرة. لا شيء إلا هذا المنهج الفريد. لا شيء إلا هذه المنة التي اختارهم الله لها، وأكرمهم بها، وأنقذ بها البشرية كلها على أيديهم ذات يوم. والبشرية اليوم أحوج ما تكون إليها، وهي تتردى في هاوية الشقاء والحيرة والقلق والإفلاس! إنها - وحدها - بطاقة الشخصية التي تقدموا بها قديما للبشرية، فأحنت لها هامتها. والتي يمكن أن يقدموها لها اليوم، فيكون فيها الخلاص والإنقاذ.

إن لكل أمة من الأمم الكبيرة رسالة. وأكبر أمة هي التي تحمل أكبر رسالة. وهي التي تقدم أكبر منهج. وهي التي تتفرد في الأرض بأرفع مذهب للحياة. والعرب يملكون هذه الرسالة - وهم فيها أصلاء، وغيرهم من الشعوب هم شركاء - فأبي شيطان يا ترى يصرفهم عن هذا الرصيد الضخم؟ أي شيطان؟! لقد كانت المنة الإلهية على هذه الأمة بهذا الرسول وبهذه الرسالة عظيمة عظيمة. وما يمكن أن يصرفها عن هذه المنة إلا شيطان.. وهي مكلفة من ربها بمطاردة الشيطان! ٥٢٨

٧٢ - بيان ثواب الشهادة في سبيل الله:

قال تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ} [البقرة: ١٥٤] يُخَبِّرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِفَضْلِ الشَّهَادَةِ وَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ الشُّهَدَاءَ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلَكِنَّ الْأَحْيَاءَ لَا يَشْعُرُونَ بِذَلِكَ، لِأَنَّ حَيَاتَهُمْ لَيْسَتْ فِي عَالَمِ الْحِسِّ الَّذِي يُدْرِكُ بِالْمَشَاعِرِ ٥٢٩.

إن هنالك قتلى سيخرون شهداء في معركة الحق. شهداء في سبيل الله. قتلى أعزاء أحباء. قتلى كراما أركياء - فالذين يخرجون في سبيل الله، والذين يضحون بأرواحهم في معركة الحق، هم عادة أكرم

٥٢٨ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٨١٢)

٥٢٩ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٦١، بترقيم الشاملة آليا)

القلوب وأزكى الأرواح وأطهر النفوس - هؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتا. إنهم أحياء. فلا يجوز أن يقال عنهم: أموات. لا يجوز أن يعتبروا أمواتا في الحس والشعور، ولا أن يقال عنهم أموات بالشفة واللسان. إنهم أحياء بشهادة الله سبحانه. فهم لا بد أحياء.

إنهم قتلوا في ظاهر الأمر، وحسبما ترى العين. ولكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لا تقررهما هذه النظرة السطحية الظاهرة.. إن سمة الحياة الأولى هي الفاعلية والنمو والامتداد. وسمة الموت الأولى هي السلبية والخمود والانقطاع.. وهؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله فاعليتهم في نصرته الحق الذي قتلوا من أجله فاعلية مؤثرة، والفكرة التي من أجلها قتلوا ترتوي بدمائهم وتمتد، وتأثر الباقيين وراءهم باستشهادهم يقوى ويمتد. فهم ما يزالون عنصرا فعالا دافعا مؤثرا في تكييف الحياة وتوجيهها، وهذه هي صفة الحياة الأولى. فهم أحياء أولا بهذا الاعتبار الواقعي في دنيا الناس. ثم هم أحياء عند ربهم - إما بهذا الاعتبار، وإما باعتبار آخر لا ندري نحن كنهه. وحسبنا إخبار الله تعالى به: «أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ».. لأن كنه هذه الحياة فوق إدراكنا البشري القاصر المحدود. ولكنهم أحياء.

أحياء. ومن ثم لا يغسلون كما يغسل الموتى، ويكفنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها. فإلغسل تطهير للحسد الميت وهم أطهار بما فيهم من حياة. وثيابهم في الأرض ثيابهم في القبر لأنهم بعد أحياء. أحياء. فلا يشق قتلهم على الأهل والأحباء والأصدقاء. أحياء يشاركون في حياة الأهل والأحباء والأصدقاء. أحياء فلا يصعب فراقهم على القلوب الباقية خلفهم، ولا يتعاضدها الأمر، ولا يهولنا عظم الفداء.

ثم هم بعد كونهم أحياء مكرمون عند الله، مأجورون أكرم الأجر وأوفاه: ففي صحيح مسلم عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) قَالَ أَمَّا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ «أَرْوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ أَطْلَاعَةً فَقَالَ هَلْ تَسْتَهْوُونَ شَيْئًا قَالُوا أَىَّ شَيْءٍ نَسْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يَتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرَكُّوا»..^{٥٣٠}

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - قَالَ « مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، إِلَّا الشَّهِيدُ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ، لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ »..^{٥٣١}

^{٥٣٠} - صحيح مسلم - المكثر - (٤٩٩٣)

^{٥٣١} - صحيح البخارى - المكثر - (٢٨١٧)

ولكن من هم هؤلاء الشهداء الأحياء؟ إنهم أولئك الذين يقتلون «في سبيل الله».. في سبيل الله وحده، دون شركة في شارة ولا هدف ولا غاية إلا الله. في سبيل هذا الحق الذي أنزله. في سبيل هذا المنهج الذي شرعه. في سبيل هذا الدين الذي اختاره.. في هذا السبيل وحده، لا في أي سبيل آخر، ولا تحت أي شعار آخر، ولا شركة مع هدف أو شعار. وفي هذا شدد القرآن وشدد الحديث، حتى ما تبقى في النفس شبهة أو خاطر.. غير الله..

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ - فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ أَحَدًا يُقَاتِلُ غَضَبًا، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً. فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ - قَالَ وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا - فَقَالَ « مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ »... (أخرجه الشيخان) ٥٣٢

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلُ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ يَتَغَيَّرُ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا أَجْرَ لَهُ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَعَادَ الرَّجُلُ، فَقَالَ: لَا أَجْرَ لَهُ ٥٣٣.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - « تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَصَدِيقًا بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَى ضَامِنٍ أَنْ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجَعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كَلِمَ لَوْثُهُ لَوْ أَنَّ دَمَ وَرِيحِهِ مِسْكٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا وَلَكِنْ لَا أَجْدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ » ٥٣٤.

فهؤلاء هم الشهداء. هؤلاء الذين يخرجون في سبيل الله، لا يخرجهم إلا جهاد في سبيله، وإيمان به، وتصديق برسله.

ولقد كره رسول الله ﷺ لفتي فارسي يجاهد أن يذكر فارسيته ويعتز بجنسيته في مجال الجهاد: فَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ - وَكَانَ مَوْلًى مِنْ أَهْلِ فَارِسَ - قَالَ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - أَحَدًا فَضَرَبْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَقُلْتُ خُذْهَا مِنِّي وَأَنَا الْعَلَامُ الْفَارِسِيُّ فَالْتَفَتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَقَالَ « فَهَلَا قُلْتُ خُذْهَا مِنِّي وَأَنَا الْعَلَامُ الْأَنْصَارِيُّ »... (أخرجه أبو داود) ٥٣٥.

٥٣٢ - صحيح البخاري - المكثر - (١٢٣) - وصحيح مسلم - المكثر - (٥٠٢٩)

٥٣٣ - المستدرک للحاکم (٣٤٠٤) صحيح

٥٣٤ - صحيح مسلم - المكثر - (٤٩٦٧) - الكلم: الجرح

٥٣٥ - سنن أبي داود - المكثر - (٥١٢٥) - حسن

فقد كره له ﷺ أن يفخر بصفة غير صفة النصر للنبي ﷺ، وأن يحارب تحت شارة إلا شارة النصر لهذا الدين.. وهذا هو الجهاد. وفيه وحده تكون الشهادة، وتكون الحياة للشهداء. ٥٣٦.

.....

وقال تعالى: { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) } سورة آل عمران

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الشُّهَدَاءِ بِأَنَّهُمْ قُتِلُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَلَكِنْ أَرْوَاهُمْ حَيَّةً تُرْزَقُ عِنْدَ اللَّهِ .
وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ: عَلَيْهِمْ أَلَّا يَتَحَدَّعُوا بِمَا يَقُولُهُ الْمُنَافِقُونَ، وَمَا يَفْعَلُونَهُ، فَهُمْ يُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، لَا رَيْبَ لَهُمْ فِي الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ فِي الْآخِرَةِ، فَالشُّهَدَاءُ أحيَاءٌ يُرْزَقُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ رِزْقًا حَسَنًا يَعْلَمُهُ هُوَ .

وَيَكُونُ الشُّهَدَاءُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَرِحِينَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْغَبْطَةِ، الَّتِي مِنَ اللَّهِ بِهَا عَلَيْهِمْ، مُسْتَبْشِرِينَ بِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ بَعْدَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَنَّهُمْ يَقْدُمُونَ عَلَيْهِمْ حِينَما يَسْتَشْهِدُونَ، لَا يَخَافُونَ مِمَّا أَمَامَهُمْ، وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا تَرَكُوهُ فِي الدُّنْيَا .

وَهُمْ مُسْتَبْشِرُونَ مِنْ تَلْقِيهِمْ مَا يُفِضُهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْفَضْلِ وَالْثَوَابِ، وَمِنْ يَقِينِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ . ٥٣٧.

لقد شاء الله بعد أن جلا في قلوب المؤمنين حقيقة القدر والأجل، وتحدى ما ييئه المنافقون من شكوك وبلبله وحسرات بقولهم عن القتلى: «لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا» فقال يتحداهم: «قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» ..

شاء الله بعد أن أراح القلوب المؤمنة على صدر هذه الحقيقة الثابتة .. أن يزيد هذه القلوب طمأنينة وراحة. فكشف لها عن مصير الشهداء: الذين قتلوا في سبيل الله - وليس هنالك شهداء إلا الذين يقتلون في سبيل الله خالصة قلوبهم لهذا المعنى، مجردة من كل ملابسة أخرى - فإذا هؤلاء الشهداء أحياء، لهم كل خصائص الأحياء. فهم «يُرْزَقُونَ» عند ربهم. وهم فرحون. بما آتاهم الله من فضله. وهم يستبشرون بمصائر من وراءهم من المؤمنين. وهم يحفلون بالأحداث التي تمر بمن خلفهم من إخوانهم .. فهذه خصائص الأحياء: من متاع واستبشار واهتمام وتأثر وتأثير. فما الحسرة على فراقهم؟ وهم أحياء موصولون بالأحياء وبالأحداث، فوق ما نالهم من فضل الله، وفوق ما لقوا عنده من الرزق والمكانة؟ وما هذه الفواصل التي يقيمها الناس في تصوراتهم بين الشهيد الحي ومن خلفه من إخوانه؟

٥٣٦ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٥٥)

٥٣٧ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٦٢، بترقيم الشاملة آليا)

والتي يقيمونها بين عالم الحياة وعالم ما بعد الحياة؟ ولا فواصل ولا حواجز بالقياس إلى المؤمنين، الذين يتعاملون هنا وهناك مع الله ..؟

إن جلاء هذه الحقيقة الكبيرة ذو قيمة ضخمة في تصور الأمور. إنها تعدّل - بل تنشئ إنشاء - تصور المسلم للحركة الكونية التي تتنوع معها صور الحياة وأوضاعها، وهي موصولة لا تنقطع فليس الموت خاتمة المطاف بل ليس حاجزا بين ما قبله وما بعده على الإطلاق! إنها نظرة جديدة لهذا الأمر، ذات آثار ضخمة في مشاعر المؤمنين، واستقبالهم للحياة والموت، وتصورهم لما هنا وما هناك.

«وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ» .. والآية نص في النهي عن حساب أن الذين قتلوا في سبيل الله، وفارقوا هذه الحياة، وبعدوا عن أعين الناس .. أموات .. ونص كذلك في إثبات أنهم «أَحْيَاءٌ» .. «عِنْدَ رَبِّهِمْ». ثم يلي هذا النهي وهذا الإثبات، وصف ما لهم من خصائص الحياة. فهم «يُرْزُقُونَ» ..

ومع أننا نحن - في هذه الفانية - لا نعرف نوع الحياة التي يحياها الشهداء، إلا ما يبلغنا من وصفها في الأحاديث الصحاح .. إلا أن هذا النص الصادق من العليم الخبير كفيل وحده بأن يغير مفاهيمنا للموت والحياة، وما بينهما من انفصال والتتام. وكفيل وحده بأن يعلمنا أن الأمور في حقيقتها ليست كما هي في ظواهرها التي ندركها وأنا حين ننشئ مفاهيمنا للحقائق المطلقة بالاستناد إلى الظواهر التي ندركها. لا ننتهي إلى إدراك حقيقي لها وأنه أولى لنا أن نتنظر البيان في شأنها ممن يملك البيان سبحانه وتعالى.

فهؤلاء ناس منا، يقتلون، وتفارقهم الحياة التي نعرف ظواهرها، ويفارقون الحياة كما تبدو لنا من ظاهرها. ولكن لأنهم: «قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وتجردوا له من كل الأعراض والأعراض الجزئية الصغيرة واتصلت أرواحهم بالله، فجادوا بأرواحهم في سبيله .. لأنهم قتلوا كذلك، فإن الله - سبحانه - يخبرنا في الخبر الصادق، أنهم ليسوا أمواتا. وينهانا أن نحسبهم كذلك، ويؤكد لنا أنهم أحياء عنده، وأنهم يرزقون. فيتلقون رزقه لهم استقبال الأحياء.

ويخبرنا كذلك بما لهم من خصائص الحياة الأخرى: «فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» .. فهم يستقبلون رزق الله بالفرح لأنهم يدركون أنه «مِنْ فَضْلِهِ» عليهم. فهو دليل رضاه وهم قد قتلوا في سبيل الله. فأى شيء يفرحهم إذن أكثر من رزقه الذي يتمثل فيه رضاه؟

ثم هم مشغولون بمن وراءهم من إخوانهم وهم مستبشرون لهم لما علموه من رضى الله عن المؤمنين المجاهدين: «وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ».

إنهم لم ينفصلوا من إخوانهم «بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ» ولم تنقطع بهم صلاتهم. إنهم «أَحْيَاءُ» كذلك معهم، مستبشرون بما لهم في الدنيا والآخرة. موضع استبشارهم لهم: «أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» ..

وقد عرفوا هذا واستيقنوه من حياتهم «عِنْدَ رَبِّهِمْ» ومن تلقيهم لما يفيضه عليهم من نعمة وفضل، ومن يقينهم بأن هذا شأن الله مع المؤمنين الصادقين. وأنه لا يضيع أجر المؤمنين ..

فما الذي يبقى من خصائص الحياة غير متحقق للشهداء - الذين قتلوا في سبيل الله؟ - وما الذي يفصلهم عن إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم؟ وما الذي يجعل هذه النقلة موضع حسرة وفقدان ووحشة في نفس الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم وهي أولى أن تكون موضع غبطة ورضى وأنس، عن هذه الرحلة إلى جوار الله، مع هذا الاتصال بالأحياء والحياة! إنها تعديل كامل لمفهوم الموت - متى كان في سبيل الله - وللمشاعر المصاحبة له في نفوس المجاهدين أنفسهم، وفي النفوس التي يخلفونها من ورائهم. وإفساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها، بحيث تتجاوز نطاق هذه العاجلة، كما تتجاوز مظاهر الحياة الزائلة. وحيث تستقر في مجال فسيح عريض، لا تعترضه الحواجز التي تقوم في أذهاننا وتصوراتنا عن هذه النقلة من صورة إلى صورة، ومن حياة إلى حياة!

ووفقا لهذا المفهوم الجديد الذي أقامته هذه الآية ونظائرها من القرآن الكريم في قلوب المسلمين، سارت خطى المجاهدين الكرام في طلب الشهادة - في سبيل الله^{٥٣٨}.

.....

وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^{٥٣٩}

وفي سنن الترمذي عَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرَبَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتٌّ خِصَالٍ: يُعْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ

^{٥٣٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٨٢٨)

^{٥٣٩} -

صحيح البخاري (٤/١٦) (٢٧٩٠)

[ش (الفردوس) هو البستان الذي يجمع ما في البساتين كلها من شجر وزهر ونبات. (أوسط الجنة) أفضلها وخيرها. (أراه) أظنه وهذا من كلام يحيى بن صالح شيخ البخاري أي أظنه قال (فوقه). (تفجر) تنشق]

الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه.^{٥٤٠}

٧٣ - أخذ الحيطة والحذر من المنافقين والمثبطين:

قال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً (٧١) وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أئتم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً (٧٢) ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً (٧٣) } [النساء: ٧١ - ٧٣]

يأمر الله تعالى المؤمنين بأخذ الحذر من الأعداء، وهذا يستلزم التعرف على أحوال هؤلاء الأعداء، ومعرفة أرضهم، وعددهم، وسلاحهم، وأحلافهم، وثوراتهم، كما يستلزم التأهب لهم، وإعداد الرجال للحرب وتدريبهم وتسليحهم، وجمع السلاح والمؤن ووسائل النقل والركوب، والاستعداد للتفريق للقتال، حينما يدعوا داعي الجهاد، والخروج جماعات متلاحقة (ثبات)، أو خروج المؤمنين كلهم جميعاً، حسب حال العدو، وخطره وقوته، والخطر الذي يتهدد الأمة .

ومن الناس (ومنهم المنافقون وأجبناء وضعاف الإيمان) من يتأخر عن الخروج إلى الجهاد، ويتباطأ، ومنهم من يقعد عن الجهاد، ويثبت الناس عن الخروج، فإن أصابت المؤمنين مصيبة من قتل وشهادة، أو تغلب عدو على المؤمنين، فرح وعد تخلفه عن الجهاد نعمة، إذ أنجاه تخلفه من المصاب الذي حل بالمسلمين، ولم يدر ما فاته من الأجر في الصبر على الشدة، والشهادة إن قتل .

وإذا أصاب المسلمون نصراً، وحققوا ظفراً، وفازوا بمعنهم، (فضل من الله)، اغتم ألا يكون مع المؤمنين، فيصيبه سهم من الغنime . والغنime هي أكبر همهم، ويقول، وكأنه ليس من أهل الإسلام: يا ليتني كنت معهم فأفوز كما فازوا، فهو قد نسي ما يجب عليه، من مد يد العون لإخوته المؤمنين، وبذل كل ما يستطيع بذله من نفس ومال، ليتهم لهم الظفر .^{٥٤١}

إنها الوصية للذين آمنوا: الوصية من القيادة العليا، التي ترسم لهم المنهج، وتبين لهم الطريق. وإن الإنسان ليعجب، وهو يراجع القرآن الكريم فيجد هذا الكتاب يرسم للمسلمين - بصفة عامة طبعاً - الخطة العامة للمعركة وهي ما يعرف باسم «استراتيجية المعركة». ففي الآية الأخرى يقول للذين آمنوا: «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجِدُوا فيكم غلظة». فيرسم الخطة العامة للحركة

^{٥٤٠} - سنن الترمذي ت بشار (٣/ ٢٣٩) (١٦٦٣) صحيح

^{٥٤١} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٦٤، بترقيم الشاملة آليا)

الإسلامية. وفي هذه الآية يقول للذين آمنوا: «خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا» وهي تبين ناحية من الخطة التنفيذية أو ما يسمى «التاكتيك». وفي سورة الأنفال جوانب كذلك في الآيات: «فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ... الآيات».

وهكذا نجد هذا الكتاب لا يعلم المسلمون العبادات والشعائر فحسب ولا يعلمهم الآداب والأخلاق فحسب - كما يتصور الناس الدين ذلك التصور المسكين! إنما هو يأخذ حياتهم كلها جملة. ويعرض لكل ما تتعرض له حياة الناس من ملابس واقعية.. ومن ثم يطلب - بحق - الوصاية التامة على الحياة البشرية ولا يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم، أقل من أن تكون حياته بجملتها من صنع هذا المنهج، وتحت تصرفه وتوجيهه. وعلى وجه التحديد لا يقبل من الفرد المسلم، ولا من المجتمع المسلم أن يجعل لحياته مناهج متعددة المصادر: منهجاً للحياة الشخصية، وللشعائر والعبادات، والأخلاق والآداب، مستمداً من كتاب الله. ومنهجاً للمعاملات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدولية، مستمداً من كتاب أحد آخر أو من تفكير بشري على الإطلاق!

إن مهمة التفكير البشري أن تستنبط من كتاب الله منهجه أحكاماً تفصيلية تطبيقية لأحداث الحياة المتجددة، وأقضيتها المتطورة - بالطريقة التي رسمها الله في الدرس السابق من هذه السورة - ولا شيء وراء ذلك. وإلا فلا إيمان أصلاً ولا إسلام. لا إيمان ابتداءً ولا إسلام، لأن الذين يفعلون ذلك لم يدخلوا بعد في الإيمان، ولم يعترفوا بعد بأركان الإسلام. وفي أولها: شهادة أن لا إله إلا الله، التي ينشأ منها أن لا حاكم إلا الله، وأن لا مشرع إلا الله.

وها هو ذا كتاب الله يرسم للمسلمين جانباً من الخطة التنفيذية للمعركة المناسبة لموقفهم حينذاك. ولو جودهم بين العداوات الكثيرة في الخارج. والمنافقين وحلفائهم اليهود في الداخل. وهو يحذرهم ابتداءً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ».. خذوا حذرهم من عدوكم جميعاً. وبخاصة المندسين في الصفوف من المبطلين، الذين سيرد ذكرهم في الآية: «فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا».. ثبات. جميعاً ثبة: أي مجموعة.. والمقصود لا تخرجوا للجهاد فرادى. ولكن اخرجوا مجموعات صغيرة، أو الجيش كله.. حسب طبيعة المعركة.. ذلك أن الأحاد قد يتصيدهم الأعداء، المبثوثون في كل مكان. وبخاصة إذا كان هؤلاء الأعداء منبئين في قلب المعسكر الإسلامي.. وهم كانوا كذلك، ممثلين في المنافقين، وفي اليهود، في قلب المدينة.

«وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبَطِّلَنَّ. فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قُلْنَا اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً. وَلَكِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ - كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ - يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً»..

انفروا جماعات نظامية. أو انفروا جميعاً. ولا ينفر بعضكم ويتناقل بعضكم - كما هو واقع - وخذوا حذرهم. لا من العدو الخارجي وحده ولكن كذلك من المعوقين المبطلين المخذلين سواء كانوا يبطئون

أنفسهم - أي يقعدون متثاقلين - أو يبطئون غيرهم معهم وهو الذي يقع عادة من المخدّلين المثبطين! ولفظة «ليبطئن» مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر وإن اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها، حتى يأتي على آخرها، وهو يشدها شداً وإثماً لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويراً كاملاً بهذا التعثر والتثاقل في جرسها. وذلك من بدائع التصوير الفني في القرآن، الذي يرسم حالة كاملة بلفظة واحدة^{٥٤٢}.

وكذلك يشي تركيب الجملة كلها: «وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ»، بأن هؤلاء المبطينين - وهم معدودون من المسلمين - «منكم» يزاولون عملية التبطئة كاملة، ويصرون عليها إصراراً، ويجتهدون فيها اجتهداً.. وذلك بأسلوب التوكيد بشئ المؤكّدات في الجملة! مما يوحي بشدة إصرار هذه المجموعة على التبطئة، وشدة أثرها في الصف المسلم وشدة ما يلقاه منها! ومن ثمّ يسלט السياق الأضواء الكاشفة عليهم، وعلى دخيلة نفوسهم ويرسم حقيقتهم المنفرة، على طريقة القرآن التصويرية العجيبة: فيها هم أولاء، بكل بواعثهم، وبكل طبيعتهم وبكل أعمالهم وأقوالهم.. هاهم أولاء مكشوفين للأعين، كما لو كانوا قد وضعوا تحت مجهر، يكشف النوايا والسرائر ويكشف البواعث والدوافع. هاهم أولاء - كما كانوا على عهد الرسول - ﷺ - وكما يكونون في كل زمان وكل مكان. هاهم أولاء. ضعافا منافقين ملتوين صغار الاهتمامات أيضاً: لا يعرفون غاية أعلى من صالحهم الشخصي المباشر، ولا أفقا أعلى من ذواتهم المحدودة الصغيرة. فهم يديرون الدنيا كلها على محور واحد. وهم هم هذا المحور الذي لا ينسونه لحظة! إنهم يبطئون ويتلكأون، ولا يصارحون، ليمسكوا العصا من وسطها كما يقال! وتصورهم للربح والخسارة هو التصور الذي يليق بالمنافقين الضعاف الصغار:

يتخلفون عن المعركة.. فإن أصابت المجاهدين محنة، وابتلوا الابتلاء الذي يصيب المجاهدين - في بعض الأحيان - فرح المتخلفون وحسبوا أن فرارهم من الجهاد، ونجاتهم من الابتلاء نعمة: «فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا: قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا»..

إنهم لا يخجلون - وهم يعدون هذه النجاة مع التخلف نعمة - أن ينسبوا لله. الله الذي خالفوا عن أمره فقعدوا! والنجاة في هذه الملابسة لا تكون من نعمة الله أبداً. فنعمة الله لا تنال بالمخالفة. ولو كان ظاهرها نجاة! إنها نعمة! ولكن عند الذين لا يتعاملون مع الله. عند من لا يدركون لماذا خلقهم الله. ولا يعبدون الله بالطاعة والجهاد لتحقيق منهجه في الحياة. نعمة عند من لا يتطلعون إلى آفاق أعلى من مواطن الأقدام في هذه الأرض.. كالنمل.. نعمة عند من لا يحسون أن البلاء - في سبيل الله وفي الجهاد لتحقيق منهج الله وإعلاء كلمة الله - هو فضل واختيار من الله، يختص به من يشاء من عباده ليرفعهم في الحياة الدنيا على ضعفهم البشري، ويطلقهم من إसार الأرض يستشرفون حياة

^{٥٤٢} - يراجع فصل «التناسق الفني» في كتاب: «التصوير الفني في القرآن». «دار الشروق» (السيد رحمه الله)

رفيعة، يملكونها ولا تملكهم. وليؤهلهم بهذا الانطلاق وذلك الارتفاع للقرب منه في الآخرة.. في منازل الشهداء

إن الناس كلهم يموتون! ولكن الشهداء - في سبيل الله - هم وحدهم الذين «يستشهدون».. وهذا فضل من الله عظيم.

فأما إذا كانت الأخرى.. فانتصر المجاهدون الذين خرجوا مستعدين لقبول كل ما يأتيهم به الله.. وناهم فضل من الله بالنصر والغنيمة.. ندم المتخلفون أن لم يكونوا شركاء في معركة راجحة! راجحة بحسب مفهومهم القريب الصغير للريح والخسارة!

«وَلَيْتَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ، لَيَقُولَنَّ - كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ - يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا». إنها أمنية الفوز الصغير بالغنيمة والإياب، هي التي يقولون عنها: «فوزا عظيما» والمؤمن لا يكره الفوز بالإياب والغنيمة بل مطلوب منه أن يرجوه من الله. والمؤمن لا يتمنى وقوع البلاء بل مطلوب منه أن يسأل الله العافية.. ولكن التصور الكلي للمؤمن غير هذا التصور، الذي يرسمه التعبير القرآني لهذه الفئة رسما مستنكرا منفرا..

إن المؤمن لا يتمنى البلاء بل يسأل الله العافية. ولكنه إذا ندب للجهاد خرج - غير متناقل - خرج يسأل الله إحدى الحسينين: النصر أو الشهادة.. وكلاهما فضل من الله وكلاهما فوز عظيم. فيقسم له الله الشهادة، فإذا هو راض بما قسم الله أو فرح بمقام الشهادة عند الله. ويقسم له الله الغنيمة والإياب، فيشكر الله على فضله، ويفرح بنصر الله. لا لمجرد النجاة! وهذا هو الأفق الذي أراد الله أن يرفع المسلمين إليه وهو يرسم لهم هذه الصورة المنفرة لذلك الفريق «منهم» وهو يكشف لهم عن المندسين في الصف من المعوقين، ليأخذوا منهم حذرهم كما يأخذون حذرهم من أعدائهم! ومن وراء التحذير والاستنهاض للجماعة المسلمة في ذلك الزمان، يرسم نموذج إنساني متكرر في بني الإنسان، في كل زمان ومكان، في هذه الكلمات المعدودة من كلمات القرآن! ثم تبقى هذه الحقيقة تتعلاها الجماعة المسلمة أبدا. وهي أن الصف قد يوجد فيه أمثال هؤلاء. فلا يئس من نفسه. ولكن يأخذ حذرهم ويمضي. ويحاول بالتربية والتوجيه والجهاد، أن يكمل النقص، ويعالج الضعف، وينسق الخطى والمشاعر والحركات! ^{٥٤٣}

٧٤ - عدم موالاة الكفار والفجار

^{٥٤٣} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٠٥٤)

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨) } [المائدة]

يُنْفِرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مُوَالَاةِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمِنَ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ الْمُطَهَّرَةِ، هُزُوءًا يَسْتَهْزِئُونَ بِهَا، وَيَعْدُونَهَا نَوْعًا مِنَ اللَّعِبِ، وَيَتَمَتَّعُونَ بِزَوَالِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَيَأْمُرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ، وَبِالْأَلَّا يَتَّخِذُوا هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ أَوْلِيَاءَ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِشَرْعِ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا .

وهؤلاء الأعداء يسخرُونَ مِنَ الْأَذَانِ، وَمِنَ الصَّلَاةِ، وَمِنَ الْعِبَادَةِ، وَيَتَّخِذُونَهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا وَسُخْرِيَةً، لِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ مَعْنَى الْعِبَادَةِ، وَلَا مَعْنَى شَرْعِ اللَّهِ، وَالصَّلَاةِ أَكْرَمُ شَيْءٍ وَأَفْضَلُهُ لِمَنْ يَعْقِلُ وَيَعْلَمُ^{٥٤٤}

لقد سلك المنهج القرآني في هذا السياق طرقاً متنوعة، لنهي الذين آمنوا عن تولي المخالفين لهم في عقيدتهم من أهل الكتاب والمشركون، ولتقرير هذه القاعدة الإيمانية في ضمائرهم وإحساسهم وعقولهم. مما يدل على أهمية هذه القاعدة في التصور الإسلامي وفي الحركة الإسلامية على السواء ..

وقد رأينا من قبل أنه سلك في النداء الأول طريق النهي المباشر، وطريق التخويف من أن يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده، فينكشف ستر المنافقين .. وسلك في النداء الثاني طريق التحذير من الردة بموالاتة أعداء الله ورسوله والمؤمنين وطريق التحبيب في أن يكونوا من العصبة المختارة. ممن يحبهم الله ويجبونه وطريق الوعد بالنصر لحزب الله الغالب ..

فالآن نجد في النداء الثالث في هذا الدرس للذين آمنوا يثير في نفوسهم الحمية لدينهم ولعبادتهم ولصلاهم التي يتخذها أعداؤهم هزوا ولعبا. ونجده يسوي في النهي عن الموالاتة بين أهل الكتاب والكفار، وينوط هذا النهي بتقوى الله ويعلق على الاستماع إليه صفة الإيمان ويقبح فعلة الكفار وأهل الكتاب ويصفهم بأنهم لا يعقلون: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا - مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ - أَوْلِيَاءَ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ» ..

وهي ملازمة مثيرة لكل من له حمية المؤمن الذي لا يرى لنفسه كرامة إذا أهين دينه، وأهينت عبادته، وأهينت صلاته، واتخذ موقفه بين يدي ربه مادة للهزاء واللعب .. فكيف يقوم ولاء بين الذين آمنوا وبين أحد من هؤلاء الذين يرتكبون هذه الفعلة ويرتكبونها لنقص في عقولهم. فما يستهزئ بدين الله وعبادة المؤمنين به، إنسان سوي العقل فالعقل - حين يصح ويستقيم - يرى في كل شيء من حوله موحيات الإيمان بالله.

^{٥٤٤} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٢٧، بترقيم الشاملة آليا)

وحين يحتل وينحرف لا يرى هذه الموحيات، لأنه حينئذ تفسد العلاقات بينه وبين هذا الوجود كله. فالوجود كله يوحى بأن له إلهما يستحق العبادة والتعظيم. والعقل حين يصح ويستقيم يستشعر جمال العبادة لإله الكون وجلالها كذلك، فلا يتخذها هزوا ولعبا وهو صحيح مستقيم.

ولقد كان هذا الاستهزاء واللعب يقع من الكفار، كما كان يقع من اليهود خاصة من أهل الكتاب، في الفترة التي كان هذا القرآن يتزل فيها على قلب رسول الله - ﷺ - للجماعة المسلمة في ذلك الحين. ولم نعرف من السيرة أن هذا كان يقع من النصارى.. ولكن الله - سبحانه - كان يضع للجماعة المسلمة قاعدة تصورها ومنهجها وحياتها الدائمة. وكان الله - سبحانه - يعلم ما سيكون على مدار الزمان مع أجيال المسلمين. وها نحن أولاء رأينا ونرى أن أعداء هذا الدين وأعداء الجماعة المسلمة على مدار التاريخ أمس واليوم من الذين قالوا: إنهم نصارى كانوا أكثر عددا من اليهود ومن الكفار مجتمعين! فهؤلاء - كهؤلاء - قد ناصبوا الإسلام العداء، وترصدوه القرون تلو القرون، وحاربوه حربا لا هوادة فيها منذ أن اصطدم الإسلام بالدولة الرومانية على عهد أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - حتى كانت الحروب الصليبية ثم كانت «المسألة الشرقية» التي تكتلت فيها الدول الصليبية في أرجاء الأرض للإجهاد على الخلافة ثم كان الاستعمار الذي يخفي الصليبية بين أضلاعها فتبدو في فلتات لسانه ثم كان التبشير الذي مهد للاستعمار وسانده، ثم كانت وما تزال تلك الحرب المشبوبة على كل طلائع البعث الإسلامي في أي مكان في الأرض.. وكلها حملات يشترك فيها اليهود والنصارى والكفار والوثنيون..

وهذا القرآن جاء ليكون كتاب الأمة المسلمة في حياتها إلى يوم القيامة. الكتاب الذي يبني تصورها الاعتقادي، كما يبني نظامها الاجتماعي، كما يبني خطتها الحركية.. سواء.. وها هو ذا يعلمها ألا يكون ولاؤها إلا لله ولرسوله وللمؤمنين وينهاها أن يكون ولاؤها لليهود والنصارى والكافرين. ويجزم ذلك الجزم الحاسم في هذه القضية، ويعرضها هذا العرض المنوع الأساليب.

إن هذا الدين يأمر أهله بالسماحة، وبحسن معاملة أهل الكتاب والذين قالوا: إنهم نصارى منهم خاصة ولكنه ينهاهم عن الولاء لهؤلاء جميعا.. لأن السماحة وحسن المعاملة مسألة خلق وسلوك. أما الولاء فمسألة عقيدة ومسألة تنظيم. إن الولاء هو النصر. هو التناصر بين فريق وفريق ولا تناصر بين المسلمين وأهل الكتاب - كما هو الشأن في الكفار - لأن التناصر في حياة المسلم هو - كما أسلفنا - تناصر في الدين وفي الجهاد لإقامة منهجه ونظامه في حياة الناس فقيم يكون التناصر في هذا بين المسلم وغير المسلم. وكيف يكون؟!!

إنها قضية جازمة حاسمة لا تقبل التميع، ولا يقبل الله فيها إلا الجد الصارم الجد الذي يليق بالمسلم في شأن الدين ..^{٥٤٥}

٧٥ - أن يستحضروا فضل الله تعالى عليهم:

قال تعالى: { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) } سورة الأنفال يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى لِلنَّاسِ أَنَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، وَأَنَّهُ الْحَمُودُ عَلَى جَمِيعِ مَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ. وَيَقُولُ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ: إِنَّكُمْ لَمْ تَقْتُلُوا الْكُفَّارَ يَوْمَ بَدْرٍ بِحَوْلِكُمْ وَقُوَّتِكُمْ، بَلِ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَظْفَرَكُمْ بِهِمْ، وَأَظْهَرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ الَّذِي قَتَلَهُمْ بِأَيْدِيكُمْ. وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ قَبْلَ بَدْءِ الْمَعْرَكَةِ قَدْ أَخَذَ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ فَرَمَى بِهَا فِي وُجُوهِ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْهَا فِي عَيْنِهِ أَوْ فِي حَلْقِهِ أَوْ فِي مَنْخَرِهِ.. فَكَانَتْ مِمَّا سَاعَدَ عَلَى إِلْقَاءِ الذُّعْرِ فِي نَفُوسِ قُرَيْشٍ وَخَذْلَانِهِمْ. وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ قَوْلَهُ: { وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى }، فَالرَّمِيَةُ لَمْ تَكُنْ لِنَبْلِ قُرَيْشٍ لَوْلَا إِرَادَةُ اللَّهِ. وَقَدْ فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَخْتَبِرَ الْمُؤْمِنِينَ الْقَلِيلِيَّ الْعَدَدِ بِإِظْهَارِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، الَّذِي يَفُوقُهُمْ عَدَدًا وَعُدَّةً، اخْتِبَارًا حَسَنًا، وَلِيَعْرِفُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلِيَشْكُرُوهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ لاسْتِغَاثَةِ الرَّسُولِ، عَلَيْهِمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ^{٥٤٦}.

هو إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى هو الذي مكن للمسلمين يومئذ من عدوهم، وأن يد الله هي التي ضربتهم تلك الضربة القاضية، وأن المسلمين لم يكونوا إلا أسبابا ظاهرة، أجرى الله على أيديهم ما أخذ به عدوهم من بلاء في هذه المعركة.. وكذلك ما فعله النبي يومئذ حين قبض قبضة من تراب فرمى بها في وجه الكافرين، داعيا الله سبحانه أن يعصم أبصارهم، ويطمس على قلوبهم، ويأخذ على أيديهم.. فإن ذلك الذي كان من النبي لم يكن ليحدث أثره، إلا لأن الله سبحانه هو الذي جعل لهذه الرمية تأثيرها وأثرها..

وإذن فإن فوق يد المسلمين كانت يد الله.. وفوق يد النبي كانت يد الله.. وإذن فلا يحسب المسلمون أنهم بغير هذا المدد السماوي قد غلبوا عدوهم وقهروه، ولا يحسب النبي أنه برميته تلك التي رمى بها في وجوه المشركين قد فتح للمسلمين طريق النصر، لولا أن يد الله تقبلت رميته وباركتها.. وفي هذا وذلك ما يشعر بأن الله سبحانه مع نبيه ومع المجاهدين معه. وإذا كان الله سبحانه هو الذي مكن

^{٥٤٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٣١٧)

^{٥٤٦} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١٧٨، بترقيم الشاملة آليا)

للمسلمين من عدوهم، ومنحهم هذا النصر، فما ذلك إلا «لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا» حيث أعطاهم أجر هذا العمل العظيم، الذي هو في حقيقة الأمر لم يكن لهم يد فيه، فلو جرت الأمور على ظاهرها لكانت الدائرة عليهم، وكان القتل والبلاء فيهم.. فليذكروا هذا، وليتزودوا منه يزداد الإيمان بالله، وعقد العزم على الجهاد في سبيله..

«وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» (٤٠: الحج) .

وفي وصف البلاء بأنه حسن إشارة إلى الوجه الآخر من وجوه الابتلاء وأنه قد يكون غير حسن كما يقول الله: «وَنَبَلُّوكُمُ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً» (٣٥: الأنبياء) .

فقد عافى الله المؤمنين من أن يبلوا بالقتل، وأن يمتحنوا بالأسر، فذلك مما يتلى الله به المؤمنين، ويجزيهم عليه.. ولكن رحمة الله بالمؤمنين في هذا الموقف الذي يلقون فيه الشرك لأول مرة، وينتصرون فيه لأنفسهم - جعلت الابتلاء بالخير دون الشر، وبالعافية دون البلاء.. فظفروا وانتصروا، وسلموا، وغنموا.. ورجعوا بالحسينيين جميعا.. المغانم في الدنيا، والجنة ونعيمها في الآخرة.

وقوله تعالى: «ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ». الإشارة هنا إلى ما لله سبحانه وتعالى من رعاية لأوليائه، وتمكين لهم من أعدائهم.. فأولياؤه، المجاهدون في سبيله، هم أبدا محفوفون بنصره وتأييده، وأن ما يكيده الكافرون لهم لا يصل إليهم، إلا واهيا، ضعيفا، متخاذلا..^{٥٤٧}

وقال تعالى: { وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) } [الأنفال: ٢٦]

يُنَبِّئُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ الْوَفِيرَةِ، فَقَدْ كَانُوا قَلِيلًا عَدَدًا، مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ، يَعْتَدِي عَلَيْهِمُ النَّاسُ، خَائِفِينَ مِنْ مُجْرِمِي قُرَيْشٍ، فَقَوَّاهُمْ وَأَوَاهُمْ، وَنَصَرَهُمْ وَرَزَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَكُلُّ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ تَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ أَنْ يَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا، فَاللَّهُ تَعَالَى مُنْعِمٌ يُحِبُّ الشُّكْرَ مِنْ عِبَادِهِ.^{٥٤٨}

اذكروا هذا لتستيقنوا أن الرسول يدعوكم لما يحييكم واذكروه كي لا تقعدوا عن مكافحة الظلم في كل صوره وأشكاله.. اذكروا أيام الضعف والخوف، قبل أن يوجهكم الله إلى قتال المشركين، وقبل أن يدعوكم الرسول إلى الطائفة ذات الشوكة وأنتم كارهون.. ثم انظروا كيف صرتم بعد الدعوة المحيية التي انقلبتم بها أعزاء منصورين مأجورين مرزوقين. يرزقكم الله من الطيبات ليؤهلكم لشكره فتؤجروا على شكركم لفضله! ويرسم التعبير مشهدا حيا للقلّة والضعف والقلق والخوف: «تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ»..

^{٥٤٧} - التفسير القرآني للقرآن (٥ / ٥٨١)

^{٥٤٨} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١٨٧، بترقيم الشاملة آليا)

وهو مشهد التربص الوجل، والترقب الفزع، حتى لتكاد العين تبصر بالسلمات الخائفة، والحركات المفزعة، والعيون الزائغة.. والأيدي تمتد للتخطف والقللة المسلمة في ارتقاب وتوجس! ومن هذا المشهد المفزع إلى الأمن والقوة والنصر والرزق الطيب والمتاع الكريم، في ظل الله الذي آواهم إلى حماه: «فَاوَاكُمُ، وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ، وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ» .. وفي ظل توجيه الله لهم ليشكروا فيؤجروا: «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» ..

فمن ذا الذي يتأمل هذه النقلة البعيدة، ثم لا يستجيب لصوت الحياة الآمنة القوية الغنية.. صوت الرسول الأمين الكريم.. ثم من ذا الذي لا يشكر الله على إيوائه ونصره وآلائه وهذا المشهد وذلك معروضان عليه، ولكل منهما إيقاعه وإيحاه؟

على أن القوم إنما كانوا يعيشون هذا المشهد وذاك.. كانوا يذكرون بما يعرفون من حالهم في ماضيهم وحاضرهم.. ومن ثم كان لهذا القرآن في حسهم ذلك المذاق ..

والعصبة المسلمة التي تجاهد اليوم لإعادة إنشاء هذا الدين في واقع الأرض وفي حياة الناس قد لا تكون قد مرت بالمرحلتين، ولا تذوقت المذاقين.. ولكن هذا القرآن يهتف لها بهذه الحقيقة كذلك. ولئن كانت اليوم إنما تعيش في قوله تعالى: «إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ».. فأولى لها أن تستجيب لدعوة الحياة التي يدعوها إليها رسول الله وأن تترقب في يقين وثقة، موعود الله للعصبة المسلمة، موعوده الذي حققه للعصبة الأولى، ووعد بتحقيقه لكل عصبة تستقيم على طريقه، وتصبر على تكاليفه.. وأن تنتظر قوله تعالى: «فَاوَاكُمُ وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ، وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». وهي إنما تتعامل مع وعد الله الصادق - لا مع ظواهر الواقع الخادع - ووعد الله هو واقع العصبة المسلمة الذي يرجح كل واقع! ^{٥٤٩}

٧٦ - أن يكون القرآن الكريم مصدر التوجيه للحياة:

قال تعالى: {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنفال: ٣١]

حينما كان الرسول ﷺ يتلو القرآن على كفار قريش كانوا يقولون: قد سمعنا، لو نشاء لقلنا مثله. ولكن أحدا منهم لم يستطع قول شيء منه، لأن الله تعالى تحداهم أكثر من مرة أن يأتوا بسورة من مثله. وكان الرسول ﷺ بعد أن يقوم به مجلسه الذي يقرأ فيه القرآن، ويدعو الناس إلى ربهم، يأتي

^{٥٤٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٣٢)

النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ فَيَجْلِسُ مَكَانَ الرَّسُولِ، وَيُحَدِّثُ النَّاسَ بِأَسَاطِيرِ فَارِسَ وَالرُّومِ وَقَصَصِهِمْ الْقَدِيمَةِ، وَيَقُولُ لَهُمْ: بِاللَّهِ أَتَيْنَا أَحْسَنَ قِصَصًا أَنَا أَوْ مُحَمَّدٌ؟^{٥٥٠}

ذكر ابن كثير في التفسير^{٥٥١} - وقد قيل: إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث - لعنه الله - كما قد نص على ذلك سعيد بن جبيرة، والسددي، وابن جريج وغيرهم؛ فإنه - لعنه الله - كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان إذا قام ﷺ من مجلس، جلس فيه النضر فيحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أيهما أحسن قصصاً؟ أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى، أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبراً بين يديه، ففعل ذلك، والله الحمد. وكان الذي أسره المقداد بن الأسود، رضي الله عنه، كما روى ابن جرير: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قَتَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا عَقَبَةً بَنَ أَبِي مُعَيْطٍ، وَطُعَيْمَةَ بِنَ عَدِيٍّ، وَالنَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ؛ وَكَانَ الْمَقْدَادُ أَسَرَ النَّضْرَ، فَلَمَّا أُمِرَ بِقَتْلِهِ قَالَ الْمَقْدَادُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسِيرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَأِنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا يَقُولُ". فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَتْلِهِ. فَقَالَ الْمَقْدَادُ: أَسِيرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اللَّهُمَّ اغْنِ الْمَقْدَادَ مِنْ فَضْلِكَ" فَقَالَ الْمَقْدَادُ: هَذَا الَّذِي أَرَدْتُ. وَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا آيَةً^{٥٥٢} ..

ولقد تكررت في القرآن حكاية قول المشركين عن القرآن: إنه أساطير الأولين: «وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً» ..

وما كان هذا القول إلا حلقة من سلسلة المناورات التي كانوا يحاولون أن يقفوا بها في وجهه هذا القرآن، وهو يخاطب الفطرة البشرية بالحق الذي تعرفه في أعماقها فتتهز وتستجيب ويواجه القلوب بسلطانه القاهر فترتجف لإيقاعه ولا تتماسك. وهنا كان يلجأ العلية من قريش إلى مثل هذه المناورات. وهم يعلمون أنها مناورات! ولكنهم كانوا يبحثون في القرآن عن شيء يشبه الأساطير المعهودة في أساطير الأمم من حولهم ليموهوا به على جماهير العرب، الذين من أجلهم تطلق هذه المناورات، للاحتفاظ بهم في حظيرة العبودية للعبيد! لقد كان الملاء من قريش يعرفون طبيعة هذه

^{٥٥٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٩٢)، بترقيم الشاملة آليا

^{٥٥١} - تفسير ابن كثير - دار طيبة [٤/ ٤٦]

^{٥٥٢} - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبْرِيِّ << سُورَةُ الْأَنْفَالِ >> الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا

<< (١٤٦٦٦) صحيح مرسل

قَالَ النَّبِيُّ: وَكَانَ هُشَيْمٌ يُعَلِّطُ فِيهِ، إِنَّمَا هُوَ طُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيٍّ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: هَكَذَا حَدِيثُ هُشَيْمٍ، وَأَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْمَعَارِي، فَيُنْكِرُونَ مَقْتَلَ مُطْعِمٍ يَوْمَئِذٍ، يَقُولُونَ: مَاتَ بِمَكَّةَ مَوْتًا قَبْلَ بَدْرٍ، وَإِنَّمَا قُتِلَ أَخُوهُ طُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيٍّ، وَلَمْ يُقْتَلْ صَبْرًا، قُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ. وَمِمَّا يُصَدِّقُ قَوْلَهُمُ الْحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ عَنِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَجُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ حِينَ كَلَّمَهُ فِي الْأَسَارَى: "شَيْخٌ لَوْ كَانَ أَتَانَا شَفَعَانَا" يَعْنِي أَبَاهُ مُطْعِمَ بْنَ عَدِيٍّ، فَكَيْفَ يَكُونُ مَقْتُولًا يَوْمَئِذٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِيهِ هَذِهِ الْمَقَالَةُ؟ فَأَمَّا مَقْتَلُ عَقَبَةَ وَالنَّضْرَ، فَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ. "الْأَمْوَالُ لِلْبَنِّ زَنْجُوِيهِ" (٤١٨)

الدعوة، مذ كانوا يعرفون مدلولات لغتهم الصحيحة! كانوا يعرفون أن شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، معناها إعلان التمرد على سلطان البشر كافة، والخروج من حاكمية العباد جملة والفرار إلى ألوهية الله وحده وحاكميته. ثم التلقي في هذه العبودية لله عن محمد رسول الله - ﷺ - وحده، دون الناطقين باسم الآلهة أو باسم الله! .. وكانوا يرون الذين يشهدون هذه الشهادة يخرجون لتوهم من سلطان قريش وقيادتها وحاكميتها وينضمون إلى التجمع الحركي الذي يقوده محمد - ﷺ - ويخضعون لقيادته وسلطانه وينتزعون ولاءهم للأسرة والعشيرة والقبيلة والمشخة والقيادة الجاهلية ويتوجهون بولائهم كله للقيادة الجديدة، وللعصبة المسلمة التي تقوم عليها هذه القيادة الجديدة.

كان هذا كله هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. وكان هذا واقعا يشهده المأ من قريش ويحسون خطره على كيانهم، وعلى الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقدية التي يقوم عليها كيانهم.

لم يكن مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، هو هذا المدلول الباهت الفارغ الهزيل الذي يعنيه اليوم من يزعمون أنهم مسلمون - مجرد أنهم يشهدون هذه الشهادة بألسنتهم ويؤدون بعض الشعائر التعبدية، بينما ألوهية الله في الأرض وفي حياة الناس لا وجود لها ولا ظل وبينما القيادات الجاهلية والشرائع الجاهلية هي التي تحكم المجتمع وتصرف شؤونه.

وحقيقة إنه في مكة لم تكن للإسلام شريعة ولا دولة .. ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية ويمنحون ولاءهم من فورهم للعصبة المسلمة كما كانوا ينسلخون من القيادة الجاهلية ويتمردون عليها ويتزعون ولاءهم من الأسرة والعشيرة والقبيلة والقيادة الجاهلية. بمجرد نطقهم بالشهادتين .. فلم يكن الأمر هو هذا النطق الفارغ الباهت الهزيل. ولكن كانت دلالة الواقعة العملية هي التي تترجمه إلى حقيقة يقوم عليها الإسلام ..

وهذا هو الذي كان يزعج المأ من قريش من زحف الإسلام، ومن هذا القرآن .. إنه لم يزعجهم من قبل أن «الحنفاء» اعتزلوا معتقدات المشركين وعبادتهم واعتقدوا بألوهية الله وحده وقدموا له الشعائر وحده، واجتنبوا عبادة الأصنام أصلا .. فإلى هنا لا يهم الطاغوت الجاهلي شيء لأنه لا خطر على الطاغوت من الاعتقاد السلبي والشعائر التعبدية! إن هذا ليس هو الإسلام - كما يظن بعض الطيبين الخيرين الذين يريدون اليوم أن يكونوا مسلمين، ولكنهم لا يعرفون ما هو الإسلام معرفة اليقين! - إنما الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين .. هو الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية وللعصبة المسلمة التي تريد أن تحقق الإسلام في عالم الواقع .. وهذا ما كان يقض مضاجع المأ من قريش، فيقاومونه بشتى

الأساليب .. ومنها هذا الأسلوب .. أسلوب الادعاء على القرآن الكريم، بأنه أساطير الأولين! وأنهم - لو شاءوا - قالوا مثله! ذلك مع تحديهم به مرة ومرة ومرة ..

وهم في كل مرة يعجزون ويخنسون! والأساطير واحدها أسطورة. وهي الحكاية المتلبسة - غالبا - بالتصورات الخرافية عن الآلهة وعن أفاصيص القدامى وبطولاتهم الخارقة، وعن الأحداث التي يلعب فيها الخيال والخرافة دورا كبيرا ..

وقد كان الملأ من قريش يعمدون إلى ما في القرآن من قصص الأولين وقصص الخوارق والمعجزات وفعل الله بالمكذابين وإنجائه للمؤمنين ... إلى آخر ما في القصص القرآني من هذه الموضوعات فيقولون للجماهير المستغفلة: إنها أساطير الأولين اكتتبها محمد ممن يجمعونها وجاء يتلوها عليكم، زاعما أنه أوحى إليه بها من عند الله .. وكذلك كان النضر ابن الحارث يجلس في مجلس رسول الله - ﷺ - بعد انتهائه أو يجلس مجلسا آخر يجاوره ويقص الأساطير الفارسية التي تعلمها من رحلاته في بلاد فارس ليقول للناس:

إن هذا من جنس ما يقوله لكم محمد. وهأنذا لا أدعي النبوة ولا الوحي كما يدعي! فإن هي إلا أساطير من نوع هذه الأساطير! ولا بد أن نقدر أنه كان هناك تأثير لهذه البلبلة في الوسط الجاهلي عند عامة الناس. وبخاصة في أول الأمر، قبل أن تتجلى الفوارق بين هذه الأساطير والقصص، وبين القرآن الكريم. لندرك لم نادى منادي رسول الله - ﷺ - قبل المعركة في بدر بقتل النضر بن الحارث. ثم لما وجده أسيرا أمر بقتله هو والنفر القليل الذين أمر بقتلهم من الأسرى ولم يقبل فيه فدية كالأخرين.

على أن الذي انتهى إليه الأمر في مكة أن هذه الأساليب لم تعش طويلا وأن هذا النوع من المناورات قد انكشف بعد حين وأن القرآن بسلطانه القاهر الذي يحمله من عند الله وبالحق العميق الذي تصطلح عليه الفطرة سريعا، قد اكتسح هذه الأساليب وهذه المناورات، فلم يقف له منها شيء وراح الملأ من قريش - في دعر - يقولون: «لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ!» ووجد كبارؤهم، من أمثال أبي سفيان، وأبي جهل والأحنس بن شريق أنفسهم يخالس بعضهم بعضا لبييت ليلته يستمع خفية لهذا القرآن ولا يملك نفسه من أن تقوده قدماء ليلة بعد ليلة إلى حيث يستمع لرسول الله - ﷺ - في خفية عن الآخرين حتى تعاهدوا وأكدوا على أنفسهم العهد، ألا يعودوا إليها، مخافة أن يراهم الفتية فيفتنوا بهذا القرآن وبهذا الدين! ^{٥٥٣}

^{٥٥٣} - قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ بْنُ شِهَابٍ الزَّهْرِيُّ أَنَّهُ حَدَّثَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَأَبَا جَهْلٍ بْنَ هِشَامٍ، وَالْأَحْنَسَ بْنَ شَرِيقٍ بْنَ عَمْرِو بْنِ وَهَبٍ الثَّقَفِيَّ، حَلِيفَ بَنِي زُهْرَةَ خَرَجُوا لَيْلَةً لِيَسْمَعُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فِي بَيْتِهِ فَأَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَجْلِسًا يَسْتَمِعُ فِيهِ وَكُلٌّ لَا يَعْلَمُ بِمَكَانِ صَاحِبِهِ فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا . فَجَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ فَتَلَاوُمُوا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَا تَعُودُوا، فَلَوْ رَأَوْكُمْ بَعْضُ سُفْهَانِكُمْ لَأَوْفَعْتُمْ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا، ثُمَّ انْصَرَفُوا . حَتَّى إِذَا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةَ عَادَ

على أن محاولة النضر بن الحارث أن يلهي الناس عن هذا القرآن بشيء آخر يخدعهم به عنه، لم تكن هي المحاولة الأخيرة ولن تكون ..^{٥٥٤} لقد تكررت في صور شتى وسوف تتكرر .. لقد حاول أعداء هذا الدين دائما أن يصرفوا الناس نهائيا عن هذا القرآن. فلما عجزوا حولوه إلى تراتيل يترنم بها القراء ويطرب لها المستمعون، وحولوه إلى توائم وتعاويد يضعها الناس في جيوبهم وفي صدورهم وتحت وسائدهم ... ويفهمون أنهم مسلمون، ويظنون أنهم أدوا حق هذا القرآن وحق هذا الدين! لم يعد القرآن في حياة الناس هو مصدر التوجيه .. لقد صاغ لهم أعداء هذا الدين أبداً منه يتلقون منها التوجيه في شؤون الحياة كلها .. حتى ليتلقون منها تصوراتهم ومفاهيمهم، إلى جانب ما يتلقون منها شرائعهم وقوانينهم، وقيمهم وموازينهم! ثم قالوا لهم: إن هذا الدين محترم، وإن هذا القرآن مصون. وهو يتلى عليكم صباحا ومساء وفي كل حين ويطرأ به المترنمون، ويرتله المرتلون ..

فماذا تريدون من القرآن بعد هذا الترجم وهذا الترتيل؟! فأما تصوراتكم ومفهوماتكم، وأما أنظمتكم وأوضاعكم، وأما شرائعكم وقوانينكم، وأما قيمكم وموازينكم، فإن هناك قرآنا آخر هو المرجع فيها كلها، فإليه ترجعون! إنها مناورة النضر بن الحارث، ولكن في صورة متطورة معقدة، تناسب تطور الزمان وتعقد الحياة ..

ولكنها هي هي في شكل من أشكالها الكثيرة، التي عرفها تاريخ الكيد لهذا الدين، على مدار القرون! ولكن العجيب في شأن هذا القرآن، أنه - على طول الكيد وتعقده وتطوره وترقيه - ما يزال يغلب! ..

إن لهذا الكتاب من الخصائص العجيبة، والسلطان القاهر على الفطرة، ما يغلب به كيد الجاهلية في الأرض كلها وكيد الشياطين من اليهود والصليبيين وكيد الأجهزة العالمية التي يقيمها اليهود والصليبيون في كل أرض وفي كل حين! إن هذا الكتاب ما يزال يلوي أعناق أعدائه في الأرض كلها ليجعلوه مادة إذاعية في جميع محطات العالم الإذاعية بحيث يذيعه - على السواء - اليهود، ويذيعه الصليبيون، ويذيعه عملاؤهم المستترون تحت أسماء المسلمين! وحقيقة إنهم يذيعونه بعد أن نجحوا في

كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إِلَى مَجْلِسِهِ فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِثْلَ مَا قَالُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا. حَتَّى إِذَا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّالِثَةُ أَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَجْلِسَهُ فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَا تَبْرَحْ حَتَّى تَتَعَاهَدَ أَلَّا نَعُودَ فَتَعَاهَدُوا عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ تَفَرَّقُوا. سيرة ابن هشام [٣١٥/ ١] صحيح مرسل

^{٥٥٤} - كَانَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ مِنْ شَيَاطِينِ قُرَيْشٍ، وَمِمَّنْ كَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ -، وَيَنْصِبُ لَهُ الْعِدَاوَةَ وَكَانَ قَدْ قَدِمَ الْحِيرَةَ، وَتَعَلَّمَ بِهَا أَحَادِيثَ مُلُوكِ الْفُرْسِ، وَأَحَادِيثَ رُسْتَمَ وَاسْبَنْدِيَارَ. فَكَانَ إِذَا جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مَجْلِسًا فَذَكَرَ فِيهِ بِاللَّهِ وَحَدَّرَ قَوْمَهُ مَا أَصَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأَمْرِ مِنْ نَقْمَةِ اللَّهِ خَلْفَهُ فِي مَجْلِسِهِ إِذَا قَامَ ثُمَّ قَالَ أَنَا وَاللَّهِ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْهُ فَهَلُمَّ إِلَيَّ فَأَنَا أَحَدُنْكُمْ أَحْسَنَ مِنْ حَدِيثِهِ ثُمَّ يُحَدِّثُهُمْ عَنْ مُلُوكِ فَارِسَ وَرُسْتَمَ وَاسْبَنْدِيَارَ، ثُمَّ يَقُولُ بِمَاذَا مُحَمَّدٌ أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنِّي ؟. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيمَا بَلَغَنِي: سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يَقُولُ فِيمَا بَلَغَنِي: نَزَلَ فِيهِ ثَمَانِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ قَوْلُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : { إِذَا تُلِيَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } . وَكُلُّ مَا ذُكِرَ فِيهِ مِنَ الْأَسَاطِيرِ مِنَ الْقُرْآنِ سيرة ابن هشام [٣١٥/ ١] بلاغا

تحويله في نفوس الناس «المسلمين»! - إلى مجرد أنغام وتراويل أو مجرد ثنائيات وتعاويز! وبعد أن أبعدوه - حتى في خاطر الناس.. المسلمين!.. من أن يكون مصدر التوجيه للحياة وأقاموا مصادر غيره للتوجيه في جميع الشؤون.. ولكن هذا الكتاب ما يزال يعمل من وراء هذا الكيد وسيظل يعمل وما تزال في أنحاء في الأرض عصبة مسلمة تتجمع على جدية هذا الكتاب، وتتخذة وحده مصدر التوجيه وهي ترتقب وعد الله لها بالنصر والتمكين. من وراء الكيد والسحق والقتل والتشريد .. وما كان مرة لا بد أن سيكون ..^{٥٥٥}

٧٧ - اليقين بوعد الله:

قال تعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ} [الأنفال: ٥٩]
ولا يحسب الذين كفروا أنهم فائتونا وسبقونا، ونجوا من عاقبة خيانتهم وغدرهم، فلا نقدر عليهم، فهم تحت قهرنا وقدرتنا، وفي قبضة مشيتنا، فلا يعجزوننا عن إدراكهم، وسنجزئهم الجزاء الأوفى^{٥٥٦}.
وفي مقابل هذه النصاعة وهذه النظافة يعد الله المسلمين النصر، ويهون عليهم أمر الكفار والكفر! «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ»..
فتبتيثهم الغدر والخيانة لن يمنحهم فرصة السبق، لأن الله لن يترك المسلمين وحدهم، ولن يفلت الخائنين لخيانتهم. والذين كفروا أضعف من أن يعجزوا الله حين يطلبهم، وأضعف من أن يعجزوا المسلمين والله ناصرهم.

فليطمئن أصحاب الوسائل النظيفة - متى أخلصوا النية فيها لله - من أن يسبقهم أصحاب الوسائل الخسيسة. فإنما هم منصورون بالله الذي يحقق سنته في الأرض، ويعلون كلمته في الناس، وينطلقون باسمه. يجاهدون ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك.
ولكن الإسلام يتخذ للنصر عدته الواقعية التي تدخل في طوق العصبة المسلمة فهو لا يعلق أبصارها بتلك الآفاق العالية إلا وقد آمن لها الأرض الصلبة التي تطمئن عليها أقدامها وهياً لها الأسباب العملية التي تعرفها فطرتها وتؤيدها تجارها وإلا إذا أعدها هي للحركة الواقعية التي تحقق هذه الغايات العلوية^{٥٥٧}

^{٥٥٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٤٠)

^{٥٥٦} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٢٠، بترقيم الشاملة آليا)

^{٥٥٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٨٦)

وقال تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّيكَ بِعُصَ الْذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} [غافر: ٧٧]

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَ مِنْ قَوْمِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُنْجِزُ وَعْدَهُ، وَسَيُظْهِرُهُ بِأَعْدَائِهِ، وَسَيُنْزِلُ الْعِقَابَ بِالْمُكْذِبِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: إِمَّا أَنْ يُرِيَهُ فِي حَيَاتِهِ بَعْضَ الَّذِي يَعِدُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّقْمَةِ، كَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ فِي بَدْرٍ، فَذَلِكَ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَتَوَفَّاهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يُنْزَلَ بِهِمْ عُقُوبَتُهُ وَعَذَابُهُ فَإِنَّهُ سَيُعَاقِبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ عِقَابًا شَدِيدًا حِينَمَا يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ٥٥٨

وأمام هذا المشهد. مشهد الذل والمهانة والعذاب الرعب. وعاقبة الجدل في آيات الله، والكبر النافخ في الصدور .. أمام هذا المشهد وهذه العاقبة يتجه السياق إلى رسول الله - ﷺ - يوصيه بالصبر على ما يجده من كبر ومن جدال، والثقة بوعده الله الحق على كل حال. سواء أراه الله بعض الذي يعدهم في حياته، أو قبضه إليه وتولى الأمر عنه. فالقضية كلها راجعة إلى الله، وليس على الرسول إلا البلاغ، وهم إليه راجعون: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. فَإِمَّا نُرَبِّيكَ بِعُصَ الْذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ» .. وهنا نقف أمام لفظة تستحق التدبر العميق. إن هذا الرسول الذي يلاقي ما يلاقي من الأذى والتكذيب والكبر والكنود، يقال له ما مفهومه: أد واجبك وقف عنده. فأما النتائج فليست من أمرك. حتى شفاء صدره بأن يشهد تحقق بعض وعيد الله للمتكبرين المكذبين ليس له أن يعلق به قلبه! إنه يعمل وكفى. يؤدي واجبه ويمضي.

فلأمر ليس أمره. والقضية ليست قضيته. إن الأمر كله لله. والله يفعل به ما يريد. يا لله! يا للمرتقى العالي. ويا للأدب الكامل. الذي يأخذ الله به أصحاب هذه الدعوة. في شخص رسوله الكريم.

وإنه لأمر شاق على النفس البشرية. أمر يحتاج إلى الصبر على أشواق القلب البشري العنيفة. لعله من أجل هذا كان التوجيه إلى الصبر في هذا الموضع من السورة. فلم يكن هذا تكراراً للأمر الذي سبق فيها. إنما كان توجيهها إلى صبر من لون جديد. ربما كان أشق من الصبر على الإيذاء والكبر والتكذيب؟!

إن احتجاز النفس البشرية عن الرغبة في أن ترى كيف يأخذ الله أعداءه وأعداء دعوتيه، بينما يقع عليها العداء والخصومة من أولئك الأعداء، أمر شديد على النفس صعب. ولكنه الأدب الإلهي العالي، والإعداد الإلهي لأصفيائه المختارين، وتخليص النفس المختارة من كل شيء لها فيه أرب، حتى ولو كان هذا الأرب هو الانتصار من أعداء هذا الدين!

٥٥٨ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٠٨٩، بترقيم الشاملة آليا)

ولمثل هذه الفتنة العميقة ينبغي أن تتوجه قلوب الدعاة إلى الله في كل حين. فهذا هو حزام النجاة في خضم الرغائب، التي تبدو بريئة في أول الأمر، ثم يخوض فيها الشيطان بعد ذلك ويعوم! ٥٥٩

٧٨ - وجوب موالاته المجاهدين ونصرتهم:

قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ التَّصَرُّ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولَئِذَا الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) } سورة الأنفال

إنَّ المهاجرين الذين تركوا ديارهم، وجاهدوا مع الرسول بأموالهم وأنفسهم، والأنصار الذين آووا الرسول ونصروه، هؤلاء جميعاً بعضهم أولى ببعض، وكلٌّ منهم أحقُّ بالآخر من كلِّ أحدٍ. لذلك آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كلَّ اثنين أخوان في الله، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بآية الموارث .

أما الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في أماكنهم فهؤلاء لا يُثبت لهم شيء من ولاية المسلمين ونصرتهم، إذ لا سبيل إلى ولايتهم حتى يهاجروا، وليس لهم من المغنم نصيب ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال. وإذا استنصر هؤلاء، الذين آمنوا ولم يهاجروا، إخوانهم المسلمين في قتال ديني على عدوٍّ لهم، فعليهم نصرهم، لأنهم إخوان في الدين. أما إذا كان الاستنصار على قوم بينهم وبين المسلمين ميثاق ومهادنة إلى مدة معينة، فيجب على المسلمين ألا يخفروا ذمتهم ولا أن ينقضوا أيمانهم مع الذين عاهدوهم .

المؤمنون أولياء بعض، وبذلك قطع الله الموالاته بينهم وبين الكفار، ومنع بينهم الميراث (لا يتوارث أهل ملتين) . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض فهم يتناصرون على الباطل، ويتعاونون على عداوة المسلمين، فلا ثواب لهم يا أيها المسلمون وإذا لم تختبئوا المشركين، وثألوا المؤمنين كانت فتنة بين الناس، والتباس للأمر على الناس، واختلاط المؤمنين بالكافرين .

٥٥٩ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٩٥)

فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى حُكْمَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ عَطَفَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى ذِكْرِ مَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى سَيَجْزِيهِمْ بِالصَّفْحِ وَالْمَغْفِرَةِ عَنِ الذُّنُوبِ، وَبِالرِّزْقِ الْكَرِيمِ الْحَسَنِ الطَّيِّبِ، الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَنْقُضِي، وَلَا يُسَامُ وَلَا يُمَلُّ حُسْنُهُ .

يَذْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ فِيمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ إِيمَانٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَكُونُونَ مَعَ السَّابِقِينَ فِي الْآخِرَةِ . وَذَوُو الْأَرْحَامِ مِنَ الْأَقَارِبِ جَمِيعًا لَهُمْ وَلَايَةُ الْقَرَابَةِ، وَبَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي الْمَوَدَّةِ وَالْمَالِ وَالنُّصْرَةِ كَمَا شَرَعَ اللَّهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْوُجُودِ .^{٥٦٠}

مناسبة هذه الآيات للآيات التي قبلها، هي أن المؤمنين والمشركين كانوا بعد تلك المواجهة التي شهدوها في بدر - كانوا قد تحدت معالمهم، واستعلنت مواقفهم، وإذا هم جبهتان متقاتلتان، وفريقان متخاصمان، كل منهما يطلب الآخر، ويقتضيه ما يقتضيه الغريم من غريمه..

وقد ذكرت الآيات السابقة مراحل هذا الصراع الذي كان قائما بين الفريقين، وعرضت أحداث بدر وما وقع فيها، وما أحرز المسلمون من نصر، وما منى به المشركون من هزيمة، ثم عرضت المغام والأسرى وما قضى الله فيهما.

فكان من المناسب أن تختتم السورة بهذه الآيات التي تخطط الحدود، وترسم المواقع والمواقف التي يأخذها المؤمنون من الكافرين حتى يكونوا على بينة من أمرهم، فيما يأخذون أو يدعون من الجبهة المقاتلة لهم.

وقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» .. هو بيان لحكم الجماعة الإسلامية فيما بينها، فهم - المهاجرون والأنصار - جبهة واحدة، وكيان واحد، يجمعهم هذا النسب الكريم الذي انتسبوا له، وهو الإسلام، الذي يعلو كل نسب، ويفضل كل قرابة.

فمن أجل الإسلام هاجر المهاجرون، ومن أجل الإسلام جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. وفي سبيل الله آوى الأنصار المهاجرين وشاركوهم أموالهم وديارهم، وفي سبيل الإسلام انتصروا لهم ونصروهم..

فهؤلاء جميعا - من مهاجرين وأنصار - بعضهم أولياء بعض، ينصر بعضهم بعضا، ويحامي بعضهم عن بعض، ولو حملهم ذلك على لقاء آبائهم وأبنائهم وقتلهم وقتلهم في سبيل الله.

وهناك مؤمنون، ولكنهم لم يهاجروا، قد حبستهم قريش، أو منعهم مرض أو شيخوخة، أو حرص على الديار والأموال، أو إثارة للعافية والسلامة.

^{٥٦٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٣٣)، بترقيم الشاملة آليا

فما حكم هؤلاء المؤمنون؟ وما وضعهم في المؤمنين من المهاجرين والأنصار؟
إنهم لا شك أعضاء في هذا الجسد الإسلامي الجديد، الذي تبرز سماته في المهاجرين والأنصار. ولكن
كان الإسلام في دور البناء للمجتمع الإسلامي، وكان من أجل هذا في ميسس الحاجة إلى كل يد
عاملة لدعم هذا البناء، ورفع بنيانه - الأمر الذي جعل الهجرة إلى المدينة التي آوى إليها الرسول، واتخذ
منها مركزا لدعوته، أمرا له قدره وأثره في رفع درجة المؤمن، وتشريفه بهذا المقام الكريم الذي أفرد الله
سبحانه وتعالى به المهاجرين، وجعل لهم وللأنصار ذكرا طيبا، جاء به القرآن الكريم أكثر من موضع..
من أجل هذا، فإن الذين آمنوا ولم يهاجروا - لعلّة أو لأكثر - لم يكن حسابهم قائما على هذا التقدير
الذي يسوّى بينهم وبين المهاجرين، أو الأنصار..

إذ كان المهاجرون، مؤمنين، ومعهم مع إيمانهم هجرة، وكان الأنصار مؤمنين، ومعهم مع إيمانهم أنهم آووا
ونصروا.. أما المؤمنون الذي حبستهم أعداؤهم عن الهجرة، فإنهم لم يضيفوا إلى إيمانهم شيئا مما فعله
المهاجرون أو الأنصار.. فهم والحال كذلك ليسوا بالذين يدخلون في ذمة المؤمنين في هذه المرحلة من
مراحل الدعوة الإسلامية، بحيث يمنعهم من عدوهم، ويدفعون عنهم ما يعرض لهم من ظلم وبغى، وهم
في ديار الظالمين.. وحسب المهاجرين والأنصار في هذه المرحلة من مسيرة الدعوة الإسلامية - حسبهم
أن ينظروا لأنفسهم، وأن يدفعوا البغي المتسلط عليهم.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى
يُهَاجِرُوا».. وفي هذا تخفيف عن الجماعة الإسلامية، وإعفاء لها من حمل عبء فوق أعبائها، وهو
الدفاع عن الأفراد أو الجماعات الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل ظلوا بين أهليهم وأقوامهم الذين ينظرون
إليهم نظرات مغيظة حانقة، ترمى بالضر والأذى.

ولو دخل هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا - لو دخلوا في ذمة المؤمنين وفي ولايتهم، لكان على المؤمنين
الانتصار لهم من كل ظلم، والحماية لهم من كل عدوان، وهذا يجعل الجماعة الإسلامية - مع ما هي
عليه من قلة عدد يومئذ - في وجه حرب متصلة، مع قبائل العرب جميعا، حيث كان في كل قبيلة فرد
أو أفراد من الذين آمنوا، واستجابوا لله وللرسول.. وكان وضع هؤلاء الأفراد في أقوامهم محفوفًا
بالمكاره، متصلاً بالضر والأذى، فلو دخلوا في ذمة المسلمين لكان على المهاجرين والأنصار، نصرهم
ودفع الضر عنهم.

وفي قوله تعالى: «وَأِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ».. هو
بيان للحال التي يجب على جماعة المسلمين أن ينتصروا فيها لمن يستنصر بهم من المؤمنين الذين لم
يهاجروا، وتلك الحال هي أن يكون استنصار المستنصرين بهم من أجل الدين، ولحساب الدين، لا
لعصبية نسب أو قرابة أو حلف.

ومعنى الاستنصار في الدين أن يجد هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا، فرصة سانحة لنصرة الدين، في مواطنهم التي هم فيها، كأن تجد تلك الجماعة التي لم تهاجر، قدرة على دفع عدوان المعتدين عليها ولكنها تحتاج إلى مساندة عدد من المسلمين - عندئذ يجب على الجماعة الإسلامية أن تناصرها وتشدّ ظهرها بالرجال والسلاح.. ففى هذا انتصار لدعوة الإسلام، وتمكين لها في هذا الوطن الجديد..

هذا، وقد ذهب أكثر المفسرين أن الولاية هنا هي التوارث بينهم، وقالوا: إن المهاجرين والأنصار كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة، جاعلين نسب الإسلام بينهم، أولى من نسب القرابة.. ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ».. وقد كان رأينا على غير هذا، وهو أن المراد بالولاية: التناصر، والتعاطف، وتلاحم المشاعر، في ظل الأخوة الإسلامية.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» (١٠: الحجرات) وفي هذا يقول الرسول الكريم كما رواه مسلم: «مثل في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» .

وفي قوله تعالى: «فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ» إلزام للجماعة الإسلامية بأن تقوم بالانتصار لمن استنصر بها من أجل الدين..

وفي قوله تعالى: «إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ» استثناء من الحكم الموجب على الجماعة الإسلامية الانتصار لمن يستنصر بهم من المؤمنين دفاعاً عن الإسلام، ودعوة الإسلام.. وذلك أنه إذا كان هناك ميثاق وموادة بين المسلمين وبين من دعاهم المؤمنون إلى حربهم، حينئذ يجب على المسلمين أن يحترموا هذا الميثاق، وأن يلتزموا حدوده، وأن يقوموا على الوفاء به، ولا يدخلوا في حرب مع من دعوا إلى حربه، وهو موادة لهم بميثاق واثقهم عليه.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ»: هو تقرير لحكم واقع بين الكافرين وهو أنهم على ولاء فيما بينهم. وأهم حزب واحد، مجتمع على عداوة المؤمنين، ناصب لحربهم، راصد للفرصة الممكنة له منهم..

وليس في هذا الذي يقرره القرآن الكريم دعوة لجماعات الكافرين أن يكونوا على هذا الولاء الذي بينهم، وإنما هو - كما قلنا - تقرير لأمر واقع، يرى منه المؤمنون كيف يجتمع أهل الضلال على الضلال، وكيف يقوم بينهم الولاء والتناصر.. فارنى للمؤمنين ثم أولى لهم، أن يجتمعوا على الإيمان، وأن يتناصروا على الحق والخير.

وفي قوله تعالى: «إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ» إشارة إلى ما ينبغي أن يكون بين جماعة المؤمنين من تلاحم وتناصر. وأهم إن لم يفعلوا هذا، فسد أمرهم، وتمكن العدو منهم، وسقطت راية الحق التي يقاتلون عليها، وحل وجه الأرض للفساد والمفسدين.

والضمير في «تفعلوه» يعود إلى الولاء الذي ينبغي أن يكون بين المؤمنين، بعد أن دعاهم الله إليه في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ».. وبعد أن لفتهم سبحانه إلى ما بين أهل الكفر والضلال من ولاء والتقاء على البغي والعدوان.

وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ». هو عرض للمهاجرين والأنصار، وإفراد لهم بتلك المترلة الرفيعة من الإيمان الذي حققوا صفته فيهم على أكمل وجه وأروعه.. «أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا» أي المؤمنون إيماناً كاملاً، لم تشبه شائبة من ضعف، ولم تعلق به خاطرة من شك أو ريب.. فهو الإيمان الخالص، وهو الحق حقاً..

«لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ» أي مغفرة عامة شاملة، تنال كل ذنوبهم، ولهم «رِزْقٌ كَرِيمٌ» طيب، من كل شيء، في الدنيا وفي الآخرة. وهذا من بعض الأسرار التي جاء عليها النظم القرآني في تنكير المغفرة والرزق الكريم، حيث يراد بهما العموم والشمول..

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ» .

هذا إغراء لمن تحدّثه نفسه، وتترع به همته أن يكون في هذا الموكب الكريم الذي انتظم أولئك الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى هذا الوصف الكريم، وحلّاهم بحلية الإيمان الكامل، وأنزلهم منازل مغفرتهم ورضوانه.. إغراء لكل من يطلب هذا المقام الكريم أن يستحثّ خطاه إليه، وأن يتخفف من كل ما يمسكه عن الهجرة، فيهاجر إلى من سبقوه إلى دار الهجرة، وهناك سيأخذ مكانه بينهم، ويتزل حيث أنزلهم الله في منازل فضله وإحسانه..

فإن الطريق إلى الله مفتوح دائماً، ورحمة الله تسع كل شيء، وعطاؤه موصول لا ينقطع، ولا ينفد. وفي قوله تعالى بعد هذا: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ» إشارة إلى ما بين المؤمنين - من سبق منهم ومن لحق - من نسب قريب، ورحم ماسة.. فيهم جميعاً أبناء أب واحد، هو الإسلام، الذي يولدون فيه حالاً بعد حال، وجيلاً بعد جيل.

وقوله سبحانه: «فِي كِتَابِ اللَّهِ» يحتمل وجهين: إما أن يكون متعلقاً بقوله تعالى: «أُولَى» ويكون المعنى: وأولوا الأرحام - أي المؤمنون - بعضهم أولى ببعض فيما جاء في كتاب الله، أي دين الله، الذي حمّله كتاب الله وهو القرآن.. بمعنى أن ولاء المؤمنين بعضهم لبعض، إنما هو فيما هو حق وخير وإحسان، وهذا الخير والإحسان مما هو في كتاب الله، الذي آمنوا به، ودانوا بشريعته.

وإما أن يكون استئنافاً، هو جواب لسؤال مقدر، وتقديره: «من أين جاء هذا الحكم الذي قرّرت الآيات في قوله تعالى: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ» ؟ فكان الجواب: «فِي كِتَابِ اللَّهِ» أي في علم الله، وفيما أقام العباد عليه، حيث جعل بين أولى الأرحام مودة، ورحمة، وولاء.. ومثل هذا ما جاء في

قوله: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» أي في علمه وتقديره، وتديره.. «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. هذا، وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن قوله تعالى: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ» هو مراد به الولاية في التوارث، بحكم القرابة بينهم، على ما جاء في كتاب الله سبحانه، في أحكام الميراث.. وعلى هذا تكون هذه الآية ناسخة لما قررته الآيات السابقة في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ» إلى قوله تعالى: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ» .

وقد روى عن ابن عباس قال: «آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، وورث بعضهم من بعض، حتى نزلت هذه الآية، فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب.

ويروى عن ابن عباس أيضاً، أنه استدل بقوله تعالى: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ» على توريث ذوى الأرحام الذين ذكرهم الفرضيون، وذلك لأنها نسخ بها التوارث بالهجرة ولم يفرق بين العصبية وغيرهم، فيدخل من لا تسمية لهم، ولا تعصب، وهم.. هم (أي ذوى الأرحام) .. والقول بنسخ هذه الآية لما قررته الآيات التي قبلها، من ولاء المسلمين بعضهم لبعض، وتناصرهم وتعاطفهم.. هذا القول مردود من وجوه:

فأولاً: أن الأحكام التي قررتها الآيات السابقة من وجوب قيام تلك الوحدة الشعورية بين المسلمين، بحيث تجعل منهم كيانا واحداً - هذه الأحكام، هي من صميم الدعوة الإسلامية، ومن الدعائم القوية التي قام عليها بناء المجتمع الإسلامى، بحيث يؤثر المؤمن إخوانه في الإيمان، على أهله وذوى قرابته.. كما يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (التوبة: ٢٣) - ويقول سبحانه: «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٢٢: المجادلة) .

فهذه العزلة الشعورية التي تعزل المؤمن عن الذين يحادون الله ورسوله، من أهله وأقرب المقربين إليه، يقابلها تلاحم في المشاعر، وتزاوج في العواطف، بين المؤمن وجماعة المؤمنين. فالإيمان عند المؤمن هو نسبه الذي ينتسب إليه، وعلى هذا النسب يصل الناس أو يقطعهم، ويوادهم أو يجافهم، ويسالمهم أو يحاربهم!.

فكيف تجيء آية قرآنية تنسخ هذا المبدأ، الذي هو أقوى دعامة في بناء المجتمع الإسلامى!

وثانيا: آيات المواريث التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في سورة النساء، تقرر في صراحة واضحة أحكام الميراث بين ذوى القربى، بحيث لا تدع مجالاً لغيرهم أن يشاركهم في هذا الميراث، الذي فرض لهم فيها. فقوله تعالى: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ» لا يضيف جديداً إلى ما قررته آيات المواريث: ولو كان لها مكان في أحكام الميراث، لكان مكانها بين آيات الميراث، لا في هذا الموضع الذي يقرر أسساً ومبادئ للعلاقات التي تقوم بين المؤمنين، ثم بينهم وبين غير المؤمنين..

وثالثاً: ما يقال من أن هذه الآية نسخت التوارث الذي قام بين المهاجرين والأنصار بحكم التآخي الذي أقامه الرسول بينهم - متوجه له، لأن آيات المواريث تغني في تطبيقها عن الاحتياج إلى نص صريح بتحريم التوارث على هذا النسب الذي أقامه النبي الكريم بين المهاجرين والأنصار.. بل إن آيات المواريث نفسها قد تقدمها النص القرآني: «لِلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا».. هذا إذا كانت الأحكام الواردة في آيات المواريث تحتاج إلى بيان لعل التوارث بين الأقارب.

هذا، وقد جاء في سورة الأحزاب قوله تعالى: «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا» - جاء هذا مقررًا للولاية بالقرابة والنسب، بعد أن أبطل التبنّي! وذلك مراعاة لمقتضى الحال.^{٥٦١}

والولاية بين المسلمين في إبان نشأة المجتمع المسلم إلى يوم بدر، كانت ولاية توارث وتكافل في الديار وولاية نصره وأخوة قامت مقام علاقات الدم والنسب والقرابة.. حتى إذا وجدت الدولة ومكن الله لها بيوم الفرقان في بدر بقيت الولاية والنصرة، ورد الله الميراث والتكافل في الديار إلى قرابة الدم، داخل المجتمع المسلم..

فأما الهجرة التي يشير إليها النص ويجعلها شرطاً لتلك الولاية - العامة والخاصة - فهي الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام - لمن استطاع - فأما الذين يملكون الهجرة ولم يهاجروا، استمسكوا بمصالح أو قرابات مع المشركين، فهؤلاء ليس بينهم وبين المجتمع المسلم ولاية، كما كان الشأن في جماعات من الأعراب أسلموا ولم يهاجروا لمثل هذه الملابس، وكذلك بعض أفراد في مكة من القادرين على الهجرة.. وهؤلاء وأولئك أوجب الله على المسلمين نصرهم - إن استنصروهم في الدين خاصة - على شرط ألا يكون الاعتداء عليهم من قوم بينهم وبين المجتمع المسلم عهد، لأن عهود المجتمع المسلم وخطته الحركية أولى بالرعاية! ونحسب أن هذه النصوص والأحكام تدل دلالة كافية على طبيعة المجتمع المسلم والاعتبارات الأساسية في تركيبه العضوي، وقيمه الأساسية. ولكن هذه الدلالة لا تتضح

^{٥٦١} - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٨٢)

الوضوح الكافي إلا ببيان تاريخي عن نشأة هذا المجتمع التاريخية والقواعد الأساسية التي انبثق منها وقام عليها ومنهجها الحركي والتزاماته .

إن الدعوة الإسلامية - على يد محمد رسول الله ﷺ - إنما تمثل الحلقة الأخيرة في سلسلة الدعوة الطويلة إلى الإسلام بقيادة موكب الرسل الكرام .. وهذه الدعوة على مدار التاريخ البشري كانت تستهدف أمرا واحدا: هو تعريف الناس بإلههم الواحد وربهم الحق وتعبيدهم لربهم وحده ونبذ ربوبية الخلق .. ولم يكن الناس - فيما عدا أفرادا معدودة في فترات قصيرة - ينكرون مبدأ الألوهية ويحددون وجود الله البتة إنما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق، أو يشركون مع الله آلهة أخرى: إما في صورة الاعتقاد والعبادة وإما في صورة الحاكمية والاتباع وكلاهما شرك كالأخر يخرج به الناس من دين الله، الذي كانوا يعرفونه على يد كل رسول، ثم ينكرونه إذا طال عليهم الأمد، ويرتدون إلى الجاهلية، التي أخرجهم منها، ويعودون إلى الشرك بالله مرة أخرى .. إما في الاعتقاد والعبادة، وإما في الاتباع والحاكمية، وإما فيها جميعا ..

هذه طبيعة الدعوة إلى الله على مدار التاريخ البشري .. إنها تستهدف «الإسلام» .. إسلام العباد لرب العباد وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بإخراجهم من سلطان العباد وحاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم، إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة .. وفي هذا جاء الإسلام على يد محمد ﷺ، كما جاء على أيدي الرسل الكرام قبله .. جاء ليرد الناس إلى حاكمية الله كشأن الكون كله الذي يحتوي الناس فيجب أن تكون السلطة التي تنظم حياتهم هي السلطة التي تنظم وجوده فلا يشذوا هم بمنهج وسلطان وتدير غير المنهج والسلطان والتدبير الذي يصرف الكون كله. بل الذي يصرف وجودهم هم أنفسهم في غير الجانب الإرادي من حياتهم. فالناس محكومون بقوانين فطرية من صنع الله في نشأتهم ونموهم وصحتهم ومرضهم، وحياتهم وموتهم كما هم محكومون بهذه القوانين في اجتماعهم وعواقب ما يحل بهم نتيجة لحركتهم الاختيارية ذاتها وهم لا يملكون تغيير سنة الله بهم في هذا كله كما أنهم لا يملكون تغيير سنة الله في القوانين الكونية التي تحكم هذا الكون وتصرفه .. ومن ثم ينبغي أن يثوبوا إلى الإسلام في الجانب الإرادي من حياتهم فيجعلوا شريعة الله هي الحاكمية في كل شأن من شؤون هذه الحياة، تنسيقا بين الجانب الإرادي في حياتهم والجانب الفطري، وتنسيقا بين وجودهم كله بشطريه هذين وبين الوجود الكوني .. ٥٦٢

ولكن الجاهلية التي تقوم على حاكمية البشر للبشر، والشذوذ بهذا عن الوجود الكوني والتصادم بين منهج الجانب الإرادي في حياة الإنسان والجانب الفطري .. هذه الجاهلية التي واجهها كل رسول

٥٦٢ - يراجع بتوسع في هذه النقطة كتاب: «مبادئ الإسلام» للسيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان. كما يراجع فصل: «شريعة كونية» في كتاب «معالم في الطريق». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

بالدعوة إلى الإسلام لله وحده. والتي واجهها رسول الله - ﷺ - بدعوته .. هذه الجاهلية لم تكن متمثلة في «نظرية» مجردة. بل ربما أحيانا لم تكن لها «نظرية» على الإطلاق! إنما كانت متمثلة دائما في تجمع حركي. متمثلة في مجتمع، خاضع لقيادة هذا المجتمع، وخاضع لتصوراته وقيمه ومفاهيمه ومشاعره وتقاليده وعاداته، وهو مجتمع عضوي بين أفراد ذلك التفاعل والتكامل والتناسق والولاء والتعاون العضوي، الذي يجعل هذا المجتمع يتحرك - بإرادة واعية أو غير واعية - للمحافظة على وجوده والدفاع عن كيانه والقضاء على عناصر الخطر التي تهدد ذلك الوجود وهذا الكيان في أية صورة من صور التهديد.

ومن أجل أن الجاهلية لا تتمثل في «نظرية» مجردة، ولكن تتمثل في تجمع حركي على هذا النحو فإن محاولة إلغاء هذه الجاهلية، ورد الناس إلى الله مرة أخرى، لا يجوز - ولا يجدي شيئا - أن تتمثل في «نظرية» مجردة. فإنها حينئذ لا تكون مكافئة للجاهلية القائمة فعلا والمتمثلة في تجمع حركي عضوي، فضلا على أن تكون متفوقة عليها كما هو المطلوب في حالة محاولة إلغاء وجود قائم بالفعل، لإقامة وجود آخر يخالفه مخالفة أساسية في طبيعته وفي منهجه وفي كلياته وجزئياته. بل لا بد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل في تجمع عضوي حركي أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك التجمع الجاهلي القائم فعلا.

والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الإسلام - على مدار التاريخ البشري - هي قاعدة: «شهادة أن لا إله إلا الله». أي أفراد الله - سبحانه - بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية .. أفرادها بما اعتقادا في الضمير، وعبادة في الشعائر، وشرعية في واقع الحياة. شهادة أن لا إله إلا الله، لا توجد فعلا ولا تعتبر موجودة شرعا إلا في هذه الصورة المتكاملة التي تعطيها وجودا جديا حقيقيا يقوم عليه اعتبار قائلها مسلما أو غير مسلم ..

ومعنى تقرير هذه القاعدة من الناحية النظرية .. أن تعود حياة البشر بمحملتها إلى الله، لا يقضون هم في أي شأن من شؤونها، ولا في أي جانب من جوانبها، من عند أنفسهم بل لا بد لهم أن يرجعوا إلى حكم الله فيها ليتبعوه .. وحكم الله هذا يجب أن يعرفوه من مصدر واحد يبلغهم إياه وهو رسول الله .. وهذا يتمثل في شطر الشهادة الثاني من ركن الإسلام الأول: «شهادة أن محمدا رسول الله».

هذه هي القاعدة النظرية التي يتمثل فيها الإسلام ويقوم عليها - وهي تنشئ منهجا كاملا للحياة حين تطبق في شؤون الحياة كلها يواجه به المسلم كل فرع من فروع الحياة الفردية والجماعية، في داخل دار الإسلام وخارجها في علاقاته بالمجتمع المسلم وفي علاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى^{٥٦٣}

^{٥٦٣} - يراجع فصل: «لا إله إلا الله منهج حياة» في كتاب: «معالم في الطريق». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

ولكن الإسلام - كما قلنا - لم يكن يملك أن يتمثل في «نظرية» مجردة ليعتنقها من يعتنقها اعتقاداً ويزاولها عبادة ثم يبقى معتنقوها على هذا النحو أفراداً ضمن الكيان العضوي للتجمع الحركي الجاهلي القائم فعلاً. فإن وجودهم على هذا النحو - مهما كثر عددهم - لا يمكن أن يؤدي إلى «وجود فعلي» للإسلام.

لأن الأفراد «المسلمين نظرياً» الداخلين في التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي سيظلون مضطرين حتماً للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية. سيتحركون طوعاً أو كرهاً، بوعي أو بغير وعي لقضاء الحاجات الأساسية لحياة هذا المجتمع الضرورية لوجوده وسيدافعون عن كيانه وسيدفعون العوامل التي تهدد وجوده وكيانه لأن الكائن العضوي يقوم بهذه الوظائف بكل أعضائه سواء أرادوا أم لم يريدوا.. أي أن الأفراد «المسلمين نظرياً» سيظلون يقومون «فعلاً» بتقوية المجتمع الجاهلي الذي يعملون «نظرياً» لإزالته وسيظلون خلافاً حياً في كيانه تدمر بعناصر البقاء والامتداد! وسيعطونه كفاياهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا ويقوى، وذلك بدلاً من أن تكون حركتهم في اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلي، لإقامة المجتمع الإسلامي! ومن ثم لم يكن بد أن تتمثل القاعدة النظرية للإسلام (أي العقيدة) في تجمع عضوي حركي منذ اللحظة الأولى.. لم يكن بد أن ينشأ تجمع عضوي حركي آخر غير التجمع الجاهلي، منفصل ومستقل عن التجمع العضوي الحركي الجاهلي الذي يستهدف الإسلام إلغاءه. وأن يكون محور هذا التجمع الجديد هو القيادة الجديدة المتمثلة في رسول الله - ﷺ - ومن بعده في كل قيادة إسلامية تستهدف رد الناس إلى ألوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته - وأن يخلع كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولاءه من التجمع العضوي الحركي الجاهلي - أي التجمع الذي جاء منه - ومن قيادة ذلك التجمع - في أية صورة كانت، سواء كانت في صورة قيادة دينية، من الكهنة والسدنة والسحرة والعرفان ومن إليهم، أو في صورة قيادة سياسية واجتماعية واقتصادية كالتجديد لقریش، وأن يحصر ولاءه في التجمع العضوي الحركي الإسلامي الجديد وفي قيادته المسلمة.

لم يكن بد أن يتحقق هذا منذ اللحظة الأولى لدخول المسلم في الإسلام، ولنطقه بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. لأن وجود المجتمع المسلم لا يتحقق إلا بهذا. لا يتحقق بمجرد قيام القاعدة النظرية في قلوب أفراد مهما تبلغ كثرتهم لا يتمثلون في تجمع عضوي متناسق متعاون له وجود ذاتي مستقل، يعمل أعضاؤه عملاً عضوياً - كأعضاء الكائن الحي - على تأصيل وجوده وتعميقه وتوسيعه وعلى الدفاع عن كيانه ضد العوامل التي تهاجم وجوده وكيانه. ويعملون في هذا تحت قيادة مستقلة عن قيادة المجتمع الجاهلي تنظم تحركاتهم وتنسقه، وتوجهه لتأصيل وتعميق وتوسيع وجودهم الإسلامي. ولمكافحة ومقاومة وإزالة الوجود الآخر الجاهلي.

وهكذا وجد الإسلام.. هكذا وجد متمثلاً في قاعدة نظرية مجملة - ولكنها شاملة - يقوم عليها في نفس اللحظة تجمع عضوي حركي مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلي ومواجه لهذا المجتمع.. ولم يوجد قط في صورة «نظرية» مجردة عن هذا الوجود الفعلي.. وهكذا يمكن أن يوجد الإسلام مرة أخرى.. ولا سبيل لإعادة نشأته في ظل المجتمع الجاهلي في أي زمان وفي أي مكان، بغير الفقه الضروري لطبيعة نشأته العضوية الحركية.

وحين ندرك طبيعة هذه النشأة وأسرارها الفطرية وندرك معها طبيعة هذا الدين وطبيعة منهجه الحركي - على ما بينا في مقدمة سورة الأنفال في الجزء التاسع^{٥٦٤} - ندرك معه مدلولات هذه النصوص والأحكام التي نواجهها في ختام هذه السورة، في تنظيم المجتمع المسلم وتنظيم علاقاته مع المؤمنين المهاجرين المحاهدين - بطبقاتهم - والذين آووا ونصروا وعلاقاته مع الذين آمنوا ولم يهاجروا وعلاقاته مع الذين كفروا ..

إنما كلها تقوم على أساس ذلك الفقه بطبيعة النشأة العضوية الحركية للمجتمع الإسلامي.. ونستطيع الآن أن نواجه هذه النصوص والأحكام الواردة فيها .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا. وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ - إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ - وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ.. إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ » ..

لقد انخلع كل من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله في مكة من الولاء لأسرته، والولاء لعشيرته، والولاء لقبيلته، والولاء لقيادته الجاهلية الممثلة في قريش وأعطى ولائه وزمامه لمحمد رسول الله - ﷺ - وللتجمع الصغير الناشئ الذي قام بقيادته. في حين وقف المجتمع الجاهلي يدفع عن وجوده الذاتي خطر هذا التجمع الجديد - الخارج عليه حتى قبل اللقاء في المعركة الحربية - ويحاول سحق هذا التجمع الوليد في نشأته.

عندئذ آخى رسول الله - ﷺ - بين أعضاء هذا التجمع الوليد.. أي أنه حول هؤلاء «الأفراد» الآتين من المجتمع الجاهلي أفراداً، إلى «مجتمع» متكافل، تقوم رابطة العقيدة فيه مقام رابطة الدم والنسب ويقوم الولاء لقيادته الجديدة مقام الولاء للقيادة الجاهلية، ويقوم الولاء فيه للمجتمع الجديد مقام كل ولاء سابق.

ثم لما فتح الله للمسلمين دار الهجرة في المدينة بعد أن وجد فيها مسلمون بايعوا القيادة الإسلامية على الولاء المطلق، والسمع والطاعة في المنشط والمكره، وحماية رسول الله - ﷺ - مما يحمون منه أموالهم

^{٥٦٤} - ص ١٤٣١ - ١٤٥٢ من الجزء التاسع - دار الشروق (السيد رحمه الله)

وأولادهم ونساءهم وقامت الدولة المسلمة في المدينة بقيادة رسول الله - ﷺ - عاد رسول الله فآخى بين المهاجرين والأنصار تلك المؤاخاة التي تقوم رابطة الدم والنسب كذلك بكل مقتضياتها بما في ذلك الإرث والديات والتعويضات التي تقوم بها رابطة الدم في الأسرة والعشيرة .. وكان حكم الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» ..

أولياء في النصر، وأولياء في الإرث، وأولياء في الديات والتعويضات وسائر ما يترتب على رابطة الدم والنسب من التزامات وعلاقات.

ثم وجد أفراد آخرون دخلوا في هذا الدين عقيدة ولكنهم لم يلتحقوا بالمجتمع المسلم فعلا .. لم يهاجروا إلى دار الإسلام التي تحكمها شريعة الله وتدبر أمرها القيادة المسلمة ولم ينضموا إلى المجتمع المسلم الذي أصبح يملك دارا يقيم فيها شريعة الله ويحقق فيها وجوده الكامل بعد ما تحقق له وجوده في مكة نسبيا، بالولاء للقيادة الجديدة والتجمع في تجمع عضوي حركي، مستقل ومنفصل عن المجتمع الجاهلي ومواجه له بهذا الوجود المستقل المميز.

وجد هؤلاء الأفراد سواء في مكة، أو في الأعراب حول المدينة. يعتنقون العقيدة، ولكنهم لا ينضمون للمجتمع الذي يقوم على هذه العقيدة ولا يدينون فعلا دينونة كاملة للقيادة القائمة عليه ..

وهؤلاء لم يعتبروا أعضاء في المجتمع المسلم ولم يجعل الله لهم ولاية - بكل أنواع الولاية - مع هذا المجتمع، لأنهم بالفعل ليسوا من المجتمع الإسلامي. وفي هؤلاء نزل هذا الحكم: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا. وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ، إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ» ..

وهذا الحكم منطقي ومفهوم مع طبيعة هذا الدين - التي أسلفنا - ومع منهجه الحركي الواقعي. فهؤلاء الأفراد ليسوا أعضاء في المجتمع المسلم ومن ثم لا تكون بينهم وبينه ولاية .. ولكن هناك رابطة العقيدة وهذه لا ترتب - وحدها - على المجتمع المسلم تبعات تجاه هؤلاء الأفراد اللهم إلا أن يعتدى عليهم في دينهم فيفتنوا مثلا عن عقيدتهم. فإذا استنصروا المسلمين - في دار الإسلام - في مثل هذا، كان على المسلمين أن ينصروهم في هذه وحدها. على شرط ألا يخل هذا بعهد من عهود المسلمين مع معسكر آخر. ولو كان هذا المعسكر هو المعتدي على أولئك الأفراد في دينهم وعقيدتهم! ذلك أن الأصل هو مصلحة المجتمع المسلم وخطته الحركية وما يترتب عليها من تعاملات وعقود. فهذه لها الرعاية أولا، حتى تجاه الاعتداء على عقيدة أولئك الذين آمنوا، ولكنهم لم ينضموا للوجود الفعلي لهذا الدين المتمثل في التجمع الإسلامي وهذا يعطينا مدى الأهمية التي يعلقها هذا الدين على التنظيم الحركي الذي يمثل وجوده الحقيقي ..

والتعقيب على هذا الحكم: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» ..

فكل عملكم تحت بصره - سبحانه - يرى مداخله ومخارجه، ومقدماته ونتائجه، وبواعثه وآثاره.
وكما أن المجتمع المسلم مجتمع عضوي حركي متناسق متكافل متعاون يتجمع في ولاء واحد، فكذلك
المجتمع الجاهلي: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» ..

إن الأمور بطبيعتها كذلك - كما أسلفنا. إن المجتمع الجاهلي لا يتحرك كأفراد إنما يتحرك ككائن
عضوي، تندفع أعضاؤه، بطبيعة وجوده وتكوينه، للدفاع الذاتي عن وجوده وكيانه. فهم بعضهم أولياء
بعض طبعاً وحكماً.. ومن ثم لا يملك الإسلام أن يواجههم إلا في صورة مجتمع آخر له ذات
الخصائص، ولكن بدرجة أعمق وأمتن وأقوى. فأما إذا لم يواجههم بمجتمع ولاؤه بعضه لبعض، فستقع
الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلي - لأنهم لا يملكون مواجهة المجتمع الجاهلي المتكافل أفراداً - وتقع
الفتنة في الأرض عامة بغلبة الجاهلية على الإسلام بعد وجوده. ويقع الفساد في الأرض بطغيان الجاهلية
على الإسلام وطغيان ألوهية العباد على ألوهية الله ووقوع الناس عبيدا للعباد مرة أخرى. وهو أفسد
الفساد: «إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ» ..

ولا يكون بعد هذا النذير نذير، ولا بعد هذا التحذير تحذير.. والمسلمون الذين لا يقيمون وجودهم
على أساس التجمع العضوي الحركي ذي الولاء الواحد والقيادة الواحدة، يتحملون أمام الله - فوق
ما يتحملون في حياتهم ذاتها - تبعة تلك الفتنة في الأرض، وتبعة هذا الفساد الكبير.

ثم يعود السياق القرآني ليقرر أن الإيمان الحق إنما يتمثل في هذه الصورة: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ» ..
أولئك هم المؤمنون حقاً.. فهذه هي الصورة الحقيقية التي يتمثل فيها الإيمان.. هذه هي صورة النشأة
الحقيقية والوجود الحقيقي لهذا الدين.. إنه لا يوجد حقيقة بمجرد إعلان القاعدة النظرية ولا بمجرد
اعتناقها ولا حتى بمجرد القيام بالشعائر التعبدية فيها.. إن هذا الدين منهج حياة لا يتمثل في وجود
فعلي، إلا إذا تمثل في تجمع حركي.. أما وجوده في صورة عقيدة فهو وجود حكمي، لا يصبح (حقاً)
إلا حين يتمثل في تلك الصورة الحركية الواقعية ..

وهؤلاء المؤمنون حقاً، لهم مغفرة ورزق كريم.. والرزق يذكر هنا بمناسبة الجهاد والإنفاق والإيواء
والنصرة وتكاليف هذا كله.. وفوقه المغفرة وهي من الرزق الكريم. بل هي أكرم الرزق الكريم.

ثم يلحق بالطبقة الأولى من المهاجرين المجاهدين، كل من يهاجر بعد ذلك ويجاهد - وإن كانت
للسابقين درجاتهم كما تقرر النصوص القرآنية الأخرى - إنما هذا إلحاق في الولاء والعضوية في
المجتمع الإسلامي: «وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ» ..

ولقد ظل شرط الهجرة قائماً حتى فتح مكة حين دانت أرض العرب للإسلام ولقيادته، وانتظم الناس
في مجتمعه. فلا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد وعمل. كما قال رسول الله - ﷺ - غير أن ذلك إنما كان
في جولة الإسلام الأولى التي حكم فيها الأرض ألفاً ومائتي عام تقريباً لم ينقطع فيها حكم شريعة

الإسلام، وقيام القيادة المسلمة على شريعة الله وسلطانه.. فأما اليوم وقد عادت الأرض إلى الجاهلية وارتفع حكم الله - سبحانه - عن حياة الناس في الأرض، وعادت الحاكمية إلى الطاغوت في الأرض كلها، ودخل الناس في عبادة العباد بعد إذ أخرجهم الإسلام منها.. الآن تبدأ جولة جديدة أخرى للإسلام - كالجولة الأولى - تأخذ - في التنظيم - كل أحكامها المرحلية، حتى تنتهي إلى إقامة دار إسلام وهجرة ثم تمتد ظلال الإسلام مرة أخرى - بإذن الله - فلا تعود هجرة ولكن جهاد وعمل كما حدث في الجولة الأولى ..

ولقد كانت لفترة البناء الأولى للوجود الإسلامي أحكامها الخاصة، وتكاليفها الخاصة.. قام الولاء في العقيدة مقام الولاء في الدم، في كل صوره وأشكاله، وفي كل التزاماته ومقتضياته.. بما في ذلك الإرث والتكافل في الديات والمغارم.. فلما أن استقر الوجود الإسلامي بيوم الفرقان في بدر عدلت أحكام تلك الفترة الاستثنائية، اللازمة لعملية البناء الأولى، لمواجهة لتكاليفها الاستثنائية. وكان من هذه التعديلات عودة التوارث والتكافل في الديات وغيرها إلى القرابة - ولكنه في إطار المجتمع المسلم في دار الإسلام: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ» ..

فلا بأس بعد استقرار الوجود الفعلي للإسلام، من أولوية ذوي القربى في داخل الإطار العام.. إن هذا يلي جانباً فطرياً في النفس الإنسانية. ولا ضرر من تلبية المشاعر الفطرية في النفس الإنسانية، ما دام أن ليس هناك ما يعارض هذه المشاعر من تكاليف الوجود الإسلامي.. إن الإسلام لا يحطم المشاعر الفطرية ولكنه يضبطها. يضبطها لتستقيم مع الحاجات العليا للوجود الإسلامي فمتى انقضت هذه الحاجات عاد يلببها - في إطاره العام. ومن ثم تكون لبعض الفترات الاستثنائية في الحركة تكاليفها الخاصة، التي ليست واردة في الأحكام النهائية للإسلام، التي تحكم المجتمع الإسلامي المستقر الآمن في حياته العادية.. وكذلك ينبغي أن نفقه تكاليف مرحلة البناء الأولى وطبيعة الإسلام العامة وأحكامه الأخرى ..

«إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».. وهو التعقيب المناسب على هذه الأحكام والتنظيمات والمشاعر، وتداخلها وتنظيمها وتنسيقها. فهي من العلم المحيط بكل شيء. علم الله تعالى .. وبعد فإن الإسلام - وهو بيني الأمة المسلمة على هذه القاعدة وفق هذا المنهج وقيم وجودها على أساس التجمع العضوي الحركي ويجعل آصرة هذا التجمع هي العقيدة - إنما كان يستهدف إبراز «إنسانية الإنسان» وتقويتها وتمكينها، وإعلاءها على جميع الجوانب الأخرى في الكائن الإنساني. وكان يضي في هذا على منهجه المطرد في كل قواعده وتعليماته وشرائعه وأحكامه ..

إن الكائن الإنساني يشترك مع الكائنات الحيوانية - بل الكائنات المادية - في صفات توهم أصحاب «الجهالة العلمية!» مرة بأنه حيوان كسائر الحيوان ومرة بأنه مادة كسائر المواد! ولكن الإنسان مع

اشترাকে في هذه «الصفات» مع الحيوان ومع المادة له «خصائص» تميزه وتفردته وتجعل منه كائنا فريدا - كما اضطر أصحاب «الجهالة العلمية»!

أخيرا أن يعترفوا والحقائق الواقعة تلوي أعناقهم ليا، فيضطرون لهذا الاعتراف في غير إخلاص ولا صراحة!^{٥٦٥}

والإسلام - بمنهج الرباني - يعتمد إلى هذه الخصائص التي تميز «الإنسان» وتفردته بين الخلائق فيبرزها وينميها ويعليها.. وهو حين يجعل آصرة العقيدة هي قاعدة التجمع العضوي الحركي، التي يقيم على أساسها وجود الأمة المسلمة، إنما يمضي على خطته تلك. فالعقيدة تتعلق بأعلى ما في «الإنسان» من «خصائص»..

إنه لا يجعل هذه الآصرة هي النسب، ولا اللغة، ولا الأرض، ولا الجنس، ولا اللون، ولا المصالح، ولا المصير الأرضي المشترك.. فهذه كلها أواصر يشترك فيها الحيوان مع الإنسان. وهي أشبه شيء وأقرب شيء إلى أواصر القطيع، وإلى اهتمامات القطيع، وإلى الحظيرة والمرعى والثغاء الذي يتفاهم به القطيع! أما العقيدة التي تفسر للإنسان وجوده، ووجود هذا الكون من حوله تفسيرا كليا كما تفسر له منشأ وجوده ووجود الكون من حوله، ومصيره ومصير الكون من حوله وترده إلى كائن أعلى من هذه المادة وأكبر وأسبق وأبقى، فهي أمر آخر يتعلق بروحه وإدراكه المميز له من سائر الخلائق، والذي ينفرد به عن سائر الخلائق والذي يقرر «إنسانيته» في أعلى مراتبها حيث يخلف وراءه سائر الخلائق. ثم إن هذه الآصرة - آصرة العقيدة والتصور والفكرة والمنهج - هي آصرة حرة يملك الفرد الإنساني اختيارها بمحض إرادته الواعية. فأما أواصر القطيع تلك فهي مفروضة عليه فرضا، لم يختارها ولا حيلة له كذلك فيها.. إنه لا يملك تغيير نسبه الذي نماء ولا تغيير الجنس الذي تسلسل منه ولا تغيير اللون الذي ولد به. فهذه كلها أمور قد تقرر في حياته قبل أن يولد، لم يكن له فيها اختيار، ولا يملك فيها حيلة..

كذلك مولده في أرض بعينها، ونطقه بلغة بعينها بحكم هذا المولد، وارتباطه بمصالح مادية معينة ومصير أرضي معين - ما دامت هذه هي أواصر تجمعهم مع غيره - كلها مسائل عسيرة التغيير ومجال «الإرادة الحرة» فيها محدود.. ومن أجل هذا كله لا يجعلها الإسلام هي آصرة التجمع الإنساني.. فأما العقيدة والتصور والفكرة والمنهج، فهي مفتوحة دائما للاختيار الإنساني، ويملك في كل لحظة أن يعلن فيها اختياره وأن يقرر التجمع الذي يريد أن ينتمي إليه بكامل حريته فلا يقيد في هذه الحالة قيد من لونه أو لغته أو جنسه أو نسبه، أو الأرض التي ولد فيها، أو المصالح المادية التي تتحول بتحول التجمع الذي يريده ويختاره... وهنا كرامة الإنسان في التصور الإسلامي..

^{٥٦٥} - في مقدمة هؤلاء جوليان ها كسلي من أصحاب «الداروينية الحديثة». (السيد رحمه الله)

ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامي في هذه القضية وإقامة التجمع الإسلامي على أصرة العقيدة وحدها، دون أوامر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريبة والحدود الإقليمية السخيفة! وإبراز «خصائص الإنسان» في هذا التجمع وتنميتها وإعلائها، دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان.. كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعا مفتوحا لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات، بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة! وأن صبت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت وأنشأت مركبا عضويا فائقا في فترة تعد نسبيا قصيرة وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة. على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان.

لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق: العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والأندونيسي والإفريقي... إلى آخر الأقوام والأجناس. وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية. ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما «عربية» إنما كانت دائما «إسلامية». ولم تكن يوما ما «قومية» إنما كانت دائما «عقدية»..

ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة، وبأصرة الحب، وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة.. فبدلوا جميعا أقصى كفاياتهم، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية التاريخية في بناء هذا المجتمع الواحد الذي ينتسبون إليه جميعا على قدم المساواة وتجمع فيه بينهم أصرة تتعلق برهم الواحد وتبرز فيها «إنسانيتهم» وحدها بلا عائق.. وهذا ما لم يتجمع قط لأي تجمع آخر على مدار التاريخ!..

لقد كان أشهر تجمع بشري في التاريخ القديم هو تجمع الإمبراطورية الرومانية مثلا. فقد ضمت بالفعل أجناسا متعددة ولغات متعددة، وأرضين متعددة... ولكن هذا كله لم يرقم على أصرة «إنسانية» ولم يتمثل في قيمة عليا كالعقيدة.. لقد كان هناك تجمع طبقي على أساس طبقة الأشراف وطبقة العبيد في الإمبراطورية كلها من ناحية، وتجمع عنصري على أساس سيادة الجنس الروماني - بصفة عامة - وعبودية سائر الأجناس الأخرى.. ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامي ولم يؤت الثمار التي آتاها التجمع الإسلامي.

كذلك قامت في التاريخ الحديث تجمعات أخرى.. تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلا.. ولكنه كان كالتجمع الروماني الذي هو وريثه! تجمع قوميا استغلاليا يقوم على أساس سيادة القومية الإنجليزية، واستغلال المستعمرات التي تضمها الإمبراطورية.. ومثله الإمبراطوريات الأوروبية كلها: الإمبراطورية الأسبانية والبرتغالية في وقت ما، والإمبراطورية الفرنسية.. وكلها في ذلك المستوى

المهابط البشع المقيت! وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعا من نوع آخر، يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون.

ولكنها لم تقمه على قاعدة «إنسانية» عامة. إنما أقامته على القاعدة «الطبقية».. فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الروماني القديم.. هذا تجمع على قاعدة طبقة «الأشراف» وذلك تجمع على قاعدة طبقة «الصعاليك» (البروليتريا) والعاطفة التي تسوده هي عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى! وما كان لمثل هذا التجمع الصغير أن يثمر إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني.. فهو ابتداء قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها باعتبار أن «المطالب الأساسية» للإنسان هي «الطعام والمسكن والجنس» - وهي مطالب الحيوان الأولية - وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام!!!

لقد تفرد الإسلام بمنهجه الرباني في إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلائها في بناء المجتمع الإنساني.. وما يزال مفردا.. والذين يعدلون عنه إلى أي منهج آخر، يقوم على أية قاعدة أخرى من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة.. إلى آخر هذا التفتت السخيف هم أعداء الإنسان حقاً! هم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق.. وهم في الوقت ذاته يسبحون ضد التيار ويعملون ضد خط الصعود الإنساني ليعودوا بالإنسان إلى التجمع على مثل ما تتجمع عليه «البهائم» من الحظيرة والكأ! بعد أن رفعه الله إلى ذلك المقام الكريم الذي يتجمع فيه على ما يليق أن تتجمع عليه «الناس»! وأعجب العجب أن يسمى التجمع على خصائص الإنسان العليا تعصبا وجهودا ورجعية، وأن يسمى التجمع على مثل خصائص الحيوان تقدما ورقيا ونهضة وأن تقلب القيم والاعتبارات كلها لا لشيء إلا للهروب من التجمع على أساس العقيدة.. خصيصة الإنسان العليا.. ولكن الله غالب على أمره. وهذه الانتكاسات الحيوانية الجاهلية في حياة البشرية لن يكتب لها البقاء..

وسيكون ما يريد الله حتما.. وستحاول البشرية ذات يوم أن تقيم تجمعاتها على القاعدة التي كرم الله الإنسان بها. والتي تجمع عليها المجتمع المسلم الأول فكان له تفرد التاريخ الفائق. وستبقى صورة هذا المجتمع تلوح على الأفق، تتطلع إليها البشرية وهي تحاول مرة أخرى أن ترقى في الطريق الصاعد إلى ذلك المرتقى السامي الذي بلغت إليه في يوم من الأيام...^{٥٦٦}

٧٩ - أن يكونوا من المتقين:

^{٥٦٦} في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢١٠٣)

قال تعالى: { إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [التوبة: ٣٦]

وقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ جَمِيعَكُمْ كَافَّةً، وَكُونُوا يَدًا وَاحِدَةً فِي دَفْعِ عُدُوَانِهِمْ، وَكَفَّ أَذَاهُمْ، لِأَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا لِهَدْمِ دِينِكُمْ، وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِ، وَإِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ، فَأَنْتُمْ أَجْدَرُ بِالِاتِّحَادِ لِدَفْعِ الْعُدُوَانِ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ، يَنْصُرُهُمْ وَيُعِدُّهُمْ بِعَوْنِهِ وَجُنْدِهِ .^{٥٦٧}

وفي قوله تعالى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» تذكير للمسلمين بما وصاهم به الإسلام من آداب القتال، وهي ألا يعتدوا، فإن اعتدى عليهم ردّوا الاعتداء.. ولكن لما كان عدوان المعتدى باعثا على النعمة منه، جاء قوله تعالى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» ضابطا لمشاعر الانتقام من العدو المعتدى، مذكرا للمسلمين بالتقوى في هذا الموطن، فلا يأخذون أكثر من حقهم في تأديب العدو، وكسر شوكرته، فإذا تخلى المسلمون عن التقوى في هذا الموطن تخلى عنهم عون الله ونصره.^{٥٦٨}

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ يُرِيدُ مَعَ أَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ يَخْشَوْنَهُ فِي أَدَاءِ الطَّاعَاتِ وَالِاجْتِنَابِ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ. قَالَ الزَّجَّاجُ: تَأْوِيلُهُ أَنَّهُ ضَامِنٌ لَهُمُ النِّصْرَ.^{٥٦٩}

ولما كانت النفوس - في الغالب - لا تقف على حدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها التشفي، أمر تعالى بلزوم تقواه، التي هي الوقوف عند حدوده، وعدم تجاوزها، وأخبر تعالى أنه { مَعَ الْمُتَّقِينَ } أي: بالعون، والنصر، والتأييد، والتوفيق. ومن كان الله معه، حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه، وخذله، فوكله إلى نفسه فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد.^{٥٧٠}

فالنصر للمتقين الذين يتقون أن ينتهكوا حرمة الله، وأن يخلوا ما حرم الله، وأن يحرفوا نوااميس الله. فلا يقعد المسلمون عن جهاد المشركين كافة، ولا يتخوفوا من الجهاد الشامل. فهو جهاد في سبيل الله يقفون فيه عند حدوده وآدابه ويتوجهون به إلى الله يراقبونه في السر والعلانية. فلهم النصر، لأن الله معهم، ومن كان الله معه فهو المنصور بلا جدال.^{٥٧١}

٨٠ - إرادة إحدى الحسينين:

^{٥٦٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٧٢، بترقيم الشاملة آليا)

^{٥٦٨} - التفسير القرآني للقرآن (١/ ٢١٦)

^{٥٦٩} - تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٦ / ٤٤)

^{٥٧٠} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٠)

^{٥٧١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٢٦٤)

قال تعالى: {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ } [التوبة: ٥٢]

وقُلْ يَا مُحَمَّدٌ: هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا، وَتَنْتَظِرُونَ أَنْ يَقَعَ لَنَا، إِلَّا وَاحِدَةً مِنْ اثْنَتَيْنِ: وَكِلْتَاهُمَا خَيْرٌ لَنَا وَفِيهِمَا حَسَنَةٌ: شَهَادَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ظَفَرٌ. أَمَّا نَحْنُ فَإِنَّا نَنْتَظِرُ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ عَذَابُ اللَّهِ، أَوْ أَنْ يُسَلِّطَنَا عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ فَنُذِيقَكُمْ بِأَسْنَا. ٥٧٢

اعْلَمْ أَنَّ هَذَا هُوَ الْجَوَابُ الثَّانِي عَنْ فَرَحِ الْمُنَافِقِينَ بِمَصَائِبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا ذَهَبَ إِلَى الْغَزْوِ، فَإِنْ صَارَ مَغْلُوبًا مَقْتُولًا فَازَ بِالِاسْمِ الْحَسَنِ فِي الدُّنْيَا وَالثَّوَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلشُّهَدَاءِ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنْ صَارَ غَالِبًا فَازَ فِي الدُّنْيَا بِالْمَالِ الْحَلَالِ وَالِاسْمِ الْجَمِيلِ، وَهِيَ الرُّجُوعِيَّةُ وَالشُّوْكَةُ وَالْقُوَّةُ، وَفِي الْآخِرَةِ، بِالثَّوَابِ الْعَظِيمِ. وَأَمَّا الْمُنَافِقُ إِذَا قَعَدَ فِي بَيْتِهِ فَهُوَ فِي الْحَالِ فِي بَيْتِهِ مَذْمُومًا مَنْسُوبًا إِلَى الْجَبَنِ وَالْفَشْلِ وَضَعْفِ الْقَلْبِ وَالْفَنَاعَةِ بِالْأُمُورِ الْخَسِيسَةِ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ يُشَارِكُهُ فِيهَا النِّسْوَانُ وَالصَّبِيَّانُ وَالْعَاجِزُونَ مِنَ النِّسَاءِ، ثُمَّ يَكُونُونَ أَبَدًا خَائِفِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَفِي الْآخِرَةِ إِنْ مَاتُوا فَقَدْ انْتَقَلُوا إِلَى الْعَذَابِ الدَّائِمِ فِي الْقِيَامَةِ، وَإِنْ أَذِنَ اللَّهُ فِي قَتْلِهِمْ وَقَعُوا فِي الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالنَّهْبِ، وَانْتَقَلُوا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى عَذَابِ النَّارِ، فَالْمُنَافِقُ لَا يَتَرَبَّصُ بِالْمُؤْمِنِ إِلَّا إِحْدَى الْحَالَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا فِي غَايَةِ الْجَلَالَةِ وَالرَّفْعَةِ وَالشَّرَفِ، وَالْمُسْلِمُ يَتَرَبَّصُ بِالْمُنَافِقِ إِحْدَى الْحَالَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ، أَعْنِي الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْخِزْيِ وَالذُّلِّ وَالْهَوَانِ، ثُمَّ الْإِنْتِقَالَ إِلَى عَذَابِ الْقِيَامَةِ وَالْوُقُوعِ فِي الْقَتْلِ وَالنَّهْبِ مَعَ الْخِزْيِ وَالذُّلِّ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ فِي غَايَةِ الْخَسَاسَةِ وَالِدَّنَاءَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِلْمُنَافِقِينَ: فَتَرَبَّصُوا بِنَا إِحْدَى الْحَالَتَيْنِ الشَّرِيفَتَيْنِ إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ وَوَقُوعَكُمْ فِي إِحْدَى الْحَالَتَيْنِ الْخَسِيسَتَيْنِ النَّازِلَتَيْنِ. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: يُقَالُ فُلَانٌ يَتَرَبَّصُ بِفُلَانِ الدَّوَاتِرِ، وَإِذَا كَانَ يَنْتَظِرُ وَقُوعَ مَكْرُوهِ بِهِ، وَهَذَا قَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ فِيهِ. وَقَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: التَّرَبُّصُ، التَّمَسُّكُ بِمَا يُنْتَظَرُ بِهِ مَجِيءُ حِينِهِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ: فُلَانٌ يَتَرَبَّصُ بِالطَّعَامِ إِذَا تَمَسَّكَ بِهِ إِلَى حِينِ زِيَادَةِ سِعْرِهِ، وَالْحُسْنَى تَأْنِيثُ الْأَحْسَنِ.

وَاحْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا قِيلَ: مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. أَيْ بِعَذَابٍ يُنْزِلُهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، أَوْ بِأَيْدِينَا بِأَنْ يَأْذَنَ لَنَا فِي قَتْلِكُمْ. وَقِيلَ: بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، يَتَنَاوَلُ عَذَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَوْ بِأَيْدِينَا الْقَتْلُ.

فَإِنْ قِيلَ: إِذَا كَانُوا مُنَافِقِينَ لَا يَحِلُّ قَتْلُهُمْ مَعَ إِظْهَارِهِمُ الْإِيمَانَ، فَكَيْفَ يَقُولُ تَعَالَى ذَلِكَ؟

قُلْنَا قَالَ الْحَسَنُ: الْمُرَادُ بِأَيْدِينَا إِنْ ظَهَرَ نِفَاقُكُمْ، لِأَنَّ نِفَاقَهُمْ إِذَا ظَهَرَ كَانُوا كَسَائِرِ الْمُشْرِكِينَ فِي كَوْنِهِمْ حَرْبًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَقَوْلُهُ: فَتَرَبَّصُوا وَإِنْ كَانَ بَصِيعَةً الْأَمْرِ، إِلَّا أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ التَّهْدِيدُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.^{٥٧٣}

والله قد كتب للمؤمنين النصر، ووعدهم به في النهاية، فمهما يصيبهم من شدة، ومهما يلاقوا من ابتلاء، فهو إعداد للنصر الموعود، ليناله المؤمنون عن بينة، وبعد تمحيص، وبوسائله التي اقتضتها سنة الله، نصرا عزيزا لا رخيصة، وعزة تحميها نفوس عزيزة مستعدة لكل ابتلاء، صابرة على كل تضحية. والله هو الناصر وهو المعين: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» ..

والاعتقاد بقدر الله، والتوكل الكامل على الله، لا ينفيان اتخاذ العدة بما في الطوق. فذلك أمر الله الصريح: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...» وما يتكل على الله حق الاتكال من لا ينفذ أمر الله، ومن لا يأخذ بالأسباب، ومن لا يدرك سنة الله الجارية التي لا تحابي أحدا، ولا تراعي خاطر إنسان! على أن المؤمن أمره كله خير. سواء نال النصر أو نال الشهادة. والكافر أمره كله شر سواء أصابه عذاب الله المباشر أو على أيدي المؤمنين: «قُلْ: هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا. فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ» ..

فماذا يترصد المنافقون بالمؤمنين؟ إنما الحسنى على كل حال. النصر الذي تعلو به كلمة الله، فهو جزاؤهم في هذه الأرض، أو الشهادة في سبيل الحق عليا الدرجات عند الله. وماذا يترصد المؤمنون بالمنافقين؟ إنه عذاب الله يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين أو يبطش المؤمنين بهم كما وقع من قبل للمشركين .. «فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ» والعاقبة معروفة .. والعاقبة للمؤمنين.^{٥٧٤}

٨١ - البداية بقتال الأقربين من الكفار والفجار:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ١٢٣]

يُبين الله تعالى للمؤمنين الطريق الأمثل في قتال الكفار، وذلك بأن يندؤوا بقتال الأقرب فالأقرب منهم إلى أرض الإسلام، وبذلك لا يبقى مجال لأن يؤخذ المسلمون من خلفهم من قبل أعدائهم، إذا تركوا من هم قُرْبُهُمْ وذهبوا لِيُقَاتِلُوا من خلف أعدائهم، ولهذا بدأ الرسول ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، ولما انتهى من العرب شرع في قتال أهل الكتاب فتجهز لغزو الروم، لأنهم أهل الكتاب

^{٥٧٣} - تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٦ / ٦٧)

^{٥٧٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٢٧٦)

وهكذا كان المسلمون كلما علوا أمة انتقلوا إلى من هم بعدهم، ثم الذين يلوهم من العتاة الفجار وهكذا .

ويأمر الله المؤمنين بأن يكونوا أشداء في قتال الكفار، وأن يظهروا لهم غلظة وشدة وخشونة في القتال، ليدخلوا الوهن إلى نفوسهم، ونفوس من خلفهم . ومن صفات المؤمنين أن يكونوا أشداء على الكفار، رُحماء بينهم . ويخبر الله المؤمنين بأنه معهم يثبتهم وينصرهم إذا اتقوه وأطاعوه .^{٥٧٥}

اعلم أنه نقل عن الحسن أنه قال: هذه الآية نزلت قبل الأمر بقتال المشركين كافة، ثم إنها صارت منسوخة بقوله: قاتلوا المشركين كافة [التوبة: ٣٦] وأما المحققون فإنهم أنكروا هذا النسخ وقالوا: إنه تعالى لما أمر بقتال المشركين كافة أرشدهم في ذلك الباب إلى الطريق الأصوب الأصلح، وهو أن يتدثروا من الأقرب فالأقرب، منتقلين إلى الأبعد فالأبعد. ألا ترى أن أمر الدعوة وقع على هذا الترتيب قال تعالى: وأندِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [الشعراء: ٢١٤] وأمر الغزوات وقع على هذا الترتيب لأنه عليه السلام/ حارب قومه، ثم انتقل منهم إلى غزو سائر العرب ثم انتقل منهم إلى غزو الشام، والصحابه رضي الله عنهم لما فرغوا من أمر الشام دخلوا العراق. وإنما قلنا: إن الابتداء بالغزو من المواضع القريبة أولى لوجوه: الأول: أن مقابلة الكل دفعة واحدة متعذرة، ولما تساوى الكل في وجوب القتال لما فيهم من الكفر والمحاربة وامتنع الجمع، وجب الترجيح، والقرب مرجح ظاهر كما في الدعوة، وكما في سائر المهمات، ألا ترى أن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الابتداء بالحاضر أولى من الذهاب إلى البلاد البعيدة لهذا المهم، فوجب الابتداء بالأقرب . والثاني: أن الابتداء بالأقرب أولى لأن التفقات فيه أقل، والحاجة إلى الدواب والآلات والآدوات أقل. الثالث:

أن الفرقة المجاهدة إذا تجاوزوا من الأقرب إلى الأبعد فقد عرضوا الذراري للفتنة. الرابع: أن المجاورين لدار الإسلام إما أن يكونوا أقوياء أو ضعفاء، فإن كانوا أقوياء كان تعرضهم لدار الإسلام أشد وأكثر من تعرض الكفار المتباعدين، والشتر الأقوى الأكثر أولى بالدفع، وإن كانوا ضعفاء كان استيلاء المسلمين عليهم أسهل، وحصول عز الإسلام لسبب انكسارهم أقرب وأيسر، فكان الابتداء بهم أولى. الخامس: أن وقوف الإنسان على حال من يقرب منه أسهل من وقوفه على حال من يبعد منه، وإذا كان كذلك كان اقتدار المسلمين على مقاتلة الأقربين أسهل لعلمهم بكيفية أحوالهم وبمقادير أسلحتهم وعدد عساكرهم. السادس: أن دار الإسلام واسعة، فإذا اشتغل أهل كل بلد بقتال من يقرب منهم من الكفار كانت المؤنة أسهل، وحصول المقصود أيسر. السابع: أنه إذا اجتمع واجبان وكان أحدهما أيسر حصولاً وجب تقديمه، والقرب سبب السهولة، فوجب الابتداء بالأقرب .

^{٥٧٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣٥٩، بترقيم الشاملة آليا)

الثَّامِنُ: إِنَّا بَيَّنَّا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ابْتَدَأَ فِي الدَّعْوَةِ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ، وَفِي الْعَزْوِ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ، وَفِي جَمِيعِ الْمُهَمَّاتِ كَذَلِكَ. فَإِنَّ

الْأَعْرَابِيَّ لَمَّا جَلَسَ عَلَى الْمَائِدَةِ وَكَانَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى الْجَوَانِبِ الْبَعِيدَةِ مِنْ تِلْكَ الْمَائِدَةِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ: «كُلْ مِمَّا يَلِيكَ»

فَدَلَّتْ هَذِهِ الْوُجُوهُ عَلَى أَنَّ الْإِبْتِدَاءَ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ وَاجِبٌ.

فَإِنْ قِيلَ: رَبَّمَا كَانَ التَّخْطِيءُ مِنَ الْأَقْرَبِ إِلَى الْأَبْعَدِ أَصْلَحَ، لِأَنَّ الْأَبْعَدَ يَقَعُ فِي قَلْبِهِ أَنَّهُ إِنَّمَا جَاوَزَ الْأَقْرَبَ لِأَنَّهُ لَا يُقِيمُ لَهُ وَزَنًا.

قُلْنَا: ذَاكَ احْتِمَالٌ وَاحِدٌ، وَمَا ذَكَرْنَا احْتِمَالَاتٍ كَثِيرَةً، وَمَصَالِحُ الدُّنْيَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى تَرْجِيحِ مَا هُوَ أَكْثَرُ مَصْلَحَةً عَلَى مَا هُوَ أَقَلُّ، وَهَذَا الَّذِي قُلْنَاهُ إِنَّمَا قُلْنَاهُ إِذَا تَعَدَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَ مُقَاتِلَةِ الْأَقْرَبِ وَالْأَبْعَدِ، أَمَّا إِذَا أَمَكْنَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْكُلِّ، فَلَا كَلَامَ فِي أَنَّ الْأَوَّلَى هُوَ الْجَمْعُ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ الْبَتَّةَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً قَالَ الرَّجَاجُ: فِيهَا ثَلَاثُ لُغَاتٍ، فَتُحِ الْعَيْنُ وَضُمُّهَا وَكُسْرُهَا.

قَالَ صَاحِبُ «الْكَشَافِ»: الْغِلْظَةُ بِالْكَسْرِ الشَّدَّةُ الْعَظِيمَةُ، وَالْغِلْظَةُ كَالضَّعْطَةِ، وَالْغِلْظَةُ كَالسُّخْطَةِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى الْأَمْرِ بِالتَّغْلِيظِ عَلَيْهِمْ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَاعْلُظْ عَلَيْهِمْ [التَّوْبَةُ: ٧٣] وَقَوْلُهُ: وَلَا تَهْنُوا [آلِ عِمْرَانَ: ١٣٩]، [النِّسَاءُ: ١٠٤] وَقَوْلُهُ فِي صِفَةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ [الْمَائِدَةُ: ٥٤] وَقَوْلُهُ: أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ [الْفَتْحُ: ٢٩] وَلِلْمُفَسِّرِينَ عِبَارَاتٌ فِي تَفْسِيرِ الْغِلْظَةِ، قِيلَ شَجَاعَةٌ وَقِيلَ شِدَّةٌ وَقِيلَ غِيْظًا.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْغِلْظَةَ ضِدُّ الرِّقَّةِ، وَهِيَ الشَّدَّةُ فِي إِحْلَالِ النَّفْمَةِ، وَالْفَائِدَةُ فِيهَا أَنَّهَا أَقْوَى تَأْثِيرًا فِي الرَّجْرِ وَالْمَنْعِ عَنِ الْقَبِيحِ، ثُمَّ إِنَّ الْأَمْرَ فِي هَذَا الْبَابِ لَا يَكُونُ مُطَرِّدًا، بَلْ قَدْ يَحْتَاجُ تَأْرَةً إِلَى الرِّقِّ وَاللُّطْفِ وَأُخْرَى إِلَى الْعُنْفِ، وَلِهَذَا السَّبَبُ قَالَ: وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْإِقْتِصَارُ عَلَى الْغِلْظَةِ الْبَتَّةِ فَإِنَّهُ يَنْفَرُ وَيُوجِبُ تَفَرُّقَ الْقَوْمِ، فَقَوْلُهُ: وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً يَدُلُّ عَلَى تَقْلِيلِ الْغِلْظَةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونُوا بِحَيْثُ لَوْ فَتَشُّوا عَلَى أَخْلَاقِكُمْ وَطَبَائِعِكُمْ لَوْ جَدُّوا فِيكُمْ غِلْظَةً، وَهَذَا الْكَلَامُ إِنَّمَا يَصِحُّ فِيمَنْ أَكْثَرَ أَحْوَالِهِ الرَّحْمَةُ وَالرَّأْفَةُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا يَخْلُو عَنْ نَوْعِ غِلْظَةٍ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْغِلْظَةَ إِنَّمَا تُعْتَبَرُ فِيمَا يَتَّصِلُ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الدِّينِ. وَذَلِكَ إِمَّا بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَالْبَيِّنَةِ، وَإِمَّا بِالْقِتَالِ وَالْجِهَادِ، فَأَمَّا أَنْ يَحْصُلَ هَذَا التَّغْلِيْظُ فِيمَا يَتَّصِلُ بِالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالْمُجَالَسَةِ وَالْمُؤَاكَلَةِ فَلَا.

ثُمَّ قَالَ: وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ وَالْمُرَادُ أَنْ يَكُونَ إِقْدَامُهُ عَلَى الْجِهَادِ وَالْقِتَالِ بِسَبَبِ تَقْوَى اللَّهِ لَا بِسَبَبِ طَلَبِ الْمَالِ وَالنَّجَاهِ، فَإِذَا رَأَاهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ أَحْجَمَ عَنْ قِتَالِهِ، وَإِذَا رَأَاهُ مَالًا إِلَى قَبُولِهِ الْجِزْيَةَ تَرَكَهُ، وَإِذَا كَثُرَ الْعَدُوُّ أَحْزَنَ الْعَنَائِمَ عَلَى وَفْقِ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى. ٥٧٦

وفي قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» - لفت لأنظار المسلمين إلى حماية أنفسهم من خطر العدو المساكن لهم، أو الملاصق لجنمهم، وذلك لا يكون إلا بأن يدخل هذا العدو في الإسلام، وبصبح بعضا منه، أو أن يقاتله المسلمون حتى يقتلعوا شوكته، أو يوهنوا قوته، فلا يكون يوما من الأيام قادرا على مواجهتهم بالضرر، أو مبادأتهم بالعدوان، وذلك من شأنه أن يعطى المجتمع الإسلامى أمنا وسلاما واستقرارا في مواطنه، الأمر الذي يتيح لكل فرد فيه أن يعمل، وأن يحسن العمل فيما هو مهياً له، وراغب فيه..

- وفي قوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ».. تنبيه إلى ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون فيما بينهم وبين الكافرين، فلا بغى ولا عدوان، ولا مجاوزة للحد المطلوب لحماية الدعوة الإسلامية، ودفع كيد الكائدين لها..

فإذا تحقق ذلك، فليس وراءه شيء يطلبه المسلمون لذات أنفسهم، أو لانتقام شخصى. بل يجب أن تكون تقوى الله هي الدستور الذي يأخذ به المسلمون أنفسهم في حربهم لعدوهم.. فلا يعرضوا لامرأة، ولا لطفل، ولا لشيخ، بأذى ولا يتبعوا هاربا، ولا يقضوا على جريح، ولا يمثّلوا بقتيل، ولا يقطعوا شجرا ولا زرعاً، ولا يحرقوا دوراً، ولا يقتلوا حيواناً.. فليس في هذا كله عدو لهم، وإنما عدوهم هو الذي حمل السلاح، وقاتلهم به، فإذا ألقى السلاح، أو عجز عن حمله والقتال به، فشأنه شأن الصبيان والنساء، لا سبيل إلى العدوان عليه.^{٥٧٧}

وهذا أيضا إرشاد آخر، بعدما أرشدتهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال، أرشدتهم إلى أنهم يبدأون بالأقرب فالأقرب من الكفار، والغلظة عليهم، والشدة في القتال، والشجاعة والثبات.

{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} أي: وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى الله، يعنكم وينصركم على عدوكم.

وهذا العموم في قوله: {قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ} مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جدا.^{٥٧٨}

فأما خطة الحركة الجهادية التي تشير إليها الآية في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ»..

فقد سارت عليها الفتوح الإسلامية، تواجه من يلون «دار الإسلام» ويجاورونها، مرحلة فمرحلة. فلما أسلمت الجزيرة العربية - أو كادت ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف قوة يخشى منها على دار الإسلام بعد فتح مكة - كانت غزوة تبوك على أطراف بلاد الروم. ثم كان انسياح الجيوش الإسلامية في بلاد الروم وفي بلاد فارس، فلم يتركوا وراءهم جيوبا ووحدت الرقعة الإسلامية، ووصلت

^{٥٧٧} - التفسير القرآني للقرآن (٦/ ٩٢٠)

^{٥٧٨} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٥٦)

حدودها، فإذا هي كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء، متماسكة الأطراف .. ثم لم يأقها الوهن فيما بعد إلا من تمزقها، وإقامة الحدود المصطنعة فيما بينها على أساس ملك البيوت، أو على أساس القوميات! وهي خطة عمل أعداء هذا الدين على التمكين لها جهد طاقتهم وما يزالون يعملون. وستظل هذه الشعوب التي جعل منها الإسلام «أمة واحدة» في «دار الإسلام» المتصلة الحدود - وراء فواصل الأجناس واللغات والأنساب والألوان - ستظل ضعيفة مهينة إلا أن تثوب إلى دينها، وإلى رايته الواحدة وإلا أن تتبع خطى رسول الله - ﷺ - وتذكر أسرار القيادة الربانية التي كفلت لها النصر والعز والتمكين. ونقف مرة أخرى أمام قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» ..

ف نجد أمرا بقتال الذين يلون المسلمين من الكفار. لا يذكر فيه أن يكونوا معتدين على المسلمين ولا على ديارهم .. ونذكر أن هذا هو الأمر الأخير، الذي يجعل «الانطلاق» بهذا الدين هو الأصل الذي ينبثق منه مبدأ الجهاد، وليس هو مجرد «الدفاع» كما كانت الأحكام المرحلية أول العهد بإقامة الدولة المسلمة في المدينة.

ويريد بعض الذين يتحدثون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام، وعن أحكام الجهاد في الإسلام، وبعض الذين يتعرضون لتفسير آيات الجهاد في القرآن .. أن يتلمسوا لهذا النص النهائي الأخير قيذا من النصوص المرحلية السابقة فيقيدوه بوقوع الاعتداء أو خوف الاعتداء! والنص القرآني بذاته مطلق، وهو النص الأخير! وقد عودنا البيان القرآني عند إيراد الأحكام، أن يكون دقيقا في كل موضع وألا يحيل في موضع على موضع بل يتخير اللفظ المحدد ويسجل التحفظات والاستثناءات والقيود والتخصيصات في ذات النص. إن كان هناك تحفظ أو استثناء أو تقييد أو تخصيص.

ولقد سبق لنا في تقديم السورة في الجزء العاشر، وفي تقديم آيات القتال مع المشركين والقتال مع أهل الكتاب، أن فصلنا القول في دلالة النصوص والأحكام المرحلية والنصوص والأحكام النهائية على طبيعة المنهج الحركي للإسلام فحسبنا ما ذكرناه هناك^{٥٧٩}.

إلا أن الذين يكتبون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام، وعن أحكام الجهاد في الإسلام، والذين يتصدون لتفسير الآيات المتضمنة لهذه الأحكام، يتعاضمهم ويهولهم أن تكون هذه هي أحكام الإسلام! وأن يكون الله - سبحانه - قد أمر الذين آمنوا أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار، وأن يظلوا يقاتلون من يلونهم من الكفار، كلما وجد هناك من يلونهم من الكفار! .. يتعاضمهم ويهولهم أن يكون الأمر الإلهي هكذا، فيروحوون يتلمسون القيود للنصوص المطلقة ويجدون هذه القيود في النصوص المرحلية السابقة! إننا نعرف لماذا يهولهم هذا الأمر ويتعاضمهم على هذا النحو ..

^{٥٧٩} - ص ١٥٦٤ - ١٥٨٣ وص ١٥٨٦ - ١٥٩٨ وص ١٦٠٦ - ١٦٠٩ وص ١٦٢٠ - ١٦٣٠ من الجزء العاشر. (السيد رحمه الله)

إنهم ينسون أن الجهاد في الإسلام جهاد في «سبيل الله».. جهاد لتقرير ألوهية الله في الأرض وطرده الطواغيت المغتصبة لسلطان الله.. جهاد لتحرير «الإنسان» من العبودية لغير الله، ومن فتنته بالقوة عن الدينونة لله وحده والانطلاق من العبودية للعباد.. «حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ».. وأنه ليس جهادا لتغليب مذهب بشري على مذهب بشري مثله. إنما هو جهاد لتغليب منهج الله على مناهج العبيد! وليس جهادا لتغليب سلطان قوم على سلطان قوم، إنما هو جهاد لتغليب سلطان الله على سلطان العبيد! وليس جهادا لإقامة مملكة لعبد، إنما هو جهاد لإقامة مملكة الله في الأرض.. ومن ثم ينبغي له أن ينطلق في «الأرض» كلها، لتحرير «الإنسان» كله. بلا تفرقة بين ما هو داخل في حدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها.. فكلها «أرض» يسكنها «الإنسان» وكلها فيها طواغيت تعبد العباد للعباد! وحين ينسون هذه الحقيقة يهولهم طبعاً أن ينطلق منهج ليكتسح كل المناهج، وأن تنطلق أمة لتخضع سائر الأمم.. إنها في هذا الوضع لا تستساغ! وهي فعلاً لا تستساغ!.. لولا أن الأمر ليس كذلك. وليس له شبيه فيما بين أنظمة البشر اليوم من إمكان التعايش! إنما كلها اليوم أنظمة بشرية. فليس لواحد منها أن يقول:

إنه هو وحده صاحب الحق في البقاء! وليس الحال كذلك في نظام إلهي يواجه أنظمة بشرية ليبطل هذه الأنظمة كلها ويدمرها كي يطلق البشر جميعاً من ذلة العبودية للعباد ويرفع البشر جميعاً إلى كرامة العبودية لله وحده بلا شريك! ثم إنه يهولهم الأمر ويتعاضمهم لأنهم يواجهون هجوماً صليبياً منظماً لثيما ماكرًا خبيثاً يقول لهم: إن العقيدة الإسلامية قد انتشرت بالسيف، وأن الجهاد كان لإكراه الآخرين على العقيدة الإسلامية وانتهاك حرمة حرية الاعتقاد! والمسألة على هذا الوضع لا تكون مستساغة.. لولا أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق.. إن الإسلام يقوم على قاعدة: «لا إكراه في الدينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ».. ولكن لماذا ينطلق إذن بالسيف مجاهداً ولما إذا اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة «يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ»؟.. إنه لأمر آخر غير الإكراه على العقيدة كان هذا الجهاد.. بل لأمر مناقض تماماً للإكراه على العقيدة.. إنه لضمان حرية الاعتقاد كان هذا الجهاد!.. لأن الإسلام كإعلان عام لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد يواجه دائماً طواغيت في الأرض يخضعون العباد للعباد. ويواجه دائماً أنظمة تقوم على أساس دينونة العبيد للعبيد تحرس هذه الأنظمة قوة الدولة أو قوة الدولة أو قوة تنظيمية في صورة من الصور وتحول دون الناس في داخلها ودون سماع الدعوة الإسلامية كما تحول دونهم ودون اعتناق العقيدة إذا ارتضتها نفوسهم، أو تفتنهم عنها بشتى الوسائل.. وفي هذا يتمثل انتهاك حرية الاعتقاد بأقبح أشكاله..

ومن هنا ينطلق الإسلام بالسيف ليحطم هذه الأنظمة، ويدمر هذه القوى التي تحميها.. ثم ماذا؟.. ثم يترك الناس - بعد ذلك - أحراراً حقاً في اختيار العقيدة التي يريدونها. إن شاءوا دخلوا في

الإسلام، فكان لهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما عليهم من واجبات، وكانوا إخوانا في الدين للسابقين في الإسلام! وإن شاءوا بقوا على عقائدهم وأدوا الجزية، إعلانا عن استسلامهم لانطلاق الدعوة الإسلامية بينهم بلا مقاومة ومشاركة منهم في نفقات الدولة المسلمة التي تحميهم من اعتداء الذين لم يستسلموا بعد، وتكفل العاجز منهم والضعيف والمريض كالمسلمين سواء بسواء.

إن الإسلام لم يكره فردا على تغيير عقيدته كما انطلقت الصليبية على مدار التاريخ تذبذب وتقتل وتبيد شعوبا بأسرها - كشعب الأندلس قديما وشعب زنجبار حديثا - لتكرههم على التنصر. وأحيانا لا تقبل منهم حتى التنصر، فتبيدهم لمجرد أنهم مسلمون.. وأحيانا لمجرد أنهم يدينون بمذهب نصراني مخالف لمذهب الكنيسة الرسمية.. وقد ذهب مثلا اثنا عشر ألفا من نصارى مصر ضحايا بصور بشعة إذ أحرقوا أحياء على نار المشاعل لمجرد مخالفتهم لجزئية اعتقادية عن كنيسة روما تتعلق بانثاق الروح القدس من الآب فقط، أو من الآب والابن معا! أو يتعلق بما إذا كان للمسيح طبيعة واحدة لاهوتية، أو طبيعة لاهوتية ناسوتية.. إلى آخر هذه الجزئيات الاعتقادية الجانبية! وأخيرا فإن صورة الانطلاق في الأرض لمواجهة من يلون المسلمين من الكفار تحول المهزومين روحيا في هذا الزمان وتعاظمهم لأنهم يصرون بالواقع من حولهم وبتكاليف هذا الانطلاق فيهمولهم الأمر.. وهو يهول فعلا!.. فهل هؤلاء الذين يحملون أسماء المسلمين، وهم شعوب مغلوبة على أمرها أو قليلة الحيلة عموما! هل هؤلاء هم الذين سينطلقون في الأرض يواجهون أمم الأرض جميعا بالقتال، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله؟! إنه لأمر لا يتصور عقلا.. ولا يمكن أن يكون هذا هو أمر الله فعلا! ولكن فات هؤلاء جميعا أن يروا متى كان هذا الأمر؟ وفي أي ظرف؟ لقد كان بعد أن قامت للإسلام دولة تحكم بحكم الله دانت لها الجزيرة العربية ودخلت في هذا الدين، ونظمت على أساسه. وقبل ذلك كله كانت هناك العصبة المسلمة التي باعت أنفسها لله ببيعة صدق، فنصرها الله يوما بعد يوم، وغزوة بعد غزوة، ومرحلة بعد مرحلة.. وأن الزمان قد استدار اليوم كهيئته يوم بعث الله محمدا - ﷺ - ليدعو الناس - في جاهليتهم - إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فجاهد والقتل التي معه حتى قامت الدولة المسلمة في المدينة. وأن الأمر بالقتال مر بمراحل وأحكام مترقية حتى انتهى إلى تلك الصورة الأخيرة.. وأن بين الناس اليوم وهذه الصورة أن يبدأوا من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول.. ثم يصلوا - يوم أن يصلوا - إلى هذه الصورة الأخيرة بإذن الله.. ويؤمنون أن يكونوا هم هذا الغناء الذي تتقاسمه المذاهب والمناهج والأهواء والذي تتقاسمه الرايات القومية والجنسية والعنصرية. ولكنهم سيكونون العصبة المسلمة الواحدة التي ترفع راية: لا إله إلا الله. ولا ترفع معها راية أخرى ولا شعارا، ولا تتخذ لها مذهبا ولا منهجا من صنع العبيد في الأرض إنما تنطلق باسم الله وعلى بركة الله..

إن الناس لا يستطيعون أن يفقهوا أحكام هذا الدين، وهم في مثل ما هم فيه من الهزال! إنه لن يفقه أحكام هذا الدين إلا الذين يجاهدون في حركة تستهدف تقرير ألوهية الله وحده في الأرض ومكافحة ألوهية الطواغيت!

إن فقه هذا الدين لا يجوز أن يؤخذ عن القاعدين، الذين يتعاملون مع الكتب والأوراق الباردة! إن فقه هذا الدين فقه حياة وحركة وانطلاق. وحفظ ما في متون الكتب. والتعامل مع النصوص في غير حركة، لا يؤهل لفقه هذا الدين، ولم يكن مؤهلاً له في يوم من الأيام! وأخيراً فإن الظروف التي نزل فيها قول الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» ..

تشير إلى أن أول المقصودين به كانوا هم الروم .. وهم أهل كتاب .. ولكن لقد سبق في السورة تقرير كفرهم الاعتقادي والعملية، بما في عقيدتهم من انحراف، وبما في واقعهم من تحكيم شرائع العبيد .. وهذه لفظة لا بد من الوقوف عندها لفقه منهج هذا الدين في الحركة تجاه أهل الكتاب، المنحرفين عن كتابهم، المحتكمين إلى شرائع من صنع رجال فيهم! .. وهي قاعدة تشمل كل أهل كتاب يتحاكمون - راضين - إلى شرائع من صنع الرجال وفيهم شريعة الله وكتابه، في أي زمان وفي أي مكان! ثم لقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار وليجدوا فيهم غلظة، وعقب على هذا الأمر بقوله: «أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» ..

ولهذا التعقيب دلالة .. فالتقوى هنا .. التقوى التي يحب الله أهلها .. هي التقوى التي تنطلق في الأرض تقاتل من يلون المسلمين من الكفار وتقاتلهم في «غلظة» أي بلا هوادة ولا تميع ولا تراجع .. حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

ولكنه ينبغي أن نعرف وأن يعرف الناس جميعاً أنها الغلظة على الذين من شأنهم أن يحاربوا وحدهم - وفي حدود الآداب العامة لهذا الدين - وليست هي الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب! إنه قتال يسبقه إعلان، وتخيير بين: قبول الإسلام، أو أداء الجزية، أو القتال .. ويسبقه نبذ العهد إن كان هناك عهد - في حالة الخوف من الخيانة - (والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية ولا عهد في غير هذه الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين في حالتهم هذه هو الحكم المرحلي الذي كان في حالة تشبه الحالة التي هم فيها).

وهذه آداب المعركة كلها، من وصية رسول الله - ﷺ -:

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَعْدُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ، أَوْ خِلَالٍ، فَأَيَّتَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ادْعُهُمْ إِلَى

الإِسْلَامَ، فَإِنْ أَجَابُوكَ إِلَيْهِ فَأَقْبِلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلِّهِمُ الْجَزِيَّةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَأَقْبِلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّكَ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَبِيكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ ؛ فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخَفِّرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ آبَائِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخَفِّرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِنْ حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا. ٥٨٠

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: وَجِدْتُ امْرَأَةً مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ ٥٨١.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ: إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لَذَلِكَ، فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ، فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لَذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَآتَقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِجَابٌ. ٥٨٢

وَعَنِ رَجُلٍ مِنْ جُهَيْنَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - « لَعَلَّكُمْ تُفَاتِلُونَ قَوْمًا فَتُظْهِرُونَ عَلَيْهِمْ فَيَتَّقَوْنَكُمْ بِأَمْوَالِهِمْ دُونَ أَنْفُسِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ فَيُصَالِحُونَكُمْ عَلَى صُلْحٍ فَلَا تُصِيبُوا مِنْهُمْ شَيْئًا فَوْقَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَصْلُحُ لَكُمْ » ٥٨٣.

وَعَنِ الْعَرَبِاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ، يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَزَلَ بِخَيْبَرَ وَمَعَهُ مَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَأَنَّ صَاحِبَ خَيْبَرَ كَانَ رَجُلًا بَارِدًا مُنْكَرًا، فَأَقْبَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَلَيْسَ أَنْ تَذْبَحُوا حُمْرَنَا، وَتَأْكُلُوا ثَمَرَتَنَا، وَتَدْخُلُوا بُيُوتَنَا، وَتَضْرِبُوا نِسَاءَنَا ؟ فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا ابْنَ عَوْفٍ، ارْكَبْ فَرَسَكَ، فَأَذِّنْ فِي النَّاسِ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنْ اجْتَمِعُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ: فَاجْتَمَعْنَا لَهُ، فَصَلَّى النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ

٥٨٠ - أخرجه مسلم وغيره المسند الجامع [٤٨٤/ ٣] (١٩٠٢) ومسنده أحمد (عالم الكتب) [٦٤٠/ ٧] (٢٣٠٣٠) (٢٣٤١٨)

٥٨١ - مصنف ابن أبي شيبة [٥٦٩/ ١٧] (٣٣٧٨٥ و ٣٣٧٨٤) صحيح

٥٨٢ - أخرجه الجماعة المسند الجامع [٥٥٣/ ٨] (٥٩١١) وهو حديث صحيح مشهور

٥٨٣ - سنن أبي داود - المكتز [١٣٦/ ٣] (٣٠٥٣) والمسند الجامع [١٣٤٧/ ١٨] (١٥٧٢٦) فيه جهالة

لَمْ يَحِلَّ لَكُمْ يَبُوتَ الْمُكَاتِبِينَ إِلَّا بِإِذْنٍ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ، وَلَا تَضْرِبُوا نِسَاءَهُمْ، أَمْ حَسِبَ امْرُؤٌ مِنْكُمْ
وَقَدْ شَبِعَ حَتَّى بَطَنَ وَهُوَ مُتَكَيٍّ عَلَى أَرِيكَتِهِ، لَا يَظُنُّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَمَ شَيْئًا إِلَّا مَا فِي الْقُرْآنِ، أَلَا إِنِّي
قَدْ حَدَّثْتُ وَوَعَّظْتُ بِأَشْيَاءَ هِيَ مِثْلُ الْقُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ، وَأَنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكُمْ مِنَ السَّبَاعِ كُلِّ ذِي نَابٍ، وَلَا
الْحُمْرِ، وَلَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْمُكَاتِبِينَ إِلَّا بِإِذْنٍ، وَلَا تَأْكُلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْئًا إِلَّا مَا طَابُوا لَهُ
نَفْسًا، وَقَالَ: لَا تَضْرِبُوا، أَوْ قَالَ: لَا تَجْلِدُوا نِسَاءَهُمْ " ٥٨٤.

وَعَنِ الْحَسَنِ، قَالَ حَدَّثَ الْأَسْوَدُ بْنُ سَرِيعٍ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَصَّ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ قَالَ: غَزَوْتُ مَعَ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَ غَزَوَاتٍ فَتَنَّاوَلْ أَصْحَابُهُ الذَّرِيَّةَ بَعْدَمَا قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاشْتَدَّ
ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: " أَلَا مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ ثُمَّ تَنَاوَلُوا الذَّرِيَّةَ ؟ " فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْسُوا
أَبْنَاءَ الْمُشْرِكِينَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنَّ أَحْيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ أَمَا إِنَّهُ لَيْسَتْ تُوَلَّدُ نَسَمَةٌ إِلَّا
وُلِدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ فَمَا يَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يُبَيِّنَ عَنْهَا لِسَانُهَا فَأَبْوَاهَا يَهُودَانِهَا أَوْ يُنَصِّرَانِهَا " ٥٨٥.

وَعَنِ الْحَسَنِ، حَدَّثَنَا الْأَسْوَدُ بْنُ سَرِيعٍ وَكَانَ رَجُلًا مِنْ بَنِي سَعْدٍ قَالَ: وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَصَّ فِي هَذَا
الْمَسْجِدِ، يَعْنِي الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ، قَالَ: غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَ غَزَوَاتٍ، قَالَ: فَتَنَّاوَلْ قَوْمَ الذَّرِيَّةِ بَعْدَ
مَا قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَلَا مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ حَتَّى تَنَاوَلُوا
الذَّرِيَّةَ، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَيْسَ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنَّ حَيَارَكُمْ
أَبْنَاءَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّهَا لَيْسَتْ نَسَمَةٌ تُوَلَّدُ إِلَّا وَُلِدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَمَا تَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يُبَيِّنَ عَنْهَا
لِسَانُهَا، فَأَبْوَاهَا يَهُودَانِهَا وَ يُنَصِّرَانِهَا. " ٥٨٦.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ الْجُنُودَ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ
وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَشُرْحَبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ قَالَ لَمَّا رَكِبُوا مَشَى أَبُو بَكْرٍ مَعَ أُمَرَاءِ جُنُودِهِ يُودِّعُهُمْ حَتَّى
بَلَغَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ فَقَالُوا يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ أَتَمْشِي وَنَحْنُ رُكْبَانٌ؟ فَقَالَ: إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ جَعَلَ يُوصِيهِمْ فَقَالَ: أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ فَإِنَّ
اللَّهَ نَاصِرُ دِينِهِ وَلَا تَغْلُوا وَلَا تَعْدِرُوا وَلَا تَجْبُنُوا وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَلَا تَعْصُوا مَا تُؤْمَرُونَ فَإِذَا
لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَادْعُوهُمْ إِلَى ثَلَاثِ حِصَالٍ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ
وَكُفُّوا عَنْهُمْ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُوهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ
مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى
الْمُهَاجِرِينَ وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ عَلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّهُمْ كَأَعْرَابِ
الْمُسْلِمِينَ يَجْرَى عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي فَرَضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَيْسَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَالْعَنَائِمِ شَيْءٌ حَتَّى

٥٨٤ - الآحاد والمثاني [٢/ ٥٢٠] (١٣٣٦) وسنن أبي داود - المكثر [٣/ ١٣٥] (٣٠٥٢) وصحيح الجامع (٧٨٤٠) حسن

٥٨٥ - شرح مشكل الآثار [٤/ ١٣] (١٣٩٤) وتفسير ابن كثير - دار طيبة [٣/ ٥٠٠] صحيح

٥٨٦ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٥/ ٥٨٤] (١٦٣٠٣) ١٦٤١٢ صحيح

يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ فَادْعُوهُمْ إِلَى الْجَزِيَّةِ فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ فَقَاتِلُوهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلَا تُعْرِقَنَّ نَحْلًا وَلَا تُحْرِقْنَهَا وَلَا تَعْقِرُوا بِهِمَةَ وَلَا شَجَرَةً تُثْمِرُ وَلَا تَهْدِمُوا بَيْعَةً وَلَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلَا الشُّيُوخَ وَلَا النِّسَاءَ وَتَسْجُدُونَ أَقْوَامًا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ فَادْعُوهُمْ وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ وَتَسْجُدُونَ آخَرِينَ اتَّخَذَ الشَّيْطَانُ فِي أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ أَفْحَاصًا فَإِذَا وَجَدْتُمْ أُولَئِكَ فَاضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. ٥٨٧

وَعَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ أُمْرَاءَ الْجُنُودِ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَشُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ قَالَ: "أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُ دِينِهِ، وَلَا تَغْلُوا وَلَا تَعْدِرُوا وَلَا تَجْبُنُوا وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، وَلَا تُعْرِقَنَّ نَحْلًا وَلَا تُحْرِقْنَهَا وَلَا تَعْقِرُوا بِهِمَةَ وَلَا شَجَرَةً تُثْمِرُ وَلَا تَهْدِمُوا بَيْعَةً ٥٨٨

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أُمْرَاءِ الْأَجْنَادِ أَنْ لَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَأَنْ تَقْتُلُوا مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمَوَاسِي. ٥٨٩

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، قَالَ: أَتَانَا كِتَابُ عُمَرَ: لَا تَغْلُوا، وَلَا تَعْدِرُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلَيْدًا وَأَتَقُوا اللَّهَ فِي الْفَلَاحِينَ. ٥٩٠

وَعَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، قَالَ: حَدَّثْتُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ بَعَثَ جِيُوشًا إِلَى الشَّامِ فَخَرَجَ يَتَّبِعُ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، فَقَالَ: إِنِّي أُوصِيكُمْ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ صَبِيًّا، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخْرِبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً، وَلَا بَقَرَةً إِلَّا لِمَا كَلَّةٍ، وَلَا تُعْرِقَنَّ نَحْلًا، وَلَا تُحْرِقْنَهُ وَلَا تَغْلُ، وَلَا تَجْبُنَ. ٥٩١

وَعَنْ مَنصُورِ بْنِ الْمُعْتَمِرِ، قَالَ: حَدَّثَنِي شَقِيقُ بْنُ سَلَمَةَ الْأَسَدِيُّ، عَنْ الرَّسُولِ الَّذِي جَرَى بَيْنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَسَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ الْأَشْجَعِيِّ قَالَ: نَدَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ النَّاسَ مَعَ سَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ الْأَشْجَعِيِّ بِالْحَرَّةِ إِلَى بَعْضِ أَهْلِ فَارِسَ، وَقَالَ: "انْطَلِقُوا بِسْمِ اللَّهِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ تُقَاتِلُونَ مَنْ

٥٨٧ - السنن الكبرى للبيهقي - المكثر - (٩ / ٨٥) (١٨٥٩٢) صحيح لغيره

الغلول: الخيانة والسرقة - التمثيل: جدد الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتتكيل به - الخصال: جمع خصلة وهي خلق في الإنسان يكون فضيلة أو رذيلة - الفيء: ما يؤخذ من العدو من مال ومتاع بغير حرب - أبي: امتنع ورفض - الجزية: هي عبارة عن المال الذي يُعقد للكاتب عليه الذمة، وهي فِئلة، من الجزاء، كأنها حَزَتْ عن قتله، والجزية مقابل إقامتهم في الدولة الإسلامية وحمايتهم لهم

٥٨٨ - شرح مشكل الآثار - (٣ / ١٤٤) صحيح لغيره

٥٨٩ - مصنف ابن أبي شيبة - (١٧ / ٥٧٤) (٣٣٧٩١) صحيح

٥٩٠ - مصنف ابن أبي شيبة - (١٧ / ٥٧٤) (٣٣٧٩٢) حسن

الغلول: الخيانة والسرقة - التمثيل: جدد الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتتكيل به

٥٩١ - مصنف ابن أبي شيبة - (١٧ / ٥٧٤) (٣٣٧٩١) صحيح مرسل

كَفَرَ بِاللَّهِ، لَا تَعْلُوا، وَلَا تَعْدُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تُقْتُلُوا امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا شَيْخًا هَمًّا، وَإِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى الْقَوْمِ فَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْجِهَادِ، فَإِنْ قَبِلُوا فَهُمْ مِنْكُمْ، فَلَهُمْ مَا لَكُمْ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ بِلَا جِهَادٍ، فَإِنْ قَبِلُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَأَعْلِمَهُمْ أَنَّهُ لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ، فَإِنْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى الْجَزْيَةِ، فَإِنْ قَبِلُوا فَضَعْ عَنْهُمْ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ، وَضَعْ فِيهِمْ جَيْشًا يُقَاتِلُ مَنْ وَرَاءَهُمْ، وَخَلِّهِمْ وَمَا وَضَعْتَ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَقَاتِلْهُمْ، فَإِنْ دَعَوْكُمْ إِلَى أَنْ تُعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلَا تُعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَلَكِنْ أَعْطُوهُمْ ذِمَّةَ أَنْفُسِكُمْ، ثُمَّ قُولُوا لَهُمْ، فَإِنْ أَبَوْا عَلَيْكُمْ فَقَاتِلْهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ " فَلَمَّا قَدِمْنَا الْبِلَادَ دَعَوْنَاهُمْ إِلَى كُلِّ مَا أَمَرْنَا بِهِ، فَأَبَوْا، فَلَمَّا مَسَّهُمْ الْحَصَرُ نَادَوْنَا: أَعْطُونَا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ مُحَمَّدٍ، فَقُلْنَا: لَا، وَلَكِنَّا نُعْطِيكُمْ ذِمَّةَ أَنْفُسِنَا، ثُمَّ نَفِي لَكُمْ، فَأَبَوْا، فَقَاتَلْنَاهُمْ، فَأَصِيبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيْنَا، فَلَمَّا الْمُسْلِمُونَ أَيْدِيَهُمْ مِنْ مَتَاعٍ وَرَقِيقٍ وَرَفَقَةٍ مَا شَاءُوا، ثُمَّ إِنَّ سَلَمَةَ بْنَ قَيْسٍ أَمِيرَ الْقَوْمِ دَخَلَ، فَجَعَلَ يَتَخَطَّى بُيُوتَ نَارِهِمْ، فَإِذَا بِسَفْطَيْنِ مُعَلَّقَيْنِ بِأَعْلَى الْبَيْتِ، فَقَالَ: مَا هَذَانِ السَّفْطَانِ؟ فَقَالُوا: أَشْيَاءُ كَانَتْ تُعْظَمُ بِهَا الْمُلُوكُ بُيُوتَ نَارِهِمْ، فَقَالَ: أَهْبُطُوهُمَا إِلَيَّ، فَإِذَا عَلَيْهِمَا طَوَائِعُ الْمُلُوكِ بَعْدَ الْمُلُوكِ قَالَ: مَا أَحْسَبُهُمْ طَبَعُوا إِلَّا عَلَى أَمْرِ نَفِيسٍ، عَلَى بِالْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا جَاءُوا أَخْبَرَهُمْ خَبَرَ السَّفْطَيْنِ، فَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَفْضَهُمَا بِمَحْضَرٍ مِنْكُمْ، فَفَضَّيْتُهُمَا، فَإِذَا هُمَا مَمْلُوءَانِ بِمَا لَمْ يَرَ مِثْلُهُ أَوْ قَالَ: لَمْ أَرِ مِثْلَهُ، فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، قَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَبْلَاكُمْ اللَّهُ فِي وَجْهِكُمْ هَذَا، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تَطِيبُوا بِهِذَيْنِ السَّفْطَيْنِ أَنْفُسًا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِحَوَائِجِهِ وَأُمُورِهِ وَمَا يَنْتَابُهُ، فَأَجَابُوهُ بِصَوْتِ رَجُلٍ وَاحِدٍ: إِنَّا نُشْهَدُ اللَّهَ أَنَّا قَدْ فَعَلْنَا، وَطَابَتْ أَنْفُسُنَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَدَعَانِي، فَقَالَ: قَدْ عَاهَدْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْحَرَّةِ، وَمَا أَوْصَانَا، وَمَا اتَّبَعْنَا مِنْ وَصِيَّتِهِ وَأَمْرِ السَّفْطَيْنِ، وَطِيبَ أَنْفُسِ الْمُسْلِمِينَ لَهُ بِهِمَا، فَأَتِ بِهِمَا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَاصْدَفُهُ الْخَبَرَ، ثُمَّ ارْجِعْ إِلَيَّ بِمَا يَقُولُ لَكَ، فَقُلْتُ: مَا لِي بَدٌّ مِنْ صَاحِبٍ، فَقَالَ: خُذْ بِيَدِ مَنْ أَحْبَبْتَ. فَأَخَذْتُ بِيَدِ رَجُلٍ مِنَ الْقَوْمِ، فَانْطَلَقْنَا بِالسَّفْطَيْنِ نَهْزُهُمَا حَتَّى قَدِمْنَا بِهِمَا الْمَدِينَةَ، فَاجْلَسْتُ صَاحِبِي مَعَ السَّفْطَيْنِ، وَانْطَلَقْتُ أَطْلُبُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِذَا بِهِ يُعَدِّي النَّاسَ وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عُكَازٍ وَهُوَ يَقُولُ: " يَا يَرْفَأُ، ضَعْ هَاهُنَا، يَا يَرْفَأُ، ضَعْ هَاهُنَا "، فَجَلَسْتُ فِي غُرْضِ الْقَوْمِ لَا أَكُلُ شَيْئًا فَمَرَّ بِي، فَقَالَ: " أَلَا تُصِيبُ مِنَ الطَّعَامِ؟ " فَقُلْتُ: لَا حَاجَةَ لِي بِهِ، فَرَأَى النَّاسَ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ يَدُورُ فِيهِمْ، فَقَالَ: " يَا يَرْفَأُ، خُذْ خُونَكَ وَقِصَاعَكَ "، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاتَّبَعْتُهُ، فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُ طَرِيقَ الْمَدِينَةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى دَارِ قُرَوَاءٍ عَظِيمَةٍ، فَدَخَلَهَا، فَدَخَلْتُ فِي إِثْرِهِ، ثُمَّ انْتَهَى إِلَى حُجْرَةٍ مِنَ الدَّارِ فَدَخَلَهَا، فَقُمْتُ مَلِيًّا حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ تَمَكَّنَ فِي مَجْلِسِهِ، فَقُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، فَقَالَ: " وَعَلَيْكَ، فَادْخُلْ "، فَدَخَلْتُ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى وَسَادَةٍ مُرْتَفِقًا أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَنِي نَبَذَ إِلَيَّ الَّتِي كَانَ مُرْتَفِقًا، فَجَلَسْتُ عَلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ تَعْرِزُنِي، فَإِذَا حَشَوْهَا لَيْفٌ، قَالَ: " يَا حَارِيَّةُ، أَطْعَمِينَا "، فَجَاءَتْ بِقِصْعَةٍ فِيهَا قِدْرٌ مِنْ خُبْزٍ يَابِسٍ، فَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتًا، مَا فِيهِ مِلْحٌ وَلَا خَلٌّ، فَقَالَ: " أَمَا إِنَّهَا لَوْ "

كَانَتْ رَاضِيَةً أَطْعَمْتَنَا أَطْيَبَ مِنْ هَذَا "، فَقَالَ لِي: " اذْنُ "، فَذَنُوتُ، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَتَنَاوَلُ مِنْهَا قِدْرَةً، فَلَا وَاللَّهِ إِنْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُجِيزَهَا، فَجَعَلْتُ أَلُوكُهَا مَرَّةً مِنْ ذَا الْجَانِبِ، وَمَرَّةً مِنْ ذَا الْجَانِبِ، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى أَنْ أُسَيِّعَهَا، وَأَكَلَ أَحْسَنَ النَّاسِ إِكْلَةً، إِنْ يَتَعَلَّقُ لَهُ طَعَامٌ يَثُوبُ أَوْ شَعْرٌ حَتَّى رَأَيْتُهُ يَلْطَعُ جَوَانِبَ الْقَصْعَةِ، ثُمَّ قَالَ: " يَا جَارِيَّةُ، اسْقِينَا "، فَجَاءَتْ بِسَوِيْقٍ سَلْتُ، فَقَالَ: " أَعْطِيهِ "، فَنَاولْتَنِيهِ، فَجَعَلْتُ إِذَا أَنَا حَرَكْتُهِ ثَارَتْ لَهُ قُشَارٌ، وَإِنْ أَنَا تَرَكْتُهُ تَنَدَ، فَلَمَّا رَأَيْتُ قَدْ بَشَعْتُ ضَحْكَ، فَقَالَ: " مَا لَكَ أَرْنِيهِ إِنْ شِئْتَ "، فَنَاولْتُهُ، فَشَرِبَ حَتَّى وَضَعَ عَلَى جَبْهَتِهِ هَكَذَا ثُمَّ قَالَ: " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا فَأَشْبَعَنَا، وَسَقَانَا فَأَرَوَانَا، وَجَعَلَنَا مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ "، فَقُلْتُ: قَدْ أَكَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَشَبِعَ، وَشَرِبَ فَرَوَى، حَاجَتِي جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ - قَالَ شَقِيقٌ: وَكَانَ فِي حَدِيثِ الرَّسُولِ إِيَّايَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، هَذَا فِي مَوْضِعٍ مِنْهَا مَا قَالَ: لِلَّهِ أَبُوكَ فَمَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: رَسُولُ سَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: فَتَاللَّهِ، لَكَأَنَّمَا خَرَجْتُ مِنْ بَطْنِهِ نَحْنُ عَلَى، وَحُبًّا لَخَبْرِي عَمَّنْ جِئْتُ مِنْ عِنْدِهِ، وَجَعَلَ يَقُولُ وَهُوَ يَزْحَفُ إِلَيَّ: إِيهَآ لِلَّهِ أَبُوكَ، كَيْفَ تَرَكْتَ سَلَمَةَ بْنَ قَيْسٍ؟ كَيْفَ الْمُسْلِمُونَ؟ مَا صَنَعْتُمْ؟ كَيْفَ حَالُكُمْ؟ قُلْتُ: مَا تُحِبُّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَافْتَضَصْتُ عَلَيْهِ الْخَبَرَ إِلَى أَنَّهُمْ نَاصَبُونَا الْقِتَالَ، فَأُصِيبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَاسْتَرْجَعَ وَبَلَغَ مِنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَتَرَحَّمَ عَلَى الرَّجُلِ طَوِيلًا، قُلْتُ: ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيْنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَحًا عَظِيمًا فَمَلَأَ الْمُسْلِمُونَ أَيْدِيَهُمْ مِنْ مَتَاعٍ وَرَفِيقٍ وَرَفَقَةٍ مَا شَاءُوا قَالَ، وَيَحْكُ كَيْفَ اللَّحْمُ بِهَا؟ فَإِنَّهَا شَجَرَةٌ الْعَرَبِ، وَلَا تَصْلُحُ الْعَرَبُ إِلَّا بِشَجَرَتِهَا، قُلْتُ: الشَّاةُ بِدَرَهْمَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: " اللَّهُ أَكْبَرُ "، ثُمَّ قَالَ: وَيَحْكُ هَلْ أُصِيبَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ آخَرُ؟ قَالَ: جِئْتُ إِلَى ذِكْرِ السَّفْطَيْنِ، فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرَهُمَا، فَحَلَفَ الرَّسُولُ عِنْدَهَا يَمِينًا أُخْرَى، اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَكَأَنَّمَا أُرْسِلْتُ عَلَيْهِ الْأَفَاعِي وَالْأَسَاوِدُ وَالْأَرَاقِمُ أَنْ وَتَبَ كَمَا كَانَ تَيْكَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ بِوَجْهِهِ آخِذًا بِحَقْوَتِهِ فَقَالَ: لِلَّهِ أَبُوكَ وَعَلَامٌ يَكُونَانِ لِعُمَرِ؟ وَاللَّهِ لَيْسَتْ قَبْلَنُ الْمُسْلِمُونَ الظُّمَأُ وَالْجُوعُ وَالْخَوْفُ فِي نُحُورِ الْعَدُوِّ، وَعُمَرُ يَعْدُو مِنْ أَهْلِهِ وَيَرُوحُ إِلَيْهِمْ يَتَّبِعُ أَفْيَاءَ الْمَدِينَةِ، أَرْجِعْ بِمَا جِئْتَ بِهِ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهُ أُبَدِّعَ بِي وَبِصَاحِبِي فَأَحْمِلْنَا قَالَ: لَا، وَلَا كَرَامَةَ لِلْآخِرِ مَا جِئْتَ بِمَا أُسْرُ بَعُهُ فَأَحْمِلْكَ، قُلْتُ: يَا لِعِبَادِ اللَّهِ أَيْتَرُكُ رَجُلٌ بَيْنَ أَرْضَيْنِ؟ قَالَ: أَمَّا لَوْ لَا قُلْتَهَا يَا يَرْفَأُ انْطَلِقْ بِهِ فَأَحْمِلْهُ وَصَاحِبُهُ عَلَى نَاقَتَيْنِ ظَهْرَيْنِ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ، ثُمَّ انْخَسِرْ بِهِمَا حَتَّى تُخْرِجَهُمَا مِنَ الْحَرَّةِ، ثُمَّ التَفْتُ إِلَيَّ فَقَالَ: أَمَّا لَنْ شَتَا الْمُسْلِمُونَ فِي مَشَاتِيهِمْ قَبْلَ أَنْ يُفْسَمَا بَيْنَهُمْ لِأَعْدَرَنَ مِنْكَ وَمِنْ صُويْحِبِكَ، ثُمَّ قَالَ: إِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى الْبِلَادِ فَانْظُرْ أَحْوَجَ مَنْ تَرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَادْفَعْ إِلَيْهِ النَّاقَتَيْنِ، فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: ادْعُ لِي الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا جَاءُوا قَالَ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ وَفَرَكُمْ بِسَفْطِيكُمْ، وَرَأَكُمْ أَحَقَّ بِهِمَا مِنْهُ، فَاقْتَسِمُوا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ، فَقَالُوا: أَصْلَحَكَ اللَّهُ

أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّهُ يَنْبَغِي لَهُمَا بَصَرٌ وَتَقْوِيْمٌ وَقِسْمَةٌ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا تَبْرَحُونَ وَأَنْتُمْ تَطْلُبُونِي مِنْهَا بِحَجَرٍ، فَعَدَّ الْقَوْمَ وَعَدَّ الْحِجَارَةَ فَرُبَّمَا طَرَحُوا إِلَى الرَّجُلِ الْحَجَرَيْنِ، وَفَلَقُوا الْحَجَرَ بَيْنَ اثْنَيْنِ " ٥٩٢

وعن حيوة بن شريح: أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث أميرا أو صاهم بتقوى الله وقال عند عقدة الولاية: بسم الله وعلى عون الله وامضوا بتأييد الله والنصر ولزوم الحق والصبر، وقتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ثم لا تجنبوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تنكلوا عند الجهاد ولا تقتلوا امرأة ولا هرما ولا وليدا، وتوقفوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند جمة النهضات، وفي شن الغارات، ولا تغلوا عند الغنائم ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا وأبشروا بالأرباح في البيع الذي بايعتم وذلك هو الفوز العظيم " ٥٩٣

وهكذا تتواتر الأخبار بالخط العام لمستوى المنهج الإسلامي في قتاله لأعدائه، وفي آدابه الرفيعة، وفي الرعاية لكرامة الإنسان. وفي قصر القتال على القوى المادية التي تحول بين الناس وبين أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. وفي اليسر الذي يعامل به حتى أعداءه. أما الغلظة فهي الخشونة في القتال والشدة وليست هي الوحشية مع الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة، غير المحاربين أصلا وليست تمثيلا بالجثث والأشلاء على طريقة المتبررين الذين يسمون أنفسهم متحضرين في هذا الزمان. وقد تضمن الإسلام ما فيه الكفاية من الأوامر لحماية غير المحاربين، واحترام بشرية المحاربين. إنما المقصود هو الخشونة التي لا تميم المعركة وهذا الأمر ضروري لقوم أمروا بالرحمة والرأفة في توكيد وتكرار فوجب استثناء حالة الحرب، بقدر ما تقتضي حالة الحرب، دون رغبة في التعذيب والتمثيل والتنكيل " ٥٩٤.

٥٩٢ - سنن سعيد بن منصور - (٦ / ١١) (٢٢٩٩) حسن

الغلول: الخيانة والسرقة - التمثيل: جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به - أبي: امتنع ورفض - الفيء: ما يؤخذ من العدو من مال ومتاع بغير حرب - الجزية: هي عبارة عن المال الذي يُعَقَدُ لِلْكَتَابِيِّ عَلَيْهِ الذِّمَّةُ، وهي فَعْلَةٌ، من الجزاء، كأنها جَزَتْ عن قتله، والجزية مقابل إقامتهم في الدولة الإسلامية وحمايتهم لهم - الذمة والذمام: العهد، والأمان، والضمان، والحُرْمَةُ، والحق - أبي: رفض وامتنع - التخلل: التحرك والتنقل بين شيئين - في أثره: بعده - مليا: وقتا طويلا - النبذ: الرمي والطرح - القصعة: وعاء يؤكل ويُثَرَّدُ فيه وكان يتخذ من الخشب غالبا - الدنو: الاقتراب - الجارية: الأمة المملوكة أو الشابة من النساء - السويق: طعام يصنع من دقيق القمح أو الشعير يخلطه بالسمن والعسل - السُلْتُ: ضَرَبَ من الشَّعِيرِ أَيْضُ لا قَشْرَ له، وقيل هو نوعٌ من الحِنْطَةِ - إيه: هذه كلمة يراد بها الاستزادة، وهي مبنية على الكسر، فإذا وصلَتْ نَوَّتَ فقلت إيه حَدَّثْنَا، وإذا قلت إيهَا بالنصب فإنما تأمره بالسكوت أو العكس - المتاع: كل ما يُنْتَفَعُ به وَيُسْتَمْتَعُ، أو يُتَبَلَّغُ به وَيُتَزَوَّدُ من سلعة أو مال أو زوج أو أُنْثَى أو ثياب أو مأكَل وغير ذلك - ويُح: كلمة تُرَحَّمُ وتَوَجَّعُ، يقال لمن وَقَعَ فِي هَلَكَةٍ لا يَسْتَحِقُّهَا. وقد يقال بمعنى المدح والتعجب - الشاة: الواحدة من الغنم وقيل: الواحدة من الضأن والمعز والطَّيْءِ والبَقَرِ والنعام وحُمُرِ الوحش - في نحر العدو: في مقابلته وقتاله - العُدُو: السير أول النهار - أَبْدَعَ بفلان: عطبت راحلته وكَلَّتْ وبقي بعيدا عن الرفاق - الإبل: الجمال والنوق ليس له مفرد من لفظه - مشاتيهم: مواضعهم وأماكنهم - برح المكان: زال عنه وغادره

٥٩٣ - جامع الأحاديث - (٢٦ / ١٦٣) (٢٨٧٩٦) وفيه ضعف - هناك زيادات كثيرة من عندي

٥٩٤ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٣٦٦)

قال تعالى: { وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) ويا قوم اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) } سورة هود

ولقد أرسلنا هوداً عليه السلام إلى قوم عاد، وهو منهم (أخاهم) ليأمرهم بعبادة الله وخذله لا شريك له، وترك عبادة الأوثان التي افتروها كذباً، واختلقوا لها الأسماء الإلهية .

وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجراً على نصحه لهم وإبلاغهم رسالة ربهم، وإنما يبغي الثواب من الله، الذي خلقه على الفطرة السليمة، مبرأ من البدع .

ثم قال لهم: أفلا تعقلون ما يُقال لكم فتُمَيِّزُونَ بين ما يضرُّ وما ينفعُ، وأن من يدعوكم إلى ما يضلُّكم في الدنيا والآخرة من غير أجرٍ لا يُمكن أن يكون كاذباً .

وأمر هود قومه باستغفار ربهم من الشرك، ومما أسلفوا من ذنوبهم، وبإخلاص التوبة إليه عما يستقبلونه، وأعلمهم أنه من تاب إلى ربه واستغفره، يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره، وحفظ شأنه، وأرسل السماء عليه بالمطر المتتابع، والإساعة إلى الناس .

قالوا له: يا هود إنك لم تأتنا بحجة وبرهان (بيّنة) على صحة ما تدعيه من أنك رسول الله، ونحن لن نترك عبادة آلهتنا بمجرد قولك لنا اثركوا آلهتكم، ولن نصدقك فيما تقول وتدعي من أنك رسول الله إلينا .

وقالوا له: ما نظنُّ إلا أن بعض آلهتنا أصابك بمسٍّ من جنونٍ وخبالٍ في عقلك (اعتراك)، بسبب هيك إيانا عن عبادتها، وطعنك فيها، فصرت تهذي بهذا الكلام . فرد عليهم هود قائلاً: اشهدوا

أَنْتُمْ، وَإِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ رَبِّي عَلَى مَا أَقُولُ، بِأَنِّي بَرِيءٌ مِنْ جَمِيعِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

فاجتمعوا أنتم وإلهتكم على الكيد لي، ولا تتوانوا في ذلك، ولا تقصروا فيه لحظة، فهو لا يهمني، ولا يضرني في شيء. إِنِّي وَكَلْتُ أُمُورِي إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ الْحَقُّ، خَلَقَ الْمَخْلُوقَاتِ كُلَّهَا، وَجَعَلَهَا تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَهُوَ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يُجُوزُ فِي حُكْمِهِ . وَأَفْعَالُهُ تَعَالَى، تَجْرِي عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِي مُلْكِهِ . أَمَّا الْأَصْنَامُ وَالْأَوْثَانُ فَهِيَ حِجَارَةٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . فَإِنْ تَوَلَّوْا عَمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّكُمْ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةُ بِإِبْلَاجِي إِيَّاكُمْ رَسُولَ اللَّهِ الَّذِي يَعْنِي بِهَا إِلَيْكُمْ، وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَهْلِكَكُمْ وَأَنْ يَأْتِيَ بِقَوْمٍ غَيْرِكُمْ يَخْلَفُونَكُمْ فِي دِيَارِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، يَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ، وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يُبَالِي رَبُّكُمْ بِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَضُرُونَهُ بِكُفْرِكُمْ وَإِعْرَاضِكُمْ، بَلْ يَعُودُ وَبَالُ كُفْرِكُمْ عَلَيْكُمْ وَحَدِّكُمْ، وَرَبِّي رَقِيبٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، قَائِمٌ بِالْحِفْظِ عَلَيْهِ . وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ بِإِهْلَاكِ قَوْمٍ عَادٍ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ، فَأَهْلَكَهُمْ بِهَا جَمِيعًا، وَلَمْ يَنْرُكْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَيًّا . وَنَجَّى اللَّهُ هُودًا وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ، مِنَ الْعَذَابِ الْغَلِيظِ الَّذِي أَنْزَلَهُ بِقَوْمٍ عَادٍ .

وكان ذلك مصير قوم عاد الذين كفروا بربهم، وأنكروا آياته، وكذبوا رُسُلَهُ (لَأَنَّ مَنْ كَذَّبَ رُسُلًا فَقَدْ كَذَّبَ الرُّسُلَ جَمِيعًا) . وَاتَّبَعَ الدَّهْمَاءُ مِنْهُمْ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِنْ رُسُلَائِهِمْ، وَقَادَتِهِمُ الطُّغَاةُ، الَّذِينَ يَأْبُونَ الْحَقَّ، وَلَا يُدْعُونَ لَهُ وَإِنْ قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ . وَبِسَبَبِ كُفْرِهِمْ هَذَا وَعُتُوِّهِمْ، اسْتَحَقُّوا مِنَ اللَّهِ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَالنَّاسِ، لَعْنَةً فِي الدُّنْيَا كُلَّمَا ذُكِرُوا، وَتَتَّبَعُهُمُ اللَّعْنَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَما يُنَادَى عَلَيْهِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ: أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ٥٩٥ .

وكان هود من عاد. فهو أخوهم. واحد منهم، تجمعهم - كانت - آصرة القرى العامة بين أفراد القبيلة الواحدة. وتبرز هذه الآصرة هنا في السياق، لأن من شأنها أن تقوم الثقة والتعاطف والتناصر بين الأخ وإخوته، وليبدو موقف القوم من أخيهام وبنبيهم شاذًا ومستقبحا! ثم لتقوم المفاصلة في النهاية بين القوم وأخيهم على أساس افتراق العقيدة. ويبرز بذلك معنى انقطاع الوشائج كلها حين تنقطع وشيجة العقيدة. لتنفرد هذه الوشيعة وتبرز في علاقات المجتمع الإسلامي، ثم لكي تتبين طبيعة هذا الدين وخطه الحركي ..

فالدعوة به تبدأ والرسول وقومه من أمة واحدة تجمع بينه وبينها أواصر القرى والدم والنسب والعشيرة والأرض... ثم تنتهي بالافتراق وتكوين أمتين مختلفتين من القوم الواحد .. أمة مسلمة وأمة مشركة ..

٥٩٥ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٥٢٤)، بترقيم الشاملة آليا

وبينهما فرقة ومفاصلة .. وعلى أساس هذه المفاصلة يتم وعد الله بنصر المؤمنين وإهلاك المشركين. ولا يجيء وعد الله بهذا ولا يتحقق إلا بعد أن تتم المفاصلة، وتتم المفارقة، وتتميز الصفوف، وينخلع النبي والمؤمنون معه من قومهم، ومن سابق روابطهم ووشائجهم معهم، ويخلعوا ولاءهم لقومهم ولقيادتهم السابقة، ويعطوا ولاءهم كله لله ربهم ولقيادتهم المسلمة التي دعته إلى الله وإلى الدينونة له وحده وخلع الدينونة للعباد .. وعندئذ فقط - لا قبله - يتزل عليهم نصر الله ..

«وإلى عادِ أَخَاهُمْ هُودًا» .. أرسلناه إليهم كما أرسلنا نوحا إلى قومه في القصة السابقة.

«قال: يا قوم» .. بهذا التودد، والتذكير بالأواصر التي تجمعهم، لعل ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم إليه فيما يقول. فالرائد لا يكذب أهله، والناصح لا يغش قومه.

«قال: يا قومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» .. القولة الواحدة التي جاء بها كل رسول وكانوا قد انحرفوا - كما أسلفنا - عن عبادة الله الواحد التي هبط بها المؤمنون مع نوح من السفينة. ولعل أول خطوة في هذا الانحراف كانت هي تعظيم ذكرى الفئة المؤمنة القليلة التي حملت في السفينة مع نوح! ثم تطور هذا التعظيم جيلا بعد جيل فإذا أرواحهم المقدسة تتمثل في أشجار وأحجار نافعة ثم تتطور هذه الأشياء فإذا هي معبودات، وإذا وراءها كهنة وسدنة يعبدون الناس للعباد منهم باسم هذه المعبودات المدعاة - في صورة من صور الجاهلية الكثيرة. ذلك أن الانحراف خطوة واحدة عن نهج التوحيد المطلق. الذي لا يتجه بشعور التقديس لغير الله وحده ولا يدين بالعبودية إلا الله وحده .. الانحراف خطوة واحدة لا بد أن تتبعه مع الزمن خطوات وانحرافات لا يعلم مداها إلا الله.

على أية حال لقد كان قوم هود مشركين لا يدينون لله وحده بالعبودية، فإذا هو يدعوهم تلك الدعوة التي جاء بها كل رسول: «يا قومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ». «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ» .. مفترون فيما تعبدونه من دون الله، وفيما تدعونه من شركاء لله.

ويبادر هود ليوضح لقومه أنها دعوة خالصة ونصيحة محضة، فليس له من ورائها هدف. وما يطلب على النصيح والهداية أجرا. إنما أجره على الله الذي خلقه فهو به كفيل: «يا قومِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا. إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟».

مما يشعر أن قوله: «لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا» كان بناء على اتهام له أو تلميح بأنه يتبغي أجرا أو كسب مال من وراء الدعوة التي يدعوها. وكان التعقيب: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟» للتعجيب من أمرهم وهم يتصورون أن رسولا من عند الله يطلب رزقا من البشر، والله الذي أرسله هو الرزاق الذي يقوت هؤلاء الفقراء! ثم يوجههم إلى الاستغفار والتوبة. ويكرر السياق التعبير ذاته الذي ورد في أول السورة على لسان خاتم الأنبياء، ويعددهم هود ويحذرهم ما وعدهم محمد وحذرهم بعد ذلك بالآلاف السنين:

«وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، وَبَرِّدْكُمْ قُوَّةَ إِلَى قُوَّتِكُمْ. وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ» ..

استغفروا ربكم مما أنتم فيه، وتوبوا إليه فابدأوا طريقاً جديداً يحقق النية ويترجمها إلى عمل يصدق النية

..

«يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا».. وكانوا في حاجة إلى المطر يسقون به زروعهم ودواهم في الصحراء، ويحتفظون به بالخصب الناشئ من هطول الأمطار في تلك البقاع.

«وَيَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ».. هذه القوة التي عرفتم بها ..

«وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ».. مرتكبين لجرمة التولي والتكذيب.

وننظر في هذا الوعد. وهو يتعلق بإدراك المطر ومضاعفة القوة. وهي أمور تجري فيها سنة الله وفق قوانين ثابتة في نظام هذا الوجود، من صنع الله ومشيئته بطبيعة الحال. فما علاقة الاستغفار بها وما علاقة التوبة؟

فأما زيادة القوة فالأمر فيها قريب ميسور، بل واقع مشهود، فإن نظافة القلب والعمل الصالح في الأرض يزيدان التائبين العاملين قوة. يزيدانهم صحة في الجسم بالاعتدال والاقتصار على الطيبات من الرزق وراحة الضمير وهدوء الأعصاب والاطمئنان إلى الله والثقة برحمته في كل آن ويزيدانهم صحة في المجتمع بسيادة شريعة الله الصالحة التي تطلق الناس أحراراً كراماً لا يدينون لغير الله على قدم المساواة بينهم أمام قهار واحد تعنو له الجباه .. كما تطلقان طاقات الناس ليعملوا وينتجوا ويؤدوا تكاليف الخلافة في الأرض غير مشغولين ولا مسخرين. بمراسم التأليه للأرباب الأرضية وإطلاق البخور حولها ودق الطبول، والنفخ فيها ليل نهار لتملاً فراغ الإله الحق في فطرة البشر! والملاحظ دائماً أن الأرباب الأرضية تحتاج ويحتاج معها سدنتها وعبادها أن يخلعوا عليها بعض صفات الألوهية من القدرة والعلم والإحاطة والقهر والرحمة .. أحياناً .. كل ذلك ليدين لها الناس! فالربوبية تحتاج إلى ألوهية معها تخضع بها العباد! وهذا كله يحتاج إلى كد ناصب من السدنة والعباد وإلى جهد ينفقه من يدينون لله وحده في عمارة الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها، بدلاً من أن ينفقه عبادة الأرباب الأرضية في الطبل والزمر والتراتيل والتساييح لهذه الأرباب المفتراة! ولقد تتوافر القوة لمن لا يحكمون شريعة الله في قلوبهم ولا في مجتمعاتهم، ولكنها قوة إلى حين. حتى تنتهي الأمور إلى نهايتها الطبيعية وفق سنة الله، وتتحطم هذه القوة التي لم تستند إلى أساس ركين. إنما استندت إلى جانب واحد من السنن الكونية كالعمل والنظام ووفرة الإنتاج. وهذه وحدها لا تدوم. لأن فساد الحياة الشعورية والاجتماعية يقضي عليها بعد حين.

فأما إرسال المطر. مدراراً. فالظاهر للبشر أنه يجري وفق سنن طبيعية ثابتة في النظام الكوني. ولكن جريان السنن الطبيعية لا يمنع أن يكون المطر محيياً في مكان وزمان، ومدمراً في مكان وزمان وأن يكون من قدر الله أن تكون الحياة مع المطر لقوم، وأن يكون الدمار معه لقوم، وأن ينفذ الله تبشيريه بالخير ووعيده بالشر عن طريق توجيه العوامل الطبيعية فهو خالق هذه العوامل، وجاعل الأسباب

لتحقيق سنته على كل حال. ثم تبقى وراء ذلك مشيئة الله الطليقة التي تصرف الأسباب والظواهر بغير ما اعتاد الناس من ظواهر النواميس وذلك لتحقيق قدر الله كيفما شاء. حيث شاء. بالحق الذي يحكم كل شيء في السماوات والأرض^{٥٩٦} غير مقيد بما عهدته الناس في الغالب.

تلك كانت دعوة هود - ويبدو أنها لم تكن مصحوبة بمعجزة خارقة. ربما لأن الطوفان كان قريباً منهم، وكان في ذاكرة القوم وعلى لسانهم، وقد ذكرهم به في سورة أخرى - فأما قومه فظنوا به الظنون ..

«قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ، وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ، وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ...».

إلى هذا الحد بلغ الانحراف في نفوسهم، إلى حد أن يظنوا أن هوداً يهذي، لأن أحد آلهتهم المفتراة قد مسه بسوء، فأصيب بالهذيان! «يا هود ما جئتنا ببينة» ...

والتوحيد لا يحتاج إلى بينة، إنما يحتاج إلى التوجيه والتذكير، وإلى استجاشة منطق الفطرة، واستنباء الضمير.

«وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ» .. أي لجرد أنك تقول بلا بينة ولا دليل!
«وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» .. أي مستحيين لك ومصدقين .. وما نعلل دعوتك إلا بأنك تهذي وقد أصابك أحد آلهتنا بسوء! وهنا لم يبق لهود إلا التحدي. وإلا التوجه إلى الله وحده والاعتماد عليه. وإلا الوعيد والإنذار الأخير للمكذبين. وإلا المفاصلة بينه وبين قومه ونفض يده من أمرهم إن أصروا على التكذيب: «قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ، وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ، فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَعْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ، وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً، إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ» ..

إنما انتفاضة التبرؤ من القوم - وقد كان منهم وكان أخاهم - وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقاً. وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على وشيعة وقد أنبتت بينهما وشيعة العقيدة.

وهو يشهد الله ربه على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم. ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوهم كي لا تبقى في أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم! وذلك كله مع عزة الإيمان واستعلائه. ومع ثقة الإيمان واطمئنانه!

^{٥٩٦} - سيأتي تفصيل ذلك في التعقيب على القصة. (السيد رحمه الله)

وإن الإنسان ليدّش لرجل فرد يواجه قوما غلاظا شدادا حمقى. يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلا فيهذي ويروا في الدعوة إلى الله الواحد هذيانا من أثر المس! يدّش لرجل يواجه هؤلاء القوم الوثاقين بآلهمتهم المفتراة هذه الثقة، فيسفه عقيدتهم ويقرعهم عليها ويؤنبهم ثم يهيج ضراوتهم بالتحدي. لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم، ولا يدعهم يترثون فيفتأ غضبهم. إن الإنسان ليدّش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد. ولكن الدهشة تزول عند ما يتدبر العوامل والأسباب ..

إنه الإيمان. والثقة. والاطمئنان .. الإيمان بالله، والثقة بوعده، والاطمئنان إلى نصره .. الإيمان الذي يخالط القلب فإذا وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة. لأنهما ملء يديه، وملء قلبه الذي بين جنبيه، وليست وعدا للمستقبل في ضمير الغيب، إنما هي حاضر واقع تتملاه العين والقلب.

«قال: إني أشهد الله واشهدوا أي بريء مما تشركون من دونه». إني أشهد الله على براءتي مما تشركون من دونه. واشهدوا أنتم شهادة تبرئني وتكون حجة عليكم: أنني عالنتكم بالبراءة مما تشركون من دون الله. ثم تجمعوا أنتم وهذه الآلهة التي تزعمون أن أحدها مسني بسوء.

تجمعوا أنتم وهي - جميعا - ثم كيدوني بلا ريث ولا تمهل، فما أبا ليكم جميعا، ولا أخشاكم شيئا: «إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ» .. ومهما أنكرتم وكذبتهم. فهذه الحقيقة قائمة. حقيقة ربوبية الله لي ولكم. فالله الواحد هو ربي وربكم، لأنه رب الجميع بلا تعدد ولا مشاركة ..

«ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا» .. وهي صورة محسوسة للقهر والقدرة تصور القدرة آخذة بناصية كل دابة على هذه الأرض، بما فيها الدواب من الناس. والناصية أعلى الجبهة. فهو القهر والغلبة والهيمنة، في صورة حسية تناسب الموقف، وتناسب غلظة القوم وشدتهم، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم، وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم .. وإلى جانبها تقرير استقامة السنة الإلهية في اتجاهها الذي لا يحيد: «إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» .. فهي القوة والاستقامة والتصميم.

وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحدي .. إنها ترسم صورة الحقيقة التي يجدها نبي الله هود - عليه السلام - في نفسه من ربه .. إنه يجد هذه الحقيقة واضحة .. إن ربه ورب الخلائق قوي قاهر: «ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا» .. وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها ويقهرها بقوته قهرا. فما خوفه من هذه الدواب وما احتفاله بها وهي لا تسلط عليه - إن سلطت - إلا بإذن ربه؟ وما بقاء فيها وقد اختلف طريقها عن طريقه؟

إن هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة في نفسه، لا تدع في قلبه مجالا للشك في عاقبة أمره ولا مجالا للتردد عن المضي في طريقه.

إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب الصفوة المؤمنة أبداً.
وعند هذا الحد من التحدي بقوة الله، وإبراز هذه القوة في صورتها القاهرة الحاسمة، يأخذ هود في الإنذار والوعيد: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ» ..
فأدبت واجبي لله، ونفضت يدي من أمركم لتواجهوا قوة الله سبحانه: «وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ» .. يليقون بتلقي دعوته ويستقيمون على هدايته بعد إهلاككم بغيكم وظلمكم وانحرافكم.
«وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا» .. فما لكم به من قوة، وذهابكم لا يترك في كونه فراغاً ولا نقصاً ..
«إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ» .. يحفظ دينه وأوليائه وسننه من الأذى والضياح، ويقوم عليكم فلا تغفلون ولا تعجزونه هرباً!

وكانت هي الكلمة الفاصلة. وانتهى الجدل والكلام. ليحق الوعيد والإنذار: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا. وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ» ..
لما جاء أمرنا بتحقيق الوعيد، وإهلاك قوم هود، نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة مباشرة منا، خلصتهم من العذاب العام النازل بالقوم، واستثنيتهم من أن يصيبهم بسوء. وكانت نجاتهم من عذاب غليظ حل بالمكذبين. ووصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المجسم، يتناسق مع الجو، ومع القوم الغلاظ العتاة.
والآن وقد هلك عاد. يشار إلى مصرعها إشارة البعد، ويسجل عليها ما اقترفت من ذنب، وتشيع باللعنة والطرده، في تقرير وتكرار وتوكيد: «وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ. أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ. أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمٍ هُودٌ» ..

«وَتِلْكَ عَادٌ» .. بهذا البعد. وقد كان ذكرهم منذ لحظة في السياق، وكان مصرعهم معروضا على الأنظار .. ولكنهم انتهوا وبعدوا عن الأنظار والأفكار ..

«وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ» .. وهم عصوا رسولا واحداً. ولكن أليست هي رسالة واحدة جاء بها الرسل جميعاً؟ فمن لم يسلم لرسول بما فقد عصى الرسل جميعاً. ولا ننسى أن هذا الجمع في الآيات وفي الرسل مقصود من ناحية أسلوبية أخرى لتضخيم جرميتهم وإبراز شناعتها. فهم جحدوا آيات، وهم عصوا رسلاً. فما أضخم الذنب وما أشنع الجريمة! «وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» ..

أمر كل متسلط عليهم، معاند لا يسلم بحق، وهم مسؤولون أن يتحرروا من سلطان المتسلطين، ويفكروا بأنفسهم لأنفسهم. ولا يكونوا ذيولاً فيهدروا آدميتهم.
وهكذا يتبين أن القضية بين هود وعاد كانت قضية ربوبية الله وحده لهم والدينونة لله وحده من دون العباد ..

كانت هي قضية الحاكمية والاتباع .. كانت هي قضية: من الرب الذي يدينون له ويتبعون أمره؟ يتجلى هذا في قول الله تعالى: «وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» ..

فهي المعصية لأمر الرسل والاتباع لأمر الجبارين! والإسلام هو طاعة امر الرسل - لأنه أمر الله - ومعصية أمر الجبارين. وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام وبين الكفر والإيمان .. في كل رسالة وعلى يد كل رسول.

وهكذا يتبين أن دعوة التوحيد تصر أول ما تصر على التحرر من الدينونة لغير الله والتمرد على سلطان الأرباب الطغاة وتعد إلغاء الشخصية والتنازل عن الحرية، واتباع الجبارين المتكبرين جريمة شرك وكفر يستحق عليها الخانعون الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة .. لقد خلق الله الناس ليكونوا أحرارا لا يدينون بالعبودية لأحد من خلقه، ولا يتزلون عن حريتهم هذه لطاغية ولا رئيس ولا زعيم. فهذا مناط تكريمهم.

فإن لم يصونوه فلا كرامة لهم عند الله ولا نجاة. وما يمكن لجماعة من البشر أن تدعي الكرامة، وتدعي الإنسانية، وهي تدين لغير الله من عباده. والذين يقبلون الدينونة لربوبية العبيد وحاكمتهم ليسوا بمعذورين أن يكونوا على أمرهم مغلوين. فهم كثرة والمتجبرون قلة. ولو أرادوا التحرر لضحوا في سبيله بعض ما يضحونه مرغمين للأرباب المستلطين من ضرائب الذل في النفس والعرض والمال. لقد هلكت عاد لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد .. هلكوا مشيعين باللعنة في الدنيا وفي الآخرة: «وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ» ..

ثم لا يتركهم قبل أن يسجل عليهم حالهم وسبب ما أصابهم في إعلان عام وتنبيه عال: «أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ» .. ثم يدعو عليهم بالطرد والبعد البعيد: «أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ» .. هذا التحديد والإيضاح والتوكيد. كأنما يحدد عناوهم للجنة المرسله عليهم حتى تقصدهم قصدا: .. «أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ» !!! .

ونقف وقفات قصيرة أمام ما تلهمه قصة هود مع قومه في سياق هذه السورة، قبل أن ننتقل منها إلى قصة صالح. ذلك أن استعراض خط سير الدعوة الإسلامية على هذا النحو إنما يجيء في القرآن الكريم لرسم معالم الطريق في خط الحركة بهذه العقيدة على مدار القرون .. ليس فقط في ماضيها التاريخي، ولكن في مستقبلها إلى آخر الزمان. وليس فقط للجماعة المسلمة الأولى التي تلقت هذا القرآن أول مرة. وتحركت به في وجه الجاهلية يومذاك ولكن كذلك لكل جماعة مسلمة تواجه به الجاهلية إلى آخر الزمان .. وهذا ما يجعل هذا القرآن كتاب الدعوة الإسلامية الخالد ودليلها في الحركة في كل حين.

ولقد أشرنا إشارات سريعة إلى اللمسات القرآنية التي سنعيد الحديث عنها كلها تقريبا. ولكنها مرت في مجال تفسير النصوص القرآنية مروراً عابراً لمتابعة السياق. وهي تحتاج إلى وقفات أمامها أطول في حدود الإجمال:

نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفي كل رسالة.. دعوة توحيد العبادة والعبودية لله، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول: «قَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» ..

ولقد كنا دائما نفسر «العبادة» لله وحده بأنها «الدينونة الشاملة» لله وحده. في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة. ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي.. فإن «عبد» معناها: دان وخضع وذل. وطريق معبد طريق مذل ممهد. وعبد جعله عبداً أي خاضعاً مذللاً.. ولم يكن العربي الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية. بل إنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية! إنما كان يفهم منه عند ما يخاطب به أن المطلوب منه هو الدينونة لله وحده في أمره كله وخلع الدينونة لغير الله من عنقه في كل أمره.. ولقد فسر رسول الله - ﷺ - «العبادة» نصاً بأنها هي «الاتباع» وليست هي الشعائر التعبدية. فعن عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ « يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَتْنَ ». وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةِ (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) قَالَ « أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحْلَوْا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحْلَوْهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ »^{٥٩٧}...

إنما أطلقت لفظة «العبادة» على «الشعائر التعبدية» باعتبارها صورة من صور الدينونة لله في شأن من الشؤون.. صورة لا تستغرق مدلول «العبادة» بل إنها تحيء بالتبعية لا بالأصالة! فلما بهت مدلول «الدين» ومدلول «العبادة» في نفوس الناس صاروا يفهمون أن عبادة غير الله التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقدم الشعائر التعبدية لغير الله، كتقديمها للأصنام والأوثان مثلاً! وأنه متى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح «مسلماً» لا يجوز تكفيره! وتمتع بكل ما يتمتع به المسلم في المجتمع المسلم من صيانة دمه وعرضه وماله... إلى آخر حقوق المسلم على المسلم! وهذا وهم باطل، وانحسار وانكماش، بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ «العبادة» التي يدخل بها المسلم في الإسلام أو يخرج منه - وهذا المدلول هو الدينونة الكاملة لله في كل شأن ورفض الدينونة لغير الله في كل شأن. وهو المدلول الذي تفيد اللفظة في أصل اللغة والذي نص عليه رسول

^{٥٩٧} - سنن الترمذی - المکرر [١١ / ٣٥٤] (٣٣٧٨) صحيح لغيره

الله - ﷺ - نصا وهو يفسر قول الله تعالى: «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ».. وليس بعد تفسير رسول الله - ﷺ - لمصطلح من المصطلحات قول لقائل^{٥٩٨}.

هذه الحقيقة هي التي قررناها كثيرا في هذه الظلال وفي غيرها في كل ما وفقنا الله لكتابته حول هذا الدين وطبيعته ومنهجه الحركي^{٥٩٩}.. فالآن نجد في قصة هود كما تعرضها هذه السورة لمحة تحدد موضوع القضية ومحور المعركة التي كانت بين هود وقومه وبين الإسلام الذي جاء به والجاهلية التي كانوا عليها وتحدد ما الذي كان يعنيه وهو يقول لهم: «يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ»..

إنه لم يكن يعني: يا قوم لا تتقدموا بالشعائر التبعدية لغير الله! كما يتصور الذين انحسر مدلول «العبادة» في مفهوماتهم، وانزوى داخل اطار الشعائر التبعدية! إنما كان يعني الدينونة لله وحده في منهج الحياة كلها ونبذ الدينونة والطاعة لأحد من الطواغيت في شؤون الحياة كلها.. والفعل الذي من أجلها استحق قوم هود الهلاك واللعنة في الدنيا والآخرة لم تكن هي مجرد تقديم الشعائر التبعدية لغير الله.. فهذه صورة واحدة من صور الشرك الكثيرة التي جاء هود ليخرجهم منها إلى عبادة الله وحده - أي الدينونة له وحده - إنما كانت الفعلة النكراء التي استحقوا من أجلها ذلك الجزاء هي: جحودهم بآيات ربهم، وعصيان رسله. واتباع أمر الجبارين من عباده: «وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ، وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ». كما يقول عنهم أصدق القائلين الله رب العالمين .

وجحودهم بآيات ربهم إنما يتجلى في عصيان الرسل، واتباع الجبارين.. فهو أمر واحد لا أمور متعددة ..

ومتى عصى قوم أوامر الله المتمثلة في شرائعه المبلغة لهم من رسله بألا يدينوا لغير الله. ودانوا للطواغيت بدلا من الدينونة لله فقد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله وخرجوا بذلك من الإسلام إلى الشرك - وقد تبين لنا من قبل أن الإسلام هو الأصل الذي بدأت به حياة البشر على الأرض فهو الذي نزل به آدم من الجنة واستخلف في هذه الأرض وهو الذي نزل به نوح من السفينة واستخلف في هذه الأرض. إنما كان الناس يخرجون من الإسلام إلى الجاهلية، حتى تأتي إليهم الدعوة لتردهم من الجاهلية إلى الإسلام.. وهكذا إلى يومنا هذا ..

والواقع أنه لو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التبعدية ما استحققت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات وما استحققت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل - صلوات الله وسلامه

^{٥٩٨} - يراجع البحث القيم الذي كتبه المسلم العظيم الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان بعنوان: «المصطلحات الأربعة في القرآن» .. «الإله. الرب. الدين. العبادة». (السيد رحمه الله)

^{٥٩٩} - كتاب: «معالم في الطريق» وكتاب: «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» وكتاب: «هذا الدين» وكتاب: «المستقبل لهذا الدين» وكتاب: «الإسلام ومشكلات الحضارة» وكتاب: «العدالة الاجتماعية» وكتاب: «السلام العالمي والإسلام». نشر «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

عليهم - وما استحققت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان! إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد. وردهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن وفي منهج حياتهم كله للدنيا والآخرة سواء.

إن توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد القوامة، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد مصدر الشريعة، وتوحيد منهج الحياة، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة... إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل، وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان.. لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه، فالله سبحانه غني عن العالمين.

ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة «بالإنسان» إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جانب من جوانبها. (وهذا ما نرجو أن نزيده بيانا - إن شاء الله - في نهاية قصص الرسل في ختام السورة) ..

ونقف أمام الحقيقة التي كشف عنها هود لقومه وهو يقول لهم: «وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ، وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ».. وهي ذات الحقيقة التي ذكرت في مقدمة السورة بصدد دعوة رسول الله - ﷺ - لقومه بمضمون الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير. وذلك في قوله تعالى: «وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى، وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ» ..

إنها حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية، وحقيقة اتصال طبيعة الكون ونواميسه الكلية بالحق الذي يحتويه هذا الدين.. وهي حقيقة في حاجة إلى جلاء وتثبيت وبخاصة في نفوس الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا والذين لم تصقل أرواحهم وتشف حتى ترى هذه العلاقة أو على الأقل تستشعرها ..

إن الحق الذي نزل به هذا الدين غير منفصل عن الحق المتمثل في ألوهية الله - سبحانه - والحق الذي خلقت به السماوات والأرض، المتجلي في طبيعة هذا الكون ونواميسه الأزلية.. والقرآن الكريم كثيرا ما يربط بين الحق المتمثل في ألوهية الله - سبحانه - والحق الذي قامت به السماوات والأرض والحق المتمثل في الدينونة لله وحده.. والحق المتمثل في دينونة الناس لله يوم الحساب بصفة خاصة، والحق في الجزاء على الخير والشر في الدنيا والآخرة.. وذلك في مثل هذه النصوص:

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ. لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا .. إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ .. بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ، وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ، وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ. يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا

يَقْتُرُونَ. أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ؟ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ. لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ. أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً؟ قُلْ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ. هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ... (الأنبياء ١٦ - ٢٥).

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ، لِنُبَيِّنَ لَكُمْ، وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ - مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ - شَيْئًا، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ... (الحج: ٥ - ٧).

«وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ. الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي حَيَاتِهِمُ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ. وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. لِيَدْخُلْنَهُمْ مُدْخِلًا يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ. ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً؟ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَكَرُوفٌ رَحِيمٌ. وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ. لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ، فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ، إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ...».. (الحج: ٥٤ - ٦٧).

وهكذا نجد في هذه النصوص وأمثالها في القرآن الكريم العلاقة الواضحة بين كون الله سبحانه هو الحق، وبين خلقه لهذا الكون وتديره بنواميسه ومشيعته بالحق، وبين الظواهر الكونية التي تتم بالحق. وبين تنزيل هذا الكتاب بالحق، وبين الحكم بين الناس في الدنيا والآخرة بالحق.. فكله حق واحد موصول ينشأ عنه جريان قدر الله بما يشاء، وتسليط القوى الكونية بالخير والشر على من يشاء وفق ما يكون من الناس من الخير والشر في دار الابتلاء. ومن هنا كان ذلك الربط بين الاستغفار والتوبة، وبين المتاع الحسن وإرسال السماء مدرارا... فكل أولئك موصول بمصدر واحد هو الحق

المتمثل في ذات الله سبحانه وفي قضائه وقدره، وفي تدبيره وتصريفه، وفي حسابه وجزائه، في الخير وفي الشر سواء ..

ومن هذا الارتباط مجلى أن القيم الإيمانية ليست منفصلة عن القيم العملية في حياة الناس. فكلتاها تؤثر في هذه الحياة. سواء عن طريق قدر الله الغيبي المتعلق بعالم الأسباب من وراء علم البشر وسعيهم. أو عن طريق الآثار العملية المشهودة التي يمكن للبشر رؤيتها وضبطها كذلك. وهي الآثار التي ينشئها في حياتهم الإيمان أو عدم الإيمان، من النتائج المحسوسة المدركة.

وقد أسلفنا الإشارة إلى بعض هذه الآثار العملية الواقعية حين قلنا مرة: إن سيادة المنهج الإلهي في مجتمع معناه أن يجد كل عامل جزاءه العادل في هذا المجتمع، وأن يجد كل فرد الأمن والسكينة والاستقرار الاجتماعي - فضلا على الأمن والسكينة والاستقرار القلبي بالإيمان - ومن شأن هذا كله أن يتمتع الناس متاعا حسنا في هذه الدنيا قبل أن يلقوا جزاءهم الأخير في الآخرة^{٦٠٠}.. وحين قلنا مرة: إن الدينونة لله وحده في مجتمع من شأنها أن تصون جهود الناس وطاقاتهم من أن تنفق في الطبل والزمر والنفخ والتراتيل والتسابيح والترانيم والتهاويل التي تطلق حول الأرباب المزيفة، لتخلع عليها شيئا من خصائص الألوهية حتى تخضع لها الرقاب! ومن شأن هذا أن يوفر هذه الجهود والطاقات للبناء في الأرض والعمارة والنهوض بتكاليف الخلافة فيكون الخير الوفير للناس. فضلا على الكرامة والحرية والمساواة التي يتمتع بها الناس في ظل الدينونة لله وحده دون العباد^{٦٠١} ..

وليست هذه إلا نماذج من ثمار الإيمان حين تتحقق حقيقته في حياة الناس^{٦٠٢}.. (وسيرد عنها بعض التفصيل في نهاية استعراض قصص الرسل في ختام السورة إن شاء الله).

ونقف أمام تلك المواجهة الأخيرة من هود لقومه وأمام تلك المفاصلة التي قذف بها في وجوههم في حسم كامل، وفي تحد سافر، وفي استعلاء بالحق الذي معه، وثقة في ربه الذي يجد حقيقته في نفسه بينة: «قال: إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ، وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ، فَكِدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَعْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً، إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ» ..

إن أصحاب الدعوة إلى الله في كل مكان وفي كل زمان في حاجة إلى أن يقفوا طويلا أمام هذا المشهد الباهر .. رجل واحد، لم يؤمن معه إلا قليل، يواجه أعتى أهل الأرض وأغنى أهل الأرض وأكثر

^{٦٠٠} - ص ١٨٧١ - ١٨٧٢ من هذا الجزء. (السيد رحمه الله)

^{٦٠١} - ص ١٨٩٧ من هذا الجزء. (السيد رحمه الله)

^{٦٠٢} - يراجع كذلك ما جاء في تقديم هذه الطبعة المنقحة لهذه الظلال بعنوان: «في ظلال القرآن» الجزء الأول ص ١٦ - ١٨. (السيد رحمه الله)

أهل الأرض حضارة مادية في زمانهم، كما جاء عنهم في قول الله تعالى فيهم حكاية عما واجههم به أخوهم هود في السورة الأخرى: «كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ: أَلا تَتَّقُونَ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَتُتْبِنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ؟ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا: سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ. إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ»!.. (الشعراء: ١٢٣ - ١٣٨)

فهؤلاء العتاة الجبارون الذين يبطشون بلا رحمة والذين أبطرتهم النعمة والذين يقيمون المصانع يرجون من ورائها الامتداد والخلود!.. هؤلاء هم الذين واجههم هود - عليه السلام - هذه المواجهة. في شجاعة المؤمن واستعلائه وثقته واطمئنانه وفصلهم هذه المفاصلة الحاسمة الكاملة - وهم قومه - وتحداهم أن يكيدوه بلا إمهال. وأن يفعلوا ما في وسعهم فلا يبالهم بحال! لقد وقف هود - عليه السلام - هذه الوقفة الباهرة، بعد ما بذل لقومه من النصيح ما يملك وبعد أن تودد إليهم وهو يدعوهم غاية التودد.. ثم تبين له عنادهم وإصرارهم على محادة الله وعلى الاستهتار بالوعيد والجرأة على الله ..

لقد وقف هود - عليه السلام - هذه الوقفة الباهرة لأنه يجد حقيقة ربه في نفسه، فيوقن أن أولئك الجبارين العتاة المتمتعين المتبطرين إنما هم من الدواب! وهو مستيقن أنه ما من دابة إلا وربها آخذ بناصيتها فقيم يحفل إذن هؤلاء الدواب؟! وأن ربه هو الذي استخلفهم في الأرض، وأعطاهم ما أعطاهم من نعمة ومال وقوة وبنين وقدرة على التصنيع والتعدين! للابتلاء لا لمطلق العطاء. وأن ربه يملك أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم إذا شاء، ولا يضره شيئا، ولا يردون له قضاء.. فقيم إذن يهوله شيء مما هم فيه، وربه هو الذي يعطي ويسلب حين يشاء كيف شاء!..

إن أصحاب الدعوة إلى الله لا بد أن يجدوا حقيقة ربهم في نفوسهم على هذا النحو حتى يملكوا أن يقفوا بإيمانهم في استعلاء أمام قوى الجاهلية الطاغية من حولهم.. أمام القوة المادية. وقوة الصناعة. وقوة المال.

وقوة العلم البشري. وقوة الأنظمة والأجهزة والتجارب والخبرات.. وهم مستيقنون أن ربهم آخذ بناصية كل دابة وأن الناس - كل الناس - إن هم إلا دواب من الدواب! وذات يوم لا بد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة فإذا القوم الواحد أمتان مختلفتان.. أمة تدين لله وحده وترفض الدينونة لسواه. وأمة تتخذ من دون الله أربابا، وتحاد الله! ويوم تتم هذه المفاصلة يتحقق وعد الله بالنصر لأوليائه، والتدمير على أعدائه - في صورة من الصور التي قد تخطر وقد لا تخطر على البال - ففي تاريخ الدعوة إلى الله على مدار التاريخ! لم يفصل الله بين أوليائه وأعدائه إلا

بعد أن فاصل أولياؤه أعداءه على أساس العقيدة فاختاروا الله وحده.. وكانوا هم حزب الله الذين لا يعتمدون على غيره والذين لا يجدون لهم ناصرا سواه.^{٦٠٣}

٨٣ - الأخذ بفقه الحركة لا فقه الأوراق:

قال تعالى: { وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين (٥٤) قال اجعلني على خزان الأرض إني حفيظٌ عليم (٥٥) وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوء منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين (٥٦) ولأجر الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون (٥٧) } يوسف

فلما تحقق الملك من براءة يوسف قال لأصحابه: أحضروه إليّ فإنّي أريد أن أجعله من خاصّتي أستخلصه لنفسي (فلما جيء بيوسف، وتحدث الملك إليه، وعرف فضله . وحسن رأيه، وكان عرف حسن خلقه، وسيرته، وطهارة نفسه، قال له: إنك عندنا ذو مكانة سامية، وأمانة تامة، فأنت غير منازع في تصرفك، ولا متهم في أمانتك .

فقال يوسف عليه السلام للملك: اجعلني حافظاً على خزان ملكك، فإنّي خازن أمين شديد الحفظ، فلا يضيع منها شيء وإني ذو علم وذو بصيرة بما أقوم به من الأعمال . وقد قبل الملك عرض يوسف، فجعله الملك وزيراً . ويقول الله تعالى: إنّه مكّن بذلك ليوسف في أرض مصر، يتصرف فيها كيف يشاء، وإنّه تعالى يصب برحمته من يشاء، ولا يضيع أجر المحسنين، الذين أحسنوا العمل، وإنّه لم يضيع صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره في السجن . وإنّ ما ادّخره الله تعالى ليوسف في الآخرة أعظم وأجل ممّا أعطاه في الدنيا، وكذلك يجزي الله الذين آمنوا واتقوا .^{٦٠٤}

لقد نشأ الفقه الإسلامي في مجتمع مسلم، ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع في مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية. كذلك لم يكن الفقه الإسلامي هو الذي أنشأ المجتمع المسلم إنما كان المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الإسلامية هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي .. وهاتان الحقيقتان التاريخيتان الواقعتان عظيمتا الدلالة كما أنهما ضروريتان لفهم طبيعة الفقه الإسلامي وإدراك الطبيعة الحركية للأحكام الفقهية الإسلامية.

^{٦٠٣} - في ظلال القرآن للسيد قطب- ط ١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٢٥٣٢)

^{٦٠٤} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٦٥١، بترقيم الشاملة آليا)

والذين يأخذون اليوم تلك النصوص والأحكام المدونة، دون إدراك لهاتين الحقيقتين ودون مراجعة للظروف والملابسات التي نزلت فيها تلك النصوص ونشأت فيها تلك الأحكام، ودون استحضار لطبيعة الجو والبيئة والحالة التي كانت تلك النصوص تليقها وتوجهها وكانت تلك الأحكام تصاغ فيها وتحكمها وتعيش فيها.. الذين يفعلون ذلك ويحاولون تطبيق هذه الأحكام كأنها نشأت في فراغ وكأنها اليوم يمكن أن تعيش في فراغ.. هؤلاء ليسوا «فقهاء»! وليس لهم «فقه» بطبيعة الفقه! وبطبيعة هذا الدين أصلاً!

إن «فقه الحركة» يختلف اختلافاً أساسياً عن «فقه الأوراق» مع استمداده أصلاً وقيامه على النصوص التي يقوم عليها ويستمد منها «فقه الأوراق»!

إن فقه الحركة يأخذ في اعتباره «الواقع» الذي نزلت فيه النصوص، وصيغت فيه الأحكام. ويرى أن ذلك الواقع يؤلف مع النصوص والأحكام مركباً لا تنفصل عناصره. فإذا انفصلت عناصر هذا المركب فقد طبيعته، واختل تركيبه! ومن ثم فليس هنالك حكم فقهي واحد مستقل بذاته، يعيش في فراغ، لا تتمثل فيه عناصر الموقف والجو والبيئة والملابسات التي نشأت نشأته الأولى فيها.. إنه لم ينشأ في فراغ ومن ثم لا يستطيع أن يعيش في فراغ!

ونأخذ مثلاً لهذا التقرير العام هذا الحكم الفقهي الإسلامي بعدم تركية النفس وعدم ترشيحها للمناصب، وهو المأخوذ من قوله تعالى: «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ»، فَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّي، فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: أَمَرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلَاكَ اللَّهُ، وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُؤَلِّي هَذَا الْعَمَلَ أَحَدًا سَأَلَهُ، وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ^{٦٠٥}...

لقد نشأ هذا الحكم - كما نزلت تلك النصوص - في مجتمع مسلم ليطبق في هذا المجتمع وليعيش في هذا الوسط وليلبي حاجة ذلك المجتمع. وفق نشأته التاريخية، ووفق تركيبه العضوي، ووفق واقعه الذاتي. فهو من ثم حكم إسلامي جاء ليطبق في مجتمع إسلامي.. وقد نشأ في وسط واقعي ولم ينشأ في فراغ مثالي. وهو من ثم لا يطبق ولا يصلح ولا ينشئ آثاره الصحيحة إلا إذا طبق في مجتمع إسلامي.. إسلامي في نشأته، وفي تركيبه العضوي، وفي التزامه بشريعة الإسلام كاملة.. وكل مجتمع لا تتوافر فيه هذه المقومات كلها يعتبر «فراغاً» بالقياس إلى ذلك الحكم، لا يملك أن يعيش فيه، ولا يصلح له، ولا يصلحه كذلك!.. ومثل هذا الحكم كل أحكام النظام الإسلامي. وإن كنا في هذا المقام لا نفصل إلا هذا الحكم بمناسبة ذلك السياق القرآني..

ونريد أن نفهم لماذا لا يزكي الناس أنفسهم في المجتمع المسلم، ولا يرشحون أنفسهم للوظائف، ولا يقومون لأشخاصهم بدعاية ما كي يختاروا لمجلس الشورى أو للإمامة أو للإمارة...

^{٦٠٥} - مسند أبي عوانة مشكلاً [٤/ ٢١٠] (٥٦٤٠) صحيح

إن الناس في المجتمع المسلم لا يحتاجون لشيء من هذا لإبراز أفضليتهم وأحقيتهم. كما أن المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يغري أحدا بالتزاحم عليه - اللهم إلا ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان الله تعالى - ومن ثم لا يسأل المناصب والوظائف إلا المتهافتون عليها لحاجة في نفوسهم.

وهؤلاء يجب أن يمنعوها! ولكن هذه الحقيقة لا تفهم إلا بمراجعة النشأة الطبيعية للمجتمع المسلم، وإدراك طبيعة تكوينه العضوي أيضا ..

إن الحركة هي العنصر المكوّن لذلك المجتمع. فالمجتمع المسلم وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية .. أولا: تحييء العقيدة من مصدرها الإلهي متمثلة في تبليغ الرسول وعمله - على عهد النبوات - أو متمثلة في دعوة الداعية بما جاء من عند الله وما بلغه رسوله - على مدار الزمان بعد ذلك - فيستجيب للدعوة ناس يتعرضون للأذى والفتنة من الجاهلية الحاكمة السائدة في أرض الدعوة. فمنهم من يفتن ويرتد، ومنهم من يصدق ما عاهد الله عليه فيقضي نجه شهيدا ومنهم من ينتظر حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق ..

وهؤلاء يفتح الله عليهم، ويجعل منهم ستارا لقدره، ويمكن لهم في الأرض تحقيقا لوعده بنصر من ينصره، والتمكين في الأرض له، ليقم مملكة الله في الأرض - أي لينفذ حكم الله في الأرض - ليس له من هذا النصر والتمكين شيء إنما هو نصر لدين الله، وتمكين لربوبية الله في العباد.

وهؤلاء لا يقفون بهذا الدين عند حدود أرض معينة ولا عند حدود جنس معين ولا عند حدود قوم أو لون أو لغة أو مقوم واحد من تلك المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة! إنما ينطلقون بهذه العقيدة الربانية ليحرروا «الإنسان» .. كل الإنسان: في «الأرض» .. كل الأرض .. من العبودية لغير الله وليرفعوه عن العبودية للطواغيت أيا كانت هذه الطواغيت^{٦٠٦}.

وفي أثناء الحركة بهذا الدين - وقد لا حظنا أنها لا تتوقف عند إقامة الدولة المسلمة في بقعة من الأرض، ولا تقف عند حدود أرض أو جنس أو قوم - تتميز أقدار الناس، وتتحدد مقاماتهم في المجتمع، ويقوم هذا التحديد وذلك التميز على موازين وقيم إيمانية، الجميع يتعارفون عليها، من البلاء في الجهاد، والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق والقدرة والكفاءة .. وكلها قيم يحكم عليها الواقع، وتبرزها الحركة، ويعرفها المجتمع ويعرف المتسمين بها .. ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم، ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية ..

وفي المجتمع المسلم الذي نشأ هذه النشأة، وقام تركيبه العضوي على أساس التميز في أثناء الحركة بتلك القيم الإيمانية - كما حدث في المجتمع المسلم من تميز السابقين من المهاجرين ثم الأنصار. وأهل

^{٦٠٦} - يراجع فصل «الجهاد في سبيل الله» في كتاب: «معالم في الطريق». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

بدر، وأهل بيعة الرضوان، ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل - ثم ظل يتميز الناس فيه بحسن البلاء في الإسلام .. في هذا المجتمع لا ييخس الناس بعضهم بعضاً، ولا ينكر الناس فضائل المميزين - مهما غلب الضعف البشري أصحابه أحياناً فغلبتهم الأطماع - وعندئذ تنتفي الحاجة من جانب آخر إلى أن يزكي المتميزون أنفسهم ويطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية ..

ولقد يخيل للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته التاريخية! ولكنهم ينسون أن أي مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة .. لن يوجد اليوم أو غداً، إلا أن تقوم دعوة لإدخال الناس في هذا الدين من جديد، وإخراجهم من الجاهلية التي صاروا إليها .. وهذه نقطة البدء .. ثم تعقبها الفتنة والابتلاء - كما حدث أول مرة - فأما ناس فيفتنون ويرتدون! وأما ناس فيصدقون ما عاهدوا الله عليه فيقضون نحبهم ويموتون شهداء. وأما ناس فيصبرون ويصابرون ويصرون على الإسلام، ويكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما يكره أحدهم أن يلقي في النار حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق، ويمكن لهم في الأرض - كما مكن للمسلمين أول مرة - فيقوم في أرض من أرض الله نظام إسلامي .. ويومئذ تكون الحركة من نقطة البدء إلى قيام النظام الإسلامي قد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية، وفق الموازين والقيم الإيمانية .. ويومئذ لن يحتاج هؤلاء إلى ترشيح أنفسهم وتركيتها، لأن مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشحهم! ولقد يقال بعد هذا: ولكن هذا يكون في المرحلة الأولى. فإذا استقر المجتمع بعد ذلك؟ وهذا سؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين! إن هذا الدين يتحرك دائماً ولا يكف عن الحركة .. يتحرك لتحرير «الإنسان». كل الإنسان .. في «الأرض» .. كل الأرض .. من العبودية لغير الله وليرفعه عن العبودية للطواغيت بلا حدود من الأرض أو الجنس أو القوم أو أي مقوم من المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة! وإذن فستظل الحركة - التي هي طبيعة هذا الدين الأصيلة - تميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب ولا تقف أبداً ليركد هذا المجتمع ويأسن - إلا أن ينحرف عن الإسلام - وسيظل الحكم الفقهي - الخاص بتحريم تزكية النفس وطلب العمل على أساس هذه التزكية - قائماً وعاملاً في محيطه الملائم .. ذات المحيط الذي نشأ أول مرة وعمل فيه.

ثم يقال: ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضاً ويصبح الأكفاء الموهوبون في حاجة إلى الإعلان عن أنفسهم وتركيتها وطلب العمل على أساس هذه التزكية!

وهذا القول كذلك وهم ناشئ من التأثير بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة .. إن المجتمع المسلم يكون أهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين - كما هي طبيعة التربية والتكوين والتوجيه، والالتزام في المجتمع المسلم - ومن ثم يكون أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم موزونة هذه الكفايات والمواهب بموازين وقيم إيمانية فلا يعز عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية ..

سواء لمجلس الشورى أو للشؤون المحلية. أما الإمارات العامة فيختار لها الإمام - الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد - أو أهل الشورى - له .. يختار لها من بين مجموعة الرجال المختارين الذين ميزتهم الحركة. والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم، والجهاد ماض إلى يوم القيامة. إن الذين يفكرون في النظام الإسلامي اليوم وتشكيلاته - أو يكتبون - يدخلون في متاهة! ذلك أنهم يحاولون تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية المدونة في فراغ! يحاولون تطبيقها في هذا المجتمع الجاهلي القائم، بتركيبه العضوي الحاضر!

وهذا المجتمع الجاهلي الحاضر يعتبر - بالقياس إلى طبيعة النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية - فراغا لا يمكن أن يقوم فيه هذا النظام ولا أن تطبق فيه هذه الأحكام .. إن تركيبه العضوي مناقض تماما للتركيب العضوي للمجتمع المسلم. فالمجتمع المسلم - كما قلنا - يقوم تركيبه العضوي على أساس ترتيب الشخصيات والفئات كما ترتبها الحركة لإقرار هذا النظام في عالم الواقع، ولجاهدة الجاهلية لإخراج الناس منها إلى الإسلام. مع تحمل ضغوط الجاهلية وما توجهه من فتنة وإيذاء وحرب على هذه الحركة، والصبر على الابتلاء وحسن البلاء من نقطة البدء إلى نقطة الفصل في نهاية المطاف. أما المجتمع الجاهلي الحاضر فهو مجتمع راكد، قائم على قيم لا علاقة لها بالإسلام، ولا بالقيم الإيمانية ..

وهو - من ثم - يعد بالقياس إلى النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية فراغا لا يعيش فيه هذا النظام ولا تقوم فيه هذه الأحكام! هؤلاء الكاتبون الباحثون عن حل لتطبيق قواعد النظام وتشكيلاته وأحكامه الفقهية يحيرهم - أول ما يحيرهم - طريقة اختيار أهل الحل والعقد - أو أهل الشورى - من غير ترشيح من أنفسهم ولا تركية! كيف يمكن هذا في مثل هذه المجتمعات التي تعيش فيها والناس لا يعرف بعضهم بعضا ولا يزنون كذلك بموازين الكفاية والزاهة والأمانة! كذلك تحيرهم طريقة اختيار الإمام؟ أيكون الاختيار من عامة الشعب أم يكون من ترشيح أهل الحل والعقد؟ وإذا كان الإمام سيختار أهل الحل والعقد - متابعة لعدم تركيتهم لأنفسهم أو ترشيحها - فكيف يعودون هم فيختارون الإمام؟ ألا يؤثر هذا في ميزانهم؟ ثم إذا كانوا هم الذين سيعودون فيرشحون الإمام؟ ألا تكون لهم ولاية عليه وهو الإمام الأعظم؟ ثم ألا يجعله هذا يختار أشخاصا يضمن ولاءهم له، ويكون هذا هو العنصر الأول في اعتباره؟ ...

وأسئلة أخرى كثيرة لا يجدون لها جوابا في هذه المتاهة! أنا أعرف نقطة البدء في هذه المتاهة .. إنها هي افتراض أن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه مجتمع مسلم وأن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية سيجاء بها لتطبق على هذا المجتمع الجاهلي بتركيبه العضوي الحاضر، وبقيمة وأخلاقه الحاضرة! هذه نقطة البدء في المتاهة .. ومتى بدأ منها الباحث فإنه يبدأ في فراغ، ويوغل في هذا الفراغ، حتى يبعد في التيه، وحتى يأخذه الدوار! إن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم، ومن ثم لن يطبق فيه النظام الإسلامي ولن تطبق فيه الأحكام الفقهية الخاصة بهذا النظام .. لن تطبق لاستحالة

هذا التطبيق الناشئة من أن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية لا يمكن أن تتحرك في فراغ لأنها بطبيعتها لم تنشأ في فراغ، ولم تتحرك في فراغ كذلك! إن المجتمع الإسلامي ينشأ بتركيب عضوي آخر غير التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي.. ينشأ من أشخاص ومجموعات وفئات جاهدت - في وجه الجاهلية - لإنشائه وتحددت أقدارها وتميزت مقاماتها في ثنايا تلك الحركة.

إنه مجتمع جديد.. ومجتمع وليد.. ومجتمع متحرك دائما في طريقه لتحرير «الإنسان»،.. كل الإنسان.. في «الأرض».. كل الأرض.. من العبودية لغير الله، ولرفع هذا الإنسان عن ذلة العبودية للطواغيت.. أيا كانت هذه الطواغيت..

ومثل قضية التزكية وطلب الإمارة، واختيار الإمام، واختيار أهل الشورى... وما إليها... قضايا كثيرة تثار، ويطرحها الباحثون في الإسلام.. في الفراغ.. في هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه.. بتركيبه العضوي المختلف تماما عن التركيب العضوي للمجتمع المسلم.. وبقيمه وموازينه واعتبارات ه وأخلاقه ومشاعره وتصوراته المختلفة تماما عن قيم المجتمع المسلم وموازينه واعتبارات ه وأخلاقه ومشاعره وتصوراته.. أعمال البنوك وأساسها الربوي.. شركات التأمين وقاعدتها الربوية.. تحديد النسل وما أدري ماذا؟! إلى آخر هذه «المشكلات» التي يشغل «الباحثون» بها أنفسهم أو يجيبون فيها عن استفتاءات توجه إليهم..

إنهم جميعا - مع الأسف - يبدأون من نقطة البدء في المتاهة! يبدأون من افتراض أن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه سيجاء بها لتطبق على هذه المجتمعات الجاهلية الحاضرة بتركيبها العضوي الحاضر فنتنقل هذه المجتمعات إذن - متى طبقت عليها أحكام الإسلام - إلى الإسلام!

وهي تصورات مضحكة لولا أنها مخزنة! إن الفقه الإسلامي بكل أحكامه ليس هو الذي أنشأ المجتمع المسلم. إنما المجتمع المسلم بحركته - في مواجهة الجاهلية ابتداء - ثم بحركته في مواجهة حاجة الحياة الحقيقية ثانيا، هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي مستمدا من أصول الشريعة الكلية.. والعكس لا يمكن أن يكون أصلا! إن الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ، ولا يعيش في فراغ كذلك.. لا ينشأ في الأدمغة والأوراق إنما ينشأ في واقع الحياة. وليست أية حياة. إنما هي حياة المجتمع المسلم على وجه التحديد.. ومن ثم لا بد أن يوجد المجتمع المسلم أولا بتركيبه العضوي الطبيعي فيكون هو الوسط الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي ويطبق.. وعندئذ تختلف الأمور جدا..

وساعتها قد يحتاج ذلك المجتمع الخاص - بعد نشأته في مواجهة الجاهلية وتحركه في مواجهة الحياة - إلى البنوك وشركات التأمين وتحديد النسل... إلخ وقد لا يحتاج! ذلك أننا لا نملك سلفا أن نقدر أصل حاجته، ولا حجمها، ولا شكلها، حتى نشرع لها سلفا! كما أن ما لدينا من أحكام هذا الدين لا يطابق حاجات المجتمعات الجاهلية ولا يلبسها.. ذلك أن هذا الدين لا يعترف ابتداء بشرعية وجود هذه المجتمعات الجاهلية ولا يرضى ببقائها. ومن ثم فهو لا يعني نفسه بالاعتراف بحاجاتها الناشئة من

جاهليتها ولا بتليبيتها كذلك! إن الحنة الحقيقية لهؤلاء الباحثين أنهم يتصورون أن هذا الواقع الجاهلي هو الأصل، الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه!

ولكن الأمر غير ذلك تماما.. إن دين الله هو الأصل الذي يجب على البشرية أن تطابق نفسها عليه وأن تحور من واقعها الجاهلي وتغير حتى تتم هذه المطابقة.. ولكن هذا التحور وهذا التغير لا يتمان عادة إلا عن طريق واحد.. هو التحرك - في وجه الجاهلية - لتحقيق ألوهية الله في الأرض وربوبيته وحده للعباد، وتحرير الناس من العبودية للطاغوت، بتحكيم شريعة الله وحدها في حياتهم..

وهذه الحركة لا بد أن تواجه الفتنة والأذى والابتلاء.. فيفتن من يفتن ويرتد من يرتد، ويصدق الله من يصدقه فيقضي نحبه ويستشهد، ويصبر من يصبر ويمضي في حركته حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق، وحتى يمكن الله له في الأرض، وعندئذ فقط يقوم النظام الإسلامي، وقد انطبع المتحركون لتحقيقه بطابعه، وتميزوا بقيمة.. وعندئذ تكون لحياهم مطالب وحاجات تختلف في طبيعتها وفي طرق تلبيتها عن حاجات المجتمعات الجاهلية ومطالبها وطرق تلبيتها.. وعلى ضوء واقع المجتمع المسلم يومذاك تستنبط الأحكام وينشأ فقه إسلامي حي متحرك - لا في فراغ - ولكن في وسط واقعي محدد المطالب والحاجات والمشكلات..

ومن ذا الذي يدرينا اليوم مثلا أن يكون الناس في مجتمع مسلم تجبى فيه الزكاة وتنفق في مصارفها، ويقوم فيه التراحم والتكافل بين أهل كل محلة، ثم بين كل أفراد الأمة، وتقوم حياة الناس فيه على غير السرف والترف والمخيلة والتكاثر.. إلى آخر مقومات الحياة الإسلامية.. من يدرينا أن يجتمعا كهذا سيكون في حاجة إلى شركات تأمين أصلا؟! وعنده كل تلك التأمينات والضمانات مع تلك الملابس والقيم والتصورات؟!

وإذا احتاج إلى نوع من التأمين فمن يدرينا أنه سيكون هو هذا النوع المعروف في المجتمع الجاهلي، المنبثق من حاجات هذا المجتمع الجاهلي وملابساته وقيمه وتصورات؟! وكذلك من يدرينا أن المجتمع المسلم المتحرك المجاهد سيكون في حاجة إلى تحديد النسل مثلا؟.. وهكذا..

وإذا كنا لا نملك افتراض أصل حاجات المجتمع حين يكون مسلما ولا حجم هذه الحاجات أو شكلها، بسبب اختلاف تركيبه العضوي عن تركيب المجتمع الجاهلي، واختلاف تصورات ومشاعره وقيمه وموازينه.. فما هذا الضنى في محاولة تحوير وتطوير تغيير الأحكام المدونة لكي تطابق حاجات هي في ضمير الغيب، شأنها شأن وجود المجتمع المسلم ذاته!

إن نقطة البدء في المناهة - كما قلنا - هي افتراض أن هذه المجتمعات القائمة هي المجتمعات الإسلامية وأنه سيجاء بأحكام الفقه الإسلامي من الأوراق لتطبق عليها، وهي بهذا التركيب العضوي ذاته، وبالتصورات والمشاعر والقيم والموازين ذاتها.

كما أن أصل الخنة هو الشعور بأن واقع هذه المجتمعات الجاهلية وتركيبها الحاضر هو الأصل الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه. وأن يحور ويطور ويغير في أحكامه ليلاحق حاجات هذه المجتمعات ومشكلاتها.. حاجاتها ومشكلاتها المنبثقة أصلاً من مخالفتها للإسلام ومن خروج حياتها جملة من إطاره! ونحسب أنه قد آن للإسلام أن يستعلي في نفوس دعاة، فلا يجعلوه مجرد خادماً للأوضاع الجاهلية، والمجتمعات الجاهلية، والحاجات الجاهلية. وأن يقولوا للناس - وللذين يستفتونهم بوجه خاص - تعالوا أنتم أولاً إلى الإسلام، وأعلنوا خضوعكم سلفاً لأحكامه.. أو بعبارة أخرى.. تعالوا أنتم أولاً فادخلوا في دين الله، وأعلنوا عبوديتكم لله وحده، واشهدوا أن لا إله إلا الله بمدلولها الذي لا يقوم الإيمان والإسلام إلا به. وهو أفراد الله بألوهيته في الأرض كإفراده بالألوهية في السماء وتقرير ربوبيته - أي حاكميته وسلطانه - وحده في حياة الناس بجمليتها. وتنحية ربوبية العباد للعباد، بتنحية حاكمية العباد للعباد، وتشريع العباد للعباد.

وحين يستجيب الناس - أو الجماعة منهم - لهذا القول، فإن المجتمع المسلم يكون قد بدأ أولى خطواته في الوجود. وهذا المجتمع يكون حينئذ هو الوسط الواقعي الحي الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي الحي وينمو، لمواجهة حاجات ذلك المجتمع المستسلم لشريعة الله فعلاً..

فأما قبل قيام هذا المجتمع فالعمل في حقل الفقه والأحكام التنظيمية هو مجرد خداع للنفس، باستنبات البذور في الهواء، ولن ينبت الفقه الإسلامي في الفراغ، كما أنه لن تنبت البذور في الهواء! إن العمل في الحقل «الفكري» للفقه الإسلامي عمل مريح! لأنه لا خطر فيه! ولكنه ليس عملاً للإسلام ولا هو من منهج هذا الدين ولا من طبيعته! وخير للذين ينشدون الراحة والسلامة أن يشتغلوا بالأدب وبالفن أو بالتجارة! أما الاشتغال بالفقه الآن على ذلك النحو بوصفه عملاً للإسلام في هذه الفترة فأحسب - والله أعلم - أنه مضيعة للعمر وللأجر أيضاً!

إن دين الله يأبى أن يكون مجرد مطية ذلول، ومجرد خادماً مطيع، لتلبية هذا المجتمع الجاهلي الآبق منه، المنتكر له، الشارد عنه.. الذي يسخر منه الحين بعد الحين باستفتائه في مشكلاته وحاجاته وهو غير خاضع لشريعته وسلطانه..

إن فقه هذا الدين وأحكامه لا تنشأ في فراغ، ولا تعمل في فراغ.. وإن المجتمع المسلم الخاضع لسلطان الله ابتداءً هو الذي صنع هذا الفقه وليس الفقه هو الذي صنع ذلك المجتمع.. ولن تنعكس الآية أبداً. إن خطوات النشأة الإسلامية ومراحلها هي دائماً واحدة والانتقال من الجاهلية إلى الإسلام لن يكون يوماً ما سهلاً ولا يسيراً. ولن يبدأ أبداً من صياغة الأحكام الفقهية في الفراغ، لتكون معدة جاهزة يوم يقوم المجتمع الإسلامي والنظام الإسلامي. ولن يكون وجود هذه الأحكام المفصلة على «الجاهز» والناشئة في الفراغ هي نقطة البدء في التحول من الجاهلية إلى الإسلام. وليس الذي ينقص هذه المجتمعات الجاهلية لكي تتحول إلى الإسلام هو الأحكام الفقهية «الجاهزة»! وليست الصعوبة في

ذلك التحول ناشئة عن قصور أحكام الفقه الإسلامي الحاضرة عن ملاحقة حاجات المجتمعات المتطورة.. إلى آخر ما يخادع به بعضهم، وينخدع به بعضهم الآخر! كلا! إن الذي يحول دون تحول هذه المجتمعات الجاهلية إلى النظام الإسلامي هو وجود الطواغيت التي تأبى أن تكون الحاكمة لله فتأبى أن تكون الربوبية في حياة البشر والألوهية في الأرض لله وحده.

وتخرج بذلك من الإسلام خروجا كاملا. يعد الحكم عليه من المعلوم من الدين بالضرورة.. ثم هو بعد ذلك وجود جماهير من البشر تعبد أولئك الطواغيت من دون الله - أي تدين لها وتخضع وتتبع - فتجعلها بذلك أربابا متفرقة معبودة مطاعة. وتخرج هذه الجماهير بهذه العبادة من التوحيد إلى الشرك.. فهذا هو أخص مدلولات الشرك في نظر الإسلام.. وبهذا وذلك تقوم الجاهلية نظاما في الأرض وتعتمد على ركائز من ضلال التصور بقدر ما تعتمد على ركائز من القوة المادية:

وصياغة أحكام الفقه لا تواجه هذه الجاهلية - إذن - بوسائل مكافئة. إنما الذي يواجهها دعوة إلى الدخول في الإسلام مرة أخرى وحركة تواجه الجاهلية بكل ركائزها ثم يكون ما يكون من شأن كل دعوة للإسلام في وجه الجاهلية. ثم يحكم الله بين من يسلمون لله وبين قومهم بالحق.. وعندئذ فقط يجيء دور أحكام الفقه، التي تنشأ نشأة طبيعية في هذا الوسط الواقعي الحي، وتواجه حاجات الحياة الواقعية المتجددة في هذا المجتمع الوليد، وفق حجم هذه الحاجات يومئذ وشكلها وملابسها، وهي أمور كلها في ضمير الغيب - كما أسلفنا - ولا يمكن التكهن بها سلفا، ولا يمكن الاشتغال بها من اليوم على سبيل الجدل المناسب لطبيعة هذا الدين! إن هذا لا يعني - بحال - أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة ليست قائمة الآن فعلا من الوجهة الشرعية. ولكنه يعني فقط أن المجتمع الذي شرعت هذه الأحكام له، والذي لا تطبق هذه الأحكام إلا فيه - بل الذي لا تعيش هذه الأحكام إلا به - ليس قائما الآن فعلا. ومن ثم يصبح وجودها الفعلي معلقا بقيام ذلك المجتمع.. ويبقى الالتزام بها قائما في عنق كل من يسلم من ذلك المجتمع الجاهلي ويتحرك في وجه الجاهلية لإقامة النظام الإسلامي ويتعرض لما يتعرض له من يتحرك بهذا الدين في وجه الجاهلية وطواغيتها المتألهة وجماهيرها الخاضعة للطواغيت الراضية بالشرك في الربوبية..

إن إدراك طبيعة النشأة الإسلامية على هذا النحو الذي لا يتغير، كلما قامت الجاهلية وقامت في وجهها محاولة إسلامية.. هو نقطة البدء في العمل الحقيقي البناء لإعادة هذا الدين إلى الوجود الفعلي، بعد أن انقطع هذا الوجود منذ أن حلت شرائع البشر محل شريعة الله في خلال القرنين الأخيرين وخلا وجه الأرض من الوجود الحقيقي للإسلام وإن بقيت المآذن والمساجد، والأدعية والشعائر تخدر مشاعر الباقيين على الولاء العاطفي الغامض لهذا الدين وتوهمهم أنه لا يزال بخير وهو يحى من الوجود محوا!

إن المجتمع المسلم وجد قبل أن توجد الشعائر، وقبل أن توجد المساجد .. وجد من يوم أن قيل للناس: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، فعبدوه. ولم تكن عبادتهم له ممثلة في الشعائر، فالشعائر لم تكن بعد قد فرضت. إنما كانت عبادتهم له ممثلة في الدينونة له وحده - من ناحية المبدأ فلم تكن بعد قد نزلت شرائع! - وحين أصبح لهؤلاء الذين قرروا الدينونة لله وحده سلطان مادي في الأرض تنزلت الشرائع وحين واجهوا الحاجات الحقيقية لحياتهم هم استنبطت بقية أحكام الفقه، إلى جانب ما ورد بنصه في الكتاب والسنة ..

وهذا هو الطريق وحده وليس هنالك طريق آخر ..

وليت هنالك طريقا سهلا عن طريق تحول الجماهير بجملتها إلى الإسلام منذ أول وهلة في الدعوة باللسان، وبيان أحكام الإسلام! ولكن هذه إنما هي «الأماني»!

فالجماهير لا تتحول أبدا من الجاهلية وعبادة الطواغيت، إلى الإسلام وعبادة الله وحده إلا عن ذلك الطريق الطويل البطيء الذي سارت فيه دعوة الإسلام في كل مرة .. والذي يبدؤه فرد، ثم تتبعه طليعة، ثم تتحرك هذه الطليعة في وجه الجاهلية لتعاني ما تعاني حتى يحكم الله بينها وبين قومها بالحق ويمكن لها في الأرض .. ثم .. يدخل الناس في دين الله أفواجا .. ودين الله هو منهجه وشرعه ونظامه الذي لا يرضى من الناس ديناً غيره: «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه» ..

ولعل هذا البيان أن يكشف لنا عن حقيقة الحكم في موقف يوسف - عليه السلام.

إنه لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تركية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التركية. كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكما مطاعا لا خادما في وضع جاهلي. وكان الأمر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره في مصر في أيام حكمه. وقد توارى العزيز وتوارى الملك تماما ..^{٦٠٧}

٨٤ - من صفات جيل النصر المنشود:

قال تعالى: { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) } سورة المؤمنون

^{٦٠٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٦٤٧)

لقد فاز المؤمنون المصدقون بالله ورُسُلِهِ، وسعدوا وأفلحوا الإِفلاحُ - الفوزُ بالبُغْيَةِ بعد سعيٍ واجتهادٍ .
الذين خشعت قلوبهم وخافت من الله، وسكنت . والخشوعُ في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه
لها، واشتغل بها عما سواها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له، وقرّة عين .
والذين ينصرفون إلى الجدِّ، ويعرضون عما لا فائدة منه من الأفعال والأقوال (اللغو) . وقد وصف الله
تعالى المؤمنين بقوله: { والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً } أي إنهم لا يتوقفون
ولا يلتفتون إليه .

والذين يطهرون أنفسهم بتأدية زكاة أموالهم . وهذه الآية مكيّة، وزكاة المال فرضت في المدينة، لذلك
قال بعضهم: إن المقصود بالزكاة هنا زكاة النفس من الشرك والدنس .
والذين يحفظون فروجهم فلا يقارفون محرماً، ولا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنى وغيره .
ولا يقربون سوى ما أحل الله لهم من أزواجهم، وما ملكت أيماهم من إماء، ومن باشر ما أحل الله
له فهو غير ملوم في ذلك . فمن تجاوز ما أحل الله له من النساء إلى غيره من الحرام، فهو من
المعتدين، المتجاوزين حدود ما شرع الله .

والذين إذا ائتمنوا لم يخونوا أماناتهم، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاهدوا أو فوا بذلك، ولم
يخونوا ولم يعذروا، ويقوا محافظين على عهودهم وأماناتهم وعقودهم .
والذين يداومون على أداء صلواتهم وعبادتهم، يؤدونها في مواقيتها، ويتمونها
بخشوعها، وسجودها، حتى تؤدي المقصود منها، وهو خشية الله، والانتها عن الفحشاء والمنكر .
وبعد أن عدّد الله سبحانه وتعالى أوصاف المؤمنين الحميدة قال إن الذين اتصفوا بهذه الصفات الرفيعة
يرثون الجنة، ويتبوّءون أعلى مراتبها، جزاء لهم على ما زينوا به أنفسهم من الصفات الحميدة، والآداب
العالية، ويتقون فيها خالدين أبداً .^{٦٠٨}

هذا تنويه من الله، بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي
ضمن ذلك، الحث على الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها. فليزن العبد نفسه وغيره على هذه
الآيات، يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان، زيادة ونقصا، كثرة وقلة، فقوله { قد أفلح
المؤمنون } أي: قد فازوا وسعدوا ونجحوا، وأدركوا كل ما يرام المؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا
المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم { في صلاتهم خاشعون }

والخشوع في الصلاة: هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضرا لقربه، فيسكن لذلك
قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدبا بين يدي ربه، مستحضرا جميع ما يقوله ويفعله
في صلاته، من أول صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوسواس والأفكار الرديئة، وهذا روح

^{٦٠٨} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٥٥٤، بترقيم الشاملة آليا)

الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثابا عليها، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها.

{وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ} وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة، {مُعْرِضُونَ} رغبة عنه، وتزيتها لأنفسهم، وترفعوا عنه، وإذا مروا باللغو مروا كراما، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا ملك العبد لسانه وخزنه -إلا في الخير- كان مالكا لأمره، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: "ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟" قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: "كف عليك هذا" فالؤمنون من صفاتهم الحميدة، كف ألسنتهم عن اللغو والمحرمات.

{وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} أي مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس الأموال، مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفس بتركها وتجنبها، فأحسنوا في عبادة الخالق، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} عن الزنا، ومن تمام حفظها تجنب ما يدعو إلى ذلك، كالنظر واللمس ونحوهما. فحفظوا فروجهم من كل أحد {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} من الإماء المملوكات {فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} بقرعهما، لأن الله تعالى أحلهما.

{فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ} غير الزوجة والسرية {فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، المتجرئون على محارم الله. وعموم هذه الآية، يدل على تحريم نكاح المتعة، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصودا بقاؤها، ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك.

ويدل قوله {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} أنه يشترط في حل المملوكة أن تكون كلها في ملكه، فلو كان له بعضها لم تحل، لأنها (١) ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان، فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان.

{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} أي: مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها، وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ} فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}

وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود، التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها، {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} أي: يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها، فمدحهم بالخشوع

بالصلاة، وبالمحافظة عليها، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من دون محافظة عليها، فإنه مذموم ناقص.

{أُولَئِكَ} الموصوفون بتلك الصفات {هُمْ الْوَارِثُونَ} * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ {الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها أو المراد بذلك جميع الجنة ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم ومراتبهم كل بحسب حاله {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} لا يظعنون عنها ولا ييغون عنها حولا لاشتغالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه من غير مكدر ولا منغص^{٦٠٩}

وقد تضمن هذا الخطاب دعوة إلى إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله.. ثم ختم بقوله تعالى: «وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ». وبدء سورة: «المؤمنون» بقوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ...» إلى آخر الآيات - هو استقبال كريم لهؤلاء المؤمنين الذين دعوا إلى الله، واستجابوا لدعوته، وآمنوا به.. فهؤلاء المؤمنون، قد أفلحوا، وفازوا برضوان الله.. وكان هذا الخبر من معجّل البشريات لهم في هذه الدنيا.

ومن صفات هؤلاء المؤمنين المفلحين، أنهم في صلاتهم خاشعون.. أي يؤدّون صلاتهم في خشوع، وخشية، وولاء.. إنها صلاة تفيض من قلب خاشع لجلال الله، راهب لعظمته، فكيان المؤمن كله، ووجدانه جميعه، وهو قائم في محراب الصلاة - مشتمل عليه هذا الجلال، مستولية عليه تلك الرهبة. ومن أجل هذا كان لتلك الصلاة الخاشعة الضارعة أثرها العظيم، في إيقاظ مشاعر الخير في المصلين، وفي تصفية أنفسهم من وساوس السوء.. فهم لهذا: «عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ» أي لا يقبلون اللغو، ولا يتعاملون به.. فإذا نطقوا، نطقوا خيرا أو سكتوا، وإذا سمعوا، سمعوا حسنا أو انصرفوا.. إنهم - وقد صفت نفوسهم، وطهرت قلوبهم - ليعافون موارد اللغو، من القول التافه، أو الحديث الباطل.. ثم هم «لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ» أي يؤدون زكاة أموالهم، ويشاركون الفقراء والمحتاجين فيما رزقهم الله من فضله، فلا يضنّون بما في أيديهم، ولا يثرثرون أنفسهم بما معهم..

وفي التعبير عن أدائهم للزكاة، بأنهم فاعلون لها - إشارة إلى أن الزكاة ليست من نافلة الأعمال، التي تصدر عن غير وعي أو شعور من الإنسان، بل إنها شىء عظيم، يحتاج إلى يقظة كاملة ممن يؤديها.. وذلك من وجوه:

فأولا: نظره إلى المجتمع الذي حوله، وإلى الجوانب الضعيفة منه، وإلى ذوى الضرر والحاجة من أفرادها، فيعمل على سدّ هذا الخلل، وتقوية تلك الجوانب ودعمها، بما بين يديه من مال.

^{٦٠٩} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٧)

وثانياً: نظره إلى هذا المال الذي في يده، وحمل نفسه على السّماح والبذل في كل وجه نافع طيب.. وذلك حتى لا تغلبه نفسه على الضنّ به، والوقوف عند حدّ الزكاة الواجبة.

ومن هنا كانت الزكاة «فعلاً» أي عملاً جاداً، يحتاج إلى كل ما يحتاج إليه العمل الجادّ، من إمعان نظر، وبذل جهد.. وليست مجرد صدقة طارئة، تطرق المتصدق بين الحين والحين، أو تلقاه على رأس كل عام، وإنما هي «فعل» متصل، يشغل به الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته.. وبذلك يكون على صلة دائمة بالمجتمع الذي يعيش فيه.. يحسّ بإحساسه، ويتحرك معه في الاتجاه الذي يتحرك فيه، ويحمل هموم ذوى الحاجات والهموم من جماعة المسلمين.. وفي الحديث: «من لم يحمل همّ المسلمين فليس منهم» .

ومن صفات هؤلاء المؤمنين أنّهم «لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ» أي أنهم كما حفظوا ألسنتهم عن اللغو، وكفوا جوارحهم عن الشر والأذى - حفظوا فروجهم من الدّنس، ولزموا بها جانب العقّة والطهارة..

وقوله تعالى: «إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» هو استثناء من حفظ الفروج عن الاتصال بالنساء، والتعفف عنهن..

فليس هذا على إطلاقه، وإنما لفروجهم ما أحلّ من أزواج، ومما ملكت اليمين من جوار.. فهذا لا لوم عليهم فيه.. تماماً كالإمساك عن اللغو من الكلام، مع إباحة الحديث الطيب من القول..

- وفي قوله تعالى: «فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» ما يشعر برفع الحظر عن أمر كان محظوراً، وبدفع اللوم عن أمر كان إتيانه موضع لوم.. فكيف هذا؟ والله سبحانه وتعالى جعل الصلة بين الرجل والمرأة من النعم التي أنعم الله بها على عباده، فقال تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً» ؟ (٢١: الروم) والجواب على هذا - والله أعلم - هو أن الإنسان في صورته الحيوانية، مباح له إباحة مطلقة، أن يتصل بالمرأة أياً كانت، شأنه في هذا شأن الحيوان في اتصال الذكر بالأنثى.. بلا قيد ولا حد..

ولكن الإنسان، الذي يندسّ في كيانه هذا الحيوان، قد أراد الله سبحانه له، أن يعلو بإنسانيته، ويرتفع إلى مستوى كريم، يكون فيه أقرب إلى العالم العلوي منه إلى العالم الأرضي.. وذلك لا يكون إلا بأن يخرج من مسلاخ الحيوان، أو يقتل هذا الحيوان المندسّ في كيانه.. وذلك من مظاهره ألا تكون صلته بالأنثى شبيهة بصلة الحيوان، المطلقة من كل قيد..!

ولكن الإنسان مهما يكن، لا يمكن أن ينسلخ من الجانب الحيواني الذي فيه، وهو على هذا التركيب الجسدي، الذي تتحرك فيه شهوة داعية إلى اتصال الرجل بالمرأة..

فكان من تدبير الله سبحانه وتعالى أن وقف بالإنسان موقفاً وسطاً، يأخذ فيه وضعاً ملائماً للإنسان والحيوان معاً.. ففقد الإنسان بهذا القيد الذي ألزمه حدود إنسانيته، ثم نفس عنه بعض الشيء، فجعل

لهذا الجسد في الإنسان حظّه من المرأة في حدود مرسومة لا يتعداها، وهو أن يتخذ له امرأة، أو أكثر إلى أربعة، ممن أحلّ الله له.. أو ما يشاء من النساء، ممن ملكتهن يده! الأصل إذن، الحرمة المطلقة في اتصال الرجل بالمرأة عموماً.. ثم الإباحة في هذا النطاق الضيق المحدود..! أو قل: الأصل هو الإباحة المطلقة من كل قيد، ثم هذا القيد الوارد على هذا الإطلاق.. وذلك حسب أي النظرتين بنظرهما إلى الإنسان.. فإن نظر إليه على أنه إنسان يسمو بإنسانيته عن الانتساب إلى عالم الحيوان - كان على مستوى التقدير الأول، وإن نظر إليه على أنه حيوان، يريد أن يتحسس طريقه إلى الإنسان - كان على مستوى التقدير الثاني.

وانظر: إنه لو ترك للإنسان الحبلى على الغارب، لكان له أن يتصل بأية امرأة يريدّها ويشتهيها.. وهذا من شأنه أن يجعل جميع النساء مباحات له.. يتصل بهنّ، بوسيلة أو بأخرى.. وهذا القدر المحدود المباح له من النساء، هو استثناء من هذا الحظر العام، وهو بالقياس إلى الحظر العام، لا يكاد يعدّ شيئاً، يحسب حسابه. حتى لكأن الحظر العام قائم..

فقوله تعالى: «فَأَنَّهُمْ غَيْرُ مُلْمِئِينَ» تذكير بهذه النعمة، التي أتاحت للإنسان أن يتصل بالمرأة في هذه الحدود، وهي وإن وجدها ضيقة، لا تشبع جوعه الحيواني، فإن عليه أن يذكر أنه إنسان، وأنه كان من مطلب الجانب الروحي منه، ألا يكون هناك هذا المنفذ الذي ينفذ منه إلى المرأة.. ومع ذلك فإنه غير ملوم في الاتصال بالمرأة في هذه الحدود، وإن جار هذا على الجانب الروحي منه، وهذا كله يعنى القصد في هذا الأمر، والاعتدال فيه، وألا يكون الإنسان على سواء مع الحيوان! وفي قوله تعالى: «فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ» - تحذير من مجاوزة هذه الحدود، والانطلاق إلى ما وراءها، فإن ذلك هو دخول في عالم الحيوان بأربعة أرجل، وهو عدوان على إنسانية الإنسان، واعتداء على حدود الله! قوله تعالى:

«وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ» - هو من صفات هؤلاء المؤمنين الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بالفلاح.. فمن صفات هؤلاء المؤمنين - مع ما وصفوا به من قبل - أنهم يراعون الأمانات، ويحفظون العهود.. ومن الأمانات، والعهود، هذه التكاليف التي كلف بها الإنسان، وهذه الأوامر التي أمر بها.. ورعاية هذه التكاليف، وتلك الأوامر، هو القيام عليها، والتزام حدودها.. والخروج عليها، هو عدوان عليها، وعلى الله سبحانه! قوله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ» - هو من صفات المؤمنين المفلحين أيضاً.. وهو محافظتهم على الصلوات، وأداؤها في أوقاتها، بعد أن وصفوا من قبل بأنهم في صلاتهم خاشعون..

وقد تمت الخشية في الصلاة، على المحافظة عليها.. لأن الخشية هي المطلوب الأول من الصلاة، وأن صلاة غير خشوع وخشية، لا محصل لها، ولا ثمرة منها..

قوله تعالى: «أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» .

هو بيان للجزاء الحسن، الذي يجزى الله سبحانه وتعالى به المؤمنين، الذين وصفوا بهذه الصفات، وهو ما يكشف عن فلاحهم، وفوزهم، وإنه لا فلاح أعظم من هذا الفلاح! ولا فوز أكرم من هذا الفوز!..
وأي فلاح أعظم، وأي فوز أكرم، من أن تكون اللجنة ميراثا خالدا أبدا، يعيش فيه أولئك المؤمنون المفلحون! ^{٦١٠}

إنه الوعد الصادق، بل القرار الأكيد بفلاح المؤمنين. وعد الله لا يخلف الله وعده وقرار الله لا يملك أحد رده. الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة. فلاح الفرد المؤمن وفلاح الجماعة المؤمنة. الفلاح الذي يحسه المؤمن بقلبه ويجد مصداقه في واقع حياته والذي يشمل ما يعرفه الناس من معاني الفلاح، وما لا يعرفونه مما يدخره الله لعباده المؤمنين.

فمن هم المؤمنون الذين كتب الله لهم هذه الوثيقة، ووعدهم هذا الوعد، وأعلن عن فلاحهم هذا الإعلان؟

من هم المؤمنون المكتوب لهم الخير والنصر والسعادة والتوفيق والمتاع الطيب في الأرض؟ والمكتوب لهم الفوز والنجاة، والثواب والرضوان في الآخرة؟ ثم ما شاء الله غير هذا وذلك في الدارين مما لا يعلمه إلا الله؟

من هم المؤمنون. الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون؟

إنهم هؤلاء الذين يفصل السياق صفاتهم بعد آية الافتتاح:

«الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ.

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ.

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ.

» وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْمَالِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ... إلخ.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ.

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ».

فما قيمة هذه الصفات؟

قيمتها أنها ترسم شخصية المسلم في أفقها الأعلى. أفق محمد - ﷺ - رسول الله، وخير خلق الله، الذي

أدبه ربه فأحسن تأديبه، والذي شهد له في كتابه بعظمة خلقه: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» ..

عَنْ يَزِيدَ بْنِ بَابُوسَ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْنَا: يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، مَا كَانَ خُلُقُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟

قَالَتْ: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، تَقْرَأُونَ سُورَةَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَتْ: أَقْرَأُ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، قَالَ يَزِيدُ: فَقَرَأْتُ: قَدْ

أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى لَفْرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، قَالَتْ: هَكَذَا كَانَ خُلُقُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ^{٦١١}

^{٦١٠} - التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١١١٠)

^{٦١١} - الأَدَبُ الْمُفْرَدُ لِلْبَحَارِيِّ < بَابُ مَنْ دَعَا اللَّهَ أَنْ يُحَسِّنَ خُلُقَهُ > (٣١٧) حسن

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ. ٦١٢

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ: يَرْضَى لِرِضَاهُ، وَيَسْخَطُ لِسَخَطِهِ" ٦١٣

ومرة أخرى .. ما قيمة هذه الصفات في ذاتها؟ ما قيمتها في حياة الفرد، وفي حياة الجماعة، وفي حياة النوع الإنساني؟

«الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» .. تستشعر قلوبهم رهبة الموقف في الصلاة بين يدي الله، فتسكن وتحشع، فيسري الخشوع منها إلى الجوارح والملامح والحركات. ويغشى أرواحهم جلال الله في حضرته، فتختفي من أذهانهم جميع الشواغل، ولا تشتغل بسواه وهم مستغرقون في الشعور به مشغولون بنجواه. ويتوارى عن حسهم في تلك الحضرة القدسية كل ما حولهم وكل ما بهم، فلا يشهدون إلا الله، ولا يحسون إلا إياه، ولا يتذوقون إلا معناه. ويتطهر وجدانهم من كل دنس، وينفضون عنهم كل شائبة فما يضمون جوانحهم على شيء من هذا مع جلال الله .. عندئذ تتصل الذرة التائهة بمصدرها، وتجد الروح الحائرة طريقها، ويعرف القلب الموحش مثواه. وعندئذ تتضاءل القيم والأشياء والأشخاص إلا ما يتصل منها بالله.

«وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ» .. لغو القول، ولغو الفعل، ولغو الاهتمام والشعور. إن للقلب المؤمن ما يشغله عن اللغو واللغو واللهو والهذر .. له ما يشغله من ذكر الله، وتصور جلاله وتدبر آياته في الأنفس والآفاق. وكل مشهد من مشاهد الكون يستغرق القلب، ويشغل الفكر، ويحرك الوجدان .. وله ما يشغله من تكاليف العقيدة: تكاليفها في تطهير القلب، وتركيب النفس وتنقية الضمير. وتكاليفها في السلوك، ومحاولة الثبات على المرتقى العالي الذي يتطلبه الإيمان. وتكاليفها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصيانة حياة الجماعة من الفساد والانحراف. وتكاليفها في الجهاد لحمايتها ونصرتها وعزتها، والسهر عليها من كيد الأعداء ..

وهي تكاليف لا تنتهي، ولا يغفل عنها المؤمن، ولا يعفي نفسه منها، وهي مفروضة عليه فرض عين أو فرض كفاية. وفيها الكفاية لاستغراق الجهد البشري والعمر البشري. والطاقة البشرية محدودة. وهي إما أن تنفق في هذا الذي يصلح الحياة وينميها ويرقيها وإما أن تنفق في الهذر واللغو واللهو. والمؤمن مدفوع بحكم عقيدته إلى إنفاقها في البناء والتعمير والإصلاح.

٦١٢ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٣٠٥/ ٨] (٢٥٣٠٢) ٢٥٨١٦ صحيح

٦١٣ - شرح مشكل الآثار [٢٦٥/ ١١] (٤٤٣٤) حسن

قال الطحاوي: "وَهَذَا أَيْضًا أَحْسَنُ مَا يَكُونُ النَّاسُ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ لَا شَيْءَ أَحْسَنَ مِنْ آذَابِ الْقُرْآنِ وَمِنْ مَا دَعَا اللَّهُ النَّاسَ فِيهِ إِلَيْهِ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى ذَلِكَ غَيْرَ خَارِجٍ عَنْهُ إِلَى مَا سِوَاهُ."

ولا ينبغي هذا أن يروح المؤمن عن نفسه في الحين بعد الحين. ولكن هذا شيء آخر غير الهذر والغو والفراغ ..

«وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ» .. بعد إقبالهم على الله، وانصرافهم عن الغو في الحياة .. والزكاة طهارة للقلب والمال: طهارة للقلب من الشح، واستعلاء على حب الذات، وانتصار على وسوسة الشيطان بالفقر، وثقة بما عند الله من العوض والجزاء. وطهارة للمال تجعل ما بقي منه بعدها طيبا حالالا، لا يتعلق به حق - إلا في حالات الضرورة - ولا تحوم حوله شبهة. وهي صيانة للجماعة من الخلل الذي ينشئه العوز في جانب والترف في جانب، فهي تأمين اجتماعي للأفراد جميعا، وهي ضمان اجتماعي للعاجزين، وهي وقاية للجماعة كلها من التفكك والانحلال.

«وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ». وهذه طهارة الروح والبيت والجماعة. ووقاية النفس والأسرة والمجتمع. بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير حلال، وحفظ القلوب من التطلع إلى غير حلال وحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات فيها بغير حساب، ومن فساد البيوت فيها والأنساب.

والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة معرضة للخلل والفساد. لأنه لا أمن فيها للبيت، ولا حرمة فيها للأسرة. والبيت هو الوحدة الأولى في بناء الجماعة، إذ هو المحضن الذي تنشأ فيه الطفولة وتدرج ولا بد له من الأمن والاستقرار والطهارة، ليصلح محضنا ومدرجا، وليعيش فيه الوالدان مطمئنا كلاهما للآخر، وهما يرعيان ذلك المحضن. ومن فيه من فراخ!

والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة قدرة هابطة في سلم البشرية، فالمقياس الذي لا يخطئ للارتقاء البشري هو تحكم الإرادة الإنسانية وغلبتها. وتنظيم الدوافع الفطرية في صورة مثمرة نظيفة، لا يخلج الأطفال معها من الطريقة التي جاءوا بها إلى هذا العالم، لأنها طريقة نظيفة معروفة، يعرف فيها كل طفل أباه. لا كالحیوان الهابط الذي تلقى الأنثى فيه الذكر للقاح، وبدافع اللقاح، ثم لا يعرف الفصيل كيف جاء ولا من أين جاء!.

والقرآن هنا يحدد المواضع النظيفة التي يحل للرجل أن يودعها بذور الحياة: «إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» .. ومسألة الأزواج لا تثير شبهة ولا تستدعي جدلا. فهي النظام المشروع المعروف. أما مسألة ملك اليمين فقد تستدعي شيئا من البيان.

ولقد فصلت القول في مسألة الرق في الجزء الثاني من الظلال^{٦٤}، وبينت هناك أن الإسلام قد جاء والرق نظام عالمي. واسترقاق أسرى الحرب نظام دولي. فما كان يمكن والإسلام مشتبك في حروب مع أعدائه الواقفين بالقوة المادية في طريقة أن يلغي هذا النظام من جانب واحد، فيصبح أسارى المسلمين

^{٦٤} - في ظلال القرآن - موافقا للمطبوع [٢٢٩/ ١]

رقيقاً عند أعدائه، بينما هو يحرر أسارى الأعداء.. فجفف الإسلام كل منابع الرق - عدا أسرى الحرب - إلى أن يتاح للبشرية وضع نظام دولي للتعامل بالمثل في مسألة الأسرى. ومن هنا كان يجيء إلى المعسكر الإسلامي أسيرات. تقضي قاعدة التعامل بالمثل باسترقاقهن ومن مقضيات هذا الاسترقاق ألا يرتفعن إلى مستوى الزوجات بالنكاح. فأباح الإسلام حينئذ الاستمتاع بهن بالستري لمن يملكهن خاصة إلا أن يتحررن لسبب من الأسباب الكثيرة التي جعلها الإسلام سبلاً لتحرير الرقيق.

ولعل هذا الاستمتاع ملحوظ فيه تلبية الحاجة الفطرية للأسيرات أنفسهن، كي لا يشبعنها عن طريق الفوضى القدرة في المخالطة الجنسية كما يقع في زماننا هذا مع أسيرات الحرب بعد معاهدات تحريم الرقيق - هذه الفوضى التي لا يحبها الإسلام!

وذلك حتى يأذن الله فيرتفعن إلى مرتبة الحرية. والأمة تصل إلى مرتبة الحرية بوسائل كثيرة.. إذا ولدت لسيدها ثم مات عنها. وإذا أعتقها هو تطوعاً أو في كفارة. وإذا طلبت أن تكاتبه على مبلغ من المال فافتدت به رقبتها. وإذا ضربها على وجهها فكفارتما عتقها.. إلخ^{٦١٥}.

وعلى أية حال فقد كان الاسترقاق في الحرب ضرورة وقتية، هي ضرورة المعاملة بالمثل في عالم كله يسترق الأسرى، ولم يكن جزءاً من النظام الاجتماعي في الإسلام.

«فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ».. وراء الزوجات وملك اليمين، ولا زيادة بطريقة من الطرق. فمن ابتغى وراء ذلك فقد عدا الدائرة المباحة، ووقع في الحرمات، واعتدى على الأعراض التي لم يستحلها بنكاح ولا بجهاد. وهنا تفسد النفس لشعورها بأنها ترعى في كلاً غير مباح، ويفسد البيت لأنه لا ضمان له ولا اطمئنان وتفسد الجماعة لأن ذنابها تنطلق فتنهش من هنا ومن هناك: وهذا كله هو الذي يتوقاه الإسلام.

«وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ» راعون لأماناتهم وعهدهم أفراداً وراعون لأماناتهم وعهدهم جماعة.. والأمانات كثيرة في عنق الفرد وفي عنق الجماعة وفي أولها أمانة الفطرة وقد فطرها الله مستقيمة متناسقة مع ناموس الوجود الذي هي منه وإليه شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته، بحكم إحساسها الداخلي بوحدة الناموس الذي يحكمها ويحكم الوجود، ووحدة الإرادة المختارة لهذا الناموس المدبرة لهذا الوجود.. والمؤمنون يراعون تلك الأمانة الكبرى فلا يدعون فطرتهم تنحرف عن استقامتها، فتظل قائمة بأمانتها شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته. ثم تأتي سائر الأمانات تبعا لتلك الأمانة الكبرى.

^{٦١٥} - يراجع فصل الرق في كتاب «شبهات حول الإسلام» لمحمد قطب. «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

والعهد الأول هو عهد الفطرة كذلك. هو العهد الذي قطعه الله على فطرة البشر بالإيمان بوجوده وبتوحيده. وعلى هذا العهد الأول تقوم جميع العهود والمواثيق. فكل عهد يقطعه المؤمن يجعل الله شهيدا عليه فيه، ويرجع في الوفاء به إلى تقوى الله وخشيته.

والجماعة المسلمة مسؤولة عن أماناتها العامة، مسؤولة عن عهدها مع الله تعالى، وما يترتب على هذا العهد من تبعات. والنص يجمل التعبير ويدعه يشمل كل أمانة وكل عهد. ويصف المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون. فهي صفة دائمة لهم في كل حين. وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدي فيها الأمانات وترعى فيها العهود ويطمئن كل من فيها إلى هذه القاعدة الأساسية للحياة المشتركة، الضرورية لتوفير الثقة والأمن والاطمئنان.

«وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ».. فلا يفوتونها كسلا، ولا يضيعونها إهمالا ولا يقصرون في إقامتها كما ينبغي أن تقام إنما يؤدونها في أوقاتها كاملة الفرائض والسنن، مستوفية الأركان والآداب، حية يستغرق فيها القلب، وينفعل بها الوجدان. والصلاة صلة ما بين القلب والرب، فالذي لا يحافظ عليها لا ينتظر أن يحافظ على صلة ما بينه وبين الناس محافظة حقيقية مبعثها صدق الضمير.. ولقد بدأت صفات المؤمنين بالصلاة وختمت بالصلاة للدلالة على عظيم مكانتها في بناء الإيمان، بوصفها أكمل صورة من صور العبادة والتوجه إلى الله.

تلك الخصائص تحدد شخصية المؤمنين المكتوب لهم الفلاح. وهي خصائص ذات أثر حاسم في تحديد خصائص الجماعة المؤمنة ونوع الحياة التي تحيها. الحياة الفاضلة اللاتقة بالإنسان الذي كرمه الله وأراد له التدرج في مدارج الكمال. ولم يرد له أن يحيا حياة الحيوان، يستمتع فيها ويأكل كما تأكل الأنعام. ولما كانت الحياة في هذه الأرض لا تحقق الكمال المقدر لبني الإنسان، فقد شاء الله أن يصل المؤمنين الذين ساروا في الطريق، إلى الغاية المقدر لهم، هنالك في الفردوس، دار الخلود بلا فناء، والأمن بلا خوف، والاستقرار بلا زوال: «أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». وتلك غاية الفلاح الذي كتبه الله للمؤمنين. وليس بعدها من غاية تمتد إليها عين أو خيال..^{٦١٦}.

وقال تعالى: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى

^{٦١٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣١٧٣)

الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَعُونَ فِي الْأَرْضِ بَغْيٍ الْحَقُّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) { [الشورى: ٣٦ - ٤٣]

كُلُّ مَا حَصَلْتُمْ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ أَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَأَثَاثٍ وَرِيَاشٍ وَنَعْمَةٍ.. فَهُوَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ تَافَهُ تَمَتَّعُونَ بِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ الرَّائِلَةِ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنْ مَتَاعِ هَذِهِ الدُّنْيَا، لِأَنَّهُ بَاقٍ دَائِمٌ لَا يَزُولُ، وَلَا يَنْصَبُ، وَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، وَصَدَّقُوا رُسُلَهُ، وَهُمْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ... بِأَنَّهُ سَيُعِينُهُمْ عَلَى الصَّبْرِ فِي أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ.

وَيَصِفُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَعَدَّ لَهُمُ الثَّوَابَ وَالْجَنَّةَ فِي الْآيَاتِ التَّالِيَاتِ. فَهُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنْ ارْتِكَابِ كِبَائِرِ الْإِثْمِ كَالْقَتْلِ وَالزَّوْنِ وَالسَّرْقَةِ، وَيَتَّبِعُونَ عَنْ الْفَوَاحِشِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وَإِذَا مَا غَضَبُوا كَظَمُوا غَيْظَهُمْ وَصَفَحُوا وَعَفَوْا عَمَّنْ أَغْضَبَهُمْ. وَهَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ أَعَدَّ لَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى الثَّوَابَ وَالْجَنَّةَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَاتِ، هُمُ الَّذِينَ أَحَابُوا رَبَّهُمُ الْكَرِيمَ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَتَوْحِيدِهِ وَإِطَاعَةِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَأَدَّوْهَا حَقَّ أَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا، وَأَتَمُّوْهَا بِرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَخُشُوعِهَا، وَلَا يُبْرِمُونَ أَمْرًا حَتَّى يَتَشَاوَرُوا فِيهِ، وَيُدْلِي كُلُّ بَرَأِيهِ لِيَتَبَيَّنَ لَهُمُ الْمُهْدَى وَالصَّوَابُ فِيهِ. وَلِتَتَبَيَّنَ جَمِيعُ جَوَانِبِ الْمَوْضُوعِ، فَلَا يَنْتَكِسُ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ بِاسْتِبْدَادِ فَرْدٍ أَوْ جَمَاعَةٍ فِي الرَّأْيِ. وَيُنْفِقُونَ مِمَّا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ، فِيمَا فِيهِ نَفْعُ الْجَمَاعَةِ. وَهُمْ الَّذِينَ إِذَا اعْتَدَى عَلَيْهِمْ مُعْتَدٍ بَاغٍ يَنْتَصِرُونَ مِنْهُ، وَيَنْتَصِفُونَ لَأَنْفُسِهِمْ، وَلَا يَسْتَكِينُونَ وَلَا يَخْضَعُونَ، فَهُمْ كَرَامٌ أَعَزَّةٌ أَبَاءُ، وَلَيْسُوا بِأَذْلَاءَ وَلَا ضَعَفَاءَ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى رَدِّ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ إِذَا قَدَرُوا صَفَحُوا وَعَفَوْا.

وَجَزَاءُ مَا يَفْعَلُهُ الْمُسِيءُ مِنَ السُّوءِ هُوَ أَنْ يُعَاقَبَ وَفَقَ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ مِنْ عُقُوبَةٍ لِحُرْمِهِ، وَقَدْ سَمَى اللَّهُ تَعَالَى الْعُقُوبَةَ سَيِّئَةً لِأَنَّهَا تَسُوءُ مَنْ تَنْزِلُ بِهِ. فَمَنْ عَفَا عَنْ مُسِيءٍ، وَأَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ عَادَاهُ بِالْعَفْوِ عَنْهُ، وَبِالْصَّفْحِ عَنْ ذَنْبِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَجْزِيهِ عَلَى فِعْلِهِ أَعْظَمَ الْجَزَاءِ، وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ الظَّالِمِينَ، الْمُتَجَاوِزِينَ لِلْحُدُودِ، الْمُعْتَدِينَ عَلَى الْعِبَادِ. وَالَّذِينَ نَزَلَ بِهِمْ ظُلْمٌ فَانْتَصَرُوا مِنْ ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ لِلظَّالِمِ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَظْلِمُوهُ، وَإِنَّمَا انْتَصَرُوا بِحَقٍّ مِنْ ظُلْمِهِ، وَمَنْ أَخَذَ حَقَّهُ مِنْ مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَتَعَدَّهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَظْلَمْ، فَلَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ. إِنَّمَا الْحَرَجُ وَاللُّومُ وَالْإِثْمُ عَلَى الَّذِينَ يَبْذُرُونَ النَّاسَ بِالظُّلْمِ، وَيَزِيدُونَ فِي الْإِنْتِقَامِ، وَيَتَجَاوِزُونَ حَقَّهُمْ، وَيَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ، وَيُفْسِدُونَ فِيهَا، وَهَؤُلَاءِ لَهُمْ عَذَابٌ مُؤَلَّمٌ عِقَابًا لَهُمْ عَلَى بَغْيِهِمْ وَظُلْمِهِمْ. وَبَعْدَ أَنْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى الظُّلْمَ وَأَهْلَهُ، وَشَرَعَ الْقِصَاصَ وَالْإِنْتِصَارَ مِنَ الظَّالِمِينَ، نَدَبَ النَّاسَ إِلَى الْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِمَا تَمْكِينٌ لِلْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَقَالَ تَعَالَى: إِنَّ الصَّبْرَ عَلَى الْأَذَى وَمَغْفِرَةُ السَّيِّئَةِ وَسَتْرُهَا مِنَ الْأُمُورِ الْمَشْكُورَةِ، وَالْأَفْعَالِ

الْحَمِيدَةِ الَّتِي يُجْزَلُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهَا الثَّوَابَ لِفَاعِلِيهَا، وَمِنْ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُوجِبَهَا عَلَى نَفْسِهِ.^{٦١٧}

لقد سبق في السورة أن صور القرآن حالة البشرية وهو يشير إلى أن الذين أوتوا الكتاب تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وكان تفرقهم بغيا بينهم لا جهلا بما نزل الله لهم من الكتاب، وبما سن لهم من نهج ثابت مطرد من عهد نوح إلى عهد إبراهيم إلى عهد موسى إلى عهد عيسى - عليهم صلوات الله - وهو يشير كذلك إلى أن الذين أوتوا الكتاب بعد أولئك المختلفين، ليسوا على ثقة منه، بل هم في شك منه مريب.

وإذا كان هذا حال أهل الأديان المتزلة، وأتباع الرسل - صلوات الله عليهم - فحال أولئك الذين لا يتبعون رسولا ولا يؤمنون بكتاب أضل وأعمى. ومن ثم كانت البشرية في حاجة إلى قيادة راشدة، تنقذها من تلك الجاهلية العمياء التي كانت تخوض فيها.

وتأخذ بيدها إلى العروة الوثقى وتقود خطاها في الطريق الواصل إلى الله ربها ورب هذا الوجود جميعا. ونزل الله الكتاب على عبده محمد - ﷺ - قرآنا عربيا، لينذر أم القرى ومن حولها وشرع فيه ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى، ليصل بين حلقات الدعوة منذ فجر التاريخ، ويوحد نهجها وطريقها وغايتها وقيمها بما الجماعة المسلمة التي تهيمن وتقود وتحقق في الأرض وجود هذه الدعوة كما أرادها الله، وفي الصورة التي يرتضيها.

وهنا في هذه الآيات يصور خصائص هذه الجماعة التي تطبعها وتميزها. ومع أن هذه الآيات مكية، نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة، فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمة: «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ».. مما يوحي بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاما سياسيا للدولة، فهو طابع أساسي للجماعة كلها، يقوم عليه أمرها كجماعة، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة، بوصفها إفرازا طبيعيا للجماعة.

كذلك نجد من صفة هذه الجماعة: «وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ».. مع أن الأمر الذي كان صادرا للمسلمين في مكة هو أن يصبروا وألا يردوا العدوان بالعدوان إلى أن صدر لهم أمر آخر بعد الهجرة وأذن لهم في القتال. وقيل لهم: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ». وذكر هذه الصفة هنا في آيات مكية بصدد تصوير طابع الجماعة المسلمة يوحي بأن صفة الانتصار من البغي صفة أساسية ثابتة وأن الأمر الأول بالكف والصبر كان أمرا استثنائيا لظروف معينة. وأنه لما كان المقام هنا مقام عرض الصفات الأساسية للجماعة المسلمة ذكر منها هذه الصفة الأساسية الثابتة، ولو أن الآيات مكية، ولم يكن قد أذن لهم بعد في الانتصار من العدوان.

^{٦١٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤١٨٧، بترقيم الشاملة آليا)

وذكر هذه الصفات المميزة لطابع الجماعة المسلمة، المختارة لقيادة البشرية وإخراجها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام. ذكرها في سورة مكية وقبل أن تكون القيادة العملية في يدها فعلا، جدير بالتأمل. فهي الصفات التي يجب أن تقوم أولا، وأن تتحقق في الجماعة لكي تصبح بها صالحة للقيادة العملية. ومن ثم ينبغي أن نتدبرها طويلا .. ما هي؟ ما حقيقتها؟ وما قيمتها في حياة البشرية جميعا؟

إنها الإيمان. والتوكل. واجتناب كبائر الإثم والفواحش. والمغفرة عند الغضب. والاستجابة لله وإقامة الصلاة. والشورى الشاملة. والإنفاق مما رزق الله. والانتصار من البغي. والعفو. والإصلاح. والصبر.

فما حقيقة هذه الصفات وما قيمتها؟ يحسن أن نبين هذا ونحن نستعرض الصفات في نسقها القرآني. إنه يقف الناس أمام الميزان الإلهي الثابت لحقيقة القيم. القيم الزائلة والقيم الباقية كي لا يختلط الأمر في نفوسهم، فيختل كل شيء في تقديرهم. ويجعل هذا الميزان مقدمة لبيان صفة الجماعة المسلمة:

«فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ..

إن في هذه الأرض متاعا جذابا براقا، وهناك أرزاق وأولاد وشهوات ولذائذ وجاه وسلطان وهناك نعم آتاه الله لعباده في الأرض تلتفها منه وهبة خالصة، لا يعلقها بمعصية ولا طاعة في هذه الحياة الدنيا. وإن كان يبارك للطائع - ولو في القليل - ويمحق البركة من العاصي ولو كان في يده الكثير.

ولكن هذا كله ليس قيمة ثابتة باقية. إنما هو متاع. متاع محدود الأجل. لا يرفع ولا يخفض، ولا يعد بذاته دليل كرامة عند الله أو مهانة ولا يعتبر بذاته علامة رضى من الله أو غضب. إنما هو متاع. «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى .. خير في ذاته. وأبقى في مدته. فمتاع الحياة الدنيا زهيد حين يقاس إلى ما عند الله، ومحدود حين يقاس إلى الفيض المناسب. ومتاع الحياة الدنيا معدود الأيام. أقصى أمد له للفرد عمر الفرد، وأقصى أمد له للبشرية عمر هذه البشرية وهو بالقياس إلى أيام الله ومضة عين أو تكاد.

وبعد تقرير هذه الحقيقة يأخذ في بيان صفة المؤمنين الذين يذخر الله لهم ما هو خير وأبقى .. ويبدأ بصفة الإيمان. «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا .. قيمة الإيمان أنه معرفة بالحقيقة الأولى التي لا تقوم في النفس البشرية معرفة صحيحة لشيء في هذا الوجود إلا عن طريقها. فمن طريق الإيمان بالله ينشأ إدراك لحقيقة هذا الوجود، وأنه من صنع الله وبعد إدراك هذه الحقيقة يستطيع الإنسان أن يتعامل مع الكون وهو يعرف طبيعته كما يعرف قوانينه التي تحكمه. ومن ثم ينسق حركته هو مع حركة هذا الوجود الكبير، ولا ينحرف عن النواميس الكلية، فيسعد بهذا التناسق، ويمضي مع الوجود كله إلى بارئ الوجود في طاعة واستسلام وسلام. وهذه الصفة لازمة لكل إنسان، ولكنها ألزم ما تكون للجماعة التي تقود البشرية إلى بارئ الوجود.

وقيمة الإيمان كذلك الطمأنينة النفسية، والثقة بالطريق، وعدم الحيرة أو التردد، أو الخوف أو اليأس. وهذه الصفات لازمة لكل إنسان في رحلته على هذا الكوكب ولكنها ألزم ما تكون للقائد الذي يرتاد الطريق، ويقود البشرية في هذا الطريق.

وقيمة الإيمان التجرد من الهوى والغرض والصالح الشخصي وتحقيق المغام. إذ يصبح القلب متعلقا بهدف أبعد من ذاته ويحس أن ليس له من الأمر شيء، إنما هي دعوة الله، وهو فيها أجير عند الله! وهذا الشعور ألزم ما يكون لمن توكل إليه مهمة القيادة كي لا يقنط إذ أعرض عنه القطيع الشارد أو أؤدي في الدعوة ولا يغتر إذا ما استجابت له الجماهير، أو دانت له الرقاب. فإنما هو أجير. ولقد آمنت العصابة الأولى من المسلمين إيماناً كاملاً أثر في نفوسهم وأخلاقهم وسلوكهم تأثيراً عجبياً. وكانت صورة الإيمان في نفس البشرية قد بهتت وغمضت حتى فقدت تأثيرها في أخلاق الناس وسلوكهم، فلما أن جاء الإسلام أنشأ صورة للإيمان حية مؤثرة فاعلة تصلح بها هذه لالعصابة للقيادة التي وضعت على عاتقها.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه: «ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين». عن هذا الإيمان: «انحلت العقدة الكبرى - عقدة الشرك والكفر - فانحلت العقد كلها وجاهدتهم الرسول جهاده الأول، فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهي وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى، فكان النصر حليفه في كل معركة وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهي...»^{٦١٨}

«حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم - بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم - وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة، وفي اليوم رجال الغد، لا تجزعهم مصيبة، ولا تبطرهم نعمة، ولا يشلغهم فقر، ولا يطغيهم غنى، ولا تلهيهم تجارة، ولا تستخفهم قوة، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم، قوامين بالقسط شهداء لله على أنفسهم أو الوالدين والأقربين.. وطأ لهم أكناف الأرض، وأصبحوا عصمة للبشرية، ووقاية للعالم. وداعية إلى دين الله..»^{٦١٩}

ويقول عن تأثير الإيمان الصحيح في الأخلاق والميول: «كان الناس عرباً وعجماء يعيشون حياة جاهلية، يسجدون فيها لكل ما خلق لأجلهم ويخضع لإرادتهم وتصرفهم، لا يثيب الطائع بجائزة، ولا يعذب العاصي بعقوبة، ولا يأمر ولا ينهى فكانت الديانة سطحية طافية في حياتهم، ليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم، ولا تأثير لها في أخلاقهم واجتماعهم.

كانوا يؤمنون بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر، وتولوا إدارة المملكة وتدير شؤونها وتوزيع أرزاقها، إلى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة. فكان إيمانهم بالله لا يزيد على معرفة تاريخية، وكان إيمانهم بالله، وإحالتهم

^{٦١٨} - ص ٧٣ الطبعة الثانية. (السيد رحمه الله)

^{٦١٩} - ص ٧٤ الطبعة الثانية. (السيد رحمه الله)

خلق السماوات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ، يقال له: من بنى هذا القصر العتيق؟ فيسمي ملكا من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له فكان دينهم عاريا عن الخشوع لله ودعائه، وما كانوا يعرفون عن الله ما يجيبه إليهم، فكانت معرفتهم مبهممة غامضة، قاصرة مجملة، لا تبث في نفوسهم هبة ولا محبة..».. انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح، ذات تأثير في الأخلاق والاجتماع، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها. آمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى. آمنوا برب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، العزيز، الحكيم، الغفور، الودود، الرؤوف، الرحيم، له الخلق والأمر، بيده ملكوت كل شيء، يجير ولا يجار عليه.. إلى آخر ما جاء في القرآن من وصفه. يثيب بالجنة ويعذب بالنار، ويسيطر الرزق لمن يشاء ويقدر، يعلم الخبء في السماوات والأرض، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. إلى آخر ما جاء في القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه. فانقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلابا عجيبا. فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهرا لبطن. تغلغل الإيمان في أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره، وجرى منه مجرى الروح والدم، واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها، وغمر العقل والقلب بفيضانه، وجعل منه رجلا غير الرجل، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة، ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد، وعجز العلم عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق»^{٦٢٠}.

« وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملي على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة إرادة وقوة نفس، ومحاسبتها والإنصاف منها، وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية حتى إذا جمحت السورة البهيمية في حين من الأحيان، وسقط الإنسان سقطة وكان ذلك حيث لا تراقبه عين، ولا تتناوله يد القانون، تحول هذا الإيمان نفسا لوامة عنيفة، ووخزا لاذعا للضمير، وخيالا مروعا، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة، ويتحملها مطمئنا مرتاحا، تفاديا من سخط الله وعقوبة الآخرة »^{٦٢١}.

«.. وكان هذا الإيمان حارسا لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته، يملك نفسه التزع أمام المطامع والشهوات الجارفة وفي الخلوة والوحدة حيث لا يراه أحد، وفي سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحدا. وقد وقع في تاريخ الفتح الإسلامي من قضايا العفاف عند المغنم، وأداء الأمانات إلى

^{٦٢٠} - ص ٧٥-٧٦ الطبعة الثانية. (السيد رحمه الله)

^{٦٢١} - ص ٧٦. (السيد رحمه الله)

أهلها، والإخلاص لله، ما يعجز التاريخ البشري عن نظائره، وما ذاك إلا نتيجة رسوخ الإيمان، ومراقبة الله واستحضار علمه في كل مكان وزمان»^{٦٢٢}.

«وكانوا قبل هذا الإيمان في فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والاجتماع، لا يخضعون لسلطان، ولا يقرون بنظام، ولا ينخرطون في سلك، يسيرون على الأهواء، ويركبون العمياء، ويخبطون خبط عشواء. فأصبحوا الآن في حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها، واعترفوا لله بالملك والسلطان، والأمر والنهي، ولأنفسهم بالرعوية والعبودية والطاعة المطلقة، وأعطوا من أنفسهم المقادة، واستسلموا للحكم الإلهي استسلاما كاملا ووضعوا أوزارهم، وتنازلوا عن أهواءهم وأنانيتهم، وأصبحوا عبيدا لا يملكون مالا ولا نفسا ولا تصرفا في الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به، لا يحاربون ولا يصلحون إلا بإذن الله، ولا يرضون ولا يسخطون، ولا يعطون ولا يمنعون، ولا يصلون ولا يقطعون إلا بإذنه ووفق أمره»^{٦٢٣}.

وهذا هو الإيمان الذي تشير إليه الآية وهي تصف الجماعة التي اختيرت لقيادة البشرية بهذه العقيدة. ومن مقضيات هذا الإيمان التوكل على الله. ولكن القرآن يفرد هذه الصفة بالذكر ويميزها: «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».. وهذا التقدم والتأخير في تركيب الجملة يفيد قصر التوكل على ربهم دون سواه. والإيمان بالله الواحد يقتضي التوكل عليه دون سواه. فهذا هو التوحيد في أول صورة من صورته. إن المؤمن يؤمن بالله وصفاته، ويستيقن أنه لا أحد في هذا الوجود يفعل شيئا إلا بمشيئته، وأنه لا شيء يقع في هذا الوجود إلا بإذنه. ومن ثم يقصر توكله عليه، ولا يتوجه في فعل ولا ترك لمن عداه.

وهذا الشعور ضروري لكل أحد، كي يقف رافع الرأس لا يحني رأسه إلا لله. مطمئن القلب لا يرجو ولا يرهب أحدا إلا الله. ثابت الجأش في الضراء قرير النفس في السراء، لا تستطيره نعماء ولا بأساء.. ولكن هذا الشعور أشد ضرورة للقائد، الذي يحتمل تبعة ارتياد الطريق.

«وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ».. وطهارة القلب، ونظافة السلوك من كبائر الإثم ومن الفواحش، أثر من آثار الإيمان الصحيح. وضرورة من ضرورات القيادة الراشدة. وما يبقى قلب على صفاء الإيمان ونقاوته وهو يقدم على كبائر الذنوب والمعاصي ولا يتجنبها. وما يصلح قلب للقيادة وقد فارقه صفاء الإيمان وطمسته المعصية وذهبت بنوره.

ولقد ارتفع الإيمان بالحساسية المرهفة في قلوب العصبة المؤمنة، حتى بلغت تلك الدرجة التي أشارت إليها المقتطفات السابقة (ص ٧٧) وأهلت الجماعة الأولى لقيادة البشرية قيادة غير مسبوقة ولا ملحوقة. ولكنها كالسهم يشير إلى النجم ليهتدي به من يشاء في معترك الشهوات! والله يعلم ضعف

^{٦٢٢} -ص ٧٧. (السيد رحمه الله)

^{٦٢٣} -ص ٨١. (السيد رحمه الله)

هذا المخلوق البشري، فيجعل الحد الذي يصلح به للقيادة، والذي ينال معه ما عند الله، هو اجتناب كبائر الإثم والفواحش. لا صغائر الإثم والذنب. وتسعه رحمته بما يقع منه من هذه الصغائر، لأنه أعلم بطاقته. وهذا فضل من الله وسماحة ورحمة بهذا الإنسان توجب الحياء من الله، فالسماحة تحجل والعفو يثير في القلب الكريم معنى الحياء.

«وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» .. وتأتي هذه الصفة بعد الإشارة الخفية إلى سماحة الله مع الإنسان في ذنوبه وأخطائه، فتحجب في السماحة والمغفرة بين العباد. وتجعل صفة المؤمنين أنهم إذا ما غضبوا هم يغفرون. وتتجلى سماحة الإسلام مرة أخرى مع النفس البشرية فهو لا يكلف الإنسان فوق طاقته. والله يعلم أن الغضب انفعال بشري ينبع من فطرته. وهو ليس شرا كله. فالغضب لله ولدينه وللحق والعدل غضب مطلوب وفيه الخير. ومن ثم لا يحرم الغضب في ذاته ولا يجعله خطيئة. بل يعترف بوجوده في الفطرة والطبيعة، فيعفي الإنسان من الحيرة والتمزق بين فطرته وأمر دينه. ولكنه في الوقت ذاته يقوده إلى أن يغلب غضبه، وأن يغفر ويعفو، ويحسب له هذا صفة مثلى من صفات الإيمان الحبية. هذا مع أنه عرف عن رسول الله - ﷺ - أنه لم يغضب لنفسه قط، إنما كان يغضب لله، فإذا غضب لله لم يقم لغضبه شيء. ولكن هذه درجة تلك النفس الحميدة العظيمة لا يكلف الله نفوس المؤمنين إياها. وإن كان يحببهم فيها. إنما يكتفي منهم بالمغفرة عند الغضب، والعفو عند القدرة، والاستعلاء على شعور الانتقام، ما دام الأمر في حدود الدائرة الشخصية المتعلقة بالأفراد.

«وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ» .. فأزالوا العوائق التي تقوم بينهم وبين ربهم. أزالوا هذه العوائق الكامنة في النفس دون الوصول. وما يقوم بين النفس وربها إلا عوائق من نفسها. عوائق من شهواتها ونزواتها. عوائق من وجودها هي وتشبثها بذاتها. فأما حين تخلص من هذا كله فإنها تجد الطريق إلى ربها مفتوحا وموصولا. وحينئذ تستجيب بلا عائق. تستجيب بكليتها. ولا تقف أمام كل تكليف بعائق من هوى يمنعها .. وهذه هي الاستجابة في عمومها .. ثم أخذ يفصل بعض هذه الاستجابة:

«وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ» .. وللصلاة في هذا الدين مكانة عظيمة، فهي التالية للقاعدة الأولى فيه. قاعدة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. وهي صورة الاستجابة الأولى لله. وهي الصلة بين العبد وربّه. وهي مظهر المساواة بين العباد في الصف الواحد ركعا سجدا، لا يرتفع رأس على رأس، ولا تتقدم رجل على رجل!

ولعله من هذا الجانب أتبع إقامة الصلاة بصفة الشورى - قبل أن يذكر الزكاة: «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» والتعبير يجعل أمرهم كله شورى، ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة. وهو كما قلنا نص مكّي. كان قبل قيام الدولة الإسلامية. فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين. إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد.

والواقع أن الدولة في الإسلام ليست سوى إفراز طبيعي للجماعة وخصائصها الذاتية. والجماعة تتضمن الدولة وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامي وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية. ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكراً، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها.

إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية. وهي من ألزم صفات القيادة. أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوباً في قالب حديدي فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان، لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية. والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالاً جامدة، وليست نصوصاً حرفية، إنما هي قبل كل شيء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة. والبحث في أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراءها لا يؤدي إلى شيء.. وليس هذا كلاماً عائماً غير مضبوط كما قد يبدو لأول وهلة لمن لا يعرف حقيقة الإيمان بالعقيدة الإسلامية.

فهذه العقيدة - في أصولها الاعتقادية البحتة، وقبل أي تنفلات إلى الأنظمة فيها - تحوي حقائق نفسية وعقلية هي في ذاتها شيء له وجود وفاعلية وأثر في الكيان البشري، يهيئ لإفراز أشكال معينة من النظم وأوضاع معينة في الحياة البشرية ثم تجيء النصوص بعد ذلك مشيرة إلى هذه الأشكال والأوضاع، لجرد تنظيمها لا لخلقها وإنشائها. ولكي يقوم أي شكل من أشكال النظم الإسلامية، لا بد قبلها من وجود مسلمين، ومن وجود إيمان ذي فاعلية وأثر. وإلا فكل الأشكال التنظيمية لا تفي بالحاجة، ولا تحقق نظاماً يصح وصفه بأنه إسلامي..

ومتى وجد المسلمون حقاً، ووجد الإيمان في قلوبهم بحقيقته، نشأ النظام الإسلامي نشأة ذاتية، وقامت صورة منه تناسب هؤلاء المسلمين وبيئتهم وأحوالهم كلها وتحقق المبادئ الإسلامية الكلية خير تحقيق. «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ».. وهو نص مبكر كذلك على تحديد فرائض الزكاة التي حددت في السنة الثانية من الهجرة. ولكن الإنفاق العام من رزق الله كان توجيهها مبكراً في حياة الجماعة الإسلامية. بل إنه ولد مع مولدها.

ولا بد للدعوة من الإنفاق. لا بد منه تطهيراً للقلب من الشح، واستعلاء على حب الملك، وثقة بما عند الله. وكل هذه ضرورية لاستكمال معنى الإيمان. ثم إنها ضرورية كذلك لحياة الجماعة. فالدعوة كفاح. ولا بد من التكافل في هذا الكفاح وجرائره وآثاره. وأحياناً يكون هذا التكافل كاملاً بحيث لا يبقى لأحد مال متميز. كما حدث في أول العهد بهجرة المهاجرين من مكة، ونزولهم على إخوانهم في المدينة. حتى إذا هدأت حدة الظروف وضعت الأسس الدائمة للإنفاق في الزكاة. وعلى أية حال فالإنفاق في عمومه سمة من سمات الجماعة المؤمنة المختارة للقيادة بهذه الصفات..

«وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ». وذكر هذه الصفة في القرآن المكي ذو دلالة خاصة كما سلف. فهي تقرير لصفة أساسية في الجماعة المسلمة. صفة الانتصار من البغي، وعدم الخضوع للظلم. وهذا طبيعي بالنسبة لجماعة أخرجت للناس لتكون خير أمة.

لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقيم على حياة البشرية بالحق والعدل وهي عزيزة بالله. «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ».. فمن طبيعة هذه الجماعة ووظيفتها أن تنتصر من البغي وأن تدفع العدوان. وإذا كانت هناك فترة اقتضت لأسباب محلية في مكة، ول مقتضيات تربوية في حياة المسلمين الأوائل من العرب خاصة، أن يكفوا أيديهم و يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فذلك أمر عارض لا يتعلق بخصائص الجماعة الثابتة الأصيل.

ولقد كانت هنالك أسباب خاصة لاختيار أسلوب المسالمة والصبر في العهد المكي:

منها أن إيذاء المسلمين الأوائل وفتنتهم عن دينهم لم تكن تصدر من هيئة مهيمنة مسيطرة على الجماعة. فالوضع السياسي والاجتماعي في الجزيرة كان وضعاً قليلاً مخلصاً. ومن ثم كان الذين يتولون إيذاء الفرد المسلم هم خاصة أهله إن كان ذا نسب، ولم يكن أحد غير خاصة أهله يجرؤ على إيذائه - ولم يقع إلا في الندرة أن وقع اعتداء جماعي على فرد مسلم أو على المسلمين كجماعة - كما كان السادة يؤذون مواليتهم إلى أن يشتريهم المسلمون ويعتقوهم فلا يجرؤ أحد على إيذائهم غالباً. ولم يكن الرسول - ﷺ - يجب أن تقع معركة في كل بيت بين الفرد المسلم من هذا البيت والذين لم يسلموا بعد. والمسالمة كانت أقرب إلى إلانة القلوب من المخاشنة.

ومن هنا أن البيئة العربية كانت بيئة نخوة تثور لصاحب الحق الذي يقع عليه الأذى. واحتمال المسلمين للأذى وصبرهم على عقيدتهم، كان أقرب إلى استثارة هذه النخوة في صف الإسلام والمسلمين. وهذا ما حدث بالقياس إلى حادث الشعب وحصر بني هاشم فيه. فقد ثارت النخوة ضد هذا الحصار، ومزقت العهد الذي حوته الصحيفة، ونقضت هذا العهد الجائر.

ومن هنا أن البيئة العربية كانت بيئة حرب ومسارعة إلى السيف، وأعصاب متوفزة لا تخضع لنظام. والتوازن في الشخصية الإسلامية كان يقتضي كبح جماح هذا التوفز الدائم، وإخضاعها لهدف، وتعويدها الصبر وضبط الأعصاب. مع إشعار النفوس باستعلاء العقيدة على كل نزوة وعلى كل مغنم. ومن ثم كانت الدعوة إلى الصبر على الأذى متفقة مع منهج التربية الذي يهدف إلى التوازن في الشخصية الإسلامية، وتعليمها الصبر والثبات والمضي في الطريق.

فهذه الاعتبارات وأمثالها قد اقتضت سياسة المسالمة والصبر في مكة. مع تقرير الطابع الأساسي الدائم للجماعة المسلمة: «وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ».. ويؤكد هذه القاعدة بوصفها قاعدة عامة في الحياة: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا».. فهذا هو الأصل في الجزاء. مقابلة السيئة بالسيئة، كي لا يتبجح الشر ويطغى، حين لا يجد رادعاً يكفه عن الإفساد في الأرض فيمضي وهو آمن مطمئن! ذلك

مع استحباب العفو ابتغاء أجر الله وإصلاح النفس من الغيظ، وإصلاح الجماعة من الأحقاد. وهو استثناء من تلك القاعدة. والعفو لا يكون إلا مع المقدرة على جزاء السيئة بالسيئة. ففها يكون للعفو وزنه ووقعه في إصلاح المعتدي والمسامح سواء. فالمعتدي حين يشعر بأن العفو جاء سماحة ولم يبيئ ضعفاً يخجل ويستحيي، ويحس بأن خصمه الذي عفا هو الأعلى. والقوي الذي يعفو تصفو نفسه وتعلو. فالعفو عندئذ خير لهذا وهذا.

ولا كذلك عند الضعف والعجز. وما يجوز أن يذكر العفو عند العجز. فليس له ثمة وجود. وهو شر يطمع المعتدي ويذل المعتدى عليه، وينشر في الأرض الفساد!

«إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ».. وهذا تأكيد للقاعدة الأولى: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا» من ناحية. وإحياء بالوقوف عند رد المساءة أو العفو عنها. وعدم تجاوز الحد في الاعتداء، من ناحية أخرى.

وتأكيد آخر أكثر تفصيلاً: «وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ، فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ، وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ. أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»..

فالذي ينتصر بعد ظلمه، ويجزي السيئة بالسيئة، ولا يعتدي، ليس عليه من جناح. وهو يزاول حقه المشروع. فما لأحد عليه من سلطان. ولا يجوز أن يقف في طريقه أحد. إنما الذين يجب الوقوف في طريقهم هم الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق. فإن الأرض لا تصلح وفيها ظالم لا يقف له الناس ليكفوه ويمنعوه من ظلمه وفيها باغ يجور ولا يجد من يقاومه ويقتص منه. والله يتوعد الظالم الباغي بالعذاب الأليم. ولكن على الناس كذلك أن يقفوا له ويأخذوا عليه الطريق.

ثم يعود إلى التوازن والاعتدال وضبط النفس والصبر والسماحة في الحالات الفردية، وعند المقدرة على الدفع كما هو مفهوم وحين يكون الصبر والسماحة استعلاء لا استخذاء وتحملاً لا ذلاً:

«وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ».. ومجموعة النصوص في هذه القضية تصور الاعتدال والتوازن بين الاتجاhein وتحرص على صيانة النفس من الحقد والغیظ، ومن الضعف والذل، ومن الجور والبغي. وتعلقها بالله ورضاه في كل حال. وتجعل الصبر زاد الرحلة الأصيل.

ومجموعة صفات المؤمنين ترسم طابعاً مميزاً للجماعة التي تقود البشرية وترجو ما عند الله وهو خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون... ٦٢٤

٨٥ - لا بد من الفتنة:

٦٢٤ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٩٦٢)

قال تعالى: {أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) } [العنكبوت: ٢ - ٦]

هل ظنَّ النَّاسُ أَنْ تُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، دُونَ أَنْ يَبْتَلِيَهُمُ اللَّهُ، وَيَخْتَبِرَ صِدْقَ إِيمَانِهِمْ: بِالْهَجْرَةِ، وَالتَّكْلِيفِ الدِّينِيِّ الأُخْرَى، وَالْجِهَادِ، وَالْمَصَائِبِ؟ كَلَّا، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، بِحَسَبِ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ إِيمَانٍ .

ولقد امتحن الله المؤمنين السَّالِفِينَ، وَعَرَضَهُمْ لِلْفِتْنَةِ وَالْإِخْتِبَارِ، وَغَايَتُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ هَذَا الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِخْتِبَارِ هِيَ أَنْ يُمَحِّصَهُمْ فَيَعْلَمَ الَّذِينَ صَدَقُوا فِي دَعْوَى الْإِيمَانِ، مِمَّنْ هُمْ كَاذِبُونَ فِي دَعْوَاهُمْ، وَلِيُجَازِيَ كُلًّا بِمَا يَسْتَحِقُّهُ .

أَمْ هَلْ يَظُنُّ الَّذِينَ يَرْتَكِبُونَ الْفَوَاحِشَ وَالْآثَامَ، أَنْ يَقُولُوا رَبِّهِمْ، وَيَسْبِقُوهُ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْزِلَ بِهِمْ عِقَابَهُ الْعَادِلَ، وَلَا أَنْ يَأْخُذَهُمْ بِظُلْمِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، كَمَا هِيَ سُنَّتُهُ فِي الظَّالِمِينَ؟ إِنَّهُمْ إِنْ ظَنُّوا أَنَّ فِي اسْتِطَاعَتِهِمْ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، وَيُطْمَعُ فِي ثَوَابِ اللَّهِ يَوْمَ لِقَائِهِ فِي الآخِرَةِ، فَلْيُبَادِرْ إِلَى فِعْلٍ مَا يَنْفَعُهُ، وَعَمَلٍ مَا يُوصِلُهُ إِلَى مَرْضَاةِ رَبِّهِ، وَلِيَجْتَنِبَ مَا يُسْخِطُ رَبَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ الَّذِي حَدَّدَهُ لِبَعْثِ خَلْقِهِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ لَآتٍ لَا مُحَالَاةَ، وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لِقَوْلِ الْعِبَادِ، الْعَلِيمُ بِعِقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ .

وَمَنْ بَذَلَ جُهْدَهُ فِي جِهَادِ عَدُوِّ دِينِهِ وَوَطَنِهِ وَقَوْمِهِ، وَفِي مُجَاهَدَةِ نَفْسِهِ، وَكَفَّهَا عَنِ التَّفَكِيرِ فِي الْمُنْكَرِ وَالسُّوءِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ نَفْعِ نَفْسِهِ، بِالْفَوْزِ بِثَوَابِ اللَّهِ عَلَى جِهَادِهِ، وَبِالنَّجَاةِ مِنْ عِقَابِهِ، وَلَيْسَ اللَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى جِهَادِ أَحَدٍ، فَهُوَ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَهُوَ عَزِيزٌ لَا يُنَالُ وَلَا يُضَامُ .^{٦٢٥}

فَالْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ لَقِيتَهُمْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي أَوَّلِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ - كَانُوا فِي وَجْهِ مَحَنَةٍ قَاسِيَةٍ، حَيْثُ انْخَلَعُوا عَنْ أَهْلِيهِمْ، وَانْعَزَلُوا عَنْ مَجْتَمَعِهِمْ، وَكَانُوا قَلَّةً قَلِيلَةً فِي مُوَاجَهَةِ عَاصِفَةٍ عَاتِيَةٍ، تَسُوقُ إِلَيْهِمُ الْبَلَاءَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، حَتَّى هَاجَرُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَخَرَجُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ.. فَلَمَّا اجْتَمَعَ لَهُمْ فِي مَوْطَنِهِمُ الْجَدِيدِ، شَيْءٌ مِنَ الْقُوَّةِ، وَأَذِنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ - كَانَ أَوَّلَ لِقَاءٍ لَهُمْ، مَعَ آبَائِهِمْ، وَأَبْنَائِهِمْ، وَإِخْوَتِهِمْ، فَعَمِلَتْ سَيُوفُهُمْ فِي رِقَابِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِيهِمْ وَذَوَى رَحْمَتِهِمْ، فَمَا نَكَلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ أَنْ يَضْرِبَ بِسَيْفِهِ مَنْ كَانَ - قَبْلَ الْإِسْلَامِ - يَفْدِيهِ بِنَفْسِهِ، وَيَلْقَى الْمَوْتَ دُونَهُ.. وَقَدْ حَدَّثَ التَّارِيخُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَقِيَ ابْنَهُ فِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ، وَقَدْ عَرَفَهُ ابْنَهُ وَلَمْ يَعْرِفْهُ.. فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ زَمَنِ، وَدَخَلَ ابْنَهُ فِي الْإِسْلَامِ، قَالَ لِأَبِيهِ: لَقَدْ عَرَضْتَ لِي يَوْمَ بَدْرٍ، فَأَعَرَضْتَ عَنْكَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: لَوْ عَرَضْتَ لِي يَوْمَئِذٍ، وَأَمَكَّنِي اللَّهُ مِنْكَ، لَمَا رَدَدْتَ سَيْفِي عَنْكَ!!

^{٦٢٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٢٢٤، بترقيم الشاملة آليا)

ولا شك أن هذه كانت تجربة ثقيلة على نفوس المؤمنين، وقد احتملوها صابرين، وكانت آيات الله تتزلزل عليهم، فتبعث في نفوسهم المضطربة، سكوناً، وتسوق إلى قلوبهم الملهته، برداً وسلاماً.

ونجد في قوله تعالى: «أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» تصحيحاً لما يقع في بعض النفوس المؤمنة من انزعاج أو استثقال لهذا العبء الذي حملوه من الإيمان بالله.. كما نجد في الآية والآيات التي بعدها إجابات قاطعة على تلك التساؤلات التي كانت تتردد في الخواطر: لم يكون الإيمان هكذا غالى الثمن، باهظ التكاليف؟ ولم يحملنا إيماننا بالله على هذا المركب الوعر؟ ألسنا على الهدى، وعلى الصراط المستقيم؟ وهل هذا الطريق هكذا وعر المسالك، مزدحم العقبات؟

ونعم.. إن الإيمان هكذا غالى الثمن، باهظ التكاليف، وإن طريقه وعر المسالك جمّ العقبات!! إنه الطريق إلى الجنة، وإن طريق الجنة مخوف بالمكاره! وإن هذا البلاء الذي يلقيه المؤمن على طريق إيمانه، هو ابتلاء له، وتمحيص لما عنده من صبر ومصابرة.. وهل يصفى الذهب من الغثاء الذي علق به، إلا إذا صهر بالنار؟ «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ» (٣١: محمد).

«ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب» (١٧٩: آل عمران).

وهل انكشف وجه النفاق، وعرف المنافقون إلا في بوتقة الابتلاء، وفي مقام التضحية والبذل؟

إن الناس جميعاً على سواء في حال الأمن والعافية.. فإذا كانت الحن والشدائد، فهم أنماط وأشكال، وهم معادن مختلفة، بين غث وThin! والاستفهام في الآية الكريمة، للإنكار، والنفى.. أي ليس الأمر على ما يظن الناس وما يقدررون، من أنهم إذا قالوا آمنا كانوا مؤمنين.. كلا، إن ذلك لا يكون حتى يفتنوا، وحتى يبتلوا.. وعندئذ ينكشف ما عندهم من إيمان..

قوله تعالى: «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ» هكذا حكم الله في عباد.. فكما امتحن الله المؤمنين في الأمم السابقة، يمتحن سبحانه الذين أسلموا، بما يفتنهم، في دينهم مما يلقيهم من شدائد ومحن..

فمن كان صادق الإيمان، سليم العقيدة، خالص النية، أمسك إيمانه في قلبه، وثبت عليه، ومن كان على غير تلك الصفة انخلع عن دينه، وألقى به لأول مرة تمسه من بلاء، وباعه بأبخس ثمن!.

- وفي قوله تعالى: «فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ» - بهذا الأمر المؤكد - إعلان للمؤمنين بأنهم في وجه ابتلاء، وفي مواجهة فتن، لا بد لهم منها.. إن لم تكن واقعة بهم فعلاً، فإنها ستقع حتماً.. هكذا يجب أن يتقرر في نفوسهم من أول الطريق.. فمن شاء أن يكون في المؤمنين، فليوطن نفسه على هذا، وليستعد لحمل أفدح الضربات.. وإلا فليأخذ طريقاً غير هذا الطريق، وأمامه أكثر من طريق فسيح!.

والمؤمنون الأولون الذين دخلوا في الإسلام، ورسخت أقدامهم فيه، هم - كما شهد التاريخ - أصفى الناس جوهرًا، وأكرمهم معدنًا.. فقد كانوا خلاصة مجتمعهم، وثاقة عزم، وقوة يقين.. فاحتملوا من الشدائد والحن ما تتصدع به الجبال الراسيات.. «فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا.. وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ» (١٤٦: آل عمران) ومن أجل هذا، فقد شهد القرآن الكريم لهذه الصفوة المتخيرة من عباد الله أكرم شهادة، وجعل ميزان الواحد منهم يعادل عشرة من غير المؤمنين، فقال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» (٦٥: الأنفال) .. وأنت ترى أن الصفة التي فرق بها القرآن بين هؤلاء المؤمنين، والمشركون، هي «الفقه» .. وهو ليس ذلك العلم النظري، وإنما هو الحق الذي يملأ القلوب نورا، فيكشف لصاحبه من آيات الله، ودلائل قدرته، وعلمه، وحكمته، ما يصغر به كل شيء، إزاء عظمة الخالق وجلاله..

قوله تعالى: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» . هو لفظة تلفت المؤمنين، الذين يعانون ما يعانون من أعباء الإيمان وتبعاته - إلى هؤلاء المشركين، الذين خلعت دنياهم من هذا البلاء، وفرغوا لما هم فيه من متع الحياة.. فهؤلاء المشركون لهم يومهم الذي يوعدون، حيث يلقون ما يعلمه المؤمنون من سوء العذاب، الذي أعدّه الله للمشركون والمنافقين والكافرين.. إنهم لن يسبقوا يد القدرة المتمكنة منهم، وإنهم لن يفلتوا من بأس الله إذا جاءهم.. وإنهم إن ظنوا ذلك، فذلك الظن هو الذي يحملهم إلى الردى، ويسوقهم إلى الهلاك. «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» .

قوله تعالى: «مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ لَأَتِيَنَّكَ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» . هو دعوة للمؤمنين إلى ما أعد الله لهم من نعيم، وتطمين لقلوبهم بما وعدهم به من مغفرة ورضوان، فهم لهذا الوعد يعملون، وعلى رجاء لقاء ربهم يجاهدون، ويصبرون على ما يلقون من أذى وبلاء.. - وقوله تعالى: «فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ لَأَتِيَنَّكَ» تأكيد لتحقيق وعد الله، وأنه آت لا شك فيه، ولكن في الوقت الموقوت له.. ولهذا جاء النظم بلفظ «أجل» بدلا من اللفظ الذي يقتضيه سياق النظم وهو «اللقاء» .. وذلك للإشعار بأن هذا الوعد له أجل محدود، عند الله، وأنه متى جاء الأجل، التقى المؤمنون بما وعدهم الله به.

- وقوله تعالى: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» السميع لما يقول المؤمنون بألسنتهم، العليم بما انعقد في القلوب من إيمان، يصدق العمل..

قوله تعالى: «وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» . وهذا البلاء الذي يحتمله المؤمنون، وهذا الجهاد الذي يجاهدونه في سبيل الله، إنما هو تزكية لأنفسهم، وتطهير لقلوبهم، وإعلاء لدوائهم..

وإنه ليس لله من أعمال عباده ما ينفعه أو يضره.. فلا ينفعه طاعة المطيعين، ولا يضره عصيان العاصين.. وكيف، وهو سبحانه الذي يقوم على وجودهم ويحفظ عليهم حياتهم، ويمدّهم بكل نفس يتنفسونه في هذه الحياة؟ «إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» .

إن هذا الجهاد، وهذا الصراع القائم بين الحق والباطل، وبين المؤمنين والكافرين، هو ضريبة الحياة، وهو الثمن الذي يقدمه المؤمنون المجاهدون في سبيل حياة أفضل.. فهم أصحاب الحياة بحق، وغيرهم دخیل عليها، لا يستحق أن يأخذ مكانا كريما فيها.. فجهاد المجاهدين، هو في الواقع، جهاد في سبيل وجودهم، وجودا كريما في هذه الحياة الدنيا، وإلا فالموت في مجال الصراع خير لهم، حيث ينقلون إلى دار خير من دارهم، وإلى حياة أفضل من حياتهم..

إن النبتة لا ترى النور، ولا تصافح النسيم، حتى تدفع برأسها الواهي الضعيف هذا التراب الذي قام فوقها، وحجب النور عنها..!!

وفي الإنسان - كل إنسان - أشواق إلى عالم الحق والنور، وتقوم بينه وبين هذا العالم سدود من الباطل والضلال، وإنه لكي يصفح معالم الحق والنور، ينبغي أن يزيل هذه السدود، وأن يحطمها بكل ما أوتي من قوة، وألا يتحول عن موقفه منها حتى يبلغ غايته، أو يموت دونها. ^{٦٢٦}

إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف وأمانة ذات أعباء وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال. فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا. وهم لا يتركون لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم. كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به - وهذا هو أصل الكلمة اللغوي وله دلالة وظله وإيحاءه - وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب.

هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت، وسنة جارية، في ميزان الله سبحانه: «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ» ..

والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم. وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحدا إلا بما استعلن من أمره، وبما حققه فعله. فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه!.

ونعود إلى سنة الله في ابتلاء الذين يؤمنون وتعريضهم للفتنة حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين.

^{٦٢٦} - التفسير القرآني للقرآن (١٠ / ٤٠٠)

إن الإيمان أمانة الله في الأرض، لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص. وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة، وعلى الأمن والسلامة، وعلى المتاع والإغراء. وإلّا لأمانة الخلافة في الأرض، وقيادة الناس إلى طريق الله، وتحقيق كلمته في عالم الحياة. فهي أمانة كريمة وهي أمانة ثقيلة، وهي من أمر الله يضطلع بها الناس ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء

ومن الفتنة أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدفع عنه، ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان. وهذه هي الصورة البارزة للفتنة، المعهودة في الذهن حين تذكر الفتنة. ولكنها ليست أعنف صور الفتنة. فهناك فن كثيرة في صور شتى، ربما كانت أمر وأدهى.

هناك فتنة الأهل والأحياء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه، وهو لا يملك عنهم دفعا. وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم وينادونه باسم الحب والقرابة، واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للأذى أو الهلاك. وقد أشير في هذه السورة إلى لون من هذه الفتنة مع الوالدين وهو شاق عسير.

وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبطلين، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين، تهتف لهم الدنيا، وتصفق لهم الجماهير، وتتحطم في طريقهم العوائق، وتصاغ لهم الأجماد، وتصفو لهم الحياة. وهو مهمل منكر لا يحس به أحد، ولا يحامي عنه أحد، ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئا.

وهناك فتنة الغربة في البيئة والاستيحاش بالعقيدة، حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله وكل من حوله غارقا في تيار الضلالة وهو وحده موحد عريب طريد.

وهناك فتنة من نوع آخر قد نراها بارزة في هذه الأيام. فتنة أن يجد المؤمن أمما ودولا غارقة في الرذيلة، وهي مع ذلك راقية في مجتمعتها، متحضرة في حياتها، يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان.

ويجدها غنية قوية، وهي مشاقة لله! وهنا لك الفتنة الكبرى. أكبر من هذا كله وأعنف. فتنة النفس والشهوة. وجاذبية الأرض، وثقله اللحم والدم، والرغبة في المتاع والسلطان، أو في الدعة والاطمئنان. وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتفاه، مع المعوقات والمثبطات في أعماق النفس، وفي ملابس الحياة، وفي منطق البيئة، وفي تصورات أهل الزمان! فإذا طال الأمد، وابطأ نصر الله، كانت الفتنة أشد وأقسى. وكان الابتلاء أشد وأعنف. ولم يثبت إلا من عصم الله. وهؤلاء هم الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الإيمان، ويؤمنون على تلك الأمانة الكبرى، أمانة السماء في الأرض، وأمانة الله في ضمير الإنسان. وما بالله - حاشا لله - أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة. ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة.

فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء .

والنفس تصهرها الشدائد فتتفي عنها الخبث، وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع. وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل. وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامدا إلا أصلبها عودا وأقواها طبيعة، وأشدّها اتصالا بالله، وثقة فيما عنده من الحسين: النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلّمون الراية في النهاية. مؤمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار.

وإنهم ليتسلمون الأمانة وهي عزيزة على نفوسهم. بما أدوا لها من غالي الثمن وبما بذلوا لها من الصبر على الحن وبما ذاقوا في سبيلها من الآلام والتضحيات. والذي يبذل من دمه وأعصابه، ومن راحته واطمئنانه، ومن رغائبه ولذاته. ثم يصبر على الأذى والحرمان يشعر ولا شك بقيمة الأمانة التي بذل فيها ما بذل فلا يسلمها رخيصة بعد كل هذه التضحيات والآلام.

فأما انتصار الإيمان والحق في النهاية فأمر تكفل به وعد الله. وما يشك مؤمن في وعد الله. فإن أبطأ فلحكمة مقدره، فيها الخير للإيمان وأهله. وليس أحد بأغير على الحق وأهله من الله. وحسب المؤمنين الذين تصيبهم الفتنة، ويقع عليهم البلاء، أن يكونوا هم المختارين من الله، ليكونوا أمناء على حق الله. وأن يشهد الله لهم بأن في دينهم صلابة فهو يختارهم للابتلاء:

جاء في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ، عَنْ عَمَّتِهِ فَاطِمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَعُوذُ فِي نِسَاءٍ، فَإِذَا سِقَاءٌ مُعَلَّقٌ نَحْوَهُ يَقْطُرُ مَاءُهُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ مِنْ حَرِّ الْحُمَى، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. ٦٢٧..

وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ، عَنْ عَمَّتِهِ، قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي نِسْوَةٍ وَقَدْ مَرَّ بِنِسَاءٍ، وَقَدْ عَلَّقَ فِي شَجَرَةٍ وَاضْجَعَتْ تَحْتَهُ يَلْتَمِسُ بُرْدَهُ، وَهُوَ يَقْطُرُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ فَكَشَفَ عَنْكَ؟ فَقَالَ: إِنْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. ٦٢٨.

وأما الذين يفتنون المؤمنين، ويعملون السيئات، فما هم بمفلقين من عذاب الله ولا ناجين. مهما انتفخ باطلهم وانتفش، وبدا عليه الانتصار والفلاح. وعد الله كذلك وسنته في نهاية المطاف: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ!».. فلا يحسبن مفسد أنه مفلت ولا سابق، ومن يحسب هذا فقد ساء حكمه، وفسد تقديره، واختل تصوره.

٦٢٧-مسند أحمد (عالم الكتب) [٧٤٣/ ٨] (٢٧٠٧٩) ٢٧٦١٩ صحيح

٦٢٨-تحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة [١٢٨/ ٤] [٣٨٢٧] صحيح

فإن الله الذي جعل الابتلاء سنة ليمتحن إيمان المؤمن ويميز بين الصادقين والكاذبين هو الذي جعل أخذ المسيئين سنة لا تتبدل ولا تتخلف ولا تحيد.

وهذا هو الإيقاع الثاني في مطلع السورة، الذي يوازن الإيقاع الأول ويعادله. فإذا كانت الفتنة سنة جارية لامتحان القلوب وتمحيص الصفوف، فخيبة المسيئين وأخذ المفسدين سنة جارية لا بد أن تجيء. أما الإيقاع الثالث فيتمثل في تطمين الذين يرجون لقاء الله، ووصل قلوبهم به في ثقة وفي يقين: «مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».. فلتقر القلوب الراجية في لقاء الله ولتطمئن ولتنتظر ما وعددها الله إياه، انتظار الواثق المستيقن ولتطلع إلى يوم اللقاء في شوق ولكن في يقين.

والتعبير يصور هذه القلوب المتطلعة إلى لقاء الله صورة موحية. صورة الراجي المشتاق، الموصول بما هناك.

ويجيب على التطلع بالتوكيد المريح. ويعقب عليه بالطمأنينة الندية، يدخلها في تلك القلوب. فإن الله يسمع لها، ويعلم تطلعتها: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

والإيقاع الرابع يواجه القلوب التي تحتل تكاليف الإيمان، ومشاق الجهاد، بأنها إنما تجاهد لنفسها وخيرها ولاستكمال فضائلها، ولإصلاح أمرها وحياتها وإلا فما بالله من حاجة إلى أحد، وإنه لغني عن كل أحد: «وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»..

فإذا كتب الله على المؤمنين الفتنة وكلفهم أن يجاهدوا أنفسهم لتثبت على احتمال المشاق، فإنما ذلك لإصلاحهم، وتكميلهم، وتحقيق الخير لهم في الدنيا والآخرة. والجهاد يصلح من نفس المجاهد وقلبه ويرفع من تصوراته وآفاته ويستعلي به على الشح بالنفس والمال، ويستجيش أفضل ما في كيانه من مزايا واستعدادات. وذلك كله قبل أن يتجاوز به شخصه إلى الجماعة المؤمنة، وما يعود عليها من صلاح حالها، واستقرار الحق بينها، وغلبة الخير فيها على الشر، والصلاح فيها على الفساد. «وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ».

فلا يقفن أحد في وسط الطريق، وقد مضى في الجهاد شوطا يطلب من الله ثمن جهاده ويمن عليه وعلى دعوته، ويستبطن المكافأة على ما ناله! فإن الله لا يناله من جهاده شيء. وليس في حاجة إلى جهد بشر ضعيف هزيل: «إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ». وإنما هو فضل من الله أن يعينه في جهاده، وأن يستخلفه في الأرض به، وأن يأجره في الآخرة بثوابه:

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ».

فليطمئن المؤمنون العاملون على ما لهم عند الله، من تكفير للسيئات، وجزاء على الحسنات. وليصبروا على تكاليف الجهاد وليثبتوا على الفتنة والابتلاء فالأمل المشرق والجزاء الطيب، ينتظرانهم في نهاية المطاف. وإنه لحسب المؤمن حتى لو فاته في الحياة الانتصاف..^{٦٢٩}

٨٦ - الصبر لحكم الله:

قال تعالى: { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) } [القلم:]

فاصبر يا محمد على أذى قومك، وتكذيبهم إياك، فإن الله سيحكم لك، وسيجعل العاقبة لك ولأتباعك، في الدنيا والآخرة، ولا تكن كنبى الله يونس، عليه السلام (صاحب الحوت) حين ذهب مغاضباً قومه فركب السفينة، ثم اقترح أهل السفينة فألقوا في البحر، فالتقمه الحوت، وطاف به الحوت أرجاء المحيطات فحينئذ نادى في الظلمات، وهو ممتلى غيظاً من قومه إذ لم يؤمنوا له حين دعاهم إلى الإيمان: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين .

ولولا أن تداركته رحمة الله تعالى ونعمته، بتوقيفه للتوبة، وقبولها منه، لطرحت في الفضاء من بطن الحوت، وهو ملوم مطرود من الرحمة والكرامة .

ولكن نعمة ربّه تداركته، فاصطفاه ربّه، وأوحى إليه، وجعله من المرسلين العاملين بما أمرهم به ربهم^{٦٣٠} .

بهذه الآية، والآيات التي بعدها تختم سورة «القلم» التي كانت معرضاً لضلال المشركين، وسفههم، وتطاولهم على رسول الله، كما كانت معرضاً للدفاع عن القرآن الكريم، وعن الرسول، وتوجيه هذا التاج الرباني الذي زينه به الله سبحانه وتعالى، بثنائه عليه، في قوله سبحانه: «وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» .. ثم تابعت آيات السورة، تتوعد المشركين، وتهددهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، إذا هم لم يستجيبوا للرسول، ولم يتلقوا ما تمتد به إليهم يده، من رزق الله الذي لا يسألهم عليه أجراً ..

^{٦٢٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٤٧٠)

^{٦٣٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥١٩٣، بترقيم الشاملة آليا)

ثم يجيء هذا الختام الذي يتلقى فيه النبي من ربه سبحانه دعوة إلى الصبر على ما يلقي من سفاهة السفهاء، وحقارة الحمقى من قومه.. فهذا هو حكم الله، الذي يدعو إلى امتثاله: إنه الصبر، ولا شيء غير الصبر..

وقوله تعالى: «وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ» - هو شد من عزم النبي على الصبر، وتوكيد لالتزامه، والتمسك به، وألا يزايل موقفه الذي هو فيه، كما فعل صاحب الحوت - وهو يونس عليه السلام - حين أخلى مكانه بين قومه، وتركهم مغاضبا لهم، بعد أن دعاهم إلى الله، وتوقفوا عن إجابة دعوته.. ولو أنه صبر على عنادهم، وعادوا نصحبهم يوما بعد يوم، لاستجابوا له، فقد كان فيهم - مع هذا العناد - بقية من خير، يمكن أن تكون شرارة يتوهج منها نور الإيمان، لو وجدت من ينفخ فيها برفق، وأناة، ويتلطف في الإمساك بها من غير تعجل.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى عن موقف يونس عليه السلام: «وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» (٨٧: الأنبياء).. فيونس عليه السلام - هو الذي ذهب مغاضبا لقومه، أي محدثا الغضب من قبل أن تجتمع لديه أسبابه القويّة الداعية إليه..

وقوله تعالى: «إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ» بيان لحال يونس عليه السلام، وهو في بطن الحوت، ثم بيان حاله، وهو ينادى في جوف الحوت..

فالله سبحانه وتعالى ينهى النبي - صلوات الله وسلامه عليه - عن أن يكون في موقف كموقف يونس - عليه السلام - حين نادى ربه في حال هو فيها مكظوم، أي مغیظ، محنق، محتق من الغیظ، والضيق.. والكظم: مخرج النفس من الصدر، وكظم فلان: أي حبس نفسه.. وكظم الغیظ: حبسه، ومنه قوله تعالى: «وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ» .

ومن هنا يتبين أن المكظوم، «غير الكاظم»، هو الذي غلب غيظه وقهره، وأما المكظوم، فهو الذي ملكه الغیظ، وقهره، وغلبه على أمره..

وعلى هذا، فإن الذي يحذر النبي منه، هو ألا يغلبه الغیظ، كما غلب يونس عليه السلام، بل المطلوب منه، هو أن يكظم غيظه، وأن يقهره، وألا يجعل لهذا الغیظ سلطانا عليه، يحمل على مفارقة قومه، وإحلاء مكانه فيهم، كما فعل يونس.. وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى: «وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ.. وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (١٣٤: آل عمران) فقوله تعالى: «وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ» أي لا تكن كيونس إذ نادى ربه، وقد غلبه الغیظ، وحمله على أن يترك قومه، ويترل في هذا المكان الضيق، وهو بطن الحوت.

فالذي يحذر منه النبي، ليس هو مناداة ربه، وإنما مناداته في حال يكون قد غلبه فيها غيظه.. فإن دعاء الله، واللجأ إليه - وإن كان محمودا على كل حال وفي كل حال - إنما يكون في أحمد أحواله، وأعلى مقاماته، حين يكون صاحبه متجملا بالصبر على ما أصابه، ممسكا بزمام نفسه، ثقة بالله، واطمئنانا

إليه، في أشد الأهوال، وأعظم الحن، فلا يضيق بمحنة، ولا يكظم بشدة، لأنه مسلم أمره إلى الله، لا جىء إلى حمى سلطانه..

قوله تعالى: «لَوْلَا أَنَّ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنَبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» أي أن يونس - عليه السلام - لولا أن أدركته نعمة ربه، وإحسانه إليه «لَنَبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ» أي لخرج من بطن الحوت وهو مذموم ملوم من ربه.. ولكن الله سبحانه وتعالى، استجاب له، حين دعاه من بطن الحوت.. ثم اختاره ربه من بعد أن خرج من بطن الحوت، فخلع عليه لباس النبوة، الذي عرّى منه أو كاد، حين فارق قومه..

فخرج يونس من بطن الحوت، هو رحمة من رحمة الله به، وإعادته إلى وضعه الأول في مقام النبوة، هو نعمة مجددة أنعم الله بها عليه، إذ جعله بها من الصالحين، الذين سلموا من الدم، ونجوا من الملامة والعيب.. إنه بعث جديد له.

ففى قوله تعالى: «فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» - إشارة إلى حال جديدة، أعقبت الحال التي خرج عليها يونس من بطن الحوت، فهو - عليه السلام - خرج كما يخرج السجين من سجنه، يحمل معه آثار الذنب الذي كان منه.. ولكن الله سبحانه تدارك عبده، فأزال عنه هذا الأثر، وخلع عليه خلعة النبوة التي كانت تنتظره، على باب السجن الذي خرج منه، وبهذا ردّ إليه اعتباره، بعد هذا البلاء العظيم..

والسؤال هنا: ماذا كان من النبي - عليه الصلاة والسلام - من موقف مشابه لموقف يونس - عليه السلام - حتى ينبّه إلى الحذر من أن يأخذ الطريق الذي أخذه صاحب الحوت؟

نقول - والله أعلم - : كان النبي صلوات الله وسلامه عليه - قد بلغ به الحال بينه وبين قومه، ماملاً صدره ضيقاً بهم، وحيرة في أمرهم، بعد أن لقيهم بكل طريق، وجاءهم بكل حجة، فلم يكن منهم إلا السفاعة، والتطاول، والإمعان في المجافاة له، والأذى لأصحابه الذين آمنوا به، وإن الموقف ليلبغ غايته من التأزم والضيق، حين يخرج النبي - صلوات الله وسلامه عليه - إلى «ثقيف» بالطائب، ويعرض عليهم دين الله، ويبلغهم ما أرسل به إلى الناس، ثم لا يلقى منهم إلا استهزاء وسخرية، وإلا تطاولوا بالأسنة، ورجما بالأحجار، فيتركهم وقد أيتسوه من أن يجد لدعوته أذناً تسمع، أو عقلاً يعي وهنا تنزل تلك الآيات على الرسول الكريم، داعية إياه إلى الصبر، محذرة إياه من أن يأخذ موقفاً كموقف أخ له من أنبياء الله قبله، هو يونس عليه السلام.. وهذا على أن هذه الآيات مكية، في سورتها المكية..

أما على الرأى الذي يقول إنها آيات مدنية في السورة المكية، فإنه يجعل نزول هذه الآيات في أعقاب غزوة أحد، بعد أن أصاب المشركون ما أصابوا من صحابة رسول الله، ومنهم عمه حمزة. رضى الله عنه، وبعد أن أصيب رسول الله ﷺ، من سهام المشركين حتى شجّ رأسه، وكسرت رباعيته وسال دمه.

وعلى أى، فإن نزول هذه الآيات، كان فى حال اشتد فيها ضيق النبي، وكاد يقع اليأس فى قلبه من إيمان هؤلاء المشركين، الذين ركبوا رءوسهم، وأسلموا للشيطان قيادهم..

هذا، وفى تلك الآيات إشارة إلى أن عاقبة هؤلاء المشركين، هى الإيمان بالله، والاستجابة للرسول، كما آمن قوم يونس، بعد أن عاد إليهم، وجدّد دعوتهم إلى الإيمان بالله.. كما يقول سبحانه: «فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ» (يونس: ٩٨) - وفى هذا إشارة من أنباء الغيب إلى مستقبل هذه القرية، وهى مكة، وأن أهلها سيؤمنون، كما آمن قوم يونس. فهؤلاء المشركون الذين يقفون هذا الموقف العناديّ الضالّ من رسول الله، سوف يدخلون فى دين الله، وسوف يرى فيهم النّبىّ القوم المؤمنين الذين تقوم بأيديهم دولة الإسلام.. وغاية ما هناك أن يصبر النّبىّ، وأن يحتمل هذا الموقف المتأزم بينه وبين قومه، فإن الضيق إلى فرج، وإن العسر إلى يسر. وهكذا كانت الآية من البشريات المسعدة، التي بشر بها النّبىّ فى قومه، الذين كان شديد الحرص على هدايتهم ونجاتهم من الهلاك الذي يتدافعون إليه..^{٦٣١}

{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} أى: لما حكم به شرعاً وقدرًا، فالحكم القدري، يصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي، يقابل بالقبول والتسليم، والانقياد التام لأمره.

وقوله: {وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ} وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام أى: ولا تشابهه فى الحال، التي أوصلته، وأوجبت له الانحباس فى بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضباً لربه، حتى ركب فى البحر، فافتزع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيهم يلقون لكي تخف بهم، فوقعت القرعة عليه فالتقمه الحوت وهو مليم [وقوله] {إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ} أى: وهو فى بطنها قد كظمت عليه، أو نادى وهو مغتم مهتم بأن قال {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} فاستجاب الله له، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هنا: {لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ} أى: لطرّح فى العراء، وهى الأرض الخالية {وَهُوَ مَذْمُومٌ} ولكن الله تغمده برحمته فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال: {فَاحْتَبَاهُ رَبُّهُ} أى: اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر، {فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} أى: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم، [وأحوالهم] فامتثل نبينا محمد ﷺ، أمر ربه، فصبر لحكم ربه صبراً لا يدركه فيه أحد من العالمين.^{٦٣٢}

وصاحب الحوت هو يونس - عليه السلام - كما جاء فى سورة الصافات. وملخص تجربته التي يذكر الله بها محمداً - ﷺ - لتكون له زادا ورصيда، وهو خاتم النبيين، الذي سبقته تجارب النبيين أجمعين فى حقل الرسالة، ليكون هو صاحب الحصا الأخير، وصاحب الرصيد الأخير، وصاحب الزاد

^{٦٣١} - التفسير القرآن للقرآن (١٥/ ١١١٤)

^{٦٣٢} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٨١)

الأخير. فيعيّنه هذا على عبئه الثقيل الكبير. عبء هداية البشرية جميعها لا قبيلة ولا قرية ولا أمة. وعبء هداية الأجيال جميعها لا جيل واحد ولا قرن واحد كما كانت مهمة الرسل قبله. وعبء إمداد البشرية بعده بكل أجيالها وكل أقوامها. بمنهج دائم ثابت صالح لتلبية ما يجد في حياتها من أحوال وأوضاع وتجارب. وكل يوم يأتي بجديد.. ملخص تلك التجربة أن يونس بن متى - سلام الله عليه - أرسله الله إلى أهل قرية. قيل اسمها نينوى بالموصل.

فاستبطأ إيمانهم، وشق عليه تلكوهم، فتركهم مغاضبا قائلا في نفسه: إن الله لن يضيق عليّ بالبقاء بين هؤلاء المتعنتين المعاندين، وهو قادر على أن يرسلني إلى قوم آخرين! وقد قاده الغضب والضيق إلى شاطئ البحر، حيث ركب سفينته، فلما كانوا في وسط اللج ثقلت السفينة وتعرضت للغرق. فأقرعوا بين الركاب للتخفف من واحد منهم لتخفف السفينة.. فكانت القرعة على يونس. فألقوه في اليم. فابتلعه الحوت. عندئذ نادى يونس - وهو كظيم - في هذا الكرب الشديد في الظلمات في بطن الحوت، وفي وسط اللجة، نادى ربه: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ! إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» فندار كنهه نعمة من ربه، فنبذه الحوت على الشاطئ.. لحما بلا جلد.. ذاب جلده في بطن الحوت. وحفظ الله حياته بقدرته التي لا يقيدها قيد من مألوف البشر المحدود!

وهنا يقول: إنه لولا هذه النعمة لنبذه الحوت وهو مذموم. أي مذموم من ربه.. على فعلته. وقله صبره. وتصرفه في شأن نفسه قبل أن يأذن الله له. ولكن نعمة الله وقته هذا، وقبل الله تسبيحه واعترافه وندمه. وعلم منه ما يستحق عليه النعمة والاجتباء. «فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ»..

هذه هي التجربة التي مر بها صاحب الحوت. يذكر الله بها رسوله محمدا - ﷺ - في موقف العنت والتكذيب. بعد ما أخلاه من المعركة كما هي الحقيقة، وأمره بتركها له يتولاها كما يريد. وبقاها يريد. وكلفه الصبر لحكم الله وقضائه في تحديد الموعد، وفي مشقات الطريق حتى يحين الموعد المضروب! إن مشقة الدعوة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله، حتى يأتي موعده، في الوقت الذي يريده بحكمته.

وفي الطريق مشقات كثيرة. مشقات التكذيب والتعذيب. ومشقات الالتواء والعناد. ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه. ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون. ثم مشقات إمساك النفس على هذا كله راضية مستقرة مطمئنة إلى وعد الله الحق، لا ترتاب ولا تتردد في قطع الطريق، مهما تكن مشقات الطريق.. وهو جهد ضخم مرهق يحتاج إلى عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق.. أما المعركة ذاتها فقد قضى الله فيها، وقدر أنه هو الذي يتولاها، كما قدر أنه يملئ ويستدرج الحكمة يراها. كذلك وعد نبيه الكريم، فصدقه الوعد بعد حين.^{٦٣٣}

^{٦٣٣} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٥٧٨)

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) } [المطففين: ٢٩ - ٣٦]

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ يُعَاتُونَ سُوءَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ، كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَسْخَرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ، حِينَمَا كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا .

وكانوا إذا مرُّوا بِالْمُؤْمِنِينَ يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ وَيَتَغَامَزُونَ عَلَيْهِم بِالْعُيُونِ، اسْتَهْزَأَ بِهِمْ .
وإذا رجعوا إلى جماعتهم مِنْ أَهْلِ الشَّرِّكَ وَالضَّلَالِ، رَجَعُوا مُعْجِبِينَ بِأَنْفُسِهِمْ لِمَا فَعَلُوهُ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنَ السُّخْرِيَةِ وَالْإِذَاءِ .

وإذا رأى هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: إِنَّهُمْ ضَالُّونَ إِذْ بَدَّلُوا دِينَهُمْ، وَتَرَكُوا مَا كَانَ يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ، وَاتَّبَعُوا مُحَمَّدًا وَدِينَهُ .

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يُرْسِلِ الْكُفَّارَ رُفَبَاءَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَمْ يَعْهَدْ إِلَيْهِمْ مَحَاسِنَتَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، فَلَا يَحِقُّ لَهُمْ أَنْ يَعِيبُوا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْمَالَهُمْ .

وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي يُكْرَّمُ فِيهِ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ، وَيُخْزِي الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِينَ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ هُمُ الَّذِينَ يَضْحَكُونَ مِنَ الْكُفَّارِ، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْخِزْيِ وَالذَّلِّ وَالْعَذَابِ .

وَيَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ الْمَكْرُمُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ جَالِسِينَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ .
لَبِروا إِنَّ كَانَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ قَدْ لَقُوا الْجَزَاءَ الْأَوْفَى، الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ عَلَى كُفْرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الْمُجْرِمَةِ، فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .^{٦٣٤}

والمشاهد التي يرسمها القرآن لسخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا، وسوء أدهم معهم، وتطاولهم عليهم، ووصفهم بأنهم ظالون .. مشاهد منتزعة من واقع البيئة في مكة. ولكنها متكررة في أجيال وفي مواطن شتى. وكثير من المعاصرين شهدوها كأنما هذه الآيات قد نزلت في وصفها وتصويرها. مما يدل على أن طبيعة الفجار الجرمين واحدة متشابهة في موقفها من الأبرار في جميع البيئات والعصور!! «إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ» .. كانوا .. فقد طوى السياق الدنيا العاجلة الزائلة. فإذا المخاطبون به في الآخرة. يرون نعيم الأبرار الذين آمنوا. وهو يذكر لهم ما كان من أمر

^{٦٣٤} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٧٥٤، بترقيم الشاملة آليا)

الدنيا! إنهم كانوا يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم، وسخرية منهم. إما لفقرهم ورثاثة حالهم. وإما لضعفهم عن رد الأذى. وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء.. فكل هذا مما يثير ضحك الذين أجرموا. وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخريتهم أو فكاهتهم المزدولة. وهم يسلطون عليهم الأذى، ثم يضحكون الضحك اللئيم الوضع، مما يصيب الذين آمنوا، وهم صابرون مترفعون متجملون بأدب المؤمنين! «وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ»..

يغمز بعضهم لبعض بعينه، أو يشير بيده، أو يأتي بحركة متعارفة بينهم للسخرية من المؤمنين. وهي حركة وضيعة واطية تكشف عن سوء الأدب، والتجرد من التهذيب. يقصد إيقاع الانكسار في قلوب المؤمنين، وإصابتهم بالخلج والريكة، وهؤلاء الأوغاد يتغامزون عليهم ساعرين! «وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ» بعد ما أشبعوا نفوسهم الصغيرة الرديئة من السخرية بالمؤمنين وإيذائهم.. «انْقَلَبُوا فَكِهِينَ».. راضين عن أنفسهم، مبهجين. بما فعلوا، مستمتعين بهذا الشر الصغير الحقير. فلم يتلوموا ولم يندموا، ولم يشعروا بحقارة ما صنعوا وقذارة ما فعلوا. وهذا منتهى ما تصل إليه النفس من إسفاف وموت للضمير! «وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ»! وهذه أعجب.. فليس أعجب من أن يتحدث هؤلاء الفجار الجرمون عن الهدى والضلال. وأن يزعموا حين يرون المؤمنين، أن المؤمنين ضالون. ويشيروا إليهم مؤكدين لهذا الوصف في تشهير وتحقير: «إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ!»..

والفجور لا يقف عند حد، ولا يستحي من قول، ولا يتلوم من فعل. واتهام المؤمنين بأنهم ضالون حين يوجهه الفجار الجرمون، إنما يمثل الفجور في طبيعته التي هي تجاوز لجميع الحدود! والقرآن لا يقف ليجادل عن الذين آمنوا، ولا ليناقش طبيعة الفرية. فهي كلمة فاجرة لا تستحق المناقشة.

ولكنه يسخر سخرية عالية من القوم الذين يدسون أنوفهم فيما ليس من شأنهم، ويتطفلون بلا دعوة من أحد في هذا الأمر: «وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ».. وما وكلوا بشأن هؤلاء المؤمنين، وما أقيموا عليهم رقباء، ولا كلفوا وزنهم وتقدير حالهم! فما لهم هم وهذا الوصف وهذا التقرير! وينتهي بهذه السخرية العالية حكاية ما كان من الذين أجرموا في الدنيا.. ما كان.. ويطوي هذا المشهد الذي انتهى. ليعرض المشهد الحاضر والذين آمنوا في ذلك النعيم: «فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ. عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ».. اليوم والكفار محجبون عن ربهم، يقاسون ألم هذا الحجاب الذي تهدر معه إنسانيتهم، فيصلون الجحيم، مع الترديل والتأنيب حيث يقال: «هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ».. اليوم والذين آمنوا على الأرائك ينظرون. في ذلك النعيم المقيم، وهم يتناولون الرحيق المختوم بالمسك المزوج بالتسنيم.. فالיום.. الذين آمنوا من الكفار يضحكون..

والقرآن يتوجه بالسخرية العالية مرة أخرى وهو يسأل: «هَلْ تُؤْذِنُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ؟»..

أجل! هل ثوبوا؟ هل وجدوا ثواب ما فعلوا؟ وهم لم يجدوا «الثواب» المعروف من الكلمة. فنحن نشهدهم اللحظة في الجحيم! ولكنهم من غير شك لاقوا جزاء ما فعلوا. فهو ثوابهم إذن. وبالسخرة الكامنة في كلمة الثواب في هذا المقام!

ونقف لحظة أمام هذا المشهد الذي يطيل القرآن عرض مناظره وحركاته - مشهد سخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا في الدنيا - كما أطل من قبل في عرض مشهد نعيم الأبرار وعرض مناظره ومناعمه. فنجد أن هذه الإطالة من الناحية التأثيرية فن عال في الأداء التعبيري، كما أنه فن عال في العلاج الشعوري. فقد كانت القلة المسلمة في مكة تلاقي من عنت المشركين وأذاهم ما يفعل في النفس البشرية بعنف وعمق. وكان ربهم لا يتركهم بلا عون، من تثبته وتسريته وتأسيته.

وهذا التصوير المفصل لمواجههم من أذى المشركين، فيه بلسم لقلوبهم. فربهم هو الذي يصف هذه المواجه. فهو يراها، وهو لا يهملها - وإن أهمل الكافرين حيناً - وهذا وحده يكفي قلب المؤمن ويمسح على آلامه وجراحه. إن الله يرى كيف يسخر منهم الساكرون. وكيف يؤذيهم المجرمون. وكيف يتفكه بآلامهم ومواجههم المتفكهون. وكيف لا يتلوم هؤلاء السفلة ولا يندمون! إن ربهم يرى هذا كله. ويصفه في تنزيله. فهو إذن شيء في ميزانه.. وهذا يكفي! نعم هذا يكفي حين تستشعره القلوب المؤمنة مهما كانت مجروحة موحوعة.

ثم إن ربهم يسخر من المجرمين سخرية رفيعة عالية فيها تلميح موجه. قد لا تحسه قلوب المجرمين المطموسة المغطاة بالرين المطبق عليها من الذنوب. ولكن قلوب المؤمنين الحساسة المرفهة، تحسه وتقدره، وتستريح إليه وتستقيم!

ثم إن هذه القلوب المؤمنة تشهد حالها عند ربها، ونعيمها في جناته، وكرامتها في الملأ الأعلى. على حين تشهد حال أعدائها ومهانتهم في الملأ الأعلى وعذابهم في الجحيم، مع الإهانة والترذيل.. تشهد هذا وذلك في تفصيل وفي تطويل. وهي تستشعر حالها وتتذوقه تذوق الواقع اليقين. وما من شك أن هذا التذوق يمسح على مرارة ما هي فيه من أذى وسخرية وقلة وضعف. وقد يبلغ في بعض القلوب أن تتبدل هذه المرارة فيها بالفعل حلاوة، وهي تشهد هذه المشاهد في ذلك القول الكريم.

ومما يلاحظ أن هذا كان هو وحده التسليية الإلهية للمؤمنين المعذبين المألومين من وسائل المجرمين الخسيسة، وأذاهم البالغ، وسخريتهم اللثيمة.. اللجنة للمؤمنين، والجحيم للكافرين. وتبديل الحالين بين الدنيا والآخرة تمام التبديل.. وهذا كان وحده الذي وعد به النبي ﷺ - المبايعين له، وهم يبذلون الأموال والنفوس!

فأما النصر في الدنيا، والغلب في الأرض، فلم يكن أبداً في مكة يذكر في القرآن المكي في معرض التسرية والتثبیت ..

لقد كان القرآن ينشئ قلوبا يعدها لحمل الأمانة. وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع - وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء - إلى شيء في هذه الأرض. ولا تنتظر إلا الآخرة. ولا ترجو إلا رضوان الله. قلوبا مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال، بلا جزاء في هذه الأرض قريب. ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين!

حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل. وأن تنتظر الآخرة وحدها موعدا للجزاء. وموعدا كذلك للفصل بين الحق والباطل.. حتى إذا وجدت هذه القلوب، وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت، آتاه النصر في الأرض، وائتمنها عليه. لا لنفسها. ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة، مذ كانت لم توعده بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه. وقد تجردت لله حقا يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه!

وكل الآيات التي ورد فيها ذكر للنصر في الدنيا جاءت في المدينة. بعد ذلك. وبعد أن أصبح هذا الأمر خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه. وجاء النصر ذاته لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإنسانية تقرر في صورة عملية محددة، تراها الأجيال. فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام. إنما كان قدرا من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن! ٦٣٥

٨٨ - التسبيح والاستغفار قبل وبعد النصر:

قال تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) } سورة النصر
إذا رأيت نصر الله لدينه الحق، وانتهزام الشرك وأهله وحذلائهم، وإذا رأيت الغلبة قد تحققت لك على المشركين، وفتح الله عليك .
وإذا رأيت الناس قد أصبحوا يدخلون في الإسلام جماعات وأفواجا، لا أفرادا متفرقين كما كان يحدث في السنين الأولى للدعوة .

٦٣٥ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٧٨٩)

فذلك دليلٌ على أن الخوف من استِطالةِ المُشركين على المُسلمين قد ولى، فعليك أن تُسبِّح ربَّك وتشكُّره على نصره دينه، وإعزازه جُنْدُه على الكُفْرِ والكافرين، وعليك أن تستغفره وتُتوب إليه، فهو الكثيرُ القَبولُ لِتَوْبَةِ عِبَادِهِ^{٦٣٦}.

قوله تعالى: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا». إذا ظرف، شرطى، لما يستقبل من الزمان.. وهذا يعنى أن ما بعدها لم يتحقق بعد، وهو إذا كان وعدا من الله سبحانه وتعالى، فإن تحققه أمر لا شك فيه، وهو واقع موقع اليقين من المؤمنين قبل أن يتحقق.

ونصر الله والفتح، هو نصر دين الله، بنصر النبي والمؤمنين على المشركين، ومن اجتمعوا معهم على حرب النبي والمؤمنين، والوقوف في وجه دين الله، الذي يدعو إليه رسول الله.. والفتح، هو فتح مكة، التي كان مشركوها هم القوة المحركة لكل عدوان على النبي والمؤمنين.. فإذا فتحت كان فتحها هو النصر المبين، والفتح العظيم..

وهذا يعنى أن هذه السورة، نزلت قبل فتح مكة، فكانت من أنباء الغيب، ومن البشريات التي بشر بها النبي والمسلمون، في وسط هذا الصراع الدائر بينه وبين المشركين..

وتكاد الأخبار التي يرويها المفسرون - تجمع على أن هذه السورة كانت من أواخر ما نزل من القرآن، وأنها نزلت بعد سورة الفتح، وقبيل وفاة النبي صلوات الله وسلامه عليه بأيام، قيل عنها في أكثر الروايات إنها كانت ثمانين يوما!! وهذا ما نخالفهم فيه.

فالقرآن الكريم صريح في أن قوله تعالى: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا» هو وعد، يتحقق في زمن مستقبل.. فهذا ما ينطق به صريح النظم القرآني.. ولن يعدل بنا شيء عن الأخذ بمنطوق الآية الكريمة. ولهذا فإننا نقول - في ثقة واطمئنان، وفي قطع ويقين: إن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة، وفي أشد مواقف النبي حرجا وضيقا، وهو في مواجهة أهل الشرك والضلال - فكانت مددا من أمداد السماء، وزادا من عند الله، يتزود به النبي وأصحابه، فيما امتحنوا به في أنفسهم وأمواهم.. إنها طاقة من النور السماوي، في وسط هذا الظلام الكثيف، يرى المؤمنون على ضوئها وجه المستقبل المشرق، الذي وعدهم الله فيه بالنصر، والفتح! وقوله تعالى: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا» .

والتسبيح أولا، لأنه المطلوب في مقام الشكر، على هذه النعمة العظيمة، بالنصر والفتح.. ثم الاستغفار ثانيا، مما وقع من تقصير في حق الله على مسيرة الجهاد، حتى جاء يوم النصر، والفتح..

^{٦٣٦} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٠٩١، بترقيم الشاملة آليا)

فعلى مسيرة الجهاد، وفي أوقات الشدة والضيق، وفي مواقع الهزيمة، وفقد الأحياء والأعزاء، تتغير مواقف المجاهدين، وتحوم حول مشاعرهم خواطر تهمز إيمانهم، على درجات مختلفة، حسب ما في النفوس من إيمان، وما في القلوب من يقين..

فالنفس البشرية - أيا كانت من وثاقة الإيمان بالله - تعرض لها في الشدائد والحن، عوارض، من الخواطر، والتصورات، لا ترضاها لدينها، وإيمانها برهما في ساعة اليسر، وفي أوقات السلام والأمن.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا» (١١٠: يوسف) وقوله تعالى عن النبي وأصحابه: «وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ؟» (٢١٤: البقرة) ويقول سبحانه عن المؤمنين في غزوة الأحزاب: «إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا» (١٠: الأحزاب) - وقد صرح المنافقون والذين في قلوبهم مرض من المؤمنين - صرحوا عن ظنونهم بالله يومئذ، فقالوا ما ذكره الله تعالى عنهم من قولهم: «مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا» (١٢: الأحزاب). فدعوة النبي إلى الاستغفار، هي دعوة له، وللمؤمنين معه - من باب أولى - إلى لقاء الله تعالى تائبين مستغفرين، بعد أن يتم الله عليهم نعمة النصر والفتح، ويبلغ بهم منزل السلامة والأمن.. وإنه ليس في هذا الاستغفار إلا مراجعة لما وقع في النفوس من ظنون بالله عند بعض المؤمنين، أو ضجر من الصبر على البلاء عند بعض آخر، أو شعور بشيء من الأسى والحزن عند فريق ثالث.. وهكذا وذلك في مسيرتهم على طريق الضرر والأذى، إلى أن لقيهم نصر الله والفتح.

وقوله تعالى: «إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا» أي كثير التوبة على عباده، واسع المغفرة لذنوبهم.. وفي المبالغة في التوبة دلالة على كثرتها، والدلالة على كثرتها، دلالة على كثرة ذنوب العباد، وما وقع لهم في مسيرتهم على الجهاد، مما ينبغي أن يتطهر منه المجاهدون، وأن يصفو حسابهم معه بالتوبة والاستغفار، بعد أن رأوا ما رأوا من قدرة الله، ومن إحسانه وفضله عليهم.. وهذا مثل قوله تعالى: «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» (١١٧: التوبة)^{٦٣٧}

في هذه السورة الكريمة، بشارة وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة وتنبيه على ما يترتب على ذلك. فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هذا المبشر به، وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح، فأمر رسوله أن يشكر ربه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره، وأما الإشارة، فإن في ذلك إشارتين: إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين، ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره من

^{٦٣٧} - التفسير القرآني للقرآن (١٦/ ١٦٩٩)

رسوله، فإن هذا من الشكر، والله يقول: {لَنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ} وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هذه الأمة لم يزل نصر الله مستمراً، حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه ما لم يدخل في غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلاهم الله بتفريق الكلمة، وتشتت الأمر، فحصل ما حصل.

[ومع هذا] فلهذه الأمة، وهذا الدين، من رحمة الله ولطفه، ما لا يخطر بالبال، أو يدور في الخيال. وأما الإشارة الثانية، فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قرب ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به.

وقد عهد أن الأمور الفاضلة تحتم بالاستغفار، كالصلاة والحج، وغير ذلك. فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، إشارة إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد وتهيأ للقاء ربه، ويحتم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه.

فكان ﷺ يتأول القرآن، ويقول ذلك في صلاته، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي" ٦٣٨.

في مطلع الآية الأولى من السورة إحياء معين لإنشاء تصور خاص، عن حقيقة ما يجري في هذا الكون من أحداث، وما يقع في هذه الحياة من حوادث. وعن دور الرسول - ﷺ - ودور المؤمنين في هذه الدعوة، وحدثهم الذي ينتهون إليه في هذا الأمر.. هذا الإحياء يتمثل في قوله تعالى: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ...» فهو نصر الله يجيء به الله: في الوقت الذي يقدره. في الصورة التي يريد لها. للغاية التي يرسمها.

وليس للنبي ولا لأصحابه من أمره شيء، وليس لهم في هذا النصر يد. وليس لأشخاصهم فيه كسب. وليس لذواتهم منه نصيب. وليس لنفوسهم منه حظ! إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدوهم. وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم، وأن يقيمهم عليه حراساً، ويجعلهم عليه أمناء.. هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجا..

وبناء على هذا الإحياء وما ينشئه من تصور خاص لحقيقة الأمر يتحدد شأن الرسول - ﷺ - ومن معه بإزاء تكريم الله لهم، وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم. إن شأنه - ومن معه - هو الاتجاه إلى الله بالتسبيح والحمد والاستغفار في لحظة الانتصار.

التسبيح والحمد على ما أولاهم من منة بأن جعلهم أمناء على دعوته حراساً لدينه. وعلى ما أولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه، وفتحه على رسوله ودخول الناس أفواجا في هذا الخير الفاضل العميم، بعد العمى والضلال والخسران.

٦٣٨ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٣٦)

والاستغفار للملابسات نفسية كثيرة دقيقة لطيفة المدخل: الاستغفار من الزهو الذي قد يساور القلب أو يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح، وفرحة الظفر بعد طول العناء. وهو مدخل يصعب توقيه في القلب البشري. فمن هذا يكون الاستغفار.

والاستغفار مما قد يكون ساور القلب أو تدسس إليه في فترة الكفاح الطويل والعناء القاسي، والشدة الطاغية والكرب الغامر.. من ضيق بالشدة، واستبطاء لوعده الله بالنصر، وزلزلة كالتّي قال عنها في موضع آخر: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} (٢١٤) سورة البقرة، فمن هذا يكون الاستغفار.

والاستغفار من التقصير في حمد الله وشكره. فجهد الإنسان، مهما كان، ضعيف محدود، وآلاء الله دائمة الفيض والمهلان.. «وَأِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا».. فمن هذا التقصير يكون الاستغفار.. وهناك لطيفة أخرى للاستغفار لحظة الانتصار.. ففيه إحياء للنفس وإشعار في لحظة الزهو والفخر بأنهما في موقف التقصير والعجز. فأولى أن تطامن من كبريائها، وتطلب العفو من ربها. وهذا يصد قوى الشعور بالزهو والغرور..

ثم إن ذلك الشعور بالنقص والعجز والتقصير والاتجاه إلى الله طلباً للعفو والسماحة والمغفرة يضمن كذلك عدم الطغيان على المقهورين المغلوبين. ليرقب المنتصر الله فيهم، فهو الذي سلطه عليهم، وهو العاجز القاصر المقصر. وإلها سلطة الله عليهم تحقيقاً لأمر يريده هو. والنصر نصره، والفتح فتحه، والدين دينه، وإلى الله تصير الأمور.

إنه الأفق الوضيء الكريم، الذي يهتف القرآن الكريم بالنفس البشرية لتتطلع إليه، وترقى في مدارجه، على حدائه النبيل البار. الأفق الذي يكبر فيه الإنسان لأنه يطامن من كبريائه، وترف فيه روحه طليقة لأنها تعنو لله! إنه الانطلاق من قيود الذات ليصبح البشر أرواحاً من روح الله. ليس لها حظ في شيء إلا رضاه. ومع هذا الانطلاق جهاد لنصرة الخير وتحقيق الحق وعمل لعمارة الأرض وترقية الحياة وقيادة للبشرية قيادة رشيدة نظيفة معمرة، بانية عادلة خيرة.. الاتجاه فيها إلى الله.

وعبثاً يحاول الإنسان الانطلاق والتحرر وهو مشدود إلى ذاته، مقيد برغباته، مثقل بشهواته. عبثاً يحاول ما لم يتحرر من نفسه، ويتجرد في لحظة النصر والغنى من حظ نفسه ليذكر الله وحده. وهذا هو الأدب الذي اتسمت به النبوة دائماً، يريد الله أن ترتفع البشرية إلى آفاقه، أو تتطلع إلى هذه الآفاق دائماً..

كان هذا هو أدب يوسف - عليه السلام - في اللحظة التي تم له فيها كل شيء، وتحققت رؤياه: «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا، وَقَالَ: يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا

رَبِّي حَقًّا. وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي. إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» ..

وفي هذه اللحظة نزع يوسف - عليه السلام - نفسه من الصفاء والعناق والفرحة والابتهاج ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر. كل دعوته وهو في أهبّة السلطان وفي فرحة تحقيق الأحلام: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» .. وهنا يتوارى الجاه والسلطان، وتتوارى فرحة اللقاء وتجمع الأهل ولمة الإخوان، ويبدو المشهد الأخير مشهد إنسان فرد يتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه، وأن يلحقه بالصالحين عنده. من فضله ومنه وكرمه ..

وكان هذا هو أدب سليمان عليه السلام وقد رأى عرش ملكة سبأ حاضرا بين يديه قبل أن يرتد إليه طرفه: «فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ: هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ» ..

وهذا كان أدب محمد - ﷺ - في حياته كلها، وفي موقف النصر والفتح الذي جعله ربه علامة له .. انحنى لله شاكرا على ظهر دابته ودخل مكة في هذه الصورة^{٦٣٩}. مكة التي آذته وأخرجته وحاربته ووقفت في طريق الدعوة تلك الوقفة العنيدة .. فلما أن جاءه نصر الله والفتح، نسي فرحة النصر وانحنى انحناء الشكر، وسبح وحمد واستغفر كما لقنه ربه، وجعل يكثر من التسبيح والحمد والاستغفار كما وردت بذلك الآثار. وكانت هذه سنته في أصحابه من بعده، رضي الله عنهم أجمعين. وهكذا ارتفعت البشرية بالإيمان بالله، وهكذا أشرقت وشفّت ورفرفت، وهكذا بلغت من العظمة والقوة والانطلاق ...^{٦٤٠}

٨٩ - تحمل المشاق في سبيل الله :

^{٦٣٩} - عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ قَالَ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُغَفَّلٍ يَقُولُ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى نَاقَتِهِ، وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ يُرْجِعُ، وَقَالَ لَوْلَا أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ حَوْلِي لَرَجَعْتُ كَمَا رَجَعْتُ. " صحيح البخاري - المكثر [١٤/ ١٨٦] (٤٢٨١)

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا انْتَهَى إِلَى ذِي طُوًى وَقَفَ عَلَى رَاحِلَتِهِ مُعْتَجِرًا بِشِقَّةٍ بَرْدٍ حَبْرَةٍ حَمْرَاءَ، وَإِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيَضَعُ رَأْسَهُ تَوَاضَعًا لِلَّهِ حِينَ رَأَى مَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْفَتْحِ حَتَّى إِنَّ عَثُونَهُ لَيَكَادُ يَمَسُّ وَاسِطَةَ الرَّحْلِ. سيرة ابن هشام [٢/ ٤٠٥] حسن مرسل

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: " دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَدَفَنَهُ عَلَى رَحْلِهِ مُتَخَشِّعًا " دلائل النبوة للبيهقي [٥/ ٩٩] (١٨٠٦) حسن لغيره - الرحل: ما يوضع على ظهر البعير للركوب = المتخشع: الخاضع المتذلّل

^{٦٤٠} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٩٦٧)

قال تعالى: {لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران: ١٨٦]

يُسَلِّي اللَّهُ تعالى رُسُولَهُ ﷺ، ويقولُ لَهُ: إِنَّهُ وَأَصْحَابُهُ سَيَلْقَوْنَ مِنَ الْكُفَّارِ أَذًى كَثِيرًا فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ، كما لَقَوْهُ مِنْهُمْ مِنْ أَذًى يَوْمَ أَحُدٍ، وعلى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُوطَّنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهِ، إِذْ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَلَيَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ، أَوْ نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ أَهْلِهِ... وابتلاءُ الْمُؤْمِنِ يَكُونُ عَلَى قَدَرِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ صَلَابةٌ فِي دِينِهِ زِيدَ فِي بَلَاءِهِ. وَنَبَّهَ اللَّهُ تعالى رُسُولَهُ الْكَرِيمَ وَالْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ مَقْدَمِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ (وَقَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ) إِلَى أَنَّهُمْ سَيَسْمَعُونَ مِنَ الْيَهُودِ وَمِنَ الْمُشْرِكِينَ أَذًى كَثِيرًا: مِنَ التَّقَوُّلِ وَالْإِرْجَافِ، وَنَقْضِ الْعُهُودِ وَبَثِّ الشَّائِعَاتِ، وَمُحَاوَلَةِ الْإِيذَاءِ... وَيَأْمُرُ اللَّهُ نَبِيَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالصَّفْحِ وَالصَّبْرِ وَالْعَفْوِ حَتَّى يُفَرِّجَ اللَّهُ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى احْتِمَالِ ذَلِكَ إِلَّا أَوَّلُو الْعَزْمِ الْأَقْوِيَاءُ^{٦٤١}.

وَإِذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَى زَوَالٍ، وَكَانَ مَتَاعُهَا لَعِبًا وَلَهْوًا وَغُرُورًا، وَإِذَا كَانَ مَتَجُّهُ الْعُقَلَاءُ فِيهَا إِلَى دَارِ خَيْرٍ مِنْهَا، وَإِلَى مَتَاعٍ أَكْرَمَ وَأَهْنَأَ مِنْ مَتَاعِهَا - وَهِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ - إِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ لِلدَّارِ الْآخِرَةِ عَمَلًا، وَلِلْجِزَاءِ الْحَسَنِ فِيهَا ثَمَنًا... إِنَّهَا لَيْسَتْ أَمَانًا يَتَمَتَّعُهَا النَّاسُ، وَلَكِنَّهَا جُهْدٌ، وَبَلَاءٌ، وَمُعَانَاةٌ، فَإِذَا أَرَادَهَا الْمُرِيدُونَ وَطَلَبَهَا الطَّالِبُونَ، فَلْيَعْمَلُوا لَهَا، وَلْيُؤَدِّوا الثَّمَنَ الْمَطْلُوبَ لِلْحَصُولِ عَلَى نَعِيمِهَا، وَرِضْوَانِ اللَّهِ فِيهَا! وَقَدْ أَرَادَهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَطَلَبُوا مَا عِنْدَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِيهَا... وَإِذَنْ فَلْيَعْمَلُوا لَهَا، وَلْيُؤَدِّوا مَطْلُوبَهَا مِنْهُمْ! إِنَّهُ ابْتِلَاءٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ... الْأَمْوَالُ، يَبْذُلُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْأَنْفُسُ، يَبِيعُونَهَا ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ..

وَإِنَّهُ تَعَرَّضَ لِلْأَذَى فِي الْمَشَاعِرِ وَالْعَوَاطِفِ، بِسَمَاعِ الْكَلِمَاتِ الْمُنَافِقَةِ، وَالْأَكَاذِبِ الْمَلْفَقَةِ، مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَنَافَقُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَضَلُّوا مِنْ قَرِيشٍ وَأَحْلَافِهَا..
إِنَّهُ أَذَى مَادِيٍّ فِي الْأَمْوَالِ وَفِي الْأَنْفُسِ، وَأَذَى رُوحِيٍّ فِي الشُّعُورِ وَالْوُجْدَانِ.. أَذَى يَشْتَمِلُ عَلَى الْمُؤْمِنِ كُلِّهِ، فِي مَادِيَّاتِهِ وَمَعْنَوِيَّاتِهِ جَمِيعًا.

وَنَعَمْ.. هُوَ أَذَى بَالِغٌ، وَأَلَمٌ شَدِيدٌ، وَامْتِحَانٌ قَاسٌ مَرِيرٌ! وَلَكِنَّ الْجِزَاءَ الْحَسَنَ أَعْظَمَ وَأَشْمَلَ، وَإِنَّهُ لِأَكْثَرَ قَدْرًا، وَأَثْقَلُ وَزَنًا.. فِي جَانِبِ الْإِحْسَانِ وَالرِّضْوَانِ.. وَالصَّبْرَ وَالتَّقْوَى، هُمَا الزَّادُ الْعَتِيدُ الَّذِي يَتَزَوَّدُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ لِاجْتِيَازِ هَذَا الْامْتِحَانِ الْقَاسِي، وَاحْتِمَالِ آلَامِهِ وَشِدَائِهِ.. «وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ».. فَإِنَّ الْأَمْرَ جَدًّا لَيْسَ بِالْهَزْلِ.^{٦٤٢}

يُخْبِرُ تعالى وَيَخَاطِبُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ سَيَبْتَلُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ مِنَ النِّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحْبَةِ، وَمِنَ التَّعْرِيزِ لِإِتْلَافِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّكْلِيفِ بِأَعْبَاءِ التَّكَالِيفِ الثَّقِيلَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، كَالْجِهَادِ

^{٦٤١} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٧٩، بترقيم الشاملة آليا)

^{٦٤٢} - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٦٥)

في سبيل الله، والتعرض فيه للتعب والقتل والأسر والجراح، وكالأمراض التي تصيبه في نفسه، أو فيمن يحب.

{ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، ومن الذين أشركوا أذى كثيرا} من الطعن فيكم، وفي دينكم وكتابكم ورسولكم.

وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك، عدة فوائد:

منها: أن حكمته تعالى تقتضي ذلك، لتمييز المؤمن الصادق من غيره.

ومنها: أنه تعالى يقدر عليهم هذه الأمور، لما يريد بهم من الخير ليعلي درجاتهم، ويكفر من سيئاتهم، وليزداد بذلك إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر {قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيمانا وتسلما} .

ومنها: أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه، فيهنون عليهم حمله، وتخف عليهم مؤنته، ويلجأون إلى الصبر والتقوى، ولهذا قال: {وإن تصبروا وتتقوا} أي: إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم، من الابتلاء والامتحان وعلى أذية الظالمين، وتتقوا الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله والتقرب إليه، ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله.

{فإن ذلك من عزم الأمور} أي: من الأمور التي يعزم عليها، وينافس فيها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية كما قال تعالى: {وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم} .^{٦٤٣}

إنها سنة العقائد والدعوات. لا بد من بلاء، ولا بد من أذى في الأموال والأنفس، ولا بد من صبر ومقاومة واعتزام. إنه الطريق إلى الجنة. وقد حفت الجنة بالمكاره. بينما حفت النار بالشهوات.

ثم إنه هو الطريق الذي لا طريق غيره، لإنشاء الجماعة التي تحمل هذه الدعوة، وتنهض بتكاليفها. طريق التربية لهذه الجماعة وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال. وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة. ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عودا. فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها إذن والصبر عليها.. فهم عليها مؤتمنون.

وذلك لكي تعز هذه الدعوة عليهم وتغلو، بقدر ما يصيبهم في سبيلها من عنت وبلاء، وبقدر ما يضحون في سبيلها من عزيز وغال. فلا يفرطوا فيها بعد ذلك، مهما تكن الأحوال.

وذلك لكي يصلب عود الدعوة والدعاة. فالمقاومة هي التي تستثير القوى الكامنة، وتنميها وتجمعها وتوجهها.

^{٦٤٣} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٦٠)

والدعوة الجديدة في حاجة إلى استشارة هذه القوى، لتتأصل جذورها وتعمق وتتصل بالتربة الخصبة الغنية في أعماق الفطرة ..

وذلك لكي يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسهم وهم يزاولون الحياة والجهاد مزاوله عملية واقعية. ويعرفوا حقيقة النفس البشرية وخباياها. وحقيقة الجماعات والمجتمعات. وهم يرون كيف تصطرع مبادئ دعوتهم، مع الشهوات في أنفسهم وفي أنفس الناس. ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس، ومزالق الطريق، ومسارب الضلال! ثم .. لكي يشعر المعارضون لها في النهاية أنه لا بد فيها من خير، ولا بد فيها من سر، يجعل أصحابها يلاقون في سبيلها ما يلاقون وهم صامدون .. فعندئذ قد ينقلب المعارضون لها إليها .. أفواجا .. في نهاية المطاف! إنها سنة الدعوات. وما يصبر على ما فيها من مشقة ويحافظ في ثنایا الصراع المرير على تقوى الله، فلا يشط فيعتدي وهو يرد الاعتداء ولا ييأس من رحمة الله ويقطع أمله في نصره وهو يعاني الشدائد .. ما يصبر على ذلك كله إلا أولو العزم الأقوياء:

« وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » .. وهكذا علمت الجماعة المسلمة في المدينة ما ينتظرها من تضحيات وآلام. وما ينتظرها من أذى وبلاء في الأنفس والأموال. من أهل الكتاب من حولها. ومن المشركين أعدائها .. ولكنها سارت في الطريق. لم تتخاذل، ولم تتراجع، ولم تنكص على أعقابها .. لقد كانت تستيقن أن كل نفس ذائقة الموت. وأن توفية الأجور يوم القيامة. وأنه من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز. وأن الحياة الدنيا ما هي إلا متاع الغرور .. على هذه الأرض الصلبة المكشوفة كانت تقف وفي هذا الطريق القاصد الواصل كانت تخطو .. والأرض الصلبة المكشوفة باقية لأصحاب هذه الدعوة في كل زمان. والطريق القاصد الواصل مفتوح يراه كل إنسان. وأعداء هذه الدعوة هم أعداؤها، تتوالى القرون والأجيال وهم ماضون في الكيد لها من وراء القرون والأجيال .. والقرآن هو القرآن ..

وتختلف وسائل الابتلاء والفتنة باختلاف الزمان وتختلف وسائل الدعاية ضد الجماعة المسلمة، ووسائل إيدائها في سمعتها وفي مقوماتها وفي أعراضها وفي أهدافها وأغراضها .. ولكن القاعدة واحدة: «لِتُبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا»! ولقد حفلت السورة بصور من مكائد أهل الكتاب والمشركين وصور من دعايتهم للبلبل والتشكيك.

أحيانا في أصول الدعوة وحقيقتها، وأحيانا في أصحابها وقيادتها. وهذه الصور تتجدد مع الزمان. وتتنوع بابتداع وسائل الدعاية الجديدة، وتوجه كلها إلى الإسلام في أصوله الاعتقادية، وإلى الجماعة المسلمة والقيادة الإسلامية. فلا تخرج على هذه القاعدة التي كشف الله عنها للجماعة المسلمة الأولى، وهو يكشف لها عن طبيعة الطريق، وطبيعة الأعداء الراصدين لها في الطريق ..

ويبقى هذا التوجيه القرآني رصيذا للجماعة المسلمة كلما همت أن تتحرك بهذه العقيدة، وأن تحاول تحقيق منهج الله في الأرض فتجمعت عليها وسائل الكيد والفتنة، ووسائل الدعاية الحديثة، لتشويه أهدافها، وتمزيق أوصالها.. يبقى هذا التوجيه القرآني حاضرا يجلو لأبصارها طبيعة هذه الدعوة، وطبيعة طريقها. وطبيعة أعدائها الراصدين لها في الطريق. ويث في قلبها الطمأنينة لكل ما تلقاه من وعد الله ذاك فتعرف حين تتناوشها الذئاب بالأذى، وحين تعوي حولها بالدعاية، وحين يصيبها الابتلاء والفتنة.. أنها سائرة في الطريق، وأنها ترى معالم الطريق! ومن ثم تستبشر بالابتلاء والأذى والفتنة والادعاء الباطل عليها وإسماعها ما يكره وما يؤذي.. تستبشر بهذا كله، لأنها تستيقن منه أنها ماضية في الطريق التي وصفها الله لها من قبل. وتستيقن أن الصبر والتقوى هما زاد الطريق. ويبطل عندها الكيد والبلبله ويصغر عندها الابتلاء والأذى وتمضي في طريقها الموعود، إلى الأمل المنشود.. في صبر وفي تقوى.. وفي عزم أكيد...^{٦٤٤}

٩٠ - أهمية الحرب النفسية في إحراز النصر :

إن الحرب النفسية أداة من أدوات الحرب، وسلاح ماض من أسلحة القتال.. وكم تركت هذه الأداة من آثار سجلها التاريخ لها، فهزمت الأبطال، ومزقت الجيوش، ومكنت الفئة القليلة من أن تغلب الفئة الكثيرة.. وهل كان ميزان المؤمنين ثقيلا في ميدان القتال، حتى ليعد الواحد منهم بعشرة من عدوهم — هل كان هذا الميزان ثقيلا إلّا لما امتلأت به مشاعر المؤمنين من إيمان بالله، وثقة في ثوابه، وتصديق بوعد الذي وعد المجاهدين؟ وهل استخف المؤمنون بالموت، إلّا لما امتلأت به قلوبهم من إيمان بالحياة الآخرة، وأن حياتهم الدنيا هذه، ليست إلا مرحلة على طريق الحياة الأبدية الخالدة؟. النفس إذن، وما تحمل من مشاعر، هي التي تحدد موقف المحارب في جبهة القتال، وهي التي تزين له الموت في الميدان، أو تغريه بالنجاة والفرار..

فحبّ الجبان النفس أوردته التقى وحبّ الشجاع النفس أوردته الحربا!!

فكلا الجبان والشجاع محبّ لنفسه، ولكن شتان بين حبّ وحب..

فالجبان يحب نفسه لا بسة جسده، ولو كانت مهينة ذليلة، ترعى المهانة، وتسام الخسف! والشجاع يحب نفسه عزيزة كريمة، فإنه إن رأى أنها لن تسكن إليه إلا على مركب الذل والهوان، ضنّ بها على أن

^{٦٤٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٨٥٦)

تلقى الإهانة والإذلال في هذا المقام، مقام الجسد، فأوردها مورد القتل، لتخلص من هذا البلاء، وتأخذ طريقها إلى العالم الآخر ..

وليست الحرب النفسية سلاحا يتحصن به المحاربون، ضد عوامل الوهن والضعف، التي تدخل عليهم في ميدان القتال، وإنما هي سلاح أيضا يستخدمه المحاربون في التدسس إلى عدوهم، وإشاعة الرعب في نفوسهم، وإشعال نار الفتنة بينهم .. وذلك مجال فسيح للعمل والتدبير، يحتاج إلى العقل الذكي، والبصيرة النافذة، والنظر المتفحص، وإلا ارتد هذا السلاح إلى اليد التي تضرب به .. ذلك أن المعركة هنا معركة داخل النفس البشرية، التي لا ساحل لها، ولا نهاية لأعماقها، والتي هي دائما في معرض التقلب والتحول، وفي معاناة المدّ والجزر .. فمن جاءها على حال غير مواتية لها، غير جارية مع الريح التي تجرى فيها، لم يبلغ منها شيئا، بل ربما انقلبت حربا عليه.

وقد اهتدى الإنسان بطبيعته، إلى أن تكون النفس ميدانا من ميادين الحرب التي يشتبك فيها مع غيره من بني جنسه، وأن يتخذ منها درعا واقية له ..

حيث يدخل المعركة، وقد صفى حسابه بينه وبين نفسه، وأجلى عنها كل نوازع الخوف من الموت، أو الإشفاق على ما يخلف وراءه من ولد، وأهل، وصديق ..

يقول قطريّ بن الفجاءة: وقد راودته نفسه على أن يطلب السلامة، ويدع مواطن الحرب، وما يتعرض له المحاربون من قتل .. يقول:

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال، ويحك، لن تراعى

فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لم تطاع

فصبرا في مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع

وفي الوقت الذي يتخذ فيه المحارب، من الحرب النفسية درعا حصينة، يتحصن بها، من عوارض الخوف والخور، التي تعرض له — في الوقت الذي يفعل فيه هذا — يعتمد إلى المهجوم على نفس عدوه، فيريه من بأسه وقوته قبل أن يلقيه، ما ينخلع به قلبه، وما تطير منه نفسه شعاعا ..

سئل عنترة بن شداد — الفارس العربي الجاهلي المعروف — سئل عن هذا الرعب الذي يملأ قلوب الأبطال منه، وكيف يبلغ رعبهم منه إلى هذا الحدّ الذي يبطل عمل الأبطال، ويشل حركتهم؟ فقال عنترة: «أبدأ القتال بأن أعمد إلى أي فارس من عامة الفرسان، فأضربه ضربة ينخلع لها قلب الشجاع» ..!

ولهذا كان من سياسة الحرب أن تكون الضربة الأولى ضربة يرمى فيها كلّ من المتحاربين بثقله كله، حتى تقع الضربة موقعا قائما وراء تقدير العدو، الذي ما كان يحسب حسابا لها من هذا الوجه .. وهنا تكثر دواعي البلبلة والاضطراب، ثم التفكك والانحلال، ثم الهزيمة والاستسلام، إذا لم يكن الضارب قد تلقى ضربة كهذه الضربة .. وعندئذ تتعادل الكفتان، ثم يكون الغلب لمن أمسك بالثقة

والطمأنينة في قلبه، واحتمل في صبر وجلد نار الحرب، وأهوالها .. إنها الحرب، وإنها ابتلاء في الأموال والأنفس والثمرات! إنها قتال وقتل ..!

يروى أن سائلا سأل عنترة: كيف كان منك أنك لم تفرّ في معركة قط، على كثرة ما دخلت في معارك، وما التقيت بأبطال؟

فقال عنترة لسائله: أعطني يدك، وخذ يدي، وعضّ إبهامي وسأعض إبهامك!! ففعل الرجل، وفعل عنترة .. ولكن سرعان ما صرخ الرجل! فبادره عنترة قائلا: «إنك لو لم تصرخ أنت لصرخت أنا»!! وبهذا تلقى الرجل الجواب الوافي الشافي على سؤاله.

إن عنترة إنسان قبل أن يكون بطالا، فهو يخاف، ويتألم، ويكره أن يقتل، أو يجرح .. شأنه في هذا شأن الناس، أبطالا، وغير أبطال .. ولكنه لبس ثوب البطولة بصبره على المكاره، أكثر من خصمه .. فلو أن خصم عنترة صبر صبره على المكروه، الذي يسقيه كل منهما لصاحبه — لو أنه صبر هذا الصبر، لما استسلم لعنترة، بل وربما كان عنترة هو الذي يستسلم له.

وكثير من الحيوانات، في مختلف أجناسها، تستخدم هذا السلاح في لقاء عدوها .. فتستعرض كل ما عندها من قوى جسدية، ظاهرة، أو خفية، حتى تبدو في صورة مخيفة مفزعة للعدو .. وقد تكون هذه الحركات قاضية على العدو من غير قتال، فيجمد في مكانه ويستسلم لعدوه!.

وإذا كان الجهاد والقتال فريضة واجبة الأداء على كل قادر من المسلمين، متى دعت دواعي الجهاد، ولزم القتال — لأنه لا يقوم أمر الجماعة الإسلامية، في المجتمع الإنساني إلا إذا كانت ذا قدرة على حماية وجودها، ودفع الأيدي الباغية عليها — نقول إذ كان شأن الجهاد على تلك الصفة في الإسلام، فقد كان من تدبير الإسلام أن التفت التفاتا قويا إلى هذا الجانب من الحرب الذي يعرف في عصرنا هذا، بالحرب النفسية، فوضع بين يدي جند الله، المجاهدين في سبيله منهجا متكاملا للتدريب على هذه الحرب، واستخدام أسلحتها، والضرب بهذه الأسلحة حيث تقع الضربة، فتصيب الصميم مما وقعت عليه ..

ومن تدبير الإسلام في هذا:

أولا: أنه هوّن على المؤمنين خطب الموت، وذلك بإيمانهم بالحياة الآخرة إيماننا يشعرون معه أن الموت ليس إلا انتقالا من عالم إلى عالم أرحب، وأفسح، .. ومن هنا فلا ينظرون إلى الموت على أنه فناء أبدي للميت، وضياع لا نهائي لمن يموت، كما ينظر إلى ذلك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر .. إنه ليس معهم إلا هذه الحياة الدنيا، وأنهم إذا فارقوها، فارقوها إلى غير رجعة أبدا .. فهم لهذا أحرص ما يكونون على حياتهم هذه، وأشد ما يكون جزعا إذا ذكروا الموت، أو أحسوا قرب الأجل ..

وثانياً: أنه وعد المؤمنين المجاهدين في سبيل الله، درجات عالية عند الله، سبحانه، حيث يتزلون منازل الأنبياء والصديقين، كما يقول سبحانه: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» (النساء: ٦٩).

وإنما تتجلى طاعة الله ورسوله على أتم وجه وأكمله في ميدان الجهاد في سبيل الله.. يقول سبحانه: «وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا» (النساء: ٧٤).. فالأجر العظيم الذي يناله المجاهد من ربه مشروط بأحد شرطين: أن يقتل في ميدان القتال، أو ينتصر على عدوه.. فلا يعود المجاهد إلى أهله إلا منتصراً على العدو.. فإن لم يشهد نهاية المعركة، ومات قبل أن يحقق المسلمون النصر، فإنه يكون قد شارك بدمه المراق على أرض المعركة، في كتابة كلمة النصر، التي يؤذن بها مؤذن الحق في نهاية المعركة..

وثالثاً: أنه تواعد الذين ينتظمون في صفوف المجاهدين، ثم إذا التحم القتال، وتساقطت الرؤوس، وتناثرت الأشلاء، وسالت الدماء — ركبهم الفزع، واستبد بهم الجزع، والتمسوا وجوه النجاة في الفرار من الميدان، أو النكوص على الأعقاب، أو الدعوة إلى السلم، والاستسلام — تواعد الإسلام من كان في المجاهدين، المقاتلين، ثم أخذ هذا الموقف المتخاذل — توعده بغضب من الله، وبعذاب أليم في نار جهنم، كما يقول سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» (الأنفال: ١٥، ١٦).. والجانب النفسي هو المنظور إليه هنا، في هذا الوعيد الذي يأخذ به الله سبحانه من لبس ثوب الجهاد وانتظم في صفوف المجاهدين المقاتلين، من بلاء ونكال، الأمر الذي يحبط إيمان المؤمن، ويبطل عمله، ويسلكه مع المنافقين والكافرين.. ذلك أن فرار المجاهدين من بين صفوف المجاهدين يحدث فتنة، ويثير خلخلة واضطراباً في نفوس المجاهدين وفي صفوفهم، وسرعان ما تسرى عدوى هذا المقاتل الفارّ إلى كثير غيره، ممن لم يكن في حسابهم أن يفروا..

إن هذا الفارّ إنما يمثل — من غير قصد — صرخة الانهزام في صفوف المجاهدين، وإنه لخير له وللمسلمين المجاهدين، ألا يشهد مثل هذا الإنسان مواقف القتال، وألا يكون في صفوف المقاتلين.. وأما وقد خرج، ودخل المعركة، فإن فراره من القتال، خيانة لله، ولرسوله، وللمؤمنين..

ومن أجل هذا، عزل الله سبحانه وتعالى المنافقين عن مواقف الجهاد، ونقى جيش المجاهدين من هذه الأجسام الغريبة التي تدخل على الجسد السليم بأعراض الحمى. من صداع، وعرق، وأرق! فقال سبحانه لنبيه الكريم: «فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ» (التوبة: ٨٣)..

ومن التطبيق العملي لهذا الذي تسميه الحرب النفسية — أن الرسول — صلوات الله وسلامه وبركاته عليه — حين رجع من غزوة أحد، وعلم أن قريشا تريد الكرة على المدينة، وتنتهز فرصة الهزيمة

التي حلت بالمسلمين في أحد، فتضرب ضربتها القاضية، والحديد ساخن، كما يقولون — تقول حين علم الرسول الكريم بهذا دعا أصحابه، إلى أن يخرجوا إلى ظاهر المدينة، للقاء عدوهم، إن هو سولت له نفسه أن يهجم على المدينة .. وكان مما اشترطه الرسول فيمن يشهدون هذا الموقف معه، أن يكونوا ممن شهدوا القتال في أحد، أما من كان في المتخلفين ولم يشهد الحرب، فلا مكان له بينهم .. هذا والمسلمون الذين شهدوا أحدا كانوا متخفين بالجراح، منهو كى القوى، يعانون من آلام نفسية وجسدية ما تنهدّ به عرائم الرجال .. ومع هذا، فقد رأى النبي في هؤلاء المجاهدين — على ما بهم من آلام وجراح — خيرا كثيرا، وأن أيّا منهم — على ما به من ضعف — خير من مئات ممن في قلوبهم مرض، من الذين يكثر بهم سواد المجاهدين بالقدر الذي يقلّ به غناؤهم ..!

وقد كان لهذا أثره النفسي عند المشركين، فإنهم ما إن علموا بأن محمدا قد خرج بأصحابه وراء القوم حتى توقفوا عن المسيرة نحو المدينة، وقد وقع في أنفسهم أن محمدا يطلبهم ليثأر من هزيمة أمس في أحد — وطالب الثأر هيهات أن يغلب، وحسبهم ما ظفروا به من المسلمين في معركة الأمس، فقد تدور الدائرة عليهم في الكرة التالية.

ورابعا: من أساليب الحرب النفسية — تخويف العدو وإرهابه، بما يرى في جيش المجاهدين من أمارات القوة، ووسائل الغلب .. وشبيه بهذا ما تقوم به الأمم من عرض قوتها في تلك العروض العسكرية، التي تكشف بها عن بعض عدتها وعتادها، على حين أنها إذ تكشف عن بعض قوتها، فإنها تشير إلى أن وراء هذا الذي أعلنته قوى كثيرة خفية، أشد أثرا، وأقوى فتكا، من هذا الذي عرف الناس أمره، وأن ذلك سرّ من أسرارها الحربية، التي لا تظهر إلا عند الحرب !!.

ولهذا الجانب من الحرب النفسية أثر كبير في كسر شوكة العدو، وفي قتل مطامعه في التّيل من عدوه، فلا يقدم على العدوان وهو يرى هذه القوى المهيأة للحرب، الراصدة لكل عدو .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» (٦٠: الأنفال).

كل هذا الذي يراه العدو في جيش المسلمين، من استخفاف بالموت، وإيثار للموت في سبيل الله على الحياة، والثبات في ميدان المعركة حتى النصر أو الموت، والإعداد الدائم لعدد الحرب ورجالها — كل هذا يبعث الرعب في قلوب الأعداء الذين يواجهون مثل هذا الجيش، الذي لا يرجع من المعركة إلا منتصرا، أو مستشهدا .. وإلى هذا يشير الرسول في قوله في مقام تعداد فضل الله سبحانه وتعالى عليه، إذ يقول: «ونصرت بالرعب مسيرة عام» أي أن أعداءه المحيطين به، يجدون في أنفسهم رهبة

له، ولجيش المسلمين، وذلك على امتداد مسيرة عام بينه وبينهم، لما يتناقل الناس من أخبار المجاهدين المسلمين، واسترخاصهم لنفوسهم في ميدان القتال، حتى ليكون ذلك حديث الدنيا كلها ..^{٦٤٥}



^{٦٤٥} - التفسير القرآني للقرآن — موافقا للمطبوع - (١٣ / ٣٧٨)

الباب الثالث

عوامل الهزيمة الخاصة في القرآن والسنة

١. الانحراف عن الصراط المستقيم:

سواء كان هذا الانحراف انحرافاً عقدياً، أو انحرافاً عملياً، يعني سواء كانت المعاصي في باب الاعتقاد: بالإلحاد في أسماء الله وصفاته.. بالشرك الأكبر والشرك الأصغر، أو كان بالردة الكاملة باعتناق المذاهب الكافرة كالشيوعية، والقومية، والعلمانية، أو كان من باب الأعمال أي المعاصي العملية. والمتبع للقرآن يجد أن هذا هو سبب هلاك الأمم: { فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [٤٠] } [سورة العنكبوت]. فالأمم السابقة أخذت بسبب ذنوبها، وظلمها لأنفسها، والأدلة على هذا كثيرة، وما عليك إلا أن تقرأ كتاب ربك وستجد ذلك واضحاً، وعلى سبيل المثال: اقرأ قصة أصحاب سبأ، وقرأ قصة أصحاب السبت، وقرأ سبب إغراق قوم نوح، وقرأ سبب إهلاك قوم عاد وثمود وقوم لوط، وما حصل لقوم موسى، وما حصل لغيرهم من الأمم؛ فستجد الذنوب هي السبب في ذلك .

أولاً: الانحراف العقدي وأثره:

سنضرب على الانحراف في العقيدة مثلين هما شاهد حي على أن الأمة إذا انحرفت اعتقادياً، فإنها تضعف وتذل:

الشاهد الأول من القرن الرابع الهجري: فقد شهد مداً رافضياً شديداً، فقامت دول رافضية في شرق الجزيرة في البحرين والأحساء قامت دولة القرامطة، وفي بلاد فارس والعراق دولة بني بويه، وفي بلاد الشام الحمدانيون - أبو فراس الحمداني وجماعته كانوا رافضة - وفي بلاد المغرب قامت الدولة العبيدية الإسماعيلية القرمطية، والتي تسمى زوراً وبهتاناً بالدولة الفاطمية، ثم بعد ذلك انطلقت فأخذت مصر، ثم الحجاز. والقرامطة أهل البحرين وصلوا إلى الحجاز، وأخذوا في ذلك القرن الحجر الأسود وبقي عندهم اثنتان وعشرون سنة، ووصلوا إلى دمشق، ولم يبق من بلدان المسلمين سالماً من المد الرافضي إلا القليل، وأذكر لكم ما قاله الإمام ابن كثير رحمه الله في حوادث حصلت في ذلك الزمن ثم انظروا إلى تعليقاته رحمه الله على تلك الحوادث .

إنه مع قيام تلك الدول الضالة الرافضية تقدم النصارى من بلاد الروم، فأخذوا بعض بلاد المسلمين، وفعلوا من الجرائم البشعة ما تقشعر له الأبدان، يذكر الحافظ ابن كثير بعض هذه الحوادث، ثم

يعلق عليها، فيقول في حوادث سنة ٣٥٩ للهجرة: 'وفيها دخلت الروم أنطاكية فقتلوا من أهلها الشيوخ والعجائز، وسبوا من أهلها الشيوخ والأطفال نحواً من عشرين ألفاً فإنا لله وإنا إليه راجعون' ثم يعلق على ذلك بقوله: 'وكل هذا في ذمة ملوك الأرض أهل الرضى الذين قد استحوذوا على البلاد وأظهروا فيها الفساد قبحهم الله'. ثم يذكر أيضاً في حوادث سنة ٣٥٩ هـ أيضاً أن ملك الروم فعل أعظم من ذلك في طرابلس الشام، وفي السواحل الشامية وحمص وغيرها، يقول رحمه الله: 'ومكث ملك الروم شهرين يأخذ ما أراد من البلاد ويأسر ما قدر عليه، ثم عاد إلى بلده ومعه من السبي نحو مائة ألف إنسان ما بين صبي وصبية وكان سبب عوده إلى بلاده كثرة الأمراض في جيشه واشتياقهم إلى أولادهم'.

تصوروا عدو من أعداء المسلمين يأتي ويأخذ مائة ألف أسير من المسلمين ولا يرجع إلا بسبب الأمراض التي فتكت بجيشه ولم يحاربه أحد من ملوك الرافضة الذين كانوا ملوك الأرض في ذلك الوقت، تذكر ما ذكرناه في أول الموضوع أن من أسباب النصر القيادة المؤمنة، ويعلق ابن كثير على ما كان يفعله الروافض في ذلك القرن من سب الصحابة، وما يفعلونه من البدع والضلالات، فيقول في حوادث سنة ٣٥١ هـ بعد أن ذكر غارات الروم وقتلهم ما لا يحصى من المسلمين قال: 'وفيها كتبت العامة من الروافض على أبواب المساجد لعنة الله على معاوية بن أبي سفيان، وكتبوا أيضاً: ولعن الله من غصب فاطمة حقها - يعنون أبا بكر رضي الله عنه -، ومن أخرج العباس من الشورى - يعنون عمر رضي الله عنه - ومن نفى أبا ذر - يعنون عثمان رضي الله عنه -' يقول ابن كثير رحمه الله: 'رضي الله عن الصحابة وعلى من لعنهم لعنة الله'. ثم تكلم قليلاً ثم قال: 'ولما بلغ ذلك جميعه معز الدولة - يقصد ابن بويه وكان رافضياً - لم ينكره ولم يغيره قبحه الله وقبح شيعته من الروافض'.

انظروا إلى تعليق ابن كثير وهو المراد في هذه المحاضرة يقول: 'لا جرم أن الله لا ينصر هؤلاء وكذلك سيف الدولة ابن حمدان مجلب فيه تشيع وميل إلى الروافض لا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء، بل يدل عليهم أعداءهم لمتابعتهم أهواءهم، وتقليدهم سادتهم وكبراءهم وآباءهم، وتركهم أنبياءهم وعلماءهم، ولهذا لما ملك الفاطميون بلاد مصر والشام وكان فيهم الرضى وغيره استحوذ الإفرنج على سواحل الشام وبلاد الشام كلها حتى بيت المقدس ولم يبق مع المسلمين سوى حلب وحمص وحماة ودمشق، وجميع السواحل وغيرها مع الإفرنج والنواقيس النصرانية والطقوس الإنجيلية تضرب في شواهد الحصون والقلاع، وتكفر في أماكن الإيمان من المساجد وغيرها من شريف البقاع' - ثم بعد ذلك صور حال المسلمين - 'والناس معهم في حصر عظيم وضيق من الدين وأهل هذه المدن - يقصد دمشق وحلب وحمص وحماة - التي في يد المسلمين في خوف شديد في ليلهم ونهارهم من الإفرنج فإنا لله وإنا إليه راجعون وكل ذلك من بعض عقوبات المعاصي والذنوب وإظهار سب خير الخلق بعد خير الأنبياء'.

هذا نتيجة الانحراف العقائدي الذي استحوذ على هذه الأمة في القرن الرابع الهجري بل استحوذ على حكامها وقادتها في ذلك الوقت.

أما الشاهد الثاني: فأضره لكم من عصرنا هذا: فقد هُزم العرب أمام اليهود رغم أنه لا تناسب بين العددين، ورغم ما كان يتشدد به طواغيت العصر في الشام، وفي مصر من أنهم سيلقون باليهود في البحر، وسيفعلون وسيفعلون، كان أولئك يرفعون لواء القومية، ولواء الاشتراكية، ويحاربون الإسلام وكان طاغوتهم الأكبر قد قتل سيد قطب رحمه الله قبل المعركة بسنة، ثم لما جاءت المعركة كانت إذاعتهم ترفع النشيد الآتي تقول موجهة الخطاب لطائرات اليهود:

ميراج طيارك هرب خايف من نسر العرب

والميج علت واعتلت في الجو تتحدى القدر

هذا كانت تتغنى به إذاعة دمشق في ذلك الوقت، إذن كانت تلك الهزيمة الساحقة التي أخذ فيها ما تبقى من فلسطين، وأخذت أضعاف أرض فلسطين مثل سيناء والجولان كانت بسبب تلك القيادات الفاجرة المنحرفة التي تسلطت على رقاب المسلمين، وكانت سبب من أهم أسباب الخذلان والهزيمة.

٦٤٦

٢. عدم الإنفاق في سبيل الله:

قال تعالى: { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَعَرُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) } [الحديد: ٧ - ١١]

يأمر الله تعالى عباده بالإيمان به، وبرسوله محمد ﷺ، على الوجه الأكمل، ويحثهم على الإنفاق في أوجه الطاعات، من المال الذي أعطاهم إياه، وجعله بين أيديهم على سبيل الأمانة أو الإعارة، لأن هذا المال كان من قبل، في أيدي أناس آخرين، فصار إليهم، ثم يؤثون هم ويتركونه فيخلفهم فيه غيرهم

وَيُرْعَبُ اللَّهُ تَعَالَى الْعِبَادَ فِي الْإِثْقَاقِ فِي أَوْجِهٍ الطَّاعَاتِ، فيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّقَوْا فِي أَوْجِهٍ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ سَيَجْزِيهِمْ رَبُّهُمْ جِزَاءً حَسَنًا، وَسَيُؤْتِيهِمْ أَجْرًا كَبِيرًا .

وَأَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَالرَّسُولِ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ يَدْعُوكُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَيُبَيِّنُ لَكُمْ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ، وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْمِيثَاقَ، بِمَا نَصَبَ لَكُمْ مِنَ الْأَدَلَّةِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ، عَلَى وُجُودِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، هَذَا إِنْ كُنْتُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى دَلِيلٍ لِتُؤْمِنُوا (أَوْ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالِدَّلِيلِ إِذَا جَاءَكُمْ) .

وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ آيَاتٍ وَاضِحَاتٍ، لِيُخْرِجَكُمْ بِهَا مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ، إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ، وَمِنَ الضَّلَالَةِ إِلَى الْهُدَى، وَمِنْ رَأْفَتِهِ بِكُمْ جَعَلَ لَكُمْ عُقُولًا وَأَفْهَامًا لِلتَّفَكُّرِ وَالتَّدْبِيرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْكُمْ الرُّسُلَ بِالْكِتَابِ مِنْهُ تَعَالَى لِيَهْتَدُوا بِهَا إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَإِلَى عَمَلِ الْخَيْرِ، وَالْإِثْقَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لِيُدْخِلَكُمْ الْجَنَّةَ وَيُجَنِّبَكُمْ عَذَابَ النَّارِ، وَاللَّهُ عَظِيمُ الرَّأْفَةِ بِالْعِبَادِ، وَاسِعُ الرَّحْمَةِ لَهُمْ .

وَمَا لَكُمْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ أَنْتُمْ تَخْشَوْنَ الْفَقْرَ إِنْ أَنْفَقْتُمْ؟ أَنْفَقُوا وَلَا تَخْشَوْا شَيْئًا، فَإِنَّ الَّذِي أَنْفَقْتُمْ أَمْوَالَكُمْ فِي سَبِيلِهِ هُوَ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَقَدْ تَكْفَلُ بِرِزْقِكُمْ، وَبِالْإِخْلَافِ عَلَيْكُمْ { وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ } . ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى تَفَاوُتَ دَرَجَاتِ الْمُتَّقِينَ، بِحَسَبِ تَفَاوُتِ أَحْوَالِهِمْ، فَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَسْتَوِي مَنْ آمَنَ، وَهَاجَرَ، وَأَنْفَقَ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ (أَوْ قَبْلَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى قَوْلٍ)، مَعَ مَنْ آمَنَ، وَأَنْفَقَ بَعْدَ الْفَتْحِ، فَالْأَوَّلُونَ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَ الْفَتْحِ كَانُوا قَلِيلِي الْعِدَدِ، وَوَجِبَاتُهُمْ كَثِيرَةٌ وَثَقِيلَةٌ، أَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ فَقَدْ انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ، وَأَمِنَ النَّاسُ . وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ بِمَا يَعْمَلُهُ الْعِبَادُ .

مَنْ هَذَا الَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَطَمَعًا فِي مُثُوبَتِهِ وَمَرْضَاتِهِ، مُحْتَسِبًا أَجْرَهُ عِنْدَ اللَّهِ، فَيَعُدُّ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ قَرْضًا لِلَّهِ تَعَالَى، فَيُضَاعَفُ لَهُ ذَلِكَ الْقَرْضُ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، وَيُثَبِّتُهُ مُثُوبَةً كَرِيمَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟^{٦٤٧}

إِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - يَخَاطَبُ الْقُلُوبَ الَّتِي خَلَقَهَا، فَهُوَ يَعْلَمُ أَحْوَالَهَا، وَيَعْرِفُ مَدَاخِلَهَا، وَيَطْلَعُ عَلَى خَوَافِهَا . وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ نَقَاءَ الْعَقِيدَةِ، وَخُلُوصَ الْقَلْبِ، وَاسْتِقْرَارَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ اسْتِقْرَارًا تَنْبَثِقُ مِنْهُ آثَارُهُ وَنَتَائِجُهُ فِي وَاقِعِ الْحَيَاةِ، مِنْ بَذْلِ وَتَضَحِّيَةٍ وَتَقَدُّمَةِ خَالِصَةٍ لِلَّهِ . أَنَّ هَذَا أَمْرٌ يَكْلِفُ الطَّاقَةَ الْبَشَرِيَّةَ كَثِيرًا وَيَحْتَاجُ مِنْهَا إِلَى جَهْدٍ وَمُجَاهَدَةٍ طَوِيلَةٍ . وَمَنْ ثُمَّ يَحْشُدُ لَهَا هَذِهِ الْإِيقَاعَاتِ وَهَذِهِ الْمُؤَثَّرَاتِ وَيَكْشِفُ لَهَا عَنْ الْحَقَائِقِ الْكُونِيَّةِ لِنَرَاهَا وَتَتَأَثَّرُ بِهَا، وَتَزِنُ كُلَّ شَيْءٍ بِمِيزَانِهَا الْكَبِيرِ الدَّقِيقِ . وَيَعَالِجُهَا الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ، وَالْخَطْوَةَ بَعْدَ الْخَطْوَةِ وَلَا يَكْلِفُهَا إِلَى هَتَافٍ وَاحِدٍ، أَوْ بَيَانٍ وَاحِدٍ، أَوْ مُؤَثَّرٍ وَاحِدٍ يَوْقَعُ عَلَى أَوْتَارِهَا

^{٦٤٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٩٦١، بترقيم الشاملة آليا)

ثم يغيب .. ومنهج القرآن الإلهي في علاج القلوب جدير بأن يقف الدعاة إلى الله أمامه طويلا ليتدبروه ويحاولوا أن يقلدوه! إن الإيقاعات الأولى في مطلع السورة من القوة والتوالي والعمق والتأثير، بحيث تزلزل القلوب الجامدة، وتلين القلوب القاسية، وتدعها مرهفة الحساسية. ولكن القرآن لا يكل قلوب المخاطبين إلى هذه اللمسات الأولى، وهو يدعوهم إلى الإيمان والبذل في الفقرة التالية: «آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» .. والمخاطبون هنا هم مسلمون، ولكنهم يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله. فهي إذن حقيقة الإيمان يدعون لتحقيقها في قلوبهم بمعناها. وهي لفظة دقيقة. وهم يدعون إلى الإنفاق، ومع الدعوة لمسة موحية. فهم لا ينفقون من عند أنفسهم. إنما ينفقون مما استخلفهم الله فيه من ملكه. وهو الذي «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» .. فهو الذي استخلف بني آدم جملة في شيء من ملكه. وهو الذي «يُحْيِي وَيُمِيتُ» .. فهو الذي استخلف جيلا منهم بعد جيل.

وهكذا ترتبط هذه الإشارة بما سبق من الحقائق الكلية في مطلع السورة. ثم تقوم هي بدورها في استشارة الخجل والحياء من الله، وهو المالك الذي استخلفهم وأعطاهم، فماذا هم قائلون حين يدعوهم إلى إنفاق شيء مما استخلفهم فيه وما أعطاهم؟! وفي تهنئة النفوس عن الشح، والله هو المعطي ولا نفاذ لما عنده، فماذا يمسكهم عن البذل والعطاء، وما في أيديهم رهن بعطاء الله؟! ولكنه لا يكلهم إلى هذا التذكير وما يثيره من خجل وحياء، ومن سماحة ورجاء. إنما يخاطبهم بمؤثر جديد.

يخجلهم من كرم الله ويطعمهم في فضله: «فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ» ..

ككيف يتخلف متخلف عن الإيمان والبذل في مواجهة هذا الكرم والفضل؟

غير أن القرآن لا يكلهم إلى هذه اللمسات الأولى. إنما يلح على قلوبهم بموجبات الإيمان وموجباته من واقع حياتهم وملابسائهم: «وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ، وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرْؤُفٌ رَحِيمٌ» ..

فما الذي يعوقهم عن الإيمان - حق الإيمان - وفيهم الرسول يدعوهم إلى الإيمان. وقد بايعوه عليه وأعطوه ميثاقهم؟ وما الذي يعوقهم عن الإيمان بالله وهو يتزل على عبده آيات بينات تخرجهم من ظلمات الضلال والشك والخيرة إلى نور الهدى واليقين والطمأنينة؟ وفي هذا وذاك من دلائل الرأفة والرحمة بهم ما فيه.

إن نعمة وجود الرسول بين القوم، يدعوهم بلغة السماء، ويخاطبهم بكلام الله، ويصل بينهم وبين الله في ذوات نفوسهم وخواص شؤونهم .. نعمة فوق التصور حين تتملأها نحن الآن من بعيد .. فهذه الفترة - فترة الوحي وحياة الرسول - ﷺ - فترة عجيبة حقا .. إن الله - جل جلاله - يخاطب هذا البشر من صنع يديه، على لسان عبده - ﷺ - وفي رحمة علوية ندية يقول لهم: خذوا هذا ودعوا ذاك! ها هو

ذا طريقي فاسلكوه! لقد تعثرت خطاكم فهاكم حبلي! لقد أخطأتم وأثمت فتوبوا وما هو ذا باي مفتوح. تعالوا ولا تشردوا بعيدا، ولا تقنطوا من رحمتي التي وسعت كل شيء.. وأنت يا فلان - بذاتك وشخصك - قلت كذا. وهو خطأ. ونويت كذا. وهو إثم. وفعلت كذا وهي خطيئة.. فتعال هنا قدامي وتطهر وتب وعد إلى حمائي.. وأنت يا فلان - بذاتك وشخصك - أمرك الذي يعضلك هذا حله. وسؤالك الذي يشغلك هذا جوابه. وعملك الذي عملت هذا وزنه! إنه الله. هو الذي يقول لهؤلاء المخاليق. وهم يعيشون معه. يحسون أنه معهم. حقيقة وواقعا. أنه يستمع إلى شكواهم في جنح الليل ويستجيب لها. وأنه يراعاهم في كل خطوة ويعني بها ..

ألا إنه لأمر فوق ما يطيق الذي لم يعيش هذه الفترة أن يتصور. ولكن هؤلاء المخاطبين بهذه الآيات عاشوها فعلا.. ثم احتاجوا إلى مثل هذا العلاج ومثل هذه اللمسات، ومثل هذا التذكير.. وهو فضل من الله ورحمة فوق فضله ذاك ورحمته. يدركهما ويشعر بهما من لم تقدر له الحياة في هذه الفترة العجيبة: عَنْ أَبِي صَالِحٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "مَتَى أَلْقَى إِخْوَانِي؟" فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَسْنَا إِخْوَانِكَ؟ قَالَ: "أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانِي قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي لَمْ يَرَوْنِي يُؤْمِنُونَ بِي وَيُصَدِّقُونَنِي" ثُمَّ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَيُّ الْخَلْقِ أَعْجَبُ إِيْمَانًا؟" قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ اللَّهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟" قَالُوا: فَالْتَّبِثُونَ. قَالَ: "وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ يُوحَى إِلَيْهِمْ؟" قَالُوا: فَأَصْحَابُ التَّبِثِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَأَنْبِيَاءُ اللَّهِ فِيهِمْ؟ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي لَمْ يُدْرِكُونِي يُؤْتُونَ بَكْتَابٍ مِنْ رَبِّهِمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيُصَدِّقُونَهُ" ٦٤٨.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَيُّ الْخَلْقِ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيْمَانًا؟" قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ، قَالَ: "وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟" قَالُوا: فَالْتَّبِثُونَ. قَالَ: "وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟" قَالُوا: فَتَحْنُ. قَالَ: "وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟" قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنْ أَعْجَبَ الْخَلْقَ إِلَيَّ إِيْمَانًا لَقَوْمٌ بَعْدَكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا فِيهَا كِتَابٌ يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا" ٦٤٩.

وصدق رسول الله. إنه لأمر متفاوت. وإن موحيات الإيمان وموجباته لديهم لشيء هائل، هائل، عجيب عجيب. وهو يعجب: ما لهم لا يؤمنون؟ ثم يطلب إليهم تحقيق الإيمان في نفوسهم إن كانوا مؤمنين! ثم ينتقل بهم من موحيات الإيمان وموجباته إلى موحيات الإنفاق وموجباته في توكيد وتكرير: «وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟» ..

وفي هذه الإشارة عودة إلى حقيقة: «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ».. فميراث السماوات والأرض ملكه وراجع إليه، وما استخلفوا فيه إذن سيؤول إليه في الميراث! فما لهم لا

٦٤٨ - دَلَائِلُ التَّبَوُّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٢٩١٤ و ٢٩١٥) صحيح لغيره

٦٤٩ - دَلَائِلُ التَّبَوُّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٢٩١٦) صحيح لغيره

ينفقون في سبيله حين يدعوهم إلى الإنفاق. وهو استخلفهم فيه كما قال لهم هناك. وكله عائد إليه كما يقول لهم هنا؟ وما الذي يبقى من دواعي الشح وهواتف البخل أمام هذه الحقائق في هذا الخطاب؟

ولقد بذلت الحفنة المصطفاة من السابقين، من المهاجرين والأنصار، ما وسعها من النفس والمال، في ساعة العسرة وفترة الشدة - قبل الفتح - فتح مكة أو فتح الحديبية وكلاهما اعتر به الإسلام أيام أن كان الإسلام غريبا محاصرا من كل جانب، مطاردا من كل عدو، قليل الأنصار والأعوان. وكان هذا البذل خالصا لا تشوبه شائبة من طمع في عوض من الأرض، ولا من رياء أمام كثرة غالبية من أهل الإسلام. كان بذلا منبثقا عن خيرة اختاروها عند الله وعن حمية لهذه العقيدة التي اعتنقوها وآثروها على كل شيء وعلى أرواحهم وأموالهم جميعا.. ولكن ما بذلوه - من ناحية الكم - كان قليلا بالقياس إلى ما أصبح الذين جاءوا بعد الفتح يملكون أن يبذلوه. فكان بعض هؤلاء يقف ببذله عند القدر الذي يعرف ويسمع أن بعض السابقين بذلوه! هنا نزل القرآن ليزن بميزان الحق بذل هؤلاء وبذل أولئك، وليقرر أن الكم ليس هو الذي يرجح في الميزان ولكنه الباعث وما يمثله من حقيقة الإيمان: «لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ. أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتِلُوا» ..

إن الذي ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة، والأنصار قلة، وليس في الأفق ظل منفعة ولا سلطان ولا رخاء. غير الذي ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة، والأنصار كثرة، والنصر والغلبة والفوز قريبة المنال. ذلك متعلق مباشرة بالله، متجرد تجردا كاملا لا شبهة فيه، عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده، بعيد عن كل سبب ظاهر وكل واقع قريب. لا يجد على الخير عونا إلا ما يستمده مباشرة من عقيدته. وهذا له على الخير أنصار حتى حين تصح نيته ويتجرد تجرد الأولين.

روى الإمام أحمد عن أنس، قال: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ كَلَامٌ، فَقَالَ خَالِدٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: تَسْتَطِيلُونَ عَلَيْنَا بِأَيَّامٍ سَبَقْتُمُونَا بِهَا، فَبَلَّغْنَا أَنَّ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: دَعُوا لِي أَصْحَابِي^{٦٥٠}، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنْفَقْتُمْ مِثْلَ أُحُدٍ، أَوْ مِثْلَ الْجِبَالِ، ذَهَبًا، مَا بَلَغْتُمْ أَعْمَالَهُمْ^{٦٥١}..

^{٦٥٠} - يتحدد من هذا الحديث معنى معين لأصحاب الرسول - ﷺ - الذين تكرر تحذيره بشأنهم. فهم أولئك السابقون. وقد كان يقول للمسلمين حوله ومن صاحبه: «دعوا لي أصحابي...» فدل على أنه - ﷺ - يعني صفة خاصة .. وكذلك قال في مرة عن الصديق - رضي الله عنه -: «دعوا لي صاحبي» .. (السيد رحمه الله)

قلت: الصواب عدالة كل الصحابة ولا يجوز سب واحد من منهم فعن عبد الله بن المغفل، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُمَّ اللَّهُ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوا أَصْحَابِي غَرَضًا مِنْ أَحَبَّهُمْ، فَيُحِبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَيُبْغِضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ. صحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [١٦ / ٢٤٤] (٧٢٥٦) صحيح

^{٦٥١} - مسند أحمد (عالم الكتب) [٤ / ٦٧٩] (١٣٨١٢) ١٣٨٤٨ صحيح

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ - « لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَتَّفَقَ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ » ٦٥٢ .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - « لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَتَّفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ » ٦٥٣ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَتَّفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ". ٦٥٤

وبعد أن قرر القيم الحقيقية في ميزان الله لهؤلاء ولهؤلاء عاد فقرر أن للجميع الحسن: «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى» .. فقد أحسنوا جميعا، على تفاوت ما بينهم في الدرجات.

ومرد ذلك التفاوت وهذا الجزاء بالحسن للجميع، إلى ما يعلمه الله من تقدير أحوالهم، وما وراء أعمالهم من عزائمهم ونواياهم. وخبرته تعالى بحقيقة ما يعملون: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» ..

وهي لمسة موقظة للقلوب، في عالم النوايا المضمرة وراء الأعمال الظاهرة، وهي التي تناط بها القيم، وترجح بها الموازين ...

إنه هتاف موح مؤثر أسر. وهو يقول للعباد الفقراء المحاويج: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا؟» .. ومجرد تصور المسلم أنه هو الفقير الضئيل يقرض ربه، كفيل بأن يطير به إلى البذل طيرانا! إن الناس ليتسابقون عادة إلى إقراض الثري المملوء منهم - وهم كلهم فقراء - لأن السداد مضمون. ولهم الاعتزاز بأن أقرضوا ذلك الثرى المملوء! فكيف إذا كانوا يقرضون الغني الحميد؟! ولا يكلهم - سبحانه - إلى هذا الشعور وحده، ولكن يعدهم على القرض الحسن، الخالص له، المجرد من كل تلفت إلى سواه. يعدهم عليه الضعف في المقدار، والأجر الكريم بعد ذلك من عند الله: «فِيضَاعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ». ٦٥٥

وقال تعالى في سورة محمد: { هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } [محمد: ٣٨]

إِنَّكُمْ يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَفِي سَبِيلِ مُجَاهِدَةِ أَعْدَائِهِ، وَفِي سَبِيلِ نَصْرِ دِينِهِ. ومن المؤمنين مَنْ يَبْخُلُ بِالْإِنْفَاقِ فِي هَذَا السَّبِيلِ، وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُ يَحْرُمُهَا ثَوَابَ

٦٥٢ - صحيح البخارى - المكثر [١٢/ ٤٣٣] (٣٦٧٣)

٦٥٣ - سنن أبي داود - المكثر [٤/ ٣٤٦] (٤٦٦٠) صحيح - التلخيص: النصف

٦٥٤ - المعجم الكبير للطبراني [١٩/ ١٣٠] (٣٠٣) صحيح

٦٥٥ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٣٥٢)

اللَّهُ، وَيَجْرِمُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ، وَعَنْ أَمْوَالِهِمْ، وَعَنْ جِهَادِهِمْ، وَهُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَإِنَّمَا حَثُّهُمْ عَلَى الْجِهَادِ وَالْبَذْلِ لِيَنَالُوا الْأَجْرَ وَالْمَثُوبَةَ. ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى لَهُمْ: إِنَّهُمْ إِنْ كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ، وَعَنِ اتِّبَاعِ شَرْعِهِ فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِهْلَاكِهِمْ، وَعَلَى الْإِثْيَانِ بِقَوْمٍ آخَرِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لأَوَامِرِهِ، وَيَعْمَلُونَ بِشَرَائِعِهِ، وَلَا يَكُونُونَ أَمْثَالَ مَنْ أَهْلَكَهُمْ فِي الْبَخْلِ وَالتَّبَاطُؤِ عَنِ الْجِهَادِ .. ٦٥٦

بهذه الآية الكريمة تختم السورة، فتلتقي بالمؤمنين، بعد أن وضعتهم في مواجهة أعدائهم من الكافرين والمشركين، الذين يحادون الله ورسوله، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر، وأنه مطلوب من المؤمنين أن يعملوا على حماية أنفسهم من هذا العدو المتربص بهم، وذلك بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.. ولما كان للمال سلطانه على النفوس، فقد جاءت الآيات السابقة تكشف عن هذه المشاعر، التي يجدها المؤمنون حين يمتحنون في أموالهم، وأن الله سبحانه وتعالى قد شملهم برحمته، فلم يدعهم إلى الخروج عن أموالهم جملة، على سبيل الإلزام والفرض، بل جعل ذلك دعوة مطلقة، يأخذ منها الناس ما تتسع له نفوسهم، كل على حسب ما تسخو به نفسه، ويرضاه قلبه.. دون حرج أو إعنات.

وفي قوله تعالى: «هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» امتحان للمؤمنين، واستدعاء لما في نفوسهم من إيمان، في مقام البذل في سبيل الله..

وقوله تعالى: «فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ» هو بيان لما كشف عنه هذا الامتحان من شح في بعض النفوس، وضمن بالبذل والإنفاق في سبيل الله.. وهذا البخل إنما هو عائد على من بخل، إذ حرم نفسه هذا الخير الكثير الذي كان ينتظره لو أنه أنفق من هذا المال الذي حبسه، وضمن به.. إنه هو المحروم، وهو الخاسر في هذا الموقف، حيث أثر ما يفنى على ما يبقى..

وفي تعدية الفعل «يبخل» بحرف الجر «عن» بدلا من الحرف «على» الذي يستدعيه ظاهر النظم - في هذا إشارة إلى أن هذا البخل هو حجز للخير عن النفس، التي كان من حقها على صاحبها أن يسوقه إليها من هذا المال الذي بخل به، وهو يظن أنه إنما فعل ذلك ابتغاء لخيرها وإسعادها..

وقوله تعالى: «وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ» - هو تعقيب على موقف أولئك الذين بخلوا بالإنفاق في سبيل الله، ولم يستجيبوا الدعوة الله، الذي آتاهم من فضله، ووسّع لهم من رزقه - فالله - سبحانه - غني عنهم، وهم الفقراء إليه..

ولو شاء سبحانه أن يعفيهم من هذا الامتحان، لفعل، ولحرمهم الثواب الذي ينالونه بما ينفقون من مال الله الذي بين أيديهم..

وقوله تعالى: «وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ» ..

٦٥٦ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٦٢، بترقيم الشاملة آليا)

هو تهديد ووعد لهؤلاء الباخلين بأموالهم عن الإنفاق منها في سبيل الله وأنهم إذا أصروا على موقفهم هذا، ولم ينفقوا في سبيل الله، كان في المؤمنين من يقوم مقامهم، ويسدّ هذا النقص الذي كان منهم.. ثم إن هؤلاء الذين يلبسون الإيمان ظاهراً وباطناً، لا يكون منهم تردد، أو نكوص عن تقبل البذل والإنفاق، كما كان من هؤلاء المترددين المنقلبين على أعقابهم، بل ستثبت أقدامهم على طريق الإيمان إلى النهاية..^{٦٥٧}

والآية ترسم صورة وصفية لواقع الجماعة المسلمة يومذاك. ولواقع الناس تجاه الدعوة إلى البذل في كل بيئة. فهي تقرر أن منهم من يبخل. ومعنى هذا أن هنالك من لا يبخلون بشيء. وقد كان هذا واقعاً، سجلته الروايات الكثيرة الصادقة، وسجله القرآن في مواضع أخرى. وقد حقق الإسلام في هذا المجال مثلاً تحسب من حوار الأمثال في البذل والتضحية عن رضى وعن فرح بالبذل والعطاء. ولكن هذا لم يمنع أن يكون هنالك من يبخل بالمال. ولعل الجود بالنفس أرخص عند بعضهم من الجود بالمال! والقرآن يعالج هذا الشح في هذه الآية: «وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ» ..

فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور، يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد، يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون. فلا يجدون إلا ذلك الرصيد المذخور. فإذا بخلوا بالبذل، فإنما يبخلون على أنفسهم وإنما يقللون من رصيدهم وإنما يستخسرون المال في ذواتهم وأشخاصهم وإنما يجرمونها بأيديهم! أجل. فالله لا يطلب إليهم البذل، إلا وهو يريد لهم الخير، ويريد لهم الوفرة، ويريد لهم الكثرة والذخر. وما يناله شيء مما يبذلون، وما هو في حاجة إلى ما ينفقون: «وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ» ..

فهو الذي أعطاكم أموالكم، وهو الذي يدخر لكم عنده ما تنفقونه منها. وهو الغني عما أعطاكم في الدنيا، الغني عن أرصدتكم المذخورة في الآخرة. وأنتم الفقراء في الدارين وفي الحالين. أنتم الفقراء إلى رزقه في الدنيا، فما لكم من قدرة على شيء من الرزق إلا أن يهبكم إياه. وأنتم الفقراء إلى أجره في الآخرة، فهو الذي يتفضل به عليكم، وما أنتم بموفين شيئاً مما عليكم، فضلاً على أن يفضل لكم شيء في الآخرة، إلا أن يتفضل عليكم. ففيم البخل إذن وفيم الشح؟ وكل ما في أيديكم، وكل ما ينالكم من أجر على ما تنفقون هو من عند الله، ومن فضل الله؟ ثم الكلمة الأخيرة وهي فصل الخطاب ..

إن اختيار الله لكم لحمل دعوته تكريم ومنّ وعطاء. فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلاً لهذا الفضل، وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المكانة، وإذا لم تدركوا قيمة ما أعطيتم فيهن عليكم كل ما عداه.. فإن الله يسترد، ما وهب، ويختار غيركم لهذه المنّة ممن يقدر فضل الله: «وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ» .. وإنما لندارة رهبة لمن ذاق حلاوة الإيمان، وأحس بكرامته على الله، وعمقاه في هذا الكون وهو يحمل هذا السر الإلهي العظيم. ويمشي في الأرض بسلطان الله في قلبه ونور الله في كيانه

^{٦٥٧} - التفسير القرآني للقرآن (١٣ / ٣٨٩)

ويذهب ويحيى وعليه شارة مولاه.. وما يطبق الحياة وما يطعمها إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه، ويطرده من الكنف، وتوصد دونه الأبواب. لا بل إن الحياة لتغدو جحيما لا يطاق عند من يتصل بربه ثم يطبق دونه الحجاب.

إن الإيمان هبة ضخمة، لا يعد لها في هذا الوجود شيء والحياة رخيصة، والمال زهيد زهيد، حين يوضع الإيمان في كفة، ويوضع في الكفة الأخرى كل ما عداه.. ومن ثم كان هذا الإنذار أهول ما يواجهه المؤمن، وهو يتلقاه من الله^{٦٥٨}.

وقال تعالى: { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [البقرة: ١٩٥]

بذل الأنصار أموالهم في سبيل الله، ونصرة دينه، وأووا المهاجرين وساعدوهم، فلما أعز الله الإسلام، وكثر ناصروه، قال بعض الأنصار لبعض: لو أنهم أقبلوا على أموالهم فأصلحوها. فأنزل الله تعالى هذه الآية. وفيها يبين الله لهم أن الإقامة على الأموال، وإصلاحها، وترك الغزو والجهاد والإنفاق في سبيل الله... فيه التهلكة. فعادوا إلى الجهاد، وإلى إنفاق أموالهم في سبيل الله، وإعلاء كلمته، وفي وجوه الطاعات. وأخبر الله المؤمنين بأن ترك الجهاد، وترك الإنفاق فيه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده، فإذا بخل المؤمنون، وقعدوا عن الجهاد ركبهم أعداؤهم وأذلّوهم، فكأنهم إنما ألقوا بأيديهم إلى التهلكة. ثم أمر الله المسلمين بأن يحسنوا كل أعمالهم، وأن يجودّوها، ويدخل في ذلك التطوع بالإنفاق في سبيل الله لنشر الدعوة...^{٦٥٩}

عن أسلم أبي عمران قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والرؤم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس: مه مه لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: "إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه، وأظهر الإسلام قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها"، فأنزل الله تعالى: { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } [البقرة: ١٩٥] فاللقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها ونَدَعِ الجهاد، قال أبو عمران: «فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دُفن بالقسطنطينية»^{٦٦٠}

وقوله تعالى: { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } دعوة إلى البذل في وجوه الحق والخير، وأولى هذه الوجوه ما كان في الجهاد في سبيل الله، فهذا باب

^{٦٥٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤١١٨)

^{٦٥٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٠٢، بترقيم الشاملة آليا)

^{٦٦٠} - سنن أبي داود (١٢/٣) (٢٥١٢) صحيح

أجزل الله فيه الثواب لأهله، وخصهم بالمزيد من فضله ورضوانه، ولهذا اقتضت حكمة الله سبحانه أن يشارك المجتمع الإسلامي كله في الجهاد، كل بحسب جهده وقدرته، وذلك حتى لا يحرم أحد منه هذا الخير الكثير، بالقليل من الجهد..

فمن جهز غازيا فقد غزا، ومن أعان في إعداد أدوات الحرب، ومثونة الجيش فقد غزا، ومن قام على خدمة من خلف المجاهدون ورائهم من أهل وولد، فهو في المجاهدين.. وهكذا كل عمل يقوى من جبهة المجاهدين هو من الجهاد المبرور المقبول عند الله.

هذا، وقد يعمل المجاهد في أكثر من ميدان، فيجهز المجاهدين بما له، وينفق في كل ما تحتاج إليه الحرب من سلاح ومتاع، ثم يكون هو مع المجاهدين في ميدان القتال، وإنه على قدر العمل يكون الثواب. وفي قوله تعالى: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» تنبيه وتحذير من هذا الشعور الحماسي الذي قد يغلب على المجاهد وهو في ميدان المعركة، فيتحدى الموت الذي يتخطف النفوس من حوله، فيندفع متهورا يلقي الموت في غير مبالاة.

والإسلام حريص على أهله ضنين بهم، فلا يبيع حياتهم إلا بالثمن الكريم الغالي، ولا يقتضيها هذا البيع إلا حيث تجب التضحية والفداء في سبيل الله، ولا سبيل آخر غير هذا السبيل تقدم فيه النفوس قربانا لله وفي سبيل الله.

وعلى هذا فإن واجبا على المسلم إذ يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله، وإذ يدفع بها في مزدحم المنايا، أن يتقاضى الثمن المحزى لها، وأن يأخذ لها حقها الكامل في القتال، بالنكاية في العدو، فإن قتل بعدها فقد كتب بدمه الطهور حرفا من حروف النصر للجبهة المقاتل فيها، وللجماعة المحارب معها.

وفي قوله تعالى: «وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» دعوة إلى الإحسان المطلق، الإحسان في كل أمر يقوم عليه الإنسان ويؤديه، لله أو لنفسه أو للناس.. وعن هذه الدعوة إلى الإحسان المطلق تتجه دعوة خاصة إلى الإحسان في مواطن القتال، فيقاتل المسلم على بصيرة، ولا يكن من همّه الأول أن يقتل ويستشهد في سبيل الله، بل أن يكون مقصده النيل من العدو، والنكاية به، إذ يقتل فرسانه وشجعانه، فذلك هو المطلوب أولا، فإن قتل وهو يسعى لتحقيق هذه الغاية لم يكن مجرد شهيد، بل كان بطلا يحمل شهادة أعداد من الشهداء^{٦٦١}

يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير، من صدقة على مسكين، أو قريب، أو إنفاق على من تجب مؤنته.

وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهاد بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة، الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى توهية الشرك

^{٦٦١} - التفسير القرآني للقرآن (١/ ٢١٧)

وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازه، فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله، إبطال للجهاد، وتسلط للأعداء، وشدة تكاليفهم، فيكون قوله تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} كالتعليل لذلك، والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجبا أو مقاربا لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك، ترك الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغرير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف، أو محل مسبعة أو حيات، أو يصعد شجرا أو بنيانا خطرا، أو يدخل تحت شيء فيه خطر ونحو ذلك، فهذا ونحوه، ممن ألقى بيده إلى التهلكة.

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة الإقامة على معاصي الله، واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض، التي في تركها هلاك للروح والدين.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعا من أنواع الإحسان، أمر بالإحسان عموما فقال: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيد بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم.

ويدخل فيه الإحسان بالجاء، بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك، الإحسان بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس، من تفريج كرباتهم وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشجيع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملا والعمل لمن لا يحسن العمل ونحو ذلك، مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضا، الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك"

فمن اتصف بهذه الصفات، كان من الذين قال الله فيهم: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره.^{٦٦٢}

والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله هلكة للنفس بالشح، وهلكة للجماعة بالعجز والضعف. وبخاصة في نظام يقوم على التطوع، كما كان يقوم الإسلام.

ثم يرتقي بهم من مرتبة الجهاد والإنفاق إلى مرتبة الإحسان: «وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» .. ومرتبة الإحسان هي عليا المراتب في الإسلام. وهي كما قال رسول الله - ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^{٦٦٣}.

^{٦٦٢} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٠)

^{٦٦٣} - صحيح البخاري - المكثر - (٥٠) وصحيح مسلم - المكثر - (١٠٢)

وحين تصل النفس إلى هذه المرتبة، فإنها تفعل الطاعات كلها، وتنتهي عن المعاصي كلها، وتراقب الله في الصغيرة والكبيرة، وفي السر والعلن على السواء. وهذا هو التعقيب الذي ينهي آيات القتال والإنفاق، فيكل النفس في أمر الجهاد إلى الإحسان. أعلى مراتب الإيمان.^{٦٦٤}

٣. أكل الربا :

قال تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) } [البقرة: ٢٧٥ - ٢٨٠]

بعد أن ذكر الله تعالى الإنفاق في سبيل الله، والتصدق على عياده، وإخراج الزكاة، شرع في عرض حال أكلي الربا، وأموال الناس بالباطل، وأنواع الشبهات، فأخبر عن حالهم يوم خروجه من قبورهم، يوم البعث والنشور، فقال عنهم: إنهم لا يقومون من قبورهم إلا قياماً منكراً، كما يقوم المصروع حال صرعه وأكلهم الربا هذا قائم على استحلالهم له، وجعله كالبيع، فيقولون: كما يجوز أن يبيع الإنسان سلعته التي ثمنها عشرة دراهم على أن يردّها عليه عشرين درهماً بعد سنة، فالسبب في رأيهم واحد في كل من الزيادة، وهو الأجل .

هذه هي حجة أكلي الربا وهم واهمون فيما قالوه، وقياسهم فاسد، لأن البيع فيه ما يقتضي حله لآئه يلاحظ فيه انتفاع المشتري بالشيء انتفاعاً حقيقياً .

أما الربا فهو إعطاء الدراهم والمثلّيات وأخذها مضاعفة في وقت آخر . فما يؤخذ من المدين زيادة في رأس المال لا مقابل له من عين ولا عمل . فمن بلغه نهي الله عن الربا، فانتهى عن الربا فله ما سلف ممّا أكله من الربا قبل التحريم، وما سبق له أن أخذه أيام الجاهلية، وأمره مردود إلى الله . ومن عاد إلى الربا، بعد أن بلغه التّهيّ عنه، فقد استوجب العقوبة من الله، والخلود في نار جهنم .

الذي يتخبطه الشيطان - أي المصروع - وكانت العرب تعتقد أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرعه.

^{٦٦٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤١٨)

مراحل تحريم الربا في القرآن:

كما مرّ تحريم الخمر في مراحل، كذلك مرّ تحريم الربا في أربع مراحل متدرّجة:

- ١- في المرحلة الأولى - قال الله تعالى في الآية المكيّة { وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّرَبُّو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُّو عِنْدَ اللَّهِ } أي إنّ الله تعالى يقول في هذه الآية إنّ الربا لا ثواب فيه عند الله .
- ٢- وفي المرحلة الثانية - ألقى الله تعالى على المسلمين درساً وعبرة من سيرة اليهود الذين حرّم الله عليهم أكل الربا فأكلوه، فعاقبهم الله بمعصيتهم .

فقد جاء في سورة النساء { فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا . } كما جاء بعدها { وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . } وهذه العبرة لا يكون لها أثرٌ إلّا إذا كان من ورائها نوعٌ من تحريم الربا على المسلمين . ولم يكن في هذا الموضع نهي صريح عن الربا، ولكنه أُلح إليه .

- ٣- المرحلة الثالثة - ولم يجيء التّنهّي الصّريح إلّا في المرحلة الثالثة، ولم يكن إلّا نهيًا جزئيًا عن الربا الفاحش الذي يتزايد حتّى يصير أضعافاً مضاعفةً .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً . } - المرحلة الرابعة - وفي المرحلة الرابعة والأخيرة ختم التشريع القرآني كلّهُ بالتّنهّي الحاسم عن كلّ ما يزيد على رأس مال الدّين .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ . }

والله تعالى لا يحبّ الذين يصيرون على ارتكاب المحرّمات وعلى تحليلها، ولا يحبّ الذين لا ينفقون أموالهم في سبيله .

يُخْبِرُ اللَّهُ تعالى عباده أنّه يمحّق الربا، ويذهب من يد آكله بركة ماله، ويهلك المال الذي دخل فيه الربا، فلا ينتفع به أحد من بعده، وأنّه يضاعف ثواب الصّدقات، ويزيد المال الذي أخرجت منه، ويعاقب آكل الربا يوم القيامة . والله لا يحبّ الكفور المتماذي في كفرٍ ما أنعم الله به عليه من مالٍ، لأنّه لا ينفق منه في سبيله، ولا يحبّ الذين يصيرون على تحليل المحرّمات، ولا الذين يستمرّون على ارتكابها .

يمدحُ الله تعالى المؤمنين المصدّقين بما جاءهم من ربّهم، المقيمين الصّلاة، وعاملِي الصّالحات والمزكّين، ويخبر عنهم أنّه يحفظ لهم أجرهم، وأنهم لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدّنيا .

يأمرُ الله تعالى عباده المؤمنين، المصدّقين بما أمرهم به، بالتّقوى، فيقول لهم: اتّقوا الله واتّركوا ما لكم عند الناس من الربا (أي ما يزيد على رؤوس أموالكم) إنّ كنتم مؤمنين حقاً بما شرع الله لكم من تحليل البيع، وتحريم الربا، وغير ذلك .

وأُذِرَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ لَا يَمْتَثِلُونَ لِأَمْرِهِ مَنْ تَرَكَ مَا بَقِيَ مِنَ الرَّبَا عِنْدَ النَّاسِ، بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
لِخُرُوجِهِمْ عَنِ الشَّرْعِ، وَعَدِمَ خَضُوعَهُمْ لَهُ، فَإِنْ تَابُوا فَلَهُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِهِمْ بِدُونِ زِيَادَةٍ، لَا يَظْلَمُونَ
بِأَخْذِ زِيَادَةٍ، وَلَا يُظْلَمُونَ بِوَضْعِ شَيْءٍ مِنْ رَأْسِ الْمَالِ .

فَإِنْ كَانَ الْمَدِينُ مُعْسِرًا لَا يَجِدُ وِفَاءَ دِينِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ الدَّائِنَ بِنَظَرَتِهِ إِلَى حِينٍ مَيَسَّرَتِهِ، وَتَمَكَّنَتِهِ مِنْ دَفْعِ مَا
عَلَيْهِ . وَإِنْ تَصَدَّقَ الدَّائِنُ عَلَى الْمَدِينِ الْمُعْسِرِ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْسِ الْمَالِ، أَوْ بِرَأْسِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ

٦٦٥ .

وقد وردت أحاديث كثيرة في الحث على تنفيس كربة المكروب والتجاوز عن المعسر ..
عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ
رُؤْيَا؟» قَالَ: فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَصَهَا، فَيَقُولُ: «مَا شَاءَ اللَّهُ» فَسَأَلْنَا يَوْمًا فَقَالَ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ
رُؤْيَا؟» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا
رَجُلٌ جَالِسٌ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ، بِيَدِهِ كَلُوبٌ مِنْ حَدِيدٍ» قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَى: " إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ
الْكَلُوبَ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الْآخَرَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَمِسُ شِدْقَهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ
مِثْلَهُ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَا: انْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى
رَأْسِهِ بِفَهْرٍ - أَوْ صَخْرَةٍ - فَيَشْدُخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهَدَهَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلَا يَرْجِعُ
إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَمِسَ رَأْسَهُ وَعَادَ رَأْسَهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ، فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلَقْنَا إِلَى
ثَقَبٍ مِثْلِ الثَّنُورِ، أَعْلَاهُ ضَيْقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ
يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاءَ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلَقْنَا حَتَّى
أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسْطِ النَّهْرِ - قَالَ يَزِيدُ، وَوَهَبُ بْنُ جَرِيرٍ: عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ
- وَعَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهْرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى
الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا
كَانَ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَا: انْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِي
أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصَبِيَانٌ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا، فَصَعَدَا بِي فِي
الشَّجَرَةِ، وَأَدْخَلَانِي دَارًا لَمْ أَرَقُطُ أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ، وَنِسَاءٌ، وَصَبِيَانٌ، ثُمَّ
أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعَدَا بِي الشَّجَرَةَ، فَأَدْخَلَانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ فِيهَا
شُيُوخٌ، وَشَبَابٌ، قُلْتُ: طَوَّقْتُمَانِي اللَّيْلَةَ، فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُمْ، قَالَا: نَعَمْ، أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ
شِدْقُهُ، فَكَذَابٌ يُحَدِّثُ بِالْكَذِبَةِ، فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ
يَشْدُخُ رَأْسَهُ، فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَتَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ

الْقِيَامَةِ، وَالَّذِي رَأَيْتُهُ فِي الثَّقَبِ فَهُمْ الرُّنَاةُ، وَالَّذِي رَأَيْتُهُ فِي النَّهْرِ أَكَلُوا الرِّبَا، وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالصَّبَّيَّانُ، حَوْلَهُ، فَأَوْلَادُ النَّاسِ وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكُ خَازِنِ النَّارِ، وَالدَّارُ الْأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارَ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالَا: ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي، قَالَا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمْرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ فَلَوْ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ^{٦٦٦}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^{٦٦٧}.

إن العالم الذي نعيش فيه اليوم - في أنحاء الأرض - هو عالم القلق والاضطراب والخوف والأمراض العصبية والنفسية - باعتراف عقلاء أهله ومفكره وعلمائه ودارسيه، وبمشاهدات المراقبين والزائرين العابرين لأقطار الحضارة الغربية.. وذلك على الرغم من كل ما بلغت الحضارة المادية، والإنتاج الصناعي في مجموعه من الضخامة في هذه الأقطار. وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي التي تأخذ بالأبصار.. ثم هو عالم الحروب الشاملة والتهديد الدائم بالحروب المبيدة، وحرب الأعصاب، والاضطرابات التي لا تنقطع هنا وهناك! إنها الشقوة البائسة المنكودة، التي لا تزيلها الحضارة المادية، ولا الرخاء المادي، ولا يسر الحياة المادية وخفضها ولينها في بقاع كثيرة. وما قيمة هذا كله إذا لم ينشئ في النفوس السعادة والرضى والاستقرار والطمأنينة؟

إنها حقيقة تواجه من يريد أن يرى ولا يضع على عينيه غشاوة من صنع نفسه كي لا يرى! حقيقة أن الناس في أكثر بلاد الأرض رخاء عاما.. في أمريكا، وفي السويد، وفي غيرها من الأقطار التي تفيض رخاء ماديًا.. أن الناس ليسوا سعداء.. أنهم قلقون يطل القلق من عيونهم وهم أغنياء! وأن الملل يأكل حياتهم وهم مستغرقون في الإنتاج! وأنهم يغرقون هذا الملل في العربة والصخب تارة. وفي «التقاليع» الغربية الشاذة تارة. وفي الشذوذ الجنسي والنفسي تارة. ثم يحسون بالحاجة إلى الهرب. الهرب من

^{٦٦٦} - صحيح البخاري (١٠٠/٢) (١٣٨٦)

[ش (كلوب) الحديدية التي ينشل بها اللحم ويلقى ومثله الكلاب. (شده) جانب فمه. (يلتم) يصح ويبرأ. (بفهر) بحجر ملء الكف. (فيشدخ) من الشدخ وهو كسر الشيء الأجوف. (تدهده) تدرج]

^{٦٦٧} - صحيح البخاري (١٠/٤) (٢٧٦٦)

[ش (اجتنبوا) ابتعدوا. (الموبقات) المهلكات. (السحر) هو في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه ومعنى صرف الشيء عن وجهه ويستعمل بمعنى الخداع. والمراد هنا ما يفعله المشعوذون من تخيلات وتمويه تأخذ أبصار المشاهدين وتوهمهم الإتيان بحقيقة أو تغييرها. (بالحق) كالقتل قصاصا. (التولي يوم الزحف) الفرار عن القتال يوم ملاقات الكفار والزحف في الأصل الجماعة الذين يزحفون إلى العدو أي يحشون إليهم بمشقة مأخوذ من زحف الصبي إذا مشى على مقعدته. (قذف) هو الاتهام والرمي بالزنا. (المحصنات) جمع محصنة وهي العفيفة التي حفظت فرجها وصالحها الله من الزنا. (الغافلات) البرينات اللواتي لا يفطن إلى ما رمين به من الفجور]

أنفسهم. ومن الخواء الذي يعيش فيها! ومن الشقاء الذي ليس له سبب ظاهر من مرافق الحياة وجريانها. فيهربون بالانتحار. ويهربون بالجنون. ويهربون بالشذوذ! ثم يطاردتهم شبح القلق والخواء والفراغ ولا يدعهم يستريحون أبدا! لماذا؟

السبب الرئيسي طبعاً هو خواء هذه الأرواح البشرية الهائمة المعذبة الضالة المنكودة - على كل ما لديها من الرخاء المادي - من زاد الروح.. من الإيمان.. من الاطمئنان إلى الله.. وخوارها من الأهداف الإنسانية الكبيرة التي ينشئها ويرسمها الإيمان بالله، وخلافة الأرض وفق عهده وشرطه.

ويتفرع من ذلك السبب الرئيسي الكبير.. بلاء الربا.. بلاء الاقتصاد الذي ينمو ولكنه لا ينمو سويًا معتدلاً بحيث تتوزع خيرات نموه وبركاتهما على البشرية كلها. إنما ينمو مائلاً جانحاً إلى حفنة الممولين المرابين، القابضين وراء المكاتب الضخمة في المصارف، يقرضون الصناعة والتجارة بالفائدة المحددة المضمونة ويجبرون الصناعة والتجارة على أن تسير في طريق معين ليس هدفه الأول سد مصالح البشر وحاجاتهم التي يسعد بها الجميع والتي تكفل عملاً منتظماً ورزقاً مضموناً للجميع والتي تهيئ طمأنينة نفسية وضمانات اجتماعية للجميع.. ولكن هدفه هو إنتاج ما يحقق أعلى قدر من الربح - ولو حطم الملايين وحرّم الملايين وأفسد حياة الملايين، وزرع الشك والقلق والخوف في حياة البشرية جميعاً! وصدق الله العظيم: «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ» ..

وها نحن أولاء نرى مصداق هذه الحقيقة في واقعنا العالمي اليوم! ولقد اعترض المرابون في عهد رسول الله - ﷺ - على تحريم الربا. اعترضوا بأنه ليس هناك مبرر لتحريم العمليات الربوية وتحليل العمليات التجارية: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا. وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا» ..

وكانت الشبهة التي ركنوا إليها، هي أن البيع يحقق فائدة وربحاً، كما أن الربا يحقق فائدة وربحاً.. وهي شبهة واهية. فالعمليات التجارية قابلة للربح والخسارة. والمهارة الشخصية والجهد الشخصي والظروف الطبيعية الجارية في الحياة هي التي تتحكم في الربح والخسارة. أما العمليات الربوية فهي محددة الربح في كل حالة. وهذا هو الفارق الرئيسي. وهذا هو مناط التحريم والتحليل.. إن كل عملية يضمن فيها الربح على أي وضع هي عملية ربوية محرمة بسبب ضمان الربح وتحديدده.. ولا مجال للمباحلة في هذا ولا للمداورة!

«وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا»... لانتفاء هذا العنصر من البيع ولأسباب أخرى كثيرة تجعل عمليات التجارة في أصلها نافعة للحياة البشرية وعمليات الربا في أصلها مفسدة للحياة البشرية^{٦٦٨}..

٦٦٨ - تراجع البحوث القيمة في هذه الموضوعات: للأستاذ المودودي. وقد سبقت الإشارة إليها. (السيد رحمه الله)

وقد عالج الإسلام الأوضاع التي كانت حاضرة في ذلك الزمان معالجة واقعية دون أن يحدث هزة اقتصادية واجتماعية: «فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ» ..

لقد جعل سريان نظامه منذ ابتداء تشريعه. فمن سمع موعظة ربه فانتهى فلا يسترد منه ما سلف أن أخذه من الربا وأمره فيه إلى الله، يحكم فيه بما يراه .. وهذا التعبير يوحي للقلب بأن النجاة من سالف هذا الإثم مرهونة بإرادة الله ورحمته فيظل يتوجس من الأمر حتى يقول لنفسه: كفاني هذا الرصيد من العمل السيئ، ولعل الله أن يعفيني من جرائمه إذا أنا انتهيت وتبت. فلا أضف إليه جديدا بعد! .. وهكذا يعالج القرآن مشاعر القلوب بهذا المنهج الفريد.

«وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» .. وهذا التهديد بحقيقة العذاب في الآخرة يقوي ملامح المنهج التربوي الذي أشرنا إليه، ويعمقه في القلوب ولكن لعل كثيرين يغريهم طول الأمد، وجهل الموعد، فيبعدون من حسابهم حساب الآخرة هذا! فها هو ذا القرآن ينذرهم كذلك بالحق في الدنيا والآخرة جميعا ويقرر أن الصدقات - لا الربا - هي التي تربو وتزكو ثم يصم الذين لا يستجيبون بالكفر والإثم. ويلوح لهم بكره الله للكفرة الآثمين: «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا، وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ» ..

وصدق وعيد الله ووعدته. فها نحن أولاء نرى أنه ما من مجتمع يتعامل بالربا ثم تبقى فيه بركة أو رخاء أو سعادة أو أمن أو طمأنينة .. إن الله يحق الربا فلا يفيض على المجتمع الذي يوجد فيه هذا الدنس إلا القحط والشقاء. وقد ترى العين - في ظاهر الأمر - رخاء وإنتاجا وموارد موفورة، ولكن البركة ليست بضخامة الموارد بقدر ما هي في الاستمتاع الطيب الآمن بهذه الموارد. وقد أشرنا من قبل إلى الشقوة النكدة التي ترين على قلوب الناس في الدول الغنية الغزيرة الموارد وإلى القلق النفسي الذي لا يدفعه الثراء بل يزيده. ومن هذه الدول يفيض القلق والذعر والاضطراب على العالم كله اليوم. حيث تعيش البشرية في تهديد دائم بالحرب المبيدة كما تصحو وتنام في هم الحرب الباردة! وتثقل الحياة على أعصاب الناس يوما بعد يوم - سواء شعروا بهذا أم لم يشعروا - ولا يبارك لهم في مال ولا في عمر ولا في صحة ولا في طمأنينة بال! وما من مجتمع قام على التكافل والتعاون - الممثلين في الصدقات المفروضة منها والمبروك للتطوع - وسادته روح المودة والحب والرضى والسماحة، والتطلع دائما إلى فضل الله وثوابه، والاطمئنان دائما إلى عونه وإخلافة للصدقة بأضعافها .. ما من مجتمع قام على هذا الأساس إلا بارك الله لأهله - أفرادا وجماعات - في ما لهم ورزقهم، وفي صحتهم وقوتهم وفي طمأنينة قلوبهم وراحة بالهم.

والذين لا يرون هذه الحقيقة في واقع البشرية، هم الذين لا يريدون أن يروا. لأن لهم هوى في عدم الرؤية! أو الذين رانت على أعينهم غشاوة الأضاليل المبثوثة عمدا وقصدا من أصحاب المصلحة في قيام النظام الربوي المقيت فضغطوا عن رؤية الحقيقة! «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ» ..

وهذا التعقيب هنا قاطع في اعتبار من يصرون على التعامل الربوي - بعد تحريمه - من الكفار الآثمين، الذين لا يحبهم الله. وما من شك أن الذين يحلون ما حرم الله ينطبق عليهم وصف الكفر والإثم، ولو قالوا بألسنتهم ألف مرة: لا إله إلا الله. محمد رسول الله.. فالإسلام ليس كلمة باللسان إنما هو نظام حياة ومنهج عمل وإنكار جزء منه كإنكار الكل.. وليس في حرمة الربا شبهة وليس في اعتباره حالاً وإقامة الحياة على أساسه إلا الكفر والإثم.. والعياذ بالله..

وفي الصفحة المقابلة لصفحة الكفر والإثم، والتهديد الساحق لأصحاب منهج الربا ونظامه، يعرض صفحة الإيمان والعمل الصالح، وخصائص الجماعة المؤمنة في هذا الجانب، وقاعدة الحياة المرتكزة إلى النظام الآخر - نظام الزكاة - المقابل لنظام الربا: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»..

والعنصر البارز في هذه الصفحة هو عنصر «الزكاة». عنصر البذل بلا عوض ولا رد. والسياق يعرض بهذا صفة المؤمنين وقاعدة المجتمع المؤمن. ثم يعرض صورة الأمن والطمأنينة والرضى الإلهي المسبغ على هذا المجتمع المؤمن.

إن الزكاة هي قاعدة المجتمع المتكافل المتضامن الذي لا يحتاج إلى ضمانات النظام الربوي في أي جانب من جوانب حياته.

وقد بهتت صورة «الزكاة» في حسنا وحس الأجيال التعيسة من الأمة الإسلامية التي لم تشهد نظام الإسلام مطبقاً في عالم الواقع ولم تشهد هذا النظام يقوم على أساس التصور الإيماني والتربية الإيمانية والأخلاق الإيمانية، فيصوغ النفس البشرية صياغة خاصة، ثم يقيم لها النظام الذي تنفس فيه تصوراتها الصحيحة وأخلاقها النظيفه وفضائلها العالية. ويجعل «الزكاة» قاعدة هذا النظام، في مقابل نظام الجاهلية الذي يقوم على القاعدة الربوية.

ويجعل الحياة تنمو والاقتصاد يرتقي عن طريق الجهد الفردي، أو التعاون البريء من الربا! بهتت هذه الصورة في حس هذه الأجيال التعيسة المنكودة الحظ التي لم تشهد تلك الصورة الرفيعة من صور الإنسانية. إنما ولدت وعاشت في غمرة النظام المادي، القائم على الأساس الربوي. وشهدت الكزازة والشح، والتكالب والتطاحن، والفردية الأثرة التي تحكم ضمائر الناس. فتجعل المال لا ينتقل إلى من يحتاجون إليه إلا في الصورة الربوية الخسيسة! وجعلت الناس يعيشون بلا ضمانات، ما لم يكن لهم رصيد من المال أو يكونوا قد اشتركوا بجزء من مالهم في مؤسسات التأمين الربوية! وجعلت التجارة والصناعة لا تجدد المال الذي تقوم به، ما لم تحصل عليه بالطريقة الربوية! فوقر في حس هذه الأجيال المنكودة الطالع أنه ليس هناك نظام إلا هذا النظام وأن الحياة لا تقوم إلا على هذا الأساس! بهتت صورة الزكاة حتى أصبحت هذه الأجيال تحسبها إحساناً فردياً هزياً، لا ينهض على أساسه نظام عصري! ولكن كم تكون ضخامة حصيلة الزكاة، وهي تتناول اثنين ونصفاً في المائة من أصل رؤوس

الأموال الأهلية مع ربحها^{٦٦٩}؟ يؤديها الناس الذين يصنعهم الإسلام صناعة خاصة، ويربيهم تربية خاصة، بالتوجيهات والتشريعات، وبنظام الحياة الخاص الذي يرتفع تصوره على ضمائر الذين لم يعيشوا فيه! وتحصلها الدولة المسلمة، حقاً مفروضاً، لا إحساناً فردياً. وتكفل بها كل من تقصر به وسائله الخاصة من الجماعة المسلمة حيث يشعر كل فرد أن حياته وحياة أولاده مكفولة في كل حالة وحيث يقضي عن الغارم المدين دينه سواء كان ديناً تجارياً أو غير تجاري، من حصيلة الزكاة.

وليس المهم هو شكلية النظام. إنما المهم هو روحه. فالجتمتع الذي يريه الإسلام بتوجيهاته وتشريعاته ونظامه، متناسق مع شكل النظام وإجراءاته، متكامل مع التشريعات والتوجيهات، ينبع التكافل من ضمائره ومن تنظيماته معاً متناسقة متكاملة. وهذه حقيقة قد لا يتصورها الذين نشأوا وعاشوا في ظل الأنظمة المادية الأخرى. ولكنها حقيقة نعرفها نحن - أهل الإسلام - ونتذوقها بذوقنا الإيمانى. فإذا كانوا هم محرومين من هذا الذوق لسوء طالعهم ونكد حظهم - وحظ البشرية التي صارت إليهم مقاليدها وقيادتها - فليكن هذا نصيبهم! وليحرموا من هذا الخير الذي يبشر الله به: «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ».. ليحرموا من الطمأنينة والرضى، فوق حرمانهم من الأجر والثواب. فإنما بجهالتهم وجاهليتهم وضلالهم وعنادهم يجرمون! إن الله - سبحانه - يعد الذين يقيمون حياتهم على الإيمان والصالح والعبادة والتعاون، أن يحتفظ لهم بأجرهم عنده. ويعدهم بالأمن فلا يخافون. وبالسعادة فلا يحزنون: «فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»..

في الوقت الذي يوعد أكلة الربا والمجتمتع الربوي بالحق والسحق، وبالتخبط والضلال، وبالقلق والخوف.

وشهدت البشرية ذلك واقعا في المجتمع المسلم وتشهد اليوم هذا واقعا كذلك في المجتمع الربوي! ولو كنا نملك أن نمسك بكل قلب غافل فنهزه هزا عنيفا حتى يستيقظ لهذه الحقيقة الماثلة ونمسك بكل عين مغمضة فنفتح جفنيها على هذا الواقع.. لو كنا نملك لفعلنا.. ولكننا لا نملك إلا أن نشير إلى هذه الحقيقة لعل الله أن يهدي البشرية المنكودة الطالع إليها.. والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن. والهدى هدى الله..

وفي ظل هذا الرخاء الآمن الذي يعد الله به الجماعة المسلمة، التي تنبذ الربا من حياتها، فتنبذ الكفر والإثم، وتقيم هذه الحياة على الإيمان والعمل الصالح والعبادة والزكاة.. في ظل هذا الرخاء الآمن يهتف بالذين آمنوا الهتاف الأخير ليحولوا حياتهم عن النظام الربوي الدنس المقيت وإلا فهي الحرب المعلنة من الله ورسوله، بلا هوادة ولا إمهال ولا تأخير: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ، وَذَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا

^{٦٦٩} - ترتفع هذه النسبة إلى ٥ وإلى ١٠ وإلى ٢٠ في الزروع والكنوز. (السيد رحمه الله)

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ» ..

إن النص يعلق إيمان الذين آمنوا على ترك ما بقي من الربا. فهم ليسوا بمؤمنين إلا أن يتقوا الله ويذروا ما بقي من الربا. ليسوا بمؤمنين ولو أعلنوا أنهم مؤمنون. فإنه لا إيمان بغير طاعة وانقياد واتباع لما أمر الله به.

والنص القرآني لا يدعهم في شبهة من الأمر. ولا يدع إنسانا يتستر وراء كلمة الإيمان، بينما هو لا يطيع ولا يرتضي ما شرع الله، ولا ينفذه في حياته، ولا يحكمه في معاملاته. فالذين يفرقون في الدين بين الاعتقاد والمعاملات ليسوا بمؤمنين. مهما ادعوا الإيمان وأعلنوا بلسانهم أو حتى بشعائر العبادة الأخرى أنهم مؤمنون!

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا .. إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» .. لقد ترك لهم ما سلف من الربا - لم يقرر استرداده منهم، ولا مصادرة أموالهم كلها أو جزء منها بسبب أن الربا كان داخلا فيها .. إذ لا تحريم بغير نص .. ولا حكم بغير تشريع .. والتشريع ينفذ وينشئ آثاره بعد صدوره .. فأما الذي سلف فأمره إلى الله لا إلى أحكام القانون. وبذلك تجنب الإسلام إحداث هزة اقتصادية واجتماعية ضخمة لو جعل لتشريع أثر رجعي. وهو المبدأ الذي أخذ به التشريع الحديث حديثا! ذلك أن التشريع الإسلامي موضوع لواجه حياة البشر الواقعية، ويسيرها، ويطهرها، ويطلقها تنمو وترتفع معا .. وفي الوقت ذاته علق اعتبارهم مؤمنين على قبولهم لهذا التشريع وإنفاذه في حياتهم منذ نزوله وعلمهم به.

واستحاش في قلوبهم - مع هذا - شعور التقوى لله. وهو الشعور الذي ينوط به الإسلام تنفيذ شرائعه، ويجعله الضمان الكامن في ذات الأنفس، فوق الضمانات المكفولة بالتشريع ذاته. فيكون له من ضمانات التنفيذ ما ليس للشرائع الوضعية التي لا تستند إلا للرقابة الخارجية! وما أيسر الاحتيال على الرقابة الخارجية، حين لا يقوم من الضمير حارس له من تقوى الله سلطان.

فهذه صفحة الترغيب .. وإلى حوارها صفحة التهيب .. التهيب الذي يزلزل القلوب: «إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» .. يا للهول! حرب من الله ورسوله .. حرب تواجهها النفس البشرية .. حرب رهيبية معروفة المصير، مقررة العاقبة .. فأين الإنسان الضعيف الفاني من تلك القوة الجبارة الساحقة الماحقة؟! ولقد أمر رسول الله - ﷺ - عامله على مكة بعد نزول هذه الآيات التي نزلت متأخرة أن يجارب آل المغيرة هناك إذا لم يكفوا عن التعامل الربوي. عَنْ جَابِرٍ، فِي حَدِيثِهِ عَنْ حِجَّةِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ لَمَّا زَاغَتِ الشَّمْسُ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ فِي حَجَّتِهِ ، أَمَرَ بِالْقَصَوَاءِ ، فَرَحَلَتْ لَهُ ، فَرَكَبَ حَتَّى أَتَى بَطْنَ الْوَادِي ، فَخَطَبَ النَّاسَ ، فَقَالَ: " إِنْ دِمَاءُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، أَلَا وَإِنْ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي

مَوْضُوعٌ ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ ، وَأَوَّلُ دِمٍّ أَضْعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ ، كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَيْتِ سَعْدٍ ، فَقَتَلَتْهُ هَذِيلٌ ، وَإِنَّ رَبَّ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ ، وَأَوَّلُ رَبٍّ أَضْعُ رَبِّ الْعَبَّاسِ ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ ، اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوهُ ، فَإِنْ فَعَلَنَ ذَلِكَ ، فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ: كِتَابَ اللَّهِ ، وَأَنْتُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي ، فَمَا أَنتُمْ قَائِلُونَ ؟ " قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ ، وَأَدَّيْتَ ، [ص: ٣٣] وَنَصَحْتَ ، فَقَالَ بِأَصْبَعِهِ السَّبَابَةَ وَرَفَعَهَا إِلَى السَّمَاءِ يَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: "اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ" ٦٧٠ ..

وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ الْأَخْوَصِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: "خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: أَلَا إِنَّ كُلَّ رَبٍّ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ عَنْكُمْ كُلُّهُ، لَكُمْ رُعُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ، وَأَوَّلُ رَبٍّ مَوْضُوعٌ رَبُّ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، مَوْضُوعٌ كُلُّهُ" ٦٧١ ..

ولم يأمرهم برد الزيادات التي سبق لهم أخذها في حال الجاهلية ٦٧٢ .

فالإمام مكلف - حين يقوم المجتمع الإسلامي - أن يحارب الذين يصرون على قاعدة النظام الربوي، ويعتون عن أمر الله، ولو أعلنوا أنهم مسلمون. كما حارب أبو بكر - رضي الله عنه - مانعي الزكاة، مع شهادتهم أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقامتهم للصلاة. فليس مسلما من يأبى طاعة شريعة الله، ولا ينفذها في واقع الحياة! على أن الإيذان بالحرب من الله ورسوله أعم من القتال بالسيف والمدفع من الإمام. فهذه الحرب معلنة - كما قال أصدق القائلين - على كل مجتمع يجعل الربا قاعدة نظامه الاقتصادي والاجتماعي. هذه الحرب معلنة في صورتها الشاملة الداهية الغامرة. وهي حرب على الأعصاب والقلوب. وحرب على البركة والرخاء. وحرب على السعادة والطمأنينة .. حرب يسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض. حرب المطاردة والمشاكسة.

حرب الغبن والظلم. حرب القلق والخوف .. وأخيرا حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول. الحرب الساحقة الماحقة التي تقوم وتنشأ من جراء النظام الربوي المقيت. فالمرابون أصحاب رؤوس الأموال العالمية هم الذين يوقدون هذه الحروب مباشرة أو عن طريق غير مباشر. وهم يلقون شباكههم فتقع فيها الشركات والصناعات. ثم تقع فيها الشعوب والحكومات. ثم يتزاحمون على الفرائس فتقوم الحرب! أو يزحفون وراء أموالهم بقوة حكوماتهم وجيوشها فتقوم الحرب! أو يثقل عبء الضرائب والتكاليف لسداد فوائد ديونهم، فيعم الفقر والسخط بين الكادحين والمنتجين، فيفتحون قلوبهم للدعوات الهدامة فتقوم الحرب! وأيسر ما يقع - إن لم يقع هذا كله - هو خراب النفوس، وانهيار الأخلاق، وانطلاق

٦٧٠ - شرح مشكل الآثار [٣٢/ ١] (٤١) صحيح

٦٧١ - تفسير ابن أبي حاتم [٣٥٣/ ٢] (٢٩٧٢) صحيح

٦٧٢ - تفسير ابن كثير - دار طيبة [٧٠٩/ ١]

سعار الشهوات، وتحطم الكيان البشري من أساسه، وتدميره بما لا تبلغه أفضع الحروب الذرية الرعبية! إنما الحرب المشبوبة دائما. وقد أعلنها الله على المتعاملين بالربا .. وهي مسعرة الآن تأكل الأخضر واليابس في حياة البشرية الضالة وهي غافلة تحسب أنها تكسب وتتقدم كلما رأت تلال الإنتاج المادي الذي تخرجه المصانع .. وكانت هذه التلال حرة بأن تسعد البشر لو أنها نشأت من منبت زكي طاهر ولكنها - وهي تخرج من منبع الربا الملوث - لا تمثل سوى ركام يخنق أنفاس البشرية، ويسحقها سحقا في حين تجلس فوقه شرذمة المرابين العالميين، لا تحس آلام البشرية المسحوقة تحت هذا الركام الملعون! لقد دعا الإسلام الجماعة المسلمة الأولى، ولا يزال يدعو البشرية كلها إلى المشرع الطاهر النظيف، وإلى التوبة من الإثم والخطيئة والمنهج الوبيء: «وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوَالِكُمْ. لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ» .. فهي التوبة عن خطيئة. إنما خطيئة الجاهلية التي لا تتعلق بزمان دون زمان، ولا نظام دون نظام ..

إنما هي الانحراف عن شريعة الله ومنهجه متى كان وحيث كان .. خطيئة تنشئ آثارها في مشاعر الأفراد وفي أخلاقهم وفي تصورهم للحياة. وتنشئ آثارها في حياة الجماعة وارتباطاتها العامة. وتنشئ آثارها في الحياة البشرية كلها، وفي نموها الاقتصادي ذاته. ولو حسب المخدوعون بدعاية المرابين، أنها وحدها الأساس الصالح للنمو الاقتصادي! واسترداد رأس المال مجردا، عدالة لا يظلم فيها دائن ولا مدين .. فأما تنمية المال فلها وسائلها الأخرى البريئة النظيفة. لها وسيلة الجهد الفردي. ووسيلة المشاركة على طريقة المضاربة وهي إعطاء المال لمن يعمل فيه، ومقاسمته الربح والخسارة. ووسيلة الشركات التي تطرح أسهمها مباشرة في السوق - بدون سندات تأسيس تستأثر بمعظم الربح - وتناول الأرباح الحلال من هذا الوجه. ووسيلة إيداعها في المصارف بدون فائدة - على أن تساهم بها المصارف في الشركات والصناعات والأعمال التجارية مباشرة أو غير مباشرة - ولا تعطيها بالفائدة الثابتة - ثم مقاسمة المودعين الربح على نظام معين أو الخسارة إذا فرض ووقعت .. وللمصارف أن تتناول قدرا معينا من الأجر في نظير إدارتها لهذه الأموال .. ووسائل أخرى كثيرة ليس هنا مجال تفصيلها .. وهي ممكنة وميسرة حين تؤمن القلوب، وتصح النيات على ورود المورد النظيف الطاهر، وتجنب المورد العفن النتن الآسن!^{٦٧٣}

ويكمل السياق الأحكام المتعلقة بالدين في حالة الإعسار .. فليس السبيل هو ربا النسيئة: بالتأجيل مقابل الزيادة .. ولكنه هو الإنظار إلى ميسرة. والتحبيب في التصديق به لمن يريد مزيدا من الخير أوفى وأعلى: «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ. وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ .. إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» ..

^{٦٧٣} - تراجع بحوث الأستاذ المودودي التي سبقت الإشارة إليها .. (السيد رحمه الله)

إنها السماح الندية التي يحملها الإسلام للبشرية. إنه الظل الظليل الذي تأوي إليه البشرية المتعبة في هجير الأثرة والشح والطمع والتكالب والسعار. إنها الرحمة للدائن والمدين وللمجتمع الذي يظل الجميع! ونحن نعرف أن هذه الكلمات لا تؤدي مفهوما «معقولا» في عقول المناكيد الناشئين في هجير الجاهلية المادية الحاضرة! وأن مذاقها الحلو لا طعم له في حسهم المتحجر البليد! - وبخاصة وحوش المرايين سواء كانوا أفرادا قابعين في زوايا الأرض يتلمظون للفرائس من المحاويج والمنكوبين الذين تحل بهم المصائب فيحتاجون للمال للطعام والكساء والدواء أو لدفن موتاهم في بعض الأحيان، فلا يجدون في هذا العالم المادي الكز الضنين الشحيح من يمد لهم يد المعونة البيضاء فيلجأون مرغمين إلى أوكار الوحوش. فرائس سهلة تسعى إلى الفخاخ بأقدامها. تدفعها الحاجة وتزجيها الضرورة! سواء كانوا أفرادا هكذا أو كانوا في صورة بيوت مالية ومصارف ربوية. فكلهم سواء. غير أن هؤلاء يجلسون في المكاتب الفخمة على المقاعد المريحة ووراءهم ركام من النظريات الاقتصادية، والمؤلفات العلمية، والأساتذة والمعاهد والجامعات، والتشريعات والقوانين، والشرطة والمحاكم والجيوش .. كلها قائمة لتبرير جريمتهم وحمايتهم، وأخذ من يجروء على التلکؤ في رد الفائدة الربوية إلى خزائنها باسم القانون !!..

نحن نعرف أن هذه الكلمات لا تصل إلى تلك القلوب .. ولكننا نعرف أنها الحق. ونثق أن سعادة البشرية مرهونة بالاستماع إليها والأخذ بها: «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ. وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ». إن المعسر - في الإسلام - لا يطارد من صاحب الدين، أو من القانون والمحاكم. إنما ينظر حتى يوسر ..

ثم إن المجتمع المسلم لا يترك هذا المعسر وعليه دين. فالله يدعو صاحب الدين أن يتصدق بدينه - إن تطوع بهذا الخير. وهو خير لنفسه كما هو خير للمدين. وهو خير للجماعة كلها ولحياتها المتكافلة. لو كان يعلم ما يعلمه الله من سريرة هذا الأمر! ذلك أن إبطال الربا يفقد شطرا كبيرا من حكمته إذا كان الدائن سيروح يضايق المدين، ويضيق عليه الخناق. وهو معسر لا يملك السداد. فهنا كان الأمر - في صورة شرط وجواب - بالانتظار حتى يوسر ويقدر على الوفاء. وكان بجانبه التحبيب في التصديق بالدين كله أو بعضه عند الإعسار. على أن النصوص الأخرى تجعل لهذا المدين المعسر حظا من مصارف الزكاة، ليؤدي دينه، ويسر حياته: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ... وَالْغَارِمِينَ...» وهم أصحاب الديون. الذين لم ينفقوا ديونهم على شهواتهم وعلى لذائذهم. إنما أنفقوها في الطيب النظيف. ثم قعدت بهم الظروف! ^{٦٧٤}

^{٦٧٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٥٨٢)

٤. انتشار الربا والزنا:

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكَلَهُ، وَشَاهِدِيهِ، وَكَاتِبَهُ"^{٦٧٥}
قَالَ: وَقَالَ: "مَا ظَهَرَ فِي قَوْمِ الرِّبَا وَالزَّوْنَا، إِلَّا أَحْلَوْا بِأَنْفُسِهِمْ عِقَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"^{٦٧٥}
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُشْتَرَى الثَّمَرَةُ حَتَّى تُطْعِمَ، وَقَالَ: إِذَا ظَهَرَ الزَّوْنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ، فَقَدْ أَحْلَوْا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ"^{٦٧٦}
وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَا مِنْ قَوْمٍ يَظْهَرُ فِيهِمُ الرِّبَا، إِلَّا أُحْذُوا بِالسَّنَةِ، وَمَا مِنْ قَوْمٍ يَظْهَرُ فِيهِمُ الرِّشَاءُ، إِلَّا أُحْذُوا بِالرُّعْبِ"^{٦٧٧}.
(فِيهِمُ بِالزَّوْنَا إِلَّا أُحْذُوا بِالسَّنَةِ) بَفَتْحَتَيْنِ فِي النَّهْيَةِ: هِيَ الْجَذْبُ يُقَالُ: أَخَذْتَهُمُ السَّنَةَ إِذَا أُجْدِبُوا وَأُقْحَطُوا وَهِيَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْعَالِيَةِ نَحْوُ الدَّابَّةِ فِي الْفَرَسِ وَالْمَالِ وَالْإِبِلِ، قَالَ الطَّبِيُّ: وَلَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي اسْتِجْلَابِ الزَّوْنَا الْقَحْطَ أَنَّ الزَّوْنَا يُؤَدِّي إِلَى إِبْطَالِ النَّسْلِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (وَمَا مِنْ قَوْمٍ يَظْهَرُ فِيهِمُ الرِّشَاءُ) بَضَمُّ الرَّاءِ وَيُكْسَرُ جَمْعُ الرِّشْوَةِ وَفِي الْقَامُوسِ: الرِّشْوَةُ مُثَلَّثَةُ الْجَعْلَةِ، وَفِي النَّهْيَةِ: هِيَ الْوَصْلَةُ إِلَى الْحَاجَةِ بِالْمُصَانَعَةِ، وَالرَّاشِي مَنْ يُعْطَى الَّذِي يُعِينُهُ عَلَى الْبَاطِلِ، وَالْمُرْتَشِي الْآخِذُ، وَالرَّائِشُ الَّذِي يَسْعَى بَيْنَهُمَا يَسْتَزِيدُ لِهَذَا وَيَسْتَنْقِصُ لِهَذَا. اهـ وَهِيَ مَأْخُودَةٌ مِنَ الرِّشَاءِ وَهُوَ حَبْلُ الدَّلْوِ إِذَا يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْبُعْيَةِ كَمَا يُتَوَصَّلُ بِالرِّشَاءِ إِلَى الْمَالِ (إِلَّا أُحْذُوا بِالرُّعْبِ) بَضَمُّ فَسُكُونٍ وَبَضَمَتَيْنِ أَيِ الْخَوْفِ فَإِنَّ الْحَاكِمَ إِنَّمَا يُنْفِذُ حُكْمَهُ وَيُمْضِي أَمْرَهُ فِي الْوَضِيعِ وَالشَّرِيفِ إِذَا تَنَزَّهَ عَنِ الرِّشْوَةِ فَإِذَا تَلَطَّحَ بِهَا خَوْفٌ وَرُعْبٌ^{٦٧٨}

٥. الركون إلى الدنيا:

قال تعالى في سورة التوبة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ

^{٦٧٥} - مسند أحمد ط الرسالة (٦/ ٣٥٨) (٣٨٠٩) صحيح لغيره

^{٦٧٦} - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٤٣) (٢٢٦١) صحيح لغيره

^{٦٧٧} - مسند أحمد ط الرسالة (٢٩/ ٣٥٦) (١٧٨٢٢) ضعيف

^{٦٧٨} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٥١)

إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ
اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) { [التوبة: ٣٨ - ٤٠]

يُعَاتِبُ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ تَخَلَّفَ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ فِي غَزْوَةٍ تَبُوكَ، حِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ
وَالظَّلَالُ، وَكَانَ الْوَقْتُ حَارًّا قَانِظًا، فيَقُولُ تَعَالَى لَهُمْ: مَا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى الْجِهَادِ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ تَكَاسَلْتُمْ وَتَبَاطَأْتُمْ، وَمِلْتُمْ إِلَى الدَّعَةِ وَالْإِقَامَةِ فِي الظِّلِّ وَطِيبِ الثَّمَارِ؟ أَفَعَلْتُمْ ذَلِكَ رِضًا مِنْكُمْ
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا بَدَلًا مِنَ الْآخِرَةِ؟ وَمَا قِيَمَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا مَتَاعُهَا إِلَّا قَلِيلٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ، إِذْ
يَنْتَظِرُونَ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ، وَجَنَاتٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

وَإِذَا لَمْ تَنْفَرُوا مَعَ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَمْ تَخْرُجُوا مَعَهُ إِلَى الْجِهَادِ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا فِي
الدُّنْيَا، بِزَوَالِ النِّعْمَةِ وَغَيْرِهَا عَنْكُمْ، وَفِي الْآخِرَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَا يَصْعَبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْتَبْدِلَ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ بِكُمْ، يَخْشَوْنَ لِنَصْرَةِ نَبِيِّهِ، وَيُجَاهِدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يَضُرُّ اللَّهَ، لِأَنَّهُ الْغَنِيُّ عَنِ الْعِبَادِ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ .

يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا لَمْ تَنْصُرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ وَكَافِيهِ، كَمَا تَوَلَّى نَصْرَهُ حِينَ
أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَكَّةَ حِينَ هَاجَرَ، فَخَرَجَ مِنْهَا هَارِبًا بِصُحْبَةِ صَدِيقِهِ وَصَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ، فَلَجَأَ
إِلَى غَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي آثَارِهِمَا حَتَّى وَقَفُوا بِيَابِ الْغَارِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ
جَزَعًا: لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ لَرَأَانَا. فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ: مَا ظَنُّكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ تَالِثُهُمَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ
طُمَأْنِينَتَهُ وَتَأْيِيدَهُ وَنَصْرَهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَأَيَّدَهُ بِالْمَلَائِكَةِ تَحْفَظُهُ وَتَحْمِيهِ (بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا)، وَجَعَلَ كَلِمَةَ
الشَّرِّكَ وَأَهْلَهُ السُّفْلَى، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) هِيَ الْعُلْيَا، وَاللَّهُ عَزِيزٌ فِي انتِقَامِهِ
وَإِنْتِصَارِهِ، وَهُوَ مَنِيعُ الْجَانِبِ لَا يُضَامُ، وَهُوَ حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَتَدْبِيرِهِ .. ٦٧٩

جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ تَسْتَحِثُّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَتَنْكَرُ عَلَى الْمُرْتَدِّينَ وَالْمُتَلَبِّثِينَ تَرَدُّدَهُمْ
وَتَلَبُّثَهُمْ فِي الِاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ اللَّهِ، وَالتَّنَفُّرِ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، فِي غَيْرِ تَرَاخٍ أَوْ فَتُورٍ، كَمَا يَقُولُ اللَّهُ
سُبْحَانَهُ:

«انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ»
الِاسْتِفْهَامُ هُنَا إِنكَارِي، إِذْ يَنْكَرُ عَلَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ، وَلَبَسَ لِبَاسَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، أَلَّا يَكُونَ فِي الْمُجَاهِدِينَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ..

وَالْتَّنَفُّرُ إِلَى الْحَرْبِ: السَّعْيُ إِلَيْهَا فِي جَدِّ وَعَزْمٍ وَمُضَاءٍ ..

٦٧٩ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٧٤، بترقيم الشاملة آليا)

وأصل المادّة من النفور، وهو الصدّ عن الشيء، ومنه قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا» (٦٠: الفرقان)

وعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى: «انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا، أَي فَرُّوا خِفَافًا وَثِقَالًا.. ولكن الفرار من أين؟ وإلى أين؟

الفرار من حبّ الحياة، والتعلق بما للإنسان فيها من هوى إلى المال والأهل والولد.. ثم اللجأ إلى الله، وإلى الجهاد في سبيل الله!! وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» (٥٠: الذاريات) .

فالدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، الذي تحمله كلمة «الفرار» هي دعوة إلى أمرين معا:
الأول: الانخلاع من سلطان الدنيا، المستولى على النفوس، وذلك لا يكون إلا بمغالبة أهواء النفس، والوقوف منها موقف العدو الذي يترصد للإنسان على طريق الخير، ليحول بينه وبين الوصول إليه، فيفرّ المؤمن من دواعي الحياة الدنيا، فراره من العدو، الذي إن تلبّث أو فتر في الفرار منه، هلك!!
والثاني: التماس السبيل التي تخلص الإنسان من الوقوع ليد هذا العدو، الذي يحول بينه وبين الخير المدعو إليه من قبل ربّه، وهو الجهاد في سبيل الله.. وذلك لا يكون إلا بالفرار من وجه هذا العدو، واتخاذ وجهة أخرى غير الوجهة القائمة على سمته.. وتلك هي وجهة الجهاد في سبيل الله.

وفي قوله تعالى: «أَنَّا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ» كناية عما يستولى على الإنسان من مشاعر التحير والانهزام، حين يواجه امتحانا عسيرا، لم يكن مهيا له من قبل ولم يكن على نية صادقة، وعزيمة مجتمعة لخوض غماره..
وأصل «أَنَّا قُلْتُمْ» تناقلتم، فأدغمت التاء في التاء، لتقارب مخرجيهما، ثم جىء بهمزة الوصل، حتى لا يبدأ بحرف ساكن، الأمر الذي لا تستسغيه العربية.. و «التثاقل»: التباطؤ، والتحريك في ثقل.. لأن شأن كل ثقل أن يكون بطيء الحركة..

وفي التعبير بلفظ «التثاقل» الذي يدلّ على التصنع والادعاء، مثل «تباكى» أي ادعى البكاء، وتغافل أي ادعى الغفلة - في هذا ما يشير إلى أن هذا التثاقل من المثاقيل، لا يستند إلى أسباب حقيقية تقوم في نفس المؤمن بالله، وإنما هي تعلّات تقع في بعض النفوس التي دخل على إيمانها شيء من الضعف والوهن.. فتتلمس المعاذير، وتصطاد الذرائع التي تثقل خطوها عن اللحاق بركب المجاهدين. وفي تعديّة الفعل «أَنَّا قُلْتُمْ» بحرف الجر «إلى» بدلا من حرف الجرّ «على» أو «في» إذ يقال تناقل على الأرض، أو تناقل في الأرض - في هذه التعديّة يالئ كما جاء عليه النظم القرآني، ما يحقق أمرين:

أولهما: إشارة إلى أن هؤلاء المثاقيل إنما ينحدرون انحدارا إلى الأرض، ويهوون هويّا من عل إليها.. وذلك لأنهم وهم المؤمنون بالله، هم بهذا الإيمان في مستوى عال في هذه الحياة التي يحيهاها الناس.. وأنهم وهذا شأنهم، ينبغي أن تكون وجهتهم دائما إلى السماء، وأن يكون متعلّقهم بها، وآمالهم فيها..

وأن تلفتكم إلى الأرض، وانحذارهم إليها، هو رجعة إلى الوراء، ونكوص على الأعقاب..
وثاني الأمرين: أن الثقل إلى الأرض يفيد الاختلاط بها، والامتزاج بترابها.. وأن هذا الإنسان المؤمن الذي كان يخلق بإيمانه فوق هذا العالم الترابي، قد أصبح بهذا الثقل في عداد هذه الكائنات التي تدب على الأرض، من هوامّ وحشرات! ومن هذه الصورة التي ترسم للمؤمن من كلمة «أثاقلتم إلى الأرض» ما يريه المصير الذي هو صائر إليه، إن هو أمسك بنفسه مع هؤلاء المتثقلين على الأرض، حين يدعو داعي الحق: أن حى على الجهاد في سبيل الله..

وفي قوله تعالى: «أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ» إنكار على هؤلاء الذين يفاضلون بين الحياة الدنيا والآخرة، بل ويفضلون الحياة الدنيا على الآخرة، بعد أن رأوا بأعينهم ما انكشف لهم من قوله تعالى: «أثاقلتم إلى الأرض»..

فذلك غبن فاحش لا يرضاه عاقل لنفسه، ولا يصبر عليه لحظة، إن هو وقع فيه.
ثم يحىء قوله تعالى: «فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» حقيقة كاشفة مقررّة، يجدها بين يديه من لم ينكشف لبصره أو لبصيرته ما حملت من كلمات الله إليه من عرض هذا الوضع السيء الذي هو فيه من تناقل إلى الأرض، ومن إثارة الحياة الدنيا على الآخرة، وما على هذه الأرض على ما في السماء! يحىء بعد هذا قوله تعالى: «إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» - يحىء حاملا مقارع من حديد، يوقظ بها هؤلاء النيام الذين لا توقظهم العبرة ولا الموعظة الحسنة..

إنهم إن لم ينتزعوا أنفسهم من هذه الأرض التي لصقوا بها، وإن لم يخفوا إلى القتال مسرعين، أخذهم الله بعذابه، وأنزلهم منازل الهوان والنقمة، وأقام مقامهم قوما آخرين، يجاهدون في سبيل الله، ويأخذون هذا المقام الكريم الذي كان مهياً لهم من قبل، فتخلوا عنهم مختارين، حين تناقلوا عن الجهاد، واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة.. وإنهم بهذا قد أوقعوا الضرر بأنفسهم، وأخذوا الطريق المؤدى بهم إلى الهلاك، ولن يضرروا الله شيئا.. فإن الله - سبحانه - غنى عن العالمين.. وإن له - سبحانه - أولياء كثيرين، ينصرون دينه، ويجاهدون في سبيله: «وإن تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ» (٣٨: محمد) .

فتلك هى سنة الله فى عباده «لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» فهناك منحرفون ضالون يتحولون إلى طريق الحق والإيمان.. وهناك مستقيمون مؤمنون ينحرفون إلى طريق الغواية والضلال.. وذلك ليضل الناس فى حركة، وعمل.. فمن كان على طريق الحق والتقوى، كان عليه - لكى يحتفظ بمكانه على هذا الطريق - أن يجرس نفسه من أهوائها ونزعاتها ووساوس الشيطان لها.. ومن كان على شعاب الظلام والضلال، كان له - إذا شاء - أن يتحول إلى طريق النور والهدى.. «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».. ومن مظاهر قدرته، هذه الغير التي تقع بالناس، فتقلهم من حال إلى حال، ومن أسفل إلى أعلا، ومن أعلا إلى أسفل.. فليحذر الإنسان - وخاصة إذا كان على الإيمان - أن يأخذ اتجاهها

منحرفا عما يدعوه إليه الإيمان.. فإن ذلك من شأنه أن يعرضه للخروج من الإيمان آخر الأمر، وليذكر دائما قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» .

قوله تعالى: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» .

في هذه الآية الكريمة أمور:

أولا: صلتها بالآيات التي قبلها.. حيث تبدو الصلة غير واضحة في ظاهر الأمر بين هذه الآية، وما جاءت به الآيات قبلها من مقررات وأحكام..

والذي يعن النظر في الآية الكريمة يرى أنها تطبيق مؤسس على مقررات الآيات السابقة، حيث جاء في قوله تعالى: «إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .. فقد قررت هذه الآية فيما قررت، أن الله إذا أراد نفاذ أمر فلن تقف دونه قوة في هذا الوجود، وأنه - سبحانه - قد أراد إعزاز دينه، وإظهاره على الدين كله، وأن المجاهدين الذين يجاهدون في سبيل الله ما هم إلا أدوات عاملة في مجال تلك الإرادة التي أَرادها الله، ليكتب لهم عند الله الأجر العظيم، والمثوبة والرضوان، وأن إرادة نافذة على أي حال..

وفي قوله تعالى: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ» شاهد قائم، رآه المسلمون رأى العين.. وهو أن الله قد نصر النبي الكريم، وخَلَّصه من يد المشركين الذين كانوا له بمرصد، على كل نية، وعلى كل طريق... ولم يكن مع النبي الكريم قوة ظاهرة، لم يكن إلا هو وصاحبه أبو بكر.. وكانا أعزَلين من كل سلاح، إلا سلاح الإيمان الذي يملأ قلوبهما، مجردين من كل قوة، إلا قوة الحق الذي في يديهما، محرومين من كل نصير، إلا عون الله لهما، وحراسته القائمة عليهما.

ثانيا: لم يذكر النبي الكريم ذكرا صريحا، وإنما جاءت الإشارة إليه مضمرة في ضمير الغائب.. هكذا «إِلَّا تَنْصُرُوهُ» ..

وفي هذا إشارة مضيئة تشير إلى النبي الكريم، وتحيطه بهالة من نور رباني، بحيث تشخص الأبصار كلها إلى هذا النور العلوي الذي يفاض على النبي، ويحفظ به.. فليس هناك من تخلّى عنه الأنصار والأعوان - في هذا الموقف بالذات - غير النبي، وليس هناك أيضا من أحاطت به العناية الربانية، وحفّت به أمداد العون والنصر الإلهي - في هذا الوطن بالذات أيضا - غير النبي.. فكانت الإشارة إليه - في هذا الموقف بالذات - مغنية عن كل ذكر، وكانت الإمامة إليه أبلغ من كل تصريح..

ثالثا: لم يذكر اسم صاحب الذي صحب النبي في هذه الحال، بل جاء على النسق الذي جاء عليه ذكر النبي.. «إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» ..

وفي هذا تشريف لمقام أبي بكر - رضوان الله عليه - وتمجيد لتلك الصحبة المباركة، التي جعلت منه صاحب نبيٍّ، ورفيق رسول، يأخذ بنصيب طيب من رعاية الله لنبيه، ويستظل بما استظل به النبي من نصر الله وتأيده.

وأبو بكر في هذا المقام هو القوة المادية الظاهرة، من الإنسانية كلها، التي كانت تسند النبي، وتشد أزره، وتؤنس وحدته، وتقتسم الضراء - بل قل السراء - معه! فقد كان النبي ﷺ - في هذا الموقف - جبهة يحاربها الشرك كله، ويكيد لها المشركون كلهم.. وكان أبو بكر رضوان الله عليه، هو وحده كلمة الحق، والإيمان، التي أراد الله سبحانه وتعالى لها هذا المقام الكريم، إلى جانب النبي الكريم..

وإنه بحسب أبي بكر - رضوان الله عليه - من التكريم والتشريف أن يكون اليد الأخرى المباركة التي تحمل مع النبي الكريم رسالة السماء، ودعوة الحق، إلى حيث أراد الله لها أن تطلع بنورها، وتمنح الناس ما فيها من هدى ورحمة، وأمن وسلام..

ثالثاً: في قوله تعالى: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» .

عاد الحديث عن النبي وحده، بضمير المفرد «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا»... كما بدأ الحديث عنه وحده: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ» .

وعدم ذكر أبي بكر في هذين المقامين - البدء والختام - لا ينقص من قدر أبي بكر، ولا يزرححه عن مقامه الكريم، الذي رفعه الله سبحانه وتعالى إليه بقوله: «إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا».. إذ لا شك أن الموقف هو موقف الرسول، وأن الرسالة هو صاحبها، والمدعو إليها من ربه، وإنه ليكفي أبا بكر شرفاً أن ينفرد بهذا المقام الكريم، فيكون للنبي رداءً وعضداً، في وقت كان النبي الكريم يواجه فيه وحده المشركين جميعاً..

والسكينة، هي الطمأنينة التي تحلّ بالقلب، فيجد الإنسان المكروب ريح الأمن، وبرد السلامة والعافية.. وهي مأخوذة من السكون، أو السكن، بمعنى القرار.. «وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا».. هي قوى من قوى الحق، أمده الله بها، فكانت عيناً تحرسه، ويذا تردّ من يريد السوء به..

وفي التعبير عن حلول السكينة قلب النبي بإنزالها عليه، إشارة إلى أنها منزلة من السماء، وأنها من قوى الحق التي أمده الله نبيه بها، وليست من القوى التي يملكها الناس، ويستندون إليها..

«وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى» أي أن الله أبطل كيدهم، وأفسد تدبيرهم.. والمراد بالكلمة هنا، الحال والشأن والأمر.. بمعنى أن المشركين وقد فوت الله عليهم ما أرادوا بالنبي من سوء، وأبطل ما دبّروا من كيد، وما بيّتوا له من عدوان.. فإن ذلك يحدث عن ضعفهم وهوانهم، أمام تلك القوة القادرة القاهرة.. وإذا كانت الكلمة تعبيراً عن إرادة المتكلم بها، وتصويراً لمشيئته التي يريد إمضاءها، فإن إنفاذ هذه الإرادة، وإمضاء تلك المشيئة، إنما يكون بحسب ما عند المتكلم من رصيد من القوى التي يحشدّها

وراء كلمته، ليقيم لها مكانا في عالم الواقع المحقق.. وإنه حين تبطل الكلمة، ولا تجد لها مكانا في الواقع المحقق، يكون ذلك دليلا قائما على ضعف صاحبها، وسقوط همته.. وأن كلماته التي ينطق بها ليست إلا أصواتا ضائعة في الهواء!.

وفي التعبير عن كلمة الله بالعلو، إشارة إلى أن كلمات الله سبحانه، هي في المكان المتمكن، الذي تستولى به على كل شيء، بحيث لا تقف لها قوة، ولا يحول دونها حائل..

وفي وضع ضمير الفصل «هي» بين المبتدأ والخبر في قوله سبحانه: «وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا» إشارة أخرى إلى كلمة الله، وإلى تحقيقها، وإفرادها بهذه المترلة دون غيرها من الكلام البشري على أي مستوى.. فهي وحدها هي العليا، المتفردة بهذا المقام المتمكن من العلو.. ولهذا جاء بعدها الوصف المناسب لله سبحانه وتعالى، صاحب هذه الكلمة: «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».. فهو العزيز الذي لا عزة لأحد مع عزته، وهو الحكيم الذي - مع ماله من عزة مطلقة، ومن سلطان لا ينازع - يضع الأمور مواضعها القائمة على ميزان الحكمة والعدل والإحسان..

أما هؤلاء المشركون، الذين يستشعرون العزة والقوة من أنفسهم على غيرهم من الضعفاء، فإن عزتهم عزة غاشمة جهولة، وقوتهم قوة عمياء حمقاء، تضرب بغير حساب، ولا تقدير! والغار الذي تشير إليه الآية الكريمة، هو غار ثور، في أعلى جبل يقال له جبل ثور، على مسيرة ساعة من مكة، على يمين المتجه إلى المدينة.^{٦٨٠}

اعلم أن كثيرا من هذه السورة الكريمة، نزلت في غزوة تبوك، إذ ندب النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم، وكان الوقت حارا، والزاد قليلا والمعيشة عسرة، فحصل من بعض المسلمين من الثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم، فقال تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} ألا تعملون بمقتضى الإيمان، وداعي اليقين من المبادرة لأمر الله، والمصارعة إلى رضاه، وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم، ف {مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ} أي: تكاسلتم، وملتم إلى الأرض والدعة والسكون فيها.

{أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ} أي: ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا وسعى لها ولم يبال بالآخرة، فكأنه ما آمن بها.

{فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} التي مالت بكم، وقدمتموها على الآخرة {إِلَّا قَلِيلٌ} أفليس قد جعل الله لكم عقولا تزنون بها الأمور، وأيتها أحق بالإيثار؟.

^{٦٨٠} - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧٦٩)

أفليست الدنيا -من أولها إلى آخرها- لا نسبة لها في الآخرة. فما مقدار عمر الإنسان القصير جدا من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار، المشحونة بالأخطار.

فبأي رأيٍ رأيتم إثارتها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون، فوالله ما أثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيهِ، ولا من عُددٍ من أولي الأبواب، ثم توعدهم على عدم النفيِر فقال:

{إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفيِر في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيها من المضار الشديدة، فإن المتخلف، قد عصى الله تعالى وارتكب لنهيهِ، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعهِ، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما فتَّ في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعده الله بالوعيد الشديد، فقال: {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} ثم لا يكونوا أمثالكم {وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا} فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر الله، أو ألقيتموه، وراءكم ظهرها.

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} لا يعجزه شيء أرادهِ، ولا يغالبه أحد.

إلا تنصروا رسوله محمدا ﷺ، فالله غني عنكم، لا تضرونه شيئا، فقد نصره في أقل ما يكون وأذلة {إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} من مكة لما هموا بقتله، وسعوا في ذلك، وحرصوا أشد الحرص، فألجؤوه إلى أن يخرج.

{ثَانِي اثْنَيْنِ} أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. {إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ} أي: لما هربا من مكة، لجأ إلى غار ثور في أسفل مكة، فمكثا فيه ليرد عنهما الطلب.

فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر على البال.

{إِذْ يَقُولُ} النبي ﷺ {لِصَاحِبِهِ} أبي بكر لما حزن واشتد قلقه، [ص: ٣٣٨] {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} بعونه ونصره وتأيدهِ. {فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ} أي: الثبات والطمأنينة، والسكون المثبتة للفؤاد، ولهذا لما قلق صاحبه سكنه وقال {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}

{وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا} وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله حرسا له، {وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى} أي: الساقطة المخذولة، فإن الذين كفروا قد كانوا على حرد قادرين، في ظنهم على قتل الرسول ﷺ، وأخذهِ، حنقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئا منه.

ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع، فإن النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا، وقصدوا، ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم.

والثاني نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه، أن يرد عنه عدوه، ويدفع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع.

وقوله {وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا} أي كلماته القدريّة وكلماته الدينيّة، هي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} {وَإِنَّا جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة والسلطان الناصر.

{وَاللَّهُ عَزِيزٌ} لا يغالبه مغالب، ولا يفوته هارب، {حَكِيمٌ} يضع الأشياء مواضعها، وقد يؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر، اقتضته الحكمة الإلهية.

وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة، والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ، كافرا، لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها.

وفيهما فضيلة السكينة، وأما من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفئدة، وأما تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

وفيهما: أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضاعف للقلب، موهن للعزيمة.^{٦٨١}

إنها ثقل الأرض، ومطامع الأرض، وتصورات الأرض.. ثقله الخوف على الحياة، والخوف على المال، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع.. ثقله الدعة والراحة والاستقرار.. ثقله الذات الفانيّة والأجل المحدود والهدف القريب.. ثقله اللحم والدم والتراب.. والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس ألفاظه: «أناقلتم»^{٦٨٢}. وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل! ويلقيها بمعنى ألفاظه: «أناقلتم إلى الأرض».. وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق.

إن النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض، وارتفاع على ثقله اللحم والدم وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان، وتغليب لعنصر الشوق المخرج في كيانه على عنصر القيد والضرورة وتطلع إلى

^{٦٨١} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٣٧)

^{٦٨٢} - هذه قراءة حفص وهي أبلغ تصويرا من القراءات التي ورد فيها: «تناقلتم».. (السيد رحمه الله)

الخلود الممتد، وخلاص من الفناء المحدود: «أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ».

وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله، إلا وفي هذه العقيدة دخل، وفي إيمان صاحبها بها وهن. لذلك يقول الرسول - ﷺ - «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق». فالنفاق - وهو دخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال - هو الذي يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد في سبيل الله خشية الموت أو الفقر، والآجال بيد الله، والرزق من عند الله. وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.

ومن ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد: «إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ، وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ..

والخطاب لقوم معينين في موقف معين. ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله. والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده، فهو كذلك عذاب الدنيا. عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح، والغلبة عليهم للأعداء، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء. وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء ..

«وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ» .. يقومون على العقيدة، ويؤدون ثمن العزة، ويستعلون على أعداء الله: «وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا» .. ولا يقام لكم وزن، ولا تقدمون أو تؤخرون في الحساب! «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .. لا يعجزه أن يذهب بكم، ويستبدل قوما غيركم، ويغفلكم من التقدير والحساب! إن الاستعلاء على ثقل الأرض وعلى ضعف النفس، إثبات للوجود الإنساني الكريم. فهو حياة بالمعنى العلوي للحياة: وإن التثاقل إلى الأرض والاستسلام للخوف لإعدام للوجود الإنساني الكريم. فهو فناء في ميزان الله وفي حساب الروح المميزة للإنسان.

ويضرب الله لهم المثل من الواقع التاريخي الذي يعلمونه، على نصرة الله لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء، والنصر من عند الله يؤتیه من يشاء: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا، ثَانِيًا اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ. إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى، وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» ..

ذلك حين ضاقت قريش بمحمد ذرعا، كما تضيق القوة الغاشمة دائما بكلمة الحق، لا تملك لها دفعا، ولا تطبيق عليها صبرا، فائتمرت به، وقررت أن تتخلص منه فأطلعه الله على ما ائتمرت، وأوحى إليه بالخروج، فخرج وحيدا إلا من صاحبه الصديق، لا جيش ولا عدة، وأعداؤه كثر، وقوتهم إلى قوته ظاهرة. والسياق يرسم مشهد الرسول - ﷺ - وصاحبه: «إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ». والقوم على إثرهما

يتعقبون، والصدیق - رضي الله عنه - يجزع - لا على نفسه ولكن على صاحبه - أن يطلعوا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب، يقول له: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. والرسول - ﷺ - وقد أنزل الله سكينته على قلبه، يهدئ من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟».

فَعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ حَدَّثَهُ، قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي الْغَارِ: وَقَالَ مَرَّةً: وَنَحْنُ فِي الْغَارِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرْنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، قَالَ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا^{٦٨٣}.

ثم ماذا كانت العاقبة، والقوة المادية كلها في جانب، والرسول - ﷺ - مع صاحبه منها مجرد؟ كان النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس. وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار: «وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى».

وظلت كلمة الله في مكانها العالي منتصرة قوية نافذة: «وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا» ..

وقد قرئ «وكلمة الله» بالنصب. ولكن القراءة بالرفع أقوى في المعنى. لأنها تعطي معنى التقرير. فكلمة الله هي العليا طبيعة وأصلاً، بدون تصوير متعلق بحادثة معينة. والله «عزيز» لا يذل أولياؤه «حكيم» يقدر النصر في حينه لمن يستحقه.

ذلك مثل على نصره الله لرسوله ولكلمته والله قادر على أن يعيده على أيدي قوم آخرين غير الذين يتشاقلون ويتباطأون. وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجة بعد قول الله إلى دليل!^{٦٨٤}

٦. حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ:

قال تعالى: { قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَتَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) } [البقرة/٩٤-٩٦]

قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ: إِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ صِدْقًا أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ مِنْ دُونِ النَّاسِ، وَأَنَّ النَّارَ لَنْ تَمْسَكُمْ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ، وَأَنَّ لَكُمْ الْجَنَّةَ وَخَدَكُمْ وَمِنْ عِدَاكُمْ مِنَ الْخَلْقِ فِي النَّارِ، فَتَمَتُّوا الْمَوْتَ الَّذِي يُوصِلُكُمْ إِلَى ذَلِكَ التَّعِيمِ الْخَالِصِ الدَّائِمِ الَّذِي لَا يُنَازِعُكُمْ فِيهِ أَحَدٌ، وَاطْلُبُوا الْمَوْتَ مِنَ اللَّهِ. فَإِذَا لَمْ يَتَمَتَّوهُ كَانُوا غَيْرَ صَادِقِينَ فِي إِيمَانِهِمْ .

^{٦٨٣} - أخرجه الشيخان وغيرهما المسند الجامع [١١٦٨/ ٩] (٧١٤١) ومسند أحمد (عالم الكتب) [٧٦/ ١] (١١)

^{٦٨٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٢٦٧)

ولن يتمنى هؤلاء الكافرون بك يا محمد أن ينزل بهم الموت أبداً، لأنهم ما قدمت أيديهم، وما أسلفت من سيئ الأعمال، فهم يخافون عقاب الله عليها، والله يعلم أنهم ظالمون في قولهم: إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس .

ولتجدن يا محمد اليهود أحرص الناس على البقاء في الحياة، حتى لتجدنهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم، ولا يعتقدون بوجود بعث وحشر وحساب على الأعمال، ولذلك حصرُوا همهم في الحياة الدنيا أما اليهود فإنهم يؤمنون بالبعث والحساب، ويعلمون ما قدمت أيديهم من كفر وخروج عن أمر الله، وقتل لأنبيائه، ويعلمون ما ينتظرهم في الآخرة من مقت الله وغضبه وشديد عذابه، ولذلك فإنهم يتمنون أن يكون بينهم وبين يوم القيامة أمدٌ بعيد، وأن يعيشوا دهرًا طويلاً لكيلا يصلوا إلى العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة .

ويردُّ الله تعالى عليهم قائلاً: ولو عاش أحدكم ألف سنة، فليس ذلك بمنجيه من العذاب، ما دام مقيماً على كفره، ومُصرّاً على الإتيان بالأعمال السيئة، والله مُبصرٌ ومُشاهدٌ ما يعملون^{٦٨٥} .

إن الدعوى التي يدعيها بنو إسرائيل، ليتخذوا منها مقنعا لهم وللناس، من أنهم أبناء الله، وأنهم موضع رعايته واختصاصه إياهم بالرحمة والرضوان - هذه الدعوى مفتراة على الله، أوردوا بها أنفسهم موارد الضلال والهلكة ..

وليس أدل على بطلان هذه الدعوى وفساد هذا المتعلق الذي يتعلقون به، من أنهم لو كانوا يؤمنون حقاً بصدق هذه الدعوى لكان تعلقهم بالدار الآخرة أكثر من تعلقهم بالحياة الدنيا، ففي الآخرة نعيم لا ينفد أبداً، وسعادة شاملة لا تدخل عليها شائبة من شقاء أو نصب.. ولكن القوم يتعلقون بالحياة الدنيا أشد التعلق، وينفرون من كل أمر يقطعهم عن هذه الحياة ويصلهم بالآخرة، أشد النفور.. «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا» ..

فهم أحرص الناس جميعاً بلا استثناء على الحياة، حتى إن المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يرجون حياة بعد هذه الحياة ليس فيهم هذا الحرص على التمسك بالحياة التي يحرص اليهود عليها هذا الحرص العجيب.. «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ» ليستوفي حطه من الجمع والاقتناء.. «وَمَا هُوَ بِمَرْحُوزٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ» فليس له من هذا المصير مهرب، وإن امتد عمره إلى آلاف السنين!^{٦٨٦}

لن يتمنوه. لأن ما قدمته أيديهم للآخرة لا يطمعهم في ثواب، ولا يؤمنهم من عقاب. إنه مدخر لهم هناك، والله عليم بالظالمين وما كانوا يعملون.

^{٦٨٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٠١)، بترقيم الشاملة (آليا)

^{٦٨٦} - التفسير القرآني للقرآن (١/ ١١٢)

وليس هذا فحسب. ولكنها خصلة أخرى في يهود، خصلة يصورها القرآن صورة تفيض بالزراية وتنصح بالتحقير والمهانة: «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ.. آية حياة، لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق! حياة فقط! حياة بهذا التنكير والتحقير! حياة ديدان أو حشرات! حياة والسلام! إنما يهود، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء. وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة. فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس، وعنت الجباه جبنًا وحرصًا على الحياة.. أي حياة! «وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ، وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ»..

يود أحدهم لو يعمر ألف سنة. ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله، ولا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة. وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقتها حين تحس النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها، ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة.. إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة. نعمة يفيضها الإيمان على القلب.

نعمة يهبها الله للفرد الفاني العاني. المحدود الأجل الواسع الأمل وما يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود، إلا وحقيقة الحياة في روحه ناقصة أو مطموسة. فالإيمان بالآخرة - فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق، وجزائه الأوفى - هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحياة، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الأرض إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق، الذي لا يعلم إلا الله مداه، وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعدا إلى جوار الله.^{٦٨٧}

وعن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا». فقال قائلٌ وَمِنْ قَلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قال « بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كُثُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمُهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ». فقال قائلٌ يا رسول الله وما الوهنُ قال: « حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ » أخرجه أبو داود^{٦٨٨}.

وعن أبي هريرة، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لثَوْبَانَ: " كَيْفَ أَنْتَ يَا ثَوْبَانُ، إِذْ تَدَاعَتْ عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ كَتَدَاعِيكُمْ عَلَى قِصْعَةِ الطَّعَامِ تُصِيبُونَ مِنْهُ؟ " قَالَ ثَوْبَانُ: يَا أَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ قَلَّةٍ بَنَاءً؟ قَالَ: " لَأَمْ، بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ يُلْقَى فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنُ " قَالُوا: وَمَا الْوَهْنُ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " حُبُّكُمْ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَتُكُمْ الْقِتَالَ " .^{٦٨٩}

٧. إيثار الدنيا ومتاعها الزائل على الآخرة:

^{٦٨٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٩٤)

^{٦٨٨} - برقم (٤٢٩٩) وهو صحيح

^{٦٨٩} - مسند أحمد ط الرسالة (١٤ / ٣٣٢) (٨٧١٣) صحيح لغيره

قال تعالى: { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [التوبة: ٢٤]

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بتوَعُدِ مَنْ آثَرَ حُبَّ الْقَرَابَةِ وَالْعَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ وَالتَّجَارَةِ وَالْأَمْوَالِ وَالْمَسَاكِينِ.... عَلَى حُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، بِأَنْ يَتَرَبَّصُوا أَمْرَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَيَنْتَظِرُوا عِقَابَهُ وَنِكَالَهُ بِهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَهْدِي الْفَاسِقِينَ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ سِوَاءِ السَّبِيلِ ..^{٦٩٠}

في هذه الآية وضع للمسلمين في مواجهة التجربة والاختبار لإيمانهم، واختيار ما يحبون وما يؤثرون.. فالإيمان في جانب.. والآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والديار.. في جانب آخر.. وعلى المؤمن أن يختار بين الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، وبين أهله، وماله ودياره. والاختيار هنا يمكن أن يجزّ به الإنسان بينه وبين نفسه، حين يورد على مشاعره هذين الطرفين المتنازعين في كيانه، وأن يستعرضهما واحدا بعد الآخر، وأن يفترض أنه إذا لم يكن من الممكن الجمع بينهما، فأيهما يؤثر أن يمسك به، ويعيش معه؟

فإذا أثر الإيمان على الولد والأهل والمال والموطن، كان على الصفة التي يتحقق بها الإيمان الذي يقبله الله منه، ويرضاه له.. وإن كان العكس، وأثر الولد والأهل والمال والموطن، على الإيمان بالله ورسوله والولاء للمؤمنين، والجهاد في سبيل الله، فهو أقرب إلى الجبهة المعادية للإسلام، منه إلى الجبهة الموالية له.. «والمرء مع من أحب» .

وفي وصف الأموال، بأنها أموال مقترفة إشارة إلى أن المال غاد ورائح.. وأنه أشبه بالمنكر، إذ كان أكثر ما يجيء المال من حصيلة الصراع بين الناس والناس.

وفي قوله تعالى: «وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا» إشارة إلى ما قد يصيب السوق التجارية من كساد، حين تقوم القطيعة بين المؤمنين والمشرّكين.

وفي قوله تعالى: «فتربصوا» تهديد ووعد لأولئك الذين يؤثرون علاقاتهم الدنيوية، على الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله.. والتربص:

الانتظار.. ووراء هذا الانتظار ما يسوء أولئك الذين آثروا الآجلة على العاجلة حين يرون نصر الله للمؤمنين، وما فتح الله عليهم به من مغام في الدنيا، ورضوان في الآخرة، وجنّات لهم فيها نعيم مقيم. ويلاحظ أن قوله تعالى: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ.. الآية» قد انتظم كل ما تتعلق به النفوس، وتحرص عليه.. وليس وراءه من أمور الدنيا ما يطلبه الإنسان، ويعلق به..

^{٦٩٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٦٠، بترقيم الشاملة آليا)

كما يلاحظ أيضا أن هذه الأمور قد جاءت في النظم القرآني مرتبة الدرجات.. الأهم، فالمهم، فما هو دونه.. وهذا ما يجعل المؤمن أمام تجربة ذات شعب، وأنه قد يؤثر إيمانه على بعضها دون بعض، أو يؤثرها جميعا عليه، أو يؤثر إيمانه عليها جميعا.. كما أن هذه التجربة تنتظم المسلمين جميعا، لا يكاد أحد منهم يفلت من الدخول فيها، فمن لم يكن له أب كان له ولد.. ومن لم يكن له ولد، ولا والد، كان له زوج.. ومن لم يكن له واحد من هؤلاء كان له مال، ومن لم يكن له مال، ولا تجارة يخشى كسادها، كان له موطن يحن إليه، ودار يرنو ببصره إليها..

وهكذا، في كلمات معدودة، تتحرك مشاعر المجتمع الإسلامي، وتتقلب القلوب، ويدور الصراع في كيان كل مسلم، ثم تنجلي المعركة بعد صراع طويل أو قصير، عن سلام وعافية، أو شك وتردد.. ثم يحى قوله تعالى: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» تعقيبا على هذا الصراع، ممسكا بهؤلاء الشاكين المترددين، لينتزعوا أنفسهم مما هم فيه من شك وتردد، فإما إلى اليمين، وإما إلى اليسار.. والله سبحانه وتعالى في هؤلاء المترددين الشاكين، الذين ظلموا أنفسهم بهذا الموقف الذي وقفوه - الله فيهم أعداء لم يرد الله أن يهديهم، وأن يمضى لهم طريقهم إلى آخره مع الإيمان.. فليحذر كل من هؤلاء أن يكون فيمن خذلهم الله وجعلهم من أعدائه.. «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» الذين دخلوا في دين الله، ثم مال بهم الطريق إلى ما لا يرضى الله! ^{٦٩١}

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله. وعلامة ذلك، أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوباً لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تمناه نفسه، على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه. ^{٦٩٢}

إن هذه العقيدة لا تحتل لها في القلب شريكا فيما تجرد لها، وإما انسلاخ منها. وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ولا أن يترهب ويזהد في طبقات الحياة.. كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب، ويخلص لها الحب، وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة، وهي الحركة والدافعة. فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طبقات الحياة، على أن يكون مستعدا لنبذها كلها في اللحظة التي تتعارض مع مطالب العقيدة.

ومفارقة الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الأرض. فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة والزوج والعشيرة ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن ولا عليه أن يستمتع

^{٦٩١} - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧٢٣)

^{٦٩٢} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٣٢)

بزينة الله والطيبات من الرزق - في غير سرف ولا مخيلة - بل إن المتاع بها حينئذ مستحب، باعتباره لونا من ألوان الشكر لله الذي أنعم بها ليعتد بها عباده، وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب. «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ - إِنَّ اسْتِخْبَاءَ الْكُفْرِ عَلَى الْإِيمَانِ - .. وهكذا تنقطع أواصر الدم والنسب، إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة. وتبطل ولاية القرابة في الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة في الله. فله الولاية الأولى، وفيها ترتبط البشرية جميعا، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك، والحبل مقطوع والعروة منقوضة.

«وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» .. و«الظَّالِمُونَ» هنا تعني المشركين. فولاية الأهل والقوم - إن استحبوا الكفر على الإيمان - شرك لا يتفق مع الإيمان.

ولا يكفي السياق بتقرير المبدأ، بل يأخذ في استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ليضعها كلها في كفة ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى: الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة (وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج) والأموال والتجارة (مطعم الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها) .. وفي الكفة الأخرى: حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله. الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته. الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب، وما يتبعه من تضيق وحرمان، وما يتبعه من ألم وتضحية، وما يتبعه من جراح واستشهاد .. وهو - بعد هذا كله - «الجهاد في سبيل الله» مجردا من الصيت والذكر والظهور. مجردا من المباهاة، والفخر والخيلاء. مجردا من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه. وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب ..

«قُلْ: إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ .. فَتَرْبُّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ...»

ألا إنها لشاقة. ألا وإنما لكبيرة. ولكنها هي ذاك .. وإلا: «فَتَرْبُّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ».

وإلا فتعرضوا لمصير الفاسقين: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» ..

وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده، إنما تطالب به الجماعة المسلمة، والدولة المسلمة. فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة في الله ومقتضيات الجهاد في سبيل الله.

وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف، إلا وهو يعلم أن فطرته تطيقه - فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها - وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها .. لذة الشعور بالاتصال بالله، ولذة الرجاء في رضوان الله، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط، والخلاص من ثقل اللحم

والدم، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء. فإذا غلبتها ثقله الأرض ففي التطلع إلى الأفق ما يجد
الرغبة الطامعة في الخلاص والفكاك..^{٦٩٣}

٨. الركون إلى الظالمين:

قال تعالى: {وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ
[هود: ١١٣]}

ولا تستعينوا بالظالمين، ولا تعتمدوا عليهم، ولا تعتزوا بهم، ولا تستحسنوا طريقهم (لا تركزوا)
فكنونوا كائنكم رضىتم بأعمالهم، فإن فعلتم ذلك أصابتكم النار التي هي جزاء الظالمين، ولن تجلدوا
يومئذ من ينصركم من عذاب الله. (والآية عامة تشمل الظالمين دون تفريق بين مسلم وكافر).^{٦٩٤}
أي لا تميلوا إليهم، ولا تتبعوا سبيلهم، ولا تأمنوا جانبهم. وهو نهي عام عن موالاته
الظالمين، ومناصرتهم، واتباع سبيلهم.. ومن الذين ظلموا، أولئك الذين يتأولون كتاب الله حسب ما تمليه
عليهم أهواؤهم، فيضلون ويضلون غيرهم..^{٦٩٥}

ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى الاستقامة فقال: {وَلَا تَرْكُنُوا} أي: لا تميلوا {إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا}
فإنكم، إذا ملتكم إليهم، ووافقتموهم على ظلمهم، أو رضىتم ما هم عليه من الظلم {فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} إن
فعلتم ذلك {وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ} يمنعونكم من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئاً، من
ثواب الله. {ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} أي: لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم، ففي هذه الآية: التحذير من الركون
إلى كل ظالم، والمراد بالركون، الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقته على ذلك، والرضا بما هو عليه من
الظلم.

وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة، فكيف حال الظلمة بأنفسهم؟! نسال الله العافية من
الظلم.^{٦٩٦}

وعن الحسن، قال: "خَصَلَتَانِ مِنَ الْعَبْدِ إِذَا صَلَحَتَا صَلَحَ مَا سِوَاهُمَا: الرُّكُونُ إِلَى الظَّلْمَةِ وَالطُّغْيَانُ فِي
النَّعْمَةِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} [هود: ١١٣] وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ: {وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي} [طه: ٨١]"^{٦٩٧}

^{٦٩٣} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢١٩١)

^{٦٩٤} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٥٨٧، بترقيم الشاملة آيا)

^{٦٩٥} - التفسير القرآني للقرآن (١٢٠٩ / ٦)

^{٦٩٦} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٩١)

^{٦٩٧} - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٥٨ / ٢) صحيح

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ غَسَّانَ: حُمِلْتُ أَنَا وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مَحْمَلٍ عَلَى جَمَلٍ يُرَادُ بِنَا الْمُأْمُونُ، فَلَمَّا صِرْنَا قَرِيبَ عَانَةِ قَالَ لِي أَحْمَدُ: «قَلْبِي يُحْسُ أَنْ رَجَاءَ الْحَصَارِ يَأْتِي فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ فَإِنْ أَتَى وَأَنَا نَائِمٌ فَأَيْقِظْنِي وَإِنْ أَتَى وَأَنْتَ نَائِمٌ أَيقِظْكَ». فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ إِذْ قَرَعَ الْمَحْمَلُ قَارِعٌ فَأَشْرَفَ أَحْمَدُ، إِذَا بِرَجُلٍ يَعْرِفُهُ بِالصِّفَةِ وَكَانَ لَا يَأْوِي الْمَدَائِنَ وَالْقُرَى وَعَلَيْهِ عَبَاءَةٌ قَدْ شَدَّهَا عَلَى عُنُقِهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ رَضِيَكَ لَهُ وَأَفَدَا فَاظْطُرْ لَا يَكُونُ وَفُودُكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَفُودًا مَشْتُومًا، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يَنْتَظِرُونَكَ لِأَنْ تَقُولَ فَيَقُولُوا، وَاعْلَمْ أَنَّما هُوَ الْمَوْتُ وَالْجَنَّةُ. فَلَمَّا أَشْرَفْنَا عَلَى الْبُذَيْدُونَ قَالَ لِي: "يَا أَحْمَدُ بْنُ غَسَّانَ إِنِّي مُوصِيكَ بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظْهَا عَنِّي: رَاقِبِ اللَّهَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَاشْكُرْهُ عَلَى الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، وَإِنْ دَعَانَا هَذَا الرَّجُلُ أَنْ نَقُولَ الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ فَلَا تَقُلْ، وَإِنْ أَنَا قُلْتُ فَلَا تَرْكُنْ إِلَيَّ وَتَأْوُلُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: {وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} [هود: ١١٣]"، فَتَعَجَّبتُ مِنْ حَدَاثَةِ سَنَةِ وَتَبَاتِ قَلْبِهِ. فَلَمْ يَكُنْ بِأَسْرَعَ أَنْ خَرَجَ خَادِمٌ وَهُوَ يَمْسُحُ عَنْ وَجْهِهِ بِكُمِّهِ وَهُوَ يَقُولُ: عَزَّ عَلَيَّ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَنْ جَرَّدَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ سَيْفًا لَمْ يُجَرِّدْهُ قَطُّ، وَبَسَطَ نَظْعًا لَمْ يَسُطْهُ قَطُّ، ثُمَّ قَالَ: وَقَرَابَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَفَعْتُ عَنْ أَحْمَدَ وَصَاحِبِهِ حَتَّى يَقُولَا الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، قَالَ: فَتَظَنَرْتُ إِلَى أَحْمَدَ وَقَدْ بَرَكَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَلَحَظَ السَّمَاءَ بَعَيْنَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «سَيِّدِي غَرَّ هَذَا الْفَاجِرَ حِلْمُكَ حَتَّى يَتَجَرَّأَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ بِالْقَتْلِ وَالضَّرْبِ، اللَّهُمَّ فَإِنْ يَكُنِ الْقُرْآنُ كَلَامَكَ غَيْرَ مَخْلُوقٍ فَاكْفِنَا مُؤْتَنَهُ». قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا مَضَى الثَّلَاثُ الْأَوَّلُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا وَنَحْنُ بِصِيْحَةٍ وَضَجَّةٍ وَإِذَا رَجَاءُ الْحَصَارِ قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ: صَدَقْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ. قَدْ مَاتَ وَاللَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ^{٦٩٨}

لا تستندوا ولا تطمئنوا إلى الذين ظلموا. إلى الجبارين الطغاة الظالمين، أصحاب القوة في الأرض، الذين يقهرون العباد بقوتهم ويعبدونهم لغير الله من العبيد.. لا تركنوا إليهم فإن ركونكم إليهم يعني إقرارهم على هذا المنكر الأكبر الذي يزاولونه. ومشاركتهم إثم ذلك المنكر الكبير.

«فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ».. جزاء هذا الانحراف.

«وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ»..

والاستقامة على الطريق في مثل هذه الفترة أمر شاق عسير يحتاج إلى زاد يعين.. واللَّهِ - سبحانه - يرشد رسوله - ﷺ - ومن معه من القلة المؤمنة إلى زاد الطريق: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ».. ولقد علم الله أن هذا هو الزاد الذي يبقى حين يفنى كل زاد، والذي يقيم البنية الروحية، ويمسك القلوب على الحق الشاق التكليف. ذلك أنه يصل هذه القلوب برهها الرحيم الودود، القريب المحيب، وينسم عليها نسمة الأنس في وحشتها وعزلتها في تلك الجاهلية النكدة الكنود!

والآية هنا تذكر طرفي النهار - وهما أوله وآخره، وزلفا من الليل أي قريبا من الليل. وهذه تشمل أوقات الصلاة المفروضة دون تحديد عددها. والعدد محدد بالسنة ومواقيته كذلك.

والنص يعقب على الأمر بإقامة الصلاة - أي أدائها كاملة مستوفاة - بأن الحسنات يذهبن السيئات. وهو نص عام يشمل كل حسنة، والصلاة من أعظم الحسنات، فهي داخلة فيه بالأولوية. لا أن الصلاة هي الحسنة التي تذهب السيئة بهذا التحديد - كما ذهب بعض المفسرين - : «ذَلِكَ ذِكْرُ لِلذَّاكِرِينَ».. فالصلاة ذكر في أساسها ومن ثم ناسبها هذا التعقيب.. والاستقامة في حاجة إلى الصبر. كما أن انتظار الأجل لتحقيق سنة الله في المكذبين يحتاج إلى الصبر..

ومن ثم كان التعقيب على الأمر بالاستقامة وعلى ما سبقه في السياق هو: «وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ».. والاستقامة إحسان. وإقامة الصلاة في أوقاتها إحسان. والصبر على كيد التكذيب إحسان... والله لا يضيع أجر المحسنين...^{٦٩٩}

٩. ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وهو سبب من أسباب الهلاك ونزول العذاب، يقول الله: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) } [هود: ١١٦، ١١٧].

لقد كان من الواجب أن يكون من الأمم السابقة التي أهلكها الله بظلمها، جماعة منهم أولو عقل، ورأي، وصلاح، ينهون المفسدين عن الإفساد في الأرض، ويأخذون على أيديهم لكيلا ينزل بهم عذاب الله، لأن من سنة الله أن لا يهلك قوماً إلا إذا عم الفساد والظلم أكثرهم. ولكن لم يكن بين هؤلاء الأقوام الظالمين إلا قلة من المؤمنين أكثرهم من الضعفاء الذين لا يؤخذ برأيهم، ولا تسمع كلمتهم، ولا يقبل أمرهم ونهيهم. أما الأكثرون فكانوا من الظالمين المستكبرين المعاندين، فأصرّوا على ظلمهم وكفرهم، واتبعوا حياة الترف والفساد، فحال ذلك بينهم وبين الانتفاع بدعوة الحق، فبطروا واستكبروا، وصدّوا عن سبيل الله، وقد أغرقوا أنفسهم في الجرائم التي ولدها التعيم والترف، واستسلموا لها، ولذلك رجّحوا ما أتوا به على اتباع الرسل وطاعة الله فأهلكهم الله، وتلك سنة الله في خلقه.

^{٦٩٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٥٧٢)

لَيْسَ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا مِنْ عَدْلِهِ فِي خَلْقِهِ، أَنْ يُهْلِكَ الْقُرَى بِشَرِّكَ أَهْلِهَا، مَا دَامُوا مُصْلِحِينَ فِي أَعْمَالِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالْعُمَرَانِيَّةِ وَالْمَدِينِيَّةِ، فَلَا يَخْسُونَ النَّاسَ حُقُوقَهُمْ، وَلَا يَبْطِشُونَ بِالنَّاسِ، وَلَا يُذَلُّونَ لِمُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ كَقَوْمِ فِرْعَوْنَ، وَلَا يَرْتَكِبُونَ الْفَوَاحِشَ وَلَا يَقْطَعُونَ السَّبِيلَ، وَلَا يَأْتُونَ فِي نَادِيهِمُ الْمُنْكَرَ، بَلْ لَا بُدَّ لَهُمْ، لِيَحِقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ وَالْهَلَاكُ، مَنْ أَنْ يَجْمَعُوا إِلَى الشَّرِّكَ الْإِفْسَادَ فِي الْأَرْضِ، وَالْإِسَاءَةَ فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَحْكَامِ، وَأَنْ يَفْعَلُوا الظُّلْمَ الْمُدْمِرَ لِلْعُمَرَانِ .
فَعَنْ جَرِيرٍ، قَالَ: "لَمَّا نَزَلَتْ: "وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ قَالَ: "وَأَهْلُهَا يُنْصَفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا" ٧٠٠ .

فَالْأُمَّةُ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا الْفُسَادُ بِتَعَبِيدِ النَّاسِ لِغَيْرِ اللَّهِ بِصُورَةٍ مِنْ صُورِهِ فَيَكُونُ فِيهَا مَنْ يَنْهَضُ لِدَفْعِهِ هِيَ أُمٌّ نَاجِيَّةٌ لَا يَأْخُذُهَا اللَّهُ بِالْعَذَابِ وَالتَّدمِيرِ . أَمَّا الْأُمَمُ الَّتِي لَا يَجِدُ فِيهَا الظَّالِمُونَ مَنْ يَرُدُّهُمْ وَيُنْهَاهُمْ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ فَإِنَّ سُنَّةَ اللَّهِ تَعَالَى تُحَقِّقُ عَلَيْهَا إِمَّا بِهَلَاكِ الْإِسْتِصَالِ، وَإِمَّا بِهَلَاكِ الْإِنْحِلَالِ وَالِاخْتِلَالِ؟ ٧٠١

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى، إِهْلَاكَ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ لِلرَّسْلِ، وَأَنْ أَكْثَرَهُمْ مَنْحَرِفُونَ، حَتَّى أَهْلُ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ يَقْضِي عَلَى الْأَدْيَانِ بِالذَّهَابِ وَالِاضْمَحْلَالِ، ذَكَرَ أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّهُ جَعَلَ فِي الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ بَقَايَا، مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ يَدْعُونَ إِلَى الْهُدَى، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ وَالرَّدَى، فَحَصَلَ مِنْ نَفْعِهِمْ مَا بَقِيََتْ بِهِ الْأَدْيَانِ، وَلَكِنْهُمْ قَلِيلُونَ جَدًّا.

وَعَايَةُ الْأَمْرِ، أَنَّهُمْ نَحْوًا، بِاتِّبَاعِهِمُ الْمُرْسَلِينَ، وَقِيَامِهِمْ بِمَا قَامُوا بِهِ مِنْ دِينِهِمْ، وَبِكَوْنِ حُجَّةِ اللَّهِ أَجْرَاهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ {و} لَكِنْ {اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ} أَي: اتَّبَعُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ وَالتَّرَفِ، وَلَمْ يَبْغُوا بِهِ بَدَلًا.

{وَكَاثُوا مُجْرِمِينَ} أَي: ظَالِمِينَ، بِاتِّبَاعِهِمْ مَا أَتَرَفُوا فِيهِ، فَلِذَلِكَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعِقَابُ، وَاسْتَأْصَلَهُمُ الْعَذَابُ. وَفِي هَذَا، حَثُّ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ بَقَايَا مُصْلِحُونَ، لَمَّا أَفْسَدَ النَّاسُ، قَائِمُونَ بِدِينِ اللَّهِ، يَدْعُونَ مَنْ ضَلَّ إِلَى الْهُدَى، وَيَصْبِرُونَ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى، وَيَبْصِرُونَ مِنْهُمْ مِنَ الْعَمَى.

وَهَذِهِ الْحَالَةُ أَعْلَى حَالَةٍ يَرْغَبُ فِيهَا الرَّاعِبُونَ، وَصَاحِبُهَا يَكُونُ، إِمَامًا فِي الدِّينِ، إِذَا جَعَلَ عَمَلَهُ خَالِصًا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَهْلِكَ أَهْلُ الْقُرَى بِظُلْمٍ مِنْهُمْ لِهَمِّ، وَالْحَالِ أَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ، أَي: مُقِيمُونَ عَلَى الصَّلَاحِ، مُسْتَمِرُونَ عَلَيْهِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَهْلِكَ لَهُمْ، إِلَّا إِذَا ظَلَمُوا، وَقَامَتْ عَلَيْهِمْ حُجَّةُ اللَّهِ.

٧٠٠ - مُعْجَمُ أَبِي يَعْلَى الْمُؤَصِّلِي (٧٠) صَحِيحٌ

٧٠١ - أَيْسَرُ التَّفَاسِيرِ لِأَسْعَدِ حَوْمَدٍ (ص: ١٥٩٠، بِتَرْقِيمِ الشَّامِلَةِ آيَا)

ويحتمل، أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم، فإن الله يغفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.^{٧٠٢}

لما كان في طبيعة الناس الغفلة عن مواقع الخير، وهم لهذا يحتاجون دائما إلى من يقوم فيهم مذكرا لهم، أمرا بالخير، ناهيا عن المنكر - فقد جاء قوله تعالى: «فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ»

- ناعيا على الأمم السالفة التي أهلكها الله سبحانه بظلمها وضلالها، أنها لم يكن فيها دعاة خير، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقفون بجوار أنبيائهم، يشدون أزرهم، ويشيعون في الناس دعوتهم، ويسدون على السفهاء نوافذ العدوان على الأنبياء وأتباع الأنبياء.

- وفي قوله تعالى: «فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ» إنكار لما كان عليه أهل القرون الماضية، من فقدان أهل الخير بينهم، ودعاة الإصلاح فيهم.. وتحريض للمسلمين ألا يكونوا كهؤلاء الأقوام، بل يقوم من بينهم دعاة هدى وإصلاح، كما يقول الله سبحانه وتعالى: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» (آل عمران: ١٠٤)، وبهذا تقوى جبهة المؤمنين، ويشتد ركن الإيمان، وينفتح للناس الطريق إلى الهدى، والنجاة من عذاب الله.

- وقوله تعالى «أُولُوا بَقِيَّةٍ» أي أصحاب دين وإيمان، يعملون لما يبقى لهم عند الله في الآخرة، ومنه قوله تعالى: «بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ» أي ما يبقى لكم عند الله.. فأصحاب البقية، هم العقلاء الراشدون، الذين لا تلهيهم دنياهم عن آخرتهم..

وقوله تعالى: «إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ» هو استثناء من النفي الواقع على أهل القرون الغابرة.. فقد كان فيهم جماعات قليلة استجابوا لدعوة الله، وآمنوا به، ودعوا إلى الله، كما كان من الرجل الصالح من قوم فرعون.. أما كثرتهم فكانت تموج في غيها وضلالها، فلم يكن لأصحاب الدعوات فيهم من يسمع أو يجيب، إذ كانت تضيع أصواتهم وسط هذه الأمواج الهادرة من الغي والضلال.. وقد نجى الله سبحانه هؤلاء القلة المؤمنين، من هذا البلاء الذي أخذ به أقوامهم، الذين قاموا على ما هم فيه من ضلال..

قوله تعالى: «وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ» ..

إشارة إلى أن أهل المنكر قد غلبوا على أهل الخير والصالح فيهم، فلم يلتفتوا إليهم، ولم ينتفعوا بنصحتهم، فمضوا على ما هم فيه من ضلال، وغرقوا فيه من إلى أذقانهم، وأترفوا فيه، أي جعلوه نعيمهم في الدنيا، وحظهم منها..

^{٧٠٢} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٩١)

- «وَكَانُوا مُجْرِمِينَ» أي كانوا أهل إجرام وفجور، وبغى وعدوان.. ولذلك أهلكهم الله.. ولو استقاموا على طريق الحق، ما نزل بهم ما نزل من نقم الله عليهم.. كما يقول سبحانه بعد ذلك: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ».. أي أن الله سبحانه، إنما أهلك القرى التي أهلكها بسبب ما كان من أهلها من ظلم وكفر وضلال.. وقد جرت سنة الله ألا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، كما يقول سبحانه: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (الأنفال: ٥٣) ٧٠٣.

وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم. فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله، في صورة من صورته، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستتصال. وإما بهلاك الانحلال..

والاختلال! فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده، وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره، هم صمام الأمان للأمم والشعوب.. وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صورته.. إنهم لا يؤدون واجبهم لربهم ولدينهم فحسب، إنما هم يحاولون بهذا دون أمهم وغضب الله، واستحقاق النكال والضياع... ٧٠٤

وقال تعالى: {لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)} [المائدة: ٧٨ - ٨١]

لعن الله الذين كفروا من بني إسرائيل في الزبور والإنجيل، فقد لعن داود، عليه السلام، من اعتدى منهم في السبت، أو لعن العاصين المعتدين منهم عامة، وكذلك لعنهم عيسى بن مريم، وسبب ذلك اللعن هو تماديهم في العصيان، وتمردهم عن طاعة الله، وتماديهم في الظلم والفساد (بما كانوا يعتدون).

فقد كانوا لا ينهي أحد منهم أحداً عن منكرٍ يقترفه مهما بلغ من القبح والضرر. والنهي عن المنكر هو حفاظ الدين، وسياج الفضائل والآداب، فإذا تجرأ المستهترون على إظهار فسقهم وفجورهم، وراهم

٧٠٣ - التفسير القرآني للقرآن (٦/ ١٢١١)

٧٠٤ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٥٧٣)

الغوغاء من الناس قلدوهم فيه، وزال قبحه من نفوسهم، وصار عادة لهم، وزال سلطان الدين من قلوبهم، وثركت أحكامه وراء ظهورهم، وفي ذلك إشارة إلى فشو المنكرات فيهم. ويصحح الله تعالى سوء فعلهم، ويذمهم على إقرار المنكرات، وإصرارهم عليها وسكوت الآخرين عنها، ورضاهم بها. وترى يا محمد كثيراً من بني إسرائيل، يتولون الذين كفروا من مشركي العرب ويحالفونهم عليك، ويحرضونهم على قتالك، وأنت تؤمن بالله، وبما أنزل الله على رسله وأنبياؤه، وتشهد لهم بصدق الرسالة، وأولئك لا يؤمنون بكتاب ولا رسول، ولا يعبدون الله وحده، ولولا اتباع الهوى، وتزيين الشيطان لهم أعمالهم، ما فعلوا ذلك، فبئس ما قدموه لأنفسهم في آخرتهم من الأعمال التي استوجب سخط الله، وعظيم غضبه عليهم، وسيجزون على ذلك شر الجزاء، وسيحيط بهم العذاب، ولا يجدون عنه مصرفاً، ويخلدون في النار أبداً.

ولو كان هؤلاء اليهود، الذين يتولون الكافرين من مشركي العرب، يؤمنون بالنبي الذي يدعون اتباعه (وهو موسى عليه السلام)، وما أنزل إليه من الهدى والبيّنات، لما اتخذوا أولئك الكافرين من عابدي الأوثان، أولياء وأنصاراً، ولكانت عقيدتهم الدينية صدتهم عن ذلك، ولكن كثيراً منهم متمردون في النفاق، خارجون عن حظيرة الدين، ولا يريدون إلا الجاه والرياسة، ويسعون إلى تحصيلهما بآية طريقة كانت، وبآية وسيلة قدرُوا عليها...^{٧٠٥}

عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فيقول: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْعَدُوِّ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيهَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ: {لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} إِلَى قَوْلِهِ {فَاسْقُونِ} [المائدة: ٨١]، ثُمَّ قَالَ: «كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرَّنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرَّنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا» سنن أبي داود^{٧٠٦}.

وعن حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ - قال «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ» سنن الترمذي^{٧٠٧}. وعن أبي بكر الصديق أنه قال يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون} (١٠٥)

^{٧٠٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٤٨، بترقيم الشاملة آليا)

^{٧٠٦} - سنن أبي داود (٤/ ١٢١) (٤٣٣٦) حسن - تأطر : تعطفه عليه وتوجهه إليه

^{٧٠٧} - برقم (٢٣٢٣) ومسنند أحمد {٣٨٩/٥} برقم (٢٤٠٠٢) ومصنف ابن أبي شيبة مرقم ومشكل - (ج ١٤ / ص ٤٦٧) برقم (٣٧٢٢١) وهو حديث صحيح.

سورة المائدة وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا ظَالِمًا فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ» سنن الترمذى ٧٠٨.

الذين كفروا من بني إسرائيل هم عامة بني إسرائيل ومعظمهم، ولم يجيء النصّ القرآني عامًّا شاملًا بلعن بني إسرائيل جميعًا حتى لا يدخل الذين سلم لهم دينهم منهم، تحت هذا الحكم، فيكون ذلك مدعاة إلى سوء ظنهم بأنفسهم.. أولاً، وبالله.. ثانياً.

ومن جهة أخرى فإن النصّ القرآني قد حمل - معه إلى جانب اللعنة التي رمى الله بها هؤلاء القوم - حمل وصفا كاشفا لهم، وهو أنهم كفروا، ولو جاء النظم القرآني هكذا: «لعن بنو إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم» لدخل معهم في هذه اللعنة الذين آمنوا منهم، ثم لم يكن هذا الوصف بالكفر مصاحباً لتلك اللعنة صبّت عليهم.

وقوله تعالى: «عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ» أي أن الله وجّه حكمه باللعنة على الذين كفروا من بني إسرائيل، محمولاً على لسان داود وعيسى ابن مريم.. فقد لعنهم الله سبحانه مرتين.. مرة على لسان «داود»، ومرة على لسان «عيسى» عليهما السلام.

ولا نسأل ماذا كانت لعنة داود لهم، ولا عن أي شيء كانت تلك اللعنة التي رماهم الله بها على لسان داود، وكذلك الشأن في اللعنة التي جاءتهم على لسان المسيح.. فقد غيّر القوم وبدّلوا في زبور داود، وفي إنجيل عيسى.

والذي علينا أن نؤمن به، هو أن الله لعن اليهود هذه اللعنات على لسان هذين النبيين الكريمين. قوله تعالى: «كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ» هو بيان لسبب آخر من أسباب اللعنة التي لعن الله بها بني إسرائيل، وهى أنهم مع عدوانهم على حرّامات الله، وتطاولهم على أنبيائه بالتكذيب وبالقتل، فإنه لم يكن فيهم من رشيد ينكر عليهم هذا المنكر، ويردّهم عن هذا الضلال.. «كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ» أي لا ينهى محسنهم مسيئتهم، ولا يأخذ عالمهم بيد جاهلهم، فلا تناصح بينهم على معروف، ولا تنهى عن منكر.. وليس هذا شأن الجماعة السليمة، المتنبهة لكل آفة تعرض لأى عضو من أعضائها.

فجماعة اليهود جماعة يعيش كل فرد فيها في ذات نفسه، لا يعنيه إلا ما يتصل به اتصالاً مباشراً، ولا عليه أن يهلك الناس جميعاً.. وليس هذا شأن عامتهم وحسب، بل هو شأن رؤسائهم وأصحاب السلطة الروحية فيهم، وقد نصّ الله عليهم ذلك بقوله: «لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّخْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» (٦٣: المائدة).

٧٠٨ - برقم (٣٣٣٤) وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَهُوَ كَمَا قَالَ

وقوله تعالى: «لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» هو تجريم لأفعال اليهود جميعا، عامتهم وخاصتهم، علماؤهم وجهلاؤهم.. أفعالهم كلها منكرة، لا تتحرى الحق، ولا تستقيم عليه.

وقوله تعالى: «تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» الضمير في «منهم» يعود إلى علماء اليهود، وخاصتهم، وأنهم يعطون ولأههم ومودتهم للذين كفروا من مشركى العرب، ومن كافرى اليهود أنفسهم، ليظاهروهم على الدعوة الإسلامية، وليقودوا جبهة الكفر المتصدية لها.. وهذا منهم هو كفر فوق كفر، وضلال فوق ضلال.. إذ لم يكفهم أنهم عرفوا الحق وكنموه، بل أجلبوا عليه الأعداء، وكانوا لهم في حربه سندا وظهيرا..

فاستحقوا لهذا سخط الله عليهم، وأن يصلوا النار التي أعدّها للعصاة المحادين لله ورسوله.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «لَيْسَ مَا قَدَمْتَ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ».. وقوله تعالى: «أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ» هو مصدر مؤول، وهو المخصوص بالذم أي بئس شيئا قدمته لهم أنفسهم، وأعدته ليوم الجزاء، سخط الله ولعنته لهم في الدنيا، والعذاب الشديد يوم القيامة في جهنم خالدين فيها أبدا.

وقوله تعالى: «وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ» هو بيان لهذا المرض الخبيث المستكن في قلوب هؤلاء العلماء من بنى إسرائيل، وهو أنهم قد أعمى بصائرهم بالحسد، فألقوا بأنفسهم إلى التهلكة، وكفروا بالله، إذ كفروا بالنبي وما أنزل إليه من ربه، وكان ما بأيديهم من دلائل تدل على نبوته، وما عندهم من علم به وبرسالته - جديرا بأن يجعلهم أسبق الناس إلى لقاء هذا النبي، والإيمان به، والوقوف من ورائه، والجهاد تحت رايته.. ولكنهم تخلّوا عن مكانهم هذا، الذي كان ينبغي أن يأخذوه مع النبي، وانحازوا إلى جهة الكافرين والمنافقين.. حسدا وبغيا.

وفي قوله تعالى: «وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» هو حكم على الكثرة الغالبة من علماء اليهود بالفسق، والخروج عن الطريق القويم، طريق الحق والنور، إلى طريق العماية والضلال.. وإن قليلا منهم هو الذي سلم فلم يقع تحت طائلة هذا الحكم.

ولسائل أن يسأل: كيف يحكم على اليهود بالكفر، مع أنهم أهل كتاب، وأنهم يؤمنون بالله، وأن الإسلام قد وضعهم وضعاً خاصاً في أحكامه، فجعلهم أهل ذمة، وسمح لهم أن يعيشوا في المجتمع الإسلامي، وألا تدم بيوت عبادتهم، وألا يحال بينهم وبين أن يؤدوا شعائر دينهم فيها.. كيف هذا؟

والجواب من وجوه:

فأولاً: هم كافرون - لا شك في هذا - لأنهم اجترعوا الله، فنبذوا كتاب الله الذي في أيديهم، وحرّفوه، ثم ما بقي بأيديهم منه لم يستقيموا عليه، بل تأولوه تأويلاً فاسداً، يجرى مع أهوائهم وما يشتهون.. فهم - وإن لم ينكروا الله - قد حاربوا الله، واستخفّوا بكلماته، وجعلوها تبعا لأهوائهم، ولم يجعلوا أهواءهم تبعا لها.

والكافر بالله، والمنكر له، وإن غلظ جرمه. وعظم إثمه - هو أخفّ جرماً، وأقلّ إثماً، ممن عرف الله واستخفّ به، وأعلن الحرب عليه، فشوّه وجه كلماته، وأراق دم أنبيائه.

وثانياً: هم كافرون - لا شك في هذا أيضاً - لأنهم أنكروا نبوة النبي، وهتوه، وكفروا بما أنزل عليه، وهم يعلمون - بما في أيديهم من كتب الله - أنه رسول من عند الله، وأن الآيات التي بين يديه هي كلمات الله.. وفي هذا يقول الله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِثْنَا لَكُمْ رَسُولًا مِنْ نَفْسِهِمْ فَكُلُوا مِنْ عِبَادِهِ فَبِأُوْلَئِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُكْفِرِينَ وَعَذَابُهُمْ شَدِيدٌ»

(٨٩ - ٩٠: البقرة) فلقد دمغهم الله - سبحانه - بالكفر أكثر من مرة.. «كَفَرُوا بِهِ» .. «فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» .. «بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» .. «وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ» .

فهذا بعض ما وصفهم الله به في هاتين الآيتين، وقد توعدهم الله سبحانه باللعنة، ورماهم بالغضب بعد الغضب، ورصد لهم العذاب المهين يوم القيامة» ..

وثانياً: إن تصوّر اليهود لله هو تصور خاطئ فاسد، إذ يرون الله هو إله اليهود وحدهم لا يتعامل مع غيرهم، ولا يعمل لأحد سواهم، ولا يشغل إلّا بهم وبمشكلاتهم.. فهو «رب الجنود» يقودهم في ميادين القتال، بل ويقاتلهم وهم ينظرون، كما قالوا لموسى: «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» (٢٤: المائدة). وهذا تصور خاطئ لله رب العالمين.. إنهم لا يرونه إلا أشبه بإنسان يملك قوى خارقة لا يملكونها، أشبه بالهة الأساطير التي تولدت في خيال الوثنيين لتحقيق لهم أحلاماً قصرت أيديهم عن تحقيقها.. ولهذا، فقد طلبوا إلى موسى أن يريهم الله جهرة، أي عياناً، فقالوا ما حكاه القرآن عنهم: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً» (٥٥: البقرة) ..

هذا هو إله اليهود الذي يؤمنون به.. إنه إلههم وحدهم.. أما هذا الوجود فله إله أو آلهته.. وذلك كفر، أو شرك، أو فسق.. وقد صف صف اليهود بهذه الصفات جميعاً.. ورابعاً: جعل الإسلام أهل الكتاب أهل ذمة ولم يأخذهم بما أخذ به غيرهم ممن لا كتاب لهم من المشركين والكافرين، كالصائبين والنجوس، ومشركى العرب وغيرهم، لأنهم على شبهة من دين، ولهذا لم يقم عليهم حدّ القتل، إذ كان من أصول الإسلام: «درء الحدود بالشبهات» ..

فهم - أي أهل الكتاب - كافرون، ولكن كفرهم مشوب بإيمان باهت.. وهذا الإيمان على ما فيه، لا يرفع عنهم الحكم - ديانة - بأنهم كافرون، ولكنه يرفع عنهم إقامة حدّ الكفر عليهم بقتلهم، إذا وقعوا في حوزة المسلمين وصاروا إلى أيديهم، وأبوا أن يدخلوا في الإسلام..

فهذا الكفر المشوب بالإيمان، أو الإيمان المختلط بالكفر، يعصم دماءهم، وأمواهم، ويجعلهم ذمة في يد المسلمين.. وفي هذا يقول الله تعالى: «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ» (٢٩: التوبة).. فهذه الجزية التي تؤخذ منهم، وهذا الصغار الذي ينضح عليهم من الجزية التي يؤدونها- هو تعزيز لهم على جناية الكفر الذي حالت دون إقامة الحدّ عليهم فيه، شبهة الإيمان المختلط بكفرهم.^{٧٠٩}

{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ} أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله {عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} أي: بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحجة قد قامت عليهم، وعاندوها. {ذَلِكَ} الكفر واللعن {بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} أي: بعصيانهم لله، وظلمهم لعباد الله، صار سببا لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات.

ومن معاصيهم التي أحلت بهم المثالات، وأوقعت بهم العقوبات أنهم: {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ} أي: كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضا، فيشترك بذلك المباشر، وغيره الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك.

وذلك يدل على قهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لحارمه، ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر -مع القدرة- موجبا للعقوبة، لما فيه من المفساد العظيمة:

منها: أن مجرد السكوت، فعل معصية، وإن لم يباشرها الساكت. فإنه - كما يجب اجتناب المعصية - فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية.

ومنها: ما تقدم أنه يدل على التهاون بالمعاصي، وقلة الاكتراث بها.

ومنها: أن ذلك يجري العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر، وتعظم المصيبة الدينية والدنيوية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدر على ما كانوا يقدر على أولًا.

ومنها: أن - في ترك الإنكار للمنكر - يندرس العلم، ويكثر الجهل، فإن المعصية - مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها - يظن أنها ليست بمعصية، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأي مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرّم الله حلالا؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقا؟ "

^{٧٠٩} - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ١١٥٣)

ومنها: أن السكوت على معصية العاصين، ربما تزينت المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض، فالإنسان مولع بالاقتداء بأضرابه وبني جنسه، ومنها ومنها.

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة، نص الله تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم.

{لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} {تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} بالحبّة والموالاة والنصرة. {لَيْسَ مَا قَدَمْتَ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ} هذه البضاعة الكاسدة، والصفقة الخاسرة، وهي سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء، والخلود الدائم في العذاب العظيم، فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا التزل غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوها النعيم المقيم.

{وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ} فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه، يوجب على العبد موالاته ربه، وموالاته أوليائه، ومعاداة من كفر به وعاداه، وأوضح في معاصيه، فشرط ولاية الله والإيمان به، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدل على انتفاء المشروط. {وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} أي: خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي. ومن فسقهم موالاته أعداء الله.^{٧١٠}

وهكذا يبدو أن تاريخ بني إسرائيل في الكفر والمعصية واللعنة عريق. وأن أنبياءهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم، هم في النهاية الذين تولوا لعنتهم وطردهم من هداية الله فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعنة على بني إسرائيل.

والذين كفروا من بني إسرائيل هم الذين حرفوا كتبهم المتزلة وهم الذين لم يتحاكموا إلى شريعة الله - كما مر في المواضع القرآنية المتعددة في هذه السورة وفي السور غيرها - وهم الذين نقضوا عهد الله معهم لينصرون كل رسول ويعزرونه ويتبعونه: «ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ» ..

فهي المعصية والاعتداء يتمثلان في كل صورهما الاعتقادية والسلوكية على السواء. وقد حفل تاريخ بني إسرائيل بالمعصية والاعتداء .. كما فصل الله في كتابه الكريم.

ولم تكن المعصية والاعتداء أعمالاً فردية في مجتمع بني إسرائيل. ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها وأن يسكت عنها المجتمع. ولا يقابلها بالتناهي والنكير: «كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ!» ..

إن العصيان والعدوان قد يقعان في كل مجتمع من الشريرين المفسدين المنحرفين. فالأرض لا تخلو من الشر

^{٧١٠} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٤١)

والمجتمع لا يخلو من الشذوذ، ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبحا عرفا مصطلحا عليه وأن يصبحا سهلا يجترئ عليه كل من يهم به.. وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير في مجتمع من المجتمعات ويصبح الجزاء على الشر رادعا وجماعيا تقف الجماعة كلها دونه وتوقع العقوبة الرادعة عليه.. عندئذ يتزوي الشر، وتنحسر دوافعه. وعندئذ يتماسك المجتمع فلا تنحل عراه. وعندئذ ينحصر الفساد في أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع، ولا يسمح لها بالسيطرة وعندئذ لا تشيع الفاحشة.

ولا تصبح هي الطابع العام! والمنهج الإسلامي - بعرضه لهذه الظاهرة في المجتمع الإسرائيلي - في صورة الكراهية والتنديد، يريد للجماعة المسلمة أن يكون لها كيان حي متجمع صلب يدفع كل بادرة من بوادر العدوان والمعصية. قبل أن تصبح ظاهرة عامة ويريد للمجتمع الإسلامي أن يكون صلبا في الحق، وحساسا تجاه الاعتداء عليه ويريد للقائمين على الدين أن يؤدوا أمانتهم التي است حفظوا عليها، فيقفوا في وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء.. ولا يخافوا لومة لائم. سواء جاء هذا الشر من الحكام المتسلطين بالحكم أو الأغنياء المتسلطين بالمال أو الأشرار المتسلطين بالأذى أو الجماهير المتسلطة بالهوى. فمنهج الله هو منهج الله، والخارجون عليه علوا أم سفلا سواء.

والإسلام يشدد في الوفاء بهذه الأمانة فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من شر إذا هي سكتت عليه ويجعل الأمانة في عنق كل فرد، بعد أن يضعها في عنق الجماعة عامة.

روى الإمام أحمد عن عبد الله، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي، نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ، فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ، قَالَ زَيْدٌ: أَحْسِبُهُ قَالَ: وَأَسْوَاقِهِمْ، وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ، وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَكِنًا، فَجَلَسَ، فَقَالَ: لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا. ٧١١

وروى أبو داود عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ - « إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّفْسُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ يَا هَذَا أَتَقِي اللَّهَ وَدَعَا مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْعَدَا فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيئَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ». ثُمَّ قَالَ (لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) إِلَى قَوْلِهِ (فَأَسْقُونَ) ثُمَّ قَالَ « كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا » ٧١٢.

٧١١ - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٢ / ٤٧) (٣٧١٣) حسن

٧١٢ - سنن أبي داود - المكتز - (٤٣٣٨) حسن - تأطر: تعطفه عليه وتوجهه إليه

فليس هو مجرد الأمر والنهي، ثم تنتهي المسألة، إنما هو الإصرار، والمقاطعة، والكف بالقوة عن الشر والفساد والمعصية والاعتداء.

وروى مسلم عن طارق بن شهاب - وهذا حديث أبي بكر - قال أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان فقام إليه رجل فقال الصلاة قبل الخطبة. فقال قد ترك ما هنالك. فقال أبو سعيد أمّا هذا فقد قضى ما عليه سمعت رسول الله - ﷺ - يقول « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ». ^{٧١٣}.

وروى الإمام أحمد عن مجاهد، قال: حدثني مولى لنا، أنه سمع جدي، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك، عذب الله الخاصة والعامة. ^{٧١٤}.

وعن طارق قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أي الجهاد أفضل؟ قال: كلمة حق عند إمام جائر. ^{٧١٥}
وعن أبي أمامة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو عند الحجرة الأولى فقال: يا رسول الله، أي الجهاد أفضل؟ قال: فسكت عنه ولم يجبه. ثم سأله عند الحجرة الثانية، فقال له مثل ذلك، فلما رمى النبي ﷺ حجرة العقبة ووضع رجله في الغرر قال: أين السائل؟ قال: كلمة عدل عند إمام جائر. ^{٧١٦}.

وتتوارد النصوص القرآنية والنبوية تترى في هذا المعنى لأن هذا التماسك في كيان الجماعة بحيث لا يقول أحد فيها - وهو يرى المنكر يقع من غيره - وأنا مالي؟! وهذه الحمية ضد الفساد في المجتمع، بحيث لا يقول أحد - وهو يرى الفساد يسري ويشيع - وماذا أصنع والتعرض للفساد يلحق بي الأذى؟! وهذه الغيرة على حرمة الله، والشعور بالتكليف المباشر بصيانتها والدفع عنها للنجاة من الله.. هذا كله هو قوام الجماعة المسلمة الذي لا قيام لها إلا به ..

وهذا كله في حاجة إلى الإيمان الصحيح بالله ومعرفة تكاليف هذا الإيمان. وإلى الإدراك الصحيح لمنهج الله ومعرفة أنه يشمل كل جوانب الحياة. وإلى الجد في أخذ العقيدة بقوة، والجهد لإقامة المنهج الذي ينبثق منها في حياة المجتمع كله.. فالمجتمع المسلم الذي يستمد قانونه من شريعة الله وقيم حياته كلها على منهجه هو المجتمع الذي يسمح للمسلم أن يزاوِل حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحيث لا يصبح هذا عملاً فردياً ضائعاً في الخضم أو يجعله غير ممكن أصلاً في كثير من الأحيان! كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية القائمة اليوم في أرجاء الأرض والتي تقيم حياتها على تقاليد ومصطلحات اجتماعية تسترذل تدخل أحد في شأن أحد وتعتبر الفسق والفجور والمعصية «مسائل شخصية»! ليس

^{٧١٣} - صحيح مسلم - المكثر - (١٨٦)

^{٧١٤} - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٦ / ٨٢) (١٧٧٢٠) ١٧٨٧٢ - صحيح لغيره

^{٧١٥} - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٦ / ٣٩٣) (١٨٨٢٨) ١٩٠٣٣ - صحيح

^{٧١٦} - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٧ / ٤٠٦) (٢٢٢٠٧) ٢٢٥٦٠ - حسن

لأحد أن يتدخل في شأنها .. كما تجعل من الظلم والبطش والاعتداء والجور سيفاً مصلتنا من الإرهاب يلجم الأفواه، ويعقد الألسنة، وينكل بمن يقول كلمة حق أو معروف في وجه الطغيان .. إن الجهد الأصيل، والتضحيات النبيلة يجب أن تتجه أولاً إلى إقامة المجتمع الخير .. والمجتمع الخير هو الذي يقوم على منهج الله .. قبل أن ينصرف الجهد والبذل والتضحية إلى إصلاحات جزئية، شخصية وفردية عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إنه لا جدوى من المحاولات الجزئية حين يفسد المجتمع كله وحين تطغى الجاهلية، وحين يقوم المجتمع على غير منهج الله وحين يتخذ له شريعة غير شريعة الله. فينبغي عندئذ أن تبدأ المحاولة من الأساس، وأن تنبت من الجذور وأن يكون الجهد والجهاد لتقرير سلطان الله في الأرض .. وحين يستقر هذا السلطان يصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئاً يرتكن إلى أساس.

وهذا يحتاج إلى إيمان. وإلى إدراك لحقيقة هذا الإيمان ومجاليه في نظام الحياة. فالإيمان على هذا المستوى هو الذي يجعل الاعتماد كله على الله ؛ والثقة كلها بنصرته للخير - مهما طال الطريق - واحتساب الأجر عنده ، فلا ينتظر من ينهض لهذه المهمة جزاء في هذه الأرض ، ولا تقديراً من المجتمع الضال ، ولا نصرة من أهل الجاهلية في أي مكان !

إن كل النصوص القرآنية والنبوية التي ورد فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت تتحدث عن واجب المسلم في مجتمع مسلم . مجتمع يعترف ابتداءً بسلطان الله ، ويتحاكم إلى شريعته ، مهما وجد فيه من طغيان الحكم ، في بعض الأحيان ، ومن شيوع الإثم في بعض الأحيان .. وهكذا نجد في قول الرسول ﷺ: "أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر" .. فهو "إمام" ولا يكون إماماً حتى يعترف ابتداءً بسلطان الله ؛ وبتحكيم شريعته . فالذي لا يحكم شريعة الله لا يقال له: "إمام" إنما يقول عنه الله - سبحانه - (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ..

فأما المجتمعات الجاهلية التي لا تتحاكم إلى شريعة الله ، فالمنكر الأكبر فيها والأهم ، فهو المنكر الذي تتبع منه كل المنكرات .. هو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة .. وهذا المنكر الكبير الأساسي الجذري هو الذي يجب أن يتجه إليه الإنكار ، قبل الدخول في المنكرات الجزئية ، التي هي تبع لهذا المنكر الأكبر ، وفرع عنه ، وعرض له ..

إنه لا جدوى من ضياع الجهد .. جهد الخيرين الصالحين من الناس .. في مقاومة المنكرات الجزئية ، الناشئة بطبيعتها من المنكر الأول .. منكر الجراءة على الله وادعاء خصائص الألوهية ، ورفض ألوهية الله ، برفض شريعته للحياة .. لا جدوى من ضياع الجهد في مقاومة منكرات هي مقتضيات ذلك المنكر الأول وثمراته النكدة بلا جدال .

على أنه إلام نحاكم الناس في أمر ما يرتكبونه من منكرات ؟ بأي ميزان نزن أعمالهم لنقول لهم: إن هذا منكر فاجتنبوه ؟ أنت تقول: إن هذا منكر ؛ فيطلع عليك عشرة من هنا ومن هناك يقولون

لك: كلا ! ليس هذا منكرا . لقد كان منكرا في الزمان الخالي ! والدنيا "تتطور" ، والمجتمع "يتقدم" وتختلف الاعتبارات !

فلا بد إذن من ميزان ثابت نرجع إليه بالأعمال ، ولا بد من قيم معترف بها نقيس إليها المعروف والمنكر . فمن أين نستمد هذه القيم ؟ ومن أين نأتي بهذا الميزان ؟ من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم وشهواتهم - وهي متقلبة لا تثبت على حال ؟ إننا ننتهي إذن إلى متاهة لا دليل فيها ، وإلى خضم لا معالم فيه !

فلا بد ابتداء من إقامة الميزان .. ولا بد أن يكون هذا الميزان ثابتا لا يتأرجح مع الأهواء .. هذا الميزان الثابت هو ميزان الله ..

فماذا إذا كان المجتمع لا يعترف - ابتداء - بسلطان الله ؟ ماذا إذا كان لا يتحاكم إلى شريعة الله ؟ بل ماذا إذا كان يسخر ويهزأ ويستنكر وينكل بمن يدعو إلى منهج الله ؟ ألا يكون جهدا ضائعا ، وعبثا هازلا ، أن تقوم في مثل هذا المجتمع لتأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ، في جزئيات وجانبيات من شئون الحياة ، تختلف عليها الموازين والقيم ، وتتعارض فيها الآراء والأهواء ؟!

إنه لا بد من الاتفاق مبدئيا على حكم ، وعلى ميزان ، وعلى سلطان ، وعلى جهة يرجع إليها المختلفون في الآراء والأهواء ..

لا بد من الأمر بالمعروف الأكبر وهو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة . والنهي عن المنكر الأكبر وهو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة .. وبعد إقامة الأساس يمكن أن يقام البنيان ! فلتوفر الجهود المبثرة إذن ، ولتحشد كلها في جبهة واحدة ، لإقامة الأساس الذي عليه وحده يقام البنيان ! وإن الإنسان ليرثي أحيانا ويعجب لأناس طيبين ، ينفقون جهدهم في "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" في الفروع ؛ بينما الأصل الذي تقوم عليه حياة المجتمع المسلم ؛ ويقوم عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مقطوع !

فما غناء أن تنهي الناس عن أكل الحرام مثلا في مجتمع يقوم اقتصاده كله على الربا ؛ فيستحيل ماله كله حراما ؛ ولا يملك فرد فيه أن يأكل من حلال .. لأن نظامه الاجتماعي والاقتصادي كله لا يقوم على شريعة الله . لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة ؟!

وما غناء أن تنهي الناس عن الفسق مثلا في مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمة - إلا في حالة الإكراه - ولا يعاقب حتى في حالة الإكراه بشريعة الله .. لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة ؟!

وما غناء أن تنهي الناس عن السكر في مجتمع قانونه يبيح تداول وشرب الخمر ، ولا يعاقب إلا على حالة السكر البين في الطريق العام . وحتى هذه لا يعاقب فيها بحمد الله . لأنه لا يعترف ابتداء بحاكمية

الله ؟!

وما غناء أن تنهى الناس عن سب الدين ؛ في مجتمع لا يعترف بسلطان الله ؛ ولا يعبد فيه الله . إنما هو يتخذ أربابا من دونه ؛ يتزلون له شريعته وقانونه ؛ ونظامه وأوضاعه ، وقيمة وموازينه . والسباب والمسبوب كلاهما ليس في دين الله . إنما هما وأهل مجتمعهما طرا في دين من يتزلون لهم الشرائع والقوانين ؛ ويضعون لهم القيم والموازن ؟!

ما غناء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مثل هذه الأحوال ؟ ما غناء النهي عن هذه الكبائر - فضلا عن أن يكون النهي عن الصغائر - والكبيرة الكبرى لا نهي عنها .. كبيرة الكفر بالله ؛ برفض منهجه للحياة ؟!

إن الأمر أكبر وأوسع وأعمق ، مما ينفق فيه هؤلاء "الطيبون" جهدهم وطاقتهم واهتمامهم .. إنه - في هذه المرحلة - ليس أمر تتبع الفرعيات - مهما تكن ضخمة حتى ولو كانت هي حدود الله . فحدود الله تقوم ابتداء على الاعتراف بحاكمية الله دون سواه . فإذا لم يصبح هذا الاعتراف حقيقة واقعة ؛ تتمثل في اعتبار شريعة الله هي المصدر الوحيد للتشريع ؛ واعتبار ربوبية الله وقوامته هي المصدر الوحيد للسلطة .. فكل جهد في الفروع ضائع ؛ وكل محاولة في الفروع عبث .. والمنكر الأكبر أحق بالجهد والمحاولة من سائر المنكرات ..

عَنْ طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ قَالَ أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ فَقَالَ قَدْ تَرَكْتُ مَا هُنَالِكَ فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - يَقُولُ « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ »^{٧١٧}...

وقد يجيء على المسلمين زمان لا يستطيعون فيه تغيير المنكر بأيديهم ؛ ولا يستطيعون فيه تغيير المنكر بألسنتهم ؛ فيبقى أضعف الإيمان ؛ وهو تغييره بقلوبهم ؛ وهذا ما لا يملك أحد أن يحول بينهم وبينه ، إن هم كانوا حقا على الإسلام !

وليس هذا موقفا سلبيا من المنكر - كما يلوح في بادئ الأمر - وتعبير الرسول ﷺ بأنه تغيير دليل على أنه عمل إيجابي في طبيعته . فإنكار المنكر بالقلب ، معناه احتفاظ هذا القلب بإيجابيته تجاه المنكر .. إنه ينكره ويكرهه ولا يستسلم له ، ولا يعتبره الوضع الشرعي الذي يخضع له ويعترف به .. وإنكار القلوب لوضع من الأوضاع قوة إيجابية لهدم هذا الوضع المنكر ، ولإقامة الوضع "المعروف" في أول فرصة تسنح ، وللتربص بالمنكر حتى تواتي هذه الفرصة .. وهذا كله عمل إيجابي في التغيير .. وهو على كل حال أضعف الإيمان . فلا أقل من أن يحتفظ المسلم بأضعف الإيمان ! أما الاستسلام للمنكر لأنه واقع ، ولأن له ضغطا - قد يكون ساحقا - فهو الخروج من آخر حلقة ، والتخلي حتى عن أضعف

^{٧١٧} - صحيح مسلم - المكثر [١ / ٢١٩] (١٨٦)

الإيمان ! هذا وإلا حقت على المجتمع اللعنة التي حقت على بني إسرائيل: { لَعْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) } [المائدة: ٧٨، ٧٩].^{٧١٨}

وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِئْتَبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) } [المائدة: ١٠٥]
يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَصْلَحُوا أَنْفُسَهُمْ، وَأَنْ يَفْعَلُوا الْخَيْرَ جَهْدَ طَاقَتِهِمْ، لِيَتَقَرَّبُوا بِذَلِكَ إِلَى اللَّهِ. وَيُخَيِّرُهُمْ تَعَالَى أَنَّهُ مَنْ أَصْلَحَ نَفْسَهُ وَأَمْرَهُ مِنْهُمْ، فَلَا يَضُرُّهُ فُسَادُ مَنْ فَسَدَ مِنَ النَّاسِ، سِوَاءِ أَكَانَ قَرِيبًا أَوْ بَعِيدًا، "

فَعَنْ عَثْبَةَ بْنِ أَبِي حَكِيمٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ جَارِيَةَ اللَّخْمِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيُّ، قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُسَنِيَّ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: { لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } [المائدة: ١٠٥] ؟ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْهَا خَبِيرًا: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: بَلِ انْتَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شَخْصًا مُطَاعًا، وَهُوَ مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ نَفْسُكَ، وَدَعْ أَمْرَ الْعَوَامِّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ، قَالَ وَزَادَنِي غَيْرُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ: خَمْسِينَ مِنْكُمْ.^{٧١٩}

فَالْمُؤْمِنُ لَا يَكُونُ مُهْتَدِيًا إِذَا أَصْلَحَ نَفْسَهُ، وَلَمْ يَهْتَمَّ بِإِصْلَاحِ غَيْرِهِ، بِأَنْ يَأْمُرَهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَهَذَا فَرَضٌ لَا هَوَادَةَ فِيهِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْفَرِيضَةُ تَسْقُطُ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ فَسَادًا لَا يُرْجَى مَعَهُ تَأْثِيرُ الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ.^{٧٢٠}

وَإِذَا كَانَ الْحَلَالُ بَيْنَنَا وَالْحَرَامَ بَيْنَنَا، وَإِذَا قَدْ دَعَى الضَّالُّونَ، إِلَى الْهُدَى، فَلَمْ يَسْمَعُوا، وَنَوَدُوا مِنْ قَرِيبٍ إِلَى الرِّشَادِ فَلَمْ يَرْشُدُوا. «وَقَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا» - إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَلَا يَشْغَلُ الْمُؤْمِنُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهِمْ، وَلَا يَقْفُوا طَوِيلًا مَعَهُمْ عَلَى هَذَا الْمَرْعَى الْوَبِيلِ، الَّذِي يَرْعُونَ فِيهِ، فَلَرُبَّمَا غَفَلَ الْمُؤْمِنُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُمْ عَلَى هَذَا الْمَوْقِفِ، وَفَاتَهُمْ مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَحْصُلُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ خَيْرٍ..

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ» دَعْوَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَلْتَفِتُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ أَوَّلًا، وَأَنْ يَعْمَلُوا عَلَى تَحْصِينِهَا مِنْ مَسَارِبِ الضَّلَالِ، وَتَزْوِيدِهَا بِالْمَزِيدِ مِنَ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى.. فَإِنَّهُمْ إِنْ أَنْقَذُوا أَنْفُسَهُمْ أَوَّلًا كَانَ ذَلِكَ كَسْبًا لَهُمْ، وَلِلْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.. وَذَلِكَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَوْضِعَ نَظَرِهِمْ، وَمَحَلِّ اهْتِمَامِهِمْ

^{٧١٨} - فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ لِلْسَيِّدِ قُطْبٍ - ط ١ - ت - عَلِيٌّ بْنُ نَائِفٍ الشُّحُودِ (ص: ١٣٤٦)

^{٧١٩} - صَحِيحُ ابْنِ حَبَانَ - (٢ / ١٠٩) (٣٨٥) صَحِيحٌ

^{٧٢٠} - أَيْسَرُ التَّفَاسِيرِ لِأَسْعَدِ حُومِدٍ (ص: ٧٧٥، بِتَرْقِيمِ الشَّامِلَةِ آيَا)

أولاً، فإن بقي عندهم بعد هذا فضل من قوة لاستنقاذ من إذا مدوا إليه أيديهم استجاب لهم، ففعلوا، وإلا كان عليهم أن ينجوا بأنفسهم، وألا يكونوا كمن يمد يده إلى غريق يأبى إلا أن يموت غرقاً، فيهلك ويهلك من أعطاه يده.

وهذا، لا يمنع المؤمن أن يكون رسول خير وهدى إلى الناس، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، فهذا من دعوة الإسلام له، ومن حق العباد عليه.

ولكن لن يكون ذلك بالذي يذهله عن نفسه، ويشغله عن مطلوبها منه، في تحصيل ما يقدر عليه من البر والتقوى.

فالآية لا تعني أبداً أن يعتزل المسلم الناس، وأن يعيش لنفسه وفي داخل نفسه، ومن فهمها على هذا الوجه فقد أخطأ الفهم، وجانب الصواب..

وإنما الآية دعوة إلى التّجاة بالنفس في الحال التي يواجه الإنسان فيها سرّاً صارحاً، وضلالاً، متكاثفاً، بحيث لا يصل إلى الأذان صدى من كلمة حق تقال، ولا ينفذ إلى العيون لمعة من مصباح هدى يضيء..

روى أن أبا ثعلبة سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقال صلوات الله وسلامه عليه: «اتّمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت دنيا مؤثرة، وشحاً مطاعاً، وهوى متّبعا، وإعجاب كلّ ذي رأى برأيه، فعليك بخويصة نفسك، ودع الناس وعوامهم»..

وتجد في قول الرسول الكريم، وفي تلك الكلمات الموجزة، أوضح بيان وأبلغ بلاغ في الدلالة على مفهوم الآية الكريمة..

ففي قول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «اتّمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر» هكذا بخطاب الجمع، هو دعوة عامة للمسلمين جميعاً، أن يكون أمرهم بينهم قائماً على هذا الدستور: الانتمار بالمعروف، والتناهي عن المنكر..

وفي قوله صلوات الله وسلامه عليه: «حتى إذا رأيت دنيا مؤثرة وشحاً مطاعاً وهوى متّبعا، وإعجاب كلّ ذي رأى برأيه فعليك بخويصة نفسك ودع الناس وعوامهم». في هذا بيان لموقف آخر من موقف المسلم فيما هو مطلوب منه، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي كلمة «حتى» إشارة إلى تلك الغاية التي يصل إليها المسلم، ويقف عندها على النظر إلى خاصة نفسه، وذلك حين يستشعر الفساد، ويطبق الظلام، ويتلفت إلى الناس من حوله، فإذا هم على طريق وإذا هو على طريق.. ولهذا جاء الخطاب بلفظ المفرد، «حتى إذا رأيت» الذي يشعر بأنه يقف وحده، جبهة مواجهة لهذا البلاء لجارف، الذي إن لم يأخذ فيه لنفسه حذرهما، جرفه التيار، وغرق مع المغرقين.^{٧٢١}

^{٧٢١} - التفسير القرآني للقرآن (٤ / ٦٠)

ولا يدل هذا على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يضر العبد تركهما وإهمالهما، فإنه لا يتم هده، إلا بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نعم، إذا كان عاجزا عن إنكار المنكر بيده ولسانه وأنكره بقلبه، فإنه لا يضره ضلال غيره.^{٧٢٢}
أنتم وحدة منفصلون عن سواكم، متضامنون متكافلون فيما بينكم. فعليكم أنفسكم .. عليكم أنفسكم فزكوها وطهروها وعليكم جماعتكم فالتزموها وراعوها ولا عليكم أن يضل غيركم إذا أنتم اهتديتم. فأنتم وحدة منفصلة عن عداكم وأنتم أمة متضامنة فيما بينها بعضكم أولياء بعض، ولا ولاء لكم ولا ارتباط بسواكم.

إن هذه الآية الواحدة تقرر مبادئ أساسية في طبيعة الأمة المسلمة، وفي طبيعة علاقاتها بالأمم الأخرى.
إن الأمة المسلمة هي حزب الله. ومن عداها من الأمم فهم حزب الشيطان. ومن ثم لا يقوم بينها وبين الأمم الأخرى ولاء ولا تضامن، لأنه لا اشتراك في عقيدة ومن ثم لا اشتراك في هدف أو وسيلة ولا اشتراك في تبعة أو جزاء.

وعلى الأمة المسلمة أن تتضامن فيما بينها وأن تتناصح وتتواصى، وأن تهتدي بهدي الله الذي جعل منها أمة مستقلة منفصلة عن الأمم غيرها .. ثم لا يضيرها بعد ذلك شيئا أن يضل الناس حولها ما دامت هي قائمة على الهدى.

ولكن ليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها في دعوة الناس كلهم إلى الهدى. والهدى هو دينها هي وشريعتها ونظامها. فإذا هي أقامت نظامها في الأرض بقي عليها أن تدعو الناس كافة، وأن تحاول هدايتهم، وبقي عليها أن تبشر القوامة على الناس كافة لتقيم العدل بينهم ولتحول بينهم وبين الضلال والجاهلية التي منها أخرجتهم ..

إن كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت، لا يعني أنها غير محاسبة على التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها أولا، ثم في الأرض جميعا. وأول المعروف الإسلام لله وتحكيم شريعته وأول المنكر الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته. وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت، والطاغوت هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه .. والأمة المسلمة قوامة على نفسها أولا وعلى البشرية كلها أخيرا.

وليس الغرض من بيان حدود التبعة في الآية كما فهم بعضهم قديما - وكما يمكن أن يفهم بعضهم حديثا - أن المؤمن الفرد غير مكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - إذا اهتدى هو بذاته - ولا أن الأمة المسلمة غير مكلفة إقامة شريعة الله في الأرض - إذا هي اهتدت بذاتها - وضل الناس من حولها.

^{٧٢٢} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٤٦)

إن هذه الآية لا تسقط عن الفرد ولا عن الأمة التبعة في كفاح الشر، ومقاومة الضلال ومحاربة الطغيان - وأطغى الطغيان الاعتداء على ألوهية الله واغتصاب سلطانه وتعبيد الناس لشريعة غير شريعته، وهو المنكر الذي لا ينفع الفرد ولا ينفع الأمة أن تهتدي وهذا المنكر قائم.

ولقد روى أصحاب عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَا وَضَعَهَا اللَّهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة:]، إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، يُوشِكُ أَنْ يَعْصِيَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ. ٧٢٣.

وهكذا صحح الخليفة الأول - رضوان الله عليه - ما ترامى إلى وهم بعض الناس في زمانه من هذه الآية الكريمة. ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح، لأن القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صارت أشق. فما أيسر ما يلجأ الضعاف إلى تأويل هذه الآية على النحو الذي يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقه، ويريحهم من عنت الجهاد وبلائه! وكلا والله! إن هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد. ولا يصلح إلا بعمل وكفاح. ولا بد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس إليه، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ولتقرير ألوهية الله في الأرض، ولرد المغتصبين لسلطان الله عما اغتصبوه من هذا السلطان، وإقامة شريعة الله في حياة الناس، وإقامة الناس عليها.. لا بد من جهد. بالحسن حين يكون الضالون أفرادا ضالين، يحتاجون إلى الإرشاد والإنارة. وبالقوة حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الهدى وتعطل دين الله أن يوجد، وتعوق شريعة الله أن تقوم. وبعد ذلك - لا قبله - تسقط التبعة عن الذين آمنوا، وينال الضالون جزاءهم من الله حين يرجع هؤلاء وهؤلاء إليه: «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».. ٧٢٤.

١٠. الترف:

قال تعالى: {حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ (٦٤) لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْ أَلَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)} [المؤمنون: ٦٤ - ٦٧]

حتى إذا جاء المترفين منهم، المنعمين في الدنيا، عذاب الله وبأسه ونقمته، إذا هم يستغيثون، ويصرخون واغوثاه (يجارون)، لشدة ما يُعانون من الكرب والآلام.

٧٢٣ - المسند الجامع [١١٥١/ ٩] (٧١٣٥) وصحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [١/ ٥٤٠] (٣٠٥) صحيح

٧٢٤ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٤٠٠)

وَيُجِيبُهُمُ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَائِلًا: لَا تَسْتَغِيثُوا فَلَنْ يُجِيرَكُمْ الْيَوْمَ أَحَدٌ مِمَّا حَلَّ بِكُمْ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ، سَوَاءٌ اسْتَغَثْتُمْ وَصَرَخْتُمْ، أَوْ سَكَتُمْ، وَلَنْ يَنْصُرَكُمْ أَحَدٌ مِنَ اللَّهِ، فَقَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ، وَوَجِبَ الْعَذَابُ

لَقَدْ كَانَتْ آيَاتُ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ، فَكُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ عَنْ سَمَاعِهَا، وَتَسْخَرُونَ مِنْهَا، وَتُعْرِضُونَ عَنْهَا، وَتُذَيِّرُونَ ظُهُورَكُمْ إِلَيْهَا وَلِذَلِكَ فَلَا عُذْرَ لَكُمْ الْيَوْمَ .

وَقَدْ كُنْتُمْ تُعْرِضُونَ عَنِ الْإِيمَانِ وَأَنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَتَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ حَرَمِ اللَّهِ، وَخُدَّامُ بَيْتِهِ، فَلَا يُظْهِرُ عَلَيْنَا أَحَدًا، وَلَا نَخَافُ أَحَدًا، وَكُنْتُمْ تَسْمُرُونَ حَوْلَ الْبَيْتِ، وَتَتَنَاولُونَ الْقُرْآنَ بِالْجَرِّ مِنْ الْقَوْلِ (سَامِرًا تَهْجُرُونَ) .. ٧٢٥

والمعنى: أن هؤلاء المشركين الغافلين عن آيات الله، المشغولين بهذا العبث الذي هم فيه مع معبوداتهم - سيظلون على ما هم فيه من غفلة، حتى إذا جاء وقت الحساب والجزاء، وسيقوا إلى جهنم - فرعوا، وعلا صياحهم، وارتفع صراخهم، من هذا الهول الذي هم فيه ..

وفي اختصاص المترفين من المشركين بالذكر، عرض لأبرز مثل فيهم، وهم المنعمون من المشركين، أصحاب المال، والجاه .. فهؤلاء إذا أخذوا، وفعل بهم هذا البلاء، ولم يغن عنهم ما لهم ولم يشفع لهم جاههم - كان غيرهم ممن لا مال له ولا جاه، أشدَّ خوفا من لقاء هذا العذاب، الذي ينتظره، وقد سبقه إليه من كانوا على الشرك مثله، ولم يشفع لهم مال أو سلطان .. فكيف بمن لا مال له ولا سلطان؟

قوله تعالى: «لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ» .

هذا هو الردّ على هذا الصراخ، الذي يتعاوى به المترفون من المشركين، وهم في العذاب المهين .. «لَا تَجْأَرُوا» فإنه لا فائدة ترجى من وراء هذا الصّراخ .. إنه لا يسمع أحد لكم، ولا يخفّ أحد لنجدتكم .. «إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ» .. فليس لأحد قدرة على أن يدفع عنكم هذا العذاب الذي حكم الله به عليكم ..

قوله تعالى: «قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تُنْكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ» .

أي لا تلوموا إلا أنفسكم، فقد كانت النجاة من هذا البلاء بين أيديكم، لو أنكم استمعتم إلى آياتي وآمنتم بها. ولكنكم كنتم إذا وقع إلى آذانكم شيء منها نفرتم كما ينفر الحيوان الوحشيّ حين يرى وجه إنسان .. فرجعتم على أعقابكم، في حركة منكوسة، وعيونكم إلى مصدر هذا الصوت الذي يسمعكم ما سمعتم من آيات الله، تنظرون إليه في حذر وخوف، كما ينظر العدو إلى عدوه ..!

٧٢٥ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٦١٧، بترقيم الشاملة آليا)

بل وأكثر من هذا.. فإنكم كنتم تتخذون مما تسمعون من آيات الله، مادة للسم في أنديتكم، وبجلا للسخرية والاستهزاء بها فيما بينكم.. «مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ.. سَامِرًا تَهْجُرُونَ».. والضمير في «به» يعود إلى ما يتلى عليهم من آيات الله، وما يسمعون من كلماته.. وقد عدى الفعل «استكبر» بحرف الجر الباء، لتضمنه معنى الاستهزاء.. أي أنكم لاستكباركم تلقون ما تسمعون من آيات الله، باستهزاء وسخرية..

فهى سخرية المستكبر، واستهزاء المتعالي.. «والسامر» مجتمع القوم للسم. ونصب «سامرًا» على أنه مفعول له.. أي لأجل السامر تهجرون مجلس الاستماع إلى القرآن.. «سامرًا تَهْجُرُونَ».. لأن السامر يحمل معنى السمر، وسمر القوم هو عبث ولهو، فكأن المعنى: لهوا ولعبا تهجرون الاستماع إلى كلام الله.. والجملة حال أخرى - من فاعل «تَنْكِصُونَ».. ويجوز أن يكون «تَهْجُرُونَ» من الهجر، وهو الفحش في القول.. ويكون «سامرًا» منصوبا على الحال من الضمير المستكن في «مُسْتَكْبِرِينَ» ويكون السامر بمعنى الاجتماع.. وجملة «تهجرون» حال من الضمير في السامر بمعنى الاجتماع..

بمعنى أنكم كنتم تنكصون على أعقابكم عند الاستماع إلى آيات الله، وقد اشتملت عليكم أكثر من حال.. إذ تنكصون.. مستهزئين، سامرين، متفحشين..^{٧٢٦}

{حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ} أي متنعميهم الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية والنعيم ولم تحصل لهم المكاره فإذا أخذناهم {بِالْعَذَابِ} ووجدوا مسه {إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ} يصرخون ويتوجعون لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه ويستغيثون فيقال لهم {لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصِرُونَ} وإذا لم تأتهم النصر من الله وانقطع عنهم الغوث من جانبه لم يستطيعوا نصر أنفسهم ولم ينصرهم أحد

فكأنه قيل ما السبب الذي أوصلهم إلى هذا الحال؟ قال {قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ} لتؤمنوا بها وتقبلوا عليها فلم تفعلوا ذلك بل {كُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ} أي راجعين القهقري إلى الخلف وذلك لأن باتباعهم القرآن يتقدمون وبالإعراض عنه يستأخرون ويتزلون إلى أسفل سافلين {مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ} قال المفسرون معناه مستكبرين به الضمير يعود إلى البيت المعهود عند المخاطبين أو الحرم أي متكبرين على الناس بسببه تقولون نحن أهل الحرم فنحن أفضل من غيرنا وأعلى {سَامِرًا} أي جماعة يتحدثون بالليل حول البيت {تَهْجُرُونَ} أي تقولون الكلام الهجر الذي هو القبيح في هذا القرآن

فالمكذبون كانت طريقتهم في القرآن الإعراض عنه ويوصي بعضهم بعضا بذلك {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ} وقال الله عنهم {أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ} *

^{٧٢٦} - التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١١٥٣)

وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ { أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ } فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل لا جرم حقت عليهم العقوبة ولما وقعوا فيها لم يكن لهم ناصر ينصرهم ولا مغيث ينقذهم ويوبخون عند ذلك بهذه الأعمال الساقطة^{٧٢٧}

والمترفون أشد الناس استغراقا في المتاع والانحراف والذهول عن المصير. وهما هم أولاء يفاجأون بالعذاب الذي يأخذهم أخذا، فإذا هم يرفعون أصواتهم بالجوار، مستغيثين مسترحمين (وذلك في مقابل الترف والغفلة والاستكبار والغرور) ثم ها هم أولاء يتلقون الزجر والتأنيب: «لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْهُ لَا تَنْصُرُونَ».. وإذا المشهد حاضر، وهم يتلقون الزجر والتأنيب، والتبئيس من كل نجدة ومن كل نصير، والتذكير بما كان منهم وهم في غمرتهم مستغرقون: «قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكَبُونَ» فتراجعون على أعقابكم كأن ما يتلى عليكم خطر تحاذرونه، أو مكروه تجانبونه، مستكبرين عن الإذعان للحق. ثم تزيدون على هذا سوء القول وهجره في سمرهم، حيث تناولون الرسول - ﷺ - وما جاء به بكلمات السوء.

ولقد كانوا يطلقون ألسنتهم بهجر القول وفحشه في مجالسهم وهم يتحلقون حول الأصنام في سامرهم بالكعبة. فهذا هو ذا القرآن يرسم لهم مشهد حسابهم على ما هم فيه وهم يجأرون طالبين الغوث، فيذكرهم بسمرهم الفاحش، وهجرهم القبيح. وكأنما هو واقع اللحظة، وهم يشهدونه ويعيشون فيه! وذلك على طريقة القرآن الكريم في رسم مشاهد القيامة كأنها واقع مشهود.

والمشركون في تهجمهم على رسول الله - ﷺ - وعلى القرآن في نواديهم وفي سمرهم يمثلون الكبرياء الجاهلة، التي لا تدرك قيمة الحق لأنها مطموسة البصيرة عمياء، فتتخذ منه مادة للسخرية والهزء والاتهام. ومثل هؤلاء في كل زمان. وليست جاهلية العرب إلا نموذجاً لجاهليات كثيرة خلعت في الزمان وما تزال تظهر الآن بعد الآن!^{٧٢٨}

وقال تعالى: { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } [الإسراء: ١٦]

فِي قِرَاءَةِ (أَمَرْنَا) وَجْهَانِ:

(أَمَرْنَا بِالْتَّخْفِيفِ - وَهُوَ الْمَشْهُورُ فِي قِرَاءَتِهَا: فَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّ الْمَعْنَى هُوَ أَنَّهُ إِذَا دَنَا تَعَلَّقَ إِرَادَتُنَا بِإِهْلَاكِ قَرْيَةٍ بِعَذَابِ الْاسْتِصْغَالِ لِمَا ظَهَرَ فِيهَا مِنَ الْمَعَاصِي، وَلَمَّا دَنَسَتْ بِهِ نَفْسَهَا مِنَ الْإِثَامِ، لَمْ يُعَاجِلْهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْعُقُوبَةِ، بَلْ يَأْمُرُ مُتْرَفِيهَا بِالطَّاعَةِ فَإِذَا فَسَقُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، وَتَمَرَّدُوا، حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ

^{٧٢٧} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٥٥)

^{٧٢٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣١٩٦)

لَا تَكَابِهَهُمُ الْكِبَائِرُ وَالْفَوَاحِشُ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِتَذْمِيرِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ . (وَخَصَّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُتَرَفِّينَ بِالذِّكْرِ لِمَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ مِنْ أَنَّ الْعَامَّةَ تُقَلِّدُهُمْ وَتَكُونُ تَبَعًا لَهُمْ، فِيمَا يَفْعَلُونَ) .

- وَمِنْ قَائِلٍ بَلْ إِنَّ الْمَعْنَى هُوَ: أَنَّ اللَّهَ يُسَخِّرُهُمْ لِفَعْلِ الْفَوَاحِشِ فَيَسْتَحِقُّونَ الْعُقُوبَةَ .

- وَأَمَرْنَا - بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ - وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِنَّ مَعْنَاهَا سَلَطْنَا شَرَارَهَا فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ . وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مُجْرِمِينَ } .

- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا: إِنَّ مَعْنَى (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)، أَكْثَرْنَا عِدَدَهُمْ فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى انْتِشَارِ الْفِسْقِ وَالْفِسَادِ وَالْكُفْرِ، فَيُهْلِكُكُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ ..^{٧٢٩}

هذه الآية الكريمة تشير إلى قضاء الله سبحانه، النافذ في العباد، وسنته الجارية عليهم، المطردة فيهم.. فإذا أَرَادَ اللَّهُ سبحانه وتعالى أمرا استدعى له أسبابه، ثم أجراه على هذه الأسباب، وأقامه على سنته الكونية..

وهو سبحانه مبدع، قادر، يقول للشيء كن فيكون.. وليست هذه الأسباب وتلك السنن حدودا تحد من سلطان القدرة، والإبداع.. وإنما هي في ذاتها من عمل القدرة، ومن آيات الإبداع، إذ كانت الحكمة قائمة مع الإبداع والقدرة.. وإلا فلو كانت القدرة قدرة مطلقة لا تتلبس الحكمة بها لكانت قوة طاغية، ترمى بالفوضى، والاضطراب.. تعالت قدرة الله عن ذلك علوا كبيرا..

وصفات الله سبحانه وتعالى، في كمالها وجلالها، ليست على هذا التصور الذي نتصوره، من أنها صفات متعددة.. وإنما هي في ذاتها صفة واحدة لله..

فكما أنه سبحانه واحد في ذاته، هو سبحانه واحد في صفاته.. ولكن هذا التعدد في الصفات، إنما هو من حيث نظرنا نحن إلى تجليات الله سبحانه وتعالى، فحين ننظر إلى العلم مثلا، ننسب العلم الكامل الشامل لله سبحانه وتعالى.. ولكنه علم من؟ إنه علم الله المتصف بصفات الكمال كلها.. وهكذا الشأن في كل صفة نصف الله جلّ وعزّ بها.. إنها صفة الله المتصف بكل كمال، المتزّه عن كل نقص..

والآية الكريمة تحدّث - كما قلنا - عن قضاء الله في عباد، وسنته فيهم، وأنه - سبحانه - إذا قضى بأن يهلك قرية لم يهلكها حتى يقيم الحجة عليها، بإرسال الرسل أولا، ثم بما يكون منها من عصيان الرسول، وكفر بالله، وبما يسوق إليه الكفر من ضلال وفساد.. ثانيا.

- وفي قوله تعالى: «أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا» إشارة إلى قضاء الله النافذ فيهم، وأنهم - تحت حكم هذا القضاء، لن يؤمنوا أبدا ولو جاءهم كل آية.. فكأنهم مأمورون بالكفر والعصيان، وإن لم يكن ثمة أمر ولا إلزام!! «إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ» ..

وتسأل: ما الحكمة من إرسال الرسل إلى من حقّ عليهم القول؟

^{٧٢٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٠٤٦، بترقيم الشاملة آليا)

والجواب، ما علمت من قوله تعالى: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» وذلك لإقامة الحجة عليهم، ولإظهار مالديهم من إرادة تواجه إرادة الله..

وإن كانت إرادة الله هي الغالبة! وتساءل: ما بال هؤلاء الذين حقّ عليهم القول يعذبون وهم مسوقون سوقا إلى قدرهم المقدور؟

ولا جواب، إلا أن هذه هي مشيئة الله في عباد.. «وَلَذَلِكَ خَلَقَهُمْ» ..

ولا يسأل الخالق عما يفعل فيما خلق: «لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ» (الأنبياء: ٢٣).

وفي الإشارة إلى «المترفين» وهم أصحاب الثراء، الذي يعيش له أهله في فراغ وبطالة - يعنى أن هؤلاء المترفين لا يرحى منهم خير، ولا يطبّ لدائهم بدواء.. فهم كائنات فاسدة هازلة، لا تجدّ أبدا.. ثم هم مع هذا قدوة الناس، وقادهم بما لهم من ثراء! - وقوله تعالى: «فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ»

- هو إشارة إلى ما قضى الله به في عباد، وما حكم به على هذه القرية، من الهلاك والتدمير.. فقول الله: هو قضاؤه وحكمته.. وإحقاق القول: هو وقوعه، ونفاذه..

وأخذ القرية كلها بفساد المفسدين من أهل الترف فيها، إنما لأن أحدا من أهل القرية لم يضرب على أيديهم، ولم ينكر عليهم هذا المنكر، والله سبحانه وتعالى يقول: «وَأَتَّقُوا فَتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» (الأنفال: ٢٥).^{٧٣٠}

والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة، حتى ترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجانة، وتستتهر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأعراض والحرمان، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فسادا، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها. ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها.

والآية تقرر سنة الله هذه. فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك، فكثير فيها المترفون، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها، فعم فيها الفسق، فتحللت وترهلت، فحققت عليها سنة الله، وأصابها الدمار والهلاك. وهي المسئولة عما يحل بها لأنها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين. فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحققت الهلاك، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك.

^{٧٣٠} - التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٤٦٤)

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف، وسننا لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحقق كلمته. والله لا يأمر بالفسق، لأن الله لا يأمر بالفحشاء. لكن وجود المترفين في ذاته، دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها، وسارت في طريق الانحلال، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقا.

وهي التي تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة. فالإرادة هنا ليست إرادة للتوجيه القهري الذي ينشئ السبب، ولكنها ترتب النتيجة على السبب. الأمر الذي لا مفر منه لأن السنة جرت به. والأمر ليس أمرا توجيهيا إلى الفسق، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين وهي الفسق. وهنا تبرز تبعة الجماعة في ترك النظم الفاسدة تنشئ آثارها التي لا مفر منها. وعدم الضرب على أيدي المترفين فيها كي لا يفسقوا فيها فيحق عليها القول فيدمرها تدميرا...^{٧٣١}

وقال تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَئِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)}

[الأنبياء: ١١ - ١٥]

لقد أهلكنا قرياً وأما كثيرة كانت ظالمة بكفرها وفسادها، وتكذيبها الرسل، وأنشأنا بعدهم أقواماً آخرين، خلفوهم في الأرض. ويتهكم الله تعالى عليهم لفرارهم هرباً من العذاب، ويأمر بأن يُنادى عليهم: ارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسُرور، والعيش الرغيد، والمساكن الطيبة، لتسألوا عما كنتم فيه من النعيم، وهل أدبتم الشكر عليه الله تعالى. وما زالوا يُردّدون تلك المقالة، وهي الاعتراف بالظلم والكفر، حتى حصدهم الله حصداً، وأهلكهم وأخمدوا أنفاسهم، فلم يعد يُسمع لهم حس...^{٧٣٢}

هو تعريض بأهل القرية «مكة»، وتهديد لهم بأن يسلكوا في عداد القرى الظالمة التي قصمها الله، أي أهلكها، وقطع دابرها.. ثم أقام مكانهم «قوماً آخرين». والقصم: القطع الحاسم، وهو أشد من القضم. قوله تعالى: «فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَئِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ». البأس: العذاب، والبلاء. أي فلما أراد الله أن يأخذ الظالمين بظلمهم، ساق إليهم بأسه وعذابه.. فلما استشعروا وقوع العذاب بهم، بما طلع عليهم من مقدماته ونذره، ذعروا، وأخذوا يركضون، أي يجرون مسرعين في فرارهم، واضطراب، فراراً من تلك القرية، وخوفاً من أن ينهار عليهم بناؤها، أو تخسف بهم أرضها.

^{٧٣١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٨٩٤)

^{٧٣٢} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٤٤٨، بترقيم الشاملة آليا)

قوله تعالى: «لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ» .
هذا هو صوت الحال يناديهم: إلى أين؟ قفوا حيث أنتم، ولا تركضوا كركض الحمر المستنفرة.. إنكم لن
تفعلوا من هذا البلاء النازل بكم..

ولن تتركوا دياركم وما حشدتم فيها من متاع، وما جلبتم إليها من متع؟
وكيف تتركون هذا الذي أنتم فيه من ترف ونعيم؟ ارجعوا.. أفترهبون وتتركون هذا الذي أذهبتم
حياتكم، واستهلكتم أعماركم في إعدادة وجمعه؟
ارجعوا، ولو كان في ذلك هلاككم.. إن السفينة لتغرق ويغرق معها كل شيء لكم.. فما حياتكم بعد
هذا؟

وفي قوله تعالى: «وَمَسَاكِكُمْ» إشارة إلى ما للوطن، والسكن، من مكان مكين في قلب الإنسان.. وأنه
شيء أحب وأثر من كل ما يحرص الإنسان عليه، وأن نعيم الإنسان لا يجتمع إلا فيه، ولا يتم إلا
به.. وإن الغريب الذي لا وطن له ولا سكن، هو إنسان ضائع شقي، وإن طعم أطيب المطاعم، ولبس
أفخر الملابس، ونزل أحسن المنازل.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا
أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ» (٦٦: النساء) .

فجاء هنا الخروج من الديار، معادلا لقتل النفس! وفي قوله تعالى: «لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ» استهزاء
بهم، وسخرية من مشاعرهم التي يداعبها الأمل بالنجاة في هذا الركض الذي يركضونه..

فهم مسئولون لا محالة عما كانوا فيه من ضلال، واستغراق في الترف الذي أذهلهم عن النظر في
أنفسهم، وطلب النجاة قبل وقوع البلاء بهم.. وقد جاء الإخبار بسؤالهم في صورة الرجاء، الذي يمكن
أن يقع أو لا يقع، وذلك لتحرك في صدورهم مشاعر الأمل في النجاة، ثم إذا هم تحت ضربات
البلاء، وقد أحاط بهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم.. فيالخيبة الأمل! لقد برقت بوارقه، ثم
انطفأت، فإذا هم في ظلمات يعمهون.

قوله تعالى: «قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَلَّ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدينَ»
.. وهكذا أصبحوا وجها لوجه مع عذاب الله النازل بهم، لا يملكون معه إلا التنادى بالويل، وإلا أن
يندبوا حظهم المنكود، ويرجعوا على أنفسهم باللائمة والندم، ولات ساعة مندم! وهكذا تظل تتعالى
صياحاتهم، ويتعاوى صراخهم، إلى أن تخمد أنفاسهم، ويصبحوا جثثا هامدة، كحصاد هشيم، تذروه
الرياح. ٧٣٣

يقول تعالى - محذرا لهؤلاء الظالمين، المكذبين للرسول، بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل - {وَكَمْ
قَصَمْنَا} أي: أهلكتنا بعذاب مستأصل {مِنْ قَرْيَةٍ} تلفت عن آخرها {وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ}

وأن هؤلاء المهلكين، لما أحسوا بعذاب الله وعقابه، وبأشدهم نزوله، لم يمكن لهم الرجوع ولا طريق لهم إلى التزوع وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم، ندما وقلقا، وتحسرا على ما فعلوا وهربوا من وقوعه، فقبل لهم على وجه التهكم بهم: {لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} أي: لا يفيدكم الركوض والندم، ولكن إن كان لكم اقتدار، فارجعوا إلى ما أترفتم فيه، من اللذات، والمشتهيات، ومسكنكم المزخرفات، ودنياكم التي غرتكم وأهتكم، حتى جاءكم أمر الله. فكونوا فيها متمكنين، وللذاتهما جانين، وفي منازلكم مطمئنين معظمين، لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم، كما كنتم سابقا، مسئولين من مطالب الدنيا، كحالتكم الأولى، وهيهات، أين الوصول إلى هذا؟ وقد فات الوقت، وحل بهم العقاب والمقت، وذهب عنهم عزهم، وشرفهم ودنياهم، وحضرهم ندمهم وتحسرهم؟.

ولهذا {قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ { أي الدعاء بالويل والنبور والندم والإقرار على أنفسهم بالظلم وأن الله عادل فيما أحل بهم {حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ} أي بمزلة النبات الذي قد حصد وأنيم قد خمدت منهم الحركات وسكنت منهم الأصوات فاحذروا - أيها المخاطبون - أن تستمروا على تكذيب أشرف الرسل فيحل بكم كما حل بأولئك^{٧٣٤}

والقصم أشد حركات القطع. وجرسها اللفظي يصور معناها، ويلقي ظل الشدة والعنف والتحطيم والقضاء الحاسم على القرى التي كانت ظالمة. فإذا هي مدمرة محطمة .. «وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ». وهو عند القصم يوقع الفعل على القرى ليشمل ما فيها ومن فيها. وعند الإنشاء يوقع الفعل على القوم الذين ينشأون ويعيدون إنشاء القرى .. وهذه حقيقة في ذاتها.

فالدمار يحل بالديار والديار. والإنشاء يبدأ بالديارين فيعيدون إنشاء الدور .. ولكن عرض هذه الحقيقة في هذه الصورة يضخم عملية القصم والتدمير، وهذا هو الظل المراد إلقاؤه بالتعبير على طريقة التصوير!

ثم ننظر فنشهد حركة القوم في تلك القرى وبأس الله يأخذهم، وهم كالفيران في المصيدة يضطربون من هنا إلى هناك قبيل الخمود: «فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ» .. يسارعون بالخروج من القرية ركضا وعدوا، وقد تبين لهم أنهم مأخوذون ببأس الله. كأنما الركض ينجيهم من بأس الله. وكأنما هم أسرع عدوا فلا يلحق بهم حيث يركضون! ولكنها حركة الفأر في المصيدة بلا تفكير ولا شعور. عندئذ يتلقون التهكم المرير: «لَا تَرْكُضُوا، وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ»! لا تركضوا من قريبتكم. وعودوا إلى متاعكم الهنيء وعيشكم الرغيد وسكنكم المريح .. عودوا لعلكم تسألون عن ذلك كله فيم أنفقتموه؟!.

^{٧٣٤} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٢٠)

وما عاد هنالك مجال لسؤال ولا لجواب. إنما هو التهكم والاستهزاء! عند ذلك يفيقون فيشعرون بأن لا مفر ولا مهرب من بأس الله المحيط. وأنه لا ينفعهم ركض، ولا ينقذهم فرار. فيحاولون الاعتراف والتوبة والاستغفار: «قَالُوا: يَا وَيْلَنَا! إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ».. ولكن لقد فات الأوان. فليقولوا ما يشاءون. فإنهم لمتروكون يقولون حتى يقضى الأمر وتحمد الأنفاس: «فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ».. وبإله من حصيد آدمي، لا حركة فيه ولا حياة وكان منذ لحظة يموج بالحركة، وتضطرب فيه الحياة! ٧٣٥

١١. عدم الإنابة إلى الله:

قال تعالى: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ} [الزمر: ٥٤] يستحث الله تعالى الذين أسرفوا على أنفسهم إلى المسارعة إلى التوبة، ويقول لهم: ارجعوا إلى ربكم بالتوبة، والعمل الصالح قبل أن تحل بكم نقمته، وقبل أن ينزل بكم العذاب، وحينئذ لا تجدون من ينصركم من بأس الله. ولا من يدفع عنكم عذابه.. ٧٣٦

إنه دعوة إلى رحاب الله، بعد أن فتحت الأبواب، ومدت موائد رحمته.. فلم يتبق إلا أن يمد المدعوون أيديهم إلى هذه الموائد، وأن ينالوا منها ما يشتهون.. ومن عظيم لطف الله بعباده، وسابغ برّه بهم، وسعة رحمته لهم، أن لقيهم، وهم على طريق الضلال، وبين مراعى الإثم والمعصية، وأراهم منه - سبحانه - ما بين يديه من رحمة ومغفرة، وأنهم مع ما هم فيه من محاربة له، وعصيان لأمره، واعتداء على حرمانه - لا يزالون من عباده، الذين لا تغلق دونهم أبوابه، ولا تحجب عنهم رحمته - ذلك كله قبل أن يطلب - سبحانه وتعالى - إليهم أن يرجعوا إليه، وأن يلحقوا الأسلحة التي يحاربونها بها.. إنهم على ما هم عليه عباده، وأبوابه لن تغلق دونهم، ورحمته لن تحجب عنهم، ماداموا في هذه الدنيا.. ألا خسيء من لا يستحي من ربه، فيظل قائما على حربه، على حين يبسط إليه ربه يده، ويظللله بربوبيته، ويمده بنعمه وفضله! فقله تعالى: «وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ» - هو رحمة من رحمة الله، وإفساح لطريق النجاة، بالعودة إلى الله والمصالحة معه، في أية لحظة من لحظات الحياة، قبل أن تدنو ساعة الموت، وينقطع العمل، وينتقل الإنسان إلى الدار الآخرة. بما مات عليه في الدنيا.. وعندئذ يتزل الإنسان منزله في الآخرة، بآخر منزل كان عليه في الدنيا.. ٧٣٧

٧٣٥ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٠٧٠)

٧٣٦ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٩٩١، بترقيم الشاملة آليا)

٧٣٧ - التفسير القرآني للقرآن (١٢ / ١١٨١)

ولهذا أمر تعالى بالإجابة إليه، والمبادرة إليها فقال: {وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ} بقلوبكم {وَأَسْلِمُوا لَهُ} بجوارحكم، إذا أفردت الإجابة، دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما، كما في هذا الموضع، كان المعنى ما ذكرنا. وفي قوله {إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} دليل على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئا. {مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ} مجيئا لا يدفع {ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} فكأنه قيل: ما هي الإجابة والإسلام؟ وما جزئياتها وأعمالها؟^{٧٣٨}

الإجابة. والإسلام. والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام.. هذا هو كل شيء. بلا طقوس ولا مراسم ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء! إنه حساب مباشر بين العبد والرب. وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق. من أراد الأوبة من الشاردين فليؤب.

ومن أراد الإجابة من الضالين، فلينب. ومن أراد الاستسلام من العصاة فليستسلم. وليأت.. ليأت وليدخل فالباب مفتوح. والفيء والظل والندى والرخاء: كله وراء الباب لا حاجب دونه ولا حسيب! وهيا. هيا قبل فوات الأوان. هيا «مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ».. فما هنالك من نصير. هيا فالوقت غير مضمون. وقد يفصل في الأمر وتغلق الأبواب في أية لحظة من لحظات الليل والنهار. هيا.

«وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ».. وهو هذا القرآن بين أيديكم.. «مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَعْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ».. هيا قبل أن تتحسروا على فوات الفرصة، وعلى التفريط في حق الله، وعلى السخرية بوعده الله: «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ: يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ. وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ».. أو تقول إن الله كتب عليّ الضلال ولو كتب عليّ الهدى لاهتديت واتيقت: «أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ».. وهي علالة لا أصل لها. فالفرصة هاهي ذي سانحة، ووسائل الهدى ما تزال حاضرة. وباب التوبة هاهو ذا مفتوح! «أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ: لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ».. وهي أمنية لا تنال. فإذا انتهت هذه الحياة فلا كرة ولا رجوع. وهما أنتم أولاء في دار العمل. وهي فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود. وستسألون عنها مع التبكيت والترذيل: «بَلَىٰ. قَدْ جَاءَ نَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ!»^{٧٣٩}

١٢. ارتكاب خمس فواحش:

^{٧٣٨} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٢٧)

^{٧٣٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٥١)

عَنْ عَطَاءٍ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ، يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خِصَالُ خَمْسٍ إِنْ بَلَّيْتُمْ بِهِنَّ وَنَزَلْنَ بِكُمْ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: إِنَّهُ لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي [لَمْ تَكُنْ] مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخْذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَعُونَةِ [الْمُؤْنَةِ]، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَنْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنَعُوا الْقَطَرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْ لَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُصُوا عَهْدَ اللَّهِ وَوَعْدَ [عَهْدِ] رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَأَخْذُوا بَعْضَ مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَإِذَا لَمْ يَحْكُمِ أَمَّتْهُمْ بَكْتَابِ اللَّهِ جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهُمَ بَيْنَهُمْ"، وَ [ثُمَّ] أَمَرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أَنْ يَتَجَهَّزَ لِسَرِيَّةٍ بَعَثَهُ عَلَيْهَا، فَأَصْبَحَ قَدْ اعْتَمَّ بِعِمَامَتِهِ كَرَابِيسَ سَوْدَاءَ، فَادَّاهُ فَأَدْنَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ نَقَضَهَا فَعَمَّمَهُ [بِعِمَامَةِ بَيْضَاءَ]، وَأَرْسَلَ مِنْ خَلْفِهِ أَرْبَعَ أَصَابِعَ أَوْ نَحْوَهَا، ثُمَّ قَالَ: «هَكَذَا يَا ابْنَ عَوْفٍ فَاعْتَمَّ، فَإِنَّهُ أَغْرَبَ وَأَحْسَنَ»، ثُمَّ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِلَالًا أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِ اللَّوَاءَ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «خُذْ يَا ابْنَ عَوْفٍ، وَاغْزُوا جَمِيعًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْتَدُوا وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، [فَهَذَا] عَهْدُ اللَّهِ وَسُنَّةُ نَبِيِّكُمْ» ﷺ "رواه ابن ماجه ٧٤٠.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ قَطُّ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَلَا فَشَتْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلَّا أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالْمَوْتِ، وَمَا طَفَفَ قَوْمٌ الْمِيزَانَ إِلَّا أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالسِّنِينَ، وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ إِلَّا مَنَعَهُمُ اللَّهُ الْقَطَرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَمَا جَارَ قَوْمٌ فِي حُكْمٍ إِلَّا كَانَ الْبَأْسُ بَيْنَهُمْ، أَظُنُّهُ قَالَ: وَالْقَتْلُ" ٧٤١
وَعَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ قَطُّ إِلَّا كَانَ الْقَتْلُ بَيْنَهُمْ، وَمَا ظَهَرَتْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ، وَلَا مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ إِلَّا حَبَسَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْقَطَرَ" ٧٤٢
وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ كَعْبٍ، قَالَ: "إِذَا رَأَيْتَ الْمَطَرَ قَدْ قَحَطَ فَاعْلَمْ أَنَّ الزَّكَاةَ قَدْ مُنِعَتْ، وَإِذَا رَأَيْتَ السُّيُوفَ قَدْ عَرِيَتْ فَاعْلَمْ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ ضَيَّعَ فَانْتَقِمَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَإِذَا رَأَيْتَ الْوَبَاءَ قَدْ ظَهَرَ فَاعْلَمْ أَنَّ الزَّنَا قَدْ فَشَا" ٧٤٣

وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ، يُحَدِّثُ بِمَنْى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خِصَالُ خَمْسٍ إِنْ ابْتَلَيْتُمْ بِهِنَّ وَنَزَلْنَ بِكُمْ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ

٣٦- مسند الشاميين للطبراني (٢/ ٣٩١) (١٥٥٨) حسن

قوله (إذا ابتليتم) على بناء المفعول والجزاء محذوف أي فلا خبر (لم تظهر الفاحشة) أي الزنا (بالسنين) أي بالقحط (منعوا القطر) (منعوا على بناء المفعول والقطر بالسكون المطر وهو بالنصب مفعول ثانٍ (لم يمتطروا) على بناء المفعول (عهد الله) هو ما جرى بينهم وبين أهل الحرب

٧٤١ - السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ٤٨٣) (٦٣٩٨) صحيح

٧٤٢ - شعب الإيمان (٥/ ٢١) (٣٠٤٠) حسن

٧٤٣ - شعب الإيمان (٥/ ٢٢) (٣٠٤١) صحيح مقطوع

وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُتُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنَعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْ لَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمَطَّرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَأْخُذُ بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكَمْ أَيْمَتُهُمْ بَيْنَهُمْ بَكِتَابِ اللَّهِ إِلَّا جَعَلَ بِأَسْهُمِ بَيْنَهُمْ ٧٤٤١

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: "كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا وَقَعَتْ فِيكُمْ خَمْسٌ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تَكُونَ فِيكُمْ أَوْ تُدْرِكُوهُنَّ: مَا ظَهَرَتْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ يُعْمَلُ بِهَا فِيهِمْ عَلَانِيَةً، إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمْ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِهِمْ، وَمَا مَنَعَ قَوْمَ الزَّكَاةِ إِلَّا مُنَعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْ لَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمَطَّرُوا، وَمَا بَخَسَ قَوْمُ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمُتُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَا حَكَمَ أُمَرَاؤُهُمْ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا سَلَطَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ وَاسْتَفْقَدُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا عَطَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهُمِ بَيْنَهُمْ" ثُمَّ قَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: "يَتَجَهَّزُ"، فَعَدَا عَلَيْهِمْ وَقَدْ اعْتَمَّ، وَأَرْسَلَ عِمَامَتَهُ نَحْوًا مِنْ ذِرَاعٍ، فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَنَقَضَ عِمَامَتَهُ بِيَدِهِ فَعَمَّمَهَا إِيَّاهُ، وَأَرْسَلَ مِنْهَا نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ ثُمَّ قَالَ: "هَكَذَا يَا ابْنَ عَوْفٍ" ثُمَّ سَرَّحَهُ ٧٤٥١

وَعَنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: كُنَّا نَكُونُ عِنْدَ مَالِكٍ يَعْني ابْنَ دِينَارٍ، وَكَانَتْ الْغُيُومُ تَجِيءُ وَتَذْهَبُ وَلَا تُمَطَّرُ، قَالَ فَقَالَ مَالِكٌ: "تَرَوْنَ وَلَا تُؤَافُونَ أَنْتُمْ تَسْتَبْطِئُونَ الْمَطَرَ وَأَنَا أَسْتَبْطِئُ الْحَجَارَةَ" ٧٤٦١
وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ: "مَا سَقَطَتْ أُمَّةٌ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَ اللَّهُ أَكْبَارَهَا بِالْجُوعِ" ٧٤٧١
وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْعَدُوَّ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَأْخُذَ بَعْضَ مَا فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْأَمْوَالِ، أَوْ مِنَ الْأَرْضِ، أَوْ مِنْ غَيْرِهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَهْزِمَ الْمُسْلِمُونَ، وَيَسْتَذِلُّوهُ.

١٣. ترك الجهاد في سبيل الله :

قَالَ تَعَالَى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) } [النساء]

٧٤٤ - شعب الإيمان (٢٢/٥) (٣٠٤٢) صحيح

٧٤٥ - شعب الإيمان (٢٣/٥) (٣٠٤٣) فيه ضعف

٧٤٦ - شعب الإيمان (٢٤/٥) (٣٠٤٤) حسن

٧٤٧ - شعب الإيمان (٢٤/٥) (٣٠٤٥) حسن

يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى لِلنَّاسِ مَا لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، مِنْ عَظِيمِ الْأَجْرِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالدرجاتِ الْكَرِيمَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: إِنَّ الْقَاعِدِينَ عَنِ الْجِهَادِ - إِذَا كَانُوا غَيْرَ مُعْذُورِينَ، وَغَيْرِ ذَوِي عِلَّةٍ وَضَرَرٍ - لَا يَسْتَوُونَ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّ اللَّهَ فَضَّلَ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ، وَخَصَّهُمْ بِدرجاتٍ عَظِيمَةٍ، وَأَجْرٍ كَبِيرٍ، وَإِنْ كَانَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَ الْقَاعِدِينَ عَنِ الْجِهَادِ عِجْزًا، مَعَ تَمَنِّي الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، كَمَا وَعَدَ الْمُجَاهِدِينَ، بِالْخَيْرِ وَالثُّبُوتِ وَالْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ كَامِلٌ بِالْإِيمَانِ، مُخْلِصٌ لِلَّهِ فِي الْعَمَلِ .

وهذا الْأَجْرُ الْعَظِيمُ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ بِهِ الْمُجَاهِدِينَ، وَفَضَّلَهُمْ بِهِ عَلَى الْقَاعِدِينَ مِنْ ذَوِي الْأَعْذَارِ، هُوَ درجاتٌ مِنْهُ، وَمَنَازِلُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا لِدُنُوبِ أَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْمَغْفِرَةَ، رَحِيمًا بِأَهْلِ طَاعَتِهِ .^{٧٤٨}

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ» بَيَانٌ لِمَا بَيْنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَبَيْنَ الَّذِينَ لَمْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ مِنْ ذَوِي الْأَعْذَارِ - مَنْ تَفَاوَتْ فِي الْفَضْلِ وَالْمُتَزَلَّةِ عِنْدَ اللَّهِ..

فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ الْمَالَ، وَعَافَاهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَلَمْ يَفْقِدُوا جَارِحَةً مِنْ جَوَارِحِهِمُ الْعَامِلَةِ، وَلَمْ يَصَابُوا بِمَرَضٍ مُقْعَدٍ - هَؤُلَاءِ إِذَا أَدَّوْا حَقَّ اللَّهِ فِي هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ فِي الْمَالَ وَفِي النَّفْسِ، فَبَذَلُوا الْمَالَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدَّمُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْإِسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - فَقَدْ اسْتَحَقُّوا جِزَاءَ الْحَسَنِينَ، وَاسْتَوْفَوْهُ كَامِلًا! أَمَّا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَالٌ يَنْفِقُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ قُدْرَةٌ بَدَنِيَّةٌ عَلَى الْجِهَادِ بِأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَهُمْ - وَإِنْ كَانُوا وَلَا لَوْمَ عَلَيْهِمْ، وَلَا مَوَازِينَ - لَمْ يَكْسِبُوا مَا كَسَبَهُ الْمُجَاهِدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَبِهَذَا سَبَقَهُمْ هَؤُلَاءِ الْمُجَاهِدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، فِي مِيدَانِ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ، وَكَانُوا أَعْلَى دَرَجَةٍ عِنْدَ اللَّهِ مِنْهُمْ.. وَهَذَا مَا يَشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:

«فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى» .

فَهَؤُلَاءِ، وَأُولَئِكَ، قَدْ وَعَدَهُمُ اللَّهُ الْحُسْنَى، وَإِنْ كَانَ الْمُجَاهِدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنْهُمْ فِي مَقَامِ الْإِحْسَانِ، الَّذِي هُوَ حَظٌ مَقْسُومٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَأَدَّوْا لِلَّهِ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ، جَهْدَ طَاقَتِهِمْ، وَمَا وَسَعَتْ أَنْفُسُهُمْ.

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا، وَلَمْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَبَيْنَ أَيْدِيهِمُ الْمَالَ، وَمَعَهُمُ الصَّحَّةُ وَالْعَافِيَةُ، وَلَكِنْهُمْ آثَرُوا السَّلَامَةَ وَالِدَّعَةَ، وَبَجَلُوا بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ - هَؤُلَاءِ قَدْ بَخَسُوا دِينَهُمْ حَقَّهُ، وَنَزَلُوا عَنْ دَرَجَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، عَلَى حِينِ ارْتِفَاعِ الْمُجَاهِدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ دَرَجَاتٍ.. وَبِهَذَا كَانَ الْبُؤْسُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ شَاسِعًا، وَالْمَدَى بَعِيدًا.. وَهَذَا مَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ.

^{٧٤٨} - أَيْسَرُ التَّفَاسِيرِ لِأَسْعَدِ حُومِدٍ (ص: ٥٨٨، بِتَرْقِيمِ الشَّامِلَةِ آيَا)

«وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا».. فهذا الأجر العظيم الذي فضّل الله به المجاهدين على القاعدين، هو درجات كثيرة في مقام الإحسان، ومغفرة من الله ورحمة، تشتمل هؤلاء المجاهدين، وتبدل سيئاتهم حسنات: «أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ»^{٧٤٩}.

أي: لا يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله ومن لم يخرج للجهاد ولم يقاتل أعداء الله، ففيه الحث على الخروج للجهاد، والترغيب في ذلك، والترهيب من التكاسل والقفود عنه من غير عذر. وأما أهل الضرر كالمريض والأعمى والأعرج والذي لا يجد ما يتجهز به، فإنهم ليسوا بمتزلة القاعدين من غير عذر، فمن كان من أولي الضرر راضياً بعوده لا ينوي الخروج في سبيل الله لولا [وجود] المانع، ولا يُحدّث نفسه بذلك، فإنه بمتزلة القاعد لغير عذر.

ومن كان عازماً على الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع يتمنى ذلك ويُحدّث به نفسه، فإنه بمتزلة من خرج للجهاد، لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول أو الفعل يتزل صاحبها متزلة الفاعل.

ثم صرّح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة، أي: الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرح بذلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم، والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير، واندفاع كل شر.

والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في "الصحيحين" أن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله.

وهذا الثواب الذي رتبته الله على الجهاد، نظير الذي في سورة الصف في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} إلى آخر السورة

وتأمل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره ثم صرّح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات

وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح أو التزول من حالة إلى ما دونها عند القدح والذم - أحسن لفظاً وأوقع في النفس

وكذلك إذا فضّل تعالى شيئاً على شيء وكل منهما له فضل احتراز بذكر الفضل الجامع للأمرين لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه كما قال هنا {وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} .

^{٧٤٩} - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٧٣)

وكما قال تعالى في الآيات المذكورة في الصف في قوله {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} وكما في قوله تعالى {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ} أي ممن لم يكن كذلك
ثم قال {وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} وكما قال تعالى {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}
فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال أن يتفطن لهذه النكتة
وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض لئلا يتوهم أن المفضل قد حصل له الكمال كما إذا قيل النصراني خير من المجوس فيقل مع ذلك وكل
منهما كافر والقتل أشنع من الزنا وكل منهما معصية كبيرة حرمها الله ورسوله وزجر عنها
ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرتين عن اسميه الكريمين {الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} ختم هذا الآية بهما
فقال {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} ٧٥٠.

إن هذا النص القرآني كان يواجه حالة خاصة في المجتمع المسلم وما حوله وكان يعالج حالة خاصة في
هذا المجتمع من التراخي - من بعض عناصره - في النهوض بتكاليف الجهاد بالأموال والأنفس. سواء
كان المقصود أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة احتفاظاً بأموالهم، إذ لم يكن المشركون يسمحون لمهاجر
أن يحمل معه شيئاً من ماله أو توفيراً لعناء الهجرة وما فيها من مخاطر، إذ لم يكن المشركون يتركون
المسلمين يهاجرون، وكثيراً ما كانوا يحبسونه ويؤذونهم - أو يزيدون في إيذائهم بتعبير أدق - إذا
عرفوا منهم نية الهجرة.. سواء كان المقصود هم أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة - وهو ما نرجحه -
أو كان المقصود بعض المسلمين في دار الإسلام، الذين لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس - من غير
المنافقين المبطلين الذين ورد ذكرهم في درس سابق - أو كان المقصود هؤلاء وهؤلاء ممن لم ينشطوا
للجهاد بالأموال والأنفس في دار الحرب ودار الإسلام سواء.

إن هذا النص كان يواجه هذه الحالة الخاصة ولكن التعبير القرآني يقرر قاعدة عامة يطلقها من قيود
الزمان، وملازمات البيئة ويجعلها هي القاعدة التي ينظر الله بها إلى المؤمنين في كل زمان وفي كل
مكان - قاعدة عدم الاستواء بين القاعدين من المؤمنين عن الجهاد بالأموال والأنفس - غير أولي
الضرر الذين يقعدهم العجز عن الجهاد بالنفس، أو يقعدهم الفقر والعجز عن الجهاد بالنفس والمال -
عدم الاستواء بين هؤلاء القاعدين والآخرين الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم.. قاعدة عامة على
الإطلاق: «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ - وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
بَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ»..

ولا يتركها هكذا مبهمة، بل يوضحها ويقررها، ويبين طبيعة عدم الاستواء بين الفريقين: «فَضَّلَ اللَّهُ
الْمُجَاهِدِينَ بَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً»..

٧٥٠ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٩٥)

وهذه الدرجة يمثلها رسول الله ﷺ في مقامهم في الجنة.

في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - قَالَ « مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ هَاجِرًا، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا » قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا تُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ. قَالَ « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ » ٧٥١ ...

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ بَلَغَ بِسَهْمٍ فَلَهُ دَرَجَةٌ. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الدَّرَجَةُ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهَا لَيْسَتْ بِعَتَبَةٍ أُمِّكَ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ مِائَةُ عَامٍ" ٧٥٢.

وَعَنْ شُرَحْبِيلَ بْنِ السَّمْطِ، قَالَ: قُلْنَا لِكَعْبِ بْنِ مُرَّةٍ: يَا كَعْبُ، حَدِّثْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاحِدًا، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ بَلَغَ الْعَدُوَّ بِسَهْمٍ رَفَعَ اللَّهُ بِهِ دَرَجَةً لَهُ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ النَّحَّاسِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الدَّرَجَةُ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهَا لَيْسَتْ بِعَتَبَةٍ أُمِّكَ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ مِائَةُ عَامٍ. ٧٥٣

وهذه المسافات التي يمثل بها رسول الله ﷺ، نحسب أننا اليوم أقدر على تصورها بعد الذي عرفناه من بعض أبعاد الكون. حتى إن الضوء ليصل من نجم إلى كوكب في مئات السنين الضوئية! وقد كان الذين يسمعون رسول الله ﷺ - يصدقونه بما يقول. ولكننا - كما قلت - ربما كنا أقدر - فوق الإيمان - على تصور هذه الأبعاد بما عرفناه من بعض أبعاد الكون العجيب! ثم يعود السياق بعد تقرير هذا الفارق في المستوي بين القاعدين من المؤمنين - غير أولي الضرر - والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم، فيقرر أن الله وعد جميعهم الحسن: «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى» ..

فلإيمان وزنه وقيمته على كل حال مع تفاضل أهله في الدرجات وفق تفاضلهم في النهوض بتكاليف الإيمان فيما يتعلق بالجهاد بالأموال والأنفس .. وهذا الاستدراك هو الذي نفهم منه أن هؤلاء القاعدين ليسوا هم المنافقين المبطلين. إنما هم طائفة أخرى صالحة في الصف المسلم ومخلصة ولكنها قصرت في هذا الجانب والقرآن يستحثها لتلافي التقصير والخير مرجو فيها، والأمل قائم في أن تستجيب.

فإذا انتهى من هذا الاستدراك عاد لتقرير القاعدة الأولى مؤكدا لها، متوسعا في عرضها معنا في الترغيب فيما وراءها من أجر عظيم: «وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا. دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً. وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا».

٧٥١ - صحيح البخاري - المكثر - (٧٤٢٣)

٧٥٢ - تفسير ابن أبي حاتم - (٤ / ٣١٧) (٥٨٨٥) صحيح لغيره

٧٥٣ - صحيح ابن حبان - (١٠ / ٤٧٧) (٤٦١٦) صحيح لغيره - من إضافتي -

وهذا التوكيد .. وهذه الوعود .. وهذا التمجيد للمجاهدين .. والتفضيل على القاعدين .. والتلويح بكل ما تحفو له نفس المؤمن من درجات الأجر العظيم .. ومن مغفرة الله ورحمته للذنوب والتقصير .. هذا كله يشي بحقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى: هي أن هذه النصوص كانت تواجه حالات قائمة في الجماعة المسلمة كما أسلفنا وتعالجها. وهذا كفيل بأن يجعلنا أكثر إدراكا لطبيعة النفس البشرية، ولطبيعة الجماعات البشرية، وأنها مهما بلغت في مجموعها من التفوق في الإيمان والتربية فهي دائما في حاجة إلى علاج ما يطرأ عليها من الضعف والحرص والشح والتقصير في مواجهة التكاليف، وبخاصة تكاليف الجهاد بالأموال والأنفس، مع خلوص النفس لله، وفي سبيل الله. وظهور هذه الخصائص البشرية - من الضعف والحرص والشح والتقصير - لا يدعو لليأس من النفس أو الجماعة، ولا إلى نفخ اليد منها، وازدراؤها طالما أن عناصر الإخلاص والجد والتعلق بالصف والرغبة في التعامل مع الله موفورة فيها .. ولكن ليس معنى هذا هو إقرار النفس أو الجماعة على ما بدا منها من الضعف والحرص والشح والتقصير والهتاف لها بالانبطاح في السفح، باعتبار أن هذا كله جزء من «واقعها»! بل لا بد لها من الهتاف لتنهض من السفح والحداء لتسير في المرتقى الصاعد، إلى القمة السامقة. بكل ألوان الهتاف والحداء .. كما نرى هنا في المنهج الرباني الحكيم.

والحقيقة الثانية: هي قيمة الجهاد بالأموال والأنفس في ميزان الله واعتبارات هذا الدين وأصالته هذا العنصر في طبيعة هذه العقيدة وهذا النظام. لما يعلمه الله - سبحانه - من طبيعة الطريق وطبيعة البشر وطبيعة المعسكرات المعادية للإسلام في كل حين.

إن «الجهاد» ليس ملابسة طارئة من ملابس تلك الفترة. إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة! وليست المسألة - كما توهم بعض المخلصين - أن الإسلام نشأ في عصر الإمبراطوريات فاندس في تصورات أهله - اقتباسا مما حولهم - أنه لا بد لهم من قوة قاهرة لحفظ التوازن! هذه المقررات تشهد - على الأقل - بقلّة ملابسة طبيعة الإسلام الأصيلة لنفوس هؤلاء القائلين بهذه التكهنات والظنون.

لو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة ما استغرق كل هذه الفصول من صلب كتاب الله في مثل هذا الأسلوب! ولما استغرق كذلك كل هذه الفصول من سنة رسول الله - ﷺ - وفي مثل هذا الأسلوب ..

لو كان الجهاد ملابسة طارئة ما قال رسول الله - ﷺ - تلك الكلمة الشاملة لكل مسلم إلى قيام الساعة، فعن أبي هريرة قال قال رسول الله - ﷺ - « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ »^{٧٥٤} ..

ولئن كان - ﷺ - رد في حالات فردية بعض المجاهدين، لظروف عائلية لهم خاصة، كالذي جاء في الصحيح عن عبد الله بن عمرو، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجَاهِدُ؟ فقال: لَكَ أَبَوَانِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدُ.^{٧٥٥} .. لئن كان ذلك فإنما هي حالة فردية لا تنقض القاعدة العامة وفرد واحد لا ينقص المجاهدين الكثيرين. ولعله - ﷺ - على عادته في معرفة كل ظروف جنوده فردا فردا، كان يعلم من حال هذا الرجل وأبويه، ما جعله يوجهه هذا التوجيه ..

لا بد من الجهاد في سبيل الله

فلا يقولن أحد - بسبب ذلك - إنما كان الجهاد ملابسة طارئة بسبب ظروف. وقد تغيرت هذه الظروف! وليس ذلك لأن الإسلام يجب أن يشهر سيفه ويمشي به في الطريق يقطع به الرؤوس! ولكن لأن واقع حياة الناس وطبيعة طريق الدعوة تلزمه أن يمسك بهذا السيف ويأخذ حذره في كل حين! إن الله - سبحانه - يعلم أن هذا أمر تكرهه الملوك!

ويعلم أن لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه. لأنه طريق غير طريقهم، ومنهج غير منهجهم. ليس بالألمس فقط. ولكن اليوم وغدا. وفي كل أرض، وفي كل جيل!

وإن الله - سبحانه - يعلم أن الشر متبجح، ولا يمكن أن يكون منصفًا. ولا يمكن أن يدع الخير ينمو - مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادة! - فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر. ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل. ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه. بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة! هذه جبلة! وليست ملابسة وقتية... هذه فطرة! وليست حالة طارئة... ومن ثم لا بد من الجهاد.. لا بد منه في كل صورة.. ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير. ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود. ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح. ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة.. وإلا كان الأمر انتحارا. أو كان هزلا لا يليق بالمؤمنين! ولا بد من بذل الأموال والأنفس. كما طلب الله من المؤمنين. وكما اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.. فأما أن يقدر لهم الغلب أو يقدر لهم الاستشهاد فذلك شأنه - سبحانه - وذلك قدره المصحوب بحكمته.. أما هم فلهم إحدى الحسنيين عند ربهم.. والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل.. والشهداء وحدهم هم الذين يستشهدون ..

^{٧٥٤} - صحيح مسلم - المكثر - (٥٠٤٠)

^{٧٥٥} - صحيح البخاري - المكثر - (٥٩٧٢) وصحيح ابن حبان - (١٦٤ / ٢) (٤٢٠)

هناك نقط ارتكاز أصيلة في هذه العقيدة، وفي منهجها الواقعي، وفي خط سيرها المرسوم، وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية، التي لا علاقة لها بتغير الظروف.

وهذه النقط لا يجوز أن تتميع في حس المؤمنين - تحت أي ظرف من الظروف. ومن هذه النقط .. الجهاد .. الذي يتحدث عنه الله سبحانه هذا الحديث .. الجهاد في سبيل الله وحده. وتحت رايته وحدها .. وهذا هو الجهاد الذي يسمى من يقتلون فيه «شهداء» ويتلقاهم الملائة الأعلى بالكريم..^{٧٥٦}.

وقد جاءت أحاديث عديدة تحذر من ترك الجاهد في سبيل الله وتبين عاقبته:

عن أبي بكر قال: قال رسول الله - ﷺ -: " ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب " . رواه الطبراني في الأوسط^{٧٥٧}

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله - ﷺ -: « من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق » صحيح مسلم^{٧٥٨}.

وعن أنس بن مالك، قال: لما بُيع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر، وقام عمر فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أيها الناس إني قد كنت قلت لكم بالامس مقالة ما كانت وما وجدتها في كتاب الله ولا كانت عهداً هذه إلى رسول الله ﷺ، ولكنني كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا - يقول: يكون آخرنا - وإن الله قد أبقي فيكم كتابه الذي هو به هدى رسول الله، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه الله له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ وتأتي اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه. فبايع الناس أبا بكر ببيعة العامة بعد بيعة السقيفة. ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم قال: أما بعد، أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي [عندي] حتى أزيح علتهم إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى أخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورَسُولَهُ، فإذا عصيت الله ورَسُولَهُ فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله. " ^{٧٥٩}

يقول ابن حجر الهيتمي في كتابه الزواجر: (الكبيرة التسعون والحادية والثانية والتسعون بعد الثلاثمائة: ترك الجهاد عند تعيينه بأن دخل الحريون دار الإسلام أو أخذوا مسلماً وأمكن تخليصه منهم، وترك الناس الجهاد من أصله، وترك أهل الإقليم تحصين ثغورهم بحيث يخاف عليها من

^{٧٥٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٠٩٩)

^{٧٥٧} - برقم (٣٨٣٩) بإسناد حسن

^{٧٥٨} - برقم (٥٠٤٠)

^{٧٥٩} - سيرة ابن هشام - (ج ٢ / ص ٦٦٠) والسيرة النبوية لابن كثير (٤ / ٤٩٢) وقال: هذا إسناد صحيح.

اسْتَيْلَاءِ الْكُفَّارِ بِسَبَبِ تَرْكِ ذَلِكَ التَّحْصِينِ). قَالَ تَعَالَى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة: ١٩٥]، وَهِيَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْهَلَاكِ فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا. وَقَالَ قَوْمٌ: التَّهْلُكَةُ مَا أَمَكْنَ التَّحَرُّزُ عَنْهُ وَالْهَلَاكُ مَا لَمْ يُمَكِنْ التَّحَرُّزُ عَنْهُ، وَقِيلَ هِيَ نَفْسُ الشَّيْءِ الْمُهْلِكِ، وَقِيلَ هِيَ مَا تَضُرُّ عَاقِبَتَهُ. وَاخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِ الْإِلْقَاءِ بِالْأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَقِيلَ هُوَ رَاجِعٌ إِلَى نَفْسِ النِّفَقَةِ وَعَلَيْهِ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْجُمْهُورِ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الْبُخَارِيُّ وَلَمْ يَذْكُرْ غَيْرَهُ عَلَى أَنَّ لَا يُنْفَقُوا فِي جِهَاتِ الْجِهَادِ أَمْوَالَهُمْ فَيَسْتَوْلِي الْعَدُوُّ عَلَيْهِمْ وَيُهْلِكُهُمْ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ إِنْ كُنْتَ مِنْ رِجَالِ الدِّينِ فَأَنْفَقْ مَالَكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ رِجَالِ الدُّنْيَا فَأَنْفَقْ مَالَكَ فِي دَفْعِ الْهَلَاكِ وَالضَّرِّ عَنْ نَفْسِكَ^{٧٦٠}.

ولذلك كان ترك الجهاد وعدم الاستعداد له علامة على النفاق قال: (من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق).

وقد عده الله عز وجل علامة على عدم الإيمان باليوم الآخر، أو ضعف اليقين به فقال تعالى {لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)} [التوبة: ٤٤ - ٤٧].

ويمكن تفصيل المخاطر والعواقب السيئة لترك الجهاد فيما يلي:

١- ترك الجهاد كما مضى كبيرة من الكبائر؛ لأن فيه تعريض النفس لسخط الله عز وجل وعقابه في الدنيا والآخرة

قال تعالى: {إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (التوبة: ٣٩).

وقال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين (التوبة: ٢٦).

^{٧٦٠} - الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/ ٢٦٩)

ويصف الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى الذين يهتمون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله بأنهم أقل الناس ديناً وأمقتهم إلى الله تعالى؛ فيقول: **﴿وَأَمَّا الْجِهَادُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالنَّصِيحَةُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَعِبَادَةُ، وَنَصْرَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَدِينِهِ وَكِتَابِهِ؛ فَهَذِهِ الْوَاجِبَاتُ لَا تَخْطُرُ بِبَاهِمٍ فَضْلاً عَنْ أَنْ يَرِيدُوا فَعْلَهَا، وَفَضْلاً عَنْ أَنْ يَفْعَلُوهَا. وَأَقْلُ النَّاسِ دِيناً وَأَمَقَّتْهُمْ إِلَى اللَّهِ مِنْ تَرْكِ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ وَإِنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا جَمِيعَهَا، وَقُلَّ أَنْ تَرَى مِنْهُمْ مَنْ يَحْمُرُ وَجْهَهُ وَيَعْمُرُهُ اللَّهُ وَيَغْضِبُ لِحُرْمَاتِهِ، وَيَبْذُلُ عَرْضَهُ فِي نَصْرَةِ دِينِهِ. وَأَصْحَابُ الْكِبَائِرِ أَحْسَنُ حَالاً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ هَؤُلَاءِ﴾** ٧٦١.

إذا فترك الجهاد في سبيل الله سبب للهلاك في الدنيا والآخرة؛ وهذا ما يفهم من قوله تعالى: **﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** (البقرة: ١٩٥).
عَنْ أَبِي أَيُّوبَ، قَالَ: " قُلْنَا بَيْنَنَا بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرّاً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ فَلَوْ أَنَّا قُمْنَا فِيهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا هَمَمْنَا بِهِ {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة: ١٩٥] فِي الْإِقَامَةِ فِي الْأَمْوَالِ وَإِصْلَاحِهَا وَتَرْكِ الْجِهَادِ وَالتَّفَقُّعِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" ٧٦٢

وقال أسلم أبو عمران، مولى لكندة: **«كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفّاً عَظِيماً، مِنَ الرُّومِ، وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِثْلُهُ، أَوْ أَكْثَرُ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عَقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ، حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، فَصَاحَ بِهِ النَّاسُ، وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ تُلْقِي بِيَدِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ، عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ إِنَّا لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرِيهِ، قُلْنَا بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرّاً، مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرِيهِ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنَّا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ، يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ١٩٥]، فَكَانَتْ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةُ فِي أَمْوَالِنَا، وَإِصْلَاحِهَا، وَتَرْكُنَا الْغَزْوَ، قَالَ: «وَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصاً، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ» ٧٦٣**

كما أن في ترك الجهاد إضعافاً لعقيدة الولاء والبراء؛ وذلك كما مر بنا سابقاً أن عقيدة الولاء والبراء تناسب طرداً مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله عز وجل؛ فكلما ركن العبد عن الجهاد ضعفت عقيدة الولاء والبراء وأصابها الوهن؛ وكفى بذلك خطراً.

٧٦١ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١٤٦)

٧٦٢ - المعجم الكبير للطبراني (٤/ ١٧٦) (٤٠٦٠) صحيح

٧٦٣ - صحيح ابن حبان - مخرجا (٩/ ١١) (٤٧١١) صحيح

٢- بترك الجهاد يفسد الشوك والظلم ويعلو الكفر وأهله ويستعبد الناس بعضهم بعضاً، ولا يخفى ما في ذلك من الشقاء والتعاسة والفساد الكبير على الناس قال الله تعالى: (وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) (البقرة: من الآية ٢٥١)، وقال تعالى: (وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبُيُوعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحج: من الآية ٤٠).

”فلولا أن الله يدفع الكافرين بجهاد المؤمنين، ويكبت الكفار ويذلهم لا اعتلوا على المؤمنين، وإذا اعتلى الكافر جعل الناس يعبدونه هو من دون الله سبحانه وتعالى، وإذا عبد الناس من دون الله أحداً فسدت حياتهم كلها؛ لأن الحياة لا تستقيم إلا إذا سارت على المنهج الذي رسمه الله؛ وهو المنهج الذي يحقق العبودية لله، ويحقق الأخلاق الرفيعة والفضائل الحميدة للبشر؛ فالذي رسم المنهج هو الله الذي خلق الحياة والأحياء العالم بما يصلحهم، أما إذا اعتلى كافر على الأرض وشرع للناس من عند نفسه فإنه لا يعلم جميع الأمور، وليس مبرأ من النقص والهوى، ولا يعلم ما الذي يصلح النفس البشرية فيتخطب خطب عشواء ويفسد الحياة كما هو الحال اليوم ونظرة على الواقع الذي يعتلي فيه كافر كافية بتقرير هذه الحقيقة، ولولا تحاذل المسلمين عن الجهاد الذي أمر الله به لصلحت حياة الناس الذين يحكمون بشرع الله. لأجل هذا شرع رسول الله ﷺ الجهاد حتى مع الإمام الفاجر الذي لم يصل إلى درجة الكفر؛ لأن بقاء الإسلام وأهله يحكمهم فاسق خير لهم من أن يحكمهم كافر يحكم بغير ما أنزل الله؛ فإن الحكم بغير ما أنزل الله هو سبب فساد الأرض“ ٧٦٤.

٣- ترك الجهاد سبب للذل والهوان، فعن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: "لَنْ تَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، وَأَخَذْتُمُ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ، وَتَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ، لَيَلَزِمَنَّكُمُ اللَّهُ مَذَلَّةً فِي رِقَابِكُمْ، لَا تَنْفَكُ عَنْكُمْ حَتَّى تُتُوبُوا إِلَى اللَّهِ وَتَرْجِعُوا عَلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ" ٧٦٥.

وهذا أمر مشاهد وبارز في عصرنا اليوم؛ حيث تسلط الكفار على بلدان المسلمين، وعاش المسلمون في مؤخرة الركب؛ يأكل الكفار خيراتهم، ويتدخلون في شؤونهم، ويتسلطون عليهم بأنواع الذلة والمهانة؛ وما ذاك إلا بتعطيل أحكام الله وترك الاحتكام إلى شرعه، ومن ذلك تعطيل شعيرة الجهاد. وإن الكفار لن يلتفتوا إلى حقوق المسلمين ويراجعوا حساباتهم ويكفوا شرهم بمجرد الإدانات والشجب والكلام الأجو، وإنما الذي يخيفهم ويجعلهم يكفون عن المسلمين وديارهم هو الجهاد في سبيل الله تعالى الذي فيه كبت للكفر وأهله، وفيه إعزاز وكرامة للمسلمين.

وهذا أمر يشهد له التاريخ كما يشهد له الواقع؛ فما من مكان علت فيه راية الجهاد إلا وشعر المسلمون فيه بالعزة، وخاف أعداء الله الكفرة من تكبيرات المجاهدين وتضحياتهم ٧٦٦.

٧٦٤ - "أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية" د. العلياني: (ص ٢٥٢).

٧٦٥ - مسند أحمد ط الرسالة (٩/ ٥١) (٥٠٧) حسن لغيره

”فإذا وجد إحساس لدى أمة ما بضرورة دفع الشر عن نفسها، وضحت في سبيل ذلك براحتها ومتعتها وثروتها ومالها، وبشهواتها النفسية، وبروحها وبكل عزيز لديها؛ فإنها لا يمكن أبداً أن تظل أمة ذليلة مستضعفة، ولا يمكن لأية قوة مهما كانت أن تنال من عزتها أو شرفها ويجب أن تتصف الأمة الشريفة العزيزة بأن تحفض الرأس أمام الحق، وأن تفضل الموت عن أن تحفض الرأس أمام الباطل، وإذا لم تتوافر لها القوة لإعلاء كلمة الحق ومساعدة الحق فلا بد على أقل تقدير أن تعمل للحفاظ على الحق بكل شدة وبكل صلابة، وهذه أقل درجات الشرف“^{٧٦٧}.

ويقول سيد قطب رحمه الله: ”إن كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله لبيذل مثلها وأكثر من يدينون لغير الله! والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد وخسارة الأنفس والأولاد والأموال إذا هم جاهدوا في سبيل الله، عليهم أن يتأملوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد، وفوقها الأخلاق والأعراض.. إن تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغير الله وفوق ذلك كله الذل والدنس والعار! وأخيراً فإن توحيد العبادة والدينونة لله وحده، ورفض العبادة والدينونة لغيره من خلقه ذو قيمة كبيرة في صيانة الجهد البشري من أن ينفق في تأليه الأرباب الزائفة. كي يوجه بجملته إلى عمارة الأرض، وترقيتها، وترقية الحياة فيها.

وهناك ظاهرة واضحة متكررة أشرنا إليها فيما سبق في هذا الجزء.. وهي أنه كلما قام عبد من عبيد الله، ليقيم من نفسه طاغوتا يعبد الناس لشخصه من دون الله.. احتاج هذا الطاغوت كي يعبد (أي يطاع ويتبع) إلى أن يسخر كل القوى والطاقات أولاً لحماية شخصه. وثانياً لتأليه ذاته. واحتاج إلى حواش وذيول وأجهزة وأبواق تسبح بحمده، وترتل ذكره، وتنفخ في صورته «العبدية» الهزيلة لتتضخم وتشغل مكان «الألوهية» العظيمة! وألا تكف لحظة واحدة عن النفخ في تلك الصورة العبدية الهزيلة! وإطلاق الترانيم والتراتيل حولها. وحشد الجموع - بشتى الوسائل - للتسبيح باسمها، وإقامة طقوس العبادة لها...!

وهو جهد ناصب لا يفرغ أبداً. لأن الصورة العبدية الهزيلة ما تني تنكمش وتهزل وتتضاءل كلما سكن من حولها النفخ والطبل والزمر والبخور والتسابيح والتراتيل. وما تني تحتاج كرة أخرى إلى ذلك الجهد الناصب من جديد! وفي هذا الجهد الناصب تصرف طاقات وأموال - وأرواح أحياناً

^{٧٦٦} - انظر إلى ما ذاقه الهندوس على أيدي المجاهدين الكشميريين، وانظر كيف تحركت قوافل اليهود للهجرة من فلسطين بعد أن عرفوا أن القتل ليس من نصيب المسلمين وحدهم، وفي أفغانستان كيف دفعت الإمبراطورية الروسية ثمناً باهظاً لعدوانها على المسلمين تفككت على إثره وتحولت إلى أمة متسولة لا تكاد تجد قوتها، ثم عادت لتدفع ثمناً غالياً لعدوانها على المسلمين في الشيشان. وفي البوسنة لما ولغ الكفار في دماء المسلمين وفرحت ملل الكفر بذلك لم يكتبوا ويكسروا إلا بعد نزول المجاهدين إلى أرض البوسنة.

^{٧٦٧} - ”شريعة الإسلام في الجهاد“ للمودودي: (ص ٣٤).

وأعراض! - لو أنفق بعضها في عمارة الأرض، والإنتاج المثمر، لترقية الحياة البشرية وإغنائها، لعاد على البشرية بالخير الوفير.. ولكن هذه الطاقات والأموال - والأرواح أحياناً والأعراض - لا تنفق في هذا السبيل الخير المثمر ما دام الناس لا يدينون لله وحده وإنما يدينون للطواغيت من دونه.

ومن هذه اللحظة يتكشف مدى خسارة البشرية في الطاقات والأموال والعمارة والإنتاج من جراء تنكبها عن الدينونة لله وحده وعبادة غيره من دونه.. وذلك فوق خسارتها في الأرواح والأعراض، والقيم والأخلاق. وفوق الذل والقهر والدنس والعار! وليس هذا في نظام أرضي دون نظام، وإن اختلفت الأوضاع واختلفت ألوان التضحيات! ^{٧٦٨}

٤- وفي ترك الجهاد تفويت لمصالح عظيمة في الدنيا والآخرة؛ منها الأجر العظيم الذي أعده الله تعالى للمجاهدين والشهداء في الآخرة، ومنها الحياة العزيزة في الدنيا وإقامة شرع الله عز وجل، والشهادة والغنائم والتربية الإيمانية التي لا تحصل إلا في أجواء الجهاد ومراغمة أعداء الله تعالى.

٥- إلقاء العداوة والفرقة بين المسلمين: وهذا أمر مشاهد؛ فما من وقت تركت فيه الأمة الجهاد في سبيل الله عز وجل إلا انشغلت بنفسها ووجه المسلمون حرايمهم إلى صدور إخوانهم وانشغل بعضهم ببعض.

ونظرة أخرى إلى واقعنا المعاصر وما جرى فيه من تعطيل لشرع الله عز وجل - ومن ذلك الجهاد في سبيل الله - ترينا كيف حلّ بالمسلمين من الفرقة والتحزب والاختلاف بين المسلمين حيث انشغل بعضهم ببعض. وما ذاك إلا من الانحراف عن المنهج الحق وتعطيل هذه الشعيرة العظيمة وما ترتب عليها من تسلط الكفار على بلاد المسلمين وتأجيجهم نار الخلاف والفرقة والتحريض بين المسلمين، وهذه سنة الله عز وجل في كل من أعرض عن شرعه سبحانه ونسي حظاً مما ذكر به قال تعالى: (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (المائدة: ١٤) ^{٧٦٩}.

١٤. الهزيمة النفسية

قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا

^{٧٦٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٥٨٣)

^{٧٦٩} - http://arabic.rt.com/forum/archive/index.php/t-٣٥٥٨٧.html

حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) { المائدة/ ٢٠-٢٣ }

وَإِذْ كُنَّا يَا مُحَمَّدُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَنْتَ تُبَلِّغُهُمْ دَعْوَةَ رَبِّهِمْ، مَا قَالَهُ مُوسَى لِقَوْمِهِ، وَمَا ذَكَرَهُمْ بِهِ مِنْ أَنْعَمَ اللَّهُ وَأَفْضَالِهِ عَلَيْهِمْ، بِمَا جَمَعَهُ لَهُمْ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الْهُدَى، فَقَدْ جَعَلَ الْأَنْبِيَاءَ فِيهِمْ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ قَامَ فِيهِمْ نَبِيٌّ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَيُحَذِّرُهُمْ نِقْمَهُ، وَأَنَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَهُمْ مُلُوكًا (بِمَعْنَى أَنْ وَاحِدَهُمْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ وَمَالَهُ وَأَهْلَهُ - وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ الرَّجُلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا كَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ وَوَاحِدَةٌ وَدَارٌ سُمِّيَ مُلِكًا) . وَأَنَّهُ تَعَالَى آتَاهُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَنَ وَالسَّلَوى، وَظَلَّلَهُمْ بِالْغَمَامِ فِي مَسِيرَتِهِمْ فِي صَحْرَاءِ سِينَاء . ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ مُوسَى قَالَ لِقَوْمِهِ مُحَرِّضًا إِيَّاهُمْ عَلَى الْجِهَادِ لِلْإِسْتِيلَاءِ عَلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ (أَيِ الْمُطَهَّرَةِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ لِمَا بَعَثَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الدُّعَاةِ إِلَى التَّوْحِيدِ)، فَقَالَ لَهُمْ: يَا قَوْمَ سِيرُوا إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ آبَاكُمْ إِبْرَاهِيمَ بِأَنْ يُسْكِنَ فِيهَا مَنْ آمَنَ مِنْ نَسْلِهِ، وَلَا تَرْجِعُوا - بَعْدَ الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْهُدَى - إِلَى الْوَثْنِيَّةِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَالْبَغْيِ وَاتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ، فَإِنَّ فِي هَذَا الرَّجُوعِ خُسْرَانًا لَكُمْ .

فَاعْتَذَرُوا عَنْ دُخُولِ الْبَلَدِ بِأَنْ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ذَوِي خَلْقٍ هَائِلَةٍ، وَأَجْسَامٍ ضَخْمَةٍ، وَقُوَى شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى قِتَالِهِمْ، وَلَا يُمَكِّنُهُمُ الدُّخُولُ إِلَيْهَا، مَا دَامَ الْجَبَّارُونَ فِيهَا، فَإِنْ خَرَجُوا مِنْهَا، دَخَلَهَا قَوْمٌ مُوسَى، وَإِلَّا فَإِنَّهُمْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِقِتَالِ الْجَبَّارِينَ .

فَلَمَّا نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ إِطَاعَةِ أَمْرِ رَبِّهِمْ، وَمُتَابَعَةِ مُوسَى، حَرَّضَهُمْ رَجُلَانِ، اللَّهُ عَلَيْهِمَا نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهُمَا مِمَّنْ يَخَافُ اللَّهُ وَيَخْشَى عِقَابَهُ، فَقَالَا لِقَوْمِهِمَا: إِنْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ، وَتَبِعْتُمْ أَمْرَهُ، وَوَأَقَمْتُمْ رَسُولَهُ، نَصَرَكُمْ رَبُّكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، وَأَيَّدَكُمْ وَأَظْفَرَكُمْ بِهِمْ، وَدَخَلْتُمْ الْبَلَدَ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ السُّكْنَى فِيهَا، فَلَمْ يَنْفَعْ فِيهِمْ هَذَا الْقَوْلُ شَيْئًا .

وَلَكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَصْرُوا عَلَى التَّكْوُلِ عَنِ الْجِهَادِ، وَعَلَى مُخَالَفَةِ رَسُولِهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: إِنَّهُمْ لَنْ يَدْخُلُوا الْبَلَدَ مَا دَامَ الْجَبَّارُونَ مُقِيمِينَ فِيهَا، فَإِذَا أَصْرَ مُوسَى عَلَى الْجِهَادِ فَلْيَذْهَبْ هُوَ وَرَبُّهُ فَلْيُقَاتِلَا الْجَبَّارِينَ، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ نَتِيجَةَ الْمَعْرَكَةِ قَاعِدِينَ، حَيْثُ هُمْ يُقِيمُونَ .

فَلَمَّا نَكَلُوا عَنِ الْقِتَالِ، غَضِبَ عَلَيْهِمْ مُوسَى، وَاتَّجَهَ إِلَى اللَّهِ بِالْدُّعَاءِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ لَيْسَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ مَنْ يُطِيعُنِي وَيُجِيبُنِي إِلَى تَنْفِيزِ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي هَارُونَ، فَاقْضِ يَا رَبِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، الْخَارِجِينَ عَلَى طَاعَتِكَ (الْفَاسِقِينَ)، بِقَضَاءِ تَقْضِيهِ بَيْنَنَا، فَتَحْكُمْ لَنَا بِمَا نَسْتَحِقُّ، وَتَحْكُمْ لَهُمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ (وَقِيلَ إِنَّ الْمَعْنَى هُوَ: إِنَّكَ إِذَا أَحَذْتَهُمْ بِالْعِقَابِ عَلَى فِسْقِهِمْ، وَخَرَجُوا جِهَهُمْ عَنْ طَاعَتِكَ، فَلَا تُعَاقِبْنَا مَعَهُمْ) .

فلما دعا موسى عليهم، حين نكلوا عن الجهاد، قضى الله عليهم بأن حرّم عليهم دُخُولُهَا أربعين سنةً، يَتِيَهُونَ خِلَالَهَا فِي الْأَرْضِ (أَي فِي صَحْرَاءِ سِينَاء)، وَيَبْقَوْنَ مُتَحَيِّرِينَ مُتَرَدِّدِينَ، لَا يَدْرُونَ مَصِيرَهُمْ، وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْخُرُوجِ مِمَّا هُمْ فِيهِ، خِلَالَ الْمُدَّةِ الَّتِي قَضَاهَا . اللهُ عَلَيْهِمْ . وَخِلَالَ وُجُودِهِمْ فِي صَحْرَاءِ سِينَاء تُؤَفِّي موسى وهَارُونَ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وتُوَلَّى قِيَادَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُوْشَعَ بْنِ نُونٍ (وَهُوَ مِنْ نَسْلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ) وجعله اللهُ نَبِيًّا فِيهِمْ، وتُوَفِّي أَكْثَرَ الْجِيلِ الْقَدِيمِ، ونَشَأَ فِي الصَّحْرَاءِ وَالْحَرِيَّةِ جِيلٌ جَدِيدٌ . فلما انقضتِ المدة التي قضاها اللهُ عَلَيْهِمْ، خرج بِهِمْ يُوْشَعَ بْنُ نُونٍ، وتوجهَ بِهِمْ إِلَى إِحْدَى الْمُدُنِ فَحَاصَرَهَا وَفَتَحَهَا . ثُمَّ سَلَّى اللهُ نَبِيَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ: لَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ فِيمَا قَضَيْتُ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ . وَهَذِهِ الْقِصَّةُ تَتَضَمَّنُ تَقْرِيعًا لِلْيَهُودِ، وَبَيَانًا لِفَضَائِحِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَ رَبِّهِمْ وَأَمْرَ رَسُولِهِ، وَنُكُولِهِمْ عَنْ طَاعَتِهِمَا ^{٧٧٠}

لما امتن الله على موسى وقومه بنجاحهم من فرعون وقومه وأسرهم واستبعادهم، ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم، وهي بيت المقدس وما حواليه، وقاربوا وصول بيت المقدس، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم. فوعظهم موسى عليه السلام؛ وذكرهم ليقدّموا على الجهاد فقال لهم: {اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} بقلوبكم وألستكم. فإن ذكرها داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة، {إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءً} يدعونكم إلى الهدى، ويحذرونكم من الردى، ويحثونكم على سعادتكم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون {وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا} تملكون أمركم، بحيث إنه زال عنكم استبعاد عدوكم لكم، فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

{وَأَتَاكُمْ} من النعم الدينية والدنيوية {مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ} فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على الله تعالى. وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم.

فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعي ذلك لإيمانهم وثباتهم، وثباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه، ولهذا قال: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ} .

أي: المطهرة {الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} فأخبرهم خبراً تطمئن به أنفسهم، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله، وأنه قد كتب الله لهم دخولها، وانتصارهم على عدوهم. {وَلَا تَرْتَدُّوا} أي: ترجعوا {عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ} قد [ص: ٢٢٨] خسرتم دنياكم. بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادكم. وآخرتكم. بما فاتكم من الثواب، وما استحققتكم - بمعصيتكم - من العقاب، فقالوا قولاً يدل على ضعف قلوبهم، وخور نفوسهم، وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله.

{يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ} شديدي القوة والشجاعة، أي: فهذا من الموانع لنا من دخولها.

٧٧٠ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٩٠، بترقيم الشاملة آليا)

{وَأِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ} وهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلا فلو كان معهم رشدهم، لعلموا أنهم كلهم من بني آدم، وأن القوي من أعانه الله بقوة من عنده، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم، إذ وعدهم الله بذلك، وعدا خاصا.

{قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ} الله تعالى، مشجعين لقومهم، منهضين لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم. {أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا} بالتوفيق، وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين.

{ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ} أي: ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه عليهم فإنهم سينهزمون، ثم أمراهم بعدة هي أقوى العدد، فقالا {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} فإن في التوكل على الله - وخصوصا في هذا الموطن - تيسيرا للأمر، ونصرا على الأعداء. ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، فلم ينجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذلين:

فما أشنع هذا الكلام منهم، ومواجهتهم لنبيهم في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى نصرة نبيهم، وإعزاز أنفسهم.

وبهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم، وأمة محمد ﷺ حيث قال الصحابة لرسول الله ﷺ - حين شاورهم في القتال يوم "بدر" مع أنه لم يحتج عليهم: يا رسول الله، لو خضت بنا هذا البحر لخصناه معك، ولو بلغت بنا برك الغماد ما تخلف عنك أحد. ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: {أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، من بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وعن يسارك.

فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم عليه {قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي} أي: فلا يدان لنا بقتالهم، ولست بجبار على هؤلاء. {فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} أي: احكم بيننا وبينهم، بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك، ودل ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق.

{قَالَ} الله مجيبا لدعوة موسى: {فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ} أي: إن من عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التي كتبها الله لهم، مدة أربعين سنة، وتلك المدة أيضا يتيهون في الأرض، لا يهتدون إلى طريق ولا يبقون مطمئنين، وهذه عقوبة دنيوية، لعل الله تعالى كفر بها عنهم، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها، وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو دفع نعمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر.

ولعل الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة، الصادرة عن قلوب لا صبر فيها ولا ثبات، بل قد ألفت الاستعباد لعدوها، ولم تكن لها هم ترقيقها إلى ما فيه ارتقاؤها

وعلوها، ولتظهر ناشئة جديدة تربي عقولهم على طلب قهر الأعداء، وعدم الاستعباد، والذل المانع من السعادة. ولما علم الله تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على الخلق، خصوصاً قومه، وأنه ربما رق لهم، واحتملته الشفقة على الحزن عليهم في هذه العقوبة، أو الدعاء لهم بزوالها، مع أن الله قد حتمها، قال: {فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} أي: لا تأسف عليهم ولا تحزن، فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم لا ظلماً منا.^{٧٧١}

هذا موقف من مواقف بني إسرائيل العنادية مع أنبياء الله، وحملة النور والخير إليهم، وإن في ذلك لعزاء وسلوى، للنبي الكريم لما استقبل به اليهود دعوته، من كيد وتضليل.. إذ ليس هذا شأن اليهود مع النبي وحده، بل هو شأنهم مع كل نبي من أنبيائهم..

فهذا موسى عليه السلام، الذي بعثه الله إليهم، لينقذهم من الذلة والهوان، وليطلق سراحهم من يد الأسر المضروب عليهم من فرعون - موسى عليه السلام، الذي أطلق بين أيديهم معجزات آمن بها كهنة مصر وسحرهما، وقلق بهم البحر، ونجّاهم من فرعون، وفجّر لهم من الصخر عيوناً.. موسى وهذه بعض آياته ومعجزاته، قد أعنتوه والتووا عليه، وخرجوا من يده في أكثر من موقف..

فها هو ذا يدعوهم إلى خير ساقه الله إليهم، ويوجههم إلى دار أمن وقرار وعدهم الله بها، وهو - عليه السلام - يقدم بين يدي دعوته استعراضاً لنعم الله عليهم، ورحمته بهم.. «يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ».. فقد جعل الله فيهم أنبياء وملوكاً، وملوكاً أنبياء، يجمعون بين سلطان الدنيا والدين، كما كان ذلك لداود وسليمان عليهما السلام، الأمر الذي لم يكن لأنبياء من قبل، ولا لملوك في الأرض.. فما هو إلا سلطان واحد.. نبوة أو ملك.. ولكن جمع الله لأنبياء بني إسرائيل النبوة والملك معاً..

وقوله تعالى: «وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ» أي من هذه النعم التي تحملها السماء إليهم في صورة معجزات: كالمّن والسلوى، وكالجمع لأنبيائهم وملوكهم بين النبوة والملك - وهذا من شأنه يقوّ صلتهم بالله، ويوثق إيمانهم به.. ولكن كانت هذه النعم أسلحة يحاربون بها الله، ومعاول يهدمون بها معالم الحق، ومنازل الهدى! والله سبحانه وتعالى يقول: «وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ» (٥١ فصلت) .

وقوله تعالى: «يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» هو دعوة موسى لهم، إلى نعمة جديدة، بعد تذكيرهم بما لله فيهم من نعم سابقة سابغة.. فهو لم يدعهم إلّا إلى ما فيه خير عاجل لهم، وهو أن يخرجوا من الصحراء، وأن ينتقلوا من حياة الرعي والخيام، إلى حياة المدينة، والاستقرار! ثم هو - عليه السلام - لم يدعهم إلّا إلى أرض مقدسة، تحفّها رحمت الله، وتبارك أرضها..

^{٧٧١} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٢٧)

ثم هو - عليه السلام - لم يدعهم إلا ليمدوا أيديهم إلى ما وعدهم الله به، وكتبه لهم.. إنها ثمرة طيبة دانية القطف، لا يحتاج من يريد أن يطعم منها إلى أكثر من أن يمد يده إليها! ومع هذا فقد أبى القوم أن يتقبلوا دعوة موسى، وأن يصدقوا وعد الله لهم، بل غلب عليهم سوء طبعهم، فخيّل إليهم أن في الأمر شيئاً، وأن وراء هذه الدعوة ما وراءها! وموسى عليه السلام، خبير بالقوم، عليم بما ينطوى عليه كياهم من خبث وفساد.. ولهذا لم يرسل الدعوة إليهم بدخول الأرض المقدسة مطلقاً، بل أتبعها بهذا التحذير الذي كان لا بد منه في مواجهة قوم كهؤلاء القوم..

«وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ» إذ لا ينتظر من هذه الجماعة إلا أن تصطدم مع هذه الدعوة، كما تصطدم الكرة بجدار فترتد إلى وراء! وفي التعبير بارتداد القوم على أدبارهم، إشارة إلى أنهم إنما يرتدون إلى الوراء وغيوبهم معلقة بالمتجه الذي تتجه إليه الدعوة، وكأن هذا المتجه حيوان مفترس يتحفز للوثوب عليهم.. فهم يسرون إلى الوراء، على أقفيتهم، وأبصارهم شاخصة إلى هذا الأمر المخيف الذي دعاهم إليه! فهم - والحال كذلك - بين خطر يقع عليهم من تصوراتهم لهذا الأمر الذي يدعون إليه، وخطر يترصدهم، وهم يتدافعون إلى الوراء نحو مجهول لا يرون لهم منه مهرباً.. وانظر كيف كانت سفاهة القوم مع موسى عليه السلام.. يدعوه إلى خير، فيكذبونه ويمكرون به، ويتخابثون عليه.. ويناديهم متلطفاً مترفقاً، «يا قوم» «يا قوم» ويردّون عليه في غلظة، وجفاء، واستعلاء: «يا موسى»..

«يا موسى»!! وقاحة، وجبن، ونذالة..

«قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ».. هكذا كان ردهم على تلك الدعوة الكريمة المترفقة، المحملة بالخير والأمن..

إنهم - وذلك دأبهم أبداً - يأخذون دون أن يعطوا، ويجنون ما لم يزرعوا..

يأكلون ثمرة الزارعين، ويسرقون جهد العاملين. فلا يريدون أن يدخلوا الأرض المقدسة إلا أن يخليها لهم أصحابها، ويهتفوا بهم: أن أقبلوا.. ولو وقع هذا لوقع في أنفسهم أن يطلبوا إلى موسى أن يهوى لهم مراكب سماوية تقلهم إلى حيث هم ذاهبون!! إنها طبائع أطفال، وتعلات صبيان، وأمانى جناء.

ومع هذا الردّ الوقح، فإن موسى لم يعتزلهم، ولم ينه الموقف معهم على هذا اليأس القاطع منهم.. وفي هذا يقول الله تعالى: «قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ. وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» .

وقد اختلف المفسرون في هذين الرجلين، وأكثروا من مذاهب القول فيهما، وذهب بعضهم إلى الإدلاء باسميهما.. إلا أن الأمر الذي أجمع عليه المفسرون هو أن هذين الرجلين لم يكونا موسى وهرون! والذي نقول به ونطمئن إليه، هو أن هذين الرجلين، هما موسى وهرون!! وشاهدنا على هذا، ما توحى به الآيات الكريمة، بل وتكاد تصرح به!

فأولاً: الردّ الذي ردّ به القوم على هذه الدعوة، وهو ما جاء في قوله تعالى: «قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ».. فلو أن هذين اللذين دعواهما بقولهما: «ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ» - لو أنهما كانا غير موسى وهرون لما كان ردهم موجهًا إلى موسى.. بل كان يكفي أن يقولوا: «لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا» ..

وأما أنهما واجهوا موسى بهذا الردّ، ولم يوجهوه إلى موسى وهرون معًا، فلأن موسى كان هو رجل الموقف، وهرون كان ظهيرا له..

وثانياً: ما جاء في قوله تعالى على لسان موسى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ».. وهذا القول من موسى قاطع بأنه لم يكن في القوم من استجاب له غير أخيه هرون.. وإذن فهو وهرون جبهة، والقوم جميعهم جبهة أخرى.. ولو أنه كان هناك في جبهة موسى وهرون غيرهما لما قال هذا القول: «لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي» إذ هو يملك - غير نفسه وغير أخيه - هذين الرجلين اللذين قيل عنهما إنهما قالا هذا القول.

وثالثاً: في قوله تعالى: «قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ» - أكثر من إشارة: فالذين يخافون هم القوم كلهم، وبلا استثناء أحد.. والمعنى على هذا هو كهذا: قال رجلان من القوم الخائفين، وهذان الرجلان قد أنعم الله عليهما فعافاهما من هذا الخوف: اللذي لبس القوم واستولى عليهم.. وفي هذا تعبير للقوم، واحتقار لهم، وإزراء عليهم، ووصمهم جميعاً بهذا الداء الذي لا يزيلهم أبداً.. داء الجبن والخوف من كل شيء..

ثم إن في قوله تعالى: «فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ» هو وعد مؤكد بدخول القوم هذه الأرض المقدسة لو أنهم جرءوا واتجهوا إلى العدو ودخلوا عليه الباب.. وهذا الوعد لا يكون إلا عن علم سماوى.. الأمر الذي لم يكن لأحد من القوم أن يقول به، غير موسى وهرون، اللذين هما على صلة بالوحي الإلهي.

هذا، وقد انتهى الأمر بين موسى وتلك الجماعة الشاردة، إلى اليأس، فكان أن اعتذر موسى إلى ربه بقوله: «رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ (أي احكم) بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» أي اللذين فسقوا وخرجوا عن طاعة الله، وامتنال أمره إليهم.. وقد قبل الله من موسى ما اعتذر به إليه، واستجاب له ما دعاه به، فحكم بينه وبين هؤلاء القوم الفاسقين.. فكان هذا حكم الله فيهم: «فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ».. إذ ضرب عليهم التيه والضلال في الصحراء أربعين سنة، يضطربون في هذا القبر المطبق عليهم، لا يعرفون لهم وجهًا للخلاص منه.

ولعل الحكمة في توقيت التيه بأربعين سنة، هي أن يموت أبناء هذا الجيل الذي كان منه هذا العناد والضلال، فلا يرى أحد منهم الأرض المقدسة، ومن رآها منهم ممن امتد عمره، فإنه يراها في شيخوخة واهية، فلا ينتفع بخيراتها، ولا ينشئ له حياة فيها.. إن هؤلاء الشيوخ الذين يدخلون الأرض المقدسة

بعد هذا التيه هم أشبه بالأطفال. ومن لم يبلغوا الحلم من أبنائهم الذين شهدوا موقف آبائهم من موسى ودعوته إليهم.. وهكذا يستدير الزمن بهذه الجماعة بعد تلك السنين الأربعين، فإذا أطفالها رجال، وإذا رجالها أطفال...! ٧٧٢

إنها حلقة من قصة بني إسرائيل التي فصلها القرآن أوسع تفصيل.. ذلك لحكمة متشعبة الجوانب.. من جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها. فقد كانوا حربا على الجماعة المسلمة منذ اليوم الأول. هم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين في المدينة وأمدوهم بوسائل الكيد للعقيدة وللمسلمين معا. وهم الذين حرضوا المشركين وواعدوهم وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة. وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد في الصف المسلم كما تولوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة. وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم في الحرب المعلنة الصريحة. فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة، لتعرف من هم أعداؤها. ما طبيعتهم؟ وما تاريخهم؟ وما وسائلهم؟ وما حقيقة المعركة التي تخوضها معهم؟

ولقد علم الله أنهم هم سيكونون أعداء هذه الأمة في تاريخها كله كما كانوا أعداء هدى الله في ماضيهم كله. فعرض لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفاً ووسائلهم كلها مكشوفة. ومن جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير. وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة من التاريخ طويلة ووقعت الانحرافات في عقيدتهم ووقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم ووقع في حياتهم آثار هذا النقض وهذا الانحراف، كما وقع في أخلاقهم وتقاليدهم.. فاقتضى هذا أن تلم الأمة المسلمة - وهي وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجمليتها - بتاريخ القوم، وتقلبات هذا التاريخ وتعرف مزالق الطريق، وعواقبها ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم، لتضم هذه التجربة في حقل العقيدة والحياة - إلى حصيلة تجاربها وتنتفع بهذا الرصيد وتنفع على مدار القرون. ولتتقي - بصفة خاصة - مزالق الطريق، ومداخل الشيطان، وبوادر الانحراف، على هدى التجارب الأولى.

ومن جوانب هذه الحكمة أن تجربة بني إسرائيل ذات صحائف شتى في المدى الطويل. وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها وتنحرف أجيال منها وأن الأمة المسلمة التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة، ستصادفها فترات تمثل فيها فترات من حياة بني إسرائيل فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجدي الدعوة في أجيالها الكثيرة، نماذج من العقابيل التي تلم بالأمم يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته. ذلك أن أشد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هي القلوب التي عرفت ثم انحرفت! فالقلوب الغفل الخامة أقرب إلى الاستجابة، لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد

٧٧٢ - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ١٠٦٦)

يهزها، وينفض عنها الركام، لجدته عليها، وانبهارها بهذا الجديد الذي يطرق فطرقها لأول مرة. فأمّا القلوب التي نوديت من قبل، فالنداء الثاني لا تكون له جدته، ولا تكون له هزته ولا يقع فيها الإحساس بضخامته وجديته، ومن ثم تحتاج إلى الجهد المضاعف، وإلى الصبر الطويل! وجوانب شتى لحكمة الله في تفصيل قصة بني إسرائيل، وعرضها مفصلة على الأمة المسلمة وارثة العقيدة والدين القوامه على البشر أجمعين.. جوانب شتى لا نملك هنا المضي معها أكثر من هذه الإشارات السريعة.. لنعود إلى هذه الحلقة، في هذا الدرس، في هذه السورة: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ»..

وإننا لنلمح في كلمات موسى - عليه السلام - إشفاقه من تردد القوم ونكوصهم على الأعقاب. فلقد جرهم من قبل في «مواطن كثيرة» في خط سير الرحلة الطويل.. جرهم وقد أخرجهم من أرض مصر وحررهم من الذل والهوان، باسم الله وبسلطان الله الذي فرق لهم البحر، وأغرق لهم فرعون وجنده. فإذا هم يمشون على قوم يعكفون على أصنام لهم، فيقولون «يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلِهَةٌ».. وما يكاد يغيب عنهم في ميقاته مع ربه حتى يتخذ السامري من الحلي التي سرقوها معهم من نساء المصريين عجلاً ذهباً له خوار ثم إذا هم عاكفون عليه يقولون: إنه إله موسى الذي ذهب لميقاته!.. وجرهم وقد فجر لهم من الصخر ينابيع في جوف الصحراء، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاماً سائغاً، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا من أطعمة مصر - أرض الذل بالنسبة لهم - فيطلبون بقلها وقتاءها وفومها وعدسها وبصلها، ولا يصبرون عما ألفوا من طعام وحياء في سبيل العزة والخلاص، والهدف الأسمى، الذي يسوقهم موسى إليه وهم يتسكعون!.. وجرهم في قصة البقرة التي أمروا بذبحها فتلكأوا وتسكعوا في الطاعة والتنفيذ.. «فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ»! وجرهم وقد عاد من ميقات ربه ومعه الألواح وفيها ميثاق الله عليهم وعهده. فأبوا أن يعطوا الميثاق وأن يعضوا العهد مع ربه - بعد كل هذه الآلاء وكل هذه المغفرة للخطايا - ولم يعطوا الميثاق حتى وجدوا الجبل منتوقاً فوق رؤوسهم، «وَوَظَّنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ»!..

لقد جرهم في مواطن كثيرة طوال الطريق الطويل.. ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة. أرض الميعاد التي من أجلها خرجوا. الأرض التي وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكاً، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها ليظلموا في رعاية الله وقيادته..

لقد جرهم فحق له أن يشفق، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة، فيحشد فيها ألمع الذكريات، وأكبر البشريات، وأضخم المشجعات وأشد التحذيرات: «يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ. إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا، وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ»..

نعمة الله. ووعده الواقع من أن يجعل فيهم أنبياء ويجعلهم ملوكا. وإيتاءه لهم بهذا وذلك ما لم يؤت أحدا من العالمين حتى ذلك التاريخ. والأرض المقدسة التي هم مقدمون عليها مكتوبة لهم بوعده الله. فهي إذن يقين.. وقد رأوا من قبل كيف صدقهم الله وعده. وهذا وعده الذي هم عليه قادمون... والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين.. ولكن إسرائيل.. هي إسرائيل!!!
الجبين. والتمحل. والنكوص على الأعقاب. ونقض الميثاق: «قَالُوا: يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنُ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ».

إن جبلة يهود لتبدو هنا على حقيقتها، مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجميل. ذلك أنهم أمام الخطر فلا بقية إذن من تحمل ولا محاولة إذن للتشجع، ولا مجال كذلك للتمحل. إن الخطر ماثل قريب ومن ثم لا يعصمهم منه حتى وعد الله لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض، وأن الله قد كتبها لهم - فهم يريدونه نصرا رخيصة، لا ثمن له، ولا جهد فيه. نصرا مريحا يتزل عليهم تنزل المن والسلوى! «إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ.. وَإِنَّا لَنُ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا.. فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ»..

ولكن تكاليف النصر ليست هكذا كما تريدها يهود! وهي فارغة القلوب من الإيمان! «قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا: ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ. وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

هنا تبرز قيمة الإيمان بالله، والخوف منه.. فهذان رجلان من الذين يخافون الله، ينشئ لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين! ويرزقهما شجاعة في وجه الخطر الموهوم! وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان في ساعة الشدة وقيمة الخوف من الله في مواطن الخوف من الناس. فالله سبحانه لا يجمع في قلب واحد بين مخافتين: مخافته - جل جلاله - ومخافة الناس.. والذي يخاف الله لا يخاف أحدا بعده ولا يخاف شيئا سواه.. «ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ. فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ»..

قاعدة في علم القلوب وفي علم الحروب.. أقدموا واقتحموا. فمتى دخلتم على القوم في عقر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم وشعروا بالهزيمة في أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم..

«وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».. فعلى الله - وحده - يتوكل المؤمن. وهذه هي خاصية الإيمان وعلامته وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه.. ولكن لمن يقولان هذا الكلام؟ لبني إسرائيل؟! «قَالُوا: يَا مُوسَى إِنَّا لَنُ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا. فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا. إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ»..

وهكذا يخرج الجبناء فيتوقعون ويفزعون من الخطر أمامهم فيرفسون بأرجلهم كالحمر ولا يقدمون! والجبين والتوقع ليسا متناقضين ولا متباعدين بل إنهما لصنوان في كثير من الأحيان. يدفع الجبان إلى الواجب فيجبن. فيخرج بأنه ناكل عن الواجب، فيسب هذا الواجب ويتوقع على دعوته التي تكلفه ما لا يريد! «فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا. إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ»..

هكذا في وقاحة العاجز، الذي لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مد اللسان! أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان! «فَاذْهَبْ أَتَتْ وَرُبُّكَ»! ..

فليس برهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال! «إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» .. لا نريد ملكا، ولا نريد عزا، ولا نريد أرض الميعاد .. ودونها لقاء الجبارين!

هذه هي نهاية المطاف بموسى عليه السلام. نهاية الجهد الجهد. والسفر الطويل. واحتمال الرذالات والانحرافات والالتواءات من بني إسرائيل! نعم ها هي ذي نهاية المطاف .. نكوصا عن الأرض المقدسة، وهو معهم على أبوابها. ونكولا عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق .. فماذا يصنع؟ ومن يستجير؟

«قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي. فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» ..

دعوة فيها الألم. وفيها الالتجاء. وفيها الاستسلام. وفيها - بعد ذلك - المفاصلة والحسم والتصميم! وإنه ليعلم أن ربه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه .. ولكن موسى في ضعف الإنسان المخذول. وفي إيمان النبي الكليم. وفي عزم المؤمن المستقيم، لا يجد متوجها إلا لله. يشكو له بثه ونجواه، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين. فما يربطه بهم شيء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق .. ما يربطه بهم نسب. وما يربطه بهم تاريخ. وما يربطه بهم جهد سابق. إنما تربطه بهم هذه الدعوة إلى الله، وهذا الميثاق مع الله. وقد فصلوه. فانبت ما بينه وبينهم إلى الأعماق. وما عاد يربطه بهم رباط .. إنه مستقيم على عهد الله وهم فاسقون .. إنه مستمسك بميثاق الله وهم ناكصون ..

هذا هو أدب النبي. وهذه هي خطة المؤمن. وهذه هي الآصرة التي يجتمع عليها أو يتفرق المؤمنون .. لا جنس. لا نسب. لا قوم. لا لغة. لا تاريخ. لا وشيجة من كل وشائج الأرض إذا انقطعت وشيجة العقيدة وإذا اختلف المنهج والطريق .. واستجاب الله لنبية. وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين.

«قَالَ: فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ. فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ».

وهكذا أسلمهم الله - وهم على أبواب الأرض المقدسة - لنتيه وحرمة عليهم الأرض التي كتبها لهم ..

والأرجح أنه حرّمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل. جيل يعتبر بالدرس، وينشأ في خشونة الصحراء وحررتها صلب العود .. جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الذل والاستعباد والطغيان في مصر، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل! والذل والاستعباد والطغيان يفسد فطرة الأفراد كما يفسد فطرة الشعوب.

ويتركهم السياق هنا - في التيه - لا يزيد على ذلك .. وهو موقف يجتمع فيه العبرة النفسية إلى الجمال الفني، على طريقة القرآن في التعبير^{٧٧٣}.

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس - مما قصه الله عليهم من القصص - فحين واجهوا الشدة وهم قلة أمام نفير قريش في غزوة بدر، قالوا لنبيهم - ﷺ - إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم. «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» لكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا فإنا معكما مقاتلون^{٧٧٤}.. وكانت هذه بعض آثار المنهج القرآني في التربية بالقصص عامة وبعض جوانب حكمة الله في تفصيل قصة بني إسرائيل^{٧٧٥}.

١٥. ارتكاب المعاصي التي تؤدي إلى ضرب الذلة على الأمة المؤمنة ضرباً مؤبداً:

وهذه المعاصي تؤثر تأثيراً مباشراً في هزيمة الأمة أمام أعدائها، فعن ابن عمر قال سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقولُ « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتُم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » رواه أبو داود^{٧٧٦}.

(إذا تبايعتم بالعينة) قال الجوهرى: العين بالكسر السلف. وقال في القاموس: وعين أخذ بالعينة بالكسر أي السلف أو أعطى بها. قال والتاجر باع سلعته بثمن إلى أجل ثم اشتراها منه بأقل من ذلك الثمن انتهى. قال الرافعي: ويبيع العينة هو أن يبيع شيئاً من غيره بثمن مؤجل ويُسَلِّمه إلى المشتري ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن نقد أقل من ذلك القدر انتهى. وقد ذهب إلى عدم جواز بيع العينة مالك وأبو حنيفة وأحمد، وجوز ذلك الشافعي وأصحابه. كذا في التل. وقد حقق الإمام ابن القيم عدم جواز العينة ونقل معنى كلامه العلامة الشوكاني في التل. (وأخذتم أذناب البقر ورضيتُم بالزرع) حُمِلَ هذا على الاشتغال بالزرع في زمن يتعين فيه الجهاد (وتركتم الجهاد) أي المتعين فعله (سلط الله عليكم ذلاً) بضم الذال المعجمة وكسرهما أي صغاراً ومسكنة ومن أنواع الذل الخراج الذي يُسَلِّمونه كل سنة لملك الأرض. وسبب هذا الذل والله أعلم أنهم لما تركوا الجهاد في سبيل الله الذي فيه عز الإسلام وإظهاره على كل دين عاملهم الله بنقيضه وهو إنزال الذلة

^{٧٧٣} - يراجع فصل القصة في القرآن في كتاب «التصوير الفني في القرآن» للمؤلف وكتاب «منهج الفن الإسلامي» لحمد قطب «دار

الشروق» (السيد رحمه الله)

^{٧٧٤} - دلائل النبوة للنبيهي << باب ذكر سبب خروج النبي ﷺ >> (٨٧٤) صحيح مرسل

^{٧٧٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٢٥٠)

^{٧٧٦} - برقم (٣٤٦٤) بإسناد صحيح لغيره

بِهِمْ فَصَارُوا يَمْشُونَ خَلْفَ أَذْنَابِ الْبَقَرِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَرْكَبُونَ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ الَّتِي هِيَ أَعَزَّ مَكَانَ قَالَهُ فِي النَّبْلِ .^{٧٧٧}

والعينة نوع من أنواع الربا والربا قد انتشر الآن في بلدان المسلمين فحقت عليهم الذلة، [ورضيتم بالزَّرع وتركتم الجهاد] يعني: الإخلاد إلى الدنيا والالتفات إليها. [وتركتكم الجهاد] من أسباب ضرب الذلة، [سلط الله عليكم ذلاً]، ليس الذل على اليهود فقط، بل الذل يضرب أيضاً على هذه الأمة إذا عصت أمر ربها، [سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه] لا يرفعه إلى متى؟ ليس إلى أن يصبح عندكم مليون جندي، ولا أن يصبح عندكم ألف طائرة، ولا أن يصبح عندكم خمسة آلاف دبابة، لا.. وإنما [حتى ترجعوا إلى دينكم] فإذا رجعتكم إلى دينكم يرفع الله عنكم الذلة، بهذا الشرط الوحيد، وهو أن ترجعوا إلى دينكم كله من أوله إلى آخره، لا تقولوا: هذه قشور وهذا لباب، ولا تقولوا: هذه سنن وهذه وهذه، ولا تقولوا: هذه تفرق المسلمين إذا بحثت أمور العقائد بين السنة والروافض،.. بل تأخذ هذا الدين كاملاً كما جاء به محمد ﷺ من عند ربه، تأخذ به كاملاً نقياً صافياً.. فعند ذلك يمنح لك النصر، ويمنح لك الظفر على العدو .^{٧٧٨}

١٦. التنازع والخصام على الدنيا والعلو في الأرض:

قال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) } [الأنفال: ٤٦ - ٤٨]

أمر الله تعالى المؤمنين بطاعته تعالى في الثبات عند لقاء الأعداء المشركين، وبالإخلاص له، وببذل الجهد في القتال، وبذكر الله كثيراً لتطمئن النفوس وتهدأ، وبإيلائها الخوف والتردد والقلق، كما أمرهم بطاعة رسول الله، والتزام أوامره، وإنجاحاً للخطة العامة للجيش في المعركة. ثم أمرهم بالآلا يتنازعوا، ولا يختلفوا، لأن في التنازع والاختلاف الفشل والخذلان وضياح ما حققه المسلمون في المعركة { وتذهب ريحكم } . ثم يكرر الله تعالى أمره للمؤمنين بالتزام الصبر، لأن الله مع الصابرين

^{٧٧٧} - عون المعبود - (ج ٧ / ص ٤٥٣)

^{٧٧٨} - <http://www.tawhed.ws/r-yw6&x=ohchyr782?i=1>

وَعَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، أَنْ تَمْتَثِلُوا لِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ مِنْ طَاعَتِهِ تَعَالَى، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﷺ، وَالتَّزَامِ أَوَامِرِهِمَا، وَلَا تَكُونُوا كَأَعْدَائِكُمُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ بَطْرًا بِمَا أَوْثُوا مِنَ التَّعْمَةِ، وَمُرَاءَاةٍ لِلنَّاسِ لِيُعْجَبُوا بِهِمْ، وَيُثْنُوا عَلَيْهِمْ بِالْغِنَى وَالْقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ .. وَهُمْ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِخُرُوجِهِمُ الصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْعِ النَّاسِ مِنَ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَالْحَدِّ مِنْ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِأَعْمَالِهِمْ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ، وَسَوْفَ يُجَازِيهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَادْكُرْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ إِذْ زَيْنَ الشَّيْطَانُ لِكُفَّارٍ قُرَيْشٍ أَعْمَالَهُمْ بِوَسْوَستِهِ، وَإِذْ حَسَنَ فِي أَعْيُنِهِمْ مَا جَاؤُوا لَهُ، وَمَا هُمُوا بِهِ، وَأَطْمَعَهُمْ بِأَنَّهُمْ مَنْصُورُونَ، وَأَنَّهُمْ لَا غَالِبَ لَهُمْ مِنَ النَّاسِ، وَطَمَأَنَّهُمْ إِلَى أَنَّهُمْ لَنْ يُؤْتُوا فِي دِيَارِهِمْ أَتْنَاءَ غَيْبَتِهِمْ فِي قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي بَدْرٍ، لِأَنَّهُ جَارٌ لَهُمْ وَمُجِيرٌ، فَلَمَّا التَقَى الْمُسْلِمُونَ بِالْمُشْرِكِينَ، وَرَأَى الشَّيْطَانُ مَلَائِكَةَ اللَّهِ يَحْمُونَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَّى هَارِبًا { نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ }، وَقَالَ لِأَوْلِيَائِهِ مِنَ الْكُفَّارِ: إِنَّهُ بَرِيءٌ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا يَرُونَ، إِنَّهُ يَرَى الْمَلَائِكَةَ يَنْصُرُونَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّهُ يَعْلَمُ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ وَسُطُوَّتِهِ، مَا لَا يَعْلَمُهُ أَوْلِيَائُهُ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ يَخَافُ اللَّهَ، وَيَعْرِفُ أَنَّهُ تَعَالَى شَدِيدُ الْعِقَابِ ..^{٧٧٩}

شهد المسلمون في موقعة بدر أمداد السماء تنزل عليهم، وتضع بين أيديهم هذا النصر المين، الذي كان مفتتح انتصاراتهم التي ستجىء بعد هذا، فيما يدور بينهم وبين المشركين والكافرين من قتال.. ولثلا يغلب على المسلمين هذا الشعور الذي استولى عليهم يوم بدر، من عون الله لهم، وإمدادهم بالملائكة تقاتل معهم - لثلا يغلب هذا الشعور عليهم، ويسلمهم إلى التواكل والثقة بضمان النصر من غير إعداد وجهاد وبلاء، فقد أراهم الله في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» - أراهم الطريق الذي يأخذونه لتحقيق النصر الذي ينشدونه، ورسم لهم الدستور الذي يستقيمون عليه ليكون لهم الغلب الذي يرحونه..

فالثبات للعدو، والتصميم على لقاءه في عزم وإصرار، دون أن يقع في النفس أي هاجس يهيجس بها للفرار، أو التراجع، أو أخذ الجانب اللين من مواقف القتال - هو السلاح العامل بمالا تعمله كثيرة العدد والعدد، لكسب المعركة، وتحقيق النصر..

ولن يكون ذلك الموقف متاحا للإنسان وهو يواجه وجوه الموت، إلا إذا شدَّ عزمه بالإيمان بالله، وملاً قلبه يقينا بالجزاء الذي أعدّه الله له، ومن هنا كان ذكر الله، والإكثار من ذكره في هذا الموطن، هو الزاد الذي يتزوّد به المجاهد، للصبر على الشدائد، والثبات في وجه الموت الذي يراه رأى العين، فيما يقع بين يديه من جثث وأشلأء..

فذكر الله سبحانه وتعالى، في هذا الموطن الذي تصرخ فيه في كيان الإنسان دواعى الحرص على الحياة، وطلب السلامة، وحب البقاء - هو الذي يمسك الإنسان على البلاء، ويسوِّغ له طعم

^{٧٧٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٠٧، بترقيم الشاملة آليا)

الموت، والاستشهاد في سبيل الله، ابتغاء الفوز برضاه، ولقائه - جلّ شأنه - على الوعد الذي وعد به المجاهدين في سبيله! ومن أجل هذا كان الفرسان والأبطال، يصحبون معهم من يؤثرون بالحب، من زوجات وخليلات، ليكون في صحبتهم لهم تذكير حيّ بالموقف الذي يجب أن يأخذه في ميدان القتال، حتى يكونوا موضع إعجاب وتقدير، عند من يحبونهم ويفعلون الشيء الكثير الذي يرضيهم، ويترحم من قلوبهم منزل الإعزاز والإكبار.. فإذا لم يكن في صحبة البطل زوجه أو خليلته، استحضر صورتها في خياله، وتمثل شخصها حاضرا معه، يشهد بلاءه واستبساله.. يقول عنبرة محبوبته.. عيلة:

ولقد ذكرتكَ والرّماح كأنّها... أشطان بئر في لبات الأدّهم
ما زلت أرميهم بثغرة نحره... ولباته حتى تسربل بالدمّ
ويقول أيضا:

ولقد ذكرتكَ والرماح نواهل... ممّى، ويبض الهند تقطر من دم
فوددت تقبيل السيوف لأتّها... لمعت كبارق ثغرك المتبسّم
ويقول الحارث بن حلزة أحد أصحاب المعلقات:
على آثارنا بيض كرام... نحاذر أن تفارق أو تمونا
يقتن جيانا ويقلن لستم... بعولتنا إذا لم تمنعونا

فكيف إذ ذكر المؤمن ربّه، واستحضر جلاله، وعظمته، في هذا الموقف الذي ينتصر فيه لله، ويجاهد في سبيله، ويعمل على مرضاته، ويطلب المثوبة من جزيل عطاياه؟ إن الذي يذكر الله في هذا الوطن، ذكرا ينبعث من قلبه، ويتحرك من وجدانه - يستخفّ بالموت، ويلذّ له طعمه، ويجد أن حياته التي يقدمها لله ليست شيئا إلى جانب الحياة الأخرى التي هو صائر إليها، وواحد ما قدّم لها.. وهذا هو الذي أمسك بالمجاهدين في سبيل الله على حياض الموت، فكتبوا بدمائهم تلك الوثائق الخالدة على الزمن، في التضحية والفداء.

هذا عن المجاهد مع خاصة نفسه..

ولكن المسلم لا يقاتل وحده، وإنما هو واحد في جماعة المجاهدين الذين يقاتل معهم، ويستند إليهم، ويستندون إليه..

ومن هنا كان من تمام البناء لتلك القوة التي يلقي بها المسلمون عدوّهم أن يكونوا صفّا واحدا، تمسك به مشاعر واحدة، فلا يتوزعهم الخلاف، ولا يمزق وحدة مشاعرهم التراع، فذلك أمر إن وقع في جماعة أذهب ريحها، وحلّ عزيمتها، وأفسد تدبيرها، ومكّن للعدو منها، مهما كانت القوة التي عليها أفرادها، والبلاء الذي يعطيه كل فرد منها في ميدان المعركة..

ولهذا جاء قوله تعالى: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» - جاء ليشدّ تلك الجماعة بعضها إلى بعض، بعد أن شدّ كلّ فرد فيها إلى موطن العزم والصبر، من نفسه.

ثم إنه لكى يقوم للمسلمين شاهد حسّي، يشهد لهم بمفعول هذه الوصاة الكريمة التي وصاهم الله بها، أفراداً وجماعة - فقد أراهم الله ما حلّ بالمشرّكين من بلاء، وما أصيبوا به من خذلان، وأن ذلك كان لما وقع بينهم من تنازع في الرأى واختلاف في الحساب والتقدير..

وقد صحب المشرّكين هذا التنازع وذلك الخلاف منذ خرجوا من مكة إلى أن التقوا بالمسلمين في بدر، فكانوا شيعاً وأحزاباً، لكلّ شيعه رأيها في الموقف، وتقديرها له، ولكل حزب حسابه وتقديره.. فكثّر فيهم القائلون، بألّا حاجة لهم في القتال بعد أن سلمت العير، ومن قائل: لا بد من القتال.. ثأراً لكرامة قريش وهيبته، كما يروى عن أبي جهل حين تنادى بعض المشرّكين بالرجوع عن الحرب وقد سلمت لهم العير، فقال: «والله لا نرجع حتى نرد بدرنا فنقيم ثلاثاً، فننحر الجزر، وننطمع الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابونا أبداً!!» ..

ومن بين هذين الرأيين طارت شرارات الشقاق والخصام، وتناثرت كلمات التلاحى والتناز، فتحرّكت في الصدور عداوات قديمة، وانبعثت من مرقدها فتن كانت نائمة.. وهكذا دخل القوم المعركة، وهم على تلك الحال، من تفرق الكلمة، وتمزق الوحدة، في الرأى والمشاعر.. وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى محذراً للمسلمين من أن يكون منهم مثل هذا الموقف، في لقاء يكون بينهم وبين عدوهم.. يقول الله سبحانه: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» .

فما خرج هؤلاء القوم دفاعاً من حق، أو انتصاراً لمبدأ، وإنما الذي أخرجهم هو البطر، أي الكبر، والكفر بنعمة الله، ثم ما يحدث به الناس عنهم من أنهم أولو قوة وأولو بأس شديد، حين يرى الناس منهم ما جمعوا من مقاتلين، وما حملوا من سلاح وعتاد، ثم ما يقع لهم من هذا التدبير الذي دبّروه، وهو الوقوف في وجه تلك الدعوة التي كانت شجى في حلوقهم، وقذى في أعينهم! هذا ما أخرج القوم للقتال، وهذا ما خرجوا له.. ومن أجل هذا كان الخلاف بينهم، والتفرق في وحدتهم، والتمزق في مشاعرهم.. كلّ يأخذ الموقف الذي يشبع غروره وكبره، ويشهد الناس منه مترلته في قومه، وكلمته المسموعة في رهطه.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ» فهذا هو الشعور الذي غلب على رؤساء القوم وأصحاب الكلمة فيهم.. أما عامتهم فكانوا تبعاً لأهواء سادتهم، لا يقوم في كيان أحدهم شعور بمبدأ يقاتل عليه، وينتصر له..

أما قوله تعالى: «وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» فذلك هو الجرم الذي اشترك فيه القوم جميعاً، رؤساء ومرعوسين.. فكانوا جميعاً جيشاً مقاتلاً للدعوة الإسلامية، وحصرها في أضيق الحدود.. أما البطر، ومراعاة الناس فكان لونا اصطليغ به بعضهم دون بعض، وغاية عمل لها أناس دون آخرين..

ولهذا اختلف النظم، لأن البطر والرياء شأْنهم دائماً فعبّر عنهما القرآن بالمصدر، الذي يفيد الثبوت والاستمرار، وأما الصّدّ عن سبيل الله، فهو أمر جدّ عليهم بعد ظهور النّبىّ فعبّر عنه بالفعل، الذي يفيد الحدوث والتجدد: «وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» .

وقوله تعالى: «وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ» . الآية معطوفة على قوله تعالى: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ» أي لا تكونوا كهؤلاء القوم الذين خرجوا على تلك الصفة، ولهذا الوجه، ولا تكونوا كهؤلاء على تلك الحال التي خرجوا فيها وقد زين لهم الشيطان أعمالهم.. فهؤلاء إنما خرجوا متبعين أهواءهم، منقادين للشيطان الذي دعاهم، فاستجابوا له، وأعطوه زمامهم، بعد أن ملأ صدورهم أملاً كاذباً، بأنهم قوة لا تغلب، بما هم عليه من عدد وعدة! فكيف إذا كان هو جاراً لهم، وسندا وظهيراً في ميدان القتال معهم؟

«فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ» أي التقت الفتتان، ورأى بعضُهم بعضاً، والفتتان هما: المسلمون، والمشركون.. «نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ» أي رجع الشيطان إلى الوراء، يمشى القهقري، وهو ينظر إليهم كما ينظر الغريم إلى غريمه وقد أوقعه في حفرة، وتركه لمصيره الذي ينتظره. «وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ» إنها أحجار يقذف بها الشيطان في وجه القوم بعد أن ألقى بهم في هذه الحفرة..

إنه برىء مما حلّ بهم، أو سيحلّ من بلاء، يراه قبل أن يروه.. فلقد رأى الملائكة تأخذ مكانها في ميدان المعركة مع المسلمين، وإن ذلك ليعنى عنده أن القوم قد أصبحوا في الهالكين!..

وهكذا يتبرأ الشيطان منهم، كما يتبرأ من فعلته التي فعلها بهم.. إنه يخاف الله، ويخاف ما يحلّ به من عقاب الله، وإنه لعقاب شديد! والسؤال هنا:

كيف يعلن الشيطان أنه يخاف الله، ويخشى عقابه الشديد، وهو قائم على عصيان الله ومحادثته، بفتنة الناس، وإغوائهم بالضلال، وصددهم عن سبيل الله؟ أهذا يكون ممن يعترف بالله، ويخشى عقابه؟ والجواب: أن الشيطان معترف بوجود الله، مؤمن بسلطانه ووسطوته، ولكنه مبتلى بعصيان الله في بني آدم وإغوائهم، وإفساد ما بينهم وبين الله..

هكذا كان قضاء الله، فيما بينه وبين آدم، وذرية آدم..

لقد عصى الله إذ أمره بالسجود لآدم..

فكان أن لعنه الله، وطرده من مواقع رحمته، ومواطن رضوانه..

ومن هنا بدأ إبليس ينتقم لنفسه من آدم وذريته، إذ كان بسببه، هذا الذي أنزله الله به من عقاب.

وقد طلب إبليس من الله أن ينظره إلى يوم يبعثون، ليفسد هذا الإنسان الذي فضّله الله عليه، وطرده إبليس من رحمته بسببه..

وكان هذا من إبليس تحدياً لله، وإمعانا في الضلال: «وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» . وتزيين الشيطان للمشركين، وقوله لهم: «لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ» هو مما وسوس لهم به في صدورهم من ضلال، وما ألقى إلى سفهائهم من غرور، حتى لقد تمثلت تلك الوسوسة خواطر تتحرك في مشاعر القوم، وحتى لقد تخلّقت هذه الخواطر فكانت قولاً، يجرى على ألسنة القوم، ويتنادون به.. وأنهم لن يغلبوا..

فموقف الشيطان وأعدائه في صفوف المشركين، هو مقابل لموقف الملائكة في صفوف المؤمنين.. ولكن شتان بين موقف وموقف.. فالشيطان يغري بالباطل، ويمدّ بالضلال، ويعين بالكاذب.. أما الملائكة، فقد طلعت على المسلمين بريح القوة، وهبت بأنسام النصر، فملأت قلوب المسلمين أمناً وطمأنينة، فثبتت من أقدامهم، وقوت من عزائمهم، وأطمعتهم في عدوهم.. فكان لهم الظفر بعدوهم.. وفي هذا يقول الله تعالى: «قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» (٧٧:٨٥ ص)

وهكذا يقضى الله سبحانه وتعالى بين إبليس وبين أبناء آدم. يغريه بهم، ويسلطه عليهم، ليخزيه آخر الأمر، وليريه من أبناء آدم ما يزيده حسرة وحزناً، فيما يرى مما لله في أبناء آدم من أصفياء وأولياء، أنزلهم منازل رضوانه، وفتح لهم أبواب جنّاته، يلقون فيها ما أعدّ لهم من نعيم مقيم.. وفي هذا يقول الله تعالى: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢: الحجر) ..

فإذا كان لإبليس أولياء من بني آدم، يؤدّي فيهم رسالته الضالّة المفسدة، فإن أبناء آدم من يقف له بالمرصاد، ويلبسه لباس الذلة والخزي! وعلى هذا، فإن الشيطان إذ يغوى الغاوين من أبناء آدم، وإذ يدفع بهم إلى مواطن الضلال - إنما يؤدّي رسالته التي تخيّرنا لنفسه فيهم، وهو يعلم أنه على عصيان الله، فيما يأتيه مع أبناء آدم من إغواء وإضلال.. ولكنه - مع هذا - لا يملك من نفسه أن يردّها عن هذا الاتجاه الذي اتخذته، بحكم سابق، وقضاء نافذ.. فهو - والحال كذلك - يؤدّي رسالة الشرّ في أبناء آدم، كما يؤدّي الأنبياء رسالة الخير فيهم، وللشيطان أولياؤه وأتباعه، كما للأنبياء أولياؤهم وأتباعهم..

ومن جهة أخرى، فإن الشيطان - لحكمة أَرادها الله - مغطّى على بصره، لا يرى الشرّ الذي يزرعه في أبناء آدم، حتى ينبت، ويزهر، ويثمر.. وهنا يدرك أنه اقترف الإثم، ووقع في المعصية.. وهنا أيضاً يري عقاب الله الراصد له، جزاء ما اقترف من آثام.. وفي هذا بلاء عظيم، وعذاب أليم، وتلك هي لعنة الله

التي حَلَّتْ بِإِبْلِيسَ.. يعمى عن الشرّ فيقع فيه، حتى إذا وقع فيه أبصره وتحقق منه، ووجنى الحسرة والندامة مما غرس بيديه! ^{٧٨٠}

وهنا ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهي: أنك عندما تقرأ في القرآن في أعقاب ذكر غزوات النبي ﷺ؛ لا تجد أبداً أن الله يمدح المؤمنين، ويشيد ببطولاتهم، إنما يبين لهم أن هذا النصر الذي تحقق إنما هو فضل منه: { وما النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [١٢٦] } [سورة آل عمران]. { وما النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [١٠] } [سورة الأنفال].

بل إنك تجد أن الله ينبه المؤمنين إلى أخطاء وقعت منهم، وهم منتصرون، فيقول لهم يوم بدر: { ما كان لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ... [٦٧] } [سورة الأنفال]. { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ... } ثم قال لهم بعد: { ... فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [١] } [سورة الأنفال]. كأن هذا إشارة إلى أن اختلافكم في قسمة الغنائم والأنفال ليس بجيد، فاحذروا أن تخالفوا أمر الله وأمر رسوله.

فإذن: ما قال لهم لقد أحسنتم وفعلتم وفعلتم.. ما أشاد بهذه البطولات التي فعلها الصحابة يوم بدر، بل نبههم على أخطاء، وذكرهم بأن لا يعتمدوا على أنفسهم، وأن لا يعجبوا بأنفسهم، إنما النصر من عند الرب وحده لا شريك له. كذلك في أحد عندما تقرأ قصة أحد تجد أن الله نبههم على مكن الخطأ وسبب ما حاق بهم وما حصل لهم. فالله سبحانه ينبهنا على أن المسلم دائماً يجب أن يكون خاشعاً لله، معتمداً عليه، مستنصراً به، مخلصاً له، يعلم أن النصر من عنده ليس بعدد ولا بعدة.

وهذا الأمر بالإضافة إلى الأمر السابق وهو المعصية كان من أعظم أسباب سقوط الأندلس. ^{٧٨١}

١٧. أن يكون بأسنا بيننا:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَابِرِ بْنِ عَتِيكَ، أَنَّهُ قَالَ: جَاءَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو فِي بَنِي مُعَاوِيَةَ - وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى الْأَنْصَارِ - فَقَالَ: هَلْ تَذَرِي أَيْنَ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَسْجِدِكُمْ هَذَا؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، وَأَشْرْتُ لَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنْهُ، فَقَالَ: هَلْ تَذَرِي مَا الثَّلَاثُ الَّتِي دَعَا بِهِنَّ فِيهِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي بِهِنَّ، فَقُلْتُ: «دَعَا بِأَنْ لَا يُظْهَرَ عَلَيْهِمْ عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَلَا يُهْلِكَهُمْ بِالسِّنِينَ فَأَعْطِيَهُمَا، وَدَعَا بِأَنْ لَا يَجْعَلَ بِأَسْهُمَ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَهَا». رواه مالك في الموطأ ^{٧٨٢}

^{٧٨٠} - التفسير القرآني للقرآن (٥ / ٦٢٦)

^{٧٨١} - <http://www.islamdoor.com/k/asbab.htm>

^{٧٨٢} - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤ / ٥٦٢) (٨٥٧٩) صحيح

وَعَنْ سَعْدٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: "سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثَلَاثِينَ وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْعَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَنِيهَا" ٧٨٣

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ لِأُمَّتِي أَرْبَعَةَ خِلَالَ، فَأَعْطَانِي ثَلَاثًا، وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُهُ أَنْ لَا تَكْخُرَ أُمَّتِي صَفْقَةً وَاحِدَةً، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ بِمَا عَذَّبَ بِهِ الْأُمَمَ قَبْلَهُمْ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ، فَمَنْعَنِيهَا» ٧٨٤

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةً فَأَطَالَ قِيَامَهَا وَرُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّيْتَ صَلَاةً أَطَلْتَ قِيَامَهَا وَرُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا؟ قَالَ: «إِنَّهَا صَلَاةُ رَغَبٍ وَرَهَبٍ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ، وَزَوَى عَنِّي وَاحِدَةً، سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَى أُمَّتِي عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَجْتَاحَهُمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ فَأَعْطَانِي، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَنِيهَا» ٧٨٥

وَعَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنْ أُمَّتِي سَيَّلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيَتْ الْكَزْزَيْنِ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنْ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَاقَطَارَهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا" ٧٨٦

قلت: لقد أصبحنا كبنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ كَمَا سُورَةُ الْحَشْرِ: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ { ١٤ }﴾

٧٨٣ - صحيح مسلم (٢٢١٦/٤) - ٢٠ (٢٨٩٠)

٧٨٤ - المعجم الأوسط (٢٤١/٢) (١٨٦٢) صحيح

٧٨٥ - المعجم الكبير للطبراني (١٣٧/٢٠) (٢٧٩) صحيح - بالسنة : السنة : الجذب والقحط.

٧٨٦ - صحيح مسلم (٢٢١٥/٤) - ١٩ (٢٨٨٩)

[ش (زوى) معناه جمع (الكززين الأحمر والأبيض) المراد بالكززين الذهب والفضة والمراد كزرا كسرى وقيصر ملكي العراق والشام (فيستبيح بيضتهم) أي جماعتهم وأصلهم والبيضة أيضا العز والملك (أن لا أهلكهم بسنة عامة) أي لا أهلكهم بقحط يعمهم بل إن وقع قحط فيكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام]

وقال تعالى: { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) [الأنعام/٦٥] { قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ، الَّذِينَ يُشْرِكُونَ مع الله سِوَاهُ، وَلَا يَشْكُرُونَهُ عَلَى النِّعَمِ الْوَفِيرَةِ الَّتِي أَسَدَاهَا إِلَيْهِمْ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَصُبَّ عَلَيْكُمْ الْعَذَابَ مِنْ فَوْقِكُمْ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ الْعَذَابَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ، فَيَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ، أَوْ يُزَلِّزَهَا تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، أَوْ يَخْلُطَ الْأَمْرَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْإِلْتِبَاسِ، وَيَجْعَلَكُمْ مُتَبَسِّينَ شِيْعًا وَفِرْقًا، مُتَخَالِفِينَ فِي الْأَهْوَاءِ وَالْمَشَارِبِ، وَيُسَلِّطَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْعَذَابِ وَالْقَتْلِ. أَنْظُرْ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ نُبَيِّنُ الْآيَاتِ وَنُوضِّحُهَا لَعَلَّ هَؤُلَاءِ يَفْهَمُونَهَا وَيَتَذَبَّرُونَهَا }^{٧٨٧}.

فإنَّ اللهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ، هُوَ مُنْتَقِمٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ.. قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الْحَادِّينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، صَوَاقِقَ مَهْلِكَةٍ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ بَحَارًا مَغْرَقَةً مِنَ الْأَرْضِ، أَوْ أَنْ يَلْبِسَهُمْ شِيْعًا، أَوْ يَجْعَلَهُمْ أَهْوَاءَ مُتَفَرِّقَةٍ، وَمَذَاهِبَ مُتَقَاتِلَةٍ، يَضْرِبُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا، وَيُذِيقُ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ..

وقوله تعالى: { أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا } أي يخلطكم شيعة وفرقا، حتى ليكاد يلبس بعضكم بعضا، كما يلبس الجسد الثوب، مع تفرقكم مشاعر وعواطف ونزعات.. وهذا هو البلاء، أعظم البلاء، يصاب به مجتمع، يحويه مكان واحد، وحياة واحدة.. وإنه لا نعمة أعظم من نعمة الألفة بين قلوب الجماعة، تلك الألفة التي تجمعها على الحب والمودة والرحمة، وفي هذا يقول الله تعالى: «وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا»^{٧٨٨}.

أي: هو تعالى قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة. { مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ } أي: يخلطكم { شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } أي: في الفتنة، وقتل بعضكم بعضا.

فهو قادر على ذلك كله، فاحذروا من الإقامة على معاصيه، فيصيبكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر على ذلك. ولكن من رحمته، أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرحم والحصب، ونحوه، ومن تحت أرجلهم بالخسف. ولكن عاقب من عاقب منهم، بأن أذاق بعضهم بأس بعض، وسلط بعضهم على بعض، عقوبة عاجلة يراها المعتبرون، ويشعر بها العالمون.^{٧٨٩}

وَعَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ } [الأنعام: ٦٥]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، قَالَ: { أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ } [الأنعام: ٦٥]، قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» { أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } [الأنعام: ٦٥] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا أَهْوَنُ - أَوْ هَذَا أَيْسَرُ -»^{٧٩٠}.

^{٧٨٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٨٥٥، بترقيم الشاملة آليا)

^{٧٨٨} - التفسير القرآني للقرآن (٤/ ٢٠٦)

^{٧٨٩} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٦٠)

^{٧٩٠} - صحيح البخاري (٦/ ٥٦) (٤٦٢٨)

وتصور العذاب الغامر من فوق، أو النابع من تحت، أشد وقعا في النفس من تصويره آتيا عن يمين أو شمال. فالوهم قد يخيل للإنسان أنه قد يقدر على دفع العذاب من يمين أو شمال! أما العذاب الذي يصب عليه من فوق، أو يأخذه من تحت، فهو عذاب غامر قاهر مزلزل، لا مقاومة له ولا ثبات معه! والتعبير الموحى يتضمن هذا المؤثر القوي في حس الإنسان ووهمه، وهو يقرر حقيقة قدرة الله على أخذ العباد بالعذاب من حيث شاء وكيف شاء.

ويضيف إلى ألوان العذاب الداخلة في قدرة الله والتي قد يأخذ العباد بها متى شاء لونا آخر بطيئا طويلا لا ينهي أمرهم كله في لحظة ولكنه يصاحبهم ويساكنهم ويعايشهم بالليل والنهار: «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا، وَيَدْرِقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ».. وهي صورة من العذاب المقيم الطويل المديد الذي يدقونه بأيديهم، ويجرعونه لأنفسهم إذ يجعلهم شيعا وأحزابا، متداخلة لا يتميز بعضها عن بعض، ولا يفصل بعضها بعضا، فهي أبدا في جدال وصراع، وفي خصومة ونزاع، وفي بلاء يصبه هذا الفريق. على ذاك .. ولقد عرفت البشرية في فترات كثيرة من تاريخها ذلك اللون من العذاب، كلما انخرفت عن منهج الله وتركت لأهواء البشر ونزواتهم وشهواتهم وجهالتهم وضعفهم وقصورهم .. تصريف الحياة وفق تلك الأهواء والتزوات والشهوات والجهالة والضعف والقصور. وكلما تخبط الناس وهم يضعون أنظمة للحياة وأوضاعا وشرائع وقوانين وقيما وموازين من عند أنفسهم يتعبد بها الناس بعضهم بعضا ويريد بعضهم أن يخضع لأنظمتهم وأوضاعهم وشرائعهم وقوانينهم البعض الآخر، والبعض الآخر يأبى ويعارض، وأولئك يبطشون بمن يأبى ويعارض. وتتصارع رغباتهم وشهواتهم وأطماعهم وتصوراتهم. فيذوق بعضهم بأس بعض، ويحقد بعضهم على بعض، وينكر بعضهم بعضا، لأنهم لا يفتنون جميعا إلى ميزان واحد يضعه لهم المعبود الذي يعنو له كل العبيد، حيث لا يجد أحدهم في نفسه استكبارا عن الخضوع له، ولا يحس في نفسه صغارا حين يخضع له.

إن الفتنة الكبرى في الأرض هي أن يقوم من بين العباد من يدعي حق الألوهية عليهم، ثم يزاول هذا الحق فعلا! إنما الفتنة التي تجعل الناس شيعا ملتبسة لأنهم من ناحية المظهر يبدون أمة واحدة أو مجتمعا واحدا، ولكن من ناحية الحقيقة يكون بعضهم عبيدا لبعض ويكون بعضهم في يده السلطة التي يبطش بها - لأنها غير مقيدة بشرعية من الله - ويكون بعضهم في نفسه الحقد والتربص .. ويذوق الذين يتربصون والذين يبطشون بعضهم بأس بعض! وهم شيع ولكنهم ليست متميزة ولا منفصلة ولا مفاصلة! والأرض كلها تعيش اليوم في هذا العذاب البطيء المديد! وهذا يقودنا إلى موقف العصبة

[ش (من فوقكم) كالحجارة التي أرسلت على قوم لوط والماء المنهمر الذي أنزل على قوم نوح فأغرقهم وغير ذلك. (أعوذ بوجهك) أستجير بك وألتجئ إليك. (من تحت أرجلكم) كالخسف بقارون وإغراق آل فرعون. (يلبسكم شيعا) يجعلكم فرقا متخالفين. (يدق بعضهم بأس بعض) يسلط بعضهم على بعض بالعذاب والقتل وغيره والبأس القوة والشدة ويطلق على الحرب والعذاب / الأنعام ٦٥ / (هذا أهون) أي فتنة الخلق وتسليط بعضهم على بعض أهون من عذاب الله تعالى]

المسلمة في الأرض. وضرورة مسارعته بالتميز من الجاهلية الحبيطة بها - والجاهلية كل وضع وكل حكم وكل مجتمع لا تحكمه شريعة الله وحدها، ولا يفرد الله سبحانه بالألوهية والحاكمة - وضرورة مفاصلتها للجاهلية من حولها باعتبار نفسها أمة متميزة من قومها الذين يؤثرون البقاء في الجاهلية، والتقيّد بأوضاعها وشرائعها وأحكامها وموازينها وقيمتها.

إنه لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض من أن يقع عليها هذا العذاب: «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ».. إلا بأن تنفصل هذه العصبة عقيدياً وشعورياً ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها - حتى يأذن الله لها بقيام «دار إسلام» تعتصم بها - وإلا أن تشعر شعوراً كاملاً بأنها هي «الأمة المسلمة» وأن ما حولها ومن حولها، ممن لم يدخلوا فيما دخلت فيه، جاهلية وأهل جاهلية. وأن تفاصيل قومها على العقيدة والمنهج وأن تطلب بعد ذلك من الله أن يفتح بينها وبين قومها بالحق وهو خير الفاتحين.

فإذا لم تفصل هذه المفاصلة، ولم تتميز هذا التميز، حق عليها وعيد الله هذا. وهو أن تظل شيعة من الشيع في المجتمع، شيعة تتلبس بغيرها من الشيع، ولا تتبين نفسها، ولا يتبينها الناس مما حولها. وعندئذ يصيبها ذلك العذاب المقيم المديد دون أن يدركها فتح الله الموعود! إن موقف التميز والمفاصلة قد يكلف العصبة المسلمة تضحيات ومشقات.. غير أن هذه التضحيات والمشقات لن تكون أشد ولا أكبر من الآلام والعذاب الذي يصيبها نتيجة التباس موقفها وعدم تميزه، ونتيجة اندغامها وتميعها في قومها والمجتمع الجاهلي من حولها..

ومراجعة تاريخ الدعوة إلى الله على أيدي جميع رسل الله، يعطينا اليقين الجازم بأن فتح الله ونصره، وتحقيق وعده بغلبة رسله والذين آمنوا معهم.. لم يقع في مرة واحدة، قبل تميز العصبة المسلمة ومفاصلتها لقومها على العقيدة وعلى منهج الحياة - أي الدين - وانفصالها بعقيدتها ودينها عن عقيدة الجاهلية ودينها - أي نظام حياتها - وأن هذه كانت هي نقطة الفصل ومفرق الطريق في الدعوات جميعاً. وطريق هذه الدعوة واحد. ولن يكون في شأنها إلا ما كان على عهود رسل الله جميعاً، صلوات الله عليهم وسلامه: «انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ».. والله نسأل أن يجعلنا ممن يصرف الله لهم الآيات فيفقهون..^{٧٩١}

١٨. الغفلة عن أسلحتنا وأمتعتنا :

^{٧٩١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٥٥٨)

قال تعالى: { وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا } (١٠٢) سورة النساء

يُبينُ الله تعالى في هذه الآية النصَّ المجمل في الآية السابقة في مشروعية قصر الصلاة، ويُبين هنا كيفية أداء صلاة الخوف .

والأئمة متفقون على أن صلاة الخوف منسوخة من أسباب تأخير الصلاة . وفي صلاة الخوف، إذا كان الرسول ﷺ في الجماعة وأم المسلمون في الصلاة، تأتي طائفة من المسلمين فتأتم بالرسول وهم بأسلحتهم، وكامل عدتهم، وتُصلي معه الركعة الأولى من صلاته، ويستمر النبي واقفاً يصلي، وتتم الطائفة المؤتممة به صلاتها بأداء الركعة الثانية لنفسها، وتسلم وتقوم إلى مكان الحراسة، وتأتي الطائفة الثانية التي لم تُصل، والتي كانت في مكان الحراسة، فتأتم بالنبي، وتُصلي معه الركعة الثانية من صلاته، ثم تتم الركعة الثانية من صلاتها لنفسها وتسلم . ويحذر الله المؤمنين من غدر الكفار، ويُنبه المسلمين ليأخذوا حذرهم وأسلحتهم، وليكونوا على أهبة الاستعداد لمقارعة الأعداء إذا أرادوا الغدر بالمسلمين، وهم في صلاتهم، واغتنام الفرصة فيهم، وهم مُشغولون بها .

ثم يقول تعالى إنه لا حرج إن كان هناك مطر، أو كان بالمسلمين مرض أن يضعوا أسلحتهم، ولكن عليهم أن يخدروا ويحتاطوا لتكون أسلحتهم قريبة منهم لأخذها إذا احتاجوا إلى استعمالها على عجل . ويذكر الله المؤمنين بأنه وليهم، وأنه ناصرهم ومخزي الكافرين، وأنه أعد للكافرين عذاباً مهيناً يوم القيامة .. ٧٩٢

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد. ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء لا يخل به لو صلوا بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم وعدم تفرق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هيبة في قلوب أعدائهم، وأمر تعالى بأخذ السلاح والحذر في صلاة الخوف، وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة فإن فيه مصلحة راجحة وهو الجمع بين الصلاة والجهاد، والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين والميل عليهم وعلى أمتعتهم، ولهذا قال تعالى: { وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً } . ٧٩٣

٧٩٢ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٩٥، بترقيم الشاملة آليا)

٧٩٣ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٩٨)

وهي رغبة في نفوس الكفار تجاه المؤمنين دائمة. والسنون تتوالى، والقرون تمر، فتؤكد هذه الحقيقة، التي وضعها الله في قلوب المجموعة المؤمنة الأولى. وهو يضع لها الخطط العامة للمعركة. كما يضع لها الخطة الحركية أحيانا. على هذا النحو الذي رأينا في صلاة الخوف.

على أن هذا الحذر، وهذه التعبئة النفسية، وهذا الاستعداد بالسلاح المستمر، ليس من شأنه أن يوقع المسلمين في المشقة. فهم يأخذون منه بقدر الطاقة: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ، أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى، أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ» فحمل السلاح في هذه الحالة يشق، ولا يفيد. ويكفي أخذ الحذر وتوقع عون الله ونصره: «وَاخْذُوا حِذْرَكُمْ. إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا» ..

ولعل هذا الاحتياط، وهذه اليقظة، وهذا الحذر يكون أداة ووسيلة لتحقيق العذاب المهين الذي أعده الله للكافرين. فيكون المؤمنون هم ستار قدرته وأداة مشيئته .. وهي الطمأنينة مع ذلك الحذر والثقة في النصر على قوم أعد الله لهم عذابا مهينا .. «فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ. فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ. إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا» .. وهكذا يوجههم إلى الاتصال بالله في كل حال، وفي كل وضع، إلى جانب الصلاة .. فهذه هي العدة الكبرى، وهذا هو السلاح الذي لا يبلى ..^{٧٩٤}

١٩. تولي الكفار والثقة بوعودهم :

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) } [المتحنة: ١ - ٥]

هذه الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وكان حاطب من أهل بدر، هاجر من مكة، وترك فيها ماله وولده، ولم يكن هو من قريش. فلما أراد الرسول ﷺ فتح مكة دعا ربه الله أن يُعِي الأخبار عن

^{٧٩٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١١١)

قُرَيْشٍ، حَتَّى يَأْخُذَهُمْ عَلَى حِينِ غَرَّةٍ، فَكُتِبَ حَاطِبٌ كِتَابًا إِلَى قُرَيْشٍ يُعْرِفُهُمْ بِعِزِّ الرِّسُولِ ﷺ عَلَى غَزْوِهِمْ، وَأَرْسَلَهُ مَعَ امْرَأَةٍ لِيَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا. وَأَعْلَمَ اللَّهُ تَعَالَى رِسُولَهُ بِالْكِتَابِ، فَأَرْسَلَ الرِّسُولَ عَلِيًّا وَالزُّبَيْرَ، وَأَمَرَهُمَا بِالذَّهَابِ إِلَى رَوْضَةٍ خَاخٍ لِإِتْيَاهُ بِالْكِتَابِ مِنَ الْمَرْأَةِ، فَلَمَّا جَاءَاهَا طَلَبَا مِنْهَا الْكِتَابَ فَأَنكَرَتْهُ، فَهَدَّاهَا بِتَجَرِيدِهَا مِنْ ثِيَابِهَا لِتَفْتِشَهَا، فَأَخْرَجَتِ الْكِتَابَ مِنْ ضِفَائِرِ شَعْرِهَا.

وَسَأَلَ الرِّسُولُ حَاطِبًا عَنِ الْكِتَابِ فَاعْتَرَفَ وَقَالَ لِلرِّسُولِ إِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ كُفْرًا، وَلَا ارْتِدَادًا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا لِيَتَّخِذَ بِهِ يَدًا عِنْدَ قُرَيْشٍ يَحْمِي بِهَا أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَمَالَهُ. فَقَالَ الرِّسُولُ لِلصَّحَابَةِ إِنَّهُ صَدَقَكُمْ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ الرِّسُولُ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بِدُرٍّ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ.

وَيَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنْ لَا يَتَّخِذُوا الْكُفَّارَ أَعْوَانًا وَأَنْصَارًا لَّهُمْ يُبَلِّغُوهُمْ أَخْبَارَ الرِّسُولِ الَّتِي لَا يَنْبَغِي لِأَعْدَائِهِ أَنْ يَطَّلِعُوا عَلَيْهَا، وَقَدْ كَفَرَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ بِاللَّهِ وَبِرِسُولِهِ وَبِكِتَابِهِ، فَكَيْفَ بِكُمْ بَعْدَ هَذَا تَتَّخِذُوهُمْ أَنْصَارًا تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَيُضِرُّ الرِّسُولَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ أَخْرَجُوا الرِّسُولَ وَأَصْحَابَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ كُرْهًا بِالتَّوْحِيدِ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ذَنْبٌ يُؤَاخِذُونَ عَلَيْهِ غَيْرُ ذَلِكَ. فَإِنْ كُنْتُمْ، يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، قَدْ خَرَجْتُمْ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِي، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي، فَلَا تُولُوا أَعْدَائِي، وَمَنْ يَفْعَلْ هَذِهِ الْمَوَالَاةَ، وَيُفْشِ سِرَّ الرِّسُولِ لِأَعْدَائِهِ، فَقَدْ حَادَ عَنْ قَصْدِ الطَّرِيقِ الْمَوْصِلَةِ إِلَى الْجَنَّةِ. إِنْ ظَفَرَ بِكُمْ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ، الَّذِينَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ، يُظْهِرُوا لَكُمْ عِدَاوَتَهُمْ، وَيُمْدِدُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِمَا يَسُوؤُكُمْ: يُقَاتِلُونَكُمْ وَيَشْتُمُونَكُمْ وَيَتَمَنُّونَ لَوْ تَكْفُرُونَ بِرَبِّكُمْ فَتَكُونُوا عَلَى مِثْلِ دِينِهِمْ، فَكَيْفَ تُسِرُّونَ إِلَى هَؤُلَاءِ بِالْمُودَةِ وَهَذِهِ هِيَ حَالُهُمْ؟.. وَيُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ الَّذِي اعْتَذَرَ بِرَغْبَتِهِ فِي الْمَحَافَظَةِ عَلَى أَوْلَادِهِ وَأَمْوَالِهِ فِي مَكَّةَ، بِأَنَّ الْأَقَارِبَ وَالْأَوْلَادَ، الَّذِينَ تُوَالُونَ الْكُفَّارَ مِنْ أَجْلِهِمْ، لَنْ يَنْفَعُوَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَنْ يَدْفَعُوا عَنْكُمْ شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، إِنْ عَصَيْتُمُوهُ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّهُ سَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَقَارِبِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَصِيبِ. وَيَذْهَلُ كُلُّ وَاحِدٍ عَمَّنْ سِوَاهُ، وَيَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُهُ الْعِبَادُ. أَفَلَا تَأْسَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُوَادُّونَ الْكَافِرِينَ بِأَيِّهِمْ إِبْرَاهِيمَ، وَأَصْحَابِهِ الْمُؤْمِنِينَ، حِينَ قَالُوا لِقَوْمِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ: إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ، وَجَحَدْنَا مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَأَنكَرْنَا عِبَادَتَكُمْ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ حِجَارَةٍ وَأَوْثَانٍ وَأَصْنَامٍ، وَقَدْ أَعْلَنَّا الْحَرْبَ عَلَيْكُمْ، فَلَا هَوَادَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، وَسَنَبْقَى عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تَوْمِنُوا بِاللَّهِ وَتُوحِّدُوهُ، وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا صَاحِبَةَ وَلَا وَلَدَ، وَتَتَخَلَّصُوا مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ. وَلَكُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ تَتَّسُونَ بِهَا، وَتَعْتَبِرُونَ بِهَا فِي مَسْلَكِكُمْ وَعِبَادَتِكُمْ، وَلَا تَسْتَشْنُوا مَنْ تَصَرَّفَاتِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي تَقْتَدُونَ بِهَا إِلَّا اسْتَغْفَارُهُ لِأَيِّهِ الَّذِي بَقِيَ مُقِيمًا عَلَى الْكُفْرِ، فَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيِّهِ: إِنَّهُ سَيَسْتَغْفِرُ لَهُ اللَّهُ، وَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَكْثَرِ مَنْ ذَلِكَ، فَالْأَمْرُ

مَرْدُودٌ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ، إِنْ شَاءَ غُفِرَ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَ. وَلَكِنَّ هَذَا الْقَوْلَ صَدَرَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ حِينَما وَعَدَهُ أَبُوهُ بِأَنَّهُ سَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَيَتَّبِعُهُ فِيمَا يَعْبُدُ. فَلَمَّا تَبَيَّنَ إِبْرَاهِيمُ أَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .

وحينما فارق إبراهيم والمؤمنون معه قومهم لجؤوا إلى الله مُتَضَرِّعِينَ قَائِلِينَ: رَبَّنَا إِنَّا اعْتَمَدْنَا عَلَيْكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا (تَوَكَّلْنَا)، وَرَجَعْنَا إِلَيْكَ بِالتَّوْبَةِ مِنْ ذُنُوبِنَا، وَإِلَيْكَ مَصِيرُنَا حِينَ تَبْعَثُنَا مِنْ قُبُورِنَا لِلْعَرْضِ وَالْحِسَابِ. فَاقْتَدُوا بِهِمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَقُولُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ ..^{٧٩٥}

النداء للمؤمنين جميعاً، الذين كانوا في مواجهة المشركين من قريش وأحلافهم، حيث كانوا يتربصون بالنبي وبالمؤمنين، ويكيدون لهم، ويستعدون ضعاف الإيمان عليهم، ويجذبونهم إليهم بالوعد وبالوعيد.. وقد كشف الله سبحانه للمؤمنين عن وجه هؤلاء المشركين، وأنهم أعداء الله وأعداء الذين آمنوا.. فمن كان مؤمناً بالله حقاً كان على ولاء لله وللمؤمنين به، الأمر الذي لا يتفق معه الولاء والمودة لأعداء الله وأعداء المؤمنين..

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ» فإن من يتصف بالإيمان، لا تبقى له هذه الصفة، إذا هو كان على ولاء ومودة، لمن كان عدواً لله وعدواً للمؤمنين، أولياء الله..

وقوله تعالى: «تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ» هو جملة حال من فاعل الفعل: «لَا تَتَّخِذُوا» أو هو صفة لأولياء.. والإلقاء بالمودة، بذلها في صورة رسائل، أو هدايا، أو عواطف من الحب والود، مع بعد الشقة النفيسة، التي ينبغي أن تكون بين المؤمنين بالله والكافرين به، أو بعد الشقة المكانية حيث المؤمنون في المدينة، والمشركون في مكة.. ولهذا عدّى الفعل بالياء، لتضمنه معنى تبعثون إليهم بالمودة، مع إفادته معنى السر والخفاء حيث تلقى إليهم المودة في كلا الحالين فيتلقفونها من غير أن يراها أحد..

وقوله تعالى: «وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ» أي أنكم تلقون إلى عدو الله وعدوكم بالمودة، في حال قد كفر فيها هذا العدو بما جاءكم من الحق، الذي نزل به القرآن الكريم، وتلاه عليكم رسول الله.. بل ليس هذا فحسب، إنهم «يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ» أي مع كفرهم بالحق الذي آمنتم به - وهذا وحده كاف لقطع كل ولاء بينكم وبينهم، فإنهم - مع هذا - يخرجون الرسول، ويخرجونكم من دياركم وأهليكم لا لجنائية جناها الرسول أو جنيتها أأنتم عليهم، إلا أنكم آمنتم بالله ربكم.. فتلك هي جنائيتكم عند القوم.. إنهم يعادونكم لإيمانكم بالله.. فقلوه تعالى:

«وَإِيَّاكُمْ» معطوف على «الرسول» أي يخرجون الرسول ويخرجونكم. قوله تعالى: «إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي» - هو تعقيب على قوله تعالى: «أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ» - أي إن كان إيمانكم هذا صادقا، وكانت هجرتكم خالصة لوجه الله، تريدون بها جهادا في سبيله وابتغاء مرضاته.. وفي هذا إلفات للمسلمين إلى هذا الإيمان الذي في قلوبهم، وإلى تحييصه من شوائب

^{٧٩٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٢٩، بترقيم الشاملة آليا)

النفاق، حتى يكون إيماننا حقًا.. فهذا الإيمان الحق من شأنه ألا يقيم بينكم وبين أعداء الله وأعداء المؤمنين مودة.. أما إذا كان إيمانكم على غير تلك الصفة، فهو ليس الإيمان الذي خرج به النبي والمؤمنون من ديارهم، وليس هو الإيمان الذي يجعل من المشركين عدوا للمؤمنين..

فهل أنتم مؤمنون حقًا؟ فإن كنتم مؤمنين حقًا، فلا تتخذوا عدوا الله وعدو المؤمنين أولياء. وفي التعبير عن إخراج المشركين للنبي والمؤمنين، بالفعل المضارع الذي يفيد تجدد الزمن حالًا بعد حال، للإشارة إلى أن المشركين ما زالوا على موقفهم من النبي والمؤمنين، وأنه لو عاد النبي والمؤمنون إلى ديارهم بمكة لأخرجهم المشركون منها، بما يلاحقونهم به من أذى وضرر.. كما أن المشركين لم يزل هذا موقفهم من المؤمنين الذين كانوا في مكة، ولم تتح لهم فرصة الهجرة لسبب أو لآخر..

ويجوز أن يكون قوله تعالى: «إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي» . يجوز أن يكون منصلاً بقوله تعالى: «لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ» .. ويكون ما بينهما اعتراض يراد به الكشف عن وجه أعداء الله وأعداء المؤمنين، وما يرمون به النبي والمؤمنين من أذى متلاحق..

وقوله تعالى: «تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ» هو استفهام إنكارى، أي أبعد هذا الذي علمتم أو تعلمون من أمر القوم - أبعد هذا تسرون إليهم بالمودة؟ أي تبادلوهم المودة في ستر وخفاء «وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ» .. فإنه لا يخفى على الله خافية في الأرض ولا في السماء:

«سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ» (١٠: الرعد) وإن إسراركم هذه المودة لدليل على أنها أمر تنكرونه أنتم، وينكره المؤمنون عليكم، وإنه لو كان غير منكر لأعلنتموه.. فإخفاء هذه المودة التي بين بعض المؤمنين وبين المشركين شاهد على أنها مما يعاب على المؤمن، ومما ينبغى ستروه وإخفاؤه، وحسب الأمر شناعة ألا يكون له وجه يظهر به في الناس، فإن ظهر كان فضيحة لصاحبه!! وقوله تعالى: «وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» الضمير في «يفعله» يعود إلى هذا الإسرار المودة.. أي ومن يفعل هذا الإسرار بالمودة، فقد ضل سواء السبيل، لأن الإسرار بها - كما قلنا - دليل على نكرها وبشاعتها.. وإذا امتنع الإسرار بها، فقد أصبح من المستبعد إعلانها إلا إذا كان ذلك عن كفر صريح، وردة عن الإيمان.. فهذا شأن آخر غير شأن المؤمنين.

قوله تعالى: «إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ» «إِنْ يَتَّقَوْكُمْ»: أي يظفروا بكم، ويتنصروا عليكم، ومنه قوله تعالى: «فِيمَا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ» (٥٧: الأنفال) والثقاق: ما يتقف به الرمح، أي يعدل ويقوم، والمراد بثقف القوم هنا التمكن منهم، كما يتمكن الثقاف من الرمح. والخطاب هنا للمؤمنين الذين بينهم وبين المشركين مودة.. أي أن هؤلاء المشركين الذين توادوهم أيها الموادون لهم من

المؤمنين - إن يظفروا بكم في حرب بين المؤمنين وبينهم، لن يبقوا على هذا الود الذي تحسبونه قائما بينكم وبينهم، بل إنهم سيكونون لكم في تلك الحال أعداء، يسطون إليكم أيديهم بالأذى، وألستهم بالسوء، بل إنهم ليفعلون بكم أكثر من هذا، وهو حملكم على أن تعودوا إليهم كفارا.. فهذا هو الذي يقطع عداوتهم لكم..

وفي قوله تعالى: «يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً» - إشارة إلى أن هذه المودة التي بين بعض المؤمنين والمشركون، هي التي تخفى هذه العداة التي في صدور المشركون لهم - فإذا أمكنت الفرصة المشركون منهم، ظهرت هذه العداوة الكامنة..

وفي قوله تعالى: «وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ» - يعطف الفعل الماضي على فعل المستقبل «يسطوا» - في هذا إشارة إلى أن هذه الرغبة، أي رغبة المشركون في أن يكفر المؤمنون - هي رغبة قديمة، من يوم أن آمن هؤلاء المؤمنون.. إنها رغبة لم تنقطع بالهجرة، ولا بالمودة التي تجرى بينهم وبين هؤلاء المؤمنين، بل هي قائمة في صدور المشركون، لن تموت أبدا إلا بعودة المؤمنين كفارا..

قوله تعالى: «لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» أي أنه - أيها المؤمنون - لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم الذين أمسكوا بشركهم، فقد أصبحتم في حزب الله، وظلّوا هم في حزب الشيطان، ولن يجتمع حزب الله وحزب الشيطان، ولن يتبادلوا المنافع بينهم.. فليس في جانب المشركون إلا السوء والضلال.. وكما فرق الإيمان بينكم وبين أرحامكم وأولادكم المشركون في الدنيا، كذلك يفرق بينكم وبينهم يوم القيامة.. فأنتم في رحمة الله ورضوانه، وهم في سخط الله وعذابه..

قيل إن هذه الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة - وهو صحابيٌّ ممن شهد بدرًا - وكان ذلك بعد صلح الحديبية، وبعد أن نقضت قريش شروط الصلح التي صالحها عليها النبي يومئذ.. وكان النبي يعدّ العدة لفتح مكة، ويتجهز لهذا في سر وخفاء، حتى لا تعلم قريش، وتستعد للحرب..

وكان حاطب بن أبي بلتعة حين هاجر من مكة قد خلف بعض أهله بها، ولم يكن له في مكة عصبية تحمى أهله المخلفين هناك، من أذى قريش، فأراد أن يصطنع عند قريش يدا ينتفع بها أهله عندهم، فبعث إليهم برسالة مع امرأة من مكة كانت قد وفدت إلى المدينة، فلما قفلت راجعة إلى مكة، أعطاها «حاطب» رسالة إلى قريش، يعلمهم فيها أن النبي يعدّ العدة لحربهم، وأوصى المرأة أن تخفى الرسالة، وأن تكتنم أمرها، لقاء مال أعطاها إياه.. فلما أخذت المرأة طريقها إلى مكة، جاء خبر السماء إلى النبي - صلوات الله وسلامه عليه - بما كان من هذا الحدث، فبعث النبي بجماعة من أصحابه فيهم على بن أبي طالب رضى الله عنه، يتبعون المرأة، ويأخذون الرسالة التي معها.. فلما جرى بالرسالة إلى النبي، دعا إليه حاطبا، وسأله عن أمر هذه الرسالة، فاعترف بها، واعتذر للنبي صادقا، بأنه لم يرد بهذا كيذا للمسلمين، ولا ممالأة للمشركون، وإنه ليعلم أن الله سيؤيد النبي بنصره، وأنه لن يغنى عن قريش أي

تدبير يدبرونه فصدقه النبي، وقبل ما اعتذر به، وردّ عمر بن الخطاب حين قال: ألا أضرب عنقه يا رسول الله، بقوله - صلوات الله وسلامه عليه: «وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد عفوت عنكم» وهكذا أعفا النبي عن هذا الصحابي الذي شهد بدرا، ثم تنزلت آيات الله في مواجهة هذه الحادثة، فكان منها هذا الدرس الخالد للمسلمين، يقيم لهم دستوراً حكيماً، يجرس إيمانهم من أن تفسده مشاعر المودة بينهم وبين أعداء الله وأعداء المؤمنين بالله.^{٧٩٦}

ذكر كثير من المفسرين، [رحمهم الله]، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك يدا عندهم لا [شكا و] نفاقاً، وأرسله مع امرأة، فأخبر النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب.

وعاتب حاطباً، فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي ﷺ، وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاته الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، الذي لا ييقي من مجهوده في العداوة شيئاً، وينتهاز الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} اعملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان، ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله، وعدو للمؤمنين.

فلا تتخذوا عدو الله {وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ} أي: تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها، فإن المودة إذا حصلت، تبعثها النصر والموالاتة، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران، وانفصل عن أهل الإيمان.

وهذا المتخذ للكافر ولياً، عادم المروءة أيضاً، فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه الذي يريد به الخير، ويأمره به، ويحثه عليه؟! ومما يدعو المؤمن أيضاً إلى معاداة الكفار، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضلال على غير هدى.

والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ومن رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة قوله، بل مجرد العلم بالحق يدل على بطلان قول من رده وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنهم {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ} أيها المؤمنون من دياركم، ويشردونكم من أوطانكم، ولا ذنب لكم في ذلك عندهم، إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته، لأنه رباهم، وأنعم عليهم، بالنعم الظاهرة والباطنة، وهو الله تعالى.

^{٧٩٦} - التفسير القرآني للقرآن (١٤ / ٨٩٠)

فلما أعرضوا عن هذا الأمر، الذي هو أوجب الواجبات، وقمتم به، عادوكم، وأخرجوكم - من أجله - من دياركم، فأى دين، وأى مروءة وعقل، يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟ " ولا يمنعهم منه إلا خوف، أو مانع قوي.

{إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي} أي: إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وابتغاء مرضاة الله فاعملوا بمقتضى هذا، من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، فإن هذا هو الجهاد في سبيله وهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم ويتبعون به رضاه. {تُسِرُّونَ إِلَيْهِمُ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ} أي: كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها، مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟! فهو وإن خفي على المؤمنين، فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر، {وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ} أي: موالاة الكافرين بعد ما حذرهم الله منها {فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} لأنه سلك مسلكا مخالفا للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

ثم بين تعالى شدة عداوتهم، تهيجا للمؤمنين على عداوتهم، {إِنْ يَنْقُضُوكُمْ} أي: يجذوكم، وتسرح لهم الفرصة في أذاكم، {يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً} ظاهرين {وَيَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ} بالقتل والضرب، ونحو ذلك. {وَأَلْسِنَتُهُمُ بِالسُّوءِ} أي: بالقول الذي يسوء، من شتم وغيره، {وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ} فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

فإن احتجاجتم وقتلتم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال، فلن تعني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئا. {والله بما تعملون بصير} فلذلك حذرهم من موالاة الكافرين الذين تضرهم موالاهم. قد كان لكم يا معشر المؤمنين {أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} أي: قدوة صالحة واثمام ينفعكم، {فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ} من المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفا، {إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: {كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا} أي: ظهر وبان {بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ} أي: البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك {أَبَدًا} ما دمتم مستمرين على كفركم {حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ} أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية، فلکم أيها المؤمنون أسوة [حسنة] في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده، {إِلَّا} في خصلة واحدة وهي {قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ} أزر المشرك، الكافر، المعاند، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم: {لَأَسْتَعِزَّ بِكَ وَ} الحال أني لا {أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} لكني أدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه

الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركون، وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: {رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا} أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك.

{وَالَيْكَ أُنَبِّئُكَ} أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فسنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك. {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا، ويمنعونا مما يقدر عليهم من أمور الإيمان، ويفتنون أيضا بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفرا وطغيانا، {وَاعْفِرْ لَنَا} ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات، {رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ} القاهر لكل شيء، {الْحَكِيمُ} الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتكم وحكمتكم انصرنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.^{٧٩٧}

نداء من ربهم الذي آمنوا به، يدعوههم باسم الإيمان الذي ينسبهم إليه. يدعوههم ليبصرهم بحقائق موقفهم، ويحذرهم حبال أعدائهم، ويذكرهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم. وفي مودة يجعل عدوهم عدوه، وعدوه عدوهم: «لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ».. فيشعر المؤمنون بأنهم منه وإليه. يعاديهم من يعاديه. فهم رجاله المنتسبون إليه الذين يحملون شارته في هذه الأرض، وهم أوداؤه وأحباؤه. فلا يجوز أن يلقوا بالمودة إلى أعدائهم وأعدائه.

ويذكرهم بجريرة هؤلاء الأعداء عليهم وعلى دينهم وعلى رسولهم، وعدوانهم على هذا كله في تجن وظلم: «وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ. يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ. أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ».. فماذا أبقوا بعد هذه الجرائر الظالمة للموالاتة والمودة؟ كفروا بالحق. وأخرجوا الرسول والمؤمنين، لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله ربهم؟ إنه يهيح في قلوب المؤمنين هذه الذكريات المرتبطة بعقيدتهم. وهي التي حارهم المشركون من أجلها، لا من أجل أي سبب آخر. ويبرز القضية التي عليها الخلاف والخصومة والحرب. فهي قضية العقيدة دون سواها. قضية الحق الذي كفروا به والرسول الذي أخرجوه، والإيمان الذي من أجله أخرجوهم.

وإذا تمحضت القضية هكذا وبرزت، ذكرهم بأنه لا محل إذن للمودة بينهم وبين المشركين إن كانوا قد خرجوا من ديارهم ابتغاء رضوان الله وجهادا في سبيله: «إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ

^{٧٩٧} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٥٥)

مَرْضَاتِي».. فما يجتمع في قلب واحد أن يهاجر جهادا في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، مع مودة لمن أخرجته من أجل إيمانه بالله، وهو عدو الله وعدو رسول الله! ثم يحذرهم تحذيرا خفيا مما تكن قلوبهم، وما يسرون به إلى أعدائهم وأعداء الله من المودة، وهو مطلع على خفية القلوب وعلايتها: «تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ».

ثم يهددهم تهديدا خفيا، يثير في القلب المؤمن الوجل والخافة: «وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ».. وهل يخيف المؤمن شيء ما يخيفه أن يضل سواء السبيل بعد الهداية والوصول؟! وهذا التهديد وذلك التحذير يتوسطان تبصير المؤمنين بحقيقة أعدائهم وما يضمرون لهم من الشر والكيد. ثم تحيي البقية: «إِنْ يَتَّقِفُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ».. فلا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها من المسلمين حتى يتصرفوا معهم تصرف العدو الأصيل. ويوقعوا بهم ما يملكون من أذى ومن تنكيل بالأيدي وبالللسنة وبكل وسيلة وكل سبيل.

والأدهى من هذا كله والأشد والأنكى: «وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ».. وهذه عند المؤمن أشد من كل أذى ومن كل سوء يصيبه باليد أو اللسان. فالذي يود له أن يخسر هذا الكثر العزيز. كثر الإيمان. ويرتد إلى الكفر، هو أعدى من كل عدو يؤذيه باليد وباللسان! والذي يذوق حلاوة الإيمان بعد الكفر، ويهتدي بنوره بعد الضلال، ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته ومداركه ومشاعره واستقامته وطريقه وطمأنينة قلبه يكره العودة إلى الكفر كما يكره أن يلقي في النار. أو أشد. فعُدو الله هو الذي يود أن يرجعه إلى جحيم الكفر وقد خرج منه إلى جنة الإيمان، وإلى فراغ الكفر الخاوي بعد عالم الإيمان المعمور. لهذا يتدرج القرآن في تهيج قلوب المؤمنين ضد أعدائه وأعدائهم حتى يصل إلى قمته بقوله لهم عنهم: «وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ»..

هذه هي الجولة الأولى بلمساتها المتعددة. ثم تليها جولة ثانية بلمسة واحدة تعالج مشاعر القربة ووشائجها المتأصلة والتي تشتجر في القلوب فتجرها جرا إلى المودة وتنسيها تكاليف التميز بالعقيدة: «لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ. يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ. وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»..

إن المؤمن يعمل ويرجو الآخرة. يزرع هنا وينتظر الحصاد هناك. فلمسة قلبه بما يكون في الآخرة من تقطيع وشائج القرى كلها إذا تقطعت وشيجة العقيدة، من شأنها أن تهون عنده شأن هذه الوشائج في فترة الحياة الدنيا القصيرة وتوجهه إلى طلب الوشيجة الدائمة التي لا تنقطع في دنيا ولا في آخرة:

ومن ثم يقول لهم: «لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ».. التي تهفون إليها وتتعلق قلوبكم بها وتضطرركم إلى مودة أعداء الله وأعدائكم وقاية لها - كما حدث لحاطب في حرصه على أولاده وأمواله - وكما تجيش خواطر آخرين غيره حول أرحامهم وأولادهم الذين خلفوهم في دار الهجرة. لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم. ذلك أنه «يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ».. لأن العروة التي

تربطكم مقطوعة. وهي العروة التي لا رباط بغيرها عند الله. «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».. مطلع على العمل الظاهر والنية وراءه في الضمير^{٧٩٨}.

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - تحريم موالاة الكفار ومناصرتهم ومعاونتهم بأي وجه من الوجوه، والسورة أصل في النهي عن موالاة الكفار، ولو في الظاهر، مع عدم الرضا في القلب بالاعتقاد الذي هم عليه.

٢ - من كثر تطلعه على عورات المسلمين والتجسس عليهم ونقل أخبارهم للأعداء، لم يكن بذلك كافرا إذا كان فعله لغرض دنيوي، وكان اعتقاده سليما، كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليد، ولم ينو الردة عن الدين.

٣ - اختلف العلماء في قتل الجاسوس، فقال مالك والأوزاعي في شأن المعاهد والذمي: يجوز قتله، لأنه يصير ناقضا للعهد. وقال الجمهور: لا ينتقض عهد المعاهد بذلك، أما الذمي فرأى الحنابلة: أنه ينتقض عهده بدلالة أهل الحرب المشركين على أسرارنا. وذهب الشافعية: إلى أنه لا ينتقض عهد الذمي بالتجسس إلا إذا شرط عليه انتقاض عهده بذلك.

وأما الجاسوس المسلم: فقال كبار المالكية: إنه يقتل. وقال الجمهور:

لا يقتل، بل يعزّره الإمام بما يراه من ضرب وحبس ونحوهما.

ودليل الفريقين قصة حاطب، فإن الفريق الأول قالوا: أقر النبي ﷺ عمر رضي الله عنه على إرادة القتل لولا وجود المانع: وهو شهود بدر. وقال الفريق الثاني: إن الرسول ﷺ لم يقتل حاطبا، لأنه مسلم، وروي عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتى بعين (جاسوس) للمشركين اسمه فرات بن حيّان، فأمر به أن يقتل، فصاح: يا معشر الأنصار، أقتل وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله! فأمر به النبي ﷺ، فخلّى سبيله، ثم قال: «إن منكم من أكله إلى إيمانه، منهم فرات بن حيّان» .

٤ - ذكرت الآيات خمسة أسباب لتحريم موالاة الكفار، وهي الكفر بالله تعالى والرسول ﷺ، وإخراج الرسول ﷺ والمؤمنين من ديارهم وأموالهم في مكة، وعداوتهم ومجاورتهم للمؤمنين، وقتالهم إياهم وضربهم فعلا، وسبهم وشتيمهم، وحرصهم على كفرهم بمحمد ﷺ .

٥ - حذر الله تعالى من مخالفة نهي عن موالاة الأعداء بأمرين: أولهما - أنه سبحانه أعلم بما تخفي الصدور، وما تظهر الألسن من الإقرار بالله وتوحيده.

وثانيهما - أن من يوالي الكفار ويسرّ إليهم ويكاتبهم من المسلمين، فقد ضل سواء السبيل، أي أخطأ قصد الطريق.

^{٧٩٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٢١)

٦- قوله سبحانه: تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ أَيَّ النَّصِيحَةِ فِي الْكِتَابِ إِلَيْهِمْ، هو معاتبة لحاطب، وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله ﷺ وصدق إيمانه، فإن المعاتبة لا تكون إلا من محبٍ لحبيبه.

٧- الذي يفيد الإنسان يوم القيامة هو الإيمان الصحيح والعمل الصالح، أما الأهل والأولاد أو أصحاب القرباب أو الأنساب، فلا ينفعون شيئاً يوم القيامة، إن عصي الله عز وجل من أجل ذلك، والله بصير بأعمال عباده، ويجازيهم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. والله سبحانه يفرق أو يفصل بين الأقارب وغيرهم يوم القيامة، فيدخل المؤمنين الجنة، ويدخل الكافرين النار.^{٧٩٩}

٢٠. تولي المنافقين والتهاون معهم :

قال تعالى: { فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) } وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) } سورة النساء

فَمَا لَكُمْ أَصْبَحْتُمْ فِتْنَةً فِي الْمُنَافِقِينَ، وَاخْتَلَفْتُمْ فِي كُفْرِهِمْ، مَعَ تَظَاهُرِ الْأَدْلَةِ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَخْتَلِفُوا فِي شَأْنِهِمْ، وَكَيْفَ تَفْتَرِقُونَ فِي شَأْنِهِمْ وَقَدْ صَرَفَهُمُ اللَّهُ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، بِمَا كَسَبُوا مِنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ، وَاجْتَرَحُوا مِنَ الْمَعَاصِي، وَقَدْ أَرَكْسَهُمُ اللَّهُ، وَجَعَلَهُمْ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ نَاكِسِي الرُّؤُوسِ، بِسَبَبِ إِيغَالِهِمْ فِي الضَّلَالِ، وَبُعْدِهِمْ عَنِ الْحَقِّ؟ وَأَنْتُمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَيْسَ بِاسْتِطَاعَتِكُمْ أَنْ تُبَدِّلُوا سُنْنَ اللَّهِ، لِأَنَّ مَنْ قَضَتْ سُنُّ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ أَنْ يَكُونَ ضَالًّا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا يُمَكِّنُ أَنْ يَصِلَ بِسُلُوكِهَا إِلَى الْحَقِّ .

وسبيل الفطرة أن يعرض الإنسان جميع أعماله على سُنَنِ الْعَقْلِ، وَيَتَّبِعَ مَا يَظْهَرُ لَهُ أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي فِيهِ مَنْفَعَتُهُ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا . وَأَكْثَرُ مَا يَصُدُّ الْإِنْسَانَ عَنْ سَبِيلِ الْفِطْرَةِ هُوَ التَّقْلِيدُ وَالْعُرُورُ وَظَنُّ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَا هُوَ أَكْمَلُ مِمَّا هُوَ فِيهِ، وَبِهَذَا يَقْطَعُ عَلَى نَفْسِهِ طَرِيقَ الْعَقْلِ وَالتَّطَرُّعِ فِي التَّفَعُّعِ وَالضَّرَرِ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ .

وهؤلاء لا يقنعون بما هم فيه من الضلالة والغواية، بل يطمعون في أن تكونوا أمثالهم، وهم يودون لكم الضلالة لتستؤوا أنتم وإياهم فيها، وما ذلك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم، فلا تتخذوا منهم أولياء ونصراء وأصدقاء، حَتَّى يُؤْمِنُوا وَيُهَاجِرُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، لِيُثَبِّتُوا صِدْقَ إِيْمَانِهِمْ، فَإِنْ رَفَضُوا

^{٧٩٩} - أيسر التفاسير للجزائري (٥/ ٣٢٢) والتفسير المنير للزحيلي (٢٨/ ١٢٣)

الْحِجْرَةَ (تَوَلَّوْا) وَلَزِمُوا مَوَاضِعَهُمْ، وَأَظْهَرُوا كُفْرَهُمْ فَخَذُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ، وَلَا تُؤَالِفُوهُمْ، وَلَا تَسْتَنْصِرُوا بِهِمْ عَلَى عَدُوِّ لَكُمْ مَا دَامُوا كَذَلِكَ^{٨٠٠}

النفاق أحبب نبتة وأشامها، تنبت في كيان المجتمع، وتغتال آية رقعة من أرضه.. والمنافقون هم أحبب داء وأقتله، إذا تسلطوا على مجتمع، وأوجدوا لأنفسهم مكانا فيه..

ولقد ابتلى المسلمون - شأهم شأن كل مجتمع - بالنفاق وبالمنافيين، الذين كانوا عدوا خفيا، يظهر العدو الظاهر، الذي يلقاه المسلمون في ميدان القتال! وإذا كانت سيوف المسلمين قد عرفت طريقها إلى رقاب المشركين والكافرين، وأخذت بحققها منهم، فإن أمر المسلمين مع المنافيين كان على خلاف.. حيث يظهر فيهم المنافق بأكثر من وجه، فلا يدرون على أي وجه يتعاملون معه، ولا على أي وجه يأخذونه.. فهو مسلم في ظاهره.. مشرك، أو كافر، في باطنه..!

وإذا أتيح للمسلمين أن يروا من المنافق هذا الظاهر الذي يعيش فيه معهم، فمن لهم بأن يروا منه هذا الباطن الذي لا يعلمه إلا علام الغيوب؟

وهنا موطن الحذر، والتأويل، ومكمن الخطر والخرج!! وفي عهد النبوة كشف الله سبحانه للنبي وللمسلمين عن كثير من المنافيين، وفضح لهم باطنهم، وعرضهم على الملأ عرضا فاضحا، بأعيانهم، وأسمائهم..

فلم يكن أمرهم بعد هذا خافيا على أحد.. ولكن مع هذا ظل بعض المسلمين مترددا في كثير منهم، لما يبدو على ظاهرهم من سراب خادع، من الصلاح الزائف، والتقوى، الكاذبة..

فجاء قوله تعالى: «فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ؟» قاضيا على هذا التردد، قاطعا كل شك.. فلا ينبغي بعد هذا أن يكون المؤمنون على رأيين في المنافيين، وإنما هو رأى واحد لا خلاف عليه.. وهو أن هؤلاء المنافيين، منافقون، قولا واحدا، وأن على المسلمين جميعا أن يعاملوهم معاملة المشركين والكافرين، وأن يحذروهم حذر المنافيين والمشركين..

وقوله تعالى: «فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ» هو استفهام إنكارى، أن يكون المسلمون فريقين في أمر المنافيين، فريقا يحذروهم ويتخذهم عدوا، وفريقا آخر يقف منهم موقف التردد والترقب، تمحيصا لما في قلوبهم، واختبارا لما في صدورهم.. وذلك ما ينكره الله سبحانه على هذا الفريق، الذي وقف من هؤلاء المنافيين هذا الموقف المتردد..

وقوله تعالى: «وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا» هو تأكيد قاطع لما حكم الله به هو على هؤلاء المنافيين، وأهم أهل ضلال وفساد، لا يرجى لهم صلاح أبدا.. فقد أقامهم الله على هذا النفاق، ودمغهم

^{٨٠٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٨١، بترقيم الشاملة آليا)

به، بسبب ما كان منهم من مكر بآيات الله، والتواء على صراطه المستقيم، وتلاعب بشرعه القويم! وقوله تعالى: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ»

استفهام إنكارى أيضاً، على تلك الفئة من المسلمين التي لا تزال تحت تأثير هذا الخداع الذي يلوح لهم من قبل المنافقين، ويتوقعون من جهتهم الخير والصلاح.. وكلا، فقد أضلَّهُم الله.. فهل في الناس من هو قادر على أن يهدى من أضله الله؟ «وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا».. فإنه لا سبيل له غير هذا السبيل الذي سلكه، سبيل النفاق، الذي سيمضى فيه إلى غايته، التي تنتهى به إلى جهنم وبئس المهاد.^{٨٠١} وقد وردت في شأن هؤلاء المنافقين روايات، أهمها روايات^{٨٠٢}:

عَنْ عَدِيِّ بْنِ تَابِتٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ زَيْدٍ الْأَنْصَارِيَّ يُحَدِّثُ عَنْ زَيْدٍ يَعْنِي ابْنَ تَابِتٍ: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى أَحَدٍ رَجَعَتْ طَائِفَةٌ مِمَّنْ كَانَ مَعَهُ، وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِيهِمْ فِرَقَتَانِ، فِرْقَةٌ تَقُولُ: نَقْتُلُهُمْ، وَفِرْقَةٌ تَقُولُ: لَا، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: "فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا" الْآيَةَ كُلَّهَا".^{٨٠٣}

وَالْوَجْهَ الثَّانِي: عَنْ ابْنِ سَعْدٍ بْنِ مُعَاذٍ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ، أُنْزِلَتْ فِيْنَا: "فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا" فَخَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: مَنْ لِي بِمَنْ يُؤْذِينِي وَيَجْمَعُ فِي بَيْتِهِ مَنْ يُؤْذِينِي، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ مِنَّا قَتْلُنَاهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزَرَجِ أَمَرْتَنَا فَاطْعَانَاكَ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ، فَقَالَ: مَا بَكَ طَاعَةُ رَسُولِ اللَّهِ يَا ابْنَ مُعَاذٍ، وَلَكِنْ عَرَفْتُ مَا هُوَ مِنْكَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَ: يَا ابْنَ عَبَادَةَ إِنَّكَ مُنَافِقٌ تُحِبُّ الْمُنَافِقِينَ، فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ: اسْكُتُوا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّ فِيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ يَأْمُرُ فَيَنْفُذُ لِأَمْرِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: "فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ" ^{٨٠٤}.

وَالْوَجْهَ الثَّالِثُ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: "فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ" وَذَلِكَ أَنَّ قَوْمًا كَانُوا بِمَكَّةَ قَدْ تَكَلَّمُوا بِالْإِسْلَامِ، وَكَانُوا يُظَاهِرُونَ الْمُشْرِكِينَ، فَخَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ يَطْلُبُونَ حَاجَةً لَهُمْ، فَقَالُوا: إِنْ لَقِينَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ فَلَيْسَ عَلَيْنَا فِيهِمْ بَأْسٌ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا أُخْبِرُوا أَنَّهُمْ قَدْ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ، قَالَتْ فِتْنَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: ارْكَبُوا إِلَى الْخَبَاءِ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّهُمْ يُظَاهِرُونَ عَلَيْكُمْ عَدَدَهُمْ، وَقَالَتْ فِتْنَةٌ أُخْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، أَوْ كَمَا قَالُوا: تَقْتُلُونَ قَوْمًا قَدْ تَكَلَّمُوا مِثْلَ مَا تَكَلَّمْتُمْ بِهِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ

^{٨٠١} - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٥٤)

^{٨٠٢} - التفصيل من عندي لزيادة الفائدة والتوضيح

^{٨٠٣} - تفسير ابن أبي حاتم - (٤ / ٢٨٠) (٥٧٧٤) صحيح

^{٨٠٤} - تفسير ابن أبي حاتم - (٤ / ٢٨١) (٥٧٧٥) حسن

يُهَاجِرُوا وَيَتْرَكُوا دِيَارَهُمْ تُسْتَحَلُّ أَمْوَالُهُمْ وَدِمَائُهُمْ، فَكَانُوا كَذَلِكَ فَتَنَيْنِ وَالرَّسُولُ عِنْدَهُمْ لَا يَنْهَى
وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَنْ شَيْءٍ، فَنَزَلَتْ: "فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ" ٨٠٥.
وَالْوَجْهَ الرَّابِعُ: عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ كَثِيرٍ، حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، أَنَّ ابْنَ شِهَابٍ
حَدَّثَهُ، أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَدَّثَهُ "أَنَّ نَفَرًا مِنْ طَوَائِفِ الْعَرَبِ هَاجَرُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ
ﷺ، فَمَكَثُوا مَعَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمَكُثُوا ثُمَّ ارْتَكَسُوا، فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَلَقُوا سَرِيَّةً مِنْ أَصْحَابِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَرَفُوهُمْ فَسَأَلُوهُمْ مَا رَدَّكُمْ؟ فَاعْتَلُوا لَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ لَهُمْ: نَافَقْتُمْ، فَلَمْ يَزَلْ بَعْضُ
ذَلِكَ حَتَّى فَشَا فِيهِمُ الْقَوْلُ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: "فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ" ٨٠٦. وَرَوَى عَنْ
الزُّهْرِيِّ، وَالسُّدِّيِّ نَحْوَ ذَلِكَ.

وَالْوَجْهَ الْخَامِسُ: عَنْ عِكْرِمَةَ: "فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ" قَالَ: أَخَذَ أَنَسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَمْوَالًا
مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَنْطَلَقُوا بِهَا، فَاخْتَلَفَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِمْ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: لَوْ لَقِينَاهُمْ قَتَلْنَاهُمْ وَأَخَذْنَا مَا فِي
أَيْدِيهِمْ، وَقَالَ بَعْضُ: لَا يَصْلُحُ لَكُمْ ذَلِكَ إِخْوَانُكُمْ أَنْطَلَقُوا تُجَارًا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ٨٠٧.
وَالْوَجْهَ السَّادِسُ: عَنْ مُجَاهِدٍ قَوْلُهُ: "فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ" قَوْمٌ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ حَتَّى جَاءُوا
الْمَدِينَةَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُهَاجِرُونَ، ثُمَّ ارْتَدُّوا بَعْدَ ذَلِكَ، فَاسْتَأْذَنُوا النَّبِيَّ ﷺ إِلَى مَكَّةَ لِيَأْتُوا بِبَضَائِعَ يَتَّجِرُونَ
فِيهَا، فَاخْتَلَفَ فِيهِمُ الْمُؤْمِنُونَ، فَقَائِلٌ يَقُولُ: مُنَافِقُونَ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: هُمْ مُؤْمِنُونَ، فَبَيَّنَ اللَّهُ نِفَاقَهُمْ، فَأَمَرَ
بِقَتْلِهِمْ فَجَاءُوا بِبَضَائِعَ يُرِيدُونَ هِلَالَ بْنِ عُيَيْرٍ الْأَسْلَمِيِّ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ حَلْفٌ، فَدَفَعَ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ
يُؤْمِنُونَ هِلَالَ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ عَهْدٌ ٨٠٨.

ومع أن الرواية الأولى أوثق من ناحية السند والإخراج إلا أننا نرجح مضمون الروايات
الأخرى، بالاستناد إلى الواقع التاريخي فالثابت أن منافقي المدينة لم يرد أمر بقتلهم ولم يقاتلهم الرسول
ﷺ - أو يقتلهم. إنما كانت هناك خطة أخرى مقررة في التعامل معهم. هي خطة الإغضاء
عنهم، وترك المجتمع نفسه ينبذهم، وتقطيع الأسناد من حولهم بطرد اليهود - وهم الذين يغروهم
ويعلمون لهم - من المدينة أولاً. ثم من الجزيرة العربية كلها أخيراً.. أما هنا فنحن نجد أمراً جازماً
بأخذهم أسرى، وقتلهم حيث وجدوا: مما يقطع بأنهم مجموعة أخرى غير مجموعة المنافقين في المدينة
.. وقد يقال: إن الأمر بأخذهم أسرى وقتلهم مشروط بقوله تعالى: «فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى
يُهَاجِرُوا، فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ».. فهو تهديد ليقبلوا عما هم
فيه.. وقد يكونون أقلعوا فلم ينفذ الرسول ﷺ - هذا الأمر فيهم.. ولكن كلمة «يهاجروا» تقطع

٨٠٥ - تفسير ابن أبي حاتم - (٤ / ٢٨٢) (٥٧٧٦) ضعيف

٨٠٦ - تفسير ابن أبي حاتم - (٤ / ٢٨٣) (٥٧٧٧) صحيح لغيره

٨٠٧ - تفسير ابن أبي حاتم - (٤ / ٢٨٣) (٥٧٧٨) صحيح مرسل

٨٠٨ - تفسير ابن أبي حاتم - (٤ / ٢٨٤) (٥٧٧٩) صحيح مرسل

- في هذه الفترة - بأنهم ليسوا من أهل المدينة. وأن المقصود هو أن يهاجروا إلى المدينة فقد كان هذا قبل الفتح. ومعنى الهجرة - قبل الفتح - كان محمدا بأنه الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام والانضمام للجماعة المسلمة والخضوع لنظامها. وإلا فهو الكفر أو النفاق .. وسيجيء في سياق السورة - في الدرس التالي - تنديد شديد بموقف الذين بقوا - بغير عذر من الضعف - من المسلمين في مكة دار الكفر والحرب بالنسبة لهم - ولو كانوا من أهلها ومواطني فيها! - وكل هذا يؤيد ترجيح الرواية الثانية. وأن هؤلاء المنافقين كانوا جماعة من مكة - أو ممن حولها - يقولون كلمة الإسلام بأفواههم، ويظاهرون عدو المسلمين بأعمالهم.

ونعود إلى النص القرآني: «فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا؟ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا. وَذُؤا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً. فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» ..

إننا نجد في النصوص استنكارا لانقسام المؤمنين ففتن في أمر المنافقين وتعجبا من اتخاذهم هذا الموقف وشدة وحسما في التوجيه إلى تصور الموقف على حقيقته، وفي التعامل مع أولئك المنافقين كذلك. وكل ذلك يشي بخطر التميع في الصف المسلم حينذاك - وفي كل موقف مماثل - التميع في النظرة إلى النفاق والمنافقين لأن فيها تميعا كذلك في الشعور بحقيقة هذا الدين. ذلك أن قول جماعة من المؤمنين: «سبحان الله! - أو كما قالوا - أقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم، نستحل دماءهم وأموالهم؟» .. وتصورهم للأمر على هذا النحو، من أنه كلام مثل ما يتكلم المسلمون! مع أن شواهد الحال كلها وقول هؤلاء المنافقين: «إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس» .. وشهادة الفئة الأخرى من المؤمنين وقولهم: «يظاهرون عدوكم» .. تصورهم للأمر على هذا النحو فيه تميع كبير لحقيقة الإيمان، في ظروف تستدعي الوضوح الكامل، والحسم القاطع. فإن كلمة تقال باللسان مع عمل واقعي في مساعدة عدو المسلمين الظاهرين، لا تكون إلا نفاقا. ولا موضع هنا للتسامح أو للإغضاء. لأنه تميع للتصور ذاته ..

وهذا هو الخطر الذي يواجهه النص القرآني بالعجب والاستنكار والتشديد البين. ولم يكن الحال كذلك في الإغضاء عن منافقي المدينة. فقد كان التصور واضحا .. هؤلاء منافقون .. ولكن هناك خطة مقرررة للتعامل معهم. هي أخذهم بظاهريهم والإغضاء إلى حين. وهذا أمر آخر غير أن ينافح جماعة من المسلمين عن المنافقين. لأنهم قالوا كلاما كالذي يقوله المسلمون.

وأدّوا بألسنتهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. بينما هم يظاهرون أعداء المسلمين! من أجل هذا التميع في فهم فئة من المسلمين، ومن أجل ذلك الاختلاف في شأن المنافقين في الصف المسلم،

كان هذا الاستنكار الشديد في مطلع الآية.. ثم تبعه الإيضاح الإلهي لحقيقة موقف هؤلاء المنافقين: «وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا».. ما لكم فئتين في شأن المنافقين. والله أوقعهم فيما هم فيه بسبب سوء نيتهم وسوء عملهم؟ وهي شهادة من الله حاسمة في أمرهم. بأنهم واقعون في السوء بما أضمرُوا وبما عملُوا من سوء.

ثم استنكار آخر: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟».. ولعله كان في قول الفريق.. المتسامح!!.. ما يشير إلى إعطائهم فرصة ليهتدوا، ويتركوا اللجلة! فاستنكر الله هذا في شأن قوم استحقوا أن يوقعهم الله في شر أعمالهم وسوء مكاسبهم.

«وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا».. فإنما يضل الله الضالين. أي يمد لهم في الضلالة حين يتجهون هم بمجهودهم ونيتهم إلى الضلالة. وعندئذ تغلق في وجوههم سبل الهداية بما بعدوا عنها، وسلكوا غير طريقها ونبذوا العون والهدى، وتنكروا لمعالم الطريق! ثم يخطو السياق خطوة أخرى في كشف موقف المنافقين.. إنهم لم يضلوا أنفسهم فحسب ولم يستحقوا أن يوقعهم الله في الضلالة بسعيهم ونيتهم فحسب.. إنما هم كذلك يبتغون إضلال المؤمنين: «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً».. إنهم قد كفروا.. على الرغم من أنهم تكلموا بما تكلم به المسلمون، ونطقوا بالشهادتين نطقاً يكذبه العمل في مظاهرة أعداء المسلمين.. وهم لا يريدون أن يقفوا عند هذا الحد. فالذي يكفر لا يستريح لوجود الإيمان في الأرض ووجود المؤمنين. ولا بد له من عمل وسعي، ولا بد له من جهد وكيد لرد المسلمين إلى الكفر. ليكونوا كلهم سواء.

هذا هو الإيضاح الأول لحقيقة موقف أولئك المنافقين.. وهو يحمل البيان الذي يرفع التميع في تصور الإيمان ويقيمه على أساس واضح من القول والعمل متطابقين. وإلا فلا عبرة بكلمات اللسان، وحولها هذه القرائن التي تشهد بالكذب والنفاق: والقرآن يلمس مشاعر المؤمنين لمسة قوية مفرعة لهم، وهو يقول لهم: «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً»..

فقد كانوا حديثي عهد بتذوق حلاوة الإيمان بعد مرارة الكفر. وبالنقلة الضخمة التي يجدونها في أنفسهم، بين مشاعرهم ومستواهم ومجتمعهم في الجاهلية.. ثم في الإسلام. وكان الفرق واضحاً بارزاً في مشاعرهم وفي واقعهم، تكفي الإشارة إليه لاستثارة عداوتهم كلها لمن يريد أن يردهم إلى ذلك السفح الهابط - سفح الجاهلية - الذي التقطهم منه الإسلام فسار بهم صعداً في المرتقى الصاعد، نحو القمة السامقة.

ومن ثم يتكئ المنهج القرآني على هذه الحقيقة فيوجه إليهم الأمر في لحظة التوفر والتحفز والانتباه للخطر البشع الفظيع الذي يتهددهم من قبل هؤلاء: «فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» .. ونحس من النهي عن اتخاذ أولياء منهم .. أنه كانت ما تزال للروابط والوشائج العائلية والقبلية بقايا في نفوس المسلمين في المدينة - وربما كان للمصالح الاقتصادية أيضا - وكان المنهج القرآني يعالج هذه الرواسب ويقرر للأمة المسلمة قواعد ارتباطاتها. كما يقرر قواعد تصورها في الوقت ذاته.

كان يعلمها أن الأمة لا تقوم على روابط العشيرة والقبيلة، أو روابط الدم والقربة. أو روابط الحياة في أرض واحدة أو مدينة واحدة، أو روابط المصالح الاقتصادية في التجارة وغير التجارة .. إنما تقوم الأمة على العقيدة وعلى النظام الاجتماعي المنبثق من هذه العقيدة.

ومن ثم فلا ولاية بين المسلمين في دار الإسلام، وبين غيرهم ممن هم في دار الحرب .. ودار الحرب هي يومئذ مكة موطن المهاجرين الأول .. لا ولاية حتى يهاجر أولئك الذين يتكلمون بكلمة الإسلام وينضموا إلى المجتمع المسلم - أي إلى الأمة المسلمة - حيث تكون هجرهم لله وفي سبيل الله. من أجل عقيدتهم، لا من أجل أي هدف آخر وإقامة المجتمع المسلم الذي يعيش بالمنهج الإسلامي لا لأي غرض آخر .. بهذه النصاعة.

وبهذا الحسم. وبهذا التحديد الذي لا يقبل أن تختلط به شوائب أخرى، أو مصالح أخرى، أو أهداف أخرى .. فإن هم فعلوا. فتركوا أهلهم ووطنهم ومصالحهم .. في دار الحرب .. وهاجروا إلى دار الإسلام، ليعيشوا بالنظام الإسلامي، المنبثق من العقيدة الإسلامية، القائم على الشريعة الإسلامية .. إن هم فعلوا هذا فهم أعضاء في المجتمع المسلم، مواطنون في الأمة المسلمة. وإن لم يفعلوا وأبوا الهجرة، فلا عبرة بكلمات تقال فتكذبها الأفعال: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ (أي أسرى) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» ..

وهذا الحكم - كما قلنا - هو الذي يرجح عندنا، أنهم لم يكونوا هم منافقي المدينة. إذ قد اتبعت مع منافقي المدينة سياسة أخرى.

إن الإسلام يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له فلا يكرههم أبدا على اعتناق عقيدته. ولهم - حتى وهم يعيشون في ظل نظامه ودولته - أن يجهروا بمعتقداتهم المخالفة للإسلام. في غير ما دعوة للمسلمين ولا طعن في الدين. فقد ورد في القرآن من استنكار مثل هذا الطعن من أهل الكتاب ما لا يدع مجالا للشك في أن الإسلام لا يدع غير المعتنقين له ممن يعيشون في ظله يطعنون فيه ويموهون حقائقه ويلبسون الحق بالباطل كما تقول بعض الآراء المائعة في زماننا هذا!

وحسب الإسلام أنه لا يكرههم على اعتناق عقيدته. وأنه يحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم وأنه يتمتعهم بخير الوطن الإسلامي بلا تمييز بينهم وبين أهل الإسلام وأنه يدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم في غير ما يتعلق بمسائل النظام العام.

إن الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفيه جهارا نهارا في العقيدة .. ولكنه لا يتسامح هذا التسامح مع من يقولون الإسلام كلمة باللسان تكذبا الأفعال. لا يتسامح مع من يقولون: إنهم يوحّدون الله ويشهدون أن لا إله إلا الله. ثم يعترفون لغير الله بخاصية من خصائص الألوهية، كالحاكمية والتشريع للناس فيصم أهل الكتاب بأنهم مشركون، لأنهم اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم .. لا لأنهم عبدوهم. ولكن لأنهم أحلوا لهم الحلال، وحرّموا عليهم الحرام فاتبعوهم! ولا يتسامح هذا التسامح في وصف جماعة من المنافقين بأنهم مؤمنون. لأنهم شهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله. ثم بقوا في دار الكفر، يناصرون أعداء المسلمين!

ذلك أن التسامح هنا ليس تسامحا. إنما هو تميم. والإسلام عقيدة التسامح. ولكنه ليس عقيدة «التميع». إنه تصور جاد. ونظام جاد. والجد لا ينافي التسامح. ولكنه ينافي التميع. وفي هذه اللغات واللمسات من المنهج القرآني للجماعة المسلمة الأولى، بيان، وبلاغ ..^{٨٠٩}

٢١. الظلم بكل أشكاله :

الظلم ليس سببا من أسباب الهزيمة فحسب، بل هو سبب من أسباب هلاك الأمم وسقوط الدول، وتغيير الأحوال، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١٣) سورة يونس

يُخَبِّرُ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ مَكَّةَ بِمَا أُنْزِلُهُ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْأَقْوَامِ السَّابِقَةِ (الْقُرُونِ) الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَكَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ لِأَنَّهُمْ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا لَوْ تَرَكَهُمُ اللَّهُ، فَاعْتَبِرُوا يَا كُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَكَمَا أَهْلَكَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِكُمْ، كَذَلِكَ يَفْعَلُ اللَّهُ بِالْمُجْرِمِينَ مِنْكُمْ ..^{٨١٠}

هذا تهديد أيضا ووعد للكافرين والضالين، الذين وقفوا من الدعوة النبوية هذا الموقف المتصدّي لها، أو الحائد عنها.. فلقد أخذ الله المكذبين الضالين من الأمم قبلهم بالبأساء والضراء حين عتوا عن رسل ربهم، وكذبوا بهم.. وذلك هو الجزاء الذي يجزى به الظالمون.. لا جزاء لهم غير أن يؤخذوا بنقم الله

^{٨٠٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٠٨٤)

^{٨١٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣٧٨، بترقيم الشاملة آليا)

ويلقوا في جهنم خالدين فيها..وها أنتم أولاء،أيها المشركون،قد خلفتم هؤلاء الأقوام،وورثتم ديارهم،وسكنتهم في مساكنهم..وقد جاءكم رسول كريم من عند الله،وقد عرفتم عاقبة الظالمين المكذبين برسل الله..فماذا يكون منكم مع رسولكم هذا؟ إن الله سبحانه لا تخفى عليه خافية..إنه يرى ما تعملون،وسيجازيكم على أعمالكم ويأخذكم بها..وقوله تعالى:«وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ» جملة حالية تكشف عن واقع القوم الذين ظلموا،وأثم قد ظلموا وكفروا في حال كان رسل الله فيها بينهم،يدعونهم إلى الإيمان،ويدلونهم على الهدى.وقوله تعالى:«وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا» جملة حالية كذلك،وصاحب الحال هو ضمير الذين ظلموا في قوله تعالى:«وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ»..وهذه الحال تكشف عما في قلوب الضالين من زيغ وضلال،وأثم ما كانوا ليؤمنوا قبل مجيء الرسل إليهم بالبينات أو بعد مجيئهم..ولكن الله سبحانه أرسل رسله إليهم،ليقيم الحجة عليهم،وليوقع بهم عذابه،بعد أن تأتيهم آياته على يد رسله،كما يقول سبحانه:«وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» (١٥:الإسراء).^{٨١١}

لقد انتهى بهم الإسراف وتجاوز الحد والظلم - وهو الشرك - إلى الهلاك.وهذه مصارعهم كانوا يرون بقيتها في الجزيرة العربية في مساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط..وتلك القرون.جاءهم رسلهم بالبينات كما جاءكم رسولكم:«وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا»..لأنهم لم يسلكوا طريق الإيمان،وسلكوا طريق الطغيان فأبعدوا فيها،فلم يعودوا مهيبين للإيمان.فلقوا جزاء المجرمين..«كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ»..^{٨١٢}

قال ابن تيمية رحمه الله:" وأمر الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم،ولهذا قيل:إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة،ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة.ويقال:الدنيا تدوم مع العدل والكفر،ولا تدوم مع الظلم والإسلام.وعن أبي بكر،قال:قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا،مَعَ مَا يَدْخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ،مِنَ الْبُغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»^{٨١٣}.

فالباعى يصرع في الدنيا وإن كان مغفورا له مرحوما في الآخرة،وذلك أن العدل نظام كل شيء،فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق،ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة،فالنفس فيها داعي الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له،والتعدي عليه في حقه.وداعي الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة كالزنى وأكل الخبائث،فهي قد تظلم من لا يظلمها،وتؤثر هذه الشهوات وإن لم تفعلها،فإذا رأت نظراءها قد ظلموا وتناولوا هذه

^{٨١١} - التفسير القرآني للقرآن (٦/ ٩٦٩)

^{٨١٢} - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط ١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٢٤٠٧)

^{٨١٣} - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٢٠٠)(٤٥٥) صحيح

الشهوات صار داعي هذه الشهوات أو الظلم فيها أعظم بكثير، وقد تصير، ويهيئ ذلك لها من بغض ذلك الغير وحسده وطلب عقابه وزوال الخير عنه ما لم يكن فيها قبل ذلك، ولها حجة عند نفسها من جهة العقل والدين، بكون ذلك الغير قد ظلم نفسه والمسلمين، وأن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر واجب، والجهاد على ذلك من الدين.^{٨١٤}

وقال ابن تيمية رحمه الله أيضاً: "فَإِنَّ النَّاسَ لَمْ يَتَنَازَعُوا فِي أَنَّ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ وَحِيمَةٌ وَعَاقِبَةُ الْعَدْلِ كَرِيمَةٌ وَلِهَذَا يُرْوَى: {اللَّهُ يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً وَلَا يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً}." ^{٨١٥}

إن أحكام الإسلام عدل كلها، وحكمة كلها، وخير كلها، لأنها من عند الله الحكيم العليم، وإذا كان الله تعالى قد ذكر أن العمل بالتوراة والإنجيل من أسباب الرخاء والحياة الطيبة فقال: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) [المائدة: ٦٦] فلا يكون ذلك بإقامة أحكام القرآن من باب أولى، فهو الكتاب الذي أنزله الله "مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه"

فمن أقام أحكام الإسلام فقد أقام العدل وحصل له الخير والبركة، وكذلك لو أن المسلمين لم يقيموا دينهم، ويعملوا به، فسدت عليهم الدنيا، وعم فيهم الشر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأمر الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم: أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وقد قال النبي ﷺ - "ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم" فالباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفوراً له مرحوماً في الآخرة، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة. والله أعلم.^{٨١٦}

لقد أمر الإسلام بالعدل، وجعله غاية الحكم الإسلامي وهدفه، والعدل هو: إعطاء كل ذي حق حقه كاملاً غير منقوص. وهذا العدل مسئولية الحاكم، وواجب من الواجبات المفروضة عليه، والأمة لها الحق في أن تحاسب الحاكم إذا ظلم أحداً. ويشمل العدل كل الحقوق المتعلقة بالأرواح والأعراض والحريات والأموال، للمسلم وغير المسلم.

^{٨١٤} - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية (ص: ٢٩) ومجموع الفتاوى (٢٨ / ١٤٦)

^{٨١٥} - مجموع الفتاوى - (٢٨ / ٦٢) والحسبة لابن تيمية ت الشهود (ص: ١٧٨)

^{٨١٦} - فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٤ / ص ٤٤٢٦) رقم الفتوى ٢٤٤٣٩ من أقام أحكام الإسلام فقد أقام العدل وحصلت له البركة تاريخ الفتوى: ٢٣ شعبان ١٤٢٣

وتحدثت كثير من الآيات في القرآن عن العدل، وحذرت من الظلم وعواقبه، قال الله تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم الله لعلكم تذكرون} [النحل: ٩٠]، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»^{٨١٧}.

ومن العدل أن يكون الناس أمام القانون سواء، فلا فرق بين شريف ووضيع، ولا غني وفقير، فالعدل يخضع له الجميع، وبذلك يكون العدل هو أساس استمرار الدول والحفاظ عليها، يقول ابن تيمية: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة.

ومن أجل أن يتحقق العدل فلا بد له من قوة تحميه، ولا بد أن يكون حاكماً لا خاضعاً، ولذلك نجد الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يحرص على جعل القضاء الذي يقيم العدل مستقلاً عن كل سلطة، حتى عن سلطة الحاكم، وصار ذلك مبدأ من مبادئ الحكم الإسلامي، فعندما تولى عمر الخلافة، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية، عين لكل إقليم قاضياً مستقلاً، ونظم السلطة القضائية وميزها عن غيرها.

إن العدل يشعر المواطن بالأمن على ماله وعرضه وسائر حقوقه، ففي ظل العدل تختفي الجريمة، وينصرف كل إنسان إلى عمله، ويسهم في بناء مجتمعه وأمته، وبالعدل يجني الإنسان ثمرة عمله وتعبه، وينطلق في ميادين التنافس الشريف في ميادين الخير، وبالعدل تتم المساواة، ويتفاضل الناس بحسب قدراتهم وجهدهم. إن الإسلام سبق كل الذين دَعَوْا إلى العدل، وأرسى دعائمه، وقد طبق العدل أروع تطبيق في حياة المسلمين.

وقال تعالى: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا} (٥٩) سورة الكهف

^{٨١٧} - صحيح مسلم (٤/١٩٩٦) ٥٦ - (٢٥٧٨)

[ش (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) قال القاضي قيل هو على ظاهره فيكون ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيامة سبيلاً حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد وبه فسروا قوله تعالى قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر أي شدائدهما ويحتمل أنها عبارة عن الأنكال والعقوبات (واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم) قال القاضي يحتمل أن هذا الهلاك هو الهلاك الذي أخبر عنهم به في الدنيا بأنهم سفكوا دماءهم ويحتمل أنه هلاك الآخرة وهذا الثاني أظهر ويحتمل أنه أهلكهم في الدنيا والآخرة قال جماعة الشح أشد البخل وأبلغ في المنع من البخل وقيل هو البخل مع الحرص وقيل البخل في أفراد الأمور والشح عام وقيل الشح الحرص على ما ليس عنده والبخل بما عنده]

لَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ الْأُمَمَ السَّالِفَةَ: عَادًا وَثَمُودَ وَقَوْمَ نُوحٍ وَقَوْمَ لُوطٍ وَأَصْحَابَ الْأَيْكَةِ .. وَدَمَّرَ قُرَاهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَعَنَادِهِمْ، وَجَعَلَ لِمَهْلِكِهِمْ وَقْتًا مُعَيَّنًا (مَوْعِدًا)، لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، فَاحْذَرُوا، أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ إِنْ تَمَادَيْتُمْ فِي تَكْذِيبِ رَسُولِكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ ..^{٨١٨}

الإشارة هنا، إلى تلك القرى التي أهلكها الله من قبل، كقرى عاد، وثمود، ولوط.. فهذه القرى وغيرها ممن كفروا بآيات الله وعصوا رسله، قد أهلكهم الله، وعَجَّلَ لهم العذاب في الدنيا، ولم يمهلهم كما أمهل أهل هذه القرية «مكة» والقرى التي حولها، رحمة منه سبحانه وإكراما لنبيه الكريم.. وفي هذا تهديد لمشركي مكة، وإلفات لهم إلى أنهم واقعون تحت حكم القوم الهالكين، فتلك هي سنة الله التي قد خلت في عبادته، لمن كفروا بالله، وعصوا رسله.. وقد كفر أهل مكة بالله، وعصوا رسله.. وإن فيما أخذ الله به القرى الظالمة من قبلهم لعلهم يحذرون.. وعلى هذا فإنه وإن أمهل الله أهل هذه القرية، فلم يعجل لها الهلاك، فإنهم هالكون لا محالة: «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ». فالضمير في «لِمَهْلِكِهِمْ» يعود إلى أهل مكة، وهو أولى من عوده إلى أهل القرى المشار إليها في أول الآية.. إذ كان قوله تعالى: «لَمَّا ظَلَمُوا» يحمل معه الموعد الذي أهلكوا فيه، وهو عند ظلمهم وكفرهم بالله، وعدوانهم على رسلهم..^{٨١٩}

تلك: أداة إشارة لمؤنث هي القرى، والكاف للخطاب، والخطاب هنا للنبي ﷺ، وأمرته منضوية في خطابه؛ لأن خطاب الرسول خطاب لأمرته. لكن الإشارة لا تكون إلا لشيء معلوم موجود مُحَسَّس، كما جاء في قوله تعالى: {وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى} [طه: ١٧] فأين هذه القرى؟ وهل كان لها وجود على عهد النبي ﷺ؟

نعم، كان لهذه القرى آثار وأطلال تدل عليها ويراهها النبي ﷺ ويراهها الناس في رحلاتهم إلى الشام وغيرها مثل: قري ثمود قوم صالح، وقري قوم لوط، وقد قال تعالى عنها: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِالْبُيُوتِ أَفْلًا تَعْقِلُونَ} [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨]

إذن: فتلك إشارة إلى موجود مُحَسَّس دَالٌّ بما تبقى منه على ما حاق بهذه القرى من عذاب الله، وما حلَّ بها من بأسه الذي لا يُرَدُّ عن القوم الظالمين. وكلمة {القرى} جمع قرية، وتُطْلَقُ على المكان الذي تتوفر فيه مقومات الحياة وضرورياتها، بل بما يزيد على الضروريات ومقومات الحياة العادية؛ لأن القرية لا تُطْلَقُ إلا على مكان تتسع فيه مقومات الحياة اتساعاً يكفي لمن يطرأ عليها من الضيوف فيجد بها قري. فإن كانت قرية كبيرة يأتيها الرزق الوفير من كل مكان كأنها أم، نسميها (أم القرى)

٨٢٠ .

^{٨١٨} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢١٩٩، بترقيم الشاملة آليا)

^{٨١٩} - التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٦٣٩)

^{٨٢٠} - تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٩٤٥)

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢] ٨٢١

وقال تعالى: {وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فما كان دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فلنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فلنَقْصُنَّ عَلَيْهِمْ بَعْلَمٌ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ (٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠) [الأعراف/٤-١٠] { وكثيرٌ مِنَ الْقُرَى (أَوِ الْبِلَادِ) أَهْلَكَ اللَّهُ أَهْلَهَا، لِمُخَالَفَتِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ فِيمَا جَاءُواهُمْ بِهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُمْ، فَأَخْرَجَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا، وَسَيِّدَلَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ، فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ جَاءَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَبَأْسُهُ لَيْلًا (بَيَاتًا) وَمِنْهُمْ مَنْ جَاءَهُمْ نَهَارًا وَهُمْ يَسْتَرْجِحُونَ وَسَطَ النَّهَارِ (قَائِلُونَ)، وَكِلَا الْوَقْتَيْنِ وَقْتُ غَفْلَةٍ مِنَ النَّاسِ وَهُمْ، فَعَلَى الْعَاقِلِ أَلَّا يَغْتَرَّ بِالدُّنْيَا، وَأَلَّا يَأْمَنَ غَدْرَ اللَّيَالِي .

وَحِينَ جَاءَهُمُ الْعَذَابُ لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا غَيْرَ الْاعْتِرَافِ بِذُنُوبِهِمْ، وَظَلَمَهُمْ فِيمَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَشَهِدُوا بِبُطْلَانِهِ، وَبَأْنَهُمْ حَقِيقُونَ بِهَذَا الْعَذَابِ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَظْلَمْهُمْ . يقولُ تَعَالَى: إِنَّهُ سَيَسْأَلُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا أَجَابُوا بِهِ رُسُلَهُمْ فِيمَا أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِمْ، وَسَيَسْأَلُ الرُّسُلَ أَيْضًا عَمَّا بَلَّغُوهُ إِلَى الْأُمَمِ مِنْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَعَمَّا أَجَابَهُمْ بِهِ أَقْوَامُهُمْ . وسيَقْصُ اللَّهُ تَعَالَى، فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، عَلَى الرُّسُلِ، وَعَلَى أَقْوَامِهِمُ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ، كُلُّ مَا وَقَعَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، قَصْصًا بَعْلَمٌ مِنْهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ كَانَ مِنْهُمْ، وَمَا كَانَ اللَّهُ غَائِبًا عَنْهُمْ فِي وَقْتِ مِنَ الْأَوْقَاتِ، وَلَا فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، بَلْ كَانَ يَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ، وَيُبْصِرُ مَا يَعْمَلُونَ، وَيُحِيطُ بِمَا يُسِرُّونَ وَيُعْلِنُونَ . وَاللَّهُ تَعَالَى يَزِنُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَقْدِرُهَا بِعَدْلٍ تَامٍ (بِالْحَقِّ)، فَلَا يَظْلُمُ أَحَدًا شَيْئًا، فَالَّذِينَ تَرَجَّحَ مَوَازِينُ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ وَحَسَنَاتُهُمْ (ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُمْ) فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ بِالنَّجَاتِ مِنَ الْعَذَابِ (الْمُفْلِحُونَ)

أَمَّا الَّذِينَ خَفَتْ مَوَازِينُ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ، وَرَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَكَثِيرَةٍ مَا اجْتَرَحُوهُ مِنَ السَّيِّئَاتِ، فَهَؤُلَاءِ يَكُونُونَ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّهُمْ حَرَمُوا السَّعَادَةَ الَّتِي كَانَتْ مُسْتَعِدَّةً لَهَا لَوْ لَمْ يُفْسِدُوا فِطْرَتَهَا . وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَى تَفَاوُتِ دَرَجَاتِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ، هُمُ الْمُفْلِحُونَ، فَمَنْ مَاتَ مِنْهُمْ فَهُوَ

٨٢١ - صحيح البخاري (٦/ ٧٤) (٤٦٨٦)

[ش (ليملي) ليمهل. (لم يفلته) لم يخلصه ولم يتركه حتى يستوفي عقابه. (وكذلك) أي كما ذكر من إهلاك الأمم وأخذهم بالعذاب. (أخذ ربك) إهلاكه وعذابه. (أخذ القرى) أخذ أهلها / هود ١٠٢ /]

مُفْلَحٌ، وَإِنْ عَذَّبَ عَلَى بَعْضِ ذُنُوبِهِ بِمِقْدَارِهَا، وَإِنَّ الْكَافِرِينَ عَلَى تَفَاوُتِ دُرُكَاتِهِمْ هُمْ فِي خُسْرَانٍ عَظِيمٍ. يُمَتِّنُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِأَنْ جَعَلَ لَهُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا يَعِيشُونَ وَيَسْتَقِرُّونَ عَلَيْهَا، وَجَعَلَ فِيهَا جِبَالًا رَاسِيَاتٍ تَسَهِّلُ اسْتِقْرَارَ النَّاسِ عَلَيْهَا، فَلَا تَمِيدُ بِهِمْ، وَجَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا، وَأَبَاحَ لِلنَّاسِ التَّمَتُّعَ بِمَنَافِعِهَا، وَسَخَّرَ الرِّيحَ لِإِخْرَاجِ أَرْزَاقِهِمْ مِنْهَا، وَجَعَلَ لِلنَّاسِ مَا يَسْبِغُونَ بِهِ وَيَتَكَسَّبُونَ (مَعَاشَ)، وَلَكِنَّ النَّاسَ، مَعَ جَمِيعِ هَذِهِ النِّعَمِ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، قَلِيلٌ مِنْهُمْ الشُّكُورُ، وَاللَّهُ تَعَالَى سَيَحَاسِبُهُمْ عَلَى كُفْرَانِهِمْ بِالنِّعَمِ حِسَابًا عَسِيرًا. ٨٢٢

خَوَّفَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْكُفَّارَ الَّذِينَ كَذَّبُوا ﷻ، بِأَنَّهُ أَهْلَكَ كَثِيرًا مِنَ الْقُرَى بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَهْلَكَهَا بَيَاتًا، أَيْ: لَيْلًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أَهْلَكَهَا وَهُمْ قَائِلُونَ، أَيْ: فِي حَالِ قِيلُولَتِهِمْ، وَالْقِيلُولَةُ: الْإِسْتِرَاحَةُ وَسَطَ النَّهَارِ. يَعْنِي: فَاحْذَرُوا تَكْذِيبَ رَسُولِي ﷻ لَعَلَّكُمْ أَنْزَلَ بِكُمْ مِثْلَ مَا أَنْزَلْتُ بِهِمْ، وَأَوْضَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ أُخَرَ كَقَوْلِهِ: وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [٦ \ ١٠]، وَقَوْلِهِ: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ [٢٢ \ ٤٥]، وَقَوْلِهِ: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ يَنْسُكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ [٢٨ \ ٥٨]، وَقَوْلِهِ: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُ يُرِيدُ تَهْدِيدَهُمْ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ: وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَقَدْ هَدَدَ تَعَالَى أَهْلَ الْقُرَى بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُهُ لَيْلًا فِي حَالَةِ النَّوْمِ، أَوْ ضَحَى فِي حَالَةِ اللَّعْبِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَحَى وَهُمْ يَلْعَبُونَ [٧ \ ٩٧، ٩٨]، وَهَدَدَ أَمْثَالَهُمْ مِنَ الَّذِينَ مَكْرُوا السَّيِّئَاتِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكْرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ [١٦ \ ٤٥، ٤٦، ٤٧].

قَوْلُهُ تَعَالَى: فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. بَيَّنَّ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ تِلْكَ الْقُرَى الْكَثِيرَةَ الَّتِي أَهْلَكَهَا فِي حَالِ الْبَيَاتِ، أَوْ فِي حَالِ الْقِيلُولَةِ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ الدَّعْوَى إِلَّا اعْتِرَافُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ.

وَأَوْضَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسْأِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ [٢١ \ ١١ - ١٥].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ الدَّلَالَةُ الْوَاضِحَةُ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرَّوَايَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «مَا هَلَكَ قَوْمٌ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ». حَدَّثَنَا بِذَلِكَ ابْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ أَبِي سِنَانٍ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَيْسَرَةَ الزَّرَادِ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا هَلَكَ قَوْمٌ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ» قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ: فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ [٧ \ ٥] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ. لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا الشَّيْءَ الْمَسْئُولَ عَنْهُ الْمُرْسَلُونَ، وَلَا الشَّيْءَ الْمَسْئُولَ عَنْهُ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ.

وَبَيَّنَ فِي مَوَاضِعٍ أُخَرُ أَنَّهُ يُسْأَلُ الْمُرْسَلِينَ عَمَّا أَجَابَتْهُمْ بِهِ أُمَمُهُمْ، وَيُسْأَلُ الْأُمَمَ عَمَّا أَجَابُوا بِهِ رُسُلَهُمْ. قَالَ فِي الْأَوَّلِ: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ [٥ \ ١٠٩] .

وَقَالَ فِي الثَّانِي: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ [٢٨ \ ٦٥] .

وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّهُ يُسْأَلُ جَمِيعُ الْخَلْقِ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٥ \ ٩٢، ٩٣] .

وَهُنَا إِشْكَالٌ مَعْرُوفٌ: وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ هُنَا: فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ [٧ \ ٦]، وَقَالَ أَيْضًا: فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَقَالَ: وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ [٣٧ \ ٢٤]، وَهَذَا صَرِيحٌ فِي إِبْتَاتِ سُؤَالِ الْجَمِيعِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَعَ أَنَّهُ قَالَ: وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ [٢٨ \ ٧٨]، وَقَالَ: فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ [٥٥ \ ٣٩] .

وَقَدْ بَيَّنَّا وَجْهَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي كِتَابِنَا (دَفَعَ إِلَيْهِمُ الْبَاطِلَ الْاضْطِرَابَ عَنْ آيَاتِ الْكِتَابِ) وَسَنَزِيدُهُ إِضَاحًا هُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

اعْلَمْ أَوَّلًا: أَنَّ السُّؤَالَ الْمَنْفِيَّ فِي الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ، أَخْصَصُ مِنَ السُّؤَالِ الْمُثْبِتِ فِيهَا ؛ لِأَنَّ السُّؤَالَ الْمَنْفِيَّ فِيهَا مُقَيَّدٌ بِكَوْنِهِ سُؤَالَ عَنْ ذُنُوبٍ خَاصَّةٍ، فَإِنَّهُ قَالَ: وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ [٢٨ \ ٧٨] فَخَصَّهُ بِكَوْنِهِ عَنِ الذُّنُوبِ، وَقَالَ: فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ فَخَصَّهُ بِذَلِكَ أَيْضًا، فَيَتَضَحُّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ سُؤَالَ الرُّسُلِ وَالْمَوْعُودَةِ مَثَلًا لَيْسَ عَنْ ذَنْبٍ فَعَلُوهُ فَلَا مَانِعَ مِنْ وَقُوعِهِ ؛ لِأَنَّ الْمَنْفِيَّ خُصُوصُ السُّؤَالِ عَنْ ذَنْبٍ، وَيَزِيدُ ذَلِكَ إِضَاحًا قَوْلُهُ تَعَالَى: لَيَسْأَلَنَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمُ الْآيَةَ [١١٩ \ ٥]، وَقَوْلُهُ بَعْدَ سُؤَالِهِ لِعِيسَى الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ: أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ الْآيَةَ [٣٣ \ ٨]، قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمُ الْآيَةَ [٣٣ \ ٨]، وَالسُّؤَالُ عَنِ الذُّنُوبِ الْمَنْفِيَّ فِي الْآيَاتِ: الْمُرَادُ بِهِ سُؤَالُ الْإِسْتِخْبَارِ وَالِاسْتِعْلَامِ ؛ لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا مُحِيطٌ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يُنَافِي نَفْيُ هَذَا النَّوعِ مِنَ السُّؤَالِ ثُبُوتَ نَوْعٍ آخَرَ مِنْهُ هُوَ سُؤَالُ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ ؛ لِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ، وَيَدُلُّ لِهَذَا أَنَّ سُؤَالَ اللَّهِ لِلْكَفَّارِ فِي الْقُرْآنِ كُلُّهُ تَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ كَقَوْلِهِ: وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ.

وَقَوْلِهِ: أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ [٥٢ \ ١٥]. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَبَاقِي أَوْجُهِ الْجَمْعِ مُبَيَّنٌّ فِي كِتَابِنَا الْمَذْكُورِ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ. بَيَّنَّ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ يَقْصُصُ عَلَى عِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَمْ يَكُنْ غَائِبًا عَمَّا فَعَلُوهُ أَيَّامَ فِعْلِهِمْ لَهُ فِي دَارِ الدُّنْيَا، بَلْ هُوَ الرَّقِيبُ الشَّهِيدُ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ، الْمُحِيطُ بِعِلْمِهِ بِكُلِّ مَا فَعَلُوهُ مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، وَجَلِيلٍ وَحَقِيرٍ، وَبَيَّنَّ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ: مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [٥٨ \ ٧]، وَقَوْلِهِ: يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ [٥٧ \ ٤] وَقَوْلِهِ: وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [١٠ \ ٦١].^{٨٢٣}

بعد أن بيّن الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم الموقف الذي ينبغي عليه أن يقفه من الناس في تبليغ دعوته، وأنه موقف لا حساب فيه لمشاعر القريب، ولا مدخل فيه لما يسوء المكابرين والمعادنين منه - بعد هذا جاء أمر الله سبحانه إلى الناس أن يتبعوا هذا الذي أنزل إليهم من ربهم، والذي يعرضه الرسول عليهم، ويبلغهم إياه: «اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» فما يبلغه الرسول إليهم ليس من عند هذا الرسول، وإنما هو من كلام رب العالمين.. فهذا هو ذا لرسول يدعوهم إلى الله بكلمات الله، وها هو ذا الشيطان يدعوهم إلى الغواية والضلال، بالزور من القول، والزيف من الأمان.. «اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ».. فهما دعوتان.. دعوة إلى حق وهدى، ودعوة إلى باطل وضلال.. وقليل من الناس أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وكثير أولئك الذين لا يسمعون، ولا يعقلون..

«قليلًا ما تذكرون» إذ استولى الفساد على الناس، وصرفهم عن الحق، إلا قليلاً ممن هدى الله. وهذه الثلاث وتلك النذر قائمة بين الناس، تريهم منها ما حلّ بالظالمين من بلاء، وما وقع بهم من سوء.. «وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ..» فما أكثر الأقوام الذين أخذهم الله بظلمهم، وما أكثر القرى العامرة التي دمرها الله ودمدم على أهلها، فأصبحوا تراباً في تراجها! والبأس، هو البلاء المسلط من قوة قادرة لا تدفع.

^{٨٢٣} - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢ / ٥)

وفي هذه الآية ما يسأل عنه، وهو: كيف قدّم الإهلاك على مجيء البأس: «أهلكناها فجاءها بأسنا» مع أن البأس هو عامل الإهلاك وأداته؟.

والجواب، أن الإهلاك حكم واقع مقرر قبل مجيء البأس، وأن هذه القرى الظالمة كانت تحت حكم لإهلاك قبل أن تهلك بزمان طويل، لما كان عليه أهلها من ضلال، وعناد، وإفساد في الأرض وأن الله سبحانه وتعالى أمهلهم، وبعث فيهم الرسل، مبشرين ومنذرين، فلم يلتفتوا إلى هدى الله، ولم يقبلوا على دعوته، بل صدّوا عنه، وازدادوا كفرا إلى كفر وضلالا إلى ضلال.. حتى إذا بلغ الكتاب أجله، جاءهم بأس الله، فأخذهم العذاب وهم ظالمون..

وفي قوله تعالى: «فَجَاءَهَا بِأَسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ» إشارة إلى أن هذا البلاء قد وقع على تلك القرى الظالمة حين كانت في غفلة من أمرها، لا تتوقع شرًّا، حيث لقّها الليل في سكونه، واشتمل عليها النعاس بسلطانها، أو حيث هجعت في قيلولة، وفاءت إلى ظلّ ظليل.. فالضربة هنا ضربة مفاجئة لا تدع لأحد سبيلا إلى استجماع نفسه، أو لمّ شمله، أو إلقاء نظرة إلى ماله وأهله وولده..

«وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» .
وقوله تعالى: «فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» إشارة إلى أن الكلمة التي استقبل بها القوم هذا البلاء، لم تكن إلا إدانة لأنفسهم، وحجة يقيمها بعضهم على بعض، بأن ما حلّ بهم لم يكن إلا بما ساقهم إليه سفهاؤهم من كفر بالله، وصدّ عن سبيله..

والدعوى هنا بمعنى الدّعاء، الذي يدعو به بعضهم بعضا.. فيقول كل منهم: هذه فعلة فلان وفلان بنا!! وإذا كانت دعوى أهل السلامة والعافية في الجنة هي الحمد لله رب العالمين، كما يقول الله تعالى: «وَأَخِرُّ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» - فإن دعوى أهل العطب والضياع.. «يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ».. ولكن هيهات.. فلن يقبل منهم عذر، ولا يسمع لهم قول: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» .

قوله تعالى: «فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ».. فهذا هو ذا يوم القيامة، وها هم أولاء الناس جميعا في موقف الحساب والجزاء.. يسألون: ماذا كان منهم في دنياهم التي خلفوها وراءهم؟ وماذا كان موقفهم من رسل الله؟.. وهاهم أولاء رسل الله يسألون: «ماذا أحببتم؟» وماذا لقيتم من أقوامكم؟ ومن الذي آمن بكم وأزركم ومن صدّ عنكم وتصدّى لكم؟.. وتخشع الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا، وتنشر صحف العباد، ويرى كل إنسان ما عمل من خير أو شرّ، «فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَمٌ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ» فما سئل الناس، وما استشهد الرسل عليهم ليقولوا شيئا غاب عن الله سبحانه وتعالى أمره، ولكن ليستحضرهم وجودهم كله، حتى يشهدوا هذا الذي كان كثير منهم في شك منه، من قدرة الله، وسعة علمه الذي لا تخفى عليه خافية.. «ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما

فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا..»^{٨٢٤}

إن مصارع الغابرين خير مذكر، وخير منذر.. والقرآن يستصحب هذه الحقائق، فيجعلها مؤثرات موحية، ومطارق موقظة، للقلوب البشرية الغافلة.

إنها كثيرة تلك القرى التي أهلكت بسبب تكذيبها. أهلكت وهي غارة غافلة. في الليل وفي ساعة القيلولة، حيث يسترخي الناس للنوم، ويستسلمون للأمن: «وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا، فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ».

وكلتاها.. البيات والقيلولة.. ساعة غرّة واسترخاء وأمان! والأخذ فيهما أشد ترويعا وأعنف وقعا. وأدعى كذلك إلى التذكر والحذر والتوقي والاحتياط! ثم ما الذي حدث؟ إنه لم يكن لهؤلاء المأخوذون في غرهم إلا الاعتراف! ولم يكن لهم دعوى يدعونها إلا الإقرار! «فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا: إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ»..

والإنسان يدعي كل شيء إلا الاعتراف والإقرار! ولكنهم في موقف لا يملكون أن يدعوا إلا هذه الدعوى! «إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ».. فيأله من موقف مذهل رعب مخيف، ذلك الذي يكون أقصى المحاولة فيه هو الاعتراف بالذنب والإقرار بالشرك! إن الظلم الذي يعنونه هنا هو الشرك. فهذا هو المدلول الغالب على هذا التعبير في القرآن.. فالشرك هو الظلم. والظلم هو الشرك. وهل أظلم ممن يشرك بربه وهو خلقه؟! وبينما المشهد معروض في الدنيا، وقد أخذ الله المكذبين ببأسه، فاعترفوا وهم يعاينون بأس الله أنهم كانوا ظالمين وتكشف لهم الحق فعرفوه، ولكن حيث لا تجدي معرفة ولا اعتراف، ولا يكف بأس الله عنهم ندم ولا توبة. فإن الندم قد فات موعده، والتوبة قد انقطعت طريقها بحلول العذاب.. بينما المشهد هكذا معروضا في الدنيا إذا السياق ينتقل، وينقل معه السامعين من فوره إلى ساحة الآخرة. بلا توقف ولا فاصل. فالشريط المعروض موصول المشاهد، والنقلة تتخطى الزمان والمكان، وتصل الدنيا بالآخرة، وتلحق عذاب الدنيا بعذاب الآخرة وإذا الموقف هناك في لحظة خاطفة: «فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ. فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بَعْلَهُمْ، وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ. وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ. فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ»..

إن التعبير على هذا النحو المصور الموحى، خاصية من خواص القرآن.. إن الرحلة في الأرض كلها تطوى في لحظة. وفي سطر من كتاب. لتلتحم الدنيا بالآخرة ويتصل البدء بالختام! فإذا وقف هؤلاء الذين

^{٨٢٤} - التفسير القرآني للقرآن (٤/ ٣٦٦)

تعرضوا لبأس الله في هذه الأرض وقفتهم هناك للسؤال والحساب والجزاء، فإنه لا يكتفى باعترافهم ذاك حين واجهوا بأس الله الذي أخذهم وهم غارون: «إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» .. ولكنه السؤال الجديد، والتشهير بهم على الملاء الحاشد في ذلك اليوم المشهود: «فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ. فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ - وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ».

فهو السؤال الدقيق الوافي، يشمل المرسل إليهم ويشمل المرسلين .. وتعرض فيه القصة كلها على الملاء الحاشد وتفصل فيه الخفايا والدقائق! .. يسأل الذين جاءهم الرسل فيعترفون. ويسأل الرسل فيجيبون. ثم يقص عليهم العليم الخبير كل شيء أحصاه الله ونسوه! يقصه عليهم - سبحانه - بعلم فقد كان حاضرا كل شيء. وما كان - سبحانه - غائبا عن شيء .. وهي لمسة عميقة التأثير والتذكير والتحذير! ^{٨٢٥}

٢٢. كثرة الفساد والإفساد :

قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (٩٠) سورة النحل

إن الله تعالى يأمر في كتابه الذي أنزل على رسوله ﷺ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، ويندب إلى الإحسان والفضل، ويأمر بصلة الرحم وإعطاء ذوي القربى ما هم بحاجة إليه، وينهى عن ارتكاب المحرمات والمنكرات والفواحش، ما ظهر منها وما بطن، مما يأتيه العبد سرّاً وخفية والله تعالى إنما يأمركم بالخير، وينهاكم عن المنكر والشر، لعلكم تتذكرون ما أودعه الله في الفطرة من وحى قويم أصيل، فتعملوا بمقتضاه. ^{٨٢٦}

فالعدل هو القيام على طريق الحق في كل أمر .. فمن أقام وجوده على العدل استقام على طريق مستقيم، فلم ينحرف عنه أبداً، ولم تتفرق به السبل إلى غايات الخير .. ومن أتبع العدل بالإحسان، انما الخير في يده، وطابت مغارسه التي يغرسها في منابت العدل .. وقد جاء الأمر بالعدل والإحسان مطلقاً، ليحتوى العدل كله، ويشمل الإحسان جميعه .. فهو عدل عام شامل .. حيث يعدل الإنسان مع نفسه، فلا يجوز عليها بإلقائها في التهلكة، وسوقها في مواقع الإثم والضلال .. ويعدل مع الناس فلا يعتدى على حقوقهم، ولا يمدّ يده إلى ما ليس له. ويعدل مع خالقه، فلا يحدد فضله، ولا يكفر بنعمه، ولا ينكر وجوده وقيومته عليه، وعلى كل موجود ..

^{٨٢٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٧١٠)

^{٨٢٦} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٩٩١، بترقيم الشاملة آليا)

كذلك الإحسان، هو إحسان مطلق، يتناول كل قول يقوله الإنسان، وكل عمل يعمل به.. وإحسان القول أن يقوم على سنن العدل، والحق والخير..

وإحسان العمل ينضبط على موازين الكمال والإتقان.. كما بقول سبحانه:

«وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (البقرة: ١٩٥).

بل إن الإحسان، هو الإيمان بالله على أتم صورة وأكملها، بحيث لا يبلغ درجة الإحسان، إلا من عبد الله على هذا الوجه الذي بينه الرسول الكريم، في قوله حين سأله جبريل، وقد جاء على صورة أعرابي، فقال: «ما الإحسان؟ فقال صلوات الله وسلامه عليه: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك..»

- وقوله تعالى: «وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى» هو عدل وإحسان معا.. والإيتاء هو الإعطاء، وفعله آتى، بمعنى أعطى.. ولا يستعمل الإيتاء إلا في مقام البرّ والإحسان.. والبر بذى القربى هو عدل، لأنه وفاء لحق القرابة، وهو إحسان إذا قدمته النفس في سماحة ورضى.

- وقوله تعالى: «وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ» هو نهى عن محظورات، في مقابل ما أمر الله به من عدل وإحسان، وبرّ بالأقارب.. وفي توارد الأمر والنهى على أمر من الأمور، تأكيد للإتيان بالمأمور به.. فالفحشاء، ما قبح من الأمور، وعلى رأسها «الزنا».. وإتيان الفاحشة ظلم للنفس، وعدوان على حرمان الناس.. وفي هذا مجافاة للعدل..

والمنكر، كل ما تنكره العقول السليمة على من يفعله.. سواء أكان قولاً أو فعلاً.. ولا يكون هذا إلا بالتخلي عن الإحسان في القول أو العمل..

والبغي: الجور، والظلم، وهضم الحقوق. وهو محف للعدل والإحسان معا..

- وقوله تعالى: «يَعْظُمُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» هو تنبيه لما تحمل آيات الله للناس من آداب. وأحكام، تدعو إلى الحق، والخير، وتذكر بهما، وتفتح للعقول الراشدة والقلوب السليمة طريقاً إليهما..

وهذه الآية الكريمة، تجمع أصول الشريعة الإسلامية كلها.. فهي أقرب شىء إلى أن تكون عنواناً للرسالة الإسلامية، ولكتابتها الكريم، إذ لا تخرج أحكام الشريعة وآدابها عن هذا المحتوى الذي ضمت عليه تلك الآية: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ». وما في كتاب الله كله هو شرح لما أمر الله سبحانه به من العدل والإحسان، وإيتاء ذى القربى، وما نهى عنه من الفحشاء والمنكر والبغي.^{٨٢٧}

فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق

^{٨٢٧} - التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٣٤٩)

عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء ونواب الخليفة، ونواب القاضي.

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوزات، بإيفاء جميع ما عليك فلا تبخس لهم حقاً ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى - وإن كان داخلاً في العموم - لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك.

ويدخل في ذلك جميع الأقارب قرييهم وبعيدهم لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر. وقوله: {وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ} وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقة والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش. ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى. وبالبغي كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض.

فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به. وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء.

ولهذا قال: {يَعْظُمُكُمْ} به أي: بما بينه لكم في كتابه بأمركم. بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرركم. {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه، فإنكم إذا تذكروا وعقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها.^{٨٢٨}

لقد جاء هذا الكتاب لينشئ أمة وينظم مجتمعا، ثم لينشئ عالما وقيم نظاما. جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس إنما العقيدة وحدها هي الآصرة والرابطة والقومية والعصبية. ومن ثم جاء بالمبادئ التي تكفل تماسك الجماعة والجماعات، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود:

^{٨٢٨} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٤٧)

جاء «بِالْعَدْلِ» الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل، لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالود والبغض، ولا تتبدل بمجاعة للصهر والنسب، والغنى والفقر، والقوة والضعف. إنما تمضي في طريقها تكبيل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع.

وإلى جوار العدل.. «الْإِحْسَانِ».. يلطف من حدة العدل الصارم الجازم، ويدع الباب مفتوحا لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إثارا لود القلوب، وشفاء لغل الصدور. ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوي جرحا أو يكسب فضلا.

والإحسان أوسع مدلولاً، فكل عمل طيب إحسان، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأسرته، وعلاقاته بالجماعة، وعلاقاته بالبشرية جميعاً^{٨٢٩}.

ومن الإحسان «إِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى» إنما يبرز الأمر به تعظيماً لشأنه، وتوكيداً عليه. وما يبيّن هذا على عصبية الأسرة، إنما يبينه على مبدأ التكافل الذي يتدرج به الإسلام من المحيط المحلي إلى المحيط العام. وفق نظريته التنظيمية لهذا التكافل^{٨٣٠}.

«وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ».. والفحشاء كل أمر يفحش أي يتجاوز الحد. ومنه ما خصص به غالباً وهو فاحشة الاعتداء على العرض، لأنه فعل فاحش فيه اعتداء وفيه تجاوز للحد حتى ليدل على الفحشاء ويختص بها. والمنكر كل فعل تنكره الفطرة ومن ثم تنكره الشريعة فهي شريعة الفطرة. وقد تنحرف الفطرة أحياناً فتبقى الشريعة ثابتة تشير إلى أصل الفطرة قبل انحرافها. والبغي الظلم وتجاوز الحق والعدل.

وما من مجتمع يمكن أن يقوم على الفحشاء والمنكر والبغي. ما من مجتمع تشيع فيه الفاحشة بكل مدلولاتها، والمنكر بكل مغرراته، والبغي بكل معقباته، ثم يقوم..

والفطرة البشرية تنتفض بعد فترة معينة ضد هذه العوامل الهدامة، مهما تبلغ قوتها، ومهما يستخدم الطغاة من الوسائل لحمايتها. وتاريخ البشرية كله انتفاضات وانتفاضات ضد الفحشاء والمنكر والبغي. فلا يهتم أن تقوم عهود وأن تقوم دول عليها حيناً من الدهر، فالانتفاض عليها دليل على أنها عناصر غريبة على جسم الحياة، فهي تنتفض لطردّها، كما ينتفض الحي ضد أي جسم غريب يدخل إليه. وأمر الله بالعدل والإحسان ونهيه عن الفحشاء والمنكر والبغي يوافق الفطرة السليمة

^{٨٢٩} - بعض التفسير تقول: إن العدل هو الواجب والإحسان هو الندب في العبادات خاصة. استناداً إلى أن هذه الآية مكية، ولم يكن التشريع قد نزل بعد. ولكن عموم اللفظ يطلق مفهوم العدل ومفهوم الإحسان. فضلاً على أن العدل والإحسان مبدأ عامان من الناحية الأخلاقية البحتة، وليس مجرد تشريع قانوني. (السيد رحمه الله)

^{٨٣٠} - فصل التكافل الاجتماعي في كتاب «دراسات إسلامية». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

الصحيحة، ويقويها ويدفعها للمقاومة باسم الله. لذلك يجيء التعقيب: «يَعْظُمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكُّرُونَ» فهي عظة للتذكر تذكر وحي الفطرة الأصيل القويم...^{٨٣١}

وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) } [الفجر:]
كان قوم عاد أشداء، عظام الخلق، وكانوا خارجين عن طاعة الله تعالى، مكذِّبين رُسُلَهُ، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم، وجعلهم أحاديث ليتعظ مشركو العرب، ولا يغتروا بقوتهم ومالههم وعددهم

وذكر الله تعالى كيف دمر مدينتهم (إرم) ذات الأعمدة الضخمة، وقال بعضهم إن المقصود بالعمد هو عمد الحيام لما كانت لهم مدينة ثابتة باقية يذكرها الله تعالى في كتابه الكريم).
التي لم يُخْلَقْ فِي الْبِلَادِ كُلُّهَا نَظِيرٌ لَهَا. (وهذا دليل على أنها مدينة عظيمة تمتاز بأبنية لا مثيل لها)
أو لم تعلم كيف أنزل الله تعالى عقابه بتمود، قوم صالح، فأهلكهم جميعاً، وتمادى هؤلاء هم الذين قطعوا الصخر ونحوه في الوادي، وبنوا به القصور والأبنية العظيمة. (وتمادى قبيلة عريية من سكان وادي القرى، وتعرف مدينتهم اليوم بمدائن صالح). أو لم تعلم كيف أنزل الله تعالى عقابه بفرعون ذي
وهؤلاء الذين تقدم ذكرهم من عاد وتمادى وفرعون.. قد استعملوا سلطانهم وقوتهم في الطغيان، والتجاوز على حقوق العباد. فانتشر الفساد وعم البلاد، وضح الناس بالشكوى من الظلم. فصَبَّ اللهُ عَلَيْهِمُ الْوَانَاءَ مُلْهَبَةً مِنَ الْعَذَابِ وَالْبَلَاءِ عِقَاباً لَهُمْ عَلَى مَا أَجْرَمُوا. والله سبحانه عالم بما يفعلُه الطُّغَاةُ، وهو يرصد تصرفاتهم ويراقبها، ولا يفوته شيء منها، فأخذ هؤلاء العتاة الطُّغَاة الكافرين
أخذ عزيز مقتدر...^{٨٣٢}

الاستفهام هنا تقريرى، تهديدى.. أي انظر كيف فعل ربك بعباد.. وكذلك يفعل ربك بالطاغين والمتجبرين. وعاد، قبيلة قديمة من العرب البائدة، وكانت ديارهم بالأحقاف، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ» (٢١. الأحقاف) وإرم، هى موطن عاد، وهى بدل من كلمة «عاد» أي ألم تر كيف فعل ربك بأرم ذات العماد، التي عمرتها قبيلة عاد، وأعملت فيها قوتها الجسدية، وجلبت لها كل ما قدرت عليه من مل، ومتاع.. فكانت كما وصفها الله سبحانه: «لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ» أي لم يكن لها مثيل فيما جاورها من بلاد..

^{٨٣١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٨٥٥)

^{٨٣٢} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٨٧٦، بترقيم الشاملة آليا)

وكان النبي الذي أرسله الله إليهم، هو «هود» عليه السلام، وقد دعاهم إلى الله، وترفق بهم، وذكرهم بآلاء الله عليهم، وإحسانه إليهم، فلم يزداهم ذلك إلا عنادا، وضلالا.. وفيما كان يقول «هود» لهم، ما جاء في قوله تعالى: «وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَآذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (٦٩: الأعراف) وقد أهلكهم الله بريح صرصر عاتية، كما يقول سبحانه: «وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ» (٦- ٨: الحاقة) وسمى بناء المدينة وإقامتها على هذه الصورة العجيبة من القوة، والضخامة، والإحكام- سمي هذا خلقا، لأنها من عمل مخلوقات لله، وكل ما يعمل فيه الناس، هو من خلق الله، كما يقول سبحانه: «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ» (٩٦: الصافات) ومناسبة قصة عاد وثمود وفرعون، لما قبلها، هي أنها تعرض قضية من القضايا التي تستحق من العقل أن يناقشها، وان يستحضر وجوده كله لها، وذلك بعد أن استدعى هذا الاستدعاء القوى الذي شدّ إليه بالقسم، لينظر في الزمن، وما تلد آتاته ولحظاته من عجائب.

والقضية التي يدعى إليها العقل هنا، هي سنة من سنة الله سبحانه وتعالى، فيما يأخذ به أهل الزيغ والضلال، من بأساء وضراء في الدنيا، وما أعد لهم في الآخرة من عذاب السعير..

وفي عاد وثمود وفرعون، يتمثل وجه كربه من وجوه الكفر والضلال، والعنوّ. وقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فاقتلعه من جذورهم، وقطع نسلهم، وأتى على ما بنوا، وشيدوا.

وقوله تعالى: «وَتُؤْمَدُ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ» معطوف على قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ» وكيف فعل ربك بتمود؟ وثمود، هم قوم صالح عليه السلام، وهم من العرب البائدة، وديارهم بالحجر بين الشام والعراق، وقد مر بها النبي، ﷺ - في غزوة تبوك فسجى ثوبه على وجهه، وأمر أصحابه أن يمرّوا بها مسرعين، وقال: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون، خوفا أن يصيبكم مثل ما أصابهم» وقوله تعالى: «جَابُوا الصَّخَرَ» أي قطعوه، وشقوه كما يشق الجيب، وهو فتحة الثوب التي يلبس منها.. ومعنى ذلك أنهم نحتوا الصخر في الوادي الذي يسكنون فيه، وجعلوا بيوتهم منحوتة في كيان الصخر، فكانت أشبه بحصون.. كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ» (١٤٩: الشعراء) قوله تعالى: «وَفِرْعَوْنُ ذِي الْأُوتَادِ» معطوف على «وَتُؤْمَدُ»..

والأوتاد جمع وتد، وهي تلك الأهرامات العظيمة التي أقامها فراعين مصر، فكانت أشبه بالجبال، التي هي أوتاد الأرض، كما يقول سبحانه: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا. وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا» (٦، ٧: النبا) وقوله تعالى: «الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ» «الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ» هو وصف لعاد، وثمود، وفرعون.. فهم جميعا من الطغاة الباغين، الذين استبدوا بالبلاد، وبالعباد، فأشاعوا الفساد حيث كانوا، ولهذا أخذهم الله جميعا بالعذاب فصّبه صبا عليهم.

والسوط: أصله من ساط الشيء يسوطه، أي خلطه بغيره، لأن السوط يختلط بالجلد، حين يضرب به..

وسوط العذب، هو خليط من ألوان العذاب، وقد أخذ الله سبحانه كل جماعة من أهل الضلال بلون من ألوان الهلاك كما يقول سبحانه: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا» (٤٠: العنكبوت) وإذ قد جمع الله سبحانه وتعالى بين عاد، وثمود، وفرعون، في سياق قصة واحدة- فكان من إعجاز النظم القرآني أن يجمع عذابهم، وما أخذ به كل فريق منهم، في إناء واحد، وأن يصبّه عليهم جميعاً، فإذا وقع بهم، أخذ كل فريق لون العذاب المسلط عليه! وقوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ لَبَلَمَرْصَادٍ» المرصاد: المكان العالي، الذي يقوم فيه الراصد، ليرقب ما يجري هنا وهناك.

وفي هذا إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى رقيب على أعمال الناس، يرى كل ما يعملون، وسيحاسبهم على ما عملوا، دون أن يقلت أحد منهم، لأن الله سبحانه متمكن منهم، بهذا العلو الذي لا يداني..^{٨٣٣} هؤلاء هم «الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ».. وليس وراء الطغيان إلا الفساد. فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء. كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة. ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المعمر الباني، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال.. إنه يجعل الطاغية أسير هواه، لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد ويتخذ له مكاناً في الأرض غير مكان العبد المستخلف وكذلك قال فرعون.. «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى» عند ما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتناول به إلى هذا الادعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد.

ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء، مع السخط الدفين والحقد الكظيم، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية، وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية. والنفس التي تستذل تأسن وتتعفن، وتصبح مرتعا لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة. وميدانا للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك. وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع، وهو فساد أي فساد..

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة، لأنها خطر على الطغاة والطغيان. فلا بد من تزييف للقيم، وتزوير في الموازين، وتحريف للتصورات كي تقبل صورة البغي البشعة، وتراها مقبولة مستساغة.. وهو فساد أي فساد.

فلما أكثروا في الأرض الفساد، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد: «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبَلَمَرْصَادٍ».. فربك راصد لهم ومسجل لأعمالهم. فلما أن كثر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب. حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثرُوا فيها

^{٨٣٣} - التفسير القرآني للقرآن (١٦/ ١٥٥١)

الفساد.ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمان وأي مكان.

ومن قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ» تفيض طمأنينة خاصة. فربك هناك. راصد لا يفوته شيء. مراقب لا يند عنه شيء. فليطمئن بال المؤمن، ولينم ملء جفونه. فإن ربه هناك! .. بالمرصاد .. للطغيان والشر والفساد! وهكذا نرى هنا نماذج من قدر الله في أمر الدعوة، غير النموذج الذي تعرضه سورة البروج لأصحاب الأخدود. وقد كان القرآن - ولا يزال - يربي المؤمنين بهذا النموذج وذاك. وفق الحالات والملابسات. ويعد نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء. لتطمئن على الحاليين. وتوقع الأمرين، وتكل كل شيء لقدرة الله يجريه كما يشاء. «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ» .. يرى ويحسب ويحاسب ويجازي، وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم ولا يأخذ بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء ..^{٨٣٤}

وقال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (٤١) سورة الروم

ظهر الفساد في العالم بالفتن والحروب والاضطرابات .. وذلك بسبب ما اقترفه الناس من الظلم، وانتهاك الحرمات، والتنكر للدين، ونسيان يوم الحساب فانطلقت النفوس من عقاليها، وعانت في الأرض فساداً بلا وازع ولا رقيب من ضمير أو وجدان أو حياء أو حساب لدين، فأذاقهم الله جزاء بعض ما عملوا من المعاصي والآثام، لعلهم يرجعون إلى الحق، ويكفون عن الضلال والغواية، ويتذكرون يوم الحساب ..^{٨٣٥}

مَوْعِدُ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَعْنَاهَا صَالِحٌ لِعِدَّةٍ وَجُوهٌ مِنَ الْمَوْعِظَةِ، وَهِيَ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمِ الْقُرْآنِ. وَالْمَقْصِدُ مِنْهَا هُوَ الْمَوْعِظَةُ بِالْحَوَادِثِ مَاضِيهَا وَحَاضِرُهَا لِلِإِقْلَاعِ عَنِ الْإِشْرَاكِ وَعَنْ تَكْذِيبِ الرَّسُولِ ﷺ، فَأَمَّا مَوْعِدُهَا فَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُتَّصِلَةً بِقَوْلِهِ قَبْلُهَا أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ الْآيَاتِ [الرُّوم: ٩]، فَلَمَّا طَوَّلُوا بِالْإِقْرَارِ عَلَى مَا رَأَوْهُ مِنْ آثَارِ الْأَمَمِ الْخَالِيَةِ، أَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عَدَمَ النَّظَرِ فِي تِلْكَ الْآثَارِ، أُتْبِعَ ذَلِكَ بِمَا أَدَّى إِلَيْهِ طَرِيقُ الْمَوْعِظَةِ مِنْ قَوْلِهِ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ [الرُّوم: ٢٧]، وَمِنْ ذِكْرِ الْإِنذَارِ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ، وَالتَّذْكِيرِ بِدَلَائِلِ الْوَحْدَانِيَّةِ وَنَعَمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَفْرِيعِ اسْتِحْقَاقِهِ تَعَالَى الشُّكْرَ لِدَاتِهِ وَلِأَحْلٍ إِنْعَامِهِ اسْتِحْقَاقًا مُسْتَقَرًّا إِدْرَاكُهُ فِي الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَمَا تَخَلَّلَ ذَلِكَ مِنَ الْإِرْشَادِ وَالْمَوْعِظَةِ، عَادَ الْكَلَامُ إِلَى التَّذْكِيرِ بِأَنَّ مَا حَلَّ بِالْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ مِنَ الْمَصَائِبِ مَا كَانَ إِلَّا بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ، أَيْ بِأَعْمَالِهِمْ، فَيُوشِكُ أَنْ يَحِلَّ مِثْلُ مَا حَلَّ بِهِمْ بِالْمُخَاطَبِينَ الَّذِينَ كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ مِثْلَ مَا كَسَبَتْ أَيْدِي أَوْلَئِكَ.

^{٨٣٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٨٥٢)

^{٨٣٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٣٣١، بترقيم الشاملة آليا)

فَمَوْقِعُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مَوْقِعُ النَّتِيجَةِ مِنْ مَجْمُوعِ الاسْتِدْلَالِ أَوْ مَوْقِعِ الاسْتِنْفَانِ الْبَيَانِيِّ بِتَقْدِيرِ سُؤَالٍ عَنْ سَبَبِ مَا حَلَّ بِأَوَّلِكَ الْأَمَمِ. وَيَجُوزُ أَنْ تَقَعَ هَذِهِ الْآيَةُ مَوْقِعَ التَّكْمِلَةِ لِقَوْلِهِ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضَرْرٌ دَعَوْا رَبَّهُمْ [الرُّومُ: ٣٣] الْآيَةُ، فَهِيَ خَبَرٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّنْذِيمِ عَلَى مَا حَلَّ بِالْمُكَذِّبِينَ الْمُخَاطَبِينَ مِنْ ضَرْرٍ لِيَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ عِقَابٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَيَقْلَعُوا عَنْهُ خَشْيَةً أَنْ يُحِيطَ بِهِمْ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ، كَمَا يُؤْذَنُ بِهِ قَوْلُهُ عَقَبَ ذَلِكَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. فَالْإِثْنَانُ بَلْفَظِ النَّاسِ فِي قَوْلِهِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ إِظْهَارٌ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لَزِيَادَةِ إِبْضَاحِ الْمَقْصُودِ، وَمُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ «بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ». فَالْآيَةُ تُشِيرُ إِلَى مَصَائِبَ نَزَلَتْ بِبِلَادِ الْمُشْرِكِينَ وَعَطَلَتْ مَنَافِعَهَا، وَلَعَلَّهَا مِمَّا نَشَأَ عَنِ الْحَرْبِ بَيْنَ الرُّومِ وَفَارِسَ، وَكَانَ الْعَرَبُ مُنْقَسِمِينَ بَيْنَ أَنْصَارِ هَؤُلَاءِ وَأَنْصَارِ أَوَّلِكَ، فَكَانَ مِنْ جَرَءِ ذَلِكَ أَنْ انْقَطَعَتْ سُبُلُ الْأَسْفَارِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فَتَعَطَّلَتِ التَّجَارَةُ وَقَلَّتِ الْأَقْوَاتُ بِمَكَّةَ وَالْحِجَازِ كَمَا يَقْتَضِيهِ سَوْقُ هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْمُفْتَتِحَةِ بِ غَلَبَتِ الرُّومُ [الرُّومُ: ٢] .

فَمَوْقِعُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مَوْقِعِ الاسْتِنْفَانِ الْبَيَانِيِّ لِسَبَبِ مَسِّ الضَّرِّ إِيَّاهُمْ حَتَّى لَجَأُوا إِلَى الضَّرَاعَةِ إِلَى اللَّهِ، وَمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ جُمْلَةٍ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضَرْرٌ [الرُّومُ: ٣٣] إِلَى آخِرِهِ اعْتِرَاضٌ وَاسْتِطْرَادٌ تَخَلَّلَ فِي الْعِزِّ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَوْقِعُهَا مَوْقِعَ الْعِزِّ بَيْنَ ذِكْرِ ابْتِهَالِ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ إِذَا أَحَاطَ بِهِمْ ضَرْرٌ ثُمَّ إِعْرَاضُهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً وَبَيْنَ ذِكْرِ مَا حَلَّ بِالْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ اعْتِرَاضًا يُبَيِّنُ أَنَّ الْفَسَادَ الَّذِي يَظْهَرُ فِي الْعَالَمِ مَا هُوَ إِلَّا مِنْ جَرَءِ اكْتِسَابِ النَّاسِ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا لَكَانَ حَالُهُمْ عَلَى صَلَاحٍ.

وَالْفَسَادُ: سُوءُ الْحَالِ، وَهُوَ ضِدُّ الصَّلَاحِ، وَدَلَّ قَوْلُهُ: فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ عَلَى أَنَّهُ سُوءُ الْأَحْوَالِ فِي مَا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ مِنْ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ بَرِّهَا وَبَحْرِهَا. ثُمَّ التَّعْرِيفُ فِي الْفَسَادِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ تَعْرِيفُ الْعَهْدِ لِفَسَادِ مَعْهُودٍ لَدَى الْمُخَاطَبِينَ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ الشَّامِلِ لِكُلِّ فَسَادٍ ظَهَرَ فِي الْأَرْضِ بَرِّهَا وَبَحْرِهَا أَنَّهُ فَسَادٌ فِي أَحْوَالِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، لَا فِي أَعْمَالِ النَّاسِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ لِيُذَيِّقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

وَفَسَادُ الْبَرِّ يَكُونُ بِفَقْدَانِ مَنَافِعِهِ وَحُدُوثِ مَضَارِّهِ، مِثْلَ حَبْسِ الْأَقْوَاتِ مِنَ الزَّرْعِ وَالثَّمَرِ وَالْكَلْبِ، وَفِي مَوْتَانِ الْحَيَوَانِ الْمُتَنَفِّعِ بِهِ، وَفِي انْتِقَالِ الْوُحُوشِ الَّتِي تُصَادُ مِنْ جَرَءِ قَحْطِ الْأَرْضِ إِلَى أَرْضَيْنِ أُخْرَى، وَفِي حُدُوثِ الْجَوَائِحِ مِنْ جَرَءِ وَحْشَرَاتٍ وَأَمْرَاضٍ.

وَفَسَادُ الْبَحْرِ كَذَلِكَ يَظْهَرُ فِي تَعْطِيلِ مَنَافِعِهِ مِنْ قِلَّةِ الْحَيْثَانِ وَاللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ فَقَدْ كَانَا مِنْ أَعْظَمِ مَوَارِدِ بِلَادِ الْعَرَبِ وَكَثْرَةِ الزَّوَابِعِ الْحَائِلَةِ عَنِ الْأَسْفَارِ فِي الْبَحْرِ، وَتَضُوبِ مِيَاهِ الْأَنْهَارِ وَانْجِبَاسِ فَيْضَانِهَا الَّذِي بِهِ يَسْتَقِي النَّاسُ. وَقِيلَ: أُرِيدَ بِالْبَرِّ الْبُؤَادِي وَأَهْلُ الْعُمُورِ وَبِالْبَحْرِ الْمُدُنُ وَالْقُرَى، وَهُوَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ وَقَالَ: إِنَّ الْعَرَبَ تُسَمَّى الْأَمْصَارَ بَحْرًا. قِيلَ: وَمِنْهُ قَوْلُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فِي شَأْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي إِبْنِ سَلُولٍ: «وَلَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحْرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوَجَّهُوا» .

يَعْنِي بِالْبَحْرَةِ: مَدِينَةُ يَثْرَبَ وَفِيهِ بُعْدٌ. وَكَأَنَّ الَّذِي دَعَا إِلَى سُلُوكِ هَذَا الْوَجْهِ فِي إِطْلَاقِ الْبَحْرِ أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّهُ حَدَثَ اخْتِلَالٌ فِي سَيْرِ النَّاسِ فِي الْبَحْرِ وَقَلَّةٌ فِيمَا يَخْرُجُ مِنْهُ. وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ السَّيْرِ أَنَّ قُرَيْشًا أَصَابُوا بِقَحْطٍ وَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْعِظَامَ، وَلَمْ يَذْكُرُوا أَنَّهُمْ تَعَطَّلَتْ أَسْفَارُهُمْ فِي الْبَحْرِ وَلَا انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ حَيَاتَانِ الْبَحْرِ، عَلَى أَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَعْرِفُونَ بِالْأَقْيَاتِ مِنَ الْحَيَاتَانِ.

وَعَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ يَكُونُ الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِلْعَوَضِ، أَيْ جَزَاءً لَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، كَالْبَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ [الشورى: ٣٠]، وَيَكُونُ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ لِيُذَيِّقَهُمْ عَلَى حَقِيقَةِ مَعْنَى التَّعْلِيلِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْفَسَادِ: الشَّرْكَ قَالَهُ فَتَادَةُ وَالسَّدْيُ فَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ مُتَّصِلَةً بِقَوْلِهِ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ إِلَى قَوْلِهِ: هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ [الروم: ٤٠]، فَتَكُونُ الْجُمْلَةُ إِثْمَامًا لِلِاسْتِدْلَالِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْعَالَمَ سَالِمًا مِنَ الْإِشْرَاكِ وَأَنَّ الْإِشْرَاكَ ظَهَرَ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ مِنْ صَنِيعِهِمْ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ

فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَأَجَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي» الْحَدِيثَ.

فَذَكَرَ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ لِتَعْمِيمِ الْجِهَاتِ بِمَعْنَى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي جَمِيعِ الْأَقْطَارِ الْوَاقِعَةِ فِي الْبَرِّ وَالْوَاقِعَةِ فِي الْجَزَائِرِ وَالشُّطُوطِ، وَيَكُونُ الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِلْسَّبَبِيَّةِ، وَيَكُونُ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ لِيُذَيِّقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَامَ الْعَاقِبَةِ، وَالْمَعْنَى: فَأَذَقْنَاهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا، فَجَعَلَتْ لَامَ الْعَاقِبَةِ فِي مَوْضِعِ الْفَاءِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا [القصص: ٨]، أَيْ فَأَذَقْنَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا بَعْضَ مَا اسْتَحَقُّوهُ مِنَ الْعَذَابِ لِشُرْكِهِمْ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْعَالَمَ عَلَى نِظَامٍ مُحْكَمٍ مُلَائِمٍ صَالِحٍ لِلنَّاسِ فَأَحْدَثَ الْإِنْسَانُ فِيهِ أَعْمَالًا سَيِّئَةً مُفْسِدَةً، فَكَانَتْ وَشَائِجَ لَامِثَالَهَا: وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِيئَةَ إِلَّا وَشَيْجُهُ

فَأَخَذَ الْإِخْتِلَالَ يَتَطَرَّقُ إِلَى نِظَامِ الْعَالَمِ قَالَ تَعَالَى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ [التين: ٤ - ٦]، وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ يَكُونُ مَحْمَلُ الْبَاءِ وَمَحْمَلُ اللَّامِ مِثْلُ مَحْمَلِهِمَا عَلَى الْوَجْهِ الرَّابِعِ. وَأُطْلِقَ الظُّهُورُ عَلَى حَدُوثِ حَدَثٍ لَمْ يَكُنْ، فَشَبَّهَ ذَلِكَ الْحُدُوثَ بَعْدَ الْعَدَمِ بِظُهُورِ الشَّيْءِ الَّذِي كَانَ مُخْتَفِيًا.

وَمَحْمَلُ صِيغَةِ فِعْلٍ ظَهَرَ عَلَى حَقِيقَتِهَا مِنَ الْمُضِيِّ يَقْتَضِي أَنَّ الْفَسَادَ حَصَلَ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَقْبَلٍ، فَيَكُونُ إِشَارَةً إِلَى فَسَادٍ مُشَاهِدٍ أَوْ مُحَقَّقٍ الْوُقُوعِ بِالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ. وَقَدْ تُحْمَلُ صِيغَةُ الْمَاضِي عَلَى مَعْنَى تَوَقُّعِ حُصُولِ الْفَسَادِ وَالْإِنْذَارِ بِهِ فَكَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ عَلَى طَرِيقَةِ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ [التحل: ١]. وَأَيًّا مَا كَانَ الْفَسَادُ مِنْ مَعْهُودٍ أَوْ شَامِلٍ، فَالْمَقْصُودُ أَنَّ حُلُولَهُ بِالنَّاسِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ لِيُذَيِّقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا، وَأَنَّ اللَّهَ يُقَدِّرُ أَسْبَابَهُ تَقْدِيرًا خَاصًّا لِيُجَازِيَ مَنْ يَعْصِبُ عَلَيْهِمْ

عَلَى سُوءِ أَعْمَالِهِمْ. وَهُوَ الْمُرَادُ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ لِأَنَّ إِسْنَادَ الْكَسْبِ إِلَى الْأَيْدِي جَرَى مَجْرَى الْمَثَلِ فِي فِعْلِ الشَّرِّ وَالسُّوءِ مِنَ الْأَعْمَالِ كُلِّهَا، دُونَ خُصُوصِ مَا يَعْمَلُ مِنْهَا بِالْأَيْدِي لِأَنَّ مَا يَكْسِبُهُ النَّاسُ يَكُونُ بِالْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ كُلِّهَا، وَبِالْحَوَاسِّ الْبَاطِنَةِ مِنَ الْعَقَائِدِ الضَّالَّةِ وَالْأَدْوَاءِ النَّفْسِيَةِ.

وَبِمَا مَوْصُولَةٌ، وَخُذِفَ الْعَائِدُ مِنَ الصَّلَةِ، وَتَقْدِيرُهُ: بِمَا كَسَبَتْهُ أَيْدِي النَّاسِ، أَيْ بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمْ. وَأَعْظَمُ مَا كَسَبَتْهُ أَيْدِي النَّاسِ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الْإِشْرَاقُ وَهُوَ الْمَقْصُودُ هُنَا وَإِنْ كَانَ الْحُكْمُ عَامًّا. وَيَعْلَمُ أَنَّ مَرَاتِبَ ظُهُورِ الْفَسَادِ حَاصِلَةٌ عَلَى مَقَادِيرَ مَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيْ الذَّنْبِ أَكْبَرُ؟ «أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نَدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»، وَقَالَ تَعَالَى: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ [الشورى: ٣٠] وَقَالَ: وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا [الحج: ١٦].

وَيَجْرِي حُكْمُ تَعْرِيفِ النَّاسِ عَلَى نَحْوِ مَا يَجْرِي فِي تَعْرِيفِ الْفَسَادِ مِنْ عَهْدٍ أَوْ عُمُومٍ، فَالْمَعْهُودُ هُمْ الْمُشْرِكُونَ وَقَدْ شَاعَ فِي الْقُرْآنِ تَغْلِيْبُ اسْمِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ.

وَالْإِذَاقَةُ: اسْتِعَارَةٌ مَكْنِيَّةٌ شَبَّهَ مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْآلَامِ فَيَحْسُونُ بِهَا بِإِصَابَةِ الطَّعَامِ حَاسَّةِ الْمَطْعَمِ. وَلَمَّا كَانَ مَا عَمِلُوهُ لَا يُصِيبُهُمْ بَعِيْنُهُ تَعَيَّنَ أَنَّ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا أَطْلُقَ عَلَى جَزَاءِ الْعَمَلِ وَلِذَلِكَ فَالْبَعْضِيَّةُ تَبْعِيْضُ لِلْجَزَاءِ، فَالْمُرَادُ بَعْضُ الْجَزَاءِ عَلَى جَمِيعِ الْعَمَلِ لَا الْجَزَاءِ عَلَى بَعْضِ الْعَمَلِ، أَيْ أَنَّ مَا يُذِيقُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ هُوَ بَعْضُ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ. وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ إِنْ لَمْ يُقْلَعُوا عَنْ مَسَاوِيِ أَعْمَالِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ يُوَاحِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ [فاطر: ٤٥]، ثُمَّ وَرَاءَ ذَلِكَ عَذَابُ الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى [طه: ١٢٧].

وَالْعُدُولُ عَنْ أَنْ يُقَالَ: بَعْضُ أَعْمَالِهِمْ إِلَى بَعْضِ الَّذِي عَمِلُوا لِلِإِيْمَاءِ إِلَى مَا فِي الْمَوْصُولِ مِنْ قُوَّةِ التَّعْرِيفِ، أَيْ أَعْمَالُهُمُ الْمَعْرُوفَةُ عَنْدهُمْ الْمُتَقَرَّرُ صُدُورُهَا مِنْهُمْ.

وَالرَّجَاءُ الْمُسْتَفَادُ مِنْ (لَعَلَّ) يُشِيرُ إِلَى أَنَّ مَا ظَهَرَ مِنْ فُسَادٍ كَافٍ لِإِقْلَاعِهِمْ عَمَّا هُمْ اكْتَسَبُوهُ، وَأَنَّ حَالَهُمْ حَالُ مَنْ يُرْجَى رُجُوعُهُ فَإِنْ هُمْ لَمْ يَرْجِعُوا فَقَدْ تَبَيَّنَ تَمَرُّدُهُمْ وَعَدَمُ إِجْدَاءِ الْمَوْعِظَةِ فِيهِمْ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ [التوبة: ١٢٦].

وَالرُّجُوعُ مُسْتَعَارٌ لِلْإِقْلَاعِ عَنِ الْمَعَاصِي كَأَنَّ الَّذِي عَصَى رَبَّهُ عَبْدٌ أَبَقَ عَنْ سَيِّدِهِ، أَوْ دَابَّةٌ قَدْ أَبَدَتْ، ثُمَّ رَجَعَ. وَفِي الْحَدِيثِ «اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مِنْزِلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي، فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا دَابَّتْهُ عَنْدَهُ».

وَقَرَأَ الْجُمُهورُ لِيُذِيقَهُم بِالْبَإِئِ التَّحْتِيَّةِ أَيُّ لِيُذِيقَهُمُ اللَّهُ. وَمَعَادُ الضَّمِيرِ قَوْلُهُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ [الرُّوم: ٤٠]. وَقَرَأَهُ قَبْلَ عَنْ ابْنِ كَثِيرٍ وَرَوَّحٌ عَنْ عَاصِمٍ بُنُونِ الْعِظْمَةِ.^{٨٣٦}

هذا الفساد الذي ظهر على هذه الأرض، وشمل برّها وبحرها، هو من صنع الناس، لأنهم هم الخلفاء عليها، وهم أصحاب الإرادات العاملة، فيها.. إن كل ما على هذه الأرض من كائنات، إنما تتحرك حركة منبعثة من طبيعتها التي أودعها الله سبحانه وتعالى فيها، دون أن تخرج عليها..

ولهذا كان كل نوع من الكائنات على طريق واحد، لا اختلاف فيه بين فرد وفرد.. والإنسان وحده، هو الذي يعيش في الجماعة الإنسانية ذاتا مستقلة، لها تفكيرها، ولها أسلوبها في الحياة..

ومن هنا كان التغيير والتبديل في المجتمعات الإنسانية، وكانت الحروب الدائرة بينها، وكانت هذه الانحرافات والضلالات في العقائد والمعاملات، من كفر بالله، وكذب، وغش، وخداع، ونفاق.. إلى غير ذلك مما تمتلئ به دنيا الناس من مساوئ ومقابح..

وفي قوله تعالى: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» - إشارة إلى أن هذا الفساد طارئ على هذه الأرض، لم تكن تعرفه قبل ظهور الإنسان فيها..

فلما ظهر الإنسان، ظهر الفساد.. وليس معنى هذا أن الإنسان هو عنصر الفساد في هذه الأرض، إذ لو كان ذلك كذلك، لما استحق أن يكون خليفة الله فيها.. ولكن هذا يشير إلى أن أصل الخلقة الموجودات كلها، ومنها الأرض، قائم على الصحة والسلامة، شأنها في هذا شأن الإنسان في أصل خلقه، وما أودع فيه الخالق - جل وعلا - من فطرة سليمة.. وكما أفسد كثير من الناس فطرتهم، أفسد الناس كذلك فطرة الطبيعة، واتخذوا كثيرا من أدواتها الصالحة النافعة أدوات للإفساد، والتدمير.. وإلى هذا المعنى يشير المتنبي بقوله:

كلّما أنبت الزمان قناة... ركب المرء في القناة سنانا

ومع هذا، فإنه لا ينكر فضل الإنسان وآثاره العظيمة في هذه الدنيا، وما أقام على وجه الأرض، من عمران، وما أحدث، من حضارات.

وقوله تعالى: «بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ» - إشارة إلى أن هذا الفساد والاعوجاج الذي ظهر على هذه الأرض، هو مما كسبته أيدي الناس، فهو من صنعهم، ومن فعل إرادتهم الحرة.. ولهذا، فهم محاسبون عليه، مؤاخذون به.. فالباء هنا للسببية، أي بسبب ما كسبت أيديهم...

وفي قوله تعالى: «لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا» - تقرير لتلك الحقيقة، وهي أن ما يعمل به الناس، هو محسوب عليهم، مجزّبون به، من خير أو شر...

^{٨٣٦} - التحرير والتنوير (١٠٩ / ٢١)

وليس كذلك ما تعمله الكائنات الأخرى التي تعيش مع الناس على هذه الأرض.. إن ما تعمله لا إرادة لها فيه، شأنها في هذا شأن البذرة تدفن في الثرى، فيخرج منها ما في طبيعتها من زهر وثمر.. ومن هنا كانت مسئولية الإنسان عن كل عمل يعمل، ليدوق ثمر ما يعمل، حلوا كان أو مرا.. «وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» (النجم: ٣٩). والآية هنا، إنما تنبه إلى الأعمال السيئة، التي من شأنها، الإفساد في الأرض، والتي كان من شأن الإنسان العاقل أن يتجنبها، ويعمل ما هو خير، وما هو حسن... وفي قوله «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا» إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى - فضلا منه وكرما وإحسانا - لم يجز الناس بكل ما عملوا من شر، بل ببعض ما كسبوا منه، حتى يكون، لهم من ذلك زاجر يزرهم، وأدب سماوى يأخذون منه العبرة والعظة، وليرجعوا إلى الله من قريب، ويستقيموا على طريق الخير والإحسان... ولو أخذ الله الناس بما كسبوا، لأهلكهم جميعا، بل وأهلك معهم كل دابة تدب على ظهر الأرض، وفي هذا يقول سبحانه: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ» (فاطر: ٤٥) وإنه ليكفى أن يدين بعض الناس بغير دين الله، وأن يتخذوا من دونه أولياء، وأن يدعو له ولدا، أو شريكا.. فذلك ذنب عظيم: «تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا» (٩٠: مريم).^{٨٣٧}

فظهر الفساد هكذا واستعلاؤه لا يتم عبثا، ولا يقع مصادفة إنما هو تدبير الله وسنته.. «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا» من الشر والفساد، حينما يكتوون بناره، ويتألمون لما يصيبهم منه: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» فيعزمون على مقاومة الفساد، ويرجعون إلى الله وإلى العمل الصالح وإلى المنهج القويم.

ويحذرهم في نهاية هذه الجولة أن يصيبهم ما أصاب المشركين قبلهم، وهم يعرفون عاقبة الكثيرين منهم، ويرونها في آثارهم حين يسيرون في الأرض، ويمرون بهذه الآثار في الطريق: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ». وكانت عاقبتهم ما يرون حين يسيرون في الأرض وهي عاقبة لا تشجع أحدا على سلوك ذلك الطريق!^{٨٣٨}

عَنْ قُرَّةَ، قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} قَالَ: أَفْسَدَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ فِي بَرِّ الْأَرْضِ وَبَحْرِهَا بِأَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ يَرْجِعُ مَنْ بَعْدَهُمْ.^{٨٣٩}

قال ابن القيم رحمه الله: "وَمَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِأَحْوَالِ الْعَالَمِ وَمَبْدِئِهِ يَعْرِفُ أَنَّ جَمِيعَ الْفَسَادِ فِي حَوْهٍ وَبَبَاتِهِ وَحَيَوَانِهِ، وَأَحْوَالِ أَهْلِهِ حَادِثٌ بَعْدَ خَلْقِهِ بِأَسْبَابٍ اقْتَضَتْ خُدُوتَهُ، وَلَمْ تَزَلْ أَعْمَالُ بَنِي آدَمَ وَمُخَالَفَتُهُمْ لِلرُّسُلِ تُحْدِثُ لَهُمْ مِنَ الْفَسَادِ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ مَا يَجْلِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآلَامِ

^{٨٣٧} - التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٥٢٩)

^{٨٣٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٥٢٥)

^{٨٣٩} - مصنف ابن أبي شيبة - دار القبلة (١٩/ ٣٧٠) (٣٦٣٥٣) صحيح

وَالْأَمْرَاضِ، وَالْأَسْقَامِ، وَالطَّوَاعِينَ، وَالْقُحُوطِ وَالْجُدُوبِ، وَسَلَبِ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ وَثِمَارِهَا وَنَبَاتِهَا وَسَلَبِ مَنَافِعِهَا أَوْ نُقْصَانِهَا أُمُورًا مُتَتَابِعَةً يَتَلَوُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَإِنْ لَمْ يَتَسَّعْ عِلْمُكَ لِهَذَا فَاصْغُرْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} [الروم: ٤١] [الروم: ٤١] وَنَزَلَ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَحْوَالِ الْعَالَمِ وَطَائِقِ بَيْنِ الْوَاقِعِ وَبَيْنِهَا، وَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ تَحْدُثُ الْآفَاتُ وَالْعِلَلُ كُلُّ وَقْتٍ فِي الثَّمَارِ وَالزَّرْعِ وَالْحَيَوَانِ، وَكَيْفَ يَحْدُثُ مِنْ تِلْكَ الْآفَاتِ آفَاتٌ أُخَرُ مُتَلَازِمَةٌ، بَعْضُهَا آخِذٌ بِرِقَابِ بَعْضٍ، وَكُلُّمَا أَحْدَثَ النَّاسُ ظُلْمًا وَفُجُورًا، أَحْدَثَ لَهُمْ رَبُّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ الْآفَاتِ وَالْعِلَلِ فِي أَغْذِيَّتِهِمْ وَفَوَاحِشِهِمْ، وَأَهْوِيَّتِهِمْ وَمِيَاهِهِمْ، وَأَبْدَانِهِمْ وَخَلْقِهِمْ، وَصُورِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنَ النِّقْصِ وَالْآفَاتِ مَا هُوَ مُوجِبٌ أَعْمَالِهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَفُجُورِهِمْ.

وَلَقَدْ كَانَتْ الْحُبُوبُ مِنَ الْحِنْطَةِ وَغَيْرِهَا أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ الْيَوْمَ، كَمَا كَانَتْ الْبَرَكَةُ فِيهَا أَعْظَمَ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ وَجَدَ فِي خَزَائِنِ بَعْضِ بَنِي أُمَيَّةٍ صُرَّةً فِيهَا حِنْطَةٌ أَمْثَالُ نَوَى التَّمْرِ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا: هَذَا كَانَ يَنْبُتُ أَيَّامَ الْعَدْلِ. وَهَذِهِ الْقِصَّةُ، ذَكَرَهَا فِي "مُسْنَدِهِ" عَلَى أَثَرِ حَدِيثٍ رَوَاهُ. وَأَكْثَرُ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ وَالْآفَاتِ الْعَامَّةِ بَقِيَّةُ عَذَابٍ عُدَّتْ بِهِ الْأُمَمُ السَّالِفَةُ، ثُمَّ بَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ مُرْصَدَةٌ لِمَنْ بَقِيَ عَلَيْهِ بَقِيَّةٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، حَكَمًا قَسْطًا، وَقَضَاءً عَدْلًا، وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هَذَا بِقَوْلِهِ فِي الطَّاعُونَ: («إِنَّهُ بَقِيَّةُ رِجْزٍ أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ»).

وَكَذَلِكَ سَلَطَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الرَّيْحُ عَلَى قَوْمٍ سَبَعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ أَبْقَى فِي الْعَالَمِ مِنْهَا بَقِيَّةً فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ، وَفِي نَظِيرِهَا عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ.

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْمَالَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ مُفْتَضِيَاتٍ لِثَارِهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ اقْتِضَاءً لَا بُدَّ مِنْهُ، فَجَعَلَ مَنَعَ الْإِحْسَانِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقَةِ سَبَبًا لِمَنَعَ الْغَيْثِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالْقَحْطِ وَالْجَدْبِ، وَجَعَلَ ظُلْمَ الْمَسَاكِينِ، وَالْبَخْسَ فِي الْمَكَايِلِ وَالْمَوَازِينِ، وَتَعَدِّي الْقَوِيِّ عَلَى الضَّعِيفِ سَبَبًا لِحُجُورِ الْمُلُوكِ وَالْوُكُلَاةِ الَّذِينَ لَا يَرْحَمُونَ إِنْ اسْتَرْحَمُوا، وَلَا يَعْطِفُونَ إِنْ اسْتَعْطَفُوا، وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ أَعْمَالُ الرَّعَايَا ظَهَرَتْ فِي صُورٍ وَلَاتِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ يُظْهِرُ لِلنَّاسِ أَعْمَالَهُمْ فِي قَوْلِ الْوَالِدِ وَصُورٍ تُنَاسِبُهَا، فَتَارَةً بِقَحْطٍ وَجَدْبٍ، وَتَارَةً بَعْدُ، وَتَارَةً بِوُلَاةٍ جَائِرِينَ، وَتَارَةً بِأَمْرَاضٍ عَامَّةٍ، وَتَارَةً بِهِمُومٍ وَأَلَامٍ وَغُمُومٍ تُحْضِرُهَا نَفْسُهُمْ لَا يَنْفَكُونَ عَنْهَا، وَتَارَةً بِمَنَعَ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَنْهُمْ، وَتَارَةً بِتَسْلِيطِ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِمْ تَوَزُّؤُهُمْ إِلَى أَسْبَابِ الْعَذَابِ أَرَا لَتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ، وَلَيَصِيرَ كُلُّ مِنْهُمْ إِلَى مَا خُلِقَ لَهُ، وَالْعَاقِلُ يُسِيرُ بِصَبْرِهِ بَيْنَ أَقْطَارِ الْعَالَمِ فَيُشَاهِدُهُ، وَيَنْظُرُ مَوَاقِعَ عَدْلِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ، وَحِينَئِذٍ يَتَبَيَّنُ لَهُ أَنَّ الرُّسُلَ وَاتِّبَاعَهُمْ خَاصَّةً عَلَى سَبِيلِ النَّجَاةِ، وَسَائِرِ الْخَلْقِ عَلَى سَبِيلِ الْهَلَاكِ سَائِرُونَ، وَإِلَى دَارِ الْبَوَارِ صَائِرُونَ، وَاللَّهُ بَالِغُ أَمْرِهِ، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا رَادَّ لَأَمْرِهِ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.^{٨٤٠}

^{٨٤٠} - زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٣٣٢) والطب النبوي لابن القيم (ص: ٢٧٥)

لا ينجو من عذاب الله إلا الذين كانوا ينهاون عن الفساد

قال تعالى: { فلولاً كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أجبنا منهم واتبع الذين ظلموا ما أثروا فيه وكانوا مجرمين (١١٦) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم أهلها مصلحون } (١١٧) سورة هود

لقد كان من الواجب أن يكون من الأمم السابقة التي أهلكها الله بظلمها، جماعة منهم أولو عقل، ورأي، وصلاح، ينهون المفسدين عن الإفساد في الأرض، ويأخذون على أيديهم لكيلا ينزل بهم عذاب الله، لأن من سنة الله أن لا يهلك قوماً إلا إذا عم الفساد والظلم أكثرهم. ولكن لم يكن بين هؤلاء الأقوام الظالمين إلا قلة من المؤمنين أكثرهم من الضعفاء الذين لا يؤخذ برأيهم، ولا تسمع كلمتهم، ولا يقبل أمرهم ونهيهم. أما الأكثرون فكانوا من الظالمين المستكبرين المعاندين، فأصرروا على ظلمهم وكفرهم، واتبعوا حياة الترف والفساد، فحال ذلك بينهم وبين الانتفاع بدعوة الحق، فطروا واستكبروا، وصدوا عن سبيل الله، وقد أغرقوا أنفسهم في الجرائم التي ولدها التعميم والترف، واستسلموا لها، ولذلك رجحوا ما أتوا به على اتباع الرسل وطاعة الله فأهلكهم الله، وتلك سنة الله في خلقه. ليس من سنة الله تعالى، ولا من عدله في خلقه، أن يهلك القرى بشرك أهلها، ما داموا مصلحين في أعمالهم الاجتماعية، والعمرانية، والمدنية، فلا ينحسون الناس حقوقهم، ولا يبطشون بالناس، ولا يذلون لمتكبر جبار كقوم فرعون، ولا يرتكبون الفواحش ولا يقطعون السبيل، ولا يأتون في ناديم المنكر، بل لا بد لهم، ليحق عليهم العذاب والهلاك، من أن يجمعوا إلى الشرك الإفساد في الأرض، والإساءة في الأعمال والأحكام، وأن يفعلوا الظلم المدمر للعمران.

فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله بصورة من صورته فيكون فيها من ينهض لدفعه هي أمة ناجية لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. أما الأمم التي لا يجد فيها الظالمون من يردعهم وينهاهم عن الفساد في الأرض فإن سنة الله تعالى تحق عليها إما بهلاك الاستئصال، وإما بهلاك الانحلال والاختلال؟^{٨٤١}

لما ذكر تعالى، إهلاك الأمم المكذبة للرسل، وأن أكثرهم منحرفون، حتى أهل الكتب الإلهية، وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب والاضمحلال، ذكر أنه لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا، من أهل الخير يدعون إلى الهدى، وينهون عن الفساد والردى، فحصل من نفعهم ما بقيت به الأديان، ولكنهم قليلون جداً.

^{٨٤١} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٥٩٠، بترقيم الشاملة آليا)

و غاية الأمر، أنهم نجوا، باتباعهم المرسلين، وقيامهم بما قاموا به من دينهم، وبكون حجة الله أجراها على أيديهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة {و} لكن {اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ} أي: اتبعوا ما هم فيه من النعيم والترف، ولم ييغوا به بدلا.

{وَكَانُوا مُجْرِمِينَ} أي: ظالمين، باتباعهم ما أترفوا فيه، فلذلك حق عليهم العقاب، واستأصلهم العذاب. وفي هذا، حث لهذه الأمة، أن يكون فيهم بقايا مصلحون، لما أفسد الناس، قائمون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويصبرونهم من العمى.

وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وصاحبها يكون، إماما في الدين، إذا جعل عمله خالصا لرب العالمين.

وما كان الله ليهلك أهل القرى بظلم منه لهم، والحال أنهم مصلحون، أي: مقيمون على الصلاح، مستمررون عليه، فما كان الله ليهلكهم، إلا إذا ظلموا، وقامت عليهم حجة الله.

ويحتمل، أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم، فإن الله يعفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.^{٨٤٢}

قوله تعالى: «فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ» .

مناسبة هذه الآية لما قبلها، أن الآيات السابقة جاءت أمرة بمعروف، وناهية عن منكر، ومنبهة إلى أن فيما أمرت به ونهت عنه، ذكرى لمن يعقل، ولا يغفل عن مواقع العبرة والعظة.

ولما كان في طبيعة الناس الغفلة عن مواقع الخير، وهم لهذا يحتاجون دائما إلى من يقوم فيهم مذكرا لهم، أمرا بالخير، ناهيا عن المنكر - فقد جاء قوله تعالى: «فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ»

- ناعيا على الأمم السالفة التي أهلكها الله سبحانه بظلمها وضلالها، أنها لم يكن فيها دعاة خير، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقفون بجوار أنبيائهم، يشدون أزرهم، ويشيعون في الناس دعوتهم، ويسدنون على السفهاء نوافذ العدوان على الأنبياء وأتباع الأنبياء.

- وفي قوله تعالى: «فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ» إنكار لما كان عليه أهل القرون الماضية، من فقدان أهل الخير بينهم، ودعاة الإصلاح فيهم.. وتحريض للمسلمين ألا يكونوا كهؤلاء الأقوام، بل يقوم من بينهم دعاة هدى وإصلاح، كما يقول الله سبحانه وتعالى: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» (آل عمران: ١٠٤)، وبهذا تقوى جبهة المؤمنين، ويشتد ركن الإيمان، وينفتح للناس الطريق إلى الهدى، والنجاة من عذاب الله.

^{٨٤٢} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٩١)

- وقوله تعالى «أُولُوا بِقِيَّةٍ» أي أصحاب دين وإيمان، يعملون لما يبقى لهم عند الله في الآخرة، ومنه قوله تعالى: «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ» أي ما يبقى لكم عند الله.. فأصحاب البقية، هم العقلاء الراشدون، الذين لا تلهيهم دنياهم عن آخرتهم..

وقوله تعالى: «إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ» هو استثناء من النفي الواقع على أهل القرون الغابرة.. فقد كان فيهم جماعات قليلة استجابوا لدعوة الله، وآمنوا به، ودعوا إلى الله، كما كان من الرجل الصالح من قوم فرعون.. أما كثرتهم فكانت تموج في غيها وضلالها، فلم يكن لأصحاب الدعوات فيهم من يسمع أو يجيب، إذ كانت تضيع أصواتهم وسط هذه الأمواج الهادرة من الغي والضلال.. وقد نجى الله سبحانه هؤلاء القلة المؤمنين، من هذا البلاء الذي أخذ به أقوامهم، الذين قاموا على ما هم فيه من ضلال..

قوله تعالى: «وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ».. إشارة إلى أن أهل المنكر قد غلبوا على أهل الخير والصالح فيهم، فلم يلتفتوا إليهم، ولم ينتفعوا بنصيحهم، فمضوا على ما هم فيه من ضلال، وغرقوا فيه من إلى أذقانهم، وأترفوا فيه، أي جعلوه نعيمهم في الدنيا، وحظهم منها..

- «وَكَانُوا مُجْرِمِينَ» أي كانوا أهل إجرام وفجور، وبغى وعدوان.. ولذلك أهلكهم الله.. ولو استقاموا على طريق الحق، ما نزل بهم ما نزل من نقم الله عليهم.. كما يقول سبحانه بعد ذلك: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ».. أي أن الله سبحانه، إنما أهلك القرى التي أهلكها بسبب ما كان من أهلها من ظلم وكفر وضلال.. وقد جرت سنة الله ألا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، كما يقول سبحانه: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (الأنفال: ٥٣).^{٨٤٣}

وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم. فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله، في صورة من صوره، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستئصال. وإما بهلاك الانحلال.. والاختلال! فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده، وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره، هم صمام الأمان للأمم والشعوب.. وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صوره.. إنهم لا يؤدون واجبهم لربهم ولدينهم فحسب، إنما هم يحولون بهذا دون أمهم وغضب الله، واستحقاق النكال والضياع...^{٨٤٤}

^{٨٤٣} - التفسير القرآني للقرآن (٦/ ١٢١١)

^{٨٤٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٥٧٣)

٢٣. كثرة الذنوب والمعاصي :

قال تعالى: {وعادًا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين (٣٨) وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين (٣٩) فكلًا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} (٤٠) سورة العنكبوت

يُخبرُ الله تعالى عن الأمم المكذبة، وكيف أهلكهم وانتقم منهم بأنواعٍ من العذاب، فعاد، قوم هود (وكانوا يسكنون في الأحقاف، في منطقة حضرموت)، أهلكهم الله بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ، سخرها عليهم سبع ليالٍ متوالية فلم يترك لهم من باقية .

وثمود قوم صالح (وكانوا يسكنون الحجر قرب وادي القرى) أهلكهم الله جميعاً بالصيحة، وبزلزلة الأرض بهم، لما عقروا الناقة التي أخرجها الله لهم، بناءً على طلبهم من صخرة صماء .

وكانت العرب تعرف مساكن قوم عاد، وقوم ثمود، وتثر بها في ترحالها، وترى آثار الدمار والهلاك الذي نزل بها وبأهلها . وكان سبب إهلاكهم هو ما زين لهم الشيطان من أعمال سيئة، وعبادة غير الله تعالى، مع أنهم كانوا قادرين على الإدراك والاستبصار، والتمييز بين الحق والباطل، ولذلك فلم يكن لهم عذر في الغفلة، وعدم التبصر في العواقب .

واذكر لهؤلاء المغترين بأموالهم من قريش كيف أهلك الله قارون صاحب الأموال الكثيرة، إذ خسف به وبداره وكنوزه الأرض، كما أهلك فرعون ملك مصر ووزيره هامان، فقد جاءهم موسى بالحجج والبينات الدالة على صدق رسالته، فاستكبروا في الأرض بغير الحق، وأبوا أن يصدقوه وأن يؤمنوا له، ولم يَكُونُوا فائتين الله، ولا ناجين من عقابه، فهو تعالى قادرٌ عليهم في كل حين، وهو عزيز ذو انتقام .

وقد أرسل الله تعالى على كل فئةٍ لونا من ألوان العذاب يتناسب مع عتوهم وجرائمهم:

- فقوم عاد كانوا يقولون: (من أشد منا قوة)، فأرسل الله عليهم، ريحاً شديدة البرودة (صرصرًا)، بالغة العنف والعتو (عاتية)، تحمل الحصباء، وترميهم بها، فأهلكتهم جميعاً .

- وقوم ثمود كذبوا رسولهم صالحاً، وتهددوه وعقروا الناقة، فأرسل الله عليهم صيحةً أجمدت أنفاسهم، ولم تترك منهم أحداً .

- وقارون طغى وبغى وعصى الله، ومشى في الأرض، مرحاً فحسف الله به وبداره الأرض، وأهلكه وكنوزهُ .

- وفرعون وهامان وقومهما من القبط أغرقهم الله في صبيحة واحدة، وكانت هذه العقوبة جزاءً على ما اجترحوه من الإجرام، ولم يظلمهم الله فيما فعل بهم، ولكنهم هم الذين كانوا يظلمون أنفسهم بالكفر، والبطر والعنوّ والطغيان، فأوصلوها إلى العذاب والبلاء الذي حلّ بها ..^{٨٤٥}

وعاد كانت تسكن بالأحقاف في جنوب الجزيرة بالقرب من حضرموت، وثمود كانت تسكن بالحجر في شمال الجزيرة بالقرب من وادي القرى. وقد هلك عاد بريح صرصر عاتية، وهلكت ثمود بالصيحة المزلزلة. وبقيت مساكنها معروفة للعرب يملكون عليها في رحلي الشتاء والصيف، ويشهدون آثار التدمير، بعد العز والتمكين. وهذه الإشارة المجملّة تكشف عن سر ضلالهم، وهو سر ضلال الآخرين. «وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ» ..

فقد كانت لهم عقول، وكانت أمامهم دلائل الهدى ولكن الشيطان استهواهم وزين لهم أعمالهم. وأتاهم من هذه الثغرة المكشوفة، وهي غرورهم بأنفسهم، وإعجابهم بما يأتونه من الأعمال، وانخداعهم بما هم فيه من قوة ومال ومتاع. «فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ» سبيل الهدى الواحد المؤدي إلى الإيمان. وضع عليهم الفرصة «وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ» يملكون التبصر، وفيهم مدارك ولهم عقول.

وإشارة إلى قارون وفرعون وهامان. «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ، فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ، وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ» ..

وقارون كان من قوم موسى فبغى عليهم بثروته وعلمه، ولم يستمع نصح الناصحين بالإحسان والاعتدال والتواضع وعدم البغي والفساد. وفرعون كان طاغية غشوما، يرتكب أبشع الجرائم وأغلظها، ويسخر الناس ويجعلهم شيعا، ويقتل ذكور بني إسرائيل ويستحيي نساءهم عتوا وظلما. وهامان كان وزيره المدبر لمكائده، المعين له على ظلمه وبطشه.

«وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ» .. فلم يعصمهم الثراء والقوة والدهاء. لم تعصمهم من أخذ الله، ولم تجعلهم ناجين ولا مفلتين من عذاب الله، بل أدركهم وأخذهم كما سيحيي. «وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ» ..

هؤلاء الذين ملكوا القوة والمال وأسباب البقاء والغلبة، قد أخذهم الله جميعا. بعد ما فتنوا الناس وأذوهم طويلا: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

^{٨٤٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٢٦٠، بترقيم الشاملة آليا)

فعاد أخذهم حاصب وهو الريح الصرصر التي تتطاير معها حصباء الأرض فتضرهم وتقتلهم، وثمود أخذتهم الصيحة. وقارون خسف به وبداره الأرض، وفرعون وهامان غرقا في السيم وذهبوا جميعا مأخوذين بظلمهم. «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»^{٨٤٦} ..

و قال تعالى: { وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين (٤) فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون (٥) ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكّن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين (٦) } [الأنعام]

وما تنزل على المشركين آية من آيات القرآن تلفت أنظارهم إلى ما أبدعه الخالق من صنع في خلقه هذا الكون، مما يدل على وحدانيته وتفردّه بالألوهية، وعلى صدق ما أرسل به الأنبياء، إلا أعرض عنها هؤلاء الكفرة المكذبون، استهزاء غير متدبرين معناها، ولا متفكرين في دلالتها. وبسبب إعراضهم عن النظر في الآيات، والتفكير فيها، فقد كذبوا بدين الله الحق، لما جاءهم به رسول الله محمد ﷺ، ولم يترثوا، ولم يتدبروا ما فيه من خير وهدي، وسيرون عاقبة التكذيب والاستهزاء، حين تنزل بهم العقوبات العاجلة، التي أشارت إليها الآيات: من نصر الرسول، وإظهار دين الله، وإعزاز الإسلام وأهله

...

يلفت الله تعالى أنظار الكفار من قريش، المكذبين بآيات ربهم ورسله، إلى الأمم العديدة التي كذبت قبلهم رسلها، فأهلكهم الله، وكان تعالى قد مكّن لهم في الأرض أكثر مما مكّن لهؤلاء المكذبين، وأمدّهم بأموال وبنين، وجعلهم أثر قوة وعمارة في الأرض من هؤلاء، وجعل السماء تمطرهم بصورة متتالية، مطرا غزيرا (مدرارا)، وفجر لهم من الأرض ينابيع وأنهارا، استدراجا لهم وإملاء، ثم أهلكهم الله بذنوبهم وخطاياهم، وجعلهم كأمس الدابر. وجعل، من بعد هؤلاء الهالكين، أجيالا أخرى (قرنا آخرين) ليختبرهم، فعملوا مثل أعمال من كانوا قبلهم، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مث لما أصابهم، فما أنتم بأعزّ على الله منهم، وأنتم أولى بالعذاب ومعالجة العقوبة منهم، لولا لطف الله وإحسانه.^{٨٤٧}

إنهم يتخذون موقف الإعراض عنادا وإصرارا. فليس الذي ينقصهم هو الآيات الداعية إلى الإيمان، ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية، ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقة، هي التي يدعون إلى الإيمان بها والاستسلام لها. . ليس هذا هو الذي ينقصهم، إنما تنقصهم الرغبة في الاستجابة، وبمسك بهم العناد والإصرار، ويقعد بهم الإعراض عن النظر والتدبر: «وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ

^{٨٤٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٤٨٨)

^{٨٤٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٩٤، بترقيم الشاملة آليا)

مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِبْرَاهِيمَ إِذَا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ» .. وحين يكون الأمر كذلك. حين يكون الإعراض متعمدا ومقصودا - مع توافر الأدلة، وتواتر الآيات ووضوح الحقائق - فإن التهديد بالبطش قد يحدث الهزة التي تفتح نوافذ الفطرة حين تسقط عنها حاجز الكبر والعناد: «فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ. فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» .. إنه الحق هذا الذي جاءهم من لدن خالق السماوات والأرض، وجاعل الظلمات والنور، وخالق الإنسان من طين، والإله في السماوات والأرض الذي يعلم سرهم وجهرهم ويعلم ما يكسبون .. إنه الحق وقد كذبوا به، مصرين على التكذيب، معرضين عن الآيات، مستهزئين بالدعوة إلى الإيمان .. فليرتقبوا إذن أن يأتيهم الخبر اليقين عما كانوا به يستهزئون! ويتركهم أمام هذا التهديد المجل، الذي لا يعرفون نوعه ولا مواعده .. يتركهم يتوقعون في كل لحظة أن تأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون! حيث يتكشف لهم الحق أمام العذاب المرتقب المجهول! وفي موقف التهديد يلفت أعناقهم وأنظارهم وقلوبهم وأعصابهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم - وقد كانوا يعرفون بعضها في دور عاد بالأحقاف وثور بالحجر، وكانت أطلالهم باقية يمر عليها العرب في رحلة الشتاء للجنوب وفي رحلة الصيف للشمال، كما كانوا يمرون بقرى لوط المخسوفة ويعرفون ما يتناقله المحيطون بها من أحاديث - فالسياق يلفتهم إلى هذه المصارع وبعضها منهم قريب. «أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ، وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ تَجْرِيًا مِنْ تَحْتِهِمْ. فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ» .. ألم يروا إلى مصارع الأجيال الغابرة. وقد مكّهم الله في الأرض، وأعطاهم من أسباب القوة والسلطان ما لم يعط مثله للمخاطبين من قريش في الجزيرة وأرسل المطر عليهم متتابعاً ينشئ في حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق .. ثم ماذا؟ ثم عصوا ربهم، فأخذهم الله بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم جيلاً آخر، ورث الأرض من بعدهم ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض! فقد ورثها قوم آخرون! فما أهون المكذبين المعرضين أصحاب القوة والتمكين من البشر! ما أهونهم على الله وما أهونهم على هذه الأرض أيضاً! لقد أهلكوا وغبروا فما أحست هذه الأرض بالخلاء والخواء إنما عمرها جيل آخر ومضت الأرض في دورتها كأن لم يكن هنا سكان ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هنا أحياء! وهي حقيقة ينساها البشر حين يمكن الله لهم في الأرض. ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله، ليلبواهم فيه: أيقومون عليه بعهد الله وشرطه، من العبودية له وحده، والتلقي منه وحده - بما أنه هو صاحب الملك وهم مستخلفون فيه - أم يجعلون من أنفسهم طواغيت، تدعي حقوق الألوهية وخصائصها ويتصرفون فيما استخلفوا فيه تصرف المالك لا المستخلف.

إنما حقيقة ينساها البشر - إلا من عصم الله - وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف ويمضون على غير سنة الله ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف، ويقع الفساد رويدا رويدا وهم يتزلقون ولا يشعرون .. حتى يستوفي الكتاب أجله ويحق وعد الله .. ثم

تختلف أشكال النهاية: مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال - بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام - ومرة يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث كذلك لأقوام - ومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض فيعذب بعضهم بعضاً، ويدمر بعضهم بعضاً، ويؤذي بعضهم بعضاً، ولا يعود بعضهم يأمن بعضاً فتضعف شوكتهم في النهاية ويسلط الله عليهم عباداً له - طائعين أو عصاة - يخضدون شوكتهم، ويقتلعونهم مما مكنوا فيه ثم يستخلف الله العباد الجدد لبيتليهم بما مكنهم.. وهكذا تمضي دورة السنة.. السعيد من وعى أنها السنة، ومن وعى أنه الابتلاء فعمل بعهد الله فيما استخلف فيه. والشقي من غفل عن هذه الحقيقة، وظن أنه أوتيهما بعلمه، أو أوتيهما بحيلته، أو أوتيهما جزافاً بلا تدبير! وإنه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغى، أو المستهتر الفاسد، أو الملحد الكافر، ممكناً له في الأرض، غير مأخوذ من الله.. ولكن الناس إنما يستعجلون.. إنهم يرون أول الطريق أو وسطه ولا يرون نهاية الطريق..

ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء! لا ترى إلا في مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث.. والقرآن الكريم يوجه إلى هذه المصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون - في حياتهم الفردية القصيرة - نهاية الطريق فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق! إن هذا النص في القرآن: «فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ».. وما يماثله، وهو يتكرر كثيراً في القرآن الكريم.. إنما يقرر حقيقة، ويقرر سنة، ويقرر طرفاً من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ..

إنه يقرر حقيقة أن الذنوب تهلك أصحابها، وأن الله هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم وأن هذه سنة ماضية - ولو لم يرها فرد في عمره القصير، أو جيل في أجله المحدود - ولكنها سنة تصير إليها الأمم حين تفسو فيها الذنوب وحين تقوم حياتها على الذنوب.. كذلك هي جانب من التفسير الإسلامي للتاريخ: فإن هلاك الأجيال واستخلاف الأجيال من عوامله، فعل الذنوب في جسم الأمم وتأثيرها في إنشاء حالة تنتهي إلى الدمار إما بقارعة من الله عاجلة - كما كان يحدث في التاريخ القديم - وإما بالانحلال البطيء الفطري الطبيعي، الذي يسري في كيان الأمم - مع الزمن - وهي توغل في متاهة الذنوب! وأماننا في التاريخ القريب - نسيباً - الشواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاقي، والدعارة الفاشية، واتخاذ المرأة فتنة وزينة، والترف والرخاوة، والتلهي بالنعيم.. أماننا الشواهد الكافية من فعل هذا كله في انهيار الإغريق والرومان - وقد أصبحوا أحاديث - وفي الانهيار الذي تتجلى أوائله، وتلوح نهايته في الأفق في أمم معاصرة، كفرنسا وانجلترا كذلك - على الرغم من القوة الظاهرة والثراء العريض^{٨٤٨}

^{٨٤٨} - يراجع فصل: «تخطيط واضطراب» في كتاب: «الإسلام ومشكلات الحضارة» وفصل «شهادة التاريخ» وفصل «شهادة القرن العشرين» في كتاب: «التطور والنبات في حياة البشرية». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفاً باتاً من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ، ذلك أن وجهته ابتداء هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة، واستبعاد القاعدة الاعتقادية التي يقوم عليها.. ولكن هذا التفسير يضطر إلى مباحكات مضحكة في تفسير أحداث وأطوار في حياة البشرية لا سبيل إلى تفسيرها إلا على أساس القاعدة الاعتقادية .

والتفسير الإسلامي - بشموله وحديثه وصدقته وواقعيته - لا يغفل أثر العناصر المادية - التي يجعلها التفسير المادي هي كل شيء - ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه في رقعة الحياة العريضة ويبرز العناصر الفعالة الأخرى التي لا ينكرها إلا أصحاب العناد الصفيق لواقعات الوجود.. يبرز قدر الله من وراء كل شيء ويبرز التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات ويبرز السلوك الواقعي والعنصر الأخلاقي.. ولا يغفل عاملاً واحداً من العوامل التي تجري بها سنة الله في الحياة ..
٨٤٩

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ، حَدَّثَتْهُ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، دَخَلَ عَلَيْهَا فَزَعًا يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَبِئْسَ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فَتُحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامَ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَتَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبْثُ» صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ ٨٥٠ .

وَعَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَوْلَى لَنَا، أَنَّهُ سَمِعَ جَدِّي، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ، حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ" مسند أحمد ٨٥١

وَعَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ حَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُمْ، وَأَمْنَعُ لَمْ يُعَيِّرُوا إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ» معجم الطبراني الكبير ٨٥٢

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَرِيرٍ الْبَجَلِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ رَجُلٌ يُعْمَلُ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَمْنَعُ مِنْهُ وَأَعَزُّ لَمْ يُعَيِّرُوا عَلَيْهِ، إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ» ٨٥٣

٨٤٩ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٤٥٢)

٨٥٠ - صحيح البخاري (٤/ ١٣٨) (٣٣٤٦) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٠٧) ١ - (٢٨٨٠)

[ش (ويل) كلمة تستعمل للحزن والهلاك والمشقة. (ردم) سد. (حلق بإصبعه الإبهام والتي تليها) يعني جعل الإصبع السبابة في أصل الإبهام وضمها حتى لم يبق بينهما إلا خلل يسير والمعنى أنه لم يبق لجمي الشر إلا اليسير من الزمن. (الخبث) الفسوق والفجور والمعاصي]

٨٥١ - مسند أحمد ط الرسالة (٢٩/ ٢٥٨) (١٧٧٢٠) حسن لغيره

٨٥٢ - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٣٣١) (٢٣٧٩) صحيح

وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَعْمَلُ بَيْنَهُم بِالْمَعَاصِي هُمْ أَغْزُ، وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ لَمْ يُغَيِّرُوا إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ».^{٨٥٤}

وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمُ بِالْمَعَاصِي يَقْدِرُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ وَلَا يُغَيِّرُونَ إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا».^{٨٥٥}

وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ فِيهِمْ رَجُلٌ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي يَقْدِرُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ وَلَا يُغَيِّرُونَ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا».^{٨٥٦}

وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُجَاوِرُ قَوْمًا فَيَعْمَلُ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمُ بِالْمَعَاصِي وَلَا يَأْخُذُونَ عَلَى يَدَيْهِ إِلَّا أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ».^{٨٥٧}

وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ فِيهِمْ مَنْ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَكْثَرُ مِنْهُ وَأَغْزُ فَيَذْهَبُونَ وَيَسْكُنُونَ فَلَا يُغَيِّرُونَ إِلَّا أَصَابَتْهُمْ فِيهِ عُقُوبَةٌ».^{٨٥٨}

وَعَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ سَلَمَةَ، تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَا فِي النَّاسِ يَوْمَئِذٍ نَاسٌ صَالِحُونَ، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: فَكَيْفَ يَصْنَعُ أَوْلَئِكَ؟ قَالَ: «يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ».^{٨٥٩}

وَعَنْ مَيْمُونَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مُتَمَاسِكٌ أَمْرُهَا مَا لَمْ يَظْهَرْ فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا، فَإِذَا ظَهَرُوا خَشِيتُ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ».^{٨٦٠}

قَالَ الطَّبِيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَإِنَّمَا قُلْتُ لَيْسَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَقْوَامٍ أُمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنُهِوا عَنِ الْمُنْكَرِ، فَأَبَوْا الْقَبُولَ كُلَّ الْإِبَاءِ، فَذَهَبَتْ أَنْفُسُ الْمُؤْمِنِينَ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ، فَقِيلَ لَهُ: عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ وَمَا كُفِّتُمْ مِنْ إِصْلَاحِهَا، وَالْمَشْيَى بِهَا فِي طُرُقِ الْهُدَى، لَا يَضُرُّكُمْ الضَّلَالُ فِي دِينِكُمْ إِذَا كُنْتُمْ مُهْتَدِينَ، وَيَشْهَدُ لَذَلِكَ مَا قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ. {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ} [النساء: ٦١] وَهَذَا تَخْصِصٌ بِحَسَبِ الْأَشْخَاصِ، وَأَمَّا بِحَسَبِ الزَّمَانِ فَيَدُلُّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ الْآتِي لِأَبِي ثَعْلَبَةَ، فَإِنَّ الْعَامَّ قَدْ يَخْصُ مَرَّةً أُخْرَى أَهـ.

^{٨٥٣} - جامع معمر بن راشد (١١/ ٣٤٨) (٢٠٧٢٣) صحيح

^{٨٥٤} - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٣٣١) (٢٣٨١) صحيح

^{٨٥٥} - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٣٣٢) (٢٣٨٢) صحيح

^{٨٥٦} - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٣٣٢) (٢٣٨٣) صحيح

^{٨٥٧} - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٣٣٢) (٢٣٨٤) صحيح

^{٨٥٨} - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٣٣٢) (٢٣٨٥) صحيح

^{٨٥٩} - المعجم الكبير للطبراني (٢٣/ ٣٢٥) (٧٤٧) صحيح لغيره

^{٨٦٠} - المعجم الكبير للطبراني (٢٤/ ٢٣) (٥٥) صحيح

لَا يَخْفَى أَنَّهُ غَيْرُ صَحِيحِ الْمَبْنَى وَصَرِيحِ الْمَعْنَى مِنْ وَجْهَيْنِ. أَمَّا أَوَّلًا فَقَوْلُهُ: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي قَوْمٍ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ فَأَبَوْا كُلَّ الْإِبَاءِ، فَلَا يُعْرَفُ لَهُ أَصْلٌ أَصْلًا، بَلْ وَلَا يُتَصَوَّرُ لَهُ وَجُودٌ أَبَدًا، لِأَنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يُؤْمَرُ بِالْمَعْرُوفِ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنَّهُمْ يَأْبُونَ كُلَّ الْإِبَاءِ، وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّ قَوْمًا ارْتَدُّوا بِسَبَبِ هَذَا الْأَمْرِ حَتَّى يَصِحَّ قَوْلُهُ: فَذَهَبَتْ أَنْفُسُ الْمُؤْمِنِينَ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ إلخ. وَأَمَّا ثَانِيًا فَقَوْلُهُ: وَيَشْهَدُ لَذَلِكَ مَا قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ. لَا تَعْلُقُ لَهُ بَبَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مُطْلَقًا، بَلِ الْمَطْلُوبُ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَى الرَّسُولِ، وَيَتْرَكُوا تَقْلِيدَ آبَائِهِمْ فِي ضَلَالَتِهِمْ وَإِبَائِهِمْ، فَأَصْرَحُوا عَلَى بُطْلَانِهِمْ، وَقَالُوا: حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا فَقَالَ تَعَالَى: {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [البقرة: ١٧٠] نَعَمْ وَرَدَ مَا يُنَاسِبُ بَيْنَ اقْتِرَانِ الْآيَتَيْنِ عَلَى مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يُسْلِمُ وَيَكْفُرُ أَبُوهُ، وَيُسْلِمُ الرَّجُلُ وَيَكْفُرُ أَخُوهُ، فَلَمَّا دَخَلَ قُلُوبُهُمْ حِلَاوَةُ الْإِيمَانِ دَعَوْا آبَاءَهُمْ وَإِخْوَانَهُمْ فَقَالُوا: حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ} [المائدة: ١٠٥] الْآيَةَ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْبَيْضاوِيِّ، وَالْآيَةُ نَزَلَتْ لَمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَتَحَسَّرُونَ عَلَى الْكُفْرَةِ وَيَتَمَنَّوْنَ إِيْمَانَهُمْ، وَفِي تَفْسِيرِ الْمُعِينِ الصَّفْوِيِّ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ رُخْصَةٌ فِي تَرْكِ الْحِسْبَةِ إِذَا عُلِمَ عَدَمُ قَبُولِهَا، أَوْ فِيهَا مَفْسَدَةٌ، أَوْ إِضْرَارٌ لَهُ مِنْهَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ السَّلَفِ عَلَى ذَلِكَ، وَالْأَحَادِيثُ تُدَلُّ عَلَيْهِ، أَوْ مَعْنَى إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِذَا اتَّمَرْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَمَرْتُمْ بِهِ، وَانْتَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَنَهَيْتُمْ عَنْهُ، كَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ. وَرَوَيْ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ، فَإِنَّ الْإِهْتِدَاءَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِإِثْنَانِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ، وَمِنْهُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، أَوْ الْمُرَادُ الْمَنْعُ عَنْ إِهْلَاكِ النَّفْسِ أَسْفًا عَلَى مَا عَلَيْهِ الْكُفْرَةُ وَالْفُسْطَةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ} [فاطر: ٨] وَقَالَ النَّوَوِيُّ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [المائدة: ١٠٥] الْآيَةَ. فَلَيْسَتْ مُخَالَفَةً لَوْجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، لِأَنَّ الْمَذْهَبَ الصَّحِيحَ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ مَا كَلَّفْتُمْ بِهِ فَلَا يَضُرُّكُمْ تَقْصِيرُ غَيْرِكُمْ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام: ١٦٤] فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمِمَّا كَلَّفَ بِهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا فَعَلَهُ، وَلَمْ يَمَثَلِ الْمُخَاطَبُ فَلَا عَتَبَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَيْهِ لِكَوْنِهِ أَدَّى مَا عَلَيْهِ. (رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ. وَفِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ: إِذَا رَأَوْا) أَيِ: النَّاسُ (الظَّالِمَ) أَيِ: الْفَاسِقَ (فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ) أَيِ: لَمْ يَمْنَعُوهُ عَنْ ظُلْمِهِ (أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ) أَيِ: بِنَوْعٍ مِنَ الْعَذَابِ، فَإِنَّ أَشَدَّ الْحِجَابِ (وَفِي أُخْرَى لَهُ) أَيِ: لِأَبِي دَاوُدَ (مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ): بِصِغَةِ الْمَجْهُولِ، وَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ هُوَ النَّائِبُ، أَوِ التَّقْدِيرُ يَعْمَلُ أَحَدٌ فَمَا بَيْنَهُمْ (بِالْمَعَاصِي)، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُعَيِّرُوا، ثُمَّ لَا يُعَيِّرُونَ إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ ". وَفِي أُخْرَى لَهُ: " مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ: هُمْ صِفَةُ قَوْمٍ أَيِ: إِذَا كَانَ الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ الْمَعَاصِيَ أَكْثَرَ مِنَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَهَا، فَلَمْ يَمْنَعُوهُمْ عَنْهَا عَمَّهُمُ الْعَذَابُ.

قَالَ الطَّبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يُزَادُ بَعْدَهُ، ثُمَّ لَا يُعَيَّرُونَ إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَغْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ وَهُمْ صِفَةُ قَوْمٍ. قُلْتُ: هَذِهِ التَّقَادِيرُ مُسْتَفَادَةٌ مِمَّا قَبْلَهُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ اخْتِلَافَ الرِّوَايَةِ فِي صَدْرِ الْحَدِيثِ، وَقَالَ الْبَغَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَفِي رِوَايَةٍ: «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيَسْتَغْمِلَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ، فَلَيَسُوْمَنَّكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، ثُمَّ لَيَدْعَنَّ اللَّهُ حَيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ». قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: خَافَ الصَّدِيقُ أَنْ يَتَأَوَّلَ النَّاسُ الْآيَةَ غَيْرَ تَأْوِيلِهَا، فَيَدْعُوهُمْ إِلَى تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ، وَأَنَّ الَّذِي أُذِنَ فِي الْإِمْسَاكِ عَنْ تَغْيِيرِهِ مِنَ الْمُنْكَرِ هُوَ الشَّرُّ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ الْمُعَاهِدُونَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ يَتَدَيَّنُونَ بِهِ وَقَدْ صَوَّلُوا عَلَيْهِ، فَأَمَّا الْفُسُوقُ وَالْعَصِيَانُ وَالرَّيْبُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا يَدْخُلُ فِيهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْآيَةُ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، يَعْنِي عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَخُذُوا مِنْهُمْ الْجَزِيَّةَ وَاتْرَكُوهُمْ. وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوُوا عَنِ الْمُنْكَرِ مَا قَبِلَ مِنْكُمْ، فَإِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ فَعَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنْهُ أَيْ: قَدْ مَضَى تَأْوِيلُهُنَّ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلْنَ، وَمِنْهُ أَيْ: وَقَعَ تَأْوِيلُهُنَّ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَمِنْهُ أَيْ: وَقَعَ تَأْوِيلُهُنَّ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَسِيرٍ، وَمِنْهُ أَيْ: وَيَقَعُ تَأْوِيلُهُنَّ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَمِنْهُ أَيْ: يَقَعُ تَأْوِيلُهُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ مَا ذُكِرَ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَمَا دَامَتْ قُلُوبُكُمْ وَأَهْوَاؤُكُمْ وَاحِدَةً، وَلَمْ تُلَبَّسُوا شَيْعًا، وَلَمْ يَذُقْ بَعْضُكُمْ بِأَسَ بَعْضٍ فَأَمُرُوا وَانْهَوُوا، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ الْقُلُوبُ وَالْأَهْوَاءُ وَالْبُسْتَمُ شَيْعًا، وَذَاقَ بَعْضُكُمْ بِأَسَ بَعْضٍ فَأَمُرُوا وَنَفْسُهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ جَاءَ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ

اهـ ٨٦١

٢٤. السُّخْرِيَّةُ وَالْمَزُومَةُ وَالتَّنَابُزُ بِالْأَلْقَابِ

قَالَ تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (١١) سورة الحجرات

يَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ السُّخْرِيَّةِ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْأَسْتَهْزَاءِ بِهِمْ، وَاسْتَصْغَارِ شَأْنِهِمْ، فَقَدْ يَكُونُ الْمُسْتَهْزَأُ بِهِ أَكْرَمَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ السَّاحِرِ مِنْهُ، وَالْمُحْتَقِرُ لَهُ، فَيُظْلَمُ نَفْسَهُ بِتَحْقِيرِ مَنْ وَقَرَهُ اللَّهُ .

كَمَا نَهَى تَعَالَى النِّسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ عَنْ أَنْ يَسْخَرْنَ مِنْ أَخَوَاتِهِنَّ الْمُؤْمِنَاتِ، فَقَدْ تَكُونُ الْمُسْتَهْزَأُ بِهَا أَكْرَمَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ السَّاحِرَةِ مِنْهَا . كَمَا أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَلْقَابِ بِعِظَابِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَبِأَنَّهُ لَا يَعْيبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَبِأَنَّهُ لَا يَطْعَنُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ . وَاعْتَبَرَ تَعَالَى لَمَزَ الْإِنْسَانِ أَخَاهُ كَلْمَهِ نَفْسَهُ، وَطَعْنَهُ أَخَاهُ

كَطَعَنَهُ فِي نَفْسِهِ، لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ جَسَدٌ وَاحِدٌ إِنْ اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحِمَى . كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَا يَدْعُوا بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِلَقَبٍ يَسُوؤُهُ أَوْ يَكْرَهُهُ، كَأَنْ يَقُولَ مُسْلِمٌ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ: يَا فَاجِرُ، أَوْ يَا غَادِرُ أَوْ يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَوْ يَا مُنَافِقُ ...

وَبُنِيتِ الصِّفَةُ، وَبُنِيَ الْأَسْمُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُذَكَّرُوا بِالْفُسُوقِ بَعْدَ دُخُولِهِمْ فِي الْإِيمَانِ . وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ مِنْ نَبْزِهِ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ بِلَقَبٍ يَكْرَهُهُ، وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ مِنْ لَمَزِهِ إِخْوَتَهُ، وَمَنْ سَخَّرِيَّتِهِ مِنْهُمْ .. فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَكْسَبُوهَا عِقَابَ اللَّهِ بِعَصِيَانِهِمْ إِيَّاهُ ^{٨٦٢} .

إِنَّ الْجَمْعَ الْفَاضِلَ الَّذِي يَقِيْمُهُ الْإِسْلَامُ يَهْدِي الْقُرْآنَ يَجْتَمِعُ لَهُ أَدَبٌ رَفِيعٌ، وَلِكُلِّ فَرْدٍ فِيهِ كِرَامَتُهُ الَّتِي لَا تَمَسُ . وَهِيَ مِنْ كِرَامَةِ الْمَجْمُوعِ . وَلَمْزُ أَيِّ فَرْدٍ هُوَ لَمْزُ لَذَاتِ النَّفْسِ، لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ كُلَّهَا وَحْدَةً، كِرَامَتُهَا وَاحِدَةٌ .

وَالْقُرْآنُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَهْتَفُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ النِّدَاءِ الْحَبِيبِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» . وَبِنَهَاهُمْ أَنْ يَسْخَرَ قَوْمٌ بِقَوْمٍ، أَيْ رِجَالٌ بِرِجَالٍ، فَلَعَلَّهُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، أَوْ أَنْ يَسْخَرَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ فَلَعَلَّهُنَّ خَيْرٌ مِنْهُنَّ فِي مِيزَانِ اللَّهِ .

وَفِي التَّعْبِيرِ إِجْمَاعٌ خَفِيَ بِأَنَّ الْقِيَمَ الظَّاهِرَةَ الَّتِي يَرَاهَا الرِّجَالُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَيَرَاهَا النِّسَاءُ فِي أَنْفُسِهِنَّ لَيْسَتْ هِيَ الْقِيَمَ الْحَقِيقِيَّةُ، الَّتِي يُوْزَنُ بِهَا النَّاسُ . فَهَنَّاكَ قِيَمٌ أُخْرَى، قَدْ تَكُونُ خَافِيَةً عَلَيْهِمْ، يَعْلَمُهَا اللَّهُ، وَيُوزَنُ بِهَا الْعِبَادُ .

وَقَدْ يَسْخَرُ الرَّجُلُ الْغَنِيَّ مِنَ الرَّجُلِ الْفَقِيرِ . وَالرَّجُلُ الْقَوِيَّ مِنَ الرَّجُلِ الضَّعِيفِ، وَالرَّجُلُ السَّوِيَّ مِنَ الرَّجُلِ الْمَوْوَفِّ . وَقَدْ يَسْخَرُ الذَّكِيُّ الْمَاهِرُ مِنَ السَّاذِجِ الْخَامِ . وَقَدْ يَسْخَرُ ذُو الْأَوْلَادِ مِنَ الْعَقِيمِ . وَذُو الْعَصْبِيَّةِ مِنَ الْيَتِيمِ ...

وَقَدْ تَسْخَرُ الْجَمِيلَةُ مِنَ الْقَبِيْحَةِ، وَالشَّابَّةُ مِنَ الْعَجُوزِ، وَالْمُعْتَدِلَةُ مِنَ الْمَشْهُوَةِ، وَالْغَنِيَّةُ مِنَ الْفَقِيرَةِ .. وَلَكِنْ هَذِهِ وَأَمْثَالُهَا مِنْ قِيَمِ الْأَرْضِ لَيْسَتْ هِيَ الْمَقْيَاسُ، فَمِيزَانُ اللَّهِ يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ بِغَيْرِ هَذِهِ الْمَوَازِينِ ! وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَكْتَفِي بِهَذَا الْإِجْمَاعِ، بَلْ يَسْتَجِيشُ عَاطِفَةَ الْأَخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ، وَيَذَكِّرُ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَنَّهُمْ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ مِنْ يَلْمِزُهَا فَقَدْ لَمَزَهَا: «وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ» .. وَاللَّمْزُ: الْعَيْبُ . وَلَكِنْ لِلْفُظَّةِ جَرَسًا وَظَلًّا فَكَأَنَّمَا هِيَ وَخْزَةٌ حَسِيَّةٌ لَا عَيْبَةَ مَعْنَوِيَّةً ! وَمِنَ السَّخَرِيَّةِ وَاللَّمْزِ التَّنَازُلُ بِالْأَلْقَابِ الَّتِي يَكْرَهُهَا أَصْحَابُهَا، وَيَحْسُونَ فِيهَا سَخَرِيَّةً وَعَيْبًا . وَمَنْ حَقَّ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَلَّا يَنَادِيَهُ بِلَقَبٍ يَكْرَهُهُ وَيُزِرُّ بِهِ - وَمَنْ أَدَبَ الْمُؤْمِنُ أَلَّا يُؤْذِيَ أَخَاهُ . بِمِثْلِ هَذَا . وَقَدْ غَيَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - أَسْمَاءً وَأَلْقَابًا كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِأَصْحَابِهَا، أَحْسَنَ فِيهَا بِحَسَبِ الْمَرْهَفِ، وَقَلْبِهِ الْكَرِيمِ، بِمَا يُزِرُّ بِأَصْحَابِهَا، أَوْ يَصِفُهُمْ بِوصفٍ ذَمِيمٍ . وَالْآيَةُ بَعْدَ الْإِجْمَاعِ بِالْقِيَمِ

^{٨٦٢} - أَيْسَرُ التَّفَاسِيرِ لِأَسْعَدِ حُومِدٍ (ص: ٤٥٠٢، بِتَرْقِيمِ الشَّامِلَةِ آيَا)

الحقيقة في ميزان الله، وبعد استجاشة شعور الأخوة، بل شعور الاندماج في نفس واحدة، تستثير معنى الإيمان، وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم، والفسوق عنه والانحراف بالسخرية واللمز والتنايز: «بِئْسَ الْأَسْمُ: الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ». فهو شيء يشبه الارتداد عن الإيمان! وتحدد باعتبار هذا ظلماً، والظلم أحد التعبيرات عن الشرك: «وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».. وبذلك تضع قواعد الأدب النفسي لذلك المجتمع الفاضل الكريم.^{٨٦٣}

إن من أفتك الآفات التي تغتال مشاعر الإخاء والمودة بين المجتمعات، استخفاف جماعة بجماعة، والنظر إليها نظراً ساخراً، فإن ذلك من شأنه أن يغري هؤلاء المستخفين المستهزئين. بمن استخفوا بهم، ونظروا إليهم باستصغار واستهزاء، ثم هو من جهة أخرى يحمل الجماعة المستخف بها، المستصغر لشأنها - على أن تدافع عن نفسها، وأن تردّ هذه السخرية، وهذا الاستهزاء بالسخرية والاستهزاء، ممن سخروا منهم، وهزءوا بهم.. وهذا أول قدح لشرارة الحرب.. فإن الحرب أولها الكلام، كما يقولون.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن هؤلاء المستهزئين الساخرين قد يكونون أقل عند الله شأنًا، من هؤلاء الذين اتخذوهم غرضاً للهزاء والسخرية..

فلا ينبغي الانخداع بالظاهر، ووزن الأمور عليها.. فكيف يكون الحال لو أن هؤلاء المستهزأ بهم كانوا عند الله أفضل وأكرم من هؤلاء المستهزئين؟ ألا يخافون أن ينتقم منهم الله لأوليائه؟ ألا يستحون أن يستخفوا بمن هم أثقل منهم ميزاناً، وأكرم منهم معدناً؟ إن هذا أمر لو لم يؤثمه الدين، لأنكره العقل، ورفضته المروءة، وجفاه المنطق، ولفظه العدل والإنصاف.

وفي جمع الرجال والنساء، إشارة إلى أن هذه السخرية إنما تكون على غايتها من الشناعة والسوء، حين تكون في صورة جماعية، إذ أنها تشد أعداداً كثيرة من الناس إلى هذا الشر، وتوقعهم في هذا البلاء. وقوله تعالى: «وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»..

اللمز هو الغمز بالمعيب، والتلويع بها.. والتنايز بالألقاب: الترامي بها.. ومن الآفات التي تهدد كيان المجتمع، وتقوض بنيانه، شيوع الاستخفاف بأنفسهم، وعدم التحرج من ذكر بعضهم بعضاً بالمقايح والمساويء، فهذا إنما يكون من إفرازات الجماعات المتحللة من القيم الخلقية، التي تتبادل المنكرات كما تتبادل السلع الرخيصة في البيع والشراء.. ذلك أن الذي يعيب الناس، ويرميهم بما يسوء من الألقاب، لا يسوؤه كثيراً أن يعيبه الناس، وأن يرموه بكل سوء.. وهذا - والله أعلم - هو ما قصد إليه قوله تعالى: «وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ»

^{٨٦٣} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤١٨٦)

بأيقاع الفعل عليهم، فكأنهم إذ يلمزون غيرهم يلمزون أنفسهم ضمناً..
وقوله تعالى: «بئسَ الاسمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ» أي بئس الاسم الذي يطلق عليكم بعد أن يترع عنكم الإيمان الذي خرجتم منه بما كان منكم من لمز لأنفسكم وتنايز بالألقاب بينكم.. فقد كنتم مؤمنين، ثم ها أنتم أولاء أصبحتم فاسقين، أي خارجين عن الإيمان، بهذا اللغو الساقط من الكلام..
فبئس هذا الاسم الذي سُمِّيتُم به فاسقين، بعد أن كنتم مؤمنين..
وقوله تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».. أي ومن لم يرجع عن هذا الترامي بكلمات السوء، ويستقيم على ما يدعو إليه دينه ومروءته، من القول المعروف، وتجنب اللغو والسَّقط من الكلام- ومن لم يرجع عن هذا، ثم يرضى لنفسه أن يقيم على الفسق ويهجر الإيمان، فهو من الظالمين وللظالمين عذاب أليم، كما يقول سبحانه: «يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».. (٣١: الإنسان) ^{٨٦٤}

٢٥. اتباع الشهوات :

قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا (٢٧) { سورة النساء .

إنَّ الله يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، مَا أَحَلَّ لَكُمْ، وَمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، وَأَنْ يَهْدِيَكُمْ إِلَى سُنَنِ مَنْ كَانُوا قَبْلَكُمْ، وَطَرَائِقِهِمُ الْحَمِيدَةُ، وَإِلَى اتِّبَاعِ شَرَائِعِهِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا، وَيُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ مِمَّا ارْتَكَبْتُمْ مِنَ الْإِثْمِ وَالْحَرَامِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ، حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَقَدِيرٌ .
والله يُرِيدُ بِمَا شَرَعَهُ لَكُمْ مِنَ الْأَحْكَامِ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ مَا فِيهِ مَصَالِحُكُمْ وَمَنَافِعُكُمْ، وَأَنْ تَهْتَدُوا وَتَعْمَلُوا صَالِحًا، وَتَتَّبِعُوا شَرْعَهُ لِيَتُوبَ عَلَيْكُمْ، وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَيُرِيدُ أَتْبَاعُ الشَّيْطَانِ الضَّالُّونَ أَنْ تَمِيلُوا عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ مِيلًا عَظِيمًا .. ^{٨٦٥}

والذي نحب أن نفهم عليه إرادة الله سبحانه وتعالى هنا، وفي غيرها من المواضع المشابهة- هو «الطلب» غير الملزم، حتى يكون للإنسان مجال للاختيار بين الاستجابة للطلب، أو التأتى عليه، وهذا يشعر الإنسان بوجوده الذاتي، وبالمسئولية الملقاة عليه.. وعلى هذا يكون حسابه وجزاؤه، بالخير

^{٨٦٤} - التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤٤٨)

^{٨٦٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥١٩، بترقيم الشاملة آليا)

خييراً، وبالشّر شراً.. وذلك في كل أمر للإنسان فيه إرادة وعمل.. أما حين لا يكون لما يريد الله متعلّق بعمل العبد، فهي إرادة مطلقة نافذة..

فالإرادة في قوله سبحانه: «يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ».. إرادة خالصة لله، لا متعلّق للعباد بها، لأنّها تتعلّق بشرع الله الذي يشرعه للمسلمين، كما شرعه لعباده من قبل على يد أنبيائه ورسله.. وعلى هذا فهي إرادة نافذة.. لأنه لا متعلّق للعباد بشرع الأحكام، وإقامة حدودها. أما الإرادة في قوله تعالى: «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا» فهي إرادة طلب، ودعوة، متجهة إلى العباد، ولهم أن يستجيبوا لهذا الطلب وأن يلبّوا تلك الدعوة، أو يتوقّفوا.

فالله سبحانه، قد دعا عباده إلى التوبة، في آيات كثيرة.. فقال تعالى: «وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (٣١: النور) وقال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» (٨: التحريم). فمطلوب من العباد أن يتقدموا إلى الله بالتوبة، فإذا تابوا تاب الله عليهم.. كما يقول سبحانه: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ» (٢٥: الشورى) ويقول جل شأنه: «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ» (٨٢: طه).

وفي الإنسان نوازع تترع به إلى الهوى، وتدفعه إلى الخروج على الطريق المستقيم، الذي دعاه الله إليه.. وفي محيط الإنسان شياطين من الإنس والجن، توحى إليه بالشر، وتوسوس له بالسوء، فيلتقي ذلك مع أهوائه ونوازعه، وهنا يقع الصراع بين ما في قلبه من إيمان وتقوى، وبين هذه القوى المسلطة على إيمانه وتقواه.. فيكسب المعركة أو يخسرها، حسب بلائه فيها، وبذلك لها.

وبهذا يكون النصر محسوباً له، على حين تكون الهزيمة محمولة عليه.. وفي هذا يتفاوت الناس، ويختلفون منازل ودرجات عند الله، كلّ حسب عمله وبلائه.^{٨٦٦}

وقوله: «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ» أي: توبة تلم شعثكم، وتجمع متفرقكم، وتقرب بعيدكم. {وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ} أي: يميلون معها حيث مالت ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم، ويعبدون أهواءهم، من أصناف الكفرة والعاصين، المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم، فهؤلاء يريدون {أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا} أي: [أَنْ] تنحرفوا عن الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم والضالين.

يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلّها في امتثال أوامره، إلى مَنْ الشقاوة كلّها في اتباعه. فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم

^{٨٦٦} - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٧٦٦)

وفلاحكم وسعادتكم، وأن هؤلاء المتبعين لشهواتهم يأمرؤنكم بما فيه غاية الخسار والشقاء، فاختاروا لأنفسكم أولى الداعيين، وتخيروا أحسن الطريقتين.^{٨٦٧}

إن الله - سبحانه - يتلطف مع عباده فيبين لهم حكمة تشريعاته لهم، ويطلعهم على ما في المنهج الذي يريده لحياتهم من خير ويسر. إنه يكرمهم - سبحانه - وهو يرفعهم إلى هذا الأفق. الأفق الذي يحدثهم فيه، ليبين لهم حكمة ما يشرعه لهم وليقول لهم: إنه يريد: أن يبين لهم ..

«يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ» .. يريد الله ليكشف لكم عن حكمته ويريد لكم أن تتروا هذه الحكمة، وأن تتدبروها، وأن تقبلوا عليها مفتوحى الأعين والعقول والقلوب فهي ليست معميات ولا ألغازا وهي ليست تحكما لا علة له ولا غاية وأنتم أهل لإدراك حكمتها وأهل لبيان هذه الحكمة لكم .. وهو تكريم للإنسان، يدرك مداه من يحسون حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، فيدركون مدى هذا التلطف الكريم.

«وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» .. فهذا المنهج هو منهج الله الذي سنه للمؤمنين جميعا. وهو منهج ثابت في أصوله، موجد في مبادئه، مطرد في غاياته وأهدافه .. هو منهج العصبة المؤمنة من قبل ومن بعد. ومنهج الأمة الواحدة التي يجمعها موكب الإيمان على مدار القرون.

بذلك يجمع القرآن بين المهتدين إلى الله في كل زمان ومكان ويكشف عن وحدة منهج الله في كل زمان ومكان ويربط بين الجماعة المسلمة والموكب الإيماني الموصول، في الطريق اللاحب الطويل. وهي لفظة تشعر المسلم بحقيقة أصله وأمه ومنهجه وطريقه .. إنه من هذه الأمة المؤمنة بالله، تجمعها آصرة المنهج الإلهي، على اختلاف الزمان والمكان، واختلاف الأوطان والألوان وتربطها سنة الله المرسومة للمؤمنين في كل جيل، ومن كل قبيل.

«وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ» .. فهو - سبحانه - يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم، ليرحمكم ... ليأخذ بيدكم إلى التوبة من الزلل، والتوبة من المعصية. ليمهد لكم الطريق، ويعينكم على السير فيه ..

«وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» ... فعن العلم والحكمة تصدر هذه التشريعات. ومن العلم والحكمة تنجيء هذه التوجيهات. العلم بنفوسكم وأحوالكم. والعلم بما يصلح لكم وما يصلحكم. والحكمة في طبيعة المنهج وفي تطبيقاته على السواء ... «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا» .. وتكشف الآية الواحدة القصيرة عن حقيقة ما يريده الله للناس. بمنهجه وطريقته، وحقيقة ما يريده بهم الذين يتبعون الشهوات، ويحيدون عن منهج الله - وكل من يحيد عن منهج الله إنما يتبع الشهوات - فليس هنالك إلا منهج واحد هو الجد والاستقامة والالتزام، وكل ما عداه إن هو إلا

^{٨٦٧} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٧٥)

هو ي تتبع، وشهوة تطاع، وانحراف وفسوق وضلال. فماذا يريد الله بالناس، حين يبين لهم منهجه، ويشرع لهم سنته؟ إنه يريد أن يتوب عليهم. يريد أن يهديهم.

يريد أن يجنبهم المزالق. يريد أن يعينهم على التسامي في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة. وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات، ويزينون للناس منابع ومذاهب لم يأذن بها الله، ولم يشرعها لعباده؟ إنهم يريدون لهم أن يميلوا ميلا عظيما عن المنهج الراشد، والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم. وفي هذا الميدان الخاص الذي تواجهه الآيات السابقة: ميدان تنظيم الأسرة وتطهير المجتمع وتحديد الصورة النظيفة الوحيدة، التي يحب الله أن يلتقي عليها الرجال والنساء وتحريم ما عداها من الصور، وتبشيعها وتقبيحها في القلوب والعيون.. في هذا الميدان الخاص ما الذي يريده الله وما الذي يريده الذين يتبعون الشهوات؟

فأما ما يريده الله فقد بينته الآيات السابقة في السورة. وفيها إرادة التنظيم، وإرادة التطهير، وإرادة التيسير، وإرادة الخير بالجماعة المسلمة على كل حال.

وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال: ديني، أو أخلاقي، أو اجتماعي.. يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح، من أي لون كان. السعار المحموم الذي لا يقر معه قلب، ولا يسكن معه عصب، ولا يطمئن معه بيت، ولا يسلم معه عرض، ولا تقوم معه أسرة. يريدون أن يعود الآدميون قطعانا من البهائم، يتزو فيها الذكران على الإناث بلا ضابط إلا ضابط القوة أو الحيلة أو مطلق الوسيلة! كل هذا الدمار، وكل هذا الفساد، وكل هذا الشر باسم الحرية، وهي - في هذا الوضع - ليست سوى اسم آخر للشهوة والزوة! وهذا هو الميل العظيم الذي يحذر الله المؤمنين إياه، وهو يحذرهم ما يريده لهم الذين يتبعون الشهوات. وقد كانوا يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم إلى الجاهلية في هذا المجال الأخلاقي، الذي تفوقوا فيه وتفردوا بفعل المنهج الإلهي القويم النظيف. وهو ذاته ما تريده اليوم الأقلام الهابطة والأجهزة الموجهة لتحطيم ما بقي من الحواجز في المجتمع دون الانطلاق البهيمي، الذي لا عاصم منه، إلا منهج الله، حين تقره العصبية المؤمنة في الأرض إن شاء الله..^{٨٦٨}

٢٦. التحاكم إلى الطاغوت (مهما كان نوعه) :

قال تعالى: ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا

^{٨٦٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٩٦١)

قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) [النساء: ٦٠ - ٦٣]

يُنَكِّرُ اللَّهُ تعالى على مَنْ يَدْعِي الْإِيمَانَ بِاللَّهِ، وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُرِيدُ أَنْ يَتَحَاكَمَ فِي فَضْلِ الْخُصُومَاتِ إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ .

وَيَذُمُّ اللَّهُ تعالى الَّذِينَ يَعْدِلُونَ عَنْ شَرْعِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ الْبَاطِلِ (وَهُوَ الْمُرَادُّ هُنَا بِالطَّاعُوتِ)، وَقَدْ أَمَرُوا بِأَنْ يَكْفُرُوا بِهِ، وَبِحُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اتِّبَاعِهِ لِيُضِلَّهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَشَرْعِهِمْ وَهُدَى رَبِّهِمْ، وَيُعِيدَهُمْ عَنْهَا

وَإِذَا دُعِيَ هَؤُلَاءِ - الَّذِينَ يَدْعُونَ الْإِيمَانَ، ثُمَّ يُرِيدُونَ التَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاعُوتِ - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ لِلتَّحَاكُمِ لَدَيْهِ، وَفَقًّا لِمَا شَرَعَ اللَّهُ، اسْتَكْبَرُوا وَأَعْرَضُوا وَرَغِبُوا عَنْ حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ إِعْرَاضًا مُتَعَمِّدًا مِنْهُمْ .

فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ إِذَا سَافَقَتْهُمْ الْمَقَادِيرُ إِلَيْكَ فِي مَصَائِبَ تَحِلُّ بِهِمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، وَاحْتِاجُوا إِلَيْكَ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ جَاؤُوكَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكَ، وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ أَنََّّهُمْ مَا أَرَادُوا بِذَهَابِهِمْ إِلَى غَيْرِكَ، وَبِتَحَاكُمِهِمْ إِلَى أَعْدَائِكَ، إِلَّا الْمُدَارَةَ وَالْمُصَانَعَةَ (إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا)، لَا اعْتِقَادًا مِنْهُمْ بِصِحَّةِ تِلْكَ الْحُكُومَةِ .

وهذا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ هُمُ الْمُنَافِقُونَ، وَاللَّهُ وَحْدَهُ يَعْلَمُ مَبْلَغَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْحَقْدِ وَالْكِدِّ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ حَافِيَةٌ . ثُمَّ يَدْعُو اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ إِلَى مُعَامَلَتِهِمْ:

- أَوَّلًا: بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَعَدَمِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِمْ بِالْبَشَاشَةِ وَالتَّكْرِيمِ، وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْمُعَامَلَةِ يُثِيرُ فِي نَفْسِهِمُ الْهَوَاجِسَ وَالشُّكُوكَ وَالظُّنُونِ . - ثُمَّ بِالنُّصْحِ وَالتَّذْكِيرِ بِالْخَيْرِ، عَلَى وَجْهِ تَرْقُّ لَهُ قُلُوبُهُمْ، وَيَبْعَثُهُمْ عَلَى التَّأَمُّلِ فِيمَا يُلْقَى إِلَيْهِمْ مِنَ الْعِظَاتِ . - ثُمَّ بِالْقَوْلِ الْبَلِيغِ، الَّذِي يُؤَثِّرُ فِي نَفْسِهِمْ، كَالْتَّوَعُّدِ بِالْقَتْلِ، وَالِاسْتِئْصَالِ إِنْ ظَهَرَ مِنْهُمْ نِفَاقٌ، وَأَنْ يُخْبِرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِمَا فِي نَفْسِهِمْ

٨٦٩ ..

ما تكاد الآيات القرآنية الكريمة ترفع يدها الآخذة بمخاقق اليهود، وما يكاد اليهود يلتقطون أنفاسهم اللاهثة من تلك المطاردة العنيفة التي تلهب فيها آيات الكتاب الكريم ظهورهم بسيطا ملتهبه من الفضيحة والخزي - ما كان ذلك يحدث حتى تعود إليهم الآيات الكريمة مرة أخرى، فتعيد معهم سيرتها الأولى، حتى تنقطع أنفاسهم.. إنها تلتاقهم بعذاب أشبه بعذاب الآخرة، الذي يتبدل فيه المعذبون

جلودهم بجلود غيرها، كلما نضجت.. كما يقول الله تعالى: «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ» .

وهنا في هذه الآيات، يوضح الله اليهود ونفاقهم، إذ يجيئون إلى النبي في صورة المؤمنين به، كما أنهم مؤمنون بما في أيديهم من الكتب السماوية..

ثم هم مع هذا لا يرضون بالاحتكام إلى القرآن أو التوراة والإنجيل، وإنما يحتكمون إلى ما عندهم من ضلالات ومفتريات.. «يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ» وهو جمع الباطل والضلال.. «وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» إذ لا يجتمع إيمان بالله وبكتبه، مع الاطمئنان إلى الطاغوت والولاء له..!

إن هؤلاء المنافقين إنما يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.. وإنه إذا كانت أفواههم تردد كلمات الإيمان بالله، والولاء لرسوله، فإن قلوبهم منطوية على إيمان غير هذا الإيمان، وسرائرهم منعقدة على ولاء غير هذا الولاء.. إيمان بالجبّ، وولاء للطاغوت: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا» حيث يتصادم ظاهرهم مع باطنهم، ويغلب نفاقهم على إيمانهم، فيفرون من بين يدي هذه الدعوة التي يدعون فيها إلى الاحتكام إلى ما أنزل الله، وإلى ما يقضى به الرسول.

وقوله تعالى: «فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا» تندم هؤلاء المنافقين بما يجرّ عليهم النفاق من شر وشؤم. وأن عاقبة هذا الالتواء الذي تجرى عليه حياتهم إنما هو الخزي والخذلان.. وأنهم حين يحيق بهم مكرهم السيء، واحتكامهم إلى غير كتاب الله ورسول الله، يفزعون إلى الرسول بوجوه وقاح لا حياء فيها، ويحلفون - كذبا - ما أردنا فيما فعلنا من الاحتكام إلى غيرك إلّا معالجة الأمر على الوجه الذي نبغى به حسم الخلاف، والصلح بين المتخاصمين! وهذا عذر غير مقبول منهم، لأنهم لم يأخذوا طريقهم الذي سلكوه عن اجتهاد، وإنما كان عن خلاف متعمد للرسول، ومنابذة له. وقوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ» إشارة فاضحة لهؤلاء المنافقين، ممسكة بهم وهم متلبسون بنفاقهم.. وهذه الإشارة تكاد تكون يدا آخذة بناصية كل منافق من هؤلاء المنافقين، يجد كل منافق مسّها، ويستشعر اشتمالها على وجوده.

وقوله تعالى: «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ» دعوة للنبي الكريم بالإغضاء عنهم، وترك مماراتهم والجدل معهم.. وذلك هو سبيل النبي في موقفه من أهل الجدل والمراء، في كل حال يلتقى فيها مع أصحاب النفوس المريضة، والطبائع السقيمة، حيث ينصح له الله سبحانه بقوله: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» (١٩٩: الأعراف) .

وقوله تعالى: «وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا» استيفاء لرسالة الرسول، واستكمال لكمالها.. حيث لا تترك هؤلاء المرضى الذين يأبون أن يستطيعوا لدائهم، وأن يتناولوا ما يقدم لهم من دواء، بل إن واجب الرسالة أن تبالغ في النصح لهم، وألا يحجزها هذا الضلال الذي يتخبطون فيه عن

أن تسمعهم كلمات الله، وأن تشقّ طريقها إليهم من خلال هذا الضباب الكثيف المنعقد على بصائرهم، وبهذا تقوم الحجة عليهم، وتنقطع أسباب معاذيرهم.. «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ» (٤٢: الأنفال) وفي هذا ما فيه من رحمة الله، وما تحمل رسالة الإسلام من خير عميم للناس، تسوقه إليهم من كل وجه، وتلقاهم به في كل سبيل، حتى ولو كانوا على طريق الضالين، المعاندين.. إنها رحمة الله، تتلمس طريقها إلى كل قلب، وترسل شعاعها إلى كل إنسان.. «فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا» (١٠٤: الأنعام).^{٨٧٠}

يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين. {الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ} بما جاء به الرسول وبما قبله، ومع هذا {يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ} وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت.

والحال أنهم {قد أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ} فكيف يجتمع هذا والإيمان؟ فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في ذلك. وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال: {وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} عن الحق.

{فَكَيْفَ} يكون حال هؤلاء الضالين {إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} من المعاصي ومنها تحكيم الطاغوت؟!

{ثُمَّ جَاءُوكَ} معتردين لما صدر منهم، ويقولون: {إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} أي: ما قصدنا في ذلك إلا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم، وهم كذبة في ذلك. فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله {وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} .

ولهذا قال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} أي: من النفاق والقصد السيئ. {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} أي: لا تبال بهم ولا تقابلهم على ما فعلوه واقترفوه. {وَعَظَّمْهُمْ} أي: بين لهم حكم الله تعالى مع الترغيب في الانقياد لله، والترهيب من تركه {وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} أي: انصحهم سرا بينك وبينهم، فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالغ في زجرهم وقمعهم عما كانوا عليه، وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي وإن أعرض عنه فإنه ينصح سرًا، ويبالغ في وعظه بما يظن حصول المقصود به.^{٨٧١}

إن هذا التصوير لهذه المجموعة التي تصفها النصوص، يوحي بأن هذا كان في أوائل العهد بالهجرة. يوم كان للنفاق صولة وكان لليهود - الذين يتبادلون التعاون مع المنافقين - قوة ..

وهؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله - إلى الطاغوت - قد يكونون جماعة من المنافقين - كما صرح بوصفهم في الآية الثانية من هذه المجموعة - وقد يكونون جماعة من اليهود

^{٨٧٠} - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٢٣)

^{٨٧١} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٨٤)

الذين كانوا يدعون - حين تحدّ لهم أقضية مع بعضهم البعض أو أهل المدينة - إلى التحاكم إلى كتاب الله فيها .. التوراة أحيانا، وإلى حكم الرسول أحيانا - كما وقع في بعض الأقضية - فيرفضون ويتحاكمون إلى العرف الجاهلي الذي كان سائدا ..

ولكننا نرجح الفرض الأول لقوله فيهم: «يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ» .. واليهود لم يكونوا يسلمون أو يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول. إنما كان المنافقون هم الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله (كما هو مقتضى العقيدة الإسلامية من الإيمان بالرسول كلهم).

وهذا لم يكن يقع إلا في السنوات الأولى للهجرة. قبل أن تخضع شوكة اليهود في بني قريظة وفي خيبر. وقبل أن يتضاءل شأن المنافقين بانتهاء شأن اليهود في المدينة! على أية حال نحن نجد في هذه المجموعة من الآيات، تحديدا كاملا دقيقا حاسما لشرط الإيمان وحد الإسلام، ونجد شهادة من الله بعدم إيمان الذين «يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ» «وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» كما نجد قسما من الله سبحانه - بذاته العلية - أنهم لا يدخلون في الإيمان ولا يحسبون مؤمنين حتى يحكموا الرسول - ﷺ - في أقضيتهم. ثم يطيعوا حكمه، وينفذوا قضاءه. طاعة الرضى، وتنفيذ الارتياح القلي الذي هو التسليم، لا عجزا واضطارا. ولكن طمأنينة وارتضاء ..

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ. يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ - وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ - وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا » ..

ألم تر إلى هذا العجب العاجب .. قوم .. يزعمون .. الإيمان. ثم يهدمون هذا الزعم في آن؟! قوم «يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ». ثم لا يتحاكمون إلى ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك؟ إنما يريدون أن يتحاكموا إلى شيء آخر، وإلى منهج آخر، وإلى حكم آخر .. يريدون أن يتحاكموا إلى .. الطاغوت .. الذي لا يستمد مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك. ولا ضابط له ولا ميزان، مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك .. ومن ثم فهو .. طاغوت .. طاغوت بادعائه خاصية من خواص الألوهية. وطاغوت بأنه لا يقف عند ميزان مضبوط أيضا!

وهم لا يفعلون هذا عن جهل، ولا عن ظن .. إنما هم يعلمون يقينا ويعرفون تماما، أن هذا الطاغوت محرم التحاكم إليه: «وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» .. فليس في الأمر جهالة ولا ظن. بل هو العمد والقصد. ومن ثم لا يستقيم ذلك الزعم. زعم أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك! إنما هو الشيطان الذي يريد بهم الضلال الذي لا يرجى منه مآب ..

«وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا» .. فهذه هي العلة الكامنة وراء إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت. وهذا هو الدافع الذي يدفعهم إلى الخروج من حد الإيمان وشرطه بإرادتهم التحاكم إلى

الطاغوت! هذا هو الدافع يكشفه لهم. لعلهم يتنبهون فيرجعوا. ويكشفه للجماعة المسلمة، لتعرف من يحرك هؤلاء ويقف وراءهم كذلك.

ويعضي السياق في وصف حالهم إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله إلى الرسول وما أنزل من قبله.. ذلك الذي يزعمون أنهم آمنوا به: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ، رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا». يا سبحان الله! إن النفاق يأبى إلا أن يكشف نفسه! ويأبى إلا أن يناقض بديهيات المنطق الفطري.. وإلا ما كان نفاقا...

إن المقتضى الفطري البديهي للإيمان، أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به، وإلى من آمن به. فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل، وبالرسول وما أنزل إليه. ثم دعي إلى هذا الذي آمن به، ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية. فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية. ويكشف عن النفاق. وينبئ عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان! وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم الله - سبحانه - أولئك الذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله. ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله. بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدودا! ثم يعرض مظهرًا من مظاهر النفاق في سلوكهم حين يقعون في ورطة أو كارثة بسبب عدم تلييتهم للدعوة إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أو بسبب ميلهم إلى التحاكم إلى الطاغوت. ومعاذيرهم عند ذلك. وهي معاذير النفاق: «فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ - بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ - ثُمَّ جَاؤُكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ: إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا»..

وهذه المصيبة قد تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم في وسط الجماعة المسلمة - يومذاك - حيث يصبحون معرضين للنبد والمقاطعة والازدراء في الوسط المسلم. فما يطبق المجتمع المسلم أن يرى من بينه ناسا يزعمون أنهم آمنوا بالله وما أنزل، وبالرسول وما أنزل إليه ثم يميلون إلى التحاكم لغير شريعة الله أو يصدون حين يدعون إلى التحاكم إليها.. إنما يقبل مثل هذا في مجتمع لا إسلام له ولا إيمان. وكل ما له من الإيمان زعم هؤلاء وكل ما له من الإسلام دعوى وأسماء! أو قد تصيبهم المصيبة من ظلم يقع بهم نتيجة التحاكم إلى غير نظام الله العادل ويعودون بالخيبة والندامة من الاحتكام إلى الطاغوت في قضية من قضاياهم. أو قد تصيبهم المصيبة ابتلاء من الله لهم. لعلهم يتفكرون ويهتدون..

وأيا ما كان سبب المصيبة فالنص القرآني، يسأل مستنكرا: فكيف يكون الحال حينئذ! كيف يعودون إلى الرسول - ﷺ - : «يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا»...

إنها حال مخزية.. حين يعودون شاعرين بما فعلوا... غير قادرين على مواجهة الرسول - ﷺ - بحقيقة دوافعهم. وفي الوقت ذاته يخلفون كاذبين: أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت - وقد يكون هنا هو عرف الجاهلية - إلا رغبة في الإحسان والتوفيق! وهي دائما دعوى كل من يحدون عن الاحتكام إلى

منهج الله وشريعته: أنهم يريدون اتقاء الإشكالات والمتاعب والمصاعب، التي تنشأ من الاحتكام إلى شريعة الله! ويريدون التوفيق بين العناصر المختلفة والاتجاهات المختلفة والعقائد المختلفة.. إنها حجة الذين يزعمون الإيمان - وهم غير مؤمنين - وحجة المنافقين المتلويين.. هي دائما وفي كل حين! والله - سبحانه - يكشف عنهم هذا الرداء المستعار. ويخبر رسوله - ﷺ -، أنه يعلم حقيقة ما تنطوي عليه جوارحهم. ومع هذا يوجهه إلى أخذهم بالرفق، والنصح لهم بالكف عن هذا الالتواء: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ. فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ، وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا».. أولئك الذين يخفون حقيقة نواياهم وبواعثهم ويحتجون بهذه الحجج، ويعتذرون بهذه المعاذير. والله يعلم خبايا الضمائر ومكنونات الصدور.. ولكن السياسة التي كانت متبعة - في ذلك الوقت - مع المنافقين كانت هي الإغضاء عنهم، وأخذهم بالرفق، واطراد المعظة والتعليم.. والتعبير العجيب: «وَقُلْ لَهُمْ.. فِي أَنْفُسِهِمْ.. قَوْلًا بَلِيغًا». تعبير مصور.. كأنما القول يودع مباشرة في الأنفس، ويستقر مباشرة في القلوب. وهو يرغبهم في العودة والتوبة والاستقامة والاطمئنان إلى كنف الله وكنف رسوله.. بعد كل ما بدا منهم من الميل إلى الاحتكام إلى الطاغوت ومن الصدود عن الرسول - ﷺ - حين يدعون إلى التحاكم إلى الله والرسول.. فالتوبة بإهما مفتوح، والعودة إلى الله لم يفت أوأما بعد واستغفارهم الله من الذنب، واستغفار الرسول لهم، فيه القبول! ^{٨٧٢}

وقال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (٢٥٧) سورة البقرة

يأمر الله تعالى المؤمنين بالآل يُكْرِهُوا أحداً على الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، لأنَّ الْإِسْلَامَ بَيِّنٌ وَاضِحٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُكْرَهَ أَحَدٌ عَلَى الدُّخُولِ فِيهِ. وَالْإِيمَانُ إِذْعَانٌ وَخُضُوعٌ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ بِالْإِزْوَاجِ وَالْإِكْرَاهِ. وَإِنَّمَا يَكُونُ بِالْحُجَّةِ وَالذَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ، وَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ فِي هَذَا الدِّينِ الرُّشْدَ وَالصَّلَاحَ، وَأَنَّ مَا خَالَفَهُ مِنَ الْمَلَلِ الْأُخْرَى غَيٌّ وَضَلَالٌ.

فَمَنْ كَفَرَ بِالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ مِنْ عِبَادَةٍ كُلِّ مَا يُعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ (أَيِّ وَمَنْ كَفَرَ بِمَا تَكُونُ عِبَادَتُهُ وَالْإِيمَانُ بِهِ سَبَباً فِي الطُّغْيَانِ وَالْخُرُوجِ عَنِ الْحَقِّ مِنْ عِبَادَةِ مَخْلُوقٍ) فَقَدْ ثَبَتَ أَمْرُهُ، وَاسْتَقَامَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُتْلَى، وَأَمْسَكَ بِأَوْثَقِ عُرَى النَّجَاةِ الَّتِي تَمْنَعُهُ مِنَ التَّرْدِي فِي مَهَاوِي

^{٨٧٢} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٠٣٧)

الضَّلَالَاتِ . وَاللَّهُ سَمِيعٌ لَأَقْوَالٍ مَنْ يَدَّعِي الْكُفْرَ بِالطَّاعُوتِ، وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ . عَلِيمٌ بِمَا يُكِنُّهُ قَلْبُهُ مِمَّا يُصَدِّقُ هَذَا أَوْ يُكَذِّبُهُ .

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ، فَيُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالشَّكِّ وَالرَّيْبِ إِلَى نُورِ الْحَقِّ الْوَاضِحِ . وَالْمُؤْمِنُ لَا وَلِيَّ لَهُ، وَلَا سُلْطَانٌ لِأَحَدٍ عَلَى اعْتِقَادِهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى . أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَلِيُّهُمْ الشَّيْطَانُ، يُزَيِّنُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ، وَيُخْرِجُهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَنُورِهِ، إِلَى الْكُفْرِ وَظُلُمَاتِهِ، وَيُؤَدِّي بِهِمْ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ لِيَبْقُوا فِيهَا خَالِدِينَ أَبَدًا . وَالنُّورُ هُوَ الْحَقُّ، وَالْحَقُّ وَاحِدٌ، أَمَّا الظُّلُمَاتُ وَهِيَ الْكُفْرُ فَهِيَ أَجْنَسٌ^{٨٧٣} ..

الدين في صميمه جذوة من الحق، تسكن ضمير المؤمن، فتكون النور الهادي له، والقوة الموجهة لأفعاله وتصرفاته.

ومن هنا كان الدين عقيدة ينعقد عليها الضمير، فلا يعرف أحد كنه ما انطوى عليه الضمير من الدين.. إنه سرٌّ بين الدين وصاحبه.. لا سبيل لأحد إليه، ولا سلطان لمخلوق عليه. ومن هنا أيضا لم يكن دينا ذلك الدين - إن سُمِّي دينا - الذي يجيء إلى الإنسان أو يجيء إليه الإنسان قسرا من غير اقتناع أو رضى.

ولهذا كانت دعوات الرسل إلى دين الله محملة بالشواهد والآيات التي تشهد بصدقها، وتحدث بخبرها وما تحمل إلى الناس من هدى ونور..، حتى يكون الإيمان عن نظر واقتناع.

وإذا كانت الرسائل السماوية التي سبقت الإسلام قد جاءت إلى الناس بالآيات القاهرة، وبالمعجزات المذهلة، التي تقهر العقل وتتعامل مع الحواس، حيث كان العقل يومئذ غير أهل لأن يفكر ويقدر - فإن رسالة الإسلام، وقد التقت بالإنسانية في رشدتها، وبالعقل في نضجها واكتماله - قد جاءت بآياتها ومعجزاتها في مواجهة العقل، تحاجّه بالمنطق، وتجادله بالحكمة، وتأخذه بالموعظة الحسنة، حتى إذا اطمأن الإنسان ووجد برد السكينة في صدره آمن عن يقين، ودان لله عن رضى! وهذا هو الدين الذي يعيش مع الإنسان، ما عاش معه عقله، وسلم له تفكيره.

وقوله تعالى: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» تقرير لحقيقة من أهم الحقائق العاملة في الحياة، ومن أبرز السمات التي قامت عليها دعوة الإسلام.. «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ».. فهو نفى مطلق لكل صور الإكراه، المادية والمعنوية، التي تختل الناس عن الحق، وتحملهم حملا على معتقد لم يعتقدوه، ولم يجدوا من جهته مقنعا!.

وليس هذا شأن الدين وحده، بل هو الشأن أو ما ينبغى أن يكون الشأن في حياة الإنسان كلها، لا يتلبس بأمر إلا بعد أن ينظر فيه، ويطمئن إليه، ويرضى عنه، فيقدم أو يحجم عن هدى وبصيرة، وهذا هو ملاك النجاح في كل أمر، ومنطلق الملكات الإنسانية كلها في وثاب وقوة، إلى أنيل؟؟؟

^{٨٧٣} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٦٣، بترقيم الشاملة آليا)

الغايات وأعظمها.

إن تحرير ضمير الفرد من الضلال والعمى، وفك عقله من الضيق والإظلام، لا يكون إلا بتحرير إرادة الإنسان وإطلاقها من كل قهر أو قسر.. وإنه لن تصحَّ إنسانية الإنسان، ولن يكتمل وجوده، إلا بالضمير الحر، والعقل المتحرر.. وإنه لا فرق بين الأحرار والعبيد وبين الإنسان وغير الإنسان إلا في تلك المشاعر التي يجدها الإنسان في كيانه من طاقات الحرية والتحرر، فيمتلك بها أمر نفسه، ويكتب بها خطَّ مسيره ومصيره، كيف شاء، وعلى أي وجه أراد..

وفي الواقع أن ركوب الخطأ عن رأى الإنسان وتقديره، غير المدخول عليه بإكراه أو خداع، أو تضليل - هو خير من الانقياد للصواب عن قهر وقسر، وعن تمويه وتلبيس.. إذ الأول يسير ومعه عقله، وتفكيره، وليس ببعيد أن يلتقى يوما بالصواب الذي ضل عنه.. أما الآخر، فإنه يسير بلا عقل ولا تفكير..

يسير بعقل غيره، وبتفكير غيره، وليس ببعيد أن يلتفت يوما فلا يجد من أعاره عقله وتفكيره، فإذا هو كتلة جامدة، أو تمثال من لحم ودم، لا حياة فيه، ولا معقول له!.. إن الأول مبصر يتخبط في الظلام، ولكنه إذا رأى النور، أبصر، واهتدى واستقام على سواء السبيل..

أما الآخر.. فهو أعمى يقاد لكل يد تمتد إليه.. وكما انقاد ليد من ينصح له ويهديه، فإنه لن يمتنع عن الانقياد لمن يمكر به، ويضله.. وهل يملك الأعمى أن يأخذ طريقا غير طريق من يقوده، ويمسك بيده؟ وقوله تعالى: «قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» هو ليس قيذا واردا على إطلاق الحرية في الدين، وإنما هو تقرير لبيان الحال من أمر الدعوة الإسلامية، وهو أنه يجب ألا يطوف حول دعوتها طائف من القهر والقسر، إذ قد استبانت معالمها، ووضحت حدودها، وإن الذي ينظر في مقرراتها، وفي شواهدا وآياتها ثم لا يجد الهدى، ولا يقبل عليه، فلا سبيل إلى هداها، ولا جدوى من إيمانه! إنه في حساب الناس.. لا شىء!.

قوله تعالى: «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا» . «الطاغوت» شىء مخيف، مفزع، أشبه بالشيطان.. لا تقع عليه العين، وإنما يصوره الوهم من هذا الاسم الذي يطلق عليه «الطاغوت»، ويشكله من هذه الأحرف المتنافرة التي يتشكل منها اسمه.. الطاء، والغين، والتاء، يجمعها كيان واحد.

وإن الذي يحترم عقله، ويكرم إنسانيته ليأبى أن ينقاد للوهم، ويتعبد لآلهة من مواليد الباطل والضلال، إنه يجرى وراء سراب، ويتعلق بما هو أوهى من خيوط العناكب!.

والموقف الصحيح الذي ينبغى أن يأخذه الإنسان العاقل الرشيد، هو أن يعلو بعقله فوق هذه الأوهام، ويرتفع بإنسانيته عن هذا الهوان، وأن يجعل ولاءه وخضوعه لمن بيده ملكوت السموات

والأرض، رب كل شيء، وخالق كل شيء.. وبهذا يمسك الإنسان بالسبب الأقوى، ويعلق بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وبهذا تكتب له النجاة والسلامة.

ومنذ يدخل الإنسان ساحة الإيمان ويسلم وجهه لله وحده، وهو في ضمانه الله، يتولاه برحمته وهدايته وتوفيقه، ويخرجه من ظلمة الضلال إلى نور الحق، وإذا هو على نور من ربه «وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ» (٤٠: النور).

أما حين يعطى المرء وجوده للطاغوت، ويسلم إليه زمامه، فهو في ضمانه هذا الطاغوت.. أعنى في ضمانه الباطل والضلال.. فانظر إلى أين يقاد من كان قائده الباطل وحاديه الضلال؟ إنه يخرج من نور إلى الظلمات، إذ يفسد عليه تلك الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فيطمس عليها في كيانه، فإذا هو أعمى يتخبط في ظلام، ويقاد بيد الضلال إلى كل مضلة وكل مهلكة.

وانظر إلى كلمة «الطاغوت» مرة أخرى، وقد جاءت مسندة إلى الفرد في الآية السابقة: «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ»، ثم جاءت مسندة إلى الجمع في هذه الآية: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ» دون أن تتغير صورتها في الحالتين، بل ظلت هكذا: «الطاغوت».. وهذا ما يؤيد ما ذهبنا إليه من أنه لا مشخص لهذه الكلمة، وإنما هي اسم جامع لكل باطل، وكل ضلال، وكل غواية، وهو قادر على أن يحمل في كيانه الضخم كل هذه المخازي والضلالات.. إنه «الطاغوت»!!.. بناء ضخم شامخ من الوهم والضلال.^{٨٧٤}

يجبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبينت أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، فالموثق إذا نظر أدنى نظر إليه أثره واختاره، وأما من كان سيئ القصد فاسد الإرادة، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويصير الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس لله حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمكره ليس إيمانه صحيحاً، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف قصده اتباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم تتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص أخرى، ولكن يستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو قول كثير من العلماء، فمن يكفر بالطاغوت فيترك عبادة ما سوى الله وطاعة الشيطان، ويؤمن بالله إيماناً تاماً أوجب له عبادة ربه وطاعته {فقد استمسك بالعروة الوثقى} أي: بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، وكان المتمسك به على ثقة من أمره، لكونه استمسك بالعروة الوثقى التي {لا انفصام لها} وأما من عكس القضية فكفر بالله وآمن

^{٨٧٤} - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٣١٨)

بالطاغوت، فقد أطلق هذه العروة الوثقى التي بها العصمة والنجاة، واستمسك بكل باطل مآله إلى الجحيم {والله سميع عليم} فيجازي كلا منهما بحسب ما علمه منهم من الخير والشر، وهذا هو الغاية لمن استمسك بالعروة الوثقى ولمن لم يستمسك بها.

ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك فقال: {الله ولي الذين آمنوا} وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا ييغون عنه بدلا ولا يشركون به أحدا، قد اتخذوه حبيبا ووليا، ووالوا أوليائه وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومنّ عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور {والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت} فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله وليا ووالوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلطهم عليهم عقوبة لهم فكانوا يؤذونهم إلى المعاصي أزا، ويزعجونهم إلى الشر إزعاجا، فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأوليائه في دار الحسرة، فلهذا قال تعالى: {أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} .^{٨٧٥}

إن قضية العقيدة - كما جاء بها هذا الدين - قضية اقتناع بعد البيان والإدراك وليست قضية إكراه وغصب وإجبار. ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته. يخاطب العقل المفكر، والبداهة الناطقة، ويخاطب الوجدان المنفعل، كما يخاطب الفطرة المستكنة. يخاطب الكيان البشري كله، والإدراك البشري بكل جوانبه في غير قهر حتى بالخارقة المادية التي قد تلجى مشاهدتها إلقاء إلى الإذعان، ولكن وعيه لا يتدبرها وإدراكه لا يتعقلها لأنها فوق الوعي والإدراك.

وإذا كان هذا الدين لا يواجه الحس البشري بالخارقة المادية القاهرة، فهو من باب أولى لا يواجهه بالقوة والإكراه ليعتقن هذا الدين تحت تأثير التهديد أو مزاولة الضغط القاهر والإكراه بلا بيان ولا إقناع ولا اقتناع.

وكانت المسيحية - آخر الديانات قبل الإسلام - قد فرضت فرضا بالحديد والنار ووسائل التعذيب والقمع التي زاولتها الدولة الرومانية. بمجرد دخول الإمبراطور قسطنطين في المسيحية. بنفس الوحشية والقسوة التي زاولتها الدولة الرومانية من قبل ضد المسيحيين القلائل من رعاياها الذين اعتنقوا المسيحية اقتناعا وحباً! ولم تقتصر وسائل القمع والقهر على الذين لم يدخلوا في المسيحية بل إنها ظلت تتناول في ضراوة المسيحيين أنفسهم الذين لم يدخلوا في مذهب الدولة وخالفوها في بعض

^{٨٧٥} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١١١)

الاعتقاد بطبيعة المسيح! فلما جاء الإسلام عقب ذلك جاء يعلن - في أول ما يعلن - هذا المبدأ العظيم الكبير: «لا إكراه في الدين. قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» ..

وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحمله تبعه عمله وحساب نفسه .. وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني .. التحرر الذي تنكره على الإنسان في القرن العشرين مذاهب معتسفة ونظم مذلة لا تسمح لهذا الكائن الذي كرمه الله - باختياره لعقيدته - أن ينطوي ضميره على تصور للحياة ونظمها غير ما تمليه عليه الدولة بشئ أجهزتها التوجيهية، وما تمليه عليه بعد ذلك بقوانينها وأوضاعها فإما أن يعتنق مذهب الدولة هذا - وهو يحرمه من الإيمان بإله للكون يصرف هذا الكون - وإما أن يتعرض للموت بشئ الوسائل والأسباب! إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق «الإنسان» التي ثبتت له بها وصف «إنسان». فالذي يسلب إنسانا حرية الاعتقاد، إنما يسلبه إنسانيته ابتداء .. ومع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة، والأمن من الأذى والفتنة .. وإلا فهي حرية بالاسم لا مدلول لها في واقع الحياة.

والإسلام - وهو أرقى تصور للوجود وللحياة، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مرأى - هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين ..

ككيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المعتسفة وهي تفرض فرضا بسلطان الدولة ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة؟! والتعبير هنا يرد في صورة النفي المطلق: «لا إكراه في الدين» .. نفي الجنس كما يقول النحويون .. أي نفي جنس الإكراه. نفي كونه ابتداء. فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع. وليس مجرد نفي عن مزاولته. والنهي في صورة النفي - والنفي للجنس - أعمق إيقاعا وآكد دلالة.

ولا يزيد السياق على أن يلمس الضمير البشري لمسة توقظه، وتشوقه إلى الهدى، وتهديه إلى الطريق وتبين حقيقة الإيمان التي أعلن أنها أصبحت واضحة وهو يقول: «قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» .. فالإيمان هو الرشد الذي ينبغي للإنسان أن يتوخاه ويحرص عليه. والكفر هو الغي الذي ينبغي للإنسان أن ينفر منه ويتقي أن يوصم به.

والأمر كذلك فعلا. فما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان، وما تمنحه للإدراك البشري من تصور ناصع واضح، وما تمنحه للقلب البشري من طمأنينة وسلام، وما تثيره في النفس البشرية من اهتمامات رفيعة ومشاعر نظيفة، وما تحققه في المجتمع الإنساني من نظام سليم قويم دافع إلى تنمية الحياة وترقية الحياة .. ما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان على هذا النحو حتى يجد فيها الرشد الذي لا يرفضه إلا سفيهه، يترك

الرشد إلى الغي، ويدع الهدى إلى الضلال، ويؤثر التخبط والقلق والهبوط والضالة على الطمأنينة والسلام والرفعة والاستعلاء!

ثم يزيد حقيقة الإيمان إيضاحاً وتحديداً وبياناً: «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا».. إن الكفر ينبغي أن يوجه إلى ما يستحق الكفر، وهو «الطاغوت». وإن الإيمان يجب أن يتجه إلى من يجدر الإيمان به وهو «الله».

والطاغوت صيغة من الطغيان، تفيد كل ما يطغى على الوعي، ويجور على الحق، ويتجاوز الحدود التي رسمها الله للعباد، ولا يكون له ضابط من العقيدة في الله، ومن الشريعة التي يسنها الله، ومنه كل منهج غير مستمد من الله، وكل تصور أو وضع أو أدب أو تقليد لا يستمد من الله. فمن يكفر بهذا كله في كل صورة من صورته ويؤمن بالله وحده ويستمد من الله وحده فقد نجح.. وتتمثل نجاته في استمساكه بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

وهنا نجدنا أمام صورة حسية لحقيقة شعورية، ولحقيقة معنوية.. إن الإيمان بالله عروة وثيقة لا تنفصم أبداً.. إنها متينة لا تنقطع.. ولا يضل الممسك بها طريق النجاة.. إنها موصولة بمالك الهلاك والنجاة.. والإيمان في حقيقته اهتداء إلى الحقيقة الأولى التي تقوم بها سائر الحقائق في هذا الوجود.. حقيقة الله.. واهتداء إلى حقيقة الناموس الذي سنه الله لهذا الوجود، وقام به هذا الوجود. والذي يمسك بعروته يمضي على هدى إلى ربه فلا يرتطم ولا يتخلف ولا تتفرق به السبل ولا يذهب به الشرود والضلال. «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».. يسمع منطق الألسنة، ويعلم مكنون القلوب. فالؤمن الموصول به لا ييخس ولا يظلم ولا يخيب.

ثم يمضي السياق يصور في مشهد حسي حي متحرك طريق الهدى وطريق الضلال وكيف يكون الهدى وكيف يكون الضلال.. يصور كيف يأخذ الله - ولي الذين آمنوا - بأيديهم، فيخرجهم من الظلمات إلى النور. بينما الطواغيت - أولياء الذين كفروا - تأخذ بأيديهم فتخرجهم من النور إلى الظلمات! إنه مشهد عجيب حي موح. والخيال يتبع هؤلاء وهؤلاء، جيئة من هنا وذهاباً من هناك. بدلاً من التعبير الذهني المجرد، الذي لا يحرك خيالا، ولا يلمس حساً، ولا يستجيش وجداناً، ولا يخاطب إلا الذهن بالمعاني والألفاظ.

فإذا أردنا أن ندرك فضل طريقة التصوير القرآنية، فلنحاول أن نضع في مكان هذا المشهد الحي تعبيراً ذهنيّاً أياً كان. لنقل مثلاً: الله ولي الذين آمنوا يهديهم إلى الإيمان. والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يقودونهم إلى الكفران.. إن التعبير يموت بين أيدينا، ويفقد ما فيه من حرارة وحركة وإيقاع! ^{٨٧٦}.

^{٨٧٦} - يراجع بتوسع فصل: «طريقة القرآن» في كتاب: «التصوير الفني في القرآن».. «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

وإلى جانب التعبير المصور الحي الموحى نلتقي بدقة التعبير عن الحقيقة: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ» .. إن الإيمان نور .. نور واحد في طبيعته وحقيقته .. وإن الكفر ظلمات .. ظلمات متعددة متنوعة. ولكنها كلها ظلمات.

وما من حقيقة أصدق ولا أدق من التعبير عن الإيمان بالنور، والتعبير عن الكفر بالظلمة. إن الإيمان نور يشرق به كيان المؤمن أول ما ينبثق في ضميره. تشرق به روحه فتشف وتصفو وتشع من حولها نورا ووضاء ووضوحا .. نور يكشف حقائق الأشياء وحقائق القيم وحقائق التصورات، فيراها قلب المؤمن واضحة بغير غش، بينة بغير لبس، مستقرة في مواضعها بغير أرجحة فيأخذ منها ما يأخذ ويدع منها ما يدع في هودة وطمأنينة وثقة وقرار لا أرجحة فيه .. نور يكشف الطريق إلى الناموس الكوني فيطابق المؤمن بين حركته وحركة الناموس الكوني من حوله ومن خلاله ويمضي في طريقه إلى الله هينا لينا لا يعتسف ولا يصطدم بالتواءات، ولا يخط هنا وهناك. فالطريق في فطرته مكشوف معروف.

وهو نور واحد يهدي إلى طريق واحد. فأما ضلال الكفر فظلمات شتى متنوعة .. ظلمة الهوى والشهوة.

وظلمة الشرود والتهيه. وظلمة الكبر والطغيان. وظلمة الضعف والذلة. وظلمة الرياء والنفاق. وظلمة الطمع والسعر. وظلمة الشك والقلق ... وظلمات شتى لا يأخذها الحصر تتجمع كلها عند الشرود عن طريق الله، والتلقي من غير الله، والاحتكام لغير منهج الله .. وما يترك الإنسان نور الله الواحد الذي لا يتعدد. نور الحق الواحد الذي لا يتلبس. حتى يدخل في الظلمات من شتى الأنواع وشتى الأصناف .. وكلها ظلمات !!

والعاقبة هي اللاتمة بأصحاب الظلمات: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» .. وإذ لم يهتدوا بالنور، فليخلدوا إذن في النار! إن الحق واحد لا يتعدد والضلال ألوان وأنماط .. فماذا بعد الحق إلا الضلال؟^{٨٧٧}

٢٧. التقدم على الله ورسوله ﷺ بقول أو فعل :

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَمِيعٌ عَلِيمٌ } (١) سورة الحجرات

^{٨٧٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٥٤٠)

يُؤدِّبُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُعَلِّمُهُمْ أَصُولَ مُخَاطَبَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَالتَّعَامُلِ مَعَهُ، وَتَوْفِيَّتِهِ حَقَّهُ مِنَ التَّوْقِيرِ وَالاحْتِرَامِ. فَيَقُولُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ: لَا تُسْرِعُوا فِي الْقَضَاءِ فِي أَمْرٍ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ لَكُمْ فِيهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَكُونُوا تَبْعًا لِقَضَائِهِمَا وَأَمْرِهِمَا، وَلَا تَتَكَلَّمُوا فِي أَمْرٍ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الرَّسُولُ عَلَى الْكَلَامِ فِيهِ، وَلَا تَفْعَلُوا فِعْلًا قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَهُ الرَّسُولُ، وَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، فَإِنَّهُ سَمِيعٌ لِمَا تَقُولُونَ، عَلِيمٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ..^{٨٧٨}

التقديم بين يدي الله ورسوله، هو السبق بقطع الأمر دونهما، وبعيدا عن الحكم الذي يقرره الله سبحانه وتعالى لهم في كتابه، وسنة رسوله..

وفي الآية الكريمة عتاب للمؤمنين، الذي لغطوا بما لغطوا به في صلح الحديبية، وهو في الوقت نفسه تأديب عام لهم، وإقامتهم بالمكان الذي ينبغي أن يكونوا فيه من أمر الله ورسوله.. فإذا قضى الله ورسوله أمرا، لم يكن لمؤمن بالله ورسوله خيار في هذا الأمر.. فإما المتابعة في ولاء ورضا وغبطة، وإما حلّ لعقد الإيمان الذي عقده مع الله ورسوله.. والله سبحانه وتعالى يقول: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا» .

فقوله تعالى: «لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» أي لا يكن لكم أمر تنفردون به دون أمر الله ورسوله، فلا تقطعوا أيها المؤمنون أمرا يقوم على خلاف ما أمر به الله ورسوله. وقوله تعالى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ» أي استقيموا على تقوى الله، بطاعته وطاعة رسوله، وامثال أمره، ومتابعة رسوله.. وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» أي يسمع ما تقولون، ويعلم ما لا تقولون مما تخفونه في صدوركم.. فيجازيكم بما كان منكم من حسن أو سوء..^{٨٧٩}

هذا متضمن للأدب، مع الله تعالى، ومع رسول الله ﷺ، والتعظيم له، واحترامه، وإكرامه، فأمر [الله] عباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان، بالله وبرسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين، خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ، في جميع أمورهم، و [أن] لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا، حتى يقول، ولا يأمر، حتى يأمر، فإن هذا، حقيقة الأدب الواجب، مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته، تفوته السعادة الأبدية، والنعيم السرمدي، وفي هذا، النهي [الشديد] عن تقديم قول غير الرسول ﷺ، على قوله، فإنه متى استبان سنة رسول الله ﷺ، ووجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كائن ما كان .

ثم أمر الله بتقواه عموماً، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخشى عقاب الله.

^{٨٧٨} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٩٢، بترقيم الشاملة آليا)

^{٨٧٩} - التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤٣٣)

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ} أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات، {عَلِيمٌ} بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات .

وفي ذكر الاسمين الكريمين -بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والأمر بتقواه- حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامتثال .^{٨٨٠} يا أيها الذين آمنوا، لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحا، لا في خاصة أنفسكم، ولا في أمور الحياة من حولكم. ولا تقولوا في أمر قبل قول الله فيه على لسان رسوله، ولا تقضوا في أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله وقول رسوله.

قال قتادة: ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون: لو أنزل في كذا وكذا. لو صح كذا. فكره الله تعالى ذلك. وقال العوفي: نھوا أن يتكلموا بين يديه. وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله - ﷺ - بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه. وقال الضحاك: لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم. وقال علي بن طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة^{٨٨١}.

فهو أدب نفسي مع الله ورسوله. وهو منهج في التلقي والتنفيذ. وهو أصل من أصول التشريع والعمل في الوقت ذاته .. وهو منبثق من تقوى الله، وراجع إليها. هذه التقوى النابعة من الشعور بأن الله سميع عليم .. وكل ذلك في آية واحدة قصيرة، تلمس وتصور كل هذه الحقائق الأصلية الكبيرة.

وكذلك تأدب المؤمنون مع ربهم ومع رسولهم فما عاد مقترح منهم يقترح على الله ورسوله وما عاد واحد منهم يدلي برأي لم يطلب منه رسول الله - ﷺ - أن يدلي به وما عاد أحد منهم يقضي برأيه في أمر أو حكم، إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول الرسول ..

روى أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه فعَنْ مُعَاذٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ: كَيْفَ تَصْنَعُ إِنْ عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟ قَالَ: أَقْضِي بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي^{٨٨٢}، لَا أَلُو. قَالَ: فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَدْرِي، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ^{٨٨٣}.

^{٨٨٠} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٩٩)

^{٨٨١} - الدر المنثور للسيوطي - موافق للمطبوع [١٣/ ٥٢٦]

^{٨٨٢} - أجتهد رأيي: الاجتهاد: بذل الوسع في طلب الأمر، والمراد به ها هنا: رد القضية التي تعرض للحاكم من طريق القياس إلى الكتاب والسنة، ولم يرد الرأي يعرض له من قبل نفسه من غير أصل كتاب ولا سنة، وفي هذا الحديث إثبات القياس على منكره، وإيجاب الحكم به .. جامع الأصول في أحاديث الرسول [١٠/ ١٧٧]

^{٨٨٣} - مسند أحمد (عالم الكتب) [٧/ ٣٤٧] (٢٢٠٠٧) ٢٢٣٥٧ وتفسير ابن كثير - دار طيبة [١/ ٧] وجود إسناده والمسند الجامع [١٥/ ٣٤٥] (١١٥٣٣)

وحتى لكان رسول الله - ﷺ - يسألهم عن اليوم الذي هم فيه، والمكان الذي هم فيه، وهم يعلمونه حق العلم، فيتخرجون أن يجيبوا إلا بقولهم: الله ورسوله أعلم. خشية أن يكون في قولهم تقدم بين يدي الله ورسوله! عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، وَرَجُلٍ - أَفْضَلُ فِي نَفْسِي مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ -، حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ، قَالَ: «أَتَذَرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيَسْمِيهِ بغير اسمه، قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيَسْمِيهِ بغير اسمه، فَقَالَ «أَلَيْسَ ذُو الْحِجَّةِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيَسْمِيهِ بغير اسمه، قَالَ «أَلَيْسَتْ بِالْبَلَدَةِ الْحَرَامِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، إِلَى يَوْمٍ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» ٨٨٤ ..

فهذه صورة من الأدب، ومن التخرج، ومن التقوى، التي انتهى إليها المسلمون بعد سماعهم ذلك النداء، وذلك التوجيه، وتلك الإشارة إلى التقوى، تقوى الله السميع العليم. ٨٨٥

٢٨. عدم تكريم الرسول ﷺ في شئون حياتنا:

قال تعالى: { فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما } (٦٥) سورة النساء

قال الخطيب في "الفتاوى والمتفقه" ١/ ١٨٩ - ١٩٠: إن أهل العلم قد قبلوه واحتجوا به، فوقفنا بذلك على صحته عندهم كما وقفنا على صحة قول رسول الله ﷺ: "لا وصية لوارث"، وقوله في البحر: "هو الطهور ماؤه، الحل ميتته" وقوله: "إذا اختلف المتبايعان في الثمن والسلعة قائمة، تحالفا وترادا البيع"، وقوله: "الدية على العاقلة"، وإن كانت هذه الأحاديث لا تثبت من جهة الإسناد، لكن لما تلقتهما الكافة عن الكافة غنوا بصحتها عندهم عن طلب الإسناد لها، فكذلك حديث معاذ لما احتجوا به جميعاً غنوا عن طلب الإسناد له .

وقال ابن القيم في "إعلام الموقعين" ١/ ٢٠٢: فهذا حديث وإن كان عن غير مُسَمَّنٍ، فهم أصحاب معاذ، فلا يضره ذلك، لأنه يدل على شهرة الحديث وأن الذي حدث به الحارث بن عمرو، جماعة من أصحاب معاذ، لا واحد منهم، وهذا أبلغ في الشهرة من أن يكون عن واحد منهم لو سمي، كيف وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالحل الذي لا يخفى!

ولا يُعرف في أصحابه متهم ولا كذاب ولا مجروح، بل أصحابه من أفاضل المسلمين وخيارهم، ولا يشك أهل النقل في ذلك .

٨٨٤ - صحيح البخاري (١/ ١٧٦) (١٧٤١) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٠٥) ٢٩ - (١٦٧٩)

[ش (أليس ذو الحجة) ذو مرفوع على أنه اسم ليس وخبرها مخذوف والتقدير أليس ذو الحجة هذا الشهر . (كفاراً) تفعلون ما يفعل الكفار في ضرب رقاب المسلمين أو يكفر بعضكم بعضاً فيستبيح قتله]

٨٨٥ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤١٧٣)

يُقَسِّمُ اللَّهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ الْمُقَدَّسَةِ عَلَى أَنَّ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ رَغِبُوا عَنِ التَّحَاكُمِ إِلَى الرَّسُولِ، وَمِنْ مِثْلِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، لَا يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا حَقًّا (أَيَّ إِيمَانٍ إِذْعَانٍ وَانْقِيَادٍ) إِلَّا إِذَا كُمِلَتْ لَهُمْ ثَلَاثُ خِصَالٍ:

- أَنْ يُحْكَمُوا الرَّسُولُ فِي الْقَضَايَا الَّتِي يَخْتَصِمُونَ فِيهَا، وَلَا يَبِينُ لَهُمْ فِيهَا وَجْهُ الْحَقِّ.

- أَلَّا يَجِدُوا ضِيقًا وَحَرَجًا مِمَّا يَحْكُمُ بِهِ، وَأَنْ تُذْعِنَ نَفُوسُهُمْ لِقَضَائِهِ، إِذْعَانًا تَامًا دُونَ امْتِنَاعٍ مِنْ قَبُولِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، لِأَنَّهُ الْحَقُّ وَفِيهِ الْخَيْرُ.

- أَنْ يَنْقَادُوا وَيُسَلِّمُوا لِذَلِكَ الْحُكْمِ، مُوقِنِينَ بِصِدْقِ الرَّسُولِ فِي حُكْمِهِ، وَيَعْصِمْتَهُ عَنِ الْخَطَأِ ..^{٨٨٦}

هو بيان للإيمان الذي يقبل من هؤلاء الضالين الذين يريدون العودة إلى الله، فإنهم لا يحسبون في المؤمنين، حتى يتزلوا على حكم الله، فيما يكون بينهم من خلاف، فذلك هو الدستور الذي لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يستقيم عليه، ويتقبل حكمه فيه، بقلب مطمئن، ونفس راضية، ولو كان ذلك مخالفا لهواه، مفوّتا لمصلحة خاصة له.. أما أن يأخذ من حكم الله ما يرضيه، ويدع ما لا يستجيب لهواه، ويلتقي مع رغباته، فذلك هو النفاق مع الله، ومع الرسول! إن الإيمان هو التسليم المطلق لأحكام الله، والولاء المطلق لرسوله، وما يقضى به.. وبغير هذا لا يكون إيمان، ولا يعتدّ بدعوى من يدعيه! وفي إضافة النبي الكريم إلى الله في قوله تعالى: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ» تشريف للنبي، واستدعاء له إلى الحضرة العلية ليشهد هذا القسم العظيم، وليكون شاهدا على هؤلاء الضالين المنافقين.. و«لا» النافية في قوله تعالى: «فَلَا يُؤْمِنُونَ» هي تأكيد للنفي السابق للقسم في قوله سبحانه: «فَلَا وَرَبِّكَ».. وقد فصل القسم بينهما.^{٨٨٧}

لقد أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم، أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي ذلك حتى يسلموا لحكمه تسليماً بانسراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان. فمن استكمل هذه المراتب وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها. فمن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومن تركه، مع التزامه فله حكم أمثاله من العصاة.^{٨٨٨}

ومرة أخرى نجدنا أمام شرط الإيمان وحد الإسلام. يقرره الله سبحانه بنفسه. ويقسم عليه بذاته. فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل في تحديد شرط الإيمان وحد الإسلام، ولا تأويل لمؤول.

^{٨٨٦} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٥٨، بترقيم الشاملة آليا)

^{٨٨٧} - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٢٧)

^{٨٨٨} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٨٥)

اللهم إلا محاكمة لا تستحق الاحترام.. وهي أن هذا القول مرهون بزمان، وموقوف على طائفة من الناس! وهذا قول من لا يدرك من الإسلام شيئاً ولا يفقه من التعبير القرآني قليلاً ولا كثيراً. فهذه حقيقة كلية من حقائق الإسلام جاءت في صورة قسم مؤكد مطلقة من كل قيد.. وليس هناك مجال للوهم أو الإيهام بأن تحكيم رسول الله - ﷺ - هو تحكيم شخصه. إنما هو تحكيم شريعته ومنهجه. وإلا لم يبق لشريعة الله وسنة رسوله مكان بعد وفاته - ﷺ - وذلك قول أشد المرتدين ارتداداً على عهد أبي بكر - رضي الله عنه - وهو الذي قاتلهم عليه قتال المرتدين: بل قاتلهم على ما هو دونه بكثير. وهو مجرد عدم الطاعة لله ورسوله، في حكم الزكاة وعدم قبول حكم رسول الله فيها، بعد الوفاة!

وإذا كان يكفي لإثبات «الإسلام» أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله.. فإنه لا يكفي في «الإيمان» هذا، ما لم يصحبه الرضى النفسى، والقبول القلبي، وإسلام القلب والحنان، في اطمئنان! هذا هو الإسلام.. وهذا هو الإيمان.. فلتنظر نفس أين هي من الإسلام وأين هي من الإيمان! قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان! ^{٨٨٩}

وقال تعالى محذراً: { لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (٦٣) سورة النور

كان بعض الناس من المؤمنين يُنادي رسول الله ﷺ بيا مُحَمَّدُ، أو بيا أبا القاسم... فنهاهم الله تعالى عن ذلك تعظيماً لقدر الرسول وتبجيلاً، فقال قولوا: يا نبي الله، ويا رسول الله. ويحذر الله تعالى المنافقين الذين يتسللون ويذهبون بدون إذن. يلوذ بعضهم ببعض، ويتدارى بعضهم ببعض لكيلا يراهم الرسول، فعين الله تراههم وإن لم ترهم عين الرسول. ويور الله تعالى حال هؤلاء وهم يتسللون بحذر من مجلس الرسول، مما يمثلُ جبنهم عن المواجهة وطلب الإذن. ويهدد الله تعالى هؤلاء المنافقين الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ، ويتبعون هجاء غير هججه، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة، أو اتقاء ضرر، ويحذرهم من أن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ تَخْتَلُّ فِيهَا الْمَوَازِينُ، ويضطرب فيها النظام، فيختلط الحق بالباطل، وتفسد أمور الجماعة وحياتها، أو يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.. ^{٨٩٠}

الدعاء: الأمر الذي يحمل دعوة، أو الدعوة التي تحمل أمراً.

يتسللون: أي ينسحبون في خفاء، من غير أن يشعر بهم أحد.

الواذ: الفرار طلباً للسلامة والعافية.

^{٨٨٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٠٤١)

^{٨٩٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٧٣٦، بترقيم الشاملة آليا)

والآية تحت المسلمين على الامتثال لأمر الرسول الكريم، والاستجابة لما يدعوههم إليه، من غير مهمل، أو تردد.. فليست دعوة الرسول للمسلمين، مثل دعوة بعضهم لبعض، حيث يكون للإنسان الخيار في أن يجيب دعوة الداعي أو لا يجيب..

إن دعوة الرسول، هي أمر من أمر الله، ليس لمؤمن ولا مؤمنة الخيار في هذا الأمر، وإنما عليه الطاعة والامتثال.. والله سبحانه وتعالى يقول: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» (الأحزاب: ٣٦) ودعاء الرسول هنا، هو دعاء إلى الجهاد في سبيل الله، وهو أمر ملزم لكل قادر على حمل السلاح.. وفي هذا يقول الله تعالى: «مَا كَانَ لِلْأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ» (١٢٠ التوبة) وقد يكون الدعاء لأمر غير الجهاد، وهو - أيًا كان - أمر ملزم لمن تلقى الأمر من الرسول، فإنه لا يأمر إلا بخير، والله سبحانه وتعالى يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» (٢٤: الأنفال) قوله تعالى: «فَدَعَا اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». قد، هنا، للتحقيق، والتوكيد.. والمعنى: إن الله ليعلم الذين يتسللون من بين المسلمين، ويخرجون في خفية، فرارا بأنفسهم، وطلباً للدعة والراحة.. فليحذر هؤلاء المتسللون، الذي خرجوا على أمر الرسول، ونكصوا على أعقابهم، أن تصيبهم فتنة وابتلاء في الدنيا، حيث يفتضح أمرهم، ويصبحوا في عداد المنافقين.. فإن لم يصبهم هذا في الدنيا، لم يفلتوا من عذاب الله في الآخرة.. وهو عذاب أليم، نعوذ بالله منه. وفي تعدية الفعل «يُخَالِفُونَ» بحرف الجر «عَنْ» مع أنه فعل يتعدى بنفسه.. إشارة إلى أن هذا الفعل قد ضمن معنى «الخروج»، فهو مخالفة، وخروج معاً، إذ قد تكون المخالفة في الرأي، ثم يكون الامتثال بالعمل.. وهؤلاء المخالفون الذين يتوعدهم الله إنما جمعوا بين المخالفة في الرأي، والخروج عليه قولاً وعملاً.. وهذا يشير إلى أن مراجعة الرسول، فيما يأمر به، مما لم يستتب للمسلم منه الحجة الواضحة والدليل المقنع - هذه المراجعة، بل المعارضة أحياناً لا حرج منها، إذ كانت غايتها هي وضوح الرؤية، وانكشاف الطريق، لعيني المؤمن، حتى يكون على بينة من أمره، وحتى يمتثل ما يؤمر به، وهو على هدى وبصيرة، واقتناع..

فدعوة الإسلام دعوة قائمة على العدل، مستندة إلى الحجة والبرهان..

ومن ثم كان على المسلم أن يعرض أمور دينه كلها على عقله، وأن يلتمس الدليل المقنع، والحجة القاطعة في كل أمر.. فإذا لم يسعفه عقله بالدليل، وجب عليه امتثال ما يؤمر به، مع اليقين بأنه هو الحق، والخير.. إذ ليس العقل إلا حاسة من الحواس العاملة في الإنسان، وشأنه شأن كل حاسة في أن له حدوداً يعمل فيها، وأنه إذا جاوز هذه الحدود بطل عمله..

وفي سيرة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - مع صحابته رضوان الله عليهم، كثير من المواقف، التي يلقي فيها الصحابة رسول الله - في أدب رائع واحترام عظيم - معترضين أو مخالفين، حتى إذا كشف

لهم الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - عن وجه الأمر، أو أراهم من نفسه أنه ماض لم أمرهم به، لم يكن لأحد منهم إلا السمع والطاعة، في إيمان ثابت ويقين مكين..

وتذكر هنا - من باب الإشارة - ما كان من الحجاب بن المنذر بن الجموح، حين رأى النبي - صلوات الله وسلامه عليه - وقد أنزل المسلمين منزلاً في غزوة بدر، فلما لم يره الحجاب بالمتزل المناسب للمسلمين، جاء إلى رسول الله يسأله قائلاً: يا رسول الله.. أهو منزل أنزلك الله، فليس لنا أن نتحول عنه، أم هو الرأي والمكيدة والحرب؟ فقال صلوات الله وسلامه عليه: «بل هو الرأي والمكيدة والحرب».. وهنا أشار الحجاب بالمتزل الذي رآه.. فأخذ النبي برأيه، وتحول بالمسلمين إليه.. فكان المتزل المبارك، الذي هبت على المسلمين ريح النصر منه!! فمخالفة الرسول هنا ليست لجرد المخالفة، وإنما هي للنصح للمسلمين، أو لنصح المرء لنفسه ولدينه، حتى لا يكون في صدره حرج مما يؤمر به! وبذلك تطيب نفس المسلم، ويسلم له دينه، ويتضح له طريقه، ومن هنا يقوم بينه وبين معتقده ألفة وحب، حيث لا يدخل عليه شيء لم يرضه، ويعتقده، عن إيمان واقتناع..^{٨٩١}

لا تجعلوا دعاء الرسول إياكم ودعائكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فإذا دعاكم فأجيبوه وجوباً، حتى إنه تجب إجابة الرسول ﷺ في حال الصلاة، وليس أحد إذا قال قولاً يجب على الأمة قبول قوله والعمل به، إلا الرسول، لعصمته، وكوننا مخاطبين باتباعه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فلا تقولوا: "يا محمد" عند ندائكم، أو "يا محمد بن عبد الله" كما يقول ذلك بعضكم لبعض، بل من شرفه وفضله وتميزه ﷺ عن غيره، أن يقال: يا رسول الله، يا نبي الله.

{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا} لما مدح المؤمنين بالله ورسوله، الذين إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، وتوعد من لم يفعل ذلك وذهب من غير استئذان، فهو وإن خفي عليكم بذهابه على وجه خفي، وهو المراد بقوله: {يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا} أي: يلوذون وقت تسللهم وانطلاقهم بشيء يحجبهم عن العيون، فالله يعلمهم، وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء، ولهذا توعدهم بقوله: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} أي: يذهبون إلى بعض شئوهم عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شئونه؟ وإنما ترك أمر الله من دون شغل له. {أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ} أي: شرك وشر {أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.^{٨٩٢}

فلا بد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله - ﷺ - حتى تستشعر توقير كل كلمة منه وكل توجيه. وهي لفظة ضرورية. فلا بد للمربي من وقار، ولا بد للقائد من هبة. وفرق بين أن يكون هو متواضعاً هيناً لنا وأن ينسوا هم أنه مربيهم فيدعوه دعاء بعضهم لبعض.. يجب أن تبقى للمربي منزلة

^{٨٩١} - التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٣٣٦)

^{٨٩٢} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٧٦)

في نفوس من يريهم يرتفع بها عليهم في قرارة شعورهم، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير.

ثم يحذر المنافقين الذين يتسللون ويذهبون بدون إذن، يلوذ بعضهم ببعض، ويتدارى بعضهم ببعض. فعين الله عليهم، وإن كانت عين الرسول لا تراهم: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا».. وهو تعبير يصور حركة التخلي والتسلل بحذر من المجلس ويتمثل فيها الجبن عن المواجهة، وحقارة الحركة والشعور المصاحب لها في النفوس.

«فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»..

وإنه لتحذير مرهوب، وتهديد رعب.. فليحذر الذين يخالفون عن أمره، ويتبعون نهجا غير نهجه، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة. ليحذروا أن تصيبهم فتنة تضرب فيها المقاييس، وتختل فيها الموازين، وينتكث فيها النظام، فيختلط الحق بالباطل، والطيب بالخبيث، وتفسد أمور الجماعة وحياتها فلا يأمن على نفسه أحد، ولا يقف عند حده أحد، ولا يتميز فيها خير من شر.. وهي فترة شقاء للجميع: «أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» في الدنيا أو في الآخرة. جزاء المخالفة عن أمر الله، ونهجه الذي ارتضاه للحياة. ويختتم هذا التحذير، ويختتم معه السورة كلها بإشعار القلوب المؤمنة والمنحرفة بأن الله مطلع عليها، رقيب على عملها، عالم بما تنطوي عليه وتخفيه.^{٨٩٣}

٢٩. تولي أعداء الله ورسوله ﷺ من الكفار والفجار

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } (١٣) سورة الممتحنة

وبعد أن نهى الله تعالى المؤمنين عن مودة المشركين في أول السورة، عاد تعالى فكرر هذا النهي في آخرها فقال: يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَا تَوَلَّوْا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ مِمَّنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَاسْتَحَقُّوا الطَّرْدَ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا تَتَّخِذُوهُمْ أَصْدِقَاءَ لَكُمْ تُسْرِئُونَ إِلَيْهِمْ بِمَا يَضُرُّ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَهَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْخَيْرِ وَالنَّجَاةِ فِي الْآخِرَةِ لِعِنَادِهِمْ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ.. كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ بَعْثِ مَوْتَاهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ بَبَعْثٍ وَلَا حَشْرِ وَلَا حِسَابٍ.^{٨٩٤}

أي: يا أيها المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه ومجانين لسخطه، { لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار. { قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ }

^{٨٩٣} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٢٧٠)

^{٨٩٤} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٤١، بترقيم الشاملة آليا)

أي: قد حرموا من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيب، فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم على شرهم وكفرهم تحرموا خير الآخرة كما حرموا.

[وقوله] { كَمَا يَسَّ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } حين أفضوا إلى الدار الآخرة، ووقفوا على حقيقة الأمر وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها. ويحتمل أن المعنى: قد يئسوا من الآخرة أي: قد أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مساخط الله وموجبات عذابه وإياسهم من الآخرة، كما يئس الكفار المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.^{٨٩٥}

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْمَعْنَى كَمَا يَسَّ الْكُفَّارُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى الدُّنْيَا. وَقِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَتَمَ السُّورَةَ بِمَا بَدَأَهَا مِنْ تَرْكِ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ، وَهِيَ خِطَابُ لِحَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ وَغَيْرِهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا أَيْ لَا تُؤَالُوهُمْ وَلَا تُنَاصِحُوهُمْ، رَجَعَ تَعَالَى بِطُولِهِ وَفَضْلِهِ عَلَى حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ. يُرِيدُ أَنْ كُفَّارٌ قُرَيْشٍ قَدْ يَئِسُوا مِنْ خَيْرِ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ الْمَقْبُورُونَ مِنْ حَظٍّ يَكُونُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ أَبِي بَرَّةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ قَالَ: مَنْ مَاتَ مِنَ الْكُفَّارِ يَئِسَ مِنَ الْخَيْرِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ..^{٨٩٦}

الذين غضب الله عليهم، هم اليهود، وإنه حيث ذكر غضب الله في القرآن على قوم، أو جماعة - فالمقصود به اليهود والتولي: من الولاء، والمولاة..

وبهذه الآية الكريمة تحتم السورة، وبهذا الختام يلتقى ختامها مع بدئها حيث بدئت بنهي المؤمنين عن موالاة أعداء المؤمنين من الكفار والمشركين..

ثم كان ختامها دعوة من الله إلى مجانبة الذين غصب الله عليهم، وهم اليهود.. وبهذا لا يكون للمؤمنين ولاء مع جميع أهل العداوة لله وللمؤمنين.

وفي قوله تعالى: «قوما» بالتنكير، إشارة إلى ازدراء هؤلاء القوم، وهوانهم، وأنهم - حيث كانوا - هم في صغار وذلة وهوان.. وحسبهم صغارا وذلة وهوانا، أن يصحبهم غضب الله في كل زمان ومكان..

ثم إن في هذا التنكير دلالة على أن وصف القوم بغضب الله عليهم، يكشف عن وجه هؤلاء القوم، ويقوم شاهدا عليهم، إذ ليس هناك من وقعت عليه لعنة الله غيرهم.. فالصفة قرينة دالة على الموصوف، إذ كانت مقصورة عليه..

قوله تعالى: «قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ» - إشارة إلى موقف اليهود من الحياة الآخرة، وأنهم في شكٍّ منها وفي يأسٍ من لقائها، فهم - مع إيمانهم بالله - على عقيدة بأن لا بعث بعد الموت، وأن الناس إنما يوفون جزاءهم في هذه الحياة الدنيا.. ولهذا فإنهم يستنفدون كلَّ جهدهم في العمل لما يبنى حياتهم الدنيوية، دون أن تكون منهم لفتة إلى ما وراء هذه الحياة.. وهذا ما

^{٨٩٥} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٥٨)

^{٨٩٦} - تفسير القرطبي (١٨ / ٧٦)

يشير إليه قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ».. (الجنائية: ٣٢).. هذا هو المعتقد الغالب على اليهود، فيما يتصل بالبعث، وبالحياة الآخرة، وإن كانت شريعتهم التي جاءهم بها موسى، تدعو إلى الإيمان بالحياة الآخرة، وإلى العمل لها، ولكن القوم يتأولون نصوص الشريعة، ويلوونها مع أهوائهم، حتى كانت الحياة الآخرة عندهم أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة.

وقوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ مِنَ الْآخِرَةِ» بدلا من أن يقال كفروا بالآخرة، أو كذبوا بها، للإشارة إلى ما عندهم من علم بالآخرة، وبما يكون فيها من حساب وجزاء، وأنه علم نظري، مئوس من وقوع المعلوم منه، وتحققه.. وهذا إعجاز من إعجاز القرآن، في تصوير هذا المفهوم الذي يقوم عند اليهود للبعث وللحياة الآخرة.. إنه انتظار لغائب لا يرجى له إياب، فوقع اليأس من لقاءه..

وفي قوله تعالى: «كَمَا يَسَّ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ» أي أن يأس اليهود من لقاء الآخرة، هو أشبه بيأس الكفار من أن يلتقوا يوما بموتاهم الذين أودعواهم القبور..
فاليهود ينظرون إلى الآخرة، نظرة الكفار إلى الأموات في القبور..

إن كلاً منهم ينظر إلى شيء.. ولكن هذا الشيء - في زعمهم - لن يلتقوا به أبدا.. الآخرة في زعم اليهود، والأموات في زعم الكفار.. وكلا الزعيمين باطل، فاليهود سيلتقون بالآخرة، وإن كرهوا، والكفار سيلتقون بموتاهم وإن ينسوا..^{٨٩٧}

يا أيها المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه ومجانين لسخطه، { لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار. { قَدْ يَسْأَلُونَكَ مِنَ الْآخِرَةِ } أي: قد حرموا من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيب، فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم على شرهم وكفرهم فتحرموا خير الآخرة كما حرموا.

[وقوله] { كَمَا يَسَّ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } حين أفضوا إلى الدار الآخرة، ووقفوا على حقيقة الأمر وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها. ويحتمل أن المعنى: قد ينسوا من الآخرة أي: قد أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مساخط الله وموجبات عذابه وإياسهم من الآخرة، كما ينس الكفار المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.^{٨٩٨}

٣٠. تولي اليهود والنصارى؛

^{٨٩٧} - التفسير القرآني للقرآن (١٤ / ٩١٢)

^{٨٩٨} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٥٨)

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) } سورة المائدة

يَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَالَاةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَاتَّخَاذِهِمْ حُلَفَاءَ لَهُمْ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ مَنْ يَتَّخِذُهُمْ نُصْرَاءَ وَحُلَفَاءَ وَأَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهُوَ مِنْهُمْ فِي التَّحْزُبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بَرِيقَانِ مِنْهُ. وَمَنْ يَتَوَلَّى أَعْدَاءَ اللَّهِ فَهُوَ ظَالِمٌ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِيهِ إِلَى الْخَيْرِ. وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ وَلِيٌّ وَلَا نَصِيرٌ. وَإِذْ كَانَتْ وَلَايَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا يَتَّبِعُهَا إِلَّا الظَّالِمُونَ فَإِنَّكَ تَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ شَكٌّ وَنِفَاقٌ (مَرَضٌ) يُبَادِرُونَ إِلَى مُوَالَاتِهِمْ، وَإِلَى مُوَادَّتِهِمْ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، وَيَتَأَوَّلُونَ فِي مَوَدَّتِهِمْ وَفِي مُوَالَاتِهِمْ، أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَقَعَ أَمْرٌ مِنْ ظَفَرِ الْكَافِرِينَ بِالْمُسْلِمِينَ (تُصِيبُنَا دَائِرَةٌ) فَتَكُونُ لَهُمْ أَيَادٍ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَيَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ حِينَئِذٍ. فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَتِمَّ أَمْرُهُ بِنَصْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُحَقِّقَ لَهُمُ الْفَتْحَ وَالْعَلْبَةَ، أَوْ يَتِمَّ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ كَفَرَضِ الْجَزْيَةِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَيُصْبِحَ الَّذِينَ وَالُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ الْمُنَافِقِينَ نَادِمِينَ عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مُوَالَاةِ هَؤُلَاءِ تَحْسَبًا لِمَا لَمْ يَقَعَ، وَلَمْ يَنْفَعَهُمْ شَيْئًا، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مَحْذُورًا .

لَمَّا التَّجَأَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ إِلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يُوَالُونَهُمْ وَيُوَادُّونَهُمْ، افْتُضِحَ أَمْرُهُمْ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَتَسَتَّرُونَ، لَا يَدْرِي أَحَدٌ كَيْفَ حَالُهُمْ، فَتَعَجَّبَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ، كَيْفَ كَانُوا يَظْهَرُونَ أَنَّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، يُعَاضِدُونَهُمْ وَيُسَاعِدُونَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمُ الْيَهُودَ، فَلَمَّا جَدَّ الْجَدُّ أَظْهَرُوا مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ مُوَالَاتِهِمْ وَمُمَالَاتِهِمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. وَلَمَّا اسْتَبَانَ حَالُهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: لَقَدْ هَلَكْتَ أَعْمَالُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ صَلَاةٍ وَصَوْمٍ وَزَكَاةٍ وَجِهَادٍ، وَخَسِرُوا بِذَلِكَ مَا كَانُوا يَرْجُونَهُ مِنَ الثَّوَابِ

٨٩٩ .

وهكذا تقرر تلك القاعدة الأصلية الحاسمة في علاقات المجتمع الإسلامي وفي طبيعة بنائه وتكوينه العضوي الذي يتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا إلى آخر الزمان. ولم يعد هناك مجال للجمع بين «الإسلام» وبين إقامة المجتمع على أية قاعدة أخرى غير القاعدة التي اختارها الله للأمة المختارة. والذين يدعون صفة الإسلام، ثم يقيمون مجتمعاتهم على قاعدة أو أكثر من تلك العلاقات الجاهلية التي أحل الإسلام محلها قاعدة العقيدة، إما أنهم لا يعرفون الإسلام وإما أنهم

يرفضونه. والإسلام في كلتا الحالتين لا يعترف لهم بتلك الصفة التي يدعونها لأنفسهم وهم لا يطبقونها، بل يختارون غيرها من مقومات الجاهلية فعلا! وندع هذه القاعدة - وقد صارت واضحة تماما - لننظر في جوانب من حكمة الله في إقامة المجتمع الإسلامي على هذه القاعدة ..

إن العقيدة تمثل أعلى خصائص «الإنسان» التي تفرقه من عالم البهيمة لأنها تتعلق بالعنصر الزائد في تركيبه وكيونته عن تركيب البهيمة وكيونتها - وهو العنصر الروحي الذي به صار هذا المخلوق إنسانا في هذه الصورة - وحتى أشد الملحد من إلحادا وأكثر المادي من مادية، قد انتبهوا أخيرا إلى أن العقيدة خاصة من خواص الإنسان تفرقه فرقا أساسيا عن الحيوان^{٩٠٠}.

ومن ثم ينبغي أن تكون العقيدة - في المجتمع الإنساني الذي يبلغ ذروة الحضارة الإنسانية - هي آصرة التجمع. لأنها العنصر الذي يتعلق بأخص خصائص الإنسان المميزة له عن البهائم. ولا تكون آصرة التجمع عنصرا يتعلق بشيء يشترك فيه الإنسان مع البهائم! من مثل الأرض والمرعى والمصالح والحدود التي تمثل خواص الحظيرة، وسياج الحظيرة! ولا تكون كذلك هي الدم والنسب والعشيرة والقوم والجنس والعنصر واللون واللغة .. فكلها مما يشترك فيه الإنسان مع البهيمة. وليس هناك إلا شؤون العقل والقلب التي يختص بها الإنسان دون البهيمة!

كذلك تتعلق العقيدة بعنصر آخر يتميز به الإنسان عن البهائم .. هو عنصر الاختيار والإرادة، فكل فرد على حدة يملك أن يختار عقيدته. بمجرد أن يبلغ سن الرشد وبذلك يقرر نوع المجتمع الذي يريد أن يعيش فيه مختارا ونوع المنهج الاعتقادي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والخلقي الذي يريد - بكامل حريته - أن يتمذهب به ويعيش ..

ولكن هذا الفرد لا يملك أن يقرر دمه ونسبه ولونه وقومه وجنسه. كما لا يملك أن يقرر الأرض التي يجب أن يولد فيها، ولغة الأم التي يريد أن ينشأ عليها .. إلى آخر تلك المقومات التي تقام عليها مجتمعات الجاهلية! .. إن هذه الأمور كلها يقضى فيها قبل مجيئه إلى هذه الأرض، ولا يؤخذ له فيها مشورة ولا رأي إنما هي تفرض عليه فرضا سواء أحب أم كره! فإذا تعلق مصيره في الدنيا والآخرة معا - أو حتى في الدنيا وحدها - بمثل هذه المقومات التي تفرض عليه فرضا لم يكن مختارا ولا مريدا وبذلك تسلب إنسانيته مقوما من أخص مقوماتها وتهدر قاعدة أساسية من قواعد تكريم الإنسان بل من قواعد تركيبه وتكوينه الإنساني المميز له من سائر الخلائق! ومن أجل المحافظة على خصائص الإنسان الذاتية، والمحافظة على الكرامة التي وهبها الله له متمشية مع تلك الخصائص يجعل الإسلام العقيدة - التي يملك كل فرد اختيارها بشخصه منذ أن يبلغ سن الرشد - هي الآصرة التي يقوم عليها التجمع الإنساني في المجتمع الإسلامي والتي يتقرر على أساسها مصير كل فرد بإرادته الذاتية. وينفي أن

^{٩٠٠} - من هؤلاء جوليان هاكسلي من علماء الداروينية الحديثة! (السيد رحمه الله)

تكون تلك العوامل الاضطرارية، التي لا يدله فيها، ولا يملك كذلك تغييرها باختياره، هي آصرة التجمع التي تقرر مصيره طول حياته.

ومن شأن قيام المجتمع على آصرة العقيدة - وعدم قيامه على العوامل الاضطرارية الأخرى - أن ينشئ مجتمعا إنسانيا عالميا مفتوحا يجيء إليه الأفراد من شتى الأجناس والألوان واللغات والأقوام والدماء والأنساب والديار والأوطان بكامل حريتهم واختيارهم الذاتي لا يصدهم عنه صاد، ولا يقوم في وجوههم حاجز، ولا تقف دونه حدود مصطنعة، خارجة عن خصائص الإنسان العليا. وأن تصب في هذا المجتمع كل الطاقات والخواص البشرية، وتجتمع في صعيد واحد، لتنشئ «حضارة إنسانية» تنتفع بكل خصائص الأجناس البشرية ولا تغلق دون كفاية واحدة، بسبب من اللون أو العنصر أو النسب والأرض ..

«ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامي في هذه القضية وإقامة التجمع الإسلامي على آصرة العقيدة وحدها، دون أوامر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريبة، والحدود الإقليمية السخيفة!

ولإبراز «خصائص الإنسان» في هذا التجمع وتنميتها وإعلائها، دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان .. كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعا مفتوحا لجميع الأجناس والألوان واللغات، بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة! وأن صبت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها، وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت، وأنشأت مركبا عضويا فائقا في فترة تعد نسبيا قصيرة. وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة، تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة، على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان. «لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق: العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والأندونيسي والإفريقي ... إلى آخر الأقوام والأجناس .. وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية. ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما «عربية» إنما كانت دائما «إسلامية» ولم تكن يوما ما «قومية» إنما كانت دائما «عقدية».

«ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة، وبآصرة الحب. وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة. فبدلوا جميعا أقصى كفاياتهم، وأبرزوا أعماق خصائص أجناسهم، وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية في بناء هذا المجتمع الواحد الذي ينتسبون إليه جميعا على قدم المساواة، وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق برهم الواحد، وتبرز فيها إنسانيتهم وحدها بلا عائق. وهذا ما لم يجتمع قط لأي تجمع آخر على مدار التاريخ! «لقد كان أشهر تجمع بشري في التاريخ القديم هو تجمع الإمبراطورية الرومانية مثلا. فقد جمعت بالفعل أجناسا متعددة، ولغات متعددة، وألوانا متعددة، وأمزجة متعددة. ولكن

هذا كله لم يرق على «آصرة إنسانية» ولم يتمثل في قيمة عليا كالعقيدة.. لقد كان هناك تجمع طبقي على أساس طبقة الأشراف وطبقة العبيد في الإمبراطورية كلها من ناحية وتجمع عنصري على أساس سيادة الجنس الروماني - بصفة عامة - وعبودية سائر الأجناس الأخرى. ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامي ولم يؤت الثمار التي آتاها التجمع الإسلامي.

« كذلك قامت في التاريخ الحديث تجمعات أخرى.. تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلا.. ولكنه كان كالتجمع الروماني، الذي هو وريثه! تجمعا قوميا استغلاليا، يقوم على أساس سيادة القومية الإنجليزية، واستغلال المستعمرات التي تضمها الإمبراطورية.. ومثله الإمبراطوريات الأوربية كلها.. الإمبراطورية الأسبانية والبرتغالية في وقت ما، والإمبراطورية الفرنسية.. كلها في ذلك المستوي الهابط البشع المقيت! وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعا من نوع آخر، يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون.

ولكنها لم تقمه على قاعدة «إنسانية» عامة، إنما أقامته على القاعدة «الطبقية». فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الروماني القديم.. هذا تجمع على قاعدة طبقة «الأشراف» وذلك تجمع على قاعدة طبقة «الصعاليك» (البروليتريا) والعاطفة التي تسوده هي عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى! وما كان لمثل هذا التجمع الصغير البغيض أن يثمر إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني.. فهو ابتداء قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها. باعتبار أن «المطالب الأساسية» للإنسان هي «الطعام والمسكن والجنس» - وهي مطالب الحيوان الأولية - وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام!!

«لقد تفرد الإسلام بمنهجه الرباني في إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلائها في بناء المجتمع الإنساني.. وما يزال متفردا.. والذين يعدلون عنه إلى أي منهج آخر، يقوم على أية قاعدة أخرى، من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة.. إلى آخر هذا التن السخيف، هم أعداء «الإنسان» حقا! هم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق»^{٩٠١}..

ويحسن أن نذكر أن أعداء هذا الدين، الذين يعرفون مواضع القوة في طبيعته وحركته وهم الذين يقول الله تعالى فيهم: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ».. لم يفتهم أن يدركوا أن التجمع على أساس العقيدة سر من أسرار قوة هذا الدين، وقوة المجتمع الإسلامي الذي يقوم على هذا الأساس..

^{٩٠١} - مقتطفات من فصل: «نشأة المجتمع المسلم وخصائصه» من كتاب: «معالم في الطريق». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

ولما كانوا بصدد هدم ذلك المجتمع أو إضعافه إلى الحد الذي يسهل عليهم السيطرة عليه وشفاء ما في صدورهم من هذا الدين وأهله ولاستغلالهم كذلك واستغلال مقدراتهم وديارهم وأموالهم .. لما كانوا بصدد تلك المعركة مع هذا المجتمع لم يفتهم أن يوهنوا من القاعدة التي يقوم عليها وأن يقيموا لأهله المجتمعين على إله واحد، أصناما تعبد من دون الله، اسمها تارة «الوطن» واسمها تارة «القوم» واسمها تارة «الجنس». وظهرت هذه الأصنام على مراحل التاريخ تارة باسم «الشعبوية» وتارة باسم «الجنسية الطورانية» وتارة باسم «القومية العربية» وتارة بأسماء شتى، تحملها جبهات شتى، تتصارع فيما بينها في داخل المجتمع الإسلامي الواحد القائم على أساس العقيدة، المنظم بأحكام الشريعة ... إلى أن وهنت القاعدة الأساسية تحت المطارق المتوالية، وتحت الإيحاءات الخبيثة المسمومة وإلى أن أصبحت تلك «الأصنام» مقدسات يعتبر المنكر لها خارجا على دين قومه! أو خائنا لمصالح بلده!!! وأخبت المعسكرات التي عملت وما زالت تعمل في تخريب القاعدة الصلبة التي كان يقوم عليها التجمع الإسلامي الفريد في التاريخ .. كان هو المعسكر اليهودي الخبيث، الذي جرب سلاح «القومية» في تحطيم التجمع المسيحي، وتحويله إلى قوميات سياسية ذات كنائس قومية .. وبذلك حطموا الحصار المسيحي حول الجنس اليهودي ثم ثنوا بتحطيم الحصار الإسلامي حول ذلك الجنس الكنودي! وكذلك فعل الصليبيون مع المجتمع الإسلامي - بعد جهد قرون كثيرة في إثارة النعرات الجنسية والقومية والوطنية بين الأجناس الملتحمة في المجتمع الإسلامي .. ومن ثم استطاعوا أن يرضوا أحقادهم الصليبية القديمة على هذا الدين وأهله. كما استطاعوا أن يمزقوهم ويروضوهم على الاستعمار الأوربي الصليبي. وما يزالون.

حتى يأذن الله بتحطيم تلك الأصنام الخبيثة الملعونة ليقوم التجمع الإسلامي من جديد، على أساسه المتين الفريد ..

وأخيرا فإن الناس ما كانوا ليخرجوا من الجاهلية الوثنية بكلياتهم حتى تكون العقيدة وحدها هي قاعدة تجمعهم. ذلك أن الدينونة لله وحده لا تتم تمامها إلا بقيام هذه القاعدة في تصورهم وفي تجمعهم. يجب أن تكون هناك قداسة واحدة لمقدس واحد، وألا تتعدد «المقدسات»! ويجب أن يكون هناك شعار واحد، وألا تتعدد «الشعارات» ويجب أن تكون هناك قبلة واحدة يتجه إليها الناس بكلياتهم وألا تتعدد القبلات والمتجهات ..

إن الوثنية ليست صورة واحدة هي وثنية الأصنام الحجرية والآلهة الأسطورية! إن الوثنية يمكن أن تتمثل في صور شتى كما أن الأصنام يمكن أن تتخذ صوراً متعددة وآلهة أساطير يمكن أن تتمثل مرة أخرى في المقدسات والمعبودات من دون الله أيا كانت أسمائها. وأيا كانت مراسمها.

وما كان الإسلام ليخلص الناس من الأصنام الحجرية والأرباب الأسطورية، ثم يرضى لهم بعد ذلك أصنام الجنسيات والقوميات والأوطان.. وما إليها.. يتقاتل الناس تحت راياتها وشعاراتها. وهو يدعوهم إلى الله وحده، وإلى الدينونة له دون شيء من خلقه!

لذلك قسم الإسلام الناس إلى أمتين اثنتين على مدار التاريخ البشري.. أمة المسلمين من أتباع الرسل - كل في زمانه حتى يأتي الرسول الأخير إلى الناس كافة - وأمة غير المسلمين من عبدة الطواغيت والأصنام في شتى الصور والأشكال على مدار القرون..

وعند ما أراد الله أن يعرف المسلمين بآمتهم التي تجمعهم على مدار القرون، عرفها لهم في صورة أتباع الرسل - كل في زمانه - وقال لهم في نهاية استعراض أجيال هذه الأمة: «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ».. ولم يقل للعرب: إن أمتكم هي الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها سواء! ولا قال لليهود: إن أمتكم هي بنو إسرائيل أو العبرانيون في جاهليتهم وإسلامهم سواء! ولا قال لسلمان الفارسي: إن أمتك هي فارس! ولا لصهيب الرومي: إن أمتك هي الرومان! ولا لبلال الحبشي: إن أمتك هي الحبشة! إنما قال للمسلمين من العرب والفرس والروم والحشب: إن أمتكم هي المسلمون الذين أسلموا حقاً على أيام موسى وهارون، وإبراهيم، ولوط، ونوح، وداود وسليمان، وأيوب، وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وذو النون، وزكريا ويحيى، ومريم.. كما جاء في سورة الأنبياء: (آيات: ٤٨ - ٩١). هذه هي أمة «المسلمين» في تعريف الله سبحانه.. فمن شاء له طريقاً غير طريق الله فليسلكه. ولكن ليقبل: إنه ليس من المسلمين!

أما نحن الذين أسلمنا لله، فلا نعرف لنا أمة إلا الأمة التي عرفها لنا الله. والله يقص الحق وهو خير الفاصلين.. وحسبنا هذا القدر مع إلهامات قصة نوح في هذه القضية الأساسية في هذا الدين^{٩٠٢}

ويحسن أن نبين أولاً معنى الولاية التي ينهى الله الذين آمنوا أن تكون بينهم وبين اليهود والنصارى.. إنها تعني التناصر والتحالف معهم. ولا تتعلق بمعنى اتباعهم في دينهم. فبعيد جداً أن يكون بين المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى في الدين. إنما هو ولاء التحالف والتناصر، الذي كان يلتبس على المسلمين أمره، فيحسبون أنه جائز لهم، بحكم ما كان واقعاً من تشابك المصالح والأوصار، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام، وفي أوائل العهد بقيام الإسلام في المدينة، حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله. بعد ما تبين عدم إمكان قيام الولاء والتحالف والتناصر بين المسلمين واليهود في المدينة..

^{٩٠٢} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٥٢٤)

وهذا المعنى معروف محدد في التعبيرات القرآنية. وقد جاء في صدد الكلام عن العلاقة بين المسلمين في المدينة والمسلمين الذين لم يهاجروا إلى دار الإسلام. فقال الله سبحانه: «مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا».. وطبيعي أن المقصود هنا ليس الولاية في الدين. فالمسلم ولي المسلم في الدين على كل حال. إنما المقصود هو ولاية التناصر والتعاون. فهي التي لا تقوم بين المسلمين في دار الإسلام والمسلمين الذين لم يهاجروا إليهم.. وهذا اللون من الولاية هو الذي تمنع هذه الآيات أن يقوم بين الذين آمنوا وبين اليهود والنصارى بحال، بعد ما كان قائما بينهم أول العهد في المدينة.

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنها يحتلطان على بعض المسلمين، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، بوصفه حركة منهجية واقعية، تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض، وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية وتصطدم - من ثم - بالتصورات والأوضاع المخالفة، كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج الله، وتدخل في معركة لا حيلة فيها، ولا بد منها، لإنشاء ذلك الواقع الجديد الذي تريده، وتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منسئة..

وهؤلاء الذين تحتلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة، كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة. ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب.. بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة.. وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقسمون من المسلم إسلامه، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم. وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة. وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر.. إلى آخر هذه التقارير الحاسمة.

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب، ولكنه منهي عن الولاء لهم. بمعنى التناصر والتحالف معهم.

وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه، ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض في حربه والكيد له..

وسداجة أية سداجة وغفلة أية غفلة، أن نظن أن لنا وإياهم طريقا واحدا نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين! فهم مع الكفار والملحدين، إذا كانت المعركة مع المسلمين!!!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان وفي كل زمان حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد - بوصفنا جميعا أهل

دين! - ناسين تعليم القرآن كله وناسين تعليم التاريخ كله. فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين: «هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً».. وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم درعا وردءا. وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذين شردوا العرب المسلمين في فلسطين، وأحلوا اليهود محلهم، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية! وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان.. في الحبشة والصومال واريتريا والجزائر، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية، في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند، وفي كل مكان! ثم يظهر بيننا من يظن - في بعد كامل عن قرارات القرآن الجازمة - أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر. ندفع به المادية الإلحادية عن الدين! إن هؤلاء لا يقرأون القرآن. وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن.

إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها، ولا بوصفه حركة إيجابيه تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم، كما وقفت له بالأمس. الموقف الذي لا يمكن تبديله. لأنه الموقف الطبيعي الوحيد! وندع هؤلاء في إغفالهم أو غفلتهم عن التوجيه القرآني، لنعي نحن هذا التوجيه القرآني الصريح: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ.. بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ.. وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».. هذا النداء موجه إلى الجماعة المسلمة في المدينة - ولكنه في الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة.. موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة: «الَّذِينَ آمَنُوا».. ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء للذين آمنوا، أن المفاصلة لم تكن كاملة ولا حاسمة بين بعض المسلمين في المدينة وبعض أهل الكتاب - وبخاصة اليهود - فقد كانت هناك علاقات ولاء وحلف، وعلاقات اقتصاد وتعامل، وعلاقات جيرة وصحبة.. وكان هذا كله طبيعيا مع الوضع التاريخي والاقتصادي والاجتماعي في المدينة قبل الإسلام، بين أهل المدينة من العرب وبين اليهود بصفة خاصة.. وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدين وأهله بكل صنوف الكيد التي عدتها وكشفتها النصوص القرآنية الكثيرة والتي سبق استعراض بعضها في الأجزاء الخمسة الماضية من هذه الظلال والتي يتولى هذا الدرس وصف بعضها كذلك في هذه النصوص.

ونزل القرآن لبيث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته، لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة. ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ولا يقف تحت رايتها الخاصة. المفاصلة التي لا تنهي السماحة الخلقية. فهذه صفة المسلم

دائماً. ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله ورسوله والذين آمنوا.. الوعي والمفاصلة اللذان لا بد منهما للمسلم في كل أرض وفي كل جيل.

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ.. بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ. وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ». بعضهم أولياء بعض.. إنها حقيقة لا علاقة لها بالزمن.. لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء.. إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة في أي أرض ولا في أي تاريخ.. وقد مضت القرون تلو القرون ترسم مصداق هذه القول الصادقة.. لقد ولي بعضهم بعضاً في حرب محمد - ﷺ - والجماعة المسلمة في المدينة. وولي بعضهم بعضاً في كل فجاج الأرض، على مدار التاريخ.. ولم تحتل هذه القاعدة مرة واحدة ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم، في صيغة الوصف الدائم، لا الحادث المفرد.. واختيار الجملة الاسمية على هذا النحو.. بعضهم أولياء بعض.. ليست مجرد تعبير! إنما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل! ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها.. فإنه إذا كان اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم. والفرد الذي يتولاهم من الصف المسلم، يخلع نفسه من الصف ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف «الإسلام» وينضم إلى الصف الآخر. لأن هذه هي النتيجة الطبيعية الواقعية: «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ».. وكان ظالماً لنفسه ولدين الله وللجماعة المسلمة.. وبسبب من ظلمه هذا يدخله الله في زمرة اليهود والنصارى الذين أعطاهم ولاءه. ولا يهديه إلى الحق ولا يرده إلى الصف المسلم: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».. لقد كان هذا تحذيراً عنيماً للجماعة المسلمة في المدينة. ولكنه تحذير ليس مبالغاً فيه. فهو عنيف. نعم ولكنه يمثل الحقيقة الواقعة. فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى - وبعضهم أولياء بعض - ثم يبقى له إسلامه وإيمانه، وتبقى له عضويته في الصف المسلم، الذي يتولى الله ورسوله والذين آمنوا.. فهذا مفرق الطريق..

وما يمكن أن يتميع حسم المسلم في المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام وبينه وبين كل من يرفع راية غير راية الإسلام ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملاً ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف - أول ما تستهدف - إقامة نظام واقعي في الأرض فريد يختلف عن كل الأنظمة الأخرى ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى..

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم، الذي لا أرجحة فيه ولا تردد، بأن دينه هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من الناس - بعد رسالة محمد - ﷺ - وبأن منهجه الذي كلفه الله أن يقيم الحياة عليه، منهج متفرد لا نظير له بين سائر المناهج ولا يمكن الاستغناء عنه. بمنهج آخر ولا يمكن أن يقوم مقامه منهج آخر ولا تصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه ولا يعفيه الله ولا يغفر له ولا يقبله إلا إذا هو بذل جهد طاقته في إقامة هذا المنهج بكل جوانبه: الاعتقادية والاجتماعية لم يأل في ذلك جهداً، ولم يقبل من منهجه بديلاً - ولا في جزء منه

صغير - ولم يخلط بينه وبين أي منهج آخر في تصور اعتقادي، ولا في نظام اجتماعي، ولا في أحكام
تشريعية، إلا ما استبقاه الله في هذا المنهج من شرائع من قبلنا من أهل الكتاب ...

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم بهذا كله هو - وحده - الذي يدفعه للاضطلاع بععبء
النهوض بتحقيق منهج الله الذي رضىه للناس في وجه العقبات الشاقة، والتكاليف المضنية، والمقاومة
العنيدة، والكيد الناصب، والألم الذي يكاد يجاوز الطاقة في كثير من الأحيان .. وإلا فما العناء في أمر
يغني عنه غيره - مما هو قائم في الأرض من جاهلية .. سواء كانت هذه الجاهلية ممثلة في وثنية
الشرك، أو في انحراف أهل الكتاب، أو في الإلحاد السافر .. بل ما العناء في إقامة المنهج الإسلامي، إذا
كانت الفوارق بينه وبين مناهج أهل الكتاب أو غيرهم قليلة يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة والمهادنة؟

إن الذين يحاولون تميع هذه المفاصلة الحاسمة، باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان
السماوية، يخطئون فهم معنى الأديان كما يخطئون فهم معنى التسامح. فالدين هو الدين الأخير وحده
عند الله. والتسامح يكون في المعاملات الشخصية، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي
.. إنهم يحاولون تميع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام، وبأن عليه أن يحقق
منهج الله الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلاً ولا يقبل فيه تعديلاً - ولو طفيفاً - هذا اليقين الذي
ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» .. «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ
مِنْهُ» .. «وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ» .. «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ
وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ .. بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» .. وفي القرآن كلمة الفصل
.. ولا على المسلم من تميع المتميعين وتميعهم لهذا اليقين! ويصور السياق القرآني تلك الحالة التي
كانت واقعة والتي يتزل القرآن من أجلها بهذا التحذير: «فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ
فِيهِمْ، يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ» .. روى ابن جرير عن عَطِيَّةَ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: جَاءَ عُبَادَةُ بْنُ
الصَّامِتِ مِنْ بَنِي الْحَرِثِ بْنِ الْخَزَرَجِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَوَالِي مِنْ يَهُودَ
كَثِيرٍ عَدَدَهُمْ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ وَلَايَةِ يَهُودَ وَأَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
أُبَيٍّ: إِنِّي رَجُلٌ أَخَافُ الدَّوَائِرَ، لَا أَبْرَأُ مِنْ وَلَايَةِ مَوَالِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ: " يَا
أَبَا الْحُبَابِ مَا بَخَلْتَ بِهِ مِنْ وَلَايَةِ يَهُودَ عَلَى عِبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ فَهُوَ إِلَيْكَ دُونَهُ " قَالَ: قَدْ قَبِلْتُ. فَأَنْزَلَ
اللَّهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى قَوْلِهِ: فَتَرَى الَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ٩٠٣ ...

وعن الزُّهْرِيِّ، قَالَ: لَمَّا انْهَزَمَ أَهْلُ بَدْرٍ قَالَ الْمُسْلِمُونَ لِأَوْلِيَائِهِمْ مِنْ يَهُودَ: آمِنُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ
بِیَوْمٍ مِثْلِ یَوْمِ بَدْرٍ. فَقَالَ مَالِكُ بْنُ صَيْفٍ: غَرُّكُمْ أَنْ أَصَبْتُمْ رَهْطًا مِنْ قُرَيْشٍ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْقِتَالِ، أَمَا

٩٠٣ - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبْرِيِّ (١١٠٥١) وفيه انقطاع

لَوْ أَسْرَرْنَا الْعَزِيمَةَ أَنْ نَسْتَجِمَعَ عَلَيْكُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَدٌ أَنْ تُقَاتِلُونَا ، فَقَالَ عُبَادَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ أَوْلِيَاءِي مِنَ الْيَهُودِ كَانَتْ شَدِيدَةً أَنْفُسُهُمْ كَثِيرًا سِلَاحُهُمْ شَدِيدَةً شَوْكَتُهُمْ ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ مِنْ وَلَايَتِهِمْ ، وَلَا مَوْلَى لِي إِلَّا اللَّهُ وَرَسُولُهُ . فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ: لَكِنِّي لَا أَبْرَأُ مِنْ وَلَاءِ يَهُودَ ، إِنِّي رَجُلٌ لَا بُدَّ لِي مِنْهُمْ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " يَا أَبَا حُبَابَ ، أَرَأَيْتُ الَّذِي نَفَسْتَ بِهِ مِنْ وَلَاءِ يَهُودَ عَلَى عِبَادَةِ ، فَهُوَ لَكَ دُونَهُ " قَالَ: إِذَنْ أَقْبَلُ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى أَنْ بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ: وَاللَّهُ يَعْلَمُكَ مِنَ النَّاسِ " ٩٠٤ ..

وقال محمد بن إسحاق: فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ بنو قينقاع. فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول، حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن في موالي. وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أحسن في موالي. قال: فأعرض عنه. فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: "أرسلني". وغضب رسول الله ﷺ حتى رُئي لوجهه ظللاً ثم قال: "ويحك أرسلني". قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟! إني امرؤ أخشى الدوائر، قال: فقال رسول الله ﷺ: "هم لك." ٩٠٥ ..

وقال محمد بن إسحاق: فحدثني أبي إسحاق بن يسار، عن عبادَةَ بن الوليد بن عبادَةَ بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي، وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان أحد بني عوف بن الخزرج، له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي، فجعلهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله ورسوله ﷺ من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم. ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)} فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)

٩٠٤ - جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (١١٠٥٢) ضعيف جدا

٩٠٥ - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٣ / ١٣٤) وسيرة ابن إسحاق برقم (٤٩٨) ط، المغرب. صحيح مرسل

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) [المائدة: ٥١ - ٥٦] ٩٠٦..

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فِي مَرَضِهِ نَعُوذُهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ كُنْتُ أَنُهَاكَ عَنْ حُبِّ يَهُودَ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَقَدْ أَبْغَضَهُمْ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، فَمَاتَ. ٩٠٧

فهذه الأخبار في مجموعها تشير إلى تلك الحالة التي كانت واقعة في المجتمع المسلم والمتخلفة عن الأوضاع التي كانت قائمة في المدينة قبل الإسلام وكذلك عن التصورات التي لم تكن قد حسمت في قضية العلاقات التي يمكن أن تقوم بين الجماعة المسلمة واليهود والتي لا يمكن أن تقوم.. غير أن الذي يلفت النظر أنها كلها تتحدث عن اليهود، ولم يجر ذكر في الوقائع للنصارى.. ولكن النص يحمل اليهود والنصارى.. ذلك أنه بصدد إقامة تصور دائم وعلاقة دائمة وأوضاع دائمة بين الجماعة المسلمة وسائر الجماعات الأخرى، سواء من أهل الكتاب أو من المشركين (كما سيحيى في سياق هذا الدرس).. ومع اختلاف مواقف اليهود من المسلمين عن مواقف النصارى في حملتها في العهد النبوي، ومع إشارة القرآن الكريم في موضع آخر من السورة إلى هذا الاختلاف في قوله تعالى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا»، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّا نَصَارَى.. إلخ».. مع هذا الاختلاف الذي كان يومذاك، فإن النص هنا يسوي بين اليهود والنصارى - كما يسوي النص القادم بينهم جميعا وبين الكفار.. فيما يختص بقضية المخالفة والولاء. ذلك أن هذه القضية ترتكز على قاعدة أخرى ثابتة. هي: أن ليس للمسلم ولاء ولا حلف إلا مع المسلم وليس للمسلم ولاء إلا لله ولرسوله وللجماعة المسلمة.. ويستوي بعد ذلك كل الفرق في هذا الأمر.. مهما اختلفت مواقفهم من المسلمين في بعض الظروف..

على أن الله - سبحانه - وهو يضع للجماعة المسلمة هذه القاعدة العامة الحازمة الصارمة، كان علمه يتناول الزمان كله، لا تلك الفترة الخاصة من حياة رسول الله ﷺ - وملايساتها الموقوتة.. وقد أظهر التاريخ الواقع فيما بعد أن عدااء النصارى لهذا الدين وللجماعة المسلمة في معظم بقاع الأرض لم يكن أقل من عدااء اليهود.. وإذا نحن استثنينا موقف نصارى العرب ونصارى مصر في حسن استقبال الإسلام، فإننا نجد الرقعة النصرانية في الغرب، قد حملت للإسلام في تاريخها كله منذ أن احتكت به من العداوة والضغن، وشتت عليه من الحرب والكيد، ما لا يفترق عن حرب اليهود وكيدهم في أي زمان! حتى الحبشة التي أحسن عاقلها استقبال المهاجرين المسلمين واستقبال الإسلام، عادت فإذا هي أشد حربا على الإسلام والمسلمين من كل أحد لا يجاريها في هذا إلا اليهود..

٩٠٦ - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٣ / ١٣٤) وسيرة ابن إسحاق برقم (٤٩٩) ط، المغرب. وانظر: السيرة النبوية لابن هشام

(٤٩/٢) وتفسير الطبري (١٠/٣٩٦، ٣٩٧) صحيح مرسل

٩٠٧ - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٧ / ٢٨٠) (٢١٧٥٨) (٢٢١٠١) - صحيح

وكان الله - سبحانه - يعلم الأمر كله. فوضع للمسلم هذه القاعدة العامة. بغض النظر عن واقع الفترة التي كان هذا القرآن يتزل فيها وملاساتها الموقوتة! وبغض النظر عما يقع مثلها في بعض الأحيان هنا وهناك إلى آخر الزمان.

وما يزال الإسلام والذين يتصفون به - ولو أنهم ليسوا من الإسلام في شيء - يلقون من عنت الحرب المشوبة عليهم وعلى عقيدتهم من اليهود والنصارى في كل مكان على سطح الأرض، ما يصدق قول الله تعالى: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ».. وما يحتم أن يتدرع المسلمون الواعون بنصيحة ربهم لهم. بل بأمره الجازم، ونهيه القاطع وقضائه الحاسم في المفاصلة الكاملة بين أولياء الله ورسوله، وكل معسكر آخر لا يرفع راية الله ورسوله ..

إن الإسلام يكلف المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعا على أساس العقيدة. فالولاء والعداء لا يكونان في تصور المسلم وفي حركته على السواء إلا في العقيدة .. ومن ثم لا يمكن أن يقوم الولاء - وهو التناصر - بين المسلم وغير المسلم إذ أنهما لا يمكن أن يتناصرا في مجال العقيدة .. ولا حتى أمام الإلحاد مثلا - كما يتصور بعض السذج منا وبعض من لا يقرأون القرآن! - وكيف يتناصران وليس بينهما أساس مشترك يتناصران عليه؟

إن بعض من لا يقرأون القرآن، ولا يعرفون حقيقة الإسلام وبعض المخدوعين أيضا .. يتصورون أن الدين كله دين! كما أن الإلحاد كله إلحاد! وأنه يمكن إذن أن يقف «الدين» بحملته في وجه الإلحاد. لأن الإلحاد ينكر الدين كله، ويحارب الدين على الإطلاق ..

ولكن الأمر ليس كذلك في التصور الإسلامي ولا في حس المسلم الذي يتذوق الإسلام. ولا يتذوق الإسلام إلا من يأخذه عقيدة، وحركة بهذه العقيدة، لإقامة النظام الإسلامي.

إن الأمر في التصور الإسلامي وفي حس المسلم واضح محدد .. الدين هو الإسلام .. وليس هناك دين غيره يعترف به الإسلام .. لأن الله - سبحانه - يقول هذا. يقول: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» .. ويقول: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» .. وبعد رسالة محمد - ﷺ - لم يعد هناك دين يرضاه الله ويقبله من أحد إلا هذا «الإسلام» .. في صورته التي جاء بها محمد - ﷺ - وما كان يقبل قبل بعثة محمد من النصارى لم يعد الآن يقبل. كما أن ما كان يقبل من اليهود قبل بعثة عيسى عليه السلام، لم يعد يقبل منهم بعد بعثته ..

ووجود يهود ونصارى - من أهل الكتاب - بعد بعثة محمد - ﷺ - ليس معناه أن الله يقبل منهم ما هم عليه أو يعترف لهم بأنهم على دين إلهي .. لقد كان ذلك قبل بعثة الرسول الأخير .. أما بعد بعثته فلا دين - في التصور الإسلامي وفي حس المسلم - إلا الإسلام .. وهذا ما ينص عليه القرآن نصا غير قابل للتأويل ..

إن الإسلام لا يكرههم على ترك معتقداتهم واعتناق الإسلام.. لأنه «لا إكراه في الدين» ولكن هذا ليس معناه أنه يعترف بما هم عليه «دينا» ويراهم على «دين»..

ومن ثم فليس هناك جبهة تدين يقف معها الإسلام في وجه الإلحاد! هناك «دين» هو الإسلام.. وهناك «لا دين» هو غير الإسلام.. ثم يكون هذا اللادين.. عقيدة أصلها سماوي ولكنها محرفة، أو عقيدة أصلها وثني باقية على وثنياتها. أو إلحادا ينكر الأديان.. تختلف فيما بينها كلها. ولكنها تختلف كلها مع الإسلام. ولا حلف بينها وبين الإسلام ولا ولاء...

والمسلم يتعامل مع أهل الكتاب هؤلاء وهو مطالب بإحسان معاملتهم - كما سبق - ما لم يؤذوه في الدين ويباح له أن يتزوج المحصنات منهن - على خلاف فقهي فيمن تعتقد بألوهية المسيح أو بنوته، وفيمن تعتقد التثليث أهي كتابية تحل أم مشركة تحرم - وحتى مع الأخذ بمبدأ تحليل النكاح عامة.. فإن حسن المعاملة وجواز النكاح، ليس معناها الولاء والتناصر في الدين وليس معناها اعتراف المسلم بأن دين أهل الكتاب - بعد بعثة محمد - ﷺ - هو دين يقبله الله ويستطيع الإسلام أن يقف معه في جبهة واحدة لمقاومة الإلحاد! إن الإسلام قد جاء ليصحح اعتقادات أهل الكتاب كما جاء ليصحح اعتقادات المشركين والوثنيين سواء.

ودعاهم إلى الإسلام جميعاً، لأن هذا هو «الدين» الذي لا يقبل الله غيره من الناس جميعاً. ولما فهم اليهود أنهم غير مدعوين إلى الإسلام، وكبر عليهم أن يدعوا إليه، جابههم القرآن الكريم بأن الله يدعوهم إلى الإسلام، فإن تولوا عنه فهم كافرون! والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام، كما يدعو الملحدين والوثنيين سواء. وهو غير مأذون في أن يكره أحداً من هؤلاء ولا هؤلاء على الإسلام. لأن العقائد لا تنشأ في الضمائر بالإكراه. فالإكراه في الدين فوق أنه منهي عنه، هو كذلك لا ثمرة له.

ولا يستقيم أن يعترف المسلم بأن ما عليه أهل الكتاب - بعد بعثة محمد - ﷺ - هو دين يقبله الله.. ثم يدعوهم مع ذلك إلى الإسلام!.. إنه لا يكون مكلفاً بدعوتهم إلى الإسلام إلا على أساس واحد هو أنه لا يعترف بأن ما هم عليه دين. وأنه يدعوهم إلى الدين.

وإذا تقرر هذه البديهية، فإنه لا يكون منطقياً مع عقيدته إذا دخل في ولاء أو تناصر للتمكنين للدين في الأرض، مع من لا يدين بالإسلام.

إن هذه القضية في الإسلام قضية اعتقادية إيمانية. كما أنها قضية تنظيمية حركية! من ناحية أنها قضية إيمانية اعتقادية نحسب أن الأمر قد صار واضحاً بهذا البيان الذي أسلفناه، وبالرجوع إلى النصوص القرآنية القاطعة بعدم قيام ولاء بين المسلمين وأهل الكتاب.

ومن ناحية أنها قضية تنظيمية حركية الأمر واضح كذلك.. فإذا كان سعي المؤمن كله ينبغي أن يتجه إلى إقامة منهج الله في الحياة - وهو المنهج الذي ينص عليه الإسلام كما جاء به محمد - ﷺ - بكل

تفصيلات وجوانب هذا المنهج، وهي تشمل كل نشاط الإنسان في الحياة .. فكيف يمكن إذن أن يتعاون المسلم في هذا السعي مع من لا يؤمن بالإسلام ديناً ومنهجاً ونظاماً وشرعية ومن يتجه في سعيه إلى أهداف أخرى - إن لم تكن معادية للإسلام وأهدافه فهي على الأقل ليست أهداف الإسلام - إذ الإسلام لا يعترف بمهدف ولا عمل لا يقوم على أساس العقيدة مهما بدا في ذاته صالحاً - «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ» ..

والإسلام يكلف المسلم أن يخلص سعيه كله للإسلام .. ولا يتصور إمكان انفصال أية جزئية في السعي اليومي في حياة المسلم عن الإسلام .. لا يتصور إمكان هذا إلا من لا يعرف طبيعة الإسلام وطبيعة المنهج الإسلامي .. ولا يتصور أن هناك جوانب في الحياة خارجة عن هذا المنهج يمكن التعاون فيها مع من يعادي الإسلام، أو لا يرضى من المسلم إلا أن يترك إسلامه، كما نص الله في كتابه على ما يطلبه اليهود والنصارى من المسلم ليرضوا عنه! .. إن هناك استحالة اعتقادية كما أن هناك استحالة عملية على السواء ..

ولقد كان اعتذار عبد الله بن أبي بن سلول، وهو من الذين في قلوبهم مرض، عن مسارعته واجتهاده في الولاء لليهود، والاستمسك بحلفه معها، هي قوله: إنني رجل أخشى الدوائر! إنني أخشى أن تدور علينا الدوائر وأن تصيبنا الشدة، وأن تنزل بنا الضائقة .. وهذه الحجة هي علامة مرض القلب وضعف الإيمان

فالولي هو الله والناصر هو الله والاستنصار بغيره ضلالة، كما أنه عبث لا ثمرة له .. ولكن حجة ابن سلول، هي حجة كل بن سلول على مدار الزمان وتصوره هو تصور كل منافق مريض القلب، لا يدرك حقيقة الإيمان .. وكذلك نفر قلب عبادة بن الصامت من ولأه يهود بعد ما بدا منهم ما بدا. لأنه قلب مؤمن فخلع ولأه اليهود وقذف به، حيث تلقاه وضم عليه صدره وعض عليه بالنواجذ عبد الله بن أبي بن سلول!

إنهما نهجان مختلفان، ناشئان عن تصورين مختلفين، وعن شعورين متباينين، ومثل هذا الاختلاف قائم على مدار الزمان بين قلب مؤمن وقلب لا يعرف الإيمان!

ويهدد القرآن المستنصرين بأعداء دينهم، المتألبين عليهم، المنافقين الذين لا يخلصون لله اعتقادهم ولا ولأههم ولا اعتمادهم .. يهددهم برجاء الفتح أو أمر الله الذي يفصل في الموقف أو يكشف المستور من النفاق: «فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ، فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ». وعندئذ - عند الفتح - سواء كان هو فتح مكة أو كان الفتح بمعنى الفصل أو عند مجيء أمر الله - يندم أولئك الذين في قلوبهم مرض، على المسارعة والاجتهاد في ولأه اليهود والنصارى وعلى النفاق الذي انكشف أمره، وعندئذ يعجب الذين آمنوا من حال المنافقين، ويستنكرون ما كانوا فيه من النفاق وما صاروا إليه من الخسران!

«وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا: أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ؟ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ، فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ!» ..

ولقد جاء الله بالفتح يوما، وتكشفت نوايا، وحبطت أعمال، وخسرت فئات. ونحن على وعد من الله قائم بأن يجيء الفتح، كلما استمسكنا بعروة الله وحده وكلما أخلصنا الولاء لله وحده. وكلما وعينا منهج الله، وأقمنا عليه تصوراتنا وأوضاعنا. وكلما تحركنا في المعركة على هدى الله وتوجيهه. فلم نتخذ لنا وليا إلا الله ورسوله والذين آمنوا ..^{٩٠٨}

٣١. عدم تكليم شرع الله تعالى في شئون حياتنا :

قال تعالى: { يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا حَزِينٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ

^{٩٠٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٣٠٢)

أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ
بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ
حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوفِقُونَ (٥٠) { سورة المائدة

نزلت هذه الآية والتي بعدها في المنافقين، الذين يقولون آمنا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم، وفي أعداء
الإسلام من اليهود، الذين كانوا كثيري الاستماع إلى كلام الرسول ﷺ، والإخبار عنه، لأجل الكذب
عليه بالتحريف واستنباط الشبهات، فهم جواسيس بين المسلمين لأعدائهم، مهمتهم إبلاغ رؤوس
الكفر أعداء الإسلام، كل ما يقفون عليه ليكون ما يفترونه على النبي ﷺ والمسلمين من كذب
مقبولاً، لأنهم يروون ما يقال، ويحرفون فيه، وكان هؤلاء يأتون إلى الرسول ﷺ ليستمعوا منه، ثم
ينقلون ما يسمعون منه إلى الرؤساء ذوي الكيد، الذين لم يأتوا إلى النبي ﷺ ليستمعوا منه بأذنانهم، إنما كبراً
وإمّا تمرداً .

ويقوم الرؤساء الروحيون من اليهود بتحريف كلام التوراة من بعد أن وضعه الله في
مواضعه، وأحكمه، إمّا تحريفاً لفظياً، بإبدال كلمة بكلمة، وإمّا بإخفائه وكتمانه، وإمّا بالزيادة فيه، أو
بالتقص منه، وإمّا تحريفاً معنوياً، بحمل اللفظ على معنى يختلف عن المعنى الذي قصدته الشارح، ويقول
بعضهم لبعض: إن حكم لكم محمد الحكم الذي تريدون فاقبلوه، وإن قضى بغيره فلا تستمعوا إليه .

(وهذه الآية نزلت في يهوديين زنيا بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بقليل، وكان اليهود قد تخللوا
عن تنفيذ ما شرعه الله لهم في التوراة من رجم الزناة المحصنين، فحرفوا حكم الله، واصطلحوا فيما
بينهم على جلد الزاني مئة جلدة مع صبغ الوجه بالسود (ويسمونه التحميم) . فلما وقعت حادثة
الزنى، قال بعض اليهود لبعض تعالوا نتحاكم إلى محمد فإن حكم بالجلد، وصبغ الوجه بالسود، فخذوا
ذلك عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم
بالرجم فلا تتبعوه . فلما جاؤوا إلى الرسول ﷺ سألهم عما في كتابهم في حكم الزناة، فقالوا
نفضحهم ويجلدون . فقال لهم عبد الله بن سلام - وكان حبراً من أخبارهم ثم أسلم - كذبت إن
فيه الرجم) . ومن أراد الله أن يختبره في دينه فيظهر الاختبار كفره وضلاله، فلن تملك له يا محمد من
الله شيئاً، لأن الله لم يرد أن يطهر قلبه، ولا أن يهديه؛ ولهذا الضال حزني في الدنيا، وله في الآخرة
عذاب عظيم . فلا تحزن يا محمد بعد هذا على مسارعته في الكفر، ولا تطمع في هدايته إلى
الإيمان، فإنك لا تملك لأحد نفعاً، وإنما عليك البلاغ .

وأعاد الله تعالى وصفهم بكثرة السماع للكذب، فقال: وهُمْ سَمَاعُونَ لِلْبَاطِلِ، آكُلُونَ لِلْمَالِ الْحَرَامِ
كَالرَّبَا وَالرَّشْوَةِ (السُّحْتِ)، فإذا جاؤوك يتحاكمون إليك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم، فلا عليك
أن لا تحكم بينهم لأنهم لا يقصدون، بمحييتهم إليك للتحاكم، اتباع الحق، بل يريدون أن تحكم لهم بما
يوافق أهواءهم

(وهذا الحكم خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة، فبالنسبة للمعاهدين لا يجب على المسلمين أن يحكموا بينهم) كالأجانب الموجودين في بلاد المسلمين)، وإن تحاكموا إليهم، بل المسلمون مخيرون في ذلك حسبما يرون فيه المصلحة .

وأما أهل الذمة فيجب الحكم بينهم إذا تحاكموا إلى المسلمين، لأن من أخذت منه الجزية تجري عليه أحكام الإسلام، في البيوع والمواثيق والعقود، عدا بيع الخمر والخزير) .

(وقال ابن عباس هذا الحكم منسوخ بقوله تعالى { وأن احكم بينهم بما أنزل الله } . ثم يقول تعالى لنبيه ﷺ: وإذا أردت أن تحكم بينهم، فاحكم بالحق والعدل، لأن الله يحب الذين يقضون بالعدل (المقسطين) .

ويُنكرُ الله تعالى على هؤلاء مقاصدهم الزائفة، ونياتهم الفاسدة، في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، والذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً، ثم يخرجون عن حكمه إلى غيره (القرآن والإسلام)، مما يعتقدون بطلانه، وعدم لزومه لهم . فقال الله تعالى لرسوله ﷺ: كيف يحكمونك في أمر الزنا وعندهم التوراة فيها حكم الله، وإذا أردت أنت أن تحكم بينهم بما يتفق مع شرعهم، لم يقبلوا حكمك (يتولون) لأنهم ليسوا مؤمنين إيماناً صحيحاً لا بدينهم، ولا بدينك .

يتولون من بعد ذلك - يعرضون عن حكمك الموافق لحكم التوراة بعد تحكيمك .

يمدحُ الله تعالى التوراة، فيقول: إنه أنزلها وفيها هدى ونور، ويحكم بها الأنبياء الذين أسلموا وجوههم لربهم مخلصين له الدين (وهم موسى ومن جاء بعده من أنبياء بني إسرائيل) بين اليهود لا يخرجون عن حكمها، ولا يبدلونها ولا يحرفونها . ويحكم بها العلماء العبَّاد (الربانيون)، والعلماء (الأخبار) بما استودعوا (است حفظوا) من كتاب الله الذي أمروا بأن يحفظوه من التبديل، وبأن يظهروه، ويعملوا بأحكامه، ثم خاطب الله تعالى رؤساء اليهود الذين كانوا في زمن التنزيل فقال: كيف لا يخافون الله في الكتمان والتبديل، بعد أن قصَّ الله تعالى عليهم سيرة السلف الصالح من بني إسرائيل عليهم يعتبرون ويرعون عن غيرهم . ثم قال لهم: وإذا كان الحال كذلك أيها الأخبار، ولا شك في أنكم لا تنكرونه، فلا تخشوا الناس فتكنتموا ما عندكم من الكتاب، خشية الناس، أو طمعاً في منفعة عاجلة منه، وأخشوني أنا واقتدوا بمن كان قبلكم من الربانيين والأخبار، واحفظوا التوراة، ولا تعدلوا عن ذلك، فإن النفع والضرر بيد الله، ولا تتركوا بيان أحكام التوراة للناس، والعمل بها، لقاء منفعة دنيوية قليلة تأخذونها من الناس كرشوة أو جاه .

وكلُّ من يرغب عن الحكم بما أنزل الله من شرع، ويخفيه ويحكم بغيره (كحكم اليهود في الزانيين المحصنين بالتحميم والجلد، وكتمان الرجم، وقضائهم في بعض قتلاهم بدية كاملة، وفي بعضهم بنصف دية، مع أن الله قد سوى بين الجميع في الحكم)، فأولئك هم الكافرون الذين سترُوا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبيينه للناس .

جاءت التَّورَةُ بِشَرِعةِ الْقِصَاصِ: فَالتَّنَفُّسُ يُقْتَلُ بِالتَّنَفُّسِ، وَلَكِنَّ الْيَهُودَ يُخَالِفُونَ هَذَا الْحُكْمَ عَمْدًا وَعِنَادًا: فَقَدْ كَانَتْ قَبِيلَتَا بَنِي النَّصِيرِ وَبَنِي قُرَيْظَةَ تَتَحَارَبَانِ وَتَتَقَاتِلَانِ، وَكَانَتْ قَبِيلَةُ بَنِي النَّصِيرِ قَوِيَّةً عَزِيزَةً الْجَانِبِ، وَكَانَ بَنُو قُرَيْظَةَ ضَعْفَاءَ أَذْلَاءَ، فَكَانَ النَّصِيرِيُّ إِذَا قَتَلَ قُرَظِيًّا، لَمْ يَكُنْ لِيُقْتَلَ بِهِ، بَلْ يُعْدَلُ فِيهِ إِلَى الدِّيَةِ. أَمَّا إِذَا قَتَلَ الْقُرَظِيُّ نَصِيرِيًّا، فَكَانَ يُقْتَلُ بِهِ، وَفِي ذَلِكَ مُخَالَفَةٌ لِحُكْمِ التَّورَةِ كَمَا خَالَفُوا حُكْمَ التَّورَةِ فِي تَرْكِ رَجْمِ الزَّانِي الْمُحْصَنِ، كَمَا أَمَرَتْ بِهِ التَّورَةُ، وَعَدَلُوا عَنْهُ إِلَى الْجُلْدِ وَالتَّحْمِيمِ. وَقَضَتِ التَّورَةُ بِأَنْ تُفَقَّ الْعَيْنُ بِالْعَيْنِ، وَبِأَنْ يُجَدَعَ الْأَنْفُ بِالْأَنْفِ، وَأَنْ تُصَلَّمَ الْأُذُنُ بِالْأُذُنِ، وَأَنْ تُتْرَعَ السِّنُّ بِالسِّنِّ.

أَمَّا الْجَرَاحُ فَيَتِمُّ فِيهَا الْقِصَاصُ إِذَا كَانَتْ فِي مِفْصَلٍ، فَيُقَطَّعُ الْيَدُ وَالرَّجُلُ وَالْكَفُّ وَالْقَدَمُ وَنَحْوُ ذَلِكَ أَمَّا إِذَا كَانَ الْجَرْحُ فِي عَظْمٍ وَلَيْسَ فِي مِفْصَلٍ، فَاخْتَلَفَ فِي كَيْفِيَةِ التَّطْبِيقِ. فَمَنْ عَفَا وَتَصَدَّقَ بِحَقِّهِ فِي الْقِصَاصِ عَلَى الْجَانِي، كَانَ التَّصَدَّقُ كَفَّارَةً لَهُ يَمْحُو اللَّهُ بِهَا قَدْرًا مِنْ ذُنُوبِهِ.

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى: وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كُتُبِهِ مِنْ شَرَعٍ، فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُنْصِفُوا الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ، فِي أَمْرِ أَمَرَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ وَالْمَسَاوَةِ فِيهِ بَيْنَ جَمِيعِ خَلْقِهِ.

وَأَرْسَلْنَا مِنْ بَعْدِ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ مُؤْمِنًا بِالتَّورَةِ، وَحَاكِمًا بِمَا فِيهَا مِنْ أَحْكَامٍ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى لِلْحَقِّ، وَبَيَانٌ لِلْأَحْكَامِ، وَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي إِزَالَةِ الشُّبُهَاتِ، وَحُلِّ الْمُسْكَلاتِ. وَجَاءَ الْإِنْجِيلُ مُصَدِّقًا لِلتَّورَةِ، وَمُتَّبِعًا لَهَا، غَيْرَ مُخَالِفٍ لَهَا فِيهَا إِلَّا فِي الْقَلِيلِ مِمَّا بَيْنَ لَبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْضُ مَا كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ. وَجَعَلْنَا الْإِنْجِيلَ هُدًى يَهْتَدِي بِهِ الْمُتَّقُونَ، وَوَاعِظًا وَزَاجِرًا لَهُمْ عَنِ ارْتِكَابِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَعَنِ اقْتِرَافِ الْمَآثِمِ.

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِأَنْ يُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا جَاءَ فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَبِأَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ شَرَعٍ يُؤْمِنُ بِهِ، كَانَ مِنَ الْفَاسِقِينَ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ.

وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ (الْكِتَابَ) إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ بِالْحَقِّ وَالصِّدْقِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، مُصَدِّقًا لِلْكِتَابِ السَّابِقَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ ذِكْرَهُ وَمَدْحَهُ، وَالْإِشَارَةَ إِلَى أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَكَانَ نُزُولُهُ كَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ مِمَّا زَادَهَا صِدْقًا عِنْدَ حَامِلِيهَا مِنْ ذَوِي الْبَصَائِرِ، الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَشَرَعُهُ، وَصَدَّقُوا رُسُلَهُ. وَالْقُرْآنُ جَاءَ أَمِينًا عَلَى الْكِتَابِ السَّابِقَةِ، وَشَاهِدًا عَلَيْهَا بِالْحَقِّ وَالصَّحَّةِ بِمَا بَيْنَهُ مِنْ حَقِيقَةِ أَمْرِهَا (مُهَيِّمًا عَلَيْهِ)، وَمُبَيِّنًا حَالَ مَنْ خُوِطِبُوا بِهَا: مِنْ نَسِيَانٍ حَظَّ عَظِيمٍ مِنْهَا، وَتَحْرِيفٍ كَثِيرٍ مِمَّا بَقِيَ، أَوْ تَأْوِيلِهِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ.

وَبِمَا أَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ رَقِيبًا وَأَمِينًا وَشَاهِدًا (مُهَيِّمًا) عَلَى الْكِتَابِ السَّابِقَةِ، الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ، فَاحْكُمُوا يَا مُحَمَّدُ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ - إِذَا تَحَاكَمُوا إِلَيْكَ - بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ مِنَ الْأَحْكَامِ، دُونَ

ما أنزلهُ اللهُ إليهِمْ، لأنَّ شريعتك ناسخةٌ لشريعتِهِمْ، ولا تتَّبِعْ أهواءَهُمْ ورغباتِهِمْ في الحُكْمِ لَهمْ بما يسهلُ عليهِمْ، ويخفُّ احتِمَالُهُ .

ثمَّ يذكُرُ اللهُ تعالى أَنَّهُ جعلَ لكلِّ أمةٍ مِنَ النَّاسِ شريعةً أوجبَ عليهِمْ إقامةَ أحكامِها، ومنهاجاً وطريقاً فرضَ عليهِمْ سُلُوكَهُ لِتَرْكِيبَةِ نُفُوسِهِمْ (فأصلُ الدِّينِ واحدٌ، ولكنَّ الشَّرائعَ العمليَّةَ تختلفُ باختلافِ أحوالِ البشرِ، وطباعِهِمْ واستعدادِهِمْ) .

ولو شاء اللهُ أنْ يجعلَ النَّاسَ أمةً واحدةً، ذاتَ شريعةٍ واحدةٍ ومنهاجٍ واحدٍ، يسيرُونَ عليهِ، لفعلَ، ولكنَّهُ تعالى لمْ يشأْ، ليختبرَهُمْ فيما شرعَ لَهمْ، وليثبِتَهُمْ على طاعتهِ، ويُعاقِبَهُمْ على معصيتهِ .

ويُحثُّ اللهُ تعالى النَّاسَ على المبادرةِ والإسراعِ إلى طاعةِ اللهِ، وأتباعِ شرعِهِ الذي جعلَهُ ناسخاً ما قبلَهُ من الشَّرائعِ، ويُخبرَهُمْ أنَّ إليهِ مرجِعُهُمْ ومصيرُهُمْ يومَ القيامةِ، فيُخبرُهُمْ بما اختلفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ، ويجزِي كُلَّ عاملٍ بعملِهِ .

قالَ بعضُ رؤساءِ اليهودِ لبعضِ: اذهبوا إلى مُحَمَّدٍ لعلنا نفتنُهُ عَنْ دينِهِ . فأتَوْهُ فقالوا: يا مُحَمَّدُ إِنَّكَ عَرَفْتَ أَنَّا أحبارُ يهودَ وأشرفُهُمْ وسادُّتُهُمْ، وإنا إنْ اتَّبَعْنَا يَهُودَ وَلَمْ يَحْلِفُوا، وَإِنْ بَيْنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا خُصُومةٌ، فنُخاصِمُهُمْ إليك فتَقْضِي لنا عليهِمْ، ونُؤمِّنُ لَكَ ونُصدِّقُكَ . فأبى الرَّسُولُ ﷺ ذلكَ وأنزلَ اللهُ تعالى هذهَ الآيةَ فِيهِمْ .

وفي هذهِ الآيةِ يُؤكِّدُ اللهُ تعالى على ما أمرَ بِهِ رَسولُهُ مِنَ الحُكْمِ بَيْنَ أَهْلِ الكِتَابِ بما أنزلَ اللهُ إليهِ في القرآنِ، ويحذِّرُهُ مِنْ أنْ يفتنُهُ اليهودُ، ويصرفُوهُ عَنْ الحَقِّ، ويأمرُهُ بِالْأَلَّا يَغْتَرَّ بِهِمْ، فَهُمْ كَذِبٌ كَفَرَةٌ . ثُمَّ يَقُولُ تعالى لِنَبِيِّهِ: فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْ حُكْمِكَ بَعْدَ تَحَاكُمِهِمْ إِلَيْكَ، فاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ كائِنْ عَنْ إِرَادَةِ اللهِ، وَمَشِيتَتِهِ، وَحُكْمَتِهِ فِيهِمْ، أَنْ يَصْرِفَهُمْ عَنِ الْهُدَى لِيُعَذِّبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، وَإِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ، مُخَالِفُونَ لِلْحَقِّ .

أيتولَّونَ عَنْ حُكْمِكَ بِمَا أنزلَ اللهُ؟ فهلْ يُريدُونَ حُكْماً كَحُكْمِ الجَاهِلِيَّةِ المَبْنِي على التَّحْيِيزِ والهُوى، وترجِيحِ جانبِ القويِّ على الضَّعيفِ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً، وَمَنْ أَعْدَلُ مِنْهُ فَصْلاً؟ لِمَنْ عقلَ شرعَ اللهِ وآمنَ بِهِ؟^{٩٠٩}

لقد جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة. منهج حياة واقعية. جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية، وتنظيمها، وتوجيهها، وصيانتها. ولم يجر دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة في الضمير ولا ليكون كذلك مجرد شعائر تعبدية تؤدي في الهيكل والحراب. فهذه وتلك - على ضرورتها للحياة البشرية وأهميتهما في تربية الضمير البشري - لا يكفيان وحدهما لقيادة الحياة وتنظيمها وتوجيهها

^{٩٠٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧١١، بترقيم الشاملة آليا)

وصيانتها ما لم يقيم على أساسهما منهج ونظام وشريعة تطبق عمليا في حياة الناس ويؤخذ الناس بها بحكم القانون والسلطان ويؤخذ الناس على مخالفتها، ويؤخذون بالعقوبات.

والحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد يملك السلطان على الضمائر والسرائر، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك. ويجزي الناس وفق شرائعه في الحياة الدنيا، كما يجزيهم وفق حسابه في الحياة الآخرة.

فأما حين تتوزع السلطة، وتتعدد مصادر التلقي.. حين تكون السلطة لله في الضمائر والشعائر بينما السلطة لغيره في الأنظمة والشرائع.. وحين تكون السلطة لله في جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا..

حينئذ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين مختلفتين، وبين اتجاهين مختلفين، وبين منهجين مختلفين.. وحينئذ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذي تشير إليه آيات القرآن في مناسبات شتى: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا».. «وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ».. «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ»..

من أجل هذا جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة. وسواء جاء هذا الدين لقرية من القرى، أو لأمة من الأمم، أو للبشرية كافة في جميع أجيالها، فقد جاء ومعه شريعة معينة لحكم واقع الحياة، إلى جانب العقيدة التي تنشئ التصور الصحيح للحياة، إلى جانب الشعائر التعبدية التي تربط القلوب بالله.. وكانت هذه الجوانب الثلاثة هي قوام دين الله. حيثما جاء دين من عند الله. لأن الحياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا حين يكون دين الله هو منهج الحياة^{٩١٠}

وفي القرآن الكريم شواهد شتى على احتواء الديانات الأولى، التي ربما جاءت لقرية من القرى، أو لقبيلة من القبائل على هذا التكامل، في الصورة المناسبة للمرحلة التي تمر بها القرية أو القبيلة.. وهنا يعرض هذا التكامل في الديانات الثلاث الكبرى.. اليهودية، والنصرانية، والإسلام..

ويبدأ بالتوراة في هذه الآيات التي نحن بصدددها في هذه الفقرة: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ»: فالتوراة - كما أنزلها الله - كتاب الله الذي جاء لهداية بني إسرائيل، وإنارة طريقهم إلى الله. وطريقهم في الحياة.. وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد. وتحمل شعائر تعبدية شتى. وتحمل كذلك شريعة: «يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا، لِلَّذِينَ هَادُوا، وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ، بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ».

أنزل الله التوراة لا لتكون هدى ونورا للضمائر والقلوب بما فيها من عقيدة وعبادات فحسب. ولكن كذلك لتكون هدى ونورا بما فيها من شريعة تحكم الحياة الواقعية وفق منهج الله، وتحفظ هذه الحياة

^{٩١٠} - يراجع بتوسع كتاب: «الإسلام ومشكلات الحضارة» وكتاب «المستقبل لهذا الدين» وكتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

في اطار هذا المنهج. ويحكم بما النبيون الذين أسلموا أنفسهم لله فليس لهم في أنفسهم شيء إنما هي كلها لله وليست لهم مشيئة ولا سلطة ولا دعوى في خصيصة من خصائص الألوهية - وهذا هو الإسلام في معناه الأصيل - يحكمون بما للذين هادوا - فهي شريعتهم الخاصة نزلت لهم في حدودهم هذه وبصفتهم هذه - كما يحكم بما لهم الرابانيون والأخبار وهم قضاتهم وعلمائهم. وذلك بما أنهم قد كلفوا المحافظة على كتاب الله، وكلفوا أن يكونوا عليه شهداء، فيؤدوا له الشهادة في أنفسهم، بصياغة حياتهم الخاصة وفق توجيهاته، كما يؤدوا له الشهادة في قومهم بإقامة شريعته بينهم.

وقبل أن ينتهي السياق من الحديث عن التوراة، يلتفت إلى الجماعة المسلمة، ليوحيها في شأن الحكم بكتاب الله عامة، وما قد يعترض هذا الحكم من شهوات الناس وعنادهم وحرهم وكفاحهم، وواجب كل من استحفظ على كتاب الله في مثل هذا الموقف، وجزاء نكوله أو مخالفته: «فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخِشُونَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا. وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» ..

ولقد علم الله - سبحانه - أن الحكم بما أنزل الله ستواجهه - في كل زمان وفي كل أمة - معارضة من بعض الناس ولن تقبله نفوس هذا البعض بالرضى والقبول والاستسلام .. ستواجهه معارضة الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث. ذلك أنه سيتزع عنهم رداء الألوهية الذي يدعونه ويرد الألوهية لله خالصة، حين يتزع عنهم حق الحاكمية والتشريع والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله .. وستواجهه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على الاستغلال والظلم والسحت. ذلك أن شريعة الله العادلة لن تبقي على مصالحهم الظالمة .. وستواجهه معارضة ذوي الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال. ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها وسيأخذهم بالعقوبة عليها .. وستواجهه معارضة جهات شتى غير هذه وتلك ممن لا يرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح في الأرض.

علم الله - سبحانه - أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجبهات وأنه لا بد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة وأن يصمدوا لها، وأن يحتملوا تكاليفها في النفس والمال .. فهو يناديهم: «فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخِشُونَ» ..

فلا تقف خشيتهم للناس دون تنفيذهم لشريعة الله. سواء من الناس أولئك الطغاة الذين يأبون الاستسلام لشريعة الله، ويرفضون الإقرار - من ثم - بتفرد الله - سبحانه - بالألوهية. أو أولئك المستغلون الذين تحول شريعة الله بينهم وبين الاستغلال وقد مردوا عليه. أو تلك الجموع المضللة أو المنحرفة أو المنحلة التي تستثقل أحكام شريعة الله وتشغب عليها .. لا تقف خشيتهم لهؤلاء جميعا ولغيرهم من الناس دون المضي في تحكيم شريعة الله في الحياة. فالله - وحده - هو الذي يستحق أن يخشوه. والخشية لا تكون إلا لله ..

كذلك علم الله - سبحانه - أن بعض المستحفظين على كتاب الله المستشهدين قد تراودهم أطماع الحياة الدنيا وهم يجدون أصحاب السلطان، وأصحاب المال، وأصحاب الشهوات، لا يريدون حكم الله فيملقون شهوات هؤلاء جميعاً، طمعاً في عرض الحياة الدنيا - كما يقع من رجال الدين المخترفين في كل زمان وفي كل قبيل وكما كان ذلك واقعا في علماء بني إسرائيل.

فناداهم الله: «وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا» ..

وذلك لقاء السكوت، أو لقاء التحريف، أو لقاء الفتاوى المدخولة! وكل ثمن هو في حقيقته قليل. ولو كان ملك الحياة الدنيا.. فكيف وهو لا يزيد على أن يكون رواتب ووظائف وألقاباً ومصالح صغيرة يباع بها الدين، وتشترى بها جهنم عن يقين؟! إنه ليس أشنع من خيانة المستأمن وليس أبشع من تفريط المستحفظ وليس أحسن من تدليس المستشهد.

والذين يحملون عنوان: «رجال الدين» يخونون ويفرطون ويدلسون، فيسكتون عن العمل لتحكيم ما أنزل الله، ويحرفون الكلم عن مواضعه، لموافاة أهواء ذوي السلطان على حساب كتاب الله .. «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» .. بهذا الحسم الصارم الجازم. وبهذا التعميم الذي تحمله «من» الشرطية وجملة الجواب. بحيث يخرج من حدود الملازمة والزمان والمكان، وينطلق حكماً عاماً، على كل من لم يحكم بما أنزل الله، في أي جيل، ومن أي قبيل ..

والعلة هي التي أسلفنا .. هي أن الذي لا يحكم بما أنزل الله، إنما يرفض ألوهية الله. فالألوهية من خصائصها ومن مقتضاها الحاكمية التشريعية. ومن يحكم بغير ما أنزل الله، يرفض ألوهية الله وخصائصها في جانب، ويدعي لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها في جانب آخر .. وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك؟

وما قيمة دعوى الإيمان أو الإسلام باللسان، والعمل - وهو أقوى تعبيراً من الكلام - ينطق بالكفر أفصح من اللسان؟! إن المماحكة في هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل، لا تعني إلا محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة.

والتأويل والتأول في مثل هذا الحكم لا يعني إلا محاولة تحريف الكلم عن مواضعه .. وليس لهذه المماحكة من قيمة ولا أثر في صرف حكم الله عمن ينطبق عليهم بالنص الصريح الواضح الأكيد.

وبعد بيان هذا الأصل القاعدي في دين الله كله، يعود السياق، لعرض نماذج من شريعة التوراة التي أنزلها الله ليحكم بها النبيون والربانيون والأخبار للذين هادوا - بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء: «وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا: أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ، وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ، وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ» ..

وقد استبقيت هذه الأحكام التي نزلت بها التوراة في شريعة الإسلام، وأصبحت جزءاً من شريعة المسلمين، التي جاءت لتكون شريعة البشرية كلها إلى آخر الزمان. وإن كانت لا تطبق إلا في دار

الإسلام، لا اعتبارات عملية بحتة حيث لا تملك السلطة المسلمة أن تطبقها فيما وراء حدود دار الإسلام. وحيثما كان ذلك في استطاعتها فهي مكلفة تنفيذها وتطبيقها، بحكم أن هذه الشريعة عامة للناس كافة، للأزمان كافة، كما أرادها الله.

وقد أضيف إليها في الإسلام حكم آخر في قوله تعالى: «فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ» .. ولم يكن ذلك في شريعة التوراة. إذ كان القصاص حتما لا تنازل فيه، ولا تصدق به، ومن ثم فلا كفارة.

ثم يمضي السياق في بيان اطراد هذا الحكم العام فيما بعد التوراة: «وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ. وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ. وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» ..

فقد أتى الله عيسى بن مريم الإنجيل، ليكون منهج حياة، وشريعة حكم .. ولم يتضمن الإنجيل في ذاته تشريعا إلا تعديلات طفيفة في شريعة التوراة. وقد جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة، فاعتمد شريعتها - فيما عدا هذه التعديلات الطفيفة .. وجعل الله فيه هدى ونورا، وهدى وموعظة .. ولكن لمن؟ .. «للمتقين» ..

فالمتمتقون هم الذين يجدون في كتب الله الهدى والنور والموعظة، هم الذين تفتتح قلوبهم لما في هذه الكتب من الهدى والنور وهم الذين تفتتح لهم هذه الكتب عما فيها من الهدى والنور .. أما القلوب الجاسية الغليظة الصلدة، فلا تبلغ إليها الموعظة ولا تجد في الكلمات معانيها ولا تجد في التوجيهات روحها ولا تجد في العقيدة مذاقها ولا تنتفع من هذا الهدى ومن هذا النور بهداية ولا معرفة ولا تستجيب .. إن النور موجود، ولكن لا تدركه إلا البصيرة المفتوحة، وإن الهدى موجود، ولكن لا تدركه إلا الروح المستشرفة، وإن الموعظة موجودة، ولكن لا يلتقطها إلا القلب الواعي. وقد جعل الله في الإنجيل هدى ونورا وموعظة للمتقين، وجعله منهج حياة وشريعة حكم لأهل الإنجيل ..

أي إنه خاص بهم، فليس رسالة عامة للبشر - شأنه في هذا شأن التوراة وشأن كل كتاب وكل رسالة وكل رسول، قبل هذا الدين الأخير - ولكن ما طابق من شريعته - التي هي شريعة التوراة - حكم القرآن فهو من شريعة القرآن. كما مر بنا في شريعة القصاص.

وأهل الإنجيل كانوا إذن مطالبين أن يتحاكموا إلى الشريعة التي أقرها وصدقها الإنجيل من شريعة التوراة: «وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ» ..

فالقاعدة هي الحكم بما أنزل الله دون سواه. وهم واليهود كذلك لن يكونوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل - قبل الإسلام - وما أنزل إليهم من ربهم - بعد الإسلام - فكله شريعة واحدة، هم

ملزمون بها، وشرعية الله الأخيرة هي الشرعية المعتمدة: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» ..

والنص هنا كذلك على عموميه وإطلاقه .. وصفة الفسق تضاف إلى صفتي الكفر والظلم من قبل. وليست تعني قوما جددا ولا حالة جديدة منفصلة عن الحالة الأولى. إنما هي صفة زائدة على الصفتين قبلها، لا صفة بمن لم يحكم بما أنزل الله من أي جيل، ومن أي قبيل. الكفر برفض ألوهية الله مثلا هذا في رفض شريعته. والظلم بحمل الناس على غير شريعة الله وإشاعة الفساد في حياتهم. والفسق بالخروج عن منهج الله واتباع غير طريقه .. فهي صفات يتضمنها الفعل الأول، وتنطبق جميعها على الفاعل. ويوئد بها جميعا دون تفريق.

وأخيرا يصل السياق إلى الرسالة الأخيرة وإلى الشرعية الأخيرة .. إنها الرسالة التي جاءت تعرض «الإسلام» في صورته النهائية الأخيرة ليكون دين البشرية كلها ولتكون شريعته هي شريعة الناس جميعا ولتهيمن على كل ما كان قبلها وتكون هي المرجع النهائي ولتقيم منهج الله لحياة البشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها. المنهج الذي تقوم عليه الحياة في شتى شعبها ونشاطها والشرعية التي تعيش الحياة في إطارها وتدور حول محورها وتستمد منها تصورها الاعتقادي، ونظامها الاجتماعي، وآداب سلوكها الفردي والجماعي ..

وقد جاءت كذلك ليحكم بها، لا لتعرف وتدرس، وتتحول إلى ثقافة في الكتب والدفاتر! وقد جاءت لتتبع بكل دقة، ولا يترك شيء منها ويستبدل به حكم آخر في صغيرة من شئون الحياة أو كبيرة .. فإما هذا وإما فهي الجاهلية والهوى. ولا يشفع في هذه المخالفة أن يقول أحد إنه يجمع بين الناس بالتساهل في الدين. فلو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة. إنما يريد الله أن تحكم شريعته، ثم يكون من أمر الناس ما يكون: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ، فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ. لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً. وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ. إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ. وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ، وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ. أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْعُونَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ..»

ويقف الإنسان أمام هذه النصاعة في التعبير، وهذا الحسم في التقرير، وهذا الاحتياط البالغ لكل ما قد يهيج في الخاطر من مبررات لترك شيء - ولو قليل - من هذه الشريعة في بعض الملابس والظروف

يقف الإنسان أمام هذا كله، فيعجب كيف ساغ لمسلم - يدعي الإسلام - أن يترك شريعة الله كلها، بدعوى الملابس والظروف! وكيف ساغ له أن يظل يدعي الإسلام بعد هذا الترك الكلي

لشريعة الله! وكيف لا يزال الناس يسمون أنفسهم «مسلمين»؟! وقد خلعوا ربقة الإسلام من رقابهم، وهم يخلعون شريعة الله كلها ويرفضون الإقرار له بالألوهية، في صورة رفضهم الإقرار بشريعته، وبصلاحية هذه الشريعة في جميع الملابس والظروف، وبضرورة تطبيقها كلها في جميع الملابس والظروف! «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» ..

يتمثل الحق في صدوره من جهة الألوهية، وهي الجهة التي تملك حق تنزيل الشرائع، وفرض القوانين .. ويتمثل الحق في محتوياته، وفي كل ما يعرض له من شئون العقيدة والشريعة، وفي كل ما يقصه من خبر، وما يحمله من توجيه: «مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ» .. فهو الصورة الأخيرة لدين الله، وهو المرجع الأخير في هذا الشأن، والمرجع الأخير في منهج الحياة وشرائع الناس، ونظام حياتهم، بلا تعديل بعد ذلك ولا تبديل.

ومن ثم فكل اختلاف يجب أن يرد إلى هذا الكتاب ليفصل فيه. سواء كان هذا الاختلاف في التصور الاعتقادي بين أصحاب الديانات السماوية، أو في الشريعة التي جاء هذا الكتاب بصورتها الأخيرة. أو كان هذا الاختلاف بين المسلمين أنفسهم، فالمرجع الذي يعودون إليه بآرائهم في شأن الحياة كله هو هذا الكتاب، ولا قيمة لآراء الرجال ما لم يكن لها أصل تستند إليه من هذا المرجع الأخير. وتترتب على هذه الحقيقة مقتضياتها المباشرة: «فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ» ..

والأمر موجه ابتداء إلى رسول الله - ﷺ - فيما كان فيه من أمر أهل الكتاب الذين يجيئون إليه متحاكمين. ولكنه ليس خاصا بهذا السبب، بل هو عام .. وإلى آخر الزمان .. طالما أنه ليس هناك رسول جديد، ولا رسالة جديدة، لتعديل شيء ما في هذا المرجع الأخير!

لقد كمل هذا الدين، وتمت به نعمة الله على المسلمين. ورضيه الله لهم منهج حياة للناس أجمعين. ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شيء فيه أو تبديله، ولا لترك شيء من حكمه إلى حكم آخر، ولا شيء من شريعته إلى شريعة أخرى. وقد علم الله حين رضيه للناس، أنه يسع الناس جميعا. وعلم الله حين رضيه مرجعا أخيرا أنه يحقق الخير للناس جميعا. وأنه يسع حياة الناس جميعا، إلى يوم الدين. وأي تعديل في هذا المنهج - ودعك من العدول عنه - هو إنكار لهذا المعلوم من الدين بالضرورة. يخرج صاحبه من هذا الدين. ولو قال باللسان ألف مرة: إنه من المسلمين! وقد علم الله أن معاذير كثيرة يمكن أن تقوم وأن يبرر بها العدول عن شيء مما أنزل الله واتباع أهواء الحكوميين المتحاكمين .. وأن هواجس قد تتسرب في ضرورة الحكم بما أنزل الله كله بلا عدول عن شيء فيه، في بعض الملابس والظروف. فحذر الله نبيه - ﷺ - في هذه الآيات مرتين من اتباع أهواء المتحاكمين، ومن فتنهم له عن بعض ما أنزل الله إليه ..

وأولى هذه الهواجس: الرغبة البشرية الخفية في تأليف القلوب بين الطوائف المتعددة، والاتجاهات والعقائد المتجمعة في بلد واحد. ومسايرة بعض رغباتهم عندما تصطدم ببعض أحكام الشريعة، والميل إلى التساهل في الأمور الطفيفة، أو التي يبدو أنها ليست من أساسيات الشريعة!

وقد روي أن اليهود عرضوا على رسول الله - ﷺ - أن يؤمنوا له إذا تصالح معهم على التسامح في أحكام بعينها منها حكم الرجم^{٩١}... وأن هذا التحذير قد نزل بخصوص هذا العرض.. ولكن الأمر - كما هو ظاهر - أعم من حالة بعينها وعرض بعينه. فهو أمر يعرض في مناسبات شتى، ويتعرض له أصحاب هذه الشريعة في كل حين.. وقد شاء الله - سبحانه - أن يحسم في هذا الأمر، وأن يقطع الطريق على الرغبة البشرية الخفية في التساهل مراعاة للاعتبارات والظروف، وتأليفاً للقلوب حين تختلف الرغبات والأهواء.

فقال لنبيه: إن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ولكنه جعل لكل منهم طريقاً ومنهاجاً وجعلهم مبتلين مختبرين فيما آتاهم من الدين والشريعة، وما آتاهم في الحياة كلها من عطايا. وأن كلا منهم يسلك طريقه ثم يرجعون كلهم إلى الله، فينبئهم بالحقيقة، ويحاسبهم على ما اتخذوا من منهج وطريق.. وأنه إذن لا يجوز أن يفكر في التساهل في شيء من الشريعة لتجميع المختلفين في المشارب والمناهج.. فهم لا يتجمعون: «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً. وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ. فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ. إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا. فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

بذلك أغلق الله - سبحانه - مداخل الشيطان كلها وبخاصة ما يبدو منها خيراً وتأليفاً للقلوب وتجميعاً للصفوف بالتساهل في شيء من شريعة الله في مقابل إرضاء الجميع! أو في مقابل ما يسمونه وحدة الصفوف!

إن شريعة الله أبقى وأعلى من أن يضحي بجزء منها في مقابل شيء قدر الله ألا يكون! فالناس قد خلقوا ولكل منهم استعداد، ولكل منهم مشرب، ولكل منهم منهج، ولكل منهم طريق. ولحكمة من حكم الله خلقوا هكذا مختلفين.

وقد عرض الله عليهم الهدى وتركهم يستبقون. وجعل هذا ابتلاء لهم يقوم عليه جزاؤهم يوم يرجعون إليه، وهم إليه راجعون وإنما لتعلة باطلة إذن، ومحاولة فاشلة، أن يحاول أحد تجميعهم على حساب شريعة الله، أو بتعبير آخر على حساب صلاح الحياة البشرية وفلاحها. فالعدول أو التعديل في شريعة

٩١ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ: قَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ وَابْنُ صُورٍ وَشَأْسُ بْنُ قَيْسٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَذْهَبُوا بِنَا إِلَى مُحَمَّدٍ لَعَلَّنَا نَفْتِنَهُ عَنْ دِينِهِ ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّ أَجْبَارَ يَهُودَ وَأَشْرَافَهُمْ وَسَادَاتَهُمْ ، وَأَنَا إِنِ اتَّبَعْنَاكَ اتَّبَعْنَا يَهُودَ وَلَمْ يُخَالِفُونَا ، وَإِنَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا خُصُومَةٌ ، فَخَاحِمُهُمْ إِلَيْكَ ، فَتَقْضِي لَنَا عَلَيْهِمْ وَتُؤْمِنُ لَكَ وَتُصَدِّقُكَ. فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: {وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [المائدة: ٤٩] إِلَى قَوْلِهِ: {لَقَوْمٌ يُوفُونَ} [البقرة: ١١٨] "تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٥٠٢) فيه جهالة، وانظر الخبر بطوله في دلائل النبوة للبيهقي محققاً (٢/ ٥٣٤)

الله لا يعني شيئاً إلا الفساد في الأرض، وإلا الانحراف عن المنهج الوحيد القويم، وإلا انتفاء العدالة في حياة البشر، وإلا عبودية الناس بعضهم لبعض، واتخاذ بعضهم لبعض أرباباً من دون الله.. وهو شر عظيم وفساد عظيم.. لا يجوز ارتكابه في محاولة عقيمة لا تكون لأنها غير ما قدره الله في طبيعة البشر ولأنها مضادة للحكمة التي من أجلها قدر ما قدر من اختلاف المناهج والمشارع، والاتجاهات والمشارب.. وهو خالق وصاحب الأمر الأول فيهم والأخير. وإليه المرجع والمصير..

إن محاولة التساهل في شيء من شريعة الله، لمثل هذا الغرض، تبدو - في ظل هذا النص الصادق الذي يبدو مصداقه في واقع الحياة البشرية في كل ناحية - محاولة سخيفة لا مبرر لها من الواقع ولا سند لها من إرادة الله ولا قبول لها في حس المسلم، الذي لا يحاول إلا تحقيق مشيئة الله. فكيف وبعض من يسمون أنفسهم «مسلمين» يقولون: إنه لا يجوز تطبيق الشريعة حتى لا نخسر «السائحين»!!!؟

أي والله هكذا يقولون! ويعود السياق فيؤكد هذه الحقيقة، ويزيدها وضوحاً. فالنص الأول: «فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ».. قد يعني النهي عن ترك شريعة الله كلها إلى أهوائهم! فالآن يحذره من فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه: «وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ»..

فالتحذير هنا أشد وأدق وهو تصوير للأمر على حقيقته.. فهي فتنة يجب أن تحذر.. والأمر في هذا المجال لا يعدو أن يكون حكماً بما أنزل الله كاملاً أو أن يكون اتباعاً للهوى وفتنة يحذر الله منها.

ثم يستمر السياق في تتبع الهواجس والخواطر فيهون على رسول الله - ﷺ - أمرهم إذا لم يعجبهم هذا الاستمسك الكامل بالصغيرة قبل الكبيرة في هذه الشريعة، وإذا هم تولوا فلم يختاروا الإسلام ديناً أو تولوا عن الاحتكام إلى شريعة الله (في ذلك الأوان حيث كان هناك تخيير قبل أن يصبح هذا حتماً في دار الإسلام): «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ. وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ». فإن تولوا فلا عليك منهم ولا يفتنك هذا عن الاستمسك الكامل بحكم الله وشريعته. ولا تجعل إعراضهم يفت في عضدك أو يحولك عن موقفك.. فإنهم إنما يتولون ويعرضون لأن الله يريد أن يجزيهم على بعض ذنوبهم. فهم الذين سيصيبهم السوء بهذا الإعراض: لا أنت ولا شريعة الله ودينه ولا الصف المسلم المستمسك بدينه.. ثم إنما طبيعة البشر: «وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ» فهم يخرجون وينحرفون. لأنهم هكذا ولا حيلة لك في هذا الأمر، ولا ذنب للشريعة! ولا سبيل لاستقامتهم على الطريق! وبذلك يغلق كل منافذ الشيطان ومداخله إلى النفس المؤمنة ويأخذ الطريق على كل حجة وكل ذريعة لترك شيء من أحكام هذه الشريعة لغرض من الأغراض في ظرف من الظروف..

ثم يقفهم على مفرق الطريق.. فإنه إما حكم الله، وإما حكم الجاهلية. ولا وسط بين الطرفين ولا بديل حكم الله يقوم في الأرض، وشريعة الله تنفذ في حياة الناس، ومنهج الله يقود حياة البشر.. أو أنه حكم الجاهلية، وشريعة الهوى، ومنهج العبودية.. فأيهما يريدون؟

« أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْعُونَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟ » .. إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص. فالجاهلية - كما يصفها الله ويحددها قرآنه - هي حكم البشر للبشر، لأنها هي عبودية البشر للبشر، والخروج من عبودية الله، ورفض ألوهية الله، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بالوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله ..

إن الجاهلية - في ضوء هذا النص - ليست فترة من الزمان ولكنها وضع من الأوضاع. هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غدا، فيأخذ صفة الجاهلية، المقابلة للإسلام، والمناقضة للإسلام. والناس - في أي زمان وفي أي مكان - إما أنهم يحكمون بشريعة الله - دون فتنة عن بعض منها - ويقبلونها ويسلمون بها تسليما، فهم إذن في دين الله. وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر - في أي صورة من الصور - ويقبلونها فهم إذن في جاهلية وهم في دين من يحكمون بشريعته، وليسوا بحال في دين الله.

والذي لا يتبغي حكم الله يتبغي حكم الجاهلية والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية، ويعيش في الجاهلية.

وهذا مفرق الطريق، يقف الله الناس عليه. وهم بعد ذلك بالخيار! ثم يسألهم سؤال استنكار لا تبغائهم حكم الجاهلية وسؤال تقرير لأفضلية حكم الله. « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟ » .. وأجل! فمن أحسن من الله حكما؟

ومن ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس، ويحكم فيهم، خيرا مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم؟ وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الادعاء العريض؟

أيستطيع أن يقول: إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟ أيستطيع أن يقول: إنه أرحم بالناس من رب الناس؟ أيستطيع أن يقول: إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟ أيستطيع أن يقول: إن الله - سبحانه - وهو يشرع شريعته الأخيرة، ويرسل رسوله الأخير ويجعل رسوله خاتم النبيين، ويجعل رسالته خاتمة الرسالات، ويجعل شريعته شريعة الأبد .. كان - سبحانه - يجهل أن أحوالا ستطرأ، وأن حاجات ستستجد، وأن ملابسات ستقع فلم يحسب حسابها في شريعته لأنها كانت خافية عليه، حتى انكشفت للناس في آخر الزمان؟! ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة الله عن حكم الحياة، ويستبدل بها شريعة الجاهلية، وحكم الجاهلية ويجعل هواه هو أو هوى شعب من الشعوب، أو هوى جيل من أجيال البشر، فوق حكم الله، وفوق شريعة الله؟

ما الذي يستطيع أن يقوله .. وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين؟! الظروف؟ الملابسات؟ عدم رغبة الناس؟ الخوف من الأعداء؟ .. ألم يكن هذا كله في علم الله وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته، وأن يسيروا على منهجه، وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله؟

قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة، والأوضاع المتجددة، والأحوال المتغيرة؟ ألم يكن ذلك في علم الله وهو يشدد هذا التشديد، ويحذر هذا التحذير؟
يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء.. ولكن المسلم.. أو من يدعون الإسلام.. ما الذي يقولونه من هذا كله، ثم يبقون على شيء من الإسلام؟ أو يبقى لهم شيء من الإسلام؟
إنه مفرق الطريق، الذي لا معدى عنده من الاختيار ولا فائدة في المماحكة عنده ولا الجدل..
إما إسلام وإما جاهلية. إما إيمان وإما كفر. إما حكم الله وإما حكم الجاهلية..
والذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون الظالمون الفاسقون. والذين لا يقبلون حكم الله من المحكومين ما هم بمؤمنين..

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم وألا يتردد في تطبيقها على واقع الناس في زمانه والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء والأصدقاء! وما لم يحسم ضمير المسلم في هذه القضية، فلن يستقيم له ميزان ولن يتضح له منهج، ولن يفرق في ضميره بين الحق والباطل ولن يخطو خطوة واحدة في الطريق الصحيح.. وإذا جاز أن تبقى هذه القضية غامضة أو مائعة في نفوس الجماهير من الناس فما يجوز أن تبقى غامضة ولا مائعة في نفوس من يريدون أن يكونوا «المسلمين» وأن يحققوا لأنفسهم هذا الوصف العظيم..^{٩١٢}

قال العلامة ابن كثير رحمه الله: "يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ الْمُحْكَمِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، النَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ وَعَدْلٌ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْإِصْطِلَاحَاتِ، الَّتِي وَضَعَهَا الرَّجَالُ بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْكُمُونَ بِهِ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَاتِ، مِمَّا يَضَعُونَهَا بَارَأَتِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وَكَمَا يَحْكُمُ بِهِ التَّتَارُ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمَلَكِيَّةِ الْمَأْخُودَةِ عَنْ مَلِكِهِمْ جِنْكَزْخَانَ، الَّذِي وَضَعَ لَهُمُ الْيَسَاقَ (اليسق) وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مَجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قَدْ اقْتَبَسَهَا عَنْ شَرَائِعِ شَتَّى، مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ أَخَذَهَا مِنْ مُجَرَّدِ نَظَرِهِ وَهَوَاهُ، فَصَارَتْ فِي بَنِيهِ شَرْعًا مُتَّبَعًا، يُقَدِّمُونَهَا عَلَى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ. وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ [ﷺ] فَلَا يَحْكُمُ سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ} أَي: يَبْتَغُونَ وَيُرِيدُونَ، وَعَنْ حُكْمِ اللَّهِ يَعْدِلُونَ. {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} أَي: وَمَنْ أَعْدَلُ مِنَ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ لِمَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ شَرْعَهُ، وَآمَنَ بِهِ وَأَيَقَنَ وَعَلِمَ أَنَّهُ تَعَالَى أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأَرْحَمُ بِخُلُقِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوْلَدِهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْعَادِلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ.."^{٩١٣}

^{٩١٢} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٢٨٥)

^{٩١٣} - تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١٣١)

وقال ابن كثير رحمه الله: "فَمَنْ تَرَكَ الشَّرْعَ الْمُحْكَمَ الْمُنَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ، وَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمَنْسُوحَةِ كَفَرَ، فَكَيْفَ يَمُنُّ تَحَاكَمَ إِلَى "الْيَاسَاقِ" وَقَدَّمَهَا عَلَيْهِ؟ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَفَرَ بِاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٥٠] "الْمَائِدَةُ": وَقَالَ تَعَالَى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥]".^{٩٤}

وقال العلامة الشنقطي رحمه الله عند قوله - تعالى - : وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ. مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ أَنَّ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ النَّاسُ مِنَ الْأَحْكَامِ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، لَا إِلَى غَيْرِهِ - جَاءَ مُوضِّحًا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ. فَالْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ فِي حُكْمِهِ كَالْإِشْرَاكِ بِهِ فِي عِبَادَتِهِ، قَالَ فِي حُكْمِهِ: وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا [١٨ \ ٢٦]. وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ عَامِرٍ مِنَ السَّبْعَةِ وَلَا تُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا بِصِغَةِ النَّهْيِ.

وَقَالَ فِي الْإِشْرَاكِ بِهِ فِي عِبَادَتِهِ: فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [١٨ \ ١١٠]، فَلَا مَرَانَ سَوَاءٌ كَمَا تَرَى إِبْضَاحَهُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - .

وَبِذَلِكَ نَعْلَمُ أَنَّ الْحَلَالَ هُوَ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ، وَالْحَرَامَ هُوَ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ، وَالَّذِينَ هُوَ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ، فَكُلُّ تَشْرِيعٍ مِنْ غَيْرِهِ بَاطِلٌ، وَالْعَمَلُ بِهِ بَدَلٌ تَشْرِيعِ اللَّهِ عِنْدَ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مِثْلُهُ أَوْ خَيْرٌ مِنْهُ - كُفْرٌ بِوَاحٍ لَا نَزَاعَ فِيهِ.

وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ عَلَى أَنَّهُ لَا حُكْمَ لغيرِ اللَّهِ، وَأَنَّ اتِّبَاعَ تَشْرِيعِ غَيْرِهِ كُفْرٌ بِهِ، فَمِنْ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ وَحْدَهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ [١٢ \ ٤٠] وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ الْآيَةُ [١٢ \ ٦٧]. وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْصُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ [٦ \ ٥٧]. وَقَوْلُهُ: وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [٥ \ ٤٤]. وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا [١٨ \ ٢٦]. وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [٢٨ \ ٨٨]. وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [٢٨ \ ٧٠]. وَالْآيَاتُ بِمِثْلِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَقَدْ قَدَّمْنَا إِبْضَاحَهَا فِي سُورَةِ «الْكَهْفِ» فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا [١٨ \ ٢٦] .

وَأَمَّا الْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ اتِّبَاعَ تَشْرِيعِ غَيْرِ اللَّهِ الْمَذْكُورِ كُفْرٌ، فَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ [١٦ \ ١٠٠]. وَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَإِنْ

^{٩٤} - البداية والنهاية ط هجر (١٧ / ١٦٢)

أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ [١٦ \ ١٢١]. وَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ الْآيَةَ [٣٦ \ ٦٠]. وَالْآيَاتُ بِمِثْلِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا، كَمَا تَقَدَّمَ إِيضَاحُهُ فِي «الْكَهْفِ».^{٩١٥}

في هذا الاستفهام إنكار على أهل الكتاب هذا الموقف الذي يقفونه من شرع الله، وأنهم لا يأخذون منه إلا ما يستجيب لأهوائهم، فهم - والحال كذلك - يريدون أن يتحللوا من كل شرع، ويفلتوا من كل قانون، شأن الحياة الجاهلية التي تحكمها الأهواء، وتسيرها الترعات الذاتية السائدة فيها، حيث لا مرجع إلى شرع أو قانون. وقوله تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» هو تسفيه لأهل الكتاب، وفضح لجهلهم وضلالهم، إذ يعدلون عن شرع الله، ويخرجون عن حكمه، إلى شريعة الجاهلية، وأحكام السفاهة والضلال.. وذلك من حماقة عقولهم، وسفه أحلامهم، إذ أنه لا يعرف فرق ما بين أحكام الله، وأحكام غير الله، إلا من أخلى قلبه من نزعات الهوى، وصفى مشاعره من وساوس النفاق، ونظر إلى الله بقلب سليم، فعرفه حق معرفته، وقدره حق قدره، ورأى أن هدى الله هو الهدى، وأن من اتبع غير سبيله ضل وهلك، ومن سلك سبيله رشد وسعد.^{٩١٦}

أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية. فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم، والعدل والقسط، والنور والهدى. {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} فالموثق هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز - بيقانه - ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين - عقلا وشرعا - اتباعه. واليقين، هو العلم التام الموجب للعمل.^{٩١٧}

٣٢. الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض :

قال تعالى عن بني إسرائيل: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦) } سورة البقرة

^{٩١٥} - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٤٧)

^{٩١٦} - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ١١١٢)

^{٩١٧} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٣٥)

يذكرُ الله تعالى في هذه الآية اليهود بأهم ما نأههم عنه، وأخذ الميثاق عليهم لاجتنابه، فيقول تعالى: إِنَّهُ أَخَذَ الْمِيثَاقَ فِي التَّوْرَةِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ لَا يَسْفِكُ بَعْضُهُمْ دَمَ بَعْضٍ، وَأَنْ لَا يُخْرِجَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ، وَإِنَّ يَهُودَ الْمَدِينَةِ يُقْرُونَ بِذَلِكَ، وَيَشْهَدُونَ عَلَى صِحَّةٍ مَا جَاءَتْ بِهِ دِيَانَتُهُمْ فِي ذَلِكَ، فَالْحُجَّةُ قَائِمَةٌ عَلَيْهِمْ .

كان في المدينة ثلاث قبائل من اليهود: بنو قينقاع وبنو النضير، وهم حلفاء الخزرج، وبنو قريظة وهم حلفاء الأوس، وكانوا إذا وقعت الحرب بين الأوس والخزرج انتصر كل فريق من اليهود لحلفائه، وانضم إليهم يقاتل خصومهم . وكثيراً ما كان اليهودي يقتل اليهودي في الحرب، ويخرجُه من بيته، وينهب ماله وأثاث منزله، وكل ذلك محرّم عليهم فعله بنص التّوراة .

ولكنهم كانوا إذا وضعت الحرب أوزارها يقومون بافتكاك الأسرى ومفاداتهم، عملاً بنص التّوراة، فاستنكر الله تعالى أفعالهم هذه، فهم يقتل بعضهم بعضاً خلافاً للنص، ولكنهم يفتكون الأسرى ويأدّونهم عملاً بنص التّوراة .

ويقول الله تعالى لهم مُسْتَنَكراً تصرفاتهم هذه: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَعْمَلُونَ بِهِ، وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِهِ وَتُخَالِفُونَهُ؟ وتوعّد الله تعالى من يؤمن ببعض الكتاب، ويكفر ببعضه الآخر بالخزي والمذلة في الحياة الدّنيا، وبالعذاب الأليم الشديد يوم القيامة . ثُمَّ يَذْكُرُهُمُ اللَّهُ بِأَنَّهُ غَافِلٌ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

وهؤلاء الذين يخالفون أوامر التّوراة، ويعملون ببعض ما جاء فيها، هم الذين استحبوا الحياة الدّنيا، وآثروها وفضلوها على الآخرة، بما أهملوا من الشرائع، وبما تركوا من أوامرها التي يعرفونها كالانتصار للحليف المشرك ومظاهرتة على قومهم في الدّين والتّسب، وإخراج أهلهم من ديارهم ابتغاء مرضاة ذلك الحليف المشرك)، فكانوا كمن اشترى الحياة الدّنيا بالآخرة . وهؤلاء لا يخفف عنهم العذاب يوم القيامة، ولا يجدون لهم ناصراً يُنْقِذُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا مُجِيراً يُجِيرُهُمْ ..^{٩١٨}

ولقد كان هذا الذي يواجههم به واقعا قريب العهد قبيل غلبة الإسلام على الأوس والخزرج. كان الأوس والخزرج مشركين، وكان الحَيان أشد ما يكون حَيان من العرب عدااء. وكان اليهود في المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذا الحي وذاك من المشركين .. كان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي اليهودي من الفريق الآخر - وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم - وكانوا يخرجونهم من ديارهم إذا غلب فريقهم وينهبون أموالهم ويأخذون سبائهم - وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم - ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فادوا الأسارى، وفكوا أسر

^{٩١٨} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٩١، بترقيم الشاملة آليا)

المأسورين من اليهود هنا أو هناك، عندهم أو عند حلفائهم أو أعداء حلفائهم على السواء - وذلك عملاً بحكم التوراة وقد جاء فيها: إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا أخذته فأعتقته .. هذا التناقض هو الذي يواجههم به القرآن وهو يسألهم في استنكار: «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟» ..

وهذا هو نقض الميثاق الذي يتهددهم عليه بالخزي في الحياة الدنيا، والعذاب الأشد في الآخرة. مع التهديد الخفي بأن الله ليس غافلاً عنه ولا متجاوزاً: «فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ. وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» .. ثم يلتفت إلى المسلمين وإلى البشرية جميعاً، وهو يعلن حقيقة عملهم وحقيقة عملهم: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ. فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» .. وكذبوا إذن في دعواهم أن لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة .. فهؤلاء هم هناك: «فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» ..

وقصة شرائهم الحياة الدنيا بالآخرة هنا في هذه المناسبة: هي أن الدافع لهم على مخالفة ميثاقهم مع الله، هو استمساكهم بميثاقهم مع المشركين في حلف يقتضي مخالفة دينهم وكتابهم. فإن انقسامهم فريقين، وانضمامهم إلى حلفين، هي خطة إسرائيل التقليدية، في إمساك العصا من الوسط والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة كلها من باب الاحتياط، لتحقيق بعض المغايم على أية حال وضمان صوالح اليهود في النهاية سواء انتصر هذا المعسكر أم ذاك! وهي خطة من لا يثق بالله، ولا يستمسك بميثاقه، ويجعل اعتماده كله على الدهاء، وموالاتي الأرض، والاستنصار بالعباد لا برب العباد. والإيمان يحرم على أهله الدخول في حلف يناقض ميثاقهم مع ربهم، ويناقض تكاليف شريعتهم، باسم المصلحة أو الوقاية، فلا مصلحة إلا في اتباع دينهم، ولا وقاية إلا بحفظ عهدهم مع ربهم.^{٩١٩}

٣٣. تضييع الأمانة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»^{٩٢٠}
وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ فِي الْخُطْبَةِ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ».^{٩٢١}

^{٩١٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٨٨)

^{٩٢٠} - صحيح البخاري (١٠٤ / ٨) (٦٤٩٦)

^{٩٢١} - صحيح ابن حبان - مخرجا (٤٢٢ / ١) (١٩٤) صحيح

(لَا إِيمَانَ) أَي عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ (لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ): فِي النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ، وَقِيلَ: فِيمَا اسْتَوْمِنَ عَلَيْهِ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ الْعِبَادِ الَّتِي كُفِّلَ بِهَا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ} [الأحزاب: ٧٢] الْآيَةَ. وَالْإِنْسَانُ فِيهَا هُوَ آدَمُ ثُمَّ ذُرِّيَّتُهُ، وَمَعَ كَوْنِهِ ظُلُومًا أَي ظَلَمَ نَفْسَهُ بِالتَّزَامِهِ بِحَمْلِ مَا فِيهِ كُلْفَةً عَظِيمَةً عَلَيْهَا الْمُؤَدِّي إِلَى عَدَمِ قِيَامِهَا بِهِ لَا سِيَّمَا عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ - جَهُولًا؛ لِأَنَّهُ جَهْلٌ خَاطَرَ تِلْكَ الْأَمَانَةَ وَمَشَقَّةَ رِعَايَتِهَا عِنْدَ تَحْمِيلِهَا لَهَا، وَإِنَّمَا انْتَفَى كَمَالُ الدِّينِ بِانْتِفَائِهَا؛ لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى اسْتِبَاحَةِ الْأُمُورِ، وَالْأَعْرَاضِ، وَالْأَبْضَاعِ، وَالنَّفُوسِ، وَهَذِهِ فَوَاحِشُ تُنْقِصُ الْإِيمَانَ وَتَقْهَرُهُ إِلَى أَلَّا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا أَقْلُهُ، بَلْ رُبَّمَا آدَتْ إِلَى الْكُفْرِ، وَمِنْ ثَمَّ قِيلَ: الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ (وَلَا دِينَ) [عَلَى طَرِيقِ الْيَقِينِ (لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ) بِأَنْ عَدَرَ فِي الْعَهْدِ وَالْيَمِينِ، قِيلَ: هَذَا الْكَلَامُ وَأَمثَالُهُ وَعِيدٌ لَا يُرَادُ بِهِ الْإِنْقِلَاعُ بَلْ الزَّجْرُ وَنَفْيُ الْفَضِيلَةِ دُونَ الْحَقِيقَةِ، وَقِيلَ: يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْحَقِيقَةُ، فَإِنَّ مَنْ اعْتَادَ هَذِهِ الْأُمُورَ لَمْ يُؤْمِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَقَعَ ثَانِي الْحَالِ فِي الْكُفْرِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: («مَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ») ٩٢٢ .

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، حَدَّثَنَا حُذَيْفَةُ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ، رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ: حَدَّثَنَا: «أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ» وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ: " يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ، فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيُظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتَقْبِضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ، كَجَمْرِ دَخَرَجْتُهُ عَلَى رَجُلِكَ فَتَقَطُّ، فَتَرَاهُ مُتَبَيَّرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَّبِعُونَ، فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَيَقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَحْلَدَهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ " وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أَبَالِي أَتَيْكُمْ بَايَعْتُ، لَنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ، فَأَمَّا الْيَوْمَ: فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا " ٩٢٣

وَقَالَ حُذَيْفَةُ: "أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْأَمَانَةُ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ الصَّلَاةَ، وَلَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةُ عُرْوَةٍ، وَلَتُصْلَيْنَ نِسَاؤُهُمْ حَيْضًا، وَلَتَسْلُكَنَّ طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوُ الْقَذَةِ بِالْقَذَةِ، وَحَذْوُ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، لَا تُخْطِئُونَ طَرِيقَهُمْ، وَلَا يُخْطِئُ بِكُمْ، وَحَتَّى تَبْقَى فِرْقَتَانِ تَقُولُ إِحْدَاهُمَا: مَا بَالُ

٩٢٢ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٠٨ / ١)

٩٢٣ - صحيح البخاري (١٠٤ / ٨) (٦٤٩٧)

[ش (الأمانة) الطاعة والتزام الأمر والنهي. (حذر) هو الأصل من كل شيء (علموا) أي الأمانة. (الوقت) أثر النار ونحوها. (المجل) التنفط الذي يحصل في اليد من أثر العمل بالفأس ونحوه أو من مس النار وهو ماء يجتمع بين الجلد واللحم. (منتبرا) مرتفعا. (ما أظرفه) ما أحسنه. (ما أحلده) ما أقواه وما أصبره. (مِثْقَال) وزن. (خردل) نبت صغير الحب يضرب به المثل في الصغر. (أتى علي زمان) مر علي من قبل. (وما أبالي) لا أبحث عن حال من أبايع لتفتي بأمانته. (ساعيه) الوالي عليه يقوم بالأمانة في ولايته فينصفني ويستخرج حقي منه. (فلانا وفلانا) يعني أفرادا من الناس قلائل أعرفهم وأثق بأمانتهم. (الفريري) أحد رواة الصحيح عن البخاري رحمه الله تعالى. (أبو جعفر) هو وراق البخاري وكتابه. (أبو عبد الله) البخاري نفسه]

الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ؟ لَقَدْ ضَلَّ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا؛ إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ: {أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ} [هود: ١١٤] ، لَا يُصَلُّونَ إِلَّا ثَلَاثًا ، وَتَقُولُ الْأُخْرَى: إِيْمَانُ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ كِيْمَانُ الْمَلَائِكَةِ ، مَا فِيْنَا كَافِرٌ وَلَا مُنَافِقٌ ، حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَحْشُرَهُمَا مَعَ الدَّجَالِ " ٩٢٤

وَعَنْ شَدَّادِ بْنِ مَعْقِلٍ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْأَمَانَةُ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْهُ الصَّلَاةُ، وَسَيَصِلِي قَوْمٌ وَلَا دِينَ لَهُمْ، وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ كَأَنَّهُ قَدْ نُزِعَ مِنْكُمْ، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ يَا عَبْدَ اللَّهِ، وَقَدْ أَثْبَتَهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِنَا، قَالَ: يُسْرَى عَلَيْهِ فِي لَيْلَةٍ فَتَرْفَعُ الْمَصَاحِفُ وَيُنَزَّعُ مَا فِي الْقُلُوبِ، ثُمَّ تَلَا: {وَلَكِنَّ شَيْئًا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. ٩٢٥

وَعَنْ شَدَّادِ بْنِ مَعْقِلٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْأَمَانَةُ، وَإِنْ آخَرَ مَا يَبْقَى مِنْ دِينِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَيَصِلَنَّ الْقَوْمُ الَّذِينَ لَا دِينَ لَهُمْ، وَلَيَنْتَزِعَنَّ الْقُرْآنُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ» قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَلَسْنَا نَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَقَدْ أَثْبَتَاهُ فِي مَصَاحِفِنَا؟ قَالَ: «يُسْرَى عَلَيْهِ لَيْلًا فَيُذْهَبُ بِهِ مِنْ أَجْوَافِ الرِّجَالِ فَلَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ» ٩٢٦

٣٤. الغلول:

الغلول المراد به أخذ مال المسلمين بغير حق: وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «مَا ظَهَرَ الْغُلُولُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا أُلْقِيَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ، وَلَا فَشَا الزُّنَا فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا كَثُرَ فِيهِمُ الْمَوْتُ، وَلَا نَقَصَ قَوْمٌ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا قُطِعَ عَنْهُمْ الرِّزْقُ. وَلَا حَكَمَ قَوْمٌ بغيرِ الْحَقِّ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الدَّمُ. وَلَا خَتَرَ قَوْمٌ بِالْعَهْدِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَدُوَّ». ٩٢٧ .

ومن المعلوم أنه إذا ألقى الله الرعب في قلوب قوم فإنهم لن يواجهوا العدو وسيهزمون ويولون الأدبار هذا أمر لا شك فيه ..

وقد حرم الله تعالى الغلول بكل صورته، قال تعالى: { وما كان لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ وَمَنْ يُغْلَلْ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [آل عمران: ١٦١] }

٩٢٤ - البدع لابن وضاح (١١٦/٢) (١٥٣) صحيح

٩٢٥ - مصنف ابن أبي شيبة - دار القبلة (٢١/٢٦١) (٣٨٧٤٠) صحيح

٩٢٦ - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٣/٣٦٣) (٥٩٨١) صحيح

٩٢٧ - موطأ مالك ت عبد الباقي (٢/٤٦٠) (٢٦) وفيه انقطاع ، وله شواهد بنحوه التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد -

(٢٣/ ٤٣٠) - ختر : غدر

يُتْرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ رَسُولُهُ الْكَرِيمَ عَنْ أَخْذِ شَيْءٍ مِنَ الْمُنْعَمِ خِلْسَةً (عَنِ الْعُلُولِ)، وَعَنِ الْخِيَانَةِ فِي أَدَاءِ الْأَمَانَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ لِأَنَّ اللَّهَ عَصَمَهُ مِنْ ذَلِكَ وَيُهْدَدُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ يَغُلِّ بَائِتِهِ سَيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يَحْمِلُ مَا غُلَّ لِيُحَاسَبَ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ. ٩٢٨

الغُلُّ: أَخَذَ الشَّيْءَ خَفِيَةً.. يُقَالُ: غُلَّ الشَّيْءُ إِغْلَالًا: إِذَا أَخَذَهُ خِلْسَةً، وَيُقَالُ: أَغْلَّ الْجَازِرُ إِذَا سَرَقَ مِنَ اللَّحْمِ شَيْئًا مَعَ الْجُلْدِ، وَالْغُلُّ: الْحَقْدُ الْكَامِنُ فِي الصَّدُورِ، وَالْغُلُّ: الْخِيَانَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ بَعَثَنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَعَلَّ شَيْئًا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ».. وَقَوْلُهُ ﷺ: «هَدَايَا الْوَلَاةِ غُلُولٌ». وَالَّذِي عَلَيْهِ الْمَفْسُورُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَمَّا نَزَلَتْ فِي قَطِيفَةِ حَمْرَاءٍ اخْتَفَتِ مِنَ الْغَنَائِمِ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُ الْمُنَافِقِينَ لَعَلَّ النَّبِيَّ أَخَذَهَا! وَقِيلَ: إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي أَحْدَاثٍ أَحَدٍ، حَيْثُ تَرَكَ جَمَاعَةُ الرَّمَاةِ مَكَانَهُمُ الَّذِي أَقَامَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ، وَذَلِكَ حِينَ رَأَوْا الْهَزِيمَةَ فِي الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ امْتَدَّتْ أَيْدَى بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَا تَرَكَوا مِنْ مَتَاعٍ وَسِلَاحٍ، فَقَالَ الرَّمَاةُ:

لَعَلَّ رَسُولَ اللَّهِ لَا يَقْسِمُ الْغَنَائِمَ بَيْنَنَا كَمَا فَعَلَ فِي غَنَائِمِ بَدْرٍ، وَيَقُولُ كَمَا قَالَ يَوْمَئِذٍ: «مَنْ أَخَذَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ» فَيَذْهَبُ إِخْوَانُنَا بِالْغَنَائِمِ، وَلَيْسَ لَنَا مِنْهَا شَيْءٌ.. فَتَرَكَوا مَكَانَهُمْ، وَانْدَفَعُوا نَحْوَ الْغَنَائِمِ، يَأْخُذُونَ نَصِيبَهُمْ مِنْهَا، فَكَانَ الَّذِي كَانَ! وَالرَّأْيُ الْأَوَّلُ بَعِيدٌ.. إِذَا كَانَ قَدْ مَضَى عَامٌ عَلَى مَعْرَكَةِ بَدْرٍ، وَلَوْ كَانَ لِقَوْلَةِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ أَثَرٌ لَمَا تَرَكَتْ هَذِهِ الْفَرِيَّةُ تَعِيشَ فِي النَّاسِ عَامًا دُونَ أَنْ يَنْزِلَ قُرْآنٌ فِي تَفْنِيدِهَا، وَتَكْذِيبِ مَقَرِّيهَا.

وَالْخَبَرُ الثَّانِي ضَعِيفٌ، وَوَجْهُ ضَعْفِهِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَعْلَمُونَ فِي أَحَدٍ حَكَمَ اللَّهُ فِيمَا يَقَعُ لِأَيْدِيهِمْ مِنْ مَغَانِمٍ، حَيْثُ كَانَتْ سُورَةُ الْأَنْفَالِ قَدْ نَزَلَتْ فِي أَعْقَابِ بَدْرٍ، وَفِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ..» (٤١: الْأَنْفَال).. وَالرَّأْيُ عِنْدَنَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْغُلَّ هَذَا مِنَ الْحَقْدِ، وَاشْتِمَالُ النَّفْسِ عَلَى الْبَغْضَاءِ لِلنَّاسِ.. وَهَذَا مَا لَا يَكُونُ مِنْ نَبِيٍّ أَبَدًا، إِذْ كَانَتْ مَهْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ نَزْعُ مَا فِي الصَّدُورِ مِنْ عِدَاوَاتٍ وَأَحْقَادٍ، وَغَسْلُ مَا فِي النَّفُوسِ مِمَّا تَنْطَوِي عَلَيْهِ بَغْضَاءٌ وَضَغِينَةٌ.. إِنَّهُمْ أَسَاءَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ هَذَا الدَّاءِ - دَاءُ الْحَقْدِ الدِّفِينِ - الَّذِي إِنْ شَاعَ فِي جَمَاعَةٍ أَكَلَهَا كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطْبَ، أَوْ فَشَا فِي أُمَّةٍ قَضَى عَلَيْهَا، وَحَصَدَهَا، كَمَا يَحْصِدُ الْوَبَاءُ النَّفُوسَ! وَالْمُنَاسِبَةُ هُنَا قَرِيبَةٌ، وَالْمَوْقِفُ دَاعٍ إِلَى إِلْفَاتِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ إِلَى هَذَا الدَّاءِ، وَتَحْذِيرِهِ مِنْهُ. فَفِي أَحْدَاثٍ أَحَدٍ، وَفِي أَعْقَابِهَا، فَرَّغَ النَّاسُ مِنَ الْمَعْرَكَةِ، وَشَغَلُوا بِالْحَدِيثِ عَنْهَا، وَالتَّعْلِيقِ عَلَى مَوَاقِفِ النَّاسِ مِنْهَا..!

وَفِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ خَالَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَتَخَلَّفَ عَنِ الْقِتَالِ فِي مَعْرَكَةِ أَحَدٍ.

٩٢٨ - أَيْسَرُ التَّفَاسِيرِ لِأَسْعَدِ حَوْمَدٍ (ص: ٤٥٤، بِتَرْقِيمِ الشَّامِلَةِ أَلْيَا)

وفي المسلمين من تحوّل عن موقفه الذي أمره الرسول بالوقوف عنده، سواء كان للمسلمين النصر، أو كانت عليهم الهزيمة! وفي المسلمين من قاتل، وأبلى في القتال.. ثم حين استشعر الهزيمة انهزم، وأعطى العدو ظهره.. وفي جوانب المعركة، وعلى حواشيتها.. كلام يدور، تحرّكه أفواه المنافقين، وتلتوى به ألسنتهم، وتتغامز معه عيونهم.. هذا، والنبىّ الكريم يسمع، ويرى كلّ هذا، ويسوؤه أن يكون في أصحابه هذا الذي يسمعه ويراه.. فيحزن لذلك ويأسى. وقد صفح الله عن المؤمنين وعفا عنهم، وشملهم جميعا برحمته وغفرانه.. وكان على النبىّ أيضا أن يصفح ويغفر.. فجاء أمر الله سبحانه وتعالى، يدعوه إلى الصفح ويغريه به، بعد أن يرى النبىّ الصورة الكريمة التي له عنده الله، والتي ينبغي أن يكون عليها، وأن يحتفظ بها على هذا الوضع العلوىّ الوضويّ.. «فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ»... ولقد عفا الرسول عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في كل أمر ذى بال يعرض له.

ولكن النبىّ - وهو بشر - قد تطلع عليه صور من أحداث أحد، فتحرك أشجانا، وتثير أسى.. فجاء قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» - ليشنّع على الحق، وليستبعد وقوعه من أي نبىّ من أنبياء الله، وليجعله جرما من أغلظ الجرائم، حتى ليلتزم صاحبه، ويصحبه إلى يوم القيامة، كما التزمه وصحبه في صدره، وبين جنبه! وما أروع هذا العطف الإلهي الذي يفاض على النبىّ الكريم، وهو في مقام التأديب، والتحذير من أن يحمل قلبه غلا، وحقدا.. فلا يواجهه المولى سبحانه وتعالى بهذا الخطاب، ولا يلقاه به وحده - لطفًا وكرما - بل يتجه الأمر إلى الأنبياء جميعا.. «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ» فما أعظم هذا المقام، وما أكرم تلك المتزلة، التي نزلها محمد من منازل الرضوان والإحسان عند ربّه.^{٩٢٩}

الغلول هو: الكتمان من الغنيمة، [والخيانة في كل مال يتولاه الإنسان] وهو محرم إجماعا، بل هو من الكبائر، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بني أن يغل، لأن الغلول - كما علمت - من أعظم الذنوب وأشر العيوب. وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يندسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقا، وأطهرهم نفوسا، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته، ومعدن حكمته {الله أعلم حيث يجعل رسالته}. فبمجرد علم العبد بالواحد منهم، يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من أعدائهم، لأن معرفته بنبوتهم، مستلزم لدفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم، فقال: {وما كان لنبى أن يغل} أي: يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته.

ثم ذكر الوعيد على من غل، فقال: {ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة} أي: يأت به حامله على ظهره، حيوانا كان أو متاعا، أو غير ذلك، ليعذب به يوم القيامة، {ثم توفي كل نفس ما كسبت} الغال وغيره، كل يوفي أجره ووزره على مقدار كسبه، {وهم لا يظلمون} أي: لا يزداد في سيئاتهم، ولا يهضمون شيئا من حسناتهم، وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة. لما ذكر عقوبة الغال، وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر توفيته وجزاءه، وكان الاختصار على الغال يوهم - بالمفهوم - أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون - أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.^{٩٣٠}

ما كان له. فهو ليس من شأنه أصلا ولا من طبعه ولا من خلقه. فالنفي هنا نفي لإمكان وقوع الفعل. وليس نفيا لحله أو جوازه. فطبيعة النبي الأمانة العادلة العفيفة لا يتأتى أن يقع منها الغلول ابتداء.. وفي قراءة: «يُغَلُّ» على بناء الفعل لغير الفاعل. أي لا يجوز أن يخان. ولا أن يخفي عنه أتباعه شيئا.. فيكون نفيا عن خيانة النبي في شيء. وهو يتمشى مع عجز الآية. وهي قراءة الحسن البصري.

ثم يهدد الذين يغلولون، ويخفون شيئا من المال العام أو من الغنائم، ذلك التهديد المخيف: «وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» ..

عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ - رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللَّثْبَةِ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدَى لِي. قَالَ « فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ، فَيَنْظُرُ يَهْدِي لَهُ أُمٌّ لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خُورٌ أَوْ شَاةٌ تَعِيرُ - ثُمَّ رَفَعَ بِيَدِهِ، حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبْطِيهِ - اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ ثَلَاثًا »^{٩٣١} .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - ذَاتَ يَوْمٍ فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ ثُمَّ قَالَ « لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِنِي. فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَعْتُكَ. لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمَحَمَةٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِنِي. فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَعْتُكَ. لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا تُعَاءٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِنِي. فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَعْتُكَ. لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ فَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِنِي. فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا

^{٩٣٠} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٥٥)

^{٩٣١} - صحيح البخارى - المکتز [٣٥٦/ ٩] (٢٥٩٧) وصحيح مسلم - المکتز [٢٢٦/ ١٢] (٤٨٤٣)

الخوار: صوت البقرة = الرغاء: صوت الإبل = العفرة: بياض مشوب بالسمرة = تعير: تصيح وتصوت صوتا شديدا

قَدْ أَبْلَعْتُكَ. لَا أَلْفَيْنَ أَحَدُكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ فَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَعْتُكَ». ٩٣٢ ..

وروى الإمام أحمد عن عدي بن عميرة الكندي، قال: قال رسول الله ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ لَنَا عَلَى عَمَلٍ، فَكَتَمْنَا مِنْهُ مَخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ، فَهُوَ غُلٌّ، يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَسْوَدٌ، قَالَ مُجَالِدٌ: هُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْبِلْ عَنِّي عَمَلَكُ، فَقَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ: كَذَا وَكَذَا، قَالَ: وَأَنَا أَقُولُ ذَلِكَ الْآنَ، مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ عَلَى عَمَلٍ، فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَحَدُهُ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ أَنْتَهَى. ٩٣٣ ..

وقد عملت هذه الآية القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة عملها في تربية الجماعة المسلمة حتى أتت بالعجب العجيب وحتى أنشأت مجموعة من الناس تتمثل فيهم الأمانة والورع والتحرج من الغلول في أية صورة من صورته، كما لم تتمثل قط في مجموعة بشرية. وقد كان الرجل من أفناء الناس من المسلمين يقع في يده الثمين من الغنيمة، لا يراه أحد، فيأتي به إلى أميره، لا تحدّثه نفسه بشيء منه، خشية أن ينطبق عليه النص القرآني المرهوب، وخشية أن يلقي نبيه على الصورة المفزعة المخجلة التي حذرته أن يلقاه عليها يوم القيامة! فقد كان المسلم يعيش هذه الحقيقة فعلا. وكانت الآخرة في حسه واقعا، وكان يرى صورته تلك أمام نبيه وأمام ربه، فيتوقاها ويفزع أن يكون فيها. وكان هذا هو سر تقواه وخشيته وتخرجه. فالآخرة كانت حقيقة يعيشها، لا وعدا بعيدا! وكان على يقين لا يخالجه الشك من أن كل نفس ستوفي ما كسبت، وهم لا يظلمون ..

روى ابن جرير الطبري في تاريخه قال: لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحق معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض. فقال والذين معه: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه. فقالوا: هل أخذت منه شيئا؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به. فعرفوا أن للرجل شأنا. فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرظوني! ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه. فأتبعوه رجلا حتى انتهى إلى أصحابه، فسأل عنه فإذا عامر بن عبد قيس ٩٣٤ ..

٩٣٢ - صحيح مسلم - المكثر [١٢/ ٢٢١] (٤٨٣٩)

الغناء: صياح الغنم = الحمحمه: صوت الفرس دون الصهيل = رفاع: ما عليه من الحقوق مكتوبة في رفاع وقيل الثياب التي غلها = الصامت: الذهب والفضة خلاف الناطق وهو الحيوان

٩٣٣ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٨٢/ ٦] (١٧٧١٧) ١٧٨٦٩ صحيح

قوله: "مخيطاً" قال القاضي عياض كما في "شرح الأبي" ٥٢٢/٦: الإبرة. = "فليجىء بقليله وكثيره" فيه تعظيم القليل من الغلول. = "فما أوتي منه أخذ" ذلك على قدر ما يراه الإمام من استحقاقه في عمله أو حاجته أو سابقته.

٩٣٤ - تاريخ الطبري جزء ٤ ص ١٦.

وقد حملت الغنائم إلى عمر - رضي الله عنه - بعد القادسية، وفيها تاج كسرى وإيوانه لا يقومان بثمان.. فنظر - رضي الله عنه - إلى ما أداه الجند في غبطة وقال: «إن قوما أدوا هذا لأمرهم لأمناء»

..

وهكذا ربي الإسلام المسلمين تلك التربية العجيبة التي تكاد أخبارها تحسب في الأساطير.

ثم يستطرد السياق - في معرض الحديث عن الغنائم والغلول - يوازن بين القيم.. القيم الحقيقية التي يليق أن يلتفت إليها القلب المؤمن، وأن يشغل بها: «أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ؟ هُمْ دَرَجَاتُ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ» ..

إنها النقلة التي تصغر في ظلها الغنائم، ويصغر في ظلها التكفير في هذه الأعراض. وهي لمسة من لمسات المنهج القرآني العجيب في تربية القلوب، ورفع اهتماماتها، وتوسيع آفاقها وشغلها بالسباق الحقيقي في الميدان الأصيل.

«أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» ..

هذه هي القيم، وهذا هو مجال الطمع! ومجال الاختيار. وهذا هو ميدان الكسب والخسارة. وشتان بين من يتبع رضوان الله فيفوز به، ومن يعود وفي وطابه سخط الله! يذهب به إلى جهنم.. وبئس المصير! هذه درجة وهذه درجة.. وشتان شتان: «هُمْ دَرَجَاتُ عِنْدَ اللَّهِ» .. وكل ينال درجته باستحقاق، فلا ظلم ولا إجحاف، ولا محاباة ولا جزاف! «وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ» ..^{٩٣٥}

٣٥. التلاعب بإقامة الحدود أو تركها:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حَبِيبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا" ^{٩٣٦}.

^{٩٣٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٨١٠)

^{٩٣٦} - صحيح البخاري (٤/ ١٧٥) (٣٤٧٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٣١٥) ٨ - (١٦٨٨)

[ش (أهمهم) أحزهم وأثار اهتمامهم. (شأن. .) حالها وأمرها. (المخزومية) نسبة إلى بني مخزوم واسمها فاطمة بنت الأسود وكانت سرقت حليا يوم فتح مكة. (حب) محبوب. (أتشفع في حد) تتوسل أن لا يقام حد فرضه الله تعالى والحد عقوبة مقدرة من المشرع. (الشريف) الذي له شأن في قومه بسبب مال أو نسب أو عشيرة. (الضعيف) من ليس له عشيرة أو وجهة في قومه. (وام الله) لفظ من ألفاظ القسم أصلها وأيم الله فحذفت النون تخفيفا وقد تقطع الهزمة وقد توصل]

قَالَ الطَّبِيُّ: الْمُرَادُ أَنَّهَا قُطِعَتْ بِالسَّرِقَةِ وَإِنَّمَا ذُكِرَتِ الْعَارِيَةُ تَعْرِيفًا لَهَا وَوَصْفًا لَا لِأَنَّهَا سَبَبُ الْقَطْعِ وَإِنَّمَا لَمْ تُذْكَرِ السَّرِقَةُ فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهَا عِنْدَ الرَّاويِ ذِكْرُ مَنْعِ الشَّفَاعَةِ فِي الْحُدُودِ لَا الْإِحْبَارُ عَنِ السَّرِقَةِ قَالَ الْجُمْهُورُ: لَا قَطْعَ عَلَى مَنْ جَحَدَ الْعَارِيَةَ، وَقَالَ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ: يَجِبُ الْقَطْعُ فِي ذَلِكَ وَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَى تَحْرِيمِ الشَّفَاعَةِ فِي الْحَدِّ بَعْدَ بُلُوغِهِ إِلَى الْإِمَامِ لِهَذَا الْحَدِيثِ وَعَلَى أَنَّهُ يَحْرُمُ التَّشْفِيعُ فِيهِ فَأَمَّا قَبْلَ الْبُلُوغِ فَقَدْ أَجَازَ فِيهَا أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَشْفُوعُ فِيهِ صَاحِبَ شَرٍّ وَأَذَى لِلنَّاسِ وَأَمَّا الْمَعَاصِي الَّتِي يَجِبُ فِيهَا التَّعْزِيرُ فَيَجُوزُ الشَّفَاعَةُ وَالتَّشْفِيعُ فِيهَا سَوَاءً بَلَغَتِ الْإِمَامَ أَمْ لَا لِأَنَّهَا أَهْوَنُ بَلْ هِيَ مُسْتَحَبَّةٌ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَشْفُوعُ فِيهِ صَاحِبَ أَذَى.^{٩٣٧}

فامتداد الظلم وتماديهِ مهلكة الأمم، وما أهلك السابقين يُهلك اللاحقين، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً. والأمة التي ترضى بوقوع الظلم فيما بينها ولا تدفعه أمة تُودّع منها، وأفراد الأمة عندما يُربّون على إقامة شرع الله ويعايشون نبض رد الحقوق لأهلها؛ تترسّخ في نفوسهم عقيدة الذود عن الحياض وبذل الأرواح فداء الدين والوطن.

أما إذا اعتادت التخاذل وعدم إقامة شرع الله ألفت الهزائم في كافة الميادين، ولعل هذه الحياة التي يعتادها أفراد الأمة إذ يمتثلون شرع الله وحدوده من معاني قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة: من الآية ١٧٩)؛ فالأمة حال التزامها بالشرع تحيا وتلوذ بحمى ربها، أما إذا ما فرطت هانت على أحسن خلق الله، وما واقعنا إلا تصديق لهذا.

أمة ألفت سماع مسوغات هزائمها، بل وتستعذب ترثم الشادي الذي يصدح بنصر زائف، وتصنع الأجهزة الإعلامية (سحرة فرعون) أبطالاً وزعماء؛ هم في الحقيقة عملاء وربائب الاستعمار، صنعهم على عينه لينوبوا عنه في تنفيذ مخططاته ومآربه.

ثم يُقسّم رسول الله ليقرر حقيقةً وحكماً "وايم الله؛ لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعت يدها" والقسم من الرسول الخاتم ﷺ وهو الذي لم يكذب قط (الصادق الأمين) فالقسم له عظمته، والمقسم به هو الله رب العالمين الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ إذن الأمر جلل.

رسول الله ﷺ بقسمه يُزيل من الأذهان أية ذرة فكر يتسرّب إليها تراجع عن تنفيذ حكم الله، ويضرب رسول الله ﷺ مثلاً بابنته فاطمة، وهي التي يستحيل في حقها السرقة أو أي خلق مشين؛ لأنها ابنة رسول، والرسول معصومون حتى في أهليهم، ومعلوم أن خيانة امرأة نوح ولوط كانت في عدم الإيمان والبوح ببعض الأسرار كما صدر من امرأة لوط، وكفر ولد نوح دليل على أن رسول الله نوحاً لم يقهر ابنه على اتباعه ولم يقهر زوجه، كما فعل ذلك فرعون عندما قتل امرأته لأنها آمنت بالله.

^{٩٣٧} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٦٧)

فكفر زوجتي نبيّين (نوح ولوط) وابن نوح دليلٌ على مدى الحرية التي وسّعت هؤلاء في اختيار معتقدتهم؛ أما الطغاة فلم يعرفوا غير السجن والقتل والطرْد لمخالفيهم ﴿لَأُصْلَبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ (طه: من الآية ٧١)، ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (النمل: من الآية ٥٦).

إن أمة تجنّ عن سؤال ناهيها وإيقافهم لأمة مية؛ جديرة بعقاب لا يُصيّن الذين ظلموا منها خاصة.^{٩٣٨}

٣٦. عدم التراحم:

عَنِ الرَّهْرِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشْرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبِلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»^{٩٣٩}
وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ»^{٩٤٠}
أَيُّ: مَنْ لَا يَتَعَطَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَا يَرَأْفُ بِهِمْ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ إِخْبَارٌ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ دُعَاءً، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَكُونُ مِنَ الْفَائِزِينَ بِالرَّحْمَةِ الْكَامِلَةِ، وَالسَّابِقِينَ إِلَى دَارِ الرَّحْمَةِ، وَإِلَّا فَارْحَمْتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ. قَالَ الطَّبِيبِيُّ: الرَّحْمَةُ الثَّانِيَةُ مَحْمُولَةٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَالْأَوَّلَى عَلَى الْمَجَازِ؛ لِأَنَّ الرَّحْمَةَ مِنَ الْخَلْقِ التَّعَطُّفُ وَالرَّفْقَةُ، وَهُوَ لَا يَجُوزُ عَلَى اللَّهِ، وَالرَّحْمَةُ مِنَ اللَّهِ الرِّضَا عَمَّنْ رَحِمَهُ؛ لِأَنَّ مَنْ رَقَّ لَهُ الْقَلْبُ فَقَدْ رَضِيَ عَنْهُ، أَوْ الْإِنْعَامُ وَإِرَادَةُ الْخَيْرِ؛ لِأَنَّ الْمَلِكَ إِذَا عَطَفَ عَلَى رَعِيَّتِهِ رَقَّ لَهُمْ وَأَصَابَهُمْ بِمَعْرُوفِهِ وَإِنْعَامِهِ^{٩٤١}
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَا تُنْزِعُ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ»^{٩٤٢}.
أَيُّ: لَا تُسَلِّبُ الشَّقَقَةَ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ، وَمِنْهُمْ نَفْسُهُ الَّتِي هِيَ أَوْلَى بِالشَّقَقَةِ وَالْمَرْحَمَةِ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِهَا، بَلْ فَائِدَةُ شَفَقَتِهِ عَلَى غَيْرِهِ رَاجِعَةٌ إِلَيْهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ} [الإسراء: ٧]، وَلِأَنَّ شَفَقَتَهُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ سَبَبٌ لِرَحْمَتِهِ تَعَالَى عَلَيْهِ لِمَا سَيَأْتِي: أَنَّ الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ. (إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ): أَيُّ: كَافِرٍ، أَوْ فَاجِرٍ يَتَعَبُّ فِي الدُّنْيَا وَيُعَاقَبُ فِي الْعُقْبَى^{٩٤٣}

^{٩٣٨} - انظر: : أمانة لا تصون حقوقه هـ لتتص: ر!

^{٩٣٩} - صحيح البخاري (٧/٨) (٥٩٩٧) <http://www.ikhwanonline.com/Article.asp?ArtID=38494&SecID=391>

^{٩٤٠} - صحيح البخاري (١١٥/٩) (٧٣٧٦)

^{٩٤١} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/٣٠٩٩)

^{٩٤٢} - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/٢١٣) (٤٦٦) صحيح

^{٩٤٣} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/٣١١٣)

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفَ لِعَالَمِنَا حَقَّهُ»^{٩٤٤}

٣٧. نقضُ العهود والمواثيق:

قال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١)} وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَاهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)} سورة النحل

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ وَمِيثَاقِهِ إِذَا وَاقَعْتُمُوهُ، وَعَقْدِهِ إِذَا عَاقَدْتُمُوهُ، فَأَوْجِبْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ حَقًّا لِمَنْ عَاقَدْتُمُوهُمْ وَوَأَقَعْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ (وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ كُلِّ عَقْدٍ يَلْتَزِمُ بِهِ الْإِنْسَانُ بِاخْتِيَارِهِ) وَأَشْهَدْتُمُ اللَّهَ عَلَى الْوَفَاءِ بِهِ. وَلَا تُخَالِفُوا مَا عَقَدْتُمْ فِيهِ الْإِيمَانَ، وَشَدَّدْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ شَاهِدًا وَرَاعِيًا عَلَيْكُمْ فِي الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ مِنْكُمْ مِنْ وَفَاءٍ وَحَلْفٍ وَبِرٍّ وَحَنَثٍ، فَيُجَازِيكُمْ عَلَى مَا تَفْعَلُونَ. قِيلَ إِنَّهُ كَانَتْ فِي مَكَّةَ امْرَأَةٌ ثَلَاثَةُ الْعَقْلِ تَغْزُلُ غَزْلَهَا فِي النَّهَارِ، ثُمَّ تَعُودُ فَتَنْقُضُهُ فِي اللَّيْلِ (أَنْكَاثًا)، وَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى فِعْلَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الثَّلَاثَةِ الْعَقْلِ مَثَلًا لِلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عُهْدَهُمْ وَمَوَاقِفَهُمْ تَحْقِيرًا لَهُمْ، وَتَقْيِيحًا لِفِعْلِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: وَلَا تَكُونُوا يَا أَيُّهَا الْقَوْمُ فِي نَقْضِكُمْ آيْمَانَكُمْ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَإِعْطَايَكُمُ رَبَّكُمْ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِفَ، كَمَنْ تَنْقُضُ غَزْلَهَا بَعْدَ إِبْرَامِهِ حِمَاقَةً وَجَهْلًا. إِذْ تَجْعَلُونَ آيْمَانَكُمْ الَّتِي تَخْلِفُونَهَا عَلَى أَنْتُمْ مُؤْفُونَ بِالْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدْتُمْ عَلَيْهِ، وَسَبِيلَةً لِلْخِدَاعِ، وَلِغِشٍّ مِنْ عَاقِدْتُمُوهُمْ لِيَطْمَئِنُّوا إِلَيْكُمْ، وَأَنْتُمْ تَضْمُرُونَ الْغَدْرَ وَعَدَمَ الْوَفَاءِ، إِذَا وَجَدْتُمْ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنَ الْجَمَاعَةِ الَّتِي تَعَاقَدْتُمْ مَعَهَا، وَأَكْثَرُ عَدَدًا، فَإِذَا وَجَدْتُمْ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنَ الْجَمَاعَةِ الَّتِي تَعَاقَدْتُمْ مَعَهَا، تَخَالَفْتُمْ مَعَهُ، وَحَنَسْتُمْ بِآيْمَانِكُمْ الَّتِي أَقْسَمْتُمُوهَا لِلْجَمَاعَةِ الْأُولَى (أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ).

وَاللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ لِيُخْتَبِرَكُمْ وَيُمْتَحِنَكُمْ، وَيَبْلُوَ إِيْمَانَكُمْ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُبَيِّنُ لَكُمْ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ، فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ^{٩٤٥}.

وَالْوَفَاءُ بِعَهْدِ اللَّهِ يَشْمَلُ بَيْعَةَ الْمُسْلِمِينَ لِلرَّسُولِ - ﷺ - وَيَشْمَلُ كُلَّ عَهْدٍ عَلَى مَعْرُوفٍ يَأْمُرُ بِهِ اللَّهُ. وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ هُوَ الضَّمَانُ لِبَقَاءِ عِنَصَرِ الثِّقَةِ فِي التَّعَامُلِ بَيْنَ النَّاسِ، وَبِدُونِ هَذِهِ الثِّقَةِ لَا يَقُومُ مَجْتَمَعٌ، وَلَا تَقُومُ إِنْسَانِيَّةٌ. وَالنَّصُّ يَخْجَلُ الْمُتَعَاهِدِينَ أَنْ يَنْقُضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلُوا اللَّهَ

^{٩٤٤} - المسند للشاشي (٣/ ١٨٤) (١٢٧٣) حسن

^{٩٤٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٩٩٢، بترقيم الشاملة آليا)

كفيلة عليهم، وأشهدوه عهدهم، وجعلوه كافلا للوفاء بها. ثم يهددهم تهديدا خفيا «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ».

وقد تشدد الإسلام في مسألة الوفاء بالعهود فلم يتسامح فيها أبدا، لأنها قاعدة الثقة التي ينفرط بدونها عقد الجماعة ويتهدم، والنصوص القرآنية هنا لا تقف عند حد الأمر بالوفاء والنهي عن النقض إنما تستطرد لضرب الأمثال، وتقبيح نكث العهد، ونفي الأسباب التي قد يتخذها بعضهم مبررات: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ، أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ. إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ. وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

فمثل من ينقض العهد مثل امرأة حمقاء ملتاتة ضعيفة العزم والرأي، تقتل غزلها ثم تنقضه وتتركه مرة أخرى قطعاً منكوثاً ومحلولة! وكل جزئية من جزئيات التشبيه تشي بالتحقير والترذيل والتعجيب. وتشوه الأمر في النفوس وتقبحه في القلوب. وهو المقصود. وما يرضى إنسان كريم لنفسه أن يكون مثله كمثل هذه المرأة الضعيفة الإرادة الملتاتة العقل، التي تقضي حياتها فيما لا غناء فيه! وكان بعضهم يبرر لنفسه نقض عهده مع الرسول - ﷺ - بأن محمداً ومن معه قلة ضعيفة، بينما قرش كثرة قوية. فنبههم إلى أن هذا ليس مبرراً لأن يتخذوا أقسامهم غشا وخديعة فيتخلوا عنها: «تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ» أي بسبب كون أمة أكثر عددا وقوة من أمة. وطلباً للمصلحة مع الأمة الأربى.

ويدخل في مدلول النص أن يكون نقض العهد تحقيقاً لما يسمى الآن «مصلحة الدولة» فتعقد دولة معاهدة مع دولة أو مجموعة دول، ثم تنقضها بسبب أن هناك دولة أربى أو مجموعة دول أربى في الصف الآخر، تحقيقاً «لمصلحة الدولة»! فالإسلام لا يقر مثل هذا المبرر، ويجزم بالوفاء بالعهد، وعدم اتخاذ الأيمان ذريعة للغش والدخل. ذلك في مقابل أنه لا يقر تعاهداً ولا تعاوناً على غير البر والتقوى. ولا يسمح بقيام تعاهد أو تعاون على الإثم والفسوق والعصيان، وأكل حقوق الناس، واستغلال الدول والشعوب.. وعلى هذا الأساس قام بناء الجماعة الإسلامية وبناء الدولة الإسلامية فنعم العالم بالطمأنينة والثقة والنظافة في المعاملات الفردية والدولية يوم كانت قيادة البشرية إلى الإسلام. والنص هنا يحذر من مثل ذلك المبرر، وينبه إلى أن قيام مثل هذه الحالة: «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ» هو ابتلاء من الله لهم ليمتحن إرادتهم ووفاءهم وكرامتهم على أنفسهم وتخرجهم من نقض العهد الذي أشهدوا الله عليه: «إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ»...^{٩٤٦}

قال تعالى: {أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا بَيْنَهُمْ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} (١٠٠) سورة البقرة

^{٩٤٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٨٥٦)

وكان اليهود قد قالوا حينما بعث الله رسوله مُحَمَّدًا ﷺ: والله، ما عهد إلينا في مُحَمَّدٍ، وما أخذ علينا ميثاقاً. فأنزل الله هذه الآية. (وقال مفسرون: إنَّ العهود المقصودة هنا هي عهودهم للنبي ﷺ وهو في المدينة). ومعنى الآية: إنَّ اليهود كلَّما عاهدوا عهداً نقضه (نبذه) فريقٌ منهم، وأكثرهم لا يؤمنون بما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ، ولا يؤمنون بحُرمة العهود والمواثيق. ^{٩٤٧}

وقد أخلفوا ميثاقهم مع الله تحت الجبل، ونبذوا عهودهم مع أنبيائهم من بعد، وأخيراً نبذ فريق منهم عهدهم الذي أبرموه مع النبي - ﷺ - أول مقدمه إلى المدينة وهو العهد الذي وادعهم فيه بشروط معينة، بينما كانوا هم أول من أعان عليه أعداءه وأول من عاب دينه، وحاول بث الفرقة والفتنة في الصف المسلم، مخالفين ما عاهدوا المسلمين عليه ..

وبئس هي من خلة في اليهود! تقابلها في المسلمين خلة أخرى على النقيض، يعلنها رسول الله - ﷺ -
عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: كَانَتْ خُرَاعَةٌ حُلْفَاءَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ بَنُو بَكْرٍ رَهْطٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ حُلْفَاءَ لِأَبِي سَفْيَانَ، قَالَ: وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ مُوَادَعَةٌ أَيَّامَ الْحُدَيْيَةِ، فَأَعَارَتْ بَنُو بَكْرٍ عَلَى خُرَاعَةٍ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ، فَبَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْتَمِدُّونَهُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُمِدًّا لَهُمْ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ قُدَيْدًا ثُمَّ أَفْطَرَ، وَقَالَ: لِيَصُمِ النَّاسُ فِي السَّفَرِ وَيُفْطِرُوا، فَمَنْ صَامَ أَجْزَأَ عَنْهُ صَوْمُهُ، وَمَنْ أَفْطَرَ وَجَبَ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ.

فَفَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ، فَلَمَّا دَخَلَهَا أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَالَ: كُفُّوا السَّلَاحَ، إِلَّا خُرَاعَةَ عَنْ بَكْرٍ، حَتَّى جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ قُتِلَ رَجُلٌ بِالْمَزْدَلِفَةِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الْحَرَمَ حَرَامٌ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ، لَمْ يَحِلَّ لِمَنْ كَانَ قَبْلِي، وَلَا يَحِلُّ لِمَنْ بَعْدِي، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً وَاحِدَةً، وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُشْهَرَ فِيهِ سِلَاحًا، وَإِنَّهُ لَا يَخْتَلِي خَلَاهُ، وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا إِذْخَرَ، فَإِنَّهُ لِبَيْوتِنَا وَقُبُورِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِلَّا إِذْخَرَ، وَإِنْ أَعْتَى النَّاسُ عَلَى اللَّهِ ثَلَاثَةَ مَنْ قُتِلَ فِي حَرَمِ اللَّهِ، أَوْ قُتِلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ، أَوْ قُتِلَ لِذَحْلِ الْجَاهِلِيَّةِ.

فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنِّي وَقَعْتُ عَلَى جَارِيَةٍ بَنِي فُلَانٍ، وَإِنَّهَا وَلَدَتْ لِي، فَأُمِّرَ بَوَلَدِي فَلْيُرَدَّ إِلَيَّ، فَقَالَ ﷺ: لَيْسَ بِوَلَدِكَ، لَا يَجُوزُ هَذَا فِي الْإِسْلَامِ، وَالْمُدْعَى عَلَيْهِ أَوْلَى بِالْيَمِينِ، إِلَّا أَنْ تَقُومَ بَيْنَهُ، الْوَلَدُ لِصَاحِبِ الْفَرَاشِ، وَبِفِي الْعَاهِرِ الْأَثْلَبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَا الْأَثْلَبُ؟ قَالَ: الْحَجَرُ، فَمَنْ عَهَرَ بِامْرَأَةٍ لَا يَمْلِكُهَا، أَوْ بِامْرَأَةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ فَوَلَدَتْ، فَلَيْسَ بِوَلَدِهِ، لَا يَرِثُ وَلَا يُورَثُ. وَالْمُؤْمِنُونَ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَوْلَاهُمْ، وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَلَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ. وَلَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ. وَلَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا، وَلَا عَلَى خَالَتِهَا، وَلَا تُسَافِرُ ثَلَاثًا

^{٩٤٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٠٧، بترقيم الشاملة آليا)

مَعَ غَيْرِ ذِي مَحْرَمٍ. وَلَا تُصَلُّوا بَعْدَ الْفَجْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، وَلَا تُصَلُّوا بَعْدَ الْعَصْرِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ. ٩٤٨

وَعَنْ أَبِي حَسَّانَ، أَنَّ عَلِيًّا، كَانَ يَأْمُرُ بِالْأَمْرِ فَيُؤْتَى، فَيَقَالُ: قَدْ فَعَلْنَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ الْأَشْتَرُ: إِنَّ هَذَا الَّذِي تَقُولُ قَدْ تَفَشَّخَ فِي النَّاسِ، أَفَشَيْءٌ عَهْدُهُ إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ عَلِيٌّ: مَا عَهْدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا خَاصَّةً دُونَ النَّاسِ، إِلَّا شَيْءٌ سَمِعْتُهُ مِنْهُ فَهُوَ فِي صَحِيفَةٍ فِي قِرَابِ سَيْفِي، قَالَ: فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَخْرَجَ الصَّحِيفَةَ، قَالَ: فَإِذَا فِيهَا: مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحَدَّثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ قَالَ: وَإِذَا فِيهَا: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي أُحَرِّمُ الْمَدِينَةَ، حَرَامٌ مَا بَيْنَ حَرَّتَيْهَا وَحِمَاهَا كُلُّهُ، لَا يُخْتَلَى خِلَالَهَا، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهَا، وَلَا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا، إِلَّا لِمَنْ أَشَارَ بِهَا، وَلَا تُقَطَّعُ مِنْهَا شَجَرَةٌ إِلَّا أَنْ يَعْلِفَ رَجُلٌ بَعِيرَهُ، وَلَا يُحْمَلُ فِيهَا السِّلَاحُ لِقِتَالٍ قَالَ: وَإِذَا فِيهَا: الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُوا دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَذْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، أَلَّا لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ. ٩٤٩.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ، قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مَا كَانَ مِنْ حِلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَزِدْهُ إِلَّا شِدَّةً، وَلَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَالْمُسْلِمُونَ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، تَكَافَأُوا دِمَاؤُهُمْ، يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَذْنَاهُمْ، وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَفْصَاهُمْ، تُرَدُّ سَرَائِيَهُمْ عَلَى قَعْدِهِمْ، لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، دِيَةُ الْكَافِرِ نِصْفُ دِيَةِ الْمُسْلِمِ، لَا جَلَبَ وَلَا جَنْبَ، وَلَا تُؤْخَذُ صَدَقَاتُهُمْ إِلَّا فِي دِيَارِهِمْ. ٩٥٠.

يسعى بذمتهم أدناهم، فلا يخيس أحد بعهده إذا عاهد، ولا ينقض أحد عقده إذا أبرم، عن محمد وطلحة وأبي عمرو وأبي سفيان والمهلب، قالوا: لما فرغ أبو سبرة من السَّوس خرج في جنده حتى نزل على جندى سابور، وزر بن عبد الله بن كليب محاصره؛ فأقاموا عليها يغادهم ويرأوحوهم القتال؛ فما زالوا مقيمين عليها حتى رمى إليهم بالأمان من عسكر المسلمين، وكان فتحها وفتح نهاوند في مقدار شهرين، فلم يفجأ المسلمين إلا وأبوابها تفتح، ثم خرج السَّرح، وخرجت الأسواق، وانبث أهلها، فأرسل المسلمون: أن مالكم؟ قالوا: رميتم إلينا بالأمان فقبلناه، وأقررنا لكم بالجزء على أن تمتعونا. فقالوا: ما فعلنا، فقالوا: ما كذبنا، فسأل المسلمون فيما بينهم؛ فإذا عبد يدعى مكنا كان أصله منها؛ هو الذي كتب لهم. فقالوا: إنما هو عبد، فقالوا: إنا لا نعرف حرَّكم من عبدكم، قد جاء أمان فنحن عليه قد قبلناه، ولم نبذل؛ فإن شئتم فاغذروا. فأمسكوا عنهم، وكتبوا بذلك إلى عمر، فكتب إليهم: إنَّ الله عَظَّمَ

٩٤٨ - صحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [١٣ / ٣٤٠] (٥٩٩٦) صحيح

٩٤٩ - مسند أحمد (عالم الكتب) [١ / ٣٤٢] (٩٥٩) صحيح

٩٥٠ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٢ / ٦٣٤] (٦٦٩٢) صحيح

الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا، ما دتم في شك أجيزوهم، وفوا لهم. فوفوا لهم، وانصرفوا عنهم^{٩٥١}...

وهذه سمة الجماعة الكريمة المتماسكة المستقيمة. وذلك فرق ما بين أخلاق اليهود الفاسقين وأخلاق المسلمين الصادقين.

«وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ، نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»..

وكان هذا مظهرا من مظاهر نقض فريق لكل عهد يعاهدونه. فلقد كان ضمن الميثاق الذي أخذه الله عليهم، أن يؤمنوا بكل رسول يبعثه، وأن ينصروه ويحترموه. فلما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، خاسوا بذلك العهد، ونبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم، يستوي في هذا النبذ كتاب الله الذي معهم، والذي يتضمن البشرى بهذا النبي وقد نبذوه، والكتاب الجديد مع النبي الجديد وقد نبذوه أيضا! وفي الآية ما فيها من سخرية خفية، يحملها ذلك النص على أن الذين أوتوا الكتاب هم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. فلو كانوا هم المشركين الأميين لكان نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم مفهوما! ولكنهم هم الذين أوتوا الكتاب. هم الذين عرفوا الرسالات والرسول. هم الذين اتصلوا بالهدى ورأوا النور.. وماذا صنعوا؟

إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم! والمقصود طبعاً أنهم جحدوه وتركوا العمل به، وأنهم أبعدوه عن مجال تفكيرهم وحياتهم. ولكن التعبير المصور ينقل المعنى من دائرة الذهن إلى دائرة الحس ويمثل عملهم بحركة مادية متخيلة، تصور هذا التصرف تصويراً بشعاً زرياً، ينضح بالكنود والجحود، ويتسم بالغلظة والحماقة، ويفيض بسوء الأدب والقحة ويدع الخيال يتملى هذه الحركة العنيفة. حركة الأيدي تنبذ كتاب الله وراء الظهور...^{٩٥٢}

وقال تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً { (١٥٥) سورة النساء
فبسبب نقض هؤلاء اليهود للميثاق الذي واثقهم الله به، (إذ أحلوا ما حرم الله، وحرّموا ما أحل الله) وبسبب كفرهم بآيات الله ومُعجزاته الدالة على صدق أنبيائه، وبسبب قتلهم الأنبياء ظلماً وعُدواناً واجترأ على محارم الله، وبسبب قولهم: قُلُوبُنَا مُغْلَفَةٌ بِغِطَاءٍ لَا يَتِيَسَّرُ مَعَهُ وَصُولُ الْعِلْمِ وَالْهُدَى إِلَيْهَا (غُلْفٌ) ... فسبب جميع ما تقدّم من الاعتداء والتجاوز على أوامر الله وحُدوده وشرعه، فعل الله بهم

^{٩٥١} - تاريخ الرسل والملوك [٢/ ٣٥٦] قوي

^{٩٥٢} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٩٦)

ما فعل .ويقولُ تعالى: إِنَّ قُلُوبَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ لَيْسَتْ مُغْلَفَةً، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى طَبَعَ عَلَيْهَا بِالْكَفْرِ، فَلَا يَصِلُ إِلَيْهَا إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ الْإِيمَانِ (أَوْ إِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلُونَ)^{٩٥٣}

في هذه الآية والآيات التي بعدها يحصى الله سبحانه وتعالى على اليهود ما ارتكبوا من خطايا، وما اقترفوا من آثام، حتى كان لهم من الله هذا العقاب الأليم الذي أخذهم به في الدنيا، وجعله ميراثا يقتسمه أبناؤهم من بعدهم، إذ كانت جرائمهم من الشناعة والهول بحيث لا يستقلّ بحملها جيل أو عدة أجيال.. بل إنها لو قسمت عليهم في أجيالهم السابقة واللاحقة لأحاطت بهم جميعا، ثم كان من فائضها ما يتسع لأمثالهم..

فقد نقضوا موثيق الله، وكفروا بآياته. وقتلوا رسله..عدوانا وبغيا، حيث لا شبهة ولا مظنة شبهة يقتل بها رسول من رسل الله، إذا قتل غيرهم من الناس، بحق أو بغير حق..فما رسل الله إلّا رحمة من رحمته، وفضل من فضله، ونعمة من نعمه.. فالذى يدفع الرحمة، ويأبى الفضل، ويكفر بالنعمة، هو إنسان مبتلى في عقله، متهم في إنسانيته فإذا تجاوز ذلك إلى أن يكون حربا على الرحمة والفضل والنعمة، فقل أي كائن هو.. ولكن لا تنسبه إلى عالم الإنسان أبدا! على أن الأمر لا يحتاج إلى بحث أو نظر، فقد حكم القوم على أنفسهم، ونطقوا بما ينطق به في شأهم الوجود كله، ويدينهم به.. وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: «وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ» أي مغلفة، مغلفة، لا ينفذ إليها شيء من الحق والخير.. وهم إنما يقولون هذا القول في مجال الاستهزاء والسخرية، كما يقول من يتعامل: إني جاهل..! والمغرور بماله، المدلل بثروته: إني فقير! بل إن أمرهم لأكثر من هذا، إذ ليس ما بقلوبهم مجرد غطاء يحجبها عن كل خير، كما ادعوا على أنفسهم استهزاء وتعاضما، ولو كان ذلك هو الذي بهم لكان لدائمهم طب، ولعلتهم دواء! ولكن الذي بهم هو شيء لو عقلوه لبكوا كثيرا، ولضحكوا قليلا، بل لكانت حياتهم كلها بكاء موصولا، ودمعا جاريا، لما رماهم الله به من داء قتل كل معاني الإنسانية فيهم.. فإذا هم ناس وليسوا ناسا، أحياء وليسوا بالأحياء! انظر إلى قلوب هؤلاء القوم.. فهل تجد ما بها، هو حجاب كثيف مضروب عليها؟ أو غلاف صفيق اشتمل عليها واحتواها؟ وكلا.. «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا». وإذن فداء هذه القلوب هو في كيانها ذاتها، وليس مادة غريبة غشيتها واحتوتها، بل هو الختم المحكم الذي ختمه الله عليها، فلا يخرج ما فيها من خبث ولا يدخل إليها ما في الحياة من حق وخير.. إنها ستظل هكذا مغلفة على ما فيها.. أشبه بالبركة الراكدة العفنة، لا تزداد مع الأيام إلا ركودا وعفنا، ولا تلد مع الزمن إلا العفن، والوباء! وقوله تعالى: «فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» هو وصف لمن أفلت منهم من تلك اللعنة، استثناء من هذا الأصل الذي ينتسب إليه القوم جميعا.. وهو عدد قليل، لا يشفع لهذه الجماعة بالخروج من هذا الحكم المضروب عليها.^{٩٥٤}

^{٩٥٣} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٤٨، بترقيم الشاملة آليا)

^{٩٥٤} - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٩٦٣)

والسلطان الذي آتاه الله موسى هو - في الغالب - الشريعة التي تضمنتها الألواح، فشريعة الله سلطان من الله وكل شريعة غير شريعة الله ما أنزل الله بها من سلطان وما جعل فيها من سطوة على القلوب. لذلك تستهين القلوب بالشرائع والقوانين التي يسنها البشر لأنفسهم، ولا تنفذها إلا تحت عين الرقيب وسيف الجلال. فأما شريعة الله فالقلوب تخضع لها وتخضع ولها في النفس مهابة وخشية .. ولكن اليهود الذين لا تستشعر قلوبهم الإيمان أبوا الاستسلام لما في الألواح .. وهنا جاءهم القهر المادي الذي يناسب طبيعتهم الغليظة. إذ نظروا فأروا الصخرة معلقة فوق رؤوسهم تهددهم بالوقوع عليهم إذا هم لم يستسلموا ولم يتعهدوا بأخذ ما أعطاهم الله من العهد وما كتب عليهم من التكاليف في الألواح .. عندئذ فقط استسلموا وأخذوا العهد وأعطوا الميثاق .. ميثاقا غليظا .. مؤكدا وثيقا .. يذكره - بهذه الصفة - ليتناسق المشهد مع غلظ الصخر المرفوع فوقهم، وغلظ القلب الذي في صدورهم، ثم يعطي - إلى جانب التناسق معنى الجسامة والوثاقة والمتانة على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير، وبالتخييل الحسي والتجسيم^{٩٥٥}.

وكان في هذا الميثاق: أن يدخلوا بيت المقدس سجدا. وأن يعظموا السبت الذي طلبوا أن يكون لهم عيدا. ولكن ماذا كان؟ إنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم وغياب القهر لهم، تملصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه، وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه بغير حق. وتبححوا فقالوا: إن قلوبنا لا تقبل موعظة، ولا يصل إليها قول، لأنهما مغلفة دون كل قول! وفعلوا كل الأفاعيل الأخرى التي يقصها الله سبحانه على رسوله وعلى المسلمين - في مواجهة اليهود - في سياق هذه الآيات .. «فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ، وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ، وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ...» وعند قولهم: «قُلُوبُنَا غُلْفٌ» .. وهي القولة التي كانوا يجيبون بها على دعوة الرسول - ﷺ - إما تئيسا له من إيمانهم واستجابتهم، وإما استهزاء بتوجيه الدعوة إليهم، وتبححا بالكذب وعدم الإصغاء، وإما هذا وذلك معا .. عند قولهم هذا ينقطع السياق للرد عليهم: «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا - بِكُفْرِهِمْ - فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا - » فهي ليست مغلفة بطبعها. إنما هم كفرهم حر عليهم أن يطبع الله على قلوبهم، فإذا هي صلدة جامدة مغطاة، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته، فلا يقع منهم الإيمان، إلا قليلا، ممن لم يستحق بفعله، أن يطبع الله على قلبه. أي أولئك الذين فتحوا قلوبهم للحق واستشرفوه، فهداهم الله إليه ورزقهم إياه. وهم قلة قليلة من اليهود. كعبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسد بن سعية، وأسد بن عبيد الله ..

^{٩٥٥} - يراجع كتاب: التصوير الفني في القرآن «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

وبعد هذا الاستدراك والتعقيب، يعود السياق إلى تعداد الأسباب التي استحقوا عليها ما استحقوا من تحريم بعض الطيبات عليهم في الدنيا، ومن إعداد النار وتهيئتها لهم، لتكون في انتظارهم في الآخرة! «وَبِكْفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ...» ويكرر صفة الكفر كلما ذكر إحدى منكراتهم. فقد ذكرها عند قتلهم الأنبياء بغير حق - وما يقتل نبي بحق أبدا فهي حال لتقرير الواقع - وذكرها هنا بمناسبة قولهم على مريم بهتاناً عظيماً. وقد قالوا على مريم الطاهرة ذلك المنكر الذي لا يقوله إلا اليهود! فرموها بالزنا مع يوسف النجار - لعنة الله عليهم! ثم تبجحوا بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه، وهم يتهمون بدعواه الرسالة فيقولون: قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله! ..^{٩٥٦}

وقال تعالى: {فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } (١٣) سورة المائدة

فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذه الله عليهم (وَمِنْهُ الْإِيمَانُ بِكُلِّ نَبِيٍّ يُرْسِلُهُ اللَّهُ، وَنَصْرُهُ وَتَبَجُّلُهُ) استحقوا مقت الله وغضبه، حتى قتلوا الأنبياء بغير حق، وافتروا على مريم، وأسأؤوا إلى عيسى، الذي جاء لإصلاح ما فسد من عقائدهم وأخلاقهم، وحاولوا قتله، فبسبب جميع ما اقترفوه من عقائدهم وأخلاقهم، وحاولوا قتله، فبسبب جميع ما اقترفوه من ذنوب ومعاص جعل الله قلوبهم قاسية، فلا يتعظون بموعظة لغظة قلوبهم وقسوتها، وجعل أفهامهم فاسدة فساءت تصرفاتهم في آيات الله، فأخذوا في تحريفها وتأويلها على غير ما أنزلت له، وحملوها على غير المراد منها (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) وتركوا العمل بها رغبة عنها (نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ)، ولا تزال تكتشف من أكثرهم غدراً ومكرًا بك وبأصحابك (تَطَّلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ)، فاعف عنهم واصفح، وهذا هو التصبر والظفر، وفيه تألف لقلوبهم، لعل الله أن يهديهم إلى الحق، إن الله يحب المحسنين. (وقال ابن عباس إن معنى قوله تعالى - ونسوا حظاً مما ذكروا به - هو أنهم نسوا الكتاب الذي أنزل إليهم)^{٩٥٧}

لقد نقض بنو إسرائيل الميثاق الذي أخذه الله عليهم، فكفروا بآيات الله، ومكروا بها وحسدوا نعمه وأفضاله، وكذبوا رسله، وأخذوهم بالأذى الذي بلغ في كثير من الأحيان حد القتل. فبسبب هذا لعنهم الله.. وكفى بهذا العقاب عقاباً ونكالاً.. إنه الهلاك الأبدي، والضياع لمعالم الإنسانية كلها، والخسران في الدنيا والآخرة..

^{٩٥٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١١٧٠)

^{٩٥٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٨٣، بترقيم الشاملة آليا)

«أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا» (النساء: ٥٢) قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً» هو مسخ لهذه القلوب، وقلب لطبيعتها، وتحول بها من قلوب بشرية إلى قلوب لا تمت إلى عالم البشر بصلة..

وهذا ما يشير إليه اللفظ القرآني: «وجعلنا» الذي يدلّ على خلق جديد لهذه القلوب، وتصويرها في صورة غير الصورة التي كانت.. ولهذا استباح تلك القلوب كل منكر، وتقبّلت كل خبيث، دون أن تتأثم أو تتحرج، حتى بلغ بها ذلك أن عبثت بكلمات الله، وغيرت معالمها، وبدّلت أوضاعها، وخلطتها بأهوائها ونزعاتها.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ».. وقد ضبط القرآن الكريم الجيل الذي عاصر نزوله من أجيال اليهود- ضبطهم متلبسين بهذا المنكر الذي كان عليه آباؤهم مع كتاب الله الذي بين أيديهم.. فقد جرت على ألسنة هؤلاء الأبناء الذين عاصروا نزول القرآن، صور من صور التحريف والتبديل لكلمات الله، فقال تعالى: «مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَارْعِنَا لَيْتَ بَالِاسْتِثْنَاهُمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ» (النساء: ٤٦).

وهذا شاهد يشهد بلسان الواقع أن الأبناء والآباء على سواء، في قسوة القلوب، وجرأتهما على الله، وتبديلها لكلماته! قوله سبحانه: «وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ».. الضمير هنا راجع إلى آباء اليهود، وأنهم لم يقفوا عند حدّ التحريف والتبديل لكلمات الله، بل لم يعملوا بما ظل سليما من تحريفهم في الكتاب الذي بين أيديهم.. ذلك أنه بعد أن استقرت التوراة على ما فيها من تحريف، وتداولتها الأيدي، لم يكن من سبيل إلى إدخال تحريف عليها- فكان تحللهم من الأخذ بما لا يرضون من أحكام التوراة الباقية عندهم، هو الطريق البديل لهم من التحريف، لو كان ذلك التحريف مستطاعا لهم.. فعملهم هذا هو تحريف بصورة أخرى، مما يتأولون به النصوص، ويخرجونها عليه، حسب ما تمليه أهواؤهم..

وقوله تعالى: «وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ» هو خطاب للنبي الكريم، وأنه يجد بين يديه من خيانات اليهود لأمانة الكلمة، وشرف العهد ما يصل حاضر اليهود بماضيهم، وأنهم أبدا على خيانة الله، ولرسول الله، ولعباد الله! وفي التعبير عن الخيانة بالخائنة ما يكشف عن هذا الأسلوب الخبيث الذي يتخذه اليهود في خياناتهم، وأنه أسلوب قائم على المداينة والنفاق.. حيث يخرج اليهود خيانتهم في خبث ودهاء ومواربة، فلا يلقون بها إلا حيث لا ترصدهم العيون، ولا تواجههم الوجوه! وقوله تعالى: «إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ» هو استثناء لجماعة قليلة من اليهود، قد سلمت من هذا الداء الخبيث الذي اشتمل على القوم، ولم يبق على شيء منهم إلا كما يبقى الحريق على بعض ما اشتمل عليه، وكما يبقى البحر على بقايا سفينة غارقة! وقوله تعالى: «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» هو توجيه لرسول الله ﷺ أن يقبل هذه الجماعة القليلة التي سلمت وأسلمت من اليهود، وألا يأخذها بجريرة الكثرة

الكثيرة منهم! وألا ينظر إليها من خلال موقفها من النبي أول الدعوة، فقد كان اليهود جميعا على عداوة وحسد للنبي..^{٩٥٨}

وصدق الله. فهذه سمات يهود التي لا تفارقهم.. لعنة تبدو على سيماهم، إذ تنضح بها جبلتهم الملعونة المطرودة من الهداية. وقسوة تبدو في ملامحهم الناضبة من بشاشة الرحمة، وفي تصرفاتهم الخالية من المشاعر الإنسانية، ومهما حاولوا - مكرا - إبداء اللين في القول عند الخوف وعند المصلحة، والنعومة في الملمس عند الكيد والوقية، فإن جفاف الملامح والسمات ينضح ويشي بجفاف القلوب والأفئدة.. وطابعهم الأصيل هو تحريف الكلم عن مواضعه. تحريف كتابهم أولا عن صورته التي أنزلها الله على موسى - عليه السلام - إما بإضافة الكثير إليه مما يتضمن أهدافهم المتتوية ويررها بنصوص من الكتاب مزورة على الله! وإما بتفسير النصوص الأصلية. الباقية وفق الهوى والمصلحة والهدف الخبيث! ونسيان وإهمال لأوامر دينهم وشريعتهم، وعدم تنفيذها في حياتهم ومجتمعهم، لأن تنفيذها يكلفهم الاستقامة على منهج الله الطاهر النظيف القويم.

«وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ، إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ...».. وهو خطاب للرسول - ﷺ - يصور حال يهود في المجتمع المسلم في المدينة. فهم لا يكفون عن محاولة خيانة رسول الله - ﷺ - وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة. بل كانت هذه هي حالهم طوال إقامتهم معه في المدينة - ثم في الجزيرة كلها - وما تزال هذه حالهم في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ. على الرغم من أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد الذي آواهم، ورفع عنهم الاضطهاد، وعاملهم بالحسنى، ويمكن لهم من الحياة الرغيدة فيه. ولكنهم كانوا دائما - كما كانوا على عهد الرسول - عقارب وحيات وثعالب وذئابا تضممر المكر والخيانة، ولا تني تمكر وتغدر. إن أعوزهم القدرة على التنكيل الظاهر بالمسلمين نصبوا لهم الشباك وأقاموا لهم المصائد، وتآمروا مع كل عدو لهم، حتى تحين الفرصة، فينقضوا عليهم، قساة جفاة لا يرحمونه، ولا يراعون فيهم إلا ولا ذمة. أكثرهم كذلك.. كما وصفهم الله سبحانه في كتابه، وكما أنبأنا عن جبلتهم التي أورثها إياهم نقضهم لميثاق الله من قديم.

والتعبير القرآني الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول الله - ﷺ - في المدينة، تعبیر طريف: «وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ».. الفعل الخائنة، والنية الخائنة، والكلمة الخائنة، والنظرة الخائنة.. يجملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة.. «خائنة».. لتبقى الخيانة وحدها مجردة، تملأ الجو، وتلقي ظلالها وحدها على القوم.. فهذا هو جوهر جبلتهم، وهذا هو جوهر موقفهم، مع الرسول - ﷺ - ومع الجماعة المسلمة..

^{٩٥٨} - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ١٠٥٣)

إن هذا القرآن هو معلم هذه الأمة ومرشدها ورائدها وحادي طريقها على طول الطريق. وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها، وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله. ولو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها وتسمع توجيهاته وتقيم قواعده وتشريعاته في حياتها، ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها في يوم من الأيام.. ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها وحين اتخذت القرآن مهجورا - وإن كانت ما تزال تتخذ منه ترانيم مطربة، وتعاويد ورقى وأدعية! - أصابها ما أصابها.

ولقد كان الله - سبحانه - يقص عليها ما وقع لبني إسرائيل من اللعن والطرود وقسوة القلب وتحريف الكلم عن مواضعه، حين نقضوا ميثاقهم مع الله، لتحذر أن تنقض هي ميثاقها مع الله، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد، ناقض للعقد.. فلما غفلت عن هذا التحذير، وسارت في طريق غير الطريق، نزع الله منها قيادة البشرية وتركها هكذا ذيلا في القافلة! حتى تثوب إلى ربها وحتى تستمسك بعهدتها، وحتى توفي بعقدتها. فإني لها الله بوعده من التمكين في الأرض ومن القيادة للبشر والشهادة على الناس.. وإلا بقيت هكذا ذيلا للقافلة.. وعد الله لا يخلف الله وعده..

ولقد كان توجيه الله لنبيه في ذلك الحين الذي نزلت فيه هذه الآية: «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».. والعفو عن قبائحهم إحسان، والصفح عن خيانتهم إحسان..

ولكن جاء الوقت الذي لم يعد فيه للعفو والصفح مكان. فأمر الله نبيه - ﷺ - أن يجلبهم عن المدينة. ثم أن يأمر بإجلائهم عن الجزيرة كلها. وقد كان...^{٩٥٩}

٣٨. الغدر:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا إِذَا أُوثِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ"^{٩٦٠}.

قَالَ الثَّوْرِيُّ بِشْتِيٍّ: مَنْ اجْتَمَعَتْ فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ وَاسْتَمَرَّتْ فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَكُونَ مُنَافِقًا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ الْمَفْتُونُ بِهَا فَإِنَّهُ لَا يُصِرُّ عَلَيْهَا، وَإِنْ وَجِدَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهَا عَدِمَ الْأُخْرَى، قِيلَ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ كَالْمُنَافِقِ بِحَذْفِ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ مِثْلَ "زَيْدٌ أَسَدٌ"، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مُخْتَصًّا بِأَهْلِ زَمَانِهِ، فَإِنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - عَرَفَ بِنُورِ الْوَحْيِ بَوَاطِنَ أَحْوَالِهِمْ، وَمَيَّزَ بَيْنَ مَنْ آمَنَ بِهِ صِدْقًا

^{٩٥٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٢٤٠)

^{٩٦٠} - صحيح البخاري (١/ ١٦) (٣٤) وصحيح مسلم (١/ ٧٨) ١٠٦ - (٥٨)

[ش (منافقا خالصا) قد استجمع صفات النفاق. (خصلة) صفة. (يدعها) يتركها ويخلص نفسه منها. (غدر) ترك الوفاء بالعهد. (خاصم) نازع وجادل. (فجر) مال عن الحق واحتال في رده]

وَمَنْ أَدْعَنَ لَهُ نَفَاقًا، وَأَرَادَ اِطْلَاعَ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِمْ لِيَحْذَرُوا مِنْهُمْ، وَلَمْ يُصَرِّحْ بِأَسْمَائِهِمْ؛ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ بَعْضَهُمْ يَتُوبُ، فَلَمْ يَفْضَحْهُمْ بَيْنَ النَّاسِ؛ وَلِأَنَّ تَرْكَ التَّصْرِيحِ أَوْقَعُ فِي النَّصِيحَةِ، وَأَدْلُ عَلَى الشَّفَقَةِ، وَأَجْلَبُ إِلَى الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَأَبْعَدُ عَنِ التُّفُورِ وَالْمُخَاصَمَةِ وَاللِّتْحَاقِ بِالْمُخَالِفِينَ.^{٩٦١}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "قَالَ اللَّهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أُعْطِيَ بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ"^{٩٦٢}.

قَالَ الْقَاضِي - رَحِمَهُ اللَّهُ -: الْخَصْمُ مَصْدَرُ خَصَمْتُهُ أَخْصَمُهُ: نَعَتْ فِي اللَّمْبَالَةِ كَالْعَدْلِ، زَادَ ابْنُ مَاجَهَ: وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ أَيَّ: غَلَبْتُهُ فِي الْخُصُومَةِ (رَجُلٌ أُعْطِيَ بِي) أَيَّ عَهْدٍ بِاسْمِي وَحَلَفَ بِي أَوْ أُعْطِيَ الْأَمَانَ بِاسْمِي أَوْ بِمَا شَرَعْتُهُ مِنْ دِينِي (ثُمَّ غَدَرَ) أَيَّ: نَقَضَهُ قَالَ الطَّبِيبُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : وَهُوَ قَرِينٌ لَخُصُوصِيَّةِ الْإِعْطَاءِ بِالْعَهْدِ فَقَوْلُهُ بِي حَالٌ أَيَّ: مُوْتَقًا بِي لِأَنَّ الْعَهْدَ مِمَّا يُوْتَقُ بِهِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ قَالَ تَعَالَى: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ} [البقرة: ٢٧]، (وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ) زَيْدٌ هَذَا الْفَيْدُ لِمَزِيدِ التَّوْبِيخِ (وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ) أَيَّ: مَا أَرَادَ بِهِ مِنَ الْعَمَلِ أَتَى بِهِ تَهَجِينًا لِلأَمْرِ وَزِيَادَةً لِلتَّفْرِيعِ (وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ) وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ مَاجَهَ وَلَمْ يُؤَفِّهِ أَيَّ لَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ وَافِيًا^{٩٦٣}

وَعَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ رَجُلٍ مِنْ حَمِيرٍ قَالَ: كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَبَيْنَ الرُّومِ عَهْدٌ وَكَانَ يَسِيرُ نَحْوَ بِلَادِهِمْ حَتَّى إِذَا انْقَضَى الْعَهْدُ غَزَاهُمْ، فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ أَوْ بَرْدُونٍ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ وَفَاءٌ لَنَا غَدَرَ، فَظَنُّوا إِذَا عَمَرُو بَنُ عَبْسَةَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ فَسَأَلَهُ: فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَشُدُّ عُقْدَةً وَلَا يَحُلُّهَا حَتَّى يَنْقُضِيَ أَمْدُهَا أَوْ يَنْبُذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ^{٩٦٤}

وَإِنَّمَا كَرِهَ عَمَرُو بَنُ عَبْسَةَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا هَادَنَهُمْ إِلَى مُدَّةٍ وَهُوَ مُقِيمٌ فِي وَطَنِهِ فَقَدْ صَارَتْ مُدَّةُ مَسِيرِهِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْمُدَّةِ الْمَضْرُوبَةِ كَالْمَشْرُوطِ مَعَ الْمُدَّةِ فِي أَنْ يَغْزَوْهُمْ فِيهَا فَإِذَا سَارَ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْهُدْنَةِ كَانَ إِيقَاعُهُ قَبْلَ الْوَقْتِ الَّذِي يَتَوَقَّعُونَهُ فَعَدَّ ذَلِكَ عَمَرُو غَدْرًا وَأَمَّا إِنْ نَقَضَ أَهْلُ الْهُدْنَةِ بِأَنْ ظَهَرَتْ مِنْهُمْ خِيَانَةٌ فَلَهُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْهِمْ عَلَى غَفْلَةٍ مِنْهُمْ (فَسَأَلَ مُعَاوِيَةَ عَنْ ذَلِكَ)؛ أَيَّ عَنْ دَلِيلٍ مَا ذَكَرَهُ (فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - يَقُولُ مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحُلُّ عَهْدًا)؛ أَيَّ عَقَدَ عَهْدٍ (وَلَا يَشُدُّهُ) أَرَادَ بِهِ الْمُبَالَعَةَ عَنْ عَدَمِ التَّغْيِيرِ وَإِلَّا فَلَا مَانِعَ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي الْعَهْدِ وَالتَّأْكِيدِ، وَالْمَعْنَى لَا يُغَيِّرَنَّ عَهْدًا وَلَا يَنْقُضُهُ بَوَاحٍ وَفِي رِوَايَةٍ فَيَشُدُّهُ وَلَا يَحُلُّهُ، قَالَ الطَّبِيبُ: هَكَذَا

^{٩٦١} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ١٢٨)

^{٩٦٢} - صحيح البخاري (٣/ ٨٢) (٢٢٢٧)

[ش (أعطى بي) عاهد باسمي وحلف. (غدر) نقض العهد ولم يف به أو لم ير بقسمه. (باع حرا) وهو يعلم أنه حر. (فاستوفى منه) العمل الذي استأجره من أجله]

^{٩٦٣} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٩١)

^{٩٦٤} - سنن أبي داود (٣/ ٨٣) (٢٧٥٩) صحيح

جُمِلَتْهُ عِبَارَةٌ عَنْ عَدَمِ التَّغْيِيرِ فِي الْعَدِّ فَلَا يَذْهَبُ عَلَى اعْتِبَارِ مَعَانِي مُفْرَدَاتِهَا، وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ ؛ أَيْ لَا يَجُوزُ نَقْضُ الْعَهْدِ وَلَا الزِّيَادَةُ عَلَى تِلْكَ الْمُدَّةِ، وَفِيهِ نَصٌّ وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ يَتْرُكُ الْمُعَاهِدُ الْعَهْدَ مِنْ غَيْرِ نَقْضٍ (حَتَّى يُمَضِّيَ أَمَدَهُ) بِفَتْحَتَيْنِ أَيْ تَنْقِضِي غَايَتُهُ (أَوْ يَنْبِذَ) بِكَسْرِ الْبَاءِ ؛ أَيْ يَرْمِي عَهْدَهُمْ (إِلَيْهِمْ)، بَأَن يُخْبِرَهُمْ بِأَنَّهُ نَقَضَ الْعَهْدَ عَلَى تَقْدِيرِ خَوْفِ الْخِيَانَةِ مِنْهُمْ (عَلَى سَوَاءٍ) ؛ أَيْ لِيَكُونَ خَصْمُهُ مُسَاوِيًا مَعَهُ فِي التَّقْضِ كَيْ لَا يَكُونَ ذَلِكَ مِنْهُ غَدْرًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنفال: ٥٨] قَالَ الطَّبْيِيُّ: قَوْلُهُ عَلَى سَوَاءٍ حَالٌ قَالَ الْمُظْهَرُ ؛ أَيْ يُعْلِمُهُمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَغْزَوْهُمْ وَأَنَّ الصُّلْحَ قَدْ ارْتَفَعَ فَيَكُونُ الْفَرِيقَانِ فِي عِلْمِ ذَلِكَ سَوَاءً (قَالَ) ؛ أَيْ سَلِيمٌ (فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ بِالنَّاسِ) الْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ فَإِنَّ " رَجَعَ " لَازِمٌ وَمُتَعَدٍّ قَالَ تَعَالَى: {فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ} [التوبة: ٨٣] ؛ أَيْ فَذَهَبَ بِهِمْ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْبَاءَ لِلْمُصَاحَبَةِ ؛ أَيْ فَرَجَعَ مَعَهُمْ^{٩٦٥}

وَعَنْ رِفَاعَةَ بْنِ شَدَّادِ الْفَتَيَانِيِّ قَالَ: لَوْلَا كَلِمَةٌ سَمِعْتُهَا مِنْ عَمْرِو بْنِ الْحَقِّمِ الْخَزَاعِيِّ، لَمْ شَيْتُ فِيمَا بَيْنَ رَأْسِ الْمُخْتَارِ وَجَسَدِهِ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَمِنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ، فَقَتَلَهُ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُ لَوَاءَ غَدْرِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^{٩٦٦}

وَعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ، قَالَ: «أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟» قَالَ فَتِيَّةٌ مِنْهُمْ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِيْنِهِمْ، تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ بَفَتًى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا، فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا، فَلَمَّا ارْتَفَعَتْ التَّفَتَّتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غَدْرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ، بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا، قَالَ: يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقْتَ، صَدَقْتَ كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لَضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟»^{٩٦٧}

وَعَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مِنْ أَرْضِ الْحَبَشَةِ، لَقِيَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «حَدِّثْنِي بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ»، قَالَ: مَرَّتْ امْرَأَةٌ عَلَى رَأْسِهَا مِكَتَلٌ فِيهِ طَعَامٌ، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ فَأَصَابَهَا فَرَمَى بِهَا، فَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَهِيَ تُعِيدُهُ فِي مِكَتَلِهَا وَهِيَ

^{٩٦٥} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢٥٦٣ / ٦)

^{٩٦٦} - سنن ابن ماجه (٨٩٦ / ٢) (٢٦٨٨) صحيح

[ش - (لمشيت فيما بين رأس المختار وجسده) أي فرقت رأسه عن جسده ومشيت بينهما كناية عن قتله (أمن) كسمع يقال أمنتته على كذا وأتمنتته، بمعنى.]

^{٩٦٧} - سنن ابن ماجه (١٣٢٩ / ٢) (٤٠١٠) حسن

[ش - (فتية) أي جماعة. (ياغدر) أي ياغادر. وأكثر ما يستعمل في النداء بالشتيم. (يقدس الله) أي يطهرهم من الدنس والآثام.]

تَقُولُ: وَيَلْ لَكَ مِنْ يَوْمٍ يَضَعُ الْمَلِكُ كُرْسِيَّهٖ، فَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ. فَصَحَّحَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى
 بَدَتْ نَوَاجِذُهُ فَقَالَ: «كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لَضَعِيفِهَا مِنْ شَدِيدِهَا حَقُّهُ وَهُوَ غَيْرُ مُتَعَتِّعٍ»^{٩٦٨}
 وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ الْغَادِرَ يُرْفَعُ لَهُ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ
 فُلَانٍ بِنِ فُلَانٍ" ^{٩٦٩}
 وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ»^{٩٧٠}
 وَعَنْ بَشْرِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءً
 يُعْرَفُ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ، وَإِنَّ أَكْبَرَ الْغَدْرِ غَدْرُ أَمِيرٍ عَامَّةٍ" ^{٩٧١}
 وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: أَلَا إِنَّ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ، أَلَا وَلَا غَدْرَ
 أَعْظَمَ مِنْ إِمَامٍ عَامَّةٍ ^{٩٧٢}.

٣٩. الْخِيَانَةُ:

قال تعالى: { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ
 يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فِيمَا تَتَّقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ
 لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ
 (٥٨) } سورة الأنفال
 نزلت هذه الآية في نفرٍ من اليهود، زعيمهم كعبُ بنُ الأشرف، وهو من طواغيت الكُفر والكُره
 لمُحمَّد ﷺ وللإسلام، وفيها يُطمئنُ الله تعالى رسوله ﷺ إلى أنه آمنٌ من عاقبة كيدهم، ويُبَيِّنُ فيها ما
 يجبُ أن يفعله الرسولُ مع أمثالهم من الخونة المتربِّصين .

^{٩٦٨} - السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٥٧) (٥٨٢) صحيح

^{٩٦٩} - صحيح البخاري (٨/ ٤١) (٦١٧٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٥٩) - (١٧٣٥)

[ش (يرفع لكل غادر لواء) قال أهل اللغة اللواء الراية العظيمة لا يسكبها إلا صاحب جيش الحرب أو صاحب دعوة الجيش ويكون
 الناس تبعاً له قالوا فمعنى لكل لواء غادر أي علامة يشهر بها في الناس وكانت العرب تنصب الألوية في الأسواق الحفلة لغدرة الغادر
 لتشهيره بذلك وأما الغادر فإنه الذي يواعد على أمر ولا يفي به وذكر القاضي عياض احتمالين أحدهما هي الإمام أن يغدر في عهده
 لرعيته وللکفار أو غيرهم أو غدره للأمانة التي قلدها لرعيته والتزم القيام بها والمحافظة عليها ومتى خانهم أو ترك الشفقة عليهم أو الرفق
 بهم فقد غدر بعهدده والاحتمال الثاني أن يكون المراد هي الرعية عن الغدر بالإمام فلا يشقوا عليه الطاعة ولا يتعرضوا لما يخاف حصول
 فتنه بسببه والصحيح الأول]

^{٩٧٠} - صحيح البخاري (٩/ ٢٥) (٦٩٦٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦١) - ١٤ (١٧٣٧)

^{٩٧١} - مسند أحمد ط الرسالة (١٠/ ٢٦١) (٦٠٩٣) صحيح لغيره

^{٩٧٢} - مسند أحمد (عالم الكتب) (٤/ ١٧٦) (١١٦٦٦) - ١١٦٨٩ - صحيح لغيره

يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّ شَرَّ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ، فِي حُكْمِ اللَّهِ وَعَدْلِهِ، هُمُ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ اجْتَمَعَتْ فِيهِمْ صِفَتَانِ:

(أ) - الإصرارُ على الكُفرِ، والرُّسوخُ فيه حتى لا يُرجى لهم إيمانٌ .

(ب) - نقضُ العهدِ .

وكان الرسول ﷺ حين هجرته إلى المدينة، عقد مع اليهودِ عَقُوداً، آمَنَهُمْ فيها على أنفُسِهِمْ وأَمْوَالِهِمْ ودينَهُمْ، فنقضُوا هذه العُهُودَ، وتآمروا على الرسولِ والمُسْلِمِينَ .

الذين كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نقضُوهُ، وكُلَّمَا أَكْدُوا بِالْإِيمَانِ نكثُوهُ، وهُمْ لَا يَخَافُونَ عِقَابَ اللَّهِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْآثَامِ ارْتَكَبُوهُ .

فإذا ما لقيتهم يا أيُّها الرسولُ في الحربِ، وظفرتَ بِهِمْ، فنكّلْ بِهِمْ، وأثخنْ فِيهِمْ قِتَالاً، ليخافَ سِوَاهُمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ { فشرّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ }، وليكُونُوا عِبْرَةً لغيرِهِمْ، لعلَّهُمْ يُحَازِرُونَ أَنْ يَنْكُثُوا أَيْمَانَهُمْ، ويخُونُوا عُهُودَهُمْ، فيحلَّ بِهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ .

وإذا خفتَ مِنْ قَوْمٍ عَاهَدْتَهُمْ، خِيَانَةً وَنَقْضاً لِلْعَهْدِ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، فانبِذْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ، وأَعْلِمَهُمْ بِأَنَّكَ نقضتَ عَهْدَهُمْ حتى يَعْلَمُوا أَنَّ لَا عَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ، فتستوي أنت وإِيَّاهُمْ فِي ذَلِكَ بِدُونِ خِدَاعٍ وَلَا اسْتِخْفَاءٍ . واللهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ، حتى ولو كانتِ الْخِيَانَةُ مُوجَّهَةً لِلْكَفَّارِ .^{٩٧٣}

وَعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ، قَالَ: " ثَلَاثَةُ الْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ فِيهِنَّ سَوَاءٌ: مَنْ عَاهَدْتَهُ وَفَّ بِعَهْدِهِ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا، فَإِنَّمَا الْعَهْدُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ كَانَتْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ رَحِمٌ فَصَلَّهَا، مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا وَمَنْ ائْتَمَّنَكَ عَلَى أَمَانَةٍ فَأَدَّهَا إِلَيْهِ " مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا . " ^{٩٧٤}

قوله تعالى «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» . هو التعقيب المناسب لما أخذ به الظالمون من بلاء ونكال ..

إنَّ هذا الحكم هو الذي تشييعهم به الحياة، وهم يعالجون سكرات الموت، إذ كانوا في حرب مع الله، ومع أولياء الله.. فكيف يرحمهم قلب، أو تدمع عليهم عين؟

وفي قوله تعالى: «فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» بعد قوله سبحانه: «الَّذِينَ كَفَرُوا» - في هذا ما يسأل عنه: إذ كيف يكون نفى الإيمان عنهم مسبباً لكفرهم، مع أن عدم الإيمان هو عين الكفر.. والسبب لا يكون عين المسبب، وإن كان نتيجة لازمة من لوازمه؟ ..

والجواب - والله أعلم - : أن كفر هؤلاء الكافرين الذين وصفوا بأنهم شرّ الدوابِّ عند الله.. إنما يتلبس بنفوس خاصّة، من جماعة من الكافرين، لا بكلّ الكافرين.. وتلك الجماعة هي التي من شأنها ألا تخلع هذا الكفر أبداً، بل تشدّ قلوبها عليه، حتى تموت به! ومن هنا استحققت تلك الجماعة هذا الوصف

^{٩٧٣} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢١٦، بترقيم الشاملة آليا)

^{٩٧٤} - شعب الإيمان (٦/ ٢٠٣) (٤٠٥٣) صحيح

الذي وصفها الله سبحانه وتعالى به، وهى أنها شرّ ما دبّ على الأرض من كائنات، وذلك لأنها لا تعقل كما يعقل الناس، ولا تسمع كما يسمع الناس، ولا تبصر كما يبصر الناس.. ثم هى ليست من دوابّ الحيوانات، تعيش، فى حدود الطبيعة المتاحة لتلك الدواب، وإنما هى خلق آخر.. مزيج من الإنسان والحيوان.. وذلك مسخ للإنسان، وللحيوان معاً، وبهذا المسخ يكون هؤلاء الأدميون الحيوانيون شرّ الدواب، طبيعة وخلقاً.

فقوله تعالى: «فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» حكم قاطع، قاض على هذا الصنف من الكافرين بأنه لن يدخل الإيمان قلبه أبداً.. وهذا الصنف هو الذي ذكره الله سبحانه وتعالى فى قوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ.. وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (٦ - ٧: البقرة) .

وقوله تعالى: «الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ» . هو بدل من الذين كفروا، وهذا البديل يكشف عن صفة من صفات هؤلاء الكافرين. وهى أنهم لا يحفظون عهداً، ولا يراعون ذمة، إذ لا وازع عندهم، من دين أو خلق..

وفى قوله تعالى: «عَاهَدْتَ مِنْهُمْ» إشارة إلى أن النبي ﷺ لم يدعهم إلى أن يعاهدوهم بما عاهدوه عليه، بل إنهم هم الذين جاءوا إلى النبي يعرضون عليه عهدهم بالأمان والمواعدة بينهم وبينه، وأن النبي صلوات الله وسلامه عليه أجابهم إلى ذلك، وقبل منهم العهد الذي أعطوه..

وفى نقضهم لهذا العهد الذي جاءوا هم به من تلقاء أنفسهم، وأعطوه عن رضى واختيار - فى نقضهم لهذا العهد، الذي هو فى الواقع عهدهم، خيانة لأنفسهم، فوق أنه خيانة للعهد من حيث هو عهد، يجب الوفاء به على أي حال.

وفى قوله تعالى: «وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ» بعد وصفهم بقوله سبحانه: «ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ» فى هذا إشارة إلى أنهم متحللون من كل قيد يمسك بهم على خلق فاضل، وقيمهم على مبدأ كريم.. إنهم لا يتقون أي محذور تحظره الشرائع السماوية، أو تجرّمه القوانين الوضعية والمواضعات الخلقية.

والمراد هؤلاء الذين ينقضون العهد الذي عاهدوا عليه الرسول، هم جماعات اليهود الذين كانوا بالمدينة، يثيرون الفتن، ويذيعون المنكر، ويحكيون الدسائس، وينتهزون الفرصة المواتية لينالوا من النبي والمؤمنين ما يريدون من شر. ثم إن هذا الحكم هو حكم عام، يقيمه المسلمون دائماً فيما بينهم وبين الكافرين..

وقوله تعالى: «فَإِمَّا تَنْفِقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ» .

هو الجزاء الذي أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه الكريم أن يلقى به هؤلاء الكافرين، الذين لا يؤمنون بالله أبداً، والذين ينقضون عهدهم مع النبيّ، ويلقونه في الجبهة المحاربة له كلما سنحت الفرصة لهم، سواء أكان ذلك بأشخاصهم، أم بأموالهم وأسلحتهم، يمدّون بها أعداء المسلمين..

فهؤلاء الذين يقفون من النبيّ ودعوته، هذا الموقف اللئيم المخادع، لا عهد لهم، ولا ذمة لهم عند النبيّ والمسلمين، ما داموا قد غدروا ونكثوا.. فليس لهم عند النبيّ والمسلمين إذا ظفروا بهم في حرب، أو أمكنتهم أيديهم منهم في أي موقف - ليس لهم إلا الضربة القاصمة القاضية، وإلا البلاء ينصب عليهم انصباباً، ينالهم في أنفسهم، وأموالهم وأهليهم، وذلك ليكونوا عبرة لغيرهم، ومثلاً سائراً في الناس، لكل من ينقض العهد مع النبيّ والمسلمين.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «فَإِمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ». والتعبير بالظفر بهم، ووقوعهم بيد النبي بقوله تعالى «تَثَقَّفَتْهُمْ» إشارة إلى أن الحرب ليست كلّها انتقاماً، واستتصلاً للمغلوب، وإنما هي - في صميمها - إصلاح له، وحيدة به عن طريق الضلال والغواية الذي يركبه، إلى طريق الحق والهدى، المدعوّ إليه.. إذ كثيراً ما تنتهي الحرب بين المسلمين وأعدائهم، وإذا أعداد وفيرة من هؤلاء الأعداء، قد تحوّلوا إلى أولياء، ودخلوا في دين الله، وكانوا من عباده المؤمنين. وهذا هو السرّ في التعبير بكلمة «تَثَقَّفَتْهُمْ» بدلاً من كلمة تظفر بهم.. إذ الثّفاف هو من يتولّى إصلاح الرماح، وتقويمها، بما يقطع من أجزائها، وأطرافها، وبما يسوّى من نتوئها.. فالحرب في الإسلام أشبه بالثّفاف للرماح، غايتها الإصلاح، والتقويم، ولكن الحرب هنا مع هذا الصنف من الناس، الذين يغدرون بالنبيّ، وينصبون المكائد له بالخدعة والختل، إذ يجيئون إليه موادعين مسلمين، ثم ينقلبون ذئاباً محاريبين - هؤلاء، لا يرجى لهم إصلاح، ولا يتوقع منهم خير «فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» أبداً.. وإذن فليس لهم إلا الضربة القاضية، التي لا تبقى منهم على دار ولا ديار، حتى يكونوا في ذلك عبرة لغيرهم.. «فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ» أي فرّق بهذا الذي تأخذهم به من بلاء ونكال، كلّ مجتمع للضلال وتبليت السوء للمسلمين، ممن ينتظرون ما وراء كيد هؤلاء الكافرين بالمؤمنين.

فكلّ من تحدّثه نفسه بخيانة عهد المسلمين من بعد تلك الضربة التي نزلت هؤلاء الخائنين - سيجد أمام ناظرية مثلاً حيّاً لما ينتظره من بلاء ونكال في هذا الذي أخذ به هؤلاء القوم، وبهذا تنحلّ عزائم الذين يدبرون الشرّ للمسلمين، ويتشتت جمعهم.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ».. إذ الضمير في كلّ من «لعلهم» و «يذكرون» راجع إلى هؤلاء الذين يأتون بعد هؤلاء الذي نكّل بهم النبيّ وضرّهم الضربة القاضية.. ففي الضربة التي حلت هؤلاء موعظة وذكرى لهؤلاء الذين لم يظهروا بعد على طريق الغدر والخيانة! قوله تعالى: «وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ» هذه الآية تكشف عن وجه مشرق وضيء من وجوه الإسلام - ووجوه الإسلام كلها مشرقة مضيئة - في رعاية العهد وحفظه والوفاء به. لقد أشارت الآية السابقة إلى ما يدبر أعداء

الإسلام للمسلمين من كيد، ومكر، ونكت بالعهد، ونفاق فيما عاهدوهم عليه.. وأهم ينقضون العهد الذي أعطوه من أنفسهم للنبي.. في كل مرة يجيئون إليه فيها معاهدين..

وحتى لا يعامل المسلمون أعداءهم بمثل عملهم هذا، وحتى لا يدخل على نفوسهم شيء من هذا الداء الخبيث الذي استولى على نفوس أعدائهم، من نقض العهد، وخيانة الكلمة - حتى لا يكون شيء من هذا في مجتمع المسلمين، جاءهم أمر الله، فيما أمر به نبيه، ورسم له فيه أسلوب العمل، الذي يعامل به هؤلاء الناكثين للعهد.. فقال سبحانه: «وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ».. أي إن استشعرت خيانة من قوم بينك وبينهم عهد، وتوقعت أن ينكثوا هذا العهد على غرة، دون أن يؤذونك بنكته، والتحلل منه، فلا تفعل فعلهم، ولا تنقض العهد منهم في خفاء بينك وبين نفسك، كما يفعلون، بل أنذرهم بذلك، وأعلمهم إياه، «على سواء» أي على وضوح كامل، بصريح اللفظ، دون التلويح به.. وذلك ليكونوا على بينة من أمرهم، فلا يدخل في حسابهم بعد هذا العهد الذي بينك وبينهم، وبهذا يسقط العهد من هذا الحساب، ويعتدون أنفسهم للحرب، كما أعد النبي والمسلمون أنفسهم لها.^{٩٧٥}

هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث: الكفر، وعدم الإيمان، والخيانة، بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ولا قول قالوه، هم شر الدواب عند الله فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها، لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع فيهم، فإذهاب هؤلاء ومحقهم هو المتعين، لئلا يسري داؤهم لغيرهم، ولهذا قال: {فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ} أي: تجدهم في حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق. {فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ} أي: نكل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون [به] عبرة لمن بعدهم {لَعَلَّهُمْ} أي من خلفهم {يَذْكُرُونَ} صنيعهم، لئلا يصيبهم ما أصابهم، وهذه من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجرا لمن عملها أن لا يعاودها.

ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب أن الكافر - ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر - أنه إذا أُعطيَ عهدا لا يجوز خيانتته وعقوبته.^{٩٧٦}

ولفظ «الدواب» وإن كان يشمل كل ما دب على الأرض، فيشمل الأناسي فيما يشمل، إلا أنه - كما أسلفنا - يلقي ظلا خاصا حين يطلق على الآدميين.. ظل البهيمة.. ثم يصبح هؤلاء الآدميون شر البهيمة التي تدب على الأرض! وهؤلاء هم الذين كفروا حتى بلغ بهم الكفر ألا يصير حالهم إلى الإيمان! وهم الذين ينقضون عهدهم في كل مرة ولا يتقون الله في مرة! وقد وردت روايات متعددة في المقصودين بهذا النص.. قيل: إنهم بنو قريظة، وقيل: إنهم بنو النضير.

^{٩٧٥} - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٤٢)

^{٩٧٦} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٢٤)

وقيل: إنهم بنو قينقاع. وقيل: إنهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة من المشركين.. والنص والواقع التاريخي كلاهما يحمل أن يكونوا هؤلاء جميعا. فلقد نقض اليهود عهودهم مع رسول الله - ﷺ - طائفة طائفة، كما أنه قد تكرر نقض المشركين لعهودهم أيضا.. والمهم أن نعلم أن هذه النصوص تتحدث عن حالة واقعة قبل بدر وبعدها، إلى حين نزول هذه الآيات. ولكن الحكم الصادر فيها، المصور لطبيعة الناقضين للعهد يصور حالة دائمة، ويقرر صفة ثابتة ..

فهؤلاء الذين كفروا وولّوا في الكفر «فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ».. ففسدت بذلك فطرتهم، وباتوا بذلك شر الدواب عند الله. هؤلاء الذين ينقضون كل عهد أبرموه، فتجردوا بذلك من خصيصة إنسانية أخرى - خصيصة التقيد بالعهد - وانطلقوا من كل قيد، كما تنطلق البهيمة، لولا أن البهيمة مقيدة بضوابط فطرتها، وهؤلاء لا ضابط لهم. فهم بذلك شر الدواب عند الله! هؤلاء الذين لا يستطيع أحد أن يطمئن إلى عهدهم وجوارهم.. جزاؤهم هو حرمانهم الأمن كما حرّموا غيرهم الأمن وجزاؤهم هو تخويفهم وتشريدهم، والضرب على أيديهم بشدة لا ترهبهم وحدهم، إنما ترهب من يتسامع بهم ممن وراءهم من أمثالهم، والرسول - ﷺ - ومن بعده من المسلمين، مأمورون - إذا التقوا بأمثال هؤلاء في القتال - أن يصنعوا بهم ذلك الصنيع: «فَإِذَا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ».. وإنه لتعبير عجيب، يرسم صورة للأخذ المفرغ، والهول المرعب، الذي يكفي السماع به للهرب والشرود.

فما بال من يحل به هذا العذاب الرعيب؟ إنما الضربة المروعة يأمر الله تعالى رسوله - ﷺ - أن يأخذ بها هؤلاء الذين مردوا على نقض العهد، وانطلقوا من ضوابط الإنسان، ليؤمن المعسكر الإسلامي أولا، وليدمر هيبة الخارجين عليه أخيرا وليمنع كائنا من كان أن يجرؤ على التفكير في الوقوف في وجه المد الإسلامي من قريب أو من بعيد ..

إنها طبيعة هذا المنهج التي يجب أن تستقر صورتها في قلوب العصابة المسلمة. إن هذا الدين لا بد له من هيبة، ولا بد له من قوة، ولا بد له من سطوة، ولا بد له من الرعب الذي يزلزل الطواغيت حتى لا تقف للمد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من كل طاغوت. والذين يتصورون أن منهج هذا الدين هو مجرد الدعوة والتبليغ، في وجه العقبات المادية من قوى الطاغوت، هم ناس لا يعرفون شيئا عن طبيعة هذا الدين! وهذا هو الحكم الأول يتعلق بحالة نقض العهد فعلا مع المعسكر الإسلامي وما ينبغي أن يتبع في ضرب الناقضين للعهد وإرهابهم وإرهاب من وراءهم بالضربة القاصمة المروعة الهائلة.

فأما الحكم الثاني فيتعلق بحالة الخوف من نقض العهد وتوقع الخيانة وذلك بظهور أفعال وأمارات تدل على أن القوم يهمون بنقض العهد فعلا: «وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ. إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ» ..

إن الإسلام يعاهد ليصون عهده فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهره وعلانية ولم يخن ولم يغدر ولم يغش ولم يخدع وصارح الآخرين بأنه نفذ يده من عهدهم. فليس بينه وبينهم أمان .. وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة .. إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ ولا يروّع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم .. فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة، لأن كل خصم قد أخذ حذره فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير مغدور به إنما هو غافل! وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة لأنها ليست غادرة!

إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع ويريد للبشرية أن تعف فلا يبيح الغدر في سبيل الغلب وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة. إن الإسلام يكره الخيانة، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود ومن ثم لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة .. إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ ومتى استحلّت لنفسها وسيلة خسيسة، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة .. وليس مسلماً من يبرر الوسيلة بالغاية، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي والحساسية الإسلامية، لأنه لا انفصال في تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات .. إن الشط الممرع لا يغري المسلم بخوض بركة من الوحل، فإن الشط الممرع لا بد أن تلوّثه الأقدام الملوثة في النهاية .. من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة. «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ».

ويجب أن نذكر أن هذه الأحكام كانت تتزل والبشرية بمحملتها لا تتطلع إلى مثل هذا الأفق المشرق. لقد كان قانون الغابة هو قانون المتحاربين حتى ذلك الزمان .. قانون القوة التي لا تتقيد بقيد متى قدرت. ويجب أن نذكر كذلك أن قانون الغابة هو الذي ظل يحكم المجتمعات الجاهلية كلها بعد ذلك إلى القرن الثامن عشر الميلادي حيث لم تكن أوروبا تعرف شيئاً عن المعاملات الدولية إلا ما تقتبسه في أثناء تعاملها مع العالم الإسلامي. ثم هي لم ترتفع قط حتى اللحظة إلى هذا الأفق في عالم الواقع حتى بعد ما عرفت نظرياً شيئاً اسمه القانون الدولي! وعلى الذين يبرهم «التقدم الفني في صناعة القانون» أن يدركوا حقيقة «الواقع» بين الإسلام والنظم المعاصرة جميعاً! وفي مقابل هذه الصناعة وهذه النظافة يعد الله المسلمين النصر، ويهوّن عليهم أمر الكفار والكفر! «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ» ..

فتبئيتهم الغدر والخيانة لن يمنحهم فرصة سبق، لأن الله لن يترك المسلمين وحدهم، ولن يفلت الخائنين لخيانتهم. والذين كفروا أضعف من أن يعجزوا الله حين يطلبهم، وأضعف من أن يعجزوا المسلمين والله ناصرهم.

فليطمئن أصحاب الوسائل النظيفة - متى أخلصوا النية فيها لله - من أن يسبقهم أصحاب الوسائل الخسيسة. فإنما هم منصورون بالله الذي يحقق سنته في الأرض، ويعلون كلمته في الناس، وينطلقون باسمه. يجاهدون ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك.

ولكن الإسلام يتخذ للنصر عدته الواقعية التي تدخل في طوق العصبة المسلمة فهو لا يعلق أبصارها بتلك الآفاق العالية إلا وقد أمن لها الأرض الصلبة التي تطمئن عليها أقدامها وهياً لها الأسباب العملية التي تعرفها فطرته وتؤيدها تجاربها وإلا إذا أعدها هي للحركة الواقعية التي تحقق هذه الغايات العلوية^{٩٧٧} -----

وقال تعالى: {يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (٢٧) سورة الأنفال

نزلت هذه الآية في أبي لبابة حين بعثه الرسول ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله، فاستشار اليهود أبا لبابة - وكان حليفاً لهم - فأشار عليهم بالنزول على حكم رسول الله، ولكنه أشار بيده إلى حلقه، أي أنه الذبح. ثم شعر أنه خان الله ورسوله، فربط نفسه في سارية المسجد تسعة أيام لا يذوق طعاماً حتى تاب الله عليه، فأطلقه رسول الله ﷺ. (وقيل أيضاً إنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، الذي أرسل رسالة إلى قريش مع امرأة يعلمها فيها بأن الرسول تجهز لغزوهم يوم فتح مكة). والآية عامة.

يأمر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بأن لا يخونوا الله بارتكاب الذنوب، وأن يخونوا رسوله بترك سننه، وارتكاب معصيته، وأن لا يخونوا أماناتهم في أعمالهم التي ائتمن الله العباد عليها: يعني الفرائض، وهي تشمل أمانة الإنسان نحو الناس في تعامله معهم: كالمكيال والميزان، وأداء الشهادة بالحق والصدق، وكتتمان السر.. إلخ. فالأمانة واحدة ولا تبعض فيها، وأنتم تعلمون أيها المؤمنون مساوىء الخيانة، وسوء عاقبتها^{٩٧٨}.

وفي قوله تعالى: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» دعوة للمؤمنين إلى القيام بأمر الله، والتزام طاعته وطاعة رسوله، والوقوف عند الحدود التي بينها الله تعالى، فيما أنزل على رسوله من آياته وكلماته..

فالخروج على أمر الله، والخلاف لرسوله، هو خيانة الله ولرسوله، بعد أن علموا، وتثبتوا مما أمرهم الله به، أو نهاهم عنه.. ثم هو خيانة للمرء نفسه، إذ نقض العهد، وخان الأمانة التي ائتمن الله عليها.. وهذا مقابل لقوله تعالى: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ».

^{٩٧٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٨٤)

^{٩٧٨} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١٨٨، بترقيم الشاملة آليا)

ففى هذه الآفة ءءوة إلى طاعة الله ورسوله؁ والاستجابة لما ىءعوهم الرسول إليه؁ وىنءبهم له؁ متى بلغت أسماعهم ءءوته.. فالوقوف هنا هو فىما بىن المؤمنىن والنبى؁ ءال ءىاته منهم..

أما ما فى قوله تعالى: «يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» فهو امءثال لأوامر الله؁ وما بىنه الرسول الكرىم للمؤمنىن فى أقواله وأفعاله من أمورهم؁ وذلك فىما بىنهم وبىن أنفسهم؁ ءىء لا بكون الرسول معهم؁ أو بكون الرسول قد أءلى مكانه من هذه ءلنا.. وءىئء تكون أوامر الشرىعة؁ وأءكامها أمانة أو ءمن الإنسان علبها؁ فإذا ضىع تلك الأمانة بءروءه على أءكام الشرىعة؁ والعءوان على ءءوءها؁ فقد ءان الأمانة؁ وءان الله ورسوله؁ وءان نفسه؁ الءى هى أمانة عنءه؁ والءى بكون قد ضىعها؁ ءىن عرضها فى معرض التهلكة؁ إء عصى الله ورسوله..^{٩٧٩}

بأمر تعالى عباءه المؤمنىن أن بؤءوا ما اءءمنهم الله علبه من أوامره ونواهيه؁ فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال؁ فأبىن أن بءملنها وأشفقن منها وءملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا فمن أءى الأمانة اسءءق من الله الثواب الجزىل؁ ومن لم بؤءها بل ءاها اسءءق العقاب الوبىل؁ وصار ءائنا لله وللرسول ولأمانءه؁ منقصا لنفسه بكونه اءصفء نفسه بأءس الصفاء؁ وأبءء الشىاء؁ وهى ءىانة مفوءا لها أكمل الصفاء وأءمها؁ وهى الأمانة.

ولما كان العء مءءنا بأمواله وأولاءه؁ فرما ءمله ءءة ذلك على ءءءم هوى نفسه على أءاء أمانءه؁ أءبر الله تعالى أن الأموال والأولاء ءءنة ببءلى الله بءما عباءه؁ وأما عارىة سءؤءى لمن أعطاها؁ وءرد لمن اسءوءعها {وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} فإن كان لكم عقل ورأى؁ فأءروا فضله العظمى على لءة صغىرة فانىة مضمءلة؁ فالعافل بوازن بىن الأشياء؁ وببؤءر أولاءها بالباىءار؁ وأءقها بالتءءءم.^{٩٨٠}

إن ءءلى عن ءكالىف الأمة المسلمة فى الأرض ءىانة لله والرسول. فالقضىة الأولى فى هذا ءلن هى قضىة: «لا إله إلا الله؁ ءءمء رسول الله».. قضىة إفرء الله - سبءانه - بالألوهىة والأءء فى هذا بما بلغه ءءم - ﷺ - وءءه.. والبشرىة فى ءارىءها كله لم ءكن ءءء الله البءة ولكنها إنما كانت ءشرك معه آلهة أخرى. أءىانا قلىلة فى الاعءقاء والعباءة. وأءىانا كءىرة فى ءاكمىة والسلطان - وهذا هو ءالب الشرك ومعظمه - ومن ءم كانت القضىة الأولى لهذا ءلن لىست هى ءمل الناس على الاعءقاء بالألوهىة الله. ولكن ءملهم على إفرءه - سبءانه - بالألوهىة؁ وشءاءة أن لا إله إلا الله؁ أى إفرءه بالءاكمىة فى ءىاءهم الأرضىة - كما أنهم مقرّون بءاكمىءه فى نظام الكون - ءءقفا لقول الله تعالى: «وَهُوَ الَّذِى فِي السَّماءِ إِلَهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَهٌ».. كذلك كانت هى ءملهم على أن الرسول هو وءءه المبلغ عن الله ومن ءم الاءءزام بكل ما بىلغهم إياه..

^{٩٧٩} - ءفسىر القرآن للقرآن (٥/ ٥٩٣)

^{٩٨٠} - ءفسىر السعءى = ءفسىر الكرىم الرءمن (ص: ٣١٩)

هذه هي قضية هذا الدين - اعتقاداً لتقريره في الضمير، وحركة لتقريره في الحياة - ومن هنا كان التخلي عنها خيانة لله والرسول يحذر الله منها العصابة المسلمة التي آمنت به وأعلنت هذا الإيمان فأصبح متعيناً عليها أن تجاهد لتحقيق مدلوله الواقعي والنهوض بتكاليف هذا الجهاد في الأنفس والأموال والأولاد.

كذلك يحذرنا خيانة الأمانة التي حملتها يوم بايعت رسول الله - ﷺ - على الإسلام. فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان، وليس مجرد عبارات وأدعية. إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعترضه العقبات والمشاق. إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا إله إلا الله وذلك برد الناس إلى العبودية لربهم الحق ورد المجتمع إلى حاكميته وشريعته، ورد الطغاة المعتدين على ألوهية الله وسلطانه من الطغيان والاعتداء وتأمين الحق والعدل للناس جميعاً وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت وتعمير الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها عن الله بمنهج الله .. وكلها أمانات من لم ينهض بها فقد خاها وخاس بعهد الذي عاهد الله عليه، ونقض بيعته التي بايع بها رسوله.^{٩٨١}

وقد جاءت أحاديث كثيرة تحذر من الخيانة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ بئْسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ، فَإِنَّهَا بئْسَتِ الْبَطَانَةُ».^{٩٨٢}

قَالَ الطَّبْرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: هِيَ مُخَالَفَةُ الْحَقِّ بِنَقْضِ الْعَهْدِ فِي السِّرِّ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ} [الأحزاب: ٧٢] الْآيَةَ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ} [الأنفال: ٢٧] شَامِلٌ لِجَمِيعِهَا (فَإِنَّهَا بئْسَتِ الْبَطَانَةُ) أَيِ: الْخَصْلَةِ الْبَاطِنَةِ، قَالَ الطَّبْرِيُّ: هِيَ ضِدُّ الظَّهَارَةِ وَأَصْلُهَا فِي الثَّوْبِ فَاسْتَعِيرَ لِمَا يَسْتَبْطِنُهُ الْإِنْسَانُ، وَقِيلَ: أَيِ بئْسَ الشَّيْءُ الَّذِي يَسْتَبْطِنُهُ مِنْ أَمْرِهِ وَيَجْعَلُهُ بَطَانَةً حَالِهِ فِي الْمُغْرِبِ بَطَانَةً لِمَلَابَسَةٍ بَيْنَهُمَا كَالْإِنْسَانِ يُلَابِسُهُ ضَجِيعُهُ وَبَطَانَتُهُ^{٩٨٣}

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: الْمُؤْمِنُ يُطَوَّى عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا غَيْرِ الْخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ.

وَعَنْ سَعْدٍ، قَالَ: الْمُؤْمِنُ يُطَبَّعُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا غَيْرِ الْخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ.^{٩٨٤}

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يُطَوَّى الْمُؤْمِنُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ.^{٩٨٥}

^{٩٨١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٣٣)

^{٩٨٢} - صحيح ابن حبان - مخرجا (٣/ ٣٠٤) (١٠٢٩) حسن

^{٩٨٣} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٧١١)

^{٩٨٤} - مصنف ابن أبي شيبة - دار القبلة (١٣/ ١٥١) (٢٦١١٦-٢٦١١٧) صحيح

^{٩٨٥} - مصنف ابن أبي شيبة - دار القبلة (١٥/ ٥٩١) (٣٠٩٧٧) صحيح لغيره

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ: «لَا يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ وَالْكَفَرُ فِي قَلْبِ امْرِئٍ، وَلَا يَجْتَمِعُ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعًا، وَلَا تَجْتَمِعُ الْخِيَانَةُ وَالْأَمَانَةُ جَمِيعًا»^{٩٨٦}

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلَا خَبٌّ وَلَا خَائِنٌ وَلَا سَيِّئُ الْمَلَكَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ الْمَمْلُوكُونَ؛ إِذَا أَحْسَنُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَوَالِيهِمْ^{٩٨٧}

وَعَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ الْمَكِّيِّ، قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ لِفُلَانٍ نَفَقَةً أَتِيَامٍ كَانَ وَلِيَهُمْ فَعَالَطُوهُ بِأَلْفِ دِرْهِمٍ، فَأَدَّاهَا إِلَيْهِمْ فَأَذْرَكْتُ لَهُمْ مِنْ مَالِهِمْ مِثْلَيْهَا، قَالَ: قُلْتُ: أَقْبِضُ أَلْفَ الَّذِي ذَهَبُوا بِهِ مِنْكَ؟ قَالَ: لَا، حَدَّثَنِي أَبِي، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَدَّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ اتَّيَمَّنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»^{٩٨٨}

قَالَ الْقَاضِي: أَيُّ: لَا تُعَامِلِ الْخَائِنَ بِمُعَامَلَتِهِ، وَلَا تُقَابِلْ خِيَانَتَهُ بِالْخِيَانَةِ، فَتَكُونَ مِثْلَهُ، وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ أَنْ يَأْخُذَ الرَّجُلُ مِثْلَ حَقِّهِ مِنْ مَالِ الْجَا حِدِ، فَإِنَّهُ اسْتِيفَاءٌ وَلَيْسَ بِعُدْوَانٍ وَالْخِيَانَةُ عُدْوَانٌ، قَالَ الطَّبِيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْأَوَّلَى أَنْ يُنْزَلَ الْحَدِيثُ عَلَى مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (٤) {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [فصلت: ٣٤] يَعْنِي إِذَا خَانَكَ صَاحِبُكَ فَلَا تُقَابِلْهُ بِجَزَاءِ خِيَانَتِهِ، وَإِنْ كَانَ ذَاكَ حَسَنًا، بَلِّ قَابِلُهُ بِالْأَحْسَنِ الَّذِي هُوَ عَدَمُ الْمُكَافَأَةِ، وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِ أَيُّ: أَحْسَنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ^{٩٨٩}

٤٠. إِيْثَارُ حُبِّ الْأَشْيَاءِ عَلَى حُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (٢٤) سورة التوبة

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بتوَعُّدٍ مِنْ آثَرِ حُبِّ الْقَرَابَةِ وَالْعَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ وَالتَّجَارَةِ وَالْأَمْوَالِ وَالْمَسَاكِينِ.... عَلَى حُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، بِأَنْ يَتَرَبَّصُوا أَمْرَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَيَنْتَظِرُوا عِقَابَهُ وَنِكَالَهُ بِهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَهْدِي الْفَاسِقِينَ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ سِوَاءِ السَّبِيلِ^{٩٩٠}.

^{٩٨٦} - الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (ص: ٦٣٣) (٥٣٧) صحيح

^{٩٨٧} - مسند أحمد ط الرسالة (١/ ١٩١) (١٣) فيه ضعف

الحَب: الخِدَاع الذي يسعى بين الناس بالفساد. - وسىء الملكة: هو الذي يسىء صحة الممالك.

^{٩٨٨} - سنن أبي داود (٣/ ٢٩٠) (٣٥٣٤) صحيح

^{٩٨٩} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٦٧)

^{٩٩٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٦٠، بترقيم الشاملة آليا)

في هذه الآية وضع للمسلمين في مواجهة التجربة والاختبار لإيمانهم، واختيار ما يحبون وما يؤثرون.. فالإيمان في جانب.. والآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والديار.. في جانب آخر.. وعلى المؤمن أن يختار بين الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، وبين أهله، وماله ودياره.

والاختيار هنا يمكن أن يجزّ به الإنسان بينه وبين نفسه، حين يورد على مشاعره هذين الطرفين المتنازعين في كيانه، وأن يستعرضهما واحدا بعد الآخر، وأن يفترض أنه إذا لم يكن من الممكن الجمع بينهما، فأيهما يؤثر أن يمسك به، ويعيش معه؟

فإذا أثر الإيمان على الولد والأهل والمال والموطن، كان على الصفة التي يتحقق بها الإيمان الذي يقبله الله منه، ويرضاه له.. وإن كان العكس، وأثر الولد والأهل والمال والموطن، على الإيمان بالله ورسوله والولاء للمؤمنين، والجهاد في سبيل الله، فهو أقرب إلى الجبهة المعادية للإسلام، منه إلى الجبهة الموالية له.. «والمرء مع من أحب» .

وفي وصف الأموال، بأنها أموال مقترفة إشارة إلى أن المال غاد ورائح.. وأنه أشبه بالمنكر، إذ كان أكثر ما يجيء المال من حصيلة الصراع بين الناس والناس.

وفي قوله تعالى: «وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا» إشارة إلى ما قد يصيب السوق التجارية من كساد، حين تقوم القطيعة بين المؤمنين والمشرّكين.

وفي قوله تعالى: «فتربصوا» تهديد ووعد لأولئك الذين يؤثرون علاقاتهم الدنيوية، على الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله.. والتربص: الانتظار.. ووراء هذا الانتظار ما يسوء أولئك الذين آثروا الآجلة على العاجلة حين يرون نصر الله للمؤمنين، وما فتح الله عليهم به من مغام في الدنيا، ورضوان في الآخرة، وحنّات لهم فيها نعيم مقيم.

ويلاحظ أن قوله تعالى: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ.. الآية» قد انتظم كل ما تتعلق به النفوس، وتحرص عليه.. وليس وراءه من أمور الدنيا ما يطلبه الإنسان، ويعلق به..

كما يلاحظ أيضا أن هذه الأمور قد جاءت في النظم القرآني مرتبة الدرجات.. الأهم، فالمهم، فما هو دون.. وهذا ما يجعل المؤمن أمام تجربة ذات شعب، وأنه قد يؤثر إيمانه على بعضها دون بعض، أو يؤثرها جميعا عليه، أو يؤثر إيمانه عليها جميعا.. كما أن هذه التجربة تنتظم المسلمين جميعا، لا يكاد أحد منهم يفلت من الدخول فيها، فمن لم يكن له أب كان له ولد.. ومن لم يكن له ولد، ولا والد، كان له زوج.. ومن لم يكن له واحد من هؤلاء كان له مال، ومن لم يكن له مال، ولا تجارة يخشى كسادها، كان له موطن يحنّ إليه، ودار يرنو ببصره إليها..

وهكذا، في كلمات معدودة، تتحرك مشاعر المجتمع الإسلامي، وتتقلب القلوب، ويدور الصراع في كيان كل مسلم، ثم تنجلي المعركة بعد صراع طويل أو قصير، عن سلام وعافية، أو شكّ وتردد.. ثم يجيء قوله تعالى: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» تعقيبا على هذا الصراع، ممسكا هؤلاء الشاكّين

المرتددين، لينتزعوا أنفسهم مما هم فيه من شك وتردد، فإمّا إلى اليمين، وإما إلى اليسار.. والله سبحانه وتعالى في هؤلاء المرتددين الشاكّين، الذين ظلموا أنفسهم بهذا الموقف الذي وقفوه - الله فيهم أعداء لم يرد الله أن يهديهم، وأن يمضى لهم طريقهم إلى آخره مع الإيمان.. فليحذر كلّ من هؤلاء أن يكون فيمن خذلهم الله وجعلهم من أعدائه.. «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» الذين دخلوا في دين الله، ثم مال بهم الطريق إلى ما لا يرضى الله! ^{٩٩١}

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله. وعلامة ذلك، أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوباً لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تمناه نفسه، على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه. ^{٩٩٢}

إن هذه العقيدة لا تحتل لها في القلب شريكا فيما تجرد لها، وإما انسلاخ منها. وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ولا أن يترهبين ويزهد في طيبات الحياة.. كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب، ويخلص لها الحب، وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة، وهي الحركة والدافعة. فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة، على أن يكون مستعداً لنبذها كلها في اللحظة التي تتعارض مع مطالب العقيدة.

ومفارقة الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الأرض. فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة وبالزوجة والعشيرة ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن ولا عليه أن يستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق - في غير سرف ولا مخيلة - بل إن المتاع بما حينئذ لمستحب، باعتباره لونا من ألوان الشكر لله الذي أنعم بما ليتمتع بها عباده، وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ - إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ - ..»
وهكذا تنقطع أواصر الدم والنسب، إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة. وتبطل ولاية القرابة في الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة في الله. فلله الولاية الأولى، وفيها ترتبط البشرية جميعا، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك، والحبل مقطوع والعروة منقوضة.

«وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».. و«الظَّالِمُونَ» هنا تعني المشركين. فولاية الأهل والقوم - إن استحبوا الكفر على الإيمان - شرك لا يتفق مع الإيمان.

^{٩٩١} - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧٢٣)

^{٩٩٢} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٣٢)

ولا يكتفي السياق بتقرير المبدأ، بل يأخذ في استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ليضعها كلها في كفة ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى: الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة (وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج) والأموال والتجارة (مطعم الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها) .. وفي الكفة الأخرى: حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله. الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته. الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب، وما يتبعه من تضيق وحرمان، وما يتبعه من ألم وتضحية، وما يتبعه من جراح واستشهاد .. وهو - بعد هذا كله - «الجهاد في سبيل الله» مجردا من الصيت والذكر والظهور. مجردا من المباهاة، والفخر والخيلاء. مجردا من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه. وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب ..

«قُلْ: إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ .. فَتَرْبِّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ...»

ألا إنها لشاقة. ألا إنها لكبيرة. ولكنها هي ذاك .. وإلا: «فَتَرْبِّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» .. وإلا فتعرضوا لمصير الفاسقين: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» ..

وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده، إنما تطالب به الجماعة المسلمة، والدولة المسلمة. فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة في الله ومقتضيات الجهاد في سبيل الله.

وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف، إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه - فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها - وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها .. لذة الشعور بالاتصال بالله، ولذة الرجاء في رضوان الله، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط، والخلاص من ثقله اللحم والدم، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء. فإذا غلبتها ثقله الأرض ففي التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبة الطامعة في الخلاص والفكاك.^{٩٩٣}

٤١. الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف

قال تعالى: { الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) } وعد الله المنافقين والمنافقات

^{٩٩٣} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢١٩١)

وَالْكَفَّارِ نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنُهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) {
[التوبة/٦٧، ٦٨]

إِنَّ أَهْلَ النِّفَاقِ رِجَالًا وَنِسَاءً، يَتَشَابَهُونَ فِي صِفَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، يَأْمُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِفِعْلِ الْمُنْكَرِ، كَالْكَذِبِ وَالْخِيَانَةِ، وَإِخْلَافِ الْوَعْدِ، وَنَقْضِ الْعَهْدِ.. وَيَنْهَوْنَ عَنْ فِعْلِ الْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ: كَالْجِهَادِ، وَبَذْلِ الْمَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَضُنُّونَ بِالْإِثْفَاقِ فِي وُجُوهِ الْبِرِّ وَالطَّاعَاتِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ.. وَقَدْ نَسُوا أَنْ يَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَى عَنْهُ، وَاتَّبَعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ، فَجَازَاهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِحَرَمَانِهِمْ مِنْ لُطْفِهِ وَتَوْفِيقِهِ فِي الدُّنْيَا، وَمِنْ الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ.

وَالْمُنَافِقُونَ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ فُسُوقًا، وَخُرُوجًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَأَنْسِلَاحًا مِنَ الْفَضَائِلِ الْفِطْرِيَّةِ السَّالِمَةِ. وَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكَفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ، وَوَعَدَهُمْ بِهَا عَلَى سُوءِ صَنِيعِهِمْ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، وَسَيَمَكُّثُونَ فِيهَا مُخَلَّدِينَ أَبَدًا، وَلَهُمْ فِيهَا مِنَ الْجَزَاءِ وَالْعَذَابِ مَا يَكْفِيهِمْ (حَسْبُهُمْ)، وَلَعْنُهُمُ اللَّهُ، وَطَرَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ دَائِمٌ غَيْرُ عَذَابِ جَهَنَّمَ: كَالسَّمُومِ يَلْفَحُ وَجُوهُهُمْ، وَالْحَمِيمِ يَصْهَرُ مَا فِي بُطُونِهِمْ.^{٩٩٤}

هكذا هم المنافقون، وذلك هو مجتمعهم، لا ينضح بغير الإثم والمنكر، ولا يلد إلا البغي والفجور.. «بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ» أي على طبيعة سواء يجمعهم النفاق، ويؤلف بينهم، من رجال ونساء، حتى لكأنهم أفراد أسرة واحدة، تجمعها لحمة النسب والقرابة، وتؤلف بينها مشاعر الحب والولاء.. وذلك أن المنافق لا يجد المرعى الحسيب الذي يغذى فيه نفاقه، ويحقق به وجوده، ويرضى فيه مشاعره - إلا في بيئة منافقة، تتجاوب معه، وتروّج لهذه البضاعة التي يتعامل بها.. ذلك أن بضاعة المنافقين، بضاعة خبيثة، وطعام فاسد عفن، لا تقبله إلا النفوس المريضة، ولا تستطعمه إلا الطبائع الخبيثة.. إنه عملة زائفة، لا تروج إلا في الظلام، ولا يتعامل المتعاملون بها إلا في أوكار اللصوص، وفي حانات الخمر، حيث تدور الرعوس، وتذهب العقول! «يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ» هذه هي بضاعة القوم، وتلك هي رسالتهم في الحياة، وشأنهم في الناس..

«يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ» ! فلا يكفيهم أنهم يطعمون من هذا الطعام الخبيث، ولا يرضيهم أن يعرضوه على الناس - بل يأمرهم به، ويحرضونهم عليه، ويزينون لهم تعاطيه.. إنهم لا يهنؤهم هذا الطعام الخبيث العفن، حتى يستكثروا له من الأيدي التي تشاركهم فيه، ومن الأفواه التي تمضغه معهم..

«وينهون عن المعروف» ! فمن دعا إلى منكر وأمر به، وحرّض عليه، فهو ناه - ضمنا - عن معروف، صادّ عن خير.. ولكن القوم، لا يقفون عند هذا، بل إنهم حين يدعون إلى المنكر، يقومون بدعوة

^{٩٩٤} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣٠٣، بترقيم الشاملة آليا)

أخرى، هى تبغيض الحلال إلى الناس، وتزهدهم فى الخير، وذلك إذا تأبوا عليهم، ولم يستجيبوا لدعوتهم إلى المنكر..

وحسبهم فى هذا أن يصرفوا وجوه المؤمنين عن الإيمان، ويكفّوا أيديهم عن التعامل بالخير، فذلك إن تمّ لهم كان كسبا للمعركة التي يخوضونها مع المؤمنين، وهو عزل أكبر عدد يمكن عزله منهم عن المعركة، بحيث لا يكونون مع المؤمنين ولا على المنافقين!

«ويقبضون أيديهم» أي أن هؤلاء المنافقين الذين يسعون فى الناس هذا السعى الحثيث فى مجال الإفساد، والإهلاك للناس - هم فى الوقت نفسه أشحّة على الناس بأى خير يمكن أن تحمله أيديهم إلى الناس، إن كان فى يدهم أى خير..

إنهم أسخياء كرام، يبذلون - فى تبذير شديد - كلّ منكر، ويجودون بلا حساب، بكل مفسدة وكل ضلال.. أما فى مجال الخير والإحسان، فهم بخلاء أشحّاء، لا تندّ أيديهم بذرة خير، ولا تسخو أنفسهم بعارفة من إحسان! «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» إنهم لا يذكرون الله أبداً، إذ لو ذكروه، لما كان لهم فى عباد الله هذا البلاء الذي يرمونهم به، فى غير حرج أو تأثم..

إنّهم نسوا الله، فنسيهم الله، وتركهم وما هم فيه من ضلال.. فلو أنّهم ذكروا الله لوجدوا فى قلوبهم خشية له، ولكان لهم فى خشيتهم لله ما يمسك بهم عن هذا الضلال الذي يهلكون به أنفسهم، ويهلكون به كثيراً من الناس معهم.. ونسيان الله لهم، هو تركهم لأنفسهم، وحرمانهم من توفيق الله.

«إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».. أي هم الذين فسقوا عن أمر ربّهم، وخرجوا عن الطريق المستقيم، وركبوا طرق الضلال والهلاك.

قوله تعالى: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ» هذا هو الجزاء الذي أعدّه الله لأهل النفاق والكفر.. نار جهنم خالدين فيها، لا يتحولون عنها أبداً.. هى حسبهم، أي هى كلّ ما لهم عند الله.. لا شىء لهم غيرها.. ثم من وراء جهنم وعذابها، لعنة الله القائمة عليهم، وعذاب مقيم لا يفتّر عنهم وهم فيه مبلسون..^{٩٩٥}

المنافقون والمنافقات من طينة واحدة، وطبيعة واحدة. المنافقون فى كل زمان وفى كل مكان. تختلف أفعالهم وأقوالهم، ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد. سوء الطوية ولؤم السريرة، والغمز والدس، والضعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة. تلك سماتهم الأصلية. أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رياء الناس. وهم حين يأمرّون بالمنكر وينهون عن المعروف يستخفون بهما، ويفعلون ذلك دسا وهمسا، وغمزا ولمزا، لأنهم لا يجروون على الجهر إلا

^{٩٩٥} - التفسير القرآنى للقرآن (٥ / ٨٣٦)

حين يأمنون. إنهم «نسوا الله» فلا يحسبون إلا حساب الناس وحساب المصلحة، ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس يذلون لهم ويدارونهم «فنسيهم» الله فلا وزن لهم ولا اعتبار. وإنهم كذلك في الدنيا بين الناس، وإنهم كذلك في الآخرة عند الله. وما يحسب الناس حساباً إلا للرجال الأقوياء الصرحاء، الذين يجهرون بآرائهم، ويقفون خلف عقائدهم، ويواجهون الدنيا بأفكارهم، ويحاربون أو يسالمون في وضوح النهار.

أولئك ينسون الناس ليذكروا إله الناس، فلا يخشون في الحق لومة لائم، وأولئك يذكرونهم الله فيذكرونهم الناس ويحسبون حسابهم.

«إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».. فهم خارجون عن الإيمان، منحرفون عن الطريق، وقد وعدهم الله مصيراً كمصير الكفار: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، هِيَ حَسْبُهُمْ». وفيها كفايتهم وهي كفاء إجرامهم. «وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ».. فهم مطرودون من رحمته.. «وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ».. ٩٩٦

وَعَنْ عُبَادَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَهُ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَقَالَ: "يَا أَبَا الْوَلِيدِ اتَّقِ لَا تَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبَعِيرٍ تَحْمِلُهُ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خُورٌ أَوْ شَاةٌ لَهَا نُوَاجٌ"، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ ذَلِكَ لَكَائِنْ، قَالَ: "أَيُّ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ" قَالَ: فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَعْمَلُ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا أَوْ قَالَ: عَلَى اثْنَيْنِ ٩٩٧

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا طَعَى نِسَاؤُكُمْ، وَفَسَقَ شَبَابُكُمْ، وَتَرَكْتُمْ جِهَادَكُمْ؟»، قَالُوا: وَإِنَّ ذَلِكَ لَكَائِنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: «نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيِّئُونَ»، قَالُوا: وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَلَمْ تَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ؟»، قَالُوا: وَكَائِنْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: «نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيِّئُونَ»، قَالُوا: وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا، وَرَأَيْتُمُ الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا؟»، قَالُوا: وَكَائِنْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: "نَعَمْ، وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيِّئُونَ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بِي حَلَفْتُ، لِأَتِيحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً يَصِيرُ الْحَلِيمُ فِيهِمْ حَيْرَانًا" ٩٩٨

٩٩٦ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٢٨٦)

٩٩٧ - السنن الكبرى للبيهقي (٤/ ٢٦٧) (٧٦٦٣) حسن لغيره

٩٩٨ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ٧٦) (٣٢) حسن لغيره

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا فَسَقَ شَبَابُكُمْ، وَطَعَى نِسَاؤُكُمْ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ ذَلِكَ لَكَاثِرٌ؟ قَالَ: «وَشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ سَيَكُونُ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا؟»^{٩٩٩}

٤٢. الاستهزاءُ بدينِ الله أو رسله :

قال تعالى: { وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } (٣٢) [الرعد/٣٢]

يُسَلِّي اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ عَمَّا يُلَاقِيهِ مِنْ تَكْذِيبِ قَوْمِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: لَقَدْ سَخَرْتَ الْأَقْوَامُ الْبَائِدَةَ بِالرُّسُلِ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ، فَأَنْظَرَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَأَمَهَّلَهُمْ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ (فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ)، ثُمَّ أَخَذَهُمْ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ عِقَابَهُ فَلَمْ يُفَلِتْ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنْ عِقَابِهِ. فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ اللَّهِ؟^{١٠٠٠}

هو عزاء للنبي الكريم، ومواساة كريمة له. لما كان يصيبه من أذى، يلقي به إليه قومه، بلا مبالاة وبغير حساب.. فالرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ليس أول من دعا إلى الخير فلقي الأذى، ومدَّ يده بالهدى، فردَّ السفهاء يده.. فلقد سبقه إلى ذلك كثيرون من رسل الله، مستهم من أقوامهم البأساء والضراء.. ولكن الله سبحانه أملى لهؤلاء السفهاء، أي أمهلهم، وأفسح لهم في الحياة وزينتها، ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.. كما يقول سبحانه: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (٤٠: العنكبوت) .

وفي قوله تعالى: «فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ».. وعيد لهؤلاء المشركين من قريش، وإلفات لهم إلى ما أخذ الله به الظالمين قبلهم: وإنه لعقاب أليم.. وبلاء محيط، يهلك الحرث والنسل..^{١٠٠١} (وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ) أي إن يستهزئ بك هؤلاء المشركون من قومك ويطلبوا منك الآيات تكذيباً لما جئتهم به فاصبر على أذاهم وامض لأمر ربك، فلقد استهزأت أمم من قبلك برسلمهم.

ثم بين سبحانه شأنه مع المكذبين فقال: (فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) أي فتركتهم ملاوة أي مدة من الزمان في أمن ودعة كما يملئ للبهيمة في المرعى. (ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) أي ثم أحللت بهم عذابي ونقمتي حين تمادوا في غيهم وضلالهم، فانظر كيف كان عقابي إياهم حين عاقبتهم - ألم أذقهم أليم العذاب وأجعلهم عبرة لأولي الألباب؟. وقد صدق الله وعده، ونصر رسوله على عدوه، فدخل في دين

^{٩٩٩} - البدع لابن وضاح (١١٨/٢) (١٥٥) والمعجم الأوسط (٩/١٢٩) (٩٣٢٥) حسن لغيره

^{١٠٠٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٧٤٠، بترقيم الشاملة آليا)

^{١٠٠١} - التفسير القرآني للقرآن (١٢٩/٧)

الله من دخل، ومن أبي قتل، ودانت العرب كلها له، وانضوت تحت لوائه، وحقت عليهم كلمة ربك وفي هذا تعجيب مما حل بهم، ودلالة على شدته وفضاعة أمره كما لا يخفى.^{١٠٠٢}

وقال تعالى: {وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ} (١٠) سورة الأنعام

وَيُسَلِّي اللَّهُ تَعَالَى رُسُلَهُ ﷺ عَمَّا يُلَاقِيهِ مِنْ عِنَادِ الْكُفَّارِ وَتَكْذِيبِهِمْ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ، فَيَقُولُ لَهُ: لَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ جَاؤُوا قَبْلَكَ، وَسَخِرَ مِنْهُمْ الْكَافِرُونَ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَمِنَ الْعِقَابِ الَّذِي أَنْذَرُوهُمْ بِهِ، فَعَاقَبَ اللَّهُ الَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ فَدَمَّرَهُمْ، وَنَصَرَ رُسُلَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لِأَوْلَئِكَ الْمُكْذِبِينَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الْجَا حِدِينَ بِمَا جَنَّتْهُمْ بِهِ: سِيرُوا فِي الْأَرْضِ، وَتَبَّعُوا أَخْبَارَ الْأُمَمِ الَّتِي عَاشَتْ فِيهَا، ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ نِهَآيَةُ الْمُكْذِبِينَ، وَعَاقِبَةُ بَعْثِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ، فَاعْتَبَرُوا بِذَلِكَ الْمَصِيرِ.^{١٠٠٣}

وقوله تعالى: «وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ» هو مواساة للنبي الكريم، وعزاء له، مما يلقي من المشركين من عناد، وما يساق إليه منهم من ضر وأذى.. فتلك هي سبيل حملة الهدى من عباد الله.. فكم لقي رسل الله من أقوامهم من عنت وبلاء، حتى لقد قتل بعضهم، ومثل به أشنع تمثيل.. ولكن العاقبة للحق والخير، والنصر لدعوة الحق والخير.. والويل والخذلان والخزي لأولئك الذين كذبوا برسول الله وسخروا منهم واستهزءوا بهم.. «فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ» أي أحاط بهم واشتمل عليهم استهزاؤهم وسخريتهم، فهذا الاستهزاء هو الذي أوردتهم موارد الهالكين في الدنيا، وأنزلهم منازل أصحاب النار في الآخرة.

فإن شك هؤلاء المكذبون، المستهزءون بآيات الله وبرسول الله.. إن شك هؤلاء في المصير الذي هم صائرون إليه، فلينظروا فيما كان لأمثالهم، الذين كذبوا بآيات الله وبرسل الله، «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ» لقد أخذهم الله بكفرهم وعنادهم، وأرسل عليهم الصواعق، وصبَّ عليهم البلاء، وإذا هم في لحظة خاطفة جثث هامدة، وأشلاء ممزقة.. وإذا هم صائرون إلى مصير يلقيهم فيه العذاب الأليم.. «وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».^{١٠٠٤}

أخبر الله رسوله بأن الكفار قد استهزءوا برسول كرام قبلك كما جاء في قوله: «وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ» فما تراه من استهزاء كفار قريش بك ليس بدع منهم بل هم جروا فيه على

^{١٠٠٢} - تفسير المراغي (١٣ / ١٠٦)

^{١٠٠٣} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٨٠٠، بترقيم الشاملة آليا)

^{١٠٠٤} - التفسير القرآني للقرآن (٤ / ١٣٦)

آثار أعداء الرسل قبلك وقد حل بأولئك السّاحرين العذاب الذي أنذرهم إياه أولئك الرسل جزاء على سوء صنيعهم، وفي الآية وجوه من العبرة:

(١) تعليم النبي ﷺ سنن الله في الأمم مع رسلهم.

(٢) تسليّة له عن إيذاء قومه له.

(٣) بشارة له بحسن العاقبة وما سيكون له من الغلبة والسلطان، وما سيحل بأولئك المستهزئين من الخزي والنكال، وقد أهلكهم الله وامتنّ على نبيه بذلك^{١٠٠}

وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ رَسُولَهُ خَبَرًا مُؤَكَّدًا بِصِغَةِ الْقَسَمِ أَنَّ الْكُفَّارَ قَدْ اسْتَهْزَؤُوا بِرُسُلِ كِرَامٍ مِنْ قَبْلِهِ فَتَنَكَّرُوا "رُسُلًا" لِلتَّعْظِيمِ، وَهُوَ لَا يُنَافِي الْعُمُومَ فِي قَوْلِهِ: (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (٣٦:٣٠) فَمَا يَرَاهُ مِنْ اسْتَهْزَاءٍ طُغَاءَ فُرَيْشٍ لَيْسَ بِدَعَا مِنْهُمْ، بَلْ جَرَوْا بِهِ عَلَى آثَارِ أَغْدَاءِ الرُّسُلِ قَبْلَهُمْ، وَقَدْ حَاقَ بِأُولَئِكَ السَّاحِرِينَ الْعَذَابُ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ إِيَّاهُ أُولَئِكَ الرُّسُلُ عَلَى اسْتَهْزَائِهِمْ جَزَاءً وَفَاقًا، حَتَّى كَانَتْهُ هُوَ الَّذِي حَاقَ بِهِمْ لِأَنَّهُ سَبَّهَ وَجَاءَ عَلَى وَفْقِهِ. فَالْآيَةُ تَعْلِيمٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ سُنَنَ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ مَعَ رُسُلِهِمْ وَتَسْلِيَّةٌ لَهُ عَنْ إِيْذَاءِ قَوْمِهِ، وَبِشَارَةٌ لَهُ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ وَمَا سَيَكُونُ لَهُ مِنْ إِدَالَةِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ كَانَ جَزَاءُ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ عَذَابُ الْخِزْيِ بِالِاسْتِصْغَالِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ كَفَّاهُ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِهِ فَأَهْلَكَهُمْ، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ سَبَبًا لِهَلَاكِ قَوْمِهِمْ، وَامْتَنَّ عَلَيْهِ بِذَلِكَ فِي سُورَةِ الْحَجَرِ إِذْ قَالَ: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) (١٥:٩٥) وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُمْ خَمْسَةٌ مِنْ رُؤَسَاءِ فُرَيْشٍ هَلَكُوا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ.

وَلَمَّا كَانَ كَوْنُ أَمْرِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالرُّسُلِ يُثَوِّلُ إِلَى الْهَلَاكِ بِحَسَبِ سُنَّةِ اللَّهِ الْمُطَرَّدَةِ فِيهِمْ مِمَّا يَرْتَابُ فِيهِ مُشْرِكُو مَكَّةَ الَّذِينَ يَجْهَلُونَ التَّارِيخَ، وَلَا يَأْخُذُونَ خَبَرَ الْآيَةِ فِيهِ بِالتَّسْلِيمِ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ بِأَنْ يَدُلَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي يُوصِلُهُمْ إِلَى عِلْمِ ذَلِكَ بِأَنْفُسِهِمْ فَقَالَ: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرُّسُلُ لِلْمُكْذِبِينَ بَكْ مِنْ قَوْمِكَ الَّذِينَ قَالُوا "لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ" سِيرُوا فِي الْأَرْضِ كَشَانُكُمْ وَعَادَتَكُمْ، وَتَنَقَّلُوا فِي دِيَارِ أُولَئِكَ الْقُرُونِ الَّذِينَ مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ وَمَكَّنَّا لَهُمْ مَا لَمْ نُمْكِّنْ لَكُمْ، ثُمَّ انظُرُوا فِي أَثْنَاءِ كُلِّ رِحْلَةٍ مِنْ رِحْلَاتِكُمْ آثَارَ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ، وَتَأَمَّلُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ بِمَا تُشَاهِدُونَ مِنْ آثَارِهِمْ، وَمَا تَسْمَعُونَ مِنْ أَخْبَارِهِمْ، وَإِنَّمَا قَالَ: (عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ) وَلَمْ يَقُلْ "عَاقِبَةُ الْمُسْتَهْزِئِينَ" أَوْ السَّاحِرِينَ، وَالْكَلَامُ الْأَخِيرُ فِي هَؤُلَاءِ لَا فِي جَمِيعِ الْمُكْذِبِينَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلَكَ مِنَ الْقُرُونِ الْأُولَى جَمِيعَ الْمُكْذِبِينَ، وَإِنْ كَانَ السَّبَبُ الْمُبَاشِرُ لِلْإِهْلَاكِ اقْتِرَاحَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الْآيَاتِ الْخَاصَّةِ عَلَى الرُّسُلِ، فَلَمَّا أُعْطَوْهَا كَذَبَ بِهَا الْمُسْتَهْزِئُونَ الْمُقْتَرِحُونَ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَانُوا مُشْغُولِينَ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ عَنْ مُشَارَكَةِ كِبَرَاءِ

مُتَرَفِّهِمْ بِالْإِسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ، وَإِذَا كَانَ الْمُكَذِّبُونَ: قَدْ اسْتَحَقُّوا الْهَلَاكَ وَإِنْ لَمْ يَسْتَهْزِئُوا وَلَمْ يَسْخَرُوا فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْمُسْتَهْزِئِينَ وَالسَّاحِرِينَ؟ ! لَا رَيْبَ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِالْهَلَاكِ وَأَجْدَرُ؛ وَلِذَلِكَ أَهْلَكَ اللَّهُ الْمُسْتَهْزِئِينَ مِنْ قَوْمِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَلَمْ يُجِبْهُمْ إِلَى مَا اقْتَرَحُوهُ لِئَلَّا يَعُمَّ شُؤْمُهُمْ سَائِرَ الْمُكَذِّبِينَ مَعَهُمْ، وَمِنْهُمْ الْمُسْتَعِدُّونَ لِلْإِيمَانِ الَّذِينَ اهْتَدَوْا مِنْ بَعْدِ.^{١٠٠٦}

إن هذه اللفتة - بعد ذكر إعراضهم عنادا وتعنتا وبعد بيان ما في اقتراحاتهم من عنت وجهالة وما في عدم الاستجابة لهذه المقترحات من رحمة من الله وحلم - لترمي إلى غرضين ظاهرين:
الأول: تسلية رسول الله - ﷺ - والتسرية عنه، مما يلقاه من عناد المعرضين، وعنت المكذبين وتطمين قلبه - ﷺ - إلى سنة الله سبحانه في أخذ المكذبين المستهزين بالرسول وتأسيسه كذلك بأن هذا الإعراض والتكذيب ليس بدعا في تاريخ الدعوة إلى الحق. فقد لقي مثله الرسل قبله وقد لقي المستهزون جزاءهم الحق وحق بهم ما كانوا يستهزون به من العذاب، ومن غلبة الحق على الباطل في نهاية المطاف ..

والثاني: لمس قلوب المكذبين المستهزين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزين: وتذكيرهم بهذه المصارع التي تنتظرهم إن هم لجوا في الاستهزاء والسخرية والتكذيب. وقد أخذ الله - من قبلهم - قرونا كانت أشد منهم قوة وتمكينا في الأرض وأكثر منهم ثراء ورخاء، كما قال لهم في مطلع هذه الموجه التي ترج القلوب رجا بهذه اللفات الواقعية المخيفة.
ومما يستدعي الانتباه ذلك التوجيه القرآني: «قُلْ: سِيرُوا فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» ..

والسير في الأرض للاستطلاع والتدبر والاعتبار ولمعرفة سنن الله مرتسمة في الأحداث، والوقائع مسجلة في الآثار الشاحصة، وفي التاريخ المروي في الأحاديث المتداولة حول هذه الآثار في أرضها وقومها ..

السير على هذا النحو، لمثل هذا الهدف، ويمثل هذا الوعي .. أمور كلها كانت جديدة على العرب تصور مدى النقلة التي كان المنهج الإسلامي الرباني ينقلهم إليها من جاهليتهم إلى هذا المستوي من الوعي والفكر والنظر والمعرفة. لقد كانوا يسиров في الأرض، ويتنقلون في أرجائها للتجارة والعيش، وما يتعلق بالعيش من صيد ورعي ..

أما أن يسيروا وفق منهج معرفي تربوي .. فهذا كان جديدا عليهم. وكان هذا المنهج الجديد يأخذهم به وهو يأخذ بأيديهم من سفح الجاهلية، في الطريق الصاعد، إلى القمة السامقة التي بلغوا إليها في النهاية.

^{١٠٠٦} - تفسير المنار (٧/ ٢٦٨)

ولقد كان تفسير التاريخ الإنساني وفق قواعد منهجية كهذه التي كان القرآن يوجه إليها العرب ووفق سنن مطردة تتحقق آثارها كلما تحققت أسبابها - بإذن الله - ويستطيع الناس ملاحظتها وبناء تصوراتهم للمقدمات والنتائج عليها ومعرفة مراحلها وأطوارها .. كان هذا المنهج برمته في تفسير التاريخ شيئاً جديداً على العقل البشري كله في ذلك الزمان. إذ كان قصارى ما يروى من التاريخ وما يدون من الأخبار، مجرد مشاهدات أو روايات عن الأحداث والعادات والناس لا يربط بينها منهج تحليلي أو تكويني يحدد الترابط بين الأحداث، كما يحدد الترابط بين المقدمات والنتائج، وبين المراحل والأطوار .. فجاء المنهج القرآني ينقل البشرية إلى هذا الأفق ويشرع لهم منهج النظر في أحداث التاريخ الإنساني .. وهذا المنهج ليس مرحلة في طرائق الفكر والمعرفة. إنما هو «المنهج» .. هو الذي يملك وحده إعطاء التفسير الصحيح للتاريخ الإنساني^{١٠٠٧}.

والذين يأخذهم الدهش والعجب للنقلة الهائلة التي انتقل إليها العرب في خلال ربع قرن من الزمان على عهد الرسالة المحمدية، وهي فترة لا تكفي إطلاقاً لحدوث تطور فجائي في الأوضاع الاقتصادية، سيرتفع عنهم الدهش ويزول العجب، لو أنهم حولوا انتباههم من البحث في العوامل الاقتصادية لبحثوا عن السر في هذا المنهج الرباني الجديد، الذي جاءهم به محمد - ﷺ - من عند الله العليم الخبير .. ففي هذا المنهج تكمن المعجزة، وفي هذا المنهج يكمن السر الذي يبحثون عنه طويلاً عند الإله الزائف الذي أقامته المادية حديثاً .. إله الاقتصاد ..

وإلا فأين هو التحول الاقتصادي المفاجئ في الجزيرة العربية الذي ينشئ من التصورات الاعتقادية ونظام الحكم، ومناهج الفكر، وقيم الأخلاق، وآماد المعرفة، وأوضاع المجتمع، كل هذا الذي نشأ في ربع قرن من الزمان؟! إن هذه اللفتة: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ».

إلى جانب اللفتة التي جاءت في صدر هذه الموجة من قوله تعالى: «أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ، وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً، وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ، فَاهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ» ..

إلى جانب أمثالها في هذه السورة وفي القرآن كله لتؤلف جانباً من منهج جديد جدة كاملة على الفكر البشري. وهو منهج باق. ومنهج كذلك فريد^{١٠٠٨}

٤٣. الجعود بآيات الله تعالى:

^{١٠٠٧} - يراجع «التفسير الإسلامي للتاريخ» في كتاب: «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» القسم الثاني «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

^{١٠٠٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٤٦٢)

قال تعالى: { واذكروا عَادَ إِذْ أَنْذَرْنَاهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حولَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) } [الأحقاف/]

يُسلِّي اللهُ تعالى رسوله الكريم عما يُلاقِيهِ مِنْ تَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ، وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِهِ، وَيُذَكِّرُهُ بِقِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ قَبْلَهُ، فَكَذَّبَهُمْ أَقْوَامُهُمْ، وَاسْتَهْزَؤُوا بِهِمْ فَجَاءَ نَصْرُ اللَّهِ فَجَى الرُّسُلَ وَالَّذِينَ آمَنُوا، وَأَهْلَكَ الْمُجْرِمِينَ. وَهُنَا يَبْدَأُ تَعَالَى بِسَرْدِ قِصَّةِ هُودٍ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَعَ قَوْمِهِ عَادٍ، وَقَدْ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ فِي مَنَاطِقِ حَضْرَمَوْتِ، جَنُوبِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَقَدْ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَذَكَرَهُمْ بِأَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَبِمَا مِنْ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنْ قُوَّةٍ وَغِنًى، وَكَثْرَةِ عَدَدٍ، وَأَنْذَرَهُمْ بِأَسْ أَلَل الشَّدِيدِ وَعِقَابِهِ إِنْ أَقَامُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَظُلْمِهِمْ. وَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ قَبْلَ هُودٍ رُسُلًا آخَرِينَ دَعَا أَقْوَامَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَأَنْذَرُوهُمْ عَذَابَ اللَّهِ إِنْ أَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ، وَحَثَّوهُمْ عَلَى الْإِقْلَاعِ عَنِ الشِّرْكِ بِاللَّهِ، وَعَلَى إِفْرَادِهِ تَعَالَى بِالْأَلُوْهِيَّةِ وَحْدَهُ. وَقَالَ هُودٌ لِقَوْمِهِ نَاصِحًا: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ الْهَوْلِ، هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ إِذَا أَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ. فَرَدُّوا عَلَيْهِ قَائِلِينَ: أَجِئْتَنَا لِنَصْرِفَنَّا عَنْ عِبَادَةِ آلِهَتِنَا إِلَى عِبَادَةِ رَبِّكَ الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ، فَعَجَّلْ لَنَا بِإِنزَالِ الْعَذَابِ عَلَيْنَا، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي وَعِيدِكَ لَنَا (وَهُوَ أَنَّ رَبَّكَ سَيَنْزِلُ عَلَيْنَا عَذَابًا مُدْمِرًا مُهْلِكًا يُبِيدُنَا بِهِ إِذَا مَا بَقِينَا مُقِيمِينَ عَلَى عِبَادَةِ أَصْنَانِنَا) .

فَقَالَ لَهُمْ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ الْعَذَابَ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِنْزَالِهِ بِكُمْ، وَهُوَ الْعَالِمُ بِالْوَقْتِ الَّذِي يُنْزِلُهُ بِكُمْ إِنْ شَاءَ، أَمَّا أَنَا فَمَهْمَّتِي هِيَ إِبْلَاغُكُمْ مَا أُرْسِلُنِي بِهِ إِلَيْكُمْ، وَأَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُعَجِّلَ الْعَذَابَ الَّذِي تَطْلُبُونَهُ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَإِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ مَهْمَةَ الرُّسُولِ، وَلِذَلِكَ طَلَبْتُ مِنِّي أَنْ أُعَجِّلَ لَكُمْ الْعَذَابَ، كَمَا أَنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ عِظَمَةَ اللَّهِ وَقُدْرَتَهُ وَشِدَّةَ بَأْسِهِ، لِذَلِكَ طَلَبْتُ تَعْجِيلَ إِنْزَالِ الْعَذَابِ بِكُمْ، وَالْعَذَابُ لَا يَطْلُبُ عَاقِلٌ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ. وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ حَبَسَ الْمَطَرَ عَنْ عَادٍ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، حَتَّى اشْتَدَّ بِهِمُ الْعَطَشُ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ غَيُومًا

كَثِيفَةً اتَّجَهَتْ إِلَى أَوْدِيَّتِهِمْ فَفَرِحَ بِهَا قَوْمُ عَادٍ، وَاسْتَبَشَرُوا ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهَا سَحَابٌ تَحْمِلُ الْمَطَرَ .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: هَذَا سَحَابٌ سَيُمِطِرُنَا. وَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى (أَوْ قَالَ لَهُمُ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ) .

بل هو العذاب الذي استعجلتم بإنزاله بكم، حين قلتم لرسولكم { فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين } إنه ريح تحمل إليكم عذاباً مهلكاً شديد الإيلام. وهذه الريح التي أرسلها الله على قوم عاد تهللك وتخرّب كل شيء مرّت به بإذن ربّها. ووصفها تعالى في آية أخرى بأنّها { ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم }

وسلّط الله تعالى هذه الريح العاتية على قوم عاد، فهبّت عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ كاملاتٍ مُتتالياتٍ، فأهلكتهم جميعاً، ولم تترك لهم في أرضهم من باقية، ولم يعد يرى في ديارهم إلا مساكنهم خالية لا ساكن فيها. ويخبر تعالى أنّه يعاقب بمثل هذه العقوبة كلّ من كذب رسله، وخالف أوامره

وقد مكنا لقوم عاد في الدنيا فيما لم نمكنكم فيه، وأعطيناهم ما لم نُعطكم مثله، ولا قريباً منه، من الأموال الكثيرة، والأولاد، وبسطة الأجسام، وقوّة الأبدان، وجعلنا لهم أسماعاً وأبصاراً، فلم يستعملوا شيئاً من أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم فيما خلقت له، ولم ينتفعوا بها في الاهتداء إلى وجود الخالق ووحدانيته، وقدرته العظيمة على الخلق، لأنّهم كانوا يكذبون رسل الله، وينكرون آياته فأنزل الله تعالى بأسه وعذابه عليهم، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به، ويستبعدون وقوعه بهم، فاستعجلوه فليحذر مشركو مكة أن ينزل بهم ما نزل بقوم عاد، إذا استمروا على كفرهم وتكذيبهم.

ولقد أهلك الله تعالى القرى من حول مكة (مثل عاد وثمود ومدين وقوم لوط)، وأهل مكة يعرفون منازل تلك الأقوام، وكانوا يمرّون بها وهم غادون راثحون في أسفارهم، وقد أهلك الله أهل هذه القرى بعد أن أنذرهم، وحذرهم، وضرب لهم الأمثال، وبين لهم دلائل قدرته لعلهم يرجعون عن غيهم وطغيانهم، فلم يرجعوا، ولم يتعظوا، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. فهلاً نصرهم الأرباب الذين اتخذوا عبادتهم قرينةً يتقربون بها إلى الله فيما زعموا، حينما نزل بهم بأس الله وأمره فأنقذوهم مما نزل بهم؟ لكن هؤلاء الأرباب أصنام لا تضر ولا تنفع وقد غابوا عنهم، وهم أحوج ما يكونون إليهم. وعجز هؤلاء الأرباب عن نصرتهم أثبت لهم أنّهم كانوا كاذبين في اتّخاذهم آلهة، وأنّهم يفترون على الله الكذب في زعمهم أنّهم يقربونهم إلى الله زلفى، ويشفعون لهم عند الله تعالى^{١٠٠٩}.

وأخو عاد هو هود - عليه السلام - يذكره القرآن هنا بصفته. صفة الأخوة لقومه. ليصور صلة الود بينه وبينهم، وصلة القرابة التي كانت كفيلة بأن تعطفهم إلى دعوته، وتحسن ظنهم بها وبه. وهي ذات الصلة بين محمد - ﷺ - وقومه الذين يقفون منه موقف الملاحاة والخصومة.

والأحقاف جمع حقف. وهو الكثيب المرتفع من الرمال. وقد كانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة في جنوب الجزيرة - يقال في حضر موت.

١٠٠٩ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤١٠، بترقيم الشاملة آليا)

والله - سبحانه - يوجه نبيه - ﷺ - أن يذكر أخا عاد وإنذاره لقومه بالأحقاف. يذكره ليتأسى بأخ له من الرسل لقي مثلما يلقي من إعراض قومه وهو أخوهم. ويذكره ليذكر المشركين في مكة بمصير الغابرين من زملائهم وأمثالهم، على مقربة منهم ومن حولهم.

وقد أندر أخو عاد قومه، ولم يكن أول نذير لقومه. فقد سبقته الرسل إلى أقوامهم .. «وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ» .. قريبا منه وبعيدا عنه في الزمان وفي المكان. فالنذارة متصلة، وسلسلة الرسالة ممتدة. والأمر ليس بدعا ولا غريبا. فهو معهود مألوف. أنذرهم - ما أندر به كل رسول قومه - : «أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» ..

وعبادة الله وحده عقيدة في الضمير ومنهج في الحياة والمخالفة عنها تنتهي إلى العذاب العظيم في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما على السواء. والإشارة إلى اليوم «عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» .. تعني حين تطلق يوم القيامة وهو أشد وأعظم. فماذا كان جواب قومه على التوجيه إلى الله، والإنذار بعذابه؟

«قَالُوا: أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا؟ فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ!». .. سوء الظن وعدم الفهم، والتحدي للنذير، واستعجال العذاب الذي ينذرهم به، والاستهزاء والتكذيب. وإصرار على الباطل واعتزاز! فأما هود النبي فيتلقى هذا كله في أدب النبي، وفي تجرده من كل ادعاء، وفي الوقوف عند حده لا يتعداه: «قَالَ: إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ. وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ. وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ» ..

إنما أنذرهم بالعذاب كما كلفت أن أنذرهم. ولست أعلم متى يحين مواعده، ولا كيف يكون شكله. فعلم ذلك عند الله. وإنما أنا مبلغ عن الله. لا أدعي علما ولا قدرة مع الله .. «وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ» وتحققون. وأية حماقة وأي جهل أشد من استقبال النذير الناصح والأخ القريب. يمثل هذا التحدي والتكذيب؟ ويحمل السياق هنا ما كان بين هود وقومه من جدل طويل، ليمضي إلى النهاية المقصودة أصلا في هذا المقام ردا على التحدي والاستعجال: «فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطَرٌ. بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ: رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا، فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ» ..

وتقول الروايات: إنه أصاب القوم حر شديد، واحتبس عنهم المطر، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف. ثم ساق الله إليهم سحابة، ففرحوا بها فرحا شديدا، وخرجوا يستقبلونها في الأودية، وهم يحسبون فيها الماء: «قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطَرٌ» .. وجاءهم الرد بلسان الواقع: «بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ: رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا» .. وهي الريح الصرصر العاتية التي ذكرت في سورة أخرى. كما جاء في صفتها: «مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ» ..

والنص القرآني يصور الريح حية مدركة مأمورة بالتدمير: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا» وهي الحقيقة الكونية التي يحفل القرآن بإشعارها للنفوس. فهذا الوجود حي. وكل قوة من قواه واعية. وكلها تدرك عن ربها وتتوجه لما تكلف به من لدنه. والإنسان أحد هذه القوى. وحين يؤمن حق الإيمان، ويفتح قلبه

للمعرفة الواصلة، يستطيع أن يعي عن القوى الكونية من حوله، وأن يتجاوب معها، وأن تتجاوب معه، تجاوب الأحياء المدركة، بغير الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس من الحياة والإدراك. ففي كل شيء روح وحياة، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق. والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأسرار، تدركها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار.

وقد أدت الريح ما أمرت به، فدمرت كل شيء «فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ».. أما هم وأما أنعامهم وأما أشيائهم وأما متاعهم فلم يعد شيء منه يرى. إنما هي المساكن قائمة خاوية موحشة، لا ديار فيها ولا نافخ نار.. «كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ».. سنة جارية وقدر مطرد في المجرمين.

وعلى مشهد الدمار والخراب يلتفت إلى أمثالهم الحاضرين، يلمس قلوبهم بما ترتعش منه القلوب: «وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ. وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً. فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ. إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ. وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ».. هؤلاء الذين دمرهم الريح المأمورة بالتدمير. مكانهم فيما لم تمكنكم فيه.. إجمالاً.. من القوة والمال والعلم والمتاع. وآتيناهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة - والقرآن يعبر عن قوة الإدراك مرة بالقلب ومرة بالفؤاد ومرة باللب ومرة بالعقل. وكلها تعني الإدراك في صورة من صوره - ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم في شيء. إذ أنهم عطلوها وحجّبوها «إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ».. والجحود بآيات الله يطمس الحواس والقلوب، ويفقدها الحساسية والإشراق والنور والإدراك. «وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ».. من العذاب والبلاء..

والعبرة التي يفيدها كل ذي سمع وبصر وقلب، ألا يغتر ذو قوة بقوته، ولا ذو مال بماله، ولا ذو علم بعلمه. فهذه قوة من قوى الكون تسلط على أصحاب القوة والمال والعلم والمتاع، فتدمر كل شيء، وتتركهم «لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ» حين يأخذهم الله بسنته التي يأخذ بها المجرمين.

والريح قوة دائبة العمل، وفق النظام الكوني الذي قدره الله، وهو يسلطها حين يسلطها للتدمير وهي ماضية في طريقها الكوني، تعمل وفق الناموس المرسوم. فلا حاجة لخرق النواميس الكونية - كما يعترض المعارضون واهمين - فصاحب الناموس المرسوم هو صاحب القدر المعلوم. وكل حادث وكل حركة، وكل اتجاه، وكل شخص، وكل شيء، محسوب حسابه، داخل في تصميم الناموس.

والريح كغيرها من القوى الكونية مسخرة بأمر ربها، ماضية تؤدي ما قدره لها في نطاق الناموس المرسوم لها وللوجود كله. ومثلها قوة البشر المسخرة لما يريد الله بها. المسخر لها من قوى الكون ما أراد الله تسخيرها لها. وحين يتحرك البشر فإنما يؤدون دورهم في هذا الوجود. ليت ما أراد الله بهم

وفق ما يريد. وحرية إرادتهم في الحركة والاختيار جزء من الناموس الكلي ينتهي إلى التناسق الكوني العام. وكل شيء مقدر تقديرا لا يناله نقص ولا اضطراب. ١٠١٠

٤٤. البطرف في المعيشة:

قال تعالى: { وقالوا إن نتبع الهدى معك نُخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) [القصص/٥٧-٥٩] }

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا اعْتَذَر بِهِ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ عَنْ سَبَبِ عَدَمِ إِيْمَانِهِمْ بِرِسَالَتِهِ، وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَذِرِينَ الْحَارِثُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مُنَافٍ فَقَدْ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ لَهُ: نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّكَ عَلَى الْحَقِّ، وَلَكِنَّا نَخَافُ إِنْ أَتَيْنَاكَ، وَخَالَفْنَا الْعَرَبَ، أَنْ يُخْرِجُونَا مِنْ أَرْضِنَا، وَيَغْلِبُونَا عَلَى سُلْطَانِنَا وَنَحْنُ قَلَّةٌ. وَيُرِدُّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَؤُلَاءِ بِقَوْلِهِ: إِنَّ الَّذِي اعْتَذَرُوا بِهِ بَاطِلٌ، لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُمْ فِي بِلَدٍ آمِنٍ، وَحَرَمٍ مُعَظَّمٍ آمِنٍ مُنْذُ وَضِعَ. فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا الْحَرَمُ آمِنًا لَهُمْ وَهُمْ كُفَّارٌ، مُشْرِكُونَ، وَلَا يَكُونُ آمِنًا لَهُمْ إِذَا أَسْلَمُوا وَاتَّبَعُوا الْحَقَّ؟ ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّهُ يَسِّرُ وَصُولَ الثَّمَرَاتِ وَالْأَمْتَعَةِ وَالْأَرْزَاقِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ إِلَى أَهْلِ الْحَرَمِ، وَهَذَا كُلُّهُ بِفَضْلِ اللَّهِ، وَمِنْ عِنَايَتِهِ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ جَهْلَةٌ لَا يَعْلَمُونَ مَا فِيهِ خَيْرُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ، وَلِذَلِكَ قَالُوا مَا قَالُوا .

يُعَرِّضُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَهْلِ مَكَّةَ، وَيُنَبِّهُهُمْ إِلَى أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ لَهُ أَنْ أَهْلَكَ كَثِيرًا مِنَ الْمُدُنِ وَالْقُرَى، الَّتِي طَغَتْ وَأَشْرَتْ وَكَفَرَتْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ، فِيمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهَا، فَدَمَّرَهَا تَدْمِيرًا، وَلَمْ يَتْرَكْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا حَيًّا، وَلَمْ يُعَذِّبْ فِيهَا إِلَّا الْمَسَاكِينَ الْخَرَابِ الْمَهْجُورَةَ، لَمْ يَسْكُنْهَا أَحَدٌ بَعْدَهُمْ، إِلَّا عَابَرُوا السَّبِيلَ لِفَتَرَاتٍ قَصِيرَةٍ، وَهُمْ مَارُونَ مُجْتَازُونَ بِهَا، وَآلَتْ وَرَأَتْهَا إِلَى اللَّهِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ أَهْلِهَا أَحَدٌ يُمَكِّنُ أَنْ يَدَّعِي وَرَاثَتَهَا، وَيُخْبِرُ اللَّهَ تَعَالَى عَنْ عَدْلِهِ فَيَقُولُ: إِنَّهُ لَا يُهْلِكُ أَحَدًا وَهُوَ ظَالِمٌ لَهُ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُهُ بَعْدَ أَنْ تَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ. وَإِنَّهُ لَا يُهْلِكُ الْقُرَى حَوْلَ مَكَّةَ بِكُفْرِهِمْ وَظُلْمِهِمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَبْعَثَ فِي أُمَّ الْقُرَى (مَكَّةَ) رَسُولًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ سَبِيلَ الْهُدَايَةِ وَالرَّشَادِ، وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ، وَإِنَّهُ لَا يُهْلِكُ هَذِهِ الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ، قَدْ كَذَّبُوا النَّبِيَّ، وَرَفَضُوا أَتْبَاعَهُ، وَقَبُولَ دَعْوَتِهِ .

(وَفِيهِمْ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَلَيْسَ لِأَهْلِ مَكَّةَ خَاصَّةً) ١٠١١

من تعلّات المشركين، الذين أبوا أن يستجيبوا لرسول الله، وأن يدخلوا في دين الله - هذا القول لدى يقولونه زورا وبهتاناً: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا» !.

وهذا القول منهم، هو شهادة عليهم بألسنتهم، بأنهم أهل سفه وضلال، وليسوا أصحاب مبادئ وأخلاقيات.. إذ كيف يعلمون أن هذا الذي يدعون إليه هو الهدى، ثم لا يتبعونه، ويؤثرون أن يعيشوا في ضلال، خوفاً من ضرر يلقاتهم، أو أذى يصيبهم؟ ومتى كان أصحاب المبادئ والمثل، يخشون ضرراً، أو يرهبون أذى؟ ألا ينظرون إلى بلال وإلى أبيه وأمه، وإلى غيرهم وغيرهم، وهم يطعمون من أيديهم هذا العذاب الأليم، في سبيل المبدأ والعقيدة، دون أن يرحزحهم عنه هذا البلاء الذي مات بعضهم تحت سطوة سياطه، وهو يقول: «أحد أحد» ! ألم يكن لهم في هذه المواقف البطولية عبرة وعظة؟ ألا يدعوهم الشرف والمروءة - وهم السادة الأشراف - أن يرتفعوا إلى هذا المستوي الذي ارتفع إليه عبيدهم وإماؤهم؟ ولكنها العقول حين تضل، والبصائر حين تعمي..!!

ثم من قال لهؤلاء الضالين، إنهم لو اتبعوا الهدى ستخطفون من أرضهم؟ ألا يرون ما لله عليهم من فضل وإحسان، وقد جعل لهم - وهم في الشرك والضلال - حرماً آمناً، حيث يتخطف الناس من حولهم، وهم في حرم الله آمنون، وحيث تحج إلى هذا الحرم قبائل العرب جميعاً، تحمل إليهم مما في أيديها من ثمرات وخيرات، كما تحمل إليهم مما في قلوبها من توقير وتكريم، لما لهذا البيت من توقير وتكريم؟ فإذا كان ذلك هو شأن الناس معهم وهم على الشرك والضلال، أفلا يكون لهم مثل هذا الشأن، وهم على الهدى والإيمان؟ ألا إنه العناد الذي يهلك أهله.. «وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» (٤١: المائدة) .

ذكرت الآية السابقة على هذه الآية، ما لله سبحانه وتعالى من فضل على البلد الحرام وأهله، إذ جعله بلداً آمناً! تهوى إليه الأفئدة، وتعظمه القلوب، وجعل لأهله حرمة في الناس، فأمنوا ما كان يتزل بالناس حولهم من بغى وعدوان.. وقد كشفت الآية كذلك عن كذب هذا الادعاء الذي يدعيه المشركون، وهو أنهم إذا اتبعوا الهدى، زال عنهم وعن بلدهم، هذا الأمن الذي هم فيه، وتخطفهم الناس! وفي هذه الآية، يهدد الله سبحانه وتعالى هؤلاء المشركين بالنقم التي حلت بكثير من القرى قبلهم، فقد كانت تلك القرى آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فلما كفرت بأنعم الله، وبطرت معيشتها، أي استخفت بالنعمة وكفرت بها - أذاقها الله لباس الجوع والخوف.. وكذلك هؤلاء المشركون، هم في قرية آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، ويحى إليها ثمرات كل شيء، وقد بطروا وأشروا، فأشرف بهم هذا البطر والأشر، على مواقع الهلاك والبلاء، ليلحقوا بمن كانوا على شاكلتهم من أهل تلك القرى التي كفرت بأنعم الله..

قوله تعالى: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ». في هذه الآية إشارة إلى أن أهل هذا البلد الحرام، قد بطروا معيشتهم، وكفروا بأنعم الله، واستوجبوا العذاب والبلاء.. ولكن الله سبحانه وتعالى - رحمة بعباده، وإقامة للحجة عليهم - لم يشأ أن يأخذهم بذنوبهم قبل أن يعذر إليهم، وينذرهم على يد رسوله.. فما أهلك سبحانه وتعالى قرية من القرى إلا بعد أن بعث إليها رسولا مبشرا ومنذرا، كما يقول سبحانه: «وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ» (الشعراء: ٢٠٨). وها هي ذى القرية، البلد الحرام، قد كفر أهلها بالله، وها هو ذا رسول الله فيهم، قد جاء لينذرهم بين يدي عذاب شديد.. فإن هم استجابوا له، ورجعوا عما هم فيه نجوا، وسلموا من بأس الله في الدنيا، ومن عذابه في الآخرة، وإن أبوا إلا ضلالا وعنادا، فهم في الهالكين.. «لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (٤١: المائدة) ١٠١٢.

فهم لا ينكرون أنه الهدى، ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس. وهم ينسون الله، وينسون أنه وحده الحافظ، وأنه وحده الحامي وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم في حمى الله وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله. ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم، ولو خالطها لتبدلت نظرهم للقوى، ولاختلف تقديرهم للأمور، ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا في جوار الله، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن هداه.

وأن هذا الهدى موصول بالقوة موصول بالعزة وأن هذا ليس وهما وليس قولاً يقال لطمأنة القلوب إنما هو حقيقة عميقة منشؤها أن اتباع هدى الله معناه الاصطلاح مع ناموس الكون وقواه، والاستعانة بها وتسخيرها في الحياة. فالله خالق هذا الكون ومدبره وفق الناموس الذي ارتضاه له. والذي يتبع هدى الله يستمد مما في هذا الكون من قوى غير محدودة، ويأوي إلى ركن شديد، في واقع الحياة.

إن هدى الله منهج حياة صحيحة. حياة واقعة في هذه الأرض. وحين يتحقق هذا المنهج تكون له السيادة الأرضية إلى جانب السعادة الأخروية. وميزته أنه لا انفصال فيه بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ولا يقتضي إلغاء هذه الحياة الدنيا أو تعطيلها ليحقق أهداف الحياة الآخرة. إنما هو يربطهما معا برباط واحد: صلاح القلب وصلاح المجتمع وصلاح الحياة في هذه الأرض. ومن ثم يكون الطريق إلى الآخرة. فالدنيا مزرعة الآخرة، وعمارة جنة هذه الأرض وسيادتها وسيلة إلى عمارة جنة الآخرة والخلود فيها. بشرط اتباع هدى الله. والتوجه إليه بالعمل والتطلع إلى رضاه.

وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة. أمانة الخلافة في الأرض وتصريف الحياة.

١٠١٢ - التفسير القرآني للقرآن (١٠ / ٣٦٧)

وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هدايه. يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية! وإن هي إلا أوهام كأوهم قريش يوم قالت لرسول الله - ﷺ -: «إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا».

فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاريها في ربع قرن أو أقل من الزمان. وقد رد الله عليهم في وقتها بما يكذب هذا العذر الموهوم. فمن الذي وهبهم الأمن؟ ومن الذي جعل لهم البيت الحرام؟ ومن الذي جعل القلوب تقوى إليهم تحمل من ثمرات الأرض جميعاً؟ تتجمع في الحرم من كل أرض، وقد تفرقت في مواطنها ومواسمها الكثيرة: «أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْنَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا؟». . فما بالهم يخافون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى الله، والله هو الذي مكن لهم هذا الحرم الآمن منذ أيام أبيهم إبراهيم؟ أفيمن أمنهم وهم عصاة، يدع الناس يتخطفونهم وهم تقاة؟! «وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». لا يعلمون أين يكون الأمن وأين تكون المخافة. ولا يعلمون أن مرد الأمر كله لله.

فأما إن أرادوا أن يتقوا المهالك حقاً، وأن يأمنوا التخطف حقاً، فهذا هي علة الهلاك فليتقوها: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ يَنْصَرِفْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ» ..

إن بطر النعمة، وعدم الشكر عليها، هو سبب هلاك القرى. وقد أوتوا من نعمة الله ذلك الحرم الآمن فليحذروا إذن أن يبطروا، وألا يشكروا، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التي يرونها ويعرفونها، ويرون مساكن أهلها الدائرين خاوية خالية .. «لَمْ يَنْصَرِفْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا». وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها، وتروى قصة البطر بالنعمة وقد فني أهلها فلم يعقبوا أحداً، ولم يرثها بعدهم أحد «وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ». على أن الله لم يهلك تلك القرى المتبطرة إلا وقد أرسل في أمها رسولا. فتلك هي سنته التي كتبها على نفسه رحمة بعباده: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ» ..

وحكمة إرسال الرسول في أم القرى - أي كبرائها أو عاصمتها - أن تكون مركزاً تبلغ منه الرسالة إلى الأطراف فلا تبقى حجة ولا عذر فيها لأحد. وقد أرسل النبي - ﷺ - في مكة أم القرى العربية. فهو ينذرهم عاقبة المكذبين قبلهم بعد ما جاءهم النذير. «وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ» .. يكذبون بالآيات عن معرفة وعن يقين! على أن متاع الحياة الدنيا بكامله، وعرض الحياة الدنيا جميعه، وما مكنهم الله فيه من الأرض، وما وهبهم إياه من الثمرات، وما يتسنى للبشر كلهم طوال هذه الحياة، إن هو إلا شيء ضئيل زهيد، إذا قيس بما عند الله: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا. وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى. أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟».

وهذا هو التقويم الأخير لا لما يخشون فوته من الأمن والأرض والمتاع وحده ولا لما يمن به الله عليهم من التمكين والثمار والأمان وحده ولا لما وهبه الله للقرى ثم أهلكتها بالتبطل فيه وحده. إنما هو التقويم الأخير لكل ما في هذه الحياة الدنيا حتى لو ساع، وحتى لو كمل، وحتى لو دام، فلم يعقبه الهلاك والدمار. إنه كله «فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا».. «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى» خير في طبيعته وأبقى في مدته. «أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟»..

والمفاضلة بين هذا وذاك تحتاج إلى عقل يدرك طبيعة هذا وذاك. ومن ثم يجيء التعقيب في هذه الصيغة للتنبيه لإعمال العقل في الاختيار!

وفي نهاية هذه الجولة يعرض عليهم صفحتي الدنيا والآخرة، ولمن شاء أن يختار: «أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ؟».. فهذه صفحة من وعده الله وعدا حسنا فوجده في الآخرة حقا وهو لا بد لاقية. وهذه صفحة من نال متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد، ثم ها هو ذا في الآخرة محضر إحضارا للحساب. والتعبير يوحي بالإكراه «مِنَ الْمُحْضَرِينَ» الذين يجاء بهم مكرهين خائفين يودون أن لم يكونوا محضرين، لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك المتاع القصير الزهيد!

وتلك نهاية المطاف في الرد على مقالتهم: «إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا» فحتى لو كان ذلك كذلك فهو خير من أن يكونوا في الآخرة من المحضرين! فكيف واتباع هدى الله معه الأمن في الدنيا والتمكين، ومعه العطاء في الآخرة والأمان؟ ألا إنه لا يترك هدى الله إذن إلا الغافلون الذين لا يدركون حقيقة القوى في هذا الكون. ولا يعرفون أين تكون المخافة وأين يكون الأمن. وإلا الخاسرون الذين لا يحسنون الاختيار لأنفسهم ولا يتقون البوار.^{١٠١٣}

٤٥. الكفر بآيات الله وقتل النبيين بغير حق

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)} [آل عمران/٢١، ٢٢]

يَذُمُّ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ ارْتَكَبُوا الْمَآثِمَ وَالْحَارِمَ بِكُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ، وَقَتْلُوا الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى أَتْبَاعِ الْحَقِّ. وَالْمَقْصُودُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُمُ الْيَهُودُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ قَتَلُوا

^{١٠١٣} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٤٥٢)

عدداً من أنبياء الله في يومٍ واحدٍ استكباراً، فعاقبهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا، وبشرهم بعذاب أليم مُهين في الآخرة، لأنَّ هذا هو جزاءُ جرْمِهِمْ وصنْعِهِمْ .

قال رسولُ الله ﷺ لأبي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ: " يا أبا عُبَيْدَةَ قَتَلْتَ بَنُو إِسْرَائِيلَ ثَلَاثَةً وَأَرْبَعِينَ نَبِيًّا أَوَّلَ النَّهَارِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ . فَقَامَ مِئَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلًا مِنْ عِبَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَمَرُوا الْقَتْلَةَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَقَتَلُوا جَمِيعًا مِنْ آخِرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ فَهُمْ الَّذِينَ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ " (أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ) . وَيَقُولُ تَعَالَى إِنَّ الَّذِينَ يَرْتَكِبُونَ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ يُهْلِكُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَيُطِيلُهَا فِي الدُّنْيَا ، فَلَا يَنَالُونَ عَلَيْهَا حَمْدًا ، وَلَا ثَنَاءً مِنَ النَّاسِ . وَقَدْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ ، وَهَتَكَ أَسْتَارَهُمْ وَأَبْدَى مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبَائِحِ أَعْمَالِهِمْ ، عَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ . وَقَدْ أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، الْعَذَابَ الْأَلِيمَ وَالْخُلُودَ فِي جَهَنَّمَ ، وَلَنْ يَجِدُوا لَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ ^{١٠١٤} .

هاتان الآيتان لتقرير أمر واقع . ففيهما كشف عن جرائم أهل الكتاب من اليهود، الذين كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه، وأشياع أنبيائه، ولهذا أحصت الآيتان الكريمتان، تلك الجرائم الغليظة التي ارتكبوها، وهي الكفر بآيات الله التي حملها إليهم رسل الله، وهي آيات لا يكذب بها إلا كل معتد أثيم . . كفلق البحر بالعصا، وتفجير الماء من الصخر بها، على يد موسى عليه السلام . . فكفروا بتلك الآيات وعبدوا العجل من دون الله، وكذلك فعلوا مع الآيات التي أجراها الله سبحانه على يد عيسى - عليه السلام - من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . . فكفروا بتلك الآيات، ورموا عيسى بالبهت والشعوذة، حتى دفعهم ذلك إلى السعى في قتله، وتقديمه للمحاكمة والصلب، ولكن الله أبطل كيدهم، وأفسد تدبيرهم، وهم يحسبون أنهم صلبوه: «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ» (النساء: ١٥٧) .

فهؤلاء هم الذين كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه، ومنهم زكريا عليه السلام، وقتلوا كثيرا من صلحائهم ودعاة الخير فيهم . . وقد توعدهم الله سبحانه وتعالى بالعذاب الأليم . .

على أن واحدة من هذه الجرائم المنكرة تكفى في تجريم صاحبها، وفي سوقه إلى العذاب الأليم، فالكفر وحده، يحبط كل عمل: «وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (البقرة: ١٠٤) .

والقتل العمد وحده، يوجب الخلود في النار: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا» (النساء: ٩٣) فكيف بقتل أنبياء الله ورسله؟ .

ولكن ما ذكر من هذه الجرائم هو تسجيل للواقع الذي حدث - كما ذكرنا من قبل - وهو تشنيع على أولئك اليهود الذين وقفوا من الدعوة الإسلامية موقف المحادة والخلاف، كما وقف أسلافهم من قبل، مع أنبياء الله فيهم، ورسله إليهم. فما أشبه الأبناء بالآباء، والخلف بالسلف، في المكر بآيات الله

^{١٠١٤} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣١٥، بترقيم الشاملة آليا)

والزيغ عن الهدى، والإعنات للأنبياء.. وقد سجل القرآن الكريم عليهم هذا الموقف الذي يصل حاضريهم بماضيهم، على طريق الكفر والضلال، فقال تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (٩١: البقرة) .. فهل يلتقى الإيمان وقتل المؤمنين؟ بل وقتل حملة الإيمان ودعائه، من الأنبياء والرسل؟

وفي قوله تعالى: «وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ» هو تقرير لما حدث، وإعلان لما تكشف من تلك الحرائم الشنعاء، التي أريقَت فيها دماء الأنبياء، إذ قد ثبت لهؤلاء اليهود أنفسهم أن آباءهم الذين ارتكبوا هذا الإثم العظيم إنما قتلوا أنبياء حقيقيين، لم يكونوا من الأنبياء الكذبة كما ادَّعوا عليهم، وهذا ما كان في قتل يحيى عليه السلام، قتله اليهود بأيديهم، وآمن به اليهود وبعد ذلك، نبيا صادقا، ورسولا كريما في كتابهم المقدس التوراة. فشهدوا بذلك على أنفسهم وبلسان أبنائهم أنهم قتلوا هذا النبي الكريم ظلما وعدوانا..

بغير حق. فقله تعالى: «بِغَيْرِ حَقٍّ» هو من اعتراف القتلة أنفسهم، بما شهد به عليهم بعضهم، وهم أبناؤهم من بعدهم. وقوله تعالى: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» هو غاية في التيسير من كل أمل في نفحة من خير، أو عافية، من هذا البلاء المطبق عليهم.. إذ كان ما تحمله البشرية إليهم هو العذاب الأليم، فكيف بما يساق إليهم بين يدي التذر والفواجع؟ ذلك شيء لا يمكن تصوره من الأهوال والشدائد، التي أخفها وأهونها، هو العذاب الأليم!!^{١٠١٥}

هؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية، أشد الناس جرما وأي: جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد ويقتلون أنبياء الله الذين حَقَّهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيزهم، وتوقيرهم، ونصرهم وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضا الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، فقابلوهم شر مقابلة، فاستحقوا بهذه الجنايات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح.

وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم، وما لهم أحد ينصرهم من عذاب الله ولا يدفع عنهم من نعمته مثقال ذرة، بل قد أيسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر وضير، وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم، قبحهم الله ما أجرأهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين.^{١٠١٦}

^{١٠١٥} - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٤٢٢)

^{١٠١٦} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٢٦)

قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ الْيَهُودُ خَاصَّةً، وَقَدْ نُسِبَ إِلَيْهِمْ قَتْلُ النَّبِيِّ الَّذِي كَانَ مِنْ سَابِقِهِمْ لاعتبار الأمة في تكافلها وجري لاحقها على أثر سابقها، كالشخص الواحد - على ما مرَّ بيانه عن الأستاذ الإمام غير مرة - على أن اليهود همَّت بقتل النبي ﷺ - في زمن نزول الآية، والسورة مدنية - كما علمت - وهم بذلك قومه الأميون من قبل في مكة، ثم كان كلٌّ من الفريقين حرباً له وهم المعتدون؛ ولذلك قال آخرون: إِنَّ الْآيَةَ فِيمَنْ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْأُمِّيِّينَ، فَكُلٌّ قَاتِلُهُ وَقَاتِلُ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَالظَّاهِرُ الْأَوَّلُ حَتَّى عَلَى قِرَاءَةِ حَمْزَةِ (وَيَقَاتِلُونَ الَّذِينَ) لَأَنَّ مُحَاوَلَةَ قَتْلِ نَبِيِّ لَا يُعْبَرُ عَنْهُ بِـ " يَقْتُلُونَ " النَّبِيِّينَ، وَالْقِتَالُ غَيْرُ الْقَتْلِ وَلَمَّا فِي آيَاتٍ أُخْرَى مِنْ إِطْلَاقِ مِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ عَلَى الْيَهُودِ خَاصَّةً، وَلَا حَاجَةَ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْمُرَادَ مَجْمُوعُ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمُ النَّبِيَّ وَبَعْضُهُمُ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ، فَالْآيَةُ وَمَا بَعْدَهَا انْتَقَالٌ إِلَى خِطَابِ الْيَهُودِ خَاصَّةً، فَالْيَهُودُ هُمُ الَّذِينَ جَرَوْا عَلَى الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ مِنْ عَهْدِ مُوسَى إِلَى عَهْدِ مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَبِذَلِكَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ كُتُبُهُمْ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَعَلَى قَتْلِ النَّبِيِّينَ كَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَلَكِنَّ الْأُسْتَاذَ الْإِمَامَ وَجَّهَ الْقَوْلَ بِالْعُمُومِ وَجَعَلَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ الَّذِينَ حَاوَلُوا قَتْلَ نَبِيِّ وَاحِدٍ عَلَى حَدِّ كَوْنِ قَتْلِ النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ كَقَتْلِ جَمِيعِ النَّاسِ. وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: بِغَيْرِ حَقٍّ بَيَّانٌ لِلْوَاقِعِ بِمَا يَقَرُّ بِشَاعَتِهِ وَانْقِطَاعِ عِرْقِ الْعُذْرِ دُونَهُ، وَإِلَّا فَإِنَّ قَتْلَ النَّبِيِّينَ لَا يَكُونُ بِحَقٍّ مُطْلَقًا كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُونَ. وَأَقُولُ: إِنَّ هَذَا الْقَيْدَ يُقَرِّرُ لَنَا أَنَّ الْعِبْرَةَ فِي دَمِ الشَّيْءِ وَمَدْحِهِ تَدُورُ مَعَ الْحَقِّ وَجُودًا وَعَدَمًا لَامَعَ الْأَشْخَاصِ وَالْأَصْنَافِ. وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ كَلِمَةَ (حَقٍّ) هُنَا الْمَنْفِيَّةُ تَشْمَلُ الْحَقَّ الْعُرْفِيَّ بِقَاعِدَةٍ أَنَّ التَّكْرَرَ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ تُفِيدُ الْعُمُومَ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مِثْلُ قَتْلِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِلْمِصْرِيِّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَعَمِّدًا لِقَتْلِهِ، فَإِذَا كَانَتْ الشَّرِيعَةُ الْمِصْرِيَّةُ تَقْضِي بِقَتْلِ مِثْلِهِ وَقَتْلُوهُ فِي عُرْفِهِمْ لَا يُدْمُونَ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا تُذَمُّ شَرِيعَتُهُمْ إِذَا لَمْ تَكُنْ عَادِلَةً، وَالْيَهُودُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَقٌّ مَا فِي قَتْلِ مَنْ قَتَلُوا مِنَ النَّبِيِّينَ لَا حَقِيقَةً وَلَا عُرْفًا. وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ أَيْ الْحُكَمَاءَ الَّذِينَ يُرْشِدُونَ النَّاسَ إِلَى الْعَدَالَةِ الْعَامَّةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَيَجْعَلُونَهَا رُوحَ الْفَضَائِلِ وَقَوَامَهَا، وَمَرْتَبَتُهُمْ فِي الْهَدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ تَلِي مَرْتَبَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَثَرُهُمْ فِي ذَلِكَ يَلِي أَثَرَهُمْ؛ ذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ طَبَقَاتِ النَّاسِ تَنْتَفِعُ بِهَدْيِ الْأَنْبِيَاءِ، كُلُّ صِنْفٍ بِقَدْرِ اسْتِعْدَادِهِ، وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ فَلَا يَنْتَفِعُ بِهِمْ إِلَّا بَعْضُ الْخَوَاصِّ الْمُسْتَعِدِّينَ لِتَلْقَى الْفَلَسَفَةَ، أَلَمْ تَرَ كَيْفَ اصْطَلَمَ التَّوْحِيدُ وَنَبِيَّةَ الْعَرَبِ فِي مُدَّةٍ قَلِيلَةٍ بِدَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ - وَكَيْفَ عَجَزَتْ دَعْوَةُ فَلَاسِفَةِ الْيُونَانِ إِلَى التَّوْحِيدِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهُمْ فِيهِ فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ طُلَّابِ الْفَلَسَفَةِ؟ ذَلِكَ بِأَنَّ دَعْوَةَ النَّبِيِّ عَلَى مَا تَخَصَّصُ بِهِ مِنَ التَّائِيدِ الْإِلَهِيِّ وَتَأْثِيرِ رُوحِ الْوَحْيِ لَهَا ثَلَاثَةُ مَظَاهِرَ بَيَّنَّهَا اللَّهُ - تَعَالَى - فِي قَوْلِهِ: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [١٦: ١٢٥] فَالْحِكْمَةُ مَا يُدْعَى بِهِ الْعُقَلَاءُ وَأَهْلُ النَّظَرِ مِنَ الْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ، وَالْمَوْعِظَةُ مَا

يُدْعَى بِهِ الْعَوَامُّ السُّدُجُ، وَالْجَدَلُ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ لِلْمُتَوَسِّطِينَ الَّذِينَ لَمْ يَرْتَقُوا إِلَى الْإِسْتِعْدَادِ لِطَلَبِ الْحِكْمَةِ وَلَا يَنْقَادُونَ إِلَى الْمَوْعِظَةِ بِسُهُولَةٍ، بَلْ يَبْحَثُونَ بَحْثًا نَاقِصًا، فَلَا بُدَّ مِنَ الْحُسْنَى فِي مُجَادَلَتِهِمْ وَمُخَاطَبَتِهِمْ عَلَى قَدْرِ عَقُولِهِمْ، وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ فَإِنَّ لَهُمْ طَرِيقَةً وَاحِدَةً فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْحَقِّ، وَالْفَضِيلَةِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى طَلَبِ الْعَدْلِ فِي الْأَفْكَارِ وَالْأَخْلَاقِ، وَقَدْ يَكُونُ الْحَكِيمُ الَّذِي يَدْعُو إِلَى ذَلِكَ مُتَدَيِّنًا وَيَجْرِي فِي الْإِقْنَاعِ بِالذِّينِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَذْكُورَةِ آفَنًا، وَقَدْ يَكُونُ غَيْرَ مُتَدَيِّنٍ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَدْعُو إِلَى الْقِسْطِ وَالْعَدْلِ مِنَ الْعَقْلِ بِحَسَبِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عِلْمُهُ مَعَ الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ، وَالْإِقْدَامِ عَلَى قَتْلِ هَؤُلَاءِ دَلِيلٌ عَلَى غَمْطِ الْعَقْلِ وَمَقْتِ الْعَدْلِ، وَأَقْبَحُ بِذَلِكَ جُرْمًا وَكَفَى بِهِ إِثْمًا. وَلَمْ يُفَسِّرِ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ بِالْحُكَمَاءِ، بَلْ قَالَ: إِنَّ مَرْتَبَةَ هَؤُلَاءِ تَلِي مَرْتَبَةَ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَالَ: إِنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَى - مَنْ النَّاسِ يُشْعِرُ بِقِلَّتِهِمْ. وَأَقُولُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِخْتِيَارِ: إِنَّهُ يُشْعِرُ بِشُمُولِ قَوْلِهِ: الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ لِمَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَةُ نَبِيِّ عَلَى وَجْهِهَا فَآمَنَ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، وَإِلَّا لَقَالَ: وَالَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَفِي هَذَا تَعْظِيمُ شَأْنِ الْحِكْمَةِ وَالْعَدَالَةِ مَا فِيهِ مِنْ شَرَفِ الْإِسْلَامِ وَإِرْشَادِ أَهْلِهِ إِلَى أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ الَّتِي تَلِي مَرْتَبَةَ النَّبِيِّ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ [٢:٢٦٩] .

وقوله: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَحْمِلُونَ مِثْلَهُ عَلَى التَّهَكُّمِ، وَعَدُوهُ مِنَ الْمَحَازِ بِالِاسْتِعَارَةِ عَلَى مَا فِي مُفْرَدَاتِ الرَّاعِبِ ؛ لِأَنَّ التَّبَشِيرَ مِنَ الْبَشَارَةِ وَالْبَشْرَى وَهِيَ الْخَبْرُ السَّارُّ تَنْبَسِطُ لَهُ بَشْرَةُ الْوَجْهِ. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُ مَا ظَهَرَ أَثَرُهُ فِي الْبَشْرَةِ بِإِبْسَاطٍ أَوْ انْقِبَاضٍ وَكَاتِبَةٍ، وَلَكِنَّهُ غَلَبَ فِي الْأَوَّلِ، وَهَذَا الْعَذَابُ يُصِيبُ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي زَمَنِ الْبَعْثَةِ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يُشَارِكُونَ مَنْ سَبَقَهُمْ بِمِثْلِ ذُنُوبِهِمْ فِي عَذَابِ الْآخِرَةِ، وَأَيُّ النَّاسِ

أَحَقُّ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقِسَاةِ الطُّعَاةِ الْمُسْرِفِينَ فِي الشَّرِّ إِسْرَافًا جَعَلَهُمْ عَلَى مُنْتَهَى الْبُعْدِ عَنِ النَّبِيِّينَ وَالْأَمْرِينَ بِالْقِسْطِ حَتَّى كَانَ مِنْهُمْ الَّذِينَ قَتَلُوهُمْ بِالْفِعْلِ، وَمِنْهُمْ الَّذِينَ نَفَسُوهُمْ كَنُفُوسٍ مَنْ قَتَلُوا وَمَا يَمْنَعُهُمْ عَنِ الْفِعْلِ إِلَّا الْعَجْزُ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ [٨:٣٠] فَهَذِهِ النُّفُوسُ قَدْ أَحَاطَتْ بِهَا خَطَايَاهَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهَا مَنَفَذٌ لِنُورِ آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي بِهَا يُبْصَرُ الْحَقُّ وَيَهْتَدَى إِلَى إِقَامَةِ الْقِسْطِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ فِيهِمْ: أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَا يَنْتَفِعُونَ بِشَيْءٍ مِنْهُ، لِأَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ إِنَّمَا يَنْفَعُ بِحُسْنِ أَثَرِهِ فِي النَّفْسِ، وَنُفُوسُ هَؤُلَاءِ قَدْ أَوْغَلَ فِيهَا الْفَسَادَ - كَمَا تَقَدَّمَ - فَفَقَدَتْ الْإِسْتِعْدَادَ وَالْقَبُولَ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ بِالتَّفْصِيلِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٢:٢١٧) وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ وَقَدْ أَبْسَلَتْهُمْ ذُنُوبُهُمْ بِمَا لَهَا مِنَ التَّأْثِيرِ فِي إِفْسَادِ نَفُوسِهِمْ، فَأَيُّ نَاصِرٍ يَدْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَهُوَ مِمَّا اقْتَضَتْهُ طَبِيعَتُهُمْ؟^{١٠١٧}

فهذا هو المصير المحتوم: عذاب أليم. لا يحدده بالدنيا أو بالآخرة. فهو متوقع هنا وهناك. وبطلان لأعمالهم في الدنيا والآخرة في تعبير مصور. فالحبوط هو انتفاخ الدابة التي ترعى نباتا مسموما، توطئة لهلاكها .. وهكذا أعمال هؤلاء قد تنتفخ وتتضخم في الأعين. ولكنه الانتفاخ المؤدي إلى البطلان والهلاك! حيث لا ينصرهم ناصر ولا يدفع عنهم حام! وذكر الكفر بآيات الله مصحوبا بقتل النبيين بغير حق - وما يمكن أن يقتل نبي ثم يكون هناك حق - وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس - أي الذين يأمرون باتباع منهج الله القائم بالقسط المحقق وحده للقسط ..

ذكر هذه الصفات يوحي بأن التهديد كان موجها لليهود، فهذه سماتهم في تاريخهم يعرفون بها متى ذكرت! ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام موجها للنصارى كذلك. فقد كانوا حتى ذلك التاريخ قتلوا الألوف من أصحاب المذاهب المخالفة الدولة الرومانية المسيحية - بما فيهم من جاهرُوا بتوحيد الله تعالى وبشرية المسيح عليه السلام - وهؤلاء ممن يأمرُون بالقسط .. كما أنه تهديد دائم لكل من يقع منه مثل هذا الصنيع البشع .. وكثير ما هم في كل زمان ..

ويحسن أن نتذكر دائما ماذا يعني القرآن بوصف «الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ» .. فليس المقصود فقط من يعلن كلمة الكفر. إنما يدخل في مدلول هذا الوصف من لا يقر بوحدة الألوهية، وقصر العبودية عليها. وهذا يتضمن بصراحة وحدة الجهة التي تصرف حياة العباد بالتشريع والتوجيه والقيم والموازن .. فمن جعل لغير الله شيئا من هذا ابتداء فهو مشرك به أو كافر بألوهيته. ولو قالها ألف مرة باللسان! وسنرى في الآيات التالية في السياق مصداق هذا الكلام ..^{١٠١٨}

٤٦. الفصل والتنازع في الأمر

قال تعالى: { ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسبونهمْ بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين (١٥٢) إذ تصعدون ولا تلون على أحد والرسل يدعوكم في أخرائكم فأثابكم غمًا بغمٍ لكن لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خير بما تعملون (١٥٣) } [آل عمران/١٥٢، ١٥٣]

لما رجع النبي ﷺ والمسلمون إلى المدينة بعد معركة أحد قال أناس من أصحاب النبي: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله تعالى النصر؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية وفيها يقول للمؤمنين: إنه صدقكم ما وعدكم به من نصر، فكنتم تقتلونهم قتلاً ذريعاً بإذن الله، وسلطكم عليهم، حتى إذا أصابكم الضعف

^{١٠١٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٦٤٦)

والفشل، وعصيتُمْ أمرَ الرَّسُولِ، وتنازعْتُمْ في الأمرِ،) وهو ما وقع للرُّمّةِ الذين أمرهم الرَّسُولُ أَنْ يَلْزُمُوا مواقعَهُمْ فتخلّوا عنها،) وكان اللهُ قد أراكم الظُّفرَ، وهو ما تُحِبُّونَهُ، فكان مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا، ويَطْمَعُ فِي المَغْنَمِ، حينَ رأوا هزيمةَ المُشْرِكِينَ، فتركوا مواقعَهُمْ على الجبلِ، وَمِنْكُمْ مَنْ كانَ يُرِيدُ الآخِرَةَ في قتالِهِ المُشْرِكِينَ لا يَلْتَفِتُ إلى المَغْنَمِ، فثبت مكانه وقاتل، ثُمَّ أدال اللهُ المُشْرِكِينَ عليكم، وجعل لهم الغلبةَ عليكم لِيُخْتَبِرُكُمْ، ويَمْتَحِنَ ثباتَكُمْ على الإيمانِ، وقد غفر اللهُ لكم ذلكَ الفِعلَ، وهو عَصِيانُ أمرِ الرَّسُولِ، والهربُ مِنَ المَعْرَكَةِ، ومحا أثره مِنْ نُفُوسِكُمْ، حينَما أظهرْتُمْ النَّدَمَ، ورجعْتُمْ إلى اللهِ، حتّى صِرْتُمْ وكائناتكم لم تُغْشُوا. ولم يَسْمَحِ اللهُ بِاسْتِصْصَالِكُمْ لَأَنَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

فقد صرفكم اللهُ عَنِ المُشْرِكِينَ فأخذْتُمْ فِي الهَرْبِ مِنْ أَعْدَائِكُمْ فِي الجِبَالِ، لا تَلْتَفِتُونَ إلى أَحَدٍ مِنَ الدَّهْشِ والخَوْفِ، وقد خَلَفْتُمْ الرَّسُولَ وراءَكُمْ وهو يدْعُوكم إلى العُودَةِ إلى القِتالِ، ويقول: هَلُمَّ عِبَادَ اللهِ أنا رَسولُ اللهِ، مَنْ يَكِرْ فَلَهُ الجَنَّةُ، فجزاكم اللهُ ﷻ لِفِرَارِكُمْ، بَغَمٍّ يَمَلَأُ نُفُوسَكُمْ عَلَى مَا كانَ مِنْكُمْ، وعلى تَرْكِكُمْ رَسولَ اللهِ يُصِيبُهُ ما أَصَابَهُ، وهو نَابِتٌ دُونَكُمْ، وَذَلِكَ لِكَيْلَا تَهْتَمُّوا وَتُخْفَلُوا بِشَيْءٍ فَاتَكُمْ، ولا بِأَذَى أَصَابَكُمْ، وَلِتَمَرُّنَا عَلَى تَجَرُّعِ العُجُومِ، واحْتِمَالِ الشَّدَائِدِ، إِذْ كانَ ما أَصَابَ النَّبِيَّ، وما لَحِقَ بِنُفُوسِكُمْ مِنَ النَّدَمِ، وهو أَكْبَرُ عِنْدَكُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَكْبَرُ مِنَ الجِرَاحِ والقَتْلِ وضِياعِ المَغْنَمِ. واللهُ خَبِيرٌ بِأَعْمَالِكُمْ ومَقاصِدِكُمْ، وقادِرٌ عَلَى مُجازاتِكُمْ عَلَيْهَا. ١٠١٩

في أَوَّلِ الآياتِ الَّتِي اسْتَفْتَحَ اللهُ بِهَا ذَكَرَ تِلْكَ المَعْرَكَةَ - مَعْرَكَةُ أَحَدَ - جاءَ قولُه تعالى: «بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ» .. وكانَ هَذَا وعدا مِنَ اللهِ المُؤْمِنِينَ بِالمددِ العلويِّ، الَّذِي يَحْمِلُ مَعَهُ النَصْرَ لَهُمْ. وقد جاءَ هَذَا الوعدُ مُشروطاً وأَنَّهُ لَنْ يَحْقُقَهُ اللهُ لَهُمْ إِلَّا إِذَا وفوا بِهذا الشرطِ، وهو أَنْ يَصْبِرُوا وَيَتَّقُوا..

وقد صبرَ المسلمون في أَوَّلِ القِتالِ، وأعطوا أَنْفُسَهُمْ كُلَّها للمَعْرَكَةِ.. فصدَّقَهُم اللهُ وَعَدَهُ، وأَراهم بِشائِرِ النَصْرِ.. فَإِنَّهُ مِنْذُ السَّاعَاتِ الأَوَّلَى مِنَ القِتالِ استولى المسلمون على زمامِ المَعْرَكَةِ، وبدأتِ طلائعُ بدرٍ تَطُلُ عَلَيْهِمُ، فقتلوا مَقْتَلَةً عَظِيمَةً فِي المُشْرِكِينَ، وأَدخلوا فِي صَفوفِهِمُ الخِلَلَ والاضْطرابَ، حتَّى هَمُّوا بِالهَزِيمَةِ والفرارِ، وأَخْلَوْا أَيْدِيَهُمْ مِمَّا مَعَهُمْ مِنْ مَتاعٍ.. وإِذْ ذاكَ امتدَّتْ أَبْصارُ كَثِيرٍ مِنَ المُسْلِمِينَ إلى هَذَا المَتاعِ الَّذِي تَخَلَّى عَنْهُ أَهْلُهُ، وكانَ الأَوَّلَى بِهِمْ أَنْ يَلْتَفِتُوا إلى رَعُوسِ المُشْرِكِينَ أَوَّلًا، فيزيلوها عَنْ مَكَانِها، فهِذا هو الأمرُ الَّذِي نَدَبَهُمُ اللهُ لَهُ، وانتظموا فِي سَبيلِ المُجاهِدِينَ مِنْ أَجْلِهِ!!

وَإِذْ فَقَدَ تَخَلَّى المُسْلِمُونَ عَنِ الشرطِ الَّذِي اشترطَهُ اللهُ عَلَيْهِمُ لِيَمْنَحَهُمُ نَصْرَهُ.. فكانَ أَنْ تَخَلَّى عَنْهُمْ النَصْرُ، واستقبلتَهُمُ الهزيمةُ...!!

١٠١٩ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٥، بترقيم الشاملة آليا)

وفي قوله تعالى: «إِذْ تَحْسُبُونَهُمْ بِإِذْنِهِ» إشارة إلى ما فعل المسلمون بالمشركون أول الأمر، وأنهم حصدوهم حصداً.. فالحسّ معناه: القتل الذريع الكثير..

وقوله تعالى: «حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ» يشير إلى ما كان من جماعة الرّماة التي جعلها الرسول الكريم من وراء جيش المسلمين، تحمى ظهورهم من أن يأخذهم كمين من العدو على غرّة، وقد وصّى النبي هؤلاء الرماة أن يلزموا أماكنهم، وألا يتحولوا عنها بحال أبداً، سواء انتصر المسلمون أو انهزموا.

ولكن الذي كان من الرماة غير هذا.. فإنهم ما كادوا يرون الهزيمة في المشركين، ويرون الأسلاب والغنائم وقد تخلّى عنها أصحابها، حتى قال قائل منهم: ما موقفنا هنا، وقد ولّى المشركون وانهزموا؟ وقال آخرون: إن الرسول لم يلزمنا أن نكون حيث نحن إلا لنحمي ظهر المسلمين من العدو.. فأين هذا العدو؟ وقال رئيس الجماعة، وهو عبد الله بن جبير: «يا قوم.. الزموا أماكنكم كما أمرنا رسول الله، ولا تتحولوا عنها..» فأبى عليه كثيرون، وتركوه في نفر من أصحابه.. وما هي إلا لحظات حتى رأى خالد بن الوليد، - وكان على فرسان المشركين - رأى موقف الرماة يكاد يكون خلوا فاستدار إليهم بمن معه من فرسان، فاستقبله عبد الله بن جبير، ومن معه، مقاتلين، حتى استشهدوا جميعاً، رحمهم الله.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ». وفي قوله تعالى: «ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ» إشارة إلى أن تحوّل المعركة من جانب المسلمين إلى المشركين كان عن حكمة أرادها الله، وهى أن يبتلى المؤمنين بهذا البلاء، وأن يضعهم أمام تجربة يواجهون فيها الشدائد والحن، ليروا ما عندهم من صبر واحتمال، وليسدّوا الخلل الذي يجدونه في أنفسهم، استعداداً للمعارك المقبلة بينهم وبين المشركين.

وفي قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ» إشارة أخرى إلى أن ما كان من المسلمين من تحول عن القتال، وانصراف إلى الغنائم، وإن كان مما كسبته أيديهم - قد عفا الله عنه، وتجاوز عن مقتريه، لأنهم كانوا مهضومين تحت إرادة غالبية الله، في هذا الذي كان منهم، ليكون لهم فيه درس نافع في لقاء المشركين بعد هذا.. وفي تأكيد فعل العفو باللام الموطئة للقسم، وبحرف التحقيق قد - «ولقد» - إظهار لسعة رحمة الله، وتمام فضله على عباده، المجاهدين في سبيله «وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» يغفر لهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويعيدهم إليه إذا بعدت الطريق بهم عنه.^{١٠٢٠}

أي: {ولقد صدقكم الله وعده} بالنصر، فنصركم عليهم، حتى ولو كنتم أكتافهم، وطفقتم فيهم قتلاً حتى صرتم سبياً لأنفسكم، وعونا لأعدائكم عليكم، فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور {وتنازعتم في الأمر} الذي فيه ترك أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلقتهم، فمن قائل نقيم في

١٠٢٠ - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦١٢)

مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ، ومن قائل: ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو، ولم يبق محذور، فعصيتكم الرسول، وتركتكم أمره من بعد ما أراكم الله ما تحبون وهو انخزال أعدائكم؛ لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب، أعظم من غيره.

فالواجب في هذه الحال خصوصاً، وفي غيرها عموماً، امتثال أمر الله ورسوله.

{منكم من يريد الدنيا} وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب، {ومنكم من يريد الآخرة} وهم الذين لزموا أمر رسول الله ﷺ وثبتوا حيث أمروا.

{ثم صرفكم عنهم} أي: بعدما وجدت هذه الأمور منكم، صرف الله وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم، ابتلاء من الله لكم وامتحاناً، ليتبين المؤمن من الكافر، والطائع من العاصي، وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم، فهذا قال: {ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين} أي: ذو فضل عظيم عليهم، حيث منَّ عليهم بالإسلام، وهداهم لشرائعه، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم على مصيبتهم.

ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدر عليهم خيراً ولا مصيبة، إلا كان خيراً لهم. إن أصابتهم سراء فشكروا جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين. ١٠٢١

رَوَى الْوَاحِدِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِلَى الْمَدِينَةِ - وَقَدْ أُصِيبُوا بِمَا أُصِيبُوا يَوْمَ أُحُدٍ - قَالَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: مَنْ أَيْنَ أَصَابَنَا هَذَا وَقَدْ وَعَدَنَا اللَّهُ النَّصْرَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِآيِهِ الْآيَةَ. وَنَقُولُ: نَعَمْ إِنَّ النَّاسَ قَالُوا ذَلِكَ كَمَا يُعْلَمُ مِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا [١٦٥: ٣] وَسَيَأْتِي. وَلَكِنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَيْسَ سَبَبًا لِنُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ وَحْدَهَا، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ مَعَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ بَعْدَ تِلْكَ الْوَاقِعَةِ وَمَا قِيلَ فِيهَا.

الْوَعْدُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ فِي الْآيَةِ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ مَا تَكَرَّرَ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ مِنْ نَصْرِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ وَنَصْرٍ مَنْ يَنْصُرُهُ وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : بَلَى إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْمُرَادَ بِهِ وَعْدُ النَّبِيِّ لَهُمْ عِنْدَ تَعَبُّتِهِمْ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ حَرِيرٍ، وَرَوَى فِيهِ عَنِ السُّدِّيِّ أَنَّهُ قَالَ: "لَمَّا بَرَزَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِلَى الْمُشْرِكِينَ بِأُحُدٍ أَمَرَ الرُّمَّةَ فَقَامُوا بِأَصْلِ الْجَبَلِ فِي وُجُوهِ خَيْلِ الْمُشْرِكِينَ، وَقَالَ: لَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ إِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ هَزَمْنَاهُمْ فَإِنَّا لَنْ نَزَالَ غَالِبِينَ مَا تَبْتُم مَكَانَكُمْ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ أَخَا خُوَاتِ بْنِ جُبَيْرٍ، ثُمَّ إِنَّ طَلْحَةَ بْنَ عُثْمَانَ صَاحِبَ لُؤَاءِ الْمُشْرِكِينَ قَامَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ إِنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ اللَّهَ يُعَجِّلُنَا بِسُيُوفِكُمْ إِلَى النَّارِ وَيُعَجِّلُكُمْ بِسُيُوفِنَا إِلَى الْجَنَّةِ، فَهَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يُعَجِّلُهُ اللَّهُ بِسَيْفِي إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ يُعَجِّلُنِي بِسَيْفِهِ إِلَى النَّارِ؟ فَقَامَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا

أَفَارِقَكَ حَتَّى يُعَجِّلَكَ اللَّهُ بِسَيِّفِي إِلَى النَّارِ أَوْ يُعَجِّلَنِي بِسَيْفِكَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَضَرَبَهُ عَلَيَّ فَقَطَعَ رِجْلَهُ فَسَقَطَ فَأَنْكَشَفَتْ عَوْرَتُهُ فَقَالَ: أَنْشُدْكَ اللَّهَ وَالرَّحِمَ يَا ابْنَ عَمٍّ. فَتَرَكَهُ. فَكَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَقَالَ لَعَلِّي أَصْحَابُهُ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تُجْهَرَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: إِنَّ ابْنَ عَمِّي نَاشَدَنِي حِينَ أَنْكَشَفْتَ عَوْرَتُهُ فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ، ثُمَّ شَدَّ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَالْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَهَزَمَهُمْ، وَحَمَلَ النَّبِيُّ ﷺ - وَأَصْحَابُهُ فَهَزَمُوا أَبَا سُفْيَانَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ - وَهُوَ عَلَى خَيْلِ الْمُشْرِكِينَ - حَمَلَ فَرَمَتَهُ الرُّمَاءُ فَأَنْقَمَعَ، فَلَمَّا نَظَرَ الرُّمَاءُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَأَصْحَابِهِ فِي جَوْفِ عَسْكَرِ الْمُشْرِكِينَ يَنْتَهِبُونَهُ بَادَرُوا الْغَنِيمَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تَتْرُكْ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَاَنْطَلَقَ عَامَتُهُمْ فَلَحَقُوا بِالْعَسْكَرِ، فَلَمَّا رَأَى خَالِدٌ قَلَّةَ الرُّمَاءِ صَاحَ فِي خَيْلِهِ ثُمَّ حَمَلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ -، فَلَمَّا رَأَى الْمُشْرِكُونَ أَنَّ خَيْلَهُمْ تُقَاتِلُ تَنَادَوْا فَشَدُّوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَهَزَمُوهُمْ وَقَتَلُوهُمْ " اهـ. أَيُّ قَتَلُوا مِنْهُمْ سَبْعِينَ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنَ الرُّوَايَاتِ الْمُفَصَّلَةِ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هُنَا رَوَايَةَ السُّدِّيِّ بِطُولِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ التَّصْرِيحِ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - قَالَ لِلرُّمَاءِ: فَإِنَّا لَا نَزَالُ غَالِبِينَ مَا تَبْتِمُ مَكَانَكُمْ وَالتَّفْصِيلِ الَّذِي يُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا، وَمِنْهَا أَنَّ الرُّمَاءَ لَمْ يَعْصُوا كُلَّهُمْ وَإِنَّمَا أُولَئِكَ بَعْضُ عَامَتِهِمْ، وَأَمَّا الْخَاصَّةُ الرَّاسِخُونَ فِي الْإِيمَانِ الْعَارِفُونَ بِالْوَجَابِ فَقَدْ تَبَتُّوا، وَالْمُخْتَارُ عِنْدَنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِوَعْدِ اللَّهِ هُنَا مَا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ، وَإِنَّمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا قَالَ لِلرُّمَاءِ عَمَلًا بِالْقُرْآنِ وَتَأْوِيلًا لَهُ ؛ فَإِنَّهُ - تَعَالَى - قَرَنَ الْوَعْدَ فِيهِ بِشُرُوطٍ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالطَّاعَةِ وَالنَّبَاتِ.

فَمُلْخَصُ تَفْسِيرِ الْآيَةِ هَكَذَا وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِيَّاكُمْ بِالنَّصْرِ حَتَّى فِي هَذِهِ الْوَفْعَةِ إِذْ تَحُسُّوهُمْ أَيُّ الْمُشْرِكِينَ أَيُّ تَقْتُلُوهُمْ قَتْلًا ذَرِيعًا بِإِذْنِهِ - تَعَالَى - أَيُّ بَعْنَاتِهِ وَتَأْيِيدِهِ لَكُمْ حَتَّى إِذَا فَشَلْتُمْ ضَعُفْتُمْ فِي الرَّأْيِ وَالْعَمَلِ، فَلَمْ تَقْوُوا عَلَى حَبْسِ أَنْفُسِكُمْ عَنِ الْغَنِيمَةِ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ فَقَالَ بَعْضُكُمْ مَا بَقَاؤُنَا هُنَا وَقَدْ انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ؟، وَقَالَ الْآخَرُونَ: لَا نُخَالِفُ أَمْرَ الرَّسُولِ وَعَصِيَّتُمْ رَسُولَكُمْ وَقَاتِدَكُمْ بَتَرَكِ الرُّمَاءَ لِلْمَكَانِ الَّذِي أَقَامَهُمْ فِيهِ يَحْمُونَ ظُهُورَكُمْ بِنَضْحِ الْمُشْرِكِينَ بِالنَّبْلِ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ فَصَبَرْتُمْ عَلَى الضَّرَاءِ وَلَمْ تَصْبِرُوا فِي السَّرَّاءِ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا كَالَّذِينَ تَرَكُوا مَكَانَهُمْ وَذَهَبُوا وَرَاءَ الْغَنِيمَةِ لِيُصِيبُوا مِنْهَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ كَالَّذِينَ تَبَتُّوا مِنْ الرُّمَاءِ مَعَ أَمِيرِهِمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَهُمْ نَحْوُ عَشْرَةٍ وَكَانَ الرُّمَاءُ خَمْسِينَ رَجُلًا، وَالَّذِينَ تَبَتُّوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ - وَهُمْ

ثَلَاثُونَ رَجُلًا، أَيُّ صَدَقَكُمْ وَعْدَهُ وَنَصَرَكُمْ عَلَى قِلَّتِكُمْ وَكَثْرَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَاسْتَمَرَ هَذَا النَّصْرُ إِلَى أَنْ فَشَلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ وَعَصَيْتُمْ، فَعِنْدَمَا وَصَلْتُمْ إِلَى هَذِهِ الْعَايَةِ لَمْ تَعُودُوا مُسْتَحِقِّينَ لِهَذِهِ الْعِنَايَةِ لِمُخَالَفَتِكُمْ لِسُنَّتِهِ فِي اسْتِحْقَاقِ النَّصْرِ الَّذِي وَعَدَ بِهِ أَهْلَ الثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ ؛ فَعَلَى هَذَا تَكُونُ حَتَّى لِلْعَايَةِ إِذَا فِي قَوْلِهِ: حَتَّى إِذَا فَشَلْتُمْ لَيْسَتْ لِلشَّرْطِ وَإِنَّمَا هِيَ بِمَعْنَى الْحِينَ وَالْوَقْتِ. هَذَا هُوَ الْمُخْتَارُ. وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهَا لِلشَّرْطِ وَجَوَابُهَا مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ عِنْدَ الْبَصَرِيِّينَ " مَنَعَكُمْ نَصْرَهُ " أَوْ نَحْوَهُ، وَقَالَ الْأُسْتَاذُ

الإمام: إِنَّ الْحِكْمَةَ فِي حَذْفِ الْجَوَابِ هُنَا عَلَى الْقَوْلِ بِهِ هِيَ أَنْ تَذْهَبَ النَّفْسُ فِي تَقْدِيرِهِ كُلِّ مَذْهَبٍ، وَمِثْلُ هَذَا الْحَذْفِ لَا يَأْتِي فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ إِلَّا حَيْثُ يُنْتَظَرُ الْجَوَابُ بِكُلِّ شَعْفٍ وَلَهْفٍ، وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ تَقْدِيرَهُ: اِمْتَحَنَكُمْ بِالْإِدَالَةِ مِنْكُمْ لِيَمَحِّصَكُمْ وَيُمَيِّزَ الْمُخْلِصِينَ وَالصَّادِقِينَ مِنْكُمْ. أَقُولُ: وَهَذَا هُوَ صَرِيحُ قَوْلِهِ: ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَتَلِيَكُمْ وَأَبُو مُسْلِمٍ قَدْ قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ هِيَ جَوَابُ " إِذَا " وَلَكِنَّ اقْتِرَانَ جَوَابِ الشَّرْطِ بِشَيْءٍ غَيْرٍ مَعْرُوفٍ لَنَا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ.

وَحَاصِلُ الْمَعْنَى أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ صَدَقَكُمْ وَعَدَهُ فَكُنْتُمْ تَقْتُلُونَهُمْ بِإِذْنِهِ وَمَعُونَتِهِ قَتَلَ حَسٌّ وَاسْتَصَالَ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ بِفَشْلِكُمْ وَتَنَازُعِكُمْ وَعَصِيَانِكُمْ، وَحَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ تَمَامِ النَّصْرِ لِيَمْتَحِنَكُمْ بِذَلِكَ، أَيْ لِيُعَامِلَكُمْ مُعَامَلَةً مَنْ يَمْتَحِنُ وَيَخْتَبِرُ، أَوْ لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ ابْتِلَاءً وَاخْتِبَارًا لَكُمْ يُمَحِّصُكُمْ بِهِ وَيُمَيِّزُ بَيْنَ الصَّادِقِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَيُزِيلُ بَيْنَ الْأَقْوِيَاءِ وَالضَّعَفَاءِ، كَمَا عَلِمَ مِنَ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، وَقَدْ أَسْنَدَ اللَّهُ - تَعَالَى - صَرَفَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى نَفْسِهِ هُنَا بِاعْتِبَارِ غَايَةِ الْحَمِيدَةِ فِي تَرْبِيَتِهِمْ وَتَمَحِّيصِهِمْ الَّذِي يُعِدُّهُمْ لِلنَّصْرِ الْكَامِلِ وَالظَّفَرِ الشَّامِلِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَأَضَافَ مَا أَصَابَهُمْ إِلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ الَّذِي سَيَأْتِي فِي السِّيَاقِ: قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ [١٦٥: ٣]، بِاعْتِبَارِ سَبَبِهِ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْفَشْلِ وَالتَّنَازُعِ وَالْعَصِيَانِ، وَقَدْ عَدَّ بَعْضُهُمْ إِسْنَادَ الصَّرْفِ إِلَيْهِ هُنَا مُشْكَلًا لَا سِيَّمَا عَلَى مَذْهَبِ الْمُعْتَزَلَةِ الَّذِينَ تَكَلَّفَ عُلَمَاؤُهُمْ فِي تَخْرِيجِهِ تَكَلُّفًا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ، إِذْ لَا إِشْكَالَ فِيهِ وَلَكِنَّ الْمَذَاهِبَ وَالْإِصْطِلَاحَاتِ هِيَ الَّتِي تُؤَلِّدُ لِأَصْحَابِهَا الْمُسْكَاتِ.

قَالَ - تَعَالَى - : وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ بِذَلِكَ التَّمَحِّيصِ الَّذِي مَحَا أَثَرَ الذَّنْبِ مِنْ نُفُوسِكُمْ فَصِرْتُمْ كَأَنَّكُمْ لَمْ تَفْسَلُوا وَلَمْ تَتَنَازَعُوا وَلَمْ تَعْصُوا وَقَدْ ظَهَرَ أَثَرُ هَذَا الْعَفْوِ فِي حَمَرَاءِ الْأَسَدِ كَمَا عَلِمَ مِمَّا مَرَّ وَمَا يَأْتِي وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَلَا يَذَرُهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ ضَعْفٍ يَلُمُّ بَعْضُهُمْ، أَوْ تَقْصِيرٍ يَهْبِطُ بِنُفُوسٍ غَيْرِ الرَّاسِخِينَ مِنْهُمْ، حَتَّى يَتَلَيَّ مَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَيُمَحِّصَ مَا فِي صُدُورِهِمْ، فَيَكُونُوا مِنَ الْمُخْلِصِينَ. ١٠٢٢

إن التعبير القرآني هنا ليرسم مشهداً كاملاً لمسرح المعركة، ولتداول النصر والهزيمة. مشهداً لا يترك حركة في الميدان، ولا خاطرة في النفوس، ولا سمة في الوجوه، ولا خالجة في الضمائر، إلا ويثبتها .. وكأن العبارات شريط مصور يمر بالبصر، ويحمل في كل حركة صوراً جديدة نابضة. وبخاصة حين يصور حركة الإصعاد في الجبل، والهروب في دهش وذعر، ودعاء الرسول - ﷺ - للفارين المرتدين عن المعركة، المصعدين للهرب. يصحب ذلك كله حركة النفوس، وما يدور فيها من خوالج وخواطر وانفعالات ومطامع ..

ومع هذا الحشد من الصور الحية المتحركة النابضة، تلك التوجيهات والتقارير التي يتميز بها أسلوب القرآن، ومنهج القرآن التربوي العجيب: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ» .. وكان ذلك في مطالع المعركة، حيث بدأ المسلمون يحسسون المشركين، أي يحمدون حسهم، أو يستأصلون شأفتهم. قبل أن يلهيهم الطمع في الغنيمة. وكان رسول الله - ﷺ - قد قال لهم: «لكم النصر ما صبرتم» فصدقهم الله وعده على لسان نبيه. «حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ: مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» ..

وهو تقرير لحال الرماة. وقد ضعف فريق منهم أمام إغراء الغنيمة ووقع التراع بينهم وبين من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله - ﷺ - وانتهى الأمر إلى العصيان. بعد ما رأوا بأعينهم طلائع النصر الذي يحبونه. فكانوا فريقين: فريقا يريد غنيمة الدنيا، وفريقا يريد ثواب الآخرة. وتوزعت القلوب فلم يعد الصف وحدة، ولم يعد الهدف واحدا. وشابت المطامع جلاء الإخلاص والتجرد الذي لا بد منه في معركة العقيدة. فمعركة العقيدة ليست ككل معركة. إنها معركة في الميدان ومعركة في الضمير. ولا انتصار في معركة الميدان دون الانتصار في معركة الضمير. إنها معركة لله، فلا ينصر الله فيها إلا من خلصت نفوسهم له.

وما داموا يرفعون راية الله وينتسبون إليها، فإن الله لا يمنحهم النصر إلا إذا محصهم ومحضهم للراية التي رفعوها كي لا يكون هناك غش ولا دخل ولا تمويه بالراية. ولقد يغلب المبطلون الذين يرفعون راية الباطل صريحة في بعض المعارك - لحكمة يعلمها الله - أما الذين يرفعون راية العقيدة ولا يخلصون لها إخلاص التجرد، فلا يمنحهم الله النصر أبدا، حتى يبتليهم فيتمحصوا ويتمحصوا .. وهذا ما يريد القرآن أن يجلوه للجماعة المسلمة بهذه الإشارة إلى موقفهم في المعركة، وهذا ما أراد الله - سبحانه - أن يعلمه للجماعة المسلمة، وهي تتلقى الهزيمة المريعة والقرح الأليم ثمرة لهذا الموقف المضطرب المتأرجح! «مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» .. والقرآن يسلط الأضواء على خفايا القلوب، التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم ..

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - يُرِيدُ الدُّنْيَا حَتَّى نَزَلَتْ فِيْنَا يَوْمَ أُحُدٍ: مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ. رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ^{١٠٢٣} .. وبذلك يضع قلوبهم أمامهم مكشوفة بما فيها ويعرفهم من أين جاءتهم الهزيمة ليتقوها! وفي الوقت ذاته يكشف لهم عن طرف من حكمة الله وتدبيره وراء هذه الآلام التي تعرضوا لها ووراء هذه الأحداث التي وقعت بأسبابها الظاهرة: «ثُمَّ صَرَّفَكُمُ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ» ..

^{١٠٢٣} - المعجم الأوسط للطبراني - (١٤٥٣) حسن

لقد كان هناك قدر الله وراء أفعال البشر. فلما أن ضعفوا وتنازعوا وعصوا صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين، وصرف الرماة عن ثغرة الجبل، وصرف المقاتلين عن الميدان، فلاذوا بالفرار .. وقع كل هذا مرتباً على ما صدر منهم ولكن مدبراً من الله ليبتليهم .. ليبتليهم بالشدة والخوف والهزيمة والقتل والقرح وما يتكشف عنه هذا كله من كشف مكنونات القلوب، ومن تمحيص النفوس، وتمييز الصفوف - كما سيجيء.

وهكذا تقع الأحداث مرتبة على أسبابها، وهي في الوقت ذاته مدبرة بحسابها. بلا تعارض بين هذا وذاك.

فلكل حادث سبب، ووراء كل سبب تدبير .. من اللطيف الخبير ..

«وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ» .. عفا عما وقع منكم من ضعف ومن نزاع ومن عصيان وعفا كذلك عما وقع منكم من فرار وانقلاب وارتداد .. عفا عنكم فضلاً منه ومنة، وتجاوزاً عن ضعفكم البشري الذي لم تصاحبه نية سيئة ولا إصرار على الخطيئة .. عفا عنكم لأنكم تخطئون وتضعفون في دائرة الإيمان بالله، والاستسلام له، وتسليم قيادكم لمشيئته: «وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» ..

ومن فضله عليهم أن يعفو عنهم، ما داموا سائرين على منهجه، مقرين بعبوديتهم له لا يدعون من خصائص الألوهية شيئاً لأنفسهم، ولا يتلقون نهجهم ولا شريعتهم ولا قيمهم، ولا موازينهم إلا منه .. فإذا وقعت منهم الخطيئة وقعت عن ضعف وعجز أو عن طيش ودفعة .. فيتلقاهم عفو الله بعد الابتلاء والتمحيص والخلاص ..

ويستحضر صورة الهزيمة حية متحركة: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ، وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ» ..

كي يعمق وقع المشهد في حسهم ويثير الخجل والحياء من الفعل، ومقدماته التي نشأ عنها، من الضعف والتنازع والعصيان .. والعبارة ترسم صورة حركتهم الحسية وحركتهم النفسية في ألفاظ قلائل .. فهم مصعدون في الجبل هرباً، في اضطراب ورعب ودهش، لا يلتفت أحد منهم إلى أحد! ولا يجب أحد منهم داعي أحد! والرسول - ﷺ - يدعوهم ليطمئنهم على حياته بعد ما صاح صائح: إن محمداً قد قتل، فزلزل ذلك قلوبهم وأقدامهم .. إنه مشهد كامل في ألفاظ قلائل ..

وكانت النهاية أن يجزيهم الله على الغم الذي تركوه في نفس الرسول - ﷺ - بفرارهم، غمياً نفاقاً نفوسهم على ما كان منهم، وعلى تركهم رسولهم الحبيب يصيبه ما أصابه - وهو ثابت دونهم، وهم عنه فارون - ذلك كي لا يحفلوا شيئاً فاتهم ولا أذى أصابهم. فهذه التجربة التي مرت بهم، وهذا الألم الذي أصاب نبينهم - وهو أشق عليهم من كل ما نزل بهم - وذلك الندم الذي ساور نفوسهم، وذلك الغم الذي أصابهم .. كل ذلك سيصغر في نفوسهم كل ما يفوقهم من عرض، وكل ما يصيبهم من

مشقة: «فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بَعْمٌ، لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ».. واللّه المطلع على الخفايا، يعلم حقيقة أعمالكم، ودوافع حركاتكم: «وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»^{١٠٢٤} ..

٤٧. عدم شكر النعم ولا سيما بعد النصر:

قال تعالى ذاما بني إسرائيل: { وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) } [الأعراف: ١٦١، ١٦٢]

وبعد أن أسكنهم ربهم البلد الذي دخلوه بعد أن انتصروا على العماليق، أمرهم ربهم بشكره، وبدخول الباب (أي باب البلد) سجداً شكراً لله، وبأن يقولوا: حِطَّةٌ - (أي اللهم حطّ عنا خطايانا) - ليسنجيب الله إلى دعائهم، فيغفر لهم خطاياهم، ويزيد الحسنات لمحسنهم . فلم يدخل الذين ظلموا منهم باب البلد سجداً خاشعين كما أمرهم ربهم، بل دخلوه زاحفين على أستاذهم (أي أدبارهم)، وبدلوا قول الله، فلم يقولوا (حِطَّةٌ) وإنما قالوا ساخرين حنطة، فأنزل الله تعالى على الذين كفروا منهم بأسه وعذابه بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله .^{١٠٢٥} هو بيان لوجه من وجوه بني إسرائيل المنكرة، التي كانوا يتعاملون بها مع الله، حيث يلبسهم النعمة، فتزيدهم بالله كفرا وضلالا..

ولقد دعاهم الله سبحانه أن يدخلوا القرية، وأن يسكنوها، حتى ينتقلوا من الصحراء الجديب، إلى حياة الاستقرار والسكن، وأن ينعموا بما تخرج أرضها من جنات وزروع.. وأوصاهم الله حين يدخلون هذه القرية أن يكونوا على حال خاصة، هي أن يدخلوا بإها ساجدين لله، قائلين «حِطَّةٌ» أي مغفرة لذنوبنا، وتكفير لسيئاتنا.. ولكنهم حين دخلوا القرية أبوا إلا أن يغيروا ويدلوا في هذا الأمر الذي أمرهم الله به، ولم يدخلوها على تلك الصورة التي رسمها الله لهم، ولم يكن ذلك بالذي يعتهم أو يثقل عليهم، ولكن هكذا الطباع اللثيمة، والنفوس المريضة، لا تقبل الخير ولو كان الهواء الذي تتنفسه وتعيش عليه.. إنها طباع أطفال، تأبى إلا الخلاف والشرود.

^{١٠٢٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٧٩٧)

^{١٠٢٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١١٦)، بترقيم الشاملة آليا

وفي قوله تعالى: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ» وصف فاضح مخز لهؤلاء القوم، فقد دمعهم الله بالظلم، وأدخلهم مداخل الظالمين، ولهذا جاء النظم القرآن مصرحا بهم هكذا: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» ولم يقل:

«فبدلوا».. وقد أخذهم الله بظلمهم، وعجل لهم العذاب، بأن أنزل عليهم رجزا من السماء، أي لعنة ومقتا، «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ» بدلا - مما كان يتزل عليهم من المن والسلوى، وما كان يظللهم من غمام.

فالسما التي كانت تتزل منها الرحمة عليهم، هي السماء التي تصب عليهم البلاء والنقم.. والمراد بالسماء هنا الإشارة إلى متزل الأقدار التي تتزل بالناس، من خير وشر، وأما من مصدر عال متمكن، يشرف على الوجود كله، ويمسك به. و«الْقَرْيَةَ» التي أمر بنو إسرائيل بالسكن فيها لم يذكر القرآن اسمها، ولم يبين صفتها، ومع هذا، فقد كانت معروفة لبني إسرائيل، مشارا لهم إليها هكذا: «هَذِهِ الْقَرْيَةُ».. وقد تكلف المفسرون البحث عنها، واختلفوا فيها.. ونحن نحترم سكوت القرآن عنها، وحسبها أما قرية يسكن الناس فيها، ويجدون مطالب الحياة ميسرة في أرضها، إذ لا متعلق لاسم هذه القرية، ولا لصفاتها فيما أمر به بنو إسرائيل عند دخولها.. وغاية ما يمكن أن يقال في تحديد مكان القرية - لا اسمها - هو أنها في الأرض المقدسة من فلسطين، حيث أشار الله سبحانه إلى هذا بقوله تعالى في سورة المائدة على لسان موسى: «يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ» (الآية: ٢١). ١٠٢٦

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ هَدًى وَمَوْعِظَةً، وَجَعَلَ قِصَصَ الرُّسُلِ فِيهِ عِبْرَةً وَتَذَكُّرَةً لَأَتَارِيخِ شُعُوبٍ وَمَدَائِنٍ، وَلَا تَحْقِيقَ وَقَائِعٍ وَمَوَاقِعٍ. وَالْعِبْرَةُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنْ تَنْتَقِيَ الظُّلْمَ وَالْفِسْقَ. وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يُعَاقِبُ الْأُمَمَ عَلَى ذُنُوبِهَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، وَأَنَّهُ قَدْ عَاقَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِظُلْمِهِمْ، وَلَمْ يُحِلْ دُونَ عِقَابِهِ، مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْمَزَايَا وَالْفَضَائِلِ، وَكَثْرَةِ وُجُودِ الْأَنْبِيَاءِ فِيهِمْ. ١٠٢٧

لقد عفا الله عنهم بعد اتخاذهم العجل وعفا عنهم بعد الرجفة على الجبل. ولقد أنعم عليهم بكل تلك النعم.. ثم ها هم أولاء تلتوي بهم طبيعتهم عن استقامة الطريق! ها هم أولاء يعصون الأمر، ويبدلون القول! ها هم أولاء يؤمرون بدخول قرية بعينها - أي مدينة كبيرة - لا يعين القرآن اسمها - لأنه لا يزيد في مغزى القصة شيئا - وتباح لهم خيراتها جميعا، على أن يقولوا دعاء بعينه وهم يدخلونها وعلى أن يدخلوا بابها سجدا، إعلان للخضوع لله في ساعة النصر والاستعلاء - وذلك كما دخل رسول

١٠٢٦ - التفسير القرآني للقرآن (٥ / ٥٠١)

١٠٢٧ - تفسير المنار (٩ / ٣١٥)

الله - ﷺ - مكة في عام الفتح ساجدا على ظهر دابته^{١٠٢٨} - وفي مقابل طاعة الأمر يعدهم الله أن يغفر لهم خطيئاتهم وأن يزيد للمحسنين في حسناتهم .. فإذا فريق منهم يدلون صيغة الدعاء التي أمروا بها، ويدلون الهيئة التي كلّفوا أن يدخلوا عليها .. لماذا؟ تلبية للانحراف الذي يلوي نفوسهم عن الاستقامة: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ» ..

عندئذ يرسل الله عليهم من السماء عذابا .. السماء التي تنزل عليهم منها المن والسلوى وظللهم فيها الغمام! .. «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ» ..

وهكذا كان ظلم فريق منهم - أي كفرهم - ظلما لأنفسهم بما أصابهم من عذاب الله ..

ولا يفصل القرآن نوع العذاب الذي أصابهم في هذه المرة. لأن غرض القصة يتم بدون تعيينه. فالغرض هو بيان عاقبة المعصية عن أمر الله، وتحقيق النذر، ووقوع الجزاء العادل الذي لا يفلت منه العصاة.^{١٠٢٩}

وقال تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) } وقال موسى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) } [إبراهيم: ٦ - ٨]

واذكُرُوا يا بني إسرائيل حين آذَنَكُم رَبُّكُمْ، وأَعْلَمَكُم بِوَعْدِهِ، فقال: لَئِنْ شَكَرْتُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ مِنْهَا، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ النِّعَمَ وَسَتَرْثُمُوهَا وَجَحْدْتُمُوهَا، لَأُعَاقِبَنَّكُمْ عِقَابًا شَدِيدًا عَلَى كُفْرِهَا، وَلَا سُلْبَتَكُمْ إِيَّاهَا . (وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى لِعِبَارَةِ: " وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ " هُوَ: وَإِذْ أَقْسَمَ رَبُّكُمْ بِعَزَّتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّائِهِ) .

وقال موسى لِقَوْمِهِ حينما عاندوا وجحدوا: إِنَّ كَفَرْتُمْ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، أَنتُمْ وَجَمِيعٌ مِنْ فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا، وَإِنَّهُ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنْ شُكْرِ عِبَادِهِ لَهُ، وَهُوَ الْحَمِيدُ الْمُحْمَدُ، وَإِنْ كَفَرَهُ مِنْ كُفْرِهِ، وَإِنَّكُمْ لَا تَضُرُّونَ، بِالْكَفْرِ وَالْجُحُودِ، إِلَّا أَنْفُسَكُمْ لَأَتَكُمْ تَحْرِيمُوهَا بِذَلِكَ مِنْ مَزِيدٍ مِنَ الْإِنْعَامِ، وَتُعَرِّضُوهَا لِعَذَابِ اللَّهِ .

^{١٠٢٨} - عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ قَالَ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَغْفَلٍ يَقُولُ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى نَاقَتِهِ، وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ يُرْجِعُ، وَقَالَ لَوْلَا أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ حَوْلِي لَرَجَعْتُ كَمَا رَجَعْتُ . صحيح البخاري - المكثر [١٤/ ١٨٦] (٤٢٨١)

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا انْتَهَى إِلَى ذِي طُوًى وَقَفَ عَلَى رَاحِلَتِهِ مُعْتَجِرًا بِشِقَةِ بَرْدٍ حَبِيرَةٍ حَمْرَاءَ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيَضَعُ رَأْسَهُ تَوَاضَعًا لِلَّهِ حِينَ رَأَى مَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْفَتْحِ حَتَّى إِنَّ عُثْمَانَ لَيَكَادُ يَمَسُّ وَاسِطَةَ الرَّحْلِ . سيرة ابن هشام [٢/ ٤٠٥] حسن مرسل

وَعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: " دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَدَقَّنَهُ عَلَى رَحْلِهِ مُتَخَشِّعًا " دلائل النبوة للبيهقي [٥/ ٩٩] (١٨٠٦) حسن لغيره -الرحل: ما يوضع على ظهر البعير للركوب = المتخشع: الخاضع المتذل

^{١٠٢٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٨٥٠)

قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى خَيْرَ قَوْمٍ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ، وَالْأُمَمِ الْآخَرَى الْمُكَذِّبَةِ، الَّذِينَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْحُجَجِ، وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَعَلَى تَصَرُّفِهِ الْمَطْلَقِ بِالْكُوفِ، وَعَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ فَقَالَ: إِنَّهُمْ كَذَّبُوا أَنْبِيََاءَهُمْ، وَرَدُّوا عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَقَالُوا لَهُمْ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مَثِيرٍ لِلرَّيْبِ مِمَّا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ .

وَقِيلَ إِنَّ هَذَا التَّعْبِيرَ مِثْلُ يُرَادُ بِهِ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يَرُدُّوا جَوَابًا .

(وَقِيلَ أَيْضًا إِنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ اسْتِعْرَابًا وَاسْتِنْكَارًا) .

(وَقِيلَ أَيْضًا إِنَّ الْمَعْنَى هُوَ أَنَّهُمْ عَضُّوا عَلَى أَنَامِلِهِمْ تَغِيظًا مِنَ الرُّسُلِ وَكَلَامِهِمْ) (١٠٣٠) .

تَأَذَّنَ رَبِّكُمْ: أَيُّ أَذَنٍ، وَحُكْمٍ، وَقَضَى.. وَمَا قَضَى اللَّهُ بِهِ هُوَ أَنَّهُ - سُبْحَانَهُ - يَزِيدُ الشَّاكِرِينَ لِنِعْمِهِ وَأَفْضَالِهِ، نِعْمًا وَأَفْضَالًا.. أَمَّا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وَبِنِعْمِهِ، فَلَهُ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَبَلَاءٌ عَظِيمٌ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جَمِيعًا. قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ»

- أَيُّ إِنَّ كَفَرَ الْكَافِرِينَ لَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا، كَمَا أَنَّ إِيمَانَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَنْفَعُهُ، فَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْ خَلْقِهِ.. إِذْ كَيْفَ يَخْلُقُهُمْ، ثُمَّ يَحْتَاجُ إِلَيْهِمْ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

- وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ» - إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَنِيٌّ عَنْ عِبَادِهِ، وَمَعَ غِنَاهُ، فَإِنَّهُ يَتَقَبَّلُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانَهُمْ، وَيَحْمَدُهُمْ، وَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ.. فَضْلًا مِنْهُ وَكِرَامًا، وَتَوْنِيهَا بِشَأْنِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَتَكْرِيمًا لِلصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ. (١٠٣١)

وَإِذْ ذَكَرْ لِقَوْمَكَ حِينَ قَوْلِ مُوسَى لِقَوْمِهِ: يَا قَوْمِ تَذَكَّرُوا أَنْعَامَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ، حِينَ كَانُوا يَذِقُونَكُمْ الْعَذَابَ وَيَكْلِفُونَكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا لَا يَطَاقُ مَعَ الْقَهْرِ وَالْإِذْلَالِ، وَيَذْجُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَقْتُلُونَ نِسَاءَكُمْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ ذَلِيلَاتٍ مُسْتَضْعَفَاتٍ، وَهَذَا رِزْقٌ مِنْ أَشَدِّ الْأَرْزَاءِ، وَأَعْظَمِ أَلْوَانِ الْبَلَاءِ، قَالَ شَاعِرُهُمْ:

وَمِنْ أَعْظَمِ الرِّزْقِ فِيمَا أَرَى... بَقَاءَ الْبَنَاتِ وَمَوْتَ الْبَنِينِ

وَفِي ذَلِكَ التَّذْكَيرِ عِبْرَةٌ لَهُمْ لَوْ يَعْتَبِرُونَ.

(وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) أَيُّ وَفِيمَا ذَكَرَ ابْتِلَاءٌ وَاحْتِبَارٌ عَظِيمٌ مِنْ رَبِّكُمْ لَمَّا فِيهِ مِنْ نَقْمَةٍ التَّعْذِيبِ وَالْإِذْلَالِ وَقَتْلِ الْأَوْلَادِ وَاسْتِحْيَاءِ الْبَنَاتِ، ثُمَّ نِعْمَةٌ الْإِنْجَاءِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ الْعَسْفِ وَالْقَهْرِ، فَالْإِبْتِلَاءُ كَمَا يَكُونُ بِالنَّقْمَةِ يَكُونُ بِالنِّعْمَةِ كَمَا قَالَ «وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» وَقَالَ: «وَبَلَّوْكُمْ بِالْخَيْرِ وَالْخَيْرِ فَتَنَةٌ» .

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ) أَيُّ وَادْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ آذَنَكُمْ رَبِّكُمْ وَأَعَلَمَكُمْ بِوَعْدِهِ فَقَالَ:

١٠٣٠ - أَيْسَرُ التَّفَاسِيرِ لِأَسْعَدِ حَوْمَدٍ (ص: ١٧٥٨، بِتَرْقِيمِ الشَّامِلَةِ آيَا)

١٠٣١ - التَّفْسِيرُ الْقُرْآنِيُّ لِلْقُرْآنِ (٧/ ١٥٢)

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) أي لئن شكرتم ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها بطاعتي فيما أمركم به وأنهاكم عنه لأزيدنكم من نعمي عليكم، وقد دلت التجارب أن العضو الذي ينط به عمل كلما مرن عليه ازداد قوة، وإذا عطل عن العمل ضمير وضعف، وهكذا النعم إن استعملت فيما خلقت له بقيت، وإن أهملت ذهبت.

أخرج البخاري في تاريخه والضياء في المختارة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «من ألهم خمسة لم يحرم خمسة - وفيها من ألهم الشكر لم يحرم الزيادة» .

والخلاصة - إن من شكر الله على ما رزقه وسّع عليه في رزقه، ومن شكره على ما أقدره عليه من طاعته زاد في طاعته، ومن شكره على ما أنعم عليه من صحة زاده الله صحة، إلى نحو أولئك من النعم. (وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ) النعم وجددتموها فلم تقوموا بواجب حقها عليكم من شكر المنعم بها. (إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) بحرمانكم منها، وسلبكم ثرائها، في الدنيا والآخرة، فتعذبون في الدنيا بزوالها، وفي الآخرة بعذاب لا قبل لكم به، وفي الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصبه» .

ثم بين سبحانه أن منافع الشكران ومضار الكفران لا تعود إلا إلى الشاكر أو الكافر بتلك النعم، أما المعبود المشكور فهو متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يضره الكفر، فلا جرم قال: (وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) أي إن تجحدوا نعمة الله التي أنعمها عليكم، ويفعل مثل فعلكم من في الأرض جميعاً، فما أضرتكم بالكفر إلا أنفسكم، إذ حرمتموها من مزيد الإنعام، وعرضتموها للعذاب، الشديد، وإن الله غني عن شكركم وشكر غيركم، وهو الحمود وإن كفر به من كفر، وهذا كقوله: (إِنَّ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ) الآية، وقوله: «فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» .

وقد يكون موسى قال هذه المقالة حين عاين منهم دلائل العناد، ومخايل الإصرار على الكفر والفساد، وتيقن أنه لا ينفعهم الترغيب، ولا التعريض بالترهيب.^{١٠٣٢}

إنه يذكرهم بنعمة الله عليهم. نعمة النجاة من سوء العذاب الذي كانوا يلقونه من آل فرعون، يسامونه سوماً، أي يوالون به ويتابعون، فلا يفتر عنهم ولا ينقطع. ومن ألوانه البارزة تذيبح الذكور من الأولاد واستحياء الإناث، منعاً لتكاثر القوة المانعة فيهم واستبقاء لضعفهم وذلمهم. فإنجاء الله لهم من هذه الحال نعمة تذكر. وتذكر لتشكر.

«وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» .. بلاء بالعذاب أولاً، لامتحان الصبر والتماسك والمقاومة والعزم على الخلاص والعمل له. فليس الصبر هو احتمال الذل والعذاب وكفى. ولكن الصبر هو احتمال العذاب بلا تضعع ولا هزيمة روحية، واستمرار العزم على الخلاص، والاستعداد للوقوف في وجهه

^{١٠٣٢} - تفسير المراغي (١٣ / ١٢٩)

الظلم والطغيان. وإلا فما هو صبر مشكور ذلك الاستسلام للذل والهوان .. وبلاء بالنجاة ثانيا
لامتحان الشكر، والاعتراف بنعمة الله، والاستقامة على الهدى في مقابل النجاة.

ويمضي موسى في البيان لقومه. بعد ما ذكرهم بأيامه. ووجههم إلى الغاية من العذاب والنجاة. وهي
الصبر للعذاب والشكر للنجاة .. يمضي ليبين لهم ما رتبته الله جزاء على الشكر والكفران: «وَإِذْ تَأَذَّنَ
رَبُّكُمْ: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» .. ونقف نحن أمام هذه الحقيقة
الكبيرة: حقيقة زيادة النعمة بالشكر، والعذاب الشديد على الكفر.

نقف نحن أمام هذه الحقيقة تطمئن إليها قلوبنا أول وهلة لأنها وعد من الله صادق. فلا بد أن يتحقق
على أية حال .. فإذا أردنا أن نرى مصداقها في الحياة، ونبحث عن أسبابه المدركة لنا، فإننا لا نبعد
كثيرا في تلمس الأسباب.

إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية. فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه
الطبيعي في الفطرة المستقيمة ..

هذه واحدة .. والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته، تراقبه في التصرف بهذه النعمة. بلا
بطر، وبلا استعلاء على الخلق، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد.

وهذه وتلك مما يزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة. بما ينميها ويبارك
فيها ويرضي الناس عنها وعن صاحبها، فيكونون له عوناً ويصلح روابط المجتمع فتتفتح فيه الثروات في
أمان. إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة. وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان
المؤمن، أدرك الأسباب أو لم يدركها، فهو حق واقع لأنه وعد الله.

والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها. أو بإنكار أن الله واهبها، ونسبتها إلى العلم والخبرة والكد
الشخصي والسعي! كأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله! وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر
والكبر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد .. وكله كفر بنعمة الله ..

والعذاب الشديد قد يتضمن محق النعمة. عينا بذهابها. أو سحق آثارها في الشعور. فكم من نعمة تكون
بذاتها نعمة يشقى بها صاحبها ويحسد الخالين! وقد يكون عذابا مؤجلا إلى أجله في الدنيا أو في
الآخرة كما يشاء الله. ولكنه واقع لأن الكفر بنعمة الله لا يمضي بلا جزاء.

ذلك الشكر لا تعود على الله عائدته. وهذا الكفر لا يرجع على الله أثره. فالله غني بذاته محمود
بذاته، لا بحمد الناس وشكرهم على عطايه.

«وَقَالَ مُوسَى: إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ» .. إنما هو صلاح الحياة
يتحقق بالشكر، ونفوس الناس تزكو بالاتجاه إلى الله، وتستقيم بشكر الخير، وتطمئن إلى الاتصال

بالمنعم، فلا تخشى نفاذ النعمة وذهابها، ولا تذهب حسرات وراء ما ينفق أو يضيع منها. فالمنعم موجود، والنعمة بشكره تزكو وتزيد. ١٠٣٣

٤٨. الاغترار بالعدد والعدة:

قال تعالى: { لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) } [التوبة]

يُذَكِّرُ اللَّهُ تعالى الْمُؤْمِنِينَ بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، فِي نَصْرِهِ إِيَّاهُمْ فِي مَوَاقِعَ كَثِيرَةٍ (مَوَاطِنَ) مِنْ غَزَوَاتِهِمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، وَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَبِتَأْيِيدِهِ وَتَقْدِيرِهِ، لَا بِعَدَدِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا بِعُدَّتِهِمْ، وَلَا بِعَصِيَّتِهِمْ، وَلَا بِقُوتِهِمْ، وَلَا بِكَثْرَةِ أَمْوَالِهِمْ، وَنَبَهَهُمْ تَعَالَى إِلَى النَّصْرِ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَلَّ الْجَمْعُ أَوْ كَثُرَ .

وَفِي يَوْمِ حُنَيْنٍ أَعْجَبَتْ الْمُسْلِمِينَ كَثْرَتُهُمْ فَلَمْ تُفِدْهُمْ شَيْئًا، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ عَلَى سَعَتِهَا مِنْ شِدَّةِ فِرْعِهِمْ، فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى التَّجَاةِ سَبِيلًا، وَلَمْ يَثْبُتْ مِنْهُمْ إِلَّا عَدَدٌ قَلِيلٌ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ، وَكَانَ ذَلِكَ ابْتِلَاءً مِنَ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى عَجْبِهِمْ بِكَثْرَتِهِمْ. (ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ نَصْرَهُ وَتَأْيِيدَهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ، لِيُعْلِمَهُمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَإِنَّ قَلَّ الْجَمْعُ) .

وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الطُّمَأْنِينَةَ عَلَى رَسُولِهِ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ ثَبَتُوا مَعَهُ، فَأَذْهَبَ رَوْعَهُمْ، وَأَزَالَ حَيْرَتَهُمْ، وَأَعَادَ إِلَيْهِمْ شَجَاعَتَهُمْ، وَلَزِمَ الرَّسُولُ ﷺ مَكَانَهُ، وَمَعَهُ الْقَلَّةُ الَّتِي ثَبَتَتْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاسْتَنْصَرَ الرَّسُولُ رَبَّهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ جُنُودًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَمْ يَرَهَا الْمُسْلِمُونَ بِأَبْصَارِهِمْ، بَلْ وَجَدُوا أَثَرَهَا فِي قُلُوبِهِمْ، بِمَا عَادَ إِلَيْهَا مِنْ رِبَاطَةِ جَاشٍ، وَشِدَّةِ بَاسٍ. وَأَخَذَ الرَّسُولُ ﷺ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ قَذَفَهَا فِي وَجْهِ الْقَوْمِ، فَلَمْ يَبْقَ مُقَاتِلٌ مِنْ هَوَازِنَ إِلَّا وَدَخَلَتْ فِي عَيْنِهِ أَوْ فِيهِ حَبَّةٌ مِنْ تُرَابٍ أَشْغَلَتْهُ عَنِ الْقِتَالِ، وَتَرَجَعَ الَّذِينَ هَرَبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَى حَيْثُ كَانَ يَقِفُ رَسُولُ اللَّهِ وَصَحْبُهُ الثَّابِتُونَ، وَحَمَلُوا عَلَى هَوَازِنَ فَنَصَرَهُمُ اللَّهُ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَقَاتَلُوا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخْزَاهُمُ اللَّهُ وَأَذَلَّهُمْ بِالْقَتْلِ وَالسِّيِّ، وَهَذَا هُوَ مَصِيرُ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، وَجَزَاؤُهُمْ .

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ، مِنْ بَعْدِ الْقَتْلِ وَالْخِزْيِ وَالتَّعْذِيبِ، عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْ هَوَازِنَ فَيَهْدِيهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَقَدْ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُسْلِمِينَ، وَلَحِقُوا بِهِ فِي مَكَّةَ فِي مَكَانٍ يُعْرَفُ بِالْجُعْرَانَةِ، وَذَلِكَ بَعْدَ الْمَوْقِعَةِ

بِعَشْرِينَ يَوْمًا، وَحِينَئِذٍ خَيْرُهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ سَبِيهِمْ، وَبَيْنَ أَمْوَالِهِمْ، فَاخْتَارُوا سَبِيَهُمْ، وَكَانُوا سِتَّةَ
آلَافٍ أَسِيرٍ مَا بَيْنَ صَبِيٍّ وَامْرَأَةٍ فَرَدَّهُمْ عَلَيْهِمْ، وَقَسَمَ الْأَمْوَالُ بَيْنَ الْمُقَاتِلِينَ. ١٠٣٤

التجربة التي وضع الله سبحانه وتعالى المسلمين إزاءها في الآية السابقة، هي تجربة قاسية، تعالج منها
النفس الشيء الكثير، من الضيق والألم، إلّا من عصم الله من عباده المؤمنين.. ولهذا جاء قوله تعالى: «لَقَدْ
نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ
تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ» - جاء قوله سبحانه وتعالى في هاتين
الآيتين، مذكّرًا المسلمين بعظمة الله وقدرته، وفضله على المؤمنين من عباده.. وفي هذا ما يخفّ به ميزان
كل شيء يتعلّق به الإنسان، من أهل ومال وموطن.. وبذلك يشتدّ عزم المؤمن، ويقوى يقينه، فيجد
القدرة من نفسه على أن يجلى عنها كل ما يطوف حول إيمانه بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله، من
دواعي الوهن والضعف، حين تطلع عليه الذكريات لأهله وماله ووطنه.

فلقد أيد الله المؤمنين، وأمدّهم بنصره في مواطن كثيرة.. في بدر، وفي الخندق، وفي فتح مكة.. وفي حرب
اليهود، في خيبر، وفي المدينة..

ثم في يوم حنين.. وقد كان المسلمون في عدد عديد، وعدّة ظاهرة، حتى لقد قال قائلهم: «إننا لن نغلب
اليوم من قلة» فقد كانوا في اثني عشر ألفًا، بين راحل وفارس..

ومع هذا، فإنه ما كاد المسلمون يلتقون بموازن في وادي حنين قرب مكة، حتى ولّوا مدبرين، وانكشف
رسول الله للعدو، ولم يثبت معه إلا عدة من ذوى قرابته، منهم على بن أبي طالب، والعباس بن عبد
المطلب، ونفر قليل من المؤمنين.. والذي كان يرصد المعركة في تلك اللحظة ما كان يشك أبدا في أن
الدائرة على المسلمين، وأن الهزيمة واقعة بهم، لا محالة..

لقد تبدّد جيش المسلمين، وتناثرت جموعهم، وذهبت ريحهم، وما كان لقوة في الأرض أن تجمع هذا
الكيان الممزق، وأن تبعث فيه الحياة والقوة من جديد..

ولكن أمداد السماء، ونفحات الحق، جاءت في وقتها، فأحالت الهزيمة نصرا حاسما.. «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ
الْكَافِرِينَ» وفي هذا يرى المسلمون أن القوة لله، وأن النصر والعزة للمؤمنين، وأن البلاء والخزي على
الكافرين..

فمن أراد النصر والعزة.. فلا مبتغى لهما، ولا سبيل إليهما، إلا بالإيمان، ومع المؤمنين.

ومن رغب عن الإيمان، وآثر عليه الأهل والمال، فلن يلق إلا الدّلة والهوان..

١٠٣٤ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٦١)، بترقيم الشاملة آليا

وفي قوله تعالى: «ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» استدعاء لمن خذلتهم عزائمهم، وتخلّى عنهم السداد والتوفيق، فمالوا إلى جانب الضالين والمشركين.. فهؤلاء لا يزال الطريق إلى الله مفتوحا لهم، ولا زالت رحمة الله ومغفرته تنتظرهم على أول الطريق، إن هم راجعوا أنفسهم، ونزعوا عما هم فيه من تردد وارتياب! وهنا وقفة لا بد منها مع «ثُمَّ» وهو حرف عطف للترتيب والتراخي.. وقد جاء مكررا ثلاث مرات في الحديث عن يوم حنين.. هكذا..

«وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ.. ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ» «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ...»

«ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ..»

والعطف يثم هنا في هذه المواضع الثلاثة، أفاد أمرين:

أولهما: الترتيب الزمني في وقوع هذه الأحداث.. فقد وقع المسلمون أولا في اضطراب وذعر، والتمسوا الخلاص مما هم فيه من بلاء، ولم يكن ذلك بالميسور لهم.. ثم كان الفرار وتولية الأدبار هما طريق النجاة.. ثم كان من الله توبة ومغفرة لمن فرّ منهم وولى المشركين دبره في القتال.

وثانيهما: التباين بين وجوه هذه الأحداث المتعاطفة، بحيث يبدو أن عنصر الزمن لا بد أن يكون عاملا هنا في تحريك الأحداث، حتى تتغير وتبلغ الصورة التي جاءت عليها..

والذي ينظر إلى الموقعة - موقعة حنين - من الظاهر، يجد أنها حدثا واحدا، متلاحم النسيج، وأن ليس هناك أي فاصل زمني يفصل بين مجريات الأمور في هذا الحدث.. فهي معركة واحدة، احتواها زمن واحد، لم يجاوز غدوة يوم.. ولكن الذي ينظر إلى المعركة نظرا أعمق وأرحب، يجد أنها لم تكن معركة واحدة، وإنما هي معارك متصلة، بدأت بمعركة هزم فيها المسلمون، ثم انتهت بمعركة كتب الله لهم فيها النصر..

فالمعركة الأولى، لها حسابها وتقديرها، وحكمها، وهي الهزيمة المطلقة للمسلمين.. فقد أحاط بهم العدو، وأوقع في صفوفهم الفوضى والاضطراب..

الأمر الذي يسلم إلى الهزيمة التي لا مفرّ منها.. ومع هذا، فإنه ما كان للمسلمين أن يفرّوا بأيّ حال كانوا عليه، وعلى أي تقدير يقدّرونه لنتائج المعركة.. فلتكن الهزيمة واقعة بهم، ولكن الذي كان يجب ألا يكون منهم، هو الفرار.. فهذا أمر لا يصحّ أن يقع من المسلمين في ميدان القتال، والله سبحانه وتعالى يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ»..

فأي مسلم هذا الذي تحدّثه نفسه بالفرار من المعركة، وهو يعلم حكم الله فيمن يفرّ ويولّى العدو دبره؟

ولكن الذي حدث، هو أن المسلمين فرّوا، وولّوا الأدبار..!

ومن هنا كان هذا الأمر منهم حدثا غريبا، ما كان ينبغي أن يكون في ميدان القتال..! وهذا هو بعض السرّ في عطفه «بشم» على الحدث الذي قبله، وهو الضيق والكرب الذي ركب المسلمين في أول القتال.. وفي هذا ما يشعر بأن هذا الحدث - حدث الفرار - وإن كان قد وقع في ميدان القتال، هو حدث مستقلّ بنفسه، منقطع الصلة بما قبله، غير مترتب عليه.. وعطفه على ما قبله هو من عطف حدث على حدث، أو قصة على قصة، أو حال على حال! أما عطف قوله تعالى: «ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ» فهو كذلك عطف حال على حال، أو قصة على قصة.. وهذا ما يشعر بأن الحدث الأول، وهو الفرار والهزيمة، أمر قد وقع، وسوّى حسابه.. ثم بدأ أمر آخر، له حسابه الخاص به، وهو الممثل في تلك المعركة الجديدة التي دخل فيها المسلمون القتال مع العدو، بنفوس جديدة ومشاعر جديدة، بل قل وبأشخاص غير الأشخاص ومقاتلين غير المقاتلين.. إذ أنزل الله سكينته عليهم، ونزع لو كان قد استولى على قلوبهم من خوف وهلع، وأمدّهم بجنود من عنده، كانوا ردءا لهم، وبدا قوية ضاربة معهم، فكان لهم النصر والظفر..

وأما عطف قوله تعالى: «ثُمَّ يُتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» فكان من عطف حال على حال، وقصة على قصة، وشأن على شأن، وأن الصلة التي بينه وبين ما قبله ليست صلة سبب ومسبّب، أو علة ومعلول.. ذلك أن ما كان يتوقعه المسلمون بعد فرارهم وتولّيتهم الأدبار، هو وقوع غضب الله عليهم في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة.. ولكن الذي حدث كان غير هذا، فقد عاد الله سبحانه وتعالى بفضلته وإحسانه عليهم، وجاءهم برحمته ومغفرته، وتقبّل توبة التائبين منهم.

وقد جاءت رحمة الله ومغفرته إلى الذين فروا وولوا الأدبار في هذه الصورة المتراخية - وفي هذا ما يشعر بأن مغفرة الله ورحمته ما كانت لتنال هؤلاء الفارّين أبدا، وأنها إذ نالتهم في تلك المرة، فإنها قد لا تنالهم بعدها.. لأن الحكم المسلّط على الفارّين الذين يولّون الأدبار في ميدان القتال هو الحكم المحكم الذي لا يردّ، وأن هذا الذي أصاب المسلمين الفارين من مغفرة ورحمة في هذا اليوم هو استثناء من أصل، ليس من الحتم أن يقع في كل حال تشبهه! ١٠٣٥

جاءت هذه الآيات لإقامة الحجة على صدق ما قبلها من النهي والوعيد وأن الخير ولمصلحة للمؤمنين في ترك ولاية أولى القربى من الكافرين، وفي إثارة حب الله ورسوله والجهاد في سبيله على حب أولى القربى والعشيرة والمال والسكن ونحوها مما يجب - إذ أبان فيها أن نصر الله للمؤمنين في المواطن الكثيرة لم يكن بقوة العصبية ولا بقوة المال ولا بما يشتري به من الزاد والعتاد، بل كان بفضل الله عليهم بهذا الرسول الذي جاءهم بذلك الدين القويم، وأن هزيمتهم وتوليهم يوم حنين كان ابتلاء لهم

على عجبهم بكثرتهم ورضاهم عنها، ونصرهم من بعد ذلك كان بعناية خاصة من لدنه، ليتذكروا أن عنايته تعالى للمؤمنين بالقوة المعنوية لا بالكثرة العددية وما يتعلق بها. ١٠٣٦

هَذِهِ الْآيَاتُ تَذَكِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ فِي مَوَاطِنِ الْقِتَالِ الْكَثِيرَةِ مَعَهُمْ، إِذْ كَانَ عَدَدُهُمْ وَعَتَادُهُمْ قَلِيلًا لَا يُرْجَى مَعَهُ النَّصْرُ بِحَسَبِ الْأَسْبَابِ وَالْعَادَةِ، وَابْتِلَاءُهُ إِيَّاهُمْ بِالتَّوَلَّى وَالْهَزِيمَةِ يَوْمَ حُنَيْنٍ عَلَى عَجَبِهِمْ بِكَثْرَتِهِمْ وَرِضَاهُمْ عَنْهَا، وَنَصْرِهِمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ بِعِنَايَةٍ خَاصَّةٍ مِنْ لَدُنْهُ - ؛ لِيَتَذَكَّرُوا أَنَّ عِنَايَتَهُ تَعَالَى وَتَأْيِيدُهُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِالْقُوَى الْمَعْنَوِيَّةِ، أَعْظَمُ شَأْنًا وَأَدْنَى إِلَى النَّصْرِ مِنَ الْقُوَّةِ الْمَادِّيَّةِ، كَالْكَثَرَةِ الْعَدَدِيَّةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا، وَجَعَلَ هَذَا التَّذَكِيرَ تَالِيًا لِلنَّهْيِ عَنْ وَلَايَةِ آبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَلِلْوَعِيدِ عَلَى إِثَارِ حُبِّ الْقَرَابَةِ وَالزَّوْجِيَّةِ وَالْعَشِيرَةِ " وَلَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ " وَالْمَالِ وَالسَّكَنِ عَلَى حُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، تَفْنِيدًا لَوْسُوسَةِ شَيَاطِينِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ - مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ - لَهُمْ، وَإِعْرَاضًا عَنْهُمْ بِاسْتِنْكَارِ عَوْدِ حَالَةِ الْحَرْبِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَتَنْفِيرِهِمْ مِنْ قِتَالِهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ، وَلِقَرَابَةِ بَعْضِهِمْ، وَلِكَسَادِ التَّجَارَةِ الَّتِي تَكُونُ مَعَهُمْ، وَذَلِكَ بَعْدَ إِقَامَةِ الدَّلَائِلِ عَلَى كَوْنِ ذَلِكَ مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَفِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ مِنَ الْعِبَرِ وَالْحُكْمِ وَالْأَحْكَامِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهَا، وَسَنَبِّئُ الْمُهِمَّ مِنْهُ فِي إِنْشَاءِ تَفْسِيرِ الْآيَاتِ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْخُطَابَ مِمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَقُولَهُ لِحِمَاةِ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّبَعِ لِمَا قَبْلَهُ، وَفِيهِمْ بَقِيَّةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَضَعْفَاءُ الْإِيمَانِ، وَلَمْ يَعْطَفْ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ بَيَّانٌ مُسْتَأْنَفٌ لِلْإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى صِحَّةِ مَا قَبْلَهُ مِنْ نَهْيٍ وَوَعِيدٍ، وَأَنَّ الْخَيْرَ وَالْمَصْلَحَةَ لِلْمُؤْمِنِ فِي تَرْكِ وَلَايَةِ أُولَى الْقُرْبَى مِنَ الْكَافِرِينَ، وَفِي إِثَارِ حُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ عَلَى حُبِّ أُولَى الْقُرْبَى وَالْعَشِيرَةِ وَالْمَالِ وَالسَّكَنِ مِمَّا يُحِبُّ لِلْقُوَّةِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَلِلتَّمَتُّعِ بِلَذَاتِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ نَصَرَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ فِي تِلْكَ الْمَوَاطِنِ الْكَثِيرَةِ لَمْ يَكُنْ بِقُوَّةِ عَصَبِيَّةٍ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلَا بِقُوَّةِ الْمَالِ، وَمَا يَأْتِي بِهِ مِنَ الزَّادِ وَالْعَتَادِ، وَقَدْ تَرْتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ وَالثَّرْوَةِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِثْلُهُ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ تَرْتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ السِّيَادَةِ وَالْمُلْكِ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ فِيمَا بَعْدُ، ثُمَّ يَكُونُ لَهُ مِنَ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ مَا هُوَ أَعْظَمُ وَأَدْوَمُ. وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الرَّسُولِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِذَا الدِّينِ الْقَوِيمِ.

وَالْمَوَاطِنُ جَمْعُ مَوْطِنٍ، وَهِيَ مَشَاهِدُ الْحَرْبِ وَمَوَاقِعُهَا، وَالْأَصْلُ فِيهِ مَقَرُّ الْإِنْسَانِ وَمَحَلُّ إِقَامَتِهِ كَالْوَطَنِ. وَوَصَفَهَا بِالْكَثِيرَةِ؛ لِأَنَّهَا تَشْمَلُ غَزَوَاتِ النَّبِيِّ ﷺ - وَأَكْثَرَ سَرَايَاهُ الَّتِي أُرْسِلَ فِيهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ مَعَهُمْ، وَلَا يُطْلَقُ اسْمُ الْغَزْوَةِ - وَمِثْلُهَا الْغَزَاةُ وَالْمَغْرَى - إِلَّا عَلَى مَا تَوَلَّاهُ - ﷺ - بِنَفْسِهِ مِنْ قَصْدِ الْكُفَّارِ إِلَى حَيْثُ كَانُوا مِنْ بِلَادِهِمْ أَوْ غَيْرِهَا.

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْمَغَازِي مِنْ صَحِيحِهِمَا عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبْعِيِّ أَنَّهُ سَأَلَ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ: كَمْ غَزَا النَّبِيُّ ﷺ — مِنْ غَزْوَةٍ؟ قَالَ: تِسْعَ عَشْرَةَ. وَسَأَلَهُ: كَمْ غَزَا مَعَهُ؟ قَالَ: سَبْعَ عَشْرَةَ، قَالَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ مِنْ أَوَّلِ الْكِتَابِ عِنْدَ قَوْلِهِ تِسْعَ عَشْرَةَ: كَذَا قَالَ، وَمُرَادُهُ الْغَزَوَاتُ الَّتِي خَرَجَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ — بِنَفْسِهِ سَوَاءً قَاتِلٌ أَوْ لَمْ يُقَاتِلْ، لَكِنْ رَوَى أَبُو يَعْلَى مِنْ طَرِيقِ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ أَنَّ عَدَدَ الْغَزَوَاتِ إِحْدَى وَعِشْرُونَ. وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ وَأَصْلُهُ فِي مُسْلِمٍ. فَعَلَى هَذَا، فَفَاتَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ ذَكَرُ ثَنَتَيْنِ مِنْهَا، وَلَعَلَّهَا الْأَبَوَاءُ وَبُوطٌ، وَكَانَ ذَلِكَ خَفِيَ عَلَيْهِ لِصِغَرِهِ اهـ.

ثُمَّ ذَكَرَ الْحَافِظُ عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ أَنَّهُ ﷺ — قَاتِلٌ بِنَفْسِهِ فِي ثَمَانٍ: بَدْرٌ ثُمَّ أُحُدٌ ثُمَّ الْأَحْزَابُ ثُمَّ الْمُصْطَلِقُ ثُمَّ خَيْبَرٌ ثُمَّ مَكَّةُ ثُمَّ حُنَيْنٌ ثُمَّ الطَّائِفُ، (قَالَ) وَأَهْمَلُ غَزْوَةَ قُرَيْظَةَ؛ لِأَنَّهُ ضَمَّهَا إِلَى الْأَحْزَابِ؛ لِكُونِهَا كَانَتْ فِي أَثَرِهَا، وَأَفْرَدَهَا غَيْرُهُ لَوْ قُوعِهَا مُتَفَرِّدَةً بَعْدَ هَزِيمَةِ الْأَحْزَابِ. وَكَذَا وَقَعَ لغيرِهِ عَدُوُّ الطَّائِفِ وَحُنَيْنٍ وَاحِدَةً لَتَقَارُبِهِمَا، فَيَجْتَمِعُ عَلَى هَذَا قَوْلُ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ وَقَوْلُ جَابِرٍ. وَقَدْ تَوَسَّعَ ابْنُ سَعْدٍ فَبَلَغَ عَدَدُ الْمَغَازِي الَّتِي خَرَجَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ — بِنَفْسِهِ سَبْعًا وَعِشْرِينَ، وَتَبَعَ فِي ذَلِكَ الْوَاقِدِيَّ، وَهُوَ مُطَابِقٌ لِمَا عَدَّهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُفَرِّدْ وَادِيَ الْقُرَى مِنْ خَيْبَرٍ، أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ السُّهَيْلِيُّ، وَكَانَ السَّنَةُ الزَّائِدَةُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ. إلخ. وَوَضَحَ الْحَافِظُ هَذَا الْبَسْطَ مِنْ جَانِبٍ، وَتَدْخُلُ بَعْضُ الْمَغَازِي الْمُتَقَارِبَةِ فِي بَعْضٍ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، فَكَانَ خَيْرَ جَمْعٍ بَيْنَ الْأَقْوَالِ.

ثُمَّ قَالَ: وَأَمَّا الْبُعُوثُ وَالسَّرَايَا فَعِنْدَ ابْنِ إِسْحَاقَ سِتًّا وَثَلَاثِينَ، وَعِنْدَ الْوَاقِدِيِّ ثَمَانِيًا وَأَرْبَعِينَ (كَذَا) وَحَكَى ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي التَّلْفِيحِ سِتًّا وَخَمْسِينَ، وَعِنْدَ الْمَسْعُودِيِّ سِتِّينَ، وَبَلَغَهَا شَيْخُنَا زِيَادَةً عَلَى السَّبْعِينَ، وَوَقَعَ عِنْدَ الْحَاكِمِ فِي الْإِكْلِيلِ أَنَّهَا تَزِيدُ عَلَى مِائَةٍ فَلَعَلَّهُ أَرَادَ ضَمَّ الْمَغَازِي إِلَيْهَا. اهـ. وَاخْتَارَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْمَغَازِي وَالسَّرَايَا كُلُّهَا ثَمَانُونَ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فِيهَا كُلُّهَا قِتَالٌ فَيُقَالُ إِنَّهُ تَعَالَى نَصَرَهُمْ فِيهَا، كَمَا أَنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ تَعَالَى نَصَرَهُمْ فِي كُلِّ قِتَالٍ إِمَّا نَصْرًا عَزِيزًا مُؤَزَّرًا كَامِلًا وَهُوَ الْأَكْثَرُ، وَلَسِيَّمَا بَدْرٌ وَالْخَنْدَقُ وَغَزَوَاتُ الْيَهُودِ وَالْفَتْحُ، وَإِمَّا نَصْرًا مَشُوبًا بِشَيْءٍ مِنَ التَّرَبُّيَةِ عَلَى ذُنُوبٍ اقْتَرَفُوهَا كَمَا وَقَعَ فِي أُحُدٍ إِذْ نَصَرَهُمُ اللَّهُ أَوَّلًا، ثُمَّ أَظْهَرَ الْعَدُوَّ عَلَيْهِمْ بِمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَ الْقَائِدِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْرٍ مِنْ أَهَمِّ أَوَامِرِ الْحَرْبِ، وَهُوَ حِمَايَةِ الرِّمَاطَةِ لِظُهُورِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَتَفْسِيرِهَا — وَكَمَا كَانَ فِي حُنَيْنٍ مِنَ الْهَزِيمَةِ فِي أَثْنَاءِ الْمَعْرَكَةِ، وَالنَّصْرِ الْعَزِيزِ التَّامِّ فِي آخِرِهَا، وَهُوَ مَا بَيَّنَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: وَيَوْمَ حُنَيْنٍ أَيْ: وَنَصَرَكُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ أَيْضًا، وَهُوَ وَادٍ إِلَى جَانِبِ ذِي الْمَجَازِ قَرِيبٌ مِنَ الطَّائِفِ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَكَّةَ بَضْعَةُ عَشَرَ مِيلًا مِنْ جِهَةِ عَرَفَاتٍ، هَذَا مَا اعْتَمَدَهُ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ وَغَيْرِهِ، وَقِيلَ: إِنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَكَّةَ سِتَّ لَيَالٍ. وَعَنِ الْوَاقِدِيِّ ثَلَاثَ لَيَالٍ. وَفِي رُوحِ الْمَعَانِي لِلْأَلُوسِيِّ أَنَّهُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مِنَ الطَّائِفِ. وَتُسَمَّى هَذِهِ الْغَزْوَةُ أَوْطَاسًا وَغَزْوَةَ هَوَازِنَ. وَأَوْطَاسٌ كَمَا فِي مُعْجَمِ الْبُلْدَانِ وَادٍ فِي أَرْضِ هَوَازِنَ كَانَتْ فِيهِ وَقْعَةُ حُنَيْنٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ — بَنِي هَوَازِنَ، وَمِثْلُهُ فِي الْقَامُوسِ، وَقَدْ

عَقَدَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ بَابًا لِعَزْوَةِ أُوطَاسٍ بَعْدَ سُوقِ الرِّوَايَاتِ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ. وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ التَّرْجَمَةِ: قَالَ عِيَّاضٌ: هُوَ وَادٍ فِي دَارِ هَوَازِنَ، وَهُوَ مَوْضِعُ حَرْبِ حُنَيْنٍ. اهـ. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ أَهْلِ السِّيَرِ، وَالرَّاجِحُ أَنَّ وَادِي أُوطَاسٍ غَيْرُ وَادِي حُنَيْنٍ. وَيُوضَحُ ذَلِكَ مَا ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ الْوَاقِعَةَ كَانَتْ فِي وَادِي حُنَيْنٍ، وَأَنَّ هَوَازِنَ لَمَّا انْهَزَمُوا صَارَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ إِلَى الطَّائِفِ، وَطَائِفَةٌ إِلَى بَجِيلَةَ، وَطَائِفَةٌ إِلَى أُوطَاسٍ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ — عَسْكَرًا مُقَدِّمَهُمْ أَبُو عَامِرٍ الْأَشْعَرِيُّ إِلَى مَنْ مَضَى إِلَى أُوطَاسٍ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْبَابِ، ثُمَّ تَوَجَّهَ هُوَ وَعَسَاكِرُهُ إِلَى الطَّائِفِ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ اللَّهِ الْبُكْرِيُّ: أُوطَاسٌ وَادٍ فِي دَارِ هَوَازِنَ، وَهُنَاكَ عَسَكَرُوا هُمْ وَتَقِيفُ ثُمَّ التَّقُوا بِحُنَيْنٍ اهـ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيْمِ فِي الْإِسْمَيْنِ: وَهُمَا مَوْضِعَانِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، فَسُمِّيَتِ الْغَزْوَةُ بِاسْمِ مَكَانِهَا، وَتُسَمَّى غَزْوَةً؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَتَوْا لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ — اهـ.

وَالْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ: إِنَّهَا سُمِّيَتْ بِاسْمِهِمْ؛ لِأَنَّهَا وَقَعَتْ بِأَرْضِهِمْ، وَلِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ جَمَعُوا جُمُوعَ الْعَرَبِ مِنَ الْقَبَائِلِ الْآخَرَى لِقِتَالِهِ ﷺ —، وَكَانُوا هُمُ الْمُؤَقِدِينَ لِنَارِ الْحَرْبِ وَالْمَقْصُودِينَ بِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ بِدَلٍّ مِنْ "يَوْمِ حُنَيْنٍ" أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ لَهُ، وَحَاصِلُ مَعْنَاهُ مَعَ مَا سَبَقَهُ أَنَّهُ نَصَرَكُمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ مَا كُنْتُمْ تَطْمَعُونَ فِيهَا بِالنَّصْرِ بِمَحْضِ اسْتِعْدَادِكُمْ وَقُوَّتِكُمْ؛ لِقِلَّةِ عَدَدِكُمْ وَعَتَادِكُمْ، وَنَصَرَكُمْ أَيْضًا فِي يَوْمِ حُنَيْنٍ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي أَعْجَبَتْكُمْ فِيهِ كَثْرَتُكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ عَشَرَ أَلْفًا، وَكَانَ الْكَافِرُونَ أَرْبَعَةَ أَلْفٍ فَقَطْ، فَقَالَ قَاتِلُكُمْ مُعَبَّرًا عَنْ رَأْيِ الْكَثِيرِينَ الَّذِينَ غَرَّتْهُمْ الْكَثْرَةُ: لَنْ نُغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ. وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ رَوَاةِ السِّيَرَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ — هُوَ الَّذِي قَالَ هَذَا الْقَوْلَ، وَرَدَّهُ الرَّازِيُّ بِأَنَّهُ غَيْرُ مَقُولٍ، وَتَرُدُّهُ أَيْضًا بِأَنَّ الْمَنْقُولَ الصَّحِيحَ خِلَافُهُ، وَهُوَ مَا رَوَاهُ يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ فِي زِيَادَاتِ الْمَعَارِي عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ يَوْمَ حُنَيْنٍ: لَنْ نُغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ. فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ — فَكَانَتْ الْهَزِيمَةُ. اهـ. أَيْ وَقَعَتْ بِأَسْبَابِهَا فَكَانَتْ عُقُوبَةً عَلَى هَذَا الْغُرُورِ وَالْعُجْبِ الَّذِي تُشِيرُ إِلَيْهِ الْكَلِمَةُ، وَتَرْبِيَّةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ حَتَّى لَا يَعُودُوا إِلَى الْغُرُورِ بِالْكَثْرَةِ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ إِلَّا أَحَدُ الْأَسْبَابِ الْمَادِّيَةِ الْكَثِيرَةِ لِلنُّصْرَةِ، وَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَعْنَوِيَّةِ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ أَعْظَمُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِينَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ قِيَمَةَ أَسْبَابِ النَّصْرِ الْمَعْنَوِيَّةِ كَالصَّبْرِ وَالثِّقَةِ بِاللَّهِ وَالِاتِّكَالِ عَلَيْهِ: قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢: ٢٤٩) وَكَذَلِكَ وَقَعَتْ الْهَزِيمَةُ بِأَسْبَابِهَا فِي يَوْمٍ أُحْدِثَ عُقُوبَةٌ وَتَرْبِيَّةٌ كَمَا تَقَدَّمَ فِي مَحَلِّهِ. فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا أَيْ: فَلَمْ تُكُنْ تِلْكَ الْكَثْرَةُ الَّتِي أَعْجَبَتْكُمْ وَغَرَّتْكُمْ كَافِيَةً لَانْتِصَارِكُمْ بَلْ لَمْ تَدْفَعْ عَنْكُمْ شَيْئًا مِنْ عَارِ الْغَلَبِ وَالْهَزِيمَةِ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ أَيْ: ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِرَحْبِهَا وَسَعَتِهَا فَلَمْ تَجِدُوا لَكُمْ فِيهَا مَذْهَبًا وَلَا مُلْتَحَدًا ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ أَيْ وَلَيْتُمْ ظُهُورَكُمْ لِعَدُوِّكُمْ مُدْبِرِينَ لَا تَلُوُونَ عَلَى شَيْءٍ.

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ السَّكِينَةَ: اسْمٌ لِلْحَالَةِ وَالْهَيْئَةِ النَّفْسِيَّةِ الْحَاصِلَةِ مِنَ السُّكُونِ وَالطَّمَأْنِينَةِ، وَهِيَ ضِدُّ الْاضْطِرَابِ وَالْانْزِعَاجِ، وَتُطْلَقُ كَمَا فِي الْمَصْبَاحِ عَلَى الرِّزَاةِ وَالْمَهَابَةِ وَالْوَقَارِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَفْرَغَ مِنْ سَمَاءِ عِزَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ سَكِينَتَهُ الدِّينِيَّةَ عَلَى رَسُولِهِ بَعْدَ أَنْ عَرَضَ لَهُ مَا عَرَضَ مِنَ الْأَسْفِ وَالْحُزْنِ عَلَى أَصْحَابِهِ عِنْدَ وَقُوعِ الْهَزِيمَةِ لَهُمْ، عَلَى أَنَّهُ ثَبَتَ كَالطُّودِ الرَّاسِي نَفْسًا، وَلَمْ يَزْدَدْ إِلَّا شَجَاعَةً وَإِقْدَامًا وَبَأْسًا وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ ثَبَتُوا مَعَهُ وَأَحَاطُوا بِعِغْلَتِهِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ اللَّهُامِ كَمَا يُعْلَمُ هَذَا وَذَلِكَ مِنَ الرُّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ الْآتِيَةِ، ثُمَّ عَلَى سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ فَأَذْهَبَ رَوْعَهُمْ، وَأَزَالَ حَيْرَتَهُمْ وَاضْطِرَابَهُمْ، وَعَادَ إِلَيْهِمْ مَا كَانَ زَالٍ أَوْ زُلْزَلٍ مِنْ ثَبَاتِهِمْ وَشَجَاعَتِهِمْ، وَلَاسِيَّمَا عِنْدَ مَا سَمِعُوا نِدَاءَهُ — ﷺ — وَنِدَاءَ الْعَبَّاسِ يَدْعُوهُمْ إِلَى نَبِيِّهِمْ بِأَمْرِهِ كَمَا يَأْتِي، وَإِنَّمَا قَالَ: وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ يَقُلْ " وَعَلَيْكُمْ " ؛ لِأَنَّ الْخِطَابَ لِلْجَمَاعَةِ وَفِيهِمْ بَقِيَّةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَضُعَفَاءِ الْإِيمَانِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَسَتَأْتِي شَوَاهِدُهُ فِي الرُّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ. فَيَا لِلَّهِ الْعَجَبُ مِنْ هَذِهِ الدَّقَّةِ فِي بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا أَيْ: وَأَنْزَلَ مَعَ هَذِهِ السَّكِينَةِ جُنُودًا رُوحَانِيَّةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَمْ تَرَوْهَا بِأَبْصَارِكُمْ، وَإِنَّمَا وَجَدْتُمْ أَثَرَهَا فِي قُلُوبِكُمْ، بِمَا عَادَ إِلَيْهَا مِنْ ثَبَاتِ الْجَاشِ، وَشِدَّةِ الْبَأْسِ وَعَذَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الدُّنْيَا بِكُفْرِهِمْ، مَا دَامُوا يَسْتَحِبُّونَ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَيُعَادُونَ أَهْلَهُ وَيَقَاتِلُونَهُمْ عَلَيْهِ، كَمَا وَعَدَكُمْ فِيمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ بِقَوْلِهِ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ أَوْ الْبَلَاغِ: قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ (١٤) الْآيَةِ. وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْجَزَاءِ مَنْ كَانَ حَالُهُ مِثْلَ حَالِ أُولَئِكَ الْكَافِرِينَ فِي قِتَالٍ مَنْ كَانَ عَلَى هَدْيٍ أُولَئِكَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا التَّعْذِيبِ الَّذِي يَكُونُ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْكَافِرِينَ فَيَهْدِيهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ تُحِطْ بِهِمْ خَطِيئَاتُ جَهَالَةِ الشِّرْكِ وَخُرَافَاتُهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِ أَنْفُسِهِمْ، وَلَمْ يَخْتَمْ عَلَى قُلُوبِهِمْ بِالْإِصْرَارِ عَلَى الْجُحُودِ وَالتَّكْذِيبِ، أَوْ الْجُمُودِ عَلَى مَا أَلْفُوا بِمَحْضِ التَّقْلِيدِ، وَاللَّهُ غَفُورٌ لِمَنْ يَتُوبُ عَنِ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي رَحِيمٌ بِهِمْ. وَنُكْتَةُ التَّعْبِيرِ عَنْ هَذِهِ التَّوْبَةِ، وَمَا يَتْلُوها مِنَ الْمَغْفَرَةِ وَالرَّحْمَةِ، بِصِيغَةِ الْفَعْلِ الْمُسْتَقْبَلِ " يَتُوبُ " إِعْلَامُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ مَا وَقَعَ فِي حُنَيْنٍ مِنْ إِيْمَانٍ أَكْثَرَ مِنْ بَقِيَّةِ الَّذِينَ غُلِبُوا وَعُذِّبُوا بِنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ، سَيَقَعُ مِثْلُهُ لِكُلِّ الَّذِينَ يُقْدِمُونَ عَلَى قِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ عَوْدَةِ حَالِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ، فَإِنَّ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ فِي الْجَمْعِ الْبَشَرِيِّ أَنْ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ بِمِثْلِ ذَلِكَ. وَمَا مِنْ حَرْبٍ مِنْ حُرُوبِ الْمُسْلِمِينَ الدِّينِيَّةِ الصَّحِيحَةِ إِلَّا وَكَانَ عَاقِبَتُهَا كَذَلِكَ. وَلَكَمَا صَارَ الْإِسْلَامُ جَنْسِيَّةً، وَحُرُوبُ أَهْلِهِ أَهْوَاءَ دُنْيَوِيَّةً فَقَدُوا ذَلِكَ. ١٠٣٧

إن بروز قوة الإسلام وتقريرها ليستهي قلوبا كثيرة تصد عن الإسلام الضعيف، أو الإسلام المجهول القوة والنفوذ. وإن الدعوة إلى الإسلام لتختصر نصف الطريق حين تكون الجماعة المسلمة بادية القوة، مرهوبة الجانب، عزيزة الجنب. على أن الله سبحانه وهو يربي الجماعة المسلمة بالمنهج القرآني الفريد لم يكن يعدها وهي في مكة قلة قليلة مستضعفة مطاردة، إلا وعدا واحدا: هو الجنة. ولم يكن يأمرها إلا أمرا واحدا: هو الصبر.. فلما أن صبرت وطلبت الجنة وحدها دون الغلب، آتاه الله النصر وجعل يحرضها عليه ويشفي صدورها به. ذلك أن الغلب والنصر عندئذ لم يكن لها ولكن لدينه وكلمته. وإن هي إلا ستار لقدرته ..

ثم إنه لم يكن بد أن يجاهد المسلمون المشركين كافة، وأن تنبذ عهود المشركين كافة وأن يقف المسلمون إزاءهم صفا .. لم يكن بد من ذلك لكشف النوايا والخبايا، وإزالة الأستار التي يقف خلفها من لم يتجرد للعقيدة، والأعذار التي يحتج بها من يتعاملون مع المشركين للكسب، ومن يوادونهم لآصرة من قربي أو مصلحة .. لم يكن بد من إزالة هذه الأستار والمعاذير، وإعلان المفاصلة للجميع، لينكشف الذين يخبئون في قلوبهم خبيثة، ويتخذون من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة، يلجئون منها إلى مصالحهم وروابطهم مع المشركين، في ظل العلاقات غير المتميزة أو الواضحة بين المعسكرات المختلفة: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» .

لقد كان في المجتمع المسلم - كما هو الحال عادة - فئة تجيد المداورة، وتنفذ من الأسوار. وتستنق استخدام الأعذار. وتدور من خلف الجماعة، وتتصل بخصومها استجلابا للمصلحة ولو على حساب الجماعة، مرتكنة إلى ميوعة العلاقات ووجود ثغرات في المفاصلة بين المعسكرات. فإذا وضحت المفاصلة وأعلنت قطعت الطريق على تلك الفئة، وكشفت المداخل والمسارب للأنظار.

وإنه لمن مصلحة الجماعة، ومن مصلحة العقيدة، أن تهتك الأستار وتكشف الولايج، وتعرف المداخل، فيمتاز المكافحون المخلصون، ويكشف المداورون الملتئون، ويعرف الناس كلا الفريقين على حقيقته، وإن كان الله يعلمهم من قبل: «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» .. ولكنه سبحانه يحاسب الناس على ما يتكشف من حقيقتهم بفعالهم وسلوكهم. وكذلك جرت سنته بالابتلاء لينكشف الخبيء وتتميز الصفوف، وتتمحص القلوب. ولا يكون ذلك كما يكون بالشدائد والتكاليف والحن والابتلاءات. ١٠٣٨.



الفهرس العام

٣	الباب الأول.....
٣	شروط الاستغلاف والتمكين في هذه الأرض
٣	١ - الدلالة اللغوية لكلمة "التمكين":
٤	٢- التمكين في اصطلاح القرآن الكريم:
٤	أولاً: التمكين بمعنى الملك والسلطان:
٥	ثانياً: التمكين بمعنى المترلة عند الملك:
٥	ثالثاً: التمكين بمعنى التهيئة:
٥	رابعاً: التمكين في نعم الدنيا ومعاشها:
٦	خامساً: التمكين للدين:
٦	سادساً: التمكين بمعنى الظفر:
٦	سابعاً: التمكين بمعنى الثبوت والاستقرار:
٦	٣- وعد القرآن بالتمكين لدعوة الحق:
٧	٤- وعد الرسل بالتمكين ومزاياه:
٨	٥- وعد المؤمنين بالتمكين ومزاياه:
١٠	٦- قتل الأنبياء والوعد بالتمكين لهم:
١١	الأولى: أنه لم يقتل نبي من الأنبياء الذين أمروا بالقتال أبداً:
١٢	الثانية: الانتصار من قتلة الأنبياء:
١٣	الثالثة: قتل النبي ليس قتلاً لدعوته وإنما لشخصه فقط:
١٤	٧- أن تعمله جماعة من البشر وتضعي من أجله بالغالي والنفيس:
١٩	٨- أن يعي المسلمون معنى لا إله إلا الله:
٢٦	٩- الجماعة المناصرة:
٢٩	١٠ - اتباع الطريق الصحيح لإقامة الدولة الإسلامية
٣١	الباب الثاني.....
٣١	عوامل النصر الخاصة في القرآن والسنة
٣١	١- الإيمان المطلق:
٣٦	٢- الإيمان العميق بالله تعالى:
٤٢	٣- العمل الصالح:
٤٦	٤- إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

٥١	الاعتصامُ بعجل الله ووحدة الصف وعدم الفرقة :	٥-
٥٨	يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين :	٦-
٦٥	بالجهاد في سبيل الله تلك الفريضة الشاقة	٧-
٦٧	لا يوادون من حادَّ الله ورسوله :	٨-
٧٠	الإيثارُ :	٩-
٧٣	الرحمةُ الشاملةُ :	١٠-
٨٢	الإصلاح بين المسلمين إذا تناعوا :	١١-
٨٥	السمعُ والطاعة والإنفاق في سبيل الله :	١٢-
٨٧	تغييرُ ما بالنفس من شر إلى خير :	١٣-
٨٩	التواصي بالحق والتواصي بالصبر :	١٤-
٩٨	الخوفُ من الوعيد :	١٥-
١٠٤	التوكل على الله تعالى في شئون حياتهم	١٦ -
١١١	الهجرة في الله :	١٧ -
١١٥	الإيمان بالقضاء والقدر :	١٨ -
١١٧	أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل :	١٩-
١٢٢	القيام بأعمال البر كلها	٢٠-
١٢٦	نصرة دين الله :	٢١-
١٣٠	الإيمانُ بالعقُّ :	٢٢-
١٣٣	الثباتُ عند لقاء العدو والإكثار من ذكر الله ...	٢٣-
١٤٤	الاعتزاز بالله ورسوله :	٢٤ -
١٥٢	الرد على فقهاء الهزيمة :	
١٦١	الإنابةُ إلى الله :	٢٥-
١٦٣	أن يكونوا جنداً للرحمن :	٢٦-
١٦٤	بذلُ الجهد الكامل لهداية الكفار واليأس من إصلاحهم :	٢٧-
١٦٧	الصبرُ على أذى الكفار في حال الضعف :	٢٨-
١٧٤	الصبر على البلاء :	٢٩-
١٧٨	الاستغاثةُ بالله تعالى :	٣٠-
١٨٢	عدمُ الخوف إلا من الله :	٣١-
١٨٨	عدم الفرار من المعركة :	٣٢-
١٩٠	شعورهم بأنهم مظلومون وسعيهم لإزالة الظلم :	٣٣-

٣٤-	اليقينُ بوعد الله تعالى :	١٩٥
٣٥-	وجوبُ الإعداد والاستعداد للمعركة :	٢١٠
	أنواع الإعداد:	٢١٣
	أ- إعداد الجندي المؤمن والقيادة المؤمنة:	٢١٤
	ب- الأمر الآخر في إعداد العدة إعداد العدة العسكرية:	٢١٤
	ت- ومن العدة أيضاً: إعداد الأموال اللازمة:	٢١٧
	ث- ومن إعداد العدة: ألا يغفل المسلمون عن معرفة عدوهم وعن قدراته:	٢١٧
	ج- أن المقصود من إعداد العدة في الإسلام إنما هو إرهاب الأعداء حتى لا يفكروا في الاعتداء على المسلمين	٢١٩
	ما المقصود بالإعداد للجهاد؟	٢١٩
	الرد على الألباني في اعتماده على التربية فقط دون الجهاد:	٢٣٠
٣٦-	بذلُ الغالي والنفيس في سبيل الله :	٢٣١
٣٧-	النظرُ في السنن الربانية :	٢٣٧
٣٨-	وجوبُ التعلُّق بالمبدأ وليس بالأشخاص :	٢٤٤
٣٩-	الاقتداءُ بالصالحين من السلف الصالح :	٢٥٠
٤٠-	عدم التطلع إلى أية لعاعة من لعاعات الدنيا	٢٥٧
٤١-	أن يكون القتال في سبيل الله وانقاذ المستضعفين ليس إلا	٢٥٩
٤٢-	عدمُ الخوف إلا من الله وحده مهما بلغت الشدائد	٢٦٢
٤٣-	يَقِينُهُمْ - مهما كانوا ضعفاء - أنهم على الحق وعدوهم على الباطل :	٢٦٧
٤٤-	كون الأمة في مستوى النصر بإمكاناتها بقدراتها بعزائمها ونياتها :	٢٧٠
٤٥-	عدمُ الاكتراث بالذين لا يوقتون :	٢٧٠
٤٦-	وجوبُ الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى	٢٧٢
٤٧-	وجوبُ الاستعانة بالصبر والصلاة	٢٧٥
٤٨-	تحملُ الأذى الشديد في سبيل الله تعالى وعدمُ الوهن في طلب الكفار	٢٧٨
٤٩-	أن يكون القتال في سبيل الله :	٢٨٠
٥٠-	المواظبةُ على طاعة الله بكل أشكالها في السرِّ والعلن	٢٨٤
٥١-	وجوبُ التحلي بكمال الأخلاق :	٢٨٧
٥٢-	المسارعةُ بالتوبة من الذنوب والآثام	٢٨٩
٥٣-	الرجوءُ إلى الله تعالى ولا سيما عند الشدائد :	٢٩٤
٥٤-	إيثارُ حبِّ الله ورسوله على كل شيء	٣٠٨

٣١٣	لا يلهيهم شيء عن أداء رسالتهم في الأرض	٥٥-
٣١٧	تلاوة كتاب الله حق تلاوته	٥٦-
٣٢٠	التجارة التي تنجي من العذاب الأليم:	٥٧-
٣٢٣	أن يكونوا أنصاراً لله:	٥٨-
٣٢٥	إقامة العدل بكل أشكاله وصوره	٥٩-
٣٣٠	الحكم بين الناس بالحق	٦٠-
٣٣١	إقامة الحدود على الجميع:	٦١-
٣٣٨	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٦٢-
٣٤٥	عدم الاغترار بالحياة الدنيا	٦٣-
٣٥٢	اتباع شرع الله:	٦٤-
٣٦٦	تحكيم الله والرسول في كل شئون حياتنا	٦٦-
٣٧٥	الاستجابة لله وللرسول	٦٨-
٣٨٠	لا بد من انتفاضة العقيدة	٦٩-
٣٩٣	عدم الردة مهما أصاب المسلم من مكروه	٧٠-
٣٩٧	وجوب التعلق بالرسول والرسالة	٧١-
٤٠٩	بيان ثواب الشهادة في سبيل الله:	٧٢-
٤١٥	أخذ الحيطة والحذر من المنافقين والمثبطين:	٧٣-
٤١٨	عدم موالة الكفار والفجار	٧٤-
٤٢١	أن يستحضروا فضل الله تعالى عليهم:	٧٥-
٤٢٣	أن يكون القرآن الكريم مصدر التوجيه للحياة:	٧٦-
٤٢٨	اليقين بوعد الله:	٧٧-
٤٣٠	وجوب موالة المجاهدين ونصرتهم:	٧٨-
٤٤٦	أن يكونوا من المتقين:	٧٩-
٤٤٧	إرادة إحدى الحسنين:	٨٠-
٤٤٩	البداية بقتال الأقربين من الكفار والفجار:	٨١-
٤٦٣	التحرر من الدينونة لغير الله:	٨٢-
٤٧٧	الأخذ بفقهاء الحركة لا فقهاء الأوراق:	٨٣-
٤٨٦	من صفات جيل النصر المنشود:	٨٤-
٥٠٦	لا بد من الفتنة:	٨٥-

٥١٤	الصبر لحكم الله :	٨٦-
٥١٩	التطلع إلى ما عند الله دون سواه :	٨٧-
٥٢٢	التسبيح والاستغفار قبل وبعد النصر :	٨٨-
٥٢٧	تحمل المشاق في سبيل الله :	٨٩-
٥٣١	أهمية الحرب النفسية في إحراز النصر :	٩٠-
٥٣٧	الباب الثالث	
٥٣٧	عوامل الهزيمة الخاصة في القرآن والسنة	
٥٣٧	١. الانحراف عن الصراط المستقيم :	
٥٣٩	٢. عدم الإنفاق في سبيل الله :	
٥٥٠	٣. أكل الربا :	
٥٦٢	٤. انتشار الربا والزنا :	
٥٦٢	٥. الركون إلى الدنيا :	
٥٧٢	٦. حب الدنيا وكراهية الموت :	
٥٧٤	٧. إثارة الدنيا ومتاعها الزائل على الآخرة :	
٥٧٨	٨. الركون إلى الظالمين :	
٥٨٠	٩. ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :	
٥٩٨	١٠. الترف :	
٦٠٧	١١. عدم الإنابة إلى الله :	
٦٠٨	١٢. ارتكاب خمس فواحش :	
٦١٠	١٣. ترك الجهاد في سبيل الله :	
٦٢٢	١٤. الهزيمة النفسية	
٦٣٣	١٥. ارتكاب المعاصي التي تؤدي إلى ضرب الذلة على الأمة المؤمنة ضرباً مؤيداً :	
٦٣٤	١٦. التنازع والخصام على الدنيا والعلو في الأرض :	
٦٤٠	١٧. أن يكون بأسنا بيننا :	
٦٤٤	١٨. الغفلة عن أسلحتنا وأمتعتنا :	
٦٤٦	١٩. تولي الكفار والثقة بوعودهم :	
٦٥٦	٢٠. تولي المنافقين والتهاون معهم :	
٦٦٣	٢١. الظلم بكل أشكاله :	
٦٧٤	٢٢. كثرة الفساد والإفساد :	
٦٨٨	لا ينجو من عذاب الله إلا الذين كانوا ينهاون عن الفساد	

٢٣.	كثرة الذنوب والمعاصي :	٦٩١
٢٤.	السخرية واللمز والتناوب بالألقاب	٦٩٩
٢٥.	اتباع الشهوات :	٧٠٢
٢٦.	التحاكم إلى الطاغوت (مهما كان نوعه) :	٧٠٥
٢٧.	التقدم على الله ورسوله ﷺ بقول أو فعل :	٧١٨
٢٨.	عدم تحكيم الرسول ﷺ في شئون حياتنا :	٧٢١
٢٩.	تولي أعداء الله ورسوله ﷺ من الكفار والفجار	٧٢٦
٣٠.	تولي اليهود والنصارى :	٧٢٨
٣١.	عدم تحكيم شرع الله تعالى في شئون حياتنا :	٧٤٤
٣٢.	الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض :	٧٦٠
٣٣.	تضييع الأمانة :	٧٦٢
٣٤.	الغلول :	٧٦٤
٣٥.	التلاعب بإقامة الحدود أو تركها :	٧٦٩
٣٦.	عدم التراحم :	٧٧١
٣٧.	نقض العهود والمواثيق :	٧٧٢
٣٨.	الغدر :	٧٨٢
٣٩.	الخيانة :	٧٨٥
٤٠.	إيثار حب الأشياء على حب الله ورسوله	٧٩٥
٤١.	الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف	٧٩٨
٤٢.	الاستهزاء بدين الله أو رسله :	٨٠٢
٤٣.	الجهود بآيات الله تعالى :	٨٠٦
٤٤.	البطر في المعيشة :	٨١١
٤٥.	الكفر بآيات الله وقتل النبيين بغير حق	٨١٥
٤٦.	الفشل والتنازع في الأمر	٨٢٠
٤٧.	عدم شكر النعم ولا سيما بعد النصر :	٨٢٨
٤٨.	الاغترار بالعدد والعدة :	٨٣٤